



عزیز علی المصری وصحبه

بناة الوحدة العربية والاسلامية

١٩٠٠ - ١٩١٦

الجزء الأول

صبری أبوالمجد



0030288

Bibliotheca Alexandrina

1604

عزيز على المصرى وصحبه
بناء الوحدة العربية والإسلامية
١٩٠٠ - ١٩١٦

962,040092
ب.ب. ٨
C. No

الجزء الأول

بقلم
صبرى أبوالمجد

269.065
092

أ ب ج

ع



المكتبة الوطنية المصرية المسماة للكتاب

١٩٩٠

الاخراج الفنى : د. د. محمد علي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

● الإهداء

★ الى كل من دعا ، واتبع الدعوة بالعمل الجاد لبناء صرح القومية العربية ، لا فى أوائل سنوات القرن العشرين وحسب ، وانما لسنوات ، بل لقرون سبقت •

★ الى أولئك الذين واجهوا بقلوبهم ، وصدورهم - وهم العزل من كل سلاح الا سلاح الايمان - رصاص الحكم العثماني الفاسم ودباباته وطائراته •

★ الى ارواح اول « وجبة » من الشهداء الاخيار الاطهار الأبرار ، الذين دفع بهم السفاح جمال باشا الى أعواد المشائق ، فاستقبلوا الموت فرحين جذلين ، لأنهم عند ربهم يرزقون •

★ الى ارواح •• عبد الكريم الخليل ، عمر حمد ، نايف تالو ، محمد نجا العجم ، جورجى موسى الحداد ، جلال الدين البخارى ، رفيق العظم ، عبد الوهاب المليجى (الانكليزى) ، أمين لطفى الحافظ ، رشادى الشمعة ، نور القاضى ، توفيق زريق ، على الارمنازى ، باترو باولى ، توفيق البساط ، رفيق رزق سلوم ، عبد القادر الخرسا ، حافظ بك السعيد ، عبد القادر الجزائرى الصغير ، محمد الشنطى ، محمد ومحمود الحمصانى ، عبد الفتى العريس ، شكرى بك العسلى ، سعيد عقل ، أحمد طيارة ، عبد الحميد الزهراوى ، شفيق المؤيد ، عمر بن مصطفى حمد ، عارف الشهابى ، سيف الدين الخطيب ، سليم محمد سعيد الجزائرى ، على حاجى عمر ، وغيرهم • وغيرهم ممن أشعلوا - باعدامهم - نار الثورة العربية •

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

الاخراج الفنى : د. د. محمد علي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

● الإهداء

★ الى كل من دعا ، واتبع الدعوة بالعمل الجاد لبناء صرح القومية العربية ، لا فى أوائل سنوات القرن العشرين وحسب ، وانما لسنوات ، بل لقرون سبقت .

★ الى أولئك الذين واجهوا بقلوبهم ، وصدورهم - وهم العزل من كل سلاح الا سلاح الايمان - رصاص الحكم العثماني الغاشم ودباباته وطائراته .

★ الى ارواح اول « وجبة » من الشهداء الاخيار الأطهار الأبرار ، الذين دفع بهم السفاح جمال باشا الى أعواد المشانق ، فاستقبلوا الموت فرحين جذلين ، لأنهم عند ربهم يرزقون .

★ الى ارواح .. عبد الكريم الخليل ، عمر حمد ، نايف تلو ، محمد نجا العجم ، جورجى موسى الحداد ، جلال الدين البخارى ، رفيق العظم ، عبد الوهاب المليجى (الانكليزى) ، أمين لطفى الحافظ ، رشدى الشمعة ، نور القاضى ، توفيق زريق ، على الارمنازى ، باترو باولى ، توفيق البساط ، رفيق رزق سلوم ، عبد القادر الخرسا ، حافظ بك السعيد ، عبد القادر الجزائرى الصغير ، محمد الشنطى ، محمد ومحمود الحمصانى ، عبد الغنى العريس ، شكرى بك العسلى ، سعيد عقل ، أحمد طيارة ، عبد الحميد الزهراوى ، شفيق المؤيد ، عمر بن مصطفى حمد ، عارف الشهابى ، سيف الدين الخطيب ، سليم محمد سعيد الجزائرى ، على حاجى عمر ، وغيرهم .
وغيرهم ممن أشعلوا - باعدامهم - نار الثورة العربية .

☆ الى عزيز على المصرى وصحبه ، الذين حاربوا فانتصروا ، أو انهزموا :
- دفاعا عن الاسلام - فى برقة وطرابلس واليمن ، وفلسطين
وشبه الجزيرة العربية والعراق وسورية والمغرب العربى ومصر ،
وكانوا فى جهادهم ونضالهم نعم الجنود : يعطون ولا يأخذون ،
يبذلون ارواحهم رخيصة فى سبيل الله والوطن ..

الى هؤلاء ، وهؤلاء ممن رووا بسمائهم الذكيسة ارض الوطن من
اقصاها الى اقصاها ..

أهدى هذا الكتاب الذى يعيدنا الى عصور خلت ، كان الاستشهاد
فى سبيل الله والوطن من الأمور العادية الطبيعية أهم ما يحرص
عليه الآباء والأبناء .

ولعلنى اكون بذلك الكتاب قد اوفيت واجبا على تجاه أولئك الرواد
الأوائل الذين مهدوا لنا طريق الحرية والاستقلال والامل .

والله ولى التوفيق ،،

صبرى أبو المجد

عزيز المصري، أو الثورة المستمرة

(مدخل عام .. وهام)

أول مرة رأيت فيها عزيز على المصري باشا كانت في محكمة استئناف مصر في أوائل مارس ١٩٤٥ وكنا وقتئذ متهمين بالاشتراك في قضية مقتل د . أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء وقتذاك ، أو كنا - بمعنى أدق - من المقبوض عليهم :

وكان عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام الذي يتولى التحقيق معنا يحترم عزيز باشا المصري ويوقره ، فلا يجلس الطوير باشا إلا إذا جلس عزيز باشا .

وكان يقوم من كرسيه إذا ما قام عزيز على المصري باشا من كرسيه . وكان عزيز على المصري وقتذاك ثائرا للغاية يتهم النائب العام بالخضوع لسيطرة الحكومة في اعتقال هذا العدد الوفير من المتهمين بالرغم من أن محمود العيسوي - قاتل أحمد ماهر - كان معترفا بالجناية . وكان يؤكد في كل مناسبة أنه لا صلة لأحد غيره بالتهمة .

كان الطوير باشا يخشى باستمرار حدة لسان عزيز على المصري ويتحاشى باستمرار ثورته . . . ولذلك فإن التحقيق مع عزيز على المصري لم يستغرق وقتا طويلا . كانت كل الأسئلة تنصب على ما إذا كانت هناك علاقة تربط عزيز على المصري باشا بمحمود العيسوي . .

يومها لم أستطع التحدث الى عزيز على المصري إذ كانت التعليمات صريحة وواضحة ألا يتبادل المتهمون أو المقبوض عليهم الحديث أو حتى الإشارة .

غير أن الصورة التي انطبعت في ذهني وقلبي عن عزيز على المصري
أنه بطل دائما حتى عندما يساق الى التحقيق مخفورا برجال البوليس
فان البطل يبقى بطلا .

وتمنيت بعد أن خرجت من السجن أن أراه على أفراد ، أو مع بعض
الشباب الذين كانوا يترددون على بيته المتواضع في المطرية .

وذهبنا اليه في مجموعة تضم بعض قيادات الجامعة ، نسأله الرأي
فيما يجب علينا اتخاذه من خطوات عملية لتحقيق آمال الشعب في الوحدة
- وحدة وادي النيل - والاستقلال .

يومها نحدث إلينا عزيز على المصري بلهجة عنيفة تختلف الى حد
كبير عن لهجة من كنا نلتقى بهم من الزعماء والفادة ، وبلغة تختلف أيضا
عن لغتهم .

انتقد الحكام المصريين بشدة ووصفهم بأنهم أذئاب للاحتلال والسراي،
لا يفكرون الا بعقلية المحتل ، ولا يعملون الا وفق ارادته وتعليماته . .
وصف يومها الملك فاروق - وكان عزيز يوما ما رائدا له عندما كان يتعلم
في لندن واختلف مع والده الملك أحمد فؤاد بشأن تعليمه وتربيته - وصفه
يومئذ بالفسق والفجور ، والخبل والخلل العقلي .

وأثار حماسنا الى درجة كبيرة .

وتحدث حديثا عنيفاً عن الاحتلال البريطاني لمصر وجرائمه ومآسيه .
وردد كلمة لحافظ ومضان باشا رئيس الحزب الوطني « اننا لن
نستطيع اخراج الانجليز من أرضنا ما لم نخرجهم من عقولنا وأفكارنا
وأذهاننا .

لم يترك عزيز على المصري يومها حزبا الا انتقده نقدا عنيفا .

ولم يترك زعيما سياسيا من زعمائنا الا وجه اليه أبشع التهم .

وذهبت اليه في اليوم التالي بعد أن أخذت منه موعدا باسم مستعار :
أسأله : لماذا يتكلم بمنتهى الصراحة والوضوح مع شباب يراهم لأول مرة .
ألا يحتمل - مثلا - أن يكون البوليس قد دس بينهم بعض أذئاب
البوليس السياسي ؟

وضحك عزيز على المصري وقتئذ لسذاجتي وقال لي : لا تخف أنا
أعرف ذلك حق المعرفة ، أعرف أن البوليس السياسي قد اشترى بكل
خسة ونذالة بعض الشباب لبتجسسوا على زملائهم ، أغراهم بالمال
والشقق الفاخرة والعربات القيمة ، كما اشترى بعض من نطلق عليهم

زعماء وقادة ، ولكن كل هؤلاء يابنى - قلة ضئيلة الى جانب الغالبية العظمى من الشباب الذى لم يفسد ولن يفسد ، وهذه الغالبية تمثل هذا الشعب العظيم أصدق تمثيل .

وكان من بين ما قاله يومذاك - أيضا - عزيز على المصرى باشا : انا لا أقول هذا الكلام لمن ألتقى بهم من الشباب لأول مرة ، وإنما أقوله للزعماء والقادة والوزراء وكبار الموظفين ، وذلك لكى ينقلوه الى ساداتهم فى قصر عابدين وفى السفارة البريطانية بجاردن سيتى .

اننا يجب ان نصرخ بأعلى أصواتنا ، يجب ان نعبر عن ارادتنا بقوة وعننف ، لقد فسد الحكم من القمة الى القاعدة ، ووجب علينا ان نسعى بكل قوة بما فيها قوة السلاح لتغيير نظام الحكم .

★ ★ ★

وعندما فكرنا فى أوائل عام ١٩٤٧ فى حمل السلاح دفاعا عن مصر وفلسطين ، ذهبنا اليه نسأله الرأى والمشورة ، ذلك أننا كقيادات جامعية قد مزقتنا الحزبية وانهكتنا الخلافات السياسية .

وكان عزيز على المصرى صريحا واضحا - كعادته - اذ قال لنا : « اذا كنتم مستعدون لحمل السلاح فعلا فأنا فى مقدمة من يعمل على تحقيق رغبتكم من الغد » .

قلنا : والمدرّبون ؟ قال : حاجة بسيطة . قلنا : والسلاح ؟ قال : حاجة أبسط .

ان فى كل قرية مصرية عشرات من قطع السلاح وفى كل مدينة المئات بل الآلاف من ذلك السلاح ويمكن شراؤها بل يمكن الحصول عليها بدون شراء .

★ ★ ★

وفى اليوم التالى مباشرة ، كنا عشرة شباب فى دار جمعية الشبان المسلمين نتدرب على حمل السلاح يدرّبنا الصاغ محمود لبيب وهو واحد من خيرة ضباطنا الذين لعبوا أدوارا هامة فى حرب طرابلس بليبيا وكان يطل علينا من شرفة الطابق الثانى بجمعية الشبان المسلمين ، عزيز على المصرى وصالح حرب .

وبعد أن انتهى الدرس الأول استقبلنا كل من صالح حرب وعزيز
المصري الذي قال لنا : ليست العبرة بالسلاح الحديث وليست العبرة
بكثرة التدريب ، ولكن العبرة بالقلب الذي يحمل السلاح ، صحيح أن
اليدهى التى تحمل السلاح ، ولكن العقل هو الذى يفكر ، والقلب هو
الذى يمثل وحده بالايمان ، .

وكان بعض الشبان من الضباط الاحتياطيين فى الجيش المصرى قد
انضموا الينا لتدريبننا بعد ان تضاعفت أعدادنا .

★ ★ ★

ومما يجدر بنا أن نذكره أن حملتنا للتدريب على حمل السلاح قد
لقيت استجابة سريعة من كثير من طوائف الشباب .

وكان لتلك الحملة صداها فى كثير من الدوائر السياسية الأجنبية
وخاصة الدوائر البريطانية والأمريكية ، وقد حرص مندوب وكالة
الاسوشيتد برس فى القاهرة - الزميل فيما بعد - محمد وجدى يرحمه
الله أن يجرى معى حديثا صحفيا عن فكرة التدريب والهدف منها .

وقد نشر هذا الحديث فى كثير من أرجاء العالم بصورة بارزة .

بل ان جريدة المصرى نشرته فى مكان بارز فى أحد أعدادها ، وكنت
وقتئذ الأمين العام لجبهة تحرير الوادى .

وعندما بدأت مضايقات البوليس لنا ، نقلنا التدريب الى مكان ناء
فى صحراء الهرم .

وكنا نحرص على تغيير الأماكن حتى لا يدهمنا البوليس .

وقد اقتدت بنا بعض الجمعيات والتيارات السياسية وراحت تدرب
أعضائها ، الأمر الذى نقل الفكرة من تدريب شباب قومى وطنى لا ينتمى
الى أحزاب سياسية الى تدريب شباب حزبى ، الأمر الذى ألحق بالفكرة
- ولما ترسخ تماما بعد - الفشل الذريع .

★ ★ ★

وكنيت قد فكرت وقتذاك - فى عامى ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ - فى إصدار
كتيبات صغيرة لا تزيد عدد صفحات الكتيب الواحد عن ثمانين صفحة
أقدم فيها بعض الشخصيات المصرية التاريخية من كل الأحزاب والاتجاهات
على أن يجرى الحديث فى تلك الكتيبات عن الايجابيات دون السلبيات .

فقد كنا وقتذاك نحرص على أن نبني أنفسنا بناء وطنيا قوميا
لا يعرف التحزب ولا التعصب .

وقد اخترت شخصية محمد محمود باشا لتكون موضوعا للكتيب
الأول ، رغم أنني كنت أعارضه في السياسة ولا أؤمن بمبادئ حزب
« الأحرار الدستوريين » ، ثم فكرت في شخصية أحمد ماهر ، وطلعت
حزب . وكان الوحيد الذي اخترته من بين الأحياء ليكون موضوعا لواحد
من تلك الكتيبات هو عزيز المصري .

وقد فاتحته في الموضوع فرحب علي أن أكتب عنه وزملائه ، وأركر
على كبريات الأحداث في عصره .

وتكررت اللقاءات بعزيز المصري ، وكلما ازداد عدد اللقاءات ، كلما
تضاعف إيماني وأعجابي بعظمة هذا الرجل وشجاعته ونقاء نفسه .

واذكر أنه قال لي ذات يوم : وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال
في سبيل استكمال تكوينها - أمنيته الحقيقية أن تقوم ثورة شعبية
في البلاد بقيادة الجيش الوطني المصري .

لقد نذرت نفسي أكثر من نصف قرن لتلك الثورة ، وكنت أعمل
لها في كل مكان حتى عندما انتدبت للقضاء على ثورة البلغار ، كنت أخدم
تلك الثورة رغم أنني ذهبت وجيشي للقضاء عليها .

ولا يزال بعض الأخوة البلغار ، وبعض أبناء البلقان يرسلون لي كل
عام عن طريق سفرائهم في القاهرة هدايا تذكارية اعترافا بدوري المتواضع
في تشجيع الثورة في بلادهم .

لقد كان ضباط الخلافة العثمانية يقتلون ويذبحون كل من يقع
تحت أيديهم ، كما كانوا يهدمون كل شيء في طريقهم .

أما أنا فقد كنت أعرف حقيقة مشاعرهم كشعب ينشد الاستقلال ،
كنت أحفظ النظام في الوقت الذي أتبع فيه - أنا نفسي - للشعب فرصة
التعبير عن آرائه .

ومرة كان عزيز علي المصري متجليا وهو يتحدث عن ثورة البلغار
فروى لي قصة غرامه بفتاة بلغارية كانت على درجة كبيرة من الجمال
اسمها مترو ، وقد أغرمت به وأغرم بها .
وكان يلقاها قرب منزلها على قمة جبل عال .

ومرة أهدي إليها كمية من العنب ، فلما اقتربت من الهدية قالت له صاحبة : ألا ترى أن العنب الذي أهديتني إياه هو من مزرعتنا وقد حصلت عليه بدون ثمن ، وها أنت تهديه لي بلا ثمن » .

وتصاحبا .

ومرة ذهب للقائها فلم يجدها وإنما وجد والدها الذي كان مخرجاً للغاية لأن ابنته تحب القائد التركي الذي يحتل بلاده ، وقد قال الأب لعزیز علی بصراحة : أعرف أنك جئت لتبحث عن ابنتي ولكنها ليست هنا فقد خرجت للقاء بعض صديقاتها » .

ولم تكن مترو قد ذهبت للقاء صديقاتها كما قال الأب ، وإنما كانت قد اختفت إلى الأبد ، لأن بعض مواطنيها ظنوا بها السوء فقاموا بقتلها .

ولم يكن الأب بقادر على أن يروي لعزیز علی المصري قصة مقتل ابنته خوفاً من أن يقوم عزيز المصري بالانتقام من الأب ومن البلغار .

وعندما كان عزيز على المصري في التسعين من عمره ، لم يكن يذكر مترو إلا وتمتلي عينيه بالدموع وكان يردد باستمرار « ما الحب إلا للحبيب الأول » .

ذلك أن مترو - كما روى لي عزيز المصري - كانت حبه الأول وحبه الأخير . لقد كان الرجل بحق عظيماً في كل شيء ، في حربه وفي سلمه ، في هدوئه وفي ثورته ، في فكره وفي عمله ، حتى في حبه الأول والأخير كان عظيماً عظيماً .

أما عن قصة زواج عزيز على المصري . . فقد رواها لي ذات مرة عندما قال : انه كان يعيش في بنسيون اسمه جلواز .

وكانت صاحبة البنسيون تعتمد أن يجلس على موائد الفطور أو الغداء أو العشاء مجموعات من النزلاء ، ومرة سألتها صاحبة البنسيون أن كان يوافق على أن تجلس على المائدة سيده أمريكية تزور مصر فرحب بذلك .

ومنذ لقائه الأول بتلك السيدة بدأ الاهتمام المشترك والاعجاب المتبادل . . ولا نقول الحب . . .

وفي بغداد التقت تلك السيدة بصادفة بعزیز علی المصري فاتفقا على الزواج ، وكان أهل تلك السيدة قد عارضوا ذلك الزواج .

وقد عاشت تلك السيدة بضع سنوات مع عزيز مصرى ثم عادت الى أمريكا مع ابنها منه عمر .

وقد أبى عزيز على المصرى الفارس الا أن يحل زوجته من وعدها والا أن يعطيها الحرية فى الانفصال منه حتى لا تشعر بألم ، وقد كتب اليها خطابا بهذا المعنى ناقش فيه علاقتها بأسرتها وعلاقتها به مؤكدا أنه باق على إخلاصه لها ، وأنه لم يرض أن يمنحها حرية الانفصال إلا لأنه يخشى أن تسوء علاقتها بأهلها .

وقد ردت عليه قائلة : لقد آمنت بكل حرف كتبته ولم أكن أبدا أفكر فى أن ترسل لى هذه الورقة ، .

ولم تتزوج من بعده بل وقفت كل جهودها على تربية ابنها . وقد سافر عزيز المصرى الى الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل عام ١٩٥٦ لرؤية ولده عمر .

وكان قد بلغ - وقتذاك - التاسعة عشرة من عمره وكان عزيز المصرى قبل تلك السفرة قد عاوده مرض قديم عجز عن علاجه .

فلما ذهب لرؤية ابنه وزوجته شفى تماما من هذا المرض .

ثم عاوده المرض بعد أن عاد الى مصر من سان فرانسيسكو حيث تقيم الزوجة والابن وكان عزيز قبل ذلك بعامين - عندما كان سفيرا لمصر فى الاتحاد السوفييتى - قد دعا ابنه هو وأمه فى مصر .

وكان عمر وقتذاك يعمل ضابطا فى الجيش الأمريكى تخصص فى عمليات الرادار وقد اشترك فى الحرب الكورية وهو - عمر - يحمل الجنسية الأمريكية .

كانت سعادة عزيز على المصرى عندما يلتقى بابنه فى القاهرة أو فى سان فرانسيسكو أو شيكاغو سعادة بالغة ، ذلك أنه اكتشف ان هناك صلة تربطه بالعالم الذى نعيش فيه تتمثل فى عمر . وكان مهر زوجته روبيتين هندية فى ١٤ قرشا وكان الزواج بالقاهرة عام ١٩٢٣ .

وعندما عملت بالصحافة ، كنت أتحين الفرص - كما هى عادتنا كمحررين فى المصور - لسؤال عزيز على المصرى عن رأيه فى بعض الأمور السياسية وما يراه من حلول لها .

وكنت - وكان هو أيضا - على ثقة شبه مطلقة من أن معظم أحاديثه معى لن تنشر لجراتها ، وخروجها على المؤلف .

وكنيت أستاذي في أن أسجل تلك الآراء في مذكراتي التي كنت أودعها عند بعض الأصدقاء الذين لا يعرف اليوليس السياسي الطريق اليهم .

★ ★ ★

وبعد أن لقي عزيز على المصري ربه ، فكرت كعادتي ، في تخليد ذكرى العظماء التاريخيين ، في أن نخصص لعزيز عددا خاصا من المصور استغرق من جهدي الشيء الكثير ، حتى لقد طالت فترة الاعداد لذلك العدد الى أكثر من عام .

رحت أجمع كل ما لدى عنه من أوراق ومذكرات . بدأت أتصل بأصدقائه وحواريه واستمع منهم الى ما يحفظونه عن عزيز المصري .

وكنيت - مثلا - ولأيام طويلة - أذهب الى المستشفى الإيطالي بالعباسية لأستمع الى الأخ الفنان عبد القادر رزق الذي اعتقل عنده عزيز المصري بعد أن اختفى عدة أسابيع لفشل هربه الى الخارج وسقوط الطائرة التي كانت تقله بالقرب من طوخ .

ثم أثقلت كثيرا على اللواء سعيد الألفي وزوجته الفنانة اعتماد الطرابلسي لكي أخرج ما عندهما من معلومات عن عزيز على المصري .

وكانا - اعتماد وسعيد - أوفى أصدقاء عزيز على المصري حتى يوم الوفاة .

ثم اتصلت بكثير من الأصدقاء الذين أعرف صلاتهم الوثيقة بعزيز على المصري : د محمود دياب ، كمال يعقوب ، أحمد كمال الدين المنسي وآخرين وأخريات .

ثم استكتبت مقالا من الأستاذ فتحى رضوان الذى عمل - متطوعا - لفترة من الفترات محاميا عن عزيز على المصري .

وقد فوجئت بأن المقال تضمن اتهامات خطيرة لعزيز على المصري من محاميه .

واتصلت بالأستاذ فتحى رضوان أكثر من مرة لأناقشه فيما أبداه فى مقاله من آراء تتعلق بعزيز على المصري .

وعبثا حاولت اقناعه بحذف تلك الاتهامات من المقال مؤكدا له اننى لا يمكن أبدا أن أوافق كمشرف على هذا العدد الخاص عن عزيز على المصرى، على نشر تلك الاتهامات .

وأذا كان الأستاذ فتحى رضوان قد استجاب لرجائى بتخفيف حدة الاتهامات ، الا انه عاد الى الحديث عنها فيما نشره قبل وفاته - وفاة فتحى رضوان - بأشهر قليلة .

وسوف نناقش كل تلك الآراء والاتهامات بموضوعية باللغة داخل فصول الكتاب .

وأنهيت العدد الخاص بعزيز على المصرى ولم يبق الا تحديد الموعد الذى يصدر فيه ذلك .

وكنت قد اخترت موضوعا معيناً يكون - من الناحية الصحفية البحتة - بداية ذلك العدد ، وكان عن علاقة عزيز على المصرى بالضباط الأحرار وفى المقدمة أنور السادات ، ووجيه أباطة ، وعبد اللطيف بغدادى ولكننى اكتشفت أن الموضوع الذى اخترته ليكون - لقوته - باكورة العدد ، هو الذى أدى الى وأد العدد كله .

وكنت محرجا للغاية مع كثير من الاخوة والأساتذة الذين تحدثت اليهم ، وبعض رفاقى من أسرة تحرير المصور ، وكذلك الذين استكتبتهم ، فبدلت جهودا شاقة ومضنية - وكانت ادارة التحرير فى المصور قد تغيرت - لكى يتحول العدد الخاص الى جزء خاص وقد كان . .

وأبقيت عندى بقية المادة التى جمعت عن عزيز على المصرى خاصة وأنها جاءت من أعرف الناس وأصدقهم بعزيز على المصرى .

وعدت الى فكرة قديمة راودتنى منذ زمن وهى أن أصدر كتابا عن عزيز على المصرى وصحبه .

وعرضت الفكرة - فكرة اصدار الكتاب - على بعض أصدقاء عزيز على المصرى وحواريه .

وفوجئت بهم يختلفون فيما بينهم اختلافا بينا حول الفكرة . . البعض تحمس لها تحمسا بالغا ، والآخر عارضها الى حد ما ، على أساس ان عزيز على المصرى كان من الشوار المشوشين - بفتح الشين الأولى وكذلك فتح الواو - و . . و وزادنى ذلك الخلاف اضرازا على تنفيذ الفكرة .

وبدأت العمل ، وكان ذلك منذ أكثر من ثمانية عشر عاما فأنا فى مثل هذه الحالات التى لا تكون لى صلة مباشرة وطويلة بمن أكتب عنهم

أشعر بالنقص الذي أدويه بالالتجاء الى كثير من الشخصيات التي تعرف جيداً تلك الشخصية ، ثم ان الفترة الأولى من حياة عزيز على المصرى والتي بلغ فيها قمة المجد والشهرة مجهولة أو شبه مجهولة هنا فى مصر ، لم نكتب عنها الا قليلا ، واذا كتبنا تكون كتاباتنا نقلا عن بعض الاخوة فى سورية أو لبنان أو العراق أو فلسطين أو شرق الأردن .

وقد تيقنت من صعوبة المهمة عندما بدأت - وفق منهجى فى الكتابة - أدرس المرحلة الأولى من حياة عزيز .

اتجهت الى المصادر الرئيسية القادرة على ازالة الغموض الذى ران على تلك الفترة واعتمدت - أول ما اعتمدت - على بعض الزملاء الصحفيين العرب الذين أعرفهم والذين يعرفون جيداً العديد من الشخصيات التاريخية التى تملك خزائن التاريخ الخاص بتلك الفترة .

وكان فى مقدمة الاخوة الذين تحمسوا للكتابة عن عزيز على المصرى وصنعبه ، الأخ الصديق صبيح الغافقى والذى وددت لو أن هذا الكتاب صدر فى حياته لولا أن المنية - رحمه الله - عاجلته .

أمدنى صبيح - طيب الله ثراه - بأكبر قدر من المعلومات عن عزيز على المصرى ورفاقه .

كما أمدنى بالعديد من المذكرات التى كتبها عراقيون لعبوا أخطر الأدوار فيما سمي بـ « الثورة العربية » الأولى ضد العثمانيين .

ثم عرفنى بكثير من الأساتذة الأفاضل الذين وجدت لديهم أنهارا من المعرفة وفى المقدمة المؤرخ العربى الكبير الاستاذ عجاج نويهض .

وكنت قد تعرفت بالكاتب العراقى الكبير الأستاذ مجيد خدورى الذى تخصص فى الكتابة عن بعض القضايا العربية وخاصة الثورة العربية .

والتقى - ككاتب ومؤرخ - بعزيز على المصرى ، فأمدنى بقسط كبير من المعرفة والتاريخ .

ثم وجدت نفسى أسعى الى بعض من كانوا يتزعمون الثورة ضد الاستبداد العثمانى فى سوريا ولبنان والى أبنائهم وأحفادهم .

كما سعييت للحصول على مذكرات الملك عبد الله والجنرال نورى السعيد واللواء عبد الجليل الراوى وغيرهم وغيرهم .

ثم أغرقت نفسى أشهرا طويلة فى الجمعيات التى كانت قد انشئت فى الخمسة عشر عاما الأولى من القرن العشرين مثل جمعيات « العهد » و « القحطانية » و « اللامركزية » و « الإصلاح » و « الجمعية العربية

الفتاة» و «الآباء العربى» و «المنتدى الأدبى» و «العلم الأخضر» وهى الجمعيات التى كان بعض ثوار العرب قد شكلوها للتخلص من السيطرة العثمانية على الشعب العربى ، وكانت تلك الجمعيات - بحق - تؤوا للعمل الثورى الجاد لتحقيق القومية العربية . . . درست كل ما يتعلق بتلك الجمعيات : أهدافها - أساليبها - طرق العمل بها - الشخصيات التى انضمت إليها - الى أن بلغت الذروة فى النجاح .

على اننى لم أتوقف عند حدود المذكرات والمخطوطات والمطبوعات بل عيذت الى الالتقاء بكثير من الشخصيات التى توثقت الصلات بينها وبين عزيز على المصرى فى ميدان النضال والكفاح فى الفترة من ١٩١٨ حتى ١٩٤٥ .

وكانت لقاءاتى بالرجل العظيم الشهم حسين ذو الفقار صبرى الذى رافق وزميله عبد المنعم عبد الرؤوف ، وكان كل منهما يومئذ برتبة طيار أول - عزيز على المصرى فى حادث سقوط الطائرة فى مايو ١٩٤١ قرب قليب . كثيرة ومثمرة للغاية ، خاصة وأن الرجل الذى ظل مضرباً عن الكلام فيما يتعلق بحادث الطائرة ، قد فتح لى وللقرأ قلبه للمرة الأولى .

وفى موضوع علاقة عزيز على المصرى بكتائب التحرير التى أنشئت عام ١٩٥١ اثر الغاء معاهدة ١٩٣٦ - وهو موضوع أثار الكثير من الجدل والنقاش - لم أكتف بما لدى من معلومات موثقة ، وإنما سعييت الى كثيرين ممن شاركوا العمل تحت قيادة عزيز على المصرى ، وقد استكثبت الكثيرين منهم فكانت شهادتهم وثائق هامة .

وبعبارة قصيرة موجزة أقول . . . اننى - ولاكثر من عشرين سنة - كنت دائب البحث عن تاريخ عزيز على المصرى وصحبه .

ما ترددت يوماً واحداً فى الجرى وراء من يقول لى أنه يملك معلومات ولو بسيطة عن عزيز على المصرى سواء كان ذلك الشخص مقيماً فى مصر أو فى أى بلد عربى شقيق .

ثم لما اطمأن قلبى وعقلى الى ما لدى من معلومات ، صبغتها فى كتاب .

ثم تركته الى جانبى - كعادتى - أكثر من أربعة أعوام ، ثم عدت إليه من جديد - كعادتى أيضاً - لأضيف إليه ما حصلت عليه من معلومات جديدة .

لم أجد واحدا - كما سبق أن قلت - متحمسا للكتابة عن عزيز
على المصري ، كما وجدت صبيح الغافقي .
ما من مرة التقينا معا في بغداد أو في القاهرة - وكثيرا ما كنا نلتقي
في العام الواحد أكثر من مرة ، إلا وسألني : إلى أين وصلت في كتابك
عن عزيز على .
وما من قصاصة ورق تحمل معلومة عن عزيز على المصري إلا وبعث

بها إلى .
يل أكثر من ذلك ، كان يحرض شخصيات عراقية وسورية كثيرة
على أن تكتب لي عما تعرف عن عزيز .

وكنموذج لاهتمام صبيح الغافقي بموضوع عزيز على المصري أشير
إلى واحدة من رسائله إلى :
بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٢

الأخ الأعز الأستاذ صبري
اعتذر لتأخري عن الكتابة . فقد عادت إلى ثوبات القلب وارهقت
صحتي ، فضلا عن أن متابعة واستقصاء تاريخ المجاهد المرحوم عزيز
على يحتاج إلى جهد كبير لبعد الزمن بما كتب عنه في الصحافة
العراقية منذ زيارته الأولى عام ١٩٢٥ . وقد انفقت مرة ثلاث ساعات
في مكتبة الآثار لاكتشف نبا صغيرا نشر في تلك السنة يذكر أنه
تقدم بطلب للحصول على الجنسية العراقية وفيما يلي بعض ما اطلعت
عليه في صحفنا القديمة وقد يفيد موضوع كتابك الذي تتحدث فيه
عن هذه الشخصية العربية الفذة .

لا أدري إلى أين انتهيت في كتابك الجديد عن المرحوم عزيز على
المصري الذي كان طرازا فريدا بين رجال العرب في أوائل هذا القرن
وآمل أن تقدمه للمطبعة قريبا .

١ - ان العلاقة بين المرحوم عزيز على المصرى وبين العراق قديمة جدا وقد قرر هو فى كثير من المناسبات أن أمه كانت من البصرة . وبعد تبلور الفكرة العربية الاستقلالية ، وقيامه بإنشاء جمعية العهد فى استانبول ، قبل نصف قرن اعتبره جميع الضباط العراقيين والسوريين الذين كانوا يمثلون الأغلبية فى الجمعية الأب والمرشد الروحى وكانت ثقتهم بإخلاصه لا حدود لها ، وظلت الصلات وثيقة بينه وبينهم بعد ذلك عشرات من السنين .

ولا أريد ان أفصل فى إنشاء جمعية العهد فقد استوفى هذا الموضوع المرحوم الأستاذ أسعد داغر فى كتابه « مذكراتى على هامش القضية العربية الذى صدر فى يناير ١٩٥٩ بمطابع جريدة القاهرة » .

ولا أعتقد ان ثمة مصدرا يفى بالفترة الأولى من حياة المرحوم عزيز على أكثر من هذا الكتاب الذى آمل وجوده عندك ، وهو فى رأى يغنيك بمعلوماته الدقيقة ذات القيمة الحقيقية .

وفى كتيب أصدره المرحوم محب الدين الخطيب عن المطبعة السلفية فى القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ لاهياء ذكرى أحد أوائل المشاركين فى جمعية العهد اقتبس فيه مقابلة نشرت فى جريدة المصرى فى ٤ نوفمبر ١٩٣٦ . جاء فيها على لسان عزيز على المصرى « ان الضباط العرب ألفوا جمعية العهد بعد أن استفحلت الحركة الطورانية التركية التى كانت تنادى بها جمعية الاتحاد والترقى .

وتحدث معى أحد ضباط العرب الممتازين فى الجيش وهو سليم الجزائرى - الذى شنته جمال السفاح باشا أثناء الحرب العالمية الأولى - فيما سيترتب على انقسام الضباط العثمانيين من أمسور خطيرة .

وطلب منى أن أجد حلا لتوجيه هذه الحركة الى اتجاه شريف ، فأسست جمعية العهد التى كان الفرض منها اعطاء حكم ذاتى للعناصر غير العثمانية وتكوين امبراطورية من مقاطعات متحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو ألمانيا فى ذلك العهد . على أن يكون الحكم الأعلى فى عائلة آل عثمان .

وأملت ذات ليلة على / طه الهاشمى قوانين جمعية العهد ، وأوضحت أغراض الجمعية فى المادتين الأولىين منها ، فجاء فى المادة الأولى ما معناه : ان الأتراك دافعوا عن الشرق منذ ٦٠٠ سنة ولازالوا يدافعون عنه فى المخاطر الأمامية ضد الغرب حتى الآن .

وجاء في المادة الثانية ما معناه أن على العرب ، ان يقوموا بالاستعداد للدفاع عن تلك المخفر .

ووصف اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوى ، ياور الفريق عزيز على في ثورة ١٩١٦ عزيز على بانه القائد العربى الذى اقض مضاجع المستعمرين طليقا ومنفيا .

واشار الى أن علاقتهما ترجع الى عام ١٩١٣ عندما كان يتلقى - اى الراوى - دراسته فى الكلية العسكرية باستانبول وفى ذلك الوقت عاد المصرى الى استانبول بعد أن شارك فى الحرب ضد الايطاليين فى ليبيا .

ويومها بدأ يعمل على انشاء جمعية العهد بعد طغيان حركة التتريك التى تبنتها جمعية الاتحاد والترقى .

وقال الراوى : ان عزيز على رفض جميع العروض ووسائل الاغراء والمناصب التى عرضها عليه الاتحاديون ، وأعلن تمسكه بمبدأ اللامركزية الذى كان يطالب بتحقيقه للعرب .

وقد أضمرها الاثراك له ذلك فاعتقلوه بتهمة الاختلاس والتمرد على اوامر السلطات .

وجرت محاكمة صورية لفقت ضده خلالها شهادات مزورة ، وصدر الحكم فى نهايتها عليه بالاعدام .

والحقيقة - كما يقول اللواء ابراهيم الراوى - أن هذا الحكم استقبل فى العراق والبلاد العربية الأخرى باستنكار شديد .

وأرسلت الألوف من البرقيات تحتج على هذا الحكم الجائر مما اضطر السلطات العثمانية الى ابدال الحكم بالسجن المؤبد .

لكن هذا لم يرض العناصر العربية التى أعربت عن تخوفها من أن تلجأ الحكومة التركية الى اغتياله فى السجن واشتدت المطالبة باطلاق سراحه حتى هدد خديوى مصر يومذاك بالرد على هذا القرار بشكل آخر .

وقد انصاعت السلطات العثمانية آخر الأمر ووافقت على اطلاق سراح عزيز على المصرى بعد اخراجه من الجيش ، وابعاده من استانبول وفى الوقت ذاته لجأت الى اعتقال الكثيرين من الضباط العرب نكاية بهوقفهم .

وتبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية من نضاله وانضمامه الى الثورة العربية عام ١٩١٦ ويقول الراوى : ان عزيزا انضم نزولا على الامر الواقع ولكن شكوكه بقيت قائمة فى الانكليز منذ اللحظة الاولى .

وكان من رايه - وهذا عن عبد الرزاق الحسنى فى كتابه « العراق فى ظل المعاهدات » - وجوب تنظيم علاقات العرب بالانكليز وحلفائهم على أسس متينة وان تكون مساعدتهم للجيش العربى مساعدة حقيقية فيلعب دورا رئيسيا فيما يعهد اليه فى الحرب فكان من نصيبه ان نحى من الخدمة . وبقيت العلاقات بين العرب والحلفاء مضطربة .

ويذكر ابراهيم الراوى فى حديثه بان عزيز على انضم للثورة بعد ان تم أسر غالب باشا والى الحجاز وقائد الفرقة التركية وعين وزيرا للحرب وحدث بينه وبين الملك حسين خلاف عنيف عزز شكوكه بالانكليز والاعبيهم ومؤامراتهم .

وكان من رأى عزيز بقاء غالب باشا فى الحجاز وعدم ارساله الى مصر ليبقى هدزة وصل مع الأتراك والألمان الذين - أى الألمان - كان عزيز يميل الى الاحتفاظ بعلاقته معهم فى محاولة لتعزيز موقف العرب اذا ما استمر الانكليز على تنفيذ مخططاتهم المبيتة ضد الثورة يومذاك .

وفى ذلك الوقت تبين ان واشيا وشى بعزيز على لدى الشريف على (الملك فيما بعد) زاعما - وهذا الكلام للمرحوم على جودت الأيوبى رئيس دكن فى الهيئة التى يرأسها عزيز على (طبعه بيروت ١٩٦٧) - زاعما ان عزيزا كان يريد ان يوقع الجيش العربى فى الفخ التركى والتسليم اليه .

وظهر بعد ذلك زيف الوشاية .

ولكن عزيز كان قد قرر العودة الى القاهرة .

ومن هناك أرغمه الانكليز على الهجرة الى اسبانيا .

وذكر ابراهيم الراوى : ان عزيز على كان القائد الوحيد الذى رفض ان يتقاضى أى مرتب طيلة وجوده فى الحجاز على الرغم من تخصيص ٨٠ جنيها مصريا ذهبيا له وهو يعادل أكثر من ضعف مرتب أى وزير .

وكان يصر على الاتفاق من جيبه الخاص .

وفي المقال الذي نشر في جريدة الجمهورية العراقية في ٢٤ يونيو ١٩٦٥ للواء الراوى يؤبن فيه المرحوم عزيز على ، أعاد الى الأذهان هذا الموقف ولكنه ذكر أنه كان قد عهد بثروته الى بعض اقربائه عندما اضطر للسفر الى أسبانيا وأن هؤلاء لم يكونوا أمناء مما اضطره الى مقاضاتهم فيما بعد . حتى انه تعرض لفترة طويلة الى أزمة مالية .

٢ - ومن الوجوه الأخرى لعلاقات المرحوم المصرى بالعراق أنه زاره أكثر من مرة .

ذكر لى الحاج أحمد شوقي الحسينى المدير العام السابق للأشغال أن المصرى زاد بغداد بعد تأسيس الحكم الوطنى عام ١٩٢١ . الا أنى لم أجد لهذا تأييدا أو تعزيزا .

وزار العراق فى ١٢ مايو ١٩٢٥ :

وقد لمح المشير الركن المرحوم طه الهاشمى فى مذكراته التى نشرت فى بيروت فى ابريل ١٩٦٧ لهذه الزيارة بقوله : وصل الأخ عزيز على من مصر ويظهر أنه أعلم الناس باخلاق نورى . اخذ يسعى فى جمع الكلمة وفقه الله فى ذلك الا أن القلوب متنافرة بشدة مع الأسف وهذا هو الداء » .

وتردد يومذاك أن المرحوم المصرى كان يرغب فى الحصول على عمل فى العراق ولكن نورى بأحاييله - كما قال بعض المتابعين للأحداث - أوحى الى بعض الصحف بالحملة على عزيز .

وتصدى الكاتب السياسى الكبير المرحوم على محمود الشيخ على - وزير العدل فى وزارة رشيد على عام ١٩٤١ فيما بعد الى الرد عليه بعنف . والمرحوم على نشر فى جريدة الحارس التى أصدرها عام ١٩٥٤ تسعة فصول عن عزيز على وهو جزء من مذكراته التى ما زالت مخطوطة .

وكتبت صحيفة الاستقلال الوطنية المتطرفة عن عزيز على - فى ١١/٥/١٩٢٥ قى يكفى ذكر هذا الاسم المحبوب لتمثل نهضة العرب وبطولتهم وأصالتهم . ان عزيز على هو واضح أسس نهضتنا الحاضرة ، ومتعهد شئونها والعامل على انماؤها بعزم ثابت وقلب لا محل فيه للطمع والأغراض الذاتية .

وذكرت صحيفة العالم العربي المعتدلة في ١٣/٥/١٩٢٥ : (ان بعض شباب العرب قدم ادارة مجلة العالم العربي وأعلمونا أن جماعة من متنورى الشباب الناهض ينوون اقامة حفلة تكريمية لصاحب العطوفة عزيز على بك المصرى ويدعون الوطنيين الى معاضدتهم) .

وأكد لى ابراهيم الراوى ان عزيز على كان قد استهدف من زيارته للعراق العمل فى الجيش العراقى . أو أية مصلحة عراقية أخرى .

وقال طه الهاشمى فى مذكراته ليوم ١١ آب (أغسطس) ١٩٢٥ :
صرح لى رؤوف الجادرجى (وزير سابق وشقيق كامل الجادرجى والذى عين ممثلا للعراق فى مجلس شركة النفط العراقية بلندن) أنه لا يوافق أبدا على تعيين عزيز على وأنه لا يهتم بالأمر الملكى فقلت له : اذن صحت الرواية بانك راغب فى الوظيفة نفسها . .

وكتبت جريدة العالم العربى فى ٢ يونيه (حزيران) ١٩٢٥ خبرا صغيرا جاء فيه ما يلى :

تتفقنا أن سعادة عزيز بك على قدم طلبا الى وزارة الداخلية للتجنس بالجنسية العراقية فأهلا وسهلا بالفضل والاخلاص » .

ومهما يكن من أمر بعد هذا الاستقصاء لصحف ذاك العهد فان المرحوم عزيز على شعر بان ثمة مقاومة لتعيينه ، ففادر بغداد الى طهران ولحققت به - كما يقول ياوره ابراهيم الراوى - سيدة أمريكية تعرف اليها وأحبته حباً جارفا انتهى بالزواج . وولدت له وحيدة عمر .

وكان أمين أحمد من قدامى الصحفيين الذين عملوا فى جريدة الجمهورية قد عقد مقالا فى الجمهورية يوم ١٩ يونيه ١٩٦٥ وقال فى معرض اشارته الى مواقف بطولة عزيز على . أنه قصد العراق فى عهد وزارة المرحوم ياسين الهاشمى وقوبل بأعظم الحفاوة والتكريم وأشاع أعوان الانكليز بان الرجل جاء يطلب عملا لكن المرحوم ياسين الهاشمى نفى الاشاعة بشدة . والثابت أنه اطلع على وضع العراق حينذاك وأعاد صلاته القومية بتلاميذه الذين أعربوا عن استعدادهم لخدمته مدى الحياة وشهد الكثير من معالم العراق لانه فى الأصل من البصرة » .

وأضاف أن عزيزا كان مثلاً رفيعاً للمجاهد الحر العربي الأبى
والإنسان القومي والعسكري الشهم وسيظل ذكره في طبيعة البنية
الخالدين للنهضة العربية الحديثة تفتخر به مهما تعاقبت الأجيال .

واعتقد - صبيح الغافقي - أن حكم السيد أمين أحمد لا يتسجم
مع الواقع ، فقد سألت المؤرخ الكبير عبد الرزاق الحسني عن زيارة
عزيز على عام ١٩٢٥ فأكد ما أشار إليه المرحوم طه الهاشمي في
مذكراته . وأن ثمة اتجاهات كان لتعيينه ممثلاً عن العراق في مجلس
شركة النفط العراقية .

وهذا المنصب شغله مدة طويلة رؤوف الجادرجي فيما بعد .

٣ - زار المرحوم عزيز على العراق في ٢٥ مايو ١٩٣٩ زيارة
استغرقت اسبوعاً اجتمع فيها إلى المسؤولين وجميعهم كانوا من أعضاء
جمعية « العهد » . ونشرت جريدة البلاد لرؤف بطي صورته في
الصفحة الأولى على عامودين مرحبة بزيارته . كما نشرت بعد ذلك
أبناء عن مادة العشاء التي أقامها له رئيس الوزراء .

ونسب إلى الأهرام عن مسئول مصري أن عزيز على لم يصل
العراق في أي مهمة رسمية وأن زيارته هي شخصية محضنة .

وقد قابلت المرحوم عزيز على وكنت يومذاك - صبيح الغافقي -
في أول السلم بالصحافة أتولى إدارة تحرير جريدة العهد ، وهي
جريدة أسبوعية كنت أحاول أن أضفي عليها سمات الصحف الدائرية .

وقد بدأت عملي بإصدار عدد خاص عن جورجى زيدان مؤسس
الهلال ونجح نجاحاً طيباً .

واستقبلني عزيز على في فندق زياد بشارع الرشيد يومذاك
وكان يرتدى بذلة بيضاء . وأدلى لي بحديث قصير عن جمعية العهد
ودورها في البناء العربي . وأكد أنه لا سبيل للعرب إلا بالوحدة
فهو طريق التحرر والسيادة . وسأله عن الرسالة التي يجب أن
يؤمن بها العرب فقال : قبل كل شيء أن يدركوا إدراكاً كاملاً ماذا
يريدون . وهذا واضح .

ثم عليهم أن يعملوا والعمل صبر وتضحية وتنظيم .

وقال أنه متفائل بمستقبل العرب ودورهم العالمي .

ونشرت صحيفة الجمهورية العراقية في ٢٠ يونيو (حزيران)
١٩٦٥ مقالة لفصل حسون رئيس تحريرها يومذاك « ضمته » مقابلة

بينه وبين المرجوم عزيز علي في ربيع ١٩٥١ قال له فيها : ان العراق
فقد يموت ياسين الهاشمي قائدا لا يعوض . ووصف سياسة نوري
السعيد بانها سياسة مشايخ العشائر ولم يكن رجل دولة وليست له
خطة او أسلوب علمي في معالجة المشكلات .

وروي أمثلة عن انحرافات نوري وعلاقته بالانكليز وقال انه
شخصيا - أي عزيز علي - حاول جهده ان يبعده عن الانكليز
بتخصيص ١٠٠ ليرة ذهب له شهريا دون جدوى .

ونصح عزيز علي في الحديث بالأخذ ببعض النظم الاقتصادية
الحديثة في معالجة الفقر واشاعة العدالة الاجتماعية .

ولم تكن الأفكار الاشتراكية قد تبلورت في العالم العربي وقال
انني أنادي بهذه المبادئ حتى قبل ثورة أكتوبر وقبل ان يخلق
الاتحاد السوفياتي .

وقد طبقتها فعلا مع جنودى فى بلغاريا » .

ويشير صبيح الفافقى الى خبر نشرته صحيفة الزمان العراقية
بتاريخ ١٠/١٠/١٩٤٦ وقد جاء فيه :

وقفنا على رسالة بعث بها سعادة القائد العربي عزيز علي المصري
باشا من أوائل ضباط الثورة العربية الى صديقه سعادة أمير اللواء
الركن المتقاعد ابراهيم الراوى تفيض بالشجن . ونقرأ فى كل فقرة
من فقراتها شجوا حزينا كما أن كل عبارة منها تتحدث بأسى عما
تفيض به نفس الرجل الكبير الذى كان من أنبل المناضلين فى حركات
الجهاد وأصدق المكافحين .

وتضيف الصحيفة ذلك قائلة : ولئن كان الزمن قد تنكر
لهزير علي المصري طيلة السنوات الأخيرة ، فإن الأمة العربية وهى
فى باكورة نهضتها ستذكر للرجل الطيب جهاده ، وما بذله لها «
وتنقل الصحيفة عبارة وردت فى رسالة عزيز علي المصري :

أكتب اليكم هذا بعهدي مضي أظنكم نسيتموه : وجهادا مشتركا
رميتم قسمه الذليل فى هاوية من الدل فسحقتموه واذكروا علمنا
وضع ألوانه رجل يقيم اليوم فى مصر واذكروا أيضا مبادئ سامية
خرجت من دمايته . ومحبة لكم وللامة العربية تفجرت من قلبه «
انتهى .

وهذه الإشارة الى العلم العربى لفتت نظرى وقد كتبت الى صديقى
المؤرخ الكبير الأستاذ عجاج نويهض من سدة التراث العربى ، أحد
الكتاب البارزين الذين واكبوا النهضة العربية استطلعه رأيه فى الموضوع .

ويبدو من عبارة عزيز المصرى انه اختار الألوان الأربعة للعلم العربى
فى العشرة الثانية من هذا القرن وقد وعد بأن يكتب لك بعض الدراسات
عن المرحوم عزيز على . وعنوانه اذا شئت الاتصال به : رأس المتن .
لبنان . العلامة عجاج نويهض .

★ ★ ★

وتلقيت العديد من رسائل المؤرخ الكبير عجاج نويهض أولاها بعث
بها الى من رأس النقب بلبنان بتاريخ ١٩٧٢/٨/٢٤ وأرسل صورة أخرى
للأخ صبيح الغافقى مخافة ان تضيع واحدة منهما فتكون الأخرى بديلة
عنها وقد جاء فى تلك الرسالة :

« كنت منغمسا فى تهيئة أشياء جديدة مهمة عن عزيز على العلى
المقام فى الجنان وهى فى غاية الفائدة والكشف والوضوح فانى كنت
احتفظ فى مكتبى فى مدينة عمر - القدس - ردها الله الى العمرين
بنسخة من كتاب المشرقيات الشهير للإنجليزى Sir Orientalion :
Ronald storres الذى كان حاكما عاما للقدس من ١٩١٩ الى ١٩٢٩ ،
حاكما عسكريا معظم الوقت ، وحاكما مدنيا بعض الوقت .
وستورس صاحب وقائع ونوادير وحوادث ومفارقات
مع العرب .

جاء مصر عام ١٩٠٥ أيام كرومر وبقي بها حتى عام ١٩١٤
حيث انتظم فى المكتب العربى وكان أحد أركانه .

وستورس أستاذ لورانس وقد زار جدة لا أقل من ٤ مرات
سنة ١٩١٦ بعد شبوب ما سمي بالثورة .

وقد ظهر كتاب ستورس ١٩٣٧ وأعيد طبعه فى طبعة
منقحة سنة ١٩٤٥ ومات صاحبه سنة ١٩٥٥ وقد توليت - عجاج
نويهض - ترجمة كتابه « مشرقيات » الذى ورد ذكر عزيز على المصرى
فيه فى مواضع عديدة ، تارة ورودا عارضا ، وطورا مسهبا اذ يكون
محور الكلام عن عزيز على .

وقد تناول عجاج نويهض فى رسائله لى فيما بعد ما يعرفه عن عزيز
على المصرى .

وعجاج نويهض - رحمه الله - لم يكن مؤرخا وحسب وانما كان عاملا في الحقل الوطني وله نضاله المعروف .

وكانت تعليقاته على ما جاء في كتاب « مشرقيات » تعليقات خبير ومشارك في العمل العربي العام أيضا .

ومن بين تلك الرسائل مثلا . . ترجمته لما جاء في كتاب « مشرقيات » لسير رونالد ستورس : « . . . وصل عبد الله حوالى العاشرة وراجعنا ما بحثناه فى اليوم السابق ، واليوم انضاف اليها سعيد على باشا (كان ستورس يطلق عليه لقب وزير حرية) وعزيز على (وكان ستورس يذكره دائما بأنه رئيس أركان حرب الحجاز) .

ويشير عجاج نويهض الى ما ذكره ستورس عن عزيز على فى صفحة ١٧٥ من الكتاب - ملخصا تاريخ حياته - اذ قال انه - عزيز - عين فى ١٩٣٧ رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى . وفى عام ١٩٤١ اعتقل عزيز بينما كان يحاول الفرار من مصر بالطيارة . وفك اعتقاله فى ١٩٤٢ على يد النحاس باشا . ولكى تعرف المزيد من شخصيته الممتعة راجع كتاب انطونيوس الصادر ١٩٣٨ . مات انطونيوس فى القدس ١٩٤٢ .

ثم يستأنف ستورس كلامه فيقول : قرأ علينا عبد الله برقية فيصل مفادها ان طيارتين تركيتين بدأتا العمل فأقلقت العرب الى حد الرعب .

وقال انه اذا لم تطردا أو تصدا فالعرب سيتفرقون .

فوافق سعيد على باشا على هذا الرأى أو هذا التنبؤ .

ولكن من المستحيل أن تدمر الطيارتان بالرشوة لأن الأتراك لا يستخدمون عربا فى ذلك القسم من نقلات الجمال - الجمال التى يأكلها الجرب - ورأى عزيز على ان لا حاجة الى لواء من الجيش البريطانى جنوده مسلمون وهذا ما كان يطلبه الهاشميون بالحاح للاستعانة بهم للدفاع عن رابغ . ولكنه لم يستطع ان يجهر بهذا الرأى بحضور عبد الله الذى فى النهاية كتب نداء وطلب ان نضمه برقيتنا التى علينا ان نبرقها وحوالى الساعة ١٢ أخذ الشريف « يتلفن » اليها مصرا كل الاصرار على اللواء والطائرات البريطانية وبقي يكرر هذا حتى الساعة ١٣٠ ولا أقل من ١١ مرة ، حتى اضطررت أن أذكره بأننا مع الأسف لم نستطع الاتصال بجهة الجيش العسكرية فى الحديقة الخلفية للقنصلية .

وهنا وجدت الرجال العسكريين منا معارضين ولا فائدة منهم . فرجوت منهم ، والحالة هذه ، ان يوضحوا حقائق الموقف للكولونيل ولسون (قنصل الانجليز فى جدة) .

وأنا برىء من المسئولية التي تتضمنها برقيته .

وقبل أن ينصرف عبد الله أبدي رغبته أن يراني على حدة بعد الظهر من ذلك النهار . وبعد الظهر بعد الغداء ، أخذت عدة صور خرجت من البوابة الشمالية ، فلقيت عبد الله على مسافة ميل من المدينة . وقد غلطت في حساب الوقت على الساعة العربية ، وعبد الله كان مع موعد مع « بريمون Bremona » فرافقه إلى القنصلية الفرنسية ورتبت أن انتظره إلى ما بعد الخامسة .

ومما استطعت جمعه من معلومات عن مكة من مصادر مختلفة أن الحج لم يزد على عشرين ألفا في هذا الموسم ، وهذا قليل ، ولم يتوقعه الشريف أن يكون هكذا .

أما حالة مكة من الوجهة العامة فمرضية جدا .

وطريق جدة - مكة - الطائف آمنة كطرق مصر . وحجاج مصر والهند عوملوا معاملة حسنة جدا ، فكانوا شاكرين ، غير أنه كان هناك اثنان من الهنود : مصطفى غلام رسول ، وعبد النبي كشميري ، فكانا يتناولان بالكلام بحق الشريف وأظن أنهما ألقيا منشورات ضده على جدار قصره (وأعلنت حكومة الهند بهذا) .

أما البعثة الفرنسية فكانت مرضيا عنها من الرأي العام .

ولكن الشريف نفسه لم يكن يميل إليها ، ورأيه ألا تعلم البعثة من أمور بلاده إلا ما هو ضروري . أما شعبية الشريف فعظيمة ، وعبد الله هو الوحيد الذي لا يهاب أباه ، ويعامله بأساليب لطيفة ناعمة أكثر من أخيه الصريح الجريء فيصل .

أما الجيش المصري فينظر إليه باحترام وثناء .

والعيشة ليست غالية كثيرا . أجود الثمار والخضروات من الطائف ، والعملية الدارجة : الفضة العثمانية ، والمصرية والهندية والذهب الانكليزي ...

الجوانيت صغيرة ، وأصحابها من أهل مكة ، وهنود ، وبناتية ، وجاويين . وليس للشعب اهتمام بالحرب أو أية قضية خارجية .

وأما حسن روحى وهو بهائى وكان يقيم فى مصر وتعاطى وسائل نشر البهائية فى مصر ، وكان يعمل فى المخابرات البريطانية ، ولما نشبت ثورة الحجاز ١٩١٦ ، وجعله « ستورس » يتردد على الحجاز فى الأشهر الأولى بعد الثورة لا أقل من ٤ مرات إلى ختام ١٩١٦ كان حسين روحى هذا عميل « ستورس » وجاسوسه متسترا « بالاسلامية البهائية » وهى من نوع التقية .

ولعله كان هو الذي يفرنج أجوبة مكماهون الى الحسين بتعابير خاصة ، وكان ستورس يعرف من العربية ما يمكنه من الحكم على الغلابة أهى فى محلها أم لا .

وكانت جاسوسية حسين روحى فى الحجاز عظمة القيمة للانكليز . وبعد الحرب أتى به الى فلسطين واحتضنه ستورس هذا وكان « حاكم القدس » فتعين حسين روحى موظفا فى « المعارف » برتبة مفتش وليس له من الأهلية شئ يذكر .

وبقى فى حكومة فلسطين حتى « تقاعد » ووصفه ستورس فى الحاشية بأنه عنيد ، مزواج ، تزوج سيدة بهائية قوية الشكيمة ، فجاءه منها أربع بنات وصبيان فسمى البنات بأسماء القارات : آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا ، رمزا الى انتشار البهائية عالميا ، وعرفنا حسين روحى فى فلسطين معرفة تامة ، كما عرفنا من أولاده الأستاذ على :

ولكى يحتفظ روحى هذا بمظهر التقوى والصلاح ، راح يكرع من ماء زمزم ما ملأ جوفه وجعله مريضا . ولم يزل معتلا من ذلك الوقت .

ووصل عبد الله فى نحو السادسة . فصعدت به رأسا الى الشرفة الشمالية العالية ، المشرفة على سور المدينة . فبدأ حديثه ان الوضع فى رابغ هو من الخطورة بحيث يجعل كل قضية أخرى ثانوية بالنسبة الى تلك الخطورة .

ووجدته يشعر بعميق الخيبة لأنى لم أستطع أن أجلب له العشرة آلاف جنيه التى طلبها فى برقيته ، وبما ان هناك مطالب أخرى لم تلب أيضا فاصبحت الحاجة اليوم ماسة جدا .

فبينت له بصراحة لا تحفظ فيها أننا نعتبر المعونة المالية التى نقدمها الى أبيه ، ولا تعتبر غير سخية ، ينبغى أن تكفى ما يقوم به أبناء الشريف من أعمال .

فأجاب ان والده يقوم بكل جهد يستطيع ، وأنه هو نفسه (عبد الله) قد أنفق أكثر من ٣٠٠٠ جنيه من جيبه الخاص فى إسقاط الطائف . فهو بحاجة الى كل قرش نرسله اليه .

وتوسل الى ان انقل الى المندوب السامى نداء شخصيا شديدا ان يمدّه بالمال بأقرب وقت دون تأخر . فوعدت ان أفعل هذا وأكدت له انه سيلبى .

وبعد بحث مسألة الخلافة ، انتقل الى مسألة لقب « الجلالة »
« لملك العرب » . ومن الغريب ان أنجيل الأسود - قال عبد الله - يتخذ
هذا اللقب واما شريف مكة فلا .

ومن عجيب الاتفاق أني سمعت مثل هذا الحديث من السلطان حسين
كامل لما كنا في المفاوضة معه ٤٩ يوما قبيل اعتلائه عرش مصر ، فذكرته
بأن نقولا (ملك الجبل الأسود) لما صعد الى عرش بلاده كانت بلاده
كلها تحت سلطته ، والآن ، والمخاوف من رابع والمدينة كما نرى ، أبوسع
الشريف ان يفعل ما فعله نقولا ؟ وهل هناك من قائمة ترجى ، غير تقوية
الشكوك بهذا العمل ؟ اذا لم نقل اثاره العداوة ، وهي ممكنة ، في امام
اليمن والادريسي وابن سعود وغيرهم .

انذر كوكس القاهرة ان العراقيين قد نعموا من الشريف اتخاذه
لقب « ملك العرب » وسخروا منه .

فعلى الاشراف ان يستولوا على البلاد أولا قبل أن يغيروا من أساس
وضعها ، فتظاهر بأنه اقتنع بما سمع من براهين وقال انه سيأخذ بها متى
اجتمع بآييه .

ووعدني انه سيرسل الى نسخة مسودة من أول موازنة مالية
لحكومة الحجاز الجديدة .

وهذه الموازنة اذا كتب لها ان تكون موجودة فمن اللذة والفكاهة
الاطلاع عليها .

وتناول عبد الله بن الرشيد فحمل عليه ونسب اليه الخيانة .
ولكنه ذكر ابن سعود بخير ، وسأل أيضا : أي خير نالنا أو ننال من
الادريسي وقال عن الامام يحيى « أن ضرره لا يضرنا ومساعدته تساعدنا »

وأوصيته ان يبذل جهده لترويج عمليات شراء الجمال ، وان يغير
« الشيفرة » المستعملة لديه ، فهذه قد يستطيع الترك حلها .
وتناول مجرى الحديث « ولسون » وبعد انتظار طويل لسعيد على
باشا وعزيز على بك (على التوقيت العربي) قمنا الى العشاء .

(هنا يذكر - ستورس - قصة استعارة الفرقة الموسيقية من سعيد
على لتعرف اكراما لعبد الله ، ويصف هذه الموسيقى وتفاهتها وما عرفت
« نشيد الموت » فصرف ستورس المعنى الى أن هذا النشيد يرمز الى
العدو) .

وفي صفحة (١٧٩) من كتاب « مشرقيات » .

أما بريمون ، المتشائم بكليته ، فقد صرح برأيه ، وهو أن الشريف يبحث شروط صلح مع الأتراك . فتعين على أن أغتنم أول فرصة فأسأل عبد الله بهدوء : هل عملوا شيئا لجس نبض هذا الأمر ، فقال : أنه وقعت محاولات عديدة بصفة غير رسمية وغير مرتبطة ، فكان أبوه يجيب كل مرة أن العرب هم اليوم حلفاء بريطانيا العظمى وليس بوسعهم بحث شروط صلح منفردين عنها وفارقنى دون أن يودعنى good-bye الا فى صباح اليوم التالى وأنا على وشك ان أركب الباخرة « لاما » Lama قبل الساعة ١١ (١٦/١٠/١٩١٦) فانطلقت كالسهم لأودع عبد الله حول العاشرة وأخذت عدة صور للذكرى .

وودعت والده على التلفون ، وكان يدعونى « يا ابنى » . وكان بن غبريط ، وشارى محسن ، وقابل ، يحومون حول الحمرة . أما بن غبريط فكان يحاول جهده أن ينفذ التعليمات المعطاة اليه من الحكومة الفرنسية وان يكتسب لشخصيته ظهورا ولمعانا .

وكان وداع عبد الله حارا . وانى الآن اعتقد بصحة انطباعاتى عنه المستفادة من المرة الماضية : أنه ذو عقل ، همام ، جذاب ، ولا ينقصه الا بعض النصيحة الثابتة النيرة ليصبح عمودا من أعمدة السياسة العربية فى المستقبل .

وهو الآن يعطى الانطباعة - الانطباعة التى تعتبر معقولة مقبولة - من أنه هو « المدلل » نوعا ما فى البيت .

يقول الأستاذ عجاج نقلا عن ستورس : علمت فيما بعد أن عبد الله كان المختار من بين اخوته ليكون ولى عهد يخلف أباه الحسين . واذا أردنا الحكم العادل عليه ، قلنا أنه يحتاج الى تجربة فى الخارج أما اليوم فلا يشغله شاغل غير خطر الترك حول رابع .

وتحت عنوان .. عزيز على المصرى .. جاء ما يلى :

..... وبعد أن أخذت بعض رسوم فطوغرافية للذكرى تظهر فيها « بوابة مكة » رجعت ممتطيا حصان ولسون الصغير الحرون .

وأدركت الباخرة « لاما » متأخرا عن الموعد أقل من نصف ساعة وعلمت ان بوسعى أن أدرك أيضا الباخرة التجارية « بلفيو » Bellvieu مقلعة من رابع الى السويس فى الحادية عشرة من اليوم التالى ، فصممت على هذا . والآن آخذ بالاستراحة مستلقيا اذ أنا متعب منهوك القوى كليا بعد الظهر .

وفي المساء كان لي حديث مع عزيز علي بك المصري ، مكنني من اکتناء شخصيته ، ومعرفة أصله ، وخرجت من هذا كله وأنا أکن له في نفسی محبة كبيرة وطغى علی الميل اليه ، وهو الشخص الذي اکتسب تلك الشهرة العظيمة في ربيع ١٩١٤ بنجاته من شباك المكيدة التي حاکها له « أنور » حسيذا وبغضا له .

وكان اللورد كتشستر وجريدة « التيمس » من أكبر العوامل في تنجيته هذه . وذلك رغم الرأي المعارض الذي كان يذهب اليه في المسألة سفيرنا في الآستانة .

جد عزيز علي اسمه سليم عرفات ، تاجر من البصرة ، وكانت تجارتها تروح وتغدو في بلاد القفقاس علی البحر الأسود .

وكان زميل له هناك رجل جرکسي يدعى حسن بك ، فزوج ابنته من عرفات ثم ضمه بالولاء إلى عشيرته الجرکسية .

جرى هذا في زمن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) .

والجيل الثالث من هذه العشيرة الجرکسية انتقل إلى القسطنطينية ولكن لما رأوا إعادة بيع الجوارى والسراري في القصور ، تحولوا إلى مصر واستقروا فيها .

وإلى هذا الوقت كانت العادات الجرکسية قد تغلبت علی عروبتهم ، ولكنهم بقوا محتفظين بصلاتهم بالبصرة ، وهذا استبقى لهم عرى الصداقات مع العرب ، ولا سيما الذين غربي مصر .

وخطب عزيز علي سيده أوروبية (يلوح لي أنها ألمانية ؟) ودامت خطبته ٨ سنين ، وكان أمه ، بل أمه الأكبر ، أن يتزوجها وينهي أشواط حياته العملية ويقيم في سويسرا .

ومن خطيبته هذه اکتسب عزيز علي كل ما رأيت فيه من محاسن الثقافة الناعمة .

وهو مغرم بالموسيقى إلى حد بعيد .

وتسكره السمفونيات ويحفظ طائفة من قصار الأغاني « لغوته » .

ومعجب بكرنيل اعجابا عاليا ، ولكنه ليس كذلك بهومير إذ قرأ الألياذة بالعربية ترجمة البستاني فلم تأخذ بمجامع نفسه .

وعن الألياذة قال الأستاذ عجاج نويهض :

ظهرت ترجمة « الألياذة » بالعربية في مصر ١٩٠٤ في ١٢٨٥ صفحة جميلة الطبع مضبوطة بالشكل الكامل ، وهو مشروع عظيم بنفسه .
وانفق سليمان البستاني من عمره في سبيل هذا المشروع أعواما عديدة :

ويقال ان السيد جمال الدين الأفغاني ، لما كان آخر حياته في « قفص » عبد الحميد في الآستانة ، وبلغه مشروع البستاني ، اثنى عليه وشجعه وقال : ان هذا التراث اليوناني الذي يقوم به البستاني كان ينبغي أن ينقل زمن المأمون في بني العباس في بغداد ، فجزى الله البستاني خيرا .

ولما ظهرت الألياذة في مصر اقيم للبستاني احتفال كبير لتكريمه القيت فيه الخطب بالعربية والفرنسية واليونانية .

وتكلم في الاحتفال الدكتور يعقوب صروف أحد أصحاب « المقتطف » والسيد رشيد رضا صاحب « المنار » .

ومن الرسائل التي وردت تحمل المشاركة في الاحتفال والتكريم مع الاعتذار عن الحضور لأسباب القاهرة ، رسائل الأستاذ الامام والدكتور شبلي شميل .

وفي هذه السنة ظهرت آثار عظيمة من التراث العربي ، منها « رسائل أبي الغلاء المعري وترجمته » للمستشرق « مرجليوث » الانكليزي (وأصله يهودي مختصر) .

وكتابات في اللغة « الفلسفة اللغوية » لزيدان (اعادة طبع) و « الخواطر الغراب » لجبر جومط في بيروت .

ويعود ستورس الى القول - بعد حديثه عن الألياذة - بالعربية - التي لم تأخذ بمجامع نفس عزيز على المصري - بأنه وعده ان يرسل اليه ليكونت دي ليزل Leconte de Lisle

ويقول ستورس في الحاشية انه لما اجتمع بعزير علي في لندن ١٩٣٦ ودار بينهما حديث أكد له عزيز علي انه قد وصله هذا الكتاب العظيم في الألياذة .

ويحب عزيز علي الوحدة والتأمل والطلاق النفس والخاطر في جلسات الانفراد .

وهو نابه العقيدة في دينه ، ورأيه في الأقوام العربية يستحق
الإيراد ، فقال إن أهل بغداد هم أذكى العرب ويمشون في الطليعة .

وكانت بعض نسايتهم السفارات في الآستانة يساهمن في الأعمال
السياسية المناوئة « للاتحاد والترقي » ويبدن من الآراء ما فيه الحكمة
والسداد .

أما السوريون فحظهم من المعارف أوفر ولهم دماثة .

ويلى العراقيين والسوريين أهل طرابلس الغرب ، وهو يعلى من
شأنهم كثيرا ويتوقع منهم خيرا جزيلا محتملا ، وهذا بعيد . وهنا جاء
ستورس بعبارة مفرضة في مساق كلامه « وهذا بعيد » كما نرى ، وكأنه
لا يوافق عزيز على ، على رأيه ، ونحن نقول : إن عزيز على كان يتكلم
بروح علمية صرف ، وستورس يقول عبارته هذه بروح سياسية . وكانت
« ليبينا » قد انقضت عليها ايطاليا . ثم تكلم عزيز على بغصة وحرقة عن
تلك المثل العليا المبددة التي حارب من أجلها في طرابلس ، وهو يعتبر
النضال هناك أشبه بجزيرة للنهضة العربية .

وبعد أهل طرابلس يأتى أهل اليمن الذين هم في نظره في رتبة
أعلى ولعل السبب في هذا - حسب رأيه - أن الأغذية في اليمن
خير منها في الحجاز لصحة الأبدان .

ولا نجد في ما أورده ستورس من آراء عزيز على في تقييم كهذا شيئا
يتعلق بمصر والشمال الأفريقي ولا نعتقد أن عزيز على نفسه قد جاوز هذا
دون ذكر ، بل نعتقد أن ستورس لم يرق له أن يورده .

ثم انتقل ستورس الى الوضع السياسى للثورة فقال : وكانت آراء
عزيز على في مسألة المدينة متفائلة وناقدة معا ، لطرائق الشريف حسين
وأساليبه ، مع الاحترام لشخصيته .

وفي هذا الباب رأيت عزيز على أقل نقدا من سعيد على باشا .
وقال عزيز على أنه يعتبر تعيينه « رئيس أركان حرب » للحجاز من الكلام
الفارغ (أوردستورس كلمة « كلام فارغ » على لفظها العربى بحروف
لاتينية هكذا : Kalam Faregh

وهو متأكد أن المدينة المنورة اذا استولى عليها جيش الثورة ، فهو
بعد ذلك متقدم نحو سوريا .

وهنا سألني فورا ومواجهة : هل بريطانيا تريد هذا أولا ؟ فلم أجد نفسي قادرا على الإجابة . ثم استمر هو في الحديث فقال : انه يريد ان يرى العرب قد اجتازوا أزمة الحجاز ولكن لا يرغب مطلقا في المغامرة معهم الى أبعد من ذلك ، اذا كانت بريطانيا تقف في هذا موقف الضد ، لان المغامرة اذا ركبها العرب وبريطانيا ضدهم ، ستفضي بهم الى مآزق هم بغنى عنها . فلذلك كانت نيته أن ينسحب العرب اذا جاءهم النذير بوقته ، وطلب منى بالحاج الجواب على سؤاله المتقدم ، على أن يصل اليه بأية وسيلة أراها صحيحة قبل ٥ نوفمبر في رابع . فاذا لم يبلغه الجواب الى هذا التاريخ (وأنا لا أستطيع ان أضمن له هذا) فلا يستغربن بعد ذلك ماذا سيحدث .

ويرجو أن تقبل معذرتي ، اذا وجد محمولا بالتيار العام .
وأقول انه اذا انسحب من الخدمة ، فاني واثق أنه سينتظم في سلك الخدمة في حكومة مصر ، ويشغل منصب « مدير محافظة » ويكون من الطراز الأول .

وفي احدى رسائل الأستاذ عجاج اشارة الى ما ورد بكتاب ستورس ووصوله الى القنصلية البريطانية بجدة حيث حل على الكولونيل ويلسون ، وكابتن جورج لويد ، الذي كان حاكما عاما لبومباي والذي أصبح - فيما بعد - معتمدا بريطانيا ساميا في مصر .

وكيف علم أن الشريف حسين وصل بعده على ظهر بغلة ونزل في بيت محمد ناصف المقابل للقنصلية .

ويشير ستورس الى الترتيبات البدائية التي أقيمت بمناسبة وصول الحسين .

كما يشير الى زيارات ثلاثة له - لستورس - لجدة من قبل ، كما يشير الى نقطة مهمة متسائل : أيمن بدلا من مطلب الأشراف بالولاية البريطانية ومدافع بريطانيا ان تحشد قوات عربية كافية للعمل ، أم أن ذلك غير ممكن ، ثم يشير الى أن مطالب الأشراف ١٥٠٠ جندي مسلم من الجيش البريطاني ليدافع عن رابع وأبديت مبرراته ، مع أن الوقت قد فات لوقف التقدم التركي وحده .

ويقول ستورس ان ولسون قد أعاد عليه تفاصيل تجاربه في مسألة عزيز علي وخدماته ، ونبهني ان المسألة جد دقيقة ، ولا ينبغي علاجها الا بحذر وعناية وفي مناسبات مواتية .

فبدأ اليأس يدب في نفسي ، كما شعرت .

وبعد ساعتين من البحث والنقد وتقليب الوجوه ، لمح الشريف حسين الى خبيته في أننا لم نرشح نحن من قبلنا جنرا لا مسئما قد يرا يشولى الأعمال العسكرية الحربية . فأجبتة أننا نحن لم يخطر ببالنا - ولو فى الحلم - ان نتدخل فى أموره الداخلية فى مسألة كهذه ، ولكنه ما دام هو قد أثار هذه النقطة من جهته ، فليعف عن صراحتى البنوية بين يديه - وكان الحسين يدعو سنتورس دائما : يا ابنى ، يا عزيزى - فى استرعاء انتباهه الى حالة عزيز علي بك المصرى .

وقلت : لقد لوحظ أنه مع تقديم ما يقرب من ستين ألف بندقية مع ذخيرتها الى الحجاز من الحكومة البريطانية ، لم يبد بعد ان هناك شيئا من انشاء جيش عربى قريب الظهور أو حتى فى طريق التكوين ، هذا . . و « مجلس الحرب الأعلى » فى أوروبا قد بين ان دول الحلفاء قد توصلت الى ان كل دولة حددت - ولو تحديدا عاما مع بعض غموض - ما بوسع كل دولة ان يكون فى طاقتها من الاستعداد والتهيئة للحرب ، الأمر الذى يدفعنى الى السؤال : أليس يا ترى من الممكن أن يستفاد من هذا الضابط العربى الممتاز ، الغنى بالخبرة ، واشتعال الهمة ، وذلك بأن يعهد اليه فى قيادة مستقلة بموازنة معتدلة تمكنه من تدريب نواة جيش وتجهيزها بالسلاح ، وبهذه النواة المنظمة اذا لم يمكن الانقضاخ على المدينة ، فعلى الأقل يمكن سد الطرق الجنوبية فى وجه القوات التركية التى تتقدم زاحفة ، والاشراف يظنون على كل حال أصحاب الكلمة العليا فى جميع الأعمال الحربية .

وإذا شعروا يوما ، وهذا من الاحتياط بأى شك أن عزيز على لم يغير بعد من أساليبه التى كان يتعاطاها مع « الاتحاد والترقى » وظهر منه أن نفسه تسول له أن يمثل دورا كدور « أنور » (أوالى حد أن يخونهم فينضم الى الأتراك) فيعلم الشريف أن بيده زمام المال وهو العصب الأول للحرب ، فيحبسه عنه فيمسى ولا حراك به .

وهنا سأل الشريف عما اذا كان عزيز على مزودا بتوصيات من الحكومة البريطانية ، فأحلتة على مضمون آخر برقية وصلت من السردار حول هذا الموضوع .

فأطرق بضع ثوان ثم قال بلهجة الشبات وتوطيد العزم : « لا تظنوا أننا نضمّر لعزيز على غير الاحترام وحسن التقدير لكفائاته ، وانى أعلن وأصرح لكم فى هذه الساعة أنى منذ الآن قد عينته وزير حربية بموازنة مستقلة تكفى حاجاته » .

فقلت للشريف : واني واثق أن هذا التعيين ليس نقل عزيز علي من الجبهة ، اذ في الجبهة تظهر مقدراته الحربية . فسلم الشريف بهذا ووافق علي أن يبقيه في الجبهة ، وهو - عزيز علي - يختار وكيلا عنه يكون في مكة ينظر في أمور الذخائر والنقل وما يتبع ، ومرتب هذا الوكيل علي الشريف .

واعتبرنا هذا القرار مناسباً محققاً لمقاصده ، لما فيه من الحكمة والدلالة علي بعد نظر الشريف ورجاحة عقله .

وقال انه سيرسل قراره بالتعيين برقيا في صباح اليوم التالي ، وشعرت بكامل الطمأنينة أنه فاعل هذا ومنفذه بكل حسن نية .

ونظرنا الآن في الوقت فاذا بالساعة التاسعة ، اذ طالت جلستنا أكثر من ٣ ساعات ، ثم استأذنا بالانصراف علي أن نعود فنلتقي صباح الغد .

وهذا الحديث مع الشريف ، وأن كان مرضيا موفقا ، غير أن أعصابنا باتت منهوكة القوى بسبب الضجيج المستمر والضوضاء في الخارج ثم تلك الحرارة الزائدة المنبعثة من مصباح غاز الاستلئين .

ثم يقول ستورس : وجئت الشريف صباح اليوم التالي وحدي وجلست معه ساعتين .

واذ كان في الليل قد تلقى من ابنائه الثلاثة رسائل مشجعة ، فوجدته الآن أكثر انتعاشا من الليلة الماضية ، فدعا بسكرتيه الخاص فورا ، وأملى عليه البرقية بتعيين عزيز علي بك ، ولكي يظهر حسن نيته وتصميمه تحول بنشوة فرحته الى أوراق بين يديه ينظر فيها ويذيل كلا منها برأيه الذي سنج له ولو كان غير عملي ، وظهر لي أنه غير مرتاح الى شخص الفاروقي معتمده في القاهرة ويريد تبديله وقال : انا لنأمل في اختيار من نريد بديلا منه هو « محمد طاهر العمرى » ومحمد طاهر العمرى - عجاج نويهض - أحد الضباط العراقيين العاملين في الأحزاب السياسية العربية السرية ، وفي أوائل الحرب كان في جبهة الدردنيل وغاليبولي ثم فر من هناك وأتى مصر واتصل بالحسين أوائل الثورة ، ولكي يتأكد الحسين من شخصيته فقد كشف « العمرى » عن رموز تكفي للتعريف به وإيلائه الثقة ، وجعله الحسين « معتمده » في مصر ، وكان هذا المنصب وقتها علي غاية الأهمية .

ثم دعاه الحسين الى مكة .

وقد وضع العمرى سنة ١٩٢٥ كتابا مهما سماه « تاريخ مقدرات العراق السياسية » فى ثلاثة أجزاء مجموع صفحاتها ما يزيد على ١١٣٤ صفحة ، ومما ضمنه معلوماته عن الثورة الحجازية لما كان فى القاهرة . والكتاب ثمين جدا بمحتوياته ، وأثبت اسمه على الكتاب « محمد طاهر العمرى الموصلى » .

وفى ١١/١١/١٩٦٥ نشرت جريدة « البلد » البغدادية : « ستقوم احدى دور النشر الكبرى فى بيروت بطبع كتاب « مقدرات العراق السياسية » وهو من أهم الكتب التى صدرت عن العراق قبل أكثر من أربعين سنة باسم المرحوم محمد طاهر العمرى (ولم تذكر « البلد » الموصلى كما هو مثبت فى الكتاب) . وهو فى الحقيقة من تأليف شقيقه الفريق « محمد أمين العمرى » أحد كبار ضباط الجيش العراقى الباسل . وسيقدم الأستاذ خيرى العمرى هذا الكتاب بمقدمة مستفيضة . ولكننا ما عدنا نعلم عن هذا الموضوع شيئا .»

ويضيف ستورس الى ذلك قوله : كان الحسين يرغب بالحاج ، كرغبة عبد الله فى آخر مقابلة بيننا أن يكون بينه وبين دار الاعتماد « شيفرة » خاصة .

وبدا لى واضحا ان هذه الرغبة منه ومن عبد الله ما مبعثا ما فى نفسيهما من الرغبة فى اتخاذ مظهر لياقة يتطلبها الموقف بيننا وبينهم مما يوحى بموقف الند من الند ، ولا يدخل فى هذا السبب شىء من قلة الثقة بالكولونيل ولسون (قنصل الانكليز فى جدة) اذ بينه وبين الشريف الثقة التامة المتبادلة .

★ ★ ★

وقبل ان أبرح جدة المرة الأخيرة ، اتصلت بمكاملة تليفونيا لاكرر ملاحظتى التى قلتها لعبد الله بشأن اتخاذ لقب « الملك » فأذنته بان القيام بهذه الخطوة سيلقى جملة اعتراضات مختلفة ليست خفية عليه ، اذ تكون هذه الخطوة قد اتخذت من جهة الحسين دون استشارة حليفته الكبرى بريطانيا العظمى ، فيخلق ذلك ارتباكا لجميع الفرقاء .

وما زلت بعبد الله فى الحوار التليفونى حتى أقنعتته بوجوب تأجيل المسألة حتى يتسنى للحكومة البريطانية درسها ووزنها واعتبار جميع مقتضياتها .

ومن ابتهاجى بهذه النتيجة الحسنة الناجحة ، فقد أبرقت بها الى القاهرة ، ثم ركبت الباخرة « نورث North » ، فلما وصلت السويس قابلتني الأنباء « السارة » ان الشريف حسين أعلن « ملكيته » قبل ثلاثة أيام .

والآن بالنظر الى ما بيننا من الصراحة والصدقة الوثيقة ، فقد تملكنى الاستياء من هذه المعاملة . فلما جئت جدة هذه المرة الأخيرة أخبرت جلالتى بغير موارد البتة عما نالنى من شعور الاستياء . فوضع يده على كتفى ، وأخذ يردد المثل العربى المسجع :

ضرب الحبيب

كأكل الزبيب

وحجارتو رمان

ويذكر عجاج أن ستورس قد وضع حاشية لهذا الكلام بعد العبارة التالية بها ، نقل ألفاظ هذا الكلام بالحروف اللاتينية ، وترجمه الى الانكليزية ، ثم علق على هذا فى الحاشية فقال : « رسائل الحسين ربما كان يغلفها الغموض فى تركيبها ، ولكنها قلما تكون خالية من الروعة والبهجة كقوله فى احدى رسائله : «أما بخصوص أولادى ، فعبد الله لا يزال محاضرا الطائف محيطا بالأترار هناك ، مفضلا هذه المطاولة بالحصار على سيفك الدماء .

وكان عبد الله أحيانا ينفرد برأيه ، فقد كتب مرة : « انى أشكركم يا عزيزى على ما جرى من ذكر لى عندكم وأنا فى « وادى العيص » .

وقال ستورس بشأن مثل « ضرب الحبيب زبيب » : وكأنه أراد بهذا ان يراضينى مراضاة تمحو أثر ما فعل ، فلم يسعنى أن أتحمل هذا وارتضيه منه تصفية نهائية لسوء التفاهم . الأمر الذى كلفه فى النهاية ثمنا غاليا .

★ ★ ★

ثم يعلق عجاج على ذلك بقوله : ولا نرى من الحكمة أن نمر بهذه العبارة دون ان نعلق عليها بشيء . وأول ما نقول وآخر ما نقول ان هذه عبارة شماتة خبيثة جدا .

ثم ينتقل عجاج الى بقية ما كتبه ستورس نقلا على لسان الحسين
بعد ان ذكر : ضرب الحبيب : فليكن هم الذين يذكروننى مثلكم .
وسروركم بتوفيقى ينطبق عليه قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كيلة كما أن عين البغض تبدى المساويا

وانما ذكر ستورس هذا البيت بمعناه ولم يورده بالعربية ، ولشيوع
هذا على الألسنة ، فليس من أحد الا ويعلم ان هذا من الأبيات التى تسير
بها الركبان . ثم ختم عبد الله بقوله : « أطال الله بعمركم ووفقكم ،
فأنتم مصدر كل المساعدة التى نالها العرب فى نهضتهم لاسترداد
مجدهم ، ولا أزيد عن هذا شيئا » .

اننا نعلم جيدا ان ستورس هذا ، لما كان قد كرر طبعات كتابه
« مشرقيات » وكان فى كل مرة يعدل وينقح ويزيد ، فقد أراد ان يعرب
بالكناية عن خسران الحسين عرشه فى النهاية ولدينا هنا أوسع مجال
لبسط الكلام المتعلق بهذا الموضوع الدقيق .

ولكننا لا نرى نفسنا يصدده والمحور هو عزيز على المصرى العربى
الفريد الطراز .

وأما لورانس . . فقد كتب عنه عرب وانكليز وسائر الافرنج
كثيرون .

وأما ستورس . . وهو أستاذة ، وزارعه فى الحجاز ، وحاكم القدس
٨ سنين عسكريا ومدنيا ، فلم يعرفه العرب بعد معرفة وافية ، ولا سيما
كاد ينطوى الجيل الذى عرف ستورس فى القدس ، والجيل الصاعد
لا يعرف عنه شيئا ، ومن يعرف عنه شيئا كان نزرا قليلا .

ثم ان صلات الارتباط بين ستورس ولورانس فى القاهرة أول
الحرب العامة الأولى تعطينا صورة العمل لاجتذاب العرب الى الحلفاء صورة
مضحكة من ناحية ، مليئة بالعبر من مئة ناحية .

ويستأنف ستورس كلامه فيقول :

وأضاف الحسين فى حديثه لى فقال : بما ان دار الاعتماد فى القاهرة
قد خاطبته فى المكاتبات الرسمية بلقب الخلافة . . وهنا وضع ستورس
عبارة معترضة فى سياق الكلام ، وسيجها بحاصرتين وهى (الحسين لم
يكن وقتها يطمح الى الخلافة) فهو - يستمر ستورس فى الكلام - يعتبر
ان الوعاء الأكبر يستوعب ما هو أصغر أى أن « الخلافة » تستوعب

« الملكية » فمن لزوم ما لا يلزم ان يعلمنا بعد ذلك بقراره لاتخاذ لقب « ملك » .

فقلت له ملاحظتى فورا : وهى ان جميع ما ورد عليه من مكاتبات رسمية من دار الاعتماد بالقاهرة قد مر من بين يدي ، فلم تقع عيتاى على شىء من هذا النوع من المراسلات التى يشير اليها .

ثم قال ستورس : ولكنى لخبرتى بأساليبه ، وخبرتى السابقة مع عبد الله ، فقد اتضح لى أن الحسين قد يعرض على فورا أن يطلب من مكة موافاته بالمراسلات التى هى موضوع البحث ، وهى غير موجودة ، فيقع فى اخراج أكون أنا قد سببته له ، وهذا على ان اتحاشاه أدبا ولياقة .

فأمسكت عن متابعة الحوار ، مع علمى ان طريقة حفظ الارشيف فى حكومته شىء عقيم ، فهو يستفيد من كون الارشيف بعيدا عنا مكانا ، استفادة تحسن موقفه الذى يدعيه ، وفضلا عن هذا فانه لا سبيل « لغير مؤمن » أن يطلع عليه .

(ان ستورس كما علق الأستاذ عجاج نويهض ، لم يستعمل هذه الكلمة « غير مؤمن » بهذه الصيغة وانما استعمل كلمة "Infidel" المعروفة ، وهذه تارة تفيد معنى « غير مؤمن » وطورا تفيد « كافر » فاستعملنا نحن هنا ما هو ألطف تعبيراً) .

ووقف ستورس فى هذا الحوار عند هذا الحد ثم قال : وزرت الشريف « فيصل » حول التاسعة وربع صباحا .

والملاحظة الوحيدة التى أبديتها له جعلته حريصا على كل موطن قدم فى ينبع .

وأعجبت بطلعته ومجياه كل الاعجاب مما جعلنى اتخيل فيه العربى القديم الاسطورى ، النبيل الشمائل ، وبدا لى فى قامته أنحف قليلا مما كنت أتصور .

وكان معه أخوه الأصغر زيد بك ، ولما رفعت كم ذراعه لأكشف هل فى معصمه الساعة الذهبية التى أهديتها له فى حزيان الماضى ، اعترف لى بأن « جاءه من هو أقوى منه وأخذ منه الساعة بالقوة » .

وهنا ستورس حسب عاداته كثيرا ما يستعين بالعبارات المعترضة فوضع بين حاضرتين هذا : « وعلمت ان الذى أخذها هو عبد الله ، وكان عبد الله قبيل ذلك قد تزوج للمرة الثانية » .

وبعد تناول القهوة وتبادل حديث المجاملات ، قال لى فيصل ،
وتقاسيم وجهه تنبىء عن رجل لاحقه خيبة الآمال ، وكرر بأسلوب ناعم
شكاواه من تأخرنا فى تقديم المدفعية المطلوبة منذ أربعة أشهر .

وقال : ان لا فائدة من تكرار الشكوى .

فاغتنمت الفرصة التى لاحت لى الآن وقلت له : ان الانسحاب الذى
انسحبه العرب أخيرا سيولد فيهم حب الانتقام ، ويعلى فيهم روح أخذ
الثأر ، وبالتالي سينالون من العدو نيلا ييسط من ذكرهم الحميد فى العالم
حتى ولو كانوا فى الوقت الحاضر ، على أنه من الضرورة التى لا مندوحة
عنها ، ان يتولى نهضة العرب قيادة واحدة عليها مستقلة فى عملها
الحربى .

ولما كان لا يوجد مسلم آخر يجمع من المزايا المطلوبة ما يجمعه
عزيز على ، فأملى ان تصح الرؤية عند الشريف حسين ، فيملك الشجاعة
كلها ويجعل من تعيينه هذا الضابط حقيقة ملموسة .

ولم يكن أحد منا يملك امكانيات عزيز المصرى ليضطلع بتلك
المسئوليات

ومن وثائق المؤرخ الكبير الأستاذ عجاج نويهض ، التى نحتفظ
بها : تحت عنوان ..

المرحوم عزيز على المصرى

وموقفه من الدستور العثمانى ١٩٠٨

١ - كان المرحوم عزيز على رفيقا لعم أنور باشا - واسمه خليل
بك - فى المدرسة الحربية ، فتخاصما فلطمه عزيز على وهما وقتئذ طالبان .

ومضت الحادثة ومثلها يقع فى المدارس بين الطلاب .

وذكر لى عبد الستار السندروسى - من طرابلس الشام - وهو
لشهييد عبد السريم قاسم ، الخليل كهف ومأمن (من ١٩٠٨ - ١٩١٤)
أنه سمع هذا من عزيز على نفسه .

٢ - قال عزيز على لعبد الستار : أنا ضربت عمه فى المدرسة .
وحين وقوع هذه الحادثة لم يكن أنور قد برز بعد فى الحياة العسكرية ،

والانقلاب الدستوري العثماني في ١٩٠٨ - ١٩٠٩ . وهناك فرق في السن بين عزيز علي ، وأنور . فعزیز علی أكبر منه بمرحلة كبيرة .

٣ - قبل « الدستور » كان عزيز علي قد تخرج . وأخذ بالخدمة العسكرية ، وكان نصيبه في مقاومة ثوار البلغار في بلغاريا قبل انسلاخها عن الدولة كبيرا .

وكان معدودا من أهم الضباط الموجودين في منطقة الروملي . ومن أركان الجيش العثماني .

٤ - هو أول من فكر في الثورة على السلطان عبد الحميد ليجرى انقلابا دستوريا وذلك بصفته عضوا في الحلقة السرية في جمعية الاتحاد والترقي .

٥ - لما وقع الانقلاب ١٩٠٨ كان عزيز علي من أول الداخلين الى الآستانة على رأس قوته العسكرية عن طريق « كلخانة » . . وكلخانة هو القسم الذي كانت فيه قصور ملوك الروم سابقا ثم انتقل اليه سلاطين آل عثمان .

وفي عهد عبد الحميد بنى قصر ضو له بعنجة ومعناها الحديقة الردم كانت بحرا فردمه .

وأخذ يلتصق اسمه وتنمو هالة حول شخصيته ، فأخذ الضباط الترك يحسدونه ويغبطونه حقه ويقللون من فضله حتى انتهى هذا الى الحقد الدفين عليه فجعل هو ينفر منهم هنا بذور الأسباب الحقيقية لعود أنور له بمرصد لما صار أنور ذا شأن في (الاتحاد والترقي) ولا سيما في حرب طرابلس ١٩١١ . وأنور لم ينس ان عزيز علي لطم عمه في المدرسة يوما ما .

٦ - أخبرني السندروسى ان عزيز علي أخذ من الآن يتحول بكامل تفكيره الى الاشتغال بالقضية العربية . ولكنه من أول تفكيره لم يذهب الى حد هدم السلطنة بل أقصى ما ذهب اليه ان تنال الأمة العربية حقوقها على حسب مساحتها وعدد سكانها وخطورة المواقع الجغرافية فيها . . الخ وكان متنبها الى هذا حتى لا تتعرض البلاد الى أن يطمع فيها الأجانب .

٧ - لما وقعت حرب طرابلس الغرب ، ذهب عزيز علي الى برقة ، وسنغازي متطوعا . وكان أنور باشا القائد العام . فلم يمدد بالسلاح والعدد ، ولا الدولة فعلت شيئا من هذا ، ووقتئذ أنور هو الدولة ، كانت

المؤن والذخائر والأسلحة ترسل الى أنور وهو يتصرف بها كما يشاء فلم يعط عزيز على شيئا .

٨ - فطلب عزيز على من أنور نصيب قوته ورجاله من السلاح والمال والعتاد . فلم يرد عليه أنور . فعند ذلك همدده : انى سأترك الحرب مع الطليان وآتيك لأخذ حقى منك بالقوة .

٩ - فأرسل اليه أنور بعض ما طلب خوفا من تنفيذ التهديد .

ومن بعد هذا بات الأمر عداوة . . . اذا كانت كامنة فى المظهر فهى سافرة بالمعنى . وقال لى السندروسى « وبات أنور يضمم الشر لعزيز على ليبطش به أول فرصة ممكنة » .

١٠ - بعد ان عاد من برقة الى الآستانة لم يبادروه بالجفاء فورا ولا خاشنوه ، بل جعلوا يوكلون اليه واجبات ومهمات عسكرية حتى حيكت التهمة ولفقت .

فاعتقل أوائل ١٩١٤ ولكنه هو كان يشعر بالجو المسمم حوله ، وحسب انهم قد يغتالونه بمكيده ، وكان « الاتحاديون » الى الآن قد اغتالوا كثيرين .

وكانت كل حادثة اغتيال تترك صداها فى السلطنة . وفى الخارج أيضا .

١١ - فاشترى عزيز على مسدسين ، واحدا لصديقه عبد الكريم قاسم الخليل رئيس المنتدى العربى فى الآستانة والآخر لصديق آخر يعز عليه ، فأعطى عبد الكريم مسدسه وأوصاه بالحذر من (الاتحاديين) لأنهم قرروا اغتيال عدة رؤوس من العرب الذين فى الآستانة .

١٢ - قال لى السندروسى : زرت عزيز على فى محل التوقيف (الهنجر الاحتياطى) مع جماعة من اخواننا وأذكر جيدا ان كان لديه طبيب أستاذ فرنسى يعالج أضراره باذن من السلطة ويظهر أن العلاج كان مؤلما ألما لا يطاق وهو رجل عسكرى فقال لزمائريه من اخوانه : « أرجو ان تتركونى وحدى لأنى لا أريد ان ترونى وأنا اتألم » .

وقد نقد عزيز على الطبيب الفرنسى خمسين ذهبيا فاستقلها هذا فأحاله على صديقه الدكتور حسين حيدر فنقده المزيد وكان حيدر من عداد الزائرين .

ويستمر السندروسى : وجاءنى نورى السعيد - أحد الضباط العراقيين - بعد زيارتنا هذه لعزيز على وطلب منى مرافقته فى عربة

لزيارة عزيز على اذا لم يكن يرغب فى أن يكون لزيارته أى مظهر لافت للنظر ، فركبت العرببة معه حتى وصلنا باب السر عسكرية (هذا الاسم قبل اعلان الدستور العثمانى وهو مفرد وزارة الحربية) . ولما وصلنا الباب منعنا الحرس بالكلمة المعروفة بالتركية « بساق » أى ممنوع الدخول ، فعدنا أدراجنا .

١٣ - محاكمة عزيز على كانت عسكرية سرية لم يحضرها أحد ، ولم يكن له أى محام يدافع عنه . ولما أطلق سراحه نقل من السجن الى الباخرة الراسية فى « غلطة » . وكان السندروسى من اخوانه الذين ذهبوا لوداعه وكلهم ضباط عرب يلبسون البستهم العسكرية متقلدين سيوفهم .

ولما رأهم عزيز على هذه الأهبة قال لهم : هذا كثير غمرتمونى بالطافكم . فأجابوه : هذا من مقامك عندنا !!

قال السندروسى - وكان عربيا مدنيا لاعسكريا من طرابلس الشام توفى ١٩٥٨ - ولم أره بعد ذلك ، وهذا أوائل سنة ١٩١٤ .

١٤ - أراد الأتراك ان يتخلصوا من عزيز على بأى سبب ، فوعده بالترقية (الترقية) من (بيم باشى) قائد الى قائمقام ، وان يعيدوا اليه صفة أركان حرب بدلا من (ممتاز) وهى الصفة التى كان قد استحقها بالامتحان بعد دراسة سنتين زائدتين عما يدرسه عادة الضباط . وبدلا من ان يعطوه هذه الصفة حين تخرجه حبسوها عنه وأعطوه لقب (ممتاز) وهى أقل مرتبة من (أركان حرب) مع انه يتقلد الرتبة نفسها أى يوزباشى أركان حرب . وطلبوا ان يذهب الى اليمن . فتردد فى القبول . ويقول السندروسى : ولكننا أقنعناه بضرورة الذهاب من أجل المصلحة فى اليمن .

١٥ - يقول السندروسى : أرسلنى فى ذلك الوقت عبد الكريم قاسم الخليل لمباحثة عزيز على فى قضية اليمن وان ادخله معنا فى جمعية الشبيبة العربية السرية اذ أمكن . وجمعية الشبيبة العربية فى الآستانة ألفت سنة ١٩٠٦ من نفر من أخلص العاملين ومنهم الشهيد عبد الكريم قاسم الخليل الذى أعدم ١٩١٦ ومحج الدين الخطيب وثلاثة أو أربعة آخرون . وهذا فى أواخر عهد عبد الحميد .

وكانت جمعية الاتحاد والترقى تعمل فى حيزها وهى سرية ، وبعد اعلان الدستور ١٩٠٨ لم تر الشبيبة ان تكشف عنها القناع فبقيت سرية ولكنها أنشأت (المنتدى الأدبى) وجعلته وقاء خارجيا لها .

وبقي هذا الى ١٩١٤ وكانت الحفلات العربية الكبرى تقام في المنتدى الذي مثل دوره خير تمثيل وكان عدد الطلاب العرب بالآستانة المؤيدين للمنتدى لا يقلون عن ألف طالب عراقي وسوري ولبناني واردني وحجازي ويمنى .

المؤتمر العربي في باريس دعامته : الشبيبة وحزب اللامركزية ، وكانت الصداقة بينهما وثيقة ، ولأمر ما لم يشأ عبد الكريم الخليل أن يفتاحه في ذلك بنفسه مباشرة وهو رئيس الجمعية والمنتدى الأدبي .

وكان عزيز يتردد على المنتدى ، فلما ذهبت اليه وجدته على السلم خارج بيته فدعاني الى داخل البيت .

١٦ - كنا في ذلك الوقت قد أرسلنا مكاتبة خاصة الى امام اليمن ويدعى حميد الدين مع « أحمد المجاهد » اليمني ووجهنا الرسول الى مصر الى السيد محمد رشيد رضا لينقده دراهم .

تمكن أحمد من الوصول الى اليمن . ونتيجة الخطة التي اتفق عليها الوفد اليمني برئاسة صالح الضيلمي مندوب السيد الصحباني وفهمنا معا من اخواننا في الأركان حربية في الآستانة . وذهب عزيز الى اليمن ولا أدري اذا كان قد أعلمه أحد اخواننا بقصة أحمد المجاهد ورسالتنا الى الامام يحيى ؟

١٧ - فلما وصل الى اليمن وجد القائد أن خطة الحرب قد فشلت اذ كان الامام يحيى قد بادر الى العمل بموجب الرسالة التي وصلته فأرسل قوة هاجمت مغاقل الصحباني واستولت عليها ، وكان القائد ارنأووطي الأصل ، وهذا ما ساعد عزيز على اقناعه بأفضلية الصلح مع الامام وهكذا كان .

١٨ - يوم اعتقل عزيز على في الآستانة أرسلنا عمر زكي الأفيوني (هو من طرابلس الشام ومن العاملين في القضية ، وتولى عدة مناصب رسمية وأعمال في الأردن بعد الحرب الأولى . كان أول مبعوث دبلوماسي بدرجة قنصل ثم وزير مفوض للأردن في بغداد) الى بيروت ودمشق وطرابلس الشام ، لترسل برقيات الاحتجاج من الأهالي الى الآستانة تحمل عباراتها روح العنف والتهديد العلني فكان ذلك . ومن الذين انفردوا ببرقية من هذا الطراز صالح حيدر من رجالات بعلمك فتحفظت السلطات عليه .

ولما جاء أحمد جمال باشا السفاح الى سوريا قائد الجيش الرابع وفي رأسه خطة الاطاحة بالرؤوس العربية عن طريق المجلس العسكري

المعروف بالمجلس العربى بالاصطلاح التركى . اعتقل السفاح صالحا وجاء به الى عاليه وكان من الشهداء الذين اعدموا شنقا فى بيروت .

١٩ - وذهب عمر زكى الى مصر . ونزل فى بيت والد الملكة فريدة (زوجة ذو الفقار شقيقة عزيز على وجعل عمر يباشر نشاطه فى القاهرة ، فعقدت اجتماعات كبيرة منها اجتماع برئاسة شيخ الأزهر والقيت الخطب وأقيمت المظاهرات تطالب بالافراج عن (بطل برقة) عزيز على . وكان السيد رشيد رضا من لواء الحركة ومن خطباء أحد الاجتماعات الكبرى وهو سند الحركة فى مصر .

٢٠ - وأخيرا رثى دفعا للمكروه عن عزيز على - وأنور هو القابض على الأعنة - ان تطلب وسيطة المندوب السامى البريطانى فى مصر ، وكان ذلك .

وقام المندوب بالوساطة الفعالة اذ سره ذلك اكتسابا لليد الحسنى فى مصر .

وقام سفير بريطانيا فى الآستانة فيما يلزم فى القضية وكان هذا التدخل أكبر عامل مؤثر فى اطلاق سراح عزيز على .

ولكن العامل الأكبر بلا ريب هو الحركة الشعبية الاحتجاجية فى مصر وسورية يتوجها اجتماع الأزهر .

أما عن زكى وكان وقتها طالبا فى المدرسة الملكية (السلطانية) فى الآستانة فرحلته هذه الى الشام ومصر فوتت عليه المدة المشروطة فى الدوام على حضور الدروس . فلما عاد الى الآستانة ووجد أن مدة حضوره الدروس ناقصة رفض قبوله للامتحان .

قال السندروسى : فكلفنا عبد الحميد الزهراوى (من الشهداء الذين أعدمهم السفاح) بمراجعة وزير المعارف فكلف هو الشيخ أسعد الشقيرى (والد أحمد الشقيرى) وكان وزير المعارف يومئذ عبد الحميد شرف فذهب اليه الشقيرى وكان الوزير فى مجلس المبعوثان (مجلس النواب) فجمع فى أسلوب مراجعته بين الجد والهزل الذى يقبله الوزير من الشقيرى .

وكان الشقيرى فى هذا الأسلوب بارعا جدا ومازال بالوزير حتى جعله يوافق على مطلبه فدخل عمر زكى الامتحانات ونجح .

٢١ - قال لى السندروسى : روى لى الصحافى المشهور ابراهيم سليم النجار ، وكان اذ ذاك يرأسل المقطم وفى الوقت نفسه يصدر جريدة الحق

في الآستانة . . . روى لي قصة عزيز علي في بلغاريا وهو يكافح العصابات البلغارية الناقمة فقال :

ألف كاتب صحفي فرنسي - جورج ريموند مراسل الستراسيون - كتابا بالفرنسية عنوانه « مترو » وهو اسم فتاة بلغارية ، وكان هذا المؤلف الفرنسي صديقا حميما لعزير علي وهو مقيم في الآستانة يرسل صحفه من دار السلطنة .

وكان عزير علي قد سبق له الاشتراك الفعلي في مكافحة العصابات البلغارية واشتهرت بسالته وعالي دربته في فنون قتال تلك العصابات . وفي أثناء هذا الكفاح حدث له أن اتصل بفتاة بلغارية اسمها « مترو » فأحبته لنبله ولشجاعته ، فكانت شمائل فروسيته تجعلها تزداد حبا له ، وهو بادلها الحب حبا شريفا ، وقد كان موقنا انها هي في ميلها اليه صادقة مخلصه .

فعرف قومها من رجال العصابات صلتها بعزير علي فاعتدوا على عفافها .

ولما بلغ عزير علي عدوانهم هذا على مترو اشتد وازداد استهسا في ضرب العصابات حتى انتقم للفتاة شر انتقام .

وهو بعد ذلك طلب منها الزواج فقالت له :

كنت أريد أن أقدم الى البطل عزير علي مترو كاملة .

أما الآن فمترو باتت لا تصلح لتكون زوجة لعزير علي . ثم أبت الزواج وانتحرت .

وكانت هذه الواقعة هي مدار قصة الرواية التي ألفها جورج ريموند مراسل الستراسيون .

جورج هذا يسعى لدى السفارة الفرنسية لتدعو باقي السفراء وكبار رجال الأتراك كطلعت وأنور وجمال الى السفارة الفرنسية لوليمة ، وقد كان ذلك وخطب جورج ريموند مشيدا ببطولة عزير علي .

وكانت خطبته على المائدة فتأثر الجميع من كلامه حتى حرك عواطفهم وبدا أثر ذلك على وجوههم إلا أنور باشا الذي بقي وجهه كقطعة الرخام .

ومن هذا كله احتشدت المساعي الطيبة فصدر العفو السلطاني عن عزيز علي ، علي أن يخرج من الآستانة . فخرج وأتى مصر وأعطى وزارة الحربية في الآستانة عنوانه حتى اذا احتاجت اليه الدولة لبي مناداتها .

انتهى الكلام الذي رواه للسندروسى ابراهيم سليم النجار الذي هو من أبرز الصحفيين العرب في عهد القضية العربية في الآستانة ومصر وباريس .

قضى حياته في السياسة الصحافية متنقلا بين الآستانة وجملّة عواصم عربية وغربية ، مدة الحرب الأولى . وجد في باريس وأصدر هناك جريدة عربية تخدم مصلحة للحلفاء والعرب . وسنة ١٩٢٠ جاء بيت المقدس وانشأ جريدة « لسان العرب » يومية وهي أول جريدة تصدر في فلسطين يومية .

وبعد سنين قليلة انتقل الى دمشق وعليها الانتداب الفرنسي ، فعمل مدة في صحافة الشام ثم انتقل الى بيروت واستقر فيها . وهو لبناني الأصل فعمل في مجلس النواب اللبناني موظفا ديوانيا وأصدر صحيفة . وكانت وفاته بعد ١٩٥٠ بقليل .

٢٢ - واني أقول تعليقا على ما تقدم من رواية النجار للسندروسى وذلك نقطة مهمة في معرفة الجهات والعوامل التي آزر بعضها بعضا في نيل العفو عن عزيز علي وقد حكم عليه بالاعدام والتهمة ملفقة وهزا بها حتى عقلاء الأتراك والسفراء الأجانب في الآستانة الذين كانوا في مقدمة الناقدين . فقد ذكر المؤرخ العراقي أحمد عزت الأعظمي (توفي ١٩٣٦) في الجزء الرابع من كتابه « القضية العربية » المطبوع في بغداد ١٩٣٢ قصة عزيز علي من وجهة عامة ونقل من مذكرات أحمد جمال باشا ، يتعلق بالوساطة التي يقول أحمد جمال أنه هو قد قام بها لدى زميله أنور . . ويذكر أحمد جمال مراجعة جورج ريموند له ، ونعتقد ان المقصود بالمراجعة ، الخطبة التي القاها جورج ريموند على مائدة السفارة الفرنسية التي ضمت السفراء وكبار رجال الأتراك .

ويذكر أحمد جمال صورة الرسالة التي أنفذها في صباح اليوم التالي الى أنور يلح عليه فيها بأن يطلب من السلطان العفو عن عزيز علي لأن سوء القباله التي ستلحق أنور من هذه التهمة أشد من البطش بعزير علي .

وقد نيل العفو .

وأما جمال باشا فإنه على ما نعتقد أراد إيلاء نفسه الفضل في هذا وهو معلق العشرات ظلما في بيروت ودمشق بعد سنتين من هذا التاريخ ليظهر أنه هو حامل أنور على طلب العفو من السلطان .

ونكرر ما سبق قوله من قيام الحركة الشعبية الاحتجاجية في مصر والشام ، وبرقيات التهديد الشعبى ، ومساعى السفراء ، ومأدبة السفارة الفرنسية ، وخطبة جورج ريموند - كل هذا تكونت منه القوة الملحة التى فازت بالعفو .

وكتب لنا الأستاذ عجاج نويهض أيضا السطور التالية :

« فى حياة عزيز على حوادث كبار تظهر المآزق التى اجتازها فى كل مرحلة من مراحل نضاله . ونرجو ان يكون هذا العربى الكبير قد ترك مذكرات تشتمل انطباعاته ، وهو يعارك القوى المناوئة من ترك وانكليز وغيرهم .

ثم ان قصة حياته تتبع خيوطا دقيقة جدا ، وخفية جدا ، فعلى ان نلم بطبيعة كل خيط ان أمكن .

وان مسأله مع « الاتحاديين » وهؤلاء يرأسهم فى الحربية أنور باشا ، ثم محاولة القضاء عليه عن طريق التهمة والمحاكمة العسكرية السرية ، والحكم عليه طبعا ظلما صراحا بالاعدام ثم مساعى العفو كل هذه القضية نعتقد أنها الأولى خطورة فى حياته .

وقبل أن ننتقل الى أى خيط آخر علينا أن نوجز باطل التهمة التى ظل قادة الترك أياما وأسابيع وهم يحوكونها .

وخلاصتها اتهامه بانفاقه ثلاثين ألف ليرة عثمانية ذهباً سلمه اياها أنور فى طرابلس ولم يقدم عن كيفية انفاقها حسابا .

وأنه أساء معاملة الضباط الأتراك ولكنهم لم يأخذوه بهذه التهمة أو أى غيرها الا بعد عودته من برقة واستقالته من الجيش . فلما استقال أخذوا بحياكة المكائد له . وهو كان يقظا جدا . ولعلمهم لو استطاعوا اغتياله ، كما اغتالوا غيره لما ترددوا لحظة ، ولكنهم لم يجدوا سبيلا ميسورا الى الاغتيال .

والمعروف عند اخوانه وأعوانه ورفقائه ان الترك خشوا من استقالته خشية كبيرة .

وذلك لأنه سينصرف بعد الاستقالة الى العمل في الحركة العربية المناوئة للحركة التركية الطورانية وهو سيد مطاع ، وقائد مجرب ونابهة في الفنون العسكرية .

ونعتقد أن المازق الثاني الذي لاقاه عزيز علي : اخراجه من الحجاز بعد الثورة العربية هناك عام ١٩١٦ : اخراجا لعبت فيه الدسائس القريبة والبعيدة والذين اشتركوا في ثورة الحسين بن علي من ضباط وسادة معظمهم من اخواننا أبناء العراق ثم أبناء سورية . ثم أبناء الأقطار العربية الأخرى . ولا ندري مبلغ وقوفهم على الحقائق التي أذكرها الآن من ينابيعها :

الحسين بن علي كان قد استدعى عزيز علي من مصر وولاه القيادة . لم يلبث عزيز علي أن أخذ يحس طريقة بطء الانكليز في المساندة وفي تقديم الذخائر والأسلحة . كما شاهد هذا (الأمير) عبد الله المسؤول وقتئذ عن المنطقة الشرقية وعلى يديه سقطت (الطائف) .

قال لي السندروسى : وسمعت هذا بنفسى من الملك عبد الله في عمان ، في مجالسه الخاصة ، ولكن مشاهدات عبد الله كانت أسبق . فصمم عزيز علي على شيء ، فجمع كبار الضباط اخوانه الذين يثق بهم ويعملون معه ويعرفهم ويعرفونه معرفة تامة عبر « حزب العهد » من أيام الأستتالة . وأخبرهم بخطته وهي جمع القوات العربية وضرب القوات التركية في أضعف نقطة ، وإخراج الغلبة عليهم إلى حد يجعلهم يفكرون في المصير - مصيرهم المقبل على الانهيار ، ومصير الثورة المتبيل على الانتصار - وبعد ذلك وتوطيد الموقف ، مفاتحة الترك بالصلح .

المعلومات التي وصلتنا عن هذه الخطة لم تذكر أبعد من هذا الرأي . فقام أحد أولئك الضباط الذين كانوا حاضرين ، وأبلغ الأمير علياً في عزيز علي وخطته ومرامه .

فجمع الأمير أولئك الضباط اليه وخاطبهم بأن هذا مضر . واستل الخنجر من وسطه كأنه يريد الانتحار ايشارا على تنفيذ خطة عزيز علي فبادره الضباط بأن أمسكوا بيده ، ومنعوه من أن يلحق بنفسه أذى وأقسموا له بالطاعة . فقيض الحسين بن علي وأولاده على ناصية الحال . وليس من غير المعقول ان يكون الانكليز في معزل خفى عن هذا كله ثم تدبير أمر اخراج عزيز علي من الحجاز . فأخرج وعاد إلى مصر .

قال لي السندروسى فى عمان سنة ١٩٥٣ - ١٩٥٤ : هذا ما سمعته
بالحرف من رشيد المدفعى فى عمان فى جلسة خاصة اشتمت فيها غضبه
على الانكليز .

ولما اخذنا باستعادة اخبار الماضى قال رشيد بلهفة محترقة « أنا
الحق على .. ! أنا الحق على .. !! » . فسألته ماذا تعنى .. ؟ فسر لنا
ما ذكر هنا . وقال انه كان يعتقد وقتئذ أن عمل عزيز على لو نفذ لكان
ضارا بمصلحة الغرب .

وانه هو وقتئذ لم يكن متمرسا بحقائق الاستعمار البريطانى كما
هو متمرس اليوم . وبقي رشيد المدفعى فى الأردن حتى توفي فيها
واشترى بيتا فى مدينة الصلت وسكن فيه . وأما بقاؤه هنا ، وهو
شخصية عراقية محترمة وكان بوسعه الرجوع الى العراق وبلوغ ما بلغه
رفقاؤه من رجالات الثورة من عمل فى الحكومة العراقية فالسبب فيه كما
يعتقده السندروسى وقال لى : ظن رشيد فى نفسه ان اخوانه الضباط
نقموا عليه بما كان منه وكان ذلك سبب اخراج عزيز على من الحجاز
بعد اقامته فيه بضعة أشهر .

للعلم .. رشيد المدفعى بعد الحرب العامة أقام فى شرق الأردن
(اماره الأمير عبد الله) وشغل مناصب ادارية ، وبقي الى ما بعد ١٩٣٠
وهو ليست له صلة نسب بينه وبين جميل المدفعى من رؤساء الوزارة
العراقية السابقين . ورشيد انما لقب بالمدفعى لأنه كان أيام الخدمة
العسكرية يعمل على المدفع .

وهذا آخر ما دونت من أخبار عزيز على ، أخذتها من السندروسى :
ومما يجب ان نذكره ان عزيز على عندما كان فى الآستانة كان يفكر
بأنه من الممكن أحداث ثورة عربية تبتدىء فى جبل لبنان الكثير الأودية
والمرتفعات الشامخة . وكان أصدقاؤه من لبنان يزينون له الفكرة .

وأخذ بهذه الفكرة على ما يظهر لما رأى مصير بلاد العرب على أيدي
الحلفاء فى نهاية الحرب ولكن بعد عقد الهدنة خريف ١٩١٨ عدل عن هذا
لما رأى من موقف فريق من اللبنانيين الموقف الموالى لفرنسا .

ويمضى عجاج نويهض قائلا :

عرفت عزيز على سنة ١٩٢٥ فى القاهرة مرة واحدة عن كتيب . فى
تلك السنة - الربيع - صدرت الطبعة الأولى من كتابى « حاضري العالم
الاسلامى » وكان الأمير عادل أرسلان فى القاهرة هو ونفر من اخوانه
الذين أقصاهم الانكليز من شرق الأردن (١٩٢٣ - ١٩٢٤) وفيهم رشيد

طلّيع وخير الدين الزركلى وفؤاد سليم وسامى السراج منضمين الى اخوانهم الذين هم فى مصر من قبل . وكانت القاهرة وقتها تضج بالنشاط السياسى المصرى على يد سعد زغلول والنشاط المصرى العربى عبر ارهاط السياسة العرب الذين انحدروا الى مصر من العراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين وبعض أقطار الشمال الأفريقى كما كان التعبير وقتئذ . فكانت القاهرة ملتقى العقول العربية .

فقال لى الأمير عادل يوما : هلم بنا الى زيارة عزيز على . فسررت أيما سرور لأنى أعد هذا من الأمانى ولم يسبق لى أن رأيت عزيز على من قبل ، ولكنى أعلم عنه الكثير من اخواننا ومما نشر فى كثير من الكتب .

ولكنى ما كنت أعلم حتى ذلك اليوم ان الاخوة بين عزيز على وعادل أرسلان بالغة هذا الحد الكبير . فذهبنا الى (البانسيون) الذى كان يسكن فيه ، ولا أستطيع اليوم أن أتذكر اسم هذا الحى من أحياء القاهرة .

فلما اقبلنا عليه أخذ هو وأرسلان فى العناق وبث روح الأخوة كأنهما لم يريا بعضهما البعض منذ سنين مع أن لقاءتهما فى القاهرة تلك السنة كانت وفيرة .

ووجدت عزيز على توا شخصية اجتازت أفاق المعتاد بمراحل .

أول ما لفت نظرى منه ، جمال تقاسيم وجهه ، ولياقة شاربيه ، وأناقته الظاهرة حتى فى كل حركة من حركاته ، وكل كلمة من كلماته .

لفتت نظرى أناته المحكمة فى حديثه فانه يسكب هذا الحديث سكبا كأن عبارته لا تقبل حرفا مزيدا ولا ينقصها حرف .

وبعد قليل ارتدى أثوابه وعجبت من انتقاله من حالة جلوس الى ارتداء الألبسة الى . . . الى . . . بطريقة نسيمية بارعة .

والصفة الغالبة عليه جالسا قائما ماشيا ، متحدثا ، مستمعا . . . الأناقة والهدوء . ولاحظت الكتب حوله هنا وهناك ، وحول سريره ، ويظهر أنه كان شديد الحب للمطالعة .

فهو أكثر من عسكرى نابغة . هو مفكر سياسى . ومتعمق فى دراسة التاريخ ، وله نظراته وآراؤه ، واستنتاجاته .

كان نصيبى من الكلام فى الحديث الذى كان يدور بينه وبين الأمير عادل أرسلان قليلا . ولكن عزيز على . . . على درجة التهذيب النفسى فهو يعطى لكل جالس فى مجلسه نصيبه من الشركة .

وبعد انصرافنا من عنده وجلسنا أكثر من ساعة سألته الأمير عادل :
أي الرجل هذا ؟ فأخبرني عنه وعن الصحبة الجارفة بينهما .
ويضيف حجاج في رسالته - تلك قوله - نقلاً عن الأمير عادل
أرسلان :

ولما أنشأ عزيز على الحزب مرة ثانية في الآستانة من رجال
عسكريين جميعاً معظمهم من اخواننا أبناء العراق وكان يقال له وقتئذ
(بروسيا العرب) رمزا الى ما سيكون له من الريادة في بناء الدولة
العربية المستأنفة - وانما فعل هذا بعد أن لاحظ أن رشاشاً من أنبياء
الحزب بلغ (الاتحاديين) عن طريق أحد الأعضاء السوريين - لم يدخل
الحزب المجدد الكيان من الرجال المدنيين سوى الأمير عادل أرسلان
ونجيب شقير .

كما بعث الى الأستاذ عجاج نويهض بنص رسالة كان قد بعث بها
اليه الأمير عادل أرسلان مهد لها بقوله :
لما كنت مقيماً في الأردن ١٩٥٣ (بعد اقامتي في القدس من ١٩٢٠ -
١٩٤٨) كنت معنياً بجمع أخبار الحركة العربية ، ورجالها ، وشهادتها .

وكان كتاب انطونيوس قد ظهر في أول طبعة ١٩٣٩ (توفي جورج
انطونيوس بعد ذلك بسنتين رحمه الله) وفيه تفصيلات وافية تصف
ميشاً الحركة وأوائلها . واشتمل هذا الكتاب لأنطونيوس (يقظة
العرب) على نقاط تحتاج الى ايضاح .

وكان الأمير عادل أرسلان رحمه الله قد انتهى من الخدمة في دولة
سورية واستقر في بيروت (متقاعد) كما يقولون .

وهو - أعلى الله مقامه في عليين - لا يعرف القعود ولا التقاعد .
فأجابني في رسالة مؤرخة في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٥٣) .
ولعل هذه الناحية هي آخر ما كتب بشأنه في حياته اذ توفاه الله في
أواخر كانون الثاني ١٩٥٤ (يناير) أي بعد نحو ثلاثة أشهر من تاريخ
رسالته .

واني أثبت صورة رسالته هذه بكاملها لان ما يتعلق بالنقاط التي
سألته عنها أمر مهم وجوابه يعتبر حجة والقول الفصل :

عزيزى الأستاذ عجاج

جوابا على سؤالك عما ذكره انطونيوس عن الجمعية القبطانية أقول أنه صحيح ينطبق على الحقيقة والأسماء التى ذكرها هي أسماء أعضاء اللجنة المركزية التى كنت ناموسها الأمين قوزما فلم يكن من تلك اللجنة لكنه دخل الجمعية وعهد اليه بتأليف فرع فى الجامعة الأمريكية ببيروت . (هى الجامعة الأمريكية فى بيروت وكانت تعرف منذ انشائها ١٨٦٦ الى ما بعد الحرب العالمية الأولى بالكلية ، وتماهى اسمها هذا « الكلية السورية الانجيلية » ثم تغير اسمها الى الجامعة الأمريكية فذكرها الأمير عادل باسمها المعطى لها بعد الحرب ، وأما الوقت الذى يشير اليه من حيث تأليف الأحزاب العربية السرية فى الآستانة بين ١٩٠٩ - ١٩١٤ فكان اسمها الكلية) .

أما العضو الذى باح بسر الجمعية لأحد رؤساء الاتحاد والترقي تزلفا ، فكان الدكتور عزت الجندى (حمص) ولم يكن من أعضاء اللجنة المركزية .

وكذلك ما ذكره انطونيوس عن العهد العسكرى والعضو الآخر غير العسكرى فى ذلك الحزب هو المرحوم نجيب بك شقير . أسأل لكم التوفيق فى مشروعكم الجليل . تحياتى للأخ الأمير خالد ولكم أطيبها .

عادل أرسلان

هذه جنابات وبنيات طريق فى سيرة عزيز على رحمه الله رحمة واسعة . وأما العمل فى استيفاء سيرته كلها من جميع جوانبها فعمل كبير فيه خدمة للتاريخ والأمة العربية .

رأس المتن - لبنان

عجاج نويهض

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فإن السير رونالد ستورس كان قد زار مصر فى يناير ١٩٣٨ لالقاء محاضرات علمية .

وكانت المحاضرة الثانية - فى الجمعية الجغرافية الملكية - عن لورانس فى بلاد العرب .

وقد ألقى عزيز على المصرى فى بداية تلك المحاضرة كلمة بالانجليزية قدم بها السير رونالد ستورس ، وقد جاء فى تلك الكلمة : « لقد اجتمعت

بالسير رونالد ستورس لأول مرة في مصر عام ١٩١٤ في أنجح عهد
في حياتي .

وقد كان سكرتيرا شرقيا في زمن كان ذلك المنصب على أعظم جانب
من الأهمية .

وقد حاول بصفته موظفا بريطانيا كبيرا مخلصا لحكومته ان يدفع
بى للعمل ضد تركيا ، فاستطاع بذكائه الوقاد ، وثقافته الواسعة ،
ومواصلته السعي لبلوغ غايته ، أن يجعلنى فى يديه القويتين كالفار فى
مخالب الأسد .

وكان يهزنى بعنف ممزوج بالركة .

وحاولت أن أقاوم ولكن قلبه الطيب رثى لضعفى وجهلى كما يفعل
المجارب الكبير الذى يرثى لحالة خصمه الصغير . فأتاح لى الفرصة لكى
ازداد قوة ، وأهدى الى الالياذة وعلى غلافها العبارة الرقيقة « مع صداقة
رونالد ستورس » .

وقرات لأول مرة ذلك الكتاب العظيم .

ووجدت أن رونالد ستورس قد سلط شعاعا منيرا دافئا على جهلى
المظلم البارد أبقانى دائما ممتنا له .

كذلك لن أنسى السهرات الموسيقية المدهشة فى منزله الذى كان
يلقب بمتحف قصر الدوبارة فى ابان الحرب العظمى حين لم يكن من حسن
التصرف ان يتمتع المرء بالموسيقى الألمانية .

ولكن بعد أن ينصرف كل شخص ما عدانا كان السير رونالد ستورس
يذهب الى البيانو متنفسا الصعداء ويبدأ فى عزف بعض الحان « ترستان »
و « ايزولت » بهدوء وكان يهمس فى أذنى قائلا : أيها الصديق .. هذه
موسيقى ولكن فى النهاية شعرت ان شخصيته العظيمة تكاد تسيطر على .

وخوفا من فظاعة الاضطراب الى القتال ضد جيشى التركى السابق -
وتركيا كانت وطنى ومنشأ حياتى - نجوت بنفسى الى أسبانيا .

وقد كان السير رونالد ستورس أول سياسى انجليزى اتصلت به .

وقد علمنى التسامح العظيم الذى يبدیه السياسى نحو ضابط صغير
يسيل الى الفريق المعادى .

وهذه الخطة الباهرة البعيدة النظر بذرت فى قلبى أول بذور
الاعجاب الذى شعرت به فيما بعد نحو الشعب البريطانى .

وفي الواقع كنت في أثناء الحرب في قبضة يده ولكنه لم يسمح لي
قط أن أشعر بذلك ، وما أشبه هذا السلوك بالمبدأ الإسلامى القسوى
(لا اكراه فى الدين) .

وبعد مضى سنين التقيت بالسير رونالد ستورس في لندن وكان
الاختبار قد أضاف قوة جديدة الى قوته وقد اتسعت دائرة مقدرته وذكائه
الوقاد وازداد رصانة .

وهكذا فهمت كلمات ذلك القائد العظيم البالغ الثمانين من العمر
خير الدين بربروسه للسلطان سليمان القانونى فى مقابلته الأولى له
« لا تنظر الى سننى ان كل سنة من الاختبار قد اضافت قوة الى قوتى »
وقد برهن على صحة ذلك بانتصاره على أسطول أندريا دوريا بعد مضى
خمس سنين .

ومتى علمنا ان سن السير رونالد ستورس يسمح بأن يعد مثل
خير الدين بالنسبة لذلك التركى العظيم جاز لنا ان نتوقع أعمالا أخرى
عظيمة منه .

والآن جميعنا نشعر بسعادة اذ نرى المحارب فى ميدان معاركه
الأولى .

وانى أرجو أن السير رونالد ستورس أيضا يشعر بأنه فى وطنه
مصر وأنه فيها مثل أحد أبنائها .

صحيح أن أعماله الأولى فى مصر كانت فى بعض الأحيان من نوع
الكفاح ، ولكنى أعتقد ان الخصومة والحب هما العاملان الرئيسيان فى
ترقية الحياة والنجاح .

وعن قصد أو غير قصد كان هو مع آخرين من الجانبين يضعون
أسس الصداقة التى رأينا تحقيقها والتى تزداد قوة يوما فيوما .

والآن نرى أبا الهول بعينيه اللتين تريان الى بعيد وبإبتسامته ذات
المغزى يرحب بالمحارب القديم والقاتل لطريق الصداقة بين الشعبين
العظيمين ، ونرى أبا الهول باسم مصر أم الحضارة يبسط ذراعيه نحو
السير رونالد ستورس وكأنه يقول « أيها الابن العزيز اسمعنى صوتك »

فقابل الحاضرون هذه الكلمة بالتصفيق الحاد .

ومما يجدر بنا أن نذكره أيضا . . . أننى تلقيت فى ١٢/٥/١٩٧٨
من الأستاذ الكبير مجيد خدورى رسالة قال فيها : . . .

« منذ أكثر من شهرين أرسلت اليك بواسطة السفارة المصرية
في واشنطن بحثي المنشور في st. Antony's pupers
عن عزيز على المصرى ، وكتبت اليك رسالة أخرى ، فالرجاء ان تكون
وصلتك .

و كنت قد وعدتك بإرسال اليوميات المسجلة عندي عن محادثاتي
مع المرحوم عزيز على وقد منعتني حينئذ بعض السفرات التي قمت
بها الى قطر والعراق . . الخ .

تجد طيه هذه اليوميات وهو صور Xerox من الأصل الذي عندي
للسنة ١٩٥٨ .
وقد دونتها في اليوم الذي قابلته كما يدل تاريخ ذلك .

أرجو أن يكون لك فيها بعض الفائدة ، وهذه الأفكار كما اعطاني
أيها « عزيز على » نفسه .

أما المقابلة اللتان أشار إليهما الأستاذ مجيد خدوري تمتا بينه
وبين عزيز على المصرى في ١٣/٤/١٩٥٨ و ١٤/٤/١٩٥٨ فهما مهمتان
للمغاية ذلك لأنهما كانتا آخر مقابلات من هذا الطراز أجراها عزيز على
المصرى مع شخصية تتميز بالثقافة والاطلاع وتتفوق على غيرها من
الشخصيات التي اتخذت التاريخ علما أو هواية بمعرفتها لكثير من
الشخصيات التي صنعت التاريخ الذي تكتب عنه ولست بحاجة الى
القول بأن لي تحفظات كثيرة على ما جاء في هاتين المقابلتين على لسان
عزيز على المصرى لا لأننى - معاذ الله - أخشى حدوث تحريف في النقل ،
وانما خشيتى كلها أن تكون الذاكرة قد خانت عزيز على المصرى الذي كان
قد جاوز التسعين من عمره وقتئذ .

الأحد ١٣/٤/١٩٥٨ :

اليوم صباحا ذهبت مع حسنى خليفة لزيارة عزيز على المصرى على
موعد في داره الواقعة ١٨ شارع الجزيرة . وهو شيخ لا يزال عنده
حيوية كثيرة ولكنه يتكلم كثيرا ويشرد عن الموضوع الى البحث عن فلسفته
في مواضيع عامة شتى . قلت له : أود أن أسأله عن بضعة أمور تتعلق
ببلد الحركة العربية . قال : أنه كتب مذكراته بالفرنسية ، ولكن
السلطات البريطانية حجزت عليها وأخذتها .

سألته عن تأليف الجمعيات العربية ؟

قال : أنه أسس جمعية العهد ، وقد دخلها رجال متعددون من العرب والترك والأرمن وغيرهم من العرب كان فيها ياسين الهاشمي وجعفر العسكري ونوري السعيد وعبد الله الدملوجي وغيرهم . . . وكانت فكرته في تأليف هذه الجمعية العمل على عضد فكرة امبراطورية البحر المتوسط الشرقي التي تضم الدولة العثمانية والبلاد العربية ومصر وغيرها من الدول البلقانية على أساس فيدرالي .

وقال ان فكرته كانت انسانية لا تستند الى فكرة قومية لأن مثل هذه الامبراطورية تضم أجناسا مختلفين أكثرهم من بقايا الروم والعناصر القديمة . وفي نظره ان الأتراك العثمانيين أصلهم من البيزنطيين نظرا لامتزاجهم الكثير بين العنصر التركي والبيزنطي . قلت : هل كان غرضك بث الفكرة القومية العربية ؟ قال : لا أبدا أنا لا أؤمن بفكرة قومية عربية مستقلة ، لأنه لا يوجد عرب كعنصر مستقل خاص ، وإنما أردت التأخي بين العرب والترك في دولة واحدة : ولكن الأتراك . لا سيما أنور باشا ، نظرا للعداء الشخصي بينهما الذي نشأ في حرب الأتراك مع إيطاليا ، هو الذي أشاع عنه أنه يعمل ضد الأتراك بجانب العرب . وعمل مع العرب في حربهم ضد الطليان واستقال من منصبه في الجيش العثماني . لكن أنور باشا لفق ضده مؤامرة في قضية مالية وألقى القبض عليه ، وشاعت عنه فكرة الأشتغال ضد الدولة العثمانية ، وكان أنور وأتباعه يتهمون أنه يعمل في مصلحة العرب .

قلت : ألم تتكون بعض الجمعيات التي عملت من أجل العرب فقط ؟

قال : أسس سليم الجزائري الجمعية القحطانية ، وكان سليم رجلا طيبا ولكنه دائما كان يسأل ما هي القحطانية ولماذا اختار سليم كلمة « قحطان » ؟ هل كل أصل العرب قحطان في جنوب جزيرة العرب ؟

وعندما سألته عن أعماله في حرب ليبيا ؟

فقال انه أبلى بلاء حسنا في حربه ضد الطليان وكان لديه مال قليل وعدد قليل من الجنود ولكنه صمد ودحر الطليان . وقال : ان العرب والنسوسيون عاونوه في هذه الحرب لكن السيد أحمد الشريف كان يدعي أنه يقاتل ولكن في الحقيقة لم يعمل شيئا جديا ، فكان يستلم الفلوس ويتزوج نساء كثيرات ولا يعمل عملا جديا في الحرب ، ولم يتفق معه حول طريقة الحرب . أما الرجل الذي حارب باخلاص فهو عمر المختار ، وكان العرب يعدونه وليا وكانوا يتبركون به . فكان كثيرا ما يأتي اليه

العربان ويقطعون قطعاً من ثيابه يعلقونها عليهم . كان العرب في ليبيا متأخرين Superstitions (وأخبرني ساطع المصرى أنهم يعتقدون كثيراً بالسحر والخرافات) .

قال : أنه اشترك في حرب اليمن وفاوض الامام يحيى وكان عاملاً في عقد الصلح والمعاهدة معه . اذ كان الأتراك يهددونه ويحرقونه ، ولكنه كتب اليه يخبره بأن أعداء الاسلام هم البلغار والروس وأنه يجب أن يعتبر كل الدولة العثمانية بلاده . وعامل الامام باحترام فقدور ذلك الامام . ولما عقد الصلح اتهمه الأتراك بما فيهم عصمت أنه اخذ جانب امام اليمن . لكن سعيد باشا الصدر الأعظم فهم ذلك وهو من أصل كردى وأيد المعاهدة .

الاثنين ١٤/٤/١٩٥٨ :

اليوم عيد شم النسيم في مصر . وهذا عيد مصرى قديم ليس بالعربى ولا بالاسلامى . والكل يأكل الفسيخ وهو السمك الصغير ، يملح ويؤكل . ذو رائحة كريهة وبما أن رمضان الآن فلا يستطيع أن يأكله المسلمون ولذا يؤجل الأكل الى الليل . وهنا شيء من التنافر بين تقليدين الواحد تاريخى قديم والآخر اسلامى . ولكن المصريين يحافظون على الاثنين .

ذهبت اليوم لزيارة عزيز على المصرى مرة ثانية على موعد فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى شقته الواقعة فى ١٨ شارع الجزيرة .

سألته ان يتكلم عن ذهابه الى الحجاز عند الشريف حسين حين اعلان الثورة العربية ؟

قال : أنه لما قام الحسين بحركته كان نوري السعيد قد ذهب (عزيز على يقول أنه هو الذى أرسله ليعلم ما هى قصة الحركة) ثم اتصل نوري بعزيز على فى الاسكندرية ودعاه حتى يذهب ليعمل مع الحسين . عزيز على يقول : أنه لم يعلم قصيد الحسين فيما اذا كان يريد منع حصول حرب فى الحجاز باعتباره بلداً مقدساً حتى لا يحتله الانكليز أم التحالف مع الانكليز . فذهب عزيز على الى مكة (يقول انه باع بيته وأرضه بثلاثة آلاف جنيه وذهب الى الحجاز) (وقابل الحسين وجرت مكالمة بينهما . فقال عزيز على للحسين انه يعمل معه اذا كانت حركة الحسين لا تؤدى الى الانفصال عن الدولة العثمانية والخلافة ، وأنه يؤيده اذا كان

الغرض حصر الفرقة العثمانية بالمدينة فقط ومنع الحرب في الحجاز بين الانكليز والعثمانيين . ويظهر أنه هنا تباينت الأفكار بين جماعة الحسين وبين عزيز علي . ومع هذا فقد أرسل عزيز علي مع توري وجماعة آخرين من الضباط العرب (لا سيما العراقيين) الى رابغ وهي ميناء على البحر الأحمر . وهناك كانت سفينة حربية بريطانية راسية وبعض الحامية البريطانية جاءت من مصر . وجرت هناك مناقشات كثيرة بين الضباط العرب حول موقف الحسين . ويظهر أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم (أو بالأحرى مترددين في عملهم) حول حركة الحسين : فالحسين كان قد تحالف مع الانكليز وهو يستلم المساعدات المالية والذخائر منهم ، وقام بحركة مقاومة الجيش العثماني في الحجاز .

أما الضباط الذين ذهبوا للعمل هناك فكانوا يتناقشون فيما إذا كان التحالف مع الانكليز عمل يبرره الدين والوطنية . وكان عزيز علي المعروف بصراحته ، ضد فكرة الثورة على الدولة العثمانية ، وكان يرغب أن تكون الحركة مجرد استقلال ضمن الدولة العثمانية . لذلك كان هناك وجهة نظر يمثلها عزيز علي ترمي الى مفاوضة الأتراك للتفاهم معهم والقضاء على حركة الحسين . فلما خرجت قوة رابغ للسير شمالا لمقابلة الفرقة في المدينة كانت وجهتي النظر قد اشتدت كثيرا . قال عزيز علي المصري : أنه جاء بعض الضباط العرب وقالوا له أنهم لا يريدون محاربة الفرقة العثمانية واتفق عزيز مع هذا الفريق من الضباط أنه متى تقرب القوة الشريفة من المدينة يتصل ثلاثة منهم بشكل كشاف للمفاوضة ، ويجري الاتفاق بأنهم ينضمون الى الفرقة العثمانية ثم تسير هذه الفرقة جنوبا الى مكة وتستولي عليها وتقضي على حركة الحسين ويجري الصلح مع العثمانيين على أن يعترف العثمانيون بالاستقلال الداخلي للعرب . لكن هذه الأخبار وصلت نوري السعيد والأمير علي وهؤلاء كانوا يمثلون وجهة نظر التعاون والتحالف مع الانكليز . قال عزيز علي : أنه في اليوم التالي جاء الأمير علي يلثم يديه ويطلب منه الرجوع الى رابغ . فرجعت القوة الشريفة وفشلت فكرة الاتصال والتفاهم مع الفرقة العثمانية .

قال عزيز علي : أنه كان أيضا يفكر مع بعض الضباط أن يتصل شمالا مع العثمانيين والألمان ويجري التفاهم معهم على عقد الصلح والاعتراف بحقوق العرب . كانت هذه الأفكار تناقش ولذلك عرف عن عزيز أنه يمثل وجهة نظر التفاهم مع الأتراك لمحاربتهم . وقال : أنه جرى كلام بينه وبين القائد البريطاني وحمل على باخرة حربية بريطانية وأرجع الى مصر . ومن هناك كتب رسالة الى الشريف حسين يودعه دون أن يذهب للسلام عليه في مكة .

ان الذى يتبين لى من كلام عزيز على المصرى أنه كان يمثل وجهة نظر وأفكار تختلف كثيرا عما كتب عنه أو قيل . يتلخص ذلك فيما يلى :

١ - أنه أسس جمعية العهد ودخلها عرب وغير عرب على أساس ان تكون الدولة العثمانية « دولة فيدرالية » ينال فيها العرب حقوقهم واستقلالهم الداخلى وهكذا الشعوب الأخرى . قال عزيز : ان نورى السعيد وياسين الهاشمى وآخرين أقسموا بأنهم ينفذون هذا البرنامج .

٢ - اعتقاده بالفكرة العثمانية كأساس لرابطة الشعوب التى تتكون منها الدولة ضمن خلافة اسلامية وأنه لم يؤمن بالثورة على الدولة العثمانية من أجل الدول الأخرى - كان يعتقد ان المدينيات القديمة والشعوب التركية والعربية والكردية والبلغارية وغيرها . . كلها شعوب طيبة يجب ان تتعاون فيما بينها ضمن الدولة العثمانية . ويظهر أنه لنشأته فى مصر تحت الاحتلال البريطانى قد اقتبس هذه الفكرة من مصطفى كامل الذى كان يدعو الى الخلافة العثمانية والولاء لها .

٣ - نظرا لنشأته فى مصر وتأثره بتعاليم مصطفى كامل وغيره ، اقتبس فكرة معاداة البريطانيين وعدم التعاون معهم ولذلك لم يكن يأمن التعاون مع الانكليز لأنهم كانوا قد احتلوا مصر وبقوا فيها رغم أنها تعود للدولة العثمانية .

٤ - نظرا لتعاون الدولة العثمانية مع الألمان وعضدهم لها كان من المؤيدين لسياسة ألمانيا . وكان هو نفسه درس فى ألمانيا وتأثر بنظمها العسكرية ولذلك كان يدعو الى التعاون مع الألمان .

٥ - ان النزاع والمنافسة بين أنور باشا وعزيز على المصرى الذى نشأ فى الحرب الطرابلسية . والقبض على عزيز استغله العرب من ناحية لجذب عزيز على اليهم ، ومن ناحية ثانية استغله الاتحاديون للتشهير بعزيز على أنه ثورى يقود حركة عربية كوردية ضد الدولة العثمانية . فدعوته الى العثمانية كانت ضد الدعوة الى الاتحادية التركية ، وأفكاره العثمانية جعلته فى مأزق حرج مع العرب الذين قاموا بالثورة على الدولة العثمانية متحالفين مع الانكليز .

كان عزيز على اذن - استنتاجا من حديثه معى - رجلا لا يريد تأييد أى حركة قومية خاصة وانما كان يدعو الى « العثمانية » على أساس فيدرالى يمنح فيه استقلال ذاتى داخلى للعناصر المختلفة المتكونة منها الدولة العثمانية . ولذلك فكان قد نبذ من الاتحاديين الأتراك ، ونبذ من الحسين والانكليز الذين أرادوه أن يؤيد حركتهم .

كان يريد تأييد وجهة نظر معتدلة ، وهي التي كان يمثلها زعماء صغار مثل مصطفى كمال وبعض الألمان ، وكان يريد أن يحارب الى جانب ألمانيا لا الى جانب انكلترا . وهذا حدث له أيضا في الحرب العالمية الثانية . كان عزيز على الى جانب حركات قدر لها أن تكون فاشلة فلم يمثل مركزا لها في أيام السلم بعد الحرب العالمية الأولى .

سألته : ماذا حدث له بعد رجوعه الى مصر ؟
قال : أنه تضايق في مصر حيث كان الانكليز مهيمنين . وقابل وينكيت (Wingate) وطلب منه ان يترك مصر الى سويسره ولكن لم يسمح له .

وأخيرا سمح له ان يذهب الى أسبانيا . ولما ذهب حاول ان يذهب من هناك الى ألمانيا فلم يقدر اذ لم تجب طلبه السفارة الألمانية . قال ان سبب ذلك أن أنور باشا أعلم الحكومة الألمانية بأن عزيز على ضد الألمان والأتراك وأنه مع الانكليز . ولذلك بقي طول بقية الحرب في أسبانيا .

ذهب بعد الحرب الى هامبورغ ومنها الى برلين وميونخ ثم رجع الى مصر بعد سنة ١٩٢٢ ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا . كان الملك فؤاد قد بلغه ان عزيز على يتراسل مع عباس حلمي . قال عزيز على : أنه أثناء الحرب العالمية الأولى طلب منه وينكيت قبل أن يترك مصر ان يرسله الى العراق لا الى اليمن ولكنه رفض (قال : ان الانكليز قالوا له انهم مستعدون ان يعملوه ملكا على اليمن أو على العراق ولكن يظهر ان المسألة لم تكن قضية أن يصبح ملكا بل قضية أن يعمل معهم هناك) .
سألته : ماذا عمل بعدئذ ؟

قال : انه كلما كانت تأتيه فرصة للعمل تفلت منه تلك الفرصة . فقد طلب مرة سعد زغلول مقابلته وأخبره بأنه وجد الكثير من أتباعه لا فكرة وطنية صحيحة عندهم وأنهم يريدون الحكم والوظائف . ولذلك أراد من عزيز على أن يتعاون معه . ولكن لم يكن يمضي بضعة أيام حتى توفي سعد زغلول . ثم لما عين محمد محمود وزيرا طلب من عزيز على أن يتعاون معه ولكن الملك فؤاد رفض وقال ان عزيز على كان يتراسل مع عباس حلمي . وأخيرا عين مديرا لمدرسة البوليس ، فرضى بذلك عزيز على على أمل أنه سيصلحها وقد زارها الملك فؤاد وسر منها . ثم تعاون مع جمال عبد الناصر ، وعرض عليه رئاسة الجمهورية وحرصهم على قيام الثورة قبل ذلك وكانوا يخشون الانكليز نصحبهم ان لا يعملوا برلمان بل تعيين مجلس استشاري من ١٢ عضوا فقط . لكن البرلمان تكون من ٣٥٠ عضوا على غير رايه .

الذي يظهر لي أن الرجل عنده أفكار كثيرة غير عملية : هو ثوروي
في العمل الثوري ، ولكنه ينقصه الأفكار العملية في التطبيق .

He is a sensationary leader, but his ideas are not practical.

والاجماع يعتقد - بعد مزيد من الدراسة المتأنية الجادة - على أن
جمعية الأخاء العربي هي أول جمعية عربية تأسست في الآستانة بعد
إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وأنشأت ناديا لها وكان من
مؤسسيها غارف بك المارديني - والى دمشق في عهد الاتحاديين - وصادق
باشا المؤيد ، ويوسف بك شنوان ، وشكري باشا الأيوبى ، وشكري بك
الحسينى ، وكانت غاية الجمعية : معاونة جمعية الاتحاد والترقى في سبيل
المحافظة على أحكام القانون « الدستور » .

وجمع كلمة الملل العثمانية المختلفة بدون تمييز بين الجنس
والمذهب وتمكين الرابطة الجامعة بينهم وذلك لأجل خدمة الدولة
العثمانية وإصلاح الشئون المختلفة . الخ . الخ .

وقد أيد الطلاب العرب في الآستانة تلك الجمعية التي لم تعش
طويلا .

ثم كان انشاء المنتدى الأدبى فى ١٩٠٩ وقام بتأسيسه عبد الكريم
قاسم الخليل ، ويوسف سليمان حيدر ، وسيف الدين الخطيب ، وجميل
الحسينى ، ورفيق رزق سلوم ، على أن يكون هذا المنتدى مركزا لشباب
العرب فى العاصمة التركية .

وكان شكري بك الحسينى قد سلم لعبد الكريم الخليل ستين ليرة
ذهبية عثمانية كانت باقية عنده باسم جمعية الأخاء لتنفق فى انشاء
المنتدى .

ومثل الطلاب العرب رواية صلاح الدين الأيوبى فى مسرح دار الفرح
وأرصدوا الربيع للمنتدى الذى افتتحت داره الجديدة فى « بارما قد فيو »
فى حفل هائل ، وعاش هذا المنتدى حتى سنة ١٩١٥ حيث أغلقته الحكومة
التركية .

وكانت تركيا قد أرسلت بعض المتخرجين من شبابها للتخصص فى
باريس ، وكان من جملة هؤلاء الشباب أحمد رستم حيدر وقد اجتمع مع

توفيق الناطور حيث اتفقا على تأسيس جمعية عربية شعارها : يجب ان تكون العرب مع الاتراك كالنمسا والمجر . وكانت غاية الجمعية السعى لرفع مستوى الأمة العربية وجعلها في مستوى الأمم الراقية .

وكان الاقبال ضئيلا على تلك الجمعية . وقد انضم اليها في عام ١٩١٠ كل من : عوني عبد الهادي ورفيق التميمي ، وأحمد قدرى ، وحميل مردم . كما انضم اليها محمد الحمصاني ١٩١١ .

وكانت هذه الجمعية سرية ، لا يعرف العضو الذي أدخله فيها . وكانت تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة الادارية ، والهيئة العاملة وهي التي تختار الهيئة الادارية .

وينضم الى الهيئة العاملة كل أعضاء الجمعية الذين أمضوا فترة التجربة وهي ستة أشهر .

والهيئة الثالثة وتضم الداخلين حديثا ولا يعرف بعضهم بعضا وكان للجمعية كلمات رمزية اصطلحت عايتها للمكاتبات والاتصال ، منها - مثلا - بزغ فجر وطنك .

وعندما عاد مؤسسو الجمعية الى بلادهم من باريس ، جعلوا بيروت مقرا رئيسيا لها .

وتولى الدكتور أحمد قدرى ادارة فرع دمشق ، ثم انتقل المركز الرئيسى الى دمشق .

وقد انضم اليها في تلك الفترة رضا الركابي ، وياسين الهاشمي ، ونسيب وفوزى البكرى ، وبواسطة آل البكرى انضم الملك فيصل نفسه الى الجمعية وصار من كبار مؤيديها .

وعندما كان الملك فيصل في طريقه الى الحجاز سنة ١٩١٥ اجتمع برجال الجمعية الذين أفهموه مشكلاتهم وأعلموه أنه اذا ثار الحجاز وزحف على سورية وجد أعضاءها على أتم استعداد لتأييده . وقد أعان الملك فيصل الجمعية بألف ليرة عثمانية ذهبية مساعدة لها .

وقد أحس بعض أعضاء الجمعية (عبد الغنى الغربى وعمر حمد وابراهيم الهاشم) ان الحكومة تنوى القبض عليهم فهربوا الى بغداد ثم البصرة ، ولكن الملك فيصل طلبهم فعادوا أدراجهم والتجأوا الى شيخ عرب العفيرة في مداين صالح حيث صار القبض عليهم من متصرف الكرك بعد أن تعرف عليهم .

وقد انشئت في عام ١٩٠٩ الجمعية القحطانية ، وكانت سرية للغاية . وكانت الإشارة الرمزية بين أعضاء الجمعية ان يضغط المسلم - بكسر اللام وتشديدها - على أحد أصابع يد المسلم عليه ، ثم يضع الشاهد والوسطى على الذراع اليسرى ويخفي بقية الأصابع ، ويبدأ في « تهجئة » كلمة « هلال » عند المحادثة ، فاذا قال الأول « ه » قال الثاني « لا » ، وقال الأول « أ » قال الثاني : « ل » تمت المعرفة .

وانتشرت مبادئ الجمعية بين شباب العرب وضباطهم في الجيش العثماني ، وكثر عدد الداخلين بها .

وقد اختلفت الآراء حول مؤسس تلك الجمعية وقيل ان الأرجح أنه واحد من أربعة : عبد الكريم الخليل و خليل باشا حمادة والشيخ عبد الحميد الزهراوي وسليم الجزائري . وسوف نزيح الغموض عن منشأ تلك الجمعية ومؤسسها في الفصل الخاص بتلك الجمعيات الإصلاحية والثورية .

ومن بين تلك الجمعيات أيضا : جمعية العلم الأخضر وقد انشئت في سبتمبر ١٩١٢ لتقوية الروابط الوطنية بين طلاب العرب في المدارس العليا وتوطيد قواهم الى انتمثال أمتهم من الوحدة التي سقطت فيها .

ومؤسسو تلك الجمعية : د. اسماعيل الصفار ، ود. فائق شاكرا ، ود. داود الديواني ، وعلى رضا الغزالي ، وعبد الغفور البدرى ، وأحمد عزت الأعظمى ، وعاصم بسوي ، ومسلم العطار ، ومصطفى الحسينى ، وشكري غوش .

وقد أصدرت تلك الجمعية مجلة سميتها « لسان العرب » ثم ابدل اسمها فصارت « مجلة المنتدى الأدبي » .

وهناك جمعيات وأحزاب واندية أخرى نشأت في مصر وفي بيروت وفي البصرة وفي بغداد من بينها - مثلا - حزب اللامركزية - ومقره القاهرة - ومؤسسوه : رفيق العظم ، والسيد محمد رشيد رضا ، ود. شبلى شميل ، اسكندر عمون ، سامى الجريدينى ، ومحب الدين الخطيب . ومن أهداف هذا الحزب : المطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية .

أما جمعية الإصلاح - ومقرها بيروت فقد تكونت من مجموعة من الأعيان والنواب والتجار وهدفها الرغبة في إدخال إصلاحات عاجلة حددوها في برقية طيروها الى الباب العالي في شهر كانون الأول من سنة

١٩١٢ قائلين فيها : اذا لم نأخذ بالاصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من أيدينا لا محالة » ، وقد أجاب الصدر الأعظم كامل باشا على هذه البرقية بأن دعا الشعب الى تقديم مطالبه للنظر فيها حيث اجتمع في دار البلدية (فبراير (شباط) ١٩١٣) حوالي ٩٠ مندوبا حددوا مطالبهم بكل وضوح وصراحة وتفصيل أيضا .

وكان السيد طالب النقيب نائب البصرة في مجلس النواب العثماني قد انشأ جمعية البصرة الاصلاحية وانضم اليها عدد من كبار رجال البصرة ، كما انضم اليها أحرار العراق وسورية . وصدرت جريدة النهضة في بغداد لتكون لسان حال الجمعية .

كما أنشأ مزاحم الباجه جي في الزوراء سنة ١٩١٣ فرعاً لحزب اللامركزية ، وكان يستظل بلواء طالب النقيب ، فلما حاول الاتحاديون القبض على مزاحم الباجه جي فر الى البصرة والتجأ الى السيد طالب .

وكان عزيز علي قد انشأ في ٢٨ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩١٣ جمعية العهد بعد ما ضم اليه نخبة من ضباط العرب في الجيش العثماني كمحمد اسماعيل الطباع ومصطفى وصفي وسليم الجزائري ، ونوري السعيد ، ويحيى كاظم أبو الشرف ، وعارف التوام ، وعلي النشاشيبي ، وياسين الهاشمي ، وطه الهاشمي ، وجميل المدفعي ، وتحسين علي ، ومولود مخلص ، وغيرهم . . وغيرهم .

وكانت الجمعية سرية للغاية وبرنامجها كما يلي بالحرف الواحد :

١ - جمعية العهد سرية انشئت في الآستانة وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا .

٢ - ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان .

٣ - لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق ، وان الشرق لا يعيش اذا اقتطعتها دولة أجنبية فهي تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها .

٤ - لما كان الترك يؤلفون من « ٦٠٠ » سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب ، فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لان يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر .

ولقد أحدث انشاء هذه الجمعية أهمية عظيمة في دوائر الآستانة لما عرف منشئوها من الصلابة والقوة ولأنها نشأت في فترة من الزمن

توترت فيها العلاقات بين الاتحاديين والشعبية العربية توترا قويا كان من أثره تأييد الشباب والضباط العرب للجمعية والتفاهم حولها ، حتى أنهم انشأوا لها فرعا في بغداد وآخر في الموصل ، وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تخشنها وتحسب حسابها وتعمل على تفريق رجالها قبل اشتداد ساعدها وتبسطها .

وفي ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩١٤ - يناير - عقد اجتماع خاص في وزارة الحربية بالآستانة ، حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، ومحافظ الآستانة العسكري أحمد جمال باشا - وذلك قبل أن يعين وزيرا للبحرية - ومدير الأمن العام عزمي بك ، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة ، وقرروا الأمور الآتية :

١ - اقضاء ضباط العرب المقيمين في الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمى ٣١٥ منهم لجمعية العهد الى المناطق التركية ، وهى تراقيا والأناضول فلا يعود بإمكانهم الاتصال باخوانهم العرب ولا القيام بأى عمل يعزز فكرتهم ويروجها .

٢ - تولية القيادة فى البلاد العربية الى الضباط الترك واقضاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان .

٣ - الاسراع فى سياسة تحريك العناصر .

٤ - يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتحريك العناصر .

٥ - مقاومة الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى بيروت وباريس .

٦ - الغاء الأحزاب العربية كلها ، وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية وتدير الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة .

٧ - اقضاء العرب الذين يعملون ضد الأتراك من الآستانة واستمالة كل من يمكن استمالته منهم .

٨ - تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية والاكثار من المنتسبين الى أنديةها .

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد اقضاء الضباط العرب - وقد أقصوا فعلا غداة صدور هذا القرار - بل أصدرت فى ٩ شباط - فبراير - سنة ١٩١٤ أمرا بالقبض على عزيز بك على وأحاله الى المحكمة العسكرية

بتهمة أنه أساء التصرف في ٣٠ ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حين مغادرته طرابلس الغرب .

بينما كان عزيز بك على بعد ظهر الاثنين - ٩ شباط ١٩١٤ - خارجا من فندق توكطليان ، دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكي ودعوه الى دائرة البوليس في استانبول ، ولما ذاع الخبر في الآستانة ، قال له أبناء العرب وقعدوا ، وذهب كثيرون منهم الى مركز البوليس مستعلمين عن السبب ، فقابلهم مدير الأمن العام بكل بشاشة وتلطف ، وقال لهم : ان عزيز بك لم يوقف ولكنه يستجوب عن أمور لا دخل له فيها ، وسيطلق سراحه في المساء ، وقصد المرحوم الزهراوى منزل طلعت بك ليقف منه على حقيقة الحال فقبل له أنه ليس فى منزله والحقيقة أنه لم يرغب فى مقابلته كما اتضح بعدئذ .

ولما أذفت الساعة العاشرة مساء ولم يخرج عزيز بك من دائرة البوليس طلب أحد الضباط العرب المرحوم عبد الحميد الزهراوى باسم الضباط العرب أن يبحث عن سبب اعتقال عزيز بك معلنا استياء العرب ملكيين وعسكريين من تلك المعاملة لأن عزيز بك لا دخل له فى سياسة الآستانة وشئون أحزابها وقد أبلغ الحكومة التركية بأن دماءنا يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطربونا الى اراقتها فى سبيل الأفراد .

وفى ١٠ شباط عقد مندوبو الأحزاب العربية اجتماعا مهما للوقوف على الأسباب التى أدت الى القبض على عزيز بك واجراء ما تقتضيه الحال ثم قابلوا جمال باشا وطلعت بك وغيرهم فسمعوا منهم كلهم جوابا واحدا وهو أن عزيز بك أخوهم وحبيبهم وان وزارة الحربية تحقق معه فى بعض الشؤون العسكرية التى تتعلق بأمر الدفاع عن الدولة وان الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة ، ولكن العرب لم ينخدعوا بكذب الاتحاديين هذه المرة فقاموا بمظاهرات عديدة فى الآستانة وطلبوا من الحكومة ان تعجل فى محاكمة عزيز بك وان يضاف الى المجلس العسكرى الذى يتولى أمر هذه المحاكمة لجنة من أركان الحسب وكبار الأمراء العسكريين الخبيرين بالشئون الحربية . فلم تفعل شيئا من ذلك وألفت المجلس العسكرى من بعض صنائع أنور باشا وعبيده وبعض الذين لا يخالفون له أمرا .

وقد بدأت المحاكمة فعلا يوم الأربعاء فى أول نيسان - ابريل - سنة ١٩١٤ بحضور الشهود سليمان بك العسكرى ورمزى المهداوى وضيا أفندى والملازم نور الدين أفندى ورشيد أفندى وفيما يلى ملخص

التهمة التي وجهت الى عزيز بك وخلاصة أقوال الشهود كما وردت في محضر الجلسة الرسمي .

قال سليمان العسكري :

« ان فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية ، فقد سعى وهو في طرابلس الغرب في بعث الفكرة العربية بين الأهلى وفي إنشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو إدارة شؤونها وكاد ينجح في سعيه لولا معاكستى أنا وبعض الضباط الأتراك له » .

وقال رمزى أفندى :

« ان عزيز بك اجتمع بالاطاليين أثناء الحرب اجتماعا مهما ، ولكنى لا أعرف ما دار بينهم من الكلام » .

وقال ضيا أفندى :

« ان عزيز بك عدو للأتراك عموما وعدو لأنور باشا خصوصا ، فهو خائن للدولة التركية » .

وقال نور الدين أفندى :

« ان عزيز بك اتفق مع الامام يحيى على نهج خطة واحدة الغرض منها ضم اليمن الى مصر ، وكان يسعى وهو فى بنغازى الى تنفيذ هذه الفكرة وجعل بنغازى واليمن دولة عربية واحدة » .

وقال رشيد أفندى :

« ان عزيز بك أعرب عن سروره أمامى لما أصاب المسلمين فى البلقان » .

وفى ٤ نيسان - ابريل - عقدت جلسة ثانية لسماع شهادة العبد الماس (الذى قبض عليه فى السودان فى عام ١٩١٣) وشخص آخر يدعى قاسم كان قهوجيا عند عزيز بك فى برقة ، فقال العبد الماس : « سمعت فى برقة أن عزيز بك استلم من الايطاليين مبلغا من المال لا يقل عن ١٥ ألف ليرة مقابل تسليمهم البلاد » .

هذه هى التهمة التى وجهها الاتحاديون الى بطل برقة ، وهذه خلاصة أقوال الشهود الذين شهدوا عليه .

وقد كان قصد الاتحاديين أن يعدموه بلا محاكمة ، ولكن اهتمام
الرأى العام العربى به اضطرهم الى العدول عن ذلك . ولما انتهت المحاكمة
ورأوا ان هياج العرب لم يخمد بل كان يزداد شدة يوما فيوما قرروا
اغتياله فى السجن فبلغ الخبر زعماء العرب من أحد المصادر الاتحادية
فى الآستانة ، فاجتمعوا وتداولوا فى الأمر ، ثم عرضوا المسألة على
الصدر الأعظم والمارشال فون سندررس باشا وعلى سفراء الدول العظمى
طالبين منهم باسم العدل والقانون منع الاتحاديين من اقرار جريمتهم
الفظيعة ، وكانت بريطانيا العظمى قد اهتمت اهتماما خاصا بمسأله
عزيز بك على وفاوضتهم مرارا بشأنه واقنعتهم ببراءته ووجوب اطلاق
سراحه فلم يمكن الاتحاديين الا اجابة هذا الطلب ، لا سيما بعد ان
أدركوا ان اعدامه يؤدى الى ثورة عظيمة فى البلاد العربية .

وبدئى ان محاكمة عزيز بك لم تكن قانونية على الاطلاق لأن التهم
التي عزوها اليه تهم صبيانية مختلفة ، ولأنها اما ان تكون قد وقعت قبل
معاهدة لوزان وابرام الصلح مع ايطاليا أو بعدهما . فان كانت قبلهما
كان الواجب على أنور باشا القائد العام حينئذ ان يحاكمه عليها . وان
كانت بعدهما فلا شأن للحكومة العثمانية فى التعرض له بسببها لان
البلاد أصبحت بعد الصلح أما عربية أو ايطالية وخرجت عن السلطة
العثمانية . فان حسبها الاتحاديون عربية فان عزيز بك كان أميرا مستقلا
فيها ولا صلة له بحكومة الآستانة وان حسبوها ايطالية فكان من الواجب
تسليمه الى حكومة ايطاليا التي يحق لها محاكمته دون سواها .

وقد استعفى عزيز بك من الجيش العثمانى فى ٢٠ كانون الثانى
سنة ١٩١٤ ؛ أى قبل سجنه بخمسة عشر يوما ؛ وهذه ترجمة
استغفائه :

الى وزارة الحربية الجلية

« لقد تركت الجيش العثمانى من هذا التاريخ ولكن حياتى العسكرية
الماضية لا تزال تربطنى به برباط متين لا تقوى الأيام على قصمه فاذا
شبت حرب واحتاج الوطن الى أبنائه فلتطبنى وزارة الحربية الجلية من
القومسيورية العثمانية بمصر محل اقامتى على ان تعين لى الفرقة التي
أقودها » .

الامضاء : عزيز على

هذا . . . ويضيف الأستاذ أبو النصر في دراساته عن الحرب العالمية الأولى الى كل ذلك الذي مضى قائلا : « كان هذا جزاء عزيز بك على خدمته الباهرة للوطن العثماني فان حياته قبل الدستور وبعده كانت حياة جهاد دائم في سبيل الحرية . وكانت صلاته بجمعية الاتحاد والترقي قوية متينة بل كان يدها اليمنى في مكدونية حيث أعلن الدستور قبل ان أعلنه نيازى ببضع عشرة ساعة ، وقد اعترفت له جمعية الاتحاد والترقي بخدمته العظيمة وأحلته موضعه من الاحترام والاكرام . ولكنه انفصل عنها بعد اعلان الدستور لاعتقاده ان سياسة تشريك العناصر التي اتبعتها لا يحمد منتهاها فتصح لرفقائه الأتراك بأن ينيلوا العناصر العثمانية حقوقها ويمهدوا السبيل الى ارتقائها بلا فرق ولا تمييز وان كان لهم عنها مشاكل وشواغل لا يخلصون منها فانكروا عليه نصحه واتهموه بالمروق والخيانة وقالوا انه يبت الفكر العربية في الجيش العثماني وجعلوا يفسدون عليه طرقه وقيمون العثرات في سبيله . واغتنم عزيز بك فرصة اقسامته في الأستانة سنة ١٩١١ فاستدعى فريقا من العثمانيين وأصحاب الرأي السديد الى منزله وقال : « ان اتفاق العناصر العثمانية أمر لا بد منه لاعلاء شأن الدولة » وعرض عليهم آراءه التي استحسنتوها الا واحدا روسى الأصل قربته منافعها الى الترك فتزلف اليهم وكان في الحقيقة أبعد الناس عنهم . وكانت معارضة هذا الرجل سببا في لقاء النفور بين عزيز بك وجمعية الاتحاد والترقي وبالتالي بين الفكرتين العربية والتركية .

ولما شبت نار الثورة في اليمن وانكسرت العساكر العثمانية في معركة جيزان بالعسير ، وفقدت أكثر من ثمانية وعشرين مقاتل بين ضابط وجندى بالجوع والحرب وانقطعت عنهم المؤونة والذخيرة بسبب الحرب الطرابلسية رأى عزيز بصائب رأيه ان يصلح سيادة الامام يحيى فعقد معه صلحا حسنا كان موفقا للدولة فشق عمله هذا على فريق من حساده ومبغضيه واتهموه بالمروق في الوطنية بحجة أنه قدم مصلحة العرب على مصلحة الدولة العثمانية .

ثم دفعته وطنيته الصادقة الى طرابلس الغرب حيث تمكن على قلة جنوده ونفاد يده من المال أن يوقف الايطاليين على الساحل زمنا طويلا . وقد شهد له اعداؤه بالبسالة والمقدرة والتفوق في ميادين القتال ، وكانت معركة ١٦ تموز التي انتصر فيها من أعظم المعارك من الوجهة الحربية .

ومنذ ان بدأت أسجل - على طريقتي الخاصة - أحداث التاريخ المصري التي لم تلق - بعد - حظها من الرعاية والاهتمام . ومنذ أن بدأت - وفقا

لمنهجي الخاص - في الكتابة عن بعض الشخصيات المصرية التي حبل
لأسباب عديدة لا مجال هنا لذكرها قول كلمة الحق فيها وأنا أحرص على
أن يكون ثمة حوار جاد بيني وبين القراء . . فأنا لا أستطيع أن أصبل
الى كل قارئ والى كل قارئة عن غير طريق هذا الحوار .

وقد أفادتني هذا الحوار الى حد كبير ، خاصة مع من اختلف وأياهم
فى الرأى وأصبحت كتبي الصحفية والتاريخية والانسانية تتميز -
وهذا من نعمة الله ورضاء القراء - بأنها تضم بين دفاتها الرأى والرأى
الآخر . من يؤيدنى فى وجهة نظرى ومن يعارضنى .

وفى سنوات ما قبل الثورة التى أرخت لها لم أشطب كلمة واحدة
جاءتنى من قارئ حتى ولو كانت تحمل سببا وقذفا .

ولذلك قيل ان الشعب - فى كتبي التاريخية - هو الذى يشارك فى
صنع تاريخه وفى كتابته أيضا .

وقد أشركت القراء فى كل ما نشرته عن عزيز على المصرى من مقالات
ودراسات .

وقد كان من بين ما تلقيته من رسائل - أفردت لها مكانا بارزا فى
هذا الكتاب - رسالة من المواطن العربى محمد أيوب فخرى خيف-عمان -
الأردن - صندوق بريد ٦٥٠٥ جاءت تعليقا على مقال نشرته بالمصور فى
٢١ يوليو ١٩٧٢ تحت عنوان « عزيز على المصرى فى ذكره السابعة
٨٥ عاما فى كفاح مستمر » وكنت قد ذكرت فى مقدمة المقال ما سمعته فى
العراق من أسرة عزيز على المصرى ليست - كما كنا نعتقد قبلا - قوقازية
وانما هى عراقية بحته ومن مدينة البصرة بالذات وتحمل اسم « عرفات »
وكانت تمتهن التجارة . وقد تزوج أحد أفرادها بعد أن نزح الى القوقاز من
هناك وأنجب ابنا اسمه « على » انتقل الى تركيا ثم الى مصر وقد أيد هذه
التصريحات اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوى . وكان رد الأخ محمد
أيوب فخرى - وسوف أنشر رسالته كاملة فى مكانها من الكتاب - أننا
هنا - فى الأردن - نعتز بالزعيم الراحل عزيز على المصرى اعتزازكم به
وربما أكثر : اخوانى الشراكية فى الأردن ممن أطلعوا على المقال قد ساءهم
ان ينقلب أصل رائد الوطنية فى مصر المغفور له عزيز على المصرى بسهولة
وبجزة قلم الى أصل عراقى استنادا الى رواية شخص كان لواء فى
الجيش وكان ياورا لعزيز المصرى ولم يكن عمله أو ليس عمله البحث
والتاريخ مع أن هذا القول اذا كان صحيحا يجب أن يستند الى دراسة

واقية متروية عقلانية لا الى مجرد عاطفة ونزعة قبلية دفينه أو تعصب
أعمى « و » يلطشنى « الأخ الشقيق على الماشى عندما يقول لى : ومن قبلك
مع الأسف حاول مخرج مصرى لفيلم مصرى ان يجعل من صلاح الدين
الأيوبى الكردى الأصل عربيا من قريش . فقال يومئذ قائل من الأردن :
بما أنه هان على الأمة العربية تاريخها فقد هانت على التاريخ « وانى أجدنى
اليوم مع الأسف أكرر هذا القول : اذا كنت تكتب لتسليية القراء
أو لتعزيتهم فمرحبا بك . واذا كنت تكتب للتاريخ ولتنير الدرب
للجيل الصاعد فليس هذا هو الأسلوب الصحيح » ورغم قسوة
الرسالة وصاحبها على الا أننى فرحت بها للغاية ورضيت عن نفسى
اذ سمجت فى اثاره هذا الشقيق الذى أفادنا الى حد كبير فى مدنا
بكثير من المعلومات القيمة عن أسرة عزيز على ، أسرة شاهلية التى
هاجرت من القوقاز بعد أن تحول الاسم قليلا ليسهل نطقه وكتابته
باللغة العربية ، ومعنى لقب شاهلية : الرأس الثمين أو الفعل الثمين .

ويعطينى الأخ محمد أيوب حيف درسا عندما يقول : اننا نشعر - مع
الأسف - ان اخواننا المصريين يعانون من عقدة ورثوها منذ زمن المماليك
الشراكسة تلاحقهم وتؤرقهم . الخ تلك الرسالة العنيفة والمقيدة الى حد
كبير بعيد !!

من الوثائق التاريخية ذات الأهمية التاريخية . رسالة من عزيز على
المصرى الى الزعيم الطرابلسى السيد سليمان البارونى جاء فيها : العيص
(أمام بنى غازى) ٧ تشرين ثانى ١٣٢٨ (٢ نوفمبر ١٩١٢ :
بسم الله الرحمن الرحيم : الى حضرة الفاضل الشهم الشيخ سليمان
البارونى بك ، وفقنا واياه الله الى اعلاء الدين والوطن آمين : كانت العرب
من الجاهلية شعبا يحارب بعضه بعضا ، الى ان من عليهم الله بالنبي
محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع المشرق والمغرب تحت طاعة العرب
ودولتا الفرس والرومان فى كفتى ميزان عدلها والعرب كانوا حفاة
والفرس كانوا سادة الشرق والرومان سادة الغرب بأسره .

الى ان يقول عزيز على المصرى - وأنا أنقل بالنص بعض أجزاء
رسالة : وفق الله الدين والشرق بالعرب ونزل القرآن بلسانهم لأنهم أقدر
من غيرهم على المحافظة عليه وقال لهم سيدهم (اليد العليا خير من اليد
السفلى) فحكموا وسيادوا .

ثم مضى جيل أو جيلان والغرب فى ارتقاء دائم الى ان داهمهم الكسل
فألهاهم عن الجديات فابتدأ دور الحسد والنفاق ومنه حدث الشقاق
فتفرق الشمل ، حتى الطرق والمذاهب تشعبت مع ان الدين واحد ومع

ان النبي لم يعلم الا مذهبا واحدا وهو المذهب القرآني ولم يزل المنتسبون للإسلام في اضمحلال لجهلهم أمور دينهم الى ان ظهر شيان هذا العصر فاقتربوا بما وصلوا اليه من التعليم الى الصواب وباشروا في استنهاض الهمم والنضارى لا يرون لهم ذلك اذ مكسبهم هو في اختلاف الطوائف الاسلامية فبهذا الاختلاف فتحوا السودان بمصر ومراكش والوادي بالسنگال وغير ذلك . . . والمثل الذي نحن فيه هو أكبر الأمثال فان الطليان لم يقدرُوا على أقل القبائل أهمية في الحرب وها قد دخلنا في السنة الثانية من الحرب وحدود العدو لم تنزل مثل الأول ودخولهم في مصرأطة لم يكن الا بواسطة ابن المنتصر ، فان شئنا فمن الممكن اقامة الاستقلال وهمة الانسان ليس أمامها محال وثباتنا سيجلب قلوب الأمم الاسلامية واعانتها ، وكم من أمم وقعت في شر مما نحن فيه ونجت وعلت بالثبات .

فأرجوكم ان تؤسسوا المخابرة بيننا ولا تيأسوا من بعض الخائفين فينا فبعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) ارتد أكثر المسلمين عن الدين ، ولكن ثبات أبو بكر أعاد الأشياء الى أصلها وزادها من التمكن وتسليمنا للعدو حقارة عظمى للجنس العربى فيقولون هذا الجنس لا يصلح لأن يحكم نفسه ، يخرج من حكم سيده ليدخل تحت سيطرة سيده آخر والأجداد هم القائلون .

أننا نقوم لا توسط عندنا لنا الصبر دون العالمين أو القبر

والجاهلون يتعادون من اختلاف المذاهب ومثلكم من يفهم روح الدين . أرجوكم منع الشقاق . فالعرب كالماس لا يؤثر فيه الا جنسه ، وتكفيننا التجارب ، حاربنا بعضنا بعضا وكسرنا بعضنا بعضا خدمة للأجانب وأعداء الدين . وما سمعناه عنكم دفعنا مثلا الى ارسال تلغرافنا المتمر اليكم ، واليوم نرسل هذا حرصا على الجنس والدين ، وحاملها سلامة بك ، صديقنا ومعتمدنا عرفناه بكل ما يلزم : يوفقنا الله ويهدينا الى الطريق المستقيم :

قائد جيش المجاهدين وخادم المسلمين . .

عزيز المصرى

في أحيان كثيرة ينتج الشر خيرا ، واذا كانت قضية عزيز على المصرى الأولى ، ومحاكمته في الاستانة والحكم عليه بالاعدام ثم العفو عنه قد أثارت الجماهير العربية من أقصى مشارق الأمة العربية الى أقصى

مغاربها ، فقد خلفت تلك القضية فريدة من فرائد شوقي قالها مخاطبا
السلطان :

وحوالك ظل في «فروق» ظليل	شعري اذا جبت البحار ثلاثة
بين المآذن والقلاع تزول	تداولتك عصاة عربية
لسفورها التمسيح والتقبيل	وبلغت من باب الخلافة سدة
ناء الفرات بشطرها والنيل	تلك الخطوب وقد حملتم شطرها
صبر العظام على العظيم جميل	قل للامام محمد وآله
فالغاب من أمثالها مأهول	ان تقعدوا الآساد من اشبالها
عند الاله وانه لجزيل	صبرا فأجر المسلمين وأجركم

عدلا يقيم الملك حين يميل	والله يعلم ان في خلفائه
لا الجيش يرفعه ولا الأسطول	والعدل يرفع للمالك حائطه
والرفق عند محمد مأمول	هذا مقام انت فيه محمد
ما انفك في جنب الهلال بسيل	بالله بالاسلام بالجرح الذي
ان الوثاق على الأسود ثقیل	الا حلت عن السجين وثاقه
صنديد برقة موثق مكبول	ويقول واش ، أو يردد شامت
ماكان يغمد سيفك المسلول	هو من سيوفك اغمدوه لريبة
واستبقه ان السيوف قليل	فاذكر أمير المؤمنين بلاءه

ويقول بعض الرواة - والعهد عليهم - ان السلطان محمد رشاد
ما كاد يطلع على ترجمة باللغة التركية لقصيدة أحمد شوقي حتى تأثر بها .
وكان تأثره لوفاء الشاعر لصديقه السجين ، كما كان لروعة معاني
القصيدة ما جعل السلطان محمد رشاد يبادر باصدار عفوه السلطاني عن
عزيز على المصري . وهكذا نجح الشعر - بعد دنشواي - في ان يكون
صوت الشعب الصادق وترجمانه الناطق . .

ومن الآراء التي عثرت عليها في موضوع عودة عزيز على المصري من
ميدان القتال ببرقة وطرابلس . . رأى للزعيم محمد فريد كان جديدا
بالنسبة لي .

وقد جاء فى هذا الرأى : ٢٧ يوليو ١٩١٣ : الأخبار الموثوق بها
التي وردت لى اليوم ان الخديو كانت له اليد الطولى فى التفريق بين
عزيز بك المصرى والشيخ السنوسى .

وتفصيله ان الايطاليين استنصحوه فيما يفعلونه فى برقة وطلبوا
منه المساعدة مقابل تسهيل مشترى سكة حديد مريوط منه . فقال لهم :
ان احسن طريقة هى مخابرة كل من عزيز بك ، والشيخ السنوسى
بشأن الصلح على حدة أى بشرط ان لا يعلم أحدهما بما يجرى مع الآخر ،
حتى اذا علما فيما بعد بأن كلا منهما يخابر الطليان على غرة من الآخر
يفقد الثقة فيه .

وبذلك يزول اتفاقهما وهو المطلوب فوافقوه على هذا الرأى وهو
مكلف بتنفيذ بعضه .

فأوفد من مصر حسن بك حماد ومعه محام سسورى درزى من رجال
الشيخ على يوسف ومن جواسيس المعية من سنين ، الى عزيز بك المصرى
ومعه ستة آلاف جنيه مصرى بصفة اعانة مالية اسلامية وأخذ ينصحه
بترك برقه مع من معه من العساكر النظامية لعدم الفائدة من استمرار
الحرب بعد عقد الصلح مع الدولة العلية .

وأنه اذا كان يريد الاشتغال بمسألة استقلال العرب وتأليف سلطة
وخلافة عربية فالأحسن ان ينسحب الى بيروت وهى الآن خالية من الجند
بسبب حرب البلقان وهناك يمكنه اعلان استقلال سورية ، مع من معه
من العساكر النظامية وفرنسا وانجلترا بمساعداته على ان يكون أميرا
مستقلا بجانب العرب ، الى غير ذلك مما جاء فى التقرير ، ولما كان
عزيز بك هذا يشتغل منذ مدة بالمسألة العربية أصغى الى هذه الوسواس
وأخذ يناوىء الشيخ السنوسى فجلد أخاه (هلالى) وأراد قتله بدعوى
أنه يخابر الطليان وهو شاب لا يبلغ الخامسة عشرة من عمره فاغناظ
الشيخ وقال لعزيز بك : الأحسن بأن ينسحب هو وجنوده . فانسحب
وهاجم العرب فى الطريق وقتلوا من رجاله ضابطا ونحو أربعين عسكريا
وبذلك (خلا) جيش السنوسى من الضباط والنظام العسكرى وسهل على
الطليان فتح بلاده ، وهذا من فعل وخيانة عباس حلمى خديو مصر .

ويذكر محمد فريد بأن مصدر معلوماته : القاضى يحيى بك صدقى
لأنه سافر الى السلوم عند وصول عزيز بك ورفاقه بدعوى ان له أقارب
بين ضباطه وهو الذى نقل التفاصيل الى هنا بجنييف مشافهة .

ويقول محمد فريد بك عن عزيز على المصرى : أما عزيز بك المصرى فهو عبد العزيز على ، ولد بمصر من أبوين شركسيين وتعلم بمصر حتى حصل على الدراسة الثانوية ودخل مدرسة الحقوق المصرية ، ثم لسبب لم أقف عليه سافر الى الاستانة ودخل المدارس الحربية ، ونجح فيها وامتناز فى الجيش العثمانى فى الحروب التى أقامها الرجعيون ضد أنصار الحرية بعد الدستور فى بلاد الارناؤود وفى بلاد اليمن وهناك كان له عمل يشكر عليه مع عزت باشا القائد العام هناك اذ ذاك - ناظر الحربية الآن وقائد الجيوش المحاربة للبلغار - فى الصلح مع الامام يحيى .

ولما نشبت حرب الطليان فى طرابلس سافر اليها مع أنور بك وكثير من الضباط . أما سياسته فكان ولم يزل اتحاديا .

ولكنه يفكر دائما فى مسألة تأليف سلطنة أو خلافة عثمانية بدعوى أن العنصر التركى فقد كل صفاته القديمة والحربية والسياسية وأنه لا « يخرج الاسلام » من حالته السيئة الا « بالاعتماد على العنصر » العربى .

وقد أتى الى مصر فى شهر رمضان الذى عقب اعلان الدستور فى الاستانة سنة ١٩٠٨ ، واجتمع به وبعض أعضاء اللجنة الادارية مرة بمنزلى فى شبرا وأخرى بمنزل أحمد بك لطفى المحامى .

وكان معنا - على ما أذكر - محمود بك فهمى والشيخ جاويش وطلب منا الانضمام لجمعيةهم المسماة « جمعية شبان العرب » .

وبعد مناقشة طويلة رفضنا الاشتراك فى عمله بعد أن بينا له ضرر الانقسام بين عنصري الدولة ولكن يظهر أنه أسس بمصر شعبة لهذه الجمعية .

ويقول الأستاذ أنيس صايغ عند كلامه على اتصال الانكليز بالقيادات العربية - فى مطلع الحرب العالمية الأولى - للثورة ضد الحكام الأتراك : حصر المسئولون الانجليز اتصالاتهم بزعماء الحركة الوطنية ، وكان معظمهم اما من ضباط الجيش أو من المثقفين الشبان أو من الأثرياء الوجهاء أصحاب النفوذ الواسع . وكان ذلك عكس ما حصل فى العام ١٨٤٠ لما أثار الانجليز السوريين ضد الحكم المصرى . اتصلوا آنذاك بالأوساط الشعبية نفسها وتوددوا اليها واستعملوا كل وسيلة واغراء لاثارتها . لم يخافوا من رد فعل شعبى ضدهم لأنهم لم يكونوا يفكرون باحتلال سورية . أما فى العام ١٩١٦ فقد اختلفت الأوضاع . كانت

نيتهم احتلال البلاد العربية احتلالا مباشرا من بعد طرد العثمانيين .
لذلك انحصر الاتصال بجماعة محدودة من العسكريين والسياسيين ممن
سهل على الانجليز ، فيما بعد استمالة معظمهم الى جانب الاحتلال
أو الانتداب . مكن ذلك الاجراء الانجليز من تنفيذ مخططهم الذى لم
يخشوا عليه الا من وعى الشعب القومى .

ثم يقول : انحصر الاتصال ، مقابل عزل الشعب هذا ، بنفر من
قادة الحركة الوطنية من الهاربين الى مصر ، وكانت الحكومة البريطانية
تطلع على نشاطهم وتعرف أخبارهم ، وكانت العلاقات بينها وبين الأحزاب
العربية « ودية » .

لم يكن موقف الوطنيين العرب مشجعاً فى بادىء الأمر . أبدى
معظمهم تمنا وتصلبا أمام الاغراءات البريطانية . وقد حرضهم
عزيز المصرى على ذلك وتزعمهم ، وهو المناضل الذى لم تنطل عليه الحيل
الأجنبية فقد خشى ان يؤدى التسرع فى موالة الحلفاء والثورة على
الأتراك الى ايجاد فراغ يسهل الانجليز قبل أن تسده الحركة العربية
ذاتها . وخشى ان ينزلق العرب بواسطة القيميين على شئونهم السياسية ،
الى أحضان الامبراطورية دون ان يدركوا ماذا يفعلون ، بسبب عدائهم
الشديد للأتراك ، وخشى ان تكون الثورة ابدال مستعمر بآخر .

أوعز المصرى الى أعوانه فى حزب العهد ، فى سورية والعراق ومصر
بأن يتصلبوا أمام المفاوضين الانجليز ، والا يتعهدوا لهم بشىء ما لم يحصلوا
على وعد أكيد بأن يستقل العرب فى آسنة ويتحدوا استقلالاً ووحدة
كاملين . وأصدر تعليماته بهذا الخصوص أثر وصوله الى القاهرة بعد
ان أفرج الأتراك عنه وأعيد الى القاهرة تحت نقمة رأى العربى العام على
اعتقاله وتدخل الانجليز وقد ظن الانجليز أن التدخل لصالحه قد
يفيد فى استمالته . وظهر لهم بعد أشهر ان الرجل لا يساوم على أهداف
الحركة التى كان من مؤسسيها .

بدأ الانجليز يجسسون نبض المصرى ورفاقه فى أواخر ١٩١٤
بواسطة الخبيرين البريطانيين بالشئون العربية ، ستورز وكليتن .
وأصر المفاوضون العرب على أن تتعهد الحكومة البريطانية رسمياً بأن
لا مطمع لها فى أى قطر عربى وانها لا تمنع فى استقلال العرب واتحادهم
ان وقف العرب الى جانبها فى الحرب ، كما طالبوا ألا يشترك فى
العمليات الحربية جنود فرنسيين فى الجبهة السورية ولا جنود بريطانيين
فى الجبهة العراقية .

وقد أراد المصري من هذا التحفظ ان يقطع الطريق على ما توقع حصوله من مؤامرات . وعوضا عن الجنود الانجليز والفرنسيين ، تعهد المصري بأن يؤلب أحرارا سورية والعراق ويجندهم للقضية بالاتفاق مع الزعماء الوطنيين في البلدين . زعم المفاوضان الانجليزيان أنهما يوافقان على هذه المطالب ، وأخذ المصري يستعد للفرار الى العراق ليحضر للشورة من هناك الى ان اذيع خبر نزول القوات البريطانية في البصرة . ومع أن رجال السياسة البريطانية في مصر ادعوا أنهم كانوا يجهلون الأمر ، قرر المصري وبعض أصحابه مقاطعة المفاوضات مع الانجليز ، وأخذوا يتربصون بالأحداث من بعيد ، خاصة ان اعلان « الحماية » على مصر زاد في فضح النيات البريطانية .

غير أن أغلبية الوطنيين السوريين في مصر رأَت تحذيرات المصري مبالغة في التشاؤم واعتبرت موقفه موقفا سلبيا أكثر من اللزوم . وخرج أفرادها عن نصيحته وتابعوا اتصالاتهم مع المسئولين الانجليز متأملين التوصل الى حل وسط يرضى الانجليز ولا يتنكر للأهداف العربية . وكان هؤلاء ممن استضافهم الانجليز عند لجوئهم الى مصر هاربين من جور الأتراك وكان عداؤهم للحكم التركي يحجب عن أنظارهم مخاطر التسرع بالاتفاق مع أعداء الأتراك .

وحينما أخذ عزيز المصري يعد رسائله الى رجال حزبي العهد والفتاة في سورية ، يشير فيها عليهم بالتمهل قبل اتخاذ أى موقف حاسم ، كان رجال الحركة الوطنية في سورية ، من مختلف الأحزاب ، قد بدأوا بالاتصال بالشريف حسين وأرسلوا أحد وجهائهم ، فوزى البكرى ، ليعرض على أمير مكة فكرة الشورة على الأتراك ، بعد أن كانوا قد فشلوا في مباحثاتهم مع أمراء آخرين في شبه الجزيرة . وكانت تلك المباحثات قد بدأت أثر صدور الحكم باعدام عزيز المصري . فخشى الأحرار ان يستمر الأتراك في تعقب المناضلين العرب . وقرروا ان يشوروا قبل ان يفوت الأوان . فاتصلوا بابن سعود ، وسلطان مسقط ، وعلى حيدر . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل .

وقبل ان تصل توجيهات عزيز المصري الى زعماء سورية كان موفدهم الى الحسين قد وصل الحجاز في يناير ١٩١٥ وبدأ مباحثاته ، غير ان الحسين لم يلب الدعوة ولم يشجع الفكرة . ورفض ان يجيب الطلبات وكانت رسائل ستورز ، وكتشنر قد بدأت ترد عليه . ووجد ان القضية جدية أن كلا الطرفين يدعو لاتخاذ موقف حاسم فقرر ازاء ارتباك ان يرسل ثالث أنجاله الى دمشق والاستبانة ليدرس

الموضوع فيهما من ناحيتيه المتناقضتين وليطلع على وجهتي النظر العربية والتركية .

ثم يلخص الأستاذ أنيس الصايغ الاتصالات البريطانية بقوله :
ان الانجليز فعلوا جهدهم للحصول على تأييد الحسين دون أن يتنازلوا
عن مصالحهم في المنطقة ، بل انهم فعلوا ذلك لحماية مصالحهم . وأخذوا
الى جانب اتصالاتهم مع الحسين ، يضغطون على أحرار العرب في مصر ،
وجلهم من السوريين ، ليتفاهموا معه ومعهم وليتفقوا على الثورة . وواجه
كل من سنتورز وكليتون وماكماهون وكولوكس صعوبة في اقناع عدد من
هؤلاء المناضلين ممن لم يبرأوا من شكوكهم بالحسين والانجليز ، من أصدقاء
عزيزي المصري أو زملائه في حزب العهد وبينهم أسعد داغر وعبد الرحمن
شهبندر ومحمد شريف الفاروقي . وقد دعا هؤلاء الى مساعدة العراقيين
والسوريين ليشوروا على الأتراك دون فرض ثورة معينة عليهم من خارج
البلدين قيادتهم الاسمية في أيدي عائلة لا تشترك بالجهاد قبلًا ، وقيادتها
الفعلية في أيدي الطامعين بالبلدين طمعًا مفضوحًا .

هنا يظهر نوري السعيد على مسرح الأحداث من باب مجهول ليقوم
بدور رئيسي . كان ذلك الضابط العراقي في ذلك الحين عضواً في حزب
العهد السوري ، وواحداً من عشرات الضباط العرب الناقمين على الأتراك .
وكان عضواً عاملاً في معظم المشاريع التي قام بها الضباط لتحقيق
المطالب القومية .

وما ان أذيع نبأ اعتقال عزيز على المصري ، مؤسس العهد ورئيسه ،
حتى هرب السعيد الى العراق ، ونزل في حمى طالب النقيب . وأخذ
يتصل بأمرأى شبه الجزيرة من البصرة يطلب تأييدهم للنضال العربي
ولا بد أن عاملاً ما دعا السلطات البريطانية الى الوثوق به والتعاون معه
بالرغم من قيام المسئولين في الهند باعتقال وطني البصرة أواخر ١٩١٤ .
فبينما نفى طالب النقيب الى سيلان خوفاً من ميوله التحررية ترك
نوري السعيد حراً وسمح له بمزاولة نشاطه السياسي ، ثم استضافه
الانجليز في الهند عدة أسابيع ضيفاً مكرماً الى ان حملته إحدى سفنهم
الحربية الى مصر حيث أقام عدة أشهر برغد وبحبوحة ينفق المال على
أصحابه المناضلين السوريين والعراقيين بسعة .

وسوف نعود بطبيعة الحال الى تكملة وجهة نظر الأستاذ أنيس
صايغ في الفصل الخاص بنشاط عزيز على المصري في أوائل الحرب
العالية الأولى .

من بين ما لفت نظري في كتابات عزيز على المصرى عن رحلته الى ايران والعراق وسورية ٠٠ ومما يدل على فكر عزيز على المصرى الثورى الذى لم يهدأ قوله : تلك هى خواص من خصائص الأمة الايرانية أظهرناها فى الاستعراض التاريخى المتقدم : بعد كل كبوة يتحطم فيها الفاصل والوجه تحطما ، أرى الجواد الايرانى المهشم قد قفز الى الهواء بقوة وخفة وعظمة وجلال ، من قوة الشعب كانت تستحدث تلك القفزات ومن خور الشعب أيضا كانت الكبوات ، تلك لأن الأمة الايرانية كانت دائما أمة ملوك : ويشير المصرى الى تلك العبارة العجيبة « صار التاريخ فراغا والعرش أصبح خاليا ومرت عصور كان ملوك ايران ما كانوا » فالأبهة والعظمة والاحتفالات لها سلطان عظيم على روح الأمة الايرانية ، وهذا السلطان جعل فيها كثيرا من التسامح مع استبداد الملوك ، والتسامح مقدمة الاستعباد : الملوك المؤسسون الذين نشأوا من قوة الشعب بقوا مسلحين بهذه القوة الى آخر أيام ملكهم فكانت أيامهم مجيدة ولكن أولادهم - الا النادر ممن شملتهم الطبيعة بعطفها - فقد نشأوا مطلقى الحكم فى قصور وحدائق ، بين خدم وحشم وعظمة وجلال وخلق وتفان ، وذلك مستنقع مملوء بجرائم الأنانية والترب والجهل والظلم والاستبداد ، تدبل حوله القوة ، وتنطفئ الحياة . ربما أرى ان اشتراك الأمة اليوم فى الحكم قد يكون فيه الدواء لهذا الخور فى الروح الايرانية ٠٠

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

وتذكرنى مقالات الرحالة عزيز على المصرى ، بمقالات أخرى لم أسمع عنها الا من خلال حديث لعزيز على المصرى وهو يروى كيف كان يكتب تلك المقالات على النحو التالى :

« وكنت فيما مضى أكتب المقالات محترفا ، للصحف الأمريكية ٠٠ فكانت زوجتى تغلق على الباب وتخرج وهى تقول لى : لن أفتح لك الباب حتى أتسلم ١٦ ورقة (فولسكاب) مكتوبة من تحت عقب الباب ٠٠٠ !! وكنت أكتب وأواصل الكتابة ، ثم ألقى بالورق لزوجتى من تحت عقب الباب حتى اذا أتممت مقالى ، فتحت لى لنقضى سهرة ممتعة ٠٠٠ »

وكنت أعتبر المشى مع زوجتى من القاهرة الى حلوان يوميا ، رياضة بسيطة واجبة ! فكنت أحمل (زادى) على ظهري وزوجتى معى ، ثم نسير حتى حلوان ثم نقفل راجعين سيرا على الأقدام ! ٠٠٠

وكنت أقطن شقة صغيرة فى (جاردن سيتى) خالية من الأثاث الا من (كنبه) تتحول فى الليل الى سرير للنوم . وكنت أدعو أصدقائي

لشمسية السهرة عندى على ان يحضر كل صديق معه كرسيا و (ترابيزه)
يحملهما معه آخر الليل عند عودته الى منزله ! . . انها أيام جميلة ذهبت ،
ولا أظن أن الزمان يسمح بمثلها . وكان الله فى عوننا على هذا الجو القاتم
المظلم الذى نعيش فيه . . .

أما التقرير الذى سبق أن أشرت اليه والذى كتبه عزيز على المصرى
مدير مدرسة البوليس المصرية الملكية عن زيارته لبعض مدارس البوليس
والإدارة فى إيطاليا وباريس ولندن وبرلين وجنوب بوتسدام ، وهى
الزيارات التى قام بها فى صيف عام ١٩٣٢ . . هذا التقرير يصلح اليوم
أن يكون مجالا للدراسة ذلك أن رؤية عزيز على المصرى فى سنة ١٩٣٢
لم تذهب بها الأيام فيما بعد لأنها كانت رؤية مستقبلية جدا .

وقد قدم عزيز على المصرى تقريره هذا الى رئيس الوزراء ووزير
الداخلية اسماعيل صدقى . وقد قال فى مقدمة التقرير انه لضيق الوقت
لم يمر الا بروما وباريس ولندن وهامبورج وبرلين وأنه خصص معظم وقته
لبرلين لأن نظم البوليس فى ألمانيا أحدث منها فى البلاد الأخرى ولأن
التصريح بزيارة اسكوتلانديارد استلزم عشرة أيام فى لندن ، وأيضا
لأن نظم البوليس الانجليزى والفرنساوى معلوم عنها الشئ الكثير فى
مصر . وقد رأيت - عزيز على المصرى أن أضرب صفحا عما يشبه ما عندنا
أو مما لا ينفعنا ، واقتصرت على عرض ما يهمنا أو قد تهمنا معرفته .

وقد اقترح عزيز على المصرى فى نهاية تقريره ، أن يتخذ الكونوستابل
أساسا للبوليس المصرى بدل عسكرى البوليس الحالى الذى اتفقت كل
الجهات على عدم كفاءته وقلة لياقته لحالة مصر الحديثة خصوصا فى مدنها
الكبرى . ورأى - عزيز على المصرى - ان يجعل عدد الكونستابلات نصف
عدد عساكر البوليس الحالى لأن متعلما واحدا أفضل بكثير من اثنين من
الجهال على الأقل ، وفى هذه الحالة لا تتأثر الميزانية لأن مرتب اثنين من
عساكر البوليس يساوى مرتب كونستابل واحد .

وقد حرصت على نشر التقرير الذى كتبه عزيز على المصرى بخط يده
والتى لم تبلى جدته كما يقولون . والجدير بالذكر أن عزيز على المصرى قد
أوجده ثورة فى مدرسة البوليس . فلقد كان أول من أدخل المصارعة
اليابانية فى المدرسة ، وقد استدعى المصارع اليابانى المشهور «ابساجورا»
ولاعب الشيش الدولى فياندو للتدريس بصفة دائمة فى الكلية ، وهو
عزيز على المصرى أول من أدخل نظام الكلاب البوليسية فى مدرسة
البوليس ، كما أنه - عزيز على المصرى - أول من أدخل الحمام الزاجل فى
مدرسة البوليس .

وكان يدعو الطلبة الى العمل العام ، وينظم محاضرات يدعو لالقائها
العديد من الأساتذة أمثال د . طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق
ود . منصور فهمي ود . محجوب ثابت ، وعبد الرحمن عزام . وكان
يمتحن الطلبة - شفهيًا - في المحاضرات التي تم القاؤها .

وكان أول من دعا الطلبة - طلبة المدرسة - الى أهمية التشجير ،
وفتح أمامهم مجال تشجير منطقة المقطم . وكان يفرض على الطالب في
الأجازة السنوية عددا من الكتب التي يجب قراءتها ومعظمها كتب تاريخ
وسياسية ، وكان يسأل الطلبة في هذه الكتب ليتأكد من استفادتهم أو
عدم استفادتهم منها .

وكان أول من دعا الى تدعيم العلاقات بين طلبة مدرسة البوليس
وجماهير الشعب ، بعد ان كانت جماهير الشعب لا ترى في ضابط البوليس
الا ذلك الذي يستخدم الهراوة أو المسدس في تفريق المظاهرات .

على أنني لم أكتف بكل ذلك رغم غزارته ووفرتة وجدته . . . وإنما
سعييت الى منابع أخرى مستعينا بها لعل أجد عندها معلومات جديدة . . .
اتجهت مثلاً الى كثير من الجهات التي ولد وعاش فيها عزيز على أيامه
الأولى ، تتبعته في مدرسته الابتدائية ، وفي مدرسته الثانوية ، وفي شهور
من دراساته العليا - في مصر - التي لم تكتمل . وأشهد أنني وجدت
الكثير من الحواجز التي حالت بيني وبين تحقيق ما أبتغيه وما أرتجيه .

في مقدمة تلك الحواجز ان عزيز على - أو عبد العزيز على - نفسه
قد وضع العديد من الستائر السميكة حول فترة الطفولة التي لم تكن
سعيدة بالنسبة اليه فيما بعد . أو كان باستمرار يمر عليها مرور الكرام
دون أن يعطى عنها أية تفاصيل .

وربما كانت لي وجهة نظر خاصة في الموضوع تتلخص في : أن ثمة
خلافات أو اختلافات نشأت بين عزيز على وبين بعض أهله الذي عاونوه
في الصغر دفعته الى تجنب الحديث عن تلك الفترة حتى لا يشير الى هؤلاء
الأهل من قريب أو بعيد .

ثم تتبعته طالبا عسكريا في الاستانة الى أن شب وأصبح علامة بارزة
في العسكرية العثمانية الشاب التي كانت قد بدأت رغم صغر السن وقلة
التجارب تفرض ارادتها في بعض الأوقات على بعض المسؤولين الكبار .
وفي اليمن - بعد أن نضج وطار اسمه بين الخافقين - تتبعته مقاتلاً

شجعاعا ثم مفاوضنا بارعا نجح في الحيلولة دون اراقة دماء العثمانيين واليمنيين وتوصل الى عقد صلح نموذجي بين امام اليمن وبين ممثلى جيش الترك فى اليمن .

ثم تتبعته منذ أن أصيب بالكوليرا فى اليمن حتى رحلته الى برقة وطرابلس وتعيينه قائدا لقوات غير نظامية مؤيدة - من بعيد - من الحكومة التركية التى كانت تخشى الدخول فى معارك علنية مع الحكومة الايطالية تلك التى كانت قد نزلت بقوات ضخمة فى برقة وطرابلس .

وحول الحرب فى برقة وطرابلس وعودة عزيز على المفاجئة من ميدان القتال ، توقفت طويلا وطويلا جدا عند العديد من الروايات والوثائق والمذكرات بل والأشخاص الأحياء الذى شهدوا تلك الحرب ، واستطعت - دون مبالغة - أن تكون لى رؤية كاملة عن هذين الحدثين الكبيرين : القتال فى برقة وطرابلس والعودة المفاجئة من ميدان القتال للقائد عزيز على المصرى .

ثم أغرقت نفسى بحق فى أكوام الوثائق والمذكرات وأضابير الصحف القديمة المتهالكة التى يصعب تجميع بعض صفحاتها . ومن حسن حظى أننى وجدت ضمن مخلفات الكاتب الصحفى القدير أمين الرافعى رئيس تحرير العلم ، والشعب - وقتئذ - بعض ما أشبع رغبتى الجارفة فى الحصول على أكبر قدر من المعلومات وربما كان من الأمور التى أوليتها اهتمامى - فيما بعد - القبض على عزيز على ومحاكمته فى الاستانة أننى لم أكتف بما جاء الى القاهرة من معلومات وإنما نقلت نشاطى الى تركيا - وكان ذلك فيما أرى سبقا أعتر به - بغية الحصول على ملفات المحاكمة وشهادة الشهود ضد عزيز ، ومع عزيز .

وقد تراءى ان أخرج كل هذا - حرب برقة وطرابلس ، والخلاف بين عزيز ورفاقه فى الميدان ، والقبض على عزيز على ومحاكمته ، ثم العفو عنه وعودته الى القاهرة بعد ان ثار الشعب العربى فى كل مكان - وخاصة فى مصر - مطالبا بالافراج عنه تراءى ان أخرج ذلك كله فى كتاب مستقل ، ولكننى فى النهاية فضلت عدم تجزئة الكتاب مهما امتدت صفحاته .

وظللت - فى صبر وتؤدة - أتببع عزيز على فى مصر هاربا أو متهربا من العمل السياسى وفى الجزيرة العربية جنديا من جنود الثورة العربية ووزيرا لحرييتها . ثم انتقلت معه بعد أن اختلف والحسين بن على الى مصر وأسبانيا بعد أن رفضت المانيا أن يدخلها فى زمن الحرب العالمية الأولى لأن بعض أعدائه من الأتراك أوغروا صدور الألمان ضده متهمين أياه بأنه انجليزى ضد الألمان .

ثم توقفت طويلا أمام الرحالة عزيز على المصرى الذى قضى شهورا فى بلاد العجم والعراق وسوريا ، وكيف أحال الرحالة تلك الرحلة الطويلة الى مقالات نشرتها صحيفة السياسة الأسبوعية وكان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين والتي كانت - السياسة الأسبوعية - بحق فتحا جديدا فى دنيا الصحافة المصرية والعربية .

وقد كانت مقالات الرحالة عزيز على المصرى من الأسباب التى لفتت الى عزيز على المصرى نظر محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين الذى اختاره مديرا لمدرسة البوليس الملكية بعد كثير من الاعتراضات البريطانية والملكية التى سبقت صدور قرار التعيين .

وعن الفترة التى قضاها عزيز على المصرى مديرا لمدرسة البوليس ، قضيت أياما ، بل أسابيع استمتع الى كثير من تلاميذ عزيز على المصرى فى تلك المدرسة وفى مقدمتهم اللواء سعيد الألفى . كما تفضل الأستاذ محمد متولى الذى كان أحد مدرسى المدرسة أيام عزيز على ، فأمدنى بقسط وافر من المعلومات عن السنوات التى قضاها عزيز على المصرى مديرا لتلك المدرسة .

وعن الانقلاب الحظير الذى أحدثه فى تلك المدرسة حيث عمده - مثلا - الى إلغاء المراقبة على طلبة المدرسة فى الامتحانات ، فكيف لا نشق بأمانة طلاب مدرسة البوليس فى الامتحانات بينما الدولة ستتعهد اليهم بحماية أمنها واستقرارها .

عن هذا الانقلاب تحدثت الى كثير من ضباط البوليس . وقد وصلت - بعد جهد - الى تقرير كان أعده عزيز على فى أكثر من عشرين صفحة ، عن رحلة قام بها الى بعض الدول الأوربية زائرا لمدارس البوليس هناك وقد سعدت بعد العثور على هذا التقرير التاريخى سعادة بالغة . . ففى هذا التقرير يبدو عزيز على المصرى على طبيعته .

ونظرة جديدة الى هذا التقرير تؤكد لنا أن أفكار عزيز على المصرى - مثلا - فى عام ١٩٣٢ تبدو اليوم - فى عام ١٩٨٥ حيث أكتب هذه المقدمة - انها مقدمة لم تتحقق كلها رغم مرور السنوات .

وتتبعتم عزيز على المصرى رائدا للملك فى بعثته التعليمية الى لندن ، التى لم تحقق أهدافها ، لحشية فؤاد على الطفل فاروق ولى العهد من آراء عزيز على المصرى وثوريته ، وللخلاف العنيف الذى نشب هناك فى لندن بين عزيز على بن ناحية وأحمد حسنين وعمر فتحي من ناحية أخرى .

وربما أزعج أننى وصلت الى صورة يمكن أن تكون واضحة حول تلك المهمة التى كان عزيز على المصرى يعلق عليها آمالا كبيرة لمصلحة مصر ولمصلحة ولى العهد الذى سيرث - فيما بعد - العرش .

وأزعج أيضا - أننى حققت - بحيدة كاملة كل ما قيل من جميع الأطراف حول البعثة التعليمية لفاروق فى لندن ، تلك البعثة التى كانت بلا جدال مقدمة لفساد الصبى اليافع فاروق ولى العهد .

وتتبعته عزيز على فى قاعة « ايوارت » التذكارية محاضرا عن موقفنا العسكرى والحربى بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ والتى بدأ غيها - فى المحاضرة - عزيز على المصرى عسكريا وأديبا وكاتبا وعاشقا للشعر القديم من الدرجة الأولى .

ثم تتبعته مفتشا عاما للجيش المصرى ، ورئيسا لأركان الحرب . تتبعته العقبات التى اعترضت طريقه حتى أنهم - فى وزارة الحرب - الدفاع - لم يسمحوا له تماما بالقيام بمهام وظيفتيه الكبيرتين ، بل لم يخصصوا له مكتبا يجلس فيه .

وقد حاولت الرد على سؤال اعترضنى وأنا أبحث هاتين الفترتين : الفترة التى شغل فيها عزيز على المصرى منصب مفتش عام الجيش ، والفترة التى شغل فيها وظيفة رئيس أركان حرب الجيش المصرى : اذ كان عزيز على المصرى متعاطفا مع الانجليز الذين ساعدوا - كما يقولون - على افراج السلطان عنه بعد الحكم عليه بالاعدام ، والذين رشحوه للعمل مع الحسين ابن على ليكون وزيرا للحربية الثورة العربية اياها . فكيف يمكن تقبل معارضة البعثة العسكرية البريطانية فى مصر والسفارة البريطانية فى مصر لعزيز على المصرى والحرص الشديد من جانبيهما على ألا يتولى أية اختصاصات عسكرية أيا كان شكلها ومضمونها .

وأذكر ان شعب مصر كله كان متعاطفا الى أبعد حدود التعاطف مع عزيز على المصرى عندما سقطت به وزميلاه الطائرة ليلة ١٦/١٥ مايو ١٩٤١ ، وأذكر أننا كنا وقتذاك صبيانا غير مجربين ولكننا كنا نتابع الصحف منذ الصباح الباكر لنعرف هل قبضوا على عزيز على المصرى ، أم لم يقبضوا عليه . ؟ وكنا ندعو الله ألا تتمكن الحكومة منه ، وان يمكن هو من الهرب خارج الديار . فلما عرف البوليس السياسى مقره فى أمبابة والقى القبض عليه كان ذلك بمثابة كارثة عنيفة منى بها الشعب . ذلك ان قائده العسكرى الشجاع قد أصبح أسيرا . ثم تتبعناه فى محاكمته ، وأعجبنا بشجاعته ورجولته اعجابا لا حد له . وما أكثر

ما حاولنا الحصول على تذاكر لحضور بعض جلسات المحاكمة ولكن أين لنا - ونحن فتيان قرويون - بمن يعطينا تلك التذاكر وكنا نفخر بعزیز على المصرى عندما كان يدخل الجلسة واضعاً يديه فى جيبه فتسائلنا فى سخرية بالغة : أين هى الأمة المصرية التى تشهد المحاكمة ؟ أين طلبة البوليس ، وطلبة كلية الحقوق ليشاهدوا هذه القضية وليروا ان ادعاءات البوليس لا أصل لها . ثم تمضى به السخرية الى أبعد مداهها ليقول : هل صحيح أنا متهم بسرقة سيارة ولا بسكليت كما يقولون ؟ ثم يخفف آلامه بأحاديث عابرة مع محاميه وكانوا وقتئذ خيرة محاميين مصر : حافظ رمضان ، عبد العزيز الشوربجى ، حماده الناحل ، فتحى رضوان . لقد كانوا فى المحكمة لا يترافعون كمحاميين وإنما كانوا فرسانا يتبارزون .

ثم نجحت فى الحصول على أوراق المحاكمة ومذكراتها ، وعدت الى ما كنت قد سجلته عن عزیز على المصرى نفسه من أقوال حول تلك المحاكمة ، وسوف أبقي مدينا بحق للرجل الطيب العظيم قائد الجناح حسين ذو الفقار صبرى الذى سعى الى بعد ٣٥ عاما من وقوع الحادث ليروى لى تفصيلا كل أسرار قضية الطائرة . . . ولن أنسى أبدا ذلك الرجل الذى سعى الى دون معرفة سابقة ليزيح الستار عن كثير من الأسرار التى كان يعرفها عن عزیز على باعتبارهما أخلص صديقين ، وأعنى به د . عبد الغفار الساعى الذى نجح فى ان يضع أمامى الكثير من النقاط على الكثير من الحروف .



ولن أطيل فى الحديث عما قمت به ، أو سمعت اليه ، كما لن أطيل الحديث عن التقيت بهم وأنا بسبيلى الى اعداد هذا الكتاب فان الحديث فى هذا المجال قد يطول ويطول ، ولكن الذى أحب أن أقوله هنا - وبأمانة بالغة - ان كل جهد بذلته فى هذا السبيل ، لم يكن أبدا جهد باحث مدقق يجرى وراء الحقيقة . . . وإنما كان جهد عاشق يسعى للمقاء عشيقته . . . كنت أعمل فى هذا العمل كمحب لا كمؤرخ ، كمعاشق لا ككاتب . وأخيرا وليس آخرا كانسان يبحث عن ضالته المنشودة ، عن حبيبته أو معشوقته . ولذلك فأننى لم أكن أبدا أحس بأى تعب أو نصب أصابانى فى هذا السبيل ، انهى هذا المدخل بالإشارة الى ردوس موضوعات هامة أرى أنها ضرورة لمن يريد أن يتعمق فى موضوعات الكتاب ، أو كما أسميها باستمرار المفاتيح التى تمهد الطريق لا لفهم الكتاب وإنما للتعايش معه ، فما أطمع فيه بحق الا يوجد لمثل هذه الكتب قراء وحسب ، وإنما يوجد كما هو الحال عندى بالضبط - عشاق ومحبون يعيشون ويتعايشون حقيقة لا مجازا مع أبطال الكتاب .

يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين في أول كتبه السياسية وأحلامها
« فالوق ملكا » : كانت تربية فاروق الأولى تحت إشراف أبيه الملك فؤاد .
ولم يكن الملك فؤاد من الديمقراطية في شيء ، فقد عرف عنه أنه صارم
مخيف في حياته الخاصة وأنه يعامل موظفيه معاملة إرهابية تجعلهم
يرتعدون أمامه . . . حتى قال المرحوم محمود شوقي باشا سكرتيره الخاص
لـ : كنا أمام الناس باشوات ، أما معه فلم تكن إلا خدما . . .

وكان شديدا في رقابته على فاروق فلم يسمح له بأن يكون له
أصدقاء من الأمراء مثلا أو الباشوات بل أحاطه بطائفة من الخدم فشبه دون
أن يعرف صداقات الند للند ، ومجالسة الذين يخدمون أنفسهم بل اعتاد
أن يجالس الخدم الذين يتسابقون إلى أرضائه بأي ثمن ، إلى آخر تلك
التأثيرات الأولى في تكوين فاروق . وقرر فؤاد - أحمد بهاء الدين - أن
يرسل ابنه إلى إنجلترا فاختار له بعثة من ثلاثة : أحمد حسنين وعزيز على
المصري وعمر فتحي .

وكان عمر فتحي مجرد حارس خاص ، أما أحمد حسنين وعزيز على
المصري فأى تناقض . . عزيز المصري الثائر القديم المتعصب لوطنه ودينه
الذي يكره الانجليز بالذات كراهية خاصة . وأحمد حسنين ، ذو الثقافة
الانجليزية والعادات الانجليزية ولاعب الشيش الأنيق الذي يعرف كيف
يظهر بمظهر الجنتلمان في أحاديثه ومناوراته . . .

وكان لابد أن يختلف الرجلان . . .

فعزيز المصري بطبيعته الحارة وتاريخه الذي يفخر به ، لا يمكن أن
يقبل رئاسة حسنين رجل البلاط البارد الأعصاب . وعزيز المصري يريد
أن ينشئ فاروقا تنشئة عسكرية خشنة وأن يجلده عن جده إبراهيم بالذات
بمعن عراقة الشعب المصري وكفاحه وأبطال الحرية في تاريخ الشرق .

أما حسنين وهو رجل طموح ، فقد أدرك بذكاء الانتهازي أن مستقبله
معلق بأقدام سيده فعمل على أن يرضيه ليستحوذ عليه . . . وعرف فاروق
على يد حسنين مغامرات الليل .

وكان حسنين وفاروق يداوران عزيز المصري ، ويتركانه ينام ثم
يخرجان إلى الليل والمدينة ، وضبطهما عزيز مرارا ، وكان يشور ويهدد
بشكواههما ثم يهدأ .

وقد تشاجر عزيز المصري مرة مع حسنين على المائدة أمام فاروق
حين قادهما الحديث إلى أحمد عرابي وسعد زغلول : كان عزيز يريد أن

يلقن فاروقا أنهما رجلا ن وطنيان حاولا أن يؤديا لوطنهما خدمات جليلة .
أما حسنين فلا يلفت نظر فاروق الا الى ان عرابى أراد خلع توفيق ، والى
ان سعد هو عدو أبيه .

وكان فاروق - يقول بهاء الدين - فى أخطر سنى المراهقة فمال الى
حسنين بحكم طبيعته المدللة التى تأبى ان تتعلم أو يفرض عليها رأى أو
تسير بتوجيهه ونفر من عزيز المصرى الذى كان يريد ان يوجهه
قسرا . « وذهب عزيز المصرى ، وبقي معه حسنين » .

تلك صورة من الصور التى رسمت للبعثة التعليمية لفاروق ، والتى
أظهرت الصراع بين أحمد حسنين وعزيز على المصرى . . . ولكن ماذا قال
عزيز المصرى عن ذات الموضوع . . ؟ قال عزيز المصرى للمضابط الشاب
أنور السادات : بدأت الدسائس منذ زمن . . منذ كنت فى انجلترا أشرف
على تربية فاروق . وكنت - عزيز على المصرى - أحب أن تحسن تربيته
لأنه شاب ، سواء كنت أنا الذى أربيه أم غيرى ، ولكن يد الحيانة والدسائس
امتدت اليه وكانت أقرب الى قلبه من يده . . . دسائس أحمد حسنين
وعمر فتحى ، هذان الاثنان تأمرا على فاروق ، وتأمرا على شعب مصر فى
شخص ملكه .

ويقول عزيز على المصرى : هل تتصور أنى كنت أدخل غرفته صباحا
فأجده نائما بملابس السهرة والخمر تفوح من فمه . هذا الشاب الذى
كنت أريد له الصلاح والتقوى والوطنية ، كانا هما يريدان له الفساد
والتهتك والاستهتار . . كانا يقودانه الى دور الفساد فلا يعود الا فى
الرابعة صباحا ويعود مخمورا فينام ويلقى بنفسه القاء على أقرب مقعد
أو وسادة .

وكنت أحاول ان أنهاء عن ذلك فيخجل ، ولكنهما ينفردان به من
بعدى فيزيل كل أثر لنصائحي . ولقد أدخل هذان المغامران فى ذهن
فاروق أننى مدسوس عليه من أبيه ، وكان فاروق يكره والده من كل قلبه
ويقدس أمه تقديسا شديدا ، كما ألقيا فى وهمه أننى أشيع الأقاويل عن
أمه وأنى أريد ان أزيلها من الوجود لكى ينفرد أبوه بحبه ، وأننى اعمل
الآن على دس السم لها . ولقد عرفت ذلك يوم أرسل فاروق الى أبيه خطابا
باكيا يهدده فيه ان لم يسحبنى فورا من مهمتى - وقد سحبنى فعلا -
وتركه فعلا لهذين المفسدين يفسدان على نفسه ، ويفسدانه أيضا
على وطنه .

والجدير بالذكر . . ان عزيز على المصرى قد ذكر فى تلك المناسبة
ان الدسائس والمناورات قد تلاحقت لتقصيه - أى عزيز - عن كل مكان

يستطيع فيه ان يوجه الشباب لأن فاروق يعرف كيف أوجه أنا الشباب ؟

وكان اتحاد الجامعة ، واتحاد كلية الحقوق قد نظما في قاعة ايوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة سلسلة محاضرات بعنوان : واجبنا بعد معاهدة ١٩٣٦ . وكانت اللجنة التي نظمت هذه السلسلة مكونة من الطلبة (وقتذاك) عبد الحميد حلاوة ، وعلى كريم ، وعيد حلمي ، وعبد الحميد الشواربي (كلية الحقوق) وحامد عبد المجيد (كلية الآداب) الخ الخ .

وقد تحدث أحمد لطفى السيد باشا عن واجب الجامعيين بعد المعاهدة .

وتحدث أحمد نجيب الهلالي (بك) وزير المعارف الأسبق وعضو مجلس النواب عن واجب الشباب بعد المعاهدة .

وكان حديث اللواء عزيز على المصرى - وقد ألقاه في مساء ٧ ديسمبر ١٩٣٦ - عن : فكرة عامة عن منشأ الحروب وواجبنا الحربى بعد المعاهدة .

وألقي حسن باشا نشأت وزير مصر المفوض ببرلين محاضرة عن واجبنا الاجتماعى بعد المعاهدة .

أما محاضرة د . طه حسين - وكان وقتئذ عميدا لكلية الآداب - فقد كانت تحت عنوان : واجبنا الأدبى بعد المعاهدة .

ومحاضرة الدكتور مصطفى مشرفة (عميد كلية العلوم) عن واجبنا العلمى بعد المعاهدة .

وحسن عنان بك (سكرتير عام وزارة الزراعة) عن واجبنا الزراعى بعد المعاهدة .

ومحمد طاهر باشا رئيس اللجنة الأهلية للرياضة البدنية ورئيس نادى الطيران والسيارات الملكى عن واجبنا الرياضى بعد المعاهدة .

وكانت محاضرة د . عبد الرزاق السنهورى بك عميد كلية الحقوق عن واجبنا القانونى بعد المعاهدة .

أما فريد زغلول فقد كانت محاضراته عن واجب الطلبة بعد المعاهدة .

واختار الأستاذ أنطون الجميل عضو مجلس الشيوخ ورئيس تحرير الأهرام موضوع « واجبنا الصحفى بعد المعاهدة » .

واختارت الآنسة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » وأجبنا نحو
الفلاح بعد المعاهدة وتحدثت السيدة استر فهمي ويصا عن واجب المرأة
بعد المعاهدة .

وتحدث د . محمد زكي الشافعي مدير المكتب الفني بوزارة الصحة
عن واجبنا الصحي بعد المعاهدة .

وكان عزيز على المصري في محاضراته تلك ككل محاضراته ، كاتباً ،
وأديباً ، بل وذواقة للشعر العربي القديم ، وقد عاد المصري في بداية
محاضراته الى الأيام الأولى للاغريق والفرس حيث كانت الجندية أساس
تربيتهم . وقد نبه المصري في محاضراته الى ظاهرة لم يكن قد اهتم بها
أحد من قبل هي ان مشاهير اللاعبين والمصارعين في أمريكا وأوروبا من
اليهود . ودعا المصري الى ازالة الزهاد المتراكمة من أجيال عن تلك الجذوة
التي كانت وهاجة في القرون الوسطى أمام المنصورة حيث أسر جنود مصر
ملك فرنسا ، وفي عين جالوت بفلسطين حيث أفنى الجيش المصري جيش
المغول الذي أرسله هولاكو من بغداد والذي لم يكن يعرف هزيمة من قبل ،
فقال الجيش المصري الشرف الاسمي لا تقاذ مدنيات متراكمة في هذا
الوادي من عدو لا يعرف الرحمة جبل على حب الخراب والدمار . تلك
الجذوة التي اقتلعت من شفتي تيمورلنك الغاشمتين مقدار الجيوش المصرية
في سورية حيث قال : خير الجيوش جيوش مصر ، هي تفوق الترك ، ولكن
تنقصها القيادة .

الطريف ان عزيز على المصري طعم (بتشديد العين) محاضراته الخربية
بأبيات من الشعر من بينها . .

ليس عظيمًا ان تلم ملمة وليس علينا في الحقوق ممول
فان نحن لم نملك دفاعا يجاد حكم به الأيام فالملوت أجمل

وبأبيات أخرى تقول :

وقلتوا أمركم لله دركم — ربح الذراع بأمر الحرب مطلقا
لا تترفا أن رخاء العيش فارقه ولا اذا عض فكروه به خشعا

ويلخص عزيز المصري محاضراته — وسنعود اليها في الوقت المناسب —
بقوله : أقول للطلبة ان كنتم تحبون الجيش وتودون أداء واجبكم نحو
فاعلموا ان الجيش :

تنظيم : ظاهرة العقل في الجيش ، العقل المنطقي المرتب ،
بطولة : وهي ظاهرة قوة الايمان بفكرة نسائية ممزوج بقوة من
الروح .

جلد : وهي ظاهرة تحمل المشاق بدون شكاية ومع ضبط النفس
واخفاء الآلام .

ويؤكد عزيز على المصرى ان هذه الملكات لا تنشأ في الانسان بالكلام
أو الخطب وإنما بالقراءة والتمرين . والطريف ان عزيز على المصرى طلب
من الشباب توجيه مشروع القرش من صناعة الطرابيش الى صناعة
الكمامات الواقية .

وقد كنت جده مشتاقا الى معرفة رأى أستاذنا عبد العزيز على ، أحد
رواد المدرسة القذائية في مصر والذي كان ضلعا في كل الأعمال القذائية
التي وقعت في الفترة من ١٩١٠ حتى ١٩٥٢ ، أو غالبيتها اذا شئنا
الدقة . . . كنت جده مشتاقا لمعرفة رأى عبد العزيز على ، في عبد العزيز
على المصرى ، أو عزيز على ، وقد تحدثنا سويا في تاريخ عزيز على . وقد
روى لي أستاذنا عبد العزيز على أنه أغرم غراما شديدا بسيرة عزيز على
نضاله منذ بداية التحاقه بالمدارس الحربية في الاستانة وأنه تتبع جهاده
في البلقان واليمن وحرب طرابلس وذكر عبد العزيز على ان عزيز على كان
معروفا بالعطف على العرب وتأيد مطالبهم في وجود دولة الخلافة العثمانية ،
وأنه - عزيز على - من أبرز الشوار على مظالم دولة الخلافة وفساد
الأوضاع فيها .

وقال عبد العزيز على : ان عزيز على عندما عين مديرا لمدرسة البوليس
جده أنظمتها وأضفى على تلاميذه فيها من روحه الوثابة وأنه عنى عناية
خاصة برفع المستوى العلمى والثقافى والعسكرى للطلبة - وأنه - عزيز
على المصرى - نجح في تخريج جيل جديد من رجال البوليس يتميزون
بالوطنية والعلم والايمان بالعدالة وحب النظام .

ويشير عبد العزيز على الى مشاركة عزيز على في الاشراف على
تربية ولى العهد في لندن والى الخلاف الذى استحكم بين أحمد حسنين
رائد فاروق لانحرافه عن الطريق السوى ، والى نجاح أحمد حسنين وفشل
عزيز على في الاستمرار فى تلك المهمة بعد أن عمل الجميع ضده : القصر ،
السفارة البريطانية فى القاهرة ، السفارة المصرية فى لندن . لقد كان
عزيز على المصرى يريد لفاروق دنيا أخرى تعتمد على الأخلاق والعلم

والاستقامة ... وكانوا جميعا يريدون له دنيا أخرى : بارات ، وكباريهات ،
وخمر ، ونساء لكي ينتهوا منه صغيرا حتى يسيطروا عليه كبيرا ، وقد
كان ... !

ويروى عبد العزيز على أنه بدأ يتصل بعزیز المصرى بعد أن عين
مفتشا عاما للجيش المصرى ، وكانت بداية اتصاله به عن طريق طالب
بمدرسة الفنون الجميلة اسمه محمد علوى ، وأن الثقة توطدت بينهما
(بين عزيز وعبد العزيز) ثم رحلت - هكذا يقول عبد العزيز على - أتردد
عليه من وقت لآخر فى مسكنه مع الأخوة محمد علوى ويوسف كمال
وعبد المعطى عطية من شباب الحزب الوطنى ، ولم تنقطع تلك اللقاءات حتى
بعد أن انتقل إلى سرايته بعين شمس التى كانت ملتقى الشبان الضباط
يفيدون من حنكته وحسن توجيهاته ويستمعون منه إلى صور الجهاد وألوان
البطولة ودروس وعبر التاريخ .

وعندما استقال أو أجبر على الاستقالة لشدة مناوأة الانجليز له -
نفس التعبير الذى استخدمه السياسى الفدائى المحنك عبد العزيز على -
لزم منزله مما أفسح المجال أمام الشباب عسكريين ومدنيين للمحظوة بلقائه
والإفادة من آرائه .

وإذا كنت جد مشتاقا إلى معرفة رأى عبد العزيز على فى عبد العزيز
على المصرى فلتقتى المطلقة فى كل كلمة يقولها عبد العزيز على الذى كان
لا يتحدث الا قليلا جدا ، وكان يزن كل كلمة بأدق ميزان ، ثم انه -
عبد العزيز على - كان يتحدث وأمامه بانوراما سياسية ليست لأحد ،
يعرف فيها لنصف قرن ، الناس والحوادث .

ويصف الملازم أول محمد أنور السادات آثار اصدار الانجليز الأوامر
بإعطاء الفريق عزيز على المصرى أجازة إجبارية من رئاسة أركان حرب
الجيش فيقول : كان معلوما لنا أن وراء هذه الفعلة أيدي الانجليز ، وكان
مجرد العلم بهذا كافيا لاثارة نفوسنا ودفعنا إلى أى عمل قد يراه الكثيرون
فى مثل ظروفنا من أعمال الجنون . فقد كنا نعرف ما أراد عبد العزيز المصرى
لجيش مصر من قوة ، ومنعة ، وكنا قد بدأنا ننتعش بالنهضة الفعلية التى
فعلها الرجل فى الجيش ، وكنا نسمع كثيرا من القصص التى تروى عن
محاولات عزيز المصرى الإصلاحية والمشاكل والعقبات التى تواجه أمامه
والأحاييل والشراك التى تنصب له ، والتى عرفت بعد ذلك للأسف
الشديد أن الذى كان ينصبها هم كبار ضباط الجيش المصرى نفسه . وكنا
قد تحققنا من الشرك الأخير ، شرك الخيانة الحقيقية تقع من ضباط كبار .

فقد جمع الفريق عزيز المصرى لواءات الجيش ليسألهم عن مدى حاجتهم فى أسلحتهم الى جهود البعثة الانجليزية ومدى ما حققته هذه البعثة من الاصلاح ، وكان الجيش كله ماعدا هذه الفئة يتمنى اليوم الذى تزول فيه وصمة البعثة الانجليزية من وحداته وأسلحته . وتكلم عزيز المصرى مع الضباط كلام مصرى لمصريين ، وكلام قائد لضباطه ولكنهم خرجوا من هذا الاجتماع ، لا ليفكروا ولا ليبحثوا ولا ليسكتوا ، ولكن ليذهبوا الى السادة الانجليز ويقصوا عليهم حديث قائدهم ، وعادوا اليه فرادى ، عاد كل منهم وطلب مقابله لكى ينهش فى لحوم الآخرين ولعل كل واحد كان يرمى من وراء ذلك الى الظهور بمظهر الوطنى نفيا للشبهة عن نفسه والصاقها بالآخرين اذ حدث ان وقعت الواقعة وعلم الرجل حديث الخيانة ولكن عزيز فهم كل شئ وأدرك أنه بين جماعة من اللواءات لا يفضل واحد فيهم أخاه الا فى خسة النفس وبطلان الضمير . ولم تكن خيانات اللواءات هى كل ما أحاط بعزير المصرى من الشراك ، فقد كان الانجليز أحرص من الا يرصدوا عليه كل حركة من حركاته فاستطاعوا بأساليبهم المختلفة ان يملأوا وظائف مكتبه بجماعة من الضباط الحاصلين على شهادات دراسية عليا والحاصلين على شهادة انجليزية قدرة فى نوعها ، شهادة التخصص فى أعمال التجسس للانجليز .

كل هذا كنا قد بدأنا نسمع عنه ، وكل هذا قد تحققنا منه بعد ذلك .

وجاءت الأجازة الاجبارية لعزير المصرى ، كناقوس كبير يدوى فى آذاننا ، لكى نبدأ العمل .

وقد روى السادات قصة أول لقاء له بعزير على المصرى ، وكيف ذهب الى عيادة الدكتور/ابراهيم حسن وكيل جماعة الاخوان المسلمين ، وكان عزيز المصرى فى مكتب ملحق بحجرة الكشف . كنت - أنور السادات - بحاجة الى أن أقدم نفسى (للفريق) الذى آمنت بوطنيته ، وكنت أريد ان أقول له كلاما كثيرا وأكسب ثقته ، لكن رغم كل شئ . . . رغم الطريقة التى تم بها اللقاء بينى وبينه ، كنت أشعر ان فى قلب الرجل ندوبا عميقة من خيانة الأصدقاء الكبار والشبان على السواء . ولكن النفس الصافية أبت أن تحملنى هذه المشقة .

وفى الدقائق الأولى كان عزيز المصرى يحدثنى حديث رفيق الجهاد ، كان يأسا من الحكومات ، يأسا من الأحزاب ، يأسا من الملك ، يأسا من البرلمان ، ولكنه كان مؤمنا بالشباب .

عيب هذا البلد أنه ضعيف وأنه لا يجد العناصر التى تغذيه . .

وسأله : وكيف تأتي بالقوة ؟

فنظر وقال : انتم شباب الجيش ماذا تنتظرون ؟ ومتى تعرفون مسئوليتكم الحقيقية ؟ ومتى تبدأون فى الاضطلاع بها ؟

وعدت أسأله : وهل تظن أننا فى ظل الأوضاع القائمة نستطيع ان نفعل اليوم شيئا ؟

فاجاب : تستطيعون كل شيء ، وغيركم لا يستطيع شيئا . تنتظرون توجيهها منى ، من لواءاتكم ، من حكام البلاد ؟ . وسكت وهو يتمتم : كلام فارغ .

ثم نظر الى فى عزيمة شابة وقال : لقد كان نابليون فى سن السابعة والعشرين من عمره فقط ، وكان مثلك هكذا شابا صغيرا ، ولكنه استطاع ان يكون فى تلك السن المبكر نابليون بونابرت القائد واستطاع ان يقود بلاده وجيشه ولم يكن يتلقى توجيهها من أحد .

وبعد لحظات قال فى عمق : التوجيه الوحيد الذى كان نابليون يستلهمه فى كل خطواته هو الايمان الذى كان ينبعث من نفسه ، فابحثوا عن الايمان ولا تعتمدوا على أحد الا على أنفسكم .

وقلت له : لقد عشت أنت مؤمنا بهدفك ، وعشت لا تعتمد على أحد . وتغلبت عليك مع ذلك هذه القوى ونحن نريد أن نعمل ... وقاطعنى بقوله : اعملوا وحدكم ، واعتمدوا على شبابكم والذى يستطيع ان يقصى عزيز عن توجيه الملك ، والذى يستطيع ان يقصيه عن توجيه الجيش ، لا يستطيع ان يقصى شباب الجيش عنه .

وقد كان قائد السرب حسن عزت الذى كان من أوائل الضباط المصريين الذين عملوا فى الحقل الوطنى ضد الاستعمار البريطانى وحوكم ، وفصل من الجيش ، وسجن واعتقل ، من أبرز تلاميذ الفريق عزيز على المصرى الذين ظلوا على الوفاء له الى ان لقي عزيز المصرى ربه .

وقد أصدر حسن عزت فى أوائل ثورة ١٩٥٢ كتابا سماه « أسرار معركة الحرية » شارك عزيز باشا فى تقديمه والشيخ الباقورى ، وقائد الجناح عبد اللطيف بغدادى وأنور السادات ، وخالد محيى الدين ، وفتحى رضوان . واختفى الكتاب - فجأة - من السوق ، كما اختفى صاحبه ولم يظهر الا فيما بعد . ظهر حسن عزت واحدا من كبار رجال الأعمال فى النقل البحرى - يتخذ مقره مدينة تورينو الايطالية .

جاء على لسان حسن عزت بعد أن روى قصة العلفة التي أخذها وزميليه الطيارين أحمد سعودى وسعيد ثابت من أجل فاروق ، وكان الثلاثة عائدین من شارع عماد الدين الى مطار الماطة للمبيت وكان المترو مكتظا بجنود الحليفة وهم فى حالة سكر ، وكان الجنود ينشدون نشيدا عداثيا ضد فاروق .

وكان فاروق - حسن عزت - فى تلك الأيام عند مفترق الطرق بالنسبة لموقفه من المصريين ولم يكن أحد يعرف من نقائصه ومبائله شيئا ، بل كان يتردد على المساجد كل يوم جمعة ، وكان قد أطلق لحيته ليضل الناس أو ليمهد لمشروع الخلافة .

على أى حال لم تكن نكرهه - وقتئذ - وعلى أسوأ الفروض كان ملكنا وزمنا ، وأخذ الانجليز يغنون بصوت مرتفع بأغنياتهم التي لا تصلح للنشر ، اعتبرنا الأغنية اهانة ونحن ضباط ونرتدى ملابسنا العسكرية وفاروق على رأس الجيش فى تلك الأيام ، وهاج المرحوم الطيار سعودى وقال : لابد أن نؤدبهم ، وكان يتمتع بقوة جسمانية وعضلات مثالية ، وكان سعيد ثابت بطل مصر فى الزانة .

ويحدث حسن عزت عن المعركة التي نشبت بينهم الثلاثة وبين جنود الاحتلال وكان وقتئذ حوالى مائة وخمسين ضابطا وجنديا ، وأبلى الزميلان سعودى وثابت بلاء حسنا ، ولكن القوة غلبت الشجاعة ، وقد ألقانى الجنود البريطانيون من نافذة المترو فى الشارع ٠٠ وبعد لحظات وإفانى سعودى وسعيد عبر نوافذ المترو ٠٠٠ !! .

وذهبنا الى المطار يومها فى تاكسى بعد أن ضمنا جروحنا فى إحدى الصيدليات ، الى ان يقول حسن عزت :

وكان على رأس الجيش فى تلك الأيام بطل قديم ومحارب باسل هو الفريق عزيز المصرى ، وكنت يومها على رأس سرب من أسراب القتال من طراز جلادينير وكانت هناك ستة أسراب للقتال وعلى رأس السرب المرحوم سعودى ، وكان الطياران عبد اللطيف بغدادى ووجيه أباطة يرأسان السربين الثالث والرابع وجمعنا نحن الأربعة زمالة السرب واتفاق الآراء من الناحية السياسية و ٠٠ و ٠٠ .

ولم يكن لدى بريطانيا وقتئذ سوى ثلاثة أسراب قتال بمصر هي كل ما لديهم فى هذه المنطقة ، وكانوا فى أشد الحاجة لطائراتنا .

وذاث يوم حضر كبير ضباط البعثة البريطانية وهو يكاد يبكى لأن المقاتلات الألمانية انقضت على مطاراتهم فى الصحراء الغربية وأسقطت

٢٠ طائرة مقاتلة انجليزية فى يوم واحد ، وبقيت ثمانى طائرات صالحة بخلاف الطائرات التى ضربت على الأرض .

وهكذا - حسن عزت - انكشفت القوات الانجليزية من الجو وتعرضت لهجمات طائرات المحور العنيفة وجاء الرجل يطلب النجدة من المقاتلات المصرية . وهنا وجدنا الفرصة سانحة للانتقام فرفضنا بآباء ان نقاتل معهم . . . وبعد ثلاثة أيام نجح الضباط فى الحصول على أمر اشتراك المقاتلات المصرية معهم فى الحرب من مدير عمليات الجيش المصرى المرحوم همت باشا .

وكان الأمر يرمى الى تحريك الأسراب الثانية والخامسة قتال الى الصحراء للتعاون مع بقايا السرب الانجليزى لحماية القوات البريطانية من الجو .

ووجدنا الفرصة سانحة .

فقلنا لهم : نحن مستعدون للقتال ولكن أين الطيارين المدربين . . ؟ ان ربع قواتنا فقط مدربة متمرنة على القتال ، ولكن ثلاثة أرباع الطيارين لا يقاتلون بالليل و . . و . .

وهنا فتحوا لنا مخازنهم على مصراعها . . وذهبنا أنا ووجيه أباطة سرا للمنزل الفريق عزيز على المصرى لنطلعه على حقيقة الموقف بالنسبة للطائرات والطيارين أيضا . . وأطلعناه على موقف البعثة البريطانية وعلى أمر العمليات الذى صدر .

وفكر السياسى العجوز طويلا بعد أن أطرق برأسه ثم قال : خذوا منهم الى انتم عاوزينه ، ومرنوا طياريكم كويس قبل ما تسافروا للصحراء . . وبعد كده أنا عندي ترتيب .

وتساءلنا يومها . . ماذا يخبىء لهم المداخلة العجوز ؟

وفى صباح اليوم التالى فتح الانجليز مخازنهم على مصاريحها لنا واغترفنا منها بكل شراسة و . . و . . وذهبنا مرة أخرى - الى عزيز على لنطلعه على الحال فقال لنا : روحوا يا أولاد بقى خلوهم يمرنوا طياريكم ، ويدوكو جبخانه لتتمرنوا ، وكم ان خدوا اد عشرين مليون طلقة احتياطى أو خمسين و . . و . .

ويذكر حسن عزت ان جميع الطائرات قد جهزت فى الساعة السادسة من صباح أحد الأيام ومعبأة بالجبخانة ، وقد وقف كل طيار أمام طائرته ،

وكل قائد سرب أمام أسرابه ، وكان كل منهم يحمل تعليمات وأوامر تحرك
أخذت بدقة وعناية . اتصل قائد المحطة بمدير السلاح ليستأذنه قبل
سفر الطائرات . وذهب مدير السلاح بدوره ليستأذن رئيس هيئة أركان
حرب الجيش ، فقد كان الطيران يتبع الجيش فى تلك الآونة .

وتساءل عزيز المصرى بدهشة : ومن أصدر الأوامر ؟ قيل له : إن
الأوامر صدرت من إدارة العمليات وقال : ولكن أنا ما عنديش خبر
بالأوامر دى . وكيف تشترك طائراتنا فى الدفاع عن القوات البريطانية
فى الصحراء ونحن لسنا فى حالة حرب مع الألمان . فلما أخبره مدير
السلاح بأن الأوامر التى لديه صادرة من إدارة العمليات ، استدعاه عزيز
باشا لمقابلته (مدير السلاح) هو ومدير العمليات ، ولما تمت المقابلة
أعطاهما عزيز المصرى درسا فى الوطنية ، وكيف أن مدير العمليات
يجب ألا يتلقى تعليمات من الانجليز بل من رئيس أركان حرب الجيش .

وجاء مدير السلاح للمطار ونحن متأهبون للسفر ، جاء ليعطينا
الأمر بالانصراف بل والعودة بالطائرات الى السويس وحلوان للدفاع عن
الأراضى المصرية فقط .

وطينا لأول مرة بجميع قوة الأسراب وهى صالحة للاستعمال ، وجن
جنون الانجليز ، ولكن ماذا يصنعون لقد أثروا على مدير العمليات وخضع
لأوامرهم ، ولكن هيهات أن يخضع عزيز على المصرى لأوامر الانجليز .

وحصلنا - حسن عزت - بسبب (استعباط) عزيز المصرى على كل
ما نريد من قطع الغيار والمحركات والمدافع والذخيرة الحية دون أن ندفع
مليما واحدا ، كما نجحنا فى تدريب الطيارين تدريباً ممتازاً .

ويذكر - حسن عزت - أن الفريق عزيز على المصرى كان يمر ذات
يوم على سلاح الفرسان وكنا قد استلمنا من انجلترا دبابات خفيفة ،
وأخذ رئيس البعثة الانجليزية يعدد مناقب وقوة دروع هذه الدبابات
الخفيفة وكيف أن الرصاص لا يخترقها وأن صلبها من نوع ممتاز ، فأمر
عزيز على المصرى أحد الضباط بالابتعاد بالدبابة ١٠٠ ياردة وخرج منها
هو ورجاله ، وتناول الفريق عزيز المصرى بندقية من يد أحد الجنود وأطلق
رصاصة على صلب الدبابة الذى لا يخترقه الرصاص ، وأثبتت التجربة
عكس ما تغنى به رئيس البعثة البريطانية ، وذهب الجميع ليروا نتيجة
التجربة العملية لصلب شيفلد فأروا ثقباً كبيراً . وقال عزيز المصرى
ساخراً : يظهر أنهم أضافوا خشباً على الصلب . . . !!

وهكذا كان دائما عزيز المصري « خميرة عكننة » للسادة الانجليز .

يقول الأستاذ محمد صبيح : فى أغسطس ١٩٣٩ كلف الملك فاروق ، على ماهر باشا بتأليف وزارة جديدة ، وأراد على ماهر ان يعطى وزارته الحيادية مظهر قوة باختيار وجوه يحبها الشعب لنضالها ومواقفها الوطنية فكان من وزرائه ، عبد الرحمن عزام ، وعبد القوى أحمد ، وصالح حرب .

الا ان ضربة المعلم — كما يقولون — التى قام بها على ماهر كانت فى تعيين عزيز المصري باشا (وكان قد أخذ رتبة اللواء والباشوية فى عهد وزارة محمد محمود الأخيرة) مفتشا للجيش المصرى فى المنصب الذى خلا بخروج الجنرال سبنكس الانجليزى من هذا المنصب .

وكانت توجد فى الجيش المصرى بعثة عسكرية بريطانية يرأسها الجنرال ماكريدى . وفى أول اجتماع له مع رئيس البعثة قال له : ان مهمته ان يجيب على ما تستشير به القيادة المصرية فيه . وقد أزعج هذا التحديد المهمة البعثة التى كانت تتدخل فى كل شىء من تلقاء نفسها السلطات البريطانية فسكتت على مضض ، وكان بعض ضعاف النفوس يهرعون الى ماكريدى هذا ، ويخبرونه بكل عمل يعمل به عزيز المصري .

وبدأ عزيز المصري . . . فهجر مكتبه فى وزارة الحربية ، واختار له مكتبا فى وسط الشكنات ليكون قريبا من الجيش الذى يعمل مفتشا له . وهذه أيضا كانت خطوة مزعجة جدا للقيادات المصرية المتهاكمة القديمة التى كان كل ما يهمها الزراير اللامعة والعلم الذى يرفرف على السيارة دالا على الرتبة الجليلة .

وما لبثت الحرب العالمية الثانية أن أعلنت ، وراح الانجليز يكذبون معداتهم فى مرسى مطروح ويتأهبون ليوم تدخل فيه ايطاليا الحرب لعله ليس بعيدا وكان من بين القوات هناك وحدات مصرية .

وخطر لعزيز خاطر فأوعز للملك فاروق أن يزور مرسى مطروح ليفتش على القوات المصرية هناك . . . وسافر مع الملك رئيس الوزراء على ماهر باشا ووزير الدفاع صالح حرب باشا ، وكان قواد الجيش الانجليزى فى استقبال الملك وعلى رأسهم قائد القوات البريطانية الجنرال ولسون .

وعقد مؤتمر عسكري حضرته له خرائط المنطقة ، وراح ولسون يشرح للملك خطة الدفاع عن مصر اذا هوجمت من الغرب ، وكيف ان مرسى مطروح أصبحت قلعة مسلحة . وكان عزيز المصري كثير التدقيق

فى الخريطة المبسوطة أمامهم ، واذا به يقول : ما اسم هذا الموقع ؟ ان نظارتى ليست معى ؟ فرد الجنرال ولسون بعد ان قرأ الخريطة : اسمه العلمين . فرد عزيز المصرى : يا جنرال .. هنا يمكن الدفاع ضد أى غزو يأتى من الغرب ، فهذا عنق زجاجة يمكن تحصينه جيدا ويصعب بل يستحيل اختراقه .

أما مرسى مطروح فيمكن تطويقها مهما كان استعدادها أو حماية الأسطول لها ، وتنطلق القوات المعادية دون ان تتلقى منها أو نطلق عليها طلقة واحدة .

وساد على القاعة صمت عميق ، فقد بدا المنطق واضحا فيما قال . ورد الجنرال ستون : ان وجهة نظرك لها وزن خطير ويجب دراستها ، وعلى كل حال لقد حاربت يا باشا فى ليبيا سنة ١٩١١ .. وعنك نتلقى الدروس .

وضجت القاعة بالضحك . وقال عزيز المصرى : لم أكن وحدى ، كان معى صالح حرب باشا وزير الحربية .

وفى جلسة ثنائية التقى ولسون مرة ثانية بعزيز المصرى ومعهم خرائط مكبرة لمنطقة العلمين .. فهنا هضبة الرويسات ، وهنا منخفض القطارة ، وهنا .. الخ وبعد أيام تلقى عزيز المصرى رسالة خطية من الجنرال ولسون اطلعت عليها ، وفيها اشادة بعزيز المصرى واعتزاز بمتورته ، ووصفه له بأنه لا يقل فى عبقريته العسكرية عن عظماء العالم العسكريين من أمثال ولنجتون ، وبيتان .

وضحك عزيز المصرى وقتها وقال : ما دام الانجليز أسرفوا فى المدح ، فلا بد أنهم مبيتون شيئا ما ، وهكذا فعلوا عندما عدت من الحجاز سنة ١٩١٦ .

وقد صدق حسه ، فما لبث على ماهر ، ان تلقى رسالة من السفير البريطانى يطلب عزل عزيز المصرى وقد أزعج القريبون من الرجل هذا الطلب ، ورحنا نسأل على ماهر : ماذا نصنع ؟ فأجاب برد سخيف : لقد قال على ماهر ؛ ان عزيز المصرى لا يستحق (أزمة) وقرر اعطاء المصرى أجازة طويلة .

وحول قصة قرار عزل على المصرى وزميليه ذو الفقار صبرى ، وعبد المنعم عبد الرؤوف فى ١٥/٦/١٩٤١ أشير الى زاوية هامة أفصح عنها د . حسين هيكل باشا فى مذكراته . وقد جاء ضمن ما قاله د .

هيكمل باشا : « زاد سرى (باشا) شعورا بدقة الموقف حادث وقع وأثار
فى البلاد دويا وضجة : سافرت فى الأيام الأخيرة من شهر مايو ١٩٤١
الى رأس البر أهىء مكان اصطيفى ، وقضيت بها ثلاثة أيام ، وفى صباح
اليوم الذى اعتزمت فيه العودة الى القاهرة ، أبلغنى الحاجب المرافق لى أنه
سمع أن عزيز على المصرى باشا سافر خفية بطائرة حربية يريد الذهاب
الى الألمان . ولم أصدق الخبر أول ما سمعته ، واتصلت تليفونيا من رأس
البر بمحافظ دمياط أستوثق منه . وأخبرنى الرجل أنه بلغه مثل هذه
الأنباء وأنه سيتصل بالقاهرة للتثبت منها .

وأنبأنى - المحافظ بعد أن لقيته ان عزيز باشا المصرى وضابطا
طيارا استقلا ليلا طائرة عسكرية من القاهرة وقاما بها يريدان
جهة غير معلومة وان الطائرة اصطدمت بأسلاك التليفون عند قليوب
فهبطت الى الأرض واضطر راكبها لمغادرتها وللفرار هربا الى حيث لا يعلم
أحد ، وان مجلس الوزراء منعقد بعد الظهر من هذا اليوم ليتداول فى
الحادث ، وأنه خوطب من القاهرة كى ما يتصل بى لأحضر اجتماع مجلس
الوزراء .

وعدت مسرعا الى القاهرة وحضرت اجتماع المجلس ، فألقيت سرى
باشا والوزراء جميعا فى حيرة ورأيتهم يخشون ان يكون لما حدث نتائج
بعيدة الأثر ، فعزیز على المصرى هو الذى تولى رئاسة اركان حرب الجيش
المصرى فى وزارة على ماهر باشا وكان متهما بميله الواضح للألمان . فلما
تولت وزارة سرى باشا أعفته من منصبه وكان طبيعيا وذلك الرأى بعد
ان يراقب مراقبة دقيقة . فكيف استطاع مع ذلك ان يدبر وسيلة للفرار
من غير ان يعلم بهذا التدبير أحد ؟ وأين ترى يكون قد اختفى ؟ وما هى
الاجراءات التى يمكن أن تتخذ فى شأن من يردد الدعايات لمصلحة
المانيا ؟

تداول المجلس فى هذا كله وفى مثله ، وانتهى بأن ترك الأمر لرئيس
الوزارة بوصفه السلطة القائمة على اجراء الأحكام العرفية يتصرف فيه
بحكمته وحسن تدبيره .

ازداد سرى باشا بعد هذا الحادث اقتناعا بضرورة تدعيم الوزارة ،
لكنه لم يكن يستطيع أن يفتح أحدا فى هذا التدعيم قبل ان يعثر على عزيز
باشا المصرى وان يتخذ معه اجراء يعيد الطمأنينة الى مقدرته على معالجة
شئون الدولة فى الأوقات العصيبة المحيطة بالحزم والحكمة . لهذا وجه

كل جهده للبحث عن الفارين واعتقالهما ، ولم يكن هذا يسيرا كما يقول
هيكل باشا .

فقد كان - وأنا هنا انقل كلمات هيكل باشا بنصها - يحيط
عزيز باشا بعطف يتعذر معه الاستعانة بمعلومات هذا الجمهور لاقتفاء آثار
الرجلين ومعرفة المكان الذى اختبأ فيه . وبعد أسابيع استطاع البوليس
السياسى أن يتأكد أنهما موجودان بمنزل بامبابة وأن يحيط بالمنزل وأن
يقبض عليهما . وأصدر سري باشا أمره باعتقالهما .

ولست أدري لماذا أصر هيكل باشا على أن يعتبر الهاربان (عزيز
باشا وزميله) رغم أن البيان الرسمى بالفرار والبيان الرسمى الآخر
الحاص بالاعتقال قد أكدا (البيانان) أنهما ثلاثة لا اثنين .

أقتطف لقطات من مذكرات اللواء محمد ابراهيم امام مدير البوليس
السياسى سابقا ، وأحد تلاميذ عزيز المصرى . والمقتطفات هى :

١٦ مايو ١٩٤١

فى منتصف ليلة أمس فوجئ رأى العام باذاعة نبأ هرب الفريق
عزيز على المصرى باشا على طائرة حربية وقد رافقه فيها الطيار حسين
ذو الفقار صبرى والطيار عبد المنعم عبد الرؤوف . وقال النبأ : أن
الطائرة لم تستطع مواصلة الرحلة الى الغاية التى كانت تقصدها . بل
هبطت اضطرارا فى أرض زراعية على مقربة من قليب وأصيببت بتلف
وعطب بسبب اصطدام أجنحتها بالأسلاك التليفونية وهى تهبط ، واختفى
الرجال الثلاثة وبقيت الطائرة مكانها .

وللفريق عزيز المصرى مكانة خاصة فى قلوب المصريين لاعتزازهم
به كقائد عالمى ، ولما أظهره من قوة وكفاءة وهو رئيس لهيئة أركان حرب
الجيش المصرى منذ فترة غير بعيدة .

وقد اهتمت كل أجهزة الدولة بالبحث عن ركاب الطائرة ، وألقى
العبء الأكبر على عاتق البوليس السياسى والمباحث الجنائية ، ووقع على
الاختيار ضمن الضباط الذين اختيروا من البوليس السياسى ، ولم يقتصر
الأمر على أجهزة الأمن فى القاهرة وحدها بل شمل كل الأجهزة فى
المحافظات والمديريات كلها وحتى فى القرى الصغيرة والعزب . . . أن المهمة
خطيرة والعبء قاس على كاهل ضابط صغير مثلى برتبة اليوزباشى فمخشية
بطل القضية شخصية كبيرة وطنية وشعبية والرأى العام له تقديره فى

نتيجة هذه المهمة اذا ما كتب الى النجاح فيها : هذا من وجهة نظر العامة .
ومن وجهة النظر الخاصة . . فان عزيز باشا المصرى كان أستاذى بكلية
البوليس ، وكان أستاذا فوق الممتاز ، وأنا وكل تلاميذه مدينون له ،
بتربية صلبة قاسية لا تعرف الهوادة أو التراخى فى سبيل الواجب . وقد
قررت خطة للبحث سأنفرد بها ولأجرب .

وتحت عنوان ٢٠ مايو : كتب محمد ابراهيم امام يقول :

اجتماعات للمستولين فى وزارة الداخلية تعقد ليلا ونهارا بصفة
مستمرة لاصدار التعليمات وتكثيل الجهود للبحث ، وقد وعدوا جميع
القوات بترقيات ومكافآت سخية لمن يوفق فى القبض على الرجال الثلاثة
.. الصفحات الأولى من الجرائد تصدر يوميا بها مانشيتات كبيرة بوعود
الحكومة بهذه المكافآت وتشجيع الرأى العام على الاشتراك فى البحث عن
الهاربين . وقد علمت ان الموقف تأزم بين السلطات الحربية والحكومة
بسبب الحادث ، وذهبت الاشاعات الى القول بأن الوزارة فى طريقها
للاستقالة . ولم يدل رئيس الوزراء حسين سرى باشا بأى تصريح .

وتحت عنوان ٢٤ مايو : كتب امام بك :

عمل تحقيق ادارى أسفر عن مسئولية البوليس السياسى وتقصير
مدير الأمن العام حمدى بك محبوب وتقرر اعفاء محمد عزمى بك سكرتير
عام وزارة الداخلية من جميع مشاكل منصبه ليتفرغ لهذه القضية وحدها
وخولت له سلطات واسعة . وقد هددنا نحن رجال البوليس السياسى
من المستولين واستمر تهديدنا وأنذرنا حتى بالاعتقال اذا فشلت جهودنا
فى القبض على المختفين . وقد زاد الضغط علينا بعد ما ثبت من تقارير
سلاح الحدود وقصاص الأثر أن المختفين لم يبارحوا القطر ، ونحن نواصل
الجهد ليل نهار فى البحث ، والدافع لنا هو حماية أنفسنا لا اغراء المكافآت
السخية . وقد أصبحنا نخاف من ان ينتهى الأمر بمحاكمتنا فى ظل الأوامر
العسكرية القاسية التى كانت لا ترحم وأقلها أوامر الزج فى المعتقلات .

٣٠ مايو :

رجال الأمن ينطلقون فى كل مكان ويبحثون ، وقد ضربت ادارة
المباحث الجنائية رقما قياسيا فى عدد المنازل التى فتشها رجالها مشتبهيين
فى وجود المختفين ، وكانت حملة التفتيش هذه سببا فى أن انهالت على
ادارة المباحث الجنائية وعلى المحافظات والمديرىات بلاغات مجهولة عديدة
يؤكد مرسلوها وجود عزيز باشا ورفاقه فى أماكن تشير اليها هذه
البلاغات .

والضباط الذين يقومون بعملية التفتيش يعلمون بعدم جدية هذه البلاغات لأنها لو كانت صحيحة لكشف أصحابها عن أنفسهم ونالوا المكافأة . ولكن خوف الضباط من المسؤولية جعلهم لا يترددون في إجراء التفتيش . والحق يقال ان ما حدث كان محنة قاسية بالنسبة لمن فتشت منازلهم دون مبرر .

١٢ يونيو :

ان طريقي التي انفردت فيها بالبحث لم أفتش خلالها منزلا واحدا بل ان اعتمدت كله على مراقبة الأشخاص الذين كنت أعلم وجود صلة بينهم وبين عزيز باشا . . . أى صلة ومن أى نوع كانت سواء فى حاضره أو فى ماضيه مهما بعد هذا الماضى .

وقد اقتضت منى هذه المراقبة وقتا طويلا ، وجهدا ليس بالهين ، وتسللت فانتقلت بها بين عدة أشخاص ولكنى لم أصل بعد الى هذه الشخصية الشجاعة التي كان لها شرف ضيافة الرجال الثلاثة المختلفين فى هذا الوقت .

١٦ يونيو :

اهتديت منذ أربعة أيام الى الشخص الذى يتركز فيه اشتباهى بصورة لم تسبق مع غيره من الرجال الآخرين الذين اشتبهت فيهم ، ولكننى فى اللحظة التي اعتقدت فيها أننى أمسكت بطرف الحيط ، أفلتت منى هذه الشخصية ، ومع ذلك لا بأس وسأستمر فى البحث والمراقبة .

ان هذا الشخص هو الفنان عبد القادر رزق الأستاذ بكلية الفنون الجميلة ، وكانت أهم ملاحظة استرعت انتباهى وأنا أراقبه وأتابعه ، أن رأيت فى ثلاثة أيام متعاقبة يشتري كميات كبيرة من الأطعمة الفاخرة من محلات جروبي وأنا أعلم أنه رجل محدود الدخل .

وفى اليوم الرابع (أمس) اختفى عبد القادر رزق ولم أستطع الاهتداء الى محل اقامته حتى الآن فقد كان عنوانه فى الكلية قديما ، وعنوانه الجديد غير معلوم فيها . وندمت بينى وبين نفسى لأننى لم أتابعه منذ اليوم الأول وانتظرت لاكتشف جديدا بالمراقبة وأزداد وثوقا من اشتباهى . ولكن كما قلت لا بأس .

أول يوليو :

بالأمس فقط عثرت على الحيط الذى ضاع منى ، رأيت عبد القادر رزق وهو يشتري كمية كبيرة من الأطعمة الفاخرة من عدة محلات ، ويظهر أنه كان غابرجروبي حتى لا يشير شبهة وتتبعته الى بيته فى آخر امبابة عند طرف المزارع فى الطابق الثانى ، وتبين لى ان عبد القادر أعزب . . فلمن يشتري هذه الكميات الضخمة من هذه الأطعمة الفاخرة . وأصبح يساورنى اليقين أكثر من الشك فى ان عزيز المصرى ورفيقيه يختفون فى هذا البيت ، ورجل البوليس أحيانا يستوفى من عقله الباطن مع ما يستقرئه من الوقائع المادية التى أمامه . وتبينت من مراقبة الشقة أن نوافذها تظل مغلقة نهارا ولا تفتح الا ليلا ، وهذا من الأدلة الكبرى على وجود سر بداخلها يخشى نور النهار ولا يطمئن الا مع ظلام الليل .

٦ يوليو :

لم أشأ أن أطل فترة المراقبة ، واختمرت عندى فكرة التفتيش ، وقد فكرت طويلا فى كيفية التفتيش على ضوء الظروف المحيطة بالشخصيات الثلاث المختفية . وكنت واقعا تحت تأثير أنهم كرجال عسكريين لن يستسلموا ، وانتهيت الى أنى لو استعنت بقوة فسأسبب كارثة .

ولصلتى بعزیز باشا المصرى كأستاذ لى فى كلية البوليس : أستاذ فى الرجولة والشجاعة والصلابة . رأيت ان أذهب وحدى وبدون قوة وأعالج الموقف من وجهة النظر النفسية ، وكنت أعتقد عن يقين بأن عزيز المصرى باشا ورفيقيه الذين قاموا بهذا العمل الوطنى لابد أن يروا أننى فى سبيل تأدية واجبى .

وعزمت على التنفيذ .

وانتقلت الى البيت ، وصعدت الى الشقة وحدى ، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وقد ساعدتنى الظروف فكان باب الشقة نافذته من الزجاج أمكننى أن أدفعها وأفتحها بسهولة ، ومددت يدى وفتحت مزلاج الباب من الداخل .

ودخلت الشقة . . شقة صغيرة ، وكانت حجراتها كلها مفتوحة ماعدا حجرة واحدة مقفلة الباب وتقدمت الى هذه الحجرة وأدريت أكرة الباب فانفتح . . ورأيت أمامى عزيز المصرى باشا ورفيقيه وكانت مفاجأة لهم . وبدت علامات الدهشة على وجوههم ، اقترنت بهدوء وثبات كاملين .

قلت : السلام عليكم .

وأجابونى فى صوت واحد : وعليكم السلام .

وأضاف عزيز باشا بصوته الجمهورى العميق : أهلا وسهلا .

قلت : آسف .

وأجاب عزيز باشا : لا ، مافيش حاجة . كيف ؟ أنت تؤدى الواجب ،

وقد علمتكم فى كلية البوليس كيف تؤدون الواجب .

قلت : انك أستاذى ولهذا أشعر بحرج كبير .

وكيف : ان الأستاذ لا يسعده شىء مثل ما يسعده نجاح تعاليمه وعلى

الأخص فيما بينه وبين تلميذه أخلع طربوشك يا امام : !! الدنيا حر .

وكان اليوم شديد الحرارة من أيام يوليو القائظة الملتهبة : وكان

عزيز باشا ورفيقاه يلبسون بنطلونات البيجومات والفانلات فقط ، وخلعت

طربوشى . وقال لى عزيز باشا : اقعد يا امام .

وجلست معهم . . . ومضى عزيز باشا يسألنى :

آمال فى باقى القوة الى معاك .

أنا جيت لوحدى .

ازاى . . عجيبة . .

لأنى يا أفندم عارف كويس ان رجلا مثلكم يقدرن واجبهن نحو

وطنهم حق قدره .

برافو ، يا امام ، أنا فخور بك . حقيقى انك تلميذ جدع . اتفضل

طبيجاتنا أهى ، وسلامونى مسدساتهم الثلاثة التى كانت الى جانبهم .

ومضى عزيز باشا يقول لى : قوم فتش زى ما انت عاوز .

لا . . يا أفندم .

قلتها فى حياء وحرج شديد ، ولكن عزيز باشا صاح فى وكأنه

يلقى أمرا عسكريا من الأوامر التى كان يلقيها علينا ونحن تلاميذه فى

كلية البوليس .

قوم شوف شغلك . .

وامتثلت ولم أجد غير مبلغ كبير من المال ، على ما أذكر فى دولاب

فى الحجرة .

وبينما كنت أفتش كان عزيز باشا ورفيقاه يتحدثون حديثا عاديا يغلب عليه المرح وكأنما ليس في الأمر ما يثير اهتمامهم .

وكان أبرز ما يبدو عليهم أمارات الشجاعة والقوة النادرة وذلك الحديث الذي يتبادلونه ولا يتفق مع الموقف كما اعتدناه مع غيرهم .

لقد كان عزيز باشا ورفيقاه يؤمنون كل الايمان بأنهم بصدد عمل وطني بعيد عن الجريمة ، وكانت أمارات الشجاعة والارتياح تغمر وجوههم وتعلن أنهم قوم قد أرضوا ضمايرهم بعمل لخدمة وطنهم .

وأخيرا . . . قال لي عزيز باشا :

تسمح لنا بلبس هدومنا علشان ننزل معاك . ومضى يكمل . . . ولا ناوى تسيبنا وتمشي .

وقهقه ضاحكا ، ثم استطرد في دعابته . . . يجوز جاى لنا زيارة ويس .

قلت بلهجة الحياء والحجل والحرج التي كانت تغلب على حديثي معهم في ذلك اليوم : يا أفندم .

وقاطعني عزيز باشا قائلا : وهو يربت على كتفي في حنان : يا راجل أنا باضحاك معاك . حالا حنكون جاهزين .

طيب . . . اسمحوا لي يا أفندم أتكلم في التليفون علشان أخطر الجهات الرسمية .

● للأسف يا امام ما عندناش تليفون هنا في البيت .

● ● انزل أتكلم من أقرب تليفون وارجع عبال ما تلبسوا .

● ما فتكرش ح تلاقي تليفون قريب من هنا .

● ● أتكلم من المركز .

● ما المركز بيننا وبينه كيلو من هنا .

● ● ما باليد حيلة .

● وتسيبنا لوحدنا ؟

● ● وماله .

● موش خايف لنهرب .

● تكفى كلمة الشرف .

برافو يا امام التلميذ متفوق على أستاذه : روح بلغ وارجع تلاقينا
فى انتظارك مستعدين للنزول كمل الواجب الى عليك للآخر .

وذهبت الى مركز امبابه وأخطرت الجهات المختصة ودللتهم على العنوان
وعدت الى البيت فوجدت عزيز باشا ورفيقه وقد ارتدوا ملابسهم وأعدوا
حقائبهم وكتبهم وجلسوا ينتظروننى . وقال لى عزيز باشا وهو مبتسم :
ايه رأيك ؟ أدى احنا ماهر بناش . . وصمت لحظة ثم استطرد يقول : كلمة
الشرف تخوف أكثر من أورطة بحالها .

ولم يلبث ان وصل وكيل الداخلية ومدير الأمن العام والمحافظ
والحكمدار ، ودعوا عزيز باشا ورفيقه للتوجه معهم الى سجن الأجانب . .
وبينما كنت أهبط السلم الى جانب عزيز باشا المصرى همس فى أذنى
قائلا : لى ملحوظة واحدة بس يا امام .

أفندم .

كان لازم تخبط على باب الأوضه قبل ما تفتحه . . !!

وتبقى رموس موضوعات أخرى هامة وخطيرة :

● عندما احتفى أساتذة وخريجو مدرسة البوليس والادارة -
٢٨ فبراير ١٩٣٨ - بعزیز على المصرى ألقى عزيز على المصرى الكلمة التالية
التي تنم عن جرأة متناهية وعن ثورة عنيفة ارتجلها عزيز على المصرى
كلمة . . فجاءت من القلب ، لتدخل القلوب مباشرة . .

« أدرك ان الغرض من اجتماعنا هذا هو اظهار شعور متبادل بينى
وبين الذين تخرجوا فى مدرسة البوليس والادارة مدة اقامتى فيها ،
وأدرك أيضا ان وسيلة هذا الاجتماع هو تعيينى فى وظيفة مفتش عام
الجيش المصرى بواسطة الرجل القائم على رأس الحكم الآن ، والذي كان
على يده أيضا تعيينى الأول لرئاسة مدرسة البوليس والادارة ، وذلك اذ
رأى رغبة جلالة الملك قوية جدا فى اعداد جيش يضم من سلالة مصر
واستقلالها ، ويعبى آمال أمة ترى فى عهده الذى بدأ ربيعته مع ربيع
استقلالها فألا ساطعا لتحقيق أمنيتها . ربما أنكم تريدون إعادة ذكريات
محاضرات مدرج المدرسة ، تلك المحاضرات التي كانت ترمى الى البحث
عن الحقائق لاستنباط نتائج كامنّة منها - فسأحدثكم بصراحة
كفرد من أفراد العائلة المصرية يعاتب أخوته لخير العائلة خصوصا
وأن أخبارا كثيرة متضاربة تناثرت على الألسنة والجرائد ، أرى

من المستحق وضع حد لها فأقول : ان هذا التعيين الذى تفضل به جلالة
مليكنا المحبوب لم تظهر له عواقب عملية بعد ، وذلك لامتناع البعض
داخل الجيش وخارجه ، كما حصل امتناع يشبهه عند اختياري لرئاسة
مدرسة البوليس سابقا ، فبعضكم يذكر كيف قابل حضرات ضباط
البوليس العظام هذا الاختيار بوجودهم اذ رأوا فيه عقبة فى أمل وصولهم
الى ذاك المنصب ، وكيف قابله حضرات القانونيين أيضا الذين كانوا
يعتبرون هذا المنصب حقا لهم لأن القانون هو الأساس الأول للدراسة
البوليسية - فقال الأولون : كيف يسند منصب كهذا لرجل جاهل بالنظم
المصرية ، لا يدرك من وظائف البوليس شيئا وقال الآخرون :
كيف يجلس على رأس المعهد رجل عسكري جاهل بعيد عن كل نواحي
الثقافة ، عدو للقانون بطبيعة مهنته ، وحتى زاد بعضهم وقال : قاطع
طريق وسفاك . ثم تتذكرون كيف تبدل الحال بعد ذلك فأصبح المعهد
بفضل سعة صدور ومدارك حضرات الضباط والمدرسين عائلة تسودها
المحبة المتقابلة والاحترام المتبادل والعمل المتواصل ، وكلكم يتذكر السرور
المتلألئ على وجه الملك المعظم الراحل - وكان خبيرا مدركا للحقائق -
عند زيارته وقتئذ لمعهدكم لما رآه من ظهور تلك العوامل بجلاء ووضوح
فقال لحضرات الوزراء : هل يوجد فى العالم معهد أحسن من هذا .
رحمه الله وعوضنا عنه فى ولده العزيز خيرا وتوفيقا .

فهم هواة التنس أو البولو (يعنى سبور) وأظن أن سواد الأمة
بدأ يسأم من وجود هذا النوع من الرياضة الأخلاقية الغريب فى البلاد ،
وكأنى أرى جيوش النور زاحفة على هذه الطبقة فى معسكرها المظلم وكأنى
أرى طلائعها مؤلفة من جيل جديد لشباب تثقف وتعلم فى عهد كفاح
نبيل متواصل يقودها ملك شباب قلبه مملوء محبة وإخلاصا لوطنه .

ان الجيش يجب أن يكون معرضا للقوى العقلية والمعنوية والانشائية
للأمة ، وأن يكون مدرسة توحيد بين أجناس الأمة وطبقاتها ، فيعمل
لتجانس الطباع ولتجانس التفكير ولتجانس الذوق ، وعمل مثل هذه
محتاج الى ضباط راقين يدركون أهمية تلك النواحي .

فأنتم الضباط الحديثون فى الجيش وفى البوليس ، وأنتم شباب
الجامعة الذين أود أن تكونوا النواة المفكرة فى مستقبل الجيش ، يقع على
عاتقكم القيام بهذا العمل الجسيم ، فتأخروا فيما بينكم وتعرفوا بأنواع
الكتب ، ولتكن أحاديثكم مناقشة فى محتوياتها ، فالكتاب والسيوف هما
الرمزان اللذان يجب أن ينقشا على راية الرقى ، ولا تتباهوا على الأقدمين
منكم ، فان خير ميراث يجب علينا حفظه فى الشرق هو هذا التواضع
النبيل أمام الشيوخ الطيبين القلب .

لا يمكنكم ان تدركوا درجة سرورى اذ اراكم تجروننى اليكم
وتجبروننى على ان اتحدث اليكم كما كان يجرنى والدى وهو صغير يجبرنى
على ان أقص عليه شيئا . والشمس فى الطفل تفرح اذ ترى الشمس
فى الضحى فيظن الشيخ أنه أصبح شابا ، وكم تبعد الحقيقة عن هذا ،
ولكن كل القوى الطبيعية جميلة وما أجملها اذا اجتمعت كما نحن
مجتمعون اليوم .

كلمتى الأخيرة أن تتأملوا فى صفحات التاريخ ، تجدون أنه ما من
رجعية عاكست الرقى الا وانتهى أمرها بالهزيمة ، لأن نظام الله يقضى
بالحركة الدائمة فى سبيل التجدد والرقى . فالوقفة المعادية لهذا التقدم
المندفع بقوة الطبيعة نصيبها التدرج فى الهاوية ، وأن مصر التى منحنى
الله الحياة على يدها مرتين ، مرة عند مولدى ، وأخرى اذ أنقذتنى من
شرك صديقى وعدوى أنور رحمه الله . مصر التى قابلتنى عند عودتى
اليها سنة ١٩٢٤ عقب تصريح ٢٨ فبراير بمظاهرة بريئة مرحبة بشخصى
مستخصه تعرفنى وأنا نازل من الباخرة الى الجمرك ، والتى رحب بى رأيها
العام الذى رحب بى عند اسناد رئاسة مدرسة البوليس الى والدى عاد
اليوم يبتسم ، ابتسامة أم مطمئنة فرحة . مصر هذه لها الحق أن تأمرنى
بأن أقضى بقية حياتى ساهرا على حدودها مع جيش من بنىها قادر على
صد المكاره عنها ، لتعمل هادئة لعودتها الى زعامة المدنية ونفع الانسانية .

والآن نرى المأساة تتكرر . . فمن قائل أنه تدرب فى جيش
أجنبى ، ولا علم له بالنظم الانكليزية التى فضلناها نحن والتى تحتمها
علينا المعاهدة . ومن قائل . . أنه لم يتدرج فى الجيش المصرى حتى يتمكن
من قيادته ، وهذا أخف وألطف ما قيل وما يقال ، وبما أنى لم أستلم
زمام القيادة التى بدونها لا أتمكن من العمل ، رجحت . . مراعاة للظروف
أن أمتنع عن الذهاب الى الوزارة الى أن يقضى الله أمره . على ان الرسائل
التى ترد الى من أنحاء القطر ومن كافة طبقاته ، أراها مستبشرة ، حاثه ،
بل ملححة على تنظيم الجيش بسرعة ، وما أقرأه فى وجوه الناس من السرور
المتوقع عن وجدان مدرك للحقائق .

واجتماعنا اليوم - كل هذا يجعلنى أشعر ان فى مصر رأيا عاما ،
وأن هذا رأى العام مدرك أن جيشا منظما قويا هو الضمان الوحيد
للاستقلال ، ومدرك أيضا ان الجيش ليس بمعناه السلاح والمعدات فقط
ولكن هنالك عوامل أخرى قد تكون أدق كثيرا من العوائل والنظم اللازمة
لتشكيل حكومة ، وانه ان كانت الأسلحة والعربات المصفحة فقط هى
الجيش ، لكانت أدوات الجراحة هى كل شئ فى الطب ، ولما كانت الناس
تهرع الى كبار الجراحين .

نعم . . ان الرأى العام الذى أراه عندنا لا يشبه نظيره المنطقى فى لندن مثلاً ، ولكنه موجود فى مصر وجوداً صادراً أكثره عن العقل المنطقى ، قد يخطئ أحياناً لأنه يبنى حكمه على ما يسمعه ويراه . وكم من كذب فى شكل صدق نسمعه . . وكم من غش فى شكل حقيقة نراها . ولكن العقل الباطنى قل ان يخطئ لأنه ملهم من أسس الخلقة الثابتة . » . . الى أن يقول عزيز باشا :

فى الواقع ان فهم مصر ليس بالشىء الهين حتى على كثير من المصريين ، فكما أن أسرارها التاريخية هى سواء أكانت فى العصور الأولى أو المتوسطة لم يزل الكثير منها مدفون فى أعماق أرضها وتحت أكداس من التلال . كذلك شعور سكانها تراه بعض العيون مدفوناً فى قرارات وجدانها تحت تلال الخوف من الطبقة المتغلبة أو الهيئة الحاكمة ، أو لقللة الاهتمام بالأمور العامة ، فالرأى العام الفطرى هنا أشعر أنه يرحب بهذا التعيين . على أنه توجد فى مصر أيضاً طبقة ممتازة من المتعلمين الذين يدركون الحقائق والسياسة العالمية أكثر من غيرهم فى الأمة ، هذه الطبقة تقابل هذا التعيين بوجهين مختلفين .

فالنزيهون المخلصون منهم - وهم الأكثرية بحمد الله - منضمون للرأى العام ويرحبون بهذا الأمر ، بل أظن أنهم هم الذين أرادوا أن أقوم أنا باصلاح الجيش وقيادته لأنهم يعتقدون - صواباً أو خطأ - أنى لا أقبل عملاً الا اذا كنت قادراً على فهمه وانجازه .

والآخرون ، وأريد ان أسميهم - ما دام موضوعنا الجيش - حملة الألغام المهلكة فى طريق كل مصلح يظهر فى هذه البلاد ، فهم فى حزن شديد لهذا التعيين ، وبعض هؤلاء متطوع للأذى .

وكان الحفل الذى أقيم فى فندق هليوبوليس بالاس بمصر الجديدة . وكان خطباء الحفل بترتيب القاء كلماتهم هم : الأستاذ عبد الله شعيب المدرس بمدرسة البوليس ، والملازم أول لبيب قوص والملازم أول عبد الهادى محمد أفندى الضابط ببوليس الأقاليم ، والملازم ثانى يوسف غراب أفندى ، والملازم أول يوسف القفاص أفندى ، والأستاذ عبد الحميد متولى أستاذ القانون بالمدرسة .

وقد أجمع الكل على أن عزيز باشا من خيرة الرجال الذين تولوا ادارة مدرسة البوليس لأنه دفع بها الى الأمام دفعات قوية ما زال أثرها واضحاً الى الآن فى اضطراد نهوضها وارتقائها .

● وقد كان الأستاذ أحمد حسين المحامى ، ورئيس حزب مصر الفتاة ورئيس الحزب الاشتراكي فيما بعد فى مقدمة غلاة المعجبين بعزير على المصرى ومؤيديه وحوارييه . وقد كانت صحف حزب مصر الفتاة . والصرخة ، وغيرها ، وغيرها لسان حال عزير على المصرى منذ منتصف الثلاثينات وحتى نهايتها . فكانت تشبع دائما نشاطات عزير على المصرى ، فى المنافى أو فى الوظيفة الحكومية ، وكانت دائمة الدفاع عنه ودائمة الاشادة بمواهبه . وقد أفادتني تلك الصحف فى دراستى عن عزير على المصرى الى حد كبير خاصة ولم تكن هناك صحف أخرى وقتذاك تؤمن بعبقريه عزير على المصرى كما تؤمن صحف مصر الفتاة . وعندما كان عزير على المصرى مفتشا عاما للجيش المصرى ، وعندما كان رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى كانت تلك الصحف تتابع نشاطه اليومى ، رغم أنها صحف أسبوعية ، وكانت تنشر بتوسيع أحاديثه ومحاضراته وخطبه .

وأجد لزادا على ، فى هذا المدخل ، أن أشير الى ذكريات الأستاذ أحمد حسين ، كصديق ونصير لعزير على المصرى ، وكلها ذكريات جديدة تؤكد مكانة عزير على المصرى فى نفوس الشعب ، ومكانة عزير على المصرى فى نفس أحمد حسين ورفاقه .

يقول الأستاذ أحمد حسين : كان عزير على المصرى يحثنا دائما على الايمان بالله وحده ، والادمان على المطالعة والتثقف ، والتدرب على اطلاق النار ، لتخليص البلاد من الخونة وأعداء الشعب .

وأخرج ويخرج غيرى من لدن عزير المصرى يتنازعنا دائما - هذان العاملان المتجاوران المتلازمان الاعمجاب الذى يصل الى حد الدهول بهذا الرجل الأسطورى الذى لا تغيره المناصب أو الرتب أو الجاه ولا يزيده تقريب السلطان له ، الا اصرارا على ثورته على الأوضاع الفاسدة وتمرده . وعامل آخر هو . . . الانكار لهذا التهور الذى يبدية فى أحاديثه وعدم الأخذ بأى سبب من أسباب الحذر أو الاحتياط .

الى ان يقول أحمد حسين . . .

وقبيل اندلاع نيران الحرب جاءت وزارة على ماهر وكان وزير دفاعها صالح حرب فجعلت من عزير المصرى رئيسا لأركان حرب الجيش ، منحه رتبة الفريق وأطلقت يده فى اصلاح الجيش .

وهكذا وصل عزير المصرى أخيرا الى أرفع الرتب العسكرية ، وكان مجرد التلفظ باسمه كافيا لاشاعة روح الحماس وسط الجنود قبل الضباط حتى ولو لم يعرفوا شيئا من تاريخه .

ودخلت لأول مرة فى تاريخ حياتى الى مكتب رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى وزارة الدفاع ، لأقابل عزيز باشا المصرى ، كما دخلت لأول مرة فى حياتى الى مدرسة البوليس لأقابل عزيز المصرى . وفوجئت بنفس الظاهرة التى تميز هذا الرجل من دون العالمين ، وهو أن المناصب مهما كانت خطورتها ، أو علو مكانتها لا تستطيع أن تغير فى أسلوب الرجل ، أو حديثه أو طريقة تصرفه ، لقد راح يحدثنى وكانت الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت بالفعل ، كيف أن هذه الحرب ستشهد نهاية الامبراطورية الانجليزية والفرنسية وكيف أن طلاب الكلية الحربية وبعض ضباط الوحدات قد طلبوا منه أن يشرح لهم المعارك الدائرة فى أوروبا فراح يشرحها بما يظهر عجز الانجليز وفشلهم وقرب اندحارهم .

وانظر للرجل - رغم صحبتي الطويلة له - فى ذهول أكثر من أى وقت مضى ، أنظر اليه وهو فى بزته العسكرية وإشارات رتبه تزحم كتفيه ، وهو جالس فوق مكتب ضخم مزدحم بالتليفونات والأجهزة ، التى قد يكون فى أى منها ما يسجل كل كلمة تخرج من فمه ، وأهتف بالرجل فى شئ من الحدة ونفاد الصبر . . . - ما هذا يا باشا . . . أتتصور أن باستطاعتك أن تستمر فى هذا المنصب وأنت تتحدث عن الانجليز بهذه اللهجة ، وهم فى حالة حرب ، ألا ترى أنه من الخير أن تصنع شيئاً من الكياسة والمداورة والمصانعة ، حتى تتمكن ، وحتى تجمع الجيش حولك . فينظر الى فى ابتسامته الودعية الرقيقة اللينة بعطف الأب وحنوه على ابن صغير مدلل ويقول فى سخرية :

- ان الانجليز يعرفون من هو عزيز المصرى ، ولو قلت غير ذلك ما صدقونى ولظنونى أتأمر عليهم ولذلك فلا يمكن الا أن أكون كما أنا . . ان نهاية الانجليز قد قربت ، وعليك أن تقول للشباب ان يستعدوا وأن يجمعوا السلاح ويتدربوا على ضرب النار . . ان الساعة آتية لا ريب فيها .

وكان من المحقق ان يصح ما توقعت . . فبعد أسابيع كان الانجليز يشيرون أول أزمة مع وزارة على ماهر حول شخص عزيز المصرى وضرورة استبعاده ، ويركن عزيز المصرى مؤقتاً ، ولكنه ينتهز هذه الفرصة ليزيد من اتصالاته بالعناصر الشابة فى الجيش والتى سيكون مقدرها لها بعد حين ان تحقق حلم حياته .

ثم يقول الأستاذ أحمد حسين :

وأبت الأقدار الا أن تربط بينى وبين الرجل فى مناسبة مؤسفة ، فقد كان الانجليز قد أصدروا أمراً بمجرّد نشوب ثورة العراق واشتراك

أخى الشهيد مصطفى الوكيل فيها ، يقضى باعتقالى أنا وجميع اخوانى ،
ولأول مرة فى حياتى قررت أن أهرب من وجه الاعتقال الذى لم أكن أعرف
مداه وكان يتم لحساب الانجليز ، فانطلقت قوى الأمن فى جميع أنحاء البلاد
تبحث عنى بضعة شهور دون أن توفق فى القبض على وفى هذه الأثناء
كان عزيز المصرى قد استقل طائرة حربية بمساعدة اثنين من الطيارين
المصريين ليلحق بالألمان فى ليبيا ليشارك فى محاربة الانجليز ، فسقطت
الطائرة عند مدينة قليوب وتحطمت ولكن عزيز المصرى ومعه زميلاه نزلوا
الى الأرض سالمين وبهدوء أعصاب وبرود لا يقوى عليه سوى أبطال
الأساطير ، اتصل عزيز المصرى برجال البوليس فى المنطقة وطلب منهم
سيارة لنقله وصاحبيه الى القاهرة ، ولم يتصور البوليس أنه يساعد
عزيز المصرى وصاحبيه على ارتكاب جريمة الهرب بعد فشل أخطر مؤامرة .
فقدم له العون اللازم لنقلهم الى القاهرة . .

وفى القاهرة اختفوا عن أعين البوليس والسلطات فى منزل أحد
أصحابنا فى الدقى .

وعندما اكتشف ما حدث فى الصباح قامت الدنيا ولم تقعد ، وهاج
الانجليز وماجوا ، وكان فى الحكم رئيس حكومة جديدة هو حسين سرى
الذى هدد بوليس مصر السياسى بالحل والغاء اذا لم يتمكن من القبض
على عزيز المصرى . . ولكن جميع الجهود ذهبت سدى .

وحدث ان كان الضابط المكلف بالقبض على لاينى عن البحث عن
خيط يوصله الى ، فوجد واحدا من اخوانى يشتري طعاما من جروبي فقرر
أن يتبعه فأوصله التتبع الى حيث يقيم عزيز المصرى دون أن يتصور
الضابط الا أنه يقتفى أثر أحمد حسين ، وجمع قواته وحاصر البيت ثم
هجم عليه شاهرا سلاحه ولكنه بدلا من أن يجد أحمد حسين وانما وجد
عزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى السابق وعدو
الانجليز رقم (١) .

وتقرر السلطات ان تحاكم عزيز المصرى وان تضع نهاية لأسطوريته
وتزيح من الوجود عدو الانجليز الأكبر ، ولكن المحاكمة لا تكاد تبدأ حتى
تتحول الى مهرجان وطنى لعزيز المصرى الذى وقف موقفا رائعا من
النفوس ، فعندما اعترض المحامون على تشكيل المحكمة العسكرية لأنها
مؤلفة من ضباط يصغرون عزيز المصرى فى الرتبة ، أعلن عزيز المصرى
أنه مع احترامه لدفاع المحامين فانه قابل للمحاكمة أمام أى محكمة حتى
ولو كانت مشكلة من صغار الضباط والجنود وكل الذى يشترطه ان يكونوا

من الوطنيين الشرفاء - وعندما وجد القاعة فارغة من الجمهور قال لرئيس المحكمة : ليس يهمنى ما تنتهى اليه هذه المحاكمة مت أو عشت ، ولكن الذى يعنينى فى الدرجة الأولى ، هو ان تفتحوا الأبواب للشعب لكى يأتى الى هنا ويسمع ويتعلم ، استدعوا طلاب الحقوق والكلية الحربية والبوليس .. ليحضروا هذه المحاكمة ويتعلموا .

ولو ان المحاكمة استمرت واستجيب لطلبات عزيز المصرى لسجل التاريخ أروع ما يقوله انسان فى مثل هذا الوقت ... ولكن الانجليز والحكومة المصرية رأيا من حسن السياسة أن يخلقوا هذا الباب ويسدوا الستار على المحاكمة .. فأوقفوها وحفظوا الاتهام ، وأفرجوا عن عزيز المصرى ليعود الى الحرية من جديد

وعاد يندد بالملك والطبقة الحاكمة والفساد .. ويدعو الشباب أى شباب يقترب منه ان يؤمن بالله . ان يداوم على الاطلاع والقراءة ، ان يتدرب على ضرب النار لقتل الخونة وأعداء الشعب .

● ومن بين الشباب الذين تأثروا بعزيز المصرى ، وكانوا من خير تلاميذه ، المهندس كمال يعقوب أحد الشبان الوطنيين الذين لعبوا أدوارا هامة فى الأربعينيات وخاصة فى مجال العمل الفدائى السرى ، وكان كمال يعقوب - كما قال - قد تأثر فى البداية بعزيز المصرى كواحد من غلاة المعجبين به ، ثم تحول التأثر الى اعجاب ، والاعجاب الى نوع من علاقة العمل :

بدأت - هكذا يقول كمال يعقوب - أتردد على عزيز على المصرى بعد الافراج عنه فى أواخر عم ١٩٤٥ ، وقد ذهبت اليه فى البداية بصفتى مهندسا لاصلاح منزله الذى تهدم بعض أجزائه من جراء وجود جند الحراسة خلال فترة اعتقاله فى بيته فى عين شمس ، وقد استمرت العملية مدة شهرين .

ويروى كمال يعقوب ، الكثير ، الكثير ، عن حرص عزيز المصرى على التخلص من الخونة ، «وقد أوحى الينا بالتخلص من عبد العزيز الشافعى الشاهد الأول فى قضية اغتيال أمين عثمان ، وقد أخرج عزيز المصرى مسدسه الخاص وأعطاه لنا ، وبعد شهور نفذت عملية التخلص من ذلك الشاهد ، وكان الذى نفذ العملية محمود فهمى السيد وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم أفرج عنه بعد قيام الثورة .»

وكان عزيز على المصرى باشا حريصا على مشاركتنا بعض ما نقوم به من أعمال وكنا - كمال يعقوب - حريصين على ابعاده عن الأخطار حتى يبقى لنا رمزا نستمد منه القوة ، والعلم ، والمعرفة .

وكان عزيز على المصرى باشا حريصا على ان نكون فى تنظيمات وخلايا ، والمعروف أن تنظيمات كثيرة كانت كلها فى يده ، وظلت كذلك حتى النهاية .

ويذكر كمال يعقوب ، أنه قبل سقوط الطائرة التى كانت تقله ، قد أخبره أنه ذاهب الى العراق .

وعن طريقة لقائه بعزيز المصرى . . يقول كمال يعقوب : عندما كنت أريد أن أقابله ، أكلمه فى التليفون ، وكان يعرفنى باسم مستعار هو « السباك » : أقول له : أنا السباك ، أحضر امتى علشان أصلح الحنفيات ، ويتم تحديد الموعد . كانت المقابلات تتم فى بيته فى عين شمس وغالبا فى الليل أو فى بيته فى القبة بعدما انتقل اليه عام ١٩٤٧ . وبقي فيه حتى عام ١٩٥٢ ثم انتقل الى شارع المطار فى مصر الجديدة فى شقة ، ثم انتقل الى عمارة زبيدة الحكيم فى شارع محمود عزمى بالزمالك . وحين عاد من موسكو انتقل الى شقته أمام نادى الجزيرة .

وكان عزيز على المصرى ، يحرص على ألا يرى أحد ضيوفه - فى بيته - ضيفا آخر ، مبالغة منه فى الحفاظ على سرية المقابلات : مرة جاءه خالد محيى الدين - وهو قريب لى - لكن عزيز المصرى كان حريصا على أن يبقى فى حجرة ، وأجلس أنا فى حجرة أخرى حتى لا نلتقى .

وكان عزيز المصرى - والحديث لا يزال للمهندس يعقوب - حريصا على التعرف الى الشباب وكنا نقدم للباشا عناصر الشباب الذين نلمس فيهم الوطنية الصادقة والشجاعة والفداء . وبهذا الأسلوب كانت الخلايا والتنظيمات تتكاثر .

ومن ناحيتى - كمال يعقوب - حين كنت اعتقل ، كان الباشا حريصا على الاتصال بى فى السجن وكان الوسيط بينى وبينه أحد ضباط البوليس وهو عبد الفتاح رياض . فالسجن هو المكان المناسب لاعادة النظر فى التشكيلات واختيار العناصر الجديدة للخلايا .

وكان عزيز على المصرى باشا يتميز بهدوء الأعصاب وبالبساطة مع القوة والتركيز ، ولم يكن يشير شئ الا الأحداث التى كانت تدور فى

البلد واحساسه باستسلام الشباب وعدم مقاومته المقاومة الكافية مثلا - أيام مفاوضات صدقي / بيفن - ضايقه ان هذه المفاوضات تجري وتباع فيها مصر للانجليز والشباب بعيد عن الأحداث ، ولذلك كان يدفع الشباب الى العمل حتى يتأكد المفاوض المصرى وكذلك المفاوض الانجليزى ان الأمة ليست ساكنة ، أو غير منتبهة الى ما يجرى وراء الكواليس .

وكان من بين نصائح عزيز المصرى للشباب باستمرار .. عليكم بالقراءة والاطلاع ، لا تخافوا شيئا ، التزموا بالأمانة بكافة أشكالها » .

وما يقوله أحمد كمال الدين منسى عن عزيز على المصرى ، لا يختلف كثيرا عما قاله كمال يعقوب وان كان أحمد كمال منسى يضيف الى ما قاله كمال يعقوب - وللعلم فان أحمد كمال منسى كان ضمن الواقفين حول عزيز على المصرى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٦٥ - ان عزيز على المصرى قابل سعد زغلول عندما عاد عزيز الى مصر قادما من ألمانيا سنة ١٩٢٤ ، وقد عرض عزيز على المصرى على سعد زغلول ان يقود عزيز المصرى عمليات سرية من داخل حزب الوفد ، ولكن سعد زغلول خشى من آراء عزيز المصرى الثورة لأن سعد باشا كان لا يؤمن بالأعمال السرية والعسكرية منها بصفة خاصة .

ويقول أحمد كمال الدين منسى ان عزيز على المصرى كان ينظر الى الأمة العربية كوحدة واحدة وكان همه الوحيد وانتظاره الدائم بل تمنياته الخالصة : أن تجتمع كلمة العرب .

وكان عزيز المصرى يقسم الأمة العربية الى قسمين : المجموعة الشرقية : وتضم البلاد التى تقع شرقى مصر ، والمجموعة الغربية : وكانت تضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . وكان يرى أن مصر بين المجموعتين بمثابة القلب ، فأن توحدت عناصر الأمة فى مصر ، كان ذلك خطوة لتوحيد العالم العربى ونمو القومية العربية .

ولقد كان عزيز المصرى يعمل دائما للوحدة العربية ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان شغله الشاغل أن يخلق شبابا عربيا متعلما ، وداعيا : يفهم الواجب نحو نفسه ونحو مصر ونحو وطنه العربى الكبير هذا على أساس أن الحضارة العربية من أعظم الحضارات بالنسبة للعالم . ومن أجل ذلك كان ينادى أنه لابد من خلق جيش وطنى قومى يكون أداة لهذا الاتحاد والوحدة يحققها ويحميها .

ويضيف أحمد كمال الدين منسى الى رؤيته لعزيز على المصرى قوله : الناس عند عزيز المصرى كانوا مثل الأدوات الا الذين وضع فيهم

ثقتي ، ولم يكن عزيز المصرى يشق بآى انسان الى أبعد الحدود : أنا - مثلاً - كانت علاقتي به فى غاية المتانة ، وكانت بينى وبينه علاقات ثقة ، يعتبرنى كأبنه ، ولكننى كنت أحس أنه يضللنى فى بعض المواقف . وبالطبع فأن عزيز على المصرى لا يؤخذ عليه حذره الشديد وإنما يحسب له ، فهو فى طبعه قد ناضل الحذر الشديد ، وحياته الأولى فى تركيا هى التى دربته وعلمته ذلك : كانت تركيا أيام السلطان عبد الحميد ، الحياة فيها تحتاج الى شدة الحذر ، أى خطأ فى التقدير كان من نتيجته ان يثقل الانسان بالحديد ويرمى به فى البوسفور ، حتى ولو حمل كتاباً من الممنوعات ، هذه هى الحياة فى تركيا دربته ، وعلمته ، وأنضجته ، وهى التى جعلته ينجح فى أن يدبر الانقلاب العثمانى وأن يطيح بالسلطان عبد الحميد السلطان الأحمر من كثرة الدماء التى أراقها . ونحن اذا عرفنا - أحمد كمال الدين منسى - ان عزيز المصرى حين قام بالانقلاب ونجح ، كان عمره حوالى ٢٦ عاماً ، فان هذا يدل على عبقريته المبكرة .

ويضيف أحمد كمال الدين منسى الى ذلك قوله : كان عزيز على المصرى يعلم كل شبر من الأراضى المصرية ، كان قاموساً أو موسوعة عن جغرافية مصر وجيولوجيتها ، وفضلاً عن ذلك فقد كان يعرف كل الأراضى العربية خاصة الجغرافيا والتضاريس .

والى جانب أنه هو ذاته كان موسوعة الا أنه كان يحتفظ بالعشرات من الخرائط والموسوعات بكل اللغات خاصة الألمانية والتركية والانجليزية والفرنسية والأسبانية ، وقد أهله معرفته الجيدة بتلك اللغات للاستفادة من كل هذه الموسوعات ، ولذلك فان كثيرين ممن يعرفونه جيداً كانوا يقولون عنه : أنه كان أكبر مثقف عسكرى فى عصره ، وقد كانت كل الكتب العسكرية ترد اليه من جميع أنحاء العالم ، أما مهداة من أصحابها أو من دور النشر التى تقوم بطبعها ، أو كان يحرص على شرائها ، وقد كان يستوعب تلك الكتب بسرعة ، وفى أحيان كثيرة كان يعلق عليها .

● ومن الأسرار التى وقعت عليها ، وأعتقد أنها جديدة للغاية ، وتنشر هنا للمرة الأولى ، ما كتبه بخط يده الدكتور عبد الغفار الساعى الذى كان وثيق الصلة بعزيز على المصرى ، وكان موضع سره فى كثير من الأمور ، ورغم ثقتي المطلقة فى الدكتور عبد الغفار الساعى الا اننى كالعهد بى دائماً فى مثل هذه الحالات التى لا تكون بين يدي فيها دلائل قاطعة على صدق الرواية ، أنقل الرواية على مسئولية وذمة صاحبها مع تسجيل تحفظي الى أن تؤكد تلك الرواية بما لا يقبل الشك والجدل .

جاء فيما كتبه لى الدكتور عبد الغفار ، ان القائد الألماني روميل كان يريد الاستعانة بعزير على المصرى ، وبخبرته فى المناطق الصحراوية بصفة عامة ، وفى الصحراء الغربية بصفة خاصة ، وكان روميل يعتبر عزير على المصرى من أعظم قواد العصر ويرى أنه لو أتيحت للرجل - لعزير على المصرى - الفرص ووضعت تحت يده الأسلحة والقوات ، لصنع الأعاجيب ، وكان روميل يعرف جيدا ان عزير على المصرى هو الذى شارك فى تحصين منطقة العلمين ، كما كان روميل يعرف جيدا أيضا ان الانجليز لا يطمئنون اليه بل يعتبرونه من خصومهم وأعدائهم ، ويستدل على ذلك بان الحكومة الانجليزية هى التى طلبت تنحيته عن رئاسة أركان حرب الجيش المصرى لأنها لا تطمئن اليه .

ويقول د . عبد الغفار الساعى ، أيضا : كنت مقيما ببرلين وعندما عدت اتصلت بالفريق عزير المصرى فكان أول كلماته لى أنه يهدف الى الوصول الى ألمانيا للتعاون مع الجيش الألماني بقيادة روميل . . . والذى أتى لمصر لطرد الانجليز . . . وفى هذه الأثناء اتفقت معه على أن أسافر الى بلد محايد فى أوروبا ومنه يمكننى الاتصال بالألمان وتدير خطة حضور طائرة ألمانية لمصر لنقل الفريق عزير المصرى خارج البلاد وفى هذا الوقت لم تكن إيطاليا قد دخلت الحرب ، فاستطعت السفر لليونان ومنها الى الآستانة ، وهناك اتصلت برجال المخابرات الألمانية ودبرت معهم تنفيذ طريقة لحضور طائرة ألمانية لنقل عزير المصرى ، ومن هناك عدت عن طريق البر الى بيروت أيضا وتقابلت هناك برئيس لجنة الهدنة « فون روزر » (الألمانية) مع حكومة فيشى بفرنسا ، وأخبرته بمشروع نقل عزير المصرى من القاهرة بطائرة يتفق على مكانها بعد ذلك ، وأخبرتهم بأننى سأعود الى مصر للاتفاق مع عزير المصرى على الطائرة وميعاد وصولها والمكان الذى تصل فيه ، فكان عندهم الاستعداد والرغبة لهذه العملية والاستعانة بالفريق عزير المصرى .

وحينما عدت الى مصر أخبرت عزير باشا المصرى بكل الاتصالات وما تم فى ذلك ، فكان رأيه وأخبرت عبد المنعم عبد الرؤوف الطيار المصرى بتفاصيل العملية ، فاهتم بتفصيلات العملية ، وبعد مدة حضر لى الطيار عبد المنعم عبد الرؤوف وأخبرنى أنه سيحضر لى يحيى البدراوى على أنه سيسافر الى استانبول عن طريق البر لبيروت ومنها لاستانبول لزيارة والدته التى هى من أصل تركى ، ويمكن أن أعطيه عنوان « فون روزر » فى بيروت وفى استانبول يتم الاتصال بالقنصلية الألمانية فى استانبول والسفارة الألمانية فى أنقرة ويخبرهم باتصالاتى بهم لتنفيذ عملية حضور الطائرة الى مصر ، فأعطيتهم كافة البيانات لكى يثق فيه

الألمان ويتعاونوا معه . وسافرت مع يحيى البدرأوى قبل ذلك الى رأس البر لتحديد مكان يمكن للطائرة ان تهبط فيه وتم تحديد مكان لذلك .

وحيثما سافر يحيى البدرأوى الى استانبول كانت الجيوش البريطانية قد دخلت لبنان واحتلتها وحدث أن يحيى البدرأوى كان معه سكرتيره الخاص محمد باشا البدرأوى وحدث بينهما خلاف فى استانبول وعاد سكرتيره بعد الخلاف وأخبر الانجليز فى بيروت بما قام به يحيى البدرأوى من اتصالات ، وحالة عودته لمصر قبض عليه من الانجليز وبما أنه كان شقيقا لزوجـة فؤاد سراج الدين الذى كان وزيرا للداخلية فى ذلك الحين اتصل به فى السجن فى محل اعتقاله وأخبره ان يقول لهم ما حصل حتى يستطيع السعى للإفراج عنه وقامت السلطات الانجليزية فى مصر بالتحقيق معى كما قامت وزارة الداخلية باعتقالى وايداعى سجن الأجانب للتحقيق وفى هذه الأثناء تولت هيئة المخابرات الانجليزية فى التحقيق معى فى سجن الأجانب ، وكان ذلك فى عهد وزارة مصطفى النحاس ، وحيثما سئلت أخبرتهم أنهم اذا كانوا أتوا باذن من النحاس باشا فليس له ان يعطيك اذن لأنه كان يجب أن يقوم بالتحقيق معى مصرى .

وحكىـت لهم أننى كنت مسافر لبلد محايد لأنه كانت لى بضائع مصادرة كنت أرسلتها للسويد وصودرت كنت أريد الاطمئنان ، ولذا كانت اتصالاتى وليست اتصالات عسكرية وبعدها أخذونى لمعتقل الزيتون .

● فى ٢٢/١١/١٩٤٩ نشرت أخبار اليوم تحقيقا صحفيا تحت عنوان « اراحة الستار عن سر عزيز المصرى » : كان يريد ان تكون مصر ، ضمن الدوميتيون البريطانى ، ويقول انه ضد القتل والارهاب . وقد جاء فى ذلك التحقيق ما يلى :

« قبضت النيابة على الفريق عزيز المصرى باشا بتهمة الاشتباه فى أن تكون له علاقة بحوادث الارهاب التى ضبطت أخيرا .

وليسـت هذه أول مرة يقبض البوليس فيها على عزيز المصرى ، فقد قبض عليه فى أثناء الحرب لمحاولته الهرب بطائرة عسكرية مصرية . وقبض عليه لمناسبة مقتل أحمد ماهر باشا . وقبض عليه لمناسبة مقتل أمين عثمان باشا .

وقبض عليه أخيرا بعد مقتل النقراشى باشا . فقد كانت حياة المغامرات ، التى عاشها الفريق عزيز المصرى باشا توحى الى بعض الشبان المتحمسين أن يحاولوا الاتصال به ، لكنى يتزعم أمثال هذه الجمعيات الارهابية ولكن عزيز باشا يقول أنه ضد القتل والارهاب . ونحن ننشر اليوم لأول مرة فقرات من التحقيق السرى الذى جرى فى هذه المناسبة .

عندما حاول عزيز باشا المصرى الهرب ، باحدى طائرات سلاح الطيران المصرى فى ١٥ مايو سنة ١٩٤١ ، وسقطت الطائرة فى قليب ، بعد طيران دام عشر دقائق ، اختفى عزيز باشا ، واختفى معه الطياران المرافقان له ، وهما : عبد المنعم عبد الرؤوف ، وحسين ذو الفقار .

وقد ظل الثلاثة مختفين حتى يوم ٦ يونيو سنة ١٩٤١ . اذ استطاع البوليس مراقبته للأستاذ أحمد مرزوق المفتش بوزارة المعارف ، ان يقبض على عزيز باشا وزميليه فى امبابة ، وكانوا فى منزل الأستاذ عبد القادر رزق الأستاذ بمدرسة الفنون الجميلة العليا .

ثم تولى عبد الرحمن الطوبر باشا ، النائب العام ، وقتئذ التحقيق معهم ، وكان يدور بصفة سرية وكانت الأحكام العرفية قائمة ، فلم يستطع الرأى العام ان يطلع على الأسباب الحقيقية لهرب عزيز باشا المصرى فمن قائل انه كان ذاهبا الى الألمان ، ليساعدهم على دخول مصر على رأس جيش عربى . ومن قائل انه هارب من الانجليز فى مصر ، خوفا من بطشهم وبطش الوزارة القائمة - وزارة حسين سرى باشا - التى كانت على علاقة غير ودية مع عزيز باشا بعد ان أحالته على المعاش .

وقد استطاعت أخبار اليوم أن تحصل على الأسباب الحقيقية لهرب عزيز باشا فى سنة ١٩٤١ ، وهى مستقاة من الأوراق الرسمية والتحقيقات .

فقد سأل المحقق فى (ص ١٤) المسيو جوزيف كريدبات صاحب بنسيون فينواز بشارع الانتكخانة وهو البنسيون الذى كان يقيم فيه الباشا قبل هربه .

س : هل كان يزوره (أى عزيز باشا) أحد فى أثناء وجوده فى المدة الأخيرة (أى قبل الهرب) ؟

ج : أنا رأيت ضابطا انجليزيا وهو من ضباط هيئة أركان الحرب على ما أظن ، وعلى قبعته شريط أحمر ، ولما دخل كنت موجودا وسأل عن عزيز باشا وأجبتة بالانجليزية أنه موجود وأحضرتة الى هنا وكان موجودا بالغرفة شخص آخر ، وأعتقد أنه أقرب الى القصر ، وفى سن الخمسين .

وكان يلبس ملابس مدنية ولم استطع تبين ملامح هذا الشخص جيدا ،
وأظن ان هذا حصل يوم الأربعاء الماضى أى قبل الهرب بيومين .

وقد دهش المحققون ، ودهش السياسيون فى ذلك الحين لهذا
الاتصال بين ضباط هيئة أركان حرب الامبراطورية البريطانية وبين رجل
عزيز باشا الذى أحيل على المعاش بناء على طلب الانجليز . . وظلت
السلطات المصرية فى حيرتها حتى قبض على عزيز باشا فستل عن أسباب
هربه فقال : انه كان يفكر فى مغادرة البلاد المصرية ، فقد أحيل الى المعاش
وكان يشعر بان مجال العمل قد أغلق فى وجهه . وان هذه الحالة كانت
تسبب له اضطرابا عصبيا غير طبيعى . كما أن الاشاعات كانت تتواتر
فى هذه الأثناء بان الحكومة ستقبض عليه وتعتقله ، ولذلك فكر فى أن
يذهب الى بلد محايد .

ولما كانت أقرب البلاد الى مصر هى لبنان ، فقد اتجه تفكيره الى أن
يسافر الى هناك ، وخاصة أن الطائرات المصرية فى ذلك الحين لم تكن
تستطيع أن تطير الى أبعد من أربع ساعات .

وقد استوضحه المحقق (فى ص ١٣٣ من التحقيق) :

س : هل لك غرض آخر بعد وصولك بيروت ؟

ج : لا شك . . وهذا الغرض ظهر من حادث حل بينى وبين جهة
أجنبية انجليزية ، لو كان قد تم لأدى الى خير عظيم للشرق .

وسأله المحقق ثانيا فى ص ١٨٢ :

س : قلت لنا فى دفاعك ان ضابطا انجليزيا قد حضر اليك فى
البنسيون وتكلمتم فى موضوع التوسط فى الصلح بين العراقيين
والانجليز فهل تريد أن تقول لنا اسم هذا الضابط ؟

ج : أنا لا أعرف اذا كان هو نفسه يريد أن يذكر اسمه أم لا واذا
كنتم تريدون معرفة ذلك فانى أروى لكم أنه فى يوم القبض على أحضرني
الى هنا الأميرالاي فيتز باتريك بك وكيل الحكمدار ، وقال لى فى أثناء
الطريق ان الأميرالاي الفلانى تكلم معى عن حديثكم معه ، وذكر اسم
الضابط العظيم الذى نوهت عنه ويمكن لفيتزباتريك ان يسأله اذا كان
يجب أن يذكر اسمه أم لا .

س : نريد تفصيلا أوفى عن هذا الغرض وهذا الحادث ؟

ج : أرجو أن يسمح لى أن لا أزيد على قولى بأنه كان بخصوص اجراء
صلح بالعراق لصالح الطرفين وربما توسع لصالح حلف عربى .

س : من هؤلاء الذين كنت تريد النزول عندهم اذا وصلتكم الى بيروت ؟

ج : نبيه بك العظمة أو الأمير عادل أرسلان أو شكرى بك القوتلى
وكثيرون غيرهم .

وقد ازداد رجال النيابة ورجال السياسة حيرة فوق حيرتهم لهذا الاتصال الانجليزى بعزیز باشا المصرى ، وسألت السلطات المصرية ، السفارة البريطانية عن معلوماتها فى هذه الواقعة ، فقال الانجليز : أن هذا الاتصال قد وقع فعلا بين الكولونيل ثورنهيل من ضباط المخابرات وبين عزیز باشا المصرى ، وهنا صرح عزیز باشا بأنه قد اتصل بهذا الكولونيل ليعرض عليه أن تنضم مصر مع بعض البلاد العربية الى جامعة الأمم البريطانية تحت نظام الدمنيون ، وقد قدم الكولونيل المذكور ، لرجال التحقيق مذكرة أفضى فيها بما دار فى هذه المقابلة فأودعته فى ملف التحقيق .

وتنشر أخبار اليوم - فى ٢٢/١١/١٩٤٩ - مذكرة خاصة بحديث جرى بين عزیز المصرى باشا وبين الكولونيل ثورنهيل جاء فيها :

فى صباح ١٢ مايو سنة ١٩٤١ أخبرنى شخص له معرفة بالطرفين ان لدى عزیز المصرى باشا مقترحات معينة ليعرضها على البريجادير كلايتون . ونظرا لغياب هذا الأخير عن القاهرة فقد طلب الى أن أقابل الباشا . . وتناولت معه طعام الغداء فى بانسيون فينواز .

سألت الباشا بيانا للمقترحات التى أراد ان يقدمها للبريجادير - كلايتون فبسط آراءه فيما يختص بنظام الدمنيون للشعوب العربية قائلا : ان الشعوب الصغيرة التى تضم بضعة ملايين قليلة كمصر مثلا لا يمكن أن تأمل مقاومة العدوان منفردة ، وان خير حال لها ان تنضم الى جامعة الأمم البريطانية تحت نظام الدمنيون وقال انه يجب البدء بعرض هذا على العراق ، حيث يعرف جنرالا ذا نفوذ يستطيع الاتصال به - وقال أنه يرى ان الاقتراح قد يقبل - وفى هذه الحالة ينتهى فورا القتال ، الذى كان يدور وقتئذ وسألته كيف يمكن اىصال الاقتراح الى هذا الجنرال فأجاب : اما بدعوته الى مصر أو الى بلد محايد ليتناقش معى . وأما بارسالى شخصيا بصفتى وسيطا وسألته ان كان أفضى لأحد آخر بأى شئ عن مشروعه الخاص بنظام الدمنيون للشعوب العربية فقال : ان الشيخ ضياء الدين طباطبائى رئيس وزراء ايران سابقا وسكرتير الجامعة الاسلامية حاليا يحبذها وكان يريد الاتصال بالجنرال سمطس لينال تأييده له .

وقد أدمج الباشا فى نطاق مشروعه مملكة آل سعود ومصر وشرق الأردن وسوريا وفلسطين وبلاد الكرد والأرمن ، واستعلمت منه عما اذا كان يريد أن يكون لكل منهما نظام دمنيون قائم بذاته فأجاب قائلاً : كلا بل يجب أن يندمج شرق الأردن وسوريا وفلسطين فى دمنيون واحد ولكن يجب أولاً اخراج اليهود من فلسطين . فأخبرت الباشا ، بأنى سأعرض اقتراحاته على البريجادير كلايتون لدى عودته الى القاهرة ، ولم أقل شيئاً يمكن أن يؤوله الباشا بأنه موافقة على اقتراحه ، كما انه لم يبدر منه ما يدل على أنه كان ينتوى العمل طبقاً لمقترحاته بالعراق .

ولدى عودة البريجادير كلايتون فى ١٣ أو ١٤ مايو نقلت له الحديث فقال : انه لا يرى المشروع عملياً وترك الأمر عند هذا الحد .

وقد سئل عزيز باشا المصرى عما جاء فى مذكرة الكولونيل ثورنهيل فأيد ما جاء بها ، وقال : ان هذا هو رأيه تماماً وان ما جاء بالمذكرة هو نص الحديث الذى دار بينه وبين الكولونيل ثورنهيل أحد كبار موظفى المخابرات البريطانية .

وعندما قبض البوليس على عزيز باشا فى قضية مقتل أمين عثمان باشا ، دارت المحاوراة التالية بينه وبين الأفوكاتو العمومى .

استدعينا عزيز المصرى باشا وسألناه بالآتى :

عزيز المصرى باشا - اسمى عزيز المصرى ، سن ٦٥ ، رئيس هيئة أركان حرب الجيش سابقاً ، مولود بمصر ومقيم بعين شمس .

س : هل تنتمى الى حزب أو جماعة سياسية ؟

ج : لا .

س : هل تتصل بأحد المشتغلين بالمسائل السياسية ؟

ج : الهيئة الراقية الحكومية فى مصر مشغلة بالمسائل السياسية ومعارفى منهم .

س : ألا يكون من رأيك تحبيذ استعمال وسائل العنف من الداخل للوصول الى تحقيق فكرتك فى الاستقلال الداخلى للبلاد ؟

ج : كنت حبذتها وأنا شاب فى الثورة القومية العثمانية حين كنت ضابطاً فى الجيش العثمانى وكانت الثورة نتيجة عمل هذا الجيش ، ومع ذلك لم يعرف عنى فى ذاك الوقت أنى سمحت لأحد اخوانى ان يقتل أى رجل حتى من الذين كنا نعتبرهم أعداء للوطن ، وكان منهم قائد

الحامية التي كنت فيها ، وكانت حجتى أن هذا الرجل قليل الادراك ولكن له ولد نابغة يدرس فى استنبول والولد هو المستقبل وقتل والده يضر بالمستقبل .

س : وهل هذه هى آراؤك الحالية ؟

ج : والى أن أموت .

س : وهل هناك ممن تتصل بهم من يعتنقون هذه المبادئ ؟

ج : لم أجد بعد فى مصر فردا واحدا مؤمنا ايمانا حقا راسخا فى أى مبدأ من المبادئ العامة بل وجدت فى بعض الأوساط نبلا فى الأخلاق وميلا الى الرقى وحبنا شديدا للوطن وكراهية للاحتلال وآمالا عالية للاستقلال : ولكن لم أجد برنامجا عمليا أو شبه برنامج موصول أو لرسم طريق تصل به البلاد الى تلك الأهداف .

س : ورد فى التحقيق ان بعض الذين يريدون تحقيق أغراض سياسية معينة اتجهوا الى الاتصال بك لمساعدتهم على تنفيذ أغراضهم ؟

ج : أنا ما عندى حزب أساعد أحد ومفيش عندى غير ارشادات ، والزيارات متوالية عندى من يوم خروجى من الاعتقال ومنهم شيب ومنهم شباب وأكثرهم لا أعرفهم ، وأنا دائما كنت أبدأ حديثى معهم بأن نصفهم من القلم السياسى ونصفهم ثوريون ، فكيف تنتظرون ان أعطى مثل هذه الطوائف أسراراً أو آراء شاذة مثل قتل أحمد ماهر ، أو اتجاهات عنيفة أيا كانت بل بالعكس حصل كثيرا ان أعطيت جماعات توسمت فيهم الذكاء والفطنة كتبوا لتلخيصها بعد فهمها وابداء آرائهم وهى كتب تاريخ وأدب .

س : هل من تذكر حضورهم لك كانوا يحضرون بصفتهم أفراد أو أعضاء لجماعات ؟

ج : لا دول ناس ميعرفوش بعض .

س : هل لم تكن تتحرى أن تكون من بين هؤلاء أو غيرهم جماعة أو جماعات لتنفيذ أغراض معينة ؟

ج : لا .

س : أليس لك اتصال بضباط متقاعدين من الجيش المصرى بقصد تنفيذ خطة سياسية معينة ؟

ج : لا .

س : هل تعرف وجود جماعات سرية غرضها ارتكاب جرائم القتل والاعتداء على أشخاص عموميين ؟

ج : ما أعرفش جماعات ولكن الحوادث تدل على وجودها .

س : أليس لك صلة بأحدى هذه الجماعات ؟

ج : لا .

س : هل تعرف أحدا من بين الضباط المتقاعدين يشتغل بالمقاومات الحكومية ؟

ج : نعم أعرف « ولد » اسمه السادات وأعرفه من الجيش لأنه كان ضابط كويس فى سلاح الإشارة وكنت انبسطت منه وأنا أفتش الجيش وزارنى فى يوم جمعة فى الغالب بعد انفصالى من الجيش ثم كان يتردد على فى الأعياد وكنت أسأله أين هو فيقول : نقلونا هنا أو هنا ، وأنا لى حادثة معه لأنه هو السبب فى اعتقالى فى المرة الثانية لأنه كان قد قبض على جاسوس المانى وقال ان أنور السادات وزميله الذى يدعى حسن عزت وهو ضابط لم أكن أعرفه من قبل قد عرفاه بى فلما ووجهها بى انكرا ما قاله الجاسوس وقال أنور السادات أنه يعرفنى وهذان الضابطان طردا من الجيش لاتصالهما بالجاسوس الألمانى وهذه الحادثة من ثلاث سنوات ونصف ومثبوتة فى التحقيق .

س : هل تعرف أنه يمكن الحصول على أسلحة من أسلحة الجيش المصرى أو البريطانى بطريقة غير مشروعة ؟

ج : ممكن وكل الصعيده مليون أسلحة ويبلغنى من ضباط البوليس وغيرهم ان الحالة أصبحت لا تطاق وأنه تحصل معارك مع المهربين ويستعملون فيها مدافع التومى .

س : وهل تعرف أشخاصا يتمكنون من الحصول على قنابل يدوية ؟

ج : يجوز التهريب والعساكر الانجليز يتصرفون فى السلاح للحصول على زجاجات ويسكى .

س : هل تعرف وقائع معينة من هذا النوع ؟

ج : لا .

تمت أقواله : امضى

المحامى العام (امضاء)

وأقفل المحضر على هذا فى تاريخه الساعة ٨ر١٥ مساء وأعدنا
المتهمين الى السجن وقررنا حبس عزيز المصرى باشا أربعة أيام احتياطيا .
المحامى العام
(امضاء)

● وفى قضية الاغتيالات السياسية ، قضية مقتل أمين عثمان باشا
وآخرين ، اعتقل عزيز على المصرى لأن بعض المتهمين اعترفوا بأنهم كانوا
يتصلون بعزيز على المصرى لمساعدتهم فى تنفيذ أغراضهم .

وفى ٢١ يناير ١٩٤٦ ، وأمام الافوكاتو العمومى يحيى مسعود بك
جرى التحقيق مع عزيز على المصرى سأل يحيى مسعود بك ، عزيز على
المصرى باشا عن مدى نشاطه السياسى فى العهد الأخير فأجاب قائلا :

- لم يكن لى منذ دخلت أرض مصر أى نشاط سياسى ، لأنى عدت
اليها حوالى سنة ١٩٢٤ وكانت أحزابها مشكلة ولم أدخل فى حزب منها ،
وكل الطبقات تشتغل بالسياسة وخصوصا بعد الحرب وفى الانقلابات ،
وأنا عند الكلام فى السياسة أبدى رأى كائى انسان آخر .

وسأله المحامى العام : هل لك رأى معين فى الاتجاه السياسى
الحالى ؟

- رأى أولا اتمام دراسائى العالية باستانبول وبعد مشاهداتى
لشئون الشرق المسمى بالشرق المتوسط وتاريخ هذا الشرق وتفكيره
وتكوين شعوبه يجعل أن أحسن فكرة لهذا الشرق أن نكون أمما متحدة
ومستقلة فى شئونها الداخلية مع الاجتماع فى التجارة والسياسة الخارجية
والدفاع . وهذه هى السياسة العملية حسب رأى ومازلت على هذا الرأى
للآن ، وليس هذا قاصرا على الأمم الاسلامية بل يشمل اليونان والبلغار
والصرب وتركيا ، أى مجموعة أمم شرق البحر الأبيض المتوسط .

- وهل لك رأى خاص فى السياسة الداخلية لمصر ؟

- رأى الخاص للسياسة الداخلية فى مصر نتيجة لهذا الرأى العام
ويقضى باستقلال مصر ، اذ لا يمكنها أن تكون عضوا حرا فى هذه
المجموعة ، وهى فى حالة تشبه القاصر .

- هل لك نشاط عملى لتنفيذ هذه الآراء ؟

- لا ، كل آرائى أقولها شفويا كما أقولها الآن وفى محاضرات فى
الجامعة وفى المحال العامة وبين اخوانى .

- هل لك اجتماعات خاصة لبدء هذه الآراء ؟

- مع الأسف لم يحصل هذا بعد لان هذا لا يفيد الا اذا كان العدد وفيرا ، والفكرة انتشرت من نفسها نتيجة توسع الثقافة في الشرق ، وقد بدأت تظهر تباشيرها بفكرة الجامعة العربية الحديثة .

- وهل فيما يختص بالاستقلال الداخلى ترى اتباع وسيلة معينة للوصول اليه ؟

- لا توجد فى رأى وسيلة معينة للوصول الى تكوين قومي أو فكرة سياسية ، وانما هى الاستفادة من الظروف والأحوال ، بمعنى أن الرأى العالمى يدرك أن خير البشر انما هو بالتعاون والاحترام المتبادل وعمل الخير المتقابل حتى تطمئن القلوب الى بعضها فيسود الأمن .

- ألا يكون من رأىك تحبيذ وسائل العنف للوصول الى تحقيق فكرتك فى الاستقلال الداخلى ؟

- كنت حبذتها وأنا شاب فى الثورة القومية العثمانية حين كنت ضابطا فى الجيش العثمانى وكانت الثورة نتيجة عمل فى هذا الجيش ، ومع ذلك فلم يعرف عنى فى ذلك الوقت أنى سمحت لأحد اخوانى أن يقتل أى رجل حتى من الذين كنا نعتبرهم أعداء للوطن وكان منهم قائد الحامية التى كنت فيها ، وكانت حجتى ان هذا الرجل قليل الادراك ، ولكن له ولد نابغ يدرس فى استنبول ، والولد هو المستقبل وقتل والده يضر بالمستقبل .

- وهل هذه هى آراؤك الحالية ؟

- والى أن أموت .

وأجاب عن سؤال آخر أنه لم يجد فى مصر فردا واحدا يؤمن ايمانا حقا راسخا بأى مبدأ من المبادئ العامة ولكنه وجد حبا شديدا للوطن ، وكراهية للاحتلال ، وآمالا عالية للاستقلال ، ولم يجد برنامجا أو شبه برنامج عملي للوصول أو لرسم طريق تصل به البلاد الى تلك الأهداف .

وقال أيضا أنه لم يجد طريقا للإصلاح وللغوز بهذه الأهداف الا طريقين وهما الصدق والعلم وأنه شهد انهيار دولة وهى الدولة العثمانية ويرى ان الاستناد الى القوة لا يؤدى الا الى الانهيار وأن أكبر سلاح هو المحبة بين الناس ، وأن القتل السياسى مثل حادث مقتل أمين عثمان باشا والقاء القنبلة على النحاس باشا وحادث المرحوم أحمد ماهر باشا ، انما مرجعها معاملة الانجليز الخاطئة لمصر والحكم الاستعماري لأنه يهين أذهان الشبان الذين ليس لديهم من سنهم الصغيرة الا العواطف كمحرك عنيف مما يدفعهم الى مثل هذه الأعمال .

ونفى عزيز باشا اتصاله بأية جمعية سياسية أو أى أحد من المتهمين .

ورد على سؤال آخر بأنه يعرف أنور السادات وأنه كان معجبا به عندما كان رئيسا للجيش وكان أنور هذا ضابطا فى سلاح الإشارة . وبعد خروج عزيز باشا من الجيش ظل أنور يتردد عليه فى بيته فى الأعياد . وكان هو السبب فى اعتقال عزيز باشا ، وإن أنور وحسن عزت طردا من الجيش لاتصالهما بجاسوس ألماني ، وأنه لا يعرف شيئا عن ميولهما السياسية .

● أشير الى مفاتيح أخرى تتعلق بشخصية عزيز على المصرى ، وآرائه ، وأفكاره التى يتميز بها عن غيره :

قال مرة عزيز على المصرى لعلى ماهر ، وكان رئيسا للوزارة : انس يا باشا أننى عسكري واسمح لى أن أمارس مهنة أخرى غير العسكرية . . . اسمح لى أن أدرس التاريخ لأبناء بلدى . . . فدراسة التاريخ هى الكتاب الأول فى الوطنية الحقة ، والمعلم الأول فى الوطنية لشعب لا يعرف تاريخه المجيد ، ولا يعرف المسئء اليه من المحسن . . .

ولكم أود أن أدرس التاريخ فى كل مكان فى مصر لكل انسان مصرى . . . ولكن ، من ذا الذى يتيح لى هذه الفرصة ويمكننى من أداء هذا الواجب ؟

وفى الحقيقة كان عزيز على المصرى مهتما جدا بدراسة التاريخ وكان ينصح كل من يطلب نصيحة من الشباب أن يقرأ أول ما يقرأ تاريخ الشعوب كلها ، ويركز على تاريخ الشعب المصرى .

سئل عزيز على المصرى مرة : كيف تقضى أيامك الآن يا باشا ؟ فصمت برهة ثم قال : هل تستطيع ان تجد لى وظيفة أننى الآن (عاطل) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ! . . . عاطل لا عمل لى ، وهذا ما يحيرنى ويبيحث الضيق الى نفسى ! . . . لقد تعودت منذ خمسين عاما الى اليوم ، أن أعمل يوميا خمس عشرة ساعة ، أما الآن فلا عمل لى . . . اننى أشعر بالقوة والقدرة على العمل والتفكير . . . ولكن فيم أفكر الآن ؟ وماذا أعمل ؟

أقسم لك أننى على استعداد لأن أدفع نقودا لمن يشغلنى بعمل أقتل به وقتى . . . وقتى الذى كان موهوبا طيلة السنين الماضية لخدمة بلادى ، أما اليوم فهو موهوب للفناء والعدم شأن كل شئ صالح لهذا البلد . . .

وكننت من قبل أقضى بعض الوقت فى كتابة مذكراتى ، ولكن نفسى كرهت الكتابة فى هذا الموضوع بعد أن أصاب ما كتبتة التلف والضياع والمصادرة على أيدي رجال القلم السياسى الذين يحلو لهم كثيرا أن يزوروا منزلى ويفتشوه ، ويلقوا بكتاباتى وثمرات أفكارى الى لهيب النار طعاما سائغا . . . !!

أذكر أنه كان من زملائى فى المدرسة الحربية فى تركيا ، مصطفى كمال ، وأنور باشا ، وعصمت اينوتو وغيرهم ممن اشتهروا كأقطاب للعالم الاسلامى . لأن هؤلاء الرجال عملوا باخلاص لبلادهم التى ضحوا بكل ما يملكون فى سبيلها : لقد أتاح لهم بلادهم فرص العمل لخدمتها : لم تضح بهم وانما تركتهم يضحون من أجلها . . . أما فى بلدنا مصر ، فأظن أن العكس هو الصحيح . . !!

فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥١ وكانت مصر قد الغت معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ وتأهبت البلاد لمعركة تحرير كبرى ، أجرت مجلة الاثنين ، التى كانت تصدر عن دار الهلال حديثا سريعا مع عزيز على المصرى ، قدمت له بالعبارة التالية :

— عزيز المصرى باشا أحد الذين سلطت عليهم الأضواء هذا الأسبوع . فانه القائد الذى يعمل له الانجليز ألف حساب لأنه لم يدخل حياته أبدا فى حساب . والانجليز لا يهابون الا هؤلاء الفدائيين . ونذهب اليه فيلقانا بابتسامة ، هى الهدوء الذى يسبق العواصف . ونطلب رأيه فيقول :

وتنشر المجلة — الاثنين — ما قاله عزيز المصرى تحت عنوان (فلنقطع لسان من يفكر فى ابداء رأيه) وقد كان نص الكلمة كما يلى : — ليس لى رأى . . وليس لمصرى رأى . . فلنتجمع ، ولننتكل ، وهذا كل ما يجب . . فان فى تجمعنا ولو حول « لا شىء » مكسب لنا وخسارة لأعدائنا . فما بالك والدعوة الى التجمع سبقتها هذه الخطوة الشعبية التى لم تقدم عليها الحكومة الا لعلمها أنها وزارة الشعب ، وان الشعب وضع للوفد امتحانا فى قضيته الوطنية فاجتازه بتفوق مع تقدير لجنة الممتحنين .

« فليحتفظ كل برأيه لنفسه ، فليس فى ابداء الآراء الا تشتيت لقوى الشعب ، وبلبلة لأفكاره . . فلنكن واقعيين فى هذه المعركة الفاصلة ولننجرد من أنانيتنا ، فإن الموقف لا يتطلب آراء بقدر ما يتطلب توضيحات . . فعلى من يريد التوضيح ، ان يتقدم الصفوف ، وعلى من يريد الكلام أن يضع لسانه فى فمه ، والا قطعناه ، فقد شبعنا كلاما سبعين

عاما طويلة حافلة بالكلمات الرنانة ، والخطب الحماسية .. الى العمل ولا شيء الا العمل ! »

وتعقب « الاثنين » على كلمة عزيز على المصرى بما يلي :

لقد دخل عزيز المصرى الحجره فى بطنه وتثاقل وقال انه مريض .. وبدأ يتحدث وديعا هادئا ، وكلميا اقترب من نهاية كلامه اعتدل فى جلسته ، ورفع رأسه وأبرقت عيناه ، ولم تعد كلماته حروفا ، بل طلقات مدفع .. فقلت له :

- أمازلت مريضا متعبا ؟

فقال الرجل وهو يضحك :

- لقد أفادتني جرعة الحماس هذه ، فارتحت ، بل شفيت !

وواقعة الحديث . كيف بدأ ، وكيف انتهى تدل دلالة قاطعة على شخصية عزيز على المصرى الذى كان يمرض لانه كان لا يجد عملا ، والذى كان يشفيه العمل ويسعده الكفاح والنضال .. !

● سئل عزيز على المصرى عما يأمله فى جيشنا ، فقال : ان يكون قويا ومنظما . ونطلب منه رأيه فى جيشنا زمان ، فيقول : بلاش زمان . وعن أمنياته التى يتمناها للجيش المصرى يقول : ان يكون أحسن جيش فى العالم .

وعن الاصطدامات التى كانت تحدث بينه وبين الإنجليز عندما كان مفتشا عاما للجيش المصرى ورئيسا للأركان : كانت الاصطدامات كثيرة ، وكانت تحدث نتيجة أى رأى أبديه ، فقد كانوا يبدون معارضتهم لكل ما أراه ، ثم تطورت الأحداث ولم تتح وقتا للعمل ولا لجزء من العمل وحسب وإنما راحت تتيج سسجنا واعتقالا وكل ما يخطر على البال من متاعب » وعن اللغات الأجنبية التى يجيدها يقول : الانجليزية ، والألمانية ، والتركية ، والفرنسية . ويسأل : هل أنت راض عما قدمته لبلادك من خدمات ؟ ويعترض عزيز على المصرى على السؤال قائلا : ان ما يقدمه المواطن لبلده لا يسمى أبدا خدمة ، انه واجب . وعن منزله الكبير فى عين شمس ، وعن سيارته التى كان يفضل ركوبها ، وأين ذهبنا يقول : البيت كان مبنيا على ٣٠ ألف متر ، اشترته الحكومة منى ليكون مدرسة ب ١٠ آلاف جنيه . أما السيارة فقد بعثها مضطرا بالثمن الذى كنت اشتريتها به وهو ٦٠٠ جنيه . وعن قراءاته : قال انه قرأ حتى الآن - قبل أن يرحل بست سنوات - قرأت حوالى ١٦٠٠ كتاب . وعن أحب الشعراء

اليه فيقول : امرؤ القيس في العصر القديم وأحمد شوقي في العصر الحديث . وعن الحب يقول : ان الحب الصادق أقوى أساس للحياة ، ولولا الحب لما كانت الحياة .!! وعن ذكرياته القديمة جدا في الجيش التركي يقول : كنت أقاسم مراسلتي مرتبي وامتيزازاتي . . . كنت اذا تناولت الطعام أعطيته مثل ما آخذ لنفسى ، وكنت دائما أطلب ٢ قهوة ، واحد لى وواحد له . . . كنت أشعر دائما أنه مثلى له كرامته وحقوقه ، وكان متفانيا في الاخلاص لعمله ، ولئى . مضرب المثل : ان العلاقة بين الضابط والجندي في الجيش يجب ان تكون طيبة للغاية ، مبنية على الحب ، والاحترام والنظام .

● وعن السيدة زينب خير الله - وهي نوبية الأصل- وكانت قد بدأت تعمل عند عزيز على المصرى منذ أن كانت في العاشرة من عمرها من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٥ ، ثم انقطعت عن خدمته عشر سنوات وعادت في عام ١٩٤٥ لتعمل عنده عشرين سنة ، الى يوم رحيله . . . وعندما عادت له عام ١٩٤٥ كانت حالته المالية سيئة للغاية ، وقد قبلت زينب خير الله أن تعمل عنده بدون مرتب . تقول زينب : ان الاسم الحركى لعبد المنعم عبد الرؤوف كان « نبيل » وتذكر زينب أن قادة الثورة جاءوا لعزيز باشا فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ في الخامسة صباحا . وتقول زينب : ان رياضة عزيز باشا المفضلة هي المشى ، وأنه كان يعشق لعب الطاولة والشطرنج وقالت زينب : ان عزيز باشا تعب يوم ٢٩ مايو ١٩٦٥ ، وكان عنده التهاب ، وكان يعالجه الدكتور مصطفى قناوى ، وقالت انه قبل ان يموت بيوم - ليلة الثلاثاء ١٤ مايو - قال : ودينى عند التليفون علشان أكلهم في القيادة عشان يحضروا كل شىء . ومات الباشا في ١٥ مايو وحوله نادى بنت أخيه ، ود . مصطفى قناوى ، وصلاح دسوقى ، واللواء سعيد الألفى ، وكمال منسى .!!

● كتب عزيز على المصرى تعليقا على صورة للرسم فائق نشرها المصور فى ٤ مارس ١٩٥٤ : كتب معلقا على الرسم : وللمرة الأولى يكتب عزيز على المصرى بخطه كلمة عن شخصه :

« خطوط متضاربة ، ومتقاطعة ، وأحيانا متوازنة ! هذه شقوق محراب الزمن ، مرتسمة فى كل جهة من وجهى ، وبجانب كل شق ثواء يمثل وثبة سبققتها كبوة . انها سلسلة معارك حامية مع الزمن . . . فأنت ترى فى الوجه سكرة النصر ، وألم الهزيمة ، ولكنك تلمس أيضا قوة الأمل فى أن ينهض الشرق من جديد لوثة جديدة ومجد جديد . »

وإذا جاز لي أن آسف على شيء ، فهو أنني لن أعيش لأشهد هذا اليوم الذي أذوق فيه نشوة النصر .. ولكنني حينما أرى الشباب تبرق فيه بعض الآمال ترتاح نفسي .. ففي ذلك بعض الجزاء لما جاهدت في سبيله ، وإن كنت أود أن أرى النتيجة أتم وأكمل .

● كتب سير رونالد ستورز عن عزيز المصري : كنا نستعد للغداء لما قيل لنا ان عزيز على المصري بك قادم فانتظرناه ، وقد تأخر طويلا ، ثم حضر ومعه فرقة موسيقية أحضرها من الطائف وقال لي : أن الفرقة تجيد عزف قطعة مشهورة أسمها « الصلبي » وأخذت الفرقة تعزف عزفا طرب له الموجودون ..

وسألني سعيد علي باشا : أليست هذه الموسيقى موسيقى جنائزية؟ وقال الأمير عبد الله بن الحسين : ان عزف هذا النوع الحزين فال سييء !

وعلق عزيز على بك علي كل هذا بهزة من رأسه صحبتها ابتسامة ! وعزيز المصري - يضيف سير رونالد ستورز - يحب العمل ، وقد ظل عزيز - ستورز - يحب زوجته الأجنبية ثمانية أعوام ، ثم تزوجها ، وهو - عزيز المصري - يحب الموسيقى ويحفظ بعض أغاني جوته ، وهو معجب بالشاعر الفرنسي كورنيل ، ويكره هومر ، وقد طالع سيرته في مؤلفات البستاني .

● كان لعزيز على المصري آراء هامة في الاصلاح الداخلي ، وكان من رأيه ان الاصلاح الداخلي يجب أن يبدأ أولا من القرية ، وأول اصلاح في القرية ، يجب أن يكون بعلاج البلهارسيا . وكان من رأيه أيضا - أن الاصلاح الداخلي يجب أن يعتمد على النظام التعاوني بدءا من صناعة الألبان ، وانتهاء بزراعة القطن وتصنيعه ، ومرورا بكل المحاصيل الزراعية .

● وكان من رأى عزيز المصري ان منصب العمدة ، لا يجب ان يتولاه الا شاب جامعي ، وكذلك يجب ان تكون زوجته ، وذلك لتكون مرشدة وهادية للفلاحات . وقد كان في مقدمة آراء عزيز الاصلاحية أنه لا داعي لتخصيص بنود في الميزانية لرדם البرك والمستنقعات ، وما على العمدة - اذا ما كان مثقفا - الا أن يتواعد مع أبناء قريته على يوم محدد يخرجون فيه جميعا بعد صلاة الجمعة ومع كل واحد منهم - والعمدة في المقدمة - فأسه ومقطفه لينقلوا جميعا أكوام التراب الى البركة أو المستنقع للمساهمة في ردمها أو ردمه أو ردمها معا ، اذا كان في القرية بركة

ومستنتج . . وبعد الانتهاء من عملية الردم تبدأ عملية الزراعة . وينصح عزيز المصرى بان يزرع العمدة والفلاحون الأرض التى نتجت عن ردم البرك والمستنقعات زهورا ، وفواكه حتى تصبح قريتهم جنة صغيرة .

● ويقول عزيز المصرى انه شخصيا سيختار أرضا على الكورنيش بين القاهرة وحلوان وسيبنى عليها قرية مصرية نموذجية صغيرة ، يجعل منها جنة ، ويحج إليها السائحون من جميع أنحاء العالم لينعموا بظلال النخيل وليطلوا على النيل ، وليركبوا القوارب الشراعية ، ويشربوا صدورهم بشروق الشمس وغروبها عبر أمواج النيل ، ويأكلون الفطير المشلتت ، وطواجن الحمام ، والبلح ، ويشربوا اللبن الرائب .

ويدعو عزيز على المصرى أن يمتد به الأجل لتحقيق مشروعه الكبير هذا لأن الأجل عنده مرتبط بالعمل ونهايته فى توقف أحدهما . ولم يمكنه الأجل من تحقيق هذا الحلم .

● وكان لعزیز على المصرى آراء فنية جديدة للغاية أختار منها مناشدته - ذات يوم فى ١٢/١١/١٩٥٣ الأدباء والكتاب والمؤرخين أن يكونوا صناديق عندما يقدمون الشخصيات التاريخية على الستار وقد جاء فى هذا الرأى :

« حسن أن يفكر السينمائى المصرى فى عرض شخصيات التاريخ الخالدة وأن يتجه الاتجاه التثقيفى الذى لا يفتقر الى عنصرى الطرافة والتشويق اللازمين للعمل السينمائى الناجح .

ولكنى أريد من المخرج الذى يتصدى لأحدى الشخصيات التاريخية ان لا يكتفى بعرض ملامحها الظاهرة وسيرها المعروفة فى كتب التاريخ القصصية ، بل يجب أن يتعمق فى تصويرها وتحليلها على أن يكون الصدق والأمانة ديده ولا يحاول أن يقدم البطولة شخصية مثالية يتفق فى رسم خطوطها مع قواعد الأخلاق والآداب والسياسة والدين ، فإن الشخصية العبقرية قد لا تكون مثالية فى كل نواحيها . ويجب أن يغتفر الرأى العام للعبقرى بعض ما قد يعتبره المتحفظون المتزمتون هنات يؤاخذ عليها صاحبها . فلا نحاول أن نخفيها عن العين . كالمصور الذى يضع الرتوش فى الصورة مخالفا بذلك حقيقة الصورة ذاتها .

واذا كان فى نية السينمائى المصرى تقديم شخصية البطل العربى خالد بن الوليد . فلا بد أن يكون عارفا لتاريخ جزيرة العرب دارسا آدابهم وعوائدهم ، قارئا للمعلقات وغيرها من أشعارهم وقصصهم . وان

يتفهم الحالة الاجتماعية والسياسية التي كانت عليها الجزيرة ابان ظهور خالد . لان البطولة لا تنشأ طفرة بدون تهيئة من البيئة التي تحيط بها . ولا أريد ان تقدم شخصية خالد بن الوليد كمحارب شجاع مغامر فحسب . بل أن يصل السينمائي الى أغوار الشخصية وسماتها من مشاعر وذكاء وقوى روحية وطبائع المروءة والشرف والوطنية والقومية فيها .

وحتى يتحقق النجاح في تقديم خالد بن الوليد فلا بد أن يتعاون على تنفيذ ذلك أربعة . خبير عسكري يحلل خططه الحربية ومواقفه ، وعالم نفسي يشرح مكنونات النفس العربية بصفة عامة ، وأديب يتذوق الأدب والشعر في عصره ، وعالم تاريخي يبسط كل ما يتصل بعهد من عقائد واجتماع وسياسة .

واني أعتقد ان خالد بن الوليد من أصعب شخصيات التاريخ الاسلامي في دراستها وتفهمها ولذلك لم يفهم خالدًا تمام الفهم الا محمد الرسول وأبو بكر الصديق .

● ومرة - في ٢٧/١٢/١٩٥٧ تحدث عزيز على المصري عن ذكريات ابن السابعة والسبعين فقال : انه ما زال يعيش بعضلات وأعصاب قلب ابن العشرين . يسير على قدميه حول الجزيرة ثلاث ساعات ويستيقظ مع الفجر ، ويقرأ ست ساعات خلال اليوم متابعاً أحدث ما تخرجه المكتبة العالمية من كتب في مختلف العلوم والفنون . « وعزيز - المعلم - ويتحدث حديث العالم المدقق المحقق المحيط ، بلسان لا يتلعثم وذاكرة لا تخطئ عزيز المصري مشغول اليوم بالبحث عن مسكن جديد غير مسكنه الحالي في الزمالك . وقد استقر به الرأي على السكن في حلوان . فهو من عشاق الصحراء أو المدن التي تطل على الصحراء .

وهو يشكو مع ذلك من نوبات ضيق صدر تطارده من حين لآخر وتجعله يضيق بالدنيا ويتبرم بالحياة فيقول :

- ان الدنيا رحلة طويلة أو قصيرة الى الفناء ، وقد يكون طريق هذه الرحلة سهلاً معبداً فلا يحس الانسان بتعب أو جهد فيه ويتمنى أن تطول وتبعد نهايتها وقد يكون الطريق شاقاً فيكده فيه الانسان ويشقى ويستعجل النهاية ، وأنا في حياتي كان طريقي هو الطريق الوعر . . . ولكن الوصول الى النهاية ليس بيدي بل بيد منظم الرحلة . . سيجانه وتعالى .

● فى أواخر عام ١٩٥١ أدلى عزيز على المصرى بحديث صحفى الى وكالة الأسوشيتد برس قال فيه : « اننا لا ندرّب كتائب التحرير ، فاننا لا ندرّب قتلة وانما نعد للكفاح والنضال عن الحياة الحرة الكريمة ... اننا نعددهم اعدادا عسكريا وخلقيا وروحيا » .

وسئل عزيز المصرى باشا عن عدد قوات كتائب التحرير ومدى تسليحها ، فرفض الادلاء بتصريح قاطع واكتفى بأن ذكر بعض ما صرح به معالى فؤاد سراج الدين باشا من أن الحكومة المصرية لا تزود هذه الكتائب بالسلاح » .

وقال عزيز المصرى باشا : « ان السلاح متوافر فى مصر ، وان فى وسع قوات كتائب التحرير الحصول عليه بدون الاستعانة بالحكومة » .

وقال : « ان الكتائب سوف تقف الى جانب الحكومة مادامت الحكومة تقف الى جانب حقوق مصر » .

وتحدث عن حجة بريطانيا القائلة بضرورة بقاء القوات البريطانية فى منطقة القناة لصد أى عدوان يقع على مصر فقال « ليست هذه الحجة بنظرية استراتيجية تصلح فى الوقت الحالى ... فقد شاهدنا فى الحرب الماضية وفى الحروب السابقة قلاعاً وخطوطاً محصنة تسقط أمام هجمات عسكرية وضعت خططها باحكام واذا استولى الروس على فلسطين فان قناة السويس تسقط أمامهم ... وليس فى العالم كله موقع واحد يمكن القول بانه معزز جدا ولا يمكن غزوه . فالمعتدى يجد دائما بعض الوسائل للقضاء على مثل هذا الموقع وغزوه » .

وقال المصرى باشا : انه كان فى وسع بريطانيا ان تكسب صداقة المصريين لو أنها ساعدتهم على التقدم ، ولكنها بدلا من ذلك سارت على سياسة أذكت الكراهية فى نفوس الشرقيين جميعا ، وتسلك الآن القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس مسلك العصابات ، فهى تقتل المدنيين العزل من السلاح والنساء والأطفال وتسلب الفقراء .

... فكيف يمكن بذلك أن يقول الانجليز أنهم يدافعون عن الديمقراطية والمدنية !

وسئل عزيز المصرى باشا عما اذا كان يجب عقد ميثاق عدم اعتداء مع روسيا فقال : اننى أحبذ عقد موثيق عدم اعتداء مع الجميع . ولكن اذا حاولت روسيا أو أية دولة أخرى ان تسحق كرامتنا ومثلنا فان المصريين لن يترددوا فى محاربتها حتى النفس الأخير .

وأخيرا قال المصرى باشا : ان سياسته وسياسة المصريين جميعا ليست « سياسة حرب » وانما هي « سياسة سلام » . وان الجميع يتطلعون الى جعل مصر « ندوة دولية » يجتمع فيها رجال الفكر والعلماء من جميع العالم للمساهمة فى تقدم الحضارة والانسانية .

ويختتم عزيز المصرى باشا تصريحه للوكالة الأمريكية بقوله :

« يجب على أمريكا التى كافحت من أجل الكرامة الانسانية والاستقلال ، وحاربت بريطانيا من أجل ذلك ، أن تنزع كفاها يهدف الى توحيد الشعوب المنتجة فى العالم بأسره ، وان تحرر كل شعوب العالم من العبودية التى تفرضها السياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية ، وان تشجع التقدم العلمى فى العالم كله . . . واننى أومن بكل ثقة بأنه فى الامكان تحقيق مثل هذا التعاون الدولى » .

وقال عزيز المصرى باشا لمراسل الاسوشيتدبرس أثناء الحديث :
انه من عشاق الثقافة الألمانية وأنه معجب بحضارتها وعلومها .
ونفى المصرى باشا أنه كان يتعاون مع المحور أثناء الحرب الماضية .
ثم شرح الظروف التى أدت الى اعتقاله فقال :

« فى عام ١٩٤٠ قبل ان تدخل ايطاليا الحرب ، عقد اجتماع فى مرسى مطروح . وحضرت هذا الاجتماع بوصفى رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، وكذلك حضر الاجتماع رفعة على ماهر باشا رئيس الحكومة المصرية حينذاك ، والقائد العام للقوات البريطانية فى مصر (الفيلد مارشال ميلاند) وبعض كبار الضباط المصريين والانجليز .
وقلت للمجتمعين أننى أرى أن مرسى مطروح لا تستطيع أن تصمد أمام أى هجوم ألمانى ثم نصحت بتعزيز وتحصين العلمين . . . وبالفعل اجتاحت القوات الألمانية مرسى مطروح بعد ذلك بعامين ثم توقفت عند العلمين
قلت ذلك ولكن رأى لم يعجب الضباط الانجليز ، ويبدو أن غير الضباط الانجليز منى جعلتهم يعتبروننى رجلا خطرا ، وبالفعل فصلت من منصبى على أثر انذار من المورد هاليفاكس وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت ولم أعد رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى ، ولما كنت رجلا فقيرا ويجب ان أعمل لكى أعيش ، فقد طلبت جواز سفر الى تركيا عثمانى أجده عملا لى هناك ، ولكن السلطات المسئولة لم تمنحنى جواز سفر ، ففكرت فى الهروب بالطائرة ولكن عطبا أصابها ، فلم أفلح فى محاولتى . وعلى أثر ذلك قبض البوليس على وأودعت المعتقل .

● فى يوليو ١٩٤٨ - وفى المصور - تحدث عن الأسباب الخفية للحرب الكورية . فقال عزيز على المصرى باشا :

« لكل حرب أسباب ظاهرة ، وأخرى خفية .. فإذا وقعت الحرب العالمية من جراء مسألة « كوريا » فتكون هى السبب الظاهر لهذه الحرب . أما الأسباب الخفية المستترة فكثيرة ، تتلخص فى السعى للسيطرة على العالم لتأمين الحالة الاقتصادية فى كل من انجلترا وأمريكا ، وروسيا نفسها ..

وللمرة الثانية فى التاريخ يجابه العالم حربا فكرية لا مادية .. فالمرّة الأولى كانت فى عهد الاسلام الذى حرر النوع البشرى وساوى بين الناس ، فكان لكل من اسلم حق التدخل فى سياسة الدولة ، على أساس اقتداره ، ودرجته العقلية والخلقية . فرأينا « طارق بن زياد » الذى كان أبوه لا يتكلم العربية ، يخلف فى القيادة « موسى بن نصير » ويفتح أسبانيا باسم العقيدة أو المبدأ ، ويوفد أعرابا ظاهرُوا الدين ونبع الدين منهم .. ونرى « جواهر الصقلي » النورماندى الأصل ، يقود جموعا اسلامية عربية ومغربية لفتح مصر ، ويؤسس الجامع الأزهر ولم يكن قط عربيا .. !!

والمرّة الثانية هى تلك الحركة التى ظهرت فى العالم منذ حوالى ثلاثين عاما وأعنى بها الحركة الشيوعية ..

وكما أن الدين الاسلامى اصطدم مع « بيزنطة » و « روما » الأوتوقراطية ، كذلك نرى الشيوعية تتصادم مع الرأسمالية ، ونراها تعلم الصينى والكورى ، وتعمل على اقناعهما بالنظرية الجديدة وتساعدهما فى تنظيم شئونهما واعداد جيوشهما ثم تمنحهما حق حكم نفسيهما بنفسهما وبذلك ستهيئهما لان يحاربا من أجل الوطن والفكرة ، بغير تدخل فعلى من جانب روسيا !

ولا عبرة بما يقال من ان روسيا تتدخل بأمداد كوريا بالسلح .. فان تجارة الأسلحة متاحة للجميع ولما كان أقرب الشعوب الى الصين هم الروس ، بل ان هناك اختلاطا جنسيا بينهما من قديم الزمن ، فان من الطبيعى ان تولى الصين وجهها شطر روسيا تستفيد منها علميا وماديا .. وهذا ما حدث بالنسبة لكوريا أيضا ، وكوريا بلد فقير ، لا يعرف عن مناجمه أو طرق استغلالها شيئا ، لذلك كان من الطبيعى ان يمد يده لأقرب الأسواق التى تعرض ما يحتاج اليه من ذخائر وأسلحة ، وهى روسيا ! ..

ولا ريب أن هذه الحرب كانت منتظرة كما قدمت ، وكان الطرفان

يتوقعانها من زمن بعيد . ولكن الذى أوقد نارها فى هذه المرة هو الذى تقدم الى حدود الآخر دون مسوغ . فوجود أمريكا فى كوريا - التى هى بعيدة عنها جغرافيا وفكريا وجنسيا - يعتبر تحديا ظاهرا ، بل تهديدا مباشرا لروسيا . ولذلك عندما احتلت أمريكا القسم الجنوبى لكوريا ، كان الرد الوحيد لدى الروس هو احتلالهم للقسم الشمالى . لان احتلال أمريكا لكوريا هو بمثابة انزال جيش أمريكى فى روسيا الشرقية ! . ولا ريب عندى ان وضع روسيا فى نظر العدل الدولى هو أقرب للحق من وضع أمريكا والحلفاء ! . وتدخل أمريكا وانجلترا على هذه الصورة يعتبر اعلانا ضمينا وغير صريح للحرب على روسيا ، واذا ظهر لروسيا ان هذه القوات ستستولى على كل كوريا وتصبح بذلك متاخمة لمنشوريا فسترى أنه لا مناص لها من التدخل لتحول دون هذا الخطر الذى يهددها .

على أن اهتمام الدول الكبرى بمسألة كوريا يرجع الى وجود بحر اليابان الواقع بين اليابان وكوريا الذى اذا استولى عليه الروس استطاعوا أن يشلوا حركات الأسطول الأمريكى تجاه سيبيريا ومنشوريا . وروسيا حريصة من جانبها على أن تكون البلاد الواقعة على هذا البحر موالية لها ، حتى تأمن الهجمات الأمريكية المفاجئة على شرق سيبيريا ومنشوريا ، لان سيطرة أمريكا على هذا الجزء معناه خنق الفكرة أو المبدأ الشيوعى ومنعه من الانتشار ، ويعتبر الحلفاء كوريا وايران وتركيا واليونان وألمانيا الغربية بمثابة حبل المشنقة الذى يلف عنق العالم الشيوعى ليقتله !

● كانت صحيفة المصرى قد زجت باسم عزيز على المصرى فى الحديث عن حرق القاهرة (وقد تولى عزيز على المصرى الرد على ذلك ببيان قال فيه : (الأخبار ٢٧ أغسطس ١٩٥٢)

« اعتادت بعض الصحف أن تذكر اسمى ، وتشكلم عن اشتراكى فى بعض الحركات ، وتنشر نبذا مدعية أنها تمثل بعضا من تاريخى ، وأكثر ما تنشره هذه الصحف سخافات ، لا ظل لها من الحقيقة . وكنت فى كل مرة أمر عليها من غير تكذيب ، نظرا لتفاهتها ، ولكن جريدة « المصرى » طالعتنا منذ ثلاثة أيام بمقال تحت العناوين التالية :

أسباب حرق القاهرة يوم ٢٦ يناير .
٢٠٠٠ بندقية و ٥٠ مدفعا ، ومليون طلقة كانت ستسلم للكثائب يوم ٢٦ يناير .

وجاء فى هذا المقال ان الأستاذ فؤاد سراج الدين أمر محمود
البدينى ، محافظ العاصمة بتسليم الأسلحة فورا الى الكتائب ، وأن وزارة
الداخلية قدمت المساعدات للكتائب ، وخصصت لكل منها عددا من ضباط
البوليس يكونون دائما فى خدمة أغراضها وتلبية مطالبها ، ومن هؤلاء
الضباط من دفعته حماسته الى الاشتراك الفعلى فى المعارك التحريرية مع
قوات الكتائب ، وان هذا حدث مع الكتيبة التى كان يشرف عليها الفريق
عزيز المصرى والأستاذ عبد الوهاب حسنى . الخ . الخ .

وانى أعلن أن كل ما جاء فى هذا البيان ليس فقط خاليا من
الحقيقة ، ولكنه ضد الحقيقة على خط مستقيم .

كما أنى أعلن أنه اتضح لى بجلاء ان حركة الكتائب ، التى أسندوا
الى تشكيلها ، فى اجتماع ضم بعض الشخصيات المعروفة بفضلها
وطبقتها وإخلاصها للبلاد ، اتضح لى أن حركة الكتائب هذه كانت تنظر
لها الحكومة الوفدية بعين الاحتراس ، وعدم الاطمئنان ، وكانت الحكومة
الوفدية ممثلة فى هذا بالأساتذة فؤاد سراج الدين وزير الداخلية ،
وعبد الفتاح حسن ، وعبد المجيد عبد الحق .

وكانت السراى تنظر اليها كذلك بعين الاحتراس وعدم الاطمئنان ،
وكان يمثلها فى ذلك الفريق محمد حيدر ، قائد القوات المسلحة فى ذلك
الحين .

ولهذا قررت الحكومة الوفدية ان تحل هذه الكتائب ، وان يكون
حلها بطريقة تخفى على رأى العام ، ولذلك لجأت الحكومة الى أن تدس
على الحركة فئة من رجالها ، وأرادت أن توهم الكتائب أن وظيفة هذه
الفئة ان تمثلها عند الحكومة ، حتى تسهل مهمة الكتائب وأختارت
الحكومة الرجال الذين يمثلوننى عندها ، وهم الأساتذة عبد الوهاب
حسنى وتوفيق الملط وجمال عزام .

واذا بى اكتشفت أن مهمة الفئة التى فرضتها الحكومة علينا هى
تخريب حركة هذه الكتائب وحلها . وكنت أنا الذى عرضت تأليف هذه
الكتائب على هيئة مكونة من بعض الوزراء ، وكانت فكرتى أن يعم تشكيل
هذه الكتائب كل البلاد ، وأن تتألف كل كتيبة بتشكيل خاص ، بحيث
يجعل قوة الكتيبة الواحدة ما يعادل قوة « أورطة » عسكرية ، وطلبت أن
يضاف الى وظيفة هذه الكتائب العسكرية وظيفة اجتماعية ، القصد منها
رفع شأن القرية المصرية ومستواها .

وكنت أطلب الى هذه الهيئة الحكومية ان تتولى الحكومة تسليح هذه
الكتائب من أسلحتها المتوافرة فى المخازن !

ولكنهم كانوا يسوفون ، وكانوا يشترون الأسلحة من الاعانات التي كانت الأمة ترسلها اليها بسخاء في البداية . ثم لما حول الأستاذ عبد الوهاب حسنى هذه الاكتتابات على عنوان مكتبه بدأت التبرعات تقل وتتضاءل .

ولم تزد التبرعات على أربعة آلاف جنيه .

وكانت اللجنة التي فرضتها الحكومة علينا هي التي تشتري الأسلحة !

ولما عرضت هذه الأسلحة على وجدت أكثرها تالفا ، ولا يصلح للاستعمال ، وكان ثمنه فوق التصور فقد كان الثمن مبالغا فيه !

ولما اكتشفت هذا التلاعب ، وهذه الدسائس ، وتبينت ما يراد بحركة الكتائب ، عندما قدم الى مكتبي أفراد احدى الكتائب يشكو من هذه اللجنة المفروضة علينا ، ولما أبلغوني عن تصرفاتهم الخطيرة فى شأن الكتائب ، وكيف أنهم عينوا للاشراف عليها ضابطا ظهر فيما بعد أنه متصل بالقلم السياسى ، وظهر أن فؤاد سراج الدين هو الذى فرضه على الكتيبة ، ثم أوهموا أعضاء الكتيبة أننى أنا الذى عينته مندوبا عنى ، بينما أنا لم أعين هذا الضابط ، ولم أعلم بتعيينه ، بل لم أر وجهه حتى الآن

لما اكتشفت هذا كله واجهتهم به أمام أحد ضباط الجيش . .

واعترفت اللجنة المفروضة بكل ما قلته ، واعترفت أنها تسلمت مبالغ بدون علمى من وزارة الداخلية لشراء أسلحة وتوزيعها على كتائب أخرى باسم فؤاد سراج الدين !

وعندئذ فصلتهم جميعا على الفور ، وانقطعت علاقتهم بنا ، فخرجوا من حركتنا ، ولكن بعد أن خربوا كل أعمال الكتائب ، وجعلوها تفشل .

● فى ٢٨ مايو ١٩٥٧ نشرت صحيفة الحارس العراقية ، التى كان يصدرها صبيح الغافقى - من الصحفيين العراقيين البارزين ، والتى كان يقوم الأستاذ ناظم بطرس المحامى - من أبرز المحامين العراقيين أيضا ، بمهام المدير المسئول - نشرت كلمة لمعالى الأستاذ على محمود الشيخ على بعنوان : التاريخ فى سير أبطاله : عزيز على ومحنته بقومه . . خدم العرب كالأبطال ولكنه جوزى جزاء سنمار .

وقد جاء فى تلك الكلمة ..

(٢٨ مايو ١٩٥٧) :

ان الشقاء الذى أصاب عزيز على المصرى - كما أوضحت مرارا -
انما كان شقاء قد أقدم عليه برضى منه وبارادته . وكان فى وسعه أن
بتجنبه لو كان ممن تغرهم متع الحياة ولذائذها .

وعزيز على عمل لقضية العرب ، وأخلص لها . وذب عن حياضها
كما يذب الأبطال المخلدون ولكن الشعب العربى لم يجزه الا جزاء سنمار .

فهو ان تبرم به ، وتبرم ببعض تلامذته الذين انحدروا الى الهاوية
فمن حقه ان يتبرم . وانه ان أرسل الصيحة تلو الصيحة فمن حقه أن
يعمل ذلك . وليس تبرمه ، ولا صيحاته دليل اليأس والقنوط بالعكس
فانها دليل الحيوية والفتوة والنشاط . ذلك لان القصد منها استفزاز
الهمم وتجديد القوى وشحن العزائم .

لقد دعا موسى ربه حين ضاق ذرعا ببني اسرائيل فى صحراء التيه
ان يقبض نفسه اليه أو أن يعينه على قومه وينزل على قلبه السكينة ،
وخطب المصطفى محمد ربه يوم « أحد » قائلا : ان نصرتهم - ويعنى قريشا -
فلن يعبدك عابد ، وكلاهما وثق فى رسالته ، وكلاهما صار فى جوار ربه
وهو قرير العين ، رضى النفس مطمئن القلب .

ومرارة الخيبة وان كان العظماء لا يخجلون منها ولا يجزعون فانها
لا بد وان تترك فى نفوسهم أثرا . خذ مثلا يوليوس قيصر لما هوى تحت
سيوف قاتليه وخناجرهم ، ولمح بروتس بين قاتليه وهو ربيبه المحسن
اليه غطى وجهه بردائه المخضب بدمائه حياء وأشاح عنه وجهه وندت عنه
تلك الصيحة الداوية التى مازالت الآفاق ترددها « وأنت أيضا يا بروتس »
فكيف لا تدعن وجدان عزيز على مثلها وأعلى منها حين يرى تلامذته
وهم مناط رجائه ، وموضع أمله ، يدهسون المبدأ بأرجلهم ، وينهشونه
بأسنانهم ويمزقونه بخناجرهم ؟ وهل هذا المبدأ القليل غير عصارة قلبه ،
وجوهر روحه ، وخلصة وجدانه .

فمحنة عزيز على بقومه كانت وما تزال شديدة ، على أن محنته
بتلامذته كانت وما تزال أروع وأشد .

لعله لا يأسو على حياته ، وما تحملته من شقاء بقدر ما يأسو على
مبدأ منحه من روحه ، وانتزعه من سويداء قلبه . لقد كان وما يزال

يحرق نفسه من أجل قومه ، كالشمعة يشرب على ضوءها الشاربون ،
ويأكل الآكلون ، ويسمر السامرون ، ويرقص الراقصون . حتى اذا
ما عبوا من متع الحياة ، ونهلوا وتحلوا من رحيق لذائذها ، ولوا وجوههم
نحو فراشهم ليرقدوا هائثين تاركين وراءهم الشمعة تحترق وحيدة .
والشمعة ما تزال تحترق وهي منكورة النصيب من الوفاء ، وهي محجورة
التقدير على أن هيكلها بحمد الله ما زال سمحا وضوها مازال ساطعا
يغمر الحزن والسهل والله نسأل أن لا يرينا يومها الأليم ، وساعتها
المذهلة ولكن كل كائن صائر الى نهاية فاذا خبا ضياؤها وهي منكورة
النصيب من الوفاء ، واذا زال هيكلها وهي مجحودة التقدير والتعظيم . .
فالويل للعرب من حكم التاريخ . والويل لهم من أنسالهم وذرائعهم حين
يفتحون عيونهم للنور ويقرأون مأساة هذا الشهيد .

● وأستأذن أخيرا في التوقف في هذا المدخل عند صفحة من مذكرات
قائد الأسراب حسن ابراهيم نائب رئيس الجمهورية الأسبق وأبرز قادة
ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقد جاء في تلك الصفحة (ان صلتته ترجع بعزير
على المصرى الى عام ١٩٣٩ وكان وقتها حسن ابراهيم طالبا بالكلية
الحربية ، وكان عزيز على المصرى رئيسا لهيئة اركان حرب الجيش
المصرى ، وكانت نذر الحرب فى كل مكان ، والصدام بين الألمان
وحلفائهم وانجلترا وفرنسا وحلفائهم يوشك ان يقع بين لحظة وأخرى .
وكان عزيز المصرى يأتى الى الكلية ليحاضر فى طلابها . ولأول مرة
سمعت منه - من عزيز على المصرى - نقدا لاذعا موجهها الى ضباط الكلية
وقادتها كما سمعت منه لأول مرة هجوما على قيادات الجيش التى تبني
منشآت سلاح الصيانة فوق الأرض فى وقت حرب مما يجعلها أهدافا سهلة
للعُدو . وكان بناء هذه المنشآت قد تقرر قبل ان يرأس عزيز على المصرى
هيئة أركان حرب الجيش ، وكان اعجابنا به قد تضاعف عندما سمعنا عن
نقده اللاذع للبعثة العسكرية البريطانية التى كانت تشرف على بناء هذه
المباني والشئ كان كبار قادة الجيش يتملقونها .

ويقول حسن ابراهيم : ان محاضرات عزيز على المصرى قد أصبحت
بالنسبة لنا شيئا هاما ومقدسا نحرص عليها ، وكانت مشيئة المهيبه
تثير فينا شعورا قويا بالثقة والعزة والمثل العليا .

كان عزيز المصرى ، رئيس أركان حرب الجيش بذهابه الى الكلية
للقاء محاضرات هناك يعطى نموذجا رائعا للمعلم والقائد والرائد ، كان
يربى جيلا من الضباط الأحرار ، وكان عزيز على المصرى منتظما فى القاء
محاضراته لا يتأخر أبدا عن واحدة منها مهما كانت موجبات التأخير ،

وتخرجت ، وأصبحت ضابطا بالقوات الجوية ، وزاد اعجابنا بعزیز المصرى
كما ازداد تعلقنا بشخصيته » .

الى أن يقول حسن ابراهيم ، وفى أحد الأيام وكنا بالسويس تعرف
بى وجيه أباظة ، وكان يسبقنى فى السرب وكنت أسمع منه تلميحات ضد
القصر ، وضد الانجليز ، وضد الأوضاع الفاسدة : فى البداية كان يقذف
بالعبارات وهو يعلم أنى أسمعته ويتصرف دون أن يرى تأثير كلامه ودون
أن يورط نفسه فى شيء ، فقد كانت قوى الظلم والفساد تسيطر على
كل شيء فى بلادنا حتى ان الأخ لم يكن ليثق بأخيه فى هذا الوقت
بالذات . ولكننى كشاب متحمس سعيت الى وجيه أباظة الذى عرض
الانضمام الى تنظيم سرى كان يرأسه فى ذلك الوقت عزيز على المصرى .

ومرت الأيام وتعرفت بالأخ عبد اللطيف البغدادى كأحد أعضاء
التنظيم . وتعرفت بكل من أنور السادات وخالد محيى الدين أيضا
وكنا من خارج الطيران .

وفى سنة ١٩٤٢ تقرر الاتصال بقيادة الألمان فى العلمين . للاتفاق
معه على ضرب الانجليز وكانت الخطة أن يطير أحدنا بطائرة حربية الى
هناك يحمل معه صورة من مواقع الانجليز فى مصر . ويحمل معه
خطة العمل بالاتفاق مع الألمان . وتقضى بأنه فى حالة تقدم الألمان للزحف
على مصر . فان التنظيم السرى الذى يرأسه عزيز المصرى سيكون
مستعدا لمنع تراجع الانجليز الى الدلتا ومحاصرتهم بين الصحراء الغربية
وفرع رشيد . فبينما يضربهم الألمان المتقدمون من الصحراء ، تقوم
المقاومة السرية المصرية من الخلف بتنسف الكبارى والجسور لمنع التراجع ،
وهنا يصبح الانجليز بين طرفى كماشة . الألمان فى الشمال الغربى
والمصريون على طول خط رشيد يمنعون عبورهم الى داخل البلاد .

فى هذه الأثناء . وقع اختيار القيادة السرية على ، لكى أقوم بقيادة
الطائرة التى ستهرب الى العلمين . وجاء صباح يوم ابلغنى فيه وجيه
أباظة . أن عزيز المصرى اختارنى لهذه المهمة . وان على ان أرتب
ظروفى لهذا وان أكون مستعدا ابتداء من اليوم التالى .

وما أن سمعت هذا حتى شعرت بسعادة غامرة . فقد كنا نكره
الانجليز . ونريد ان نخرجهم من بلادنا . ولأن الألمان وعدونا فى حالة
كسر الجيش البريطانى . ان يتركوا البلاد فورا وان يعطوا مصر حريتها
واستقلالها .

وفى المساء ذهبت لكى أودع أهلى (أخى وأختى فى هذا الوقت)
ويبدو أن عزيز المصرى أبلغ وجيه رغبته فى رؤية الضابط الذى وكلت
إليه هذه المهمة . . لأنه تقرر القيام بالعملية فى فجر اليوم التالى .

فقام وجيه بالبحث عنى . . ولسوء حظى لم أكن موجودا فى البيت
فى هذا الوقت . . فأبلغ القائد أننى غير موجود وكان رد عزيز المصرى . .
ابعثوا الى المرشح رقم ٢ - فوراً . . وفعلاً ذهب إليه الزميل سعودى
حسين أبو على ، وهو من أبناء مدينة الاسكندرية وكلفه القيام بالعملية
التي كنت مكلفاً بها . . وقد شعرت بجرح عميق وأسى شديد لأننى تخلفت
عن هذه المهمة المقدسة وحاولت جاهداً ان أنصح عزيز المصرى بالتراجع
عن قراره الأخير . . ولكن دون جدوى .

وما زلت أذكر أنه ساعتها قال لى . . « خلاص الحكاية دى خلصت
. . فيه حاجات كثيرة جاية ، من هنا ورايح مادام وهبت نفسك لخدمة
بلدك يجب أن تكون على استعداد فى كل وقت وجاهز فى كل دقيقة . .
وعلشان ما تزعلش احنا قررنا انك تعطى سعودى طيارتك حتى لا تحرم
من شرف المهمة ، وتكون أنت نمرة اثنين فى مسئولية تنفيذها » .

وطار الزميل سعودى بطائرتى . . ولم نعرف عن أخباره شيئاً
حتى هذه اللحظة ، والمرجح أن الألمان أسقطوه خطأ لأن الطائرة انجليزية
الصنع ولذا فقد حسبوها من طائرات الأعداء (الحلفاء) .

وأضاف حسن ابراهيم نائب رئيس الجمهورية قائلاً . . ما علينا . .
المهم ان هذه الواقعة أعطتني مدلولاً جديداً فى كشف أحد الجوانب المشرقة
لشخصية القائد عزيز المصرى . . وهو عزيز القائد الحازم القوى الذى
لا يتردد والذى يحكم خطته ويضع الاحتياطي الذى لو تغيرت الظروف
يستخدمه .

وتتابع كثير من الحكايات . . وحسن ابراهيم يحكى . . وأصابه
تداعب مسطرة صغيرة على مكتبه وخلفه صورة كبيرة للرئيس جمال
عبد الناصر . . ومن بعيد كانت الشمس توشك ان تسقط فى البحر
الواسع الممتد امام بيته فى منطقة رشدى بشارع سوريا بالاسكندرية .

يقول حسن ابراهيم . . .

وعقب فقد طائرة الزميل سعودى أدرك الانجليز ان هناك محاولة
للاتصال بالألمان أعدائهم فى الحرب ، وأدركوا أن هناك تنظيمات سرية
تعمل ضدهم فى سلاح الطيران وغيره من أسلحة الجيش ، فطلبوا التخلص

من بعض ضباط الطيران بنقلهم الى أسلحة غير محاربة بالجيش تشتيتا لهم (وكنت ضمنهم طبعاً حيث نقلت الى سلاح المهمات) .

كما عملوا على منع الطيران للضباط الطيارين وحددت كميات الوقود للطائرات بحيث لا تصل الى خطوط الألمان ونزعت بعض أجزاء الطائرات مساء حتى لا تهرب .

كما تقرر محاكمتي عسكرياً بحجة أن سعودى أخذ طائرتى ولم يكن فى استطاعتهم أن يعلنوا على العالم فى ذلك الوقت خلاف ذلك

وعندما طلبت للمحاكمة ، شعرت ان الانجليز طلبوا مجازاتى بجزاء رادع قد يصل الى طردى من الجيش أو ايداعى بأحد السجون . . وعندئذ انتابنى شعور بالكآبة . . ولم يكن ذلك بسبب ما سيلحق بى من أضرار لأن ايماننا وعقيدتنا الراسخة كانت أقوى من التضحيات مهما عظمت ، ولكن كآبتى كانت لسببين :

الأول : هو كيف لى أن أدافع عن نفسى أمام قسوة الانجليز وصنيعتهم القصر وأنا رجل معدم ليس لى القدرة على توكيل أحد كبار المحامين للدفاع عنى ، واذا فرض انى تمكنت فمن هو ذلك المحامى الذى يأخذ مثل هذه القضية على عاتقه .

أما السبب الثانى : فهو ان خروجى من الجيش سوف يضيق أمامى الفرصة للاستمرار مع زملائى فى العمل الوطنى الذى وهبنا أنفسنا له .

ووسط هذه الدوامات . . دق جرس التليفون . . وكان المتحدث عزيز المصرى . . وقال لى : تعال أنا منتظرك هنا فى بيتى .

وشعرت على الفور براحة غريبة . . تصور أن عزيز المصرى يستقبلنى فى بيته . . رغم أنه يعلم أننى مراقب وان الانجليز يطلبون محاكمتى . . وان الانجليز أكثر من ذلك يعرفون مواقفه ويريدون أن يتخلصوا منه لمجرد ظهور أية بادرة تدينه . . لأنهم كانوا يعرفون قيمته ودوره فى الحركة الوطنية ، ودعوته لى تشير مباشرة الى ارتباطه بالتنظيم السرى الذى أدرك الانجليز وجوده .

واستقبلنى عزيز المصرى فى بيته وطمأن خاطرى ورأيته فجأة يدير قرص التليفون ويطلب المحامى حماده الناحل . . ويستدعيه على الفور . .

وجاء حمادة الناحل . . وقال له عزيز المصرى . . الأخ حسن ابراهيم مطلوب للمحاكمة . . لأنه قام بعمل وطنى وأنت ستدافع عنه وما تخدش منه فلوسى لأنه لا يملك شيئاً . . ولم أتمالك نفسى فقد رأيت

عزيز الانسان في أكبر صورة من صور الوفاء في هذا الوقت بالذات ،
رأيته معرضا نفسه للخطر لينقذني من أيدي الانجليز .

واستمرت صلتنا بعزيز المصري . . السنوات تروح . . وتجيء ،
وعهود الظلم تترى على مصر ، الانحلال والفوضى والاستغلال والقصر
والأحزاب . . كلها تتكالب على شعبنا الطيب . . وفي سنة ١٩٤٩ . .
وهي سنة لا أنساها . . فقد عاد جيشنا من فلسطين بعد أن لعبت
الخيانة دورها المعروف في ارسال الأسلحة الفاسدة . . وكيف تأمر الملك
مع العصابات التي تحكم مصر في هذا الوقت لاذلال الجيش وتمريغ
سمعته في الوحل

في ذلك الوقت كنت في التشكيل الذي يرأسه جمال عبد الناصر ،
وكنا نحاول ان نعمل شيئا لنقضي على هذا الفساد ونزيل عن أنفسنا هذا
العار ، وذات يوم قررنا - جمال عبد الناصر وأنور السادات وأنا - ان
نذهب نحن الثلاثة الى عزيز المصري نأخذ رأيه ومشورته في أحوال
البلاد . . .

وعرض الرئيس جمال عبد الناصر عليه الموقف بالتفصيل . . وكان
عزيز ينصت في صمت شديد . . وفي نهاية المقابلة سألناه المشورة ،
وفي هدوئه الشديد قال لنا . لا بد أن تقرأوا كثيرا . . القراءة هي
السبيل الوحيد لإخراج البلاد من هذه المحنة ، اقرأوا في الديمقراطية
وفي الاشتراكية وفي الرأسمالية وفي الشيوعية . . اقرأوا ، بلا حدود
. . . وبلا تقييد لأي شيء . . وسوف تجدون في النهاية الحل لجميع
مشاكلكم . .

● يقول جورج فوشيه في كتابه « عبد الناصر ، وصحبه » : كان
أنور السادات يقوم بالاتصال بين الضباط الأحرار والمرشد العام للاخوان
المسلمين . وحسن البنا هو الذي مهد له الاتصال بعزيز باشا المصري
الذي أقاله رئيس الوزراء حسين سرى باشا بناء على طلب الحكومة
البريطانية من رئاسة أركان حرب الجيش المصري .

أثار عزيز المصري استياء الانجليز عندما طبق في الجيش المصري
نظام الاشارة الألماني وانتقد نشاط البعثة العسكرية البريطانية ، ولاحظ
فيما لاحظ ، أن البنادق الرشاشة « برت » التي تشتري من إنجلترا
كانت تباع بأسعار جد مرتفعة عن أسعار تشيكوسلوفاكيا ، وصرح
للضباط البريطانيين قائلا : انكم بعثة تجارية لا بعثة عسكرية .

ولم يكن ما أبداه رئيس أركان حرب الجيش المصرى من كرهه للانجليز وولاء للألمان ، هو وحده الذى أثار سخط الرؤساء العسكريين البريطانيين اذ كانوا يظنون فعلا أنه متواطىء مع العدو ، وتأيدت هذه الظنون فى ديسمبر ١٩٤٠ عندما شنت القوات الحليفة هجومها المفاجئ على الايطاليين فى سيدى برانى التى انشغلوا فيها بتنظيم دخولهم وادى النيل دخول الطافرين . وهناك وضع الانجليز يدهم على أرشيف هيئة أركان الحرب الايطالية ووجدوا فيه خطة الدفاع عن الصحراء الغربية التى كان الجنرال ميتلان ولسون قائد العمليات فى مصر تحت امره المارشال ديفيل قد نقلها بنفسه الى الفريق عزيز على المصرى .

هل كان رئيس أركان حرب الجيش المصرى أو رئيس الوزراء أو الملك فاروق نفسه أو مؤتمر بأمره هو المسئول عن افشاء السر أو عدم التبصر فى تسليم العدو الخطط البريطانية : انه من الصعب تحديد ذلك ، ولكن ما ورد فى قصة أنور السادات بعد ذلك فى كتابه « ثورة على ضفاف النيل » يدفع الى الظن بأن الانجليز لم يخطئوا فى ظنونهم ، واذ خلا عزيز المصرى من العمل بعد احالته الى المعاش ، راح يلهب فى نفوس الضباط الشبان المشاعر الوطنية عندما كانوا يتصلون به سرا ، وفى حيلة عظيمة لكى لا يقتفى آثارهم رجال المخابرات البريطانية أو الشرطة السياسية المصرية .

لقد قابله أنور السادات فى بادىء الأمر فى المكتب الملحق بعبادة أحد الاطباء بحى السيدة زينب الشعبى ، وبعد ذلك كان من اليسير على الضباط والشبان المتقدين حماسا أن يرفعوا حائط حديقة عين شمس الواسعة حيث كان عزيز المصرى يقيم فى قصر تحيط به أشجار المانجو والنباتات المتشعبة ، واذ أبعد عن الجيش راح يعتمد على الضباط الشبان ليقوموا فى مصر بالانقلاب العسكرى ليحرروا بلادهم من الوصاية الانجليزية .

ويمضى جورج فوشيه قائلا : كان أنور السادات قد اتصل بالقيادة الألمانية فى ليبيا ، ورئى ان تلتقى القوات المصرية الثائرة وقوات المحور ، وفكر الألمان بارسال عزيز المصرى الى العراق لقيادة القوات العربية وتذليل العقبات السياسية والعسكرية التى كانت تواجه حركة رشيد على ، وفى هذه النقطة بالذات لم يشارك القائد العجوز الضباط الشبان فى نفاؤلهم ، وكان يجيب المتحمسين التواقين الى رؤيته يهب الى نجدة ثوار بغداد قائلا : انكم لا تعرفون السياسة العراقيين كما أعرفهم وراح يكشف للمتمارين الشبان عن أمور مذهلة تتعلق بالأخلاق السياسية للزعماء

العرب الذين سنحت له فرصة التعرف اليهم في عهد الأتراك وكان بطبيعة الحال يتكهن بطعنة الخنجر التي أصابت الكيلاني في ظهره .

● ومن رسالة خاصة بعث بها الى اللواء محمد حسن محمد التهامي من ضباط ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المعروفين ، أنه عندما أسرف الملك فاروق في تحدى الشعب بسلوكياته واعتدائه ، وانبرى رجاله في الجيش يتصدرون للدفة الوطنية التحررية التي ظهرت في أعقاب حرب فلسطين (١٩٤٨) حتى قيام الثورة وأصبح لها رجالها ، وتيسارها الفكرى ، وتحدياتها لما يريده الملك والحكومة من كبت للروح الوطنية والتصدي لها دار حديث ولقاءات مع الفريق عزيز المصرى ، بينى أنا وكمال رفعت وبينه وبين جمال وعبد الحكيم ، وعضو آخر من مجلس قيادة الثورة حيث كانت هذه المجموعة تشكل الخلية الأولى القائمة على تنفيذ برنامج الثورة ومخططاتها واثبات وجودها وقوتها .

وأتفق الجميع - بناء على ايعاء عزيز المصرى لنا - بوجوب التصدى للملك ورجاله بالعنف لترتفع الروح المعنوية للضباط الأحرار ويعلموا أن تنظيمهم قادر على المواجهة وعلى بضعة رجال الملك فى الجيش كما أن مثل هذا العمل سيرهب أعوان الملك ويلزمهم الحذر وقد يجبرهم على التراجع عن المساندة اللا محدودة للملك ورغباته وسطوته .

ومن خلال هذه الصورة القائمة ، صورة التحدى الدموى واصرار كل جانب على انفاذ مخططة ورغباته نبتت فكرة عزيز المصرى فى التصدى للملك وأعوانه بالعنف . وكان - رحمه الله - يقول : ان هؤلاء خونة لمصر ولشعب مصر ولتاريخ مصر وكان دائما يردد لنا لتشيت عزائمنا على المواجهة فيقول : ان الخائن خائف وكذلك كل من اللص والمتهور ، وان اظهار روح الشجاعة فى محل جرى واحد ، كفىل بأن يحدث بهؤلاء الخونة صدمة واقعية لا يمكنهم أمامها الا التراجع .

وكان عزيز المصرى فى عنفوانه هذا ، وخبرته الطويلة فى الكفاح يميل دائما لهذا الفكر ولا يحسب حسابا جديا لرد الفعل الانتقامى احتسابا منه أنهم جميعا جبناء جبلوا على الخضوع لسادتهم .

وفى هذا الجو من التفكير كان امام عبد الناصر ومجموعتنا فكر محدد ، وهو ضرب أقرب المقربين للملك لكى يفقد توازنه ويفقد مخططة للسيطرة ويبعد عنه كل من كان يفكر فى التصدى للحركة الوطنية بوقوفه الى جانب الملك . وكان هناك شخصان : أما الفريق محمد حيدر باشا وهو سنده الأول حتى ذلك التاريخ وأما اللواء حسين سرى عامر

الذى كان فى طريقه لان يحل محل حيدر فى الحظوة والسلطة على الجيش ومعروف ان حيدر باشا قريب لصيق لعبه الحكيم عامر وكان الرجل أيضا فى طريقه للاختفاء . وقد اجمعت الآراء على التصدى لحسين سرى عامر فهو الأوقع والأكثر تأثيرا والأشد وطأة على الملك وجهاز الحكم .

● وأنقل هنا رواية وردت فى كتاب « الرئيس » بقلم « روبرت سان جون » ، لا لشيء الا للإشارة الى مكانة عزيز المصرى أو اللواء العجوز - كما يسميه روبرت سان جون - لدى الضباط الأحرار : فى أحد أيام مارس وصل الى علم عبد الناصر ، عن طريق اشاعة خبر مؤداه أن عميلا نازيا تسلل عبر خطوط الأعداء ووصل فى ليلة ما الى بيت اللواء عزيز المصرى حاملا خططا لرئيس أركان حرب الجيش المطرود ليتعاون مع الألمان ، لم يكن هناك داع للعجلة ، ولكن العميل شرح للمصرى كيف يستطيع ابلاغ رده عندما يصل الى قراره .

وبينما كان اللواء العجوز يناقش العرض ، وصلت اليه رسالة جديدة من النازيين تقترح عليه ارسال طائرة ، ووافق اللواء وأحيط علما بأن الطائرة ستحمل هذه العلامة وهى (ر . أ . ب) وأنها ستصل فى فجر السبت وأنها اذا تسلمت العلامات المميزة الصحيحة من الأرض فأنها ستهبط فى مكان محدد بالقرب من طريق الواحات فيستقلها اللواء بسرعة وهناك يهبط منها خلف صفوف الألمان بعد دقائق قليلة .

وحوالى منتصف الأسبوع تلقى السادات الذى كان من المفروض ان يراقب تنفيذ هذه الخطة أمرا بنقله الى الصحراء الغربية ، وحتى يتجنب تنفيذ الامر ، تصنع بالمرض ولكنه بالغ فيه ، كان مرضه مقنعا لدرجة أنه وضع فى مستشفى عسكرية فى القاهرة تحت الملاحظة .

وفى يوم السبت وقبل الفجر تماما حامت الطائرة تحمل علامات (ر . أ . ب) حول طريق الواحات على ارتفاع منخفض ، ولما لم تستقبل أية علامات مميزة عادت الى قاعدتها ، لم ينس اللواء عزيز المصرى مواعده ولكن عربته تعطلت فى طريقه للموعد .

وبعد عدة أسابيع - روبرت سان جون - حصل ناصر فى العلمين على معلومات أكثر أهمية وهى أن اللواء عزيز المصرى بعد أن وضع فى موقف حرج نتيجة لما حدث قرر الخروج من مصر ، على طائرة مصرية وأن يكون طياراها عاملين فى السلاح الجوى المصرى دربهما البريطانيون ولكنهما أصدقاء للمحور ، كان أحدهما هو عبد المنعم عبد الرؤوف وهو ضابط طيار شاب متهور ، كان صديقا للسادات وعن طريق السادات

أصبح صديقا لناصر وكان عضوا مسجلا في جماعة الإخوان المسلمين وكان يقوم مقام السادات في غيابه كرابطة رئيسية بين ناصر والبنا . وكان الطيار الآخر هو حسين ذو الفقار صبرى ، وهو قائد كتيبة ، حديث السن ، صغير ونحيف ، كان زميل السادات وزكريا محيى الدين فى الكلية وكان فى ذلك الوقت مساعد قائد طائرة الملك فاروق الخاصة وسمع اشاعة فى العلمين بان الملك فاروق علم برغبة المصرى فى اللحاق بالنازيين وأنه هو الذى كلف صبرى بنقله اليهم . . كان الطيار الصغير طيارا كفء ولكنه صدم الطائرة بعامود فتحطمت و . . . » .

وأبادر فأسجل تحفظى على كل ما قاله روبرت سان جون مؤكدا ، أن حرصى على نشره ليس الا محاولة من جانبى لاعطاء صورة للعلاقة بين عزيز المصرى والضباط الأحرار من وجهة نظر كانت غير مصرية .

● وفى مكان آخر من كتاب الرئيس The Boss كتب روبرت جون ، أفرج عن اللواء المصرى ولذلك قام ناصر بزيارته : كان اللواء فى أوائل السبعينات من عمره ولكن متاعب الفترة التى قضها فى السجن زادت كبرا ، ومع ذلك لقي ناصر الشاب ، الرجل العجوز مستاء واثرا ، وكانت له مشاعر قوية عبر عنها دون تحفظ وكانت كراهيته نحو البريطانيين الذين أصبحوا فى الجانب المنتصر بعد الحرب ، أشد مما كانت عليه فى الوقت الذى حاول مساعدة النازيين . . الذين كانوا منتصرين تقريبا (ومن تعبيراته المفضلة التى كان يطلقها عليهم قوله : بأنهم زبد الحثالات) .

ناقش ناصر مع اللواء الفكرة التى ظل يعلنها وهى وجوب تعاون الضباط الأحرار بصورة أوفق مع الإخوان المسلمين .

تساءل المصرى بصوت أجش : الإخوان المسلمون ، الإخوان المسلمون ، هؤلاء ليسوا الا متعصبين أبعد عنهم .

وفى المرة الثانية التى حضر فيها ناصر لمقابلة اللواء نظر اليه المصرى ببطء من شعر رأسه المجعد الى حذائه اللامع وقال له : ان كل ما أعرفه هو أنك قد تكون ضابطا من البوليس السرى تحاول أن توقعنى فى المصيدة لاتهام نفسى . وعندما بدأ ناصر فى الاحتجاج أمسك اللواء بيده وقال له مبتسما : حسنا ، حتى ولو كنت كذلك فانى أحب ان أتحدث معك .

وخلال السنوات السبع التالية ، كان ناصر يجتمع كثيرا باللواء ، وتحدث معه الرجل العجوز فى كثير من الأمور مثل : الحب والشورى

والسياسة : كان ذكيا ومتعمقا في تاريخ الشرق الأوسط ، وفي أغلب الأحيان كان ناصر ينصت اليه لعدة ساعات . . . وبالتدريج أصبح اللواء العجوز راعي الضباط الأحرار ، وكما يقول ناصر : زعيمهم الروحي .

وبعد ان قامت الثورة ظلت العلاقة قائمة بين الأب الروحي وأبنائه الشوار الأحرار . ويروي روبرت سان جون قصة تدل على مدى العلاقة التي كانت تربط بين الضباط الأحرار والأب الروحي وتدل أيضا على استقلالية جمال عبد الناصر والضباط الأحرار .

كان ناصر يتحدث من القاهرة الى مندوبه بالاسكندرية وكان المندوب يقول : قائد الطابورين العسكريين المتجهين الى الاسكندرية ينصح بأن ننتظر حتى الصباح لنبدأ عملياتنا العسكرية كرجال لم يناموا ثلاث ليال ، كما أن بعض دباباته تعطلت في الطريق الصحراوي .

ويقول ناصر : زكريا محيي الدين هو المسئول عن العملية وقراره هو النهائي ، وتقول الاسكندرية أو بمعنى أدق مندوب القيادة بالاسكندرية : اننا نعتقد ان فاروق ذهب الى قصر رأس التين في الطرف الآخر من المدينة حتى يستطيع الهروب من طريق البحر بسهولة أكثر .

ويقول ناصر : لا بد من مهاجمة قصر رأس التين ، وقصر المنتزة غدا . وتقول الاسكندرية : لقد انتهى السادات من اعداد الانذار لرئيس الوزراء على ماهر ليقوم بتسليمه للملك غدا .

ويقول ناصر : بلغ السادات بأن يسلم الانذار الى رئيس الوزراء في وقت مبكر من الصباح بقدر الامكان لتسليمه الى الملك .

وتقول الاسكندرية : جمال سالم لا يوافق على الخطة التي أعدت للغد فهو يرى ألا يسمح لفاروق بالافلات بل يجب ان ينزل عليه أقصى عقاب بأسرع وقت ممكن .

ويسأل ناصر : هل يعتقد بضرورة شنقه . . ؟

وتقول الاسكندرية : نعم . ويصمم السادات على ان تنفذ أوامرك المعدة للغد .

ويقول روبرت سان جون : ان زكريا محيي الدين ظل على الحياد فيما يتعلق بمصير فاروق ، وان محمد نجيب لم يشترك في هذا الخلاف القائم بين السادات من ناحية وبين جمال سالم من ناحية ، حيث يصير جمال سالم على شئق فاروق ، بينما يصير السادات على أن تنفذ الخطة التي وضعت بإشراف عبد الناصر وهو أن يتم الابقاء على حياة فاروق .

ثم يقول روبرت سان جون :

حوالى الساعة السادسة صباحا استيقظ البكباشى ناصر فى موعده المحدد فى القيادة العامة ووصل جمال سالم بالطائرة من الاسكندرية ليناقش معه موت فاروق .. أنصت ناصر له بهدوء وعندما انتهى سالم من كلامه قال ناصر : عندى فكرة سأذهب لأقابل اللواء المصرى ومما يخجلنى ان أوقف الرجل العجوز مبكرا فى الصباح ولكن دعنا نرى ماذا سيقول :

وارتدى ناصر ملابسه بسرعة ، واستقل عربة .

ضم الرجل العجوز (اللواء المصرى) صوته لصوت جمال سالم وقال : ان رأسا مثل رأس فاروق لا تهمنى الا عندما تسقط .. وينبئه ناصر الى أنه قد يستعصى الأمر ، وقف سيل الدماء عندما يبدأ اراققتها . ويرد المصرى : يجب أن تقتل وتقتل وتقتل . يجب ان تطيح برقاب الآلاف لتنظيف البلاد .

وبعد وقت قصير اجتمع خمسة أعضاء من اللجنة فى القيادة العامة وتحدث اليهم جمال سالم حديثا فصيحا . ثم تحدث ناصر برزانة قائلا : اذا شنقنا فاروق فان عامة الشعب فى اليوم التالى ستقتل على الأقل ثلاثمائة من حشيته . وهذا سيؤدى الى أعمال قتل أخرى ولن يكون هناك من سبيل لوقفها .

وتحدث كثيرون غيره ، ثم أخذت الأصوات وكانت الأغلبية فى صف ناصر ..

ولأن الصورة التى رسمها روبرت سان جون الخاصة برحيل فاروق، جميلة وجذابة وممتعة (الصورة فقط) فقد آثرت هنا ان أنقل مجملا لها .

الاسكندرية تقول : اننا على اتصال لاسلكى برجالنا فى كل من القصرين (المنتزة ورأس التين) وبولكى ، وطائرات الميثور ، والفامباير النفائة تطير خلف القصرين وأمامهما وفوقهما تطير قاذفات قنابل من أربعة محركات تحمل ذخيرة من القنابل .

وهناك طائرات هوكر فيوريز المقاتلة على استعداد للضرب فى حالة محاولة الملك الهرب عن طريق الجو ، وقد أطلق النار على رجالنا من برج فى رأس التين ، ورد على النار بالمثل .

أوقف الآن اطلاق النار بين كلا الجانبين ، واستسلم الحرس الملكى وجرح ستة أشخاص .. ذهب اللواء نجيب وأنور السادات الى القصر

الصيفى للحكومة فى بولكى لتقديم الانذار . . وافق فاروق على النزول على العرش بشروط سبعة . ويسأل ناصر ما هى ؟

أولا : ان يتم النزول عن العرش بطريقة تحفظ كرامته .

ناصر : ليس هناك من سبب لئلا يحدث ذلك .

الاسكندرية : وثانيا : ان يسمح له بالذهاب الى نابولى على اليخت الملكى (المحروسة) .

ناصر : هذا اليخت كلف الشعب المصرى قدرا كبيرا من المال ، يستطيع أن يبحر عليه ، ولكن لابد من رجوعه بعد توصيله الى شاطئ نابولى .

الاسكندرية : وثالثا : ان تطلق له المدفعية ٢١ طلقة تحية له .

ناصر : هذه التحية لا مانع منها .

الاسكندرية : ورابعا : أن يحضر نجيب رحيله حتى يضمن سلامته حتى آخر دقيقة .

ناصر : لا مانع .

الاسكندرية : وخامسا : ان يسمح لأنطونيو بوللى الكهربائى السابق فى قصره - وهو الذى عادة ما يصحبه فى مغامراته الليلية - ومحمد حسن، ووصيفته ، بمصاحبته .

ناصر : هذا الطلب مرفوض .

وسادسا : ان يسمح له بأخذ مجموعات الطوابع والعملات معه .

ناصر : هذه الطوابع والعملات تقدر بملايين الجنيهات المصرية وهو اشتراها بأموال الشعب . هذا الطلب مرفوض .

الاسكندرية : رغبته الأخيرة : هى ان تدار ثرواته و ثروات اخواته فى داخل مصر لحسابهم .

ناصر : لا نستطيع أن نعد بذلك .

ويتم احصاء بعدد الحقائق التى أخذها فاروق معه ٢٠٤ حقائق ، بالاضافة الى بعض صناديق الشمبانيا ، والنبيد من المخازن الملكية .

ارتدى فاروق الزى الأبيض لأمير البحر فى الأسطول المصرى ، وودع الناس فى الصالون الكبير فى قصره ، وكان من بينهم أختان له - من أخواته الخمس - مع زوجيهما .

أرسل فاروق ناريمن ، وبناته الثلاثة وابنه الطفل الى اليخت وكذا مربية الطفل الانجليزية وثلاثة حراس البانيين ، ومدرّب كلاب ، وظهر في عملية التوديع علي ماهر رئيس الوزراء والسفير الأمريكي كافر .
وقد تحدثا مع الملك الى أن غادر فاروق القصر عن طريق سلاله
تؤدي الى منصة مرتفعة قليلا ثم ذهب الى المحروسة .

ويسأل ناصر : أين اللواء نجيب ؟ !

الاسكندرية : لقد وجد صعوبة في شق طريقه عبر الجموع المحتشدة ، ولكنه الآن يستقل زورقا صغيرا آخر وفاروق يقف على ظهر المحروسة في انتظاره . . . وعلى ظهر المحروسة الآن اللواء نجيب ومساعداه جمال سالم ، وحسين الشافعي ، والبكباشي أحمد شوقي . . . والآن صافحه الضباط الأحرار وغادروا اليخت .

ويسأل ناصر : ماذا كانت الكلمات الأخيرة لفاروق ؟

الاسكندرية : قال لنجيب : ان ما فعلته بي ، كنت سأفعله بك . ثم قال : ان مهمتك ستكون شاقة ، ليس من السهل حكم مصر . . . تؤدي المدافع تحيتها . . . بدأت المحروسة تتحرك الى البحر .

ناصر : شكرا لله .



هذا . . . وقد رأيت الثورة - فيما بعد - ان تستعين بعزيز على المصري في مهمة خطيرة للغاية فأوفدته سفيرا فوق العادة لمصر الى الاتحاد السوفييتي .

وكانت الثورة منذ انطلاقتها تعلق أهمية خاصة على العلاقة المصرية السوفيتية وضرورة كسر الحصار الذي فرض على مصر فيما يتعلق بشراء أسلحة الجيش من الغرب فقط .

وأستطيع أن أقرر هنا في هذا المدخل - وسوف نعطي لذلك الجانب حقه في الكتاب - ان عزيز على المصري نجح في أداء مهمته الخطيرة نجاحا هائلا . . . لم يكن عزيز على المصري مجرد سفير عادي لدولة ما في دولة ما ، ولكنه كان مبعوثا شخصيا للقيادة السياسية في مصر ، الى دولة عظمى ، يرجى ان تكون دولة صديقة .

وكما كان عزيز المصري موضع ثقة القيادة المصرية ، وموضع احترامها ، فقد كان موضع ثقة القيادة السوفيتية وموضع احترامها أيضا

وقد نجح لكل تلك الأسباب ولغيرها في أداء مهمته المهمة بل الخطيرة للغاية .

تلك هي بعض رؤوس الموضوعات أو بعض الخطوط الرئيسية التي أثرت أن أركز عليها في تلك المقدمة ، أو ما أحرص باستمرار على تسميته بالمدخل الذي آمل أن يكون كشافا ينير الطريق أمام قارئ الكتاب أو دارسه . أو كما أسماه بعض الزملاء الكبار « بفتح الشهية » الذي يسبق أكلة قد تكون خفيفة أو دسمة ، فليس هذا المهم ، وإنما المهم في آرائهم أن يكون فاتح الشهية يحتوى على العديد من الأصناف المقبولة أو المرغوب فيها إذا آثرنا الدقة .

وأحب أن أوضح - والحديث لا يزال عن رؤوس الموضوعات ، أو الخطوط الرئيسية التي اخترتها لتكون مدخلا الى كتابي - أنني في كثير من الأحيان ، أطيل في الحديث عن تلك الرؤوس ، أو تلك الخطوط ، لا رغبة في الإطالة فلست - يعلم الله - من هواتها ، ولا من أنصارها ، وإنما رغبة في أن أعطي القارئ أو الدارس جرعة مركزة شبه متكاملة يمكن أن تكون صورة صادقة للأحداث ، أو للأشخاص الذين سأتناولهم في ذلك الكتاب .

وأحب أيضا أن أوضح ما سبق أن أوضحت أكثر من مرة ، أنني لست مؤرخا فهذا شرف لا أدعيه كما أنني لست مصورا فوتوغرافيا ، أنقل صور الأحداث ، أو الأشخاص كما هي .

ولست في نفس الوقت كاتب مذكرات أو ذكريات لما عشته أو لما عايشته أو اشتركت فيه من أحداث .

ولست بطبيعة الحال راوية ، ينقل ما سنع من شخصيات كبيرة أو صغيرة ، كان لها دورها الهام أو المتواضع في مسيرة التاريخ .

كما أنني لست كاتب قصة أو رواية طويلة أو قصيرة ، أضفى عليها من خيالي ما أريد ، عندما أريد . . .

لست والله واحدا من كل أولئك ، وإنما أنا - في كتاباتي تلك التي أعتقد أنها مستحدثة الى حد ما - وقانا الله شر الغرور - مجرد مواطن عشق الكتابة وقبلها عشق الوطن والمواطنين ووجد أن من صميم واجباته تجاه وطنه ومواطنيه أن يقدم لهم ما يرى أنهم بحاجة الى تقديمه فقد يستفيدون منه .

ولذلك لا أولى أهمية كبيرة للأفراد وحتى عندما يكون موضوع الكتاب شخصية تاريخية معروفة أو غير معروفة ، ففي أحيان كثيرة توجد شخصيات تاريخية ولكن غير معروفة ، كما يوجد شخصيات كثيرة معروفة ومعروفة جدا ، ولكن ليس لها في الحقيقة وواقع الأمر من ثقل أو أهمية تاريخية .. لا أكتفى بتقديم الشخصية مجردة عما حولها .. وإنما أحرص على تقديم العصر الذي ولدت وعاشت ونمت فيه ، والناس الذين ولدوا وعاشوا ونموا مع تلك الشخصية .. الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفنية بل والانسانية ، الى جانب الظروف السياسية التي عاشت فيها تلك الشخصية .

أى أننى أنتهز فرصة الكتابة عن شخصية تاريخية معروفة أو غير معروفة لأقدم مرحلة زمنية محددة بكل إيجابياتها وسلبياتها .. بكل مفاخرها ومثالبها ، بكل ما بها من نضج أو ضحالة ، أقدمها كما لو أننى عشتها ، ليعيش فيها القارئ كما عشتها أيضا .

وقد لا يعلم القارئ أن دراسة تلك المرحلة ، ومعظم أحداثها ، أو التغلغل فيها ، وتفهم الظروف المحيطة بها ، قد يأخذ منى ذلك الجهد أضعاف أضعاف ما كان يمكن أن أبذله للكتابة عن فرد ما .

فما أسهل أن تكتب عن فرد : متى ولد ، وفي أية بيئة ولد ، والظروف التي بدأ فيها حياته ، والمعوقات التي اعترضته ، ثم تقديم أعماله ، وفهم رسالته ، وتحليل تلك الرسالة ، ومحاولة اثبات ما فقد منها ، وما لم يفقد ، بعكس الكتابة عن حركة مجتمع .. مسيرة دولة .. أو شعب ، وما يتعلق بتلك الحركة أو تلك المسيرة من معوقات ، ومشبطات ومحاولات لدفعها الى اتجاهات أخرى .

فمن أراد أن يقرأ ما أكتبه فى هذه الرحلة بالذات على أنه سير وتراجم لبعض الشخصيات على النحو المألوف ، فليكن على ثقة مطلقة - منذ البداية - أننى لن أقدم له كل ما يريد ، أو بعض ما يريد .

ومن أراد أن يقرأ ما أكتبه فى هذه المرحلة بالذات ، على أنها كتابة تاريخية محضة يمكن أن تضم الى الدراسات التاريخية المحضة ، فانى أقول له ومن الآن ، أنه لن يجد بغيته فيما أكتبه .

لقد اخترت مثلا - عزيز على المصرى - لأكتب عنه وعن صحبه ، وعن عصره كتابا مستقلا .

وقد عارضنى كثير من أنصار عزيز على المصرى فى اختيارى فوجهة نظرهم - ولها احترامها - ان شخصية عزيز على المصرى وان كانت

اسطورية فى بداياتها الا أنها اتسمت بالديماجوجية فى بعض الأحيان ،
لم يكن للرجل فكره الثابت الواضح المستقر الذى تستطيع - ككاتب -
ان تدرسه .. كل ما يمكن - هكذا قال الكثيرون أنصار عزيز على المصرى -
أن تقوله عن عزيز على المصرى أنه كان ثورة مستمرة ، ولكنها متنقلة ،
ثورة نشاط تشع على من حولها روح الثورة ، ولكنك عندما تتعمق فى
مفهوم هذه الثورة ، فى أهدافها ، فى مضامينها ، لا تجد الا خطوطا
رئيسية كبيرة ، طويلة ، عريضة .

وقال هؤلاء أكثر من ذلك ولكننى أصرت على الكتابة عن عزيز
لاعتبارات كثيرة .. اننى لا أرى كل ما يروونه ، واذا كنت أرى بعض
ما يروونه فإننى فى كثير من الأحيان - وأنا بطبعى قنوع للغاية - وفى
وقت انحسر فيه أو كاد روح التضحية العامة ، أقنع من الزعيم أو من
القائد بأن يكون شمعة تضىء ما حوله .. بأن يكون داعية لمثل ، ليس
مهما ان تتحقق فى عهده أو لا تتحقق ، وإنما المهم - فى نظرى - أن
هذا الداعية مؤمن بما يدعو اليه ، ليس ممثلاً لدور الداعية .. ليس
متاجراً بدعوة . والمقياس العملى الوحيد الذى اعتمد عليه - وقد يكون
مقياساً علمياً وقد لا يكون - ان هذا الزعيم ، هذا الداعية لم يستفد من
زعامته ، أو دعوته ، وأن ظل طيلة حياته مخلصاً لها ، يفيدها ولا يستفيد
منها .

ثم ان حياة عزيز على المصرى حياة غريضة تشمل مرحلة هامة
وخطيرة من مراحل حياتنا ، لم تجد بعد اهتماماً منا فى دراستها ، بل لم
نحاول أبداً الاقتراب منها ، لأننا نخشاهما باستمرار . لقد انطبع فى
وجداننا بسبب تأثيرات وإيحاءات كثيرة ، لم نكلف أنفسنا حتى عناء
دراستها . إنها فترة سيئة وحسب حتى أننا لم نحاول ان نعرف هل هى
سيئة حقاً ؟ بل لم نحاول أن نعرف لماذا هى سيئة ؟

لقد وقر فى أذهاننا منذ بدايات الاحتلال البريطانى ان عهد
الاستعمار التركى كان أسوأ وأشدّ عهدود الاستعمار ، وان الخلافة
العثمانية كانت أسوأ نظام مر بأية دولة من الدول . وقد وجدنا - بكل
أسف - من قارن بين الحكم العثمانى لمصر أو الاحتلال التركى لمصر ،
وبين الاحتلال البريطانى لمصر وخرج من مقارنته تلك ان الاحتلال البريطانى
أهون وألين .. و .. و ..

وقد ساهم عدد كبير من الأخوة العرب وخاصة من سورية ولبنان
والعراق فى مستوى سمعة الخلافة العثمانية ، وفى محاولة اعطاء صورة
وردية للاحتلال البريطانى ، ذلك لأنهم كانوا يعيشون فى ظروف قاسية

فى أقطارهم العربية الخاضعة للاحتلال العثمانى الرهيب ثم هربوا منه الى مصر ، لينعموا بالاحتلال البريطانى وليكونوا أبرز دعاة وأنصاره .

وفاتهم أنه اذا كانت أقطارهم تقاسى الأمرين من الاحتلال العثمانى الرهيب ، فان مصر منذ بداية عهد محمد على قد شفيت الى حد كبير من وباء الاحتلال العثمانى الرهيب ، وقد سارت فى طريق الاستقلال الداخلى بل والخارجى خطوات هامة بعكس أقطارهم التى لا تزال تحت وطأة ذلك الاحتلال .

وفى عام ١٨٨٢ كانت مصر قد شفيت تماما من كل أمراض الاحتلال العثمانى ، قد بليت باحتلال أقسى وأمر وأعنف ويكفى أنه من دولة لا تعتنق الاسلام ، هو الاحتلال البريطانى الذى أعاد البلاد الى الوراء مئات السنوات ، والذى فعل فى بضعة أعوام ما لم يفعله الاحتلال العثمانى فى مئات السنين .

انقسم العالم الاسلامى بدءا من ثمانينات القرن التاسع عشر فيما يتعلق بالموقف من دولة الخلافة العثمانية الى ثلاثة أقسام :

— قسم يقيم تحت وطأة احتلال تلك الدولة ويلقى منها أعتى صنوف الاضطهاد والارهاب وخاصة فى مرحلة احتضارها ويمثل هذا القسم سوريا ولبنان والعراق وفلسطين .

— وقسم لا يرتبط بدولة الخلافة العثمانية الا برباط روحى باعتبارها دولة الخلافة ، وبرباط آخر هو حكم دولة الخلافة لبلدان ذلك القسم ، كما هو الحال بالنسبة للجزائر وتونس ، ثم أضيفت اليهما — فيما بعد ليبيا .

— وقسم ثالث تمثله مصر ، لا يزال مرتبطا بنوع من السيادة الاسمية لم يستطع الاحتلال البريطانى — الذى ابتليت به مصر فى عام ١٨٨٢ — قطع تلك العلاقة الا فى عام ١٩١٤ عندما أعلن ذلك الاحتلال الحماية على مصر .

واختلفت وجهات النظر ، نظر كل تلك الأقطار ، الى دولة الخلافة العثمانية .

القسم الأول يرى أنها لا تزال دولة محتلة ، ينبغى العمل على التحرر من أسارها المفروض .

والقسم الثانى يعتبرها — لقسوة ما يعانى من استعمار فرنسى أو ايطالى لا مثيل له فى تاريخ الاستعمار — أملا ، لأنها دولة مسلمة ترفع راية الخلافة الاسلامية . .

أما القسم الثالث الذى تمثله مصر ، فقد كان يرى ان مصلحته فى عدم المحاربة فى جبهتين . . جبهة دولة الخلافة . . وجبهة الاحتلال البريطانى وان مصلحته أيضا - فى أن يحارب احتلالا قائما بدلا من أن يحارب احتلالا اسميا لا يهش ولا ينش كما يقولون !! ثم ان تلك المرحلة التى يجب أن نعيد النظر فيها ، كانت من أهم مراحل بناء القومية العربية ، وعزيز على المصرى ، يرتبط تاريخه - وخاصة منذ أن تخرج فى الكلية العسكرية التركية حتى عام ١٩١٤ - مرتبط بتاريخ الدولة العلية ، دولة الخلافة العثمانية ثم انه هو أيضا ، من أبرز دعاة القومية العربية ، بل من أبرز المحاربين فى صفوفها ، وهذه الفترة من عمر عزيز على المصرى ومن عمر الأمة العربية لم تقدم ولم تدرس من وجهة النظر الجديدة تلك كما ينبغى ، وتلك زاوية من الزوايا التى دفعتنى الى الكتابة عن عزيز على المصرى وعصره وصحبه .

وانها لفرصة جديدة أن نعيد فيها النظر فى علاقتنا - كمصر - بدولة الخلافة العثمانية على أساس علمى ثابت يتسم بالعدالة المطلقة ، دون تحيز لهذا الطرف أو ذاك . وعندما نعيد النظر بموضوعية فان مسلمات كثيرة « عشعشت » فى أفكارنا ووجداننا ، يمكن ان تتلاشى !

وربما كان فى مقدمة الأسباب التى حرضتني على الكتابة عن عزيز المصرى وصحبه وعصره ، أننى وجدت لها فرصة طيبة للنظر الى ما سسمى بالثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى . . لقد كتب عن هذه الثورة عشرات من الكتب ، كتبها اخوة شاركوا فى تلك الثورة ، أو كانوا على مقربة من المشاركين فى تلك الثورة . كما كتبها بريطانيون كثيرون حاولوا وضع بصمة بريطانية على تلك الثورة . وبكل أسف فاننا لم نقرأ بعد ، ولعلنا نقرأ فيما بعد ، وجهات نظر موضوعية ، بعيدة عن الذاتية فى تلك الثورة .

على أننى قد طرحت فيما كتبت فى هذا الكتاب وجهة نظر خاصة أرجو ان أكون قد وفقت فيها وهى ليست أكثر من وجهة نظر مصرى عربى يحاول دائما وأبدا - قدر استطاعته - ان يعيد الأمور الى أصولها ، وأن يبحث المشاكل من جذورها وان يخرج على الأحكام الموضوعية فى صورة قوالب ثابتة غير متحركة متى وجد أسبابا معقولة للخروج على تلك القوالب الأحكام ، أو الأحكام القوالب .

وهى بالقطع وجهة نظر تختلف عن وجهات نظر بعض الاخوة الذين شاركوا فى تلك الثورة من الاخوة العراقيين أو السوريين أو اللبنانيين

أو الذين كانوا يشـاركـون في حكم الحجاز وقتذاك : لقد قامت تلك الثورة بدعم انجليزى ضد دولة الخلافة العثمانية فى وقت كانت مصر كلها تقاوم الاحتلال الانجليزى وترنو بابصارها الى يوم تنتصر فيه دولة الخلافة العثمانية . وأحب هنا ان أوضح فكرة أرى أنها هامة وضرورية للغاية ، وهى أن تأييد شعبنا للأتراك وللألمان فى الحرب العالمية الأولى ، وتأييد شعبنا للألمان فى الحرب العالمية الثانية ، لم يكن أبدا من منطلق معاداته للديمقراطيات أو مناصرته للدكتاتوريات ، لم يكن أبدا عن عمالة لهذه الدولة أو تلك ، وإنما كان من منطلق كراهيته للاحتلال البريطانى الجاثم فوق أرضه منذ عام ١٨٨٢ . وإذا كان هذا هو رأينا فى تأييدنا للأتراك وللألمان ، فإننا لم نحجر أبدا على رأى لمن وقف الى جانب الانجليز بصفة خاصة والحلفاء بصفة عامة من بنى جلدتنا ، لم نتهمهم بالعمالة للانجليز أو الحلفاء ، وإنما نعتبر الأمر ، مجرد اختلاف فى وجهات النظر فى تقييم الأمور .

وقد قلت - أكثر من مرة - : لقد استولى الحلفاء على كل شىء فى ألمانيا أثر هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية . . . استولوا فجأة على كل الوثائق والأوراق التى كانت فى حوزة الحكومتين الألمانيةين . . . حكومة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وحكومة ما بعد الحرب العالمية الثانية ودرس الحلفاء هذه الوثائق والأوراق بدقة بالغة واستغرقت عملية الدراسة تلك سنوات وسنوات .

ويسعدنى - وهذا ما أقرره اليوم - أنهم - الحلفاء - لم يجدوا مصريا واحدا تعامل مع الأتراك أو الألمان فى خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كعميل ! كل المعاملات والمقابلات كانت على أساس سياسى وطنى قومى لا دخل للمادة فيه على الإطلاق .

ولذلك كانت تلك المعاملات والمقابلات التى ثبت وجودها تصطدم فى كثير من الأحوال بالعديد من العقبات ، كإصرار هؤلاء المتعاملين من المصريين على ضرورة الاعلان المسبق لاستقلال مصر استقلالاً تاماً من قبل الأتراك ومن قبل الألمان .

وأذكر أننى قضيت أياما عديدة فى وزارة الخارجية الألمانية عام ١٩٧٦ فى إدارة هائلة تتميز بالدقة والنظام اسمها « الأرشيف الألمانى » وبها قسم هام وخطير عن العلاقات الخارجية الألمانية وعلاقات ألمانيا بالخارج ، دولا ، وأحزابا ، وأفرادا فى الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٤٥ ولم أجد اسما لمصرى واحد تعامل مع ألمانيا خلال هذه الفترة كلها ، كعميل !

وهذه الرؤية الجديدة القديمة سوف تلغى أيضا أحكاما كثيرة
أصدرها البعض منا على بعض الشخصيات - منا أيضا - متهمينها بالعمالة
على غير أساس وبدون أى سند تاريخى أو قانونى .

وجزه كبير من نشاط عزيز على المصرى سواء فى الحرب العالمية
الأولى أو فى الحرب العالمية الثانية يخضع للتقييم الجديد .

ولست أذيع سرا اذا ما قلت : ان من بين الأسباب التى دعتنى الى
التعجيل بنشر تلك الدراسة عن عزيز على المصرى وصحبه وعصره أننى
وجدت - من قبل البعض - تحاملا على عزيز على المصرى بعد أن ذهب
لللقاء ربه .

وقد بذلت قصارى جهدى لدى هؤلاء المتحاملين أو لدى كبيرهم
لاقناعه بعدم عدالة تلك الشكوك التى يطرحها ويطرحها تبعا لطرحه ،
بعض أفراد يعدون على جزء من أصابع اليد الواحدة .

وقد نجحت فى مسعى لسنوات عديدة ثم فوجئت فى عام ١٩٨٧
بطرح تلك الشكوك فى بعض الصحف التى تصدر فى بعض العواصم
الأوربية باللغة العربية ، الأمر الذى فرض على تنفيذ تلك الادعاءات بالحق،
والعدل والمنطق ، وقبلها وبعدها أحداث التاريخ التى لا تكذب ، ولا
تنافق ، ولا تجامل .

من بين تلك الشكوك - مثلا - كيف يمكن لصحيفة التيمس
البريطانية - وهى الصحيفة الاستعمارية العجوز - ان تطالب بالافراج
عن عزيز على المصرى ، بعد ان اعتقلته السلطات التركية وشرعت فى
محاكمته .

كيف يمكن - مثلا - لرجال الاحتلال البريطانى فى مصر ، ولوزارة
الخارجية البريطانية أن تضغط على الحكومة التركية فى استانبول لكى
تفرج عن عزيز على المصرى ؟ ألا يمكن أن تعتبر كل ذلك من المؤشرات
- هذا من وجهة نظر المشككين والمتحاملين - التى تؤكد ان عزيز على
المصرى انجليزى النزعة ، ان لم يكن عميلا للبريطانيين ؟

ثم ماذا يعنى مشاركة عزيز على المصرى فيما سمي بالثورة العربية
على الدولة العثمانية ، باقتراح من الجانب البريطانى وبرعايته منه . .
ألا يعنى ذلك ، أنه بريطانى النزعة ان لم يكن عميلا للبريطانيين ؟

ثم ماذا يعنى تعيين عزيز على المصرى مديرا لمدرسة البوليس والادارة
ومفتشا عاما للجيش المصرى ورئيسا لأركان حرب ذلك الجيش ؟

وماذا يعنى ما قيل من ان سيف الله يسرى - وهو الرجل الانجليزى
المنزعة فى رأى كبير هؤلاء المشككين - سعى لأجل ايقاف محاكمة عزيز على
المصرى ، وهى رواية سماعية نقلا عن ، عن ، عن ، عن الى آخر تلك
العنعنات - ألا يعنى ذلك الاقتراح من سيف الله يسرى ان عزيز على المصرى
بريطانى المنزعة ان لم يكن عميلا للبريطانيين ؟

وبحمل رأى الذى فصلته فى ثنايا هذا الكتاب ، ان الأمور لو كانت
تقاس بهذه البساطة ولا أقول السذاجة فى التفكير ، لما سلم أحد من
الشكوك والافتراءات التى يمكن ان تطرح بسهولة ويسر وبدون تعمق على
الاطلاق ، اتهام مواطن فى وطنيته - وأى مواطن - من الأمور الخطيرة ،
والخطيرة التى لا يجب أبدا أن تلقى هكذا ، لمجرد خواطر جالت فى بال
مواطن قد تكون رؤياه الشخصية ، وقد تكون له انطباعاته النفسية وراء
تلك الخواطر .

ثم ان مثل هذه الآراء الخطيرة والخطرة لا يجب أبدا أن تطلق
اعتباطا وبدون دراسة كموضوع طلب العفو عن عزيز على المصرى ،
يجب أولا أن يدرس من يرغب فى الحديث عن ذلك الموضوع ، العلاقة
بين بريطانيا وبين تركيا ، الجو الذى كان يسيطر على مصر
المحكومة بالحرب الانجليزية وقت محاكمة عزيز على المصرى ، الأهداف
القريبة والبعيدة لذلك الاحتلال فى مصر ، ثم يجب أن يدرس من يرغب
فى الحديث فى ذلك الموضوع الظروف الخاصة بعزيز على المصرى ،
ومناشدة شقيقته الكبرى التى علمته ورعته بعد وفاة والديه ، السلطات
البريطانية فى مصر وفى بريطانيا - وهى تعلم أهميتها لدى السلطات
التركية - التوسط لدى الباب العالى لانقاذ شقيقها .

ثم يجب أن يبحث الباحث موقف بريطانيا وموقف السلطات البريطانية
فى مصر من الحركة التركية الايطالية . وكان عدم مشاركة عزيز على
المصرى فيها حتى النهاية وانسحابه منها - على ما روت السلطات العثمانية
- من الأسباب التى أدت الى محاكمة عزيز على المصرى : موقف بريطانيا
والسلطات البريطانية فى مصر من هذه الحرب من العوامل التى يجب
أن تدرس جيدا ، اجماع الشعب المصرى والشعب العربى من أقصى المشرق
الى أقصى المغرب على اعتبار قضية عزيز على المصرى قضية قومية ، وعلى
أن الافراج عنه مطلب شعبى جماهيرى لا للمصريين جميعا وحسب وانما
للعرب كلهم .

هذا الاجماع قد يكون من بين الأسباب التى دفعت السلطات
البريطانية للسعى - مجرد السعى - للافراج عن عزيز على المصرى .

وان البعثة العسكرية لم تتعاون معه وأنه حصر من مباشرة اختصاصاته وأنهم - بعد الفشل في استقطابه - أحالوه الى المعاش في المرة الأولى ، ثم أحالوه الى سلاح الحدود في المرة الثانية .

ولو كان عزيز على المصرى من ذوى الميول الانجليزية لظل فى منصبه كمفتش عام أو كرئيس لأركان حرب الجيش المصرى ، ثم لترقى الى ما هو أعلى من هذين المنصبين .

وموضوع ايقاف محاكمة عزيز المصرى لا يجب أبدا أن يعالج بمثل هذه السطحية .

فالإيقاف لم يكن نتيجة لوساطة سيف الله يسرى باشا على الإطلاق، وإنما كان نتيجة لان عزيز على المصرى هدد بتحويل المحاكمة الى محاكمة للاحتلال البريطانى وللتدخل البريطانى فى شئون مصر .

كما أنه هدد بإذاعة أسرار خطيرة كان إذاعتها وقت الحرب يمكن أن يلحق الضرر الكبير بمركز بريطانيا فى مصر .

ثم ان بريطانيا وجدت ان استمرار محاكمة عزيز المصرى سوف يجعل منه بطلا أسطوريا فقد كان مستفيدا على المستوى الشعبى من كل جلسة .

وقد استغل محاموه - وهم خير محامى مصر - المحاكمة استغلالا رائعا لفضح الاحتلال البريطانى .

وللتأكيد على أن بعض القوانين العسكرية التى يحكم بها الجيش ويحكم بمقتضاها عزيز المصرى قوانين باطلة بطلانا مطلقا .

ولو جرى التركيز على بطلان هذه القوانين لأصيب النظام داخل القوات المسلحة المصرية بتصددع شديد .

هذا بالإضافة الى أن إيقاف المحاكمة قد تم لارضاء شباب ضباط الجيش المصرى الذين كانوا يعتبرون عزيز على المصرى أبوهم الروحى ، وقد كان الاحتلال البريطانى فى تلك الفترة فى أمس الحاجة لارضاء شباب ضباط الجيش المصرى ، أو على الأقل العمل على تخفيف سخطهم .

ومذكرات لورد كيلرن - سير مايلز لاميسون - السفير البريطانى فى مصر ووثائق وزارة الخارجية البريطانية تؤكد ان إيقاف محاكمة عزيز على المصرى تم تمهيدا للافراج عنه هو وزميليه ، كان الهدف منها محاولة استرضاء الجماهير المصرية وشباب ضباط الجيش المصرى فى المقدمة .

وكانت ثورة الجماهير المصرية وشباب ضباط الجيش المصرى بعد
اقالة وزارة على ماهر باشا ، ومبالغة كل من وزارتى حسن صبرى باشا
وحسين سرى باشا فى السير فى الفلك البريطانى قد وصلت الى القمة
التي جعلت الانفجار متوقعا بين لحظة وأخرى .

ولا ينبغي لى فى النهاية - نهاية هذه البداية - الا أن أعتذر اذا كنت
قد أطلت ، الا أن أشكر كل من سبقونى فى الكتابة عن عزيز على المصرى
وصحبه فقد استعنت بكتابتهم الى حد كبير . وأخص بالذكر الأستاذين :
محمد صبيح ، والدكتور / محمد عبد الرحمن فرج ، فقد كانت دراسة كل
منهما عن عزيز المصرى هامة للغاية . . . وكانت لى - بالذات - خير عون ،
وكذلك دراسات أساتذة كثيرين وان لم تكن مستقلة عن عزيز على المصرى ،
الا أنها أضاءت أمامى الطريق وعوضتنى عما كنت أشعر به من نقص لعدم
متابعتى - بصفة شخصية - كل مراحل حياة عزيز المصرى .

وأخيرا ، وليس آخرا كما يقولون ، استسمح القارىء الكريم فى
ان يغفر لى أى خطأ أكون وقعت فيه ، أو فى أى تقصير قمت به .

فما أردت - ويعلم الله - الا تقديم كتاب وطنى ، قومى أتمنى أن
يساهم فى اعطاء صورة حقيقية لصفحات رائعة من تاريخنا الوطنى
القومى . . . وان يكون ذخيرة لأبناء امتنا العربية والاسلامية .

وفيما بعد الظروف التى نشأ وترعرع فيها عزيز على المصرى وقبلها
لأبد من كلمة عن العلاقات المصرية العثمانية وهى ذات دلالة هامة فى
السنوات الأولى من حياة عزيز على المصرى .

مجلس شورای عالی قوه قضائیه
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد

کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد

کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد

کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد

کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد
کتابخانه و مرکز اسناد

الباب الأول

الفصل الأول

- وجهة نظر جديدة فى العلاقات المصرية العثمانية
- فى بداية نهاية الامبراطورية العثمانية ولد . وتربى ، عبد العزيز على زكى (المصرى)

تحديد العلاقة بين دولة الخلافة العثمانية ومقرها القسطنطينية وبين الدولة المصرية ، وخاصة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، والثمانية عشر عاما الأولى من القرن العشرين : هذا التحديد ضرورى وهام لكل من يدرس ، أو يحاول - مثلى - ان يدرس التاريخ المصرى على حقيقته .

ومن وجهة نظر جديدة تختلف عن وجهات النظر القديمة التى ورثناها - وكانت عملية التوريث تلك لأسباب فوق ارادتنا - دون أن نقوم بتحصيها ، وان نبحث جميع جوانبها وسلبياتها وإيجابياتها .

وعندما أقول أن عملية التحديد تلك ضرورية وهامة فلدى الأسباب الضرورية التى تدعونى الى المطالبة بعملية التحديد تلك ، بل والبده بمحاولة جديدة فيها فان كثيرا كتبوا عن تلك الفترة ، مؤرخون ، أو غير مؤرخين ، حزبين ، أو غير حزبين ، محترفون كانوا أم هواة ، كانوا يخطئون عندما لا يتعمقون فى تأصيل تلك العلاقة من الزوايا الرسمية والشعبية : انهم - مثلا - يسيئون الظن بكل من له علاقة طيبة بدولة الخلافة ، أو كان من الداعين لها ، بل المدافعين عنها ، ناسين أو متناسين أن « مصر الدولة » - من الناحية الرسمية البحتة - كانت ترتبط بروابط قانونية ، دولية بدولة الخلافة .

ورغم ابتلاء مصر بالاحتلال البريطانى فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ ووجود جيش احتلال بريطانى كبير يجثم فوق صدور البلاد ، وفى كثير من نواحي البلاد ، ورغم أن السلطة كلها كانت فى أيدي المعتمد البريطانى ، وقشور منها هى التى يمنحها للخديو أو للحكومة المصرية . . رغم كل ذلك فان مصر كانت تدفع الجزية لدولة الخلافة .

وكانت مصر - من الناحية الرسمية أيضا - لا تزال معتبرة جزءا من دولة الخلافة الاسلامية لأن السيادة العثمانية لا زالت قائمة من ناحية القانون الدولي . وكان الدعاء للسلطان في صلاة كل جمعة ينطلق من كل مساجد مصر . ولم تستطع إنجلترا حتى بعد ان أعلنت حمايتها على مصر في ديسمبر ١٩١٤ أن تحول دون القيام بالدعاء للسلطان .

كل ما فعلته إنجلترا بجيشها ومعتمدها وكل سلطاتها ، أن تغير الدعاء للسلطان الذي يخوض حربا ضارية ضد بريطانيا والحلفاء ، تغير من الدعاء له بالنصر ، الى الدعاء له بالتوفيق والسداد . ثم ان غموض هذه العلاقة ، ومحاولة الهرب منها باستمرار من قبل الكثيرين لا تفيد البحث العلمي في قليل أو في كثير ، بل تلحق به وبالدارسين أبلغ الضرر .

وقد لاحظ كثير من أعضاء ملتقى الفكر الاسلامي الذين كانوا يجتمعون كل عام بالجزائر - وأتيح لي أن أحضر بعض تلك اللقاءات ابتداء من صيف عام ١٩٧٣ - ان ظلما بينا وقع بدولة الخلافة العثمانية ، وقد اتخذ المؤتمرون - في أكثر من دورة - توصيات بضرورة مراجعة الموقف من دولة الخلافة - الموقف التاريخي بطبيعة الحال - والنظر اليه من زاوية منطقية بدلا من التماذي في ذكر السلبيات ، دون أية إشارة الى الايجابيات .

لقد وقر في ذهن الكثيرين ان دولة الخلافة الاسلامية ، كانت دولة الشر على طول الخط ، بينما الحقيقة تقول ، أنه كان الى جانب شرور تلك الدولة أعمال طيبات كثيرة فطن الى بعضها - غمليا - المسلمون ، بعد ان ذلت دولة الخلافة ، ولم يعد للمسلمين راية واحدة يستترون خلفها ، الأمر الذي أدى الى تفرق المسلمين ، وضياع دولهم ، ونفوذهم ، وعدم اتفاق كلمتهم .

وكنيت من أوائل الذين أيدوا فكرة مراجعة الموقف التاريخي من دولة الخلافة العثمانية ، خاصة وأن الدولة قد انتهت ، ولم يعد لها من نفوذ على الإطلاق ، بل لم يعد لها من دعاة أو مرعدين أو حتى أنصار .

وكلمة الحق عن مراحل تاريخية مضت ، ضرورة لانصاف الراحلين .

كما أنها ضرورة أيضا لمن هم على قيد الحياة الذين يجب أن تقدم اليهم الوقائع التاريخية بحيدة وانصاف وعدالة . هذا بالإضافة الى عامل جوهرى هام ، يدعونا في هذا الكتاب ، الى محاولة تحديد تلك العلاقة .

ذلك ان الكتاب عن عزيز على المصرى وصحبه وعصره ، والسنوات الأولى المثمرة للغاية فى حياة عزيز على المصرى قضائها ضابطا فى الجيش العثمانى ، والعديد من المعارك التاريخية البطولية التى خاضها عزيز على المصرى خاضها وهو ضمن قيادات القوات المسلحة التركية .

ثم ان عزيز على المصرى كان - وخاصة فى مراحل حياته الأولى - متأثرا الى حد كبير بالعلاقة العثمانية المصرية ، فقد ولد فى مصر ، وتربى وتعلم سنواته الأولى فى مصر ، ثم انتقل كما ينتقل أى مواطن عادى داخل دولته الى العاصمة ليدرس العسكرية فى مدارسها .

وعندما رغبت دولة الخلافة العثمانية عن القتال فى برقة وطرابلس ضد الاحتلال الايطالى لاعتبارات خاصة بها . . . وأباحت لقوادها الكبار حرية الانتقال الى برقة وطرابلس للقتال على رأس جنود غير نظاميين ، كانت نقطة الانطلاق الأولى لعزيز على المصرى من مصر ، وكانت غالبية قواته من مصر ، وكل سلاحها من مصر ، وعندما عاد عزيز على المصرى من جبهة القتال عاد الى مصر .

وعندما قامت حكومة القسطنطينية بمحاكمته والحكم عليه بالإعدام ، كانت مصر كلها ، بعلمائها ، وزعمائها ، وأحزابها ، وصحافتها ، هى التى حملت العبء الأكبر فى الدفاع عن عزيز على المصرى وإجبار الحكومة التركية على العفو عنه وإعادته الى مصر .

وذلك يعنى ان الكلام عن جهاد عزيز على المصرى وخاصة فى مراحل حياته الأولى دون الحديث عن العلاقة التى تربط مصر بدولة الخلافة العثمانية ، بل دون الحديث عن دولة الخلافة ذاتها ، انما هو كلام مبتور .

ولذلك كان أول ما فكرت فيه وأنا أكتب الفصل الأول من فصول هذا الكتاب ان أكتب - وبإيجاز شديد حتى لا يتحول هذا الفصل كما تحول الفصل الذى سبقه الى ما يشبه كتابا مستقلا قائما بذاته - عن العلاقة الرسمية والشعبية بين مصر وتركيا .

وان أكتب - وبإيجاز أشد - عما كانت عليه دولة الخلافة العثمانية بعد أن تحولت من دولة عظمى الى رجل أوروبا المريض - كما أسماها أحد قياصرة روسيا - الذين كانوا يرنون دائما الى الدردنيل وكانت تركيا تقف دون تحقيق أحلامهم .

وقد أعجبتنى للغاية كلمات للرئيس جمال عبد الناصر - طيب الله ثراه - قدم بها كتابا من كتب « اخترنا لك » شارك فى اعداده الأساتذة

سعيد العريان ، أمين شياكر ، محمد مصطفى عطا ، عن «تركيا والسياسة
العربية من خلفاء آل عثمان الى خلفاء أتاتورك» .

قال عبد الناصر :

مهما يكن الأمر بيننا وبين تركيا في الماضي أو في الحاضر فهي منا
ونحن منها .

كان أبونا وأبوها أخوين في التاريخ ، تشاركنا في سراء الحياة
وضرائها ، وتقلبنا معا في نعمائها وفي بؤسها ، وجاربا جنبا الى جنب في
ميدان واحد قرونا عدة لنصرة المثل العليا .

وحين تكالبت قوى البغى والعدوان لتزحزحنا عن مكاننا في التاريخ
كانت تركيا هي الهدف الأول لكل رام من أهل البغى والعدوان .

وكننا نحن من ورائها . . . وطننا ووطنها قطعتان من هذا الشرق
العربي فهي دولة من آسيا وان كان وجهها لأوروبا .

لغتنا ولغتها لفظان في قاموس مشترك فهي كلام من كلامنا وان كتبت
باللاتينية .

وقرآننا وقرآنها واحد نزل به الوحي الأمين على محمد في مكة
والمدينة وفسره مفسره في بغداد والشام ومصر .

وكتبه كاتبه بقلم النسخ في استنبول .

وما زال يتلوه بلساننا أو بلسان غير لساننا قراء مسلمون في أطناء
وفي أنقرة وفي ديار بكر وفي أزمير .

وماضيها وماضيها فصلان في كتاب واحد في تاريخ العرب والاسلام ،
بدأ ، وبدأنا معه في بخارى وسمرقند وسائرنا الى بغداد والموصل .

وأوى وأوينا جواره في سهول الأناضول .

وتفيا ظل أسوار القسطنطينية .

وتفينا معه ظلها ضيوفا على أبي أيوب .

ويوم وطئت أقدام الترك أرض أوروبا لتقيم امبراطورية عثمانية
على أنقاض امبراطورية قسطنطين كان شعار المحاربين من الترك والعرب
يومئذ واحد على كل لسان هو « الله أكبر » :

يهتف به المصلون في « أياصوفيا » فيتردد صدهاء على مآذن المسجد
الأموي بدمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع الزيتونة في القيروان ،
ومساجد أخرى في بغداد ، والكوفة ، وصنعاء ، وفي غرناطة ، وفاس ،
وعلى شاطئ المحيط الأطلسي .

ثم كانت محنتنا الغربية ومحنة تركيا على يد عدو واحد نظر إلينا
نظرة العدو فلم يفرق بين عربي وتركي ، فإذا جيوشه تطلأ بلادنا وبلاد
الترك ، وإذا احتلاله يجشم على صدورنا وصدور الترك .

وإذا المستعمر في أزمير والمستعمر في دمشق والمستعمر في القاهرة
يتواعدون جميعا إلى مائدة مشتركة من طعامنا وشرابنا .

والعرب والترك واقفون جميعا وراء الأبواب لا يؤذن لهم بالدخول .

ونحن إلى كل ذلك أنسياء وأقرباء وأصهار . .

في كل دار من دور العرب على اتساع بلادهم ، عربي يمت إلى الترك
بختولة .

وفي كل دار من دور الترك - برغم اعتزالهم في ديارهم - تركي
ينسب إلى العرب بعمومة .

فقد اختلطنا نسبا وصهرا ومواريث ثابتة ومنقولة ، وإن قامت
بيننا الحدود والسدود والأسلاك الشائكة ونحن اليوم من تركيا كما كنا
في الماضي .

أخوة مخلصون لأخت خالصة العرق والنسب فرقت بينها وبينهم
الأيام وحتى لا تبقى على شمل مجتمع ، لكن في قلبها على البعد حنين
الأخت البارة ، وفي قلوب أخوتها إليها مثل ذلك الحنين .

وأضيف إلى ما قاله عبد الناصر : أن كل صراع بين العاصمتين
المصرية والتركية - وكل منهما ركيزة إسلامية قوية أن لم نقل أقوى
الركائز الإسلامية - لم يكن يوما لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا وإنما
كان ضد مصالح مصر وتركيا وضد مصالح الأمة الإسلامية ولو أن كلا
من العاصمتين وضعت يدها في يد الأخرى لما نجح أعداء الإسلام والمسلمين
في النيل من الإسلام والمسلمين .

ولست بحاجة إلى القول بأننا ظلمنا دولة الخلافة العثمانية ، ولم
نذكر لها إلا سيئاتها والا مثالب بعض سلاطينها . وهل كان سلاطيننا

بدون مثالب ؟ لقد نجحت الدولة العثمانية فى نشر الاسلام ، فى كثير من الأرجاء كما لم تنجح أية دولة اسلامية أخرى .

ومنذ أقام عثمان بن أرطغرل - مؤسس تلك الدولة - دولته من أجل الدفاع عن الاسلام ورفع رايته فى مشارف آسيا الصغرى ومنذ أن قضى على الدولة البيزنطية التى كانت تهدد المسلمين فى ديارهم ، كان زعيم هذه الدولة - كما جاء فى الكتاب الذى قدم له عبد الناصر - يلقب بالغازى أى المجاهد فى سبيل الله ، وكان يتلقى هذا اللقب فى حفل مشهود يتسلم فيه راية الجهاد من شيخ الصوفية ، وقد استجاب لمؤسس هذه الدولة - السلطان عثمان - الكثير من المؤمنين الصابرين ، ومن الأقوياء المغامرين من الترك وغيرهم تحدوهم جميعا رغبة شديدة فى الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية .

هذه الدولة هى التى فتحت أزمير وأنشأت فيها أول جامعة عثمانية وهى التى عبرت بقواتها الدردنيل الى شبه جزيرة تراقيا وهى التى دعمت سلطانها فى آسيا الصغرى .

ورفعت راية الاسلام فى أوروبا الشرقية حتى لقد أسرع قيصر البلغار لتزويج ابنته للسلطان مراد ليوقف مطامعه عند حد .

هذه الدولة هى التى تغلبت على المجر والبلغار والبشناق والصرب ووصلت الى حدود أستوريا هذه الدولة التى فتحت القسطنطينية وكانت دطما للخليفة عثمان (٣٤ هـ) ومعاقبة واليه على الشام والتى سبق ان توحدت أيام المهدي والرشيده أربع مرات .

دخلها محمد الفاتح فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ وصلى الجمعة فى كنيسة آياصوفيا وحولها الى جامع .

وبهذا الفتح المبين - أمين شاكر ، سعيد العريان ، ومحمد مصطفى عطا - تحقق حلم ظل يراود العرب والمسلمين أكثر من ثمانية قرون ، وكان تحقيقه على يد بطل عظيم من أبطال الترك هو محمد الفاتح بن مراد ، أو محمد الثانى .

الدولة العثمانية هى التى أخضعت شبه جزيرة المورة (بلاد اليونان) كما أخضعت البنادقة ورودرس وانتصرت على المجر فى موقعة « دوهاج » .

وكما يقول سير ادوارد كرىزى : لقد ترك السلطان سليمان القانونى امبراطورية لم يتيسر لأحد من خلفائه اعتلاء مثلها ، ثراء ، وقوة ،

ونجاحا ، فقد دانت له معظم المدن الشهيرة المقدسة عدا روما وسراقوسة ،
وبيزنيطبولس .

لقد كانت امبراطورية تشغل أكثر من أربعين ألف ميل مربع وتضم
أغنى المناطق وأجملها فى العالم .

استطاع أحفاد عثمان بن طغرل إخضاعها فى ثلاثة قرون وكان جدهم
الأكبر يهيم فى البلاد على رأس خمسمائة محارب من طلاب الجيش .

وكانت مصر وقت ازدهار الدولة العثمانية هى عاصمة الاسلام
الكبرى .

بكفاحها انكسرت حدة التتار وهزمت جيوشهم وهددت جيوشهم فى
القلوات ولم تقم لهم قائمة بعد وكانوا خطرا جانحا يهدد الحضارة الانسانية
كلها بالدمار .

فلم ينهزموا قط فى معركة قبل ان تهزمهم الجيوش المصرية فى
عين جالوت .

ولم يحاولوا معركة جديدة لا مع المصريين ولا مع غيرهم بعد انهزامهم
فى معركة عين جالوت .

وبكفاح مصر عادت للمسلمين وحدتهم الرمزية بعودة الخلافة بعد ان
حطم التتار عرشها وتاجها فى بغداد .

وفى رحاب مصر ازدهرت الحضارة العربية والاسلامية بعد ان أصابها
الوهن والانحلال فصارت موئل العرب والمسلمين وموئل العروبة والاسلام ،
وموئل خليفة المسلمين ، ومقر سلطانه .

كانت الامبراطورية المصرية - تركيا والسياسة العربية - تمتد
جنودها فى ذلك الزمان بين الموصل وحمود ليبيا وتضم الجزيرة ، والشام
بكل أقسامه ، وشبه الجزيرة العربية الى حدود اليمن .

وتمتد فى أفريقية الى باب المتدب .

وكانت طريق التجارة الوحيد بين الشرق والغرب وكان أسطولها
البحرى بين البحرين الأبيض والأحمر وتجوب سفائنه المحيط الهندى الى
مدى بعيد من الشرق الأقصى .

وكانت هى القوة المهيمنة المهيمنة التى يحسب حسابها كل ذى
مطمع من الغزاة الصليبيين .

وكان اسمها يملأ الدنيا فلا مطعم لأحد فيها ولا فيما وراءها من بلاد
العرب والمسلمين .

وبدلاً من أن يستمر خلفاء آل عثمان في مد نفوذهم إلى داخل أوروبا
قامت عوامل عندهم من مكانة مصر ، فاتجهوا إليها على غرة في وقت كانت
مصر تتوقع الخطر من أية جهة في العالم إلا من الخلافة العثمانية .

ونشب المعارك بين مصر ودولة الخلافة وانتهت بتحطيم السلطان
العثماني سليم الأول لقوة مصر في إبريل ١٥١٧ .

انتهت المعارك بشنق طومنباي آخر سلاطين المماليك في ١٤ إبريل
على باب زويلة .

ثم حمل الخليفة العباسي (المتوكل على الله) إلى القسطنطينية
ليتنازل عن الخلافة للسلطان سليم .

وبذلك دخلت مصر في حظيرة الدولة العثمانية .

وانفتح الباب على مصراعيه أمام أوروبا للنيل من تركيا ومن مصر
معا . . . !

وحكم العثمانيون مصر عن طريق وال يعينه السلطان نظير رشوة
تدفع له ولحاشيته .

يدفع الرشوة بعض المستفيدين ممن يراد تعيينه والياً .

وقد وصل ثمن منصب الوالي في مصر إلى أربعة آلاف كيس .

ويرى أمين شاكِر ، وسعيد العريان ، ومحمد مصطفى عطا ان
المصريين لعبوا دوراً هاماً في الإبقاء على الدولة العثمانية إذ ناصروها بمالهم
ورجالهم في أحلك أيامها وقت أن كانت تنوشها سهام الصليبيين وفتكات
الإيرانيين وامتعاض الانكشارية وثورات جيوش الاقطاع .

وقد ظلت - نفس المصدر السابق - علاقة مصر بتركيا لا تتجاوز
التبعية الاسمية المتمثلة في تعيين الوالي التركي المكتوف اليدين ودفع
الجزية السنوية .

وظلت هذه الحالة قائمة حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر في
أواخر القرن الثامن عشر .

وبعد الحملة الفرنسية وإطلاح المصريين على حال العالم الغربي
والنهضة التي أخذنا بأسبابها وعودة ثقة المصري بنفسه وأنه أهل

الاضطلاع بالحكم وتصريف الأمور ، وان حيويته الكامنة قليل من النفخ
يزيل الرماد عن جمراتها وان الضعف الذى سيطر على نفوس المصريين
من جراء الاضطهادات التى لم ير لها التاريخ مثيلا قد أخذ يتبدد وتظهر
الزعامات الشعبية أمثال السيد عمر مكرم والجدوى والمحروقى وغيرهم .

ومن أجل هذا لم يرتض المصريون حكم الولاة الذين تفرضه عليهم
الدولة العلية من كل طامع ، لا هم له الا الحصول على المال من أى طريق
بأى وسيلة .

وكانت أول خطواتهم فى هذا السبيل أنهم خلعوا الوالى التركى
أحمد باشا لما حدث فى عهده من المأسى والمظالم .

ثم حقق المصريون نجاحا آخر بتعيين محمد على واليا على مصر
بشروط حددتها ممثلو شعب مصر .

وهكذا أصبح الشعب هو الوجه لأحداث مصر والقابض على ناصية
الأمور فيها .

وليس صحيحا أن محمد على من الألبان ، كما وقر فى كثير من
الأذهان ، وانما هو أحد العثمانيين ، أقام والده فى قرية قولة الألبانية .
وقد أكد الأستاذ شفيق غربال بأدلة قاطعة تلك الحقيقة .

وليس صحيحا - أيضا - أن محمد على كان يستهدف القضاء على
دولة الخلافة العثمانية كما ادعى البعض ، فقد كان محمد على وفيا لدولة
الخلافة بقدر ما كانت محافظة على وده .

وما من مرة استنجدت دولة الخلافة بمحمد على الا وسارع لنجدها
كما حدث بالنسبة للثورة فى بلاد اليونان .

ولكن دولة الخلافة لم تقدر تلك المساعدات حق قدرها وانما
خشيت - كما خشيت الدول الأوروبية - من تنامي القوة العسكرية المصرية
فعمدت دولة الخلافة وكثير من الدول الأوروبية ذات الميول الاستعمارية الى
تحجيم تلك القوة .

وكان ما كان من قيام مصادمات بل حروب بين محمد على وبين دولة
الخلافة انتهت بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ التى حددت - تماما - العلاقة
بين محمد على باشا ودولة الخلافة العثمانية .

ولأهمية هذا الفرمان وكونه الأساس للعلاقة المصرية التركية أحرص على نقله بنصه - وهو للعلم صادر من الباب العالي بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ واعتذر عما به من أغلاط لم أستطع تصحيحها حتى لا أتعرض للنقص:

... متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سيدتنا المملوكية من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا .

وإذا انقرضت ذريعتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أيا كان في الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الأستانة لتقليده الولاية المذكورة على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع أحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بها فى ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابه يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضا وكما ... أى كل هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا المملوكى .

ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال وللضرائب غير القانونية يجب ان تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وريع الإيرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء .

ويؤدى الى خزينة بابنا العالى العامرة والثلاث أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة (مكة والمدينة) .

ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنهم فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلية ونوع الظروف التى ربما تجد عيها .

ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الإيرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب وكان الوقوف

على هذه الأحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة في تلك الولاية
فينظر في ذلك فيما بعده ويجرى ما يوافق ارادتنا السلطانية .

ولما كان من اللزوم ان يعين بابنا العالى ترتيبا لصك النقود لما فى
ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف من جهة العيار ولا من
جهة القيمة اقتضت ارادتي السنية ان تكون النقود الذهبية والفضية
الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى
ضربخانتنا العامة بالآستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل
هيئتها وطرزها .

ويكفى ان يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند
للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد .

ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كأسوة
قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ ان يزداد هذا العدد فى زمن الحرب
بما يرى موافقا فى ذلك الحين على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى
كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن تخدم الجند مدة خمس سنوات
يستبدلون سواهم من العساكر الجديدة فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضا
فى مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة فى الخدمة حالا
عشرون ألف رجل ليبدلوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل فى
مصر وترسل الألفان لهنأ لأداء مدة خدمتهم وحيث أن خمس العشرين ألف
واجب استبدالهم سنويا فيؤخذ سنويا من مصر أربعة آلاف رجل حسب
القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل
فى ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى فى مصر ثلاثة
آلاف وستمائة جندي من الجنود الجديدة والأربعمائة يرسلون الى هنا ومن
أتم خدمته من الجنود المرسله الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية فى مصر
يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية ومع كون مناخ
مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الأقمشة المستعملة للمبوسات العساكر
فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية
ورايات الجنود المصرية على مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية
وكذا ملابس الضباط وملابس الملاحين وعساكر البحرية ورايات سفنها
يجب أن تكون مماثلة للملابس ورايات وعلائم رجالنا وسيفنا .

وللحكومة المصرية ان تعين ضباط برية وبحرية حتى رتبة الملازم
أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لأرادتنا الشاهانية .

ولا يسوغ لوالى مصر ان ينشئ من الآن فصاعدا سفنا حربية الا
بإذنتنا الخصوصى وحيث أن الامتياز المعطى بوراثنة ولاية مصر خاضع
للمشروط الموضحة أعلاه فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا
الامتياز والغائه للحال وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف
المملوكى كى تقدروا أنتم وأولادكم قدر احساننا الشاهانى فتعتنوا كل
الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحملوا أهالى مصر من كل فعل اكراهى
وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة أوامرنا المملوكية وأخبار
بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اهـ .

ولقد منحه الباب العالى أيضا ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار
مدة حياته بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر بمقتضى فرمان شاهانى أصدر
فى اليوم الذى أصدر فيه فرمان الأول أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١
هذا نصه :

« ان سادتنا المملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى السابق
قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود
معينة وقد قلدناكم فضلا على ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور
وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر
ولكن بغير حق التوارث فبقوة الاختيار والحكمة التى أميزتم بها
تقومون بإدارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا
وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلى وترسلون فى كل سنة الى
بابنا العالى حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها .

وحيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى
المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور وإناث ويبقون فى
قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث أن هذه الأمور مما تفضى معها الحال
ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها بل انها أمور مخالفة
للمشريعة الحقة المقدسة وكلا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من
أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بشفر الحريم ذلك
مما لا ينطبق على إرادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ
العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا على عرش السلطنة
العلىية فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغى من الاعتناء
لمنع حدوثها فى المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض

أشخاص توجهوا الى مصر على اسطولنا الملوكي قد عفوت عن جميع الضباط والعساكر وفي الأمور الموجدية في مصر نعم أن بموجب فرماننا السلطاني السابق تسمية الضباط المصريين لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض على اعتبارنا الملوكية الا أنه لا بأس من ارسال بيان باسم من رقيتم من ضباط جنودكم الى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتشبيتهم في رتبهم هذا ما نطق به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع في الاجراء على مقتضاها ها .

فقبل محمد علي باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضا تام ثم طلب من الدول ان تساعد في تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت الى الباب العالي لائحة بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعامله على حسب ما هو مدون بملحق معاهدة ١٥ يولييه سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى لائحة أرسلت للدول بتاريخ ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ عن بعض الحقوق وتولت تحويل فرمانها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على النحو التالي .

ان الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ما تعطفتم عليها به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضا وبمناسبتها قد منحت محمد علي باشا احسانا جديدا هو التكرم منها باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالي والدول المتحالفة وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمد علي باشا وأولاده الذكور الأكبر فالأكبر . وقد تنازل الباب العالي عن استيلائه على ربع واردات مصر . وقد رخص محمد علي في موضوع منح الرتب العسكرية المصرية - أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الأميرالاي فقط - أما التسمية لما فوق تلك الرتبة فيجب عليه أن يعرض شأنه الى الباب العالي .

وتقرر في فرمان ٢٠ يوليو ١٨٤١ أن تدفع الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنويا ثمانين ألف كيسه زيدت الى ١٥٠ ألف كيسه (يعني ٧٥٠ جنيهه عثماني) في ٢٧ مايو ١٨٦٦ .
وتعهد الخديو توفيق بالنيابة عن نفسه وعن خلفائه في الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية - ابتداء من ١٠ ابريل ١٨٩١ - للمخراجات روتشيلد وأولاده بلوندره وروتشيلد اخوان بهاريس والبنك الملوكاني العثماني من أصل (الوبركو) الواجب على الحكومة المصرية

بنس شلن جنيه انجليزى
للحضرة الشاهانية مبلغ ٤ ١٨ ٢٨٠٦٢٢ ٠٠٠ وينتهى هذا التعهد
فى ١٠ ابريل سنة ١٩٥١ أى بعد ستين سنة ٠٠٠ !

ولا أعتقد أبدا أن المجال يسمح أو يتسع للحدوث بالتفصيل عن
العلاقات المصرية التركية بعد أيام محمد على .

وحسبنا هنا أن نشير وبايجاز شديد ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ،
الى بعض قضايا رئيسية تتعلق بتلك العلاقات :

كان عباس باشا متغيبا بالحجاز عندما عاجلت المنية البطل ابراهيم
باشا .

وقد استدعى عباس باشا على عجل ليخلف ابراهيم باشا تنفيذ
لنظام التوارث الذى يجعل ولاية مصر للأرشد فالأرشد من نسل محمد على .

وقد تولى عباس باشا الحكم فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ .

وقد استنجد الباب العالى بمصر لمساعدتها فى حرب القرم التى
خاضتها تركيا ضد روسيا .

وقد أعد عباس باشا قوة عسكرية قوامها عشرون ألف مقاتل مصرى
بقيادة سليم باشا فتحى أحد كبار قواد مصر الذين حاربوا تحت قيادة
ابراهيم باشا فى حروب سوريا والأناضول .

وقد أثبتت تلك القوة بلاء حسنا فى جبهة - استريا - أهم جبهات
القتال .

وعندما قتل عباس فى قصره ببها فى ١٤ يوليو ١٨٢٤ بسبب واحدة
من مؤامرات القصور ، تولى سعيد باشا مكان عباس باشا ولم تكن هناك
أزمة حكم ، فلقد صدر فرمان الخاص بتولية سعيد باشا دون أية
أزمات أو عقبات .

وعندما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير ١٨٦٣ بعد أن حكم مصر
ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام وخلقه اسماعيل باشا . . بذل
اسماعيل باشا جهودا شاقة ومضنية ودفع للباب العالى وللصدر الأعظم
ولكثير من الوزراء والخدم والحشم ملايين الجنيهات لتجديد شكل العلاقة
التي تربط بين مصر والباب العالى .

وكان أول ما فعله اسماعيل باشا فور تسلمه أعباء الحكم ذهابه الى
الآستانة لتقديم فروض الولاء للسلطان عبد العزيز ولدعوته الى زيارة

مصر رسميا ، تلك الزيارة التي تحققت في ابريل ١٨٦٣ ، وكانت أول زيارة قام بها سلطان عثماني لمصر .

وقد نجح اسماعيل باشا في استصدار فرمانات جديدة غير أحدها نظام وراثة الحكم في مصر من الأرشيد للأرشيد الى الابن الأكبر للوالى .

وقد كان السلطان عبد العزيز تواقا الى احداث ذلك التغيير في وراثة الحكم بتركيا فرحب بتلك الخطوة في مصر .

كما نجح اسماعيل باشا في استصدار فرمان آخر بمنح اسماعيل باشا لقب خديو بعد ان كان واليا فاقترب اسماعيل باشا من مراتب الملوك والسلاطين .

وقد كانت جريدة « لوبروجريه اجيبسيان » تحمل على اسماعيل باشا لاسرافه في رشوة الباب العالي ومن هم الى جانب السلطان الذين أفسدت ضمائرهم الرشوة وكانت تضارح الخديو - من واقع محبتها له - بأنه قد أخطأ خطأ فاحشا اذا اعتقد أنه سيصل الى الاستقلال عن طريق القسطنطينية فتركيا لا تقبل أن تتخلى ذات يوم بمحض ارادتها عن واحدة من أجمل الزهرات اليانعات التي تزين تاجها ، وأن مصر يجب أن تصنع استقلالها بنفسها وحدها .

وقد تساءلت الصحيفة ذات مرة عما اذا كان الحصول على لقب وزير ولقب مشير يستحق ما أنفقه الفلاحون المصريون ثمننا للرحلات الثلاث والتي قام بها اسماعيل باشا الى القسطنطينية ودفع فيها كل تلك الملايين ؟

وتجيب الصحيفة بأن المصروفات والرشاوى في تلك الرحلات كانت باهظة للغاية وبينها وبين النتيجة التي وصل اليها الخديو تفاوت كبير . وتنتهي الصحيفة « لوبروجريه اجيبسيان » حملتها بقولها : يجب أن تعلم الحكومة ان المنح التافهة التي نعطيتها للقسطنطينية تكلفنا كثيرا ، وكثيرا جدا .

ويجب ألا تعلق مصر مصيرها بامبراطورية ينخر فيها السوس ويقودها الروتين والجهل الى الخراب ، بل وتحمل بين جنبها كل عوامل الفناء .

ورغبة منا في اعطاء نموذج حرية الصحافة وقتذاك نذكر أن « لوبروجريه اجيبسيان » قد علقت - في ٢٢ سبتمبر ١٨٦٨ - على عودة الخديو اسماعيل من الخارج بعد أن هنأته بسلامة العودة وتمنت له دوام التوفيق في تدعيم حياة البلاد الزراعية والتجارية والصناعية بعد عودته .

بعد التهئة والدعاء بالتوفيق عبرت الصحيفة الحرة عن سخريتها
البالغة بالمظاهر الفخمة التي أعدتها الحكومة في الاسكندرية لاستقبال
الخدو من أقواس نصر الى بوابات الى رياض وورود الى طرق مفروشة
بالرمال والخضرة ، في الوقت الذي تحتاج فيه البلاد الى كل قرش صرف
في هذه المظاهر » .

ان هذا الاسراف يتم في وقت تتناقص فيه الثروة العامة وتنخفض
باستمرار ، وفي وقت يرتفع فيه الدين العام ، وتتفاقم فيه الفوضى ،
وتبلغ الضرائب قمة الفداحة والظلم .

ان الادارة الحكومية في مصر - صحيفة لوبروجريه اجيبسيان -
٢٢ سبتمبر ١٨٦٨ - قد أصبحت جاهلة ، ارتجالية ، وكأنها ادارة
حكومية معادية ١٠٠ » .

وكان اسماعيل يخشى من مزاحمة أخيه من أبيه مصطفى فاضل ومن
عمه عبد الحليم على العرش ، ولذلك فقد بذل جهودا شاقة ومضنية لابعاد
مصطفى فاضل ، وعبد الحليم عن وراثة العرش وجعلها محصورة في ذريته .

ولينال اسماعيل ما يستطيع نيله من امتيازات ، وليحقق المزيد من
الانفصال عن تركيا عمدا الى التأثير على السلطان وحاشيته عن طريق
الرشاوى الكبيرة .

وقد دعا الخديو اسماعيل السلطان لزيارة مصر ، فتمت الزيارة بعد
شهور من تولية اسماعيل باشا منصب الخديوية . ونجح اسماعيل في
عام ١٨٦٦ في تغيير نظام الارث بالنسبة لمنصب الخديوية وقيل أن الخديو
اسماعيل قد أنفق لاسترضاء الباب العالي ما لا يقل عن اثني عشر
مليوناً من الجنيهات .

ونجح اسماعيل في الحصول من السلطان على ميزات كثيرة مثل زيادة
عدد الجيش الى ثلاثين ألف جندي ومنح الرتب والنياشين .

ثم كان الفرمان الذي حصل به (١٨٦٧) على لقب « خديو » فارتقى
بهذا اللقب السامي الى ما يقرب من مرتبة الملوك والسلاطين .

وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية ، واستقلالها في ادارة شئونها
الدولية والمالية وحققها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ، ومرور
البضائع في داخلية البلاد وشئون الضبط للجانليات الأجنبية .

وعندما علم السلطان ان الخديو اسماعيل ينوى المناداة باستقلال مصر في حفلات افتتاح قناة السويس ، عاد الباب العالي ليقيد سلطات الخديو .

وكان الخديو اسماعيل قد عرف الطريق جيدا - طريق التأثير على السلطان وحاشيته . . . المزيد من الرشوة والهدايا الثمينة - فقد ضاعف اسماعيل الرشوة والهدايا ونجح في الحصول على ما سمي « بالفرمان الجامع » الذي ثبت لمصر جميع الحقوق والمزايا التي اكتسبها اسماعيل باشا من حيث نظام الوراثة واشتمال أملاك مصر على السودان وسواكن ومصروع وحق مصر في سن القوانين وزيادة الجيش الى أي عدد وبناء السفن بما عدا المدرعات التي لا تبني الا باستئذان .

وقد جعل هذا الفرمان الجامع لمصر من الحقوق ما جعلها تقترب من الدولة المستقلة التي لم يعد يربطها بدولة الخلافة الا دفع الجزية وقدرها ٧٥٠ ألفا من الجنيهات ، وما عدا عقد المعاهدات السياسية ، واقامة التمثيل الخارجي .

والجدير بالذكر ان الدولة الاستعمارية التي كانت تتآمر ضد مصر وللتخلص من اسماعيل كانت باستمرار تحرض الباب العالي على خلع الخديو اسماعيل اذا لم يقبل هو - اسماعيل - التنازل عن العرش من تلقاء نفسه وعاد اسماعيل الى أسلوب الرشاوى والهدايا فبعث الى الآستانة طلعت باشا أحد رجال حاشيته ليستميل السلطان وحاشيته الى جانب الخديو .

ويظهر ان قلة المال المفروض - فقد كان اسماعيل يعاني من أزمة مالية عنيفة - جعل السلطان يتغلى عن الخديو .

وأخيرا نجحت انجلترا وفرنسا وألمانيا في اقناع السلطان بأن يرسل في ٢٦ يونيو ١٨٧٩ الارادة السلطانية الخاصة بعزل الخديو بسبب الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت في مصر أخيرا .

ولما تبين أن بقاء الخديو في الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلاله السلطان ارادته - بناء على قرار مجلس الوزراء - باسناد منصب الخديو الى الأمير توفيق باشا .

وفور تسليم اسماعيل الارادة الخاصة بعزله بعث الى ابنه الخديو الجديد مناديا اياه : بأفندينا . . .

وكان موقف الباب العالي من الثورة العرابية مذبذبا للغاية .. في البداية شجعها ، لعلها تكون منطلقا ليعود الى مصر فيسترد امتيازاته ، التي ضاعت منه بحصول مصر ، على قدر من الاستقلال .

ثم عاد مؤيدا الخديو باعتباره السلطة الشرعية ولأنه وجد جموحا من الثورة الى الاستقلال لا الى التبعية .

وهذا الموقف المذبذب من الباب العالي لم يعد بالخير .. لا على الثورة العرابية ، ولا على الخديو ولا على الباب العالي ذاته ، وانما عاد بالخير على بريطانيا والدول الأوروبية التي كانت تسعى لضعاف الباب العالي واضعاف مصر في نفس الوقت .

والذي يقرأ ما كتبه لورد كرومر عن الثورة ودور السلطان في إخمادها يتأكد أن السلطان - الباب العالي - لم يكن الا مجرد شطرنج تلعب به بعض الدول الأوروبية التي تلعب بها في نفس الوقت بريطانيا . وفي أقوال كرومر أمور جديدة وهامة يحسن الوقوف عندها لا شيء الا لتوضيح التآمر الأوربي الذي كانت تحركه بريطانيا ضد مصر بصفة عامة وضد ثورتها الوطنية (ثورة ١٨٨١) بصفة خاصة .

يقول كرومر أنه عقب ضرب الأسطول البريطاني لالاسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨١ عرض السلطان اقتراحا بعزل الخديو توفيق ووضع الأمير حليم محله باعتبار أن هذا الأمير أفضل من يصلح لمركز الخديوية وان تعيينه يحول دون اراقة الدماء ويرضى جميع الميول في الحال .

وقد رفضت بريطانيا - على الفور - هذا الاقتراح .

ويقول كرومر أن السلطان وافق بعد تردد كثير على ارسال قواته الى مصر بشروط منها ان تكون تلك القوات تحت مراقبة الدول الأوروبية . ولكن بريطانيا فرضت شروطا جديدة على ارسال هذه القوات فتعذر تحريكها الى مصر .. !

ويذكر كرومر ان السلطان كان يصبر - في البداية - على ألا يصدر منشورا ضد أحمد عرابي باشا الا بعد أن تنزل قواته الى مصر .

ولكن بريطانيا والدول الأوروبية السائرة في فلكها كانت تريد اصدار منشور السلطان بعصيان أحمد عرابي قبل نزول تلك القوات .

ويتحدث كرومر أيضا عن تذبذب السلطان ، ففي الوقت الذي كان يساير فيه الدول الأوروبية تدخلها في شئون مصر رفضت حكومة تركيا

الموافقة على ترحيل شحنة من البغال اشترت لحساب جنود بريطانيا بمصر
وتقرر شحنها من ميناء أزمير الأمر الذي جعل بريطانيا رسميا ترى في
عدم موافقة الحكومة التركية على الشحنة عملا غير ودي .

ويرسل السلطان أحد ياورانه (منير بك) الى سفير بريطانيا في
الاستانة مؤكدا أن السلطان أمر برفع الحجر عن الصفقة أثباتا لحسن
نواياه .

وتعلن الحكومة البريطانية انها لن تسمح بنزول أى جندي تركي
الى شواطئ مصر الا بعد توزيع منشور عصيان عرابي من الباب العالي فعلا .

وعلمت الحكومة البريطانية أنه رغم تأكيدات منير بك للورد دوفرين
بأمر السلطان برفع الحجر على صفقة البغال .

وبالرغم من الأمر الذي أصدره رئيس الوزارة التركية باطلاق سراح
الرعاة وخدم البغال الذين تعاقد المتعهدون على ارسالهم الى مصر لخدمة
المواشي والدواب المشتراة للقوات البريطانية في مصر من أودسا وأزمير ،
فان أمرا آخر صدر من قصر السلطان بالغاء أمر رئيس الوزارة التركية
بل لقد أصدر السلطان أمرا جديدا بالتهديد بانزال عقوبات صارمة على
الصناع الذين تعهدوا بتوريد ستمائة صندوق مشحونة بالسروج اللازمة
للشوار .

وهذا ما أكد للشوار ان السلطان لن يتعاون مع بريطانيا ولن يبيعهم
أبدا للاستعمار البريطاني . . . !!

ويقول لورد كرومر ان تركيا طلبت - الى لورد دوفرين - موافقة
الحكومة الانجليزية على نزول قوات تركية بالاسكندرية على ألا تقيم بها بل
تخترق شوارعها وتمضي توال الى ضاحية أبو قير .

وان السلطان رجع على ركبتيه أمام السفير البريطاني ليستجيب
الى هذا الطلب .

وقد بعث السفير البريطاني - في القسطنطينية - برقية الى حكومته
للعمل على تحسين علاقة بريطانيا بالباب العالي قائلا :

لقد وعد السلطان بعمل كل ما يمكن عمله لارضاء الحكومة البريطانية
فيما يتعلق بمنشور عصيان عرابي ، واتخاذ ما يلزم لتغيير لهجة الصحافة
التركية .

وقد عارض الخديو توفيق (باشا) وحكومته نزول القوات التركية الى مصر مرحبين بنزول القوات البريطانية . . !!

وحول منشور العصيان الذى وقعته السلطان فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ونشر فى الصحف قبل تقديمه للورد دوفرين : كما كان متفقاً من قبل . كتب السفير البريطانى الى حكومته قائلاً : ابلغت وزير خارجية تركيا فى الحال ازاء هذا التصرف الغادر الذى تخطأنى بمقتضاه وأذاع منشورا تختلف صيغته عن المتفق عليه بيننا ، لا يسعنى الا الامتناع عن توقيع الاتفاق العسكرى وابلاغه اننى لم أدهش مطلقا اذا انتهى الأمر الى وقف المفاوضات .

وقد بادر سعيد باشا الى الاعتذار معترفا بأنه هو المخطئ المسئول عن عدم سلامة عبارات المنشور وان كان خطؤه ناشئا عن رغبته فى تقديم أفضل خدمة ممكنة بدليل ان عبارات انتقاص عرابى فى المنشور المذاع أقوى منها فى المنشور الأصلى .

وقد تعهد الوزير التركى بنشر تصحيح رسمى فى جريدة « وقت » يشمل جميع العبارات الواجبة اضافتها الى المنشور ورجائى فى النهاية أن أعمل على تخفيف الغضب الذى نتج عن خطئه لدى حكومة بريطانيا ووافقت تركيا وبريطانيا على أن تأخذ السفن التركية طريقها صوب بور سعيد للدخول منها الى القنال .

وبينما كان لورد جرانفيل يتأهب للموافقة النهائية على الاتفاق . . وبينما كان الباب العالى متلهفا على التوقيع اقترف السلطان عملا جديدا من أعماله الغادرة التى تزعزع كل ثقة فى وعوده - كما يقول كرومر - لقد أمر اللورد ولسلى قائد القوات البريطانية فى مصر بتعيين بعض الحمالين لخدمة قواته ، واذا بأمر يصدره الباب العالى باعتقالهم وسجنهم ثم لا يطلق سراحهم الا بعد احتجاج شديد اللهجة من جانب اللورد دوفرين الذى أعطته حكومته سلطة مطلقة لقطع العلاقات السياسية مع الباب العالى ، اذا شاء . . !!

وهكذا أكملت بريطانيا لعبتها ، فضحكت على الباب العالى حتى أصدر منشور عصيان عرابى وهو المنشور الذى كان من أهم أحد عوامل الحاق الهزيمة بالشوار والذى أدى الى اضعاف الروح المعنوية للجيش كما أدى الى انشقاق فى قيادة الجيش دفع أحمد بك عبد الغفار - قومندان الفرسان - وعبد الرحمن حسن بك - حاكم دار الآلاى الثانى ، وعلى بك

يوسف - أميرالاي الآلاى الثالث من المشاة الى الانقلاب على أحمد عرابى !!
وهكذا نجح الباب العالى فى إلحاق الهزيمة بالثورة العربية لصالح
الاحتلال البريطانى بمصر الذى تحقق فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ !!

أما منشور عصيان عرابى الصادر من الباب العالى ، فإننا نشبته هنا
لأهميته القصوى نصبه : معلوم عند الجميع ان خديو مصر ، بموجب
الفرمانات العالية والامتيازات المقررة مودعة من جانب الخلافة العظمى الى
عهده حضرة فخامتلو محمد توفيق باشا ، فهو فى إدارة الأمور المصرية
وكيل مطلق من طرف السلطة السنية فأوامره مطاعة ومخالفته توجب
على عاملها طائلة المسئولية .

ومع ذلك فعرابى باشا ارتكب ذنبا بتعرضه لوظائف الحكومة مما
هو مخالف صريحا للأحكام القانونية ، فسلب الراحة ، وأخل بالأمن فى
المملكة ، وأضاع عددا من الأنفس ، وأضر بالأموال ، ولم يقف عند هذا
الحد . بل سبب تداخلا عسكريا أجنبيا لأنه أجبر دولة انجلترا المخلصة
الوداد مع السلطنة السنية ، على أن تطلق مدافع سفنها على استحكامات
ثغر الاسكندرية ، وكان ذلك ناجما عن زيادة التجهيزات ووضع المدافع
العديدة فى طوابى الاسكندرية ، حتى أمست سفن الدولة المشار اليها
هدفا لهذه التعرضات ، فتسبب عنها عدم أمنية الدولة المذكورة .

ومع قطع النظر عن البحث فى ما يترتب على مرتكب هذه الأمور من
العقاب ، فالشريعة الغراء لم تصرح بوجوب المدافعة الا بشرط الاستطاعة .
فلو تفكر لهذا الشرط الشرعى . لما قام بتنفيذ مآربه باراقة الدماء واتلاف
النفوس ، وادخال القطر المصرى تحت مخاطرة مداخلات عسكرية أجنبية .
والذى زاد فى المشكل ارتباكا ، هو أنه بعد انهزامه من الاسكندرية ،
حاصر سراى الحضرة الخديوية مرة ثانية ، فاضطر الأميرال الانكليزى الى
اخراج عساكره للبر للمحافظة على الأمنية ، فكانت هذه الحالة مبدأ
المداخلات العسكرية البرية .

وكان القصد من ارسال وفدنا السلطانى ، المؤلف من دولتلو
درويش باشا وكل من عطوفتلو قدرى أفندى ولبيب أفندى وحضرة الشيخ
أحمد أسعد أفندى ، اجراء التبليغات والتنبيهات الى عرابى باشا بأن
يحضر الى دار السعادة ، ويرجع عن مسلكه المعوج ، الذى سلكه على غفلة
من الأهلين ، وذلك حتى لا تكون الدولة العلية ، مضطرة لاجراء الجركات
العسكرية العنيفة ، فى حق الأفراد من الأهالى الذين يتبعون قوله لجهلهم
وعدم معرفتهم الخير من الشر .

أما الوفد ، فقد أبدى ما بوسعه من النصائح الدينية والشرعية والعقلية المناسبة لظروف الحال ، ولم يكن جواب عرابي لذلك كله الا ثباته فى سلوكه المعوج ، وتماديه فى تمرده ، الى أن قال البيان : ان كل من أتى القطر المصرى من أجنبى وغيره ، حتى ذات العساكر العثمانية ، فهو يقابلها بالقوة ، ولا يرضى بدخولهم البلاد وقد عرض لدينا ذلك الوفد العثمانى بتقرير رسمى موقع من الجميع .

ولا يخفى ما يحصل من وخامة العاقبة ، عن تغدى الموما اليه لتشكيل هيئة لادارة البلاد ضد الحكومة للشرعية .

وما أجراه عرابي باشا قبل التهديدات التى حصلت له من الانكليز كتنويهه بمقاومة العساكر الشاهانية بالسلاح ، واطلاق جركاته الأخرى ، كلها أمور تتطلب معاقبته بأشد العقاب . ومع ذلك . كما استعطف الحضرة الخديوية الجليلة ، فطلب العفو والتجأ الى المراحم السنية ، وأعطى التأمينات الى دولتلو درويش باشا رئيس الوفد عنه وعن العساكر المصرية ، كما جرى الاعلان فى أوراق الحوادث ، نال التعطفات ولأجل تأمينه وتوثيق صداقته ، أحسن اليه بالنيشان العالى طبقا لاقتراح درويش باشا المشار اليه . أما عرابي فلم يعرف قدر تلك الألطاف ، وجهل مزيتها ، فأصر على أفكاره السقيمة وحركاته المضادة للشرع المنيف . ببث وعلان البغى والعصيان وعليه فهو باغ عاص .

وليعلم الجميع . أن الجناب الخديوى هو أمين السلطنة ودمتمدها ، وهو أعظم أركان الدولة العلية فحفظ حيثيته الذاتية ، وما حازه من الامتياز والاقتدار ، انما هو الأمور الملتزمة .

وما أجراه عرابي باشا وتجاوز عليه من اجراء تلك الحركات ، مغاير للرضا العالى ، فبغيه وعصيانه ، هما نتيجة أفعاله وأعماله ، أما الحضرة الخديوية فنفوذا مؤيد وامتيازها مقرر من الدولة العلية .

والجدير بالذكر أن السفارة الانجليزية فى الآستانة ابتاعت من جريدة « الجوائب » التى كانت تصدر باللغة العربية هناك ، والتى نشرت منشور العصيان ، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة « الارادة السلطانية » التى أعلن فيها عصيان عرابي لكى توزعها - كما قال أحمد شفيق باشا - فى الهند وتستعين بالأثر الذى تحدثه على اخماد حركة التشيع للعرابين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب . . . !!

وعندما توفي الخديو توفيق باشا وخلفه ابنه الأكبر عباس حلمي ، كان عباس حلمي هذا لا يزال يتلقى العلم في فيينا عاصمة النمسا - كلية النرزيانوم - فبادر بالعودة الى مصر وقد تأخر وصول الفرمان السلطاني المنبئ باسناد الخديوية المصرية الى عباس حلمي الثاني لأن الباب العالي انتهز الفرصة - فرصة وفاة توفيق وتولية عباس - لتعديل الحدود بين مصر وتركيا .

ودارت مباحثات بالغة السرية بين الجانب التركي والجانب المصري ، وافق الجانبان على تخلي مصر عن العقبة لتركيا كانت في الأصل تابعة لولاية الحجاز وقد أعارتها تركيا لمصر في عهد اسماعيل ورخصت لها - كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي - بوضع حاميات من الجند في « الوجه » و « المويلح » و « ضبا » و « العقبة » وشبه جزيرة سيناء لتأمين الحج والحجاج بطريق البحر وقد استعادت تركيا الوجه وضبا والمويلح ثم أرادت استعادة العقبة ، وقد قبل الخديو الجديد ما أرادته تركيا حتى لا يبدأ عهده بأزمة مع دولة الخلافة العثمانية ، فضعف موقفه مع دولة الاحتلال (بريطانيا) .

وقد ظلت المفاوضات المصرية التركية قائمة من منتصف يناير ١٨٩٢ حتى أوائل ابريل من نفس العام الى أن انتهت الأزمة ووصل المندوب السلطاني في ١٤ ابريل ١٨٩٢ الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ومعه الفرمان الشاهاني الذي لم ينص على أن يتولى الخديو ادارة شبه جزيرة سيناء ، فصدرت ارادة شاهانية ملحقه باسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو عباس حلمي الثاني كما كانت لأسلافه من قبل وكما يحددها - شبه الجزيرة - الخط الممتد من شرقي العريش الى رأس خليج العقبة ، وعندما قامت أزمة بين الخديو الجديد وبين المعتمد البريطاني في مصر - لورد كرومر - في منتصف يناير ١٨٩٣ - لقيام الخديو باقالة وزارة مصطفى فهمي وتعيينه وزارة جديدة برئاسة حسين فخري دون استشارة لورد كرومر ، وهي الأزمة التي تراجع فيها الخديو فلم تستمر وزارة حسين فخري باشا ، وانما تم تعيين وزارة جديدة برئاسة رياض باشا .

وقد احتجت تركيا على تدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية لمصر ، وكان للاحتجاج التركي أثره الطيب لدى الجماهير المصرية . ولم يأخذ حامل الفرمان ما كان يأخذه كل حامل للفرمان من قبل (اثنى عشر ألف جنيه فقط) من الخزينة وانما أخذ في هذه المرة - خمسة آلاف جنيه هي رسوم الفرمان ، وكانت رسوم سفر حامل الفرمان على نفقة الخزينة السلطانية .

ونعود الى الحديث عن الامبراطورية العثمانية في سنواتها الحرجة :
سنوات الاحتضار :

كانت الامبراطورية العثمانية ككل امبراطورية هرمية ، تحمل في داخلها كل عوامل الفناء والدمار ، وكانت الدول الأوروبية التي تحاول وراثتها وهي على قيد الحياة تستعجل اليوم الذي ستعلن فيه نهاية تلك الدولة الهرمية ، وقد وصل الحال بتلك الدولة الهرمية ان شيخ الاسلام الشيخ حسن خير الله أصدر ثلاث فتاوى خاصة بثلاثة سلاطين تستوجب عزلهم .

وتكاد تكون الفتاوى الثلاثة بعبارة متشابهة .

أول فتوى خاصة بهذا الموضوع ، كانت على النحو التالي : اذا كان « يزيد » الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام في الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد أخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا بها فهل يصح خلعه ؟ .

الجواب يصح : كتب الفقير حسن خير الله .

وتم خلع السلطان عبد العزيز بناء على تلك الفتوى - كما تم في ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ الموافق ٢٩ مايو ١٨٧٦ مبايعة السلطان مراد الذي أطلق عليه السلطان مراد خان الخامس .

وفي ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ٣٠ أغسطس ١٨٧٦ أصدر نفس شيخ الاسلام : الشيخ حسن خير الله - فتوى هذا نصها : اذا جن أمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الأمانة فهل يصح حل الأمانة من عهده . الجواب : يصح والله أعلم . كتب الفقير حسن خير الله ، عفى عنه ؟ .

وتم خلع السلطان مراد وتولى بعده العرش السلطان عبد الحميد خان .

أما الفتوى الثالثة فقد كتبت في ٧ ربيع الأول سنة ١٣٢٧ هـ الموافق ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ وقد تم بمقتضاها خلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان « محمد رشاد خان » العرش . وكان نص تلك الفتوى على النحو التالي :

« اذا اعتاد زيد الذي هو أمام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وان يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وان يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ

شرعى ، وأن يقتل الرعية ويحبسهم وينفيمهم ويعذبهم بغير سبب شرعى وسائر أنواع المظالم ، ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله وحلف أنه مصلح حاله ثم حنث ، وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلة وأصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من إزالة تغلب زيد المذكور .

ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين أنهم يعتبرونه مخلوعا وأصبح بقاءه محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح ، فهل يجب أحد الأمرين : خلع أو تكليفه بالتنازل عن الأمانة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولو الأمر من هذين الوجهين ؟ الجواب : يجب . كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفى عنه .

ويوضح الكاتب الألمانى « داجوفون ميكوش » فى كتابه عن مصطفى كمال المثل الأعلى فى عبارة رقيقة كيف كانت الأمور تسير فى الدولة العثمانية فى سنواتها الأخيرة بدءا من عزل السلطان عبد العزيز الى وفاته ومرورا بدستور ١٨٧٦ الذى وضع فى أيام السلطان عبد الحميد على الرف الى آخر تلك التطورات التاريخية السريعة المتلاحقة . عن قصر يلدز - مثلا - يقول داجوفون ميكوش :

« بنى السلطان عبد الحميد مقره الملكى فى ضواحي استنبول ، وكان قصر يلدز مملكة قائمة بذاتها متعددة المباني والقصور ، منها الكبير ومنها الصغير ، مصنوعة من الأحجار والرخام وتحيط بها الأشجار الباسقة .

وكان السلطان قد خصص لموظفيه ، وضباطه وخدمه قصورا خاصة تفصلهم عن العالم الخارجى .

ولا يؤذن لهم بالخروج الا باذن خاص من جلالته ، حتى ان الاتراك انفسهم كانوا يجهلون ما يجرى وراء هذه الأسوار العالية .

وكان السلطان قد أعد القصور اعدادا كاهلا بحيث أصبحت مستوفية كل وسائل وأسباب النعيم والرفاهية . هنالك صناعات للسلطان يزاولون شتى الصناعات ، وفى مزارعه وحدائقه واستطبالاته الخاضعة الحاوية مئات الخيول الأصيلة ، ألوف من الزراع والخدم وكان شديد العناية بالحيوانات مولعا بها كل الولع .

وكان تحت أرض يلدز سراديب ملاءى بالكنوز والتحف الأثرية الثمينة كما كان للسلطان مرصد خاص .

وكان عدد الطبـباخين الذين يشتغلون فى قصره الملكى فحسب
ثمانماية طبـباخ !!

وكان جلالة السلطان نفسه - ظل الله على الأرض - يسكن هذا
المعقل الحصين سجيناً بمحض ارادته وكانت دلائل الشيخوخة قد ظهرت
عليه بعد ان مر عليه فى الحكم أكثر من ثلاثين سنة .

لقد كان هذا السلطان - فيما مضى - يحمل جسما صلبا مستقيما ،
ولكن هذا الجسم قد ذوى وهان الى الانحناء .

وعندما كانت تجرى الاستقبالات الرسمية كان السلطان يسند يديه
الصغيرتين - وكان يغطيها بقفاز أبيض - على سيف عثمان ، وكانت قبضة
هذا السيف تكاد تلامس لحيته ، وأنفه كان أشبه بمنقار الطائر ، أما
رأسه فكان يظهر ضخما نظرا لضخامة لحيته التى كان يخضبها بالحناء .

وكانت عيناه فى أيام الشباب واسعتين متقدتين ، تشعان ذكاء
وفطنة فرقدت على مر السنين فى أعماق تجاويهما .

وكانت نظراته تدل على الاضطراب والقلق كما تدل على الحذر والريبة
وابتسامته الضعيفة لا تخفى أحزانه وهمومه .

وكان حتى ذلك الحين يفوق معظم الدبلوماسيين الأوربيين ، ورجال
السياسة المتفنيين ، أجل كان يفوقهم دهاء ودسا ويقودهم من أنوفهم !!
ولكنه لم يجن من وراء خداعه واحتياله غير تأجيل ساعة موت الامبراطورية ،
وتأخير ساعة الموت ولفظ النفس الأخير ، شأنه فى ذلك شأن الجنود الذين
يجالدون رغم جراحاتهم حتى يغلبوا على أمرهم بعد طول الكفاح .

وكان السلطان عبد الحميد قد فقد بعض ولاياته الأوربية وأفلتت
منه مصر وتونس ، كان الفرنسيون قد بدأوا يستوطنون مراكش ، والنمسا
تتوغل فى البلقان ، والشبح الروسى مخيفا يضع شتى العراقيل فى طريق
الأتراك .

..... وعن جواسيس السلطان عبد الحميد يقول الكاتب الألمانى
فون ميكوش :

كان هذا الحاكم الحذر يود الوقوف على كل ما تفعله رعيته ، ويريد
لو نفذ الى قلب كل منهم ، واطلع على مكنوناته وخفائيه ، فكان من الطبيعى
ان يحتاج الى عدد من الجواسيس والمخبرين ، ولم يمض وقت طويل حتى

تضخم عدد جيش جواسيسه الذين صاروا يتتبعون له كل شاردة ،
وواردة ، ويعدون على الأهلين أنفاسهم . . . !!

وبلغ بهؤلاء الجواسيس ان كانوا يتنكرون بأثواب الشحاذين
الممزقة ، ويقضون الساعات الطويلة فى التجوال ، عليهم يظفرون بشيء
يرضون به ولى نعمتهم . . . !! وكان البعض منهم يتخصص فى الخدمة فى
دور الأشراف فيؤدون الأعمال « الصغيرة » ولكنهم يفوزون بالأخبار
« الكبيرة » حتى فقدت الثقة بين الناس .

وكان اذا دخل رجل مجهول أحد المقاهى التركية انقطع الناس فيها ،
عن الحديث الجارى بينهم بأصوات خافته الى ان يتأكد هؤلاء من نيات ذلك
« الضيف » الذى دخل على غير معرفة سابقة ، ولا تعود اليهم طمأنينتهم
الا بعد أن يوقنوا أنه ليس من عيون السلطان ولا من جواسيس القصر . . . !!

وكانت حقائب الأخبار تحمل كل يوم الى السلطان فيفرغ ما فيها من
التقارير ، وينصرف الى دراستها بدقة ، وكان هؤلاء الجواسيس اذا أعيتهم
الحيل ، وفشلوا فى اصطيد الأخبار ، ونبش الحبايا عمدوا الى الخيال
و « فبركوا » ما شاءوا ويأتون فى آخر النهار بتقارير كلها تلفيق
واختلاق منسوجة نسجا دقيقا ، وكان السلطان لا يضيع « أتعابهم » سواء
أكانت هذه التقارير صحيحة أو مزورة فيكافئهم ويجازيهم فاذا سئل فى
ذلك قال : « لا بأس فى ان يسرقوا مالى ما داموا فى خدمتى وأنا أثق
بهم » .

والواقع ان الذين كانوا يعملون تحت امره السلطان كانوا يشرون
سريعا وكان بسخائه يجبرهم على الاخلاص والتفانى فى خدمته .

وكان من الطبيعى أن تبتلع رواتب آلاف الموظفين والهبات المبذولة
بسخاء للرعايا المخلصين جميع واردات الدولة ، وان تكون سببا فى فراغ
الخزينة واحلال الفوضى المالية فى ادارات الحكومة ، ان عبد الحميد كان
تركيا من حيث فن الاقتصاد والتركى لا يجيد هذا الفن ، فلم يمض زمن
حتى اضطربت شؤون تركيا المالية .

والواقع ان خزانة الدولة كانت لا تعرف الامتلاء فى أى وقت من
الأوقات ، بل كانت فارغة على الدوام ، فاضطر الأتراك ان يسمحوا بدخول
رؤوس الأموال الأجنبية الى بلادهم ، ثم ضاعت ثقة المالىين فى باريس
وبرلين بالدولة العثمانية فكانوا لا يقدمون لها أموالهم الا بفوائد فاحشة ،
بعد ان يستولوا على واردات الضرائب والجمارك .

وهذا كان فاتحة التدخل المالى الأجنبى الذى جلب الى تركيا الخراب الجديد فوق خرابها القديم .

وكانت الرقابة على ادارة البريد شديدة والسلطان يحرم على الأهلين فى استنبول الانتفاع بالتليفون لشدة خوفه من المخابرات السرية وتدمير المؤامرات . . !!

كما ان الصحافة التركية كانت خاضعة للمراقبة الصارمة لا يجوز لها ذكر شئ عن الاعتداءات على الملوك حتى أنها كانت تنشر أخبار موتهم بكل ايجاز وتحفظ .

وبأسلوبه الأدبى المتميز يصف « فسون ميكوش » كيف تم خلع السلطان عبد الحميد :

انتشرت الاشاعات بأن العساكر تركوا مقدونية متوجهين الى العاصمة . . !!

واستطاع بعض الفارين من أعضاء تركيا الفتاة الوصول الى سلانيك يتقدمهم « رضا بك » .

والواقع أن هذا الرجل كان جريئاً فى (القول) جباناً فى (العمل) . وقف مرة يصرح أمام أعضاء المجلس التشريعى بأنه قد صمم على السير على جسر غلطة مغطياً رأسه بقبعة طويلة ، ولكن هذه الجراءة التى أظهرها فى تلك الجلسة لم تسفر عن شئ ، فان الجسر والمارة على الجسر لم يشاهدوا صاحبنا فى قبعة طويلة ولا قصيرة . . !!

وتطوع للفصيلة الثالثة بعض البلغارين واليونانيين أما الفصيلة الثانية فقد عسكرت بين « مقدونية » و « استنبول » وكانت كثيرة التردد فى بادئ الأمر ، ولكنها على وجه العموم كانت موالية للسلطان ، ثم عادوا فوعدوا بمساعدة رفقاتهم فى مقدونية بعد أن تأكدوا من الوفد الذى أرسلوه الى العاصمة أن الاشاعات الرائجة عن اغتيال الضباط كانت صحيحة .

وكان قائد « جيش الانقاذ » أو « جيش الخلاص » محمود شوكت باشا وهو عربى المولد طويل القامة دقيق الوجه ، عيناه غارقتان فى محاجرهما وقد قال عنه الجنرال فون در جولتز ما يلى :

« لم أعرف رجلاً فى تركيا كلها يشبه محمود شوكت باشا فى بعد نظره وثاقب فكره » .

ولما كان مقرباً من عبد الحميد كان من الطبيعى ان يرتفع فى درجات الترقى السريع حتى وصل الى وظيفة حربية رفيعة ، كما سيحدث له

الفرصة الطيبة للسفر الى الخارج فى مهام حربية ، فدرس النظريات الحرة وتشبع بالمبادئ الحرة التى كانت رائجة فى أوروبا ، وحاول نقلها بعد عودته .

لم يكن يعرف الخوف . . فهو صادق العزيمة كجندى ، ولكنه كان جبانا متذبذبا فى الشئون السياسية على نقيض مصطفى كمال الذى كان قائدا باسلا وسياسيا باسلا .

ومع ان الظروف وحدها هى التى خدمت محمود شوكت ومكنته من أن يلعب دورا باتا الا أنه ظل على الدوام مترددا .

وأخيرا وجد نفسه فى موقف لا يسمح له بالتردد أو الاختيار بين شيئين ، فكان الطريق المفتوح أمامه هو طريق الدكتاتورية فسلكه وذهب ضحيته ، فقد أغتيل كما تنبأ هو لنفسه .

وكان الطوق الحديدي الذى علق فى رقبة استنبول يزداد ضيقا على مر الأيام .

وانعقد البرلمان فى تلك الأيام المضطربة ، وأخذ الأعضاء يتباحثون فى ملائمة تلك الظروف لاجراء التفاهم مع الجيش فى سلانيك ، ولكن حدث أن الأعضاء أثناء استغراقهم بالجدل قوطعوا بصورة مفزعة فقد حاصر البرلمان ٢٠٠٠ جندي وتقدم بعضهم يطلبون مقابلة رئيس المجلس .

وليتصور القارىء حراجة موقف هذا الرئيس فانه قطع الأمل من الحياة وأدرك أنه مائت حتما ، ولكنه أبى أن يتقهقر فتقدم اليهم ولشد ما كانت دهشته اذ وجد أن الجنود الذين جاءوا هم أبعد ما يكونون عن التفكير فى استعمال العنف ، وأنهم قد أنابوا عنهم خطيبا مفوها فى الستين من عمره ، وكان الضابط الوحيد الذى رافقهم ، ليحدث الرئيس وليبين له أن الحامية فى « خادم كوى » قد جاءت كلها لتستقصى عما تم فى قضية الدستور ، وعما اذا كان فى خطر كما أشيع أخيرا .

وتنفس الرئيس الصعداء ، وعادت اليه الطمأنينة فأخذ يرتجل خطابا يدل على الذكاء استطاع به أن يعيد اليهم الطمأنينة التى فقدوها ويؤكد لهم ان الدستور بخير لم يمسه أى ضرر .

وما أن انتهى الخطيب من خطابه حتى اهتزت أعصاب الجنود اهتزازا عنيفا فاستسلموا للهتاف ، وهتفوا ما شاءوا من أعماق قلوبهم للبرلمان ، ولرئيس البرلمان ، ثم انصرفوا وسلم عنق الرئيس وأعناق الأعضاء معه . . !!

أجل ، انصرف الجنود في هدوء ، وعادوا الى المحطة ليؤمنوا استنبول ولكنهم بدلا من أن يركبوا القطار الخاص الذي جاءوا فيه عائدون الى معسكرهم احتلوا المحطة ، وكان احتلالهم الفجائي سببا لدحر الأهالي الذين حاولوا أن يفهموا السر في هذه الحركة فلم يدركوا له معنى ولم يفقهوا مرمى .

أما حوانيت المدينة فأغلقت فورا وساد الهرج والمرج وضعفت الحركة التجارية ، ونصب الجنود الخيام قرب المحطة وظل الأهليون الى ساعة متأخرة من الليل حتى عرفوا المقصد الحقيقي من هذه المناورة العسكرية والييك البيسان :

تقع « خادم كوى » على بعد ٢٠ ميلا من استنبول وقد اختار قادة « جيش الخلاص » هذا المكان ليكون ملتقى الجيوش ومن ثم يستولون عليه دون اراقة دماء ذكية .

ورأوا أن يجعلوا الحامية المخصصة تنتقل من هذا المكان بالحيلة ، وكان ضباطهم قد اتصلوا سرا بسلانيك وجعلوا يموهون على الجنود ان البرلمان والدستور في خطر ، وان عليهم أن يذهبوا بلا ابطاء الى استنبول ، وأن يدافعوا عن حقوقهم المهضومة ، وان تدخلهم الفعلي في هذه القضية الوطنية هو من الأمور المستحبة ، بل من الأمور المحتمة الواجبة ، وأن الأمة لن تغمض عيونها عن أفعالهم وتضحياتهم بل ستجازيهم أحسن الجزاء ، ثم أعد لهم قطار خاص الى استانبول .

وبعد أن انتهت مهمتهم الوطنية ! .. وانتصروا للدستور ودافعوا عنه ! .. رغبوا في العودة الى خادم كوى فبلغهم أنه حدث في أثناء غيابهم ان فرقا من سلانيك جاءت الى معسكراتهم واحتلتها ، وان عودتهم في الوقت الحاضر هي من الأمور غير المرغوب فيها حقنا للدماء ، فوجدوا ان خير وسيلة هي أن يبقوا في استانبول .

وقد شمل قصر يلدز الحزن والكآبة طول المدة التي كانت الفرق المعادية للسلطان تتقدم وتتوغل فانقطع السلطان عن اصدار « الارادات » وكان حتى ذلك الحين في اطمئنان على حياته .

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ اجتمع زوار السلطان في السلاملك كالعادة ، وصلى منهم من صلى في مسجد الحميدية القريب من قصر يلدز ، وكان السلطان يذهب كل يوم جمعة الى هذا المسجد والناس يتربصون زيارته هذه ليحظوا برؤية الخليفة .

وكان الجنود يصطفون على الصفيين ترحيبا بعظمته .
واختفى الضباط فلم يشاهد الناس واحدا منهم ، وفرغت الأماكن .
وفي مساء يوم السبت دخلت فرق سلايك الى العاصمة استانبول
فى هدوء تام . . . !!
ووجد الجنود أن لا فائدة من المقاومة التى تتطلب تضحية غير
ضرورية .

وفى منتصف الأحد كان محمود شوكت باشا قد احتل العاصمة
وملأ السجون متحاشيا الاقتراب من قصر يلدز ، ومهاجمة الجنود التى
تحميه ، ولكنه استطاع بطرق الاستمالة والاغراء أن يجتذبهم اليه
ويستميلهم بشتى الطرق ، فانسحبوا فى هدوء وتخلوا عن السلطان .

وكانت البلاد تترقب قرار شيخ الاسلام ، واجتمع أعضاء مجلسي
النواب والشيوخ وأخذ الناقمون يعددون مساوىء السلطان وجرائمه واحدة
واحدة فقام أحد الأعضاء وقد هالته كل هذه المخازى يرتكبها رجل على
رأس الدولة فألقى على شيخ الاسلام السؤال التالى :

« هل لمثل الشعب فى ظروف كهذه ان يخلعوا الخليفة ؟ »

فلم يكن من شيخ الاسلام الا أن أجاب فى عبارة هى آخر ما وصلت
اليه الأجوبة فى البت فى مصير الحكام : « نعم » ! . . .

وفتحت أبواب يلدز فى المساء وساد صمت الموت فى أبنيته العديدة
أما رجال البلاط والخدم فقد تركوا مولاهم فى حيرته وهربوا بعد أن حملوا
ما يمكن من الغنائم والأسلاب .

وأخذ عبد الحميد ينتظر وطال به الانتظار ، وكان ابنه الأصغر
- عبد الرحمن - لا يفارقه لحظة واحدة .

. وعبد الرحمن هذا صبى فى العاشرة كان السلطان قد أبقاه
بجانبه فى أيامه الأخيرة على أمل أن يصونه فان المسلم الحقيقى يتردد طويلا
قبل ان يلحق أى أذى بالأولاد الصغار .

ودخل ثلاثة نواب وأبلغوا سكرتير السلطان الذى ظل أميناً لجلالته
حتى الساعة الأخيرة ، أنهم جاءوا يحملون فى جيوبهم أمانى الشعب
وقراراته .

فطلب السكرتير منهم تقديم الأوراق التي معهم فقدموها فأخذها
توا الى السلطان الذي لم يسمعه الا ان تأوه وقال :
« لا مرد لقضاء الله . . ! ان هذا القضاء ليملا قلبي غما لأنى قد
عشت طول حياتى لا أبغى غير مصلحة شعبى ولكن ارادة الأمة فوق كل
ارادة . . . نعم ينبغى أن أخضع لارادة الأمة فهى فوق كل شىء . . . !

وبعد ساعات كان السلطان يودع قصر يلدز وينتقل تحت الحفظ
الى سلانيك حيث وضعه الثوار فى « قصر الاتينى » .
واصطحب السلطان عددا من حريمه اللواتى وجدن فى هذه الرحلة
شيئا من العزاء والراحة .
وكان السلطان قد بلغ السادسة والسبعين ولكنه كان لا يزال يشعر
بالقوة والنشاط .
وسار السلطان بين الجنود الذين هتفوا له هتافا أعلى من هتافهم فى
أى وقت مضى .
« بادشاهم جوق باشا » .

وكان الاتحاديون قبل ذلك بزمن قصير قد ساروا الى العاصمة
محتمين بالجنود ، وأخذوا يطالبون بعزل عبد الحميد ، ولم يبتوا فى هذه
القضية الا بعد مجادلات طويلة حارة . . . أما الضباط فقد طلبوا قتل
عبد الحميد ولكن بقية المجتمعين أبوا مجاراتهم فى هذا العمل الطائش .
وفى يوم الجمعة ذاته أذيع بيان على سكان استانبول بامضاء محمود
شوكت باشا زعيم « جيش الخلاص » جاء فيه :
« ان الاشاعات التى راجت عن خلع السلطان لا أساس لها من
الصحة بناتاً » .

ويظن ان مصطفى كمال هو الذى وضع هذا المنشور تهدئة للأعصاب
وتطيينا للخواطر ، وكان يتوخى من وراء عمله هذا اخفاء نياته الحقيقية
وجذب الجماهير اليه .

وسمع السلطان ونسأؤه أصوات المدافع تعلن بجلاء تولى شقيق
السلطان على العرش . . !!

. . وكيف لا يشعرون بعزاء وقد عشن الى تلك الساعة سجينات ولم
يكن قد ركب قطارا بعد . . !!

أجل ، كان السلطان الجديد محمد رشاد قد قضى الثلاثين سنة الأخيرة من حياته سجيناً في قصر شقيقه وكان السلطان يجزل للجواسيس العطاء لكي يأتوا إليه بكل صغيرة وكبيرة .

وكان من جراء ذلك ان اعتل جسم محمد رشاد وانحلت قواه وقوست رجلاه نظراً لثقل جسمه وغلاظته .

وكان وجهه الأسفنجي أصفر اللون .

وكانت عيناه تدلان على ميل فطري للاحتيال والمكر ، ولكنه كان خجولاً يهلع لأقل شيء .

وأخذ هذا الكهل المطمئن على حياته يحتفظ بمهارته وشرفه طوال سنى الأسر .

وكان يدهش الذين يخالطونه بوفرة معلوماته وغزارة مادته العلمية التي كانت تبدو جلية من حديثه .

هذا هو الرجل الذي عرف بعد تنويجه بالسلطان محمد الخامس .

... وأقام بعد تنويجه في قصر « ضوالة باغجة » الواقع على شاطئ البسفور ، ولا بد أن يكون قد لاحظ ان الخدم قد تبدلوا بعد هذه السنوات الطويلة التي قضاها في الأسر وأن رجال البلاط قد تبدلوا ، وأنه اذا كان سجين شقيقه فيما مضى ، فقد أصبح سجين تركيا الفتاة التي كانت رقابتها عليه أشد من رقابة الشقيق ، والتي كانت السلطة كلها قد انتقلت ليدها .

ونفتح قوساً ، لنقول ان الصحافة قد شهدت في السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية أنكى صنوف الاضطهاد والرقابة في كثير من العواصم العربية التي تصدر صحفا بالعربية أو بالفرنسية أو حتى بالتركية كانت الصحف تلاقى الأمرين من ذلك الرقيب الذي كانوا يسمونه « المكتوبجي » ، فما أن تنشر إحدى الصحف مقالا يثير الرقيب حتى يتلقى صاحب امتياز الصحيفة تلك الاخطار التالى : « من حيث أن جريدتكم قد نشرت في عدد كذا مقالة مخالفة للرعى العالى فقد أوجبت (تخديش الأذهان) فاقتضى اخطاركم ، اذا عدتم الى مثل ذلك تجرى بحكم المعاملات القانونية » .

وفى ذلك الحين كانت الجريدة التي تخطر ثلاث مرات على هذه الكيفية يصدر الأمر بتعطيلها .

وفى سورية - مثلاً - لم يكن يسمح لأية صحيفة بالصدور إلا بعد أن ترسل مسودتها قبل الطبع الى ميشال أفندى لمراقبتها ، وكان المكتوبجى فى « ولاية سورية » اسمه جمال بك وهو تركى ، لا يعرف كلمة عربية واحدة .

وقد خلفه جابى زاده سعادتلو حسين فائز أفندى من أهالى دمشق فشدد الرقابة على الجرايد حتى كادت تزهى أرواحها .

ثم آل الأمر الى سعادتلو عبد الله نجيب ، ثم عهد بالمراقبة الى عبد الرحمن أفندى الحوت وكان المعروف بالنسبة لمحزرى الجرائد العثمانية ان الجريدة ترتب حروفها ويصحح أخطارها حتى تصير جاهزة للطبع والتوزيع ، تبعث ادارة تلك الجريدة نسختين الى المكتوبجى وعلى المطبعة أن تنتظر رجوع المسودة ، وعادة ما ترسل المسودة فى الساعة العاشرة صباحاً ، وقد تبقى المسودة عند المكتوبجى حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر .

وعندما تصل المسودة الى سراى الحكومة يأخذها العسكرى الملازم ، ويضعها على طاولة أمام المكتوبجى الذى يتنازل فيرسل المسودة الى أحد خلفائه عبد الرحمن أفندى الحوت ليطلعها قبله .

فان رأى الحوت أفندى عبارة يمكن أن تغضب المكتوبجى حذفها بحبر أسود .

وأحياناً يضع علامة مستطيلة بحبر أحمر أمام العبارات التى أشكل عليه فهمها ثم يكتب « تقدم » عبد الرحمن .

وأحياناً تمكث الجريدة فى حضرة عبد الرحمن أفندى الحوت ١٠ ساعات ، ولذلك فكر أصحاب الجرائد فى تقديم مبلغ من المال من كل صاحب جريدة لمحاولة استرضائه ليعجل بقراءة الصحف .

وعندما يكتب عبد الرحمن أفندى « تقدم » ويوقع تذهب المسودة الى المكتوبجى الذى لا يعرف حرفاً واحداً من اللغة العربية ولكنه يأخذ بقلمه ويشطب كل عبارة عليها علامة مستطيلة ثم يكتب فى ذيل النسخة « كور لمشور » وهى كلمة الاجازة للادارة ، التى لا يمكن بدونها أن تطبع الجريدة ، وتعديل ادارة الصحيفة اعداد الجريدة فتوقع كل مشطوب وتحل محله مادة أخرى فترسل الى المكتوبجى ليجرى عليها ما جرى أولاً وهكذا .

وللمكتوبجى ورجاله أفكار بالغة الغرابة ، أعدت جريدة الصباح البيروتية اعلاناً على النحو التالى : ان قطعة الأرض المشتملة على بيت

مؤلف من ٤ أوض ومطبخ ودار ملك محمد علي الطرابلسي معدة للأجرة وعلى الراغبين مخابرة أصحابها . ولا يعجب المكتوبجي كلمة (ملك) فلا ملك الا الذات الشاهانية وتستبدل لفظة « ملك » بلفظة « امبراطور » فيفسر الاعلان ان دار الامبراطور محمد علي الطرابلسي معدة للأجرة .

وأعدت جرائد بيروت ان أحمد أفندي سلطاني زايل الشجر لزيارة شقيقه محمد أفندي سلطاني المقيم في الآستانة ، فحذف المكتوبجي (الرقيب) النون والياء من « سلطاني » لتظهر محمد وأحمد أفندي سلطا بدلا من سلطاني .

وعندما أعدت الصحف خبرا خاصا بمقتل المسيو كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية في ليون من خنجر كازارمو الشقي ، أصر المكتوبجي على حذف خبر قتله ، واذا كان ولا بد من نشر الخبر فليكن « انتقل الى رحمة ربه » .

وقد جرت العادة ان ينشر الناس اعلاناتهم : نعلن حضرة الجمهور أننا قد أنشأنا مدرسة فيقوم المكتوبجي بشطب « نعلن حضرة الجمهور » لأن كلمة جمهور من الجمهورية تخدش الأذهان ولا بد من أن تكون الاعلانات الخاصة بمثل هذه الموضوعات : نعلن حضرة العموم لا الجمهور .

ويحدث أن يعود أحد أبناء بعلبك الى مدينته بعد ان قضى مدة في استراليا وكان اسمه يوسف أفندي ملوك ، فاذا بالمكتوبجي يحتج على كلمة « ملوك » ويصر على شطبها لينشر الخبر باسم يوسف أفندي فقط فلما قيل له ان في سورية مائة ألف يوسف قال ان الملوك لا يكونون في بعلبك فلما قيل اسمه « ملوك » بتشديد اللام ، ولكنه خشى من ان لا يبدو تشكيل الكلمة واضحا ، فاذن بأن ينشر يوسف أفندي مالوك .

ومرة أراد أحد كبار الصحفيين ان يملأ الفراغ بعد الشطب بقصة من كتاب « اعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بنى العباس » ولكن المكتوبجي رفض الا بعد ان استبدل كلمة أمير المؤمنين بالحاكم وكذلك الخليفة والاعرابي يغير اسمه الى الرجل وحذف اسم المأمون من كل القصة واستبداله بأحد الحكام .

وفي بعض الأحيان كان بعض الصحفيين يلجأون الى نشر « كلام فارغ » ليضحكوا القراء على المكتوبجي وفهمه لما ينشرونه . نشر أحدهم مقالة سياسية تحت عنوان « الأحوال الحاضرة » وقد جاء فيها : عم السلام الأرض وقام الملوك والوزراء يعلنون مقاصدهم السلمية فذهب حشمتلو

الامبراطور كارنو قيصر روسيا الى أمريكا والقى هناك خطبة لا تختلف عن تلك الخطبة التي القاها المستر بسمارك رئيس وزراء انكلترا في شيلي ثم عقد التحالف مع حضرة الامبراطورة أوجيني ملكة فرنسا والارشيدوق رودلف امبراطور البرازيل على ضم امبراطورية سويسرا الى جمهورية المانيا والاتفاق على مد خط حديدي تحت بحر البلطيق يساعد على تسهيل التجارة بين أفريقية والقوقاس . . وهكذا فالعالم السياسي اليوم في راحة تامة ، وقد ذيلت المقالة مع كلمة « كور لمشور » وطبعت في لسان الحال وانتشرت المقالة بين الناس . والمعروف ان بسمارك لا علاقة له بوزارة انكلترا ، وكانت الامبراطورة أوجيني منفية من بلادها ، والامبراطورية ملغاة من فرنسا ، والارشيدوق رودلف كان قد مات منتحرا والبرازيل صارت جمهورية وسويسرا جمهورية والمانيا امبراطورية .

ومرة عندما توفيت زوجة يوسف بك مطران في القاهرة ، وصفت لسان الحال المأساة ببيتين من الشعر هما :

لا بد من فقد ، ومن فاتـه فليس بين الناس من خالد
كن المعزى ، لا المعزى به ان كان لابد من الواحد

وحذف المكتوبجي كلمة « خالد » لأن والى بيروت اسمه خالد ، ولا يجوز ايراد اسمه في سبيل الحزن والتعزية ووضع المكتوبجي كلمة « كائد » بدلا من « خالد » .

وقد استشهد أحد الشعراء ببیت للشاعر الأخرس قال فيه :

وان الميالى لم تزل بورودها تسئل علينا بالأهله خنجرا
ولكن المكتوبجي لم تعجبه كلمة « خنجر » فحذفها واستبدلها بكلمة « تكذرا » .

وطبع يوسف أفندي حروفش كتابا في الأمثال باللغتين الفرنسية والعربية ومن بينهما المثل المعروف « الحركة فيها بركة » وأمر المكتوبجي بشطب هذا المثل لأن لفظ « الحركة » يفيد « الثورة » .

وأقفل القوس . . بعد ان كاد الحديث عن الرقابة والمكتوبجي في الأيام الأخيرة للدولة العثمانية يكاد يطول . . !!

على أن معظم ما جاء في هذه الكلمة عن مجلة المشير التي كان يصدرها الصحفي اللبناني سليم سرقيس في (سبتمبر ١٩٠٨) .

وقد كنت باستمرار تواقا ، الى معرفة الرأى الآخر ، الذى يعبر عن وجهة نظر السلطان عبد الحميد الهدف الأكبر لكل تلك الحملات الضارية التى استمرت سنين طويلة ، حتى تكتمل الصورة وحتى يصبح الرأى والرأى الآخر معا فى دفعة كتاب واحد ، الى ان وقعت فى يدي مذكرات السلطان عبد الحميد التى ترجمها د. محمد حرب والتى نشرها فى سلسلة كتاب الهلال (أكتوبر ١٩٨٥) وقد قدم د. حرب كتابه بقوله : ان دعاة القومية العربية ، يعتبرون عبد الحميد رمزا للقضية الديكتاتورية وان القوميين الأتراك يدينون عبد الحميد لأنه اهتم بالعرب اهتماما فاق اهتمامه بالأتراك ، وهنا ضرب - المترجم - مثالا واحدا وهو أن أول برقية تهديد للجيش الذى زحف لاسقاط عبد الحميد كانت من العرب وبالذات من شريف مكة ولم يهدأ الشريف الا عندما خدعه قائد الجيش المذكور ببرقية قال له فيها : اننا نزحف على استانبول لحماية السلطان عبد الحميد .

وعلى الساحة الفلسطينية نجد أن الفلسطينيين يذكرون السلطان عبد الحميد الثانى بكل تقدير وبكل احترام ، ذلك لأنه حمى بلادهم ، ولم يفرط فيها فهى فى نظره الأرض المقدسة التى ينبغى أن يحميها كخليفة للمسلمين . كذلك اليهود أبغضوه بعد ان حاولوا تقديم مساعداتهم المالية له . وعلى الساحة اليهودية لا يخلو كتاب يهودى من ادانة عبد الحميد بأنه عرقل الفكرة الصهيونية ، وعندما فشلوا فى اقناعه أيدوا معارضيه سواء من العثمانيين أنفسهم : الاتحاد والترقى ومن شابههم .

وأيدوا المحافظ الماسونية فى الجيش العثمانى وفى الدولة . «وأقاموا» فى أوروبا قيامة الصحافة حتى جعلوا من عبد الحميد السلطان الذى ينفر منه المثقفون الآن .. !!

ونشير - اجمالا - الى بعض ما جاء فى مذكرات السلطان عبد الحميد من أنه أصدر فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٩٠ وفى ٧ يوليو من نفس العام ارادتين سلطائيتين بعدم قبول الصهاينة فى الممالك الشاهانية (الأراضى العثمانية) واعادتهم الى الأماكن التى جاءوا منها .

وأبلغ عبد الحميد أوامره الى نظارة الشئون العقارية بعدم بيع أراضى للمهاجرين الى فلسطين .. !!

ويقول السلطان فى مذكراته ، أنه كان مشفقا على الأدباء الذين هاجموه ، وأنه لو كان عدوا للأدب لكان قد منع عن نامق كمال بك راتبه الذى كان يدفعه له من جيبه الخاص حتى يوم وفاته .

« ولما كنت أوظف ابنه فى الحكومة ، ولو كنت عدوا للأدب ولفن التاريخ لما تحملت صفاقة مراد بك (المؤرخ) الذى عمل فترة ضد تاجى وضد عرشى » .

ولما رحبت بأن يبقى فى خدمة الدولة فى آخر لحظة لى فى سلطنتى وبمرتب مريح » .

ويقول ان الذين أقصوه عن الحكم لم يعملوا حتى عشر ما عمله .
وان الديون فى عهده هبطت الى ٣٠ مليون ليرة من ٣٠٠ مليون ليرة .
وعن مدحت باشا يقول السلطان : أنه وال جيد وسياسى فاشل ،
وان مدحت باشا ينادى بالديمقراطية ولكنه - فى الحقيقة - مستبد ، وأن
الأحرار بقيادة مدحت باشا كانوا يدمنون الخمر ، ويعربدون .

ويذكر عن مدحت باشا أنه بعد أن سكر سأل زوج أخته طوسون
باشا : يا باشا .. من يستطيع الآن بعد ما وصلت اليه ان يبعدنى عن
منصبى ؟ من ، قل لى ؟ كم عاما سأظل فى الصدارة العظمى ؟ وان طوسون
باشا رد قائلا وهو يدفع مدحت دفعا الى جناح الحریم : اذا بقيتم على هذا
الحال فليس أكثر من أسبوع » .

وقد بلغنى - السلطان - هذه الواقعة فى نفس الليلة من أحد
« الأحرار » الذين كانوا مشاركين فى تلك السهرة الحمراء .

ويشير السلطان الشكوك ضد مدحت باشا فيقول : ان أجانب حاولوا
تهريب مدحت باشا من الطائف الى مصر وأن بارجة الإنجليزية فى البحر
الأحمر كانت متأهبة للمشاركة فى عملية التهريب تلك .

ويقول السلطان أنه فى إحدى السهرات بمنزل مدحت باشا حيث
كان حاضرا كمال بك وضياء بك ورشدى باشا وآخرين من رفاقهم يعاقرون
الخمر . قال مدحت باشا : ليس فى الأسرة العثمانية الملكية خير يرجى
ولم يبق الا الالتجاء نحو الجمهورية ، ترى : كيف هذا ؟ . ان عدة
أشخاص مثلكم يفهمون المسألة الآتية : يوجد فى العالم حتى الآن ما يسمى
بآل عثمان . ماذا يحدث لو ظهر ما يسمى بآل مدحت ؟ !!

وقد علمت - السلطان - بهذا من أحد الذين حضروا هذه الجلسة .
ويقول السلطان « ان مدحت باشا مأسونى ، وقد احتجت انجلترا
على عزلى لمدحت باشا » .

ويقول السلطان أنه عندما تقرر محاكمة مدحت باشا لاشتراكه في قتل عمى فوجئت بمدحت باشا يتصرف تصرفا يظهره كمجرد رابطة الجاش :

لقد اتجه مباشرة الى القنصلية الانجليزية ليحتمى بها .
ووجد أن القنصلية فى عطلة ، فلبأ الى القنصلية الفرنسية واحتوى بها .

ولم يكن هناك ثمة دليل أكثر ادانة . فان وزير عثمانيا وواليا يفكر فى اللجوء الى سفارة أجنبية ، خوفا من أن يمثل أمام المحكمة لدليل واضح ووثيقة أكيدة تدمغه تماما .

هذه الحادثة أحنيت رأس العثماني أمام الصديق وأمام العدو .
وقد اغتمت نفسى وأحسست بالمهانة عندما علمت بهذه الحادثة ذلك لأن هذا التصرف الذى أقدم عليه أثقل وطئا من الجريمة المدعى عليه فيها .
انه تصرف لا يمكن الصفيح عنه .

ومع ذلك خففت حكم الاعدام على مدحت باشا بعد أن ثبت اشتراكه فى قتل عمى السلطان عبد العزيز .
ولكنى لا أستطيع العفو عن وزير وصدر أعظم عثمانى يتعاون مع دولة أجنبية .

لابد أن موقفه أثناء القبض عليه ورغبته فى اللجوء الى القنصلية الانجليزية ، جعلاه يفصح بوضوح عمن يشق به ، وعمن يخونه ، ومع كل هذا تذكرت خدماته التى قدمها للدولة أثناء كان واليا وخففت حكم الاعدام الصادر ضده الى السجن » .

ويذكر السلطان ان الشاعر نامق كمال كان على علاقة طيبة به وأنه - نامق كمال - نقل اليه ما قاله مدحت باشا ذات ليلة ، ماذا يحدث لو حل آل مدحت محل آل عثمان .

وأن نامق كمال كان يخشى من القانون الأتباعى ومن تشكيل مجلس المبعوثان من عناصر مختلفة .

وقد دعانى الى اليقظة من أخطار هذا القانون الأساسى بالصورة التى انتهى اليها .

ويقول السلطان : ان نفيه لكمال لم يكن للأساءة الى قلمه ووطنيته .
وانما خوفا من أن يشترك فى أعمال توجب توقيع أنواع من العقاب أكثر فعلا عليه .

لقد نفيتته الى (باغوسا) لكن محبتى له لم تنتقص فى يوم من الأيام .

ليكن فى أى مكان ، لكنه هو وأسرته ، كانوا يعيشون مرفهين .
والخطابات التى أرسلها لى تعبر عن امتنانه وشكره وهى محفوظة بين أوراق يلدز .

لقد كان كمال نامق انسانا وطنيا .
كان يرى ان بقاء الملك فوق كل شىء .
ولقد ساعدت المعارضين .

بذلت - مثلا - مساعدات مادية كبيرة لهم بحجة شراء صحفهم وأغمضت عينى عن ارسال بعض الأشخاص نقودا اليهم لكى لا يكونوا أداة للأجانب .

وكنتم أقول ان معارضتهم - رغم خطئها - فانها يجب ان تظل شريفة .

ويطيل السلطان عبد الحميد فى الحديث عن التآمر الأوروبى ضده :
فقد وجهوا الى اللوم لأننى قصرت فى مشكلتى تونس ومصر .

ولكنى - فى الواقع - كنت ضد الحرب ، ولو كنت اندفعت للمقاومة فى تونس فربما تسببت فى ضياع سورية ، ولو وقفت بعتاد فى مصر ، لكنت بالتاكيد فقدت فلسطين والعراق .

ويقول ان الانجليز كانوا دائما أعداءه وأن سر عسكرى (وزير الحربية - السر عسكر) عونى باشا قد أخذ من الانجليز أموالا . . » ان رجلا من رجال الدولة يأخذ أموالا من دولة أخرى ، لابد وان يكون قد قدم لها خدمات : معنى هذا أيضا أن خلع المرحوم عمى السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله ، لم يكن حقدا فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لدولة أخرى أيضا .

لقد أخبرنى سفيرنا فى لندن موسوروس باشا أن حسين عونى باشا تقاضى مالا كثيرا من يد أجنبية فى انجلترا ، ولم يعلم سفيرنا بهذا الا فى وقت متأخر جدا .

وعندما وصل الى الخبر كان حسين عونى باشا قد مات . . ولكن مسألة أن قائدا عثمانيا يقبل نقودا من دولة أجنبية عمل لا يستهان به .

لم يهزنى - السلطان عبد الحميد - شيء فى حياتى هذا ضيخما قدر
شخص يرتفع الى مقام قيادة الجيش أو الى مقام الصدارة ، ويقبل نقودا من
دولة أجنبية .

هذا شيء أكثر من أن أحتمله .

مدحت باشا مثل حسين عونى أتبع سياسة مؤيدة للانجليز ولكن
واضح للعيان ان للانجليز يدا فى عزل عمى السلطان عبد العزيز خان .
وان كان ليس عندى دليل على اتهام مدحت باشا .

ويقول السلطان : ان أعدائى من تركيا الفتاة كلهم من أعضاء المحفل
الماسونى الانجليزى وكانوا يتلقون - بعد تحقيقات دقيقة أجريتها - معونة
مادية من هذا المحفل .

لقد سادت، لديهم رغبة فى اسقاطى من فوق عرشى وتنصيب أخى
مراد مرة أخرى ، هل لأن أخى السلطان مراد كان مثلهم ماسونيا ؟
أم لأن التفكير أفضى بهم الى أن أخى مراد يمكن أن يكون آلة فى أيديهم
ينفذ كل شيء .

ولقد أثارت انجلترا مسألة الأرمن لابعاد الرأى العام عن أعمال
تدخلها فى مصر .

وكانت - انجلترا - تعمل جاهدة على تركيز انتباه العالم على تركيا .
وقد وقفت الصحف الأوربية كلها ضدى بشكل دائم
هاجمتنى .. لقبتنى بالسلطان الأحمر .
وألبت الرأى العام العالمى ضدى .

ولم أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال وخاصة بعد معرفة اثاره
الدول الكبرى لهم بلا توقف .

لكنى اندهشت لأن بعض أفراد تركيا الفتاة الذين هربوا الى أوروبا
وأصدروا هناك صحفا ضدى كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات
الأرمنية .

كما دهشت لأنهم كانوا يأخذون منهم أموالا . كانوا يقولون أنهم
يريدون انقاذ الدولة العثمانية من التمزق .

ثم يتعاونون مع الذين يعملون على تفتيت الدولة ، ويتعاهدون معهم .

انهم لم يهدموا عبد الحميد وانما هدموا الدولة العثمانية » .

وبعبارة صريحة وواضحة يقول السلطان عبد الحميد - وهذا كلام يجب أن يكون موضع دراسة متأنية - كم هو أمر غريب أن يصل العثمانيون الجدد الذين هربوا الى أوروبا الى مرامهم باسقاط عمى عبد العزيز خان . سقط عبد العزيز خان ، وقامت من بعده فورا الحرب الروسية العثمانية ١٩٠٣ فآخذت نصف منطقة الروملى .

ومثلهم تماما الأتراك الشبان - تركيا الفتاة - الذين هربوا الى أوروبا لاسقاطى ووصلوا الى مبتغاهم باسقاطى ثم دخلوا الحرب العامة فأضاعوا الامبراطورية العثمانية .

كل من الفريقين تعلم داخل البلاد .

كل من الفريقين كان - أيضا - معجبا بالغرب .

كل من الفريقين كان يرى الخلاص الوحيد للبلاد يتركز فى المشروطية (القانون الأساسى) .

كل من الفريقين اتخذ جزءا من الجيش العثمانى لتحقيق آماله الذى اعتمد عليه كل من الفريقين ، فتمزقت الأوصال من الداخل .

نعم كم هو نجل غريب جدا أننى عشت أحداث الحادثتين : جربت بالصبر ما لم يستطع عمى عمله بالغضب وعملت أنا على الصفيح والعفو ، فيما لم يستطع عمى النجاح فيه بالعقاب .

انظر الى أمر أكثر غرابة : العثمانيون الجدد ، وتركيا الفتاة ، كانوا يؤازرون جميعهم الدول الكبرى التى ترغب فى تمزيق أوصال الدولة العثمانية وتفتيتها ، كان هؤلاء الشباب أمل الدول الكبرى ، لو نفذوا ما تشاؤوه هذه الدول فان فى هذا خلاص الدولة العثمانية ، واذا لم تكن آذانهم صاغية لأقوالهم فان فى هذا زوال الدولة العثمانية . وفى المرتين انهزمنا مع أننا نفذنا ما أرادوه ، فعلنا ما قالوه ، فهل تفتحت بعد كل هذا أعين الذين يعيشون فى آخر حفنة من تراب الوطن . . ؟ أرجو الله هذا . أولادى . . هم هؤلاء الذين أعدهم الوطن وقد جابوا هذا العالم الكبير فكيف لم يفتنوا الى الحقيقة التى رأيتها وأنا فى قصرى بين أربعة جدران .

ويقول السلطان عبد الحميد : ان الانجليز والفرنسيين والروس وحتى الألمان والنمساويين - أى كل الدول الأوربية الكبرى - وجدت

مصلحتها في تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها ، والمشاهد أن هذه الدول الكبرى تنهش في بعضها البعض لكنها سرعان ما تتفق وتتحالف اذا ما تعلق الأمر بمقاتلة العثمانيين .

ويعود السلطان الى حكاية المحافل الماسونية ، فيقول : رأيت خطابا تسلمه أحمد جلال الدين باشا من علي كمال بك في مصر يذكر فيه أسماء ومصادر التمويل اسما اسما .

وفي هذا الخطاب يذكر ان الدكتور عبد الله جودت ، والدكتور اسحاق سنكوتى ، والدكتور بهاء الدين شاكر ، والدكتور ناظم ، والدكتور ابراهيم تيموا ينتسبون الى المحافل الماسونية الفرنسية والاطالية ، وأن هذا المحافل تسلم عائلات الثوار ضدى الموجودة داخل البلاد النقود يد يد .

هذا ما كتبه علي كمال بك وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات ان الماسونية جعلت من المتسكعين اعلاما .

ثم يقول السلطان . سيقولون لى : أنت تعلم كل هذا ، ومع ذلك لم تتصد له ، ولم تمنعه ، لماذا أغمضت عينك عن خراب الدولة وانهيارها . جاشا :

ليست المسألة مسألة اغماض عين ، لقد كنت يقظا في كل لحظة ولكنى لم أكن أستطيع منع هذا .

وكنت وحدى بمفردى ، وكان معهم كل عالم العدو . . لم تكن طبيعتى وظروفي تساعدنى الا بهذا القدر .

يديننى أصدقائى بأئنى متساهل ، أما أعدائى فيقولون أنى ظالم غدار . . والجانبان مخطئان فلا أنا كنت السلطان سليم الأول ، ولا بلاد السلطان سليم الأول كانت تحت امرتى . . الاطاحة فورا بعدة رؤوس كلام من السهل قوله . . من الصعب تنفيذه ، وكل رأس انسان تفتح أمام الانسان هوة .

ولو استطاعت أن تملأ هذه الهوة فسيخافون منك وتستطيع عندها أن تهدد ، وكل ما تهدد به سينفذ .

وفي حالة عدم تنفيذ هذه الهوة فليس هناك شيء يمكن عمله .

وأنا انسان رحيم منذ ميلادى ولكنى أعلم ان الدولة لا يمكن ان تدار بالرحمة .

أديت واجبي ، سعييت وراء الصالح .

• حرصت على ألا أؤذي الأهالي

• عارضت سفك الدماء في كل مكان

ولكن عبثا ما فعلته . . ليس ما قدمته لأعضاء تركيا الفتاة شفقة
قيلادي مثلا أصبحت ضحية لغفلة هؤلاء الأتراك الشبان ، وانها لغفلة
لا يمكن الصفح عنها .

ويقول السلطان عن جمال الدين الأفغاني أنه مهرج وعميل للانجليز ،
وكان هو وبليونت يعملان على أقصاء الخلافة عن الأتراك .

واقترحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على
المسلمين .

ويقول : كنت أعرف جمال الدين الأفغاني وقد اقترح على ان يثير
جميع مسلمي آسيا الوسطى .

• وكنت أعرف أنه قادر على هذا وكان رجل الانجليز .

ومن المحتمل جدا أن يكون الانجليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري
وقد استدعيته عن طريق أبي الهدى العبادي الحلبي .

• وعندما جاء الى استانبول لم أسمع له مرة أخرى بالخروج منها .

ومن بين ما كان يحرص عليه السلطان ، أن جنديا شريفا ارتقى في
مناصب الدولة الى رتبة الباشا لا يصح أبدا ان يقبض عليه وتقيده يده
مهما كان ذنبه ظالما أنه لم يخن بلده ، ولم يتعاون مع العدو ، أو يحرص
الجيش على الفرار .

• ويقول أنه كان كالبيستاني ، يحمي أزهاره من الحشرات الضارة .

ولقد قمت بحماية شعبي من الأفكار التافهة . وينفي السلطان
عبد الحميد تدخله في أحداث ٣١ مارس ويؤكد أنه رفض إيقاف الجيش
الزاحف لاسقاطه وأكد أنصاره أنه كان سيستأزل عن العرش بمحض
إرادته . . « لم أرغب في أن أريق دماء جنودي ، كنت أرى أن الأمة لم
تعد تثق بي ، وكنت سأنسحب من تلقاء نفسي وأدع مكاني عندما تسكن
الأمور وتهلأ » .

ولكن . . ماذا قال السلطان عبد الحميد عن آخر أيامه في قصر
يلدر : لعلها المرة الأولى التي نسمع فيها رواية السلطان نفسه عما حدث
له : منذ أن وقع حادث ٣١ مارس بدأ القلق يساورني من الخلع ويزعجني
كثيرا ، الا أنه من الغريب أن الفترة من ٣١ مارس الى اليوم الذي صدر
فيه قرار المجلس القومي هي أكثر الأيام هدوءا واطمئنانا بالنسبة لي لأنني
كنت واثقا من تصرفاتي .

هدمت جمعية الاتحاد والترقي نفوذ الحكومة في نظر الشعب ،
وهدمت حادثة ٣١ مارس أيضا قوة الجمعية ولو لم أكن قد أحسنت
استعمال مقام الخلافة ونفوذ السلطة لكان الدم يسيل مدرارا سيوا في
استانبول أو في الولايات .

صور أعدائي وكأنني طلبت من النمسا أن تحميني شخصيا وتحمي
استمرار سلطتي .

كما صوروا الأمر وكأنني قدمت تنازلات للنمسا في مسائل أخرى
غير مسألة البوسنة والهرسك .

اني أرفض بكل اشمزاز هذه الفرية ، فاني لم أعدم حتى أطلب
لنفسى حماية دولة وأشخاص أجنبية .

وقد كان بإمكانى ان أمنع قرار عزلي قبل اصداره . ولكن لم أتوق
لهذا .

كنت أستطيع الفرار حتى الساعة الأخيرة ، فلو كنت سافرت الى
أوروبا مدة من الزمن لكنت أعود مرة أخرى قبل أن يمر وقت طويل وفي
الوقت الذي أعرف فيه هذا ، لم أنحط ولم أتمكن الى درجة الفرار .

ثرت جدا بالطريقة التي أبلغوني فيها قرار خلعي أكثر من الخلع
نفسه .

فقد انتخبوا وفدا من الأعيان ، والمبعوثان جاءوا بضجة وضجيج
حتى وصلوا الى غرفتي . . . واجهني أحدهم بتصرف قبيح غير مهذب وهو
تيراني أسعد باشا وقال لي : عزلتك الأمة . لقد كانوا في غاية السفالة
عندما واجهوني بكلمة العزل في الوقت الذي كان لابد ان يضعوا بدلا
منها كلمة الخلع . (وفي المصطلح العثماني . . الخلع للسلطين ، العزل
للموظفين) مسكينة هذه الأمة أو لو تعلم النتيجة التي تنتظرها . . !!

ويقول السلطان عبد الحميد أنه وجه كلامه لعارف حكمت باشا -
من الوفد - قائلا : اننى أنحنى للشريعة ولقرار مجلس المبعوثان .

اننى مستريح الضمير ، وانما أريد أن يكون معلوما جيدا أنه لم يكن
لى أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التى تفجرت فى ٣١ مارس
وعلى أمتى أن تبحث عن هؤلاء الذين كانوا السبب فى هذه الأحداث وعليها
أن تحاسبهم .

ويعبر السلطان عن آخر رغباته بأن يسمح له بقضاء أواخر أيامه
مع أولاده فى قصر جراغانه الذى أقام فيه أخاه السلطان مراد .

اضمنوا لى هذا الأمر ، وغدا أعبر الحديقة وأقيم فى دائرتى وقال
عارف حكمت باشا : ان هذا الأمر خارج عن صلاحيات الوفد وسيعرض
رغبته الشاهانية على المجلس .

وطلب السلطان من على جواد كبير الأمناء متابعة الأمر وأخبره
بالنتيجة ، كما يقول أن ابنه عبد الرحيم كان بجواره يبكى ، والصراخ
يعلو من ناحية مكان الحريم .

وكانت أصوات الجنود قادمة من فناء القصر ، كما كانت أصوات
المدافع آتية من خارج القصر ، وهى تعلن مراسم جلوس السلطان الجديد
محمد رشاد .

وكان أولادى وبناتى والمرافقين يدخلون ويخرجون من عندى ، وكل
منهم يتحدث حديثا مختلفا أو يبكى أو يواسينى ، وكنت أعرف ان هذا
عيب ، ومع هذا كنت أعمل بكل جهدى على مواساتهم .

وأخيرا أبلغنى على جواد بك أننى سأقيم فى قصر صغير فى سلاتيك .

ويكرر السلطان آخر رغباته دون جدوى ويقول السلطان فى سخرية
بالغة : كان كبير أمنائى يحاول أن يبدو عذب المظهر تجاه أصحاب
السلطة الجدد حتى لا يفقد سلطته .

وقد جاء بعد برهة ليخبرنى بصوت عال هذه المرة : انت مجبر على
الذهاب الى سلاتيك ، وأن وفدا برئاسة الفريق حسنى باشا ينتظرنى كى
يخرجنى من القصر .

وطلب السلطان أن يدخل الوفد فملا الغرفة بضجيعه .

وكرر السلطان رغبته الأخيرة ، ولكن حسنى باشا أكد للسلطان
ان المجلس يرى أنه من المحذور اقامته فى استانبول .

وأنه يمكنه اصطحاب من يريد من أفراد عائلته .

وان سلامة حياته وحياة كل من اصطحبه معه يكفلها الجيش الذى
تعهد بشرفه على هذا .

ثم قال حسنى باشا مخاطبا السلطان : يا جلالة السلطان : اذا لم
تقتنع جلالتك بكلامي هذا ، فتفضل ها هو ذا مسدسى أقدمه لك وسأجلس
أمامكم تماما فى العربة طوال الطريق .

واذا أحسستم جلالتك بذرة من عدم الأمن فاقتلنى ووجدت -
السلطان - الا فائدة من التشبث بالاقامة فى استانبول حتى لا يرتابون
فى ، لم أتقوه بشئ آخر ثم قلت : حسنا . وخرجنا فقط بما علينا من
ملابس فلم يكن هناك وقت يسمح لنا بأخذ أشياء معنا .

وتقول الأميرة شادية - ابنة السلطان - وقد عاصرت تلك الأحداث :
عندما قال جواد بك لوالدى السلطان لماذا لم تفكر فى كل هذه المصائب
من قبل ؟ أجابه والدى بقوله : الله المستعان فى وقت المحنة .

واغرورقت - فى نفس هذه اللحظة - عينا والدى بالدموع ، لحظتها
لو أدخل أحدهم خنجرًا فى قلبى ما كنت أحس به من فرط الحزن والذهول .
وعندما أحاط الجنود المسلحون بالمكان أخبرونا بضرورة الاسراع
فى الركوب .

لم يكن والدى راغبا الكلام ، وعندما تكلم قال : يا أولاد أقيموا مع
أمهاتكم .

فاطمة فقط هى التى ستأتى معى لأن ليس لديها أطفال .

وتوجهت شادية لتقول لوالدها : سيدى ووالدى . اننى أعذر فانى
لن أستطيع تنفيذ أمرك هذا فى هذه اللحظة .

اننى يا سيدى استودعت الله أمى .

وأنا لا أريد شيئا الا أن أكون بجوارك حتى آخر لحظة من عمري .

سأكون بجوارك يا أبى مهما كان المقدر علينا .

قلت - شادية - هذا لجلالته وأسرعت الى احدى العربتين المنتظرتين
النقل السلطان الى منفاه .

وتركت - شادية - قصر يلدز - فى الظلام ، والظلام كان يسود
القصر منذ أسبوع قطعوا فيه التيار عنا وعن القصر .

وركبنا القطار الى محطة سيركجي ونحن برفقة الضباط .

وكان أبى لا يبدو عليه أى اضطراب وكدر وعندما نظر الى قال :

كل ما يشغلنى ينبع من التفكير فى احتمال تعرض البنات والفتيات فى القصر للاعتداء عليهن أما عنى فلا قيمة لحياتى .

لقد قدم أجدادى خدمات جليلة للدولة وللأمة ومع ذلك كانت نهاياتهم مفعمة .

وأدركت - شادية - فى تلك اللحظة ولأول مرة فى حياتى كم كان والدى عظيما قويا صبوراً .

ثم أيقظونا فى منتصف الليل وأنزلونا الى أرض فضاء فى ضوء مصابيح اليد وأخذوا بأيدينا حتى نستطيع النزول من القطار .

وسرنا بين أعشاب طويلة وصل بعضها الى ركبنا حتى وصلنا الى مكان فيه عربات تنتظرنا .

وركبنا وسارت الرحلة بنا بين الموت والحياة .

وكان أخى الصغير فى منتصف عامه الثالث وكان يبكى جوعاً وكلاماً بكى وضعت له أمه بعض نقاط ماء حملته معها .

ووقفنا أمام باب كبير وقال لنا فتحنى بك أوقيار رئيس حراسنا ان هذا هو قصر الأنبيى الذى ستقيمون به .

ولم يكن بالقصر سوى مائدة وبعض كراسى موجودة فى قاعة الطعام وقد اختار أبى غرفة فى الدور الأول وكان يضع كرسيين متجاورين ويتخذ منهما سريره .

وخوفاً من أن يستولى الهم والحزن على والدى اتجهت نحوه وضحكت متظاهرة بأنى فرحة .

وقبلنى فى خدى وقال لى : يا بنيتى اذا لاحظت أننى أفكر فلا تظننى أنى حزين ولا تنزعجى . . من سيخلد فى الدنيا . . ان الموت هو عاقبتنا جميعاً . . !

وأقمنا جميعاً فى الغرفة المجاورة لغرفة أبى وظلت الغرفة الأخرى خاوية ، وأصبح من المفهوم أننا نخضع لنظام اعتقال فى سجن .

لم يكن فى القصر - مثلاً - صابون ، وكنا نستخدم ما كان يستخدمه أصحاب القصر من صابون .

وكانت المياه قدرة ، ولم يكن مسموحا لنا بأن نفتح شيش النوافذ .
ولذلك كنا محرومين من الشمس والهواء ، وكنت أخلع ملابسى التى
أرتديها ثم أغسلها وأنتظر عارية حتى تجف لكى ألبسها .
وكذلك كان الآخرون يفعلون نفس الشيء .

والجدير بالذكر ان الذين قرروا عزل السلطان عبد الحميد حرصوا
على أن يكون من بين أعضاء الوفد الذى سيبلغ السلطان قرار العزل أحد
اليهود - نائب سالانيك - كما أنهم حرصوا على أن يعتقل السلطان فى
قصر أحد اليهود - فى سالانيك ، وهو قصر الأتيني الذى سبق الإشارة
إليه .

آخر ما اتخذته الجيش الثالث من اجراءات ضد السلطان عبد الحميد
أنهم أجبروه على ان يتنازل عن أمواله فى المصارف الأوربية .

وتحت الضغط وقع على التنازل ، ولكن مديرى تلك البنوك لم
يقتنعوا بهذا التوكيل فجاءوا الى السلطان عبد الحميد - فى قصر الأتيني -
ومعهم الأموال كلها فى عديده من الحقائق طالبين ان يتسلمها على انفراد .
وبعد أن يتسلمها ، يسلمها لمن يريد تسليمها ايام .

وبعد أن تسلم السلطان عبد الحميد الحقائق قام بتسليمها لمبعوثى
الجيش الثانى والثالث .

وأقول ان ما جاء بمذكرات السلطان عبد الحميد وبمذكرات ابنته
شادية قد أذهلنى الى حد كبير فلم أكن أتوقع ، أن يعامل السلطان
عبد الحميد . . وشقيقه لا يزال متربعا على عرش الخلافة ، يمثل ههنا
الدرجة من القسوة والعنف .

ولم أكن أتصور - مجرد تصور - أن الأحرار الجدد الذين رفعوا -
كما قالوا - رايات الحرية ، وثاروا كما قالوا على الفساد والظلم يمكن أن
ينزلوا الى هذه الدرجة من البغى والطغيان .

لقد كان بإمكانهم ان يحاكموا ذلك السلطان .
وكان بإمكانهم - لو شاءوا - أن يعدموه .

وقد كان البعض يجد لهم العذر لو أنهم لجأوا الى تلك الطريقة التى
يلجأ اليها كل من نجح فى أحداث انقلاب أو ثورة .

أما ان يعاملوا هذا الشيخ الكهل بمثل تلك الدرجة من الفظاعة
والاجرام .

أما ان يعاملوا أهله ومنهم فتيات وأطفال صغار - لم يرتكبوا اثما
ولم يقتربوا جريمة - كما يعامل عتاة المجرمين فأمر غريب حقاً
لا يتفق أبداً والشعارات التي رفعوها .

ونتهى الحديث في هذا الموضوع الخيوى الهام بما جاء في كتاب
« موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية » لمؤلفه الأستاذ حسان
على حلاق والذي أذاع فيه بعض الوثائق الجديدة الخاصة بدور الصهيونية
والماسونية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني والذي استعان فيه
بالعديد من المؤلفات العربية الهامة التي تناولت هذا الموضوع ، وخاصة
« حول الصهيونية واسرائيل » (هاني الهندي) ، « تاريخ سوريا ، ولبنان
وفلسطين » (فيليب متي) « الدولة العثمانية والشرق العربي »
(د . محمد أنيس) « سورية والعهد العثماني » (يوسف الحكيم)
« الاسلام وبنو اسرائيل » (جواد رفعت تلخان) « الانقلاب العثماني
وتركيا الفتاة » (روى بك الحالدي المقدسي) وكان حسان على حلاق ،
قد خصص الفصل الخامس من كتابه من دور اليهود في خلع السلطان
عبد الحميد الثاني ، مشيراً في البداية الى رفض السلطان عبد الحميد اعطاء
أية امتيازات خوفاً من خطر الصهيونية .

وقد كان السلطان عبد الحميد قد عبر عن أسباب رفضه اعطاء
اليهود أية امتيازات في فلسطين أو في أي جزء آخر من الدولة العثمانية
قائلاً : ان دولا أوروبية كثيراً ما أرادت التخلص من اليهود وأيدت هجرتهم
الى فلسطين ولكن في دولتنا عدد كبير من اليهود فاذا كنا نريد أن يستمر
العنصر العربي الاسلامي متفوقاً في فلسطين يجب ألا نسمح بهجرة اليهود
إليها واذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا بالهجرة فانهم بعد فترة قصيرة ،
سيسيطرون على الحكم ، وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم ونكون بذلك قد
قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد !!

ان الصهيونية لا تريد أراضي زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة
فحسب ، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ، ويصبح لها ممثلون في الخارج .
اننى أعلم أطماعهم جيداً ، واننى أعرض هذه السفالة Saflik لأنهم
يظنوننى انى لا أعرف نواياهم أو سأقبل بمحاولاتهم . وليعلموا أن كل
فرد في إمبراطوريتنا كم يكن لليهود من الكراهية طالما هذه نواياهم ،
وأن الباب العالى ينظر اليهم مثل هذه النظرة . واننى أخبرهم أن عليهم
أن يستبعدوا فكرة انشاء دولة في فلسطين لأننى لازلت أكبر أعدائهم .

وكان من الأسباب التي أدت الى رفض السلطان عبد الحميد اعطاء أية امتيازات لليهود تجنب اثاره العرب من جهة ولتجربته مع الأقليات اذ هو لا يريد - هانى الهندى - أقلية جديدة تتعبه وعندما تيقن زعماء الصهيونية من اصرار السلطان على رفض اعطاء أية امتيازات لليهود اتجهوا الى الدول الأوروبية الكبرى عليها تساعد في تحقيق أهدافهم وفي الفترة التي اظهرت الصهيونية عداوتها للموقف العثماني ظهرت نقمة يهود الدولة العثمانية على السلطان عبد الحميد فاستغلوا كل خلل في الدولة للاستفادة منه ورأت الصهيونية العالمية مع بعض الدول الأوروبية وبالاتفاق مع يهود الدونمة حتمية انهاء حكم السلطان عبد الحميد لأن اطماع الصهيونية في فلسطين لا يمكن تحقيقها طالما بقى في الحكم .

وقد لعبت - حسان على حلاق - المحافل الماسونية مع يهود الدونمة دورا مؤثرا في التخطيط لخلع السلطان وكانت بمثابة العقل المدبر كما كانت الدول الأجنبية بمثابة الممول لأنه كان لها نفوذ كبير في أوساط الباب العالي وبين الأتراك الشبان وكان السلطان عبد الحميد يشك دائما في المحافل الماسونية ونشاطاتها لما كانت تقوم به من نشر للشقاق والتمرد في مملكته وفي صفوف الجيش وقد تأسست محافل ماسونية عديدة في الآستانة وازمير بعضها تابع للشرق الأعظم الانجليزى ، وبعضها للفرنسى أو الايطالى الى أن أنشأ « الأخ الكلى الاحترام » كما يقال في الشعارات الماسونية المعترف عليها - حليم باشا - مجمعا وطنيا ترأسه ، وتعددت محافله ، بحيث أصبح عدد الماسون الأتراك المسلمين عام ١٨٨٢ نحو عشرة آلاف شخص من بينهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار المسئولين وكان من بين ما جاء في وثائق مؤتمر بال الأول ١٨٩٧ « الى أن يأتى الوقت الذى نصل فيه - أى الصهيونيين - الى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم ، وسنجذب اليها كل من يكون معروفا بأنه ذو روح عسامة وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل فيها على ما نريد كما انها ستكون أفضل مراكز الدعاية .

والماسونية كما تقول دائرة المعارف الأمريكية عام ١٩٠٦ ودائرة المعارف اليهودية من افراعات الحركة الصهيونية .

وقد ذكر الحاخام اسحق وايز في مجلة اسرائيلي أمريكا « ٣ آب - أغسطس - ١٨٦٦) أن الماسونية مؤسسة يهودية في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وتوضيحاتها .

انها يهودية من البداية حتى النهاية .

وقد قرر الشرق الأعظم الفرنسي في عام ١٩٠٠ . إزاحة السلطان عبد الحميد وضرورة جذب حركة تركية الفتاة منذ بداية تكوينها - ارنست راموزور - (تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨) وقد أثرت المبادئ اليهودية والماسونية على منتسبي صحيفة الاتحاد والترقي وقد بدأ عدد اليهود يتضاعف في تلك الجمعية ثم ازداد خطرهم بعد دخول يهود الدونمة المستترين Cryptic jew المقيمين في سالانيك ولما كانوا بحاجة الى المال - أي جماعة الاتحاد والترقي - فقد أمدهم اليهود بالمال بالإضافة الى الأماكن الماسونية التي كانوا يباشرون نشاطهم من داخلها .

وقد أكد Seton Waston أن أصحاب العقول المحركة لثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ كانوا يهودا ومن الدونمة وأما المساعداة المالية فانما كانت تأتيهم عن طريق الدونمة ويهود سالانيك المتجولين .

ومما يذكر أنه عندما خرجت الجماهير نائرة - في شوارع سالانيك - ٢٣ (يوليو) تموز ١٩٠٨ واجتمعت في ميدان أولمبيوس . كان أول الخطباء من « فندق أولمبيوس بالاس » غالب أفندي وقد خطب بالتركية ثم مانويل قرصوه وقد خطب باليهودية الأسبانية ثم روصو أفندي وخطب بالفرنسية .

وتؤكد صحيفة التايمز البريطانية (١١ يوليو « تموز ١٩١١) ان لجنة سالانيك قد تكونت تحت رعاية ماسونية بمعاوضة اليهود والدونمة وكان مركزهم سالانيك وأن يهودا مثل قارصوه وسالم ، وساسون ، وفارجي ومازلياخ ومن الدونمة مثل جاويد واسرة بالخي قد لعبا دورا بارزا في تنظيم اللجنة المذكورة وبعد ثورة ١٩٠٨ ازداد النفوذ اليهودي في أوساط السلطات العثمانية ليس في تركيا وحسب وانما في فلسطين أيضا وبدأ تدفق المهاجرين ومن بين ما ذكره راموزور - وهو من مواليد كاليفورنيا وكان نائبا للقنصل الأمريكي في استمبول في الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٥٠ - أنه يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية تقريبا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية .

ويعترف رفيق بك - احدى الشخصيات البارزة لجمعية الاتحاد والترقي - لمحرر جريدة تايمز « الباريسية » في ٢٠ أغسطس ١٩٠٨ من أنه كان للمحافل الماسونية اصبع في ثورة ١٩٠٨ التركية .

وقد وجدنا سنداً معنوياً من الماسونية وخاصة الماسونية الايطالية فالمحفلان الايطاليان La bort lux, Maredona Ristora قد قدما لنا خدمة حقيقية ووفرا لنا الملاهي فكنا نجتمع لتنظيم أنفسنا كما اننا أخذنا

معظم رفقاتنا من هذين المحفلين اللذين ساعدنا كغريبال نظرا لما كانا
يبديانه من دقة في الاستفسار عن الأفراد .

وكان في مقدمة ما آلم السلطان عبد الحميد أن الهيئة التي كلفت
بإعلامه محتوى الخلع في ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ (٧ ربيع الآخر
١٣٢٧) كانت مكونة من عارف حكمت باشا رئيس الوفد وعضوية كل
من أسعد طوقباني باشا وغالب باشا واران الهندي الأرمني ومن زعماء
اليهود قارصوه .

وقد أشار السلطان الى قارصوه قائلا : ما هو عمل هذا اليهودي في
نظام الخلافة .

وسأل رئيس الوفد بأى قصد جئتم بهذا الرجل أمامي .

وكان قارصوه هذا قد اعتقل بتهمة التجسس (١٩٠٨) في قصر
بيلدز وسيق الى السجن وقد عفا عنه السلطان عبد الحميد وكان السلطان
يجد في اشتراك عمانوئيل قارصوه في الوفد اهانة لمقام الخلافة وقد
حرص الاتحاديون على وضع السلطان المخلوع وحريمه وحاشية صغيرة في
فيلا ألاتيني وهي تخص أحد اليهود الأغنياء في جمعية الاتحاد والترقي
ووضع شقيق رمزي بيه (كولونيل من الدونمة) حارسا على السلطان
عبد الحميد وقد وقعت معركة يدوية بين نصير بك أحد نواب الأحرار ،
وممثل ألبانيا في مجلس (المبعوثان) وحسين جاهيد بك صاحب
صحيفة طنين وقد نشرت صحيفة نهضة العرب في باريس ١٤ مايو
(آيار) ١٩٠٩ مقالا لكاتب مجهول تحت عنوان : الاسرائيلية في جمعية
الاتحاد والترقي .

وقد جاء في هذا المقال . تناقل العارفون من الناس ما كان من أمر
الاسرائيليين والماسون مع جمعية الاتحاد والترقي واشتراكهم في نهضتها
وقيامهم بمناصرتها حتى ذهب البعض الى أن فوزها كان ثمرة مساعيهم
ثم توسعوا في البيان فقالوا : ان اليهود لما قنطوا من تحقيق أمانيتهم في
عهد الحكم السالف باستملاك أراضي فلسطين . وتشبيد مملكة اسرائيلية
فيها كما هو معلوم عنهم لدى الخاص والعام عمدوا الى الماسونية ولهم
فيها اليد الطولى كما لا يخفى ، فاتخذوها آلة لترويج مقاصدهم في تلك
الأرجاء وجروا في هذا السبيل على خطتهم المعروفة في التسلط على
الحكومات الأوروبية فاستعانوا بالماسونية واستتروا وراءها ، ودفعت
الماسونية جمعية الاتحاد والترقي ومدتها بالرأى والمال ، وجعلت أندية
لها ملجأ فامتنع على أعوان السلطان المخلوع ولوجها وانضم اليها أمراء
العسكرية وأخذوا مع الجمعية بنشر مبادئهم وأفكارهم في الولايات

المكدونية واستمالوا اليها الكثيرين وفازوا بالقوة التي مكنتهم من قلب الحكم المطلق وتبديله بالدستور .

ويتابع الكاتب قوله : « ومعلوم أن اسم الجمعية « الاتحاد والترقي » هو اسم اللوج الماسونى فى سلانيك . فاشترك الماسونية فى نهضة الأحرار أمر ثابت لا يختلف فيه اثنان ، وما كان ذلك ليدعو الى التخوف والتوجس ما دامت نتيجه تأييد الحرية والمساواة وخير الأمة والبلاد ، ولكن الذى جعل الأمر موضوعا للتأويل والاشتباه انما هو الحركة الاسرائيلية الكامنة وراءه وغاية اليهود من السعى بالفتنة فى الدولة والعمل على دمارها ليشيدوا على خرائب آل عثمان المملكة الاسرائيلية التى ما برحوا يحلمون بها . أما اللائحة التى بنوا عليها هذا التدبير فهى فى اعتقادهم أن المتمسكين بالدين من مسلمى العرب والترك لا يرتاحون الى الحرية والمساواة فى دولة هى قاعدة الخلافة الاسلامية فيقومون على الأحرار ويقع بينهم الشقاق والنزاع وتضطرب الدول الأجنبية الى وضع يدها لحماية مصالحها الكثيرة وتحقيق مطامعها الكبيرة . ويزيد فى توسيع الخرق ما هى عليه العناصر العثمانية من التباين والتنافر فيستحكم البلاء ويفضى الشر الى تشتيت شمل الدولة وهدم أركانها وبذلك يبلغون القصد ويتم لهم المراد .

أنه لم يكن ليصدق هذا القول « حتى وقفت فى الجرائد آخرا على التفاصيل المتعلقة بالجيش المكدونى وفيها أن معظم العساكر التى تألفت منها حملة سلانيك كان من اليهود ، وكان الضباط يولونهم الأفضلية على عساكر المسلمين فأدهشنى هذا الخبر ، ثم ما لبثت ان طالعت عن الوفد الذى حمل للسلطان عبد الحميد فتوى الخلع ، وقد تألف من أربعة أعضاء بينهم اسرائيليان عمانويل قره سو رئيس اللوج الماسونى فى سلانيك وسلمون ابران . وعثرت فى جريدة « النيويورك هيرالد » و « البرلينر تاجبلاط » وغيرهما من جرائد العالم الكبرى أن زعماء جمعية الاتحاد والترقى من عسكريين وملكيين انما هم تلامذة قره سو فى سلانيك . وقرأت أيضا فى عددكم الأخير ذكر الاسرائيليين فى وفد الخلع وحملكم ذلك على حمل التساهل وحرية الضمير عند جمعية الاتحاد والترقى ، فلم يعد عندى مجال للتردد ورأيت فى ذلك غير ما رأيت ، ولا يسعنى بعد كل ما ظهر وثبت أن أخالف القائلين بمآرب اليهود ودسائس سياستهم الخفية .

وأضاف الكاتب مستنكرا على الاتحاديين توكيلهم اليهود بتنفيذ فتوى الخلع للسلطان بقوله « متى كان الأئمة تعهد الى اليهود بتنفيذ الفتاوى الشرعية وتندبهم سفراء الى خلفاء الاسلام يتلون عليهم نص

الشرع الشريف ويبلغونهم ارادة الأمة بخلعهم عن كرسى الخلافة ؟ بل ما الذى اضطر جمعية الاتحاد والترقى يا ترى الى تأليف الوفد على هذه الصورة ، وكيف رضى الاسرائيليان بأن يكونا ممثلى الاسلام فى هذه المهمة ؟ أفاتهم ما يكون من تأثيره على المسلمين ، أم أيقنوا بالفوز العاجل فظنوا انهم قبضوا على عنان الدولة وقريبا ينشرون فوقها راية اسرائيل ؟ ولعمري لا أرى هناك الا استدراجا فى الخطة التى آلوا على أنفسهم اتباعها ، وقد ناصروا أصحاب الاتحاد والترقى حتى ولو هم الحكم بالسيف ومكنوهم من العرش فخلعوا سلطانا ونصبوا سلطانا واستأثروا بحق يختص بالمسلمين ، ثم باهوا به وافتخروا وقالوا : جمرة نلقيها فى صدر الاسلام فتتلقى على فتیان الترك فنصليها بينهم نارا حامية تلتهم الدولة وتقوض أركانها فنقيم على بقاياها هيكل أورشليم » .

ويحمل الأستاذ حسان على حلاق وجهة نظره فى ذات الموضوع قائلا :

ان محاولة السيطرة على فلسطين جرت عمليا منذ عام ١٧٩٨ وليس أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ذلك حينما قام نابليون بحملته على الشرق وتوجيهه نداء الى اليهود لمؤازرته فى السيطرة على الأراضى المقدسة واسكان اليهود فيها . وكان اليهود فى عداد الممولين الأوائل للحملة الفرنسية ، كما أن يهود الدولة العثمانية قاموا بتقديم العون وتيسير سبل الحملة وان كانوا قد انكروا هذا العون . وبعد فشل أهداف الحملة الفرنسية بدأت بريطانيا تعلن حمايتها لليهود بواسطة أول قنصلية بريطانية فى القدس عام ١٨٣٨ ، وقد أرسل يومذاك « بامستون » - وزير الخارجية البريطانية - تعليماته الى القنصل « وليم يونغ » W. Young بضرورة منح الحماية لليهود فى فلسطين . وبدأت وزارة الخارجية البريطانية تسعى لدى الباب العالى لاقتناعه بقبول اليهود كمستوطنين فى الأراضى المقدسة ، وطالبت بريطانيا الحكومة العثمانية عام ١٨٤٥ بطرد المسلمين من فلسطين الى مناطق أخرى فى آسيا الصغرى ، واحلال اليهود مكانهم ، الا أن الباب العالى والحكومة العثمانية رفضا هذا المسعى وهذه المقترحات البريطانية .

وتدعى بعض المصادر الصهيونية من أن حاكم مصر محمد على باشا قد اتفق مع اليهودى البريطانى « مونتفيورى » على استيطان يهودى فى فلسطين بما يترتب على ذلك من وجود حاكم يهودى فى دولة يهودية مستقلة ، الا أن الوثائق المعاصرة لبلاد الشام وفلسطين أثبتت عكس هذا الادعاء ، ولعل وثائق « الأصول العربية لتاريخ سوريا فى عهد محمد على باشا » خير دليل بأن الحاكم المصرى ما كان ليرضى باقامة دولة يهودية

ففي فلسطين فكان طوال سنى حكمه متجاوبا كل التجاوب مع مطالب أهل فلسطين .

أما تسوية لندن عام ١٨٤٠ ، فلم يكن هدفها ضرب محمد علي في مصر والشام وتقليص قدراته الصناعية والحربية والاقتصادية فحسب ، بل كان لهذه التسوية أسباب استعمارية أخرى تتعلق مباشرة بمستقبل فلسطين ، لأن إقامة وحدة عربية اسلامية بين مصر وبلاد الشام من شأنها أن تحول دون تحقيق المطامع اليهودية والأوروبية ، ولأن قيام دولة عربية واحدة ستقطع الطريق على امكانية انشاء دولة يهودية في فلسطين تحت الرعاية البريطانية . ولطالما حرك اليهود الفتن الداخلية في بلاد الشام ولا سيما في عام ١٨٦٠ ، وثبتت ادانتهم في تردى الأوضاع الأمنية في المنطقة ، مما اضطرهم وقتذاك الى طلب الحماية البريطانية وتدخل السير « مونتفيوري » لأنقاذهم مما اتهموا فيه ، ومما يدل على ذلك ما عثرت عليه من وثائق في مجموعة «المحررات السياسية والمفاوضات الدولية في سوريا ولبنان عام ١٨٦٠ » .

واستمر النشاط الصهيونى - البريطانى وتزايد نتيجة لشراء بريطانيا أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥ . وبالدليل القاطع فان أموال هذه الصفقة لم تكن أموالا بريطانية بقدر ما كانت أموالا يهودية ، لأن عملية الشراء تمت بواسطة دزرائيلى رئيس الوزراء البريطانى اليهودى ، وبأموال عائلة روتشيلد اليهودية أيضا ، وقد اعترف « دزرائيلى » بأن الهدف من هذه العملية لم يكن السيطرة على مصر فحسب وإنما السيطرة على فلسطين أيضا ، وفى عام ١٨٨٠ ، صرح بأن من يملك فلسطين يمكنه أن يهدد منطقة القناة . وفى عام ١٨٨٢ قال « ادوارد كوزليت » : ان احتلال مصر قد وحد بين مصالح الامبراطورية البريطانية فى الشرق وبين مصالح اليهود فى فلسطين . وأكد « زانغويل » - الزعيم الصهيونى - هذه الحقيقة بقوله : الآن وليس فى وقت آخر هى فرصة أسرائيل ، لن نصبر لا اليهود ولا فلسطين بعد أن نقلت قناة السويس العالم الى أبواب فلسطين .

وكان يقابل النشاط السياسى الصهيونى نشاط آخر تمثل بالهجرة اليهودية الى الأراضى المقدسة ، ففي منتصف القرن التاسع عشر بدأت الهجرة اليهودية تتخذ طابعا خطرا على البلاد لما أظهرته من أهداف استيطانية ولكن عدد اليهود حتى عام ١٨٣٩ كان لا يتجاوز ستة آلاف مقابل ثلاثمائة ألف عربى أى بنسبة ٢٪ من السكان . وبتزايد الهجرة اليهودية تزايد خطر القادمين فقد بلغ عددهم بين عام ١٨٨٢ وأوائل القرن العشرين حوالى مائة ألف مهاجر ، مما حدا بالحكومة العثمانية فى اصدار

عدد من القوانين الخاصة بالهجرة التي استطاعت بها أن تقلص من عددهم
حيناً ، وتحد من سبل الهجرة المتدفق حيناً آخر .

وكان مؤتمر بال عام ١٨٩٧ قد أقر بضرورة انشاء وطن للشعب
اليهودى فى فلسطين ، رغم معارضة عدد كبير من اليهود ، ولكن المنظمة
الصهيونية استمرت فى مساعيها مع الدولة العثمانية والدول الاستعمارية
والأوروبية لتحقيق مشروعها ، غير أن القوانين العثمانية والفرمانات
السلطانية منعت الى حد كبير تدفق المهاجرين اليهود نظرا لخطورة هجرتهم
على مستقبل فلسطين ، ونظرا لتسببهم فى تأخر فلسطين اقتصاديا واجتماعيا
وصحيا . ولكن يلاحظ أنه رغم اصدار القوانين العثمانية فان المتصرفين
والحكام المرتشين لعبوا دورا مؤثرا فى انجاح الهجرة اليهودية ، بالإضافة
الى فساد الادارة الضرائبية العثمانية وطرح أراضى الفلاحين الفلسطينيين
بالمزاد العلنى استيفاء للضرائب ، كما أن الاقطاع اللبناني والسورى
والفلسطينى قد ساهم الى حد كبير فى عملية بيع الأراضى الفلسطينية الى
القادمين اليهود .

والجدير بالذكر أنه بالرغم من الواقع الأليم الذى عاشه الفلاح
الفلسطينى فقد استمر متمسكا متمسكا شديدا بأرضه وعمله وجعلها تدر
خيرات وفيرة ، لكنه فى الوقت الذى شعر فيه أن حياته أصبحت مهددة
بالخطر نتيجة لسلب أرضه أو طرده من عمله أبدى معارضته الشديدة
واحتجاجة المستمر على الواقع الجديد . والحقيقة أن ردود الفعل
الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية ، تعود الى بداية الهجرة ، ويمكننا أن
نستخلص من تقرير « أسعد خياط » القنصل البريطانى فى يافا عام
١٨٥٨ أن ردود الفعل العربية لم تبدأ فى أواخر القرن التاسع عشر
أو أوائل القرن العشرين كما كان يعتقد ، بل تعود عمليا الى منتصف
القرن التاسع عشر عندما كان يقوم العرب بهجمات مستمرة على اليهود
والأجانب بقصد اربابهم ومنعهم من الاستيطان فى فلسطين . واحتج
القنصل على أن القاضى عندما أمر بعدم تسجيل صكوك بيع وشراء عقارات
ومزارع للأوروبيين والأميركيين على السواء ، إنما كان يخالف الاتفاقات
المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية . ويمكن القول أن
الاضطرابات قد ازدادت فى فلسطين بعد سلب أراضى الفلاحين أو شرائها
قسرا من قبل الحكومة العثمانية « والمقاطعية » - الاقطاع - اللبنانيين
أمثال عائلات : توينى ، سرسق ، مدور وغيرها ، والفلسطينيين أمثال
عائلات : كسار ، روك ، خورى ، وحنا وغيرها . وفى عام ١٨٨٦ هاجم
الفلاحون الخضيرية وملبس - وهى القرى التى كانوا يملكونها فى الأساس
- مما أجبر الدولة عام ١٨٨٧ على فرض قيود على الهجرة اليهودية . وفى

عام ١٨٩٠ قدم وفد من وجهاء القدس عريضة احتجاج للحكومة العثمانية بسبب تساهل رشاد باشا وعدم تقيده بتنفيذ قوانين الهجرة القاضية بمنع دخول اليهود الى فلسطين ، وطالبوا باصدار فرمان سلطاني يمنع استيطان اليهود بصورة نهائية ، وقد وقع على هذه العريضة ٥٠٠ من الاهالي مما يدل على وعي و يقظة الشعب الفلسطيني . وفي عام ١٨٩٧ ترأس محمد طاهر الحسيني لجنة عربية للوقوف في وجه الاستيطان اليهودي ومراقبة تسجيل وبيع وشراء الاراضي .

ومن الأهمية بمكان القول ، أنه اتضح لي من خلال دراستي لمواقف الزعامات العربية أنها لم تكن على مستوى الخطر الصهيوني ولا على مستوى يقظة الشعب الفلسطيني الذي لمس بنفسه مدى هذا الخطر على مستقبل بلاده . فكانت هذه الزعامات تنقسم الى قسمين رئيسيين : القسم الأول كافح من أجل انهاء السيطرة العثمانية على البلاد العربية ، والقسم الثاني كافح من أجل انهاء السيطرة الأوروبية - وبالذات البريطانية - على هذه البلاد ، ودعا الى دعم الدولة العثمانية . وبينما تمثل الزعامات الشامية القسم الأول ، تمثل الزعامات المصرية القسم الثاني . والواقع أنه بالرغم من وعي هذه الزعامات سواء على مستوى السيطرة العثمانية أو السيطرة الأوروبية ، غير أنني لم أجد أن هذا الوعي قد تعدى حدود ذلك رغم أن الخطر الصهيوني كان ماثلا للعيان ، بدليل أن بعض الزعامات العربية مثل « أمين أرسلان » - وهو مثال للزعامات الشامية - و « مصطفى كامل » - وهو مثال للزعامات المصرية - لم تتحرك بفعالية ونشاط ، بل لم تبد اهتماما يذكر بالحركة الصهيونية وأخطارها على مستقبل الاراضي المقدسة ، وربما يعود سبب ذلك الى انشغال هذه الزعامات اما بالاستعمار البريطاني كما هو في مصر ، أو الانشغال بالسيطرة العثمانية كما هو في بلاد الشام ، على أن ذلك لا يبرر الصمت التام عن الخطر الصهيوني حينئذ ، والتأييد للمنظمة الصهيونية أو الاعجاب بها حينئذ آخر . وبالإضافة الى ذلك فقد اتضح لي من خلال البحث بأن الصحافة العربية لم تكن كلها أيضا على مستوى الخطر الصهيوني ، ولكن شذت عن هذه القاعدة مجلة « المنار » ووعي صاحبها رشيد رضا هذا الخطر الذي نبه اليه منذ عام ١٨٩٨ . وتلت « المنار » فيما بعد صحيفة « الكرمل » التي عبرت في الفترة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ عن وعي سياسي ناضج برئاسة صاحبها نجيب نصار . كما أن « المشرق » بدأت بعد الثورة على السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ - ١٩٠٩ تبين أهداف الحركة الصهيونية على فلسطين . وينبغي أن نذكر في هذا المجال أن بعض الزعامات الفلسطينية كانت تعي

الخطر الصهيوني وتظهره منذ عام ١٨٩٩ مثال : يوسف ضيا الخالدي ،
كما أن بعض المفكرين اللبنانيين أشاروا الى أهداف الحركة الصهيونية
منذ عام ١٩٠٥ مثال : « نجيب عازوري » .

ويلاحظ بأنه بعد ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ تبدلت السياسة
العثمانية ازاء فلسطين والبلاد العربية وازدادت موجة الهجرة اليهودية ،
بينما كانت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد تعمل
ما بوسعها لمنع الاستيطان اليهودي في الأراضي المقدسة . وكان هذا الموقف
قد أبداه السلطان منذ بداية عهده عندما جاءه « أوليفانت » (Oliphant)
المبعوث اليهودي لمطالبته بانشاء كيان لليهود في فلسطين ، فكان رد
السلطان بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية منطقة من المملكة
الا في فلسطين ، لأن الدولة ترحب بالمضطهدين ولكنها ترفض مساعدة
اليهود في اقامة دولة لهم في فلسطين يكون أساسها الدين .

والجدير بالذكر أن سياسة عبد الحميد الثاني ازاء الاتحاديين
والصهيونية ودول أوروبا قد أدت الى اتفاق هذه العناصر مجتمعة للقيام
بثورة ١٩٠٨ . وبواسطة المحافل الماسونية تمكن ضباط الاتحاد والترقي
من التحرك بفعالية أكثر ، لأن وجودها في سلانيك كان يضمن لها الحماية
الدولية على اعتبار انها إحدى الولايات الثلاث الخاضعة للمراقبة الدولية .
وعلى هذا يمكن ان نستخلص من دراسة الوثائق التي بين أيدينا أن ثورة
الاتحاد والترقي هي ثورة يهودية - دولية قبل أن تكون ثورة تركية أو
عثمانية ، لأن لجنة سلانيك الاتحادية تكونت تحت رعاية ماسونية دولية
وبتأييد من اليهود ويهود الدونمة ، وان عناصر يهودية مثل : قارصوه
وسالم وساسون وفارجي ومازلياح وجاويند وبالجي ، قد لعبوا دورا
أساسيا في تنظيم هذه اللجنة وفي انجاح الثورة . كما وأن معظم اليهود
قد أظهروا حماسا متزايدا في ضرورة التقدم وبسرعة نحو العاصمة
لاحتلالها ، وكان الجيش الزاحف نحوها أيضا بقيادة الكولونيل رمزي بيه
هو أحد يهود الدونمة . وبالإضافة الى ذلك فان الصهيونيين في فلسطين
أظهروا اهتماما بالغا بالثورة على أمل تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه أثناء
حكم السلطان عبد الحميد وقد أكد مثل هذه الحقائق جميع الدبلوماسيين
البريطانيين أمثال : لوثر وبلش ومارلنغ .

وتؤكد الوثيقة السلطانية الحميدية المرسلة الى الشيخ محمود
أبو الشامات - والتي ثبت صحتها - بأن السلطان ما خلع عن العرش الا
لأنه رفض عرض (١٥٠) مليون ليرة ذهبية مقابل انشاء وطن قومي

لليهود . ولذا فقد حرصت المنظمة الصهيونية في عهد السلطان محمد رشاد على الحصول على قانون يسمح لليهود بالهجرة والتملك والغاء الجواز الأحمر ، كما أن النفوذ اليهودي والصهيوني ظهرا بوضوح في أوساط الحكومة الجديدة ، لا سيما وأن وزير المالية جاويد بك كان أحد اليهود الذين كان لهم الدور البارز في قرار خلع السلطان ، مما أدى الى قيام حركة معارضة ضد سياسة الحكومة وضد سياسة وزير المالية بشكل خاص ، وتمثلت هذه المعارضة بممثلي المبعوثان صادق بك ومفيد بك ، ونواب فلسطين الثلاثة : روى الخالدي ، سعيد الحسيني ، وحافظ السعيد . وبالإضافة على تأكيد الوثائق البريطانية لدور اليهود في ثورة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ وتزايد نفوذهم في العهد الاتحادي ، فقد أكدت أيضا الصحف المعاصرة هذه الحقائق ومنها صحف : المشرق ، والمنار ، والعصر الجديد ، ونهضة العرب . ولعل في دراسة مقال : « الاسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي » لأحد العثمانيين المسلمين في باريس هو خير شاهد على ما جرى من ملابسات وظروف الثورة والخلع ، الذي ورد فيه تأكيد على كل الحقائق التي سبق وتناولتها في هذا البحث ليأتي مقالا ملما بكل أسباب ونتائج ثورة الاتحاديين . ولا بد لي أخيرا من ذكر نتيجة من نتائج البحث ، وهي أن المسئولية تلقى في هذه الفترة على جهات أربع هي :

١ - الادارة العثمانية الفاسدة المرتشية والتي كانت في كثير من الأحيان تخالف قرارات السلطان والحكومة .

٢ - الاقطاع اللبناني والسوري والفلسطيني الذي ساهم الى حد كبير في تردى أوضاع الفلاح الفلسطيني وسهل عمليات بيع الأراضي للمهاجرين اليهود .

٣ - الزعامات العربية التي لم تلعب الدور الفاعل في توعية الشعب العربي بأخطار الحركة الصهيونية ، رغم أن شعب فلسطين لم يتوان في اظهار ردود فعله المستمرة . كما وأن تلك الزعامات لم تظهر معارضتها لحركة الهجرة اليهودية ، وكل ما فعلته هو تركيز جهودها في معارضة الدولة العثمانية أولا وبريطانيا ثانيا .

٤ - الدول الاستعمارية التي ساعدت الحركة الصهيونية بأسلوب أو بآخر لتحقيق أهدافها الأولية في القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٠٩ .

وأستأذن في الاستطراد مرة أخرى في موضوع دور الصهيونية والماسونية والاستعمار الأوروبي في تدمير دولة الخلافة الاسلامية بأيدي أبنائها : أبناء دولة تلك الخلافة بطبيعة الحال لا بأيدي أبناء الصهيونية

والماسونية والاستعمار الأوروبي ، معتمدا على كتاب عن « السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده » للأستاذ ورخان محمد علي ويوميات هرتزل - باعث الصهيونية ، في عهدها الجديد - وبعض وثائق هامة كانت بحق جديدة على وهي بلا شك جديدة على كثير من الدارسين في مصر والبلدان العربية الشقيقة .

ومن خلال يوميات هرتزل تتجلى سياسة المنافع التي هي لب الصهيونية فلقد عرضت الصهيونية بلسان هرتزل وبواسطة رفيقه تيولنسكى الذى كان صديقا للسلطان عبد الحميد مساعدته في المسألة الأرمنية التي كان رأى العام الأوروبي تأثرا على السلطان بسببها مقابل موافقة السلطان على انشاء وطن قوى لليهود في فلسطين فماذا كان رد السلطان عبد الحميد على العرض الذى تقدم به تيولنسكى :

إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما انت صديقى فانصحك ان لا يسير ابدا في هذا الأمر . لا اقدر ان ابيع ولو قدما واحدا من البلاد ، لانها ليست لى بل لشعبي لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم ، وقد غدوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا : لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفي فلسطين ، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر فى « بلقنه » لأن أحدا منهم لم يرض بالاستسلام ، وفضلوا أن يموتوا فى ساحة القتال : الامبراطورية التركية ليست لى وانما للشعب التركى . لا أستطيع أبدا أن أعطى أى جزء منها : ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل انما لن تقسم الا على جثتنا ، ولن اقبل بتفريطها لأى غرض كان .

وعندما تحدد موعد لمقابلة السلطان لهرتزل نبه فابيرى صديقه هرتزل بأن يكون حذرا عند مقابلة السلطان ولا يتحدث عن الصهيونية لأنه يكرهها وكان قول فابيرى بالحرف الواحد كما جاء فى يوميات هرتزل : اياك أن تحدثه عن الصهيونية ، القدس مقدسة عند هؤلاء الناس مثل مكة .

« أوضح لى فى هذه المقابلة السلطان أنه على استعداد لأن يفتح امبراطوريته أمام اللاجئين اليهود بشرط أن يصبحوا رعايا عثمانيين بكل ما يفرضه ذلك عليهم من واجبات من حيث القانون والخدمة العسكرية » .
وعليهم - على اليهود - قبل أن يدخلوا بلادنا ان يتخلوا عن جنسياتهم السابقة ويصبحوا رعايا عثمانيين .

وبهذه الطريقة يستطيعون سكنى أية مقاطعة فى البلاد عدا فلسطين
فى بادىء الأمر مقابل ذلك أن يؤلف اليهود وكالة لتصفية الدين العام
وللقيام باستثمار مناجم معادن الامبراطورية كلها .

ويضع السلطان فيما بعد شروطا أخرى هى الا يكونوا جميعا فى
مكان واحد ، بل يفرقوا فى أماكن تعينها لهم الدولة ، كما أن الدولة
التركية هى وحدها التى ستحدد الرقم المحدد لقبول المهاجرين اليهود .

وقد كان السلطان عبد الحميد أبعد الحكام المسلمين والعرب نظرا
فيما يتعلق بخطر الصهيونية على المسلمين والعرب .

لقد أصدر ثلاثة فرمانات وجدت نسخة مكتوبة منها بخط السلطان
نفسه كتبها فى ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ذى القعدة لسنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩١)
نصوصها ما يلى :

الفرمان الأول :

ان قبول الذين طردوا من كل مكان ، فى الممالك العثمانية
سيؤدى فى المستقبل الى تشكيل حكومة موسوية ، لذا فان اجراء
هذه المعاملات غير جائز وبخاصة أن الممالك الشاهانية ليست من
قبيل الأراضى الخالية والمتروكة ، ولما كان من المفروض ارسال هؤلاء
الى أمريكا ، لذا فلا يقبل هؤلاء ولا أمثالهم ، بل يجب وضعهم فى
السفن فوراً لارسالهم الى أمريكا ، وان يتخذ مجلس الوزراء قرارا
قطعيا بخصوص تفاصيل هذا الأمر وعرضه علينا ، اذا ما الداعى
لقبول من طردهم الأوروبيون المتمدنون ولم يقبلوهم فى ديارهم .
وفضلا عن ذلك فان هناك دسائس كثيرة ، لذا فان هذا الأمر غير
جائز على الاطلاق .

وبناء على ذلك ، وحتى لا يبقى هناك أى مجال بعد الآن لأية
معروضات أخرى فى هذا الخصوص ، تعاد هذه المذكرة للصدارة
العظمى لاتخاذ قرار عام فى هذا الموضوع .

الفرمان الثانى وكان بعد سبعة أيام من الفرمان ونصه :

ان قبول هؤلاء الموسويين واسكانهم أو اعطائهم حق المواطنة
شئ ضار جدا فقد يتولد عن هذا فى المستقبل مسألة حكومة
موسوية . لذا يجب عدم قبولهم ، وان يؤخذ هذا فى الحسبان عند
عرض المسألة ، وان يعرض هذا القرار بسرعة هذا اليوم ، وان تعطى
المعلومات للصدارة العظمى من السكرتارية الخاصة .

الفرمان الثالث وكان اصداره فى اليوم التالى لاصدار الفرمان الثانى
وهذا نصه :

لا يحق لأية دولة أن تعترض على عدم قبولنا للموسويين الذين
طردتهم دولة متمدنة ولم تقبلهم الدول المتمدنة الأخرى ، وهؤلاء الذين
يحتجون ويعترضون علينا كان الأخرى بهم الاحتجاج على الدول التى
طردتهم ورفضت قبولهم .

وبناء عليه فإن هؤلاء الموسويين لو أسكنوا فى أى مكان (من
أجزاء الامبراطورية) فانهم سوف يتسللون الى فلسطين شيئا فشيئا
مهما اتخذت من تدابير ، وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع
وحماية الدول الأوروبية ، ولن يعمل هؤلاء فى الزراعة والفلاحة ، بل
سيحاولون الاضرار بالاهالى كما فعلوا فى البلدان التى طردوا منها .
وما دام هؤلاء كانوا يصدد الهجرة الى أمريكا ، اذن فإن من المناسب
أن يهاجروا الى هناك ، ونرى وجوب المذاكرة بشكل مفصل فى هذا
الموضوع فى اللجنة العسكرية .

وحول زيارة اليهود للقدس أصدر السلطان سنة ١٩٠٠ تعليمات
تأكيدا لما كان قد أصدره من تعليمات سابقة عام ١٨٨٧ كانت فى صيغة
قانون نافذ :

المادة الأولى :

لابد للموسويين - سواء أكانوا من رعايا الدولة العلية أو من
الممالك الأجنبية - الذين يذهبون لفلسطين لأجل الزيارة أن يحملوا
معهم تذكرة مرور - أو جواز سفر - تتضمن صفة وغاية السياحة
وتابعة حاملها .

المادة الثانية :

على جميع هؤلاء الزوار الموسويين الذين يصلون ولاية بيروت
أو الى أى ميناء من موانى ولاية القدس الشريف ايداع تذاكر مرورهم
أو جوازات سفرهم لدى موظف الجوازات ، والحصول - مقابل
قرش واحد - على تذكرة زيارة أو اقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر فى
فلسطين ، ولتيسير تمييز هذه التذاكر عن غيرها يجب أن تكون
بلون وشكل متميز ، ويجب ابراز هذه التذكرة لموظفى الدولة
وللشرطة عند الطلب فى أثناء السياحة أو الإقامة ، ويخرج بقوة
الشرطة أو بوساطة قنصل الحكومة المنتسب اليها كل من يتجاوز
هذه الأشهر الثلاثة .

المادة الثالثة :

يجب تنظيم قائمة بمدرجات وتواريخ تذاكر الإقامة المؤقتة للزوار الموسويين المذكورة في المادة السابقة ، وتنظم هذه القوائم في نهاية كل شهر ليتسنى اخراج الذين يتجاوزون هذه المدة ، وكذلك معاقبة الموظفين الذين يتهاونون في هذا الخصوص .
المادة الرابعة :

إذا ظهرت في الجداول المنظمة لأمر السياحة والإقامة أية مخالفة لدى الزوار الذين يكملون المدة المسموحة لإقامتهم أو سياحتهم ويتركون أرض فلسطين أو يأتون ميناء بيروت لركوب البواخر أو ينهون مدة إقامتهم ، أو الذين يزودون بوثائق المرور ووثائق الإقامة فيجب اتخاذ إجراءات حازمة ضد المخالفين وضد الموظفين المسؤولين عن تطبيق هذه التعليمات .

والكى تزداد الصورة وضوحا نركز على ما ذكره الأستاذ أورخان محمد على عن جمعية الاتحاد والترقي وعزل السلطان عبد الحميد :

يقول الأستاذ أورخان ان انشاء جمعية الاتحاد والترقي تم في ٢١ مارس ١٨٨٩ أثر اجتماع عقده طالب الباني اسمه ابراهيم تيمو كان يدرس في المدرسة الطبية العسكرية السلطانية مع بعض أصدقائه من الطلاب طارحا عليهم فكرة انشاء جمعية سرية تسعى الى عزل السلطان عبد الحميد وتشكلت من هؤلاء الطلاب نواة جمعية الاتحاد والترقي .

وكان تنظيم تلك الجمعية - كما يؤكد مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ د . ارتست ا . رامزور - على غرار جمعية الكاربوناري الايطالية التي تشكلت في القسم الأول من القرن التاسع عشر ففي العطلة الصيفية - تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ - لعام ١٨٨٨ - أي في العام السابق لانشاء جمعية الاتحاد والترقي ، كان تيمو قد توقف في برنديري - الميناء الايطالي المعروف - عندما كان في طريقه الى بلاده (البانيا) .

وقد زار خلال اقامته في برنديري ونايولي محفلا ماسونيا يرافقه أحد أصدقائه ونعلم شيئا كافيا عن دور الكاربوناري في التاريخ الايطالي وقد تأثر بتنظيماتها فيما بعد لما قرر أن ينشئ في تركيا جمعية سرية تشبهها .

وكان - كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ - أثر الكاربوناري في جمعية الاتحاد والترقي واضحا من حيث ان المفروض في أعضائها أن

يعرفوا بعضهم بعضا بأرقام كسرية ، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة فى المنظمة ثم باعطاء رقم لكل عضو فى تلك الجماعة ، فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضو البسط ، ولتوضيح ذلك نقول ان العضو الخامس فى الخلية السابعة كان يدخل فى قائمة الجمعية برقم « ٧/٥ » وكان رقم ابراهيم تيمو منشئ الحركة « ١/١ » .

اذن أورخان محمد على - منشئ جمعية الاتحاد والترقى تدرب على أيدي الماسونيين الايطاليين وكان المنتسبون الأوائل لتلك الجمعية هم :

اسحق سكونى وشرف الدين مغمومى وعبد الله جودت ومحمد رشيد الشركسى واسفاد درويش وهرسكى على رشدى ومحمد غريد وحسن زاده على وحكمت أمين واسماعيل ابراهيم وكريم سيباطى ومكلى صبرى وسلانيكى ناظم ونجيب دراغا وطلعت بك وشطين بك كقوصوالى ابراهيم وكريتلى شفيق وجودت عثمان .

وربما كان فى مقدمة أخطاء السلطان عبد الحميد بل خطاياہ انه كان باستمرار يعفو عن زعماء الجمعية عندما يقعون فى قبضته وكان باستمرار يقول : انهم يدفعوننى لكى اسلك طريق الشدة والعنف ولكنى لا أستطيع ذلك لاننى لا أملك نفس المزاج العنيف الذى كان يملكه جدى السلطان محمود : كان السلطان عبد الحميد لا يكتفى بالعفو ، عن زعماء تلك الجمعية وانما كان يعمد الى استمالتهم بمنحهم مناصب عالية أو يدفع مبالغ معينة اليهم أو نفيهم وتحديد اقامتهم هنا أو هناك مع مخصصات مالية أكبر من رواتبهم الأصلية ولم يؤذ أى واحد منهم خارج هذا أى ايداء لذلك فقسست بيضات الأفاعى تحت جناحى رحمته وكبرت ونمت وانتشرت فى كل جحر ثم خرجت الى الميادين والساحات : وقد بدأت الدولة الأجنبية - تركيا الفتاة - تمتد يد المساعدة الى الاتحاديين ووضعت دوائر بريدھا لخدمة ومساعدة توزيع جرائد ومنشورات الاتحاديين وايصالها ، وتوزيع داخل الدولة العثمانية .

وحول انكشاف المؤامرة الأولى لقلب نظام الحكم والمؤامرة الثانية التى ألقى فيها - مرة أخرى - القبض على معظم رؤوس الاتحاديين فى استامبول (اسحاق سكونى - كريم سيباطى عبد الله جودت ، شرف الدين مغمومى ، الشيخ نائلى ، عبد القادر أفندى وأحمد بك يقول الأستاذ أورخان محمد على :

« وأمام سماحة السلطان وعدم أخذه إياهم بعقاب رادع فقد استمرت الجمعية في الداخل والخارج بنشاطها استنادا الى مساعدات الدول الأوروبية الطامعة في أملاك الدولة العثمانية وعلى رأسها انكلترة وفرنسا، وإلى مساعدة الجمعيات الماسونية التي كانت ولا تزال جمعيات تهيمن عليها الصهيونية الدولية ، لذا فأننا نرى أن الجمعية تخطط لحركة انقلابية في آب - أغسطس - سنة ١٨٩٦ ، أي بعد سنة واحدة فقط من حركة الاعتقالات الثانية والتي انتهت بعقوبات خفيفة كما ذكرنا ، وقد افتضحت المؤامرة قبل يوم واحد فقط من ساعة الصفر فألقى القبض على جميع المشتركين في المؤامرة وأودعوا السجن .

ما هو المنتظر الآن من السلطان تجاه جماعة يضبطهم متلبسين بمؤامرات ، الوحدة تلو الأخرى للاطاحة به ، من حاكم فردى أشاع عنه نفس هؤلاء المقبوض عليهم بأنه قاتل سفاك ، وأنه في وسوسة دائمة على عرشه وعلى حياته ؟!

وللمرة الثالثة يصدر السلطان احكاما مخففة جدا ، اذ يكتفى بنفي جماعة منهم وتحديد اقامتهم في مدن مختلفة من البلاد ، وتبديل وظائف جماعة أخرى ، ولم يعد أي شخص منهم .

ويشرح أرنست رامزور حادثة كشف المؤامرة والحكم على الاتحاديين كما يلي :

(... ولم تنقض الليلة الا وكان كل المشتركين بالمؤامرة قد ألقى القبض عليهم ، وأدى هذا الى نفي المتآمرين الى أجزاء نائية من الإمبراطورية . وقد شملت قائمة المنفيين الزعماء جميعهم : كاظم باشا وحاجي أحمد وشيخ نائلي مع أخويه حقي بك وعيني بك ، وثمانية عشر آخرين من أفراد أسرته ، والشيخ عبد القادر وعشرين من أفراد أسرته ، ومكي صبري وزهدي بك ورئيس ديوان المحاسبة ، وكمال بك المدعي العام لمجلس الدولة وعددا آخر كبيرا وضعوا جميعا على ظهر سفينة ووزعوا على المناطق التي عينت لمنفاهم . أما الذين كانوا يعدون أخطر العناصر فقد أرسلوا الى ليبيا . وهكذا أقام الشيخ نائلي وأقاربه في أماكن كحمص وبنغازي بينما أجبر حاجي أحمد على الإقامة في فزان ، أما مكي صبري فقد أرسل الى الموصل ، غير أنه استطاع بعد بضع سنوات الهرب ، ثم استقر في باريس ، أما المقدم شفيق بك فقد ذهب الى عكا ، لكنه استطاع الهرب بسرعة وذهب الى باريس حيث أصبح أحد الزعماء في الحزب) .

وعندما حاول السلطان استمالة زعماء جمعية الاتحاد والترقي وارسل اليهم - في أوروبا - رئيس استخباراته محمد جلال باشا - سارع هؤلاء الزعماء بقبول الصلح واعلنوا حل جمعيتهم واغلاق جريدة الميزان ورجع زعيمهم مراد بك الى استانبول وتبعه زملاؤه وقبل مراد بك منصب عضو في احدى لجنة شوري الدولة . وعين أحمد بك (باشا) وشريف بك ملحقين عسكريين وعين اسحاق سكوني في سفارة روما ، أما عبد الله جودت فقد عين طبيبا في السفارة العثمانية في فيينا .

ولكن هل يقتنع خصوم دولة الخلافة العثمانية وأعداؤها بذلك ؟ كلا : لقد بدأوا من جديد ينفخون في الرماح وكان هرتزل قد قطع آخر أمل في أن يجيبه السلطان عبد الحميد الى أي مطلب من مطالبه وراحت الماسونية تغير من خططها واوراقها وجنودها واتفق الجميع ، على أن نقطة الارتكاز للعمل على تدمير دولة الخلافة يجب ان تكون في مدينة سلانيك مركز الدونمة (المرتدين) وهم أتباع حاخام يهودي ظهر في أزمير وادعى انه المسيح المنتظر وانه سيخلص اليهود ويؤسس لهم دولتهم وقد اسلم أو تظاهر بالاسلام وسمى - أورخان محمد علي - باسم محمد عزيز أفندي وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود الى الاسلام فسمح له بذلك ، وسلانيك أيضا - مركز يهودي هام كما ان للماسونية فيها نشاط كبير ثم ان سلانيك - وهذا هو المهم - كانت مقر الجيش التركي الثالث والذي يوجد به كثير من القيادات المتزعمة لجمعية الاتحاد والترقي .

ويقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه اعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني :

(... عندما رد طلب الوفد اليهودي - المسند من قبل الامبراطور ويلهم - في الحصول على وطن لهم ، أي عندما خاب هرتزل في مسعاه اشتد العداء ضد « يلدز » وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد ، لأن اليهود يقومون بالعمل المنظم ، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم ، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية ، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم ، فكان في مقدورهم اطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العالمي متى شاءوا ...)

الى أن يقول نظام الدين نظيف :

(- بدأوا أولا بتحريك الصحافة العالمية ، ثم أخذوا بتوحيد وتجميع كل الشروط المعادية لعبد الحميد في المجتمع العثماني ، فاذا بنا نجد أن أنصار المشروطية يتخذون طابعا منظما وهجوميا ، علما بانهم كانوا حتى

ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق ، اذ لم يكن صعبا عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط « الكوزموبوليتي » فيمقدور مثل هذه المنظمة « الكوزموبولوتية » القيام بهذه المهمة . وقد أخذ « المشرق الأعظم الماسوني الايطالى على عاتقه هذه المهمة فى التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسونى للامبراطورية العثمانية . ولعب محفل Macedonia Risorta ومحفل labos lux الايطاليين وخاصة محفل « ريزورتا » فى « سلانيك » دورا ملحوظا (.)

ويقول الدكتور رامزور مبررا سرعة انتشار جمعية الاتحاد والترقى فى سلانيك : ربما كانت سلانيك آنذاك أكثر المدن تقدما فى الامبراطورية العثمانية لأن الأوروبيين فى سكانها المنوعين كانوا أكثر من العثمانيين ، وكان نصف سكانها تقريبا من اليهود السفارين الذين لقوا منذ زمن بعيد فى تركيا الاسلامية تسامحا دينيا لم توفره لهم اسبانية المسيحية ، وفى القرن السابع عشر . أسلم عدد منهم مع رئيسهم شبتاى سيوى ، الذى عد نفسه مسيح ازمير ، ثم صاروا يدعون منذ ذلك الحين الدونمة . وبالإضافة الى ذلك كانت توجد جماعات كبيرة تمثل كل قومية فى البلقان . وكان مستوى التربية العام أرقى بالتأكيد من مستواه فى تركيا الأسيوية .

ان قرب مكدونية من أوروبا ، وتعدد مشاكلها التى تنعكس آثارها فى كل الأمم البلقانية ، وبصورة غير مباشرة فى جميع الدول الكبرى بشكل من الأشكال ، كان من الأسباب التى جعلت هذه الدول الكبرى تضعها تحت الرقابة ، فقد فرضت على السلطان الموافقة على قوة من الجندرمة بأمره ضباط أوروبيين كمحاولة لابقاء الحالة الراهنة القلقة ، وهذا زاد من الصعوبات فى وجه عبد الحميد فى محاولته وقف انتشار الأفكار فى سلانيك وبقية أنحاء مكدونية ، أو فى أن يمنع بأساليبه الدقيقة المعتادة التنظيم الذى كان يعمل بنشاط ضده . كما أن السهولة النسبية للاتصال بالعالم الخارجى كانت أيضا مهمة (.)

ويضطر الدكتور رامزور للاعتراف بدور الماسونية فى حركة الاتحاد والترقى ، فيقول :

(لم يمض وقت طويل على المتأمرين فى سلانيك ، وهى مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهى الماسونية ولما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل هنا بنفس الحرية التى كان يتمتع بها فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ، فان المحافل الماسونية القديمة فى تلك المدينة

استمرت تعمل دون انقطاع - بطريقة سرية طبعاً - وضممت الى عضويتها عددا ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد .

لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافل الماسونية في سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة ، ويبدو أن الجمعية استعملت بعض المحافل أو ربما جميعها لتكون محلات للاجتماع ، وضمت كثيرا من أعضائها واستخدمت الفن الذي نراه الماسونيون في اختبار المرشحين للعضوية ، ومن المحتمل أيضا أن عمل الجمعية سار بسرعة تثير التقدير بسبب هذا الاتصال مع ماسونية سلانيك) .

(ويؤكد لنا دارس آخر للحالة أنه في حوالى سنة ١٩٠٠ قرر « المشرق الأعظم » الفرنسي ازاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركية الفتاة منذ بداية تكوينها . ثم ان محلا آخر يلاحظ : « يمكن القول بكل تأكيد ان الثورة التركية كلها تقريبا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية ») . ويشير الكاتب في الصفحة نفسها الى أن النشرة الماسونية الفرنسية « لاكاسيا Lacacia » تبدو مقتنعة بأهمية الماسونية لحركة تركية الفتاة .

الى أن يقول د . رامزور :

(اتخذت هذه الصلة بين الماسونية وأعضاء تركية الفتاة طابعاً شبه رسمى بعد الثورة مباشرة ، لما قابل مراسل صحيفة باريسية شاباً من تركية الفتاة اسمه رفيق بك . ويبدو أن اجابة رفيق بك توضح أن المحافل الماسونية كانت مفيدة جداً للحركة ، وقد اتخذ هذا أيضاً كدليل على ثورة عالمية فقد قال :

« حقاً اننا وجدنا سنداً معنوياً من الماسونية وبخاصة الماسونية الإيطالية فالحفلان الايطاليان Labor et lux, macedonia Risorta قدما لنا خدمة حقيقية ووفرا لنا الملاجئ ، فكنا نجتمع فيهما كماسونيين ، لأن كثيرين منا كانوا ماسونيين غير اننا في الحقيقة كنا نجتمع لتنظيم أنفسنا ، كما أننا اخترنا معظم رفقاءنا من هذين المحفلين ، اللذين ساعدنا لجنتنا كغربال ، نظراً لما كانا يبديانه من دقة في الاستفسار عن الأفراد ، فكان العمل السرى الذى يجرى فى سلانيك قلما يثير الشكوك فى القسطنطينية كما أن عملاء الشرطة حاولوا عبثاً دخوله . يضاف الى ذلك أن هذه المحافل التمسست من « الشرق الأعظم » فى ايطاليا أن تتدخل السفارة الإيطالية عند الحاجة ، وقد وعد « الشرق الأعظم » بدوره بضمان ذلك » .

(أما فيما يتعلق بأعضاء تركية الفتاة فى أوروبا فيبدو أن عددا منهم ارتبط بالمحافل الماسونية لما كانوا فى المنفى ، الا أنه لا يمكننا تعيين

عند الذين فعلوا ذلك ، بل يمكن القول بالتأكيد أن اثنين على الأقل من أبرز قوادها لم ينضما قط للماسونية وهما أحمد رضا والدكتور (سلايكي) ناظم) .

ويورد الأستاذ أورخان محمد على أدلة ووثائق تكشف - كما يقول بشكل قاطع - بأن المؤامرة التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد كانت مؤامرة يهودية وماسونية وإن الشعارات التي رفعت من قبل جمعية الاتحاد والترقي وهي الحرية والاخوة والمساواة لم تكن إلا شعارات كاذبة مزيفة ولم تكن إلا قناعا وستارا وغطاء للمؤامرة اليهودية الذي استخدمه أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كأدوات في هذه المؤامرة التاريخية الكبرى .

ثقول « ناستا هـ . ونستر Nasta H. Welster مؤلفة كتاب « الجمعيات السرية والحركات الهدامة » .

“Secret Societies and Subversive Movement”

حول علاقة حركة الاتحاد والترقي بالماسونية ما يلي بالحرف الواحد :
(ان حركة تركيا الفتاة نشأت من المحافل الماسونية في سلاييك التي كانت تدار من قبل « الشرق الأعظم » الايطالي) .

ويقول سييتون واطسون في كتابه « نشأة القومية في بلاد البلقان »
The Rise of Nationality in the Balkans ما يلي :

« ان أعضاء تركيا الفتاة ، الذين كان غرب أوروبا على اتصال دائم بهم - كانوا رجالا منقطعين وبعيدين عن الحياة التركية وطراز تفكيرها لكونهم قضوا ردحا طويلا من الزمن في المنفى وكانوا متأثرين وبشكل سطحي بالحضارة الغربية وبالنظريات غير المتوازنة للروح الوحشية للثورة الفرنسية .

كان كثير منهم أشخاصا مشبوهين ولكنهم كانوا دون استثناء رجال مؤامرات لا رجال سياسة ، ومدفوعين بدافع الكراهية والحقه الشخصي لا بدافع الوطنية ، والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة « سلاييك » اذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونية « جمعية الاتحاد والترقي » وهي المنظمة السرية التي بدلت نظام حكم عبد الحميد .

ان العقول الحقيقية للحركة كانت عقولا يهودية أو يهودية - مسلمة ، وقد جاءت مساعداتها المالية من أغنياء « الدونمة » ومن يهود سلاييك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فيينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن أيضا .

ويقول فخري البارودي وهو يصف وضع دمشق بعد نجاح الانقلاب
ضد السلطان عبد الحميد :

(وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوح الماسوني الذي كان
مغلقة قبل الدستور) .
ثم يقول :

(وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه ، وجمع الأعضاء شملهم وأسسوا
محفلا جديدا أسموه محفل « نور دمشق » وربطوه بالمحفل الاسكتلندي) .

ويعترف أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بما يلي :

(كان هناك نوعان من الأعضاء في الجمعية : أحدهما مرتبط بالمحفل
الماسوني وهذا كنا نطلق عليه اسم « الأخ من الأب والأم » وآخر غير
مرتبط بالمحفل الماسوني فكنا نطلق عليه اسم « الأخ من الأب » فقط) .

ويعلق الكاتب التركي المعروف « نجيب فاضل » على هذا الاعتراف
بتساؤل مثير :

(أكان الضباط الاتحاديون في الجيش الثالث تحت أمرة الدولة
يا ترى أم تحت أمرة وخدمة اليهودية ؟) .

والأدهى من ذلك أن هذه المؤامرة التي كانت الأيدي اليهودية
تنسجها من وراء الأستار كانت تتم باسم الإصلاح وباسم مقاومة الظلم
والاستبداد وتحت شعارات براقية مثل : الحرية ، الإخاء ، المساواة .

ولا ينكر الماسونيون الذين أصدروا كتابا لهم في تركيا باسم
« الماسونية في تركيا والعالم »
Diinyadave Turkiyede Masonluk

دورهم في هذه المؤامرة اذ نقرأ فيه ما يلي :

(لم يستطع عبد الحميد الثاني السماح للحركة الماسونية بالعمل
لأنها كانت تحمل مبادئ الحرية ، فقام باغلاق محافلها ، ومع ذلك فقد
استمرت الحركة الماسونية بشكل سري في عملها طيلة السنوات ١٨٧٦ -
١٩٠٩ . وتأسس المحفل التركي الكبير المرتبط بالمحفل الايطالي الكبير
المسمى بمحفل « ريزورتا » في سنة ١٨٨٤ من قبل « سافا باشا ») . و
(... وقد انتشرت الماسونية بشكل خاص في سلانيك وحواليها ، ومع
أن عبد الحميد حاول أن يحد ويشل الحركة الماسونية هناك ، إلا أنه لم
يوفق في مسعاه) و (... وقد قامت هذه المحافل ، لا سيما محفل
« ريزورتا » ومحفل « فاريتاس » بدور كبير في تأسيس وتوسيع حركة
جمعية الاتحاد والترقي . كما كان للماسونيين دورهم في اعلان الحرية
سنة ١٩٠٨) .

وقد كان السلطان عبد الحميد على وعى كامل بأن خيوط المؤامرة المحاكاة ضده هي في أيدي اليهودية العالمية لعدم استجابته لبيع القدس وفلسطين اليها .

ويقول « حسام الدين ارتوك » وهو أحد رؤساء الأمن القومي السابقين في تركية في كتابه « ما وراء الأستار في عهدين iki Devrin perde arkasi » ما يلي :

(قال لي مرة صديقي ملازم أول خيالة « زنون دبره لي » :

عندما كنت في حراسة السلطان عبد الحميد شكنا لي السلطان المخلوع في أحد الأيام قائلا :

« ان أشد ما آلمني هو تبليغي قرار الخلع من قبل ذلك اليهودي الماسوني ، فأنا لا أستطيع نسيان « عمانوئيل قره صو » من بين وفد المبعوثين (النواب) الذين جاءوا الى يلدز . لقد كان هذا اهانة لمقام الخلافة . ونحن جميعا نعلم مدى الحق الذي يكنه اليهود منذ زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) للإسلام وللمقام الخلافة ، وعندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءني في أحد الأيام « تيودور هرتزل » مؤسس المنظمة اليهودية العالمية مع رئيس الحاخامين وذلك من أجل غاية صهيونية ، وقبلت الزيارة للاستماع اليهم لمعرفة مقاصدهم فكان طلبهم هو وطن لليهود ، وكانوا يقترحون القدس لذلك ، حتى أن تيودور هرتزل ، قال بلا خجل :

— أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالا من أجل القدس .

شعرت بأن الدم يطفر الى رأسي . . تأمل ! لقد وصلت الجراحة بهذين اليهوديين الى عرض الرشوة في مقام سلطنتنا صرخت بهما — اخرجنا من هنا حالا . . ان الوطن لا يباع بالمال .

وعندما دخل رجال القصر أمرتهم باخراجهما .

ومنذ ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء ، وكل ما أقاسيه هنا في « سلانيك » هو جزاء عدم اعطائي وطنا لليهود .

وينشر الأستاذ سعيد الأفغانى في مقالة له بمجلة العربى (١٩٧٢) العدد ١٦٩ حملت العنوان التالى : كانت الصهيونية هي خالعة السلطان عبد الحميد . وسقوط المملكة العثمانية : ينشر رسالة كان قد بعث السلطان عبد الحميد — فى منفاه — الى الشيخ محمود أفندى أبى الشامات يقول فيها بعد المقدمة .

(. . بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب
السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ :
أننى لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أننى بسبب المضايقة
من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم « جون تورك » وتهديدهم -
اضطرت وأجبرت على ترك الخلافة الإسلامية . ان هؤلاء الاتحاديين قد
أصروا وأصروا على أن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض
المقدسة - فلسطين - ورغم اصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف .
وأخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهباً .
فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً ، وأجبتهم بالجواب القطعي
الآتى : انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً - فضلاً عن (١٥٠) مائة وخمسين
مليون ليرة انجليزية ذهباً - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي . لقد
خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلن أسود
صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا
لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدوننى
إلى سلاطيك فقبلت بهذا التكليف الأخير . هذا وحمدت المولى وأحمدته
أننى لم أقبل بأن ألتحق الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار
الأبدى الناشئ عن تكليفهم باقامة دولة يهودية في الأراضى المقدسة
فلسطين . وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فاننى أكرر الحمد والثناء
لله المتعالى وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع المهم وبه أختتم
رسالتى هذه .

ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامى،
سلامى إلى جميع الاخوان والاصدقاء : يا أستاذى العظيم : لقد اطلت عليكم
البحث ولكن دفعنى لهذه الاطالة أن نحيط سماحتكم علماً وتحيط جماعتكم
بذلك علماً أيضاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فى ٢٢ ايلول ١٣٢٨

خادم المسلمين
عبد الحميد بن عبد الحميد

وتبقى وثيقة هامة بعث بها السفير البريطانى فى استانبول السير
جيرارد لاونز بتاريخ ٢٩ مايو « ايار » ١٩١٠ الى وزير خارجية بريطانيا
شارل هاردينج ، نشرها ايلي كيدورى أستاذ علم السياسة بجامعة لندن
فى كتاب له صدر بلندن عام ١٩٧٤ ورقم الرسالة فى وثائق الخارجية
البريطانية F.O. 8111/93 A وقد ترجمها الى العربية د. محمد توفيق

حسين ونشرت في العدد التاسع من مجلة آفاق عربية (ايار) مايو ١٩٧٨ وفيما يلي نص تلك الوثيقة الخطيرة .

سرى

من السير ج . لاونز الى السير ش . هاردينغ
(شخصي وسري)

القسطنطينية ٢٩ أيار ١٩١٠

عزيزى شارل

برقية غورست بتاريخ ٢٣ نيسان ، وبرقيتكم بتاريخ ٢٥ نيسان حول شائعة تعيين محمد فريد مندوبا في مصر عن الماسونيين في القسطنطينية « الذين يقال انهم على علاقة وثيقة مع جمعية الاتحاد والترقي » حملتني على أن أكتب اليك بشيء من التفصيل عن الماسونية الأوروبية المسيطرة على حركة تركيا الفتاة . وأنا أكتب اليك بصورة شخصية وسرية لأن هذه الماسونية الجديدة في تركيا ، على خلاف الماسونية في انكلتره وأمريكا ، هي الى حد كبير سرية وسياسية ، ولا يمكن الحصول على أية معلومات عن الموضوع الا بمنتهى السرية ، لأن الأشخاص الذين يكشفون عن أسرارها السياسية يخشون الانتقام على أيدي زبانيتهما السريين . وقبل بضعة أيام هدد فعلا أحد الماسونيين المحليين ، الذي كشف عن رموز الماسونية بأن يقدم للمحكمة العرفية الموجودة بموجب ظروف حالة الطوارئ .

ولا يخفى عليك أن حركة تركيا الفتاة في باريس كانت مستقلة عن حركة تركيا الفتاة في سلانيك ، وكانت تجهل معظم تنظيماتها واجراءاتها الداخلية ، ويسكن في سلانيك حوالى ١٤٠٠٠٠ نسمة ، منهم ٨٠٠٠٠ يهودى من أصل اسباني ، و ٢٠٠٠٠ من طائفة سبط لاوى (كذا) أو من اليهود المتظاهرين بالاسلام (الدونمة) ومعظم هؤلاء اليهود الأسباني الأصل قد حصلوا في الماضي على الجنسية الإيطالية .

وهم ماسونيون ينتمون الى المحافظ الإيطالية . فاليهودى ناثان رئيس بلدية روما يحتل مركزا رفيعا في الماسونية . واليهوديان لوزاتى وسونينو ، من رؤساء الوزارة ، وغيرهما من أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب ، هم أيضا ، فيما يظهر من الماسونيين . وهم يزعمون بأن محافلهم الماسونية هي فروع من المحفل « الاسكتلندى القديم » . وتتبع طقوسه .

وقبل بضعة أعوام أسس عمانوئيل كاراسو - وهو يهودى ماسونى من سلانيك ويمثل الآن مدينة سلانيك في مجلس المبعوثان التركى - بالتعاون مع الماسونية الإيطالية محفلا في سلانيك سمي بمحفل

« ماسيدونيا ريزورتا » . ويبدو أن كاراسو أقنع رجال تركيا الفتاة ضباطا ومدنيين ، بالانتماء الى الماسونية . وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودى غير المستساغ على الأوضاع الجديدة فى تركيا ، وان كان يتظاهر بأنه انما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة فى تضليل جواسيس السلطان عبد الحميد ، ومنحهم الأمن فى محفله الماسونى ، لأن هذا المحفل الماسونى الذى ينعقد فى بيت أجنبى يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب فى الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش . وقد علم جواسيس عبد الحميد بالحركة ويظهر أن اسماعيل ماهر باشا عرف بعض أسرارهم ونقلها الى قصر يلدز . وبعد مدة قصيرة من قيام الثورة سنة ١٩٠٨ ، اغتيل اسماعيل ماهر باشا فى ظروف غامضة . ووضعت السلطات العثمانية جواسيس خارج مقر المحفل الماسونى يسجلون أسماء من يرتاده من الضباط والمدنيين . ورد الماسونيون على هذا الاجراء باجراء معاكس فأدخلوا فى الماسونية عددا من الشرطة السرية ، واعتبروهم من « الاخوة » ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة فى سلانيك كانوا بالدرجة الأولى من اليهود . كانت شعارات أعضاء تركيا الفتاة : « الحرية ، العدالة ، والتآخى » من ابتكار الماسونيين الايطاليين ، وكانت ألوان علم الحركة الأحمر والأبيض هى نفس ألوان علم الماسونية الايطالية . وبعد مدة قصيرة من ثورة ١٩٠٨ وحالما انتقلت جمعية الاتحاد والترقى الى القسطنطينية أصبح من المعروف بأن عددا كبيرا من قادتها كانوا ماسونيين ، وأخذ كاراسو يلعب دورا كبيرا ، ومن ذلك نجاحه فى السيطرة على فرع جمعية الاتحاد والترقى فى البلقان . وقد لوحظ أن اليهود المحليين والأجانب على اختلاف انتماءاتهم كانوا مؤيدين متحمسين للعهد الجديد . لقد أصبح كل يهودى ، كما عبر عن ذلك أحد الأتراك ، جاسوسا بالقوة للجمعية الخفية ، وبدأ الناس يقولون : ان الحركة انما هى حركة يهودية أكثر مما هى ثورة تركية .

وعينت الحكومة الايطالية يهوديا وماسونيا يدعى بريموليفى ، الذى لم يكن موظفا فى السلك القنصلى ، قنصلا عاما لها فى سلانيك . وعين أوسكار ستراوس سفيراً للولايات المتحدة فى القسطنطينية . وكان أوسكار ستراوس هذا ، بالتعاون مع جاكوب شيف ، قد أثر على اليهود فى الولايات المتحدة وجعلهم يحبذون هجرة اليهود الى العراق بدلا من الخطط الاقليمية الأخرى ، باعتبار ذلك صيغة موسعة من الصهيونية .

ولا يخفى عليك بأن المسلم المستقيم العقيدة يكره الماسونية كراهية شديدة ، ويرأها أسوأ من اللادينية والإلحاد . وقد برز هذا الشعور

العدائي للماسونية بوضوح في الحركة المناهضة لجمعية الاتحاد والترقي والتي بلغت ذروتها في التمرد الذي وقع يوم ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ . ولم تفسر هذه الحوادث ، لحد الآن ، تفسيراً مرضياً ، ولكن لم يغب عن المراقب في ذلك الوقت أن يلاحظ بأن الافواج الأربعة التي أرسلت خصيصاً من سلانيك الى العاصمة ، والتي كان كامل باشا يود أن يعيدها الى الجيش الثالث ، هي التي بدأت التمرد أو ما يسمى بـ « الحركة الرجعية » وكانت تحت امرة اليهودي المتظاهر بالاسلام والماسوني من سلانيك العقيد رمزي بيك ، الذي بدلا من أن يحاكم أمام المحكمة العرفية العسكرية بسبب تصرف العساكر الذين كانوا تحت امرته عين رئيساً لأركان حرب السلطان محمد الخامس وكان كاراسو أحد الرجال الذين حملوا الى السلطان عبد الحميد رسالة خلعه من السلطنة ، وقد نقل عبد الحميد الى سلانيك ، وحبس عند صيرفي جمعية الاتحاد والترقي اليهودي الايطالي ، في حين عين أخ لرمزي بك مشرفاً عليه . وبعد أن تم خلع السلطان عبد الحميد أخذت الجرائد اليهودية في سلانيك تزف البشائر بالخلاص من « مضطهد اسرائيل » الذي رفض مرتين أن يستجيب لطلب الزعيم الصهيوني هرتزل ، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا (أى في بريطانيا . المترجم) قانون الأجانب ، ضد المهاجرين البولونيين اليهود ، وغير ذلك من الأعمال التي حالت دون تحقيق الحلم الصهيوني في فلسطين . وأعلن المؤتمر الصهيوني التاسع المنعقد في هامبرغ في شهر كانون الأول سنة ١٩٠٩ بأن انقسام العالم اليهودي بين الصهيونيين ودعاة الهجرة الى مناطق أخرى غير فلسطين قد انتهى .

وعاد اليهود موحدين بفضل « معجزة الثورة التركية » . وفي نفس الوقت عين جاويد بك ، نائب سلانيك ، وزيرا للمالية ، وهو يهودي الأصل وماسوني ، بارع الذكاء ، موهوب . بينما أصبح طلعت بيك ، وهو أيضاً ماسوني ، وزيرا للمداخلية . وقدم حلمي باشا ، الصدر الأعظم ، طلباً للانتماء الى المحفل الماسوني ولكنه لم يلاحق طلبه . وأعلنت الأحكام العرفية لمدة سنتين ، وكان معظم الضباط في المحاكم العرفية العسكرية من الماسونيين . و « أمر » مجلس النواب أن يصدر قانوناً صارماً للمطبوعات ، وعين رجل يهودي الأصل وماسوني من سلانيك مديراً للمطبوعات . وكان مدير المطبوعات يتمتع بسلطات واسعة ، حيث كان يستطيع أن يوقف أية صحيفة عن الصدور « اذا وجهت الى العهد الجديد أى نقد شديد » وكان انتقاد النظام يوصم بـ « الرجعية » كما كان بإمكانه أن يوصل صاحب الجريدة ومحررها الى المحاكم العرفية العسكرية . وأنشئت وكالة أخبار تلغرافية شبه رسمية لتقدم رأى جمعية الاتحاد

والترقى فى الأحداث الداخلية والخارجية ، ووضعت تحت ادارة يهودى
بغدادى . وكادت المساعى تنجح فى تعيين محام يهودى وصهيونى من
سلانيك مستشارا لوزارة العدلية .

وكان يرأس الفرع الرئيسى لجمعية الاتحاد والترقى فى القسطنطينية
رجل يهودى الأصل وماسونى من سلانيك . وقام رجل يهودى الأصل
وماسونى من سلانيك بمحاولات مجهدة ليتعين فى منصب أمين العاصمة
فى القسطنطينية ولكنه لم ينجح لحد الآن ، مع أن الأمير سعيد حليم ،
وهو ماسونى مصرى قد أصبح نائب أمين العاصمة . ويتمتع أمين
العاصمة فى استانبول بسلطات واسعة وخاصة فى القضايا المتعلقة
بالانتخابات البلدية ، وانتخاب ممثلى مدينة القسطنطينية فى مجلس
المبعوثان (مجلس النواب . المترجم) وفى الوقت نفسه أبدلت وزارة
الشرطة القديمة بمديرية « الأمن العام » التى تسيطر على الشرطة والدرك
(الجندرمه) ووضعت تحت امرة ماسونى من سلانيك . وأمر « مجلس
النواب » أيضا بسن « قانون الجمعيات » الذى مكن جمعية الاتحاد والترقى
من حل جميع الجمعيات المماثلة لها أو المنافسة لها بين البلغار واليونان

وبعد أن قامت جمعية الاتحاد والترقى بعملية تكميم الأفواه هذه ،
تظاهرت كذبا وزيفا بتحويل نفسها من جمعية ثورية سرية الى « حزب
سياسى وجمعية اجتماعية » ذات نظام داخلى معلن . على أنه لوحظ فى
الوقت نفسه أن المحافل الماسونية أخذت تظهر بكثرة ، كما ينبثق الفطر
من باطن الأرض ، فى جميع المدن الرئيسية والصغرى فى مقدونيا وفى
العاصمة كذلك ، حيث تم انشاء اثنى عشر محفلا ماسونيا خلال العام
المنصرم . ولا يحتاج المرء الى كثير من التحرى والتحقيق ليعلم أن سرية
المحافل الماسونية قد استخدمت ، جزئيا ، لاختفاء الاجراءات الداخلية
للجمعية التى أعلنت أنها لم تعد جمعية سرية ويبدو أن الجمعية مازالت
تقوم بدعاية سرية . كما يبدو أن الموظفين وغيرهم من ذوى المناصب
المهمة قد أفهموا بأن مناصبهم ، وترقياتهم ، وبالتالي موارد رزقهم ،
تتوقف على دخولهم فى المحافل الماسونية حيث يصبحون اخوة . وأخبر
بعضهم بأنهم اذا ما أصبحوا ماسونيين فان قضية مصر وكريت ، وغيرها
من القضايا التى تؤثر فى عظمة البلاد القومية ستحل لصالح تركيا ، وان
أسرار العالم السياسية الكبرى ستكشف لهم ، وأنهم سيصبحون اخوان
ملك انكلتره ، وأن بإمكانهم ان يضافحوه ، ويتبادلوا معه الرموز عندما
يزور القسطنطينية . الخ . وقام كثيرون من هؤلاء الماسون الجدد بزيارة
المحفل الماسونى البريطانى المؤسس منذ مدة طويلة تحت اسم « تركيا » .

وقد نجح بعضهم فعلا في الانتماء الى هذا المحفل . وقد بذلت الجهود المكثفة لحملهم على الاعتقاد بأنهم باعترافهم الماسونية انما ينتمون الى مؤسسة انكليزية . وهذه المحافل الماسونية الجديدة ، شأن مثيلاتها في مصر ، تدعى بأنها تتبع « الطقوس الاسكتلندية العتيقة » كما تدعى كذبا بأنها تحمل بصورة غير مباشرة ، براءة من المحفل الاسكتلندي الأعظم ، الذي يعمل تحت رعاية ملك انكلتره . وهدفهم من ذلك استشارة الثقة التي تقترن باسم انكلتره في نفوس طبقات العثمانيين كافة . ولكي تشدد الجمعية قبضتها على الجيش أدخل عدد كبير من الضباط ، وخاصة من الضباط ذوي الرتب الصغيرة ، في محفل ماسوني يسمى « ريسنا » نسبة الى مسقط رأس نيازى بك في مقدونيا . وكان يرأس هذا المحفل الماسوني النقيب عثمان فهمى بك وهو أخ نيازى بك . ودخل الماسونية معظم نواب الجمعية في مجلسي المبعوثان والأعيان ، وأصبحوا أعضاء في المحفل الماسوني « للمدستور » والذي كان من كبار رؤسائه طلعت بك وزير الداخلية ، وجاويد بك وزير المالية . ولما أدرك بعض نواب المعارضة ، وخاصة العرب منهم ، بأنهم أصبحوا مبعدين عن مصادر السلطة ، وخارج تيار الأسرار السياسية والمؤامرات المحلية ، بدأوا ينشئون لهم محافل ماسونية خاصة بهم ، أو ينضمون الى المحافل القائمة . فأنشأوا مثلا « التآخي العثماني » و « أصدقاء الحرية » وبالإضافة الى ما تقدم أظهر أبناء طائفة البكتاشية ، المنشقون عن أهل السنة والجماعة ، والذين يبلغ عددهم نحو مليون شخص يسكن معظمهم في جنوب ألبانيا ومقدونيا ويمارسون طقوسا دينية سرية تشبه الطقوس الماسونية ولهم تنظيم يشبه تنظيمها - أظهروا رغبتهم في الانتماء الى الماسونية . وكان هؤلاء البكتاشيون مدفوعين بروح الماسونية الحققة التي تختلف عن الماسونية السياسية والاحادية التي يصادفها المرء في بعض الأقطار الأوروبية .

وبالإضافة الى المحافل الماسونية التي ذكرناها فيما تقدم أنشأت المحافل التالية أسماؤها في المدة بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ : « الوفاء الشرقي » و « الأصدقاء الحميمون للاتحاد والترقي » و « نهضة بيزنطة » و « الحقيقة » و « الوطن » و « النهضة » فرع من محفل « نهضة مقدونيا » و « الفجر » وهو اسم لا يخفى على الباحثين في السياسات السرية المصرية . ويبدو أن جميع هذه المحافل الماسونية ، مثل شبكة المحافل الماسونية في سلانيك ومقدونيا ، كان يقودها ، أو يخطط لها ، اليهود ، اذ كان الأرمن واليونانيون وغيرهم من المسيحيين المحليين غير ممثلين فيها تماما تقريبا ، ان لم يكونوا مبعدين عنها . وسبق وذكرت فيما تقدم الأمير سعيد حليم المصري ، فقد قام هذا الأمير ، وأخوه عباس

حليم ، والأمير عزيز حسن ، وغيرهم من المصريين الذين دفعتهم كراهيئهم العنيفة لسمو الحديوى الى العمل مع جمعية الاتحاد والترقى والى تقديم المساعدات المالية لها . والطريقة التى تم بها ارتباط ماسونية أعضاء تركيا الفتاة والتى أدخلت الى العاصمة بوساطة سلانيك ، بالماسونية المصرية عرضة للتيارات المتعارضة التى تسود السياسة على سواحل البسفور ، وهى لا تخلو من غموض واضطراب . والماسونيون أنفسهم يقدمون روايات متناقضة عما حدث بالفعل .

كان ادريس بك راغب ، رئيس المحفل المصرى الأعظم ، الذى يقال بانه معترف به من قبل المحفل الاسكتلندى الأعظم ، المؤسس والمهيمن على عدد من المحافل الماسونية فى مصر وسورية وفلسطين ولبنان ، وفى لبنان تطالعنا ظاهرة غريبة ألا وهى انتماء عدد كبير من الروم الكاثوليك الى الماسونية .

وكذلك أسس محمد أورفى باشا عددا من المحافل الماسونية فى مصر والقدس وجنوب سوريا ، وكان يطمح الى ادخال المحافل الماسونية فى « منظومته » ، وقدم الى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٩٠٩ لهذه الغاية ولكنه اصطدم ببعض الصعوبات ، فلما حدث تمرد وحدات الجيش فى ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ اعتراه الخوف ، فعاد مسرعا الى مصر . وقبل مدة من وقوع تلك الأحداث خول ادريس راغب الأمير عزيز حسن ، الذى كان قد بلغ المرتبة السابعة عشرة فى المحفل الماسونى الايطالى فى الاسكندرية أن يسعى لضم المحافل الماسونية فى القسطنطينية الى المحفل المصرى الأعظم . وقد بدأت المفاوضات بعد مدة من دخول العساكر المقدونية التى كان يقودها ويوجهها الماسونيون ، الى العاصمة ، والتى تم على يدها خلع السلطان عبد الحميد الذى كان يعارض الماسونية معارضة شديدة لأنه كان يعدها جمعية سرية سياسية خطيرة . وقد استحصلت الموافقة الضرورية من محفل الشرق الأعظم الايطالى فرفع الأمير عزيز حسن بفضل موافقة خاصة صدرت عن المجلس الماسونى الأعلى البلجيكى بوساطة يوسف بك السكاكينى الى الدرجة الثالثة والثلاثين ، وخول الصلاحيات لانشاء محفل الشرق الأعظم لتركيا . حدث هذا فى شهر تموز أو شهر آب « أغسطس » فى سنة ١٩٠٩ ، وجعل محمد طلعت بك ، وزير الداخلية ، الرأس الأعظم لهذا المحفل . ويتبين مما تقدم أن انتصار القوات المقدونية على عبد الحميد فى آذار (مارس) ١٩٠٩ ، واحتلالها القسطنطينية ، كان يعنى انتصار الماسونية المستوحاة من ايطاليا على المحفل الماسونى الأعظم فى مصر المعترف به من قبل بريطانيا . وقد انضمت جميع المحافل الماسونية فى القسطنطينية بالتدريج اليه ، وكذلك فعلت المحافل

الماسونية فى مقدونيا • وتقرر أن تخضع جميع المحافل الماسونية العثمانية فى سوريا ومصر وغيرها لمحفل الشرق الأعظم العثمانى • وعاد الأمير حسن ، وبرفقته يوسف السكاكينى ، الى مصر لتحقيق هذه الغاية • ولكن ادريس بك راغب ، وآخرين ، كانوا يعارضون الفكرة ويرون أن مصر ولبنان ، بما أنهما اقليمان يتمتعان بامتيازات خاصة ، يجب أن يكونا مستقلين كذلك حتى فيما يتعلق بالماسونية (السياسية) • وعلى هذا انفصل الأمير حسن عن ادريس راغب ، الذى كان قد أرسله الى القسطنطينية ، وعين محمد فريد الزعيم الوطنى المصرى ممثلاً فى مصر لمحفل الشرق العثمانى الأعظم ، وذلك وفقاً للتعليمات التى زوده بها طلعت بك الأستاذ الأعظم لمحفل الشرق العثمانى الأعظم • وأقيمت حفلة التنصيب فى محفل ماسونى فى طنطا ، وقد عارض بشدة تعيين محمد فريد فى هذا المنصب الماسونى الرفيع خليل حمادة باشا ، وشاهين مكارىوس صاحب جريدة المقطم ، وغيرهما من الماسونيين المصريين البارزين ، الذين لم يكونوا يتعاطفون مع الوطنيين • وشجب سمو الخديوى كذلك هذه الخطوة التى تربط برابطة الماسونية الوطنيين المصريين بجمعية الاتحاد والترقى • ولكن تعيين محمد فريد بعد أن تم لم يعد بالامكان الغاؤه • واقترح خليل حمادة باشا علاجاً للمشكلة وذلك بإنشاء محفل الشرق الأعظم العثمانى خاص بمصر ، مستقل عن المحفل فى القسطنطينية ، مع النص صراحة على أن لا يكون فيه محمد فريد لا أستاذاً أعظم ولا أستاذاً موقراً • وبإنشاء محفل الشرق الأعظم العثمانى فى مصر ، وتنصيب رئيسه الأعظم ، يصبح تعيين محمد فريد ممثلاً فى مصر لمحفل الشرق الأعظم العثمانى الذى مركزه القسطنطينية ملغياً فى الواقع • وخليل حمادة باشا هو الآن فى القسطنطينية يحاول اقناع كراسو - النائب اليهودى (فى البرلمان العثمانى) والأستاذ الموقر فى المحفل الماسونى الايطالى فى سلاويك - باستخدام مساعيه الحميدة مع طلعت بك للحصول على موافقته على الخطة المبينة فيما تقدم • والأمير عزيز حسن ومحمد فريد هما أيضاً فى طريقهما الى القسطنطينية • وعندما نفى طلعت بك صحة خبر تعيين محمد فريد ممثلاً فى مصر عن محفل الشرق العثمانى الأعظم ، وعندما صرح بأنه وزملاءه فى جمعية الاتحاد والترقى لا يمكن أن يرتكبوا مثل هذه حماقة ، فالظاهر أنه كان يكذب متعمداً ، وربما كان ذلك تحت ضغط الموائيق المأخوذة من أعضاء الجمعية بعدم افشاء أسرارها •

وفى الوقت نفسه وصل يوسف السكاكينى الى القسطنطينية ، بعد أن سافر من مصر الى سوريا حيث أمضى فيها بعض الوقت يعمل على ضم المحافل الماسونية الى الشرق العثمانى الأعظم • وإذا ما تحقق لمحفل الشرق

الأعظم في تركيا التابع لجمعية الاتحاد والشرقي أن يسيطر على المحافل
الماسونية في مصر ويملاها بالوطنيين المصريين فلا شك في أن هذا الاتجاه
سيكون نحو العمل السري والخفي بهدف تحقيق انفجار غير متوقع في
يوم من الأيام كذلك الانفجار الذي باغت العالم في سلانيك في تموز سنة
١٩٠٨ .

وبهذه المناسبة أود أن أشير الى حادث لا يخلو من الغرابة . قبل
مدة من الزمن زار السفارة حاخام الطائفة اليهودية الأكبر الجديد في
تركيا . وهو رجل ذكي ، نشيط ، على الثقافة . وكان زميل دراسة لعدد
من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين . وكان في العهد القديم (العهد
الحميدي) قد قام بعدة محاولات ليعين مديرا للمكتبة في قصر السلطان
عبد الحميد والتمس هذا الحاخام من السفارة أن تستخدم مناعيا الحميدة
في مساعدة ماسوني يهودي يدعى فينتورا ، من التابعة الايطالية ، وكان
قبل عدة سنوات يدعى بأنه من الرعايا العثمانيين ، بدأ يشتغل في
التجارة في السودان ، فنفاه السودان على أساس أنه (أي فينتورا)
كانت له علاقة بتهرب التبغ بوساطة اثنين من اليهود في السواكن
يعملان لحساب المدعو العريف هوايت . وقد عرض فينتورا قضيته أمام
المحكمة الحربية . ولكن محكمة الاستئناف نقضت الحكم . وقدم الحاخام
الأكبر مذكرة تحتوي على ٢٠٠ صفحة شرح فيها تفاصيل الظلم المزعوم
الذي يدعى أنه وقع على فينتورا ورجاني أن أعطى فينتورا رسالة توصية
الى السير جي . غورست أسأله فيها أن يستخدم نفوذه لصالح قضية
فينتورا . التي ستعرض أمام المحاكم المصرية مجددا . فأوضحت له بأنه
يستحيل على أن أقوم بأي عمل من هذا القبيل لأنه يشكل محاولة للتأثير
على سير العدالة . ثم أن الرجل ، بالإضافة الى ذلك ، يدعى الرعوية
الايطالية . وبعد مدة من الزمن تعرف يهودي ماسوني هنا (في
القسطنطينية) يدعى الدكتور فارحي ، بوساطة المحفل الماسوني البريطاني
المحلي ، على أحد موظفي السفارة . وطلب هذا الرجل أيضا باصرار ،
وبلهجة شبه أمرة ، توصية بفينتورا الى غورست . ولما فهم بأن مثل هذا
الاجراء مستحيل ، حتى في حالة مواطن بريطاني ، أخذ يستخدم لهجة
متحدية وأعلن بأن هذه القضية هي ظلم صارخ ويجب أن تعالج ، وأن
أعلى السلطات نفوذا في العالم ستجند لهذا الأمر بما في ذلك الأعضاء
اليهود في مجلس اللوردات البريطاني ، وإذا اقتضى الأمر فسوف تتخذ
الاجراءات لاسقاط الحكومة المصرية ، وهذا ما سيلحق الضرر بمركز
بريطانيا . لم يكن الرجل مجنونا ، وكان يتكلم بغاية الرصانة والاتزان .

ان طلعت بك ، وزير الداخلية ، وهو رجل من أصل عجري وموطنه

جيرجالي في منطقة أدلة ، وجاويد بك ، وزير المالية ، وهو من أصل يهودي ، هما التجسيد الرسمي للسلطة الخفية للجمعية ، وهما الوزيران الوحيدان في مجلس الوزراء اللذان يحسب لهما حساب في الحقيقة . وهما يمثلان أيضا قمة الماسونية في تركيا . وان استخدام هذين الرجلين عميلا من طراز السكاكينى بما له من ماض مشبوه لأمر يدعو الى الريبة الشديدة . ومنذ أن أصبح وزيرا للداخلية قبل ما يقرب من سنة عمل طلعت بك على نشر شبكة الماسونية التابعة للجمعية في جميع مناطق الدولة حيث أخذ يسند الوظائف الكبرى في الاقاليم الى ولاية ومتصرفين . . الخ من الماسونيين ، أو الى رجال تثق بهم جمعية الاتحاد والترقى ، أو من كلا هذين الصنفين من الرجال . وهدف هذين الرجلين من ذلك هو أنه في حالة قيام الأكثرية في البرلمان ، صدفة أو على الرغم من الارهاب المنتشر بسبب حالة الطوارئ ، بالمعارضة الى حد يهدد وزارتي طلعت وجاويد ، فان هذين الأخيرين سيردان بانقلاب معاكس ، وذلك بأن يحلا مجلس النواب ، ويجريا انتخابات جديدة توجهها نوادى جمعية الاتحاد والترقى والمحافل الماسونية فى الأقاليم ، وتأتى بنواب أكثر طاعة للحكومة ، وأشد مسايرة لرغباتها . يتبين من هذا أن الحكومة الخفية لتركيا انما هى محفل الشرق الأعظم الماسونى وعلى رأسه الأستاذ الأعظم طلعت بك . يصف يوجين تافرنيه فى مقاله المنشور فى عدد شهر نيسان من مجلة « القرن التاسع عشر » الجمهورية الفرنسية بأنها : « بنت محفل الشرق الأعظم » . وهذه الصفة نفسها يمكن أن توصف بها جمعية الاتحاد والترقى العثمانية ، ولما كان الماسونيون هم الذين يؤلفون أعضاء جمعية الاتحاد والترقى وأنصارها ومؤيديها ، فان غير الماسونيين ، أى الغالبية العظمى من السكان ، هم معارضون فى السر لحكم الجمعية . ومثل الجمهوريين والماسونيين فى فرنسا فان الكلمات التى لا تفارق شفاه مؤيدى الجمعية هى : « الرجعية » و « الكهنوتية » . ولم يكن اتجاهها الأول نحو تعديل وتحديث الشريعة الاسلامية (القانون المحمدى المقدس) وانما نحو هدم أسس الشريعة وتحطيمها . وفى حين أن معظم قادة الجمعية هم صراحة علمانيون وعقلانيون فانهم يسعون كذلك ، وبإلها من مفارقة ، الى استخدام حماسة الجماهير الاسلامية كسلاح سياسى ويحولونها الى أقنية شوفينية ، على غرار الجامعة الاسلامية ، أى الوطنية الآسيوية . والجمعية لا تقبل أى نقد مهما كان . واحدى الطرق التى تستخدمها لسحق خصومها هى أن تدفعهم الى اعلان المعارضة الصريحة ، ومن ثم تسحقهم باعتبارهم « رجعيين » . وقد أقنع عدد من رجال الدين بالانتماء الى الماسونية ، فاتخذتهم الجمعية أمثلة للتغلب على شكوك الشعب بالماسونية ، وكراهيته لها . وقد وصف أحد الأتراك هذه الطريقة بأنها عملية « تخدير الشعب بحشيشة يهودية » .

يظهر مما تقدم ، كما يتبين من أية ملاحظة دقيقة لحركة تركيها الفتاة في مرحلتها الراهنة ، أن هذه الحركة هي في جوهرها وأساسها حركة يهودية وتركية ، تعارض العناصر الأخرى كالعرب ، واليونان ، والبلغار والأرمن . . . الخ ان التركي في جوهره جندي ، وهو يسعى تحت الأشكال الدستورية للحفاظ على تفوق عنصره . هذا التفوق هو الشيء الذي لا يستطيع تحقيقه الا بوساطة الجيش ، وهو ينفق على الجيش نصف دخله ، ويستخدمه لابقاء العناصر الأخرى في حالة رعب وخضوع أبكم . والدستور من بعض النواحي ، يتضمن التقدم الاقتصادي ولكن الكيان الاقتصادي التركي ضعيف جدا ، ولا يستطيع أن يقف وحده ، دون سند أسبوعا واحدا . وكان المؤمل في البداية أن يؤلف الأرمن والبلغار واليونان واليهود العثمانيون الدعامة الاقتصادية للبلاد . ولكن يظهر أن جمعية الاتحاد والترقي قد تحالفت فقط مع اليهود العثمانيين والأجانب وعادت العناصر الأخرى .

وتشاهد الحالة نفسها في بلاد المجر حيث ان المجرى ، وهو من العنصر التركي ، فاقد للغرائز التجارية الحقيقية ، تماما مثل التركي ، ولهذا وقع تحت السيطرة الاقتصادية والمالية لليهود ، سيطرة تكاد تكون تامة . ويظهر أن اليهود قد أربكوا التركي الذي لا يعرف العقلية التجارية في جهوده .

ولما كانت الدولة التركية تضم الأماكن المقدسة عند اسرائيل ، فمن الطبيعي أن يسعى اليهودي جاهدا لاحتل مركز نفوذ ينفرد به وحده ويستخدمه لتحقيق مثله العليا ألا وهي اقامة دولة مستقلة في فلسطين أو في بلاد بابل (يقصد الكاتب العراق . المترجم) كما أوضح ذلك زانغفيل في مقاله المنشور في عدد شهر نيسان من مجلة « فورت ناتيل ريفيو » وهو سيصيد عصافير بحجر واحد اذا استطاع أن يحصل من الاتراك على السماح بهجرة غير مقيدة الى تركيا ، وهذا هدف ما فتي يسعى لتحقيقه من سنوات عديدة ، فينقل الى ميزوبوتاميا (العراق . المترجم) بضعة ملايين من اخوته في الدين اليهودي يرزحون تحت نير العبودية في روسيا ورومانيا ، وفي مقابل « الهجرة غير المحددة » هذه لليهود الأجانب عرض على جمعية الاتحاد والترقي أن يستبدل لغته الوطنية باللغة التركية ، بل انه على استعداد لتحمل جميع ديون الدولة التركية . وقد قام الدكتور ناظم ، وهو من أبرز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك ، ويقال انه من أصل يهودي ، يرافقه صديقه الحميم المدعو فائق بك تولاليدو وهو من أصل يهودي من سلانيك ، بزيارة فرع الوكالة اليهودية في باريس . ومنذ تلك الزيارة تبني فكرة ادخال ٢٠٠٠٠٠ ،

يهودى روماني الى مقدونيا ، وبضعة ملايين من يهود روسيا الى العراق .
وقد عبر اسرائيل زانغفيل ، فى مقاله المنشور فى عدد نيسان فى مجلة
« فورت ناتيل ريفيو » الذى تقدم ذكره ، عن الأمل فى أن يكون حقى
باشا ، رئيس وزراء تركيا الحالى « مؤتمنا على تقديم المشورة الصحيحة
عن الموضوع الى « الباب العالى » أى أن يكون مؤيدا لقيام دولة يهودية
مستقلة فى العراق . وقد وضع فى خدمة حقى باشا سكرتير شخصى
يهودى ، وهو يتردد على أحد البيوت اليهودية أكثر مما يزور أى بيت
آخر . ولكن المشروع اليهودى لم يتحقق الى الآن . ومما لا شك فيه أن
حكومة تركيا الحالية ، وهى تتحمل نفقات عسكرية ثقيلة ، بحاجة الى
قروض مالية ، مما سيمكن المقرضين اليهود من استخدام ضغوط جديدة
عائقا . وقد رفض السلطان عبد الحميد عندما كان يعانى أزمة شديدة ،
مثل هذه العروض التى تقدم بها اليه هرتزل الزعيم الصهيونى . ويبدو
أن زانغفيل كان يعبر عن الفكرة نفسها عندما كتب : « فاذا لم يكن حظ
أعضاء جمعية الاتحاد والترقى من الادراك السليم أقل من النقود فى
خزائنها فانهم سيدركون ولا شك أية فائدة عظيمة ستحصل عليها دولتهم
بسماعهم بالتغلغل السلمى فى بلادهم لسكان من الجنس الأبيض ذوى
كفاءة صناعية ، ومثابرة فى العمل ، وغير عسكريين » .

يقول زانغفيل : ان النواب اليهود الأربعة فى البرلمان العثمانى هم
« خصوم ألداء للصهيونية » . قد يتظاهر هؤلاء النواب اليهود الأربعة
بعداثهم للصهيونية فيما يختص بالصهيونية الداعية الى هجرة اليهود
الى فلسطين ، ولكنهم وبكل تأكيد ، لا يعادون الصهيونية الداعية الى هجرة
اليهود الى العراق .

هذه الناحية من سياسة تركيا الجديدة لا يمكن أن يتجاهلها
أولئك الذين لهم علاقة بالمشاريع والخطط المقترحة فى العراق وسوريا ،
بل وحتى فى مصر . فان جريدة « شفق » وهى جريدة صهيونية أنشئت
منذ سنة فى القسطنطينية ، ما زالت تذكر قراءها ، وتعيد وتكرر تذكيرهم
دون كلل أو ملل ، بأن السيطرة على مصر ، أرض الفراعنة الذين أجبروا
على بناء الأهرامات هى جزء من ميراث اسرائيل فى المستقبل . قد تبدو
هذه النظرية خيالية ، بعيدة عن الواقع . ولكن عددا من المثاليين يعتنقونها،
ويدعون اليها ، وييشرون بها . على أن فلسطين والعراق هما هدف اليهود
النهائى البعيد وأما الهدف المباشر القريب الذى يسعى اليهود الى تحقيقه،
فهو السيطرة الاقتصادية التامة على تركيا ، واقامة المشاريع الجديدة

فيها . وقد تبين فيما تقدم أن اليهود قد تمكنوا حتى الآن من احتلال جميع النقاط الرئيسية في الحكومة التركية الجديدة ، أو من السيطرة عليها ، على الرغم من أن وزارة الأشغال العامة ، التي بإمكانها أن تؤثر في منح الامتيازات مازالت بيد أحد الأرمن « حلاجيان أفندي » . وعندما عزل سلفه من هذه الوزارة ، وهو أرمني ، حاول اليهود بكل الوسائل أن يعينوا في هذا المنصب يهوديا ، أو شخصا يوافق عليه اليهود . ولكن ارتأى ، وبخاصة بعد مذبححة الأرمن في « أدرنة » أنه من الضروري أن يكون للأرمن وزير واحد في مجلس الوزراء . وقبل شهرين كان حلاجيان أفندي على وشك السقوط ، ولكنه حصل على فرصة جديدة للبقاء ، وذلك بأن أصبح ماسونيا ، وانتمى الى نفس المحفل الذي ينتمى اليه طلعت بك وجاويد بك ، وما يزال مركزه الآن قلعا مهزوزا ، ومعظم الهجوم المستمر عليه ، والنقد القارص له ، يصدر عن جريدة يمولها اليهود تسمى « تركيا الفتاة » هذا وتردد شائعات بأن خلفه في الوزارة سيكون يهوديا ، أو تركيا يوجهه اليهود من وراء الستار .

من الواضح أن اليهودي ، الذي يهتم أعظم الاهتمام بالاحتفاظ بنفوذه المطلق في مجلس وزراء تركيا الجديدة ، ليس أقل اهتماما ببقاء شعلة الفرقة والخصام بين الأتراك وبين خصوم اليهود المحتملين كاليونان والأرمن . . . الخ بينما يمكننا الاستنتاج بأن اليهودي لا يرى غضاضة بأن يزيد العهد الجديد من اقتراضه الأموال من الممولين اليهود . لقد أطلت الحديث عن هذه الناحية من الثورة التركية لأنها ، بالإضافة الى أهميتها التاريخية ، لا تخلو من أهمية مباشرة وغير مباشرة على مشكلات ثانوية في الشرق الأدنى . ان اليهودي يكره روسيا وحكومتها ، وحقيقة كون انكلترا هي الآن صديقة روسيا ، حسنة العلاقات معها ، قد أدت الى جعل اليهود ، الى حد ما ، يقفون ضد بريطانيا في تركيا وإيران . وهذا أمر لا أظنه يخفى على الألمان .

الى ان يقول السير ج . لادر : ود اليهود ان يساعدوا رجال تركيا الجديدة بأدمغتهم ومشاريعهم التجارية ، وبنفوذهم الهائل في الصحافة الأوروبية ، وبتقديم الأموال مقابل الحصول على مكاسب اقتصادية ومقابل التحقيق لأهداف اسرائيل العليا في المستقبل - بينما تريد تركيا الجديدة أن تستعيد استقلالها الوطني وتؤكد وتحرره من وصاية أوروبا عليها ، كجزء من نهضة اسبوية عامة ، وبوتيرة ، لا بد وأن تظهر للغربي العادي، وطنية شوفينية مسرفة في التطرف ، لقد قدم اليهود الأموال الى الأتراك

الشبان ، وبهذا أحكموا سيطرتهم عليهم ولكن حتى يحافظ اليهود على هذه السيطرة لابد لهم أن يتظاهروا على الأقل بأنهم يوافقون على تحقيق الاتراك الشبان لأحلامهم « القومية » والسرية ، والطرائق الملتوية أمران أساسيان لكلا الفريقين . واليهودى الشرقى متمرس فى التعامل مع القوى الخفية . وقد اختبرت الماسونية السياسية فى الطراز الأوروبى كأكبر الروابط فعالية والعباءة التى تستر الأعمال الداخلية للحركة .

ذكرت فيما تقدم أنه فى البداية « تأخى » هذا الشكل الجديد من الماسونية فى تركيا مع أعضاء المحفل البريطانى ، أى المحفل الاسكتلندى المؤسس فى القسطنطينية قبل خمسين سنة ، ولكن المحفل الاسكتلندى الأعظم سرعان ما أخذ يكتشف بأن تصرفات المحافل الماسونية المحلية ، التى يسير معظمها اليهود ، ليس الا تشويها واستغلالا مشينا للماسونية الحقة ، فأعلن أن هذه المحافل المحلية انما هى محافل « مزيفة » وكانت نتيجة ذلك أن المحفل الانكليزى أغلق أبوابه فى وجه جميع الماسونيين الجدد ، ومن ضمنهم أعظم الوزراء سلطة ونفوذا : طلعت بك وجاويد بك ، وهذان الوزيران اللذان يسيطران على جيوش تركيا ، وعلى مالياتها ، والأحكام العرفية ، والبرلمان . وبكلمة واحدة يسيطران على مقدرات الدولة بصورة عامة . من الطبيعى ان يستاء من هذه « الصفعة الانكليزية » كما تقول الاشاعات التى انتشرت فى ندوات الهمس والوشوشة . ولعلهما أصبحا أقل ميلا لبريطانية نتيجة لهذا الأمر . ولقد وصفا بانهما « جنا من الغضب لهذه الاهانة » . ولكن لا يوجد أى دليل على الافتراض أن هذه الاهانة قادتهما لتغيير سياسة الصداقة التى يسير عليها مجلس وزرائهما نحونا بصورة جوهرية . ولعلنا نفسر الأمر لصالحهما فنفتراض بأنهما لا يعرفان الا القليل ، أو ليست لديهما أية معلومات مؤكدة ، عن الآراء المتطرفة ، وعن سياسة بعض أعضاء المحافل الماسونية المحلية الذين هم على اتصال بالماسونيين المصريين ، ويتعاطفون معهم ، ويعملون بنفس الطريقة السرية فى القاهرة والاسكندرية . فبعض الماسونيين من المغالين فى الوطنية هنا يعملون مع الأحزاب المناوئة للخديوى وللانكليز فى مصر ، وقد صرح نائب فى البرلمان العربى وماسونى بأن لديه أسبابا كافية ليفترض بأن أحد الأهداف المضمرة التى يسعون لتحقيقها هى ان يثيروا البلبلة فى مصر بوساطة الدعاية واستعراض الأسطول العثمانى بين فترة وأخرى فى الاسكندرية ، والبلبللة تقود الى القلاقل والاضطرابات حيث يمكن التخلص من سمو الخديوى بوساطة « اليد السوداء » وتعيين احد أفراد أسرة الأمير حليم وصيا على ابن الخديوى على غرار التغييرات الحديثة التى وقعت للأسرة المالكة فى ايران ، ومما لا شك فيه أن جمعية الاتحاد والترقى شجعت الايرانيين ، وتعاونت معهم على أحداث تلك التغييرات فى الأسرة

الحاكمة . ويدور الحديث الآن حول البدء بإنشاء محفل الشرق الماسونى
فى ايران ، وفرج الله خان ، القائم بأعمال السفارة (الايرانية) الجديد
فى القسطنطينية قد انتمى الى الماسونية حديثا .

ان أنموذج عضو جمعية الاتحاد والترقى الذى يحمل مثل هذه
الأفكار هو « وطنى آسيوى » . وأيا ما يكون شعوره بالشكر لأية دولة
أوروبية تقدم أية خدمة لبلاده ، فانه يعد من واجباته « الوطنية » مساعدة
أبناء الشعوب الشرقية الأخرى الذين « يناضلون بحق ليكونوا أحرارا »
ويجاهدون فى مصر وفى الهند لكسب حريتهم من « العبودية الأوروبية » .
ان سياسة جمعية الاتحاد والترقى لا توجهها الاعتبارات العاطفية ، وأية
دولة تتوقع الاعتراف بالجميل لخدمات تؤديها للدولة التركية انما ترتكب
خطأ جسيما . يقال ان اسماعيل حقى بك بابان زاده ، نائب بغداد ،
وأحد خبراء جمعية الاتحاد والترقى فى الشئون الخارجية ، له أخ اسمه
حكمت بك ويعمل تحت رئاسة رؤوف باشا فى الوكالة العثمانية فى
القاهرة . ويظهر أن لحكمت بك هذا معاملات مريبة ، بوساطة بعض
السوريين ، مع محمد فريد وغيره من الوطنيين على الرغم من سلوك رئيسه
المستقيم . وتقوم جريدة « تركيا الفتاة » التى يمولها اليهود كما يمولون
عددا آخر من الجرائد فى العاصمة العثمانية ، بين الحين والحين بنشر
مقالات شاب من جزيرة كريت اسمه نورى ، عضو فى جمعية الاتحاد
والترقى وأبوه عضو فى مجلس الأعيان عن جمعية الاتحاد والترقى .
وكاتب آخر من كتاب الجريدة بولندى مرتد اسمه سيف الدين ت .
غاستوت كانت له فى وقت من الأوقات علاقات مالية مع أوبنهايم ، اليهودى
الألمانى المعروف جيدا فى القاهرة منذ حادثة العقبة . وقد قام غاستون
حديثا ، مع مصرى يدعى حسين حسيب ، بإنشاء جريدة تعمل لنشر
الدعوة للجامعة الاسلامية ، باللغتين التركية والفرنسية اسمها : « منبر
الشعوب » . وهدف الجريدة الصريح هو ايقاظ الملايين من الاخوة
« المضطهدين » فى الهند ، ومصر ، وروسيا ، وتونس ، والجزائر . . . الخ
وتنبئهم بالتضامن مع مسلمى تركيا الجديدة . وتصرح هذه الجريدة
بأن سياسة أوروبا ضد الاسلام وضد الآسيويين ، وأن الأتراك يجب ألا
يصدقوا ما يعلنه الأوروبيون ، كذبا ونفاقا ، من صداقة ، وأما عن انكثره
فالجريدة تقتبس عبارة أحمد رضا بك التالية : « ان تهديم الامبراطورية
العثمانية سوف يزيد من قوتها (أى بريطانيا) ، ويثبتها فى مصر وبلاد
العرب » . وحسين حسيب بك أشبه ما يكون بممثل للوطنيين المصريين فى
القسطنطينية ، وقد اهتم بادخال بعض الشبان الوطنيين فى المدارس
التركية ، وله أخ يعمل مع محمد فريد .

ما هي ، اذن ، اتجاهات تركيا الفتاة المحتملة ؟

ان ممثليها المدنيين هم : طلعت بك الذي كان كاتباً في دائرة البرق ويقبض ثلاث ليرات تركية في الشهر ، وجاويد بك ، وزير المالية ، كان معلماً يكسب نحو عشر ليرات تركية في الشهر . وخسين جاهد بك ، وهو نائب في البرلمان ، ومحرر جريدة « طنين » ، وقد ترجم في وقت من الأوقات روايات للسلطان عبد الحميد بسعر ٤ بنسات للصفحة الواحدة . كانت غرائز هؤلاء الأشخاص الطبيعية ، وما زالت ، تدفعهم الى أن يهبطوا بمستوى الناس الآخرين الى نفس مستواهم هم .

ان العنصر التركي يبلغ ستة ملايين نسمة في امبراطورية عسدد سكانها نحو ثلاثين مليون نسمة . وهذا العنصر التركي ، في ظل حكم دستوري حقيقى يسمح بشيء من العدالة ويتيح فرصة العمل للعناصر الأخرى ، لا بد وأن يضيع في أكثرية السكان (العرب ، واليونان ، والبلغار ٠٠٠ الخ) خاصة وأنه أدنى مستوى في هذه الأكثرية في الذكاء والتعليم والكفاءات المالية والقابليات التجارية . وهو لا يستطيع أن يحافظ على مركزه عنصراً سيداً متغلباً الا بصفاته القتالية ، أى بالجيش فقط . ان الأتراك يسيطرون على العاصمة وعلى البرلمان بوساطة الأحكام العرفية . وقد أُرهب الأرمن بمذابح أدرنة ، وأُرهب اليونانيون واضطروا الى التزام الصمت ، وسحقت الحياة السياسية للبلغاريين بغلق نواديهم وجمعياتهم بالقوة ، هذا ما جرى للعناصر المسيحية التي يخشى الترك من تمردھا المحتمل . ويقوم الجيش التركي باخضاع الألبانيين المسلمين الذين لم يعرفوا الخضوع لأحد . وربما سيعانى الأكراد والعرب ، بدورهم نفس المعاملة . وبما ان العنصر التركي لا يستطيع أن يتألق بالانجازات الفكرية أو التجارية ، فان غريزته تقوده الى أن يظهر تفوقه ب « نشاطه » العسكرى واذا نجح العنصر التركي فى اىصال الامبراطورية الى حالة الخضوع الصامت داخليا ، فمن المحتمل أن يندفع الى تبني سياسة شوفينية نشطة تجاه ايران ، ومصر ، واليونان وربما بلغاريا . وفي اللحظة الراهنة لا يغامر بانتهاج هذه السياسة لاعتبارات يفرضها الحذر والتعقل ، وذات علاقة بمسألة كريت حيث بتطلب الأمر حسن نوايا أوروبا للحصول على الحل الملائم . واذا حصل الأتراك على ما يريدون فى كريت فلا بد وأن يحرك ذلك شهيتهم للحصول على نجاحات مماثلة فى مصر . . . الخ على أن كل هذا يتوقف على الممولين الأوربيين ، ومعظمهم من اليهود الذين يزودونه بالمبالغ المطلوبة للابقاء على جيش لا يتناسب حجمه مع الحالة الراهنة لتطوره الاقتصادى . فى الوقت الحاضر النظام الدستورى التركى مظهر كاذب . ولكن اذا نظرنا الى المستقبل وكيف سيتمكن العنصر

التركي من المحافظة على تفوقه بالقوة فقط في ظل حكم دستوري حقيقي فمسألة تكاد تكون غير قابلة للحل ، ومهما يكن من شيء فإن تركيا الفتاة نفسها تجد نفسها طليعة آسيا المستيقظة ، وتتخيل نفسها مسوقة بحكم الواجب لحماية الحريات الوليدة في إيران « التي تتهددها الآن سياسة روسيا وانكلترا الانانية المتغطرسة » ومن هنا سياستها المغامرة في أذربيجان الغربية ، وارتباطاتها السرية بجمعيات إيران الفتية ، وبجهود الألمان في التدخل في إيران ، كما في مراكش سنة ١٩٠٦ ، وبشورة القفقاس . وكذلك علاقات الأتراك بالثوريين اليهود والأرمن (الطاشناق) في روسيا ، التي تأمل في اضعافها وجعلها غير قادرة على الضرر ، وذلك بتشجيع القلاقل والاضطرابات ، وتقوية تيار الثورات والانتفاضات الداخلية . والأتراك يغازلون ، بمعونة اليهود ، اخوانهم الهنغاريين ، الذين ينتمون مثلهم الى العنصر الطوراني ، ويحاولون أن يوجدوا تيارا يتعاطف معهم في أفغانستان وبين مسلمي الهند . ويقلد الأتراك الاتحاديون (أعضاء جمعية الاتحاد والترقي) الثورة الفرنسية وأساليبها اللادينية وطريقتها في خفض مستوى الأغنياء الى مستوى الفقراء ، ويعود ذلك الى توجيه الماسونية اليهودية من ناحية ، والى حقيقة كون اللغة الفرنسية هي اللغة الأوروبية الوحيدة المنتشرة أوسع انتشار في الشرق الأدنى . وقد أدى تطور الثورة الفرنسية الى العداوة بين انكلتره وفرنسا . واذا تطورت الثورة التركية على نفس النهج فأغلب الظن انها ستجد نفسها كذلك في حالة عداة لمصالح بريطانيا ولأهدافها العليا .

ان سياسة الاتحاديين ، حتى الآن ، قد أبعدت تماما العثمانيين ، وبخاصة السوريين والعرب الذين فقدوا ، كما فقد اليونانيون والبلغار ، كل أمل في تأسيس نظام دستوري حقيقي في تركيا ، وأصبحوا يخشون بطش الأتراك الشديد ، وأخذوا يفتشون عن مركز تجمع للدفاع عن المصالح العربية ، وهم يكرهون الأتراك ويحتقرونهم ، ويعدون أنفسهم أرفع منهم ثقافة ، وأعلى حضارة ، ويقاومون كل حركة لتثريتهم ، وهم كذلك يخشون الغزو الصهيوني واليهودي لبلاد الشام والعراق . على أن العرب تفصل بينهم بواد وصحارى ، واختلاف في اللهجات المحلية ، وعدم قابلية للالتحام والتماسك متأصل في عنصرهم ، وكثيرون منهم ، من النواب وغيرهم ، يوجهون أنظارهم سرا الى الدولة الحديوية في مصر ، لأنها الدولة العربية الوحيدة التي يأملون أن تلم في يوم من الأيام ، تحت رعاية الانكليز ، شمل العرب الخاضعين للدولة العثمانية . وقد اتخذت هذه الفكرة عند الكثيرين منهم شكلا محددا ، ولكنها مازالت عند الآخرين غامضة أو شبه غامضة . ولكن هؤلاء العرب

جميعا لا يحملون أى عطف على الوطنيين المصريين المتطرفين ، ولا يوافقون على أساليبهم فى العمل السياسى . ويقترح بعضهم أن يحاول المحفل الأعظم فى مصر الذى تعترف به الماسونية البريطانية ان يجمع تحت جناحه المحافل المصرية غير الشرعية للماسونيين السياسيين . وهذا رأى ، بطبيعة الحال سخيىف . وهو يدل بوضوح على خطأ تصورهم للمبادئ الحقيقية للماسونية البريطانية ، التى هى بطبيعة الحال غير سياسية ، والمفروض أنه يتوجب على الماسونيين المصريين الذين تعترف بهم بريطانيا أن يتقيدوا بتعليمات المحافل العظمى فى بريطانيا واسكتلندا والتى تقضى بقطع كل علاقة مع « الأخوة غير الشرعيين » ، الذين يستخدمون الماسونية مجرد غطاء لخططهم ومؤامراتهم السياسية . ان جميع الحقائق والتصورات المذكورة أعلاه المتعلقة بالماسونية المحلية قد حصلنا عليها من ماسونيين محليين بصورة سرية تامة . ولكن هذه الماسونية المحلية شأن كل منظمة سياسية سرية من هذا النوع ، مراوغة ، وتلجأ الى المزيد من التخفى والسرية والكتمان عندما تشعر بأن أسرارها أصبحت معرضة للافتضاح والانكشاف . ولهذا أرجو ان تحافظ على سرية هذه الرسالة كل المحافظة . وبما أن معظم ما ورد فيها يتعلق بمصر خاصة فافترض بأنك سترسل نسخة منها ، بصورة سرية ، الى غورست . ولعله من المفيد أيضا أن تبعث بنسخة منها الى ايران ، بل والى حكومة الهند أيضا . لانه عندما يفهم وجهاء المسلمين فى الهند بان حركة تركيا الفتاة متأثرة تأثرا عظيما بالماسونية السياسية اليهودية والاتحادية ، فسيكون هذا ردا على ما يحتمل أن يقوم به الاتحاديون الشوفينيون من دعاية للجامعة الاسلامية موجهة ضد بريطانيا . ولدى من الادلة ما يحملنى على الاعتقاد بأن زميلى السفير الألمانى يدرك مدى توجيه الماسونية اليهودية واللاتينية (أى الايطالية والفرنسية) لجمعية الاتحاد والترقى ، وأنه قد أطلع حكومته بصورة سرية على هذه الناحية من سياسة الاتحاديين .

صديقك المخلص

جيرارد لاوثر

ملاحظة :

ورد أعلاه أن المحفل الاسكتلندى الأعظم رفض الاعتراف بـ « محفل الشرق العثمانى الأعظم » وأعلن أن ماسونيته غير شرعية ، ولكننى علمت بان الجهود تبذل للتغلب على هذه الصعوبة بطريقة غير مباشرة ، وذلك باقناع المحفل البريطانى الأعظم بالاعتراف بالمحفل العثمانى المشكل حديثا . وبالنظر للتطورات الغربية فى الماسونية المصرية فسيكون من المرغوب فيه أن يسير المحفل البريطانى الأعظم على نهج أخيه المحفل الاسكتلندى الأعظم فيرفض الاعتراف بمؤسسة مصطنعة جدا بالصيغة السياسية .

وقبل ان انتقل الى الحديث عن مولد عزيز على المصرى ، أحرص على أن أكرر هنا ، ما أقوله باستمرار فى كل مناسبة من أننى فى كتاباتى الأخيرة أولى اهتماما بالغاً بالعصر ، لا بالفرد ، بالشعب لا بالحاكم بالأجواء العامة التى يتنفسها الناس . . . بالسياسة ، بالاقتصاد ، بالاجتماع ، بالعادات ، بالتقاليد ، بالقيم الروحية ، بكل ما يمكن أن يؤثر على الانسان من قريب أو من بعيد .

وفى أحيان كثيرة اهتم بمشاكل الناس ، بآلامهم ، بمتاعبهم ، وبطرق تفكيرهم ، فى حل تلك المشاكل والآلام والمتاعب . وفى أحيان كثيرة أيضاً لا أولى بفترات البداية بالنسبة للفرد . . . والطفولة والصبا الا بقدر تأثير ذلك فى الشخصية التى أكتب عنها .

فقد درج كثير منا على أن كل شخصية بارزة احتلت فى صفحات التاريخ مكانا عاليا كانت فى طفولتها عبقرية للغاية . وكان الناس - كل الناس - يتنبأون لها - لتلك الشخصية - بالعبقرية والتميز والتفرد .

وكانت ملامح النبوغ تبدو وهى ترضع لبن أمها ، وهى تنتقل من بيتها الى الشارع ومن الشارع الى الكتاب الى المدرسة .

بل فى أحيان كثيرة يحاول البعض تصوير تلك الشخصيات فى طفولتها أنها كانت متميزة عن غيرها ، تكاد الأصابع تشير اليها باستمرار .

ولو أن الأمر كان كذلك لكان فى الامكان أن تعرف كل شخصية من الصغر ما مستقبلها ، ومكانها فى التاريخ وان يعرف ذلك من يحيطون بها وبذلك يصبح الطريق ممهدا أمام تلك الشخصية لكى تحتل ما تريد من مناصب .

وربما كان ذلك غير صحيح فى كثير من الأحوال وفى أحوال كثيرة تبرز شخصيات لم تكن قد ظهرت عليها فى طفولتها محافل النبوغ والتفوق والعبقرية .

كما توجد شخصيات تتفوق فى طفولتها وتتميز ، ولكن هذا التفوق وهذا التميز لا يستمران مع الطفل وانما ينتهيان عند فترة من بدايته الحياة تطول أو تقصر .

لا أهتم عادة بالحديث عن النبوغ المبكر ، فى الشارع أو فى المدرسة أو فى الحى الا ان تكون هناك وقائع ثابتة مؤكدة .

واذا كنت أهتم بالشعب لا بالحاكم ، بالمجموع لا بالفرد ، فاننى وأنا أكتب عن هذا الفرد - حاكما كان أم غير حاكم - لا أكتب عنه على

أساس أنه خلق وحده شيطانيا ، وعمل وحده كل شيء ، وصنع بيده كل
مجد ، وحقق - وحده دون شريك - كل ما حققه من أمجاد .

أنا لا أتصور أبدا أن شخصية ما مهما كان نصيبها من العبقرية ،
ومهما تميزت به من النبوغ ، لا يمكن أبدا أن تكون وحدها هي صانعة
الأمجاد التاريخية التي نسبت إليها .

لا يمكن - مثلا - فيما يتعلق بالثورات أن يكون فرد ما هو الذى
فكر فى الثورة وهو الذى خطط لها ، وهو وحده صاحب فلسفتها ، وهو
وحده الذى قام بها ، ونفذها ، وحقق لها النجاح .

لا بد وان يكون لهذا الشخص مساعدون من الزملاء والأنصار
لا بد وان يكون الى جانبه فى مرحلة التفكير وفى مرحلة التخطيط وفى
مرحلة التنفيذ عقول وسواعد أمدته وغمرته وقوته ومكنته من ان يحقق
الانتصارات التى تنسب اليه .

ان المسألة ليست مسألة بطولة فى رفع الأثقال حتى نقول ان البطل
الفلانى قد نجح فى أن يرفع كذا كيلو ، بل أنه حتى فى تلك البطولة ،
لا بد من ان يعود الفضل الى من دربوا ذلك البطل . . الى من ساهموا
فى خلق الجو المناسب لحصوله على تلك البطولة .

ولذلك ترانى لا أهتم ، بالبطل وحده وانما اهتم بمن حوله من
الزملاء والأنصار .

نقطة أخرى أحب أن أتحدث عنها قبل الحديث عن بداية عزيز على
المصرى . . ان هذه المرحلة من حياة هذا الرجل غير معروفة تماما ، بل
ان تاريخ مولده لم يتأكد تماما ، فمن قائل أنه ولد فى عام ١٨٧٢ ، ومن
قائل أنه ولد فى ١٨٧٧ . ومن قائل - وهو الأرجح - أنه من مواليد
١٨٨٠ ، ولقد بذلت جهدا شاقا ومضنيا ، لكى أعرف المدرسة أو المدارس
الابتدائية التى تعلم فيها عزيز على المصرى دون أن أصل الى ما أردت
الوصول اليه .

بل ان خلافات واختلافات كثيرة كانت حول الفترة التى سبقت
دخوله المدارس الحربية العثمانية ، هل دخل - كارها - مدرسة الحقوق
الخدوية وقضى بها عاما أو بضعة أشهر ، تركها الى الآستانه ؟ هل اتجه
الى باريس وقضى بعض الوقت فى أحد المعاهد الفرنسية هناك قبل ان
يلتحق بالمدارس الحربية العثمانية .

بل ان خلافت واختلافات كثيرة قامت حول اسم عزيز على المصرى
ووالده ، فمن قائل ، بأنه من أسرة شاهلبة وأن اسمه عبد العزيز زكى
الجركى الأصل .

ومن قائل : أنه عبد العزيز بن الشيخ على المصرى من أعيان البحيرة
ومن كبار مزارعيها . وقيل ان والده سمي بالمصرى تمييزا له عن جار
تركى كان اسمه الشيخ على . ومن قائل : بان الوالد - والد عزيز على
المصرى - كان اسمه زكريا افندى على .

وربما كان عزيز على المصرى نفسه هو المسئول الأول والأخير عن
الغموض الذى واكب بداية حياته فقد كان عزيز المصرى ضنينا بالحديث
عن طفولته ، بل كان دائما وأبدا غير راغب فى الحديث عنه ، وعندما
أردت تقديم شخصيته فى كتاب الشباب - وهو مشروع فكرت فيه
وقمت بتنفيذه فى عام ١٩٤٧ - أى تقديم كتيبات صغيرة موجزة عن
حياة كثير من شخصياتنا البارزة سواء تلك التى نتفق أو نختلف معها ،
حاولت أن أعرف منه بعض ذكريات عن أيام طفولته ، فما رحب بما طلبته
منه ، الأمر الذى جعلنى استنتج - وقد يكون استنتاجى خاطئا - ان تلك
الأيام لم تكن سعيدة بالنسبة له ، خاصة بعد ان فقد والده وفقد والدته
وعاش فى كنف أخته الكبرى من أمه لا من أبيه زوجة على باشا ذو الفقار ،
ورغم ما عرفته منه أن أخته وزوجها على باشا ذو الفقار كانا يرعيانه
بأفضل ما ترعى الأم ابنا عزيزا لها ، وكانا يوفران له كل وسائل الحياة
المرفهة حتى انه كان يذهب الى مدرسته الثانوية فى شبوا (التوفيقية)
فى « دوكار » - عربة يجرها حصانان مطهمان - وكانا يستقدمان العديد
من المدرسين الى المنزل لتربيته وتعليمه . لم يكن عزيز على المصرى - عبر
تاريخه الطويل - يتحدث عن أيام طفولته وصباه الا حديثا عاما عابرا دون
دخول فى التفاصيل .

كل الذى نعرفه منه - مثلا - أنه سمي بعبد العزيز نسبة الى
السلطان عبد العزيز ، وأنه ولد فى شارع عبد العزيز (عابدين) وكان
يسكن فى قصر منيف يطل على ما كان يسمى بحدائق شريف والتى كانت
تمتد من شارع عبد العزيز حتى شارع محمد على ، وأن والدته كانت
سيدة شركسية تتميز بالجمال والأناقة وانها - أمه - هى التى علمته -
منذ الصغر - اللغة التركية كما كان الحال بالنسبة للأسر الكبيرة
والعريقة فى مصر وقتذاك .

وعن خصال عبد العزيز على - فى تلك المرحلة - أنه كان منطويا على نفسه للغاية ، وربما كان قصر قامته وضآلة حجمه ، من الأسباب التى أدت الى ذلك الانطواء ، ولكنه كان ذكيا للغاية مغرما بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسعد بن أبى وقاص ، وبنابليون بونابرت ، ومحمد الفاتح ، ومحمد على . . بل أنه كما ذكر ذات مرة كان يحفظ خطب نابليون باللغة الفرنسية ويلقى أجزاء منها على بعض رفاقه وزملائه القريبين منه جدا .

وأذكر - والحديث عن مولد عزيز على المصرى - أننى نشرت كلمة عن أسرة عزيز على المصرى عندما كتبت عنه فى المصور - مقالا - بعنوان « عزيز على المصرى فى ذكراه السابعة ٨٧ عاما من كفاح مستمر » وقد تلقيت رسالة عاتبة بل غاضبة للغاية من أحد الأخوة الشراكسة - فى الأردن - محمد أيوب فخرى - عمان الأردن - ص ٥٠ ب ٦٥٠٥ ، أحرص على نشرها بنصها ، وفصلها - رغم قسوتها - وذلك لأهميتها البالغة - من وجهة نظرى . . . :

« حضرة الاستاذ الفاضل صبرى أبو المجد المحترم

تحية طيبة وبعد . .

اطلعت على مقالكم المنشور فى مجلة المصور (العدد ٢٤٨٨ تاريخ ٢١ يونية ١٩٧٢ تحت عنوان (عزيز المصرى فى ذكراه السابعة - ٨٥ عاما فى كفاح مستمر) .

لقد لفت نظرى العبارة التالية التى وردت فى المقال (لقد كنا الى فترة قريبة للغاية نعتقد أن عزيز على المصرى ينتمى الى أسرة قوقازية تحمل اسم شاهلية ، ومعناه الرأس الواسع أى الذى يرى كل شئ ، وان اسمه عزيز زكريا شاهلية ، غير أننى عندما كنت بالعراق فى ابريل الماضى وواصلت البحث عن كل ما يتعلق بعزيز المصرى اكتشفت ان أسرة عزيز المصرى ليست قوقازية ، وانما هى عراقية بحتة ومن مدينة البصرة بالذات وتحمل اسم « عرفات » وكانت تمتهن التجارة وقد تزوج أحد أفرادها بعد ان نزح الى القوقاز من هناك وأنجب ابنا اسمه على ، انتقل الى تركيا ، ثم الى مصر ، وقد أيد هذه القصة تماما اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوى . . الخ) .

هذا هو السبب الذى دعانى لأن أكتب اليكم . . .

ولا أنسى بهذه المناسبة ان أحيى فى مجلة المصور وفاءها لذكرى الرجل العظيم والمجهد الذى بذلتموه فى الكتابة عنه احياء لذكراه .

وبما أننا هنا في الأردن نعتز بالزعيم الراحل عزيز المصري
اعتزازكم به ، وربما أكثر . وبما أنني وزمرة من اخواني الشراكسة
في الأردن ممن اطلع على المقال قد ساءنا ان ينقلب أصل رائد الوطنية
في مصر المغفور له عزيز المصري بسهولة تامة وبجرة قلم الى أصل
عراقي استنادا الى رواية شخص ، كان لواء في الجيش ، وكان ياورا
لعزيز المصري ، ولم يكن عمله ، أو ليس عمله ، البحث والتأريخ ،
مع أن هذا القول اذا كان صحيحا يجب ان يستند الى دراسة وافية
متروية عقلانية ، لا الى مجرد عاطفة ، ونزعة قبلية دفيئة ، أو تعصب
أعمى .

هذا ما يمليه الواجب ، بعد كل هذه الأعوام الطويلة ، وبعد ان
استقر في أذهان الناس جميعا القناعة التامة بأن عزيز المصري هو من
أصل شركسي ، وهو الواقع فعلا لا جزافا ، وهو ما أثبتته المؤرخون
للحركة الوطنية في مصر وهو ما نقل عن المرحوم عزيز المصري ، أو
على الأقل أيده ، ولم يقم بنفيه في يوم من الأيام ، وهذا يمكن اعتباره
أهم مصدر من المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في تقرير أصل
عزيز المصري ان كان عربي الأصل أو قوقازيه . وأين كان اللواء
المتقاعد طيلة هذه الأعوام ، ولماذا كان يخفي هذه الحقيقة ؟ ويؤسفي
القول أن الأسلوب الذي أوردتم فيه هذا الاكتشاف الجديد لأصل
عزيز المصري كان يدل على فرحتكم كمن يزف البشرى للأمة العربية
بهذا الاكتشاف لتفرعيننا ، لأن هذا البطل الرائد الذي أفنى عمره
يضىء للأجيال العربية سواء السبيل هو من أصل عربي ، وبذلك
تكتمل صورة البطل في أذهان الجماهير العربية والا بقيت الصورة
مشوهة وهو يرتد بأصله الى القوقاز .

ومن قبلك مع الأسف حاول مخرج مصري لفيلم مصري أن
يجعل من صلاح الدين الأيوبي الكردي الأصل عربيا من قریش ، فقال
يومئذ قائل من الأردن (يا أمة هان عليها تاريخها فهانت على
التاريخ) . واني أجدني اليوم مع الأسف أكرر هذا القول .
اذا كنت تكتب لتسليية القراء أو لتعزيتهم ، فمرحبا بك ،
واما اذا كنت تكتب للتاريخ ، ولتنير الدرب للجيل الصاعد فليس
هذا هو الأسلوب الصحيح ، وما هكذا يا سعد تورد الأبل . .
لأن الحقيقة التاريخية أعلى من أن تشوه بمثل هذه السرعة ،
وانحرافا مع عاطفة .

أن ما نقلتموه عن اللواء المتقاعد الذي كان ياورا ، يخالف ما نعرفه نحن بالتأكيد ، ويخالف ما كتبه عنه مؤرخو الحركة الوطنية في مصر ، ومؤرخو سيرة عزيز المصري ، وما كان هؤلاء يكتبون دون سند من حقيقة ، انهم على الأقل لم يكونوا من جيل الهزيمة والضياع ، كانوا يتحلون بروح الجدية ، كانوا يدرسون ويحققون قبل أن يتصدوا للكتابة . كما يخالف ما ورد في تاريخ الأسر الشركسية وأسمائها المدونة .

عزيزى الأستاذ ،

أرجو ان يتسع صدرك لما سأقوله ، ان ما اقدمتم عليه ليس مستغربا فى عصرنا ، وليس جديدا علينا ، فماذا أبقى الأدباء العرب وسياسيوهم مما نعتز به ، ثم يحاولون حرقه ، والنيل منه ، والظعن فيه دون رحمة ؟

هل وصل الى علمكم ان الاعلام العربى متهم بالعهر ، أو ان الأدب الجاهلى مختلق مزور ، وأن طه حسين شيخ أدباء العصر متهم بالنقل والسرقة الأدبية ، هل تركتم قبر عظيم لم تحاولوا نبشه ، هل قرأت أبحاثا عن خلق القرآن الكريم ، هل سمعت يوما عربيا يقول ان الاسلام هو (فقط) رافد من روافد القومية العربية .

أما فى السياسة فأنت أدري بما يحدث فى العالم منذ ربع قرن ، فكل فريق من العقائديين العرب يتهم الفريق الآخر بالخيانة ، واذا لم يجدوا سببا للنزاع لان العقيدة واحدة ، أو المفروض أنها واحدة انقسموا الى يسار والى يسار اليسار ، ثم الى اليمين ويمين اليمين ، والى معتدلين ، ومعتدلين متطرفين . الزعيم الخالد الذكر جمال عبد الناصر لم ينبج من التهمة ، وصانع النهضة العربية الحديثة ، ورأس الثورة العربية الكبرى الحسين بن على ما تركه الكاشحون الذين فى قلوبهم مرض ينام فى قبره بسلام ، ولو نبخ رجل مثله فى غير هذه الأمة لجعلوا من قبره مزارا يطوف حوله أبناء أمته صباح مساء ، الا أنه ليس لبنين ولا أتانورك ولا ديفول ، ولسنا روسا أو أتراكا أو فرنسيين ، اننا عرب . وهكذا الى أن يهدينا الله الى السبيل السوى ، ويجعل فى قلوبنا الرحمة وفى السنتنا الصدق وفى أقلامنا تقوى الله .

أخي الأستاذ ..

نحن الشراكسة ، وغيرنا من مهاجري القوقاز من الأجناس الأخرى ، هاجرنا في سبيل الاسلام والأراضي المقدسة واستقرينا في البلاد العربية متخذين منها وطنا ثانيا ، وخاصة في الأردن وسوريا وفلسطين والعراق وقد قدمنا الكثير في سبيل الاسلام والعروبة ..
اننا لا نعرف بالضبط متى هاجرت أسرة شاهلية من القوقاز والى أى بلد عربى ، وليست لدى معلومات أكيدة اذا كانت هاجرت الى العراق أو هاجر بعض أفرادها الى العراق ومن العراق الى تركيا ثم الى مصر ، انما نعلم بالتأكيد أن التاريخ المدون للأسر الشركسية في القوقاز أورد اسم « شاهلية » مع تحريف بسيط طرأ عليه عند نقل الاسم الى اللغة العربية ليسهل نطقه وكتابته باللغة العربية ، وهذا شيء نعرفه نحن الشراكسة ممن جربنا الكتابة باللغة العربية لألقابنا الشركسية ، وليبق اللقب علامة مميزة ، أما معنى اللقب « شاهلية » فهو الرأس الثمين ، وليس الواسع ، والرأس الثمين أو العقل الثمين هو الذى يرى أشياء كثيرة ، وما كان لعزیز المصرى ، وهو الرجل القوى الواثق من نفسه ، ومكانته ، وقدراته ، ان ينكر أصله الشركسى ، وهو لم يفعل ذلك ، بل الصحيح أنه كان يعتز بأصله الشركسى اعتزازه بدينه وعروبه ومصريته ، والرسالة التى كرس نفسه من أجلها ، وقد قابله أناس من شراكسة ، فقابلهم مقابلة القريب للقريب أو لبعض أهله .

اننا نحن الشراكسة اذا نبغ منا رجل مثل عزيز المصرى فاننا نعتز ونفخر به ، نعتز بمن كان أصله شركسيا وهو رائد من رواد الحركة الوطنية في البلاد العربية ونبراسا يهتدى الناس به ، ذلك اننا نعتبر ذلك دليلا على أسهامنا فى رفعة هذا الوطن العربى الذى أظننا بسمائه هذه الحقبة الطويلة من الزمن وأصبح مصيرنا مرتبطا بمصيره ، ولو شئت أن استطرد لزودتك بقائمة طويلة ممن أصلهم شركسى وقدموا الخدمات الجلى لهذه الأمة العربية .

ان محاولات اخواننا العرب لطمس هذه الآثار تسيء اليها كثيرا ، وتشعرنا بأن غيرنا لمسبب أو لآخر يحاول هدم ما بنيناه .

ولا أدري هل يضار العرب والاسلام اذا كان صلاح الدين الأيوبي من أصل كردى ، أم اذا كان عزيز المصرى من أصل قوقازى شركسى ؟ أم أن هذه المحاولات وراءها مع الأسف شعور بالضعف والضياع ؟ حتى بات أصحابها يتمسكون بالقشور .

اننا نشعر مع الأسف ان اخواننا المصريين يعانون من عقدة ورثوها منذ زمن المماليك الشراكسة ، تلاحقهم وتؤرقهم ، هذا مع العلم أيضا ان المنصفين الذين أرخوا لحكم المماليك ، في مصر قد ذكروا لدى حساب السيئات والحسنات ، ما قدمه هؤلاء من خدمات جلي للاسلام والعروبة ، أليسوا هم الذين ردوا الغزاة التتار عن هذه الديار ؟

اننى أتمنى أن ينشر الرد هذا ، ليطلع القراء على التصحيح فيما يتعلق بأصل المغفور له عزيز المصرى ورائدى البحث عن الحقيقة واثباتها ، وقد أوردت الحقيقة كما أعرفها .

وشكرا لكم

وقد عذرت الأخ محمد أيوب فخرى نيف لثورته العنيفة ، ونشرت ملخصا لتلك الرسالة الثائرة مؤكدا للأخ محمد أيوب أننى لم أفرح أبدا بهذا الذى سمعته فى العراق فأنا لا أهتم عادة بمثل هذه الأمور خاصة وان الاسلام وحد بيننا ، وأزال تلك الرواسب القديمة وجعل منا اخوة لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى .

ثم اننا نعرف ان كثيرا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا من الأحباش والفرس وقد من الله عليهم بالاسلام فضحوا فى سبيل الاسلام بكل مرتخص وغال .

كما ان العشرات بل المئات من غير العرب ، ممن أفاء الله عليهم بنور الاسلام كانوا من أعظم القواد الذين فرضوا ارادتهم على التاريخ . . وليعرف الأخ محمد أيوب فخرى وزملاؤه أنه لم يدر فى خلد أى مصرى أو أى عربى الانتقاص من قدر أى شركسى أو قوقازى أو فارسى فنحن العرب المسلمين ننظر اليهم كاخوة أعزاء يجمعنا ديننا الحنيف .

ونحن واياهم اخوة لأب هو الاسلام واخوة لأم من ناحية هذا الوطن الكبير الذى اجتمعنا على خير فوق أرضه ، ولن يضار الاسلام أبدا بكردية صلاح الدين ولا بشركسية عزيز المصرى فكلنا من الاسلام أبناء . واذا كان بعض الاخوة المؤرخين ينتقص من قدر المماليك الشراكسة ، فما أكثر المؤرخين الذين انتقدوا الحكم الفاطمى والحكم الأخشيدى بل والحكم العثمانى ، وليست أبدا لدى المصريين ما يسمى بعقدة كراهية الشراكسة ، عقدة من العقد ، نحن ننظر الى الأمور نظرة موضوعية ، ونحن نؤرخ للحكام دون تمييز من ناحية الجذور أو الأصل ، بدليل أننا نوجه اشنع

النقد لآخواننا المصريين ولو قرأ الأخ محمد أيوب فخري تيف بعض ما كتبه بعض المؤرخين المصريين ، عن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول من نقد عنيف لما وجه مثل هذا الاتهام .

ولأننا نرجح ميلاد عزيز على المصرى فى عام ١٨٨٠ لأنه لو كان من مواليد ١٨٧٢ لكان تخرجه فى عام ١٨٩٦ فى البكالوريا أمرا غير مقبول فالأسرة التى كان ينتمى إليها وظروفه الاجتماعية وتخرجه من المدرسة التوفيقية تفترض أن يكون صغير السن ، وهو يحصل على البكالوريا ، ثم ان أحدا لم يقل بمولد عزيز على المصرى فى عام ١٨٧٢ الا قلة ضئيلة لم تعتمد فى قولها على أى دليل .

لأننا نرجح ميلاد عزيز على المصرى فى عام ١٨٨٠ فاننا نستحسن ان نشير اشارة عابرة الى تلك السنة وما جرى بها من أحداث على أساس ان الظروف المحيطة بالمولد ، تؤثر من قريب أو من بعيد فى شخصية الفرد فالذين ولدوا - مثلا - وكما سبق ان قلت - فى ثورة ١٨٨١ أو قريبا من هذا التاريخ هم الذين شاركوا فى اشعال ثورة ١٩١٩ والذين ولدوا فى ١٩١٩ وما حولها هم الذين شاركوا فى اشعال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . عام ١٨٨٠ سبق ثورة أحمد عرابى بعام بل لقد كان عام ١٨٨٠ هو عام ارهاصات لثورة ١٨٨١ .

شهدت بداية ذلك العام - ١٤ يناير ١٨٨٠ - كارثة وطنية هامة اذ تم التنازل عن أرباح مصر فى قناة السويس وكانت تلك الأرباح ١٥٪ من مجموع أرباح قناة السويس .

وكانت الإيرادات فى ميزانية عام ١٨٨٠ - وقد صدر بتقريرها مرسوم فى ٢٠ يناير ١٨٨١ - بلغت ٨٥٦١٦٢٢ ر.جنيها بينما المصروفات ٣٦٤١٥٤٤ ر.جنيها يضاف إليها ٦٨١٤٨٦ ر.جنيها قيمة الجزية السنوية التى كانت تؤدى لحكومة الأستانة والباقي ومقداره ٤٢٣٨٥٩٢ ر.جنيها كان مخصصا لسداد الديون .

وكانت أموال الأتبان ٣٨٨٠٢٢٧ ر.جنيها ، وعوائد الأملاك ٦٢١٩٦ ر.جنيها وكانت ضريبة أصحاب الحرف ٢٠٨٠٠٩٣ ر.جنيها ، وعوائد الأغنام والماعز ١٢٦٧٤ ر.جنيها .

وكان إيراد السكك الحديدية ١٠٥٠٠ ر.جنيه ، وإيراد التلغراف ٢٩٠٠٠ ر.جنيه .

وكانت مصروفات نظارة المعارف ٥٩٤٥٢ ر.جنيها ومصروفات وزارة
الداخلية ٨٨٣ر٤٨٠ جنيها ، بينما مصروفات المحاكم المختلطة ١٣٢ر٠٤٣
من ٢٤٤٣٠٠ ج مصروفات ديوان عموم نظارة الحقانية ، والمحاكم
الشرعية والمجالس (المحاكم) المحلية .
وكانت مصروفات المتحف (الانتكخانه) ١٠ر٤ جنيها والتياترات
٧٣٥ جنيها .

وفي نفس العام (١٨٨٠) تم الغاء السخرة أى تسخير الأهالى فى
العمل بغير أجر كاقامة الجسور وشق الترع وتشبيد دور الحكومة ،
وخدمة مصالح الخديو والأمراء والكبراء .
كما أبطل الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب .

وكان الحزب الوطنى قد تأسس ونشر أول بيان سياسى له فى ٤
نوفمبر ١٨٧٩ وقد بلغ نشاط ذلك الحزب أوجه فى عام ١٨٨٠ .
ثم كانت بدايات الثورة العربية فى أول ١٨٨١ واقعة قصر النيل
ومحاولة اعتقال - عن طريق مكيدة خبيثة - أحمد عرابى ، وعلى فهمى بك
وعبد العال حلمى وقد حدث هجوم من الضباط بقيادة البكباشى محمد
عبيد أفندى لاطلاق سراح الضباط الثلاثة وأعقب ذلك عزل عثمان
رفقى وزير الحربية ، وتعيين محمود سامى البارودى - وهو من الأحرار -
بديلا له فى نظارة الحربية .

وقد بلغت الثورة العربية أوجها فى واقعة عابدين (٩ سبتمبر
١٨٨١) وكانت الهزيمة المرة المنكرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ ودخول
القوات البريطانية العاصمة المصرية (القاهرة) بعد ان سلم عرابى سيفه ،
وتم اعلان انكسار الثورة .

وعن الدراسة بمدارس الآستانة العسكرية - وأقول مدارس لأنها
كانت أكثر من مدرسة - اكتفى ببعض الروايات الموثوق بها . . يقول
- مثلا - الأستاذ محمد صبيح فى كتابه عن عزيز المصرى « بطل
لا ننساه » : دخل فتانا عزيز المصرى المدرسة الحربية ، ثم كلية أركان
حرب ، وكان أول دفعته ، ممتازا بين أقرانه ، فى الفنون الحربية الى
جانب شغفه بالقراءة والاطلاع ، كما أعطى وقتا كافيا لاتقانه اللغات
الأجنبية ولا سيما الانجليزية والفرنسية والألمانية التى كانت معظم دروسه
العسكرية تدون بها الى جانب اللغة التركية .

وقد تميزت فترة دراسة عزيز العسكرية - محمد صبيح - بتعرفه على عدد كبير من الضباط العرب الذين سلكوا نفس طريقه ونشأت بينهم ألفة حقيقية فى الرأى والفكر والأمل فى عمل شىء جاد يحقق للبلاد العربية حرية أوفر ويدفع فى نفس الوقت عن الامبراطورية العثمانية عوامل الانهيار .

وكان « أنور » أحد هؤلاء الزملاء ، وعلى الرغم من المناقشات الحامية الطويلة التى كانت تدور بين الشابين الا أن كل منهما - عزيز وأنور - كان يظهر إعجابه وتقديره لزميله لما بين الاثنين من طباع مشتركة فواحد يتعصب لفكرة التتريك - أى مزيد من السلطة المركزية على شعوب الامبراطورية - وكان هذا أنور . أما عزيز فكان يرى أن العثمانية تكون شعارا فقط وتترك الشعوب المنظمة تحت هذا الشعار ، تنمو ، وتزدهر ، وفى ذلك حياة أوفر وقوة طبيعية يستند اليها الوجود العثماني .

أحدهما - أنور - كانت تطوف برأسه سيرة جنكيزخان ، وتيمورلنك . والثانى - عزيز - كان يتجه بمثله العليا الى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه .

وقدر لكل من هذين الشابين أن يتزعم مدرسة فكرية تدور فيها أحلامه وان تصطدم المدرستان . وكان هناك شاب ثالث هو : مصطفى كمال لم يعبأ كثيرا بهذه المناقشات وان كان يصغى اليها فقط . !!

رواية أخرى جاءت فى المؤيد - أول يونيو ١٩١٣ - عندما أثرت قضية عزيز المصرى أثر عودته المفاجئة من برقة وطرابلس : بعد أن أخذ عزيز البكالوريا من المدرسة التوفيقية ١٨٩٦ أشار عليه سعادة على ذو الفقار باشا - زوج أخته من أمه - بدخول مدرسة الحقوق ، فدخلها كرها ، وكانت الحرب بين الدولة العلية واليونان قد بدأت ، فزادت الحرب ميوله الى الجندية ، وصمم سرا على سلوكها ، فلما أتم السنة الأولى فى مدرسة الحقوق شرع فى انفاذ عزمه ، فتعلم اللغة التركية فى شهور الأجازة وذهب الى الآستانة ودخل مدرستها الحربية وتلك كانت كل أمانيه .

ويضيف د . محمد عبد الرحمن برج فى دراسته الموجزة والمفيدة جدا عن عزيز على المصرى والحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩١٦ - أن المدارس العسكرية فى الوقت الذى دخل فيها عزيز كانت تموج بالدعوة الى الحركات الاصلاحية ففي عام ١٨٨٦ أسس طلبة المدرسة الطبية العسكرية فى القسطنطينية (المكتب الطبى العسكرى) جمعية سميت باسم الاتحاد

التركي تعمل على عزل السلطان عبد الحميد الثاني وكانت هذه الجمعية النواة الأولى السرية لحركة تركيا الفتاة .

وكان من الطبيعي أن تكون بدء الحركة الثورية ضد السلطان عبد الحميد في المدارس العسكرية ومرجع ذلك أن التعليم العسكري كان أفصح أنواع التعليم وأكثره صلاحية في الدولة العثمانية ، فالمعروف أن محاولات الإصلاح التي شهدتها الدولة العثمانية بدأت أول ما بدأت بمحاولة إصلاح الجيش منذ عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) حين أصلح أمور البحرية والمدفعية وتجنب إصلاح الانكشارية ثم كان عهد محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وفي عهده تم القضاء على الانكشارية كمحاولة لإصلاح الجيش في تلك الواقعة التي عرفت باسم الواقعة الخيرية ١٨٢٦ .

وفي عهده انشئت مدرسة للطلب وأكاديمية العلوم العسكرية .

ومنذ ذلك الحين كان من الطبيعي أن تكون المدارس العسكرية هي النواة لإصلاح حال الدولة العثمانية كانت هذه المدارس تدير أولا على النظام الفرنسي . ومع التقارب الذي ظهر واضحا في أواخر القرن التاسع بين السلطان عبد الحميد وألمانيا بدأ اتباع الأسلوب الألماني في المدارس العسكرية . فمن أيام السلطان عبد الحميد والروابط بين ألمانيا وتركيا تزداد والعلاقات التركية الألمانية تقوى سنة بعد أخرى . ففي عام ١٨٨٢ وصلت بعثة عسكرية ألمانية برئاسة برناستي جولتز وروستو باشا لتنظيم الجيش العثماني وقدمت لهذا الجيش مدافع كروب .

ولاعطاء صورة أوضح للحياة في استانبول عامة . . وفي المدارس العسكرية العثمانية خاصة : يذكر داجوبرت فون نيلوش في كتابه عن مصطفى كمال ، أن مصطفى كمال رغب في الحربية لتكون مهنة يخدم وطنه من ورائها لا ليلهو بالملابس الزاهية .

وكان الأستاذ (حافظ) الذي سبب خروج مصطفى من المدرسة الثانوية هو الذي مهد لمصطفى هذا المصير - من غير قصد طبعاً - فقد دفع مصطفى إلى التصميم على دخول المدرسة الحربية ، وقد قصد الفتى - مصطفى كمال - الذي لم يكن قد تجاوز من العمر الثانية عشرة من عمره أحد أصدقاء والده واستعان به على الدخول المدرسة الحربية ، وكان صديق والده مصطفى ضابطاً من الضباط الذين أحيلوا على التقاعد فأظهر له عطفاً أكيدا وقصد رؤساء الكلية الحربية في سيلانيك وتمكن من اقناعهم بقبول مصطفى فقبلوه بعد أن نجح في الإمتحان .

وكانت الكلية الحربية من المعاهد التى ينفق عليها السلطان من ماله الخاص ويشرف على التعليم فيها بنفسه وكان الطالب الذى يكثّر من الألاعيب والمجون أو ينصرف الى الأهمال والكسل يرسل الى الجيش ليكون نفرا عاديا ويقضى فى الجيش عددا من السنين كالتى قضّاها فى المدرسة ليعوض عن الأموال التى صرفت عليه وقد يتاح له أحيانا أن يكون ضابطا غير حامل للبراءة .

ثم انتقل مصطفى الى معهد أكبر فى « مناستر » وهى من مدن مقدونيا الجميلة ، ثم انتقل الى المدرسة الحربية فى استانبول ، وكانت استانبول فى مطلع هذا القرن العشرين لا تزال راقدة تستمتع بشمس شهرتها القديمة المائلة الى الغروب . كانت المدينة كما صورها الكاتب الفرنسى بيرلوتى ، لاتزال زاهية مشرقة فاتنة خلابة ، كانت مدينة الأسرار الغامضة ، والمتناقضات العجيبة ، والانقلابات الفجائية ، كانت مدينة الزهو والأبهة والجلال ، كما كانت مدينة العوز والفقر والفاقة وكانت ترى فيها القصور الشامخة والفيلات البديعة الى جانب الأراضى الخربة والأطلال الدائرة ، كانت الأحياء المنفردة مدنا قائمة بذاتها فى مظهرها الخارجى ، كما ان سكان كل حى كانوا يعيشون عيشة تختلف كل الاختلاف عن عيشة سائر الأحياء .

كانت استانبول القديمة مجموعة دور خشبية تحيط بها المساجد ذات أبهة وجلال وكانت « بيرا » مدينة المسيحيين والسفارات الأجنبية وكان القرن الذهبى ملتقى الشرق والغرب ولكن الشرق كان يفصله عن الغرب جسر الأهم أو جسر غلطة الذى كان يتطلب الإصلاح والترميم على الدوام ، وكان يومذاك مزدحما بحشد مختلف من الأتراك والعرب والأرمن واليونان والألبانيين والمقدونيين والأكراد والسوريين والدروز والشراكسة . وكان الطربوش غطاء الرأس الرسمى يعتمر به الناس جميعا وبه يميز الأتراك عن سواهم وكان هو شعار التركى الطاهر .

وكان من الممكن أن ينتقل الرجل بين يوم وآخر من نعيم موفور الى فقر مدقع ففى الصباح يرى مبتهجا فى قصره لاهيا كالأغنياء المترفين ، فاذا أظلم الليل نزعته عنه أوسمته ونياشينه وصودرت وجرد من خيوله وعرباته ومن أثاث بيته وأملاكه ثم يرسل الى المنفى ، وكانت الأقطار الشرقية هى التى ينفى اليها الأتراك عادة .

وهكذا كان التركى فى قلق متواصل لا يعرف ماذا يضمّر له الدهر الغدار ، وكان بعض الأتراك يتعاطون الأفيون والحشيش ، فغدت هذه العقاقير المخدرة السامة مصدرا من مصادر البلاء للأتراك وغير الأتراك .

فى هذا الجو العام والخاص عاش عزيز على المصرى ثلاث سنوات من عمره كانت مدة الدراسة فى الكلية العسكرية ، وكان الطالب فى الكلية العسكرية كائى كلية عسكرية فى العالم لا يخرج من مبنى المدرسة الا فى نهاية الأسبوع ؛ واذا كان عزيز على المصرى قد تعرف فى مرحلة الدراسة العسكرية بأنور ، ومصطفى كمال من الطلبة الأتراك فإنه تعرف الى نوري السعيد وجعفر العسكري وجميل المدفعى ، وعلى جودت من الطلبة العرب .

ويذكر زملاء عزيز على المصرى فى تلك المدرسة أن عزيز كان معجبا بالمدارس العسكرية الألمانية أثناء دراسته فى المدرسة العسكرية العثمانية وقد ظل هذا الإعجاب ملازما له طيلة حياته كما نعرف جميعا . . !!

وكانت ألمانيا قد أهتمت اهتماما بالغا بالمدارس العسكرية العثمانية وكانت تنتقى لها أفضل العسكريين البروسيين الذين كانوا يقومون بالتدريس فى مدرسة أركان الحرب العثمانية ، وكان كثير من طلبة المدارس العسكرية العثمانية ، قد أكملوا دراستهم فى مدارس ألمانيا العسكرية ، كما أن كثيرين منهم قد حضروا دورات تدريبية فى مدارس ألمانيا العسكرية .

وبعد أن تخرج عزيز على المصرى من المدرسة العسكرية بتفوق ، بل بامتياز ، دخل كلية الأركان ليتلقى الدراسات العليا فى العلوم العسكرية . وقد وصف كمال أتاتورك - د . برج - كلية الأركان آنذاك بأنها كانت واحدة من المراكز الرئيسية للمعارضة السرية ضد الحكم الحميدى القائم على الاستبداد . . كان الطلاب - كما ذكر مصطفى كمال - يقرأون بالرغم من التدابير الانضباطية الشديدة أعمال وكتابات نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨) وهو أديب تركى تزعم الحركة الانقلابية الوطنية وظهرت مسرحيته (الوطن) التى كان لها تأثير كبير فى أوساط المتعلمين الأتراك لا سيما طلبة المدارس العسكرية ، وخوفا من رقابة السلطان عبد الحميد كان الطلبة يتداولونها سرا . .

وكانت صحيفة الانقلاب الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقى والصحف الأخرى التى يجرى تهريبها سرا الى العاصمة من الأقطار العربية عن طريق البعثات الدبلوماسية تجد طريقها الى يد الطلبة . وقد قطع الطلاب - مصطفى كمال - شوطا أبعد من ذلك بنشرهم صحيفة خاصة بهم تدافع عن مطالبهم وتدعو الى الإصلاح الجذرى .

وحول تخرج عزيز على المصرى يذكر محمد طاهر العمرى فى كتابه « تأريخ مقررات العراق السياسية » ان عزيز المصرى تخرج برتبة

يوزباشى قبل اعلان الدستور العثمانى بأربع سنوات (أى حوالى سنة ١٩٠٤) فعين فى الجيش الثالث فى مقدونيا وتقلد هناك مرارا عدة مفرزات للتنكيل بالعصابات البلغارية واليونانية والالبانية وأوقع بهم الضرب الشديد حتى أن معظم العصابات كانت تهرب وتخاف عند سماعها اسم عزيز بك .

ويذكر جمال باشا فى مذكراته التى ترجمها أحمد شكرى أنه تعرف بعزيز على بك وقت تخرجه من المدرسة الحربية حوالى ١٩٠٤ برتبة يوزباشى وقد أظهر همة شديدة فى مطاردة العصابات فى أقضية : « بترك ، وعثمانية ، ومقدونيا . وقد انضم عزيز المصرى لجمعية الاتحاد والترقى قبل اعلان الدستور فخدمها خدمات جليلة » .

ويقول محمد صبيح عن بدايات حياة عزيز على المصرى العسكرية : ان الضابط العثمانى عزيز كان يقود قوة عثمانية كلفت باخضاع تحركات ثورية فى الجبل الأسود ومرة فى البانيا . وفى خلال أربعة أعوام اكتسب الخبرة العملية فى مواجهة التحركات الثورية .

ونمت شخصية عزيز المصرى ، وعرضته المخاطر التى واجهها لنوع من الفطنة النادرة التى أخرجته من مأزق كثيرة ، ومن ذلك - محمد صبيح - حادثان :

أحدهما عندما وقع فى أسر قوة للشوار وقد كلفوا اثنين منهم باصطحابه الى قاعدة عملياتهم ، فاستطاع فى الطريق ان يتغلب عليهما بحركة سريعة من نوع الجودو وان يركب حصانا ينطلق به الى وحدته .

والحادث الثانى : أنه قرر أن يواجه مجموعة ثائرة فاذا به يضع كمائن فى الطريق الى مقرها ويتوجه اليها ويقدم نفسه الى قواد هذه الثورة ويأخذ فى مناقشتهم ويتحدث اليهم حديثا انسانيا يذيب ما بينهم وبين القوات التركية من جليد ويقول لهم انه لم يجئهم خوفا منهم فان قواته منتشرة فى المنطقة كلها ولو ان أحدهم ذهب الى موقع كذا والآخر الى كذا ، وسيجدان ما ذكره صحيحا .

وأقتنع الشوار وتوقف القتال وسلموا سلاحهم وتعهدوا بان يقلعوا عن ثورتهم مادامت حكومتهم فى طريقها الى اعطائهم الحكم الذاتى .

وكانت تأتى تقارير عزيز الى قائده محمود شوكت باشا فيعجب به ويشجعه كثيرا حتى أصبح عزيز من أقرب الضباط الشبان الى نفسه .

وكان محمود شوكت باشا (البغدادي) قائد الجيش الثالث و ثغر
سلانيك متعاطفا مع الأفكار الحرة (تركيا الفتاة ، ثم الاتحاد والترقي) .

وقد استطعت ان أقوم بتجميع بيانات أخرى عن هذه الفترة سمعتها
من عزيز على المصري وبعض رفاقه وقامت مجلة مصر الفتاة بنشر بعضها
أوجزها فيما يلي :

تخرج عزيز على المصري من مكتب أركان الحرب - كان يسمى
مكتبا - برتبة يوزباشى سنة ١٣١٩ هـ ثم أرسل الى جبال برين على حدود
بلغاريا ، لتعقب العصابات البلغارية فى تلك الأرجاء .

وقد تغلب عليها فى عدة مواقع ، ومثل بالشوار - كما قيل - فارتاح
رؤسائه الى ما فعله وأحلوه موضعا رفيعا .

تقلد عزيز على المصري منصب مفتش عمام لمنطقتى اشتيب ورادو
فينيسيا سنة ١٣٢٢ هـ ففضى عاما آخر يتعقب اثر العصابات هناك الى
أن سد عليها المسالك ، وأوقع بها - كما قيل - المهالك .

عين سنة ١٣٣٢ هـ مفتشا عسكريا فى كوتشوبا للمليشيا وكان -
كما روى أحد زملائه - يقضى الأيام بلياليها على متن الجبال متحملا نفحات
الحر ، وثلوج الشتاء وكانت درجة الحرارة ١٥ تحت الصفر وهو يطارد
العصابات لا يستقر فى مكان حتى أنهك قوى تلك العصابات ونكل بها
تنكيلا وكان قد انتظم عام ١٣٢٤ فى جمعية الاتحاد والترقي فى بدء تأليفها
وقد أنشأ لها فرعا فى مقاطعة أوفريدا ، وقد سلم زمام ذلك الفرع الى
أمين أفندى الأرناؤوطى المشهور .

فى سنة ١٣٢٤ عين مفتشا عسكريا لكستوريا ولوجيا ، وقد أنشأ
أيضا فروعا عديدة لجمعية الاتحاد والترقي فيها ، ووفق بين بعض
العصابات الثورية الألبانية وبين جمعية الاتحاد والترقي .

ولما انضم نيازى بك الى العصاة سعى للتوفيق بينه وبين بيرم بك
زعيم الألبانيين الشائرين .

وقد أعلن عزيز بك الدستور فى مناستر ولستوريا يوم ٧ تموز
- يوليو - قبل اعلانه فى سلانيك أو غيرها بيوم أو يومين .

قال أحد الضباط الذين رافقوا عزيز على المصري فى مقدونيا أو
مكدونية كما ينطقونها ، أن أهم العصابات التى قضى عليها عزيز على
المصري فى مكدونية : عصابات اطناسى فريتور البلغارية .

(٢) عصابات داميان غرادون الذى رشح نفسه ليكون أميرا على مكدونية .
(٣) عصابة ساندرو كيتافوف . (٤) عصابة ناجو توتويدا .
(٥) عصابة ستافريكو كوف . (٦) عصابة لدزوف . (٧) عصابة
فيرانيكوف . (٨) عصابة لوزحين وغيرها من العصابات التى كان
أمرها قد تعاطم .

زار عزيز على المصرى سورية ومصر بعد اعلان الدستور ثم عاد الى
الآستانة فعين قائدا لفرقة الأرجى الثالثة .

وبعد وصوله الى الآستانة بعشرين يوما حدثت ثورة ٣١ مارس
فاشتركت فيها العساكر المرابطة فى الآستانة الا فرقة عزيز بك فقد ظل
منتظرا الأوامر لتأديب العصاة .

ولكن الأوامر لم تصدر لسقوط الوزارة فى ذلك الحين فحاصر
العصاة بفرقته فى طاش قلعة فى ٤ ابريل .

وكان عزيز بك قد سار بقسم منها الى خادم « كوى » وانضم الى
جيش الحرية ، ولما دخل هذا الجيش الآستانة كان عزيز بك فى طليعته
فاسترجع الطوبخانة والجهات المجاورة .

وما أن أنقضى على هذه الحالة شهران حتى حاصر الأروام العثمانيون
العسكر الذين فى أبوالق وقتل عددا كبيرا من ضباطه وجنوده وأعلنوا
انضمامهم الى اليونان . فزحف عزيز بك عليهم بحرا واقتص منهم وسلم
الأهلون سلاحهم وعاد الى الآستانة بعد ما استتب له الأمر ومعه خمسة
آلاف بندقية وألف أقة ديناميت .

فى سنة ١٣٢٥ عين معلما للتعبئة فى مكتب أركان الحرب وفى
تلك الأثناء ثارت العصابات البلغارية واليونانية مرة ثانية فندب لمطاردتها
وأبلى بلاء حسنا ، ثم عين مفتشا لولاية سلانيك . . . و . . .

رواية أخرى رواها مصطفى لطفى « جمعية الاتحاد السلانيكية » فى
بنى غازى نشرتها الأهرام ١٧/٢/١٩١٣) جاء فيها : برزت شجاعة عزيز
فى البلقان وكان اسمه وحده يقطع قلوب رؤساء العصابات ، وقد سعى
عزيز قبل اعلان الدستور سعيًا كبيرا لاعلان الحرية قبل هؤلاء الذين
اغتصبوا اليوم الاسم والشهرة وبفضل هذا السعى الجر الذى قام به
جعل ألوفًا من اخوانه يعشقون اخلاصه ويفخرون به .

فلما حدثت فتنة ٢١ مارس - الرواية لمصطفى لطفى أيضا - فى الآستانة بقى طابوره وحده حافظا النظام بخلاف كل الطوابير الأخرى حتى أن هذا الحادث كان عبارة عن أعجوبة يومئذ فى الآستانة ، فأرسلته الحكومة بعد ذلك الى « أبوالق » لتسكين الحركة التى حدثت فيها فقام بالمهمة التى عهدت اليه خير قيام وكسب ثناء وشكر جميع الأروام والأتراك بما قام به من الخدمات فى تلك الحادثة .

ولما حدثت ثورة الارناؤوط سنة ١٣٢٦ (الرواية أيضا لمصطفى لطفى) وفق بطابور واحد أن يسكن تلك الثورة لا بقوة السلاح بل بقوة النصائح الحكيمة والعقل والحكمة واثارته المشاعر الدينية .

رواية أخرى نشرت بعد أن القى القبض عليه فى حادث سقوط الطائرة ١٥/٦/١٩٤١ وقد جاء فى تلك الرواية ، أن عزيز على المصرى كان قد انضم الى جماعة تركيا الفتاة وتفاهم مع زعمائها على القيام بثورة ضد السلطان عبد الحميد للمطالبة بالدستور ، وقد اجتمع القواد أنور ، وعزيز المصرى فى البانيا وأرسلوا من هناك برقيتهم المشهورة الى السلطان عبد الحميد يطالبونه باعلان الدستور ، فأرسل اليهم السلطان جيشا قويا للقضاء على مركزهم ولكن الثوار تمكنوا من قتل قائد الجيش قبل وصوله الى البانيا .

وفى المؤامرة التى قيل ان السلطان دبرها فى استنبول فى ٣١ مارس ١٩٠٨ حيث حاول الجنود التخلص من الضباط الشبان وقتلهم جميعا ، نجا عزيز المصرى يومئذ باعجوبة اذ لم يكن موجودا فى ثكنته وقت تنفيذ المؤامرة وقد استطاع أن يفر الى سان استيفانو حيث اجتشد جيش محمود شوكت باشا . وشارك عزيز فى احتلال استنبول .

وبعد الثورة التى أدت الى خلع السلطان عبد الحميد الثانى تولى السلطان محمد رشاد مكانه . . وكان عزيز على يمنى نفسه بتقلد منصب كبير ، ولكن القادة الأتراك أغفلوا تعيينه فى المنصب الذى يريده وذلك لانهم وحتى الجدد منهم والذين كانوا أصدقاء وزملاء لعزيز المصرى لم يكونوا يطمئنون الى عزيز على المصرى اذ كانوا يرونه دائما غريبا عنهم باحساسه العربى وبمولده المصرى .

ونعود الى رواية أخرى للمؤيد (أول يونيو ١٩١٣) تشير الى تسمية عبد العزيز على بلقب والده فى الآستانة ، فمن عادة الأتراك أن يقولوا عزيز بدلا من عبد العزيز ، وحميدا بدلا من عبد الحميد فصار اسمه عزيز على .

وكان أهل الآستانة يطلقون عليه قاهرة لى عزيز على أى عزيز على
المصرى نسبة الى وطنه الذى ولد به .

ويقول المؤيد انه كان فى مقدمة الدستوريين الذين دخلوا الآستانة
يوم اعلان الدستور وله فى ذلك حيلة تتلخص فى انه رتب عساكره فى
قطار بضاعة وغطى القطار بحيث أصبح ظاهره كمن يحمل بضاعة حقيقية
فسار القطار ولم يشعر الناس الا وعزيز وجنوده فى قلب العاصمة
يؤيدون الدستور .

ومتابعته للعملية المعروفة باسم طاش تشلة معلومة . .

ويشير المؤيد الى تعيينه أستاذا فى الجيش فى المدرسة الحربية والى
انه لم يمكث أكثر من ستة شهور فى تلك الوظيفة .

ولكن الأستاذ محمد طاهر العربى يذكر ان عزيزا أرسل سنة
١٩١٠ الى أبوالق جنوب خليج أوزين على شواطئ الأناضول لتأديب احدى
عصابات الأروام هناك حيث قام بمهمته خير قيام .

ويقول جمال باشا أنه لما زحف الجيش على الآستانة بعد الثورة
الرجعية فى ١٣ ابريل كان عزيز بك على رأس احدى فصائله فهاجم ثكنة
تويهوس بعد الاستيلاء على كوبرى غلطة وأظهر مهارة عظيمة فى مطاردة
الناشرين ولم أكن الى تلك اللحظة أعرف ان له صلة بالعرب واينما قابلنى ،
— جمال باشا — بكل وقار وخاطبنى بلهجة الأدب .

والجدير بالذكر ان يحيى طاهر العمرى فى كتابه « مقومات العراق
السياسية » قد أشار الى جماعة الاتحاد والترقى وانضمام عزيز المصرى
اليها قبل اعلان الدستور ، « وكان عزيز من أركانها نظرا لما قدمه من
الخدمات العظيمة للاتحاد والترقى » فى ماكدونيا . ولما زحف جيش محمود
شوكت باشا من الردملى على الآستانة بعد حادثة ١٣ نيسان ١٩٠٩
الارتجاعية لتأديب العصاة ضد الدستور ، وقد أبلى عزيز على بلاء حسنا
وكان استيلاء عزيز على كوبرى غلطة قد مكن الاتحاديين من السيطرة على
العاصمة فهذا الطريق هو الذى جاءت منه قوات شوكت باشا . وقد كان
بإمكان قوات الدراويش ان تعزل القسطنطينية وتستولى على السلطة —
د . محمد عبد الرحمن برج — ولم يكن دور عزيز المصرى قاصرا على ذلك
فحسب بل انه بادر بمحاصرة احدى ثكنات الوحدات المتمردة ، وكانت
أهم ثكنة آنذاك وهى ثكنة تويهوس .

وربما كانت آخر الروايات حول هذه الموضوعات رواية الأستاذ أسعد داغر وقد نقلها الأستاذ محمد صبيح وقد جاء فيها « ٠٠ وضع الجنرال محمد شوكت باشا وأركان حربه خطة الزحف على استانبول بدقة تامة فعهد الى أنور ، بمحاصرة قصر يلدز ومنع السلطان من تنفيذ تهديده بضرب « حى بك أوغلى » - حى السفارات والأجانب - من المدفعية الموجودة فى مرتفع يلدز اذا تحرك جيش شوكت الى العاصمة . وعهد الى مختار بك باحتلال ثكنة « تقسيم » وقد قتل هذا القائد فى المعركة » .

وكانت مهمة عزيز على احتلال محطة اسطنبول (السركجى) والاستيلاء على كوبرى غلطة والثكنات القائمة على جانبيه والمنتشرة على طول الطريق الى قصر ضوله بغجة .

وقد وفق عزيز الى احتلال الكوبرى والمحطة والثكنات المجاورة للكوبرى دون أن يطلق رصاصة أو تراق نقطة دم وظل ينتقل من ثكنة الى ثكنة ويأسر ضباطها وهم فى أسرتهن الى أن بلغ الثكنة الواقعة على مقربة من قصر ضوله بغجة . وكان القتال قد بدأ فى جهات « تقسيم » وفى شمال المدينة فتنبهت حامية الثكنة وبادرت الى المقاومة فاضطر عزيز على الى احتلالها بالقوة وقد أتم المهام التى نيظت به كلها ثم سار لمعاونة أنور فى شمال المدينة واشترك بعد ذلك فى الاستيلاء على ثكنة « تقسيم » التى كان الدفاع عنها شديدا .

لقد شارك عزيز على فى الثورة لخلع السلطان عبد الحميد ولإعادة الدستور الذى كانت شعوب دولة الخلافة العثمانية تتطلع اليه ، ولو لم يقم عزيز على بدوره فى تلك الثورة لما قيس لها أن تنتصر وربما لو كانت قد انتصرت بدون مجهوداته لخسرت الكثير من الضحايا .

ولكن الثوار لم يعرفوا لعزيز على المصرى هذا الدور ولم يقدروا له كل مجهوداته لا لأنه لم يكن ضابطا عظيما مثل قواد تلك الثورة وإنما لأنه كان عربيا بتفكيره واتجاهاته ، ولم يكن طورانيا مثلهم يريد للعنصر التركى أن يسود ويقود وتكون بقية العناصر الأخرى فى خدمته ، ولذلك رأينا عزيزا يهرب من اضطهاد القواد الجدد له الى اليمن السعيد .

الفصل الثاني

عزيز المصري في اليمن السعيد : مقاتلا ، ومفاوضا

كانت اليمن عقبة في طريق التوسع العثماني ، ورغم ما بذلته دولة الخلافة العثمانية من جهود شاقة ومضنية لاحتلال اليمن ، ورغم ما سيرته من جيوش وأساطيل للسيطرة على الأرض اليمنية ، إلا أنها لم تنجح الا في احتلال سواحل اليمن وبعض المدن القريبة من السواحل . . . وقد كانت أول حملة عسكرية أوفدها العثمانيون الى اليمن - على ما روى الأستاذ أمين سعيد - بقيادة سليمان باشا الأرناؤوطي أحد مماليك السلطان .

وقد استولى جيش الأرناؤوطي على عدن - في ٣ أغسطس ١٥٣٨ - بالغدر والخيانة . وقد أناب سليمان باشا على ادارة عدن ، أحد ضباطه ويدعى « بهرام » بينما أقلع هو - بأسطوله - باتجاه الهند لمواصلة القتال ضد البرتغاليين .

ثم عاد سليمان باشا الى عدن ، ومنها الى مخلا ، ثم عسكر في ميناء صليف اليمني ، وتم اخضاع اليمن - ظاهريا - الى السيادة العثمانية . وقد بدأت قبائل اليمن ثورتها ضد الأتراك في اليوم التالي لاستيلائهم على عدن ، وكان في مقدمة الأسباب التي أدت الى تلك الثورة ، غدر العثمانيين بأمير عدن عامر بن داود الطاهري ، وضاعف الأتراك من ارسال حملاتهم الى اليمن بغية اخضاع شعبها .

وكانت الحروب - كما يقول الأستاذ أمين سعيد - سجالا ، فيوما ينتصر اليمنيون فيطردون الترك من بلادهم ، ويوما ينتصر الأتراك ويكروون على البلاد لاحتلالها من جديد بعد عناء ومشقة . ومن المتفق عليه أنهم - أي الأتراك - لم يبلغوا « صعده » - قاعدة الامامة - ولم يجوسوا خلال المناطق الشرقية التي استعصت عليهم . وقد ظلت سلطة الامامة باقية

يشوارثها القوم من آل زيد بن علي - زيد العابدين بن الحسين بن علي
ابن أبي طالب - كابر عن كابر .

ولسنا في مجال الحديث هنا عن العلاقات بين الأتراك وبين اليمنيين
ولا عن الحروب التي أشعلها بعض أئمة الزيدية في اليمن ضد الاحتلال
التركي ، فذلك يخرج عن نطاق بحثنا ، ولكننا نذكر أن يحيى بن محمد
حميد الدين بويغ في ١٩٠٤ بالامامة لاستجماعه الشروط المطلوب توافرها
بالامام بموجب أحكام المذهب الزيدي وقد اتخذ لنفسه لقب
« المتوكل على الله » .

وخاف الأتراك من ازدياد نفوذ الامام يحيى فبدأوا يضيقون عليه
الخنق ، ويشيرون عليه جيرانه ، ونادى الامام بالجهاد لطرده الاروام
(الترك) من البلاد ولبي الناس دعوته ، ونجح الامام بجيوشه في
محاصرة صنعاء - قاعدة الترك الكبرى - لمدة ستة أشهر ، انتهت
بتسليمها . . . وهنا ثارت دولة الخلافة وجهزت حملة عسكرية كبرى
وصلت الى الحديدة في ١٩٠٦ وكانت بقيادة المشير أحمد فيضى باشا -
أشهر قادة الترك وقتئذ - ثم واصلت الحملة - أمين سعيد - التقدم الى
صنعاء فاستولت عليها وأخرجت الزيود منها ، فعاد الامام الى صنعاء
مقره القديم .

وأشير هنا الى دراسة جيدة للغاية للدكتور فاروق عثمان أباطة عن
الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ - ١٩١٨ - وما أحوجنا حقيقة الى مثل
تلك الدراسات الجيدة - التي تسلط الأضواء على الأحداث التاريخية
الهامة التي لم يسبق الاهتمام بها منذ فترة طويلة ، وتزيج الستار
عما خفى علينا من أسرار .

وأبادر فأقول . . ان ما يعنيني من أمر العلاقات اليمنية التركية ،
هي الحملة التي سيرتها دولة الخلافة العثمانية الى اليمن وشارك فيها
« البكباشي عزيز على المصري » والصلح الذي انتهى اليه اليمنيون والأتراك
ولعب عزيز على المصري دورا هاما في الوصول اليه . يقول د . فاروق
عثمان أباطة - مستندا الى ما جاء في مجلدات : المنار ، واللواء ،
والأهرام ، والمؤيد . . الى ماكتبه الواسطي ، وسعد المصري ،
وأمين الريحاني ، والعقيلي وآخرين : تزعم الامام يحيى الجهاد ضد
الأتراك في جبال اليمن وأصدر نداءه للقبائل اليمنية بالانضمام اليه ،
كما شاركه السيد محمد الادريسي (أمير عسير) في محاربة الأتراك في
عسير وعلان الثورة عليهم .

وقد بدأ الثوار اليمنيون يفتكون بعساكر الأتراك فتكا ذريعا بين الحديدية وصنعاء ، واستولوا على الأسلحة والمدافع والذخيرة التي كانت في أيديهم وذلك ليتخلصوا من دفع الضرائب لحكومة الولاية وطالبوا بحكام وطنيين وبالحكم بموجب الشرع الاسلامي .

وكان اليمنيون يهتمون بتطبيق الشريعة الاسلامية ويركزون عليها أهمية خاصة الى درجة ان المحاكم الحكومية الرسمية لم يكن يتقدم اليها أحد ، انما كان السكان يلجأون الى القضاء الذي كان الامام يقيمه هو بوساطة قضاة يعتمدهم لذلك . وقد دارت المعارك الدامية بين الثوار اليمنيين والعساكر العثمانية وتفاقمت الأمور بحيث اضطرت الدولة العثمانية الى أن تسحب جيوشا من البانيا كانت قد استقدمت معظمها أو ما يبلغ سبعة آلاف منها من طرابلس الغرب لقمع ثورة الألبانيين ، ولم تكف هذه القوات ، فاستقدمت الدولة العثمانية البقية الباقية من جندها في طرابلس الغرب ثم ضمت اليهم ثلاثة أفواج من الاستانة ، علاوة على الاحتياطي الذي دعت له للخدمة من ولاية اسكوب (البانيا) ان ما مجموعه ٣٥ طابورا أزمعت ارسالها الى اليمن وأرسلت دولة الخلافة القريش محمد علي باشا واليا جديدا لليمن وقومنداننا للفيلق السابع لاختضاع الامام يحيى وزميله محمد الادريسي والقيام بالاصلاحات الواجب ادخالها في تلك البلاد وفي الفيلق ، وقد خول صلاحيات واسعة في العزل والتعيين ، فاختار عددا من الضباط البارعين ليرافقوه (الأهرام ٦ مايو ١٩١٠) وقد مال محمد علي باشا الى العنف واشاعة الخوف والرهبة في نفوس اليمنيين ليضمن استسلامهم للادارة العثمانية ، مما أغضب الأتراك ، ومكن الامام يحيى من تحريض اليمنيين ضد الحكم التركي ، وقامت القبائل بحصار جميع مراكز اليمن : صنعاء ، وغيرها حصارا شديدا .

ولم يكن الامام يحيى ، ولا الادريسي راغبين في معاداة دولة الخلافة الاسلامية اذا ما اعترفت لكل واحد منهما بوضعه الخاص في بلاده ، وما أكثر المحاولات التي بذلها في تجنب اراقة الدماء وفي عقد صلح مشرف مع الدولة دون جدوى . بل ما أكثر ما نصح الامام يحيى

والادريسي دولة الخلافة بان توفر جنودها الذين يموتون في بطاح اليمن
وغيرها لقتال المتآمرين ضد دولة الخلافة من غير المسلمين !!

وكانت دولة الخلافة متمسكة - وقتها - بما يمكن تسميته بالكبرياء
الكاذب أى الحفاظ على سلطات اسمية غير فعلية . وكان الرأى العام
اليمنى ، والرأى العام العربى يأخذ - باستمرار - على دولة الخلافة
اهمالها لمصالح الشعب فى اليمن ، وعمان ، وقد عبرت المؤيد عن ذلك
الموقف عندما قالت (٢٦ يناير ١٩١١) : ان المسئولين فى الدولة
لا يرسلون للعرب الا السيف والنار لاختضاعهم ، بدلا من أن يقدموا لهم
يد المعونة والمساعدة المادية والمعنوية ، وان القائمين بإدارة الدولة العلية
لا يسجلون عن العرب الا كلمة السوء فنراهم اذا أرسل لهم امام اليمن -
مثلا - وفدا ليتفاهم معهم ويناقشهم فى الحل المعقول الذى يمكن ان
ينفع المسألة اليمانية يضعون أصابعهم فى آذانهم ويتملقونهم بالكلام
الفارغ الى أن يعيهم الانتظار ، فيقفل راجعا من حيث أتى .

وتنقل جريدة المؤيد - عن جريدة الطان الفرنسية فى عددها الصادر
فى ٢٤ يناير ١٩١١ رأى أحد الأساتذة فى جامعة فيينا - وهو من
المهتمين بالمسائل العربية . ان الامام يحيى صاحب النفوذ العظيم فى
البلاد الجنوبية تحت أمره على الأقل ٥٠٠٠٠ رجل ، وأن السيد الادريسي
جمع (فى أول يناير ١٩١١) ٤٠٠٠٠ من الفرسان وأن جميع هؤلاء
الرجال مسلحون بالبنادق الحديثة ، بالرغم من المجهودات التى تتخذها
الحكومة فى السهر على منع تهريب الأسلحة . وقد وهنت عزيمة الدولة
(العثمانية) نظرا لشدة بأس العرب وصعوبة بلادهم وان الجنود التركية
تفر من الحرب فرقا فرقا ، وأن تلك الفرق الفارة يتراوح عدد أفرادها
بين العشرين والخمسين تاركين سلاحهم وذخائرهم الحربية للشائرين .

كما نقلت المؤيد (٦ فبراير ١٩١١) - عن السير وليم مكسويل -
ما ذكره فى الديلى ميل البريطانية - من أنه بسبب خصوبة أرض اليمن
تختلف أخلاق أهلها عن أهالى باقى العرب فانهم سكنوا الدور وهم
يحقدون على سيادتهم الأتراك الذين لم يأتوا اليمن للعمل لما فيه فائدتهم
ونفعهم ولكن لاستنزاف مافى أيديهم . واليمنى ككل عربى يخفى فى
نفسه احتقاره للتركى وينظر اليه كالهمجى حيث جرد بلاده من مدنياتها ،
واذا جلست الى جانب اليمنى يذكر لك عن بلاد العرب أنها كانت مركزا
للعلوم والمعارف كما هى اليوم للدين ، وقد جرى أكثر من جيلين وهما فى
تنازع ، وما سمعت أروبا بأعمالهما الا همسيا ، ولم تحول نظرها التفتاتا

حتى في هذا الوقت التي أرسلت فيه الحكومة العثمانية ثلاثين طابورا
وتتساوم فيهم مع ألمانيا على أجرة نقلهم .

ولا جدال في أن مقال « الطان » و « الديلي ميل » يحملان الكثير
من المبالغة وخاصة في أعداد قوات الامام يحيى والسيد الادريسي
الا أنهما - المقالان - يوضحان جيدا نظرة اليمينيين الى الأتراك ، كما
يدل المقال الأخير - الديلي ميل - على عجز دولة الخلافة عن نقل قواتها
الى اليمن ولجوتها الى ألمانيا لتتولى ذلك عنها نظير أجر ٠٠ !! هذا الموقف
في حد ذاته يؤكد العجز المطلق لدولة الخلافة ، فلم يعرف أبدا أن دولة
مستعمرة - بكسر الميم - لا تتمكن من نقل قوات الاحتلال الى حيث
تريد أن تحتل ٠٠ !!

هذا وقد تجددت ثورة اليمينيين ضد الحكم العثماني بصورة عنيفة
قاسية ، اثر تولية الوالي العثماني محمد علي باشا . وقد نقلت جريدة
المؤيد - عن وكالة رويتر - ٢١ يناير ١٩١١ - أن الامام يحيى أشهر
الحرب على الأتراك وقطع أسلاك التلغراف بين صنعاء والحديدة ، و ينتظر
ان تشور اليمن ثورة ضارية وأصبح المتصرف والجنود فيها كمسجونين
من أول ديسمبر ١٩١٠ والعصائب الثائرة تتحرك في كل جهة من جهات
اليمن وان متصرف عسير الجديد ، لا يزال مقيما في الحديدة لأنه عاجز
عن متابعة سفره الى مقر متصرفية عسير .

وتنقل المؤيد عن جريدة طنين (التركية) ان السلطنة ستترسل
لهم دشا باردا كالذي أرسلته الى الألبان في مقدونيا ، فضلا عن أن تقارير
قناصل الدول الأجنبية في الحديدة أيدت نداء الأنبياء القائلة بأن
الامام يحيى زحف برجاله نحو صنعاء وهو الآن - يناير ١٩١١ - أوشك
ان يصل الى صنعاء ، وقد وقعت بينه وبين العساكر عدة مصادمات ولم
يعرف حتى الآن - ٢٤ يناير ١٩١١ - عدد الجرحى من العثمانيين ٠٠
وقررت دولة الخلافة العثمانية ارسال ٣١ أورطة ، ٨ بطاريات مدفعية
الى اليمن رغم العجز المالي الذي تشبكو منه ميزانية الدولة العلية . في
نفس الوقت بدأت عمليات تسوية : زحفت القبائل الى المدن التي كانت
بحوزة الادارة التركية ، وقيل ان عدد الجنود الذين كانوا يحاصرون في
صنعاء كان يتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف مقاتل ، وكان باستطاعة
الشوار دخول المدينة عنوة لأن حاميتها وكانت مؤلفة من نحو خمسة آلاف
من المشاة وبعض الفرسان ونحو ٣٠ مدفعا ، ما كان باستطاعتها الدفاع

عن السور الذى يبلغ محيطه اثني عشر كيلومترا • وكان عدد كبير من القوات التركية - معظمهم من المجندين العرب فى الجيش العثماني - قد هربوا وانضموا الى الشوار • وكان الوالى قد فرض على ابناء صنعاء المحاصرين معونة مالية قدرها سبعون ألف ريال للانفاق منها على جنوده المحاصرين مما ضاعف من غضب أولئك الأهالى •

وكان الوالى التركى قد بث الألغام حول صنعاء لابتادة القبائل المهاجمة و • • وكانت القوات العثمانية تخرج من صنعاء للملاقاة بعض القبائل ثم تعود ومعها رؤوس بعض القتلى العرب الى المدينة لتبث الارهاب والفرع فى قلوب أهالى صنعاء • • !!

وقد تعرضت مدينة « بريم » أيضا لحصار من قبائل ذى محمد وذى حسين - فرعان من قبيلة بكبل - وقد حصل منهم أفعال مشينة من النهب والقتل ثم الحرب •

وقررت دولة الخلافة ارسال حملة جديدة الى اليمن بقيادة عبد الله باشا الذى توفى وهو فى طريقه من الحجاز الى اليمن نتيجة لما كان يعتريه من النزلات الصدرية ، فعين الباب العالى عزت باشا الذى كان رئيسا لأركان حرب الجيش العثماني لقيادة هذه الحملة بدلا من زميله الراحل • ومنح عزت باشا صلاحيات واسعة ، يولى ، ويعزل ، ويحاكم ، ويجرى الاصلاحات اللازمة ، وقد تميز عزت باشا القائد الجديد عن غيره من القادة العثمانيين بحنكته السياسية ، وفصاحته وحذقه ، وكرام أخلاقه ، وكان لجهوده المثمرة أكبر الأثر فى عقد الصلح بين الأتراك والامام يحيى •

ومما يذكر ان السلطان عبد الحميد عندما نفى عزت باشا الى سورية - وكانت سورية منفى للمغضوب عليهم من القادة الأتراك - وزار الامبراطور « غليوم » سورية قال فى حديث له الى والى بيروت اذ ذاك : اذا كان الجيش العثماني يستغنى عن عزت باشا فان الجيش الألماني فى حاجة اليه •

وقد اضطر السلطان عبد الحميد ان يرقبه رتبة وان يرسله الى اليمن فريقا على الفرقة الرابعة عشرة المقيمة بالحديدة ، ثم عاد السلطان عبد الحميد فأعادته الى منفاه مرة أخرى فى سورية • وقد اختير عزت باشا رئيسا لأركان حرب الجيش العثماني باجماع رجال الدولة • وقد أبدى عزيز بك على المصرى - وكان حينئذ برتبة بكباشى - رغبته فى مرافقة هذه

الحملة وقد تكونت من عشرات الطوابير ، نقلتها البواخر ومعها كساحة
وطرادة . وقد أجيب - كما جاء في مذكرات جمال باشا - الى طلبه .

وقد اشتبك عزت باشا في معارك عنيفة مع قوات الادريسي التي
عرقلت طريقه الى اليمن . وعمدت - الأهرام أول أغسطس ١٩١١ -
في كثير من الأحيان الى قطع مياه الشرب عن المدن والقرى التي نزلت
فيها القوات العثمانية فسببت لها متاعب ومشاكل كثيرة عرقلت
سرعة تقدمها .

وقد زحفت القوات التركية بقيادة عزت باشا بعد ان تجمعت
في ميناء الحديدة الى داخل البلاد اليمنية وقد واجهت مقاومة شديدة .
وقد أشاد عزت باشا ببطولة وصلابة المقاتلين العرب في قرية شعبان التي
يسمونها الأتراك سنان باشا قائلا : لو كان للدولة ألف رجل من هؤلاء
الرجال لأخذنا أوروبا بأسرها .

وقد منى الجانبان بخسائر فادحة ، وقد وضع الامام يحيى خطة
التراجع أمام القوات التركية حتى يستنفد قواهم وحتى يبعدهم عن مراكز
تموينهم ، وحتى يفرقهم داخل المناطق الوعرة . ونجحت القوات العثمانية
في طرد القبائل اليمنية الشائنة من « متاخة » ووصلت تلك القوات الى
سوق الخميس ، وفي ٥ ابريل سنة ١٩١١ تركت القبائل اليمنية الشائنة
مراكزها حول صنعاء ، منسحبة نحو الشمال ، وتمكن عزت باشا من
دخول صنعاء في مساء نفس اليوم (١٥ ابريل) .

وفي ١٦ ابريل ١٩١١ أقيم استعراض كبير للحامية ولجيش النجدة
العثماني وقد تمكن عزت باشا من السيطرة على المدن والمراكز اليمنية في
الطريق من الحديدة الى صنعاء ، وظل الامام يحيى يتمتع بنفوذه في
منطقة الهضبة ويتزعم قبائل تلك المنطقة التي تتوسطها « صعدة » مركز
الامامة الزيدية في اليمن .

كما بقي للادريسي قوته وقواته بعد ان اعتصم في أبها عاصمة
جبال عسير .

وكان انتصار القوات العثمانية من أهم الأسباب التي أدت الى
تجميع قوى اليمنيين وحلفائهم ، فسرعان ما اختفت الخلافات المذهبية
والقبيلية حيث تعاون الامام يحيى الزيدى مع الادريسي السني
وحيث انضمت اليهما قبائل الشافعية في الهضبة وفي عسير وفي المنطقة
السياحلية .

وقد كان عزت باشا دائم البحث عن حل للخلافات اليمنية العثمانية وكان باستمرار يخشى من الكمائن التي ينصبها الثوار اليمنيون دائما لقواته والتي كانت تضيح مضاجعهم وتفتنى طلائعهم فى بعض الأحيان عن آخرها . وللأمانة التاريخية فان عزت باشا لم يكن متعصبا لوجهة النظر التركية الرسمية من استمرار السيادة الاسمية على اليمن ، وانما كان يبحث عن حل يرضى الطرفين (الأتراك واليمنيين) وكان يرى ان الصلح الى جانب أنه لمصلحة الجانبين فانه يبقى على العلاقات التاريخية والاسلامية ذات الجذور العميقة بينهما فى وقت تألبت فيه بعض الدول الأوروبية ضد دولة الخلافة العثمانية ، ولذلك رحب عزت باشا بفكرة الصلح واختار للتفاوض مع الامام يحيى وفدا على مستوى عال كان على رأسه عصمت باشا (الذى أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية : عصمت اينونو باشا) ، كما كانت هيئة المفاوضات (الجانب التركى) تضم عضوين من خيرة الضباط العرب فى الجيش العثمانى هما : عزيز على المصرى ، وسليم الجزائرى .

وعلى الجانب الآخر . . كانت هناك ظروف خاصة تدفع الامام يحيى الى الاتفاق على عقد الصلح بينه وبين الأتراك ، فقد استنزف القتال الضارى المستمر بين الطرفين كل ما تملكه الامامة من أموال الى جانب الأموال التى كان من المفروض على الامام يحيى اعطاؤها - شهريا - لزعماء القبائل المتحالفة معه ضد القوات التركية ، فاذا أضفنا الى ذلك رغبة الامام يحيى فى الالتفات الى الداخل والاهتمام بمصالح شعبه بعيدا عن الحروب المستمرة فضلا عن وعد عزت باشا ومن ورائه الحكومة العثمانية بالحرص على اجراء اصلاحات جوهرية فى نظام الحكم العثمانى فى اليمن . وقد نجح بعض الوسطاء - وسطاء الخير - مثل الشريف حسين أمير مكة فى اقناع الطرفين - عزت باشا والامام يحيى - بضرورة اتخاذ خطوات سريعة نحو اتمام الصلح بينهما .

وقد كان بالإمكان أن يتخذ السيد الاديسى الموقف الذى اتخذه الامام يحيى من رغبته فى الصلح الا أنه كان قد اتفق مع الايطاليين على أن يمدوه بالمساعدة - وخاصة العون العسكرى - للاستمرار فى نضاله ضد دولة الخلافة العثمانية .

وقد لعب أيضا أحمد العبدلى سلطان لحج دورا هاما فى اقناع الشريف حسين بمضاعفة اهتمامه بأمر الصلح ، وفى اقناع الأتراك

بضرورة تفهمهم للأوضاع القائمة في اليمن والنزول للإمام يحيى عن بعض الأمور التي كانوا يعتقدون أنها ضرورية للحفاظ على سلطتهم الاسمية في اليمن ، وقد قبل هذا أحمد العبدلى رغم معارضته الشديدة للإمام يحيى ، ورغم إيمانه بضرورة إسقاط أسرة الإمام يحيى .

وكانت إيطاليا قد نزلت بقواتها الى سواحل ليبيا (طرابلس الغرب ، وبرقة) الأمر الذى أضعف دولة الخلافة العثمانية ودعاها الى استقدام جيوشها فى طرابلس الغرب وبرقة الى اليمن . . . و . . .

وهناك رواية للأستاذ توفيق على برو (العرب والترك فى العهد الدستورى) يقول فيها أنه استنتج من حديثه مع عزيز على المصرى أن سيادته تمكن من اقناع الإمام بعد مقابلات كثيرة معه بوجوب عقد الصلح من خلال التأثير عليه بالعاطفة الدينية التى استثارها فى نفسه . وبالمناسبة فان توفيق على برو ذكر أن عزيز على المصرى حدثه طويلا خلال مقابلة له معه فى القاهرة ، عن ضراوة اليمنيين فى القتال واستبسالهم وفتكهم بالجند العثماني وألح بصورة خاصة على قضية قطع المياه عنهم اذ كان لها أثرها الحاسم على موقف الجيش .

ومن مقال نشرته جريدة الشعب التى كان يصدرها - بالقاهرة - أمين الرافعى والذى أوقفها فيما بعد (ديسمبر ١٩١٤) حتى لا ينشر اعلان الحماية البريطانية على مصر (والمقال بتاريخ ٢٣ مارس ١٩١٤ - ٢٦ ربيع الثانى ١٣٣٢) : كانت اليمن دائما من عهد السلطان سليمان القانونى مصدر اضطراب ونقطة ضعف فى جسد الأمة العثمانية من حروب حافلة قامت بين الجنود الشاهانية واليمنيين وكم من الآلاف المؤلفة من زهرة الشبيبة العثمانية واليمانية ضاعت فى هذه المعارك المستمرة .

فلما زالت دولة عبد الحميد وقامت على انقاضها الحكومة الدستورية كان من بين الاصلاحات الخطيرة أنها فكرت فى أن تصالحه على شروط تفيد الطرفين وتضمن بقاء سيادة السلطان على هذه البلاد الاسلامية الغنية من جهة ، والانتفاع بنفوذ الامام وسطوته وخبرته فى ادارة شئون هذه البلاد من جهة أخرى فأناطت وزارة حقى باشا الاتحادية هذه المهمة الخطيرة بوفد تحت رئاسة القائد عزت باشا وكان من بين أعضائه عزيز بك . ولقد حصل بعض المتاعب العديدة والصعوبات الجمة على

الغاية التي كان يرجوها وأدرك الأمنية الغالية التي كان يتمناها .
ولم يكن عزيز واسطة التفاهم بين الامام ورئيس الوفد فقط بل شهد
عزت باشا نفسه بأنه كان وسيطا عاقلا ، حكيما ، رشيدا ، فانه تأكد
أنه لا ضمان لبقاء الاتفاق الا اذا كان في مصلحة الطرفين ، وعلى ذلك
فكان دائما ينصح الطرفين بالتساهل المتبادل وواصل معهما المباحثات الى
ان تم هذا الاتفاق التاريخي الذي سيكون نقطة بيضاء في صحيفة الحكومة
العثمانية الدستورية التي ضمنت بقاء اليمن لها ووفرت الآلاف من أبنائها
والملايين من نقودها .

لولا هذا الاتفاق الذي كان الفضل الأكبر فيه لعزيز لاتفق امام اليمن
مع الادريسي وأعلن استقلال اليمن أيام كانت تحارب الدولة الطليان
أو اليونان ولم يكن اذ ذاك في الامكان ارسال جندي واحد أو خرطوشة
واحدة الى اليمن ، بل لولاه لكانت حامية اليمن الكبيرة أسيرة في يد
الامام الذي كان يطعمها من خيراتة طول مدة الحصار . . لولا هذا الاتفاق
لما أعلن سيادة الامام مرارا وتكرارا أنه من أخلص رعايا السلطان وأنه
مستعد لتقديم مائة ألف جندي مسلح اذا استطاعت الدولة أن تنقلهم
الى أى بلد .

ولو اكتفى عزيز المصرى بما تم على يديه - جريدة الشعب -
وبواسطته في اليمن لكفاه فخرا أبديا وشرفا دائما .

وتنشر صحيفة المقطم (١١ ابريل ١٩١٤) رسالة لأحد قرائها
« عزيز بك المصرى » وقد جاء فيها :

لما حدث الانقلاب العثماني هاجت اليمن هياجا شديدا وخرج
امراؤها من طاعة الدولة العلية ، وعصفت فيها روح الفتنة بعد خلع
السلطان عبد الحميد ، وكانت الجنود العثمانية تقاتل الثائرين وأنصار
الامام يحيى على غير جدوى وتلقى أشد المضاعف في نظامها وزحفها وتدمير
ذخيرتها وسبوقياتها وسبوء تصرف قوادها حتى بات الفشل حليفها
والانخدال نصيبها - وتوالت أخبار الانكسار حتى قلقت خواطر أقطاب
الدولة العلية ، وبعد أخذ ورد في القرار على استبدال القواد العثمانيين
في اليمن بقواد من ذوى الكفاءة ، وعقد المجلس الحربى الأعلى برئاسة
المرحوم محمود شوكت باشا ناظر الحربية في ذلك الحين . . فأجمعت
الآراء على تعيين الفريق ناظم باشا قائدا عاما لليمن ، وعزيز بك المصرى
قائدا ثانيا وأطلقت يدهما في التصرف وكان ذلك في سنة ١٩١١ فذهب

هذان القائدان الى اليمن وتحت قيادتهما عشرة آلاف جندي نظامي .
ولما بلغها شرع الفريق ناظم باشا يفاوض مشايخ القبائل وزعماء
الشائرين وأفهمهم ان لديه أوامر مشددة من جلالة الخليفة الأعظم بانزال
أشد العقاب بكل من يخالف أوامره ويجرؤ على شق عصا الطاعة . وكان
مركز القيادة العامة في صنعاء ، وناظم باشا وعزيز بك يقيمان في منزل
واحد ويعملان في دائرة واحدة ، فلم ينقض بضعة أشهر على وصولهما
حتى استتب الأمن في ربوع اليمن وعادت المياه الى مجاريها .

ثم بدأت المفاوضات مع الامام يحيى بواسطة عزيز بك فذهب الى
حيث يقيم الامام وعقد معه صلحا واتفقا شريفا ، وقد قال عزيز بك
لناظم باشا قبل ذهابه للاجتماع بالامام : سأعقد صلحا شريفا مع الامام
ان شاء الله وأعود اليكم سالما ، فان قتلت فحياتي تكون فدى للأمة
والوطن .

فخاطر بروحه ودمه واخترق بلاد العدو وعاد ظافرا فائزا ، وقد
كنت أقف على هذه الأمور وسواها بنفسى فانى كنت موجودا في ذلك
الحين في صنعاء فكنت أجمع بمبعوثي اليمن وأزور الدوائر الرسمية .
واتفق ذات يوم ان كنت في دار القيادة العامة فقابلت عزيز بك فهش لي
وبش وسألني : هل لي مصلحة أريد قضاءها ؟ فشكرته وأفهمته أنني
جئت زائرا .

هذه شهادتي بما رأيته بنفسى ولم أنقله عن الرواة وقبل أن أختتم
هذه العجالة اسمحوا لي أن أذيلها بذكر ما لعزيز بك من الفضل على تنويرها
بقدره وشهامته ورغبة في انصاف الرجال واحقاق الحق ، فقد كنت ذات
يوم بعد الذي تقدم جالسنا في صنعاء ، فاذا برجال البوليس طلوعوا على
ودعوني الى الذهاب الى مركز القيادة العامة لمحاكمتي أمام المجلس
العسكري ، فذهبت في الحال وهناك قابلت عزيز بك وقصصت عليه
ما قيل لي فأجاب : لقد بلغ ناظم باشا انك جاسوس مصري وتعت في
اقتناعه بخطئه ، وساعدني في ذلك مبعوثو اليمن فانهم شهدوا لك فعدل
عن محاكمتك ، ثم تصحني بمغادرة البلاد ، فأطعت ، شاكرا له فضله
والثناء عليه .

وهناك صور عديدة لعقد الصلح ، اخترت الصورة التي ذكرها عزيز
على المصري في إحدى مقالاته في السياسية الاسبوعية ، وقد سمي صلح
« دعاني » ، ودعاني هذه قرية تقع فوق قمة جبل في الشمال الغربي لمدينة

عمران ، وقد اختيرت « دعان » هذه لتوسطها بين منطقتي نفوذ الامام في الشمال فيما حول صعدة ونفوذ الأتراك في الجنوب .

وقد جاء في بداية الصلح أنه لابد من تصديق المرجع العالي على ذلك العقد ، والهدف من عقد الصلح اصلاح أحوال اليمن وقرار السلام والأمن وانتظام الأمور . وقد تم عقد الصلح بين حضرة سمو الامام المتوكل على الله رب العالمين يحيى بن حميد الدين ، وبين حضرة صاحب العطفة رئيس أركان الحرب وقومندان القوة اليمنية عزت باشا ، المأذون من طرف الحكومة السنية وينص العقد على ما يلي مع الجرحى على بقاء كلمات العفو كما هي رغم ما يبدو فيها من عدم توازن أو اختلال في المعنى .

أولاً : جبال اليمن التي تجرى فيها الآن ادارة الحكومة العثمانية هي :

١ لواء صنعاء وما يحويه من أقضية صنعاء : عمران وحجة وكوكان وحراز ماعدا صعفان وبنى مقاتل ثم أنس وذمار وبريم ورداع ومن لواء تعز من الزيديين ان كانوا نصف الناحية فصاعدا .

٢ - يكون اجراء مالأحكام الشرعية بين المتحاضرين ممن يسكن البلدان المذكورة آنفاً في جميع المواد واقامة الحدود على كل مرتكب لأسبابها كل ذلك على المذهب الزيدى ويكون تعيين الحكام وتبديلهم من طرف الامام وذلك بأن يكتب الامام الى الولاية كتاباً بتعيينه وتطلب الولاية تصديق ذلك من الأستانة على أن لا تتأخر مباشرتهم الوظيفية من عند أن يكتب الامام ، وتنفذ الحكومة جميع الأحكام التي تصدر من حكام الشرع ابتداءً . ومن حكم الاستئناف ان لم يقنع المحكوم عليه بطلب الاستئناف .

٣ - اذا تظلم أحد من محكمة الاستئناف واشتكى الى الامام ، فيسأل سمو الامام الحكومة عن حقيقة ذلك واذا ظهر صدقه على صحة تظلمه أعيدت المحاكمة .

٤ - محكمة الاستئناف تشكل في مركز الولاية من رئيس وأعضاء ينتخبهم الامام وكما يصدق على تعيين الحكام يصدق على تعيينهم .

٥ - اذا حكمت محكمة الاستئناف المشكلة على الوجه المتقدم ، وذلك بالقصاص الشرعى الذى هو اعدام شخص قاتل قد استحق الحكم عليه بالاعدام شرعاً فعلى الحاكم السعى أولاً فى طلب العفو عن القاتل من ورثة المقتول أو ارضائهم بقبول الدية من القاتل ، فان لم يساعدهم رفعت المحكمة الاستئنافية الأمر الى الأستانة وطلب الاذن باعدام القاتل بعد

التصريح بأن الحاكم قد بذل مجهوده عند الورثة في طلب العفو أو قبول
الدية فلم يعفوه بشرط ان لا تزيد مدة صدور الارادة في ذلك على أربعة
أشهر من عند ارسال تقرير المحكمة المذكورة .

٦ - عند ظهور ما يستوجب تبديل أحد الحكام من سوء حاله ، فعلى
الولاية ان تخبر الامام بذلك مع تبين الأسباب الموجبة لتبديله والدلائل
الشرعية . . الخ . . الخ .

٧ - للحكومة أن تنصب قضاة يحكمون بمذهب الامام الأعظم
أبي حنيفة النعمان بين من كان ضيفا من غير أهل جبال اليمن .

٨ - اذا حصلت دعوى بين زيدي وآخر من أهل المذاهب الأخرى
الإسلامية من غير أهل الجبال يكون الرجوع في تلك الدعوة الى محكمة
مختلطة تتألف من زيديين وحنفيين واذا اختلف القضاء في الحكم فالمعتبر
حكم القاضي الذي من جهة المدعى عليه .

٩ - للقضاة المعينين في النواحي والأقضية ان يتخذوا لهم معاونين
ممن يثقون بهم يستخدمونهم في أمورهم وفي احضار الخصوم على شرط
ألا يزيد عددهم على ستة رجال في النواحي وثلاثة في الأقضية وعلى
الحكومة أن تؤدي لهم رواتبهم بصفة مباشرة . أما اذا كان هؤلاء غير كافين
فالحكومة تمدهم برجال الضبط بحسب ما يقتضيه الحال .

١٠ - ولاية الأوقاف والوصايا على الامام .

١١ - تعفو الحكومة السنية عن كل ما سبق من أهل الجبال المذكورة
من الجرائم والبقايا المتبقية الى تاريخ هذا المقرر والمقصود من الجرائم هي
السياسة التي وقعت في أثناء الحرب وتفرعاتها .

١٢ - تعفو الحكومة مثل عفوها على أهل الجبال عن جميع سوابق
وجرائم وبقايا « خولان » و « نهج » و « أرحب » مطلقا وتعفو عن مقطوعيتهم
الى مدة عشر سنين بشرط توقف أهل هذه الجهات عن كل ما يورث
نقصا له جانب مأموري الحكومة وعن التعرض لما يخل بالأمن العام في
الطرق وان حصل من أحد منهم أو جماعة منهم مخالفة مما ذكر أدب
المخالف بخصوصه بما يستحقه شرعا واذا صدرت المخالفة من أهل بلد
أو جهة بالاتفاق وثبت ذلك عليهم كان تأديبهم وسقطوا من حرية
استحقاق العفو فيما بعد .

١٣ - لا يطالب أحد من أهالي الجبال المذكورة بشيء غير التكاليف
الشرعية الإعشار بالخرجي والإغنام وبقية الأنعام بالنصاب الشرعي .

١٤ - اذا وقعت شكاية الى الحكومة أو الى حاكم الجهة المعين ينصب الامام من ظلم الجبابة والخارجين أو تبين من هؤلاء شئ من سوء الاستعمال، لزم أولا تحقيق الأمر من جهة الحاكم وأكبر موظف فى الحكومة المحلية، وما ثبت بوجه شرعى كان الحكم به من الحاكم والاجراء من الحكومة .

١٥ - لا مانع لمن أراد أن يعطى الامام شيئاً بطيبة من نفسه وذلك بأن يسلمه الى سمو الامام رأساً أو الى مأمورى الأوقاف أو أمناء الأراضى المرتبطة بالامامة بواسطة مشايخ الدولة المختارين من الأهالى أو بواسطة الحكام .

١٦ - للامام أن يأخذ بواسطة من يأتهم حاصلات الأراضى المرتبطة بالامامة وتأخذ الحكومة السنوية أعشارها الشرعية .

١٧ - ناحية « جبل الشرق » التابعة لقضاء آنسى المؤلفة من الغول التى هى جبل الشرق وبنى قشيب وبنى أسعد والماردينى خالد وبنى سويد، تعفى من جميع التكاليف مدة عشر سنين وبعد انقضاء هذه المدة فعليها أن تؤدى للحكومة الأعشار وسائر التكاليف الشرعية مثل غيرها من محلات الجبال .

١٨ - يطلق الامام من عنده من رهاين وحراز صنعاء وهى بنى الحارث وبنى خشيشن وهمدان وبلاد الحبشان وسنمان وبلاد الروس وبنى بهلوك وكذلك رهاين حراز أهل عمران .

١٩ - تأمين أصحاب الامام وأصحاب الحكومة وسائر الناس فى ذهابهم وإيابهم للتجارة وغيرها واذا اتهم أحد من الذين يدورون لاكتساب المعيشة بالسعى بما يسلب راحة العموم قبض وسلم الى حاكم الشريعة لتحقيق حاله .

٢٠ - بعد امضاء هذا الائتلاف لا يتعدى طرف على الآخر فيما هو فى ادارته الآن .

حرر فى يوم سابع وعشرين شوال سنة تسع وعشرين وثلاثماية وألف عربية . وفى سابع تشرين الأول سنة سبع وعشرين وثلاثماية وألف رومى .

وكان عزت باشا قد توجه الى « دعان » حيث وجد ألوفاً من الجنود الزيديين يهتفون فى مظاهرة عسكرية بحياة امامهم ، وكان الامام قد جهز منزله فى « دعان » أحدهما لاقامته والآخر لاقامة عزت باشا فى أثناء المفاوضات .

وقد صحب عزت باشا معه أركان الدولة من العرب والترك ومن بينهم القاضي عبد الله بن حسين العمري وكان الامام قد وصل الى « دعان » قبل أن يصلها عزت باشا . وقد بعث الامام - كما يقول الواسطي - لجملة من رؤساء القبائل والمشايخ لاستقبال عزت باشا وقد استقبلوه وهم يطلقون بنادقهم في الفضاء علامة التحية وينشدون - كما يقول الواسطي - في تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن - الأناشيد الحماسية وفيها المدح للامام وللدولة وللوطن وتسمى بعرف اليمن (الزحل) والشجاعة تلوح على وجوههم ، وقد عم الناس الفرح والسرور كما رأوا في الصلح ما فيه من حقن للدماء وحفظ الأموال وتأمين السبل ودفع الأهوال .

وكان وصول عزت باشا في يوم الجمعة ، وكانت خطبة الامام تدعو الى جمع الكلمة وحث الناس على الاتفاق وعدم الافتراق . . . وبعد ساعتين من وصول عزت باشا اتجه الى المنزل الذي يقيم به الامام وبعد السلام وتبادل التحية وطيب الكلام وقع الطرفان على شروط الصلح .

وكان عزت باشا عقب وصوله الى صنعاء أمر بأن يجتمع سكان المدينة في الميدان الفسيح الواقع أمام مقر حكومة الولاية ، وأذيع عليهم نبأ عقد الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية وتوقيع الاتفاق الخاص بذلك وقد ألقى مفتي الولاية الشيخ علي بن حسين المغربي خطابا هاما في جموع الأهلين من سكان المدينة أشاد فيه باتفاق عزت باشا صاحب الدولة الأفخم وملاذ العز الشامخ الأشم مع مولانا الامام يحيى المتوكل على الله رب العالمين ونجم آل رسول الله ، لا يبرح بدرا لا يعتريه أفول .

وقد استقبل أهالي صنعاء خبر الصلح بالفرح والابتهاج وقد أذيع في سنة ١٩١٣ الفرمان السلطاني بتحالف الامام يحيى مع الدولة العثمانية .

وقد كان وقع الاتفاق على السيد الادريسي سيئا للغاية ، وقد بادر السيد الادريسي بالكتابة الى الامام مؤكدا له أنه حاول كثيرا الصلح مع الدولة العلية ولكنها - الدولة العلية - لم تكن أبدا جادة في عقد الصلح . ويشير السيد الادريسي اغ مقابلة عزيز على المصري بك أكثر من مرة ولا ينسى الادريسي الامام يحيى بأنه - الادريسي - صاحب القديم والحل الوفي الذي هو على العهد الى الممات مقيم ، وقد انفصل الحليفان القديمان

(الامام يحيى والسيد الادريسي) وقد ضعف نفوذ الامام يحيى بعد توقيع عقد الصلح ، بينما قوى نفوذ الادريسي حتى أنه كان يهدد الامام يحيى في عقر داره في صنعاء .

ومما يجدر بنا أن نذكره أنه في نوفمبر ١٨٦٥ أرسل اسماعيل باشا والي مصر ، الى الوالي في منطقة الحديدة - من أعمال ولاية اليمن - ما يفيد أنه قد اتصل بعلمنا أنه في منطقة الحديدة من أعمال ولاية اليمن بعض الأماكن الغنية بالفحم الحجري ، ونظرا لأن وجود الفحم الحجري على هذا الوجه سيكون له أبعاد الأثر في انعاش البلاد ودر الخير الجزيل على الحزينة الجليلة ، فتحقيقا لهذه الغاية ، وللتأكيد بادىء الأمر من صحة وجود الفحم الحجري هناك ، قد أرسلت الى الحديدة على باخرة خاصة بعثة برئاسة أمين بك مهمتها التنقيب والبحث عن هذا النوع من الفحم حتى اذا ما تأكد للبعثة صحة هذا الخبر أمكننا الاتصال بالباب العالي توطئة لاتخاذ الاجراء اللازم لاستخراج هذا الفحم واستغلاله لصالح الدولة . . فالمرجو من جنابكم الشريف أن تسهلوا لهذه البعثة مهمتها ، وأن تسندوا اليها جميع معاونتكم .

وقد أمر اسماعيل باشا بتخصيص بلوكين من الجند النظامية المصرية ليكونا بمعية أمين بك . وهذا دليل ما بعده من دليل على دور مصر الحضارى في اليمن منذ منتصف القرن التاسع عشر .

بقى أن نشير الى ان صحيفة النهار (١٨/٢/١٩١٢) قد نشرت مقالا عن صحيفة المفيد البيروتية حديثا دار بين أحد صاحبها مع الأمير الالى احسان بك الذى كان رئيسا لأركان الحرب لفيالق اليمن عند مروره ببيروت عائدا الى اليمن . قال محرر جريدة المفيد : قلت : هل لاحسان بك معرفة بعزير بك ؟ وقال احسان بك : نعم هو من أعز أصدقائي وهو الرجل الذى جمع الى همة الشباب حكمة الشيوخ . قلت : وماذا عندك من نبئه ؟ قال : انه بطل هذا الاتفاق . قلت : وكيف كان كذلك ؟ قال : ان عزيز بك غيور ، أنوف فخور ، يعز عليه أن يستمر القتل بين الجنود العثمانيين وبين عرب البادية - هكذا فى الأصل - وقد أتى هذا القطر والتحق بحملة اليمن وفى النية أن يوفق بين عزت باشا والامام يحيى حقنا للدماء ، وقد نجح مسعاه لدى قائد الحملة فان عزت باشا لم يكن ممن يحبون سفك الدماء دون طائل ، ولا ممن يقودون الجيوش بغرض التخريب والتدمير .

هذه العاطفة التى وجدها عزيز بك فى قلب عزت باشا سهلت عليه سبل الاتفاق مع الامام . قلت : ان عزيز بك هو بطل هذا الاتفاق ،

وأؤكد لكم ان هذا البطل هو من أصدق الرجال الذين خدموا الدولة والأمة معا ، فان خوفه على دولته من الانقراض لانشغالها عن الأمور الخارجية بتجريد الحملات على أبنائها وحبه بقاء العرب ذخرا للدولة تستنصرهم عند الحاجة حملاه على عقد الاتفاق ، وقد تمكن بطلاقة لسانه من اقناع الامام بأن القتال اذا استمر بينه وبين الدولة ، فان الأجانب الذين يتربصون بنا الدوائر سوف يستولون على هذه البلاد .

على هذه الفكرة بنى أساس الاتفاق بين عزت باشا والامام يحيى . .
ومن ذلك يظهر ان عزيز بك هو بطل هذا الاتفاق .

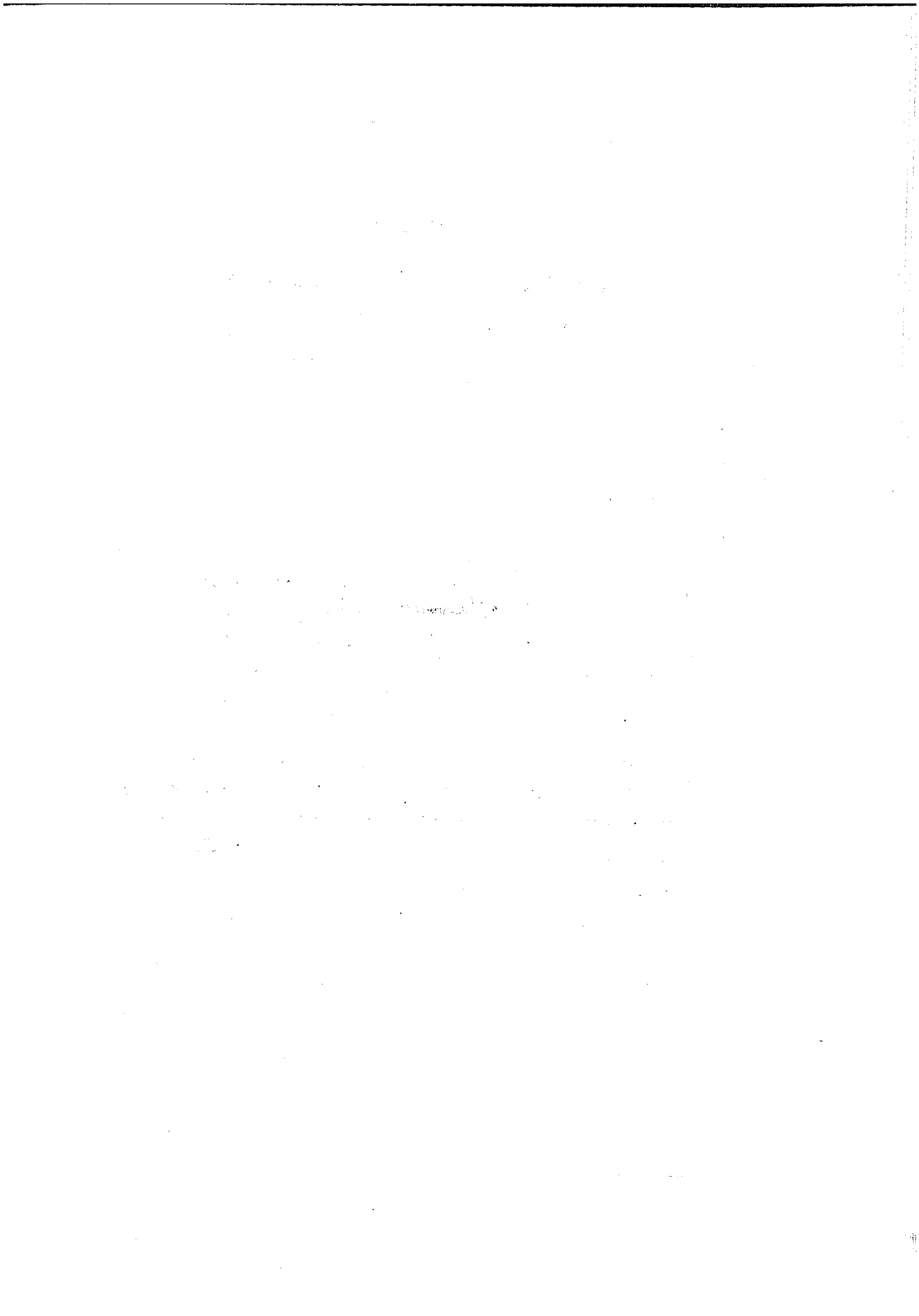
ويذكر احسان بك ما طرأ من تغييرات على نظام الحكم فى اليمن بعد توقيع الاتفاق : لقد كان للامام قبل الاتفاق ختم كبير نقش عليه « نصره الله » ومن تحتها صورة هلال السيد يحيى بن محمد حميد الدين وتلى ذلك كلمة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين .

أما بعد الاتفاق فقد أصبح كذلك : امام الزيود ، السيد يحيى بن محمد حميد الدين .

ويقول احسان بك : ان الامام وزع منشورا على جميع القبائل الموالية له ، يحذرهم من الخروج على الدولة والتعدي على الجنود النظامية ، والانصراف عن مناوأة الدولة الى الاهتمام بزراعة الأرض .

وننتائج هامة أخرى حققها عقد الصلح الذى تم بين الدولة العلية وبين الامام يحيى فى مقدمتها - بلا جدال - الموقف المشرف الذى وقفه الامام يحيى ازاء المحنة القاسية التى مرت بها الدولة العلية فى الحرب الطرابلسية الايطالية . . !!

الباب الثاني



الفصل الأول

في الحرب الطرابلسية الإيطالية : عزيز المصري ، أبرز قواد تلك الحرب

أسباب كثيرة تلك التي دفعت إيطاليا الى احتلال طرابلس الغرب ،
برقة (ليبيا) • من بين تلك الأسباب - وعلى سبيل المثال لا الحصر -
ان إيطاليا كانت تعتبر طرابلس الغرب وبرقة امتدادا طبيعيا لها ، وكانت
في أحيان كثيرة تراود الإيطاليين فكرة وراثة أجدادهم الرومانيين الذين
احتلوا لقرون عديدة تلك الأرض •• كما ان الروح الاستعمارية التي
سادت بعض الدول الأوروبية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد
وجدت عند الشعب الإيطالي ثم ازدادت تلك الروح قوة في القرن التاسع
عشر وخاصة عندما احتلت فرنسا الجزائر ، وبدأ السياسيون الإيطاليون
من كل الاتجاهات يعملون على احتلال إيطاليا لتونس ، وكانت تركيبة
الدول الأوروبية وبعض التحالفات التي ظهرت في النصف الثاني من القرن
التاسع أكبر مشجع لإيطاليا كي ترنو بعينيها الى الشمال الأفريقي • ففي
مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ اقترحت النمسا والروسيا على إيطاليا أن تبسط
حمايتها على تونس ، ولكن إيطاليا رفضت هذا العرض حتى لا تجرح
مشاعر جارتها فرنسا •

وكان نابليون الثالث قد اقترح - في سنة ١٨٦٥ - على ملكة
انجلترا - الملكة فيكتوريا - اعطاء طرابلس الى إيطاليا ، وفي مايو ١٨٩٤
أشار البارون بلانك وزير خارجية إيطاليا الى ذلك العرض في مجلس
النواب الإيطالي •• وكان الإيطاليون قد أعدوا العدة لغزو تونس في عام
١٨٨١ ثم تراجعوا عن فكرة الغزو ، بعد ان حمل الاسطول الإيطالي
جنودا إيطاليين لانزالهم في تونس ، وكان تراجع الإيطاليين عن ذلك الغزو
حرصا على مشاعر الإيطاليين تجاه فرنسا التي نجحت في ١٢ مايو ١٨٨١
في عقد معاهدة « باردو » مع باي تونس والتي مكنتها من أن تحتل تونس
بدون قتال •• !!

وكانت انجلترا قد سكتت على تلك المعاهدة لأن فرنسا تغاضت
عن احتلال بريطانيا لقبرص .

وكانت الظروف الاقتصادية المريرة التي مرت بإيطاليا في أواخر
القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد تسببت في انتشار الفاقة
في كثير من البلدان الإيطالية ، الأمر الذي دفع الكثيرين من الإيطاليين إلى
الهجرة إلى أمريكا كما ضاعفت من ازدياد الضغط الشعبي على الحكومات
الإيطالية لإيجاد منفذ يخرج إيطاليا من ضائقتها الاقتصادية . وكان
الإيطاليون مؤمنين إلى أبعد الإيمان بأن لدى طرابلس الغرب وبرقة من
الامكانيات الزراعية والمعدنية مما يساعد الشعب الإيطالي على العيش برخاء
حتى لقد انتشرت في إيطاليا الكثير من الأقاصيص والأغاني التي تتغنى
بشروة طرابلس وكونها الجنة المرتقبة للشعب الإيطالي ، وكيف أن احتلال
إيطاليا لطرابلس وبرقة سيكون مصدر الخير العميم والرزق الوفير لإيطاليا .

وقد كان أيضا في مقدمة العوامل التي شجعت إيطاليا على أن تفكر
في احتلال طرابلس وبرقة ، الضربة القاصمة التي منى بها الإيطاليون في
معركة عدوة المشهورة حيث أنزل الأحباش بالإيطاليين في أول مارس
١٨٩٦ هزيمة كبرى زلزلت الحكم الإيطالي .

وكانت بريطانيا قد حسنت علاقاتها بإيطاليا ومكنتها من احتلال
مصوع على شاطئ البحر الأحمر الأفريقي الأمر الذي جعل إيطاليا تعيش
الوهم الخاص بتأسيس امبراطوريتها في ارتيريا ، فجاءت معركة عدوة
لتقضي على ذلك الوهم .

وقد أطل د . محمد فؤاد شكرى في كتابه المتميز عن « السنوسية
دين ودولة » ، الحديث عن الأسباب التي دفعت الإيطاليين إلى القيام بغزو
طرابلس الغرب وبرقة ، وكان من بين ما قاله : انه ازاء الفشل الإيطالي
الذريع في الحبشة انهارت آمال الإيطاليين في انشاء امبراطورية أحلامهم
في أفريقية الشرقية ، اتجهت أنظارهم من جديد إلى أفريقية الشمالية ،
ولايمان الإيطاليين بأن الفرنسيين ينافسونهم في ذلك . . . ولأن الإيطاليين
أيقنوا أنهم لا يمكن لهم أن يمدوا نفوذهم إلى أية بقعة من الشمال
الأفريقي ما لم يكونوا على وفاق مع فرنسا .

رأى الإيطاليون - في عام ١٨٩٨ أن يوقفوا حربهم الجمركية مع
فرنسا - ورأت فرنسا - في نفس الوقت انه - لا بد لها من الاعتراف - من

ناحيتهما - بادعاءات إيطاليا على طرابلس الغرب ، فأصبح ظاهرا - د . فؤاد شكرى - أن الدولتين اللاتينيتين تعيشان فى وئام كامل . وعلى ذلك عقد الفريقان - إيطاليا وفرنسا - فى ديسمبر ١٩٠١ اتفاقا تناول شئون البحر الأبيض المتوسط أصبحت بمقتضاه طرابلس وبرقة منطقة نفوذ ايطالية وتعهدت فرنسا بالتزام خط الحدود الذى أوجده تصريح لندن فى ٢١ مارس ١٨٩٩ فاصلا بين منطقتى نفوذهما وممتلكاتهما فى افريقية الغربية ، وفى نظير ذلك وافقت إيطاليا على اطلاق يد فرنسا فى مراكش . وكانت إيطاليا فى المدة الأخيرة تظهر شيئا من النشاط المضرب بمصالح الفرنسيين فى المغرب الأقصى ، ثم لم يلبث هذا الاتفاق أن تقرر فى بداية عام ١٩٠٢ عندما أعلن السفير الفرنسى فى خطاب ألقاه بروما ان قيام نضال بين الأمتين اللاتينيتين قد أصبح مستحيلا ، واستطاعت إيطاليا فى فى ذلك الوقت ان توجه كل اهتمامها الى الأراضى الليبية ، وعندما وقف البنىور تيتونى فى مجلس الشيوخ الايطالى فى عام ١٩٠٤ معلنا أن الدول قد اعترفت بالوضع الممتاز الذى تتمتع به إيطاليا فى طرابلس ، لم تعترض على قوله دولة من الدول وطالب تيتونى الباب العالى أن يمنح الايطاليين تسهيلات تشجعهم على المضى فى نشاطهم التجارى والاقتصادى فى هذه الولاية العثمانية .

وبعد تغير الأوضاع فى دولة الخلافة عام ١٩٠٨ وازدياد قوة النفوذ الألمانى عقب حوادث الانقلاب الدستورى ، راحت إيطاليا تتشكك فى نوايا دولة الخلافة ، فادعت أن الباب العالى يعرقل امتلاك الايطاليين لعقارات ثابتة فى أنحاء الدولة ثم لم تلبث الحكومة الايطالية أن قامت بمظاهرة بحرية مكنتها من تسوية مشاكلها - مع الدولة العلية - بطريقة تكفل لها مصالحها فى النهاية ، ومن ذلك اعتراف تركيا بمكتب البريد الذى أنشأته إيطاليا تحت حماية أساطيلها .

وفى فبراير ١٩١٠ اعتبرت إيطاليا طرابلس الغرب أرضا ايطالية فآثر فى البرلمان الايطالى موضوع اعتداء فرنسا على الحدود الطرابلسية واحتجت إيطاليا فيما بعد - وكان هذا طريقا حقا - على الحكومة العثمانية لارسالها نقالات عسكرية الى طرابلس عند تفاقم الحالة .

وكانت إيطاليا بمعونة بعض الايطاليين قد أنشأت فى طرابلس طائفة من المدارس التى علمت لغتهم ودينتهم ونشرت ثقافتهم وعاداتهم ، ثم لم يقصروا التعليم بهذه المدارس على الذكور بل اشركوا الاناث وجعلوه بالمجان .

والى جانب المدارس أنشأوا المستشفيات والملاجئ الصحية للمرضى، وأرسل
الايطاليون الى طرابلس الغرب وبرقة بعثات علمية كان آخرها تلك التى
رأسها الكونت سيفوزا للتنقيب عن معدن الفوسفات وانضم اليها ضباط
من هيئة أركان الحرب الايطالية و ٠٠٠ و ٠٠٠

وكان الايطاليون فى عام ١٩٠٥ قد حصلوا من الحكومة العثمانية
على امتياز بإنشاء فرع لبنك دى رومه فى طرابلس وبرقة ، كانت مهمته
نشر الدعاية الايطالية والتجسس . وكان الايطاليون قد أنشأوا فى ايلة
طرابلس الغرب (فى بنغازى) مكتبا للميريد يرسلون بواسطته ما يريدون
من رسائل وتقارير بدون رقابة . وقد اعترفت الحكومة العثمانية رسميا
بهذا المكتب ، وكان نظام الحكم الجديد - بعد انقلاب يوليو ١٩٠٨ - قد
أهمل أمور طرابلس الغرب وبرقة اهمالا شديدا ، وقد نشرت صحيفة
« طنين » ان ولاية طرابلس الغرب من الولايات التى لا تفيده الدولة
فائدة مالية يعتد بها فيجب على الحكومة العثمانية الاقتصاد فى الانفاق
عليها .

وعندما تسلمت أزمة الحكومة باستانبول وزارة ابراهيم باشا
حقى - الضعيفة - ويعتقد كثيرون أنه كان متواطئا مع أعداء الدولة
وخصوصا الطليان الذين ربطهم به روابط عديدة منها زواجه من ايطالية
وشغفه بلعب الورق مع أصدقائه الايطاليين وخضوعه - د . محمد فؤاد
شكرى - لسلطان الذهب - ضاع كل أمل فى أن تنال ولاية طرابلس
الغرب شيئا من عناية الدولة واهتمامها بها .

وكانت السلطات التركية السابقة - أيام السلطان عبد الحميد قد
اهتمت - وخاصة فى أيام الوالى رجب باشا - بشئون الولاية الادارية
والعسكرية ، فمرن أهلها على الأصول الحربية ووزع على شبانها وشيوخها
البنادق ومرتهم على استعمالها ، وملا المستودعات العسكرية بالذخائر
حتى أصبح عدد الجيش المربط فى طرابلس حوالى الخمسة عشر ألفا وهذا
غير الفرق غير النظامية « قول أوغلى » من الأهلين العرب وهؤلاء بلغوا
الأربعين والخمسين ألفا ومهمتهم معاونة الجيش النظامى ، وقد أبطل
الاتحاديون هذه الاستعدادات وشرعوا ينزعون البنادق من الأهلين .

وقد سحبت حكومة حقى باشا معظم جيشها النظامى من طرابلس ،
وكان أهالى طرابلس وبرقة يطالبون بالانتظام فى سلك الجندية ، ولكن
لم تستجب حكومة حقى باشا الى طلبهم ، بالاضافة الى أنها سحبت حوالى
الأربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى

يستخدمها الأهليون عند الطوارئ . ثم لم تفعل شيئا من أجل اصلاح الاستحكامات ومركز الدفاع بالبلاد ، أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها . وظل الحال على ذلك حتى قبيل وصول الانذار الايطالى بأيام قليلة اذ أرسلت الدولة احدى النقالات العسكرية - درنة - تحمل كمية من البنادق والخرطوش الى ميناء طرابلس وهى النقالة التى احتج الايطاليون على ارسالها .

ويضيف د . فؤاد شكرى الى كل ذلك قوله : يحمل المعاصرون مسئولية ضياع طرابلس الغرب وبرقة ووزارة حقى باشا التى عمدت - فوق كل ما سبق الاشارة اليه - الى تجريد البلاد من الموظفين الأكفاء واستدعاء القواد العثمانيين المحنكين الذين كانوا يشرفون على استحكامات الولاية ونظام الدفاع عنها . وأكثر من ذلك استدعى حقى باشا والى طرابلس ابراهيم باشا بدعوى أنه كان يقسو فى معاملة الايطاليين حتى استحق سخطهم ولم يعين حقى باشا بديلا حتى لقد بدأ الهجوم الايطالى على طرابلس وبرقة دون أن يكون فى البلاد وال أو مسئول يستوس أمرها ويدبر شئونها .

وعندما وجدت ايطاليا أن الظروف مواتية تماما لصالحها . فولاية طرابلس الغرب خالية من الجيوش النظامية والأسلحة والقواد والموظفين الأكفاء وجهت فى ٢٧ سبتمبر ١٩١١ الانذار التالى الى الصدر الأعظم حقى باشا :

يا صاحب الدولة

ما انفكت الحكومة الايطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة وضع حد لسوء الادارة والنظام فى طرابلس الغرب وببنى غازى ، وانهالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع أقسام أفريقيا الشمالية من أمن ورخاء .

وهذا التغيير الذى يقتضيه التمدن بجعل المصالح الحربية بحسب ما تستلزمه مصلحة ايطاليا فى أول درجة لقصر المسافة بين تلك البلاد وشواطئ ايطاليا وبالرغم من حسن مسئلك الحكومة الايطالية التى كانت دائما موفية ومعاضدة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الأخير ، وبالرغم من اعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها فى طرابلس وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان فى تلك الأصقاع تصادف دائما مقاومة مضطردة لا تحتمل .

وكانت الحكومة العثمانية حتى الآن تبدى عداا نحو الحركة الايطالية الشرعية فى طرابلس وبنى غازى وما زالت كذلك حتى الآن . وقد

اقترحت الحكومة الملكية الإيطالية أن تتفاهم معها وأعلنت أنها ميالة إلى أن تمنح أى امتياز اقتصادى يتفق والمعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها ولكن الحكومة الملكية الإيطالية لا تشعر الآن بأنها فى أحوال موافقة للدخول فى مفاوضات بهذا الموضوع بعد أن برهن الاختبار الماضى على عدم نفعها وهى لا تشتمل على ضمانات للمستقبل ولن تكون إلا سببا للاحتكاك والنزاع .

ومن جهة أخرى وردت أنباء إلى الحكومة الملكية الإيطالية من قنصلها فى طرابلس وبنى غازى تفيد أن الحالة هناك خطيرة جدا بسبب التحريض العام على الرعايا الطليان ، ذلك التحريض الذى زاده الضباط وسائر موظفى الحكومة خطرا لا على الرعايا الإيطاليين وحدهم بل على سائر الأجانب على اختلاف جنسياتهم حتى أصبحوا يخشون على حياتهم وشرعوا يهجرون البلاد بسرعة ، ثم ان وصول القوات العسكرية العثمانية إلى طرابلس زاد الحالة خطرا وحرجا مع أن الحكومة الملكية الإيطالية نبهت الحكومة العثمانية إلى هذه النتائج السيئة ولهذا فالحكومة الملكية الإيطالية مضطرة إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة دفعا للخطر .

ولما رأت الحكومة الإيطالية نفسها مضطرة إلى الحرص على شرفها ومصالحها ، قررت أن تحتل طرابلس وبنى غازى احتلالا عسكريا .

والحكومة الملكية تنتظر ان تصدر الحكومة العثمانية أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ولا تجد صعوبة فى الأمر ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة .

وقد صدرت الأوامر للسفير الإيطالى فى استانبول ، بأن يلتمس جوابا جاسما فى المسألة من الحكومة العثمانية ، فى خلال ٢٤ ساعة منذ تسليمه هذا الإنذار فإذا لم تجب عليه اضطرت الحكومة الإيطالية إلى تنفيذ الخطة المدبرة للتأمين على الاحتلال وترجو أن يبلغ جواب الباب العالى المنتظر فى خلال ٢٤ ساعة على يد السفير العثمانى فى روما .

(ووزير خارجية إيطاليا الذى وجه هذا الإنذار اسمه : سان جوليانو) وقد ردت الحكومة العثمانية على ذلك الإنذار بالرسالة التى وجهتها إلى السفارة الإيطالية فى الاستانة :

ان سفارة جلالة الملك تعلم بحق العلم الأسباب التى دعت ولاية طرابلس وبنى غازى ألا يكون لهما من الرقى والتقدم النصيب المرغوب ، ولكن المرء إذا نظر بإنصاف إلى الحقيقة أنه لا يمكن اعتبار الحكومة الدستورية

مسئولة عن حالة هي نتيجة الحكم الماضى ولكن بالرغم مما تقدم فقد بحثت حكومة الباب العالى فى أعمال السنوات الأربع الدستورية فلم تر فيها معارضة للأعمال الإيطالية النافعة .

ان اشتراك رؤوس الأموال الإيطالية فى ترقية شئون هذه الولاية العمرانية أمر طبيعى فى نظر الحكومة السلطانية ، وقد قابلت بكل ارتياح المشروعات التى تقدمت بها ، ونظرت بعين الرعاية الى الأعمال التى أشارت اليها سفارة جلالة الملك فهى لم ترجع أبدا عن هذه الأفكار وعن توثيق حسن الصلات بين الحكومتين فى دائرة الثقة المتبادلة والمودة والاقتراح الأخير الذى اقترح على السفارة الإيطالية وهو رغبة الحكومة العثمانية فى اعطاء امتيازات للحكومة الإيطالية توسع ادارة حركة إيطاليا الاقتصادية فى الولاية هو أكبر دليل على ذلك ، والحكومة العثمانية التى تعلم حق العلم ما توجبه عليها الاتفاقات الدولية المعقودة مع الحكومات الأخرى والتى لا يمكن الغاؤها بمجرد رغبة أحد المتعاقدين ترى أنها تساهلت كثيرا فى اجابة رغبات الحكومة الإيطالية الاقتصادية ، ودلت على رغبتها فى المسألة .

أما فيما يتعلق بالأمن العام فالحكومة السنية تصرح الآن بما صرحت به من قبل ، وهو أنه ليس هنالك أثر للقلق والهيّاج على الإطلاق سواء أكان ضد الإيطاليين أو ضد الأجانب المقيمين فى طرابلس الغرب وليس ثم أثر للهيّاج والقلق فقط بل ان رجال البوليس يقومون بأعمالهم بكل أمانة ودقة .

ولا ترى الحكومة فى ارسال الباخرة التى أرسلت قبل ٢٣ الجارى ، دون أن تحمل جندا ما يدعو الى القلق والهيّاج .

فيظهر مما تقدم ان الخلاف ينحصر الآن ، فى عدم الضمانات الكافية لرؤوس الأموال الإيطالية فى طرابلس وبنى غازى ، فحكومة الباب العالى تبلغ الحكومة الإيطالية استعدادها للاتفاق معها ما دامت لا تلجأ الى الاحتلال العسكرى ، وبناء عليه تطلب من الحكومة الإيطالية ان تقدم بيانا بمطالبها التى تقبل بلا شك ما دامت لا تمس سيادة الدولة العلية الفعلية على الولايات المذكورة » .

وبالرغم من ان الباب العالى قد تعهد بألا يحدث أى تغيير على الأوضاع فى بنغازى وطرابلس الغرب فى أثناء المفاوضات الا أن إيطاليا - وبعد يومين فقط من توجيه انذارها الأول الى الحكومة العثمانية - وفى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ - وجه ممثل إيطاليا فى الأستانة الى الصدر الأعظم الرسالة التالية :

« ترابيا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ »

« صاحب الدولة »

« بناء على أمر حكومة مولاي الملك ، يتشرف القائم بأعمال السفارة بإبلاغكم ما يلي :

« ان المدة التي عينتها حكومة جلالته أخيرا للحكومة العثمانية لتحقيق الوسائل التي أصبحت لازمة قد انقضت دون أن تبلغ حكومة جلالته ردا مرضيا ، وتأخر اعطاء هذا الرد يؤيد عدم ارادة الحكومة أو السلطة المحلية وعجزها اللذين كثرت الدلائل عليهما عن تأييد الحقوق والمصالح الايطالية في طرابلس الغرب وبنى غازي ، ولذلك ترى حكومة جلالته الملك نفسها مضطرة الى اتخاذ الوسائل للمحافظة على حقوقها ومصالحها وصيانة شرف الحكومة واعتبارها ، ويجب عدم الحوادث التي ستجئ وان كانت مؤلمة - نتيجة لسوء المسلك الذي سلكته الحكومة السلطانية منذ زمن بعيد - ، ولما كانت صلات الود والسلام قد انقطعت بهذه الصفة بين البلدين فحكومة ايطاليا تعد نفسها محاربة منذ الآن للحكومة العثمانية .

« ولذلك يتشرف موقعه أن يخبر فخامتكم أن أوراق اعتماد وكيل سفارة الدولة في روما قد سلمت اليه ويلتمس منكم تسليمه أوراق اعتماده بدون تأخير ، وقد كلفتني حكومة جلالته الملك أن أبلغ فخامتكم ان الرعايا العثمانيين يستطيعون البقاء في البلاد الايطالية مصنونة أملاكهم وأشخاصهم .

ج . دي مرتينسو

واستأذن في الاكتفاء بوجهتي الأستاذ أمين سعيد ، ود . محمد فؤاد شكرى في بدايات الحرب الايطالية الطرابلسية ونهايتها لأنهما يكملان بعضهما .

يقول الأستاذ أمين سعيد في ٣٠ سبتمبر ١٩١١ : ظهرت بوارج الأسطول الايطالي في مواجهة طرابلس ، وبدأت في ٣ أكتوبر تضرب قلاعها بالقنابل بعد أن رفضت طرابلس ونزلت بعض القوات الايطالية الى المدينة واستولت عليها بعد انسحاب القوات الحكومية المحلية . . كانت القوات الايطالية بقيادة الجنرال كاتيفا .

استولى الايطاليون على درنة يوم ٨ أكتوبر وعلى « خمس » يوم ٢٠ منه وعلى طبرق يوم ٢ نوفمبر وقد نجح الايطاليون في السيطرة على

الساحل من السلوم حتى حدود تونس لعدم وجود قوة بحرية تقاوم الغزو الايطالى .

دارت معركة عنيفة بين المجاهدين الليبيين وبين الايطاليين فى المنشية فى الجنوب الشرقى لمدينة طرابلس ونجح المجاهدون الليبيون فى الفتك بالقوة الايطالية ، فجن جنون الايطاليين وبعثوا بقوات جديدة نكلت بسكان المنشية وذبحت الشيوخ والأطفال وبقرت بطون النساء . وتكررت المعارك بين المجاهدين من أبناء طرابلس وبين الايطاليين فى بنغازى ودرنة وطبرق ، ونجح المجاهدون الليبيون فى وقف الزحف الايطالى .

وفكرت ايطاليا فى التأثير على الدولة العثمانية عن طريق آخر غير طريق الحرب فى طرابلس الغرب فبعثت جانبا من اسطولها لغزو السواحل العثمانية ورحبت الدولة الأوروبية بالغزو البحرى الايطالى لشواطئ الدولة العثمانية .

وبدأت الدول الأوروبية تضغط على تركيا (مارس ١٩١٢) لقبول الصلح ، وقد اتجه سفراء انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا الى وزير خارجية ايطاليا للبحث معه - مع المعتدى .!! - فى أمر الصلح ، وتفضل الوزير الايطالى فقبل الصلح مع تركيا اذا ما اعترفت بضم ليبيا اليها ، واسترداد جيوشها منها فى مقابل ان تتعهد ايطاليا بالتساهل مع تركيا فى الأمور المدنية والمالية وفى التعريف الجمركية وأن تعلن عفوا عاما وتوافق على ابقاء الامتيازات القنصلية فى الدولة العثمانية . وقد رفضت الآستانة - بالطبع - هذه الشروط المجحفة بالأترك .

وفى ١٩ ابريل ١٩١٢ حاول الأسطول الايطالى اقتحام الدردنيل والوصول الى الآستانة واحتلالها فردته القلاع العثمانية على عقبه ، وهاجم الأسطول الايطالى جزيرة رود ريوم ٥ مايو ١٩١٢ واستولى عليها كما استولى على الجزر النائية التابعة لتركيا وأعلن ضمها لايطاليا . وردت تركيا على ذلك بطرد الايطاليين الذين كانوا يعيشون فى دولة الخلافة .!!

كان موقف تركيا ضعيفا للغاية فيما يتعلق بالحرب فى طرابلس الغرب وبرقة ، وقد رحبت بمفاوضات صلح مع الايطاليين بدأت يوم ١٢ يوليو ١٩١٢ فى سويسرا ، واستمرت حتى سبتمبر بدون تقدم ، لتشهد الطرفين وانتهزت دول البلقان (اليونان - بلغاريا - صربيا - الجبل الأسود) فرصة ضعف الدولة العثمانية فعقدت حلفا لمهاجمة الولايات

المتحدة في مقدونيا (البلقان) وطرد الترك منها . . وأعلنت تلك الدول الحرب على الاسمتانة في ٥ أكتوبر ١٩١٢ فما كان من الحكومة العثمانية الا أن بعثت بتعليماتها الى مندوبيها في سويسرا بان ينهوا المسألة مع ايطاليا ويوقعوا معاهدة الصلح . وقد تم توقيع الصلح في ١٨ أكتوبر ١٩١٢ على ما سمي بمعاهدة أوشي .

ونستأذن في ان ننقل وجهة نظر الدكتور محمد فؤاد شكرى - وهو حجة في موضوع السنوسية والحرب الطرابلسية الايطالية وما جرى فيها - ونعتذر اذا أسرفنا في النقل ، فان المصادر العلمية الموثوق بها والخاصة بهذا الموضوع قليلة . . بل نادرة . وربما كانت المصادر الايطالية أكثر من المصادر العربية .

في البداية . . يقول د . محمد فؤاد شكرى ان الذى دفع ايطاليا الى الاسراع فى احتلال طرابلس الغرب ، رواج اشاعة بأن دولة ثالثة سوف تفيد من توسطها بين الأتراك والفرنسيين من أجل الوصول الى تسوية مسألة الحدود بين تونس وطرابلس بالطرق السلمية . وتفصيل ذلك ان تركيا وافقت على تشكيل لجنة فرنسية تركية لبحث هذه المسألة نتيجة لتوسط الحكومة الألمانية التى طمعت ان تنال مكافأة على توسطها واستخدام نشاطها فى مصلحة العثمانيين (مرسى طبرق) أو أى مرفأ آخر فى طرابلس الغرب يصلح لأن يكون محطة لتزويد السفن الألمانية بالفحم والوقود فى البحر الأبيض المتوسط ، فلمست ايطاليا فى ذلك خطرا يقضى على مصالحها ، وادعاءاتها فى طرابلس ، وقررت العمل فورا وقبل خروج هذه البلاد من دائرة نفوذها نهائيا ، وعندئذ أرسلت ايطاليا انذارها الى الباب العالى وحددت أربعاً وعشرين ساعة فقط للوصول جواب الباب العالى على هذا الانذار عن يد السفير العثمانى فى رومية (روما) .

ويتحدث الدكتور محمد فؤاد شكرى عن الجرائم العديدة التى ارتكبتها الايطاليون فى هذه الحملة ويركز على أشهر تلك الجرائم وأسوأها ذكرا ما فعله الايطاليون بأهل المنشية شرقى مدينة طرابلس فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١١ فقد أعمل الايطاليون فى الأهلىن السيف وأوقعوا بهم مجزرة كبيرة لم ينج منها طفل أو شيخ أو امرأة ، وأباح الجنرال كاتيفا قائد الحملة البلدة ثلاثة أيام لجنوده حتى يبيدو منها العرب . وامتدت فظائع الطليان الى غيرها وتعود الجند اطلاق الرصاص

عشنا ولهموا على الأهلين أينما صادفهم لا ينجو من أيديهم عربى ، حتى
ضجعت الانسانية من أعمالهم •

وعن موقف الأتراك يقول د • محمد فؤاد شكرى : لقد رأى الأتراك
انه لامناص لهم من القتال - بمجرد وقوع الحرب - فى النهاية من أجل
الدفاع عن القطر الذى أهمل أول الأمر منهم زمنا طويلا ، فقد شرعوا
يرسلون الى طرابلس الغرب نخبة من ضباطهم الترك والعرب لتنظيم
الدفاع ، فكان من بين هؤلاء أنور بك الذى تولى القيادة العامة فى برقة ،
ومصطفى كمال بك (كمال أتاتورك) كما تطوع عدد من الضباط والشبان
العرب الذين أنشأوا فى الأستانة بعد اعلان الدستور العثمانى الجمعيات
والنوادى السياسية لاعلاء شأن الأمة العربية فى نطاق الامبراطورية
العثمانية •

وكان من بين هؤلاء المتطوعين ، تحسين العسكرى الذى تخرج
ضابطا برتبة ملازم ثان فى مارس ١٩١٢ وعين فى الفيلق الأول فى
الاستانة ، ويقول تحسين بك العسكرى فى مذكراته « ولما شاهدنا
الاعتداءات المتوالية على البلدان العربية قائمة على قدم وساق فى الداخل
والخارج ، رأيت الشبيبة العربية وفى مقدمتها عزيز المصرى ان الفرصة
سائحة لها لارسالها من يمكنه التطوع من الضباط الى حرب طرابلس
الغرب لمساعدة الشيخ أحمد (الشريف) السنوسى رئيس القبائل
العربية الافريقية بمنطقة طرابلس الغرب وحته على تأسيس دولة عربية
هناك تحت لواء سيادته وعلان استقلالها لتكون أول دولة عربية مستقلة
فى افريقيا التى كانت ولا تزال تئن تحت نير المستعمرين ، فتطوع عزيز بك
المصرى وسافر متنكرا الى جهة طرابلس الغرب ، فعين قائدا لمنطقة
بنى غازى ، وحذا حذوه كثيرون من الضباط الطرابلسيين والسوريين
والعراقيين من جمعية العهد وهم : الملازم صبحى الطرابلسى ، والملازم
محمود حلمى ، والملازم السيد عيسى الوترى البغدادى ، والملازم
اسماعيل الطرابلسى ، وتطوعت أنا وغيرى من الضباط للالتحاق
بقوة بنغازى •

ومع هذا وقع عبء القتال ضد الطليان على كواهل المجاهدين
الأوائل الذين ظلوا حتى نهاية الحرب الليبية يصمدون للطليان فى كل
ميدان ومعركة ، وهم السنوسيون الذين تدفقوا من داخل البلاد زرافات

ووجدانا لمؤازرة الحاميات العثمانية الضعيفة في الشواطئ في برقة ثم
في طرابلس أيضا ، فنجحوا في احياء آمال القوات العثمانية النظامية
وفي امكان الدفاع عن البلاد بعد ان كاد التردد يفضي الى هزيمتها فانه
بمجرد ان بلغ استانبول خير الهجوم الايطالي على طرابلس أصدرت الوزارة
أوامرها الى نشأت بك الذي كان نائبا عن الوالي في حكومة البلاد بعد ان
سحبت وزارة حقي باشا والى طرابلس ، ونشبت الحرب قبل أن ترسل
لها غيره بأن يخلي طرابلس ويقاوم فقط خارج المدينة ثم ينسحب جنوبا
الى سهول غربان . وعندما وصلت هذه التعليمات عقد نشأت بك مجلسا
من الضباط الموجودين وثلاثة من زعماء العرب فقرروا جميعا ماعدا الضابط
التركي نظمي بك اخلاء المدينة فورا والانسحاب . فخرجت الحكومة من
طرابلس ومعها الجند بقيادة نشأت بك قاصدين جهات غربان « وكانوا
ينتظرون الأوامر من الباب العالي بالتسليم ، وكانت ايطاليا تنتظر ذلك
لعدم تصور العقل امكان أدنى مقاومة » . فلم يغير ذلك سوى قيام الزعماء
الطرابلسيين « يهددون العسكر المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال
ان لم يصل الطليان الحرب » .

ويقول د . محمد فؤاد شكرى :

دارت رحى الحرب في ميدانين : أحدهما في طرابلس والآخر
في برقة .

ففي طرابلس بدأت المقاومة ضد الطليان ، قبل اعتداءات هؤلاء
على ميناء طرابلس بمدة طويلة ، وكان مهد هذه الحركة في الخمس ،
عندما أخذ متصرفها العثماني الدكتور رشيد ينبه الأذهان الى حقيقة نوايا
الطليان ، ويحذر الوطنيين من نشاط (بنك دي رومه) ورغبة هذا البنك
في ان يوقع الأهلين في شرك الديون ، حتى يتخذ الطليان من ذلك
ذريعة لادعاء المحافظة على مصالحهم المالية في البلاد .

وكان أول من شعر بهذا الخطر المحدق بطرابلس أحد أبناء البلاد
الغيورين ، بشير بك السعداوى وكان وقتئذ رئيسا لكتاب مجلس الادارة
في الخمس ، ولقى معاونة كبيرة من الشيخ عبد الرحمن الزقلعي رئيس
كتاب المحكمة الشرعية ، وعمل الاثنان على تعطيل الجهود التي كان يبذلها
بنك دي رومه لشراء الأرض وأقراض الأهالي الأموال .

وعندما حضرت بعثة (سفوزا) ووصلت في تنقيبها عن الفوسفات
« ودراسة الآثار القديمة » الى مدينة خمس ، اشتدت حركة المقاومة في

الخمس ، بقيادة متصرفها بشير بك السعداوى والشيخ عبد الرحمن وغيرهما وقد اتفقوا جميعا على عقد مؤتمر يحضره مندوبون عن كل الأقسامية ، فى مصراته وسرت وزليتن ومسلاته وغيرها للاحتجاج على نشاط الطليان عموما ، وعندما انعقد هذا المؤتمر فى الخمس اتخذ الحاضرون عدة قرارات منها منع كل معاملة مع بنك دى رومه وبيع الأراضى لهذا البنك أو اقتراض الأموال منه . ولما كان لهذا البنك سفينة تحضر للعمل بالسواحل أكثر من مرة كل شهر فقد قرر المؤتمر مقاطعتها .

كما طلب الأعضاء أن يأتى بريد الاستانة على ظهر سفينة عثمانية بدلا من السفينة الإيطالية التى كانت تحضره فى العادة . ثم أبرق المجتمعون بهذه القرارات الى ابراهيم باشا والى طرابلس والى الصحف الأوروبية كالطان الفرنسية والتميس الإنجليزية . ثم طالب بشير بك واخوانه بتجنيد الطرابلسيين بكل سرعة واستبقاء الأسلحة بأيدي الأهلى حتى يكون لدى البلاد قوة كافية تستطيع الدفاع عنها . وكانت وزارة حقى باشا قد سحبت معظم القوات العسكرية من طرابلس بسبب ثورة اليمن وشرعت فى نزع الأسلحة من الأهلى . على أنه كان من أثر هذا النشاط الظاهر من جانب بشير السعداوى واخوانه الوطنيين فى الخمس ، أن صارت الإيطالية تخشى ذىوع حركة المقاومة ضدها . وبأدركت بالاعتداء المسلح على طرابلس قبل أن تستكمل البلاد استعدادها فكان إطلاق القذائف من بوارجها على ميناء طرابلس وغيره فى أكتوبر ١٩١١ دون أى إنذار سابق .

وكان من أثر اعتداء الطليان على طرابلس . ان زاد زعماء المقاومة فى الخمس ، اصرارا على الجهاد فقامت الاستعدادات فى كل مكان ، واتخذ بشير السعداوى (ساحل آل حامد) مركزا له يرسل منه الدعوة الى القبائل ويحثهم على الجهاد ، وذهب نوري بك السعداوى شقيقه ومعه الشيخ عبد الرحمن الزقلعى الى مسلاته لايصال الدعوة الى داخل البلاد .

احتشدت أعداد عظيمة عند الساحل ، وأنذر الطليان بشير بإطلاق القذائف على الخمس اذا امتنعت حكومتها عن التسليم ، وفى الموعد المضروب ، أطلقت مدافع الأسطول قنابلها على البلدة ، وحاول الطليان النزول الى البر ، ولكنهم عادوا ادراجهم ، وظلت المقاومة مدة أربعة أيام كاملة ، ثم استطاع الطليان النزول الى البر ، ومع ذلك فقد ثابر المجاهدون على القتال مع ضالة عددهم ، وعندئذ كانت قد تالفت جبهة للقتال فى موانى بنياوم برئاسة القائد العثماني نشأت بك ، الذى تولى القيادة فى ميدان طرابلس .

وكان أول ما فعله نشأت بك أن أخلى مدينة طرابلس ، فاحتلها
الطليان في في ٤ أكتوبر ١٩١١ ، ثم انسحب قاصدا غريان . وكان
انسحاب الأتراك أولا الى (قرقارش) الواقعة غربى مدينة طرابلس ، وفى
اليوم التالى وصلوا الى (عين زاره) فى الجنوب . ولما كانت مدافعهم من
النوع القديم والثقيل ويتعذر على الجنود أخذها معهم فقد تركوها وراءهم ،
واستولى عليها الطليان الذين بادروا باتخاذ مراكزهم فى خط من الخنادق
يمتد من القلعة السلطانية غربا الى القلعة الحميدية شرقا فى جبهة طولها
عشرة أميال تقريبا .

وحدث أول اشتباك بين الايطاليين والأتراك أمام (بومليانه) فى
أكتوبر ١٩١١ وكانت مناوشة صغيرة وأما العثمانيون فقد واصلوا
انسحابهم جنوبا الى (العزيزية) وعندئذ ظهر فى ميدان الجهاد زعيمان
من كبار زعماء الطرابلسيين ، كان لما أبدياه من الهممة والنشاط فى
استنفار العرب للجهاد الفضل فى وقف هذا الانسحاب نهائيا ، والتصميم
على القتال . وهذان الزعيمان كانا سليمان البارونى وفرحات بك .

على أن أهم الزعماء الذين ظهروا فى هذه الآونة فى طرابلس كان
بلا مرء الشيخ سليمان البارونى من أهل (فساطو) فى منطقة الجبل .
ولد فى سنة ١٨٧٠ وتلقى علومه فى تونس والجزائر ومصر وبينما كان فى
مصر التحق بجمعية سرية ثورية تعمل ضد السلطان عبد الحميد فوقفت
السلطات على حقيقة أمره وحكم عليه بالأشغال الشاقة مدى الحياة . وبعد
قليل صدر العفو عنه ، ولكن الجواسيس ظلوا يراقبونه فقبض عليه
ثانية وحكم عليه بالسجن عامين على أن يبقى بعد ذلك سنة أخرى تحت
المراقبة فى مدينة طرابلس .

وعندما وقع اعتداء الطليان على طرابلس كان البارونى يقضى عطلة
بين أهله وعشيرته فى فساطو واتصل البارونى فى الحال بقائد الحامية
نشأت بك ثم حضر بعد ذلك الى العزيزية على رأس خمسين شبيخا من
شيوخ الجبل فبحث الموقف مع نشأت بك ثم وعده بامداده بالمتطوعين
لمواصلة الحرب وعاد من فوره الى الجبل وحث حوالى الألف على الخروج
معه الى ميدان القتال .

ويطيل د . محمد فؤاد شكرى فى الحديث عن وقائع الحرب فى

كل الميادين مركزا على دور السنوسيين في القتال وعلى جرائم الايطاليين في تلك الحرب ، كما يشير الى المنشور (التاريخي) الذي شاء قائد الحملة كارلو كاتيفا أن يحذو فيه حذو نابليون بونابرت عندما جاء بجيوشه يغزو مصر في أواخر القرن الثامن عشر فقد أرسل كاتيفا منشورا باللغة العربية الى أبناء طرابلس على أثر احتلال جيشه لمدينتهم بداه :
بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليهم أجمعين . وراح كاتيفا يبرر حملته على طرابلس مؤكدا أنها كانت أمرا مقدرا من الأزل بإرادة المولى سبحانه وتعالى ومشيئته وان مقاومة الحملة الإيطالية معناه مخالفة هذه الإرادة الإلهية ، الى جانب تعهداته - تعهدات كاتيفا - التي لم يلتزم بها بطبيعة الحال ، ببسط الأمن والسلام ، وحفظ الأرواح والأعراض والأموال واحترام الدين العقيدة .

وكان من بين ما جاء في منشور كاتيفا . . أن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا (فكتور عمانويل الثالث) حماه الله لضعاف واستبعاد سكان طرابلس والقيروان والفران والبلاد الأخرى التابعة لها والتي توجد الآن تحت سيادة الأتراك ، بل لتعيد اليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم سواء كان الأتراك أو أى شخص كان يريد استرقاقهم . وعليه . . فأنتم ياسكان طرابلس والقيروان (؟) والفران والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل اليهم ان يقضوا بينكم بالعدل والرافة عملا بقوله تعالى « واذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » .

وطفق (كاتيفا) يعلم باحترام الشرائع الدينية والمدنية واحترام الأشخاص والأهلاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر ، كما ضمن لهم حرية العبادة وعدم ارغام أحد على الانخراط في سلك الجندية ، وتوعد بانزال العقوبة الصارمة بكل امرىء « لا يحترم الشرائع أو لا يعتبر الأشخاص ويمس النساء أو يخترق حرمة الملك أو يقاوم أو يشور على ارادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا الى هذه البلاد » .

ثم اختتم المنشور بقوله : « فياسكان طرابلس والقيروان والمقاطعات التابعة لها ، أذكروا أن الله قد قال في كتابه العزيز « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وقد جاء أيضا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .
وجاء أيضا « لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها
عبادى الصالحون » . أى الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد
وينشرون فيها العدل والعمران .

وجاء أيضا ، « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »
أى لا تفسدوا فى الأرض ان توليتم أمور الناس ولا تقاتلوا بعضكم بعضا ،
ان الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصممهم ويعمى أبصارهم ويستبدلهم
بغيرهم .

وجاء أيضا « اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك
ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل
شئ قدير » .

وجاء أيضا « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .
فارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضت ان تحتل ايطاليا هذه البلاد
لأنه لا يجرى فى ملكه الا ما يريد فهو مالك الملك وهو على كل شئ قدير
فمن أراد ان يظهر فى الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد
بتصرفاته فى ملكه الذى لا شريك له فيه فقد جمع الجهل بأنواعه وكان
من الممتريين .

وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الارادة
الربانية وأبرزته القدرة الالهية فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتیه من يشاء .
فايطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم اسلامية تحت حماية ايطاليا
وملكها المعظم ويخفق فوقها العلم المثلث الألوان « أبيض - وأحمر -
وأخضر » اشارة الى المحبة والايمان والعشم فى وجه الله » .

ولم ينفذ الايطاليون ما وعدوا به أهل طرابلس وبرقة ، لم يكونوا
رسل سلام وأمن واطمئنان كما قالوا وانما كانوا قتلة وسفاحين من طراز
لم يعرف فى تاريخ الحروب مثيلا له من قبل .

يقول د . فؤاد شكرى . . .

فقد ضرب الطليان بمدافعهم من البحر الموانى البرقاوية فى الوقت
الذى اعتدوا فيه على ميناء طرابلس الغرب ، والخمس واستطاعوا فى يوم
٢٤ أكتوبر ١٩١١ أن يحتلوا طبرق - أى قبل نزولهم فى طرابلس
بأسبوع تقريبا - ثم نزلوا فى درنة يوم ١٧ أكتوبر ، ونزلوا فى بنغازى

بعد ذلك بيومين . ومن أول الأمر قاومهم العرب مقاومة شديدة ، فالتحموا معهم في الليلة الثانية من نزولهم الى بنغازى وهزموهم فى محلة يقال لها الصابرى .

وأما العثمانيون والعرب فقد اتخذوا (الرجمة) مقرا لهم . وكان كذلك فى مقدمة الذين خفوا لنجدة العثمانيين والالتحام مع العدو فى برقة : السيد عمر المختار ، فقد كان رحمه الله يزور شيوخ السنوسية وزعيمهم السيد أحمد بالكفرة ، وفى أثناء رجوعه من هذه الزيارة الى زاويته (القصور) بلغه نبأ نزول الطليان فى بنغازى واحتلالهم لها ، وكان وقتئذ بواحة (جالو) ، فلم يلبث بمجرد وصوله الى (القصور) ان أمر قبيلة العبيد المنتسبة لزاوية القصور بالاستعداد للحرب ، ثم تبع السيد عمر بقية شيوخ الزوايا ، واستمر السنوسيون بقيادته بعد ذلك يضيقون الحناق على العدو وخصوصا عند (بنينه) حتى جاء أنور الى معسكر القيادة العامة فى درنة وعزيز بك المصرى الى بنغازى .

وقد اهتم أنور بك منذ وصوله الى برقة بالطواف بالقبائل وزيارة الزوايا السنوسية ودعوة الجميع للجهاد وذلك حتى يكتمل لديه جيش قوى يستطيع ان يدفع به غائلة الطليان .

وفى ٢٨ نوفمبر ١٩١١ رجع أنور بك الى معسكر درنة بعد ان جمع فى طوافه حوالى الخمسة آلاف مقاتل من العرب مشاة وفرسانا . كما أحضر معه الجند العثمانيين الذين كانوا متفرقين بالصحراء للمحافظة على الأمن وعددهم (٦٠) جنديا .

وقد استطاع أنور مناوشة العدو بنجاح طول شهر ديسمبر ١٩١١ وفى أواخر هذا الشهر استقدم (مدفعين) من بنغازى ، وفى ٢٧ و ٣١ التحم المجاهدون مع الطليان فى معركة كبيرة اشتركت فيها قبائل (الحسا) و (الدرسة) وعائلة منصور وقبيلة النواعر الى جانب الجند النظامى واستولوا على غنائم كثيرة . وقتل من الأعداء ما يزيد على الألف بينهم كثيرون من الضباط .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيرا خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة (الضبط) وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزموهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى ، وغنم العرب ١٣ بغلا موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهدا . وكانت هذه المعركة فى ٣١ ديسمبر ١٩١١ » .

ويقول د. محمد فؤاد شكري : ومن تاريخ هذه المعركة في الحقيقة
ازداد وفود العرب على معسكر درنة حتى قدرهم أحد المعاصرين الذين
اشتركوا في هذه الوقائع بتسعة عشر ألف مقاتل هذا عدا الأتراك المشاة
ورجال المدفعية وكانوا حوالى الخمسمائة .

وبعد حضور عزيز على بك المصرى قائدا لمنطقة بنغازى جرت وقائع
كثيرة ، فهاجم العرب على استحكام (شويليك) وقضوا على الحامية
الطليانية به (١٥ يناير ١٩١٢) .

وفى اليوم التالى هاجموا استحكام (الفويهات) . وفى ١٨ يناير
اشتبك المجاهدون مع العدو فى واقعة (الزريعة) واشترك الأسطول
الطليانى فى المعركة .

وفى ٢٢ فبراير هم العرب (السنوسيون دائما) على استحكامات
الطليان عند (اللثامة) وعندما حاول الطليان بعد أربعة أيام احتلال
(غريونس) على شاطئ البحر وزحفوا اليها من جهة استحكامهم فى
(شويليك) صدهم العرب عنها ولحقوا بهم الهزيمة . وفى ١٢ مارس
التحم الفريقان فى معركة (سوانى عبد الرانى) المشهورة عند الطليان
باسم معركة النخلتين .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « وفى ١٢ مارس جرت واقعة الفويهات
الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الفويهات والبركة
فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتى
مجاهد من العرب . وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد
هؤلاء العرب فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابل التى كانت تتساقط
كالطر من البر والبحر فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام
وعند ذلك نجا بعضهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول
النهار ، ويقال أنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين .

وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨
ضابطا برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من
هول تلك الواقعة ، وكانت هذه الواقعة قد شقت كثيرا على العرب وقامت
النوادر تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون امكان
نجدتهم . وبينما العرب فى مأثم على قتلاهم وردت برقية من أنور القائد
العام فى درنة الى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من
الآستانة عن برقية من برلين عن برقية من روما تفيد أن واقعة الفويهات

هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفا وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتل وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم » .

فى ١١ و ١٢ فبراير شن المجاهدون بقيادة أنور بك غارات ليلية على استحكامات الطليان فى (لبارديا) و (كابريا) ، وفى ٣ مارس وقعت معركة أخرى هامة فى (سيدى عبد الله) ثم استمرت المناوشات والمعارك الصغيرة الى نهاية مارس .

ويصف توزيع القوات العثمانية والعربية المجاهدة فى ميادين القتال فى هذه الآونة السيد تحسين العسكرى بك فيقول عن الوضع الحربى فى ٢٢ حزيران (يونية) سنة ١٩١٢ م - كانت جميع معسكرات الجيش العثمانى تبعد عن السواحل مسافات تتراوح من ١٥ كيلو مترا الى ٢٠ كيلو مترا نحو الجنوب ، وذلك لتكون مصونة من قنابل مدافع الصحراء الطويلة المدى ومدافع الأسطول الايطالى ، وأما الخطوط الأمامية فلم تبعد عن معسكرات العدو أكثر من ٥ كيلو مترات . وينقسم ميدان بنغازى الى ثلاث مناطق وكان قائدها العام المقدم ضابط الركن أنور بك وهى : - (المنطقة الأولى) : بنغازى بقيادة المقدم ضابط الركن عزيز على بك المصرى ، (المنطقة الثانية) درنة . بقيادة المقدم ضابط الركن مصطفى كمال بك (رئيس جمهورية تركيا الغازى مصطفى كمال باشا) ، (المنطقة الثالثة) طبرق : بقيادة ناظم بك ضابط الركن ، وكان الرئيس الأول وسليمان عسكرى بك رئيسا لضباط الركن فى بنغازى .

وعن حديث الصلح . . يقول د . محمد فؤاد شكرى : ان أهل برقة وأهل طرابلس قرروا المضى فى القتال ورفض الصلح . وقد أرسل سليمان البارونى برقية الى مجلس النواب العثمانى يعارض فيها باسمه وباسم اخوانه المجاهدين عقد أى صلح مع ايطاليا لا يكفل جلاءها عن البلاد البلاد التى أغارت عليها .

ولم تكن الحكومة التركية على استعداد لقبول فكرة الاستمرار فى القتال خاصة بعد أن نقلت ايطاليا الحرب الى الأراضى العثمانية ذاتها فقد حاول د . محمد فؤاد شكرى - الأسطول الايطالى فى شهر ابريل ١٩١٢ ان يقتحم مضيق الدردنيل ولكن نيران العثمانيين لم تلبث أن ردت الطليان على أعقابهم ، وعندئذ انصرف هؤلاء الى الهجوم على جزر الدود كاتيز فاحتلوا رودس وبقية الجزر القريبة منها فى مايو .

وساءت حالة الدولة وزادها سوءا وجود الانقسامات الداخلية
والمنازعات بين الائتلافيين من خصوم الوزارة والاتحاديين أنصارها وسقطت
وزارة حقي باشا و . . و . .

ووقعت الحكومة التركية على معاهدة أوشى دون أن تستشير زعماء
العرب ثم أرسلت نائبا للسلطان - الى طرابلس - شمس الدين باشا
الذى أظهر - فور تسلمه عمله - ميلا واضحا نحو ايطاليا حتى لقد راح
يدعو أهالى برقة وطرابلس الى القاء السلاح وقبول التعايش مع الايطاليين .

وقد أرسلت الحكومة التركية تعليماتها الى قواد الجيش فى برقة
وطرابلس حتى يكفوا عن القتال ويعودوا الى تركيا ، وقرر أنور عندما
اعتزم مغادرة البلاد تنفيذا لتعليمات حكومته أن يسلم القيادة العامة الى
عزيز على المصرى قائد منطقة بنغازى ، وأن يزور السيد أحمد الشريف
الذى انتقل عندئذ من الكفرة الى الجغبوب فأما تسليمهم القيادة العامة
لقائد آخر من الذين اشتركوا فى النضال ، فكان معناه أن (ممثل) الدولة
فى الأقطار الليبية ما كان يرى فى عقد الصلح سببا يدعو فى الحقيقة الى
وقف القتال فى ليبيا ، بل ان هناك من يقول ان أنور باشا عندما استقدم
اليه عزيز بك المصرى (وكان عزيز المصرى وقت نشوب الحرب الليبية -
الايطالية فى أرض اليمن) ، انما كان يريد ، اذا اضطرت الحكومة العثمانية
الى قبول الصلح مع ايطاليا فى آخر الأمر ، أن يبقى عزيز المصرى فى
الميدان لادارة الأعمال العسكرية ، ويدعو وجوده فى الوقت نفسه ، وهو
مصرى الجنسية الى اقبال مصر على مساعدة العرب الذين يتولى قيادتهم .
ومع أن مصر أقبلت بالفعل على مساعدة الطرابلسيين فى جهادهم مدفوعة
بعاطفة العروبة القومية ورغبة الانتصار للمظلوم على الظالم المعتدى ،
فقد تبدل موقف حكومتها بعد عقد الصلح ، بينما ظل عزيز المصرى يدير
دفة الحرب فى منطقته ويشجع أهل طرابلس المجاهدين بزعامة سليمان
البارونى على المقاومة حتى اضطر هو الآخر - أى عزيز المصرى - الى
الانسحاب من الأقطار الليبية .

وعلى كل حال فانه لما كانت رغبة الدولة واضحة عند عقد معاهدة
(أوشى) فى عدم التخلى عن ليبيا وكانت لا تزال مترددة فى خطتها وتريد
أن تستمر المقاومة ضد ايطاليا بزعامة السنوسية العتيدة فقد رأى أنور
باشا من واجبه زيارة أمير السنوسية لتبليغه ما صبح عليه عزم الخليفة

والسلطان العثماني . فقرر الذهاب الى الجغبوب ، وعلى ذلك استقل أنور باشا سيارته فى يوم ١٩ نوفمبر ١٩١٢ ، وكانت هذه أول سيارة دخلت الصحراء ، فبلغ الجغبوب فى اليوم التالى وقوبل بحفاوة عظيمة وكان السيد أحمد الشريف مع الاخوان وأهل جغبوب ينتظرونه للترحيب به خارج الزاوية . وأقام أنور فى ضيافة السيد ثلاثة أيام عاد بعدها الى فى معسكر درنة ثم غادرها بسيارته الى السلوم ومنها الى الاسكندرية ، ثم الى رومة متنكرا ومنها الى الآستانة كى ينظم جيوش الدولة استعدادا لحرب البلقان .

ولما كان السيد أحمد الشريف فى هذه المقابلة مع أنور قد وافق على تسليم القيادة العامة فى برقة الى عزيز المصرى بك ، فقد ذهب القائد الجديد الى الجغبوب حتى يشكر السيد على تعيينه ، وصحبه فى هذه الرحلة السيد عمر المختار .

وعلى ذلك لم يتوقف الجهاد ضد الايطاليين فى ليبيا على الرغم من توقيع تركيا معاهدة (أوشى) بل ظل يشرف عليه السيد أحمد الشريف ، ويقود عملياته العسكرية عزيز المصرى . وعبثا حاول الطليان أن يشنوا القائد العام الجديد عن مواصلة الكفاح عندما أبلغوه نبأ عقد الصايح ودعوه الى التسليم ، فقد أبى عزيز بك أن يسلم اليهم وقرر الجهاد الى النهاية ، وأظهر فى هذا الكفاح السيد عمر المختار بسالة نادرة ومقدرة كبيرة

وكان القتال فى هذه الآونة يدور فى ميدانين : طرابلس الغرب وبرقة . أما فى طرابلس فقد تطورت الحال بعد استسلام تركيا وقبولها الصلح فى (أوشى) ، وكان هذا التطور لمصلحة استئناف الجهاد بكل همة عندما عقد زعماء المجاهدين والوطنيين جملة اجتماعات فى لواء الجبل العربى ولواء فزان ورفله ، وقرروا الاستفادة من منشور السلطان الملحق بالمعاهدة ، والذى يقرر فيه السلطان « بما له من حق السيادة على سكان طرابلس الغرب وبرقة » منحهم « استقلالا داخليا مطلقا وتاما » . فاجتمعت كلمتهم على قبول هذا الفرمان والرضاء به ، وكلفوا الشيخ سليمان البارونى باعلان استقلالهم وتبليغه الى من يلزم التبليغ اليه ، وتولى سليمان البارونى رئاسة الحكومة وقام بتبليغ ذلك الى الدول والى شمس الدين باشا نائب السلطان فى طرابلس وأرسل وفدا الى أوروبا بغية الحصول على اعتراف الدول الأوروبية بالحكومة الجديدة ، ولكنه فوجئ بنائب السلطان ينقلب عليه مؤيدا الطليان .

وقد حاول البارونى التأكيد لنائب السلطان أن تشكيل الحكومة الجديدة لا ينفى الاعتراف به كنائب للسلطان فى بنغازى وطرابلس .

وقد حدثت اشتباكات مع الايطاليين فى معركة زنزور الثانية ، وبالرغم من استيلاء الايطاليين على غريان فان البارونى ظل يقاوم ويعمل على جمع كلمة العرب حوله وتأليف جيش كبير فى منطقة الجبل القريبة وقد خاض جيشه العديد من المعارك واحتل الايطاليون « اصابة » فى ٢٣ مارس ١٩١٣ كما احتلوا منطقة الجبل حتى « نالوت » والحدود التونسية ، ثم زحفوا بقواتهم على (واحة غدامس) فاحتلوها فى ابريل وعلى « مزده » فاحتلوها فى يوليو ، ثم جهز الطليان حملة لاحتلال « الفزان » وقد تم لهم ذلك بعد معارك قادها ضدهم محمد بن عبد الله فى سرير الشيب ، وشيده ، ومحروقه بين ١٠ ، ١٤ ديسمبر ١٩١٣ .

وأمام هذه الصعوبات ، وجد البارونى أنه من الأفضل اذا استطاع العمل على أن تنال طرابلس استقلالاً ادارياً وداخلياً تحت سيادة إيطاليا ، ولكن الايطاليين راحوا يساومون فى ذلك تراجع البارونى بقواته الى يفرن ، وبدأت المفاوضات بين البارونى والايطاليين التى فشلت بعد الانتصارات التى حققها الايطاليون . وكانت النتيجة عفوا أصدرته إيطاليا وانسحاب فريق من رجال البارونى الى بلادهم أو الى فزان لمواجهة العدو . ورحل البارونى الى الآستانة عن طريق مرسيليا فى أواخر عام ١٩١٣ .

وفى جهة برقة كان القتال بين الايطاليين والمجاهدين العرب عنيفا للغاية : فى ١٤ سبتمبر ١٩١٢ دارت معركة سيدى عبد الله الثانية ، وفى معركة قصر رأس اللبن (١٧ سبتمبر) انهزم أنور بك . كما انهزم أنور بك فى معركة سيدى عبد الله الثالثة فى ١٨ أكتوبر . وعندما تم صلح أوشى رأى أنور بك - فى البداية - أنه لن يقبله ، كما رأى أن ينسحب بقواته من برقة .

وبعد أن قرر أنور بك العودة أصر على أن يترك بالبلاد مقاومة منظمة ضد الايطاليين بقيادة عزيز على المصرى . وقد استأنف عزيز بك المصرى العمليات العسكرية بكل جد وهمة ، وقد اشترك السيد أحمد السنوسى مع قبائل العبيدات والبراعة ، والدرسة ، فى واقعة يوم الجمعة المشهورة القريبة من درنة وقد ارتد الايطاليون الى درنة .

وفى شهر مايو ١٩١٣ اشتبك الايطاليون والعرب فى معركة القيقب ومرسى سوسة أو « أبولونيا » واحتل الطليان القيقب فى ٢٦ مايو ثم زاوية

الفيدمه ثم البويرات خميس، ووقعت معارك فى تكنس وتلجازه الى أن
احتل الطليان الزاوية البيضاء .

فى ٢٧ سبتمبر وفى أكتوبر ١٩١٣ كانت معركة عين بوشمال . هذا
عن القتال فى برقة وما حولها .

بيد أن الصعوبات الشديدة سرعان ما أحاطت بالمجاهدين من كل
جانب لانقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر وغير ذلك . ثم د . محمد
فؤاد شكرى - بسبب ما نجم عن الضغط الشديد الذى استخدمته ايطاليا
على الدولة العثمانية حتى تأمر هذه الأخيرة ببقية القوات التى ظلت تحارب
فى برقة بالرغم من عقد الصلح وحتى تكف عن مساعدة المجاهدين اطلاقا .

أضف الى ذلك ما فعلته ايطاليا حتى تصرف الحكومة المصرية عن
امداد المجاهدين فى برقة بما يحتاجونه من أسلحة وذخائر ومؤن .

ونشير هنا الى ما ذكره بعض شهود العيان ، والى بعض ما نشرته
الصحف ، عن تلك المعارك التى خاضها المجاهدون العرب الأبرار ضد
الايطاليين المستعمرين الأشرار عن موقعة الغويهاة - مثلا - :

يقول الأمير شكيب أرسلان : « وفى ١٢ مارس جرت واقعة الغويهاة
الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الغويهاة والبركة
فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بالمائتى مجاهد
من العرب . وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد هؤلاء العرب
فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابل التى كانت تتساقط كالطر من البر
والبحر ، فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام . وعند ذلك
نجا معهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار . ويقال
أنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين . وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف
وخمسائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطا برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء
وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الواقعة . وكانت هذه الواقعة
قد شقت كثيرا على العرب . وقامت النوادب تندب لأولئك الأبطال الذين
حالت مدافع الطليان دون امكان نجدتهم . وبينما العرب فى مأتم على قتلهم
وردت برقية من أنور القائد العام الى درنة الى عزيز على المصرى قائد
مجاهدى بنى غازى عن برقية من الآستانة عن برقية من برلين من روما
تفيد أن واقعة الغويهاة هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا

فيها ألفا وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتل وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم » .

برقية بعث بها أنور بك نشرتها القومسيرية العثمانية في القاهرة جاء فيها :

نبشركم أنه في صباح (٣ ابريل) توجهت كتيبة من معسكرنا الذي في بنى غازى نحو حصون (الغويهاة) وأطلقت النار على حصن (لثامة) فقابلها بالمثل حاميته الايطالية المؤلفة من آلاى مشاة وبلوك مترليوز وبطارية مدفعية وكتيبة فرسان . ثم تقدمت هذه القوة الايطالية نحو كتيبتنا فاضطرتها الى التقهقر . ووجهت المدرعة الايطالية قنابل مدافعها الى الورا لتمنع المدد عن كتيبتنا . وفى الساعة السادسة - بالتوقيت العربى - نهارا تقدمت من الجبهة تحت قنابل المدافع قوة امداد عثمانية مؤلفة من جناح مشاة مهاجمين ومن كتيبة فرسان ومشاة فأجرت هذه القوة حركة احاطة عسكرية شتت جيش العدو وأجأته الى الفرار واستولت على ثلاثة مراكز للايطاليين الواحد بعد الآخر . وخسائر العدو ١٥٠ قتيلًا بينهم ٧ ضباط وغنمنا غنائم كثيرة . ويقدر عدد القنابل التى صرفها الايطاليون فى هذه الواقعة بأكثر من ألفين . الا أنهم بالرغم من ذلك لم يجهلونا غير شهيدين وستة جرحى . وخسائرنا هذه لا تعد شيئًا مذكورًا كافية للاستدلال على مبلغ القوة المعنوية فى نفوس العدو الذى تقدم اليها من حصونه فى سهل مستو ، لا تعترضه غير أكمام رملية صغيرة . وأصيب بجرح خفيف الملازم ابراهيم أفندى من ضباط الطابور الأول من الآلاى ١٢٤ الذى ثبت فى هذه الواقعة ثباتًا شريفًا .

أنور - درنة

ونختار برقيتين فقط مما نشرته المؤيد عن وقائع تلك الحرب : الأولى نشرت فى ٥ يونيو سنة ١٩١٣ وكانت عن معركة يقبى وقد جاء فيها :

فى هذه الأثناء خرج كثيرون من أهالى بنى غازى مولين وجوهم شطر الجيش العثماني المحيط بالبلد ومنذ ثلاث ليال توجهت منهم فرقة لمراقبة الطليان الأمامية فقتلوا أربعة عشر طليانيًا من السوارى . وأمس خرج طلياني مسلما نفسه للعرب وفهمنا منه ان كثيرين من

أخوانه كانوا على عزم التسليم • ومن جملة ما روى أن القتل الذي
وقعوا في آخر معركة كانوا نحو ٤٥٠ منهم ضابط برتبة كولونيل
وعدة ضباط ، وهو عدد يفوق كثيرا ما قدره البطل الباسل عزيز بك
قومندان جيش بني غازي • وقد نفى الطليان منصور أفندي الكخيا
والد عمر منصور باشا وأرسلوه الى إيطاليا •

والبرقية الثانية من مراسل المؤيد في بنغازي وكانت بتاريخ ١٥ يونيو
١٩١٢ وقد جاء فيها :

بني غازي : ١٢ يونيو يكثُر في هذه الأيام طيران الطيارات
الايطالية في جو ميدان القتال ولكن الخوف لا يزال الميزة الواضحة
التي يمتاز بها الطيارون الايطاليون •

تقابلت دورية عربية مع دورية الايطاليين في بساتين بني غازي •
وهناك تبادل الفريقان اطلاق الرصاص وكان العسكر العثماني قد
هيا قوة مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس على أمل أن الايطاليين يخرجون
من حصونهم لانجاد دوريتهم فيقع ما يرجوه العثمانيون من الاشتباك
مع الايطاليين بمعركة تستحق الذكر •

ولما وصل الثلاثة آلاف من الفرسان العثمانية الى محل الواقعة
رأوا أن الدورية الايطالية انهزمت الى الحصون والجيش الايطالي لم
يجسر على الخروج لا للدورية العثمانية ولا للفرسان الذين جاءوا
بعد • • وانتهت الحادثة بقتل بعض نفر من دورية الايطاليين
والضابط الذي يقودها كان في جملة القتلى •

ويشير داجو فون ميكوش - مؤرخ مصطفى كمال (أتا تورك) - الى
الحرب الايطالية الطرابلسية أكثر من مرة • ومرة يشير الى كلمة قالها أنور :
لقد تركتنا الدول الأوروبية وشأننا ، ويقول : ان مصطفى كمال سافر مع
بعض رفقائه الى طرابلس واضطروا للذهاب عن طريق مصر ، وكانت
انكلترا هي الحاكمة عليها ، فأرادت أن ترضى ايطاليا بملازمتها لخطّة
الحياذ التام • فاتخذت التدابير الشديدة لمنع مصطفى كمال ومن معه من
دخول البلاد •

ووصل مصطفى كمال وجماعته الى الاسكندرية فقبضت السلطات
على اثنين من رفقائه مع أنهما كانا متنكرين في ثياب بدوية •
وحاولت السلطات القبض على مصطفى كمال ولكنه استطاع الهرب

بفضل مساعدة ضابط مصري عرفه من شعره الأشقر وعينييه الزرقاوين
وبعض الأوصاف الأخرى التي كانت قد وصلته عنه .

وكان المصريون يعطفون على الأتراك عطفًا خاصًا ، ولهذا لم يستطع
الضابط تنفيذ الأوامر التي صدرت إليه ، وهربه بحيلة لطيفة ، فسافر
مصطفى إلى طرابلس الغرب التي طالما تمنى نفسه الذهاب إليها .

ووجد مصطفى نفسه في موقف يدعو لليأس ، فان القلاقل كانت
لا تزال مستمرة وقد أيقن أنه عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، وأنه قد
قطع كل علاقة بينه وبين السياسيين السابقين ، وان أعضاء تركيا الفتاة
لا يقربونه منهم لانتقاده الشديد لأعمال الشخصيات البارزة بينهم ، ولأنهم
كانوا يتركون القيادة لعدد كبير منهم كانوا لا يثقون به ولكنهم في الوقت
عينه كانوا لا يستطيعون جذبه اليهم . وكان هو من ناحيته لا يحاول
البروز في الطليعة ، بل كان يتعمد أن يكون دائما « في الذيل » . . أجل .
لم يرغب في منافستهم على مراكزهم التي كانوا يحتفظون بها احتفاظًا
شديدًا .

وأخذ مصطفى كمال يتمنى العودة لبلاده في أقصر وقت ممكن ،
ولكن الطريق المختصر كان موصدا ، ولهذا كان عليه ان يختار طريقا آخر .
وهكذا كان ، فوصل إلى إيطاليا ومنها إلى تركيا بعد أن بقى مدة طويلة
يتنقل في قطارات السكة الحديدية ، مارا في رحلته على النمسا ، فهنغاريا ،
فرومانيا .

ولما دخل استانبول في نهاية تشرين ثانى سنة ١٩١٢ ورأى أنه
قد تم انهزام الجيش العثماني في أسبوعين الأمر الذي أدهش العالم
بأسره ، كان « ناظم باشا » القائد العام للجيش التركي ، وزيرا للحربية
وكان في ذلك الحين في أوج مجده ، وكان يحاول تخليص أرض الآباء وأن
يتحدث الناس عنه انه القائد الحربى الذى انتشلها من ههتها ، ولكن
خدعة الحربية قد فشلت كلها ، وكانت نتيجتها ان اضطر الى الهرب والفرار
ووصل الأعداء الى أبواب العاصمة .

وكان الجوع يفتك بالأهلين أكثر من فتك الرصاص . . . !!! بينما
تقع استانبول الغنية بالخيرات على مقربة منهم . . . !! وكانت الكوليرا تحصد
الجماعات المتلاحمة حصدا . . . !!!

والتقى مصطفى كمال بأمه وشقيقته بين الفسارين من مقدونية

وسالونيك وقد عثر عليهما بعد بحث طويل واستطاع أن يضعهما في مكان حريز ، ثم تقدم مصطفى كمال الى شبه جزيرة غاليبولى وانضمت اليه عدة فرق جديدة كانت قد وصلت من الأناضول .

وكان « كامل باشا » رئيسا للحكومة فى ذلك الحين ، قد قارب التسعين ، وكان « الداماد فريد باشا » الذى أصبح فيما بعد عدوا للكمالين - لأول مرة فى تاريخ حياته - رئيسا لمجلس الشيوخ ، ينتصر للملكية ويدافع بحماس عنها ، وقد تلقى علومه فى اكسفورد ، ولا يختلف فى مظهره الخارجى عن « الجنىلمان » الانكليزى وفى الوقت عينه كان ينتظر معونة الانكليز ومساعدتهم ، ولكن أصدقاء الانكليز وجدوا أن آمالهم قد خابت .. !!

فقد طلبوا من تركيا - اذا استثنينا ركننا صغيرا فى شمال العاصمة - ترك أملاكها الواسعة فى البلقان كلها ، وأهم جزيرة فى بحر ايجه الواقعة أمام الدردنيل .

ولم يبق فى حيازة الأتراك من الأراضى الأوربية غير استانبول والمضائق .

وكان العالم العربى والاسلامى قد تأثر بتلك الحرب الى حد كبير ، وكانت ايطاليا قد حاولت فى البداية - فى أوروبا - أن تثيرها حربا صليبية لتجمع الدول الأوربية حولها ، وبالرغم من ادعاءات الايطاليين بأن تلك الحرب من جانبهم - ليست حربا دينية ، إلا أن كل تصرفاتهم فى تلك الحرب كانت تؤكد عكس ذلك تماما .. ونجحت ايطاليا الى حد كبير فى استنفار كثير من الدول المسيحية ، ضد دولة الخلافة الاسلامية حتى من كانت تتظاهر بأنها من حليقات تلك الدولة ، واستخدمت ايطاليا لاثارة الرأى العام الأوربى ، حملات عنيفة من بينها - مثلا - ان هناك فى برقة ، وطرابلس ، وبنغازى اضطهادا للمسيحيين ، كما هى الحال فى كل أنحاء الامبراطورية ، واستغلت ايطاليا مقتل بعض الرعايا الايطاليين (الأب غوسينيو ، ومارغاستون ، ونيرينى « ١٩٠٨ ») وادعت أن القضاء العثمانى يطيل أمد النظر فى القضايا الخاصة بمصرع أولئك (الضحايا) متعمدا بسبب سوء نوايا القضاة العثمانيين ، وقد أشارت بعض المذكرات الايطالية - التى كانت الصحف الايطالية والصحف الأوربية الكبرى تنشرها - الى ما سمي بقضية نرينى الذى قيل أنه انتحر ، ولم تأت الحكومة العثمانية بدليل على أنه انتحر ، والى ما قيل عن الاعتداء على

الصحفي الايطالى غوستا توارنيب ، والى اهانة « قنصولانو » ايطاليا عندما حاول التدخل لمنع ذلك الاعتداء .

كانت ايطاليا فى كل بياناتها - أو معظمها - وخاصة تلك الموجهة الى الشعوب الأوروبية تؤكد أنها تخوض حربا ضد التعصب الاسلامى ، ولذلك وجدت دولة الخلافة الاسلامية والبلدان الواقعة تحت أجنحتها أنها مواجهة بحرب صليبية شرسة .

ورغم وجود صراع قوميات فى تلك البلدان اتخذ شكلا عنيفا هدد العلاقة بين العرب والترك ، الا أن ذلك الصراع توقف فجأة وبدون اتفاق مسبق ، وحل محله ضرورة العمل على مقاومة الاحتلال الايطالى لتلك البلدان الاسلامية (بنغازى وبرقة وطرابلس) خاصة بعد ان ارتكب الايطاليون العديد من المجازر الوحشية التى لم يعرف لها العالم - كما سبق أن قلنا - مثيلا من قبل .

من بين مظاهر الوحدة العربية الاسلامية التى تجلت كرد فعل للحرب الايطالية الطرابلسية - مثلا - التلغراف الذى بعث به الامام يحيى - اليمن - الى الباب العالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، علمت أن بعض الأجانب يهاجمون الحديدة - وكانت السفن الايطالية قد هاجمت ميناء الحديدة اليمنى - لنقل المعركة من طرابلس الى اليمن . وطرابلس الغرب وانى مستعد للقيام بمائة ألف جندي تحت قيادتى بين محارب ومتطوع واننى أقدم نفسى فداء فى سبيل الله .

المتوكل على الله ، امام اليمن : يحيى

وقد كان فى تلك البرقية الكثير من المعانى الجليلة الجميلة التى تؤكد أننا وان اختلفنا بل وتحاربنا كمسلمين ، فائنا سرعان ما نلتقى ونتحدا فى مواجهة العدو المشترك .. عدو ديننا الحنيف .

وقد أرسل الامام « عبد العزيز بن سعود » أمين مقاطعة نجد تلغرافا الى الصدر الأعظم فى ١٥ أكتوبر ١٩١١ يقول فيه : ان صداقتى لمقام الخلافة العظمى ، وخدمتى للحكومة السنية معروفا لدى دولتك وعند رجال الحكومة وأن مقاطعة نجد تفتخر اليوم بكل جوارحها أنها مقاطعة عثمانية ، وقد بلغنا اعتداء الايطاليين الطغاة أعداء العثمانيين على تراب وطننا

العثماني الطاهر ، وأنا وجميع القبائل التي تحت أمري مستعدون
للزحف - في ظل الأعلام العثمانية - الى حيث تأمرنا الدولة العلية ،
وها نحن منتظرون هذه الأوامر بفارغ الصبر . . .

وقد كان صدى تلك الحرب في مصر ، مختلفا عنه في أية بقعة
اسلامية أخرى ، فالعلاقات التي تربط مصر بأبناء طرابلس الغرب وبرقة
وطرابلس أكثر من علاقات الاخوة والجزيرة . . ان معظم القبائل التي تقطن
تلك البلاد جذورها في مصر ، أو أن معظم القبائل التي تقطن مصر بصفة
عامة والصحراء الغربية بصفة خاصة جذورها في ليبيا ، وبمعنى أكثر
دقة ، أن أبناء برقة وطرابلس وبنغازي أو الكثيرين منهم لهم أقاربهم
في مصر ، بل أن جزءا كبيرا من أهليهم في مصر ، والعكس صحيح ، ثم
ان أي عدوان على ليبيا هو عدوان على مصر ، في نفس الوقت كما أن أي
عدوان على مصر ، هو عدوان على ليبيا . لقد سبق لي أن قلت أكثر من مرة
فيما كتبتة عن التاريخ المصري في أوائل القرن العشرين ، وفيما كتبتة
عن التاريخ الليبي في تلك الفترة بالذات . . بعد توقيع الاتفاق الودي
بين فرنسا وانجلترا ١٩٠٤ الذي تم بمقتضاه الاتفاق بين الدولتين الكبيرتين
(انجلترا وفرنسا) على اقتسام شمال أفريقية الذي كان خاضعا للحكم
التركي ، بحيث تكون تونس والجزائر والمغرب من نصيب فرنسا ومصر
من نصيب انجلترا ، وبعد الاتفاق بين الدولتين الأوربيتين (ايطاليا
وفرنسا) في مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦ على أن تطلق فرنسا يد ايطاليا في
ليبيا ، وتطلق ايطاليا يد فرنسا في الجزائر وتونس .

كانت مصر - رغم ما قاسته من الاحتلال العثماني - تقف الى جانب
تركيا في أية محنة تمر بها ، بل كانت مصر - وهي الدولة الفقيرة التي
يستغلها الاحتلال البريطاني الى آخر قطرة من دمها - تقدم كل ما تملك
من عون مادي وأدبي الى تركيا - دولة الخلافة - عندما تتعرض قواتها
المسلحة لأي عدوان من أية دولة استعمارية أوروبية .

ولن أنسى ما حييت عبارات عزيز على المصري ، وصالح حرب ،
ومحمود لبيب ، يرحمهم الله جميعا - ترن في أذني عندما كانوا يتحدثون
عن اشتراكهم في مقاومة الاستعمار الايطالي في ليبيا - برقة طرابلس
وعن التضحيات التي قدمها الشعب المصري للشعب الليبي وللقاتل
التركية التي كانت تحارب الاحتلال الايطالي في ليبيا .

لقد هاجمت ايطاليا الشعب الليبي الأعزل في ١٩١١ بمائتي ألف
جندي بالاضافة الى الاسطول الايطالي القوي ، ولم يكن عدد القوات

التركية المدافعة عن ليبيا يزيد عن ثلاثة آلاف جندي ، وقد دافعت تلك القوات التركية دفاعا مجيدا الى أن أوشكت ذخيرتها على النفاد فاعتصمت بالصحارى والجبال فى انتظار المدد الذى يأتىها من تركيا .

وقامت المظاهرات فى مصر تطوف بالشوارع والميادين ودور السفارات تعلن استنكارها للاستعمار الايطالى وتعلن وقوفها الى جانب الشعب الليبي الشقيق ، وخصصت الصحف المصرية كل صفحاتها من أجل استنهاض همم شعب مصر للمساهمة فى تخفيف ويلات الحرب عن الشعب الليبي ، وتكونت لجان قومية لجمع المساعدات المادية والعينية والذخيرة ، ونهض شعراء مصر - وكانوا فى ذلك الوقت سباقين للاشتراك فى كل معركة وطنية - يترنمون بالقصائد الوطنية الرائعة التى تؤيد شعب ليبيا فى نضاله ضد الاستعمار الايطالى . أذكر من بينها قصيدة لحافظ ابراهيم كان مطلعها :

طامع ألقى عن الغرب الثامنا فاستفق يشرق واحد أن تنامنا

وكان من بين أبيات حافظ : مخاطبا قائد قوات الغزو الايطالى :

**حاتم الطليان قد قلدتنا منة نذكرها عاما فعاما
أنت أهديت الينا عسدة وعتادا وشرابا وطعاما
وسلاحا كان فى أيديكمـو ذا كلال فغدا يفرى العظاما**

ومما كتبه الصاغ محمود لبيب فى مذكراته عن تلك الحرب : قام الحزب الوطنى فى هذه الآونة بالدور الأول فى اذكاء الحماسة والوطنية فى قلوب الشعب ، كما فتح رجالاته أبواب منازلهم يؤوون فيها قواد تركيا البواسل الذين بعثت بهم أمتهم الى ليبيا لتنظيم الجهاد ، ومواصلة القتال ضد المستعمرين الايطاليين لقد حضر مثلا القواد : أنور ، ومصطفى كمال (أتاتورك) ، وعصمت ، والضابطان الألمانىان فون جوتنبرج وفون بندنهايم ، وعزمى ، وجمال ، وغيرهم وغيرهم عن طريق الصحراء الشرقية واستقروا فى مصر فى بيوت هؤلاء الأحرار من رجالات الحزب الوطنى ، فنزل بعضهم ضيوفا مكرمين فى منازل أصهار الشيخ عبد العزيز جاويش ، كما نزل عاهل تركيا الخالد مصطفى كمال أتاتورك بعوامة محمد باشا يكن بواسطة حافظ رمضان وقد حفظ عاهل تركيا هذا الصنيع فى نفسه ، حتى اذا سافر حافظ باشا الى مقابله فى أنقرة رد الى مصر فى شخصه هذا الصنيع ، وكلف مندوبه عصمت اينونو فى مؤتمر لوزان بالاعتراف

الصريح بتنازل تركيا عن سيادتها الى شعب مصر ، لا انجلترا ، كما كان
يسمى الانجليز ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٣ .

ومما جاء فى مذكرات الصاغ محمود لبيب . أن أنور ومصطفى
كمال وعصمت اينونو والضابطان الألمان وغيرهم قد قضوا خفية أياما
فى لوكاندة عصفور على ضفاف الميناء الشرقية بالقرب من محكمة استئناف
الاسكندرية وأنه فى غرفة من غرف تلك اللوكاندة وضعت أهم خطة حربية
عرفها تاريخ المغرب العربى - خطة مقاومة الغزو الايطالى لليبيا - وان
المعتمد البريطانى فى مصر ، قد أصدر قرارا بتشديد العقوبة على من
تطاوعه نفسه ويعمل على تهريب أو مساعدة القواد الأتراك الذين نزلوا
بمصر أو يشترك فى تهريب السلاح أو الذخيرة الى ليبيا وان كل من يقبض
على واحد من قواد تركيا - وبالذات أنور باشا - يمنح على الفور خمسمائة
جنيه ذهبيا .!!

وقد روى لى الصاغ محمود لبيب : أن أنور باشا عندما بلغه ذلك
القرار قهقه ضاحكا ثم قال : لقد بخسونا حقنا ، خمسمائة جنيه فقط
ثمنا لكل رأس واحد منا ، لعنة الله عليهم .

وكان فى مقدمة الذين أبلوا بلاء حسنا فى مد يد المعونة للمجاهدين
العرب فى ليبيا الأمير عمر طوسون والشيخ على يوسف بالإضافة الى
الحزب الوطنى ، الذى حمل راية الجهاد ، ومن الأطباء الذين سافروا الى
الميدان وأبلوا بلاء حسنا ، د . حافظ عفيفى وزملاؤه .

وليس صحيحا أبدا أن الاحتلال البريطانى وقف موقف الحياد فى
تلك الحرب بالرغم مما أشاعه وأذاعه لورد كتشنر المعتمد البريطانى ،
ذلك ان الاحتلال البريطانى كان متعاطفا الى حد كبير مع الطليان وان لم
يفصح عن ذلك التعاطف ، حتى لا تشتد معارضة شعب مصر له ، وقد
رفض المعتمد البريطانى ارسال بعض أوطى من الجيش المصرى لمساعدة
الأتراك ، كما رفض انضمام بعض الضباط المصريين النظاميين الى الجيش
التركى وقد كان الاحتلال البريطانى يخشى من انتصار المجاهدين العرب
على الأتراك حتى لا يحرض ذلك المصريين على حمل السلاح ضد الاحتلال
البريطانى .

وكان موقف الشعب المصرى موقف المعاضد لتركيا ، فشكلت -
أحمد شفيق باشا - اللجان بكثير من أنحاء البلاد لجمع التبرعات للدولة
العلية ، وفى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١١ شكلت لجنة عليا برئاسة الأمير عمر
طوسن وبلغت قائمة التبرعات الأولى ١٦٩٢ جنيها والثانية ٣١٣٧ جنيها
ثم توالى التبرعات من جميع النواحي حتى بلغت أول يناير مبلغ ٨٥٤٦٨
جنيها ، أخذت تزداد كل يوم .

وتألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة الشيخ على يوسف وقررت
تأليف عدة مستشفيات ميدان ، وسافرت البعثة الأولى يوم ٧ نوفمبر
سنة ١٩١١ ، كما سافرت ثلاث بعثات يوم ١٤ ديسمبر ، وتوالى البعث
الطبية .

وفى ١٨ يناير سنة ١٩١٢ أعدت سوق خيرية فى حديقة الأزبكية
لقبول تبرعات المتبرعين للهلال الأحمر تحت رعاية دولة الوالدة ، وضربت
عليها السرايا والزينات البديعة وعرضت فى السوق معروضات من
بعض المحال التجارية وخصصت أرباحها للجمعية . وقد توالى التبرعات
بالخلى والجواهر والأواني الفضية والذهبية من أميرات البيت الحديوى
وزوجات الكبراء والعظماء وسواهم .

وقد كان الشعور لدى الأهالى بالغاء حد الانتباه لكل حركات
الحرب وتفصيلاتها ووردت الأنباء مبدئيا بانتصار الأتراك ، فقامت
مظاهرة ابتهاج فى الاسكندرية ، فعز ذلك على الجالية الايطالية فيها
فاشتبكت مع المتظاهرين وأطلق بعضهم عيارات نارية أصابت المصريين
وانتهى الحادث قبل استفحاله .

وكان اللجنة التنفيذية المنبثقة عن اللجنة العليا التى كانت برئاسة
الأمير عمر طوسن باشا قد عقدت اجتماعها الأول بمنزل شواربى باشا ،
وقد انتهلت عليها التبرعات من كل جانب وكان الحزب الوطنى قد شكل
بعثة طبية لمعاونة الجرحى من المجاهدين وقد أقيمت لهؤلاء الأطباء حفلة
وداع بفندق شبرد فى ٣ نوفمبر ١٩١١ ، وقد تحدث فى هذا الحفل محمد
فريد ، فندد بعدوان ايطاليا وتبعه عبد الملك حمزة ، وموقف الشيخ
عبد العزيز جاويش فارتجل كلمة بليغة ربط فيها بين عيد الأضحى
(١٣٢٩) الذى صادف حلوله الوقت الذى تقرر فيه سفر الوفد الطبى
الى ميدان القتال ، وبين التضحية التى يقدم عليها أطباؤنا لنجدة اخوانهم
فى حربهم ضد الدولة المعتدية .

وكان من بين ما قاله الشيخ عبد العزيز جاويش : يقولون ان
حضرات الأطباء سيغادرون بلادهم الى ساحة الشرف والمجد فى أيام العيد ،
مما يزيد فى مقدار التضحية التى يضجونها فى سبيل الانسانية ، وفى
سبيل الله ، ولكن أى عيد يجوز لنا ان نحتفل به وأن نفرح بقدومه ،
وبلادنا فى مشارق الأرض ومغاربها يتنازعها الأعداء ، فيما بينهم كما
تتنازع الوحوش فرائسها . . والله يا اخوانى اننى لم أسر
منذ فقهت ، بعيد من الأعياد ، ولم ألبس له جديدا ، ولا أخذت لموسم
ما يجب له من مراسم ، اعتقادا منى بأن المسلم ، وهو فرد من أمة مغلوبة
على أمرها ، بعد أن كانت هى الغالبة ، لا يدخل الفرحة الى قلبه الا فى
اليوم الذى تسترد فيه أمتة عزها السابق ، ومجدها القديم ، فاذا سافر
أطبائنا الى طرابلس وشساركوا اخوانهم من المجاهدين فى سبيل الله
للذود عن بيضة الوطن الاسلامى ، والدفاع عن حماء ، فذلك هو العيد
الذى يرتضيه كل مسلم ، فطوبى لمن لاحظته العناية فضررب فى هذا الجهاد
الاسلامى بسهم . . وقال : « هذه طرابلس أيها الاخوان ، من كان يؤمل
انها تقاوم تلك الجيوش الجرارة والأساطيل القوية ، وهى ولاية منعزلة
لا ماء فيها ولا زرع ، اذا لم يتشبع أهلها بتلك المبادئ السامية التى بشها
الاسلام فى بنيه من ايثار الموت على حياة الرق والعبودية ، والانضمام
تحت لواء واحد للدفاع عن بلد اسلامى ، يهاجمه عدو أجنبى ، لا يرعى
ذمما ، ولا يراعى للحق احتراما . »

والأمانة تقتضينا الاشارة ، بل الاشادة بموقف الشيخ عبد العزيز
جاويش وأخويه عبد اللطيف وأحمد فى مساعدة المجاهدين اللبيين - وان
كانت قد نشرت روايات كثيرة عن استفادة هذين الأخوين من عملية
المساعدة ، لم أتيقن - وقد بذلت جهدا كثيرا فى البحث وراء تلك
الروايات - من صدقها : كان عبد اللطيف جاويش على علاقة طيبة بل
وثيقة للغاية فى المنطقة التى تمتد من غرب الاسكندرية حتى بنغازى ، وقد
استغل عبد اللطيف وشقيقه أحمد تلك العلاقة فى تهريب الأسلحة الى
المجاهدين المقاتلين فى برقة وطرابلس وبنغازى . وقد ذكرت جريدة المؤيد
(١٥ ابريل ١٩١٤) أن أنور باشا أعطى عبد اللطيف جاويش تحويلا
للقومسيرية العثمانية بالقاهرة بمبلغ من المال لشراء ما يحتاج اليه
المجاهدون من مؤان وذخيرة .

ويقول محمد صالح فى كتابه عن المذكرات الحلمية فى الحرب

الطرابلسية ، أنه كانت لعبد اللطيف جاويش مكانة عند القادة العثمانيين ، وقد كان عبد اللطيف أحد أعضاء المجلس العسكري الذى حاكم بعض من قبض عليهم من الخونة الذين زودتهم ايطاليا بالمال لاغراء القبائل وحشهم على عدم المقاومة ، وقد كان عبد اللطيف جاويش مرافقا مستديما لأنور باشا فى الميدان لخبرته التامة بلهجة البدو وطباعهم وهو الذى كان يقوم بتوزيع ما يستولى عليه المجاهدون من المخازن التابعة لبنك دى روما وكان قد أنشئ فى عديد من مناطق طرابلس الغرب وبرقة لكى يفتح باب التعامل مع الأهالى ويقوم بالدور الذى قام به الصهيونيون فى فلسطين فيما بعد . . يحرض البنك الأهالى على التورط فى الاستدانة والتى كان يسهلها لهم ، وبعد ان يورطهم فى الديون يستولى على أراضيهم .

وعندما بدأت الحكومة المصرية بايعاز من قوات الاحتلال البريطانى تعمل على الحيلولة بين وصول المساعدات المصرية الى برقة وطرابلس وبنى غازى ، وعندما بدأت تمنع مرور المجاهدين المسلمين عبر أراضيها الى ميدان القتال فى ليبيا ، وصرح الشيخ عبد العزيز جاويش - وكان من غلاة المتحمسين للمساهمة فى تلك الحرب - لمجلة الهداية (يناير ١٩١٢) قائلا : أليس من المؤلم ان بلادا اسلامية كمصر تفصل بين ولايتى طرابلس الغرب وسورية تكون حجر عثرة فى سبيل وصول الامداد الى الغزاة المسلمين فى الأصقاع الطرابلسية كانما هى بلاد أجنبية ومسيحية معا لأنه لا يعقل أن بلادا اسلامية ذات حكومة اسلامية تكون حائلا دون وصول القوات العثمانية من الحدود السورية الى الحدود الطرابلسية ، ولكننا رأينا أنفسنا أمام حيدة غريبة مرت عليها فترة من الزمن كادت تنقلب الى شدة ، ومصادرة للحرية ويزج فيها قوم فى السجون ، ونفى آخرون لا ذنب عندهم سوى اتهامهم بايصال الامداد والذخائر الى المجاهدين فى طرابلس الغرب .

ومع ذلك وجد فى مصر من رفع شعار « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » ، وعن هذا الشعار قال د. محمد حسين هيكل فى مذكراته : فى صيف عام ١٩١١ وقع حادث دولى كان له فى مصر دوى عظيم ، وفى السياسة المصرية أثر بالغ . . فقد أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا فى برقة وفى طرابلس الغرب وكأننا يومئذ ولايتين تركيتين تحكمهما السلطة العثمانية حكما مباشرا ، ما عسى ان يكون موقف مصر من هذه الحرب ؟ انها داخلية فى نطاق السيادة التركية مع تمتعها بالاستقلال الداخلى : أتسير قواتها المسلحة الى جانب القوات التركية للدفاع عن هذا الجزء من

الامبراطورية العثمانية ؟ أم تقف على الحياد . انه ليس لها من وراء هذه الحرب مغنم ؟ واذا وقفت على الحياد وأرادت الجيوش العثمانية أن تمر بأراضيها . . فماذا يكون موقفها ؟ أتمنع هذه الجيوش من المرور بحجة حيادها حتى لا تتعرض لعمل عدائي من جانب إيطاليا . أم تقتضيها تبعيتها الاسمية للسلطان العثماني ان تفسح الطريق لهذه الجيوش من غير أن تخرج عن هذا الحياد ؟ وانجلترا ما موقفها وهي محبلة لمصر ؟ هل تسهل للجندود التركية المرور ، أم تقف في طريقها فتصددها ان هي حاولت هذا المرور ؟

كان موقف الحكومة المصرية في هذا الظرف الدقيق سلبيا صرفا : تركت الأمر لانجلترا ولمثلها في مصر لورد كتشنر تتصرف فيه السياسة البريطانية بما تشاء ، أما السياسة البريطانية في مصر فكان موقفها يومئذ عجيبا غاية العجب .

أبدى لورد كتشنر في وضوح وصراحة ان إيطاليا معتدية على تركيا من غير حق ، وقامت في مصر حركة لجمع التبرعات لتركيا ، اعانة لها على نفقات الحرب ، فشجع لورد كتشنر هذه الحركة وشارك بالتبرع .

وكان أمراء البيت العلوي على رأس الوفود التي تنتقل في الأقاليم لجمع التبرعات ، فكان هذا دافعا للناس على البذل بسخاء ولأنهم رأوا الحكومة لا تعارض وأمراء البيت المالك يشجعون ويتبرعون والمعتمد البريطاني نفسه يشجع ويشترك ، ولقيت الدعوة لمعاونة دولة الخلافة يومئذ آذانا صاغية من الجميع .

ويذكر د . هيكل : ان الأمير عمر طوسون ذهب مع الهيئة القائمة بجمع التبرعات الى المنصورة فجمع في أقل من نصف ساعة مائة ألف جنيه وستة آلاف ذهبيا . وحدث مثل هذا في غير الدقهلية من مديريات مصر ، والناس ينظرون الى موقف انجلترا من هذه الحركة دهشين ، كيف تشجع دولة اسلامية على دولة مسيحية ؟

على أن السياسة البريطانية لم تذهب الى أبعد من ذلك ، ولم تسمح بمرور الجيوش التركية من الأراضي المصرية محتجة في هذا وفي ذاك بأن مصر مستقلة داخليا عن تركيا ، فإذا اشتركت الحكومة المصرية في هذه الحرب لم يقف هذا الاشتراك عند الجنسية على استقلال مصر بل أدى بانجلترا - ولها في مصر مركزها الخاص بحكم الاحتلال - الى أن تتهم بالخروج عن الحياد وبالاشتراك في حرب ضد إيطاليا ليس له مسوغ .

بينما كان الناس فى الطفرة الأولى من هذا الاندفاع القوى لمعاونة دولة الخلافة اذا بلطفى بك السيد يطالبهم فى « الجريدة » بثلاث مقالات فى ثلاثة أيام متعاقبة عنوانها جميعا « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » يدعو فيها المصريين الى التزام الحياد المطلق فى هذه الحرب الايطالية التركية والا دفعوا بأموالهم أن تبعثر فى سبيل قل ما تفيد بلادهم منه ، ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الأموال لخير مصر ولانشاء المرافق المصرية النافعة لأبناء الوطن ، فلشد ما يحتاج أبناء مصر الى انشاء هذه المرافق ولشد ما تفتقر مصر الى الاصلاح .

أثارت - د . هيكل - هذه المقالات الثلاث على لطفى بك عاصفة هوجاء لا أقول من تقدير بل من طعن جارح . اتهمه بعضهم بمناوأة دولة الخلافة الاسلامية ، واتهمه آخرون بالالحاد . وحملت عليه الصحف على اختلاف ألوانها حملة شعواء .

ومع ايمان لطفى بك بهذا الرأى الذى أبداه ايمانا لا يتطرق اليه شك ومع ما عرف عنه من قوة الحجة وشدة المعارضة لم يستطع اقناع أصدقائه السياسيين من أعضاء حزب الأمة بمناصرته فى موقفه ، بل اندفع الحزب فى الطريق الذى اندفع فيه الرأى العام ، أو قل ما شئت ان الحزب خشى مواجهة الرأى العام فنكص ولم يؤازره واضطر لطفى بك الى الانسحاب من الميدان والى السفر الى برقين وترك الجريدة يتولى أمرها غيره من محرريها .

والجدير بالذكر أن د . هيكل بدأ يكتب فى الجريدة أثناء انقطاع لطفى بك عنها وذلك بعد أن اقترح ذلك عليه عمه صالح بك سالم هيكل وكان وقتئذ محررا بالجريدة وطلب من د . هيكل ان يراعى موقف الرأى العام .

وقد أيد هيكل فى مقالاته الافتتاحية (الجريدة) موقف الحياد الذى وقفته مصر وسخر من ايطاليا التى اعتبرت غزو برقة وطرابلس نزهة بحرية ، فلما نزلت الى الأرض لقيت من المقاومة ومن الهزائم ما جعل هذه النزهة وبالا عليها .

وقد نجح هيكل فى أن يرضى الرأى العام وينجى الجريدة من سخط الرأى العام من غير أن يخالف ما دعا اليه لطفى بك فى كثير ولا فى قليل .

ولابد فى رأينا - لكنى تكتمل صورة الحرب الايطالية الطرابلسية - من أن نشير الى موقف الحديو عباسي حلمي من تلك الحرب ، فبعد كان عباسي

حلمى واحدا من الحكام الذين عينتهم دولة الخلافة الاسلامية وكان عباس حلمى فى نفس الوقت الحاكم الشرعى لمصر الجارة الشقيقة لليبيا - طرابلس الغرب وبرقة - وكان اعتماد المجاهدين العرب على شعب مصر سواء فيما يتعلق بالسلام أو المؤن أو المتطوعين ، بالاضافة الى ما كانت تقدمه مصر من رعاية طبية للمجاهدين . . . وقد سبق ان اشرنا اشارة عابرة الى موقف بريطانيا - وبالتالى المعتمد البريطانى فى مصر ، أداة الاحتلال البريطانى بمصر - من تلك الحرب ، فقد كانت بريطانيا فى البداية - من الناحية الرسمية - تحاول الظهور بمظهر الحياد من الدولة العثمانية بينما كانت بريطانيا - قلبا ، وعملا - مع ايطاليا رغم ما بين الدولتين من خلافات واختلافات ، ولكن عندما يكون الخيار لبريطانيا بين مصلحة تركيا الدولة الشرقية الاسلامية ، وبين مصلحة ايطاليا الدولة الأوروبية المسيحية ، فان بريطانيا تختار - بدون تردد - أن تكون مع ايطاليا ، وقد كان المعتمد البريطانى فى مصر ينفذ سياسة بلاده : الحياد الاسمى ، بين الدولتين المتحاربتين ، الاكتفاء بالمساعدات الطبية والمالية - دون الأسلحة - التى يقدمها شعب مصر لأشقائه الليبيين ، ولكن عندما ظهر ان موقف الشعب المصرى من تدعيم المجاهدين العرب ، يمكن ان ينعكس آثاره على الداخل فى مصر ، فيتحول الى مقاومة للاحتلال البريطانى لمصر . وبعد توقيع معاهدة أوشى بين دولة الخلافة الاسلامية وبين ايطاليا ، واصدار الآستانة أوامرها الى قوادها فى طرابلس الغرب وبرقة بالانسحاب والعودة الى تركيا ، تغير موقف انجلترا - والمعتمد البريطانى فى مصر تبعا لذلك - من موقف الحياد الاسمى الى موقف المؤيد لايطاليا المعارض للمقاومة الليبية وبشدة .

وقد كانت تركيا - بسبب غياب الوعي السياسى ، عند بعض قياداتها - تعتقد ان انجلترا صديقة حميمة لها ، وقد أرسل السلطان رشاد أكبر أنجاله أحمد ضياء الدين أفندى ليكون فى استقبال ملك انجلترا وملكتها عند مرورهما ببورسعيد فى ١٩ نوفمبر ١٩١١ . وصلت الباخرة « عثمانية » تقل حضرة صاحب الدولة والنجابة أحمد ضياء الدين أفندى ومن معه ، وكان الحديو فى استقبالهم ، وكانت المدافع تطلق أجلالا وترحيبا ، وانتقل الوفد الشاهانى الى بورسعيد - فى اليوم التالى - بعد ان انضم اليهم الحديو والبرنس محمد على باشا واللورد كتشستر والسير ريجنالد ونجت سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان والسير جون مكسنويل قائد الحامية الانجليزية فى مصر ، ومحمد محمود سليمان بك محافظ القنال ، ووصل ملك انجلترا وملكتها فى مساء ٢٠ نوفمبر وتشرف

البلورد ككتشنر بمقابلتهما ثم نزل الخديو وضياء أفندى وضيائي أفندى مدير تشريفات الباب العالي والبرنس محمد علي باشا ، ومحمد سعيد باشا ، وحسين رشدى باشا فى زورق بخارى وصعدوا الى الباخرة التى تقل ملك بريطانيا وملكتها تحييم الفرقة الموسيقية بالسلام الخديوى أولا ثم بالسلام العثمانى ثانيا ، وبعد التعارف أبلغ ضياء الدين أفندى الى جلالة ملك بريطانيا تحية والده السلطان ، ثم قدم له مكتوبا رقيقا منه ، وتبادل الملك والملكة والخديو وولى العهد وككتشنر الغداء مع الملك والملكة ، ثم عاد الخديو وضيوفه الى القاهرة بينما واصل اليخت الملكى البريطانى اجتياز القناة تتبعه سفن الأسطول السائرة فى حراسته وعاد - كما يقول أحمد شفيق باشا - الوفد الشاهانى الى الآستانة .

وتفضل السلطان محمد الخامس فأهدى صورته الفوتوغرافية الى الخديو عباس حلمى ، وقد ازدانت الصورة باسم جلالتة مرقوما بالأماس على الطراز الكوفى الجميل ووضعت فى إطار بديع الصنع يعلوه التاج الشاهانى من الأماس والياقوت .

ومما يذكر ان ثابت بك «أثوابجى باشى» السلطان قد حاول أن يزوج ضياء الدين أفندى من احدى كريمات الخديو عباس حلمى ولم تنجح المحاولات لوجود ذرية لضياء الدين أفندى من محظية له .

تلك كانت « صور » العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وبين الخديو عباس حلمى الثانى أما العلاقات الفعلية ، فكانت ذات صورة مختلفة ... !!

عندما تأزم الموقف بالنسبة لتركيا فى الحرب الايطالية الحبشية راح السلطان يستعين بملوك أوروبا - وفى المقدمة ملك انجلترا - ولكن لا حياة لمن تنادى ، حتى امبراطور ألمانيا الذى كان متحمسا للموقف الى جانب تركيا ، وكان يبدى من العواطف الرقيقة لتركيا أكثر مما تبديه أية دولة حليفة ، لم يتحمس للموقف الى جانب تركيا ضد التدخل الايطالى : أليست تركيا دولة شرقية مسلمة ، وايطاليا دولة أوروبية مسيحية ؟

وعن موقف الادارة الانجليزية - فى مصر - أشارت انجلترا على مصر بأن يكون موقفها من تلك الحرب موقف الحياد الرسمى ، وقد أبدل - أحمد شفيق باشا - بالمأمورين المصريين فى الحدود الغربية بمأمورين انجليز ، ومنع أهالى المغرب من الدخول للأراضي المصرية ، وأعدت الزوراق

التابعة لمصلحة خفر السواحل لمراقبة الحدود الغربية والشرقية حتى قطعت التجارة الطرابلسية المصرية وردت كل قافلة تجارية آتية من تلك البلاد ، وعندما ذهب وفد من كبار المسلمين - أحمد شفيق باشا أيضا - الى اللورد كتشنر طالبين منه ارسال بعض أورط من الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، فأجابهم قائلا : هذه فكرة صائبة ولكن لما كان من الصعب أن نجد جنودا آخرين ليحلوا محل الجنود المطلوب سفرهم ، فاني سأضطر فى هذه الحالة لأن أطلب من حكومتى أن ترسل لمصر جنودا من الانجليز ، فانصرف الوفد دون الحاح .

وفى ذات يوم ذهب أيضا جماعة من الضباط المصريين وطلبوا منه السماح لهم بالتطوع فى الجيش التركى فقال لهم : لا أرى مانعا من أجابة هذا الطلب ، ولكننى أقول لكم مقدما بأنكم اذا سافرتم فمن الضرورى ملء مراكزكم فى الجيش بصغار الضباط فعند عودتكم تجدون أنفسكم بطبيعة الحال فى كشف الاستيذاء .

وجاء أيضا وفد من مشايخ العربان واستأذنوه فى جمع المتطوعين لكى ينضموا الى الجيش التركى فقال لهم انه يهنئهم على ما أظهروه من الشجاعة والبسالة بتقديم هذا الطلب ، ولكن من الحرام أن تفقد مصر رجلا مثلهم ذوى شجاعة وبسالة فان حكومة مصر ستضطر عند عودتهم ان تطبق عليهم قانون القرعة العسكرية المعافين منه الى الآن . وبعد المشاورة انصرفوا من عنده ولم يرجعوا اليه مرة ثانية ، وبذلك تخلص اللورد من اجابة هذه الطلبات تخلصا من مسئولية حياد مصر .

ويقول أحمد شفيق باشا - بصراحة - أن انجلترا ومعتمدها فى مصر ، رغم ادعاءات الحياد بين الدولة العثمانية وبين ايطاليا ، كانت تفعل كل ما من شأنه خدمة ايطاليا ، كما أن انجلترا - ومعتمدها فى مصر - لما تعمل عملا واحدا فى مصلحة دولة الخلافة العثمانية .

ومع موقف الحديو . . يقول أحمد شفيق باشا : راجت اشاعات من البرنس فؤاد باشا فى المسألة الطرابلسية تتلخص فى أن ملك ايطاليا وعده بامارة طرابلس بعد احتلالها ، وأنه بسبب هذا الوعد ، عمل على التقريب بين سمو الحديو وجلالة ملك ايطاليا فتمت زيارة الحديو لايطاليا فى العام الماضى يرافقه البرنس (فؤاد باشا) وقد رددت هذه الاشاعات بعض الصحف الفرنسية والألمانية ، فأرسل البرنس تكذيبات لها نشرت

فى ١٠ يناير ١٩١١ ، وقد سهل الحديو عباس حلمى فى أول الأمر ارسال الاعانات والبعثات ومنها ما كان يحمل مدافع مفككة وسلاحا وذخيرة ومؤونة بعد أن أرسل رشدى باشا الى كتشنر للتفاهم معه قبل منح التسهيلات اللازمة بدون مسئولية عليه أو على حكومته .

ولما توالى انتصارات الايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الحديو ، عاد فطلب من كتشنر بواسطة حسين رشدى باشا وقف المساعدات ، فامتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعد ما سمح بأرسالها أولا ، وانتهى الأمر بأن يقال ان البعوث الأخيرة ضلت الطريق وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى ، وأرسال الحديوى عبد الحميد بك شديدا ، للسيد ادريس السنوسى ليغريه بالاتفاق مع ايطاليا حسما للحرب على أن يسعى الحديوى فى الحصول له على امتياز من ايطاليا وتنصيبه على السنوسيين بدلا من عمه الشيخ أحمد السنوسى الكبير ، وفى نظير ذلك يتحصل سموه على وعد بمبيع سكة حديد مريوط لأحد بنوك ايطاليا بثمان يرضيه . ولكن المسامحة التى كان عباس يبذل الجهد فيها للوصول الى ذلك قد فشلت ، لأن كتشنر ضربها ضربة قاضية .

ويمضى أحمد شفيق باشا قائلا : لما توالى انتصارات الايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الحديوى عاد فطلب من كتشنر - بواسطة حسين رشدى باشا - وقف المساعدات وكان قد سمح بأرسالها أولا ، وانتهى الأمر بأن يقال ان البعوث الأخيرة - الخاصة بمساعدة المجاهدين - قد ضلت الطريق وقد منعت - أحمد شفيق باشا - مبعوث الهلال الأحمر العائد من الدخول الى مصر .

وللعلم ، فان كتشنر قد خشى - ومنذ بداية الحرب - من حرارة مشاعر المصريين تجاه اخوانهم الأتراك واللبين ، وقد أوعز الى الحكومة المصرية بأن توقف الصحف المصرية الحملة على ايطاليا ، وفى نوفمبر ١٩١١ أصدر وزير الداخلية محمد سعيد باشا بلاغا جاء فيه :

« تنشر بعض الجرائد عبارات عن الحرب بين الدولة العلية ، والحكومة الايطالية من شأنها تهيج الأفكار ، والقضاء النفرة بين سكان القطر والنازلين ، مما يترتب عليه تكدير النظام ، فلهذا استلقت أنظار حضرتكم الى اجتناب كل ما من شأنه تشويش الأفكار وتهيجها بالتشبت من صحة الأخبار قبل نشرها ، والاعتدال فى لهجة التعليق عليها وشرحها » .

محمد سعيد / ناظر الداخلية

وقد نشرت الصحف - كل الصحف - ذلك البلاغ فى ١٥ نوفمبر ١٩١١ وكان أول ضحية لذلك البلاغ بل ذلك الانذار صحيفة العلم اذ قررت وزارة الداخلية - فى ١٩ ديسمبر ١٩١١ تعطيل « العلم » ثلاثة أشهر لأنها - كما قال البلاغ الخاص بالتعطيل - سلكت مسلك الطعن فى الحكومة بما يحمل الناس على كراهيتها ولأنها نشرت - فى ١٨ ديسمبر ١٩١١ مقالة نسبت فيها الى الحكومة النكاية بتركيا فى الحرب الطرابلسية ، وانتقدت الاحتلال واتهمته بأنه أوعز الى الحكومة بالامتناع عن تبليغ البرقيات التى كانت القوة المحاربة فى طرابلس ترسلها الى الآستانة عن طريق مصر .

وكان أحمد شفيق باشا قد أشار الى اشاعة مؤداها أنه بعد عقد الصلح بين الأتراك والطلليان بثلاثة شهور - أى فى أوائل عام ١٩١٣ ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان أن الحديو باع سكة حديد مريوط الى بنك درسدن الألمانى ، ولكنه لم يلبث أن اتضح بعد ذلك ان عقد البيع قد أمضى فى الحقيقة مع بنك ايطالى . ورخص له الحديو بأن يمد هذا الخط الى نهاية حدود طرابلس فى السلوم . فأثار عقد هذه الصفقة اهتمام الانجليز ، وتدخل اللورد كتشنر فى الأمر « وهدد (عباسا) وأخرج مركزه » فاضطر الحديو الى العدول عن بيعها لاييطاليا ، والغى عقد البيع مع البنك الايطالى وباع السكة الى الحكومة المصرية .

وزيادة على ذلك فقد وسط الايطاليون (الحديو) أيضا حتى يقنع السنوسيين بضرورة الإخلاء الى السكينة ويجزل لهم الوعود الطيبة اذا هم قبلوا الأمر الواقع عن مواصلة الجهاد ، فقبل سموه الوساطة وأرسل الى السنوسيين وزعيمهم السيد أحمد الشريف بالجبل الأخضر فى أواسط عام ١٩١٣ وقد يتألف من السادة المأمون والسنوسى ومصطفى أنجال السيد عبد المتعال الادريسى ومعهم عبد الحميد بك شديد من رجال المال فى مصر ، يحملون كتابا خاصا من الحديو الى السيد أحمد الشريف ، فرجع الوفد الى القاهرة وأخفقت هذه الوساطة .

ونشير الى ما رواه الأمير شكيب أرسلان - وهو شاهد عيان - عن التحول الذى طرأ على موقف الحديو من الحرب الايطالية الطرابلسية بعد ما شاع ان الدولة العثمانية راغبة فى التساهل فى موضوع طرابلس الغرب وانها حريصة على تحقيق صلح مع ايطاليا .

وكان الأمير شكيب أرسلان قد بعث - من جنيف فى ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ - برسالة الى الشيخ محمد الأخضر العيساوي يشرح له فيها ما وقع

عندما قابل الخديوى فى أثناء سفره من طرابلس الغرب ومروره بمصر فى طريقه الى الآستانة للبحث فى مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة . وقد جاء فى رسالة الأمير شكيب . .

وعندما جئت من طرابلس الى مصر فى شهر أغسطس ١٩١٢ وذهبت من مصر الى الآستانة مسرعا كان السبب فى ذلك أنى علمت بأن الدولة قررت الصلح مع ايطالية فخفت ان تهمل طرابلس تماما فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفيفة عن يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد ولا تذهب طرابلس .

ولما وصلت الى السلوم قال لى رجال الحكومة المصرية هناك ، ان سمو الخديوى أرسل يسأل عنى وأمر بأن الباخرة التى تأتى الى مرسى السلوم تأخذنى وجماعتى الى الاسكندرية .

وانتظرتنى الباخرة فتأخرت عن الورود فرجعت بدونى . فبقيت سائرا حتى وصلت الى المكان الذى ينتهى فيه سكة الحديد خاصة الخديوى وكان يقال له رأس التركيب . فقالوا لى هناك أيضا ان الخديوى جاء بنفسه وسأل عنك وقد أمر أنك عند وصولك تعرض له . ففرحت أنا بهذه الأخبار ظانا ان الخديوى متشوق الى أخبار الجهاد يريد أن يعرفها منى فيلح فى وصولى . فلما وصلت الى الاسكندرية وجدت صديقى أحمد بك العريس البيروتى أحد أعوان الخديوى فى انتظارى ، فقال لى : ان أفندينا أرسلنى لاستقبالك ولأذهب بك الى سراى رأس التين لتنزل ضيفا عنده . فذهبت ودخلت عليه وأنا بثياب السفر بحسب ارادته ، وكنت أظن أن أول سؤاله يكون عن المجاهدين وحالة الجهاد ، وكان مرداى أن أقول له ان كل شىء جيد لولا قلة علف البواريد لعله يساعد بطريقة فنزريح هذه العلة . فما راعنى الا كون الخديوى سأل عن كل شىء ما عدا الجهاد . فبرد وجهى وخرجت منقبض الصدر وكاشفت أحمد العريس بما وجدته فى نفسى ، فقال لى اذا سألك أفندينا عن الحرب فلا تقل له انه يلزم جبخانة وانها قليلة . قلت له لماذا ؟ قال : يجوز ان أفندينا يقول ذلك لأحد بدون قصد فمن واحد الى آخر يصل الخبر الى الطليان . والحقيقة التى علمتها فيما بعد ان الخديوى كان اتفق مع ايطالية على أن يبيعها سكة حديد مريوط بثمان عظيم وبمقابلة ذلك يساعد على اخماد الحرب . ولكن أحمد العريس لم يكن يقدر ان يبوح بالسر وهو مسلم مخلص فنبهنى حتى لا أقول للخديوى أن المجاهدين فى احتياج الى الجبخانة . ثم كنا على الافطار لأن الوقت كان رمضان ، وكان على المائدة الخاصة بسمو الخديوى

بجانبه حسين باشا رشدي ، ثم قاضى مصر وكان تركيا ، وهذا العاجز والشيخ على يوسف . وكانت بقية الموائد مصفوفة وعليها مفطرون كثيرون . وبدأنا بالحديث على الأكل ، فقال الشيخ على يوسف : ان الدول قررت عدم اقراض مال لتركيا اذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع ايطاليا . فقلت له : ان تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظا لشرفها . فقال : ومن أين تأتي بالمال ؟ فقلت له : كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر والحال أن ايطاليا تنفق فى الشهر مليون جنيه . فقال الشيخ على : الا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة لتركيا كالمليون جنيه بالنسبة الى ايطاليا فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب . فقلت له : اذا عجزت الدولة فالعالم الاسلامى يقدر على مساعدة طرابلس . فقال : أما نحن أهالى مصر فلا نقدر - اذا - صالحت الدولة على طرابلس - أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين اذ يكونون حينئذ رعية نأثرين على ايطاليا » .

« هذا كله كان يقوله الشيخ على يوسف لا الخديوى . بل الخديوى كان سناكنا وقد علت وجهه الحمرة وفيما بعد فهمت أن الشيخ على كان مقصده بهذا الكلام التزلف للخديوى لأنه كان مطلعا على الدسياسة . فأنا لم أكن أعلم شيئا من هذه الدسياسة . ولم أكن لأبالي بها على فرضت أنى علمت بها . فلما سمعت جدال الشيخ على هذا غضبت ، وقلت له بحدة : لا تسامعوا أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم . فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوى وصار قاضى مصر يبتسم . وقمنا عن السفارة الى الصلاة ، فأخذنى الخديوى بيدي لأنه شعر بكونى تأثرت جدا ، وما زال حتى وصلنا الى السجادة الخاصة به فتنحى قليلا الى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعنى . وكل هذا يقصد به تلطيف خاطرى ، وأنا لا أعى من التأثير ، فلما بدأ الامام بالصلاة ولم يكن الامام حاضرا مجلسنا ولا سمع شيئا مما دار بينى وبين الشيخ على ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا) .

وقبل أن ننتقل الى آخر النقاط الهامة فى هذا الفصل نشير الى معاهدة « أوشى » التى سبق الحديث عنها . المعاهدة وقعت بين الحكومة العثمانية وبين ايطاليا فى أوشى (لوزان) بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩١٢ . وفيها تعهدت الدولتان - تركيا وايطاليا - بايقاف الحرب ، وبصفة خاصة تعهد الأتراك بأن يستقدموا ضباطهم وجنودهم وموظفيهم المدنيين من طرابلس .

ومن ملاحق معاهدة أوشى - ولها ثلاثة ملاحق - أن يمنح السلطان العثماني سكان طرابلس الغرب وبرقة ، بما له عليهم من حقوق السيادة ، استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً - ولست أدري كيف يمكن أن الاستقلال الداخلي مطلقاً وتاماً - وإن يعين ممثلاً في بلادهم يمنحه لقب نائب السلطان لحماية المصالح العثمانية ثم يحتفظ بحق تعيين القاضى الذى يتولى تعيين نائبين عنه من العلماء وأبناء البلاد حتى يقضوا بين الأهلى طبقاً لأصول الشريعة الغراء .

والملاحق الثانى من ملاحق معاهدة أوشى يتضمن منشوراً التزم به ملك إيطاليا موجهها الى سكان طرابلس الغرب ، وقد جاء فى مقدمة ذلك المنشور : عملاً بالقانون رقم ٣٨ الصادر فى يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ والذى يجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعاً تاماً مطلقاً للسيادة الملوكية الإيطالية ، ورغبة فى التعجيل بإعادة السلم الى هاتين المقاطعتين ، أصدرت الحكومة الإيطالية مرسوماً أهم ما فيه الى جانب العفو العام للطرابلسيين والبرقاويين وعد إيطاليا بالمحافظة على الشعائر الدينية الإسلامية ، بما فى ذلك ذكر اسم جلاله السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة .

وأما آخر الملاحق - الملاحق الثالث من معاهدة أوشى - فقد تعلق بمنح سكان جزيرة ايجة الذين اشتركوا فى الأعمال العدائية ضد العثمانيين فى أثناء الحرب عفواً عاماً .

وهكذا . . . أنهت تركيا العلاقة بينها وبين مقاطعتى طرابلس الغرب وبرقة بعد ان قدمتهما هدية متواضعة الى إيطاليا ، واحتفظت تركيا فقط بالدعاء للسلطان الأعظم على المنابر .

وقد حافظت تركيا على وعودها وعهودها فى تلك المعاهدة والتزمت بملاحقتها التزاماً تاماً ، بينما أجهضت إيطاليا تلك المعاهدة بعد دقائق من التوقيع عليها ، وبدأ العرب والمسلمون يتبينون وجه إيطاليا الاستعمار القبيح .

ولا يبقى أمامنا فى هذا الفصل سوى الإشارة الى أهم أحداث الحرب الطرابلسية الإيطالية ونعنى به انسحاب القائد العام لقوات المجاهدين عزيز على المصرى من ميدان القتال وعودته مع رجاله وأسلحتهم (الأتراك) الى تركيا .

وفى هذا المقام نعود الى ما كتبه د . محمد فؤاد شكري عن هذا الموضوع الهام . يقول د . شكري : بيد أن متاعب السنوسيين والمجاهدين فى أثناء هذا النضال ولم يكن مقدورا لها أن تنتهى عند ذلك ، فانه سرعان ما تعكرت العلاقات فى معسكر المجاهدين بين القائد العام (عزيز بك المصرى) وبين العرب ، ونجم عن ذلك حوادث يؤسف لوقوعها . فقد صادف أن جاء الحصاد فى عام ١٩١٣ فى أثناء اشتداد المقاومة ضد ايطاليا ، فاضطر أغلب المجاهدين العرب الى ترك الجيش والذهاب للحصاد فعلم الايطاليون بذلك ، وانتهزوا الفرصة للهجوم على الجيش على غرة ، ولم يكن وقتئذ (عزيز المصرى) موجودا ، فانسحب الجيش بمعداته الحربية الى معسكر درنة ، واشتبك عزيز المصرى مع الايطاليين فى معارك دامية وانتصر المجاهدون على العدو فى جملة وقائع ، وألحقوا به خسائر فادحة خصوصا عند قدوم السيد أحمد الشريف من الجغبوب ، وأخذ المجاهدون أسرى كثيرين بعثوا بهم الى (زاوية العزبات) لبعدها عن ميدان القتال . وأراد عزيز المصرى أن يطلق سراح بعض هؤلاء الأسرى فعارض السنوسيون وكان هذا مبدأ سوء التفاهم بينهم وبين عزيز بك المصرى ، وازداد سوء التفاهم هذا عندما وصلت الى عزيز المصرى بعد ذلك برقية من الحكومة العثمانية تأمره بالانسحاب بمن معه من الضباط والجنود من برقة الى السلوم . حيث يجدون فى انتظارهم باخرة عثمانية لنقلهم الى تركيا . فشرع عزيز المصرى يتجهز للانسحاب بما كان لديه من قوة وسلاح وذخيرة ، نحو الحدود المصرية . وكان غرضه من الانسحاب بجنده النظامى وأسلحته أن يكون مستعدا لمقابلة الطوارىء فى أثناء انسحابه الى السلوم .

ولكن هذا التصرف من جانب القائد العام لم ينل رضا المجاهدين الذين عولوا على مواصلة القتال ضد جند ايطاليا ، فسأهم أن يخرج عزيز المصرى بجنده النظامى ، وأن يحرم المجاهدون الأسلحة والذخائر الذين كانوا بحاجة شديدة اليها بسبب انقطاع الموارد عنهم . فطلبوا الى القائد المنسحب أن يسلمهم الأسلحة والذخيرة ولكنه رفض لأسباب منها - كما قيل - ان تسليم الأسلحة التى مع عسكره الى العرب لا تتفق مع الأصول الحربية التى تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا ألا يسلم العسكر العثماني أسلحته لأعداء ايطاليا ، زد على ذلك انه كان فيما يفعل يدعن للأوامر التى وصلتته من حكومة الآستانة . بيد أن ذلك كله لم يكن ليقتنع المجاهدين الذين عندما يئسوا من تسليم الأسلحة سلما ، أرسل السيد أحمد الشريف لأخذها عنوة السيد عمر المختار . ولكن قبل وصول السيد عمر كان المجاهدون من قبله قد أطلقوا الرصاص على الجند المنسحبين ، وكان هؤلاء قد خيموا فى (دفنه) غربى السلوم فصمدوا لهم ومن ثم

نشبت معركة حامية فسقط من العرب أكثر من الستين قتيلًا ، وتقاطرت
جموعهم من كل جهة بغية الانتقام من (عزيز المصرى) وعسكره فى
(دفنة) و (البطنان) وكاد يحدث التحام كبير ، لو أن (عزيز المصرى)
استطاع الوصول الى السلوم وفى ١٦ يولية ١٩١٣ بلغ الاسكندرية ومنها
ذهب الى الآستانة .

وهكذا أحاطت الصعوبات بالمجاهدين فى طرابلس وبرقة من كل
جانب . فانه الى جانب قطع الموارد عنهم من جهة تونس ومصر ، فقد
انسحبت القوة التركية العاملة فى برقة والجبل الأخضر بكامل معداتها ،
وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو . وفى هذه
الظروف الشديدة صمد السنوسيون فى وجه الطليان ، ثم أسندت قيادة
المجاهدين الى السيد عمر المختار ولم يتردد هذا المغوار فى قبولها فشكل
جيشا وطنيا جعل من خطته التزام الدفاع والتربص بالعدو حتى اذا خرج
الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شر مقتلة وغنموا
منهم أسلحا كثيرة أمدتهم فى الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب النقل
مما كانوا فى حاجة ملحة اليه جميعه) .

ولأهمية موضوع انسحاب عزيز على المصرى من طرابلس الغرب وبرقة ،
نفرد له الفصل التالى .

الفصل الثامن

لماذا انسحب عزيز على المصرى من الحرب

كانت جريدة الشعب - لسان حال الحزب الوطنى - أول من أثار ، وعلى نطاق واسع ، موضوع انسحاب عزيز على المصرى من ميدان القتال فى طرابلس الغرب وبرقة ، وكان ذلك فى مقال للأستاذ أمين الرافعى ، رئيس التحرير ، وقد أشار فى بداية مقاله الى أن البعض كان يرى أن عزيز بك ، ما كان له أن يعود من الميدان مهما تشددت تركيا فى أمر عودته . وكان عزيز على المصرى - فى رأى هذا البعض - يستطيع أن يكتفى بإرسال الجنود النظامية التى معه ويبقى هو مع العرب كما أشار أن البعض من رجال السياسة ، كان يذهب الى أن مصلحة تركيا تقضى عليها بأن يبقى عزيز بك وجنوده النظامية فى طرابلس لأن بقاءهم فيها يحمل الإيطاليين على ابقاء - بعض جزر البحر الأبيض المتوسط فى أيديهم وعدم قبولهم طرح مسئلتها على مؤتمر السفراء لأن المؤتمر اذا نظر فى أمر هذه الجزائر أيضا وقرر اعطاءها لليونان كان هذا بمثابة القاء إيطاليا سلاحها الذى تهدد به تركيا فتصبح هذه وقتئذ فى حل من مخالفة أحكام معاهدة أوشى المتعلقة بالنقطة التى نحن فى صدددها .

ولا يخفى أن الحكومة الإيطالية والرأى العام الإيطالى كانا يعارضان أشد المعارضة فى أن تكون الجزائر التى فى أيدي الإيطاليين من اختصاص مؤتمر السفراء .

ويشير الأستاذ أمين الرافعى فى مقاله الى منشور أذاعه الحزب الوطنى الإيطالى بخصوص الجزائر ، التى احتلتها إيطاليا وكانت تحت يد تركيا ، وكيف أن مسألة هذه الجزائر يجب أن تحل على قاعدة معاهدة أوشى وتبعا للمصالح الإيطالية بدون أن يسمح للدول الأجنبية الأخرى بالتدخل فيها ،

ويعتبر الحزب الوطني الايطالى أن تنازل ايطاليا عن الاثنتى عشرة جزيرة
يعتبر خطأ أكبر من الخطأ الذى ارتكبته بتنازلها عن كسلا لانجلترا .
ويقول الأستاذ أمين الرافعى معقبا على ذلك البيان : فمصلحة ايطاليا اذن
فى ابقاء هذه الجزائر فى يدها أى عدم طرحها على بساط البحث فى مؤتمر
لوندرة ما دام مثل عزيز بك وجنوده النظامية فى طرابلس أما اذا تركها
فهناك تعيدها لتركيا فيكون شأنها شأن بقية الجزائر محلا للبحث فى
مؤتمر السفراء .

وعلى ذلك يكون رأى القائل بأن تركيا هى التى أرغمت عزيز بك
على ترك طرابلس قبل أن ينتهى مؤتمر لندرة من مهمته قابلا لشكك عظيم
لأن هذا الارغام ليس فى مصلحتها كما بينا .

وهناك فريق يرى أن سفر عزيز بك كان نتيجة لمخابرات دارت بينه
وبين قائد الجيوش الايطالية فى درنة ولقد أشارت الطان فى ٢١ الجارى
الى ذلك حيث قالت ان مكتبها فى روما أرسل اليها تلغرافا قال فيه :
« انجلي الأتراك عن برقة حقيقة فمذ عدة أيام دارت مخابرات بين عزيز بك
القائد التركى لجنود البدو وبين الجنرال سلسا قائد درنة الايطالى بخصوص
سفر الضباط والجنود العثمانيين الذين فى برقة وقد نجحت المخابرات
ففى ١٨ الجارى ترك خمسون ضابطا و ٧٠٠ جندى تركى معسكر (بطانجى)
(كذا) تصحبهم قافلة كبيرة ووجهتهم السلوم ومنها يذهبون الى مصر
ليبحروا الى سوريا » .

ذلك ما قالته الطان فى سبب سفر عزيز بك وهو قول يجب ألا يتردد
الانسان فى تكذيبه لان العارفين لعزيز بك والمطلعين على جهاده هناك فى
هذه الحرب يرون فيه رجلا شريفا لا تؤثر فيه كلمات أعدائه الذين كان
يضحي بكل شئ فى سبيل مقاومتهم ولقد كان يحدث نفسه بالاستمرار على
محاربتهم الى الأبد فغير معقول أن يعود ويمد يده الى واحد منهم . . !!
ولا نظن أن هذه الاشاعة تجد مجالا للذئوع . .

ويقول فريق ثالث . . ان عزيز بك رأى نفسه غير مسموع الكلمة
ووجد أن عدم تنفيذ بعض أوامره يجعل موقفه الحربى حرجا فلم يجد مندوحة
عن الرحيل لاعتقاده ان استمرار هذه الحال تحول بينه وبين القيام بمهمته
ويفسر أصحاب هذا رأى رأيهم بقولهم : ان عزيز بك وجد بين العرب
بعضا من الخونة الذين كانوا عيونا للايطاليين وقد أثبت ذلك عليهم ،

فلما أراد معاملتهم بما تقتضيه القوانين العسكرية حيل بينه وبين ذلك وقد تكررت معه هذه الحوادث فمن ذلك ان الجنود الامامية التي كانت في بنغازي ضبطلت مرة رجلا عربيا آتيا من المدينة « بنى غازى » فقادته الى عزيز بك فوجد معه جوابا من القائد الايطالى يوصى فيه حراس المدينة بأن يتركوا هذا الرجل يمر دون أن يلحقوا به أذى لعلاقته بالايطاليين .

وعلم فى الوقت نفسه ان لهذا الرجل علاقة بالخائن الذى أدخل الايطاليين مصرطله بدون مقاومة فلم يجد عزيز بك بدا من الحكم عليه بالاعدام . ولكنه لم ينفذه فى الحال بل أبقاه ثلاثة أيام فى احدى الخيم تمكن فيها كثير من العرب من تهريبه فأهاجت هذه الحادثة عزيز بك الى درجة أنه قرر مغادرة ميدان القتال لولا ما بذل وقتئذ من المساعى التى حملته على العدول عن رأيه .

ولا يبعد أن يكون تكرار هذه الحوادث ذات النتائج الخطرة مما حمل عزيز بك على السفر لا سيما وقد سمع أنه طالما سعى فى اقناع العرب بخيانة رجل كبير من بينهم وكثرة تردده على ايطاليا فلم يقبل العرب أن يسمعوا لهذا الكلام لاعتقادهم ان ذلك الرجل ما كان يذهب الى ايطاليا وانما كان يذهب الى المدينة المنورة كما كان يشيع عن نفسه .

وشاع أيضا أخيرا أن رجلا آخر ذا شأن بين العرب ضبطلت معه رسائل تفيد أنه يستطيع أن يحمل العرب على مسالمة الطليان اذا دفعوا اليه مالا طائلا ولا بد أن يكون عزيز بك - اذا صحت هذه الاشاعة - قد طلب اعدام هذا الرجل فلم يسمع له العرب أيضا لما لذلك الرجل من المكانة الكبيرة لديهم فاحتدم الخلاف بين الفريقين حتى أدى الى ما رأيناه .

وقصارى القول أن الأقوال متضاربة والاشاعات مختلفة فمنها ما لا يمكن الانسان الجزم بصحته ومنها ما يحتمل الشك ومنها ما يقتضى التكذيب .

والذى يهمنا الآن ألا يكون لسفر عزيز بك وجنوده تأثير فى مقاومة العرب وأن يظلوا على جهادهم تحت قيادة السيد السنوسى مستبسلين فى الدفاع عن وطنهم ودينهم مستمعين لصوت الله ولصوت الواجب والضمير لان البلاد بلادهم وهم أول المطالبين بالدفاع عنها وعلى العالم الاسلامى أن يشد أزرهم بالمال والرجال ما استطاع الى ذلك سبيلا .

واذا كان ينقص قوة المجاهدين ضباط يحسنون قيادة هذه القوة فبين المسلمين من يستطيع القيام بهذه المهمة فيبادر بالانضمام اليهم قياما بواجب مقدس هو الدفاع عن وطن اسلامي لا يجوز أن يتحكم فيه الأعداء أو يستولوا عليه لقمة سائغة .

وفق الله الغيورين على دينهم الى القيام بهذه المهمة الشريفة .
ويعود الأستاذ أمين الرافعي - في الشعب أيضا وبتاريخ ٣٠ يونيو ١٩١٣ - الى الحديث عن موضوع عودة عزيز بك .
وقد قدم أمين بك المقالة الثانية تلك بقوله : ان هناك أنباء جديدة قد تواترت وأنه لم ير بدا من ايرادها لان فيها شرحا وافيا لما ذهب فيه الناس مذاهب مختلفة .

وكان الرافعي قد قال - في مقدمة مقاله أيضا : سيري القاريء ان مصائبنا ليست الا من أنفسنا وان داءنا فينا ، فاذا ظلمنا على هذه الحال بقي مستقبلنا مظلم لان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . .
الى أن يقول : لقد مرت على المسلمين أجيال عديدة كانوا فيها خاضعين لسنة واحدة ولقاعدة واحدة ففي أدوار نهضتهم ، كنت تراهم متحدين ، يخلص بعضهم لبعض ولا يركن أحد منهم للأجنبي فاذا تنكبوا هذا السبيل وولجوا سبيلا غيره تمكن منهم الأجنبي ونال منهم بأيديهم ما لم يكن يحلم به لو بقيت كلمتهم متحدة لا يمد جماعة منهم أيديهم للعدو الواقف على الأبواب . . !!

قلب صحف التاريخ وتنقل دولة فدولة وعصرا فعصرا نر أن أعداء الاسلام ما أفلحوا في مناهضة المسلمين بأنفسهم وانما أفلحوا باستخدام الخائنين منا البائعين دينهم بدنياتهم والذين يشترون الضلالة بالهدى والعاجلة بالآجلة .

هاجم الايطاليون طرابلس على غرة من أهلها ومن الحكومة العثمانية فظنوا أنهم لا يلبثون يوما أو بعض يوم حتى يستولوا عليها ولكن اتحاد كلمة المسلمين أراهم كذب ظنهم فقاومت هذه الولاية مقاومة أكبرت أوروبا من شأنها وخلدت لها في بطون التاريخ صحفا بيضاء تحسدها عليها كثير من الأمم القوية ذات الأساطيل الضخمة والجيش الجرارة .

عجزت ايطاليا عن أن تنال بغيتها من هذه الولاية ولم تفدها مخترعاتها

الحديثة ولا جيوشها النظامية ولا أسلحتها الفتاكة فلجأت الى موضع الضعف في أعدائها الذي كان ولا يزال سببا في تدمير الممالك الاسلامية الواحدة تلو الأخرى ، لجأت الى المال تشتري به نفوس الخونة ، وقد وجدت في شيخ زاوية طلميته (وهو الشيخ التواتي الكابلي) أكبر نصير لها في تحقيق رغبتها .

وطلميته هذه هي ميناء جهة « المرج » التي كانت تعد بالنسبة للايطاليين أصعب منالا لهم من « عدوة » .

ولقد شعر عزيز بك المصري منذ زمن طويل ما طويت عليه نفس شيخ هذه الزاوية فأبعده عن ميناء طلميته ووضعه تحت المراقبة الشديدة ولكن هذا الشيخ تمكن بدهائه من مساعدة الايطاليين وكان يعاونه في ذلك أخوه الشيخ عبد الله وآخر اسمه الشيخ بشير بوكتف وبفضل هؤلاء وأتباعهم أخذ الايطاليون يتقدمون الى الأمام فلما بلغ عزيز بك أنباء هذه الخيانة قدم من معسكر بني غازي الى جهة المرج وجمع مشايخ القبائل وخطب فيهم مقبحا عمل الشيخ التواتي مشجعا اياهم على الدفاع عن بلادهم حتى يفشل تدبير الخائنين .

وبينما عزيز بك يعد للدفاع عدته اتصل به نبأ هجوم الايطاليين على جيش بني غازي المعسكر في عزيزية فبادر بالتوجه الى تلك الجهة حتى اذا أدرك في طريقه جهة تسمى (الأبيار) وجد ان الخونة نجحوا في ارتكاب جريمتهم اذ رأى القوة المجاهدة متقهقرة منهزمة فما زال بها حتى تمكن من ردها مرة ثانية حتى وصل الى قمة جبل تسمى (الرجمة) وهي تبعد مسافة ساعة من موقع العرب القديم ومسافة ست ساعات من (الأبيار) التي كانوا ارتدوا اليها أي ان عزيز بك تمكن من التقدم بالجنود الى الأمام مسافة ست ساعات وهناك حدثت الموقعة التي انتصر فيها المجاهدون بقيادة عزيز بك .

وعقب ذلك انتقل الأخير الى زاوية القصور عملا بخطة حربية رسمها لنفسه وشيخ هذه الزاوية من السنوسية ويدعى سيدي عمر المختار وهو من الرجال العاملين اشتهر بشجاعته ووطنيته وتمسكه بدينه وقد نصح لعزيز بك بعدم الثقة بمن في هذه الجهة من مشايخ القبائل وعلى أثر ذلك انتقل القائد الى موقع القيقب (الجيجب) بصحبة ذلك الشيخ وعلى بك عبيدة قائم مقام المرج حتى وصلوا الى (مراوة) وطن قبيلة البراعصة ونزلوا

عند شيخ تلك القبيلة ابتغاء نفوذه لتشجيع العرب على المقاومة والدفاع
عن هذا الموقع لما له من الأهمية ولكونه طريق الطليان الى داخلية البلاد .

ثم رأى عزيز بك بعد أن تعذر عليه تكوين جيش للدفاع عن تلك
الجهة أن يرجع الى معسكر درنة خشية أن يستولى عليه الطليان في غيبته
فيقضوا على حركة المقاومة القضاء الأخير .

وقد كان من وراء خلو الجو للايطاليين ومساعدة بعض الخونة لهم
أن تمكنوا من التقدم الى المرج ثم الى (مراوة) ومنها الى (تكنس)
و (سيره) و (سلنطه) و (شحات) و (سوسه) .

استولى الايطاليون على هذه المواقع بغير مقاومة فاستولوا بذلك على
نصف دائرة من داخلية البلاد يبتدىء طرفها الأول عند جهة المرج (التي
خرجوا منها بمساعدة شيخ زاوية الطلميته الذي أتينا على ذكره آنفا)
وينتهي عند سوسه .

وفي تلك الأثناء وصل سيدى أحمد الشريف السنوسى الى ميدان
القتال فكان ذلك سببا في تشجيع العرب فوقعت تلك الموقعة المشهورة
(بواقعة الجمعة) التي اعترف الايطاليون بخذلانهم فيها ، وكان لعزيز بك
يد طولى في ذلك الانتصار الذى انتهى بغنيمة أربعة مدافع وعدد كبير من
البنادق والذخائر حتى كان العربى يعود من ميدان القتال وهو حامل عشر
بنادق . وقد بلغ عدد أسرى الطليان ٢٣ بينهم ضابط واحد فأرسلوا الى
زاوية العزيات بناء على اتفاق بين عزيز بك والسيد السنوسى .

ولقد كانت خيانة شيخ زاوية الطلميته وما أدت اليه هذه الخيانة
من الجنايات الكبرى باعثا لعزيز بك على التشدد فى مراقبة مشايخ الزوايا
الآخرين فطلب من سيدى أحمد الشريف السنوسى أن يخوله سلطة عزل
وتعيين من يريد من هؤلاء المشايخ فقبل السيد السنوسى ذلك .

فساء المشايخ هذا الأمر وحقد بعضهم على عزيز بك ووجد جواسيس
الطليان من العرب والراغبون فى ايقاع النفرة بين القلوب مجالا لدسائسهم
وسعايتهم فنجحوا لسوء الحظ اذ ساعدتهم الظروف على ذلك .

بدأت حوادث سوء التفاهم من يوم أن انتقل السيد السنوسى الى
جهة (بشارة) وتفصيل ذلك أن القائد عزيز بك لما لحقه للتشاور معه
وكل أمر القيادة بالنيابة عنه فى معسكر درنة الى ضابط اسمه صالح
أفندى .

فما لبث هذا الضابط في مركزه قليلا حتى أصدر الأوامر بالتفقهق من موقع المعسكر والاتجاه الى (بشارة) فلم يقبل العرب ذلك فقال لهم ان عزيز بك هو الذي أوعز اليه تلغرافيا بهذا الأمر فهاج المجاهدون لذلك وبدأ الشك يتطرق اليهم بالنسبة لعزيز بك وللجنود النظامية ولكن عزيز بك بادر بالرجوع وهدأ الخواطر وأصلح ذات البين ، بيد أن سوء التفاهم بقي له أثر في النفوس لان عزيز بك لم يخض في مسألة ما اذا كان هو الذي أمر الضابط صالح أفندي بالتفقهق أو لم يأمر .

وكان قد نما الى عزيز بك أن هناك مكاتبات دائرة بين سيدي هلال أخى السيد السنوسى (وهو شاب فى العشرين من عمره) وبين الايطاليين (بدون علم السنوسى) فأصدر أمره الى ياوره الضابط رمزى أفندي بمراقبة الكتب الواردة باسم سيدي هلال فتمكن بهذه الوسيلة من ضبط كتب تفيد أن فى استطاعة ذلك الشخص حمل العرب على التسليم فى مقابل مكافأة مالية ذات شأن ولما علم الأخير بأمر هذه المراقبة أمر بسجن الضابط رمزى أفندي بمعسكر (الجيجب) ولكن عزيز بك طلب الافراج عنه من السيد السنوسى الكبير فأجيب الى طلبه .

لم تقف الحوادث عند هذا الحد بل أبت الظروف أن تزيد سوء التفاهم بين الفريقين اذ طلب عزيز بك من شيخ زاوية العزيات أن يرسل اليه أسرى الطليان الذين عنده فأبى الشيخ ذلك وقبض على من حضر لاستلامهم منه فغاض هذا التصرف عزيز بك وأرسل قوة نظامية حاربت شيخ الزاوية فقتل فى هذه المناوشة جندي وجرح اثنان وقتل من رجال الزاوية ثلاثة فاتخذ مشايخ الزوايا وسيدي هلال هذه الحادثة وسيلة لتنفيذ السيد السنوسى من عزيز بك وقد وصلوا الى شئ مما سعوا اليه وأخذ سوء الظن يعظم شأنه بين الفريقين حتى انصرف كل فريق الى مراقبة الآخر واتهامه بأنه يريد التسليم واتسع مجال العمل للأجورى الطليان الذين نجحوا فى توسيع دائرة الخلاف .

فضاق عزيز بك ذرعا ورأى ان يعقد مجلسا عاما يجمع مشايخ العرب ليضع حدا لهذا الأمر فعقد المجلس بمعسكر درنه وأجاب السيد السنوسى دعوة عزيز بك اذ أرسل سيدي عمر المختار نائبا عنه وقد كانت أقوال السنوسية دائرة حول الاستفئار عن تجسس رمزى أفندي فى الجيجب وعن صدور أمر الضابط صالح أفندي برجوع الجيش الى بشارة وعن طلب عزيز بك وحدة أسرى الطليان من العزيات مع أنهم سجنوا هناك بأمر السنوسى وعزيز بك معا ثم التجاء الأخير الى القوة فى طلب هؤلاء الأسرى .

وقد كان فى استطاعة عزيز بك ان يظهر الكتب التى ضبطها لا سيما ما يختص منها بسيدي هلال ولكنه رأى ان المسألة يكبر شأنها لأن اتهام مثل أخى السيد السنوسى بما ورد فى كتبه مما لا يصدقه أحد من السنوسيين لأنه طالما أثبت لهم ان أحد الخونة كان يذهب الى ايطاليا ويمكنك فيها زمنا طويلا لوضع التدابير اللازمة فما كانوا يصدقونه بل كانوا يصدقون ذلك الخائن الذى كان يدعى أنه آت من المدينة فى حين أن بعض السنوسيين ذهبوا الى المدينة فى الوقت الذى كان يدعى أنه ذهب اليها فيه ولم يجدوه وشهدوا بذلك .

رأى عزيز بك أن مثل هذا الاتهام يوغر عليه صدور جميع السنوسيين فيؤدى ذلك الى ما لا تحمد مغبته فاقترع على المطالبة بأن يضمن السيد السنوسى تدبير المؤن والذخائر للجيش المحارب ولا سيما للجنود النظامى فرفض طلبه واشتد الهرج وانفض الاجتماع على غير طائل .

فوجد عزيز بك ان بقاءه على هذه الحالة مستحيل ما دام سوء التفاهم بلغ بينه وبين العرب الى هذا الحد وصمم على الرحيل ولقد طلب العرب ان يبقى الضباط معهم ولم ير عزيز بك فى ذلك ضيرا ولكن الضباط أبوا الا أن يرحلوا مع رئيسهم فرحلوا تاركين ما فى مخازن الجيش من مونة وذخيرة وأسلحة .

ولقد صادف عزيز بك فى الطريق شيئا من الصعوبات لأن بعض العرب اعتقدوا أنه ما دام حصل خلاف بينه وبين رئيسهم فلا بد أن يلحقوا به أذى فكانوا يطلقون على جنوده بعض طلقات متقطعة حتى اذا وصل الى دفنه حدثت بينه وبين العرب المقيمين هناك معركة لأن شيخ الزاوية هناك معروف بكرهه لعزيز بك وقد قتل فى هذه المعركة ضابط من ضباط عزيز بك وسبعة عساكر وجرح ثلاثة ضباط و ٢٦ جنديا أما العرب فقد قتل منهم مائة .

تلك بعض الأنباء التى اتصلت بنا عن سبب الخلاف بين السيد السنوسى وعزيز بك تتلخص فى أن الطليان تمكنوا من استئجار بعض الخونة فكانت هذه الخيانة دافعة لعزيز بك على اتخاذ بعض تصرفات رآها ضرورية باعتباره قائدا حربيا فأدت هذه التصرفات الى ايجاد سوء التفاهم بين الفريقين فوجد الأجورون مجالا للاستفادة من هذه الظروف وما زالت أيديهم تعمل حتى تمكنت النفرة من النفوس وأدت الى ما نراه الآن .

على أن هذا لا يمنعنا عن أن نأمل في استمرار المجاهدين على المقاومة
تأدية لواجبهم وأنا نعتمد على حكمة السيد السنوسى فى تحقيق رغبة
المسلمين فى أن تبقى تلك الأراضى اسلامية كما كانت ولا تزال اسلامية .

وعسى أن يبعد السنوسيون من بينهم كل من لا يجوز التصاقه بهم .
كما نكرر الرجاء الى من يستطيع من ضباط المسلمين طالبين منهم
ان يكونوا فى مقدمة المؤازرين لقوم يدافعون عن دينهم واستقلالهم . وان
عدم اتفاق عزيز مع السنوسى فى آخر الأمر لا يمنع اتفاق غيره وكفى
عزيز بك ما قام به فى أثناء تلك المدة الطويلة .

ولتكن لهم قدوة حسنة فى الضباط الذين قضوا عامين فى تلك
البقاع وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

وتنشر الشعب - فى ١٨ يوليو ١٩١٣ - حديثا لوكيلها بالاسكندرية
مع عزيز بك ، كان أول حديث أجراه عزيز بك حول انسحابه ، من
الميدان ، أو حول رجوعه من برقة . وقد جاء فى مقدمة ذلك الحديث ما يلى :

« ما كاد يذاع خبر عودة عزيز بك المصرى من ميدان القتال حتى
كثر القيل والقال واختلفت الروايات بشأنه وحامت الظنون حول الأسباب
التي دعت الى رجوعه بعد ان كان مقررا أنه سيبقى فى برقة أميرا مستقلا
يدير حكومتها العربية على نظام عصرى يألف وعادات العرب بالاتفاق مع
السيد السنوسى . ولقد كان هذا التضارب فى الروايات منتظرا بعد أن
شاع أن محاميا شرعيا له صلة ببعض الصحفيين المسلمين قصد الى برقة
بمهمة قيل انها من قبل الوكالات القنصلية وقيل انه مكلف بها من بعض
المقامات ، وأن هذا المحامى يمنى نفسه بالغنى اذا هو استطاع اقناع عزيز
بك بأن يطوى صحيفة الآمال الكبار التي يعلقها المسلمون على جهود مجاهد
مثله بين البدو فى برقة . من أجل ذلك كثرت الأقوال وتباينت وما كان
أحد يستطيع أن يجزم بالصحيح منها .

ولقد جاءتنا رسالتان منذ يومين أحدهما من سعادة الأمير شكيب
أرسلان كتبها فى بيروت اعتمادا على معلوماته يوم كان مع عزيز بك فى
برقة يعملان على صد الظليان مع المجاهدين من العرب السنوسيين ،
والثانية موقع عليها من مكاتبنا فى السلوم خضرة حامد أفندى شاكرا
ومصدق عليها من خضرة الملازم الثانى شوقى أفندى أحد الضباط المجاهدين
فلم نشأ أن ننشر الرسالتين الا بعد ان تقابل وكيلنا الاسكندري مع عزيز
بك وسمع أقواله . »

وتنشر الشعب نص الحديث كما رواه عزيز المصرى لوكيل الشعب
السكندرى : قصدت عزيز بك فى منزل أحد أصحابه (أسرة ذو الفقار
باشا برمى الاسكندرية) ففضل بمقابلتى على انفراد وهو فى نحو الخامسة
والثلاثين ، متوقد الذهن ، عصبى المزاج ، يتأثر كثيرا اذا سمع شيئا مما
ينسب اليه من الروايات ، ولهجته مصرية يخالطها شئ من لهجة
البدو ، وقد شكرته على دفاعه عن البلاد العربية فقال : هذا واجبنا نحو
أنفسنا ، وكنا نود أن توجد نتيجة يصح معها القول بتكليل مسعانا
بالنجاح ولكن هذه ارادة الله . . . قلت : وهل يمكن التفضل باعطاء بعض
التفاصيل عن أحوالكم مع العرب والسنوسية ؟ فصار يحدثنى وأنا أصغى
الى كل موضوع وألقى كل آونة بنظرة على مذكرة جمعتها من
مصادر مختلفة عن تلك الأحوال التى قصدها بسؤالى ، وكلمما
حاولت أن أقرب بين حديثه وما هو مدون عنى أرى هوة الخلاف
تتسع بينهما حتى لم يسعنى غير طي تلك الصحيفة التى كانت كلها
متناقضات وايداعها فى جيبى . ولما لاحظ ذلك قال : قد قرأت فى
« الشعب » كثيرا من حوادث الحرب وما يدور حول رحلتى من درنة ،
فكنت أسفا لوصول الحقائق اليكم مشوهة بل ومكوسة تماما ، على أنى
وقد تعودت الصراحة فى القول . ويعلم الله قدر اخلاصى فى مهمتى -
كنت أضيق ذرعا من وصول الأمر الى هذا الحد من التشويه خصوصا فى
مسألتى مع السيد السنوسى والعرب ، لا أرى ما يشفى الغليل الا أنى
اتفرغ لكتابة شئ من ذلك وهذا ما أرجوه عندما تساعدنى صحتى التى
تأثرت مع المشاق والأسفار .

قلت : وما الذى ترغب منى أن أجعله خلاصة حديث اليوم تمهيدا
لما سيأتى بعده اذ لا أجد من الوقت أيضا أن أكتب الليلة كل ما سمعته
منك مع التفصيل الجدير به .

قال : يمكنك أن تقول أن رحلتى كانت لأبد منها بعد إن تبين لى
من بعض مشايخ السنوسية بل والسنوسى أيضا عدم تقدير مجهودى
أنا ورجالى النظاميين وعدم الاعتماد بملاحظاتى عن تقصير بعض قبائل
العرب فى واجبهم نحو بلادهم وكثرة الخونة من بينهم على أنى لا أعظم
حق قبائل كثيرة فى حسن الاخلاص كذا بعض مشايخ السنوسية ، ويمكنك
أن تقول أيضا ان الاسلام فى حاجة قصوى الى رجال مستنيرين بنور العلم
الصحيح حتى يعملوا على هدى فى أمورهم ولا يتطرق الخلل الى أعمالهم .
ويقول وكيل « الشعب » السكندرى ان زوارا آخرين دخلوا علينا
فانقطع الحديث .

وقد اتهم عزيز بك مندوب « الشعب » السكندري - في المؤيد -
بأنه نشر الحديث دون موافقته - موافقة عزيز بك - على النشر .

أما رسالة الأمير المصلح والكاتب العثماني الكبير - كما قالت
« الشعب » - فقد كانت بعنوان « الجهاد مستمر » . وقد نشرت في يوم
الجمعة ١٤ شعبان ١٣٣١ - ١٨ يوليو ١٩١٣ وقد جاء فيها : « سواء كان
عزيز بك المصري مخطئا أو مصيبا في الخلاف مع السيد السنوسي أو كان
مصدر الشقاق هو من قرناء الاثنين وكان قد شك في حسن نية كل منهما ،
فإننا في هذه القضية ملتزمون بحكمة . »

وأول التشاكر الذي ورد أن خضت فيه واجتنبهاء الحسد

ونقول أيضا في شأن الذين سقطوا قتلى من جنود عزيز بك ومن
جماعة السنوسي في مسألة رد الأسرى إلى الطليان في زاوية القريبات ومن
أجل السلاح في موقع دفنة ، ما قيل في التشاكرين من السلف الصالح
أن كلهم مجتهد وكلهم صالح وكلهم له أجر .

والمهم عندنا أن لا يتطرق الخلاف إلى العرب ولا نشق عصا الجماعة
في هاتيك البقعة إذ من المعلوم أن الطليان لم يقدرُوا أن يزحفوا إلى
المعسكر العربي في الغيظ أمام بنى غازى إلا على طريق الفتنة بين
القبائل ، وأنهم ابتدأوا أولا باستمالة البراغشة بواسطة عائلة نجم وبذلك
تمكنوا من احتلال قرية الكويغية ، ثم سعوا في فض أكثر الجموع العربية
التي كانت مخيمة في صحراء الغيظ ، ولما لم يبق هناك سوى ألف
 وخمسمائة مجاهد وعرفوا خفة الجيش وأرسل اليهم أحد الضباط الحائنين
من أهل تلك البلاد بأن الفرصة سانحة تقدموا على غفلة فأخذوا المعسكر
وأباحوا ما شايئهم من العرب نهب السوق وهكذا عبروا إلى غايتهم من تلك
الناحية على جسر الخلاف بعد أن كانوا لا يتصورون أصلا أخذ هاتيك المواقع
بالقوة وكانت المعارك تقع بينهم وبين العرب في الفويهات وسواقي عثمان
وغريونس وغيرهما مما لا يبعد عن نفس مدينة بنى غازى أكثر من نصف
ساعة ومما هو تحت مرامى المدافع الهائلة من السبته عشر استحكما التي
أداروها حول تلك البلدة، وكان الجنرال أمليو وغيره من قواد الطليان يقولون
لحكومتهم أن تقدم الطليان إلى الأمام من جهة بنى غازى هو محض جنون
فالذى كانوا يريدون محاولته جنونا وهو رمى العرب إلى الوراء بقوة قد تحقق
لهم فيما بعد بدون قوة على أهون سبب بعزيمة الأصفر الرنان ، وبسحر
الوشاية الفتان وبايقاد الحمية الجاهلية بين القبائل وكما أنهم استولوا على

ضواحي بنى غازى بفساد بعض متابعيهم من المسلمين وبالفتنة بين فرق
العواقر وكذلك استولوا على قصبة المرج والهاء بعض أهلها من الخونة
ومهد لهم الطريق إليها انتواتى شيخ زاوية طليميشه الذى أنزلهم ساحل
طليميشه ووفق بينهم وبين أعرابها فكان دخولهم المرج البعيدة نحو خمس
ساعات عن البحر واستيلائهم على قصرها الذى كان أنور وعزيز ومما
وشيدا فيه المباني هو بدون حرب تقريبا مع ان الطليان لم يكونوا يحلمون
فى منام بوصولهم الى المرج ، وقد كانت عليهم أمنع من عقاب الجو بمكانها
وتوسطها بين العرفا ، والعبيد من جهة وبين العواقر من جهة أخرى
وكننت مرة أنهى عزيز بك المصرى عن وضع المؤن فى المرج لقربها
من البحر وامكان السير إليها من طليميشة فأوضح لى أنه اذا كان
الطليان بعد حرب حول كامل عجزوا عن أخذ قرية الكويعية التى هى
فى آلف بنى غازى فما بالك بالمرج هذه وهى فى الجبل الأخضر الا ان المنون
أثمر ما لم تثمره الأسياف والمفاسد جنت ما لم تجنه المدافع ، فدخلوا المرج
بدون قتال الا بعض طلقات أطلقتها الخارجون من أهلها والستون جنديا
الذين كانوا فيها ولولا خيانة التواتى شيخ طليميشة وبعض ضباط من
العرب وبعض الشيوخ الخاسرين من أهل المرج لكانت خيالات الطليان
لا تحوم على المرج فى ظلام ولكانت أمانتهم لا تتناول المرج ولا فى الأحلام .

ولقد شجع الطليان فوزهم فى نواحي بنى غازى بواسطة التفريق
والفتنة أن يهاجموا معسكر درنة الذى هو مركز انقوة العربية مقدمين
بين يدي جيشهم الحربى الذى أنزلوه فى عدة مواقع جيوشا من المفاسد
وجحافل من الغوايات من شأنها استنزال أثبت العقول على حكمهم
واستدراج الأحلام الى الوقوع فى أشراكهم فألفوا عداوات وآثاروا ضغائن
وبشوا أشراكا وتصبوا خطاطيف كادت أن تنزل بها الأقدام وتتدهور
القوائم واذا ذاك طلع بدر السيد أحمد الشريف من ثنابا الصحراء مبادرا الى
استدراك الأمر وعاملا على سد الخلل وإزاحة العلل واجتمع لديه ولدى عزيز
بك المصرى سببان رجحا غيرهما مذهب سحب العساكر النظامية الباقية
هناك أو أنها قطع حجة ايطاليا من جهة الجزر ورفع أعلام الدولة التى لم
تفتأ تطالب عزيز بك بالانصراف مع عساكره ، والثانى رفع ما ثار بين
جماعة كل منهما من غبار الخلاف الذى أدى الى سفور ما بينهما وآل الى
الشقاق فى الصف الذى ينبغى ان لا يبرح كالبنيان المرصوص فاختر
عزيز بك الرحيل وانصرف الجند النظامى من ساحة الحرب وأهاب
السيد السنوسى رضى الله عنه بطوائف العرب ونادى ببالشارات الاسلام
فشبت قلوبا وصنحح عقائد وقوم مسالك وأرستى قواعد وعادت الحرب أشد

مما بدت وتكاثرت جيوش الطليان وتكاثرت بازائها صفوف المجاهدين
وتتابعت الوقائع واحمر البأس وصدق المسلمون فى الحملات على قلعة
ذخائرهم ونزور مادتهم فكشفوا الطليان من أماكن عديدة كانوا احتلوها
ووردت الأخبار وانجلى الغبار عن هزائم فتت فى أعضادهم ومعارك لاحت
فيها بوارق الاقرار من بين غمام الأفكار مما تلبد فى أفق جلادهم وقد زعم
بعض المفسدين ان العرب استسلموا للعدو وبأن السنوسى سىرضى
بالكفرة وجغوب وقضاء جالرو ويعقد الصلح مع الطليان ويأخذ جانباً
من المال .

ووصل الافتراء بالمفسدين الى ان وضعوا هذه الأحاديث على لسان
عزيز بك نفسه وفضلاً عن كون عزيز بك على هو أجل وأشرف من أن
يعزو مثل هذه المآرب للسيد السنوسى الذى لم يختلف اثنان عن صفاء
جوهره وزكاء عنصره فقد رأينا بأعيننا برقيات من أمير برقة السابق الى
بعض اخوانه صادرة عن السلوم يقول لهم فيها أن الجهاد مستمر تحت
امرة سيدى أحمد الشريف وان الحالة تتبدل ، ولعمري ان من يظن كون
الشحناء تصل بعزيز بك على الى ذلك الحد فانه يجهل من هو عزيز بك
وما هى منازعه وما هو غرامه برفع شأن العرب وما هو عشقه لمحاسنهم
وما هو مبلده على سيئاتهم حتى أن المسيو ريمون مكاتب مجلة
(الايكواستراسيون) الفرنسية الشهيرة قال : انه بينما يكون عزيز بك
فى أقصى درجات الضجر من مراجعات العرب الذين يريدون ان ينهوا اليه
كل شئ وهو فى معسكرهم كالذى كان فيه وبينما تجده يتبرم ويتأوه
من معاشرتهم اذ تجده لأقل انتقاد يتوجه عليهم قام يناضل عنهم ويفيض
بذكر محاسنهم ويلتمس وجوه المعاذير عن هفواتهم مما يدل على تمكن
النزعة العربية من نفسه ، واننى لا أذكر له يوماً شعر فيه بمداخلة
المفسدين من بنى غازى من عائلة سليمان كبار العواقر فتوجس خفية من
اتجاه العواقر الى الطليان بما لهؤلاء من المكانة فى قومهم فجمع مشايخ
العرب كلها وقام فيها خطيباً فقال لهم : اننى أنبهكم الى مداخلات بعض
المفسدين لا تجعلوا لها زيحاً فى ضمائركم اذا تخاذلتم وقعتم وقعة لا يقال
بعدها لعلو وندمتم حين لا ينفع الندم وحل البوار بدينكم ومالككم وعزكم
وشرفكم ، أقول لكم ذلك وان كنت أعلم ان قلوبكم والحمد لله ملأى
بالاسلام وأن خواطركم معمورة بالألفة والاباء وذكر مجد الأجداد والآباء .
فوالله لقد وجدته ذلك اليوم خطيباً فريداً كما عرفتة فى الميدان بطلاً
صنديداً ، وما هو يدعو من أراد أن يسمع بقوله ان الجهاد لا يزال مستمراً
ولذلك فما دام الميزان هناك منصوباً والسيد السنوسى ومن معه يابون

طاعة الطليان المعتدين على بلادهم القادم لأخذ ثاره منذ ١٢٠٠ عام فان الواجب المحتم على كل من فيه ذرة من العربية أن يهب لنصرة اخوانه الذين يصطلون تلك النيران بصدور منشرجة وآمال في الله متفتحة حتى يعلم الطليان أنهم لا يتمكنون من الاستيلاء على تلك الديار الا اذا فنيت رجالا العرب بأسرها ، وسالت بجداول الدماء أباطح سهلها وأهاضيب وعرها ، فانه ان كان الطليان آتين لاقتضاء ثارات من أحداث وقعت منذ ألف ومائتي عام فنحن معاشر العرب أشهر من الطليان في القيام بالثار مما وقع منذ سنة وسنتين لا من ألف ومائتين .

مواطن اخوان ثملوا من الردى كئوسا تساقوها بهلء الحلاقم
دفاعا عن الأوطان أن حفاظها لدى كل عصر كان أولى المكارم
(بيروت في ١٢ يوليو) شكيب أرسلان)

وكان تعليق الشعب على رسالة الأمير شكيب أرسلان بما يلي :
لعل سعادة الأمير الكاتب بنى هذا الفصل على معلومات وصلت اليه متأخرة فكتب في هذا المقال ما كتب . أما وقد وصل عزيز بك الى مصر بعد ترك القتال فلا بد أن يصرح بما اختلف به الرواة .

وتجري جريدة النوفيل (الفرنسية) حديثا طويلا مع عزيز المصري تنشر المؤيد ترجمته في ٢٤ يوليو سنة ١٩١٣ . وقد جاء الحديث ومقدمته على النحو التالي :

« استهل عزيز بك تصريحاته فأشار الى الأقوال المتضاربة التي نشرت عنه وقال : انه تحادث مدة خمس دقائق مع مكاتب جريدة الشعب ورجاه ألا يشير الى هذه المقابلة لأنه يرغب في كتابة كل ما جرى له مدة اقامته في برقة بنفسه .

غير ان جريدة الشعب استرسلت في الأوهام والخيالات ونشرت أقوالا لا تتفق مع تصريحه لمكاتبها ، ثم صرح أنه كان يود البقاء في برقة ليفت في ساعد الايطاليين ويلحق بهم الضرر ، لكن لابد له من الذخائر الحربية والأموال والمؤن وهذه المواد الجوهرية الثلاث التي يعول عليها في كل حرب كانت مفقودة تماما . وفيما يلي ما جرى بين محرر جريدة النوفيل وبين عزيز على :

المحرر : أصبح ان العرب خانوا عهدكم ؟
عزيز بك : كلا ان العرب لم ينكثوا العهد معي بشاتا ، ولو أني أجد الأموال اللازمة التي لا غنى لي عنها لا أتردد في العودة الى ربوع برقة .

المحرور : ما قولكم فى السنوسيين ؟

عزيز بك : السنوسيون دراويش يشتغلون ليقتاتوا . وقد كان قسم منهم عقد الصلح فى أيام أنور بك وأحجم الباقي عن القتال منذ مدة . ثم لما كفت قبائل العرب التى كانت تكافح الايطاليين بقيادة البارونى فى طرابلس الغرب عن القتال حول الايطاليون كل قواتهم ضدى فأصبح القتال مستحيلا .

المحرور : هل ترغبون فى الذهاب الى الآستانة ؟

عزيز بك : اذا أعلنت دولتى الحرب على بلغاريا ذهبت بلا شك الى الآستانة .

المحرور : أصحيح ان كثيرا من العرب انضم الى الايطاليين ؟

عزيز بك : انضم عشرة آلاف عربى الى الايطاليين واندمجوا فى جيشهم لمقاتلتنا بسبب قلة المياه والقحط الذى ضرب أطنا به فى السنتين الأخيرتين .

المحرور : ما قولكم فى الجنود العثمانية ؟

عزيز بك : ان الجوع قد عضهم بنابه وأصبحوا بلا مؤونة ولا أصدقاء ولم يبق فى طاقة أحد تقديم القوات اللازم لهم . على أن السياسة الحرقاء التى أتبعها السنوسيون اضطررتنى الى التنازل عن القيادة للشيخ السنوسى الكبير وقد نفدت كل ذخائرتنا فى المعركة التى نشبت فى ١٦ يونيه وانتهت بانتصارنا الباهر مع أن جيشنا كان لا يتجاوز ألف جندى أمام ٧٠٠٠ ايطالى .

المحرور : اذن كان رجوعكم واجتيازكم الحدود بسبب عدم وجود الأموال اللازمة لكم وعدم اتفاقكم مع السنوسيين ؟

عزيز بك : شكلت نظاما اداريا صغيرا يمكننى من جباية ما أستطيع به مواصلة القتال وخولت سلطة واسعة لرؤساء المناطق فامتعض السنوسيون عندما رأوا ان زمام الأمور أصبح فى قبضة رؤساء القبائل فاضطرت والحالة هذه الى تعيين مشايخ الزوايا أعضاء فى ادارة حكومة المناطق ، لكنهم بدلا من شدة أذى صاروا يذيعون بين الأهالى ان الباب العالى يواصل ارسال الأموال اللازمة لى وحسنوا للأهالى حبس أموالهم عنى ، فأصبحت صفر اليدين بينما الأموال كانت تنهال كالسيل من أيدي الايطاليين وهذا ما حمل العرب على التخلص من الضيق والالتحاق بالايطاليين .

المحرور : ماذا كان نصيبكم من المعركة التي انتهت بدخول الايطاليين في معسكر بنى غازى ؟

عزيز بك : استولى الايطاليون على معسكر بنى غازى بلا قتال لعدم وجود مقاتلين أمامهم . لأنه لم يبق من الأربعمئة والخمسين ضابطا الذين كانوا في أيام الحرب سوى ١٢ ضابطا وكنت ذهبت عندما سقط معسكر بنغازى الى الجهة الشرقية بالقرب من السلوم لتنظيم وسائل الدفاع على الشواطئ . وقد أكد بعض الصحافيين الايطاليين أنى كنت مع المقاتلين مع أن هذا القول لا نصيب له من الصحة . وبعد سقوط المعسكر انتقلت حالا من الجهة الشرقية الى الجهة الغربية وقاتلت فرقة ايطالية في (منج) فألحقت بها فشلا هاما وكان العرب قد تواروا عن الأنظار ولم يبق منهم سوى ٧٠ شخصا وعهدت بتنظيم الدفاع في الجهة الغربية الى أحد مشايخ زواره اسمه عمر المختار وهو السنوسى الوحيد الذى اشترك فعلا في الدفاع عن وطنه . ثم علت الى معسكر درنه لتحصينه فصادفت سيدى هلالا شقيق الشيخ السنوسى الكبير قادما من جغبوب وهو شاب عمره ٢٥ سنة ماجور للايطاليين وتمكنت من القبض على المكاتبات التي يتبادلها مع الأعداء فسجنته ساعتين ثم أمرته بالعودة الى جغبوب .

ومن ذلك اليوم صار الشيخ السنوسى يضرر العداء لى . بعد ذلك بمدة اتصل بى خير وصول الشيخ السنوسى الكبير . وقد كان فى ١٦ يونيه على مسافة ست ساعات من المعسكر فانتظرنى حتى المساء ، ولما ذهبت لمقابلته لقيت عواطفه نحو قد تغيرت عن ذى قبل فبشرته بخبر انتصارنا فكان جوابه (ليس لكم فضل فى شىء بل الفضل فى نجاح جيشنا عائد الى قوة سيدى المهدي الروحية) ولم يرق بعين السنوسى الهتاف الذى لقيته من قبل العرب وذهبت فى نفس ذلك اليوم الى زاوية بشارة فى الجنوب . وفي ذلك الوقت حدث أن انحازت قبيلة بشارة الى الايطاليين . وقد بلغنى أن الايطاليين دخلوا القيقب بلا مقاومة . فذهبت وقابلت الشيخ السنوسى حالا فألفيته لا يقر قراره على شىء فصرحت له بأن المقاومة أصبحت لا طائل تحتها ما دامت البلاد تسلم الى الايطاليين عن طيب خاطر .

واستنهضت همته على الاستعانة بنفوذهم لارجاع الأهالى الى صوابهم فقال لى : لا أستطيع ان أعمل شيئا (فاستعلمت منه عما اذا كان يوجد لديه فى الكفرة مؤن وذخيرة أو أموال . فقال لى جوابا مبهم : الله أعلم) .

وما كان ينتهى حديثى معه حتى طلب منى ان اكتب الى الايطاليين
وأطلب منهم ارسال منصور كخيا شقيق عمر منصور باشا (الأصح : والد
عمر منصور باشا) وأحمد المنتصر . فدهشت لهذا القول لعلمى ان هذين
الشخصين من أكبر أنصار الايطاليين فسألته عن سبب طلبهما . فقال :
ليتوسطا لى فى المخابرة مع أعدائنا عليهم يمنحوننى بعض امتيازات .

فخيل لى أنه يقول الصدق نظرا للحالة الحاضرة ولعدم تأثير سائر
الوسائل . وكان معى بعض الضباط لتنظيم قوات جديدة فى أحشاء برقة
أمام القيقب . وكان العرب يساعدوننا بصعوبة لأنهم قوم عضهم الفقر
الشديد بنايه ، وقد أحجم السنوسيون عن مساعدتهم على أننى تمكنت
من حشد ٣٠٠٠ رجل فى مدة يومين .

وبينما كان الأمر كذلك اذ جاءنى بالتليفون من درنة بأن الجزع
الشديد دب بين العرب وأن جميع من فى المعسكر قد ولى الأدبار . فعهدت
بقيادة الجيش الى كثير من الضباط وتوجهت حالا الى درنة . وعند وصولى
وجدت أن الجزع الذى دب فى صفوفهم خارق للعادة . وكانت بعض الفلول
قد وصلت الى طبرق على مسافة ثلاثة أيام من درنة فتمكنت من لم شعثم
وخطبت فيهم واتصل بى أن جاسوسا أذاع عند انبثاق فجر يوم الفرار
أن الايطاليين سيخرجون فى ذلك اليوم بقوات عظيمة من درنة .

ولما كانت جعبات جنودنا قد فرغت من الخرطوش ، وكان بعض
الجواسيس اندس بينهم وأبلغهم خبر ذهابى الى جغبوب آثروا الانسحاب
على الهزيمة التى قد تمحو أثر انتصارهم فى ١٦ يونيه .

والتف الضباط حولى بعد ذلك وبسطوا لى حالتهم وقالوا لى ان
السنوسيين قد انقلبوا ضدنا ، وقد نفذت دخائرننا وهؤننا ولم يبق عندنا
سوى مؤنة خمسة أيام ولا يمكننا أن ننتظر أى مساعدة من الخارج وقالوا
أنه يتعذر علينا معالجة جرحانا ومرضاينا فلا بد لنا من السفر الى الأستانة
على بواخر ايطالية .

وفى ذلك الوقت ندب الايطاليون رسلا من قبلهم ليفاوضونى بشأن
ارسال عمر كخيا وعمر المنتصر الى السنوسيين فلم أر بدا من بسط أحوالى
لهم بكل حرية وصراحة وانه يستحيل على من الوجهة المادية مقاومة الوسائل
الأستعمارية التى اتخذوها .

ولذلك رأيت أن مهمتى فى برقة قد انتهت وانى أترك هذه البلاد
معتهدا على التجارير التى جاءتنى من شركت باشا وزملائى فى الجيش الذين

أخبروني أن إيطاليا تساعد الدولة العثمانية في شدتها الحاضرة أكثر من غيرها وهذا ما شجعني على مبارحة البلاد وطلبت أن تترك لي الحرية الكاملة في اختيار البلد التي أبحر منها مع جيشي وأن تكون السفينة التي أركبها مع جنودي عثمانية وأن ترسل لي نظارة الحربية جوازاً . فلم تلق هذه الشروط قبولا لدى الإيطاليين بل اقترحوا على الذهاب مع جنودي إلى درنة حيث تكون الأسلاك التلغرافية تحت تصرفي التام ليتسنى لي مخابرة شوكت باشا والوزارة العثمانية فلم يرق هذا الاقتراح بعيني لأنه بلغني أنه يدور في خلد الإيطاليين أن يزيلوا آثار فشلهم في ١٦ يونيو وينتهزوا فرصة مروري في درنة ليعلنوا أنني وقعت أسيرا في قبضتهم . ويهدثوا خواطر الإيطاليين التي ثارت على أثر فشل جيشهم .

وقد اتصل بي وتأكد لي أن الشيخ السنوسي يرغب في التخلص مني لبعض أسباب ولذلك استعان بحيلة وأرسل إلى كتابا قال فيه : أن غبار فدائيتك زهرة في تاجي لأنك أكبر من يزود عن حوض الاسلام ، وبما أن لدى سرا أود أن أثبه اليك فأرجوك القدوم وحدك مع الأشخاص الذين أرسلتهم اليك بشرط أن لا يصحبك حرسك العادي) .

وقد أرسل الشيخ السنوسي الكبير في نفس ذلك الوقت كتابا آخر إلى قائد طبرق قال له فيه (عزلنا عزيز بك على نظرا لما ظهر من عدم إخلاصه لنا وعيننا خلفا له) .

وكانت المسافة التي تفصلني عن السنوسي يوما واحدا أما المسافة التي تفصلني عن قائد طبرق فكانت ثلاثة أيام .

وعمل الشيخ السنوسي حسابا بأنني سأقع أسيرا في قبضته قبل أن يصل كتابه إلى طاهر بك قائد طبرق . وقد اتفق أنني أحجمت عن الذهاب لمقابلة السنوسي في نفس ذلك اليوم ، وفي اليوم الثاني بينما كنت أذهب لمقابلته بالرغم مما بلغني من مقاصده اذ تلقيت كتابا من بعض حواشي السنوسي ينصحنني فيه بعد الذهاب .

وفي اليوم الثالث وصل كتاب السنوسي الكبير إلى طبرق فجاءني من القائد إشارة تليفونية قال لي أن وفدا من قبل السنوسي قد وصل إلى درنة وأعلن خبر عزلي وتعيينه (أي قائد طبرق) خلفا لي ، فاستاء زعماء العرب من هذا التغيير ولم يقبلوا استبدالي وجاءني وفد من قبل أهالي طبرق قدم لي الطاعة ، وقد رأيت من الجنون الصرف بقائي في برقة ومواصلتي المقاومة وأنا مطوق من كل الجهات بالأعداء مجرد من الأموال

والذخيرة خصوصا وان ضباطى وجنودى كانوا يشددون على فى الرحيل
بعد أن أنهكت قواهم عقب مقاومة دامت سنتين . وقد عازمت على الاسراع
بالرحيل لثلا تلتطخ سمعتى وسمعة جنودى وخوفا من أن يقطع الايطاليون
على طريق طبرق .

خدعتهم وكتبت اليهم أن ينتظرونى فى اليوم الثانى أو الثالث
فأوقفوا استعداداتهم وباشرت مع جيشى الزحف الى الجهة الشرقية وقد
أراد الجنود الوطنيون الذين مرتتهم وحشدتهم ان يسيروا معى فنصحتهم
أن يدافعوا عن وطنهم الى النهاية ولو بأعقاب بنادقهم وأشرت عليهم أن
يعينوا عليهم رؤساء من الشاويشية العرب وتركت لهم كل الأمتعة
واستنهضت همه الجميع بالقيام بالواجب الملقى على عاتقهم الى النهاية
وأكدت لهم بالعودة اليهم للاشتراك معهم فى الدفاع عن أراضى برقة عند
وصول الجنود العثمانيين الى بلادهم . وكان وداعنا مؤثرا جدا وكنا جميعا
نذرف الدموع السخينة .

وقد وصل الايطاليون فى اليوم الثانى خبر زحفى الى الشرق فأوعزوا
الى احدى البوارج الحربية بمنعى من أخذ المياه من عين (تمينى) وما كدت
أصل فى صباح ذلك اليوم الى هذه الميناء حتى ظهرت مدرعة ايطالية وأخذت
ترميننا بقنابلها فجرح منا جندى واحد وقتل جمل . ثم انسحبت فى
المساء ووصلت الى طبرق فى اليوم الثانى .

وأرسل الشيخ السنوسى الكبير ثلاثة مشايخ من الزاوية مع ٢٠٠
فارس ليقتفوا أثرى ويحضوا الأهالى على مهاجمتى . فبادرت والحالة هذه
الى جمع العرب وبسطت لهم الحالة فاستصوبوا رأيى وقالوا لى : قد قمت
بالواجب الملقى على عاتقك وقد حان الوقت للشيخ السنوسى أن يواصل
أعمالك .

أما المشايخ الثلاثة فقد ضاقوا ذرعا ودب اليأس فى قلوبهم فذهبوا
تحت جناح الليل وحرضوا قبيلة المنوفة الكبرى التى هجمت علينا مدة
بضع ساعات ففرع جنودنا لكنى تمكنت من جمع فريق منهم وقاتلت
قبيلة المنوفة فقتلت منهم شخصا واحدا وبينما كنت أواصل سيرى مساء
اليوم الثانى هوجمت من ثلاث جهات فلم أحفل بهذه الهجمات وتقدمت
عن الجنود مسافة كيلو متر فسمعت دوى البنادق فالتفت فاذا بمعركة
دنيئة قد ابتدأت .

وجلية خبرها أن السنوسى الكبير حرض قبيلة المنوشة وقبيلتين

غيرهما على قتالنا ووعدهما بالذهاب الى الجنة اذا أخذونا أحياء أو أمواتا
فتألب منها ٥٠٠ رجل اعتصموا بالمضايق والمرتفعات وهاجمونا بشدة ،
قامرت الذين كانوا ينقلون الأمتعة بمواصلة السير ، وهجمت على المهاجمين
مع الفرسان والمشاة ، ولم تمض ساعتان حتى فقدت هذه القبائل ٥٠ قتيلًا
وجرح ٥٠ جنديا وأسروا منها ١٨ رجلا ، وخسرنا نحن ضابطا وأربعة جنود
وجرح منا سبعة جنود .

ثم استأنفنا السير وهجم علينا الفرسان مرة رابعة فرددناهم بلا
خسارة من الفريقين ووصلنا الى السلوم منهوكي القوى مجردين من
الذخيرة . فطلبت من الحكومة المصرية المؤن والماء فلبت طلبنا وقد أطلقت
البوارج الايطالية قنابلها علينا - أثناء اقامتنا فى السلوم فى انتظار
السفينة العثمانية - لتمنعنا من أخذ المياه .

ورأى : : أن عزيز على المصرى قد رد بصراحة تامة على السؤال الذى
ظل مطروحا فترة طويلة : لماذا ترك عزيز على المصرى الميدان ميدان
القتال ضد ايطاليا فى طرابلس الغرب وبرقة ؟ أجابه عزيز على المصرى
لجريدة النوفيل الفرنسية تتسم بالوضوح والصراحة والصدق أيضا .
كما أعتقد .

تبقى ملاحظة . . جوهرها أننى فيما نشرته من مقالات حول هذا
الموضوع وحول ما قيل عن عودة عزيز على المصرى من الميدان ، اعتمدت
على تلك المقالات بصفتها وثائق فقد كتبت والأحداث ساخنة ، كما أن
أحد كتاب تلك المقالات - أمين الرافعى - معروف عنه أنه موسوعة
سياسية وانه لا يتناول موضوعا الا اذا كان قد استوعبه دراسة وفهما .

واذا كانت الضجة التى أثارت حول انسحاب عزيز على المصرى من
الميدان ، قد هدأت بعض الوقت ، فان ضجة أخرى أقوى وأشد قد ثارت
بعدما اعتقلت السلطات التركية - فجأة - عزيز على المصرى وقدمته
للمحاكمة العسكرية على ما سيتضح فيما بعد على أننا نرى أن من الضرورى
لتسلسل البحث أن نتحدث - وبأسهاب عن الجمعيات العربية التى قامت
فى مواجهة الجمعيات الطورانية (العثمانية) ودور عزيز على المصرى فى
انشاء الجمعية القحطانية وجمعية العهد ، كما يتضح بجلاء فى الباب التالى :

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

الفصل الأول

- دولة الخلافة الاسلامية في طريقها الى الانهيار .
- منظمات وأحزاب عثمانية ، في مواجهة منظمات
وأحزاب عربية
- عزيز على المصري والجمعية القحطانية وجمعية
العهد

في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » أراح الأستاذ « لوثرروب ستودارد » الستار عن بعض الأسباب التي أدت الى انهيار دولة الخلافة الاسلامية ، والى الصراع الذي نشأ بين العديد من الجنسيات داخل الدولة وقد أفاض لوثرروب ستودارد في كتابه القيم الذي ترجمه الى العربية الأستاذ عجاج نويهض وأضاف اليه فصولا وتعليقات وحواشي للأمير شكيب أرسلان ، في الحديث عن ظهور مبدأ القوميات أو « العصبية الجنسية » كما أسماها .

وكان من بين ما ذكره لوثرروب ستودارد في مقدمة بحثه عن العصبية الجنسية « القوميات » أن الجامعات الجنسية المتعددة ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار أنها ترجع الى أصل الأرومة خالص من الاختلاطات وبريء من شوائب الالتحامات النسبية ، اذا ما هي في الواقع سوى عصبية قومية متطورة ظاهرة مظهرا عصريا .

ويقول لوثرروب : ولكن ما دامت أمم أوروبية وشعوبها مشتتة بنار هذه العصبية فأني لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هي الجامعات الجنسية الخالصة التي لا ريب فيها .

ويرى لوثرروب ان السياسة العملية في هذا الدور الجديد للعصبية كانت مغشاة الظاهر بأغشية جامعات يخالها أربابها مشتملة على عروق سليمة التحذر على حين أن هذا ليس بالصحيح . كما يرى لوثرروب أيضا أن مظهر الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه في بدء التطور شياملا للبلاد الأوروبية المعدودة أنها الوطن

القديم للحضارة ، ثم ما لبث أن أخذ أفق هذا المضطرب ينمو ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية حتى غدا بالغاً أقصى الأقطار الأرضية مشرقاً ، ومغرباً في البلقان مثلاً تولدت الجامعة الاغريقية أو اليونانية والجامعة السربية وغيرها . ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبا وبلغت الأقطار الآسيوية وانتشرت فيها انتشاراً شريعاً فنشأت حركة تركيا الفتاة ومصر الفتاة وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم كالجزائر وإيران والهند .

وما كاد القرن العشرون . . حتى أيدت صадقات الأدلة وواقعات الحال ان العصبية الجنسية في آسيا كما في البلقان من قبل ذلك ، فقد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعنى دور عصبية التثام العروق وتآلبها الجنسي ، فنشأت جامعات جنسية عديدة « كالجامعة الطورانية » و « الجامعة العربية » وأخرى غاية في الخطورة هي « جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية » التي ترمى الى وحدة المعمور الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وانضوائه تحت لواء اسلامي عام .

وعن النهضة التركية . . يقول لوثرروب : بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها من نوعها في أوروبا ، وذلك على الجملة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن أسفار العز والمجد ، وبتجديد اللغة على مقتضى حاجة العصر .

ولما انبرى رواد الاصلاح من أرباب النهضة يوقظون أبناء قومهم ، ويرددون على مسامعهم أنباء مجدهم التاريخي وذكريات عزهم الخالي ، استيقظت الأمة التركية بأسرها وأخذت تنتشي رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طموحة .

ومعظم السبب في النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على التثام العروق العنصرية انما كان جور أوروبا على تركيا جوراً سياسياً شديداً ، لذا كان الترك كلما ازدادت الحملات الأوروبية على الأقطار العثمانية تقتطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حبا لوطنهم وتفانيا في سبيله ، وكأنما كان ذلك الاعتداء على الترك مستحشاً يسوقهم في سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد . وقد كان من غاية الترك في عصبيتهم الجنسية تترك جميع العناصر التي تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف الملة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع ممتزج بعضه ببعض هو الأمة التركية صبغة ولساناً وتفانيا في الوطنية التركية .

فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداما كبيرا بالعصبية الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه أسبق ظهورا) في المملكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التي كانت قد شرعت تظهر ظهورا بينا لا وراء فيه في هذا العهد .

على أن ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت أركان الاستبداد الحميدى دكا ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقالها وأنشأت تشتد وتستقوى ، وبات جميع رجال « تركيا الفتاة » على اختلافهم فى شئون أخرى ، يدعون الى هذه العصبية وهم فى سبيلها مغامرون مستبسلون . غير أن تلك الاستماتة الكبرى التى قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر فى حلول ما حل بساحتهم من البلىا التالية وحق بهم من الفواجع اللاحقة . فقد اندفع رجال « تركيا الفتاة » اندفاعا كانوا فيه بعداء عن التروى والحكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسى الأعمى ، محاولين تترك المملكة قاطبة فى فترة من الزمن يسيرة . فهاج هذا الأمر الهائل أبناء العصبية الأخرى هياجا كبيرا حملهم على التنكر لثورة سنة ١٩٠٨ .

وحقيقة الواقع ان العصبية الجنسية التركية انما كانت تنتشر فى أفقها ، وتبتغى أن تمور فى مضطرب غير مضطربها فكان بينها وبين سائر العصبية مصطدم هائل ، فاشتعلت نار العداء بين العنصر التركى من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر . وفى هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثانى ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المتشعبة من أورمة واحدة ، فبعد أن كان مضطربها لا يجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايته تترك سائر العناصر غير التركية فى المملكة فحسب ، باتت ترمى الى غاية أرحب مجالا وغرض أبعد مدى ، وتنزع الى فروع الجنس وعروق الأرومة ، فنشأت على اثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » .

وبعيد أن أنشأت تبشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تتبدى فى الترك ، أنشأت أيضا تبشير مثل تلك تتبدى فى العرب ، فيقظوا يقظة كان شأنها شأن كل يقظة يبتغيها شعب محكوم . . ثارت الأقطار العربية ضد الترك ، لان أهلها العرب وهم من أمة الرسالة قد بات من شق الأنفس عندهم أن يظلوا خاضعين لنير الحكم التركى الغريب وهو فى عينهم مثال «الظلمة» .

وقد وصف الكاتب الفرنسى فيكتور برار فى كتابه
(Le Sulten : l'Islem et le Ruissance 190)

مبلغ ما هما عليه - العربى والتركى - من اختلاف المزاج والسجية بقوله : « هكذا ترى شقة البون بعيدة بين اللغتين كما بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية . فالتركى من أدرنة أو أطنة يظل بعيدا أقصى البعد شمالا ويظل العربى فى سائر الأقطار وعلى مختلف الحالات بعيدا أقصى البعد جنوبا فهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان . فأين العربى الدمث الخلق اللين العريكة ، الرحب المدارك ، المتفنن فى شأنه ، النزاع الى الديموقراطية ، المغرق فى احتفاظ حريته الفردية الى حد الفوضى ، من التركى البطىء المتثاقل ، الميال الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية ، لذلك ظل التركى الحاكم المتسلط يحتقر على الدوام العربى ويزدرية لما هو عليه من حب الفن والابتكار والرشاقة ، ويكره فيه إباءه لرقابة النظام ، من حيث ظل العربى يرى التركى هجعا جلفا ، ويحسب هدوءه واطمئنانه بلادة وجهلا وخمولا ، واحترامه القانون ذلا ، وانغماسه فى الرخاء المادى ، فجورا ووحشية . وما انفك العربى يزرى على التركى وينعى عليه فقدانه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هذا كما كان أحرق جاهلا غبيا . »

وكان السائح الألمانى بركهردت قد قال فى عام ١٨٢٠ كلمة أصبحت ذات دلالة تاريخية هامة : متى أخذ الحكم التركى يولى وينحل ويتضعضع فى الحجاز ، يهب العرب آخذين بالثار .

وفى عام ١٨٤٠ قال شريف مكة لسائح فرنسى - فيكتور برار - ما أشقها علينا من حال أن نكره أكرها ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة على أن نحنى رؤوسنا لهؤلاء الباشوات الأذنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبدانا نصارى فما استطاعوا بلوغ كراسى الحكم وتقلد دفة الأعمال الا بأحط الذرائع ، وأشين الوسائل .

وما من قطر عربى الا وقام بشورة ضد الحكم التركى كما يقول لوثرروب .

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من توالى الثورات غير المنتظمة التى لم تعد نطاق الانتفاضات والاختلافات فى موضع حملت عليها النعرة الدينية أو عوامل الوراثة والاقليم ، أو شعور ناثر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقررة عقدها عليها الرأى ، ووضعت لتنظيم العمل فى سبيل قومية ومطمح جنسى .

ورن صدى الثورة العربية المشيوبة النار سنة ١٩٠٥ رنينا هائلا فى
أندية السياسة الخارجية . فانتبه العالم اذ ذاك لشأن « القضية العربية »
وعند ذلك افترص رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة
فأخذوا يجهدون ما استطاعوا فى تقوية دعوتهم ببثها ونشرها فى جميع
الممالك العربية . ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربية تكتسب شأنا
خطيرا فى عالم السياسة ، اذ وقفت دول أوروبا حق الوقوف على يقظة
« الأمة العربية الفتاة » وأدركت جليا آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم .
وكان من خير الوسائل لاسماع الدول الغربية صوت العرب وايقافهم على
حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الأمة العربية »
باللغة الفرنسية أخرج له للناس أحد قادة الحركة الوطنية نجيب عازورى
فكان له كبير وقع وتأثير فى المقامات السياسية الغربية .

ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » فى باريس سنة ١٩٠٦ منشورا
موجها الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبيننا غايات العرب وأغراضهم
التي يبتغونها ، وقد جاء فيه :

« ان انقلابا سلميا هائلا حادث عما قريب فى تركيا . والعرب الذين
لم ينفك الترك آخذين فى ارهاقهم وتفريق حزمهم تفريقا دينيا ليتسنى
لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع
بعض ائتلافا وطنيا وقوميا وتاريخيا ، وهم يرغبون الآن فى الانسلاخ عن
الأورمة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولة مستقلة ، وهذه هى الامبراطورية
العربية التي تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادى دجلة والفرات الى قناة
السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربى
ذو حكومة دستورية حرة . وأما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينة المنورة
فيتألف منها مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكا وخليفة جميع
المسلمين ، وبهذا تحل العقدة الكبرى فى الاسلام وهى التفريق بين السلاطين
المدنية والدينية » .

وفى المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بنى وطننا الأعزاء ،
كل منا يرى بأمر عينه عظم ما صار يلقاه العربى الشريف الكريم من المذلة
والزراية حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الأجانب ولا سيما الترك .
وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، فى عهد ظلم هؤلاء
البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسيا الوسطى . فبلادنا ، وهى جنة الله
فى أرضه ، قد أصبحت اليوم خاوية على عروشها فلما كنا أمة حرة فتحتنا
العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا فى أمم الأرض مختلف

الفنون والعلوم والآداب ، وظللنا عدة قرون حماة الحضارة وممهدي سبيل العمران . ولكن منذ أنشبت مخالب ارطغرل فينا واغتصبت الخلافة منا ، غدونا نقيم على القهر والذل ، فخربت بلادنا واقررت أرضنا وتضعضعت حالنا تضعضعا ما رأى مثله شعب آخر في الأرض » .

فلما كانت ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيرا كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الأقطار العربية كسائر أقطار المملكة العثمانية فرحا وحبورا بانهيأ صرح الاستبداد وتقوضه حتى الأساس . ونظر العرب الى المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الأمانى وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم في « البرلمان » العثماني ليسوا بالقوم القليل العدد ، فطلبوا أن يمنحوا قسما معلوما من الاستقلال الداخلى « اللامركزى » ، فرفض رجال تركيا الفتاة مطلب نواب العرب رفضا باتا دون أن يجيبوهم الى شئ منه ، ذلك لشدة ما كانوا موطنين أنفسهم عليه من القيام بتتريك العناصر فى جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر أن أدرك العرب وأيقنوا محق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتدادا بالغاً فى الأقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع ويشتد ، راميا الى الانفصال . على أن هناك أمرا حريا بالاعتبار التام وهو أن جميع الحركات والمساعى التى طفق العرب يجهدون فى القيام بها فى سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشية على خطة أوسع مجالا ونطاقا ، وأبعد أفقا ومرمى ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبية العربية فى أقطارهم الخاضعة لتركيا على صلة وثيقة تصل بينهم وبين أمثالهم من رجال النهضة القومية فى مصر وأفريقيا الشمالية الخاضعة لفرنسا ، تلك الأقطار العربية التى أقل ما يقال فيها ان بعض ساكنيها هم عرب دما وعرقا وأصلا . لذلك بعد أن كان ذكر العصبية العربية همسة تفرغ فى الأذن أو سرا يتناجى ، صار صوتا عاليا وصرخة جوازة الآفاق رنانة الأصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطمح كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع أقطار العالم العربى شاملة شمال افريقيا وجنوبى آسيا ، وممتدة من الأوقيانوس الاتلنتيكي حتى الأوقيانوس الهندي . وهنا شرعت العصبية الجنسية العربية كالعصبية الجنسية التركية ، تحتاز دورها الثانى دور العصبية النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الأرومة .

وفى الحين الذى آثار فيه الاعتداء الغربى سنة ١٩١٠ - ١٩١٢ - لوثر وب ستودارد - العاطفة الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومى العربى يهتاج احتياجا شديدا متواليا دون انقطاع بسبب ما أنشأت

تركيا الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتتريك العناصر ، فشار
ثائر الاستقلال في العرب ولكن كان رائعا هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم
الجنسية أكبر تمثيل .

ويؤصل مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامي » - لوثرروب ستودارد -
حركة العصبية الجنسية التي اجتازت دورها الأول ، وبلغت دورها الثاني
في الشعوب الآسيوية ولا سيما في الامتين التركية والعربية فيقول ان
العصبية الجنسية للترك قد اتسع نطاقها الاتساع الأكبر وامتد أفقها
الامتداد الأعظم حتى أدركت أرقى أطوارها وأسمى حالاتها ، متخذة شكلين
بينين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » . وقد
أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الأول
وهي اذ ذاك لم تجاوز نطاقها العثماني المحدود كما علمنا ذلك في موضعه .
وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ . ومنذ
ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل في دورها الثاني ، دور
العصبية النزاعة الى عروق الأرومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل
في العالم .

وكان ظهور الطورانية بادي الأمر في مركزين منفصلين :
القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور وبلاد التتر الروسية على ضفاف
ال فولكا ، وكان التتر - فيما مضى - سادة روسيا وحكامها وكان تبدي
تباشير اليقظة القومية واستماعة العصبية الجنسية في تتروسية سنة ١٨٩٥
ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نموا هائلا عجيبا . وكان
من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ أنها حطمت الأغلال الاستبدادية ،
فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة أشرقت فيها شمس الآداب أيما اشراق .
فكثر نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة مما ساعد
النهضة التتريية على النمو المضرد ، فاعتزت اعتزازا كبيرا . ولما كان التتر
في روسيا على جانب كبير من الاثراء فقد كان من السهل اعداد جميع
ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية في سبيل النهضة . وحقا قد قام
التمولون التتر ذوو الملايين في باكو بقسط وافر عظيم من العمل لتنمية
العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة عليية ، اذ ما عرفوا التردد قط
في بذل المقادير العظمى من الأموال عن جود وسخاء في سبيل الغاية
المباركة . وقد أبدى التتر الروسيون حنكة ومهارة فائقتين في عالم
السياسة . فغدوا للحال موضع ثقة أبناء أعمامهم التركمان في أواسط
آسيا الروسية الذين كانوا قد دببت فيهم أيضا نشوة العصبية الجنسية ،

واشتمل مجلس « الدوما » الأول في روسيا على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا في جهادهم السياسى عصابة متحدة متعاضدة يشد بعضها بعضا ، لا ينى لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة التترية ، فغالبا الصعاب مغالبة غاية في بذل النفس والدهاء والحنكة ، حتى غدا رأى العام الروسى على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقل من النواب المسلمين التتر كما يقل بذلك نفوذهم في دور الحياة الدستورية الجديدة » .

وقد كان المسلمون في روسيا حكماء في السعى وراء مبتغاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير ان بعضهم كانوا أشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامع التترية الخفية وصرحت عن الآمال التى كان التتر يدأبون جاهدين فى سبيل تحقيقها ، ذلك أنهم أخذوا فى السعى وراء الغاية سعيا حرا فى جو أنقى هواء وبيئة أخصب مرعى وأرحب منزلا أعنى فى القسطنطينية حيث قيض حقا لتتر روسيا أن يكون لهم شأن عظيم فى أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية وفى الواقع أن أول منشئ لجمعية الجامعة الطورانية الأولى من نوعها فى القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلى ، المسلم التترى من أهالى الفولكا ، وكتابه القيم المشهور الموسوم بـ « الأنظمة السياسية الثلاثة » غدا أساسا عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومنارا يهتدون به فى جميع ما كتبوا الى اليوم فى شأن الجامعة الطورانية ولم يكن رجال الجامعة الطورانية قبل نزول الاضطهاد بهم ليلقوا شيئا من الحظوة عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصبية الجنسية التركية ظهورها الجلى من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدى ، تبدلت الحال غير الحال ، فغدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تترك العناصر في المملكة ، يصيخون كل الاصاخة لدعوة الجامعة الطورانية ويجدون فى سبيل نشرها والتبشير بها انجيلا جديدا ، حتى خرج منهم بالتالى أبطال وقادة يدعون الى هذه العصبية . وجدير بنا فى هذا المقام أن لا ننسى أن تتر روسيا قد استمروا على جهادهم الأكبر فى سبيل العصبية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك أغايف ، مسلم من تتر الفولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (ترك يوردى) - « الوطن التركى » ، التى انتشرت فى كل بقعة من بقاع العالم الطورانى ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مسئولة عن نفوس قرائها نازلة منزلة المقيم المقعد .

على أن قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك أغايف وأضرابه الذين

امتدت أطماعهم ووضعوا خططهم لتوحيد العالم الطوراني طرا من فنلندا الى منشورية توحيد تاما ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير في سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة في بادئ الأمر على توثيق العرى بين الترك العثمانيين والتتر الروسين والتركمان في أواسط آسيا وإيران . ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب أن الدعوة الطورانية كان لها ماعداد صفتها الجنسية - صفة دينية أيضا تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية في اعتبارات عديدة . ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الديني ، ان الحركة التي كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانية لم يعد امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلا .

وقد ذكر الأساتذة : سعيد العريان ، أمين شاكر ، محمد مصطفى في كتاب لهم عن « تركيا والسياسة العربية » من خلفاء آل عثمان الى خلفاء أتاتورك « ان الدعوة الى الجامعة الطورانية كانت تعنى سيادة الجنس الطوراني أو المغول الذي هاجر من شرق آسيا ، وكان من الأتراك السلجوقيين ، والأتراك العثمانيين ، والتتر في جنوب روسيا وعبر القوقاز والمجر ، في هنغاريا ، والفنلنديين في فنلندا وولايات البلطيق ، وقبائل السكان الأصليين في سيبيريا ، والمغول في شرق آسيا . وقد لقيت تلك الدعوة تأييدا من الشباب التركي المستنير الذي درس في الخارج على أساتذة غربيين والذي رأى تمزق بلاده وغربتها أمام الهجمات العنيفة من الروسيين والهنغاريين .

وقد كان في مقدمة الترك الذين بشروا بالطورانية ، ومجدوا كل ما هو طوراني ، وكرهوا كل ما هو عربي عبد الله أفندي الذي ألف كتابا أسماه « يوم جديد » رمى فيه الى تنفير الترك من الدين الاسلامي ، ومما انتقده فيه وضع أسماء الصغاية الكرام في المساجد فقال في هذا الصدد ما يلي : « ما هذا الجهل وما هذه الغفلة التي استولت عليكم ، تعلقون أسماء خلفاء العرب في مساجدكم ولا تذكرون بالاحترام أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة » (كذا) .

وقال في مكان آخر : « ان الشبيبة التركية لا تنكر الصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة ، ولكنها لا تعدها من أركان الدين التي استخرجتها من أحكام القرآن والأحاديث » .

ومثل هذه الآراء المؤسفة لم تكن لتساعد على التفاهم بين العرب والترك ، لأن الغرض ظاهر منها ، فهي تعمل لتحقير جميع ما هو عربى ، وتقديم كل ما هو تركى ، ومن الحق أن نقول أن الذين كانوا ينادون بهذه الفكرة أقلية لا تذكر ، وأما الأكثرية التركية فكانت اسلامية بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولذلك فإن انتقادنا ينحصر فى هذه الجماعة التى مزقت الدولة فمزقها الله ومن بقى منهم مزقه الغازى مصطفى كمال باشا . . .

وألّف جلال نورى بك الكاتب التركى الشهير كتابا عنوانه « تاريخ المستقبل » جاء فيه :

« ان المصلحة تقضى على حكومة الآستانة باكره السورين على ترك أوطانهم ، وان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها الى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التى يجب أن تكون لغة الدين ، ومما لا مندوحة عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية الى أقطار تركية ، لأن النشر العربى الحديث صار يشعر بعصبية جنسية وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » .

وقال أحمد شريف بك فى جريدة « طين » :

« لا يزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأنهم ليسوا تحت حكم الترك ، فمن واجبات الباب العالى فى هذه الحال أن ينسبهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التى تحكمهم ، فاذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى الى حرقه بظلفه لأن العرب ان لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فأنهم سيعملون عاجلا أو آجلا على استرجاع مجدهم الضائع وتشبيد دولة عربية جديدة على أنقاض دولة الترك » .

وقد أوضح الكاتب التركى المشهور مطامع الجامعة الطورانية فى كتاب له حمل اسم « التركى ، وغاية الجامعة التركية » وقد نشره عام ١٩١٥ وقد جاء فيه :

« متى ما سحقت الجيوش الألمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسى الغاشم سحقا ، استطاع ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ الى ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ من الطورانيين نيل الاستقلال والحرية ، ثم يضاف الى هذا العدد ١٠.٠٠٠.٠٠٠ من الترك العثمانيين ، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوى مع الحضارة الألمانية فتغزو هذه الأمة اذ ذاك شديدة القوة والبأس ، مستسهلة كل صعب لتوالى الصعود بمعراج الارتقاء ، وستفوق هذه الحضارة الحديثة فى بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين » .

وربما كان أهم ما لفت نظري في مذكرات السلطان عبد الحميد التي ترجمها عن التركية الأستاذ الدكتور محمد حرب ، ما جاء خاصا بصلات بعض الأحرار الأتراك - بعض رجال تركيا الفتاة ، وحزب أو جمعية الاتحاد والترقي - ببعض الدول الكبرى وبعض التنظيمات أيامها كالماسونية وغيرها .

وفي بداية تلك المذكرات وحول هذا الموضوع الهام ، يقول السلطان حسين : ان بعض الأجانب من الانجليز حاولوا تهريب مدحت باشا « أبو الأحرار » ومحمود باشا الى مصر ، وان الشريف عبد المطلب الذي كتب الى السلطان عريضة خاصة بهذا الموضوع قد منع هذا التهريب ، وكل ما لاقاه الشريف عبد المطلب من معاملة سيئة ومن عزل ، كان بسبب هذا . وكانت بارجة حربية انجليزية قد كلفت بتنفيذ عملية التهريب ، وكان مدحت باشا سجيننا بقلعة الطائف . ويعلق السلطان عبد الحميد على ذلك بقوله : أنه لم يصدق كلمة واحدة من كلام الشريف عبد المطلب ولا أى تصرف من تصرفاته ، ومع هذا فان ادعاءه لم يكن خاليا من الأهمية بالقدر الذى يحدونى الى اهماله .

ويقول السلطان أنه أعطى تعليماته « أنه فى حالة هروب مدحت باشا ، ومحمود باشا ، فانى سأسائل الحرس شخصيا ، وانى لن أقبل فى هذا الأمر عذرا ، أو تعليلا » .

ويقول السلطان عبد الحميد : ان الانجليز قاموا برشوة السر عسكر عونى باشا قائد جيشه : لقد أخذ عونى باشا من الانجليز أموالا : ان رجلا من رجال الدولة يأخذ مالا من دولة أخرى لابد وأن يكون قد قدم لها خدمات . . . يعنى هذا ان خلع المرحوم عمى السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله لم يكن حقدا فقط من حسين عونى باشا ، ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضا .

ويقول السلطان : أنه لا يعرف كيف ارتضى عونى باشا فى أحضان الانجليز : هل اتصل بالسفارة الانجليزية وقت ان كان هنا ؟ أم أن الخارجية الانجليزية أحست بهمهمات حقه عندما وصل الى أوروبا فأوقعته فى المصيدة ؟ لا أدرى . . . وانما بعد فترة من الزمن أخبرنى سفيرنا فى لندن موسوروس باشا ان حسين عونى باشا تقاضى مالا كثيرا من يد أجنبية فى انجلترا ، ولم يعلم سفيرنا بهذا الأمر الا فى وقت متأخر جدا ، وعندما وصل الى الخبر كان حسين عونى باشا قد مات . ولكن مسألة ان قائدا

عثمانيا يقبل نقودا من دولة أجنبية لم يكن يستهان به . . . وقفت طويلا أمام هذه المسألة مدحت باشا مثل عوني باشا اتبع سياسة مؤيدة للانجليز وكان دائما يفصح عن ثقته في الانجليز : لقد أحطت بجو تنعدم فيه الثقة : ليس عندي دليل على اتهام مدحت باشا ، ولكن واضح للعيان أن للانجليز يدا في عزل عمى السلطان عبد العزيز خالد . لم يهزنى - السلطان عبد الحميد - هذا عنيفا قدر شخص يرتفع الى مقام قائد الجيش أو الى مقام الصدارة العظمى (مدحت باشا) ويقبل نقودا من دولة أجنبية ، هذا شيء أكبر من أن أحتمله . اذا كان مدحت باشا عابرا نفس الطريق ، فإن هذا يعنى أن الدولة وقعت في الشرك » والطريق الذى يشير اليه السلطان هو طريق العمالة للأجانب .

ويذكر السلطان - فى مذكراته - ان انجلترا قد احتجت عندما عزل مدحت باشا من وظيفة الصدر الأعظم : لقد قامت الدنيا وقعدت في انجلترا بعد عزل مدحت باشا وكتبت الصحف هناك بأنه لا يمكن توقع شيء من اصلاح الدولة العثمانية بعد ذلك على الاطلاق .

ويقول السلطان : ان الانجليز احتجوا عقب ابعاد مدحت باشا عن الحكم ، ذلك أنهم يعتبرونه - مدحت باشا - رجلا ، كما يعتبرون أن ابعاده - مدحت باشا - يعتبر موتا للدولة العثمانية .

ويقول السلطان ان مدحت باشا الذى اتهم بالاشتراك فى قتل عمى نسي أنه وزير عثمانى وتصرف تصرفا يظهره كمجرم رابط الجأش ، لقد لجأ مباشرة الى القنصلية الانجليزية فلما وجد أن القنصل البريطانى في عطلة لجأ الى القنصلية الفرنسية واحتتمى بها ، ولم يكن ثمة دليل أكثر ادانة فان وزيرا عثمانيا وواليا يفكر فى اللجوء الى سفارة أجنبية خوفا من أن يمثل أمام المحكمة لدليل واضح ووثيقة أكيدة تدمغه تماما .

وقال السلطان أيضا - فى مذكراته - ان انجلترا أثارت المسألة الأرمنية لابعاد رأى العام عن الاحتلال البريطانى لمصر .

وكانت الصحف الأوروبية تهاجمنى بشكل دائم وتلقبنى بالسلطان الأحمر ، وكانت تحرض رأى العام العالمى ضدى .

وينفى السلطان عبد الحميد أنه تدخل فى حوادث ٣١ مارس ويقول أنه لم يشأ أن يستفيد من هذه الفرصة التى جاءت من تلقاء نفسها ، ولو كان لي دخل فيها ، ولو أردت الاستفادة منها ما كنت يوما منفيًا فى قصر

بيلرلى وانما كنت سأكون فى السلطة فى قصر يلدز . تصورت جمعية الاتحاد والترقى ان حسن معاملتى لهم عندما كانوا ضعفاء جدا فى ١٠ تموز ، تصورت أن هذا ضعفا منى أو أننى لم أستطع الافادة من قوتى . فبدأت تتحفر للانقضاض على من أعلى : اعتراض كامل باشا على اقامة مأدبة ضيافة لباكستون اعتراضا وجيها وفى مكانه . وقد تسبب هذا فى حدوث أزمة بين الباب العالى والمركز العام للجمعية . ان استدعاء طوابير القناصة من الجيش الثالث لكى تحمى المشروطة وقيام طابور من الفرقة الثانية التابعة لطوابير القناصة هذه بحملة تأديبية فى عدة أماكن أحزن الجنود الموجودين فى استانبول وضايقهم .

كانت جمعية الاتحاد والترقى تتردى شيئا فشيئا ويوما بعد يوم ، أما مطبوعات كل جانب فقد كانت تنال من اسلام الجانب الآخر : قال كامل باشا بضرورة اتخاذ التدابير الحاسمة وان هذا وقتها . كان الفريق ناظم باشا قائد الجيش الثانى الموجود فى أدرنة حائقا على تدخل جمعية الاتحاد والترقى فى كل الأمور وعلى تصرفات الضباط التابعين للجمعية . وكان يخطرني أيضا كتابة بأن لابد من اتخاذ التدابير الحاسمة ، وكنا قررنا اعادة طوابير القناصة وتهدة الجنود الموجودين هنا وخفض عددهم .

ومع ان على رضا باشا ناظر الحربية كان جنديا مقتدرا الا أنه كان رجلا حليما جدا . وغير هذا . فقد كان خائعا للجمعية أيضا ، وكان لناظم باشا فى ذلك الوقت مكانته فى الراى العام كذلك .

ونفى على رضا باشا فى وقت من الأوقات الى أذربيجان ولم يكن هذا النفى بسبب سياسى . وتسبب هذا النفى فى حب الشعب للباشا . وكان أملى اعادة الأمان واعادة الموقف لما كان عليه من هدوء . وتأمين الجو المناسب للمنافسة الوطنية . نسيت كل المغامرة التى حدثت مع ناظم باشا ووافقت على تعيينه لمنصب نظارة الحربية . وكان ناظر البحرية من الذين مالوا الى الجمعية ووافقت على تعيين حسنى باشا فى هذه النظارة وتصوير بعض أعضاء مجلس « المبعوثان » ومجلس الأعيان وبعض الصحف ان هذا التعيين ضربة موجهة للمشروطة . وانسحب على الفور النظار والاتحاديون من وزارة كامل باشا .

كان مانياسى زاده رفيق بك ناظر العدلية مقيما فى بيته ، راقدا على فراشه نتيجة للمرض الذى أصيب به والذى أدى الى موته بعد ذلك بقليل .

وكننت أسمع أنه على خلاف مع بعض كبار رجال الجمعية وخاصة مع
رحمى بك السلانيكى .

كان مانىاسى زاده يميل فكريا الى كامل باشا ومع أنى لم أود
الاستفادة من ميله هذا فقد توجه اليه فى بيته كل من سامى باشا زاده
سزائى والبكباشى أنور بك (وهما من كبار الاتحاديين) حيث جعلاه يوقع
على استقالته وهو على فراش الموت : حاول ناظم باشا فى البداية أن
يستخدم طوابير حراس المشروطية ولكن كل محاولاته ذهبت سدى لأن
مجلس « المبعوثان » الذى انعقد فى ذلك اليوم اتخذ قرارا باستقاط حكومة
كامل باشا ومعروف ما حدث فى هذه الجلسة وماذا كان شكلها ، فى
البداية سيطر أنور باشا على داخل مجلس « المبعوثان » بمجموعة من
الضباط والجنود بملابسهم العسكرية والمدنية . وأتى بمصفحة وجعلها
بحذاء مجلس « المبعوثان » .

أبلغنى بقرار مجلس « المبعوثان » رئيسه أحمد رضا بك . وأضاف
اليه - فى سذاجة بالغة - ان الأمة وهى تبلغكم رغبتها هذه فانه من
الموفقيات التاريخية ان هذه المحادثات والمناقشات والقرارات المشبعة بحب
الحرية من شأنها اصفاء الشرف على عهد جلالته العظيم .

لا أدري مدى الرغبة الحقيقية للأمة فى هذا الأمر ، لكن استقاط كامل
باشا على هذه الصورة لم يكن خيرا ولم يعد ذلك من الخير فى شىء أيضا .

كانت الجمعية وهى تستند الى أكثرية مجلس « المبعوثان » تريد
حسين حلمى باشا صدرا أعظما فقبلت حتى لا أزيد المشكلات ولم يكونوا
يثقوا به . ولهذا السبب عهدوا الى حسين حلمى باشا أيضا - وهو محل
ثقتهم الكبيرة - بنظارة الداخلية - والتزم كثير من الذين لم يرضوا هذا
الوضع بجانب كامل باشا وبدأت المخاصمة صريحة بين الطرفين . أما
الصحافة فلم تكن تفكر فى المشروطية وانما كانت تفكر فى مدى الافادة
التى تعود عليها من كل أعضاء الاتحاد والترقى أو من كامل باشا ومؤيديه .
وكشفت الحرية تماما عن مدى استعنادنا وقابليتنا لها : وبفضل المشروطية
عرفنا تماما فى ثلاثة أو أربعة أشهر مدى قدرتنا ومدى عجزنا فى أمور
كثيرة وظهر الخطر بجلاء واضح فى هذه الأثناء تشكلت جمعية الاتحاد
المحمدى ولم يكن لها داع أن مؤسسها الدرويش القبرصى كان معتوها
وكان منغيا فترة الى الأناضول .

كان لسعيد باشا ابن كامل باشا فى هذه الأثناء نشاط ضخم وكان معه كثير من المعارضين للجمعية وكذلك كان معه اسماعيل كمال بك أيضا .

وعلمت ان خلافا كبيرا حدث بين الجنود ورأيت أنه من الخطر الكبير غير العادى على وعلى الدولة حدوث ثورة وبشكل خاص تدخل الجنود فى أعمال مثل هذه الأعمال . أخبرت حسين حلمى باشا بالموقف بل واستدعيت فى احدى الليالى وزير الحربية والغازى مختار باشا زاده محمد باشا قائد القوات الخاصة الى السراى وكان معنا الصدر الأعظم وتباحثنا فى الأمر بحثا طويلا .

قالوا انهم يقدرّون خطورة الموقف وانهما سيتخذان فورا التدابير اللازمة ولكن عندما اتخذت هذه التدابير كان الموقف قد اختلط وتغير وتعقد تماما . عجز السلطة كان واضحا فقد أعلنت الصحف والجمعيات والنوادي وبشكل مثير عن حريق ٣١ مارس .

لم أتدخل حتى لا أكون شريكا فى مسئولية الواقعة . كان يمكن لحكومة حسين حلمى باشا قمع هذه الفتنة خلال ساعتين لو كان لديها العزم الصادق على هذا . يقول رجالى بعد أن حققوا فى الأمر أن هذه الواقعة بدأت بعدد قليل من العسكر . وكان سعيد باشا ابن كامل باشا هو الذى أتى برجل البانى اسمه الجاويش حمدي وأمدّه بالمال اللازم ودفعه لتحريض هؤلاء العسكر .

لم أقابل سعيد باشا الا مرة واحدة وكانت بعد المشروطة وسبب هذا كان تذكيرى لوالده - الذى كان صدرا أعظم فى ذلك الوقت - بمنع الحكومة رسميا نشر هجوية ضدى بعنوان المحكمة الكبرى نشرت وبيعت فوق الكبرى . منع نشرها وغيرها مما شاكلها . وقد استدعيت سعيد باشا بصفته ياورا لى وكلفته بإبلاغ الصدر الأعظم أمرى وارادتى فى هذا الشأن .

طبعت المحكمة الكبرى قبل ذلك فى أوروبا . وقد علمت بعد التحقيق ان كاتبها بكباشى - لا أستطيع تذكر اسمه - من معلمى المدرسة الحربية فنفيته . لقد أخبرنى ابنى أحمد الأمير وهو يبكى وهو فى أشد حالات التأثر انها طبعت فى استانبول أيضا بل وتوزع علانية . وبدافع من هذا التأثر فقد كنت استدعيت ابن كامل باشا هذا . ومن كان مثلى وفى مثل هذا الموقف كان من واجبه ومن حقه الطبيعى أن يتصرف بمثل هذا التصرف

فلقد كنت سلطانا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كنت أمام عملية اهانة
علنية موجهة الى شخصي مليئة بأقذع السباب .

اننى أسامح أمتى مسامحة تنطوى على الصدق والاخلاص ولكن ليست
حياة ثلاثة أشخاص أو خمسة هي حياة أمتى التى أكن لها الحب وروح
بلادى المخلصة ، لا تسب ولا تشتتم سلطانها التى تعود شعبها اعتباره أبا
وذلك منذ ستمائة سنة .

فلنعد الى موضوعنا لو لم يتردد حسين حلمى باشا ورفاقه ولولا أنهم
تقاعسوا عن أداء واجبهم لانتهدت حادثة ٣١ مارس فى ساعة واحدة .
استقالت وزارة حسين حلمى باشا بعد أن أحاط الحريق بالمدخنة . طالب
المجتمعون فى ميدان أيا صوفيا بصدارة كامل باشا وأن يكون ناظم باشا
وزيرا للحربية ونظروا لانهم لم يكونوا حذرين فانى أوصيت بتعيين توفيق
باشا وهو محايد . فى الصدارة العظمى وبتعيين الغازى أدهم باشا وزيرا
للحربية .

كنت أعلم أين يختفى كبار رجال الاتحاد والترقى (بعد هروبهم)
وأصيبت أمرى الى رجال أثق بهم بأن يحافظوا على أحمد رضا بك الذى
نقل ليلا وخفية من الباب العالى الى منزله الكائن فى مقرى كوى .

قرأت فى الصحف بعد ذلك أن لى يدا فى مقتل على قبولى بك ، رفضت
هذه القرية باشمئزاز ، حتى لو كانت هناك ضرورة للانتقام وأسففت
بنفسى ، وتدريت بها الى هذه الدرجة الحقيرة ، فهل أقتل رجلا مثل على
قبولى بك ، وهو لم يكن له دور فى الانقلاب لا من الدرجة الرابعة ولا حتى
من الدرجة الخامسة أو بمعنى أصح كنت أقتل رجلا لم يكن له أى ذنب
مطلقا فى هذا الأمر ؟

وفى مجال اتخاذ الجمعية من الاجراءات الاحتياطية ضدى كانت مسألة
تعيين محمود باشا ابن الغازى مختار باشا قائدا للقوات الخاصة . ومع
هذا فانى أنا الذى أنقذت حياة محمود باشا هذا . من الموت أثناء ضجيج
٣١ مارس ويثبت هذه الحقيقة وثائق دار البرق فى كل من يالدين
وقاضى كوى .

ساعدت جمعية الاتحاد والترقى ، وعدم خبرة الحكومة التى استندت
اليها هذه الجمعية وبسوء تدبيرها على أحداث ٣١ مارس ولقد أفاد من هذا

مجموعة من معارضى الاتحاد والترقى وعلى رأسهم سعيد باشا ابن كامل باشا واسماعيل كمال بك ولم تكن هذه المجموعة على دراية بالصحافة وتجهل الاحساس بالخطر وكذلك كانت تزيد النار اشتعالا . قامت الصحافة الصادرة فى أول نيسان وبشكل عام بامتداح القائمين بهذه الحركة وذهب مراد بك فى جريدته الميزان الى أبعد من ذلك . فقد أطلق على الجنود الذين قاموا بقتل ضباطهم لقب « الغزاة » وقارئ الميزان فى ذلك الوقت كان مقتنعا بأن مراد بك هو منظم هذه الحركة بالإضافة الى هذا فان مراد بك محرر الميزان لم يكن عنده حتى أدنى خبر عن ان حركة كهذه ستحدث .

انه هكذا وضع نفسه فى هذا الاطار وجمله وأخذ يكيل المديح فى هذه المسألة ، مثلما يفعل فى كل أمر آخر ، ولو كانوا زجوا بمراد بك ضمن المصلوبين فى هذه المسألة ، فان ذلك ليعد ذنبا كبيرا .

الم أحب مراد بك فى أى وقت من الأوقات . انه رجل كان يثق بخياله أكثر من ثقته فى الحقائق التى يشبثها الآخرون : لقد تقرب الى عن طريق يوسف ضيا باشا رئيس لجنة المهاجرين ، وذلك عندما أصدر جريدته - الميزان - لأول مرة فى استانبول .

كان يوسف ضيا باشا غريما لكامل باشا الصدر الأعظم وقتذاك وكان مراد بك يرضى - ولأقصى حد - رغب رضا باشا ، بذلك الهجوم الشديد الذى كان يشنه على كامل باشا (فى جريدته الميزان) .

وفى أشد أوقات المسألة الأرمنية حرجا ، قدم (مراد بك) لى مذكرة عن طريق الحاج على بك رئيس البلاط . قابلته وتحدثت معه طويلا . كنت قابلته عدة مرات قبل ذلك . وكان يبدو من تصرفاته فى ذلك المساء انه كان يريد الظهور أمامى بمظهر المرشد والموجه لى . كان له معروضات أخرى ، غير تلك المذكرة التى نشرها أخيرا . ليته كان نشر معروضاته هذه ، لكان ظهر بوضوح بالغ صعوبة تنفيذ اقتراحاته لأنها من الخيال ، المحال تطبيقه وفى هذه الحالة كان لابد من احقاقى فى رأى فيه .

مراد بك رجل حسن النية ، لكنه كان يثق فى نفسه كثيرا ومغرم أيضا وبدرجة مفرطة بالجمال . وكان الاحسان يأسره الى أقصى درجة . وعيوبه هذه كانت تجعله فاشلا فى كل ما يقوم به .

لم تكن معركة ٣١ مارس هى التى دفعت مراد بك اليها ، لكنه هو الذى زج بنفسه فيها ، كان قد جلب على نفسه عداء الدنيا بمهاجمته

للأوضاع ، وللضباط الذين قدموا من الجيش الثالث ، ثم مهاجمته للجنود والمدنيين الذين انضموا للجمعية بعد ذلك .

كان لابد أن تنفجر هذه المواد المشتعلة التي كانت الأحداث والادارة غير المقتدرة ، بعدها كل يوم وبشكل متغير ، حتى ان تأخر انفجارها الى ٣١ مارس لأمر يبعث على الحيرة . وفي الوقت الذي لم أكن فيه مجبرا على تقديم حساب لأحد ، أقسم وأؤكد بأننى عملت ما فى وسعى لقمع الشر وأظن أن لمساعى الأخيرة دخلا فى مسألة تأخر انفجار الخطر .

كلما زادت اهتزازات أعصاب أمة ، كان أعضاء الاتحاد والترقى يزدادون استعلاء وتهديدا ، وأعلن أحمد رضا بك رئيس مجلس «المبعوثان» فى مأدبة بلغت أقصى غايات الضخامة أقيمت فى فندق « بيرا بالاس » قبل حادثة ٣١ مارس بشهرين ، أعلن فى خطابه المهول وبصراحة بالغة ، أن جمعية الاتحاد والترقى ستقهر وتنكل بكل معارضيه . أفلم تكن حادثة ٣١ مارس رد فعل مؤلم للضجة التي أثارتها الصحافة حول هذا الخطاب ؟

كانت صحف الجمعية تخيف الدنيا بالموت والحريق ، هؤلاء الوثاقون بأنفسهم لم يتدنوا فى أى وقت من الأوقات الى درجة التأثير بهذا التخويف . أما هؤلاء السادة الذين تحكموا فجأة فى مواقع السلطة فقد أعلنوا مرة أخرى عن ضعفهم مع كل تخويف بواسطة أدب التخويف الذين اتبعوه .

لو تركنا جانبا الأحداث الصغيرة والعديمة الأهمية فان العوامل والأسباب الرئيسية لواقعة ٣١ مارس هي ما كتبتة .

ان عدم وجود أى شخص مطلقا من ذوى الصلة بالقصر سواء من قريب أو من بعيد ، بين القائمين بالحركة ليثبت ألا دخل لى فى هذه المسألة . يظهرون ان وجود تقرير أو تقريرين من تقارير المباحث بين أوراقى بعد ١٠ تموز يكفى لاثبات أننى اشتركت بعد (اعلان) المشروطة فى أعمال مثل هذه الأعمال . . حقيقة هذه المسألة أن توتون قيبيجسى مصطفى أفندى « أحضر لى مرة أو مرتين بعض أوراق وقبيلتها لمحضض الاطلاع على مجرى الأمور فقط . وسمعت أن رئيس الكتاب جواد بك قد أخذ مصطفى أفندى لشغله السلطان بأشياء مثل هذه الأشياء ، بل وأخطره ألا يعود الى مسألة كهذه مرة أخرى . وقد أحققت جواد بك على هذا .

كان البنك العثماني هو أول من أخبر بتحرك جيش الحركة من سلانيك ، ولم يصعب على فهم ما وراء هذه القوة القادمة من اختلال للأوضاع ، كذلك لم يصعب على فهم مضمون هذه القافلة التي يحمل قوادها

لقب الفدائيين كان جنود جيش الخاصة الذى يعسكر فى العاصمة على أكمل وجه من الاستعداد وكانوا جنودا منتخبين مخلصين لمقام الخلافة ولشخصى .

وقد أوصانى مجموعة من رجال الدولة وفى مقدمتهم ناظم باشا بإيقاف جيش الحركة فى الطريق قبل وصوله لكنى رفضت . أخبرونى بأن جزءا من الجيش المعسكر فى أدرنة انضم الى جيش الحركة ، ولم أضطرب إطلاقا لأن ليس من بين أعمالى شيء أخاف منه .

طلبت ، ونبهت بشدة ، ألا يخرج الجيش الموجود فى استانبول من ثكناته ، أثناء تحرك جيش الحركة من أيا سطفانوس الى استانبول ، وألا يشتبك معه . ألم يكن فى إمكان جنود استانبول فى حالة خروجهم من ثكناتهم وانتشارهم على أعالي كاغدهخانة أن ينتصروا على ذلك الجند القادم من سلافيك وهم فى حالة يعوزها النظام .

لم أرغب فى أن أريق دماء جنودى . كنت أرى أن الأمة لم تعد تشق بي . وكنت سأنسحب من تلقاء نفسى وأدع مكانى عندما تسكن الأمور وتهدا . كنت أبديت رغبتى هذه من قبل ولكنهم عارضونى عندما التقيت لأول مرة مع أحمد رضا بك قال لى معارضى هذا القديم :

« سيدي ، ليس ثمة اختلاف قط بينكم وبين شعبكم ، فمنذ سلطنة جلاليتكم على البلاد ، فانكم ستتفضلون ببذل خدماتكم للملكم كتلك التى بذلها ميقادو لليابان » .

وتحت عنوان : « تركيا الفتاة تتعاون مع الأرمن فى الخارج ضدى » قال السلطان عبد الحميد فى مذكراته : لم أكن أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال وخاصة بعد معرفة اثاره الدول الكبرى لهم بلا توقف لكننى أدهش لأن بعض أفراد تركيا الفتاة الذين هربوا الى أوروبا وأصدروا هناك صحفا ضدى كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية ، كما أدهش لأنهم كانوا يأخذون منهم أموالا أيضا .

كانوا يقولون أنهم يريدون انقاذ الدولة العثمانية من التمزق ، ثم يتعاونون مع الذين يعملون على تفتيت الدولة ويتعاهدون معهم .

ترى : الى أى مدى كان يصل بهم الأمر لو لم أوقع بينهم ؟ هل قيام دولة أرمنية فى بطن الأناضول شاهد اثبات على وطنيتهم ؟!

أسجل هذا للاعتبار به ، ولمعرفة من يكون صديقا لمن ناصبوني
العداء .

وبينما يبكي الوطن اليوم : أجد التفكير فيهم أمرا يؤذيني ويغمني .
ويقول السلطان عبد الحميد تحت عنوان : انهم لم يهزموا عبد الحميد ،
وهاهم قد هدموا الدولة العثمانية « كم هو تجل غريب : أن يصل
العثمانيون الجدد - الذين هربوا الى أوروبا ، الى مرامهم باسقاط عمى
عبد العزيز خان . سقط عبد العزيز خان ، وقامت من بعده فورا الحرب
الروسية - (العثمانية) عام ٩٣ ، فأخذت معها نصف منطقة الروملى .
ومثلهم تماما - الأتراك الشبان - (تركيا الفتاة) الذين هربوا الى أوروبا
لاسقاطى ووصلوا الى مبتغاهم ، ثم دخلوا الحرب العامة فأضاعوا
الامبراطورية العثمانية .

كل من الفريقين تعلم في داخل البلاد . كل من الفريقين أيضا كان
معجبا بالغرب . كل من الفريقين أيضا كان يرى الخلاص الوحيد للبلاد
بتركيز فى المشروطية . كل من الفريقين اتخذ جزءا من الجيش لتحقيق
آماله والجيش الذى اعتمد عليه كل من الفريقين متمزق الأوصال من
الداخل .

نعم ، كم هو تجل غريب جدا أننى عشت أحداث الحادتين ، جربت
بالصبر ما لم يستطع عمى عمله بالغضب . وعملت أنا على الصفع والعفو
فيما لم يستطع عمى النجاح فيه بالعقاب .

انظر الى تجل أكثر غرابة : العثمانيون الجدد وتركيا الفتاة كانوا
يؤازرون جميعهم الدول الكبرى التى ترغب فى تمزيق أوصال الدولة
العثمانية وتفتيتها . كان هؤلاء الشبابة أمل الدول الكبرى . نفذوا
ما تشاؤوه هذه الدول ، فان فى هذا خلاص الدولة العثمانية واذا لم تكن
آذانهم صاغية لأقوالهم ، فان فى هذا زوال الدولة العثمانية !!!

وفى المرتين انهزمنا ، مع أننا نفذنا ما أرادوه فعلنا ما قالوا . فهل
تفتحت بعد كل هذا أعين الذين يعيشون فى آخر حفنة من تراب الوطن ؟
أرجو الله هذا .

أولادى !! هم هؤلاء الأبناء الذين أعدهم هذا الوطن ، وقد جابوا
هذا العالم الكبير ، فكيف لم يفتنوا الى الحقيقة التى رأيتها وأنا فى قصرى
بين أربعة جدران !

ويتساءل السلطان عبد الحميد . . كيف لم يفتنوا الى أنهم أغرقوا
بأيديهم بلدا عظيما هائلا روته دماء الأجداد ؟

لا أجزم أحدا ، ولكن ، كانوا بأنفسهم يرون ان الانجليز والفرنسيين
والروس ، وحتى الألمان والنمساويين أى كل الدول الأوروبية الكبرى ،
وجدت مصلحتها فى تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها كانوا أعداءها
والمشاهد أن هذه الدول الكبرى تنهش فى بعضها البعض لكنها سرعان
ما تتفق وتتحالف اذا ما تعلق الأمر بمقاتلة العثمانيين ، أما ما لا تتفق
هذه الدول فيه فهو : من سيحصل على نصيب أكبر من أراضى الدولة
العثمانية .

ويقول السلطان : انه لا يتصور أبدا أن شباب تركيا الفتاة قد خدعوا
وكان رجال تركيا الفتاة - فى البداية - لا يزيدون فى الأصل على ثلاثة
أشخاص أو خمسة عملوا ضدى عدة سنوات فى أوروبا : تكلموا ، خطبوا ،
ألهبوا ، كل ذلك قبل أن يفكروا فى أن العمل ضدى معناه أيضا العمل
ضد الوطن ، كانت صحفهم التى يصدرونها تأتى خفية الى البلاد عن طريق
البريد الأجنبى وتوزع بواسطة الأجانب . مضت أعوام ولم تحدث اثارة
جدية هامة لهذا ، لأنها لم تكن أعمالا تنبع من أفكار جدية هامة .

ورغم هذا ، فانى كنت على صلة بهم ، وحتى لا يتورطوا فى شىء
نتيجة لافلاسهم - وهم فى بلاد أجنبية - فقد بذلت لهم مساعدات مادية
كبيرة بحجة شراء صحفهم ، وأغمضت عيني عن ارسال بعض الأشخاص
للقود الى البلاد ، لكى لا يكونوا أداة للأجانب ، وكنت أقول أن معارضتهم
- رغم خطئها - فانها يجب أن تظل شريفة .

هناك أيضا بعض الأسباب التى دفعتنى لذلك . أحمد رضا بك
- وكان مديرا للمعارف فى بورصة - سافر الى أوروبا بحجة الدعاية
للمنتجات الحريرية البورصوية فى معرض باريس الذى أفتتح بمناسبة
مرور مائة عام على الثورة . فذهب ولم يعد ومن هناك أرسل لى - لائحة
اصلاحية - قرأتها ولم يكن فيها شىء فهو لا يعرف البلاد ، ولا يعرف
ما يمكن أن تفعله هذه المقترحات أهملتها .

وتحت عنوان : « أعدائى من تركيا الفتاة كلهم من أعضاء المحفل
الماسونى الانجليزى » يقول السلطان عبد الحميد فى مذكراته : لم أستطع

أن أفهم كيف سارت رغبة اسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخى مراد مرة أخرى . هل لأن أخى السلطان مراد كان مثلهم ماسونيا ؟ أم لأن التفكير أفضى به الى أنه من السهل عليه أن يضغط على أخى مراد ويجعله آلة ينفذ كل شيء ؟ . حتى الآن لا أستطيع تقدير هذا .

لابد للتاريخ يوما أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم . استطعت أن أعرف من تحقيقاتي ان كلهم تقريبا من الماسون وأنهم منتسبون الى المحفل الماسوني الانجليزى . وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ، ولابد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات انسانية أم سياسية .

وكما قلت من قبل ، ان ذهاب كمال بك الى ماغوسا (منفيا) ثم إرساله الى (جزيرة) ميديللى ، كان بسبب عدم قدرتي على الاساءة الى قلمه ووطنيته والا فانه كان سيشترك فى أعمال توجب توقيع أنواع من العقاب أكثر ثقلا عليه .

كان محظور أن يبقى (نامق كمال) فى استانبول فالمحيطون به يحرضونه ويستخدمونه كما يريدون ، ولذا حبسته . نفيته لكن محبتي له لم تنتقص فى يوم من الأيام ، ليكن فى أى مكان ، لكنه هو وأسرته كانوا يعيشون مرفهين والخطابات التى أرسلها تعبر عن امتنانه وشكره . وهى محفوظة بين أوراق يلديز ، ولابد أن توجد اذا ما بحث عنها ، كان المرحوم يدرك ويعرف نقطة ضعفه جيدا . . عليه رحمة الله .

ويمضى السلطان عبد الحميد - فى مذكراته - قائلا :

يقال ان مدحت باشا ساومنى قبل جلوسى على العرش فى نهاية هذه المساومة جلست على العرش . كما يقال ان مدحت باشا تحدث معى فى ارتقائى العرش أثناء تولي أخى السلطنة ، وأنه اشترط على بعض الشروط لكي أستطيع أن أصبح سلطانا ، ويقال أيضا ان هذه الشروط هى : اعلان القانون الأساسى (الدستور) وتعيين ضيا بك وكمال بك فى السراى ، ويقال ان تنازلى عن العرش فى حالة شفاء أخى من ضمن هذه الشروط . ومع ذلك فلم يكتف بذلك بل أخذ على كما يشاع تعهدا بتنازلى عن العرش فى حالة شفاء أخى مراد ، وحتى أنه قيل أن اضطهادى لمدحت باشا كان من أجل حصولى على هذا التعهد منه .

لا أصل لهذا ، والحقيقة هى أن كلا من الصدر الأعظم رشدى باشا ومدحت باشا أجريا معى - أثناء مرض أخى - معاهدة ، لكن أحدا منهم لم

يتحدث معى فى أى شرط ، كذلك لم يجعل فى موضوع الحديث شرطا من هذه الشروط فى هذه المحادثة . لم يتحدثا عن مرض أخى بشىء . ولم يذكر أشياء عن ارتقائى العرش وكل ما هناك أنهما أخبرانى بأن مدحت باشا قال انه وجد من أخى السلطان مراد رغبة فى القانون الأساسى ، وأن بعض الاستعدادات قد حدثت فى هذا السبيل ، وحاولت أن أعرض عليهما أفكارى فى الموضوع ، وقلت لهما اننى حريص على اعلان القانون الأساسى (الدستور) .

والحقيقة أننى كنت أفكر فى هذا فى تلك الأعوام ولا سيما اننى أعلنت القانون الأساسى بعد ابعاد مدحت باشا ، ودعوت المجلس للانعقاد عند دخولنا الحرب ، وأمرت أن تستمر أعمال المجلس طوال وقت الحرب . أما الباقى فكذب فكيف أكون سلطانا وأوقع على مستند يأخذه على وزيرى ؟ وكيف يجن وزيرى ويجرؤ على وضع شرط على سلطانه ؟

انها أشياء استحسناها - من بعد - أشخاص مخبولون . مدحت باشا كان وزيرا حريصا وجسورا ، ولكنه لم يكن أيضا مجنونا

تقييد سلطان يرتقى العرش بتعيين ضيا بك ونامق كمال بك فى السراى غير معقول ، فليس الأمر أمر سلع مختلفة هل تعيين كل من ضيا بك وكمال بك فى السراى يقيد يدي وذراعى ؟ ألم أكن أستطيع بكلمة واحدة منى فصلهما من عملهما ؟ انه شرط يصعب على العقول تصوره .

يأتى الكلام ببعضه ، فأقول : ان ضيا باشا كان رجلا لا يشبع من نعمة ولا من منصب وعلى قدر ما كان نامق كمال بك مخلصا كان ضيا بك جشعا محبا للمادة . فعندما عينته واليا على سوريا بدرجة وزير لم يمتن لهذا لأن عينه كانت مركزة على منصب الصدارة العظمى . كان شبيها بمدحت باشا فى كل ناحية فكما أرسل مدحت باشا - بعد ابعاده الى أوروبا - الهدايا والنقود الى أصدقائه فى استانبول عن طريق بعض الأرمن : أرسل أيضا ضيا بك (باشا) من سوريا ، وكان حريصا على ظهور مقالاته التى يكتبها بدون توقيع فى صحافة استانبول ، لا أستطيع أن أعرف بالضبط مدى الحد الذى كان يباشر به أعماله فى ولاية سوريا ، لكننى أعرف يقينا أنه كان يرسل الى بعض الأشخاص فى استانبول من عشرة الى خمسة عشر خطابا فى اليوم .

ذات يوم وصل ضيا باشا الى أزمير وأدلى بحديث الى محرر إحدى

الصحف الأجنبية قال فيه ، وبطريقة مستهترة ، كلاما خارج حدود الأدب
قال : السلطان في البلاد التي تدار بالقانون الأساسى خادما للأمة .

أعرف ان الحاكم فى كل أمور الحكم يكون فى خدمة أمته وليس
(خادما) لها . والحاكم فى البلاد التى تحكم بالقانون الأساسى (الدستور)
يحول قسما من اختصاصاته الخاصة بالأمة الى المجلس الذى أقامه وليس
فى هذا عمل من أعمال الخدم .

وضيا بك هذا الضال المتغطرس يقول هذا ويعمل على تحقير السلطنة
ويتناول عليها . والمعروف أن السلطنة حرصت الدولة العثمانية حرصها
على انسان عينها . وكان الصدر الأعظم فى ذلك الوقت هو مدحت باشا
أغمضت عينى وبدوت كأنى لم أسمع شيئا حتى لا تتصعد المشكلة .

ولكن عندما وجدت أن ضيا بك (باشا) من خلال صحف استانبول
— يجمع عن طريق مؤيديه عدة آلاف من التوقيعات لكى يصبح نائب أمة —
أخطرت الصدارة العظمى بمذكرة جاء فيها : اننى لا أجد من الصواب أخذ
شخص فى المجلس سبق له أن أساء بتصرفاته الى حاكمه . يريدون اتخاذ
هذه المذكرة وثيقة على استبداد يا ترى لو أن شخصا فى انجلترا حقر الملك
الذى يثق به مدحت باشا ورفاقه ، وحقر الملكية فهل يقابل هذا الشخص
بالتصفيق أم بالاعتراض عليه ؟

ويذكر السلطان عبد الحميد أن المحافل الماسونية كانت تساعد أسر
وعائلات الثوار ضده فيقول :

رأيت خطابا تسلمه أحمد جلال الدين باشا من على كمال بك فى مصر
وغالبا ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر يلديز . فيه أسماء ومصادر
التمويل اسما اسما . وفى هذا الخطاب أيضا يذكر ان الدكتور عبد الله
جودت . والدكتور اسحق سكوتى ، والدكتور بهاء الدين شاكر ، والدكتور
ناظم والدكتور ابراهيم تيمو ، ينتسبون الى المحافل الفرنسية والايطالية
وان هذه المحافل تسلم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيد .
هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات .

ويقول السلطان عبد الحميد أيضا عن الماسونية : ان الصحف التى
صدرت فى أوروبا ومصر بمختلف أسمائها ورجال الجمعية الذين كانوا

يتنزهون في هذه البلاد لم يخرجوا للبلاد كاتباً جاداً واحداً ، ولكن محافل
الماسونية - رغم تعقّبنا لهم - جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلاماً ، عندما
حركوا الضباط من أعضاء الاتحاد والترقى . وتلك هي قصة تركيا الفتاة
وجمعية الاتحاد والترقى .

نعم ، هذه هي الحكاية ، حكايتهم ولكن النتيجة نشاهدها اليوم بكل
أسف أمام أعيننا .

سيقولون لي : انك تعلم كل هذا ، ومع ذلك لم تتصد له ولم تمنعه .
لماذا أغمضت عينيك عن خراب الدولة وانهيارها ؟ حاشا !!

ليست المسألة مسألة اغماض عين ، لقد كنت يقظاً في كل لحظة لكني
لم أكن أستطيع منع هذا . كنت بمفردي وكان معهم كل عالم العدو . لم
تكن طبيعتي وظروفي تساعدني الا بهذا القدر .

يدينني أصدقائي بأنني متساهل ، أما أعدائي فيقولون اني ظالم
غدار .

والجانبان مخطئان ، فلا أنا كنت السلطان سليم الأول ، ولا بلاد
السلطان سليم الأول كانت تحت أمرتي .

الاطاحة فوراً بعدة رؤوس كلام من السهل قوله ، من الصعب تنفيذه
وكل رأس انسان تفتح أمام الانسان هوة ، ولو استطعت أن تملأ هذه الهوة
فسيخافون منك ، وتستطيع عندها أن تهدد ، وكل ما تهدد به سينفذ .
وفي حالة تغطية هذه الهوة فليس هناك شيء قط يمكن عمله ، وأنا انسان
رحيم منذ ميلادي ولكني أعلم أن الدولة لا يمكن أن تدار بالرحمة .

كل ما استطعت عمله عملته ، ولو كان السلطان سليم الأول في
عصرنا لكان يمكن أن يعمل مثلما عملته أنا .

أديت واجبي ، وسعيت وراء الصالح ، وحرصت ألا أؤذي الأهالي ،
عارضت سفك الدماء في كل مكان ولكن عبثاً ما فعلته » .

وتضيف الأميرة شادية الى ما قاله والدها السلطان في هذه النقطة
قائلة : كانت جميع شعبالاتحاد والترقى سواء تلك التي تكونت في
العاصمة (استانبول) أو في المراكز ، والبلدان الأجنبية في حماية
الدول العظمى .

ومن مذكرات السلطان عبد الحميد ما كتبه عن شخصية نامق كمال بك :

« يعد نامق كمال بك من بين الذين لم ينالوا منى حقهم كاملا ، ربما يكون في هذا بعض الحقيقة . كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم اسم (العثمانيون الجدد) . كان انسانا منضبطا جدا ، لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة ، ولا تتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية ، يمكن والى حد كبير أن نجزم بأن انسانا ما يستطيع عمل أمر ما أو لا يستطيع ، لكنك لا تستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال وأنت تفكر في كمال بك ، ذلك لأنه هو نفسه لا يعرف نفسه ، تستطيع أن تقول أنه واحد من الأشخاص النادرين الذين يحيون حياتين مزدوجتين في حياة واحدة ، نختلف الواحدة عن الأخرى حسب مزاجه ، من يعرفوه عن قرب يعرفوا أنه عندما كان على وئام مع السراي ألف كتابه (التاريخ العثماني) ، وبمجرد أن فسدت هذه العلاقة ، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله : (كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف) انه انسان متقلب ، ربما كان انسانا مخلصا جدا ، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك ، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار .

عند كتابة القانون الأساسي (الدستور) تولى هو أيضا إعداد مشروع له ، كان مختلفا مع مدحت باشا في هذا الموضوع رغم صداقتهما الحميمة . في البداية كنت أدهش له كثيرا ، لكنني بعد ذلك فهمته كان يجعل الأسرة العثمانية كثيرا ويريد لكل أفكار الإصلاح أن تتم في اطارها ، وكان في هذا على عكس مدحت باشا الذي كان يفكر في تحيين فرصة من الفرص ينهي فيها حكم آل عثمان ويحل هو محلها .

ما أعجب هذا . . . مدحت باشا يقول ذات ليلة : ماذا يحدث لو حل آل مدحت محل آل عثمان وفي اليوم التالي يأتي الى نامق كمال بك ويخبرني بذلك .

في الأيام التي كانت اللجنة (الدستورية) تدرس وتبحث فيها القانون الأساسي (الدستور) أتى نامق كمال بك الى السراي وطلب سرعة مقابلتى ، أخبرنى بهذا سعيد باشا ، وكان عندي بعض المشاغل ، فرغبت أن يقابلنى في يوم آخر ، أصر على مقابلتى وقال : يجب أن أراه بسرعة فما لدى أهم . وقابلته .

كان في أشد حالات الاضطراب ، وجهه أصفر ، يدها ترتعشان ،
أدى الاحترامات الواجبة وقال :

— لابد أن تتدخلوا في القانون الأساسي الذي يعد الآن ، والا فمعاذ الله
ستنتهي الدولة العثمانية .

هدأت من روعه قليلا ، وحكى لي ان مدحت باشا يضغط عليه بدافع
من الصداقة الوطيدة بينهما . لكنه أصر على رأيه ، وقد تم التفاهم مع
سليمان باشا ، ويبدو أنهم سينقلون كل حقوق السلطان الى المجلس .

لو نجحوا فيما يقولونه فمعاذ الله ستنتهي الدولة ، فكرت فيما يجب
عمله ، وجدت أن لابد لي من الاعتراض على هذه المحاولات .

ما قاله نامق كمال بك كنت أعرفه ، فقد كان عندي خبر به ،
وتتبعته هذه المحاولات وأنا أحس ببعض الأسى في تلك الأيام : كنت مخلصا
في مسألة اعلان القانون الأساسي (الدستور) كان والدي المحترم السلطان
عبد المجيد الأول هو الذي أقنعني بهذه الفكرة ، ولم أكن أختلف مع
مدحت باشا اطلاقا في هذا الموضوع ، لكنني كنت أرى أن يعاون السراي
المجلس ، ومدحت باشا يريد أن يضع السراي على الهامش .

في ذلك اليوم رأيت ان نامق كمال بك يفكر مثلي ولا أستطيع ان
أخفي أنني كنت ممتنا جدا لذلك .

ومع هذا . فأنني لكي أجعله يتكلم أكثر سألته عن أي مادة من المواد
ورد فيها هذا ، اتسعت عيناه دهشة وحيرة ، وقال :

— يا سيدنا ، هذا المجلس سيشكل من عناصر مختلفة ، وعلى قدر
ما يلزم من التفكير في الجانب الحسن في أمر من الأمور على قدر ما ينبغي
اتخاذ التدابير لجوانبه السيئة ، الدولة العثمانية موحدة في شخصكم وأنت
اليد الأمانة لصاحبها الحقيقي وهو جناب الله . فإذا كان في سلطتكم
واقتراركم عقد المجلس في حالة ضرورة فانه من حكمة الدولة ضرورة أن
يكون من سلطتكم تعطيل هذه اللجنة (الدستورية) .

فهمت مم يخاف . واعترف أنه كان انسانا وطنيا . كان يرى أن
بقاء الملك فوق كل شيء .

ويعلق مترجم مذكرات السلطان عبد الحميد ، د . محمد حرب
بترجمة كتبت من قصيدة نامق كمال المشهورة ، وهى أول عمل أدبى فى
اللغة التركية العثمانية حملت أول بذرة للفكرة القومية فى الأدب التركى
والمقصود هنا أن الشاعر هجا السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة ، وبذلك
باعدت القصيدة بين السلطان وبين نامق كمال . (حرب) . والجدير
 بالذكر ان نامق كمال نفسه كان وصف السلطان عبد الحميد ، فى عريضة
قدمها اليه بقوله :

• أنت أيها السلطان ، الامام الربانى لهذا الزمان ، وانك حقا سلطان
العالمين .

وفى عريضة أخرى قدمها نامق كمال للقصر ، مدح السلطان
عبد الحميد بقوله :

• ان مقصد سلطاننا هو راحة الشعب والأهالى لذلك فلاحترام
واجب لهذا السلطان العظيم أنه جدير بأن نلتزم الموت فى سبيله .
وكان نامق بك قد هاجم السلطان بقوله : فى عهده ، ذهب الدين
وزهبت الدولة .

ويقول السلطان عن شخصية أخرى من شخصيات الاتحاد والترقى
• • الدكتور ناظم بك السلانيكى : انه اتحادى حقود وكان يعمل ضدى
مع أحمد رضا بك (أحد أعضاء مجلس الأعيان وقد أصبح رئيسا له)
وكانوا يقولون لى - للسلطان - ان الطبيب السلانيكى ناظم بك أحد
أركان الاتحاد والترقى المتعصبين كان معجبا بنفسه ولا يعجبه أحد : كان
رجلا لا يصادق فلا مودة فيه ، وكنت - السلطان عبد الحميد - أتعقب
أحيانا من مكاني فى القصر حياة وحركات المخالفين لى ، كما أعرف أن
الدكتور ناظم بك لا يعمل بمهنته الأصلية وهى الطب وانما يشتغل
بالسياسة ، ولكن ما هى السياسة التى كان يشتغل بها ؟ هذا ما لم يكن
واضحا فقد كان يشتغل بسياسات مختلفة ، لكنهم قالوا : انما كانت له
ميزة واحدة : انه كان متميزا بين رفاقه بحرصه الشديد على رفضه أية
مأمورية يكلف بها صغيرة كانت أم كبيرة .

لن أتحدث هنا عن شخص الدكتور ناظم بك ، ذلك الرجل الذى وجد
فى نفسه الصلاحية لتجريد اسمى حتى من اللقب الذى حملته عن ارث

وجدارة ، وانما سأحدث عن هذا السب المبذل الذي وجهه الى وهو جالس
فى احدى القمرات الجانبية فى باخرة قاضى كوى

هل أشعل عبد الحميد حريقا أم لم يشعل ؟ وهل كانت المواد المساعدة
على الاشتعال موجودة أم لم تكن موجودة عبر فترة تشتت بلغت الثلثمئة
عام السابقة على عهد عبد الحميد !!؟

ليس هنا مكان مناقشة هذا ، لأنه تاريخ ، والدكتور ناظم بك ورفاقه
سيدخلون التاريخ ذات يوم .

وكان السلطان عبد الحميد يشير الى حوار جرى بين بعض الأشخاص
قال أحدهم : ان هناك حريقا فى البلد ، وان الفقر ضارب أطنا به فى هذه
الأيام . وعقب أحدهم (ناظم بك) على هذا بقوله : هذا الحريق تركه لنا
عبد الحميد انه سجن مدحت باشا ثم قتله ، واتبع طريقا كان ولا بد أن
يؤدى بنا الى هذا الحال .

ويقسو السلطان عبد الحميد على جمال الدين الأفغانى فيصفه بأنه
مهرج ، وعميل للانجليز ، جاء فى مذكرات السلطان عبد الحميد ،
عن جمال الدين الأفغانى ما يلى :

« وقعت فى يدى خطة أعدها فى وزارة الخارجية الانجليزية كل من
مهرج اسمه جمال الدين الأفغانى وانجليزى يدعى بلنت قالوا فيها باقصاء
الخلافة عن الأتراك ، واقتراحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة
خليفة على المسلمين .

كنت أعرف جمال الدين الأفغانى عن قرب . كان فى مصر . وكان
رجلا خطرا ، اقترح على ذات مرة - وهو يدعى المهديّة - أن يثير جميع
مسلمى آسيا الوسطى ، وكنت أعرف أنه قادر على هذا ، وكان رجل
الانجليز ومن المحتمل جدا أن يكون الانجليز قد أعدوا هذا الرجل
لاختبارى ، رفضت فورا ، فاتحد مع بلنت .

استدعيته الى استانبول عن طريق أبى الهدى الصيادى الحلبي ،
الذى كان يلقي الاحترام فى كل البلاد العربية ، قام بالتوسط فى هذا كل
من منيف باشا ، حامى الأفغانى القديم ، والأديب الشاعر عبد الحق حامد .
جاء جمال الدين الأفغانى الى استانبول ولم أسمح له بالخروج منها مرة
أخرى . . . !!

وعن مشروع الخلافة وسعى الانجليز لتحقيقه ، قال السلطان
عبد الحميد في مذكراته :

« ليست هذه آخر محاولة انجليزية في موضوع الخلافة ، فالانجليز
يحكمون مائة وخمسين مليوناً من المسلمين في آسيا وللخلافة نفوذ كبير
على هؤلاء المسلمين ، ولأنى كنت أعرف هذا ، كنت - ودون أن أثير شكوك
الانجليز - أرسل السادة الأشراف ، وشيوخ الطرق الصوفية ، والدراويش ،
الى مسلمى آسيا الوسطى ، وكنت أعرض عناية خاصة بربط مسلمى آسيا
معنويًا بالخلافة ، وانى أذكر بشكل خاص وبكل امتنان ، الخدمات التى
أداها فى هذا السبيل الشيخ سليمان أفندى البخارى بين مسلمى روسيا .
ورأيت فى هذا فوائد جمة ، ورأى الولاة العموميون « المندوبون السامون »
الانجليز فى الهند أن مسلمى الهند على رباط وثيق بالدولة العثمانية فكتبوا
الى حكوماتهم بضرورة التعايش فى سلام مع العثمانيين ولهذا سهل
عملنا قليلا .

أصابنا انجلترا الوسواس والشكوك من حملة الاستعدادات العظيمة
التي تبذلها ألمانيا فى أسطولها وان من الخطر العظيم لوجود ألمانيا قوية فى
البحار المفتوحة ، فى تلك الأيام اقترح الانجليز على الروس اقتسام الدولة
العثمانية . كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد : منع تقدم الروس
فى آسيا ، واكتساب حليف لهم ضد ألمانيا . لم يرغب الانجليز فى أى
وقت من الأوقات فى نزول الروس فى البحر الأبيض ، لكنهم ظهروا وهم
يضعون نصب أعينهم هذه التضحية ، لأن منافعهم فى آسيا كبيرة ومخاوفهم
من ألمانيا تتضخم .

رفض الروس هذا الاقتراح السرى الانجليزى ، لأنى كنت من ناحية
أقرب من القيصرية ، ومن ناحية أخرى أقرب من الألمان ، ومعنى اقترابى
من الألمان يعنى اكتساب الألمان فرصة الحركة فى مساحة تمتد حتى الهند
وهذا لا يريده الروس ولا يرضى الانجليز به فكان أن بدأ كل من الروس
والانجليز فى التصرف تجاهى تصرفات تتسم بمزيد من الود معنى .

لم يكن فى نيتى التحالف مع الألمان ، الظهور بمظهر المتحالف سيجعل
اتفاقي مع دولة تسود البحار العالية اتفاقاً غالياً له وزنه وكان على انجلترا
- لكى تطمئن على أمنها فى الهند وآسيا - أن تسلمت أحد طريقين اما
الاستيلاء على أراضى الدولة العثمانية ، أو الاتفاق معها ، وهى لم تكن

تستطيع الاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية ، فالدنيا كانت ستقف - في هذه الحالة - على قدم وساق . ونظرا لرفض الروس اقتراحهم أى اقتراح الانجليز فى التقسيم ، كان لابد لهؤلاء الانجليز أن يتفقوا معى ، ولهذا السبب أيضا سلكت انجلترا طريقين : الأول التقارب معنا فى السياسة . والثانى استخدام المحافل الماسونية وسيلة للاستيلاء على الحكم من داخلنا لصالحهم هم .

وكما استغل الانجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة ، عن طريق المحافل الماسونية ، بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر من هؤلاء الأعضاء ، وعن طريق المحافل الماسونية أيضا ، وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة فى سلانيك ، وسيطر الانجليز على تشكيل تركيا الفتاة فى مناستر .

ولكى أجبر الانجليز على اتفاق معى عهدت بعملية انشاء سكة حديد بغداد الى ألمانيا ، وكان غضب الانجليز عظيما ، ولهذا أيضا جروا علينا مصيبة مقدونيا . لم أهتم لهذا . فقد كانت كل الخيوط فى يدي ، ومهما كان الأمر ، فانهم كانوا سيقدمون الى الاقتراحات التى كنت أنتظرها .

كان الانجليز يشيرون على اتحادى مناستر ، ويشير الألمان على اتحادى سالونيك ، كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل . ونجاح الانجليز باستخدام اتحادى مناستر كان مصيبة بالنسبة لى لانهم كانوا سيزيلوننى ويصلون الى مرادهم . ولم أكن أخاف من اتحادى الألمان لأن نجاحهم كان سيزيد من خوف انجلترا .

اتحادىو سلانيك الواقعون تحت تأثير المحافل الماسونية الألمانية تحركوا بكل من أنور ونيازى . اغتيل شمس باشا ، وأضاع اتحادىو مناستر المحاولة .

بدأ الانجليز محادثات سرية عن طريق الرجل الذى أثق به أبى الهدى الصيادى ، واستطاع الروس أن يلاحظوا فى ذلك الوقت فقط أنهم قد خدعوا بسهولة .

نكبة آسيا فوقهم ، والمخربون مشيرو الاضطرابات فى داخلهم ولذلك كان على حكومتهم القيصرية أن تظل مفتوحة العين يقظة .

— ورغم كل ذلك فقد كتب لى القيصر رسالة خاصة يطلب فيها منى
معلومات .

ولسبب ما أوقف الانجليز مباحثاتهم السرية ، وأصبحت أرى أن
الحرب الكبرى التى أنتظرها وشيكة الوقوع ولكن لم يكن أمامى الا أن
أترك الأحداث تسير حسبما تسير ، ولم يكن أمامى غير منع اراقة دماء
الاخوة .

وما حدث بعد ذلك معلوم ويعرفه كل شخص .

أسقطنى اتحاديو سلانيك عن العرش . وتوصلوا الى اتفاقية مع
الانجليز . ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار ، وكأن المسألة
حلم .

واختار فقرات من مذكرات السلطان عبد الحميد يركز فيها على الدفاع
عن نفسه . . من بين هذه الفقرات : فقرة يقول فيها متهمك على الثوار
من تركيا الفتاة : لقد سلمت الحكومة الى هؤلاء المجاهدين سنة ١٩٠٨ وفى
ابريل من السنة التالية (١٩٠٩) سلمت السلطة الى صاحب الشوكة
والجلالة أخى ، كانت حدودنا (العثمانية) فى عهدى ممتدة من أشقودره
الى خليج البصرة ، ومن البحر الأسود الى صحارى افريقيا . واذا عقدنا
مقارنه بين (تقويم) الماناق دو غوطه الصادر عام ١٩٠٨ والعدد الصادر
هذا العام ، فسيتضح لخلفائى أننى لم أخلف حريقا ، وانما تركت منطقة
هائلة تضم أكثر من ثلاثين مليون نسمة كما تركت جيشا . . .

مضى على هذا (منذ تدخلهم فى الحكم) عشر سنوات ، فهل استطاعوا
عمل ثلث ما عملته أثناء مدة سلطنتين !!؟ دعنا من الثلث فالثلث كثير ،
فلنقل . العشر . فهل استطاعوا !!؟ » .

فقرة ثانية يقول فيها السلطان عبد الحميد : لقد كنت أوجد الأكراد
والأرمن والأتراك مع العرب واليونان من البلغار والذين تملكوا زمام الحكم
من بعدى أزالوا الخلاف بين العناصر المعادية لنا وأوجدوا الشقاق بين
العناصر التى تقف بجوارنا وتؤيدنا

فقرة أخرى جاءت فى مذكرات السلطان عبد الحميد :

وكما يحمى البستاني أزهاره من الحشرات الضارة ، حميت أنا أيضا
بلادى من الأفكار التافهة ولم أسمح لها بقرص دولتى . عاملت هؤلاء

الشبان وهم أصحاب أفكار خاطئة ، عاملتهم بشفقة ولم أعاملهم بظلم ، ولقد حاولت مع الكثير جدا منهم كل على حدة ، أن أرشدهم الى الطريق القويم وعملت على تحويل نيران حماسة شبابهم الى خير البلاد . نجحت مع بعضهم وأخفقت مع البعض الآخر . خلال عليهم ما بذلته من جهد ، لم أستخدم همتي هذه في سبيل شراء ضمائرهم لكنى استخدمته لتنوير ضمائرهم .

اننى أتحدث بصراحة تامة في هذه الأيام التى ارتبطت فيها بالدنيا برباط النفس ، وبالأخرة برباط النفيس ، وأقول ليس من أحد من الذين تملكوا الدولة من بعدى عرفوا احترام الفكر قدر ما عرفتة . سيطروا على الدولة ورددوا كلمة الحرية وبمجرد شروعهم فى الحكم ظهر أنهم لا يريدون الحرية الا لأنفسهم فقط ان الحرية التى فهموها هى التى تبدو بانها حرية السب فى ، وشتمى ، والتصفيق لهم ، ويدخل ضمن هذا أيضا حرية قتل الكاتب المعارض لهم فوق الكوبرى .

ليحلم الله بلادى من هذه الحريات المختلفة .

ويقول د . محمد حرب الذى ترجم مذكرات السلطان عبد الحميد عن جمعية الاتحاد والترقى :

«الاتحاد والترقى هو أول حزب سياسى فى الدولة العثمانية ، كان ظهوره عام ١٨٩٠ وكان سرىا مكونا من خبايا طلبة الحربية والطبية العسكرية ، وكان تأسيسه يهدف الى معارضة حكم عبد الحميد والتخلص منه . فى عام ١٨٩٧ تم اكتشاف هذا الجهاز فنفى عديد من أعضائه وفر بعضهم الى باريس ، وأرسل السلطان عبد الحميد مدير الأمن العام الفريق أول أحمد جلال الدين باشا الى باريس لاستمالة أعضاء المعارضة من الاتحاديين فنجح فى استمالة أكثرهم ومنحهم عبد الحميد مناصب كبيرة فى الدولة . الا أن المعارضين وعلى رأسهم أحمد رضا بك ظلوا على معارضتهم .

وفى المدة من ٤ - ٩ فبراير ١٩٠٢ عقد فى باريس مؤتمر للأحرار العثمانيين حضرته كل العناصر المعارضة لحكم عبد الحميد وعلى رأسهم الاتحاد والترقى . وكان من ضمن قرارات هذا المؤتمر تقسيم الدولة العثمانية الى حكومات مستقلة استقلالا ذاتيا على أساس عرقى قومى . وظهر المعارضون لهذا ومنهم أحمد رضا بك نفسه ، الا أن الأغلبية كانت لها قوتها فى تأييد هذا القرار .

طالب المؤتمرون من الدول الأوروبية التدخل لانتهاء حكم السلطان عبد الحميد واقصائه عن العرش وفي داخل البلاد العثمانية وبالذات في سلانيك ومناستر افتتح الاتحاد والترقي فروعا له التحق بها الضباط الشبان من رتبتي ملازم ويوزباشي ، ثم بدأ دخول الضباط من الرتب الكبيرة ، حتى أنه يتردد ان كل ضباط الجيش العثماني الثالث (في البلقان) كان عام ١٩٠٨ منضمون الى الاتحاد والترقي . وكان منهم أركان حرب قول أغاسي مصطفى كمال أفندي (أتاتورك فيما بعد) الا أنه انسحب فيما بعد من الاتحاد والترقي .

وفي مذكرة لجمعية الاتحاد والترقي الى قناصل الدول الأجنبية في الدولة العثمانية طالبت الجمعية تدخل دول هؤلاء لانتهاء حكم عبد الحميد ، وتحالفت الجمعية مع الثوار البلقانيين ضد السلطان .

اعتقد الاتحاديون انهم بازالة عبد الحميد يستطيعون تقريب العناصر المختلفة في الدولة أو أن دول أوروبا ستكف عن مضايقاتها للدولة العثمانية ، وتصور الاتحاديون ان هذه الدول الأوروبية ستتعهد بحماية الدولة العثمانية اذا انتهى حكم عبد الحميد الفردي غير المشروطي (غير الديمقراطي) . والذي حدث أنه عقب المشروطية فقدت الدولة العثمانية البوسنة والهرسك مما أصاب الاتحادين بالهلع .

في ٢١ يوليو ١٩٠٨ م اضطر عبد الحميد اضطرارا الى اعلان المشروطية (الثانية) وتولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم وأعلنت تمثيلها لمبادئ الثورة الفرنسية « الحرية - العدالة - المساواة - الاخوة » .

أما في ١٥ أكتوبر من نفس العام ١٩٠٨ م فقد استقلت عن الدولة العثمانية كل من بلغاريا وكريت التي أعلنت انضمامها لليونان في ٦ أكتوبر ، واستقلت - كما ذكرنا - البوسنة والهرسك . وفي ١٣ ابريل ١٩٠٩ دبر الجيش العثماني حادثة عرفت باسم حادث ٣١ مارس ثم نسبوها الى عبد الحميد وقالوا أنه أراد ثورة العناصر الرجعية ضد جمعية الاتحاد والترقي واتخذ الجيش هذا ذريعة للتحرك لعزل السلطان عبد الحميد الثاني وندبوا لابلاغه بقرار العزل وفدا مكونا من أربعة أشخاص لم يكن منهم تركي ولا عربي واحد وانما : كان على رأس الوفد يهودي والثلاثة الآخرون : أرمني وألباني وجرجي . واليهودي هو ايمانويل قراصو الذي لعب فيما بعد دوره المشؤوم في الاحتلال الإيطالي لليبيا .

وتنازل السلطان عبد الحميد عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد في ٢٧ ابريل ١٩٠٩ م وكان على السلطان عبد الحميد أن يركب هو وأسرتة القطار الى منفاه في سلانيك (وهي مدينة يثلب عليها الطابع اليهودي) وكان مقر منفى السلطان عبد الحميد في هذه المدينة ذات الطابع اليهودي في قصر يمتلكه يهودي يسمى ألاتيني ، امعانا في اذلال عبد الحميد .

وفي ١٠ فبراير ١٩١٨ مات السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد ، عن ست وسبعين عاما واشترك في تشييع جنازته « كل شعب استانبول تقريبا » .

ويقول مؤلف كتاب « مصطفى كمال المثل الأعلى » الكاتب الألماني داجوبرت فون ميكوش : ان الذين يقاومون روح العصر ويحاولون أن يوقفوا سرعة الحوادث المتحركة تتحول مساعيهم - وان كانوا لا يرجون من ورائها الا الخير - الى نكبات وتقلب مساعيهم الاصلاحية الى مجهودات ضائعة لوجه الشيطان ان لم تكن تجلب لأصحابها شدة العناء والفشل . . . والسلطان عبد الحميد - هذا - لا ننكر أنه كان يريد انقاذ بلاده كما أننا لا ننكر حسن نيته ورغبته الحارة في اصلاحها ، ولكنه برغم ذلك قد عرضها الى الخطر كما قادها الى الخراب . وكان الرجل محقا عندما ارتأى بأن الامبراطورية العثمانية يمكن أن تحفظ من التجزء وتصان من التقطيع الا عن طريق الحكم الأوتوقراطي في أوسع معانيه وأتم أشكاله . ولكن الظروف القاسية جعلت أوتوقراطيته الحكيمة المعتدلة تنقلب الى استبداد مطلق صارم .

وكانت فكرة القومية قد بدأت تتسرب من الغرب فتقضى على « شبه الاتحاد القائم بين الأمم المتباينة التي تؤلف الدولة العثمانية » وكان من المنتظر أنه متى تأصلت فكرة القومية وتغلغلت في النفوس ينهار هذا البناء الشامخ وهذا ما حدث فعلا .

وعن جمعية الاتحاد والترقي يقول داجو برت فون ميكوش : تأسست جمعية الاتحاد والترقي في باريس - في بادئ الأمر - وكانت تضم المقيمين الى هذه العاصمة الفرنسية سواء كان باختيارهم أم جبرا وكانوا من الكتاب

والصحفيين والأساتذة والطلبة الذين لم يكونوا قد اختبروا الشئون السياسية وما تتطلبه من حيطة وحذر ومراوغة ، فكانوا يصرحون بأراهم المتطرفة وميولهم الثورية دون أن يتسرب الخوف الى قلوبهم أو يقيموا للسلطان أى وزن أو قيمة فأصبحت هذه الجمعية أقوى جمعية قام بتأسيسها الشبان الأتراك الذين تشربوا بفلسفة « أوغست كانت » وتشبعوا بالديمقراطية الفرنسية وأمعنوا فى دراسة الثورة الفرنسية فأرادوا أن يسلكوا السلوك الذى يسلكه الثوار الفرنسيون وان يستعبروا منهم أسلحتهم السياسية ، وكانوا يثقون من نجاحهم اعتمادا على نظرية التطور وان البلاد لا يمكن أن تظل على حالتها الراهنة من الضعف ، وكان زعيم هذه الجماعة الثائرة أحمد رضا بك وهو من الشخصيات المحترمة عند الناس .

كان أحمد رضا بك من طبقة الأعيان ، يتقذ ذكاء ، وعلى جانب كبير من الثقافة ، ولكنه كان قد قضى ردحا طويلا من الزمن بعيدا عن وطنه ، وعلى هذا ضعفت فيه النزعة القومية ، وكان يحاول أن ينقل الحضارة الغربية وكان فرع باريس هذا منظمًا تنظيمًا دقيقًا وكان برنامجًا متطرفًا . وكان لهم جريدة باسم « الأنباء » تهرب الى استانبول مع البريد الأوروبى فيتلقفها جماعة الأتراك ويتعهدون بتوزيعها سرا الى أصحابها . وكانت النشرات السياسية تهرب أيضا بالطريقة عينها .

وكان يرأس فرع برلين البرنس صباح نجل شقيقة عبد الحميد وكان هذا الفرع مؤلفا من المعتدلين ومن وزراء الدولة السابقين وكان كل قصدهم أن يدخلوا الاصلاحات للبلاد وأن تنظم شئون الدولة على نحو الحكم الألمانى . وأخيرا انتصر فرع سلانيك وكانت الأغلبية الساحقة من أعضائه من الضباط المتعلمين أصحاب النفوذ القوى فى الجيش ، وكانوا قد تلقوا علومهم على أيدي أساتذة ألمان أمثال الجنرال فون دير جولتر وكان الفرع الباريسى يصدر الروح والنظريات الدستورية والآراء العصرية الى الفرع السلانيكى .

وكانت المحافل الماسونية - وعلى الأخص المحفل الايطالى الأكبر فى سلانيك - ترحب بأعمال هذه الجمعية وتنتصر لها انتصارا أدبيا .

وكانت الجلسات تنعقد فى غرف المحافل الماسونية ، التى يستحيل على الجواسيس أن يصلوا اليها مهما بذلوا من جهد . وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين فى جمعية الاتحاد والترقى .

وبهذه الوسيلة - داجوبرت فون ميكوش - استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها وتقوى نفوذها بفضل المعونة التي كانت تتلقاها من الأحرار . كما أن أعضاء الاتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية في الاتصال باستامبول بل في التقرب من القصر ذاته . وكان العضو الجديد لا يقبل الا اذا كفله عضو قديم ثم يجرى له فحص دقيق ، وكان العضو لا يعرف من أعضاء الجمعية أكثر من أربعة .

كان زعماء الاتحاد والترقي يعملون دائما من وراء الستار . وكانت أوامر الجمعية وقراراتها تطاع بلا قيد ولا شرط وكان لابد من القسم بالقرآن الكريم على أن يظل العضو أميناً لجمعية الاتحاد والترقي حتى النهاية . وكان الخونة يحاكمون محاكمة سرية .

ويمضي - داجوبرت - في الحديث عن جمعية الاتحاد والترقي منذ أن آلت إليها السلطة يقول : كانت القوة الادارية في أيدي حزب تركيا الفتاة وكان قد بلغ عددهم ثلاثمائة عضو ومازال في نمو بعد اعلان الدستور حتى أنه في شهور قليلة أصبح عدد الأعضاء يزيدون على مائة ألف .

والواقع أن الحزب لم يكسب أعضاء جددًا فحسب بل ان الأموال باتت تصب في خزينته باستمرار ، وقد قدم السلطان ذاته للحزب من ماله الخاص ٧٥٠٠٠ ليرة وعين نفسه رئيس شرف لجمعية تركيا الفتاة .

ويقول داجوبرت : ان كثيرين من الذين كانوا منفيين الى الخارج قد عادوا ، وقد انخدعوا بالأفكار الغربية النزوقية والآراء الخلافة البعيدة عن العالم الحقيقي الذي تعيش فيه ، فكانت نتيجة الانخداع بالظاهر حتى أن أحد الدبلوماسيين وصفهم بأنهم كثيرا ما يخطون الخطوة الثانية قبل الأولى ، وسرعان ما أصبح لهؤلاء اليد العليا في حزب تركيا ، ووجد الذين أشعلوا نيران الثورة أنهم أصبحوا في المؤخرة وفي ذيل الحزب وكان منهم ضباط غير راضين عن وجودهم بالمراكز الحكومية فنيازي بك قد اعتزل بين التلال ، وقصد أنور بك برلين كمرافق حربي .

وأيقن أعضاء حزب الاتحاد والترقي أن من يملك الجيش فقد ملك القوة كلها ، فسعوا حتى أصبحت السلطات ترجع في التعيينات الجديدة الى سياسة حزبية ، فكل الضباط حزيون أكثر منهم فنيون أو حربيون .

واستأذن أحد أعضاء المؤتمر الرئيس أن يعرض سؤالا ، فسمح له
بقال :

— هل من مبرر لوجود جمعية الاتحاد والترقي ؟

ثم استطرد :

« لقد كانت فى الأصل جمعية ثورية ، والثورة قد انتهت وفزنا
بالدستور بعد الكفاح الشديد ، وعلى هذا فالسيطرة قد خرجت من يد
الحزب وانتقلت الى السلطات الدستورية الشرعية ، وأن ديكتاتورية الحزب
لم تكن أفضل من الاستبداد الحميدى .

وعلى هذا فقد أصبح بالإمكان الاستغناء عن الجمعية ولم يبق من
حاجة اليها ، واقترح العضو بأن تحل الجمعية فهتف له الأعضاء هتافا
عاليا ، .

أما هذا السائل فلم يكن غير « مصطفى كمال » (أتاتورك فيما بعد) .

ويقول — داجوبرت فون ميكوش — أنه بعد أن اتسعت أعمال حزب
الاتحاد والترقي (تركيا الفتاة سابقا) كان لابد من وجود لجنة مركزية
ثابتة لمراقبة أعمال الدستور ، وقد انتخب مجلس السبعة بطريقة شديدة
التعقيد وبقيت أسماء هؤلاء السبعة مكتومة عن بقية أعضاء الحزب ، ثم
اصطدمت السفينة باعلان من النمسا والمجر ، ان البوسنة والهرسك ينبغي
أن تعد من أملاك الامبراطورية النمساوية المجرية . وفى عبارة موجزة انهار
صرح البلقان حتى البرنس فرديناند البلغارى الذى كان حتى ذلك الحين
تابعاً للسلطان فقد اغتنم الفرصة وأعلن استقلال بلاده ، بينما بلاد اليونان
وضعت يدها نهائيا على كريت ، ولم يكن فى وسع تركيا وهى تعاني
أوجاع الثورة وآلام الانقلاب أن تعترض أدنى اعتراض على ما جرى ، فاكثفت
بمقاطعة البضائع النمساوية .

وكان مصطفى كمال — داجوبرت — من بين الضباط الذين قاوموا
سياسة حزب تركيا الفتاة وسعى للتأثير على سير الحوادث ولكن مساعيه
لم تكمل بالتوفيق . وكان أغلبية أعضاء الاتحاد والترقي يلقبون بالاتحاديين
تمييزا لهم عن الأحرار ، وكان مبادئهم الأساسية أن كل فرد من رعايا
الامبراطورية يحوله القانون كل الحقوق التى يتمتع بها الأتراك ، وعليه
ما عليهم من الواجبات .

ويضيف - داجوبرت فون ميكوش - وهو يصف الأحوال في الامبراطورية بعد سقوط السلطان عبد الحميد : كانت البلاد لا تخلو من أناس يرون أن البلاد في حاجة إلى الهدم والبناء من جديد . ويذكر أنهم - في النظام الجديد - كانوا يخفضون درجة الجنرال الذي سلخ ٣٠ سنة من عمره في الجيش إلى درجة ملازم بسيط أمعانا في القضاء على القديم ، وكان محمود شوكت باشا وزير الحربية يرى أن الجيش ينبغي أن يكون تحت إمرة الدولة لا تحت تحكم الأحزاب ، وقد أصدر أوامره المشددة التي حرم فيها تحريما باتا انضمام أى ضابط بهيئة من الهيئات السياسية ، ولكن هذه الأوامر لم تنفذ وظلت حبرا على ورق . كانت أشبه بالأصداف الفارغة التي لا قيمة لها !!

ويذكر - داجوبرت فون ميكوش - أن شقة الخلاف اتسعت بين العسكريين والمدنيين . وبدلاً من تحسين الحالة بعد إعلان الدستور كانت الحالة تزداد سوءاً على سوء ، كانت هناك سلطة منظورة واحدة هي التي تتصرف في الأمور ولكن بعد إعلان الدستور ضاعت هيبة هذه السلطة وأصبحت الفوضى تنتفش في البلاد وعادت عناصر الجيش المتجزئة إلى التناحر والتنابد .

وكان حزب الاتحاد يزداد قوة معتمداً على الجيش يقرب من يود تقريبهم ويدفع بهم إلى الوظائف العالية ليشغلوها وانتعشت حركة التآمر والدس من جديد .

وعن جمعية تركيا الفتاة التي انبثقت منها جمعية الاتحاد والترقي يقول الأستاذ جورج أنطونيوس الرجل الذي تمثل في شخصه - كما جاء في كلمات إبراهيم اليازجي - الجيل العربي الجديد العامل على تحطيم الأصنام ، الجيل الذي لا يحدد بالسن ، بل بالفكر الواضح والحجة السليمة والمثالية العريضة الواعية يقول : أن السلطان عبد الحميد منح شعبه دستورا في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ بعدما استولى عليه الذعر نتيجة قيام الثورة العسكرية . وفي اليوم التالي ألغى الرقابة وأفرج عن المعتقلين السياسيين وسرح جيش الجواسيس التابع له والبالغ مجموعه ثلاثين ألفاً وهكذا ...

وكانت الثورة من عمل جمعية (الاتحاد والترقي) وهي جمعية سرية غايتها القضاء على استبداد السلطان وقد شكلها رجال (تركيا الفتاة) في سالونيك . ولم يكن بين أمانيتها وأمانى الحركة العربية أية صلة اللهم

في الاشتراك بكره الاستبداد الحميدى . ومع أن جماعة من العرب وأكثرهم من ضباط الجيش انتسبوا للجمعية وتعاونوا مع زعمائها تعاوناً وثيقاً إلا أنهم فعلوا ذلك بصفتهم رعايا عثمانيين لا بصفتهم عرباً قوميين . كانت جمعية (الاتحاد والترقى) خليطاً من الأجناس والأديان يسوده الترك ويأتى بعدهم فيه اليهود مباشرة وقد قطروا وراءهم عثمانيين آخرين من أبناء الملل الأخرى بينما وقف اللاجئون السياسيون والمنفيون في الخارج في الصف الخلفى . كانت الجمعية تسير بقوة خليط من الدوافع يماثل في تنوعه الخليط الذى تتألف منه ولكنها مع ذلك كانت متحدة في السعى لتحقيق هدفها الأول وهو القضاء على حكم عبد الحميد الفردى والتوصل الى حكم صالح للامبراطورية على أساس دمج الأجناس المختلفة فى بوتقة واحدة على نحو ما أراده دستور عام ١٨٧٦ . كان الرأى الأول فى جلسات الجمعية للأعضاء العسكريين وهذا أمر طبيعى فى جيل نشأ على تمجيد التعليم العسكرى تمجيدها كبيراً ، ولعل لجوءها فى ايقاع ضربتها المفاجئة الى ثورة يقوم بها الجيش كان أمراً لا بد منه فهى الثورة التى كان عبد الحميد يخشاها أكثر من سواها .

وفى مجال انصاف رجال تركيا الفتاة يقول جورج أنطونيوس : ان التراث الذى خلفه العهد الحميدى لم يكن تراثاً معيباً بذاته وحسب ، وإنما ورثوه فى وقت غير ملائم البتة ، لقد كانت القوى الانفصالية التى تعمل فى الولايات البلقانية متغلبة ، وقد منيت الامبراطورية - فى عهدهم - بفقد جميع ولاياتها الأوروبية ماعدا تراقيا الشرقية بالإضافة الى أنها - الامبراطورية - فقدت ليبيا - طرابلس الغرب - وبرقة - وكريت وجزر الدودكان .

وكانت الحسائر فى الأراضى قد أثقلت النفقات العسكرية التى أثقلت بدورها كاهل الخزانة فناءت بها موارد الموازنة .

وقد كان رجال تركيا الفتاة مسئولون أيضاً عن فشلهم ، فلقد ساروا مثلاً على سياسة مركزية استعاروها كما استعاروا غيرها من مبادئ وعقائد الثورة الفرنسية ، ولكنهم حين استعاروها لم يلتفتوا الى وجود فارق أساسى بين فرنسا ١٧٨٩ وبين المملكة العثمانية ١٩٠٨ .

ولابد من أن نشير هنا الى ما قاله الأساتذة : أمين شاكى ، سعيد

العريان ، ومحمد مصطفى عطا في كتابهم « تركيا والسياسة العربية » من أن مطلع القرن العشرين شهد تحولا ظاهرا في فكرة الجامعة الاسلامية التي كان يدعو لها في قوة والحاح السلطان عبد الحميد الثاني ، اذ ان البلاد العربية التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية بدأت تضح من حكم الأتراك وأخذت تعمل على الخلاص من هذا الفساد المستشري وتلك المركزية المسيطرة والتي لا هم لها الا سيادة الجنس العثماني وغلبته على المناصب الرئيسية سواء في عاصمة الأتراك أو في البلاد التي تخضع لها .

ففي مصر كانت ثورة عرابي وكان من ضمن أهدافها ضرورة التحرر من سيطرة طبقة الضباط الأتراك الذين استأثروا بالسلطة وبالمناصب الرفيعة دون المصريين .

وفي سوريا والعراق وغيرهما كانت تجيش في قلوب العرب ضد الحكم العثماني الذي كان أقرب الى الأذلال منه الى السلطان ، وكان أول مظهر من مظاهر الوعي العربي ذلك المؤتمر الذي انعقد في باريس ١٩١٣ معبرا عن القوة الناشئة التي كانت تعصف بكل حر يبدى رأيا مخالفا . ويشير الكتاب الثلاثة الى أنه في الوقت الذي يحدث فيه - في البلاد العربية - ما سبقت الإشارة اليه كانت هناك دعوة أخرى في تركيا الى الجامعة الطورانية « أي سيادة الجنس الطوراني » .

وقد كان للدعوة الطورانية صداها العميق في نفوس العرب الذين كانوا يحرصون حتى اللحظة الأخيرة على الاستمسك بعروة الجامعة الاسلامية والوقوف من وراء الخلافة العثمانية مخافة أن تنهار فتكون نهايتها المحتومة ، وقد تطورت الدعوتان : الدعوة العربية ، والدعوة الطورانية ، وكانت كل دعوة تتمنى لنفسها الغلبة .

ويكاد ينعقد الاجتماع على أن جمعية الاخاء العربي هي أول جمعية عربية تأسست في الآستانة بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، وأنشأت ناديا لها .

وكان مؤسسوها من كبار الموظفين العرب في العهد الحميدي ، أمثال : عارف بك المارديني - والي دمشق في عهد الاتحاديين - وصادق باشا المؤيد وشفيق بك المؤيد ويوسف بك شنوان وشكري باشا الأيوبي وشكري بك الحسيني ، وكانت غاية الجمعية « معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون « الدستور » وجمع كلمة الملل العثمانية المختلفة بدون تفريق في الجنس والمذهب ، وتمكين الرابطة

الجامعة بينهم ، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشئون المختلفة ، ثم السعى لإعلاء شأن اللغة العربية ، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار المعارف والعلوم بين أبنائها كتأسيس مدارس وجرائد وغير ذلك وبذل النصائح والإرشادات اللازمة لتأسيس معامل وشركات زراعية ، والاجتهاد باقناع أهل البداوة بالإقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعدواتهم المستمرة بينهم ، وإسكانهم فى محلات ثابتة وتعويدهم على مزاوله العوائد والحرف الحضرية ، وتنوير عقولهم بالعلم وصيانة حقوق أبناء العرب جميعا من الاعتساف والغدر ، ونهين شكاياتهم الى مراجعها الرسمية اذا لم تلق حسن القبول عند المأمورين المختصين بالنظر اليها ، والسعى فى تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الدولة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم بينهم » .

وقد أيد الطلاب العرب فى الآستانة هذه الجمعية فى أوائل عهدها مدفوعين بالشعور الوطنى العربى لأنه ساءهم تحامل الاتحاديين على العرب تحاملا لم يكن له ما يبرره .

ولكن هذه الجمعية لم تعيش طويلا ، فقد كان التجانس مفقودا بين أعضائها ، وحل محلها المنتدى الأدبى .

وقد صار انشاء المنتدى الأدبى فى سنة ١٩٠٩ ، وقام بتأسيسه عبد الكريم قاسم الخليل ، ويوسف سليمان حيدر ، وسيف الدين الخطيب ، وجميل الحسينى ، ورفيق رزق سلوم ، على أن يكون مركزا لشباب العرب فى العاصمة التركية وإدارا لهم يجتمعون فيها ، ويختلفون اليها للمطالعة واستماع المحاضرات ، ومن كان من طلاب العرب فقيرا لا يستطيع النوم فى فندق من الفنادق ، فقد كان يهيسوره أن يقصد النادي وينام فيه أيضا .

وسلم شكرى بك الحسينى لعبد الكريم الخليل ستين ليرة ذهبية عثمانية كانت باقية عنده باسم جمعية الأخاء ، لتنفق فى انشاء المنتدى ، كما سلمه كل ما كان من أثاث ورياش .

ومثل الطلاب العرب بعد ذلك رواية صلاح الدين الأيوبي فى مسرح دار الفرح ، وأرصدوا ريعه لها ، وصار افتتاح داره الجديد فى « بارماق قبو » فى حفلة حافلة .

وعاش هذا النادى حتى سنة ١٩١٥ حيث أغلقته الحكومة التركية ،
وكان الاتحاديون لا يشكون باخلاص رجاله ، وكثيرا ما كانوا يزورون
داره ، ويحضرون حفلاته .

ومن المؤكد أن الكلية الأزهرية لرئيسها المرحوم الشيخ أحمد عباس
الأزهري عملت كثيرا على الهاب روح الحماسة والوطنية العربية فى نفوس
طلابها ، ولا أدل على ذلك من رواياتها العربية التى مثلتها كداحس والضبراء
وغيرها ، فقد كانت هذه الروايات حديث الناس وكانت من الأسباب الفعالة
فى بث روح القومية فى نفوس الشباب المنتسبين اليها ، واثارة عواطفهم
وتذكيرهم بماضيهم المجيد الرائع .

وفى سنة ١٩٠٩ أرسلت تركيا قسما من الشباب المتخرجين من
مكاتبها للتخصص فى باريس وكان من جملة هؤلاء الشباب أحمد
رستم حيدر .

واجتمع أحمد رستم حيدر مع توفيق الناطور أحد طلاب العرب فى
باريس ذات يوم فى احدى حدائق باريس الجميلة ، وذلك فى سنة ١٩٠٩
وصار الاتفاق فيما بينهما على تأسيس جمعية عربية فى باريس يكون
شعارها : « يجب أن نكون - نحن العرب - مع الأتراك كالنمسا والمجر »
وكانت غاية الجمعية السعى لرفع مستوى الأمة العربية وجعلها فى مستوى
الأمم الراقية .

وكانت هذه الجمعية صغيرة أول أمرها ، والظاهر أن الذين فكروا
فى انشائها لم يوفقوا الى زيادة عدد أنصارهم الا بعد سنتين من تاريخ
انشائها ، فنرى أن عونى عبد الهادى ورفيق التميمى وأحمد قدرى وجميل
مردم وابراهيم مردم لم يدخلوا هذه الجمعية الا فى سنة ١٩١٠ ، وانضم
اليها محمد المحمصانى سنة ١٩١١ .

والمصادر التى لدينا تدل على أن هذه الجمعية كانت سرية لا يعرف
الداخل فيها غير الذى أدخله وكانت تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة
الادارية ، وقوامها ٩ أعضاء وتدير شئون الجمعية . والهيئة العاملة وهى
التي تختار الهيئة الادارية ، وتتألف من أعضاء الجمعية الذين أمضوا مدة
التجربة وهى ستة أشهر . والهيئة الثالثة تضم الداخلين حديثا ،
وذ يعرف بعضهم بعضا .

وكان للجمعية كلمات رمزية اصطلحت عليها للمكاتبات والاتصال ،
منها : بزغ فجر وطنك ...

ولما وقعت الحرب البلقانية كانت هذه الجمعية من العوامل الفعالة
في اقرار مؤتمر باريس .

وانتقل مركز الجمعية الى سوريا بعد عودة مؤسسيها الى بلادهم
سنة ١٩١٢ ، واتخذت بيروت مقرا رئيسيا لها ، وتولى الدكتور أحمد
قدري ادارة فرعها في دمشق فاتسع نطاقها وكثر عدد الداخلين فيها
وضاعفت نشاطها بعد اعلان الحرب العظمى ، خصوصا بعد انتقال مقرها
العام من بيروت الى دمشق بسبب الهجرة ولأن معظم رجالها أصبحوا في
عاصمة أمية .

ومن المؤكد اليوم أن أعضاء الجمعية المذكورة وهم في دمشق أخذوا
يبتنون فكرة التحرر الثوري ، وأخذوا يتحدثون الى بعض ضباط العرب
بالثورة ، وانضم الى عضويتها في هذه الأثناء رضا الركابي وياسين الهاشمي
ونسيب وفوزي البكري وبواسطة آل البكري أنفسهم انضم « الملك »
فيصل الى الجمعية وأخذ يؤيدها .

وكان « الملك » فيصل - سنة ١٩١٥ - في طريقه الى الحجاز من
الآستانة ، فاجتمع في دمشق برجال الجمعية ، وأفهموه تشكيلاتهم ،
وأعلموه أنه اذا ثار الحجاز وزحف على سورية وجد أهلها على استعداد
لتأييده ، فأيد المرحوم الفكرة ، ونفخ الجمعية بألف ليرة ذهبية مساعدة
لها في عملها .

وفي هذه الأثناء شعر عبد الغنى العريسي وعمر حمد وإبراهيم
الهاشم بأن الحكومة تحاول القبض عليهم ، فهربوا قاصدين بغداد
فالبصرة ، ولكن « الملك » فيصل طلبهم اليه فعادوا أدراجهم والتجأوا الى
شيخ عرب العفير في مداين صالح ، حيث صار القبض عليهم من متصرف
الكرك الذي عرف أحدهم

وقد أنشئت جمعية العلم الأخضر في الآستانة في شهر أيلول من
سنة ١٩١٢ وغايتها تقوية الروابط الوطنية بين طلاب العرب في المدارس
العليا وتوجيه قواهم الى انتشار أمتهم من الوهدة التي سقطت فيها .

ومؤسسو هذه الجمعية الدكتور اسماعيل الصفار ، والدكتور فايق
شاكر ، والدكتور داود الديواني ، وعلى رضا الغزالي ، وعبد الغفور

البدرى ، وأحمد عزت الأعظمى ، وعاصم بسو ، ومسلم العطار ، ومصطفى الحسينى ، وشكرى غوش ، وأصدرت هذه الجمعية مجلة « لسان العرب » لتكون لسان حالها ، ثم أبدل اسمها فصارت مجلة المنتدى الأدبى وعاشت حتى الحرب العظمى .

وجمعيات أخرى تألفت فى الأستانة لخدمة الفكرة العربية وتعزيزها من سنة ١٩٠٩ حتى أواخر سنة ١٩١٢ ، ولما انهزمت الدولة العثمانية فى حرب البلقان ظهرت جمعيات جديدة عملت على تعديل كثير من خططها وأساليبها .

وقد تبدل موقف السياسة العرب بعد الحرب البلقانية وخروج الدولة العثمانية منها مهيضة الجناح ، مضطربة الأطراف ، مقسمة الحدود ، بحيث أهابت هذه النازلة بالدول الأوروبية الى التفكير تفكيراً جدياً باقتسام تركيا وصرح المسيو بونكاريه وزير خارجية فرنسا فى ذلك الحين « بأن لفرنسا مصالح تقليدية نريد أن نجعلها محترمة » .

كل هذا أهاب بالسياسة العرب الى تبديل موقفهم الأول من السياسة العثمانية ، فأنشأوا حزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة ، وتأسست الجمعيات الاصلاحية فى بيروت والبصرة ، وأخذ العرب يفكرون فى تنظيم سياستهم تنظيمًا جديدًا ، وفاقا للاتجاهات الدولية العامة .

وكان الغرض من انشاء حزب اللامركزية فى مصر أن تتولى كل ولاية ادارة شئونها الداخلية ، وأن تترك السياسات العامة للسلطات السياسية فى الأستانة .

ومؤسسو حزب اللامركزية هم : رفيق العظم ، والسيد محمد رشيد رضا ، والدكتور شبلى شميل ، واسكندر عمون ، وسامى الجريدينى ، ومحجب الدين الخطيب .

وأعلن الحزب الجديد برنامجاً للناس ، فاذا فيه أن الغاية من تأليف هذا الحزب بيان حسنات الادارة اللامركزية فى السلطة العثمانية للشعب العثمانى المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية ، فى جميع ولايات الدولة العثمانية .

وعن جمعية الاصلاح في بيروت - مثلا - أنه عندما انتقل القلق من القاهرة الى بيروت اجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها وبحثوا الموقف وأبلغوا الوالى العثمانى أدهم بك رغبتهم فى ادخال اصلاحات عاجلة فرفع أدهم بك مطالبهم الى الباب العالى ببرقية طيرها فى شهر كانون الأول عام ١٩١٢ وقال فى تلك البرقية : اذا لم نأخذ بالاصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من أيدينا لا محالة . وقد رد الصدر الأعظم كامل باشا بأن يدعو الشعب الى تقديم مطالبه للنظر فيها فاجتمع ٩٠ مندوبا فى دار بلدية بيروت فى يناير ١٩١٣ ووافقوا على بعض المطالب التى أبلغوها الى الوالى لارسالها الى الآستانة . وقد جاء فى تلك المطالب ان الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية وان تقسيم أعمال الولاية الى قسمين الأول يشتمل على الأعمال المتعلقة بكيان الدولة وشئونها الأساسية كالمسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوسنة والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس . . . والقسم الآخر ما يتعلق بالشئون الداخلية للولاية . القسم الأول تقوم فيه الحكومة المركزية والقسم الآخر منوط تقريره بمجلس الولاية .

وقد نصت تلك المطالب أيضا على أن للوالى صفتين قانونيتين أولاهما تمثل الحكومة المركزية وبهذه الصفة يتولى اجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول طبقا لقرارات الحكومة المركزية ، والصفة القانونية الأخرى تمثيل حكومة الولاية التى يرأسها . وحقوق الوالى كما جاء فى المطالب تنفيذ قرارات المجلس العمومى والاعتراض على قراره طبقا للشروط التى حددتها اللائحة الخاصة بتلك المطالب ، وتعيين المتصرفين ، والقائمقامين ، والمديرين بعد عرض أسمائهم على الحكومة المركزية وفقا للنظام الذى يضعه المجلس العمومى ، والاطلاع على لوائح المشاريع التى تعدها لجنة المجلس العمومى لابتداء ملاحظاته عليها قبل تقديمها الى المجلس ويؤتف - المادة الثالثة من لائحة المطالب الشعبية - فى الولاية مجلس عمومى من ثلاثين عضوا ينتخب نصفهم من المسلمين ، والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة أربع سنوات بالاقتراع السرى ، أما سائر الانتخابات العمومية فتبنى على قاعدة التمثيل النسبى العدى فى دوائر الانتخاب . وقرارات المجلس نافذة ما لم يعترض عليها الوالى بمصادقة مجلس المستشارين . . . الخ .

ولعل أهم ما فى هذه المطالب ان عزل الوالى يكون بناء على قرار المجلس العمومى بأكثرية ثلثى مجموع أعضائه وتعيين خلفه فى مدة أربعين يوما بقرار من الحكومة . وادارات الولاية نوعان : أحدهما يعود برمته الى

مركز السلطة وهو : حاصلات الجمارك والبوستان والتليفراف والبدلات العسكرية ، وما عدا ذلك يعود برمته الى الولاية .

وقد نص في تلك المطالب على أن تعتبر اللغة العربية اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضا رسمية - كاللغة التركية في مجلس النواب والأعيان .

وقد حرصت على الإشارة بتوسع الى تلك المطالب للتأكيد على أن قطاعات كثيرة من شعبنا العربي الذي كان يعيش داخل حدود دولة الخلافة العثمانية ، كان يود باستمرار اسعاد تلك الدولة وازدهارها وليس أبدا هدمها والوقوف على أطلالها .

وهناك - من بين تلك الجمعيات - جمعية البصرة الاصلاحية وقد أنشأها السيد طالب النقيب نائب البصرة في مجلس النواب العثماني وأحد زعماء حزب الائتلاف المناويء للسياسة الاتحادية ، وقد انضم الى تلك الجمعية كثير من كبراء البصرة ، وأحرار العراق وشبابه ، وأصدرت الجمعية - من بغداد - جريدة النهضة لتكون لسانا لحالها ، وقد أبرق رئيس الجمعية الى مؤتمر باريس مؤيدا ومشجعا . وقد خشي - الدراسات التي نشرها عمر أبو النصر - الاتحاديون منه وخافوا من موقعه فانتدبوا أحد رجالهم لاغتياله فاغتاله رجال السيد طالب ، وعاد الاتحاديون الى سياسة الملاينة وتمكنوا من اكتساب عطفه فأذاع بيانا أعلن فيه انهاء سوء التفاهم الذي كان بين رجالات العراق المخلصين وبين الحكومة العثمانية التي وعدت باعطاء البلاد حقوقها .

ومن تلك الجمعيات : النادي الوطني العلمي وقد أنشئ هذا النادي في الزوراء سنة ١٩١٣ بعد انشاء حزب اللامركزية في مصر ليكون فرعا له وكان رئيسه مزاحم الباجه جي وقد دخل فيه كثير من الشبان ، وقد نجح هذا النادي في نشر القومية العربية ، وعندما حاول الاتحاديون القبض على مزاحم الباجه جي فر الى البصرة والتجأ الى السيد طالب ، وقد توثقت العلاقات بينى وبين مزاحم الباجه جي منذ عام ١٩٤٧ وأحببت في الرجل ضراخته ووضوحه ومعاداته للسياسة الاستعمارية ، وخاصة تلك التي كان يمثلها في العراق نوري السعيد .

وتبقى بعض تفاصيل أخرى هامة وضرورية يرويها الأستاذ عمر أبو النصر - بيروت - عن الخلاف بين العرب والترك وبعض الأسرار الخاصة بجمعية الاتحاد والترقي . وعن الجمعيات السياسية السرية والعلنية التي أنشأها كثير من الشباب العرب - ومن بينهم بل في مقدمتهم عزيز على المصري - لانقاذ الخلافة العثمانية من الانهيار الذي كانت تقف على هاويته في العقدين الأولين من القرن العشرين ، ومما يدل على أن سياسة تركيا كانت متقلبة للغاية منذ ثورة ١٩٠٧ ما جاء في مذكرات طلعت باشا وزير الداخلية التركية ، من أنه لم يكن لنا - لحكومة تركيا بعد ثورة ١٩٠٧ - سياسة خارجية منتظمة ، فكانت تارة تخطب ود إنجلترا ، وطورا تتقرب من ممثلي ألمانيا حسب أحوال السياسية التي لا تستقر على حال .

ويوضح طلعت باشا أنه بعد حروب البلقان وخسارة الدولة التركية لولاياتها في أوروبا لتقلب سياستها الخارجية ، الأمر الذي جعل تركيا بدون أصدقاء تعتمد عليهم في وقت الشدة . بدأنا نعمل على حل أهم مشاكلنا السياسية وجميعنا تواقا لإصلاح البلاد اقتصاديا وسياسيا . وإذا كان هذا هو موقف تركيا من الدول الأوروبية : الموقف الذي لا يثبت أبدا فكذا كان موقفها من الشعوب التي تخضع لحكمها : سياسة مذبذبة لا تستقر على حال ، وفي مثل هذه الأجواء تنبت دائما الدعوات الانفصالية ، وتتوالى الضربات من الخارج للأجهزة على الدولة المريضة . . . !!

في واحدة من الدراسات كان الموضوع الرئيسي : « أسباب الخلاف بين العرب والترك : الاتحاديون ينادون بالطورانية ويدعون الى العنصرية القومية وهم أقلية في البلاد العثمانية : جواب العرب على هذه الدعوة واشتداد الخلاف بين العنصرين » يوضح تعريف المسألة العربية بأنها نزاع شديد بين الترك الذين استأثروا بالسلطة في الزمان الماضي ، وعقدوا النية على أن يستأثروا بها في المستقبل أيضا ، مع جهلهم وفقرهم وقلة عددهم ، والعرب الذين يطلبون المساواة باسم الحق والقانون والقوة ، واهتمام أوروبا بهذا النزاع ودخولها فيه ترويجا لأطماعها وتحقيقا لأمانها .

وإذا كان العرب في عهد السلطان عبد الحميد لم يتلطفوا في البحث بشدة في حقوقهم ، فمرد ذلك ما سرى في ذهن المسلمين في عهده من أن تأييده تأييد للإسلام ، وتعزيز الخلافة أمر يأمر به الدين ، ويدعو اليه

داعى الوحدة الاسلامية ، خصوصا لما نظر العرب الى مطامع أوروبا في البلاد العربية ، فخافوا أن تتخذ أوروبا من حركتهم هذه وسيلة لاقتسام تركيا ، وتركيا كانت تمثل الخلافة ، ففضلوا السكون والصبر ريثما يقضى الله أمرا كان مفعولا .

فلما خلع الاتحاديون السلطان عبد الحميد ، ضعفت فكرة الجامعة الاسلامية ضعفا ظهر أثره في قيام العرب يطالبون بحقوقهم ويدعون الى انصافهم ، وانصرف الاتحاديون من جهة أخرى الى الدعوة للجامعة التركية وتأييد العنصرية التركية .

وقد قال أحد زعماء الترك يصور رأى أنصاره ومن يدين بقوله :
« لا أمل لنا بعد اليوم في أن نحكم البلاد العثمانية كمستعمرة تركية - لا سيما البلاد العربية - لان حكومتنا أصبحت دستورية لسوء الحظ ، ولأننا نحن الأقلية في الدولة ، فاذا خضنا غمار حرب أوروبية وحالفنا النصر قضينا على العناصر غير التركية وكفلنا الحكم لعنصرنا زمانا طويلا . واذا انكسرت جيوشنا وضاعت بلادنا فلا نخسر شيئا لأن مستقبل الدولة ليس لنا ، ولأن الحكم ذاهب من يدنا على كل حال ، ومن بعدنا الطوفان » .

والواقع أن موقف العرب تبدل تبديلا محسوسا بعد قيام الاتحاديين في الآستانة ، فقد كان العرب كما قدمنا أولا ، ما يبرحون يحسنون النظر بالسلطان عبد الحميد لاسلاميته ولأنه كان يمثل دولة الخلافة الاسلامية واذا أنكروا على السلطان المرحوم شيئا فقد كانوا ينكرون عليه ظلمه واستبداده ، وكانوا في هذا الظلم سواسية مع الترك لا يفرق السلطان في البطش بين خصومه ، وقد أيد كثيرون من العرب تركيا الفتاة لما كانت تحاول اقرار النظام البرلماني في الدولة ، ولكن الاتحاديين تبدلوا جماعة أخرى لما تولوا مقدرات البلاد .

ومن الحق أن نعرض لظاهرة أخرى في هذه الفترة - وهي في الواقع على جانب عظيم من الخطورة - فان شباب الترك لما لجأوا الى مصر هربا من جور السلطان عبد الحميد ، دبروا مكيده لارهاب عبد الحميد ورحمته على اعادة الدستور ، وكانت هذه المكيده عبارة عن تخويله بخلافة عربية ، وتصوير تلك الخلافة له في صورة الحقيقة فلما نجح الاتحاديون في ثورتهم كانت هذه الفكرة أوقع في نفوسهم ، وأشد ايلاما ، حتى لقد ذهب بعضهم

يتروهمها أمرا واقعا ويدعو قومه لمقاومتها والقضاء على كل من ينادى بها . .
ولو فكر الاتحاديون لأدركوا أن العرب ما كانوا يفكرون في هذه الخلافة
لو أحسنوا سياستهم نحوهم ، ولا أدل على موقف العرب وحبهم للعمل مع
الترك يدا واحدة من موقفهم يوم اعلان الدستور ، فقد طيبوا له وهللوا
أكثر ما هلل له الترك ، ولو كان الاتحاديون جماعة يعملون لخير الدولة
وللمصلحة العامة لتلطفوا في الاستفادة من الشعور الحسن الذي عم كل
طبقات الشعب العربى ، وأحسنوا سياستهم مع العرب وأعطوهم ما يطلبونه
من حقوق ، فينتهى كل شئ وتتصافى الجماعتان وتعملان سويا لما فيه
الصالح العام على الوجه الأكمل والاحسن .

ولكن الاتحاديين كانوا يريدون دولة تركية وهم أقلية فى وسط
يعج بالعنصريات المختلفة ، فكان ما كان من انفصالهم عن مجموع الأمة ،
وكان ما كان من تمزق الامبراطورية العثمانية وفشل الاتحاديين فى
سياستهم فشلا مريعا فظيعا .

لقد كان الاتحاديون يقاومون السلطان عبد الحميد باسم الحرية ،
وباسم الحرية أيدهم بقية العناصر التى تؤلف الدولة العثمانية ، فلما تولى
الاتحاديون الحكم عمدوا الى سياسة البطش والشدّة فى اقرار مشيئتهم
وسياستهم على هذه الشعوب المختلفة ، وأخذوا يعقدون القروض فى أوروبا
لاتفاقها على الجيش المكلف بالبطش بهذه العناصر ، ولا ذنب لهذه العناصر
فى نظر الاتحاديين الا أنها كانت تريد الاصلاح ، وترغب فى الحرية ،
وتريد أن تعامل وفقا لأحكام الدستور والحق والانصاف .

وهذه الأغلاط الكبيرة انتقدها جماعة من الاتحاديين أنفسهم كالدكتور
رضا توفيق الفيلسوف التركى الذى صرح فى سنة ١٩١٠ بما يأتى :
« أنا على اتفاق تام مع الجمعية على أن البلاد بحاجة الى حكومة قوية ،
ولكنى أخالفها فى استخدام القوة ، وإذا كان وجودى فى المجلس قد قضى
على بأن أنتقد طلعت بك الممثل الأكبر للجمعية ، وزميلى ورفيقى منه
السبابة الأولى فى جمعية الاتحاد والترقى ، فذلك لاعتقائى بأن الواجب
على بأن أفعل ما فعلت ، ولو سكت كغيرى لكان ذلك خيانة منى لوطنى ،
ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها إذا لم تحترم الحرية السياسية
والحقوق الأساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، وإذا لم تعامل
العناصر كلها معاملة واحدة وفقا لأحكام الدستور » .

والواقع أن السياسة الاتحادية هي التي أثارت الفكرة القومية في العناصر العثمانية ، فمن المؤكد لنا اليوم ووفقا لما لدينا من المصادر والوثائق نستطيع أن نقول ان العرب كانوا أقرب شعوب الامبراطورية العثمانية الى التفاهم مع الترك لو أحسن الترك سياستهم ، وأعربوا عن اخلاصهم ، ولكن الاتحاديين أرادوا سياسة خاصة وذهبوا يعملون لدولة تركية يسيطر فيها العنصر التركي كل السيطرة دون ما نظر الى حقوق غيره وواجباته نحو سواه ، ومضوا يعملون لمقاومة الفكرة العربية وكل ما هو عربي ، وكانت أول البوادر اغلاق نادى « الاخاء العربى العثمانى » الذى أسس بعد اعلان الدستور فى الآستانة .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الشر هينا ، ولكنه تعداه الى ما هو شر منه ، فقد استدعت الحكومة العثمانية الضباط العرب من أوطانهم الى الآستانة ، ومنعتهم من الالتحاق ببعثة الضباط العلمية فى ألمانيا ، ولم تسمح بادخال العرب المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقى فى اللجنة المركزية ، وعزلت الموظفين العرب ، وغير ذلك من الأمور التى كانت تعمل على توتر القلوب ، وقتل الثقة . . .

وكانت شكاوى العرب فى سنة ١٩١٠ تنحصر فيما يلى :

أولا : اقضاء عدد كبير منهم عن الوظائف التى كانوا فيها فى الآستانة ، ولا سيما فى وزارتى الخارجية والداخلية بحكم قانون « التنسيق » وقد تناول هذا « التنسيق » كل المأمورين العرب عمدا ، فكان الاتحاديون يكتبون فى جداول التنسيق حرف (ع) - أى عربى - أمام كل اسم مأمور من أبناء العرب ، ليعرف المنسقون جنسيته .

ثانيا : عدم دعوة أبناء العرب الى أى اجتماع غايته التأليف بين العناصر العثمانية .

ثالثا : عدم ادخال عربى من أعضاء الجمعية الاتحادية فى اللجنة المركزية فى سلايك حتى الضباط العرب الذين كانوا أول من أعلن الدستور .

رابعا : عدم قبول أى عضو عربى من أعضاء الجمعية فى المذكرات السياسية التى كانت الجمعية تجتمع لأجلها فى الآستانة .

خامسا : عدم قبول عربى فى اللجان المركزية الاتحادية وتحويل جمعية الاتحاد والترقى من جمعية عثمانية الى جمعية تركية بحتة .

سادسا : انتزاع وزارة الأوقاف من وزير عربي واستنادها الى وزير تركي بحيث لم يبق أحد من أبناء العرب في الوزارة .

سابعا : استبدال الولاة والمتصرفين والقضاة من أبناء العرب بولاة ومتصرفين وقضاة من الترك وعدم تعيين موظف عربي أو عارف باللغة العربية في سوريا والعراق .

ثامنا : معارضة الاتحاديين لكل مشروع علمي أو أدبي في البلاد العربية ، مثال ذلك أنهم عمدوا الى حل جمعية « النهضة السورية » الأدبية التي تألقت في دمشق ، وألغوا الشركة التي تألقت في طرابلس لإنشاء مدرسة منظمة فيها

تاسعا : مناهضتهم للغة العربية مناهضة غريبة في بابها ، فقد نشر سفير الدولة في واشنطن سنة ١٩٠٩ اعلانا حظر فيه على العثمانيين المقيمين في أميركا مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية مع علمه بأن الجالية السورية هناك لا يقل عددها عن نصف مليون ، ليس بينها رجل واحد يحسن اللغة التركية .

وكان القائمون وبعض رؤساء المحاكم في سوريا والعراق في ذلك الحين يتفاهمون مع الأهلين بواسطة الترجمان ، وقد قال أحد المستشرقين النمساويين في حديث له مع جودت بك صاحب جريدة اقدم : « انه سمع بأذنه شكوى أحد اليمينيين الى الوالي بواسطة المترجم فعكسها المترجم عكسا » .

ولا ريب في أن هذا الخلاف كان يسهل حسمه في تلك الأثناء لو أظهر الاتحاديون أقل اخلاص نحو العرب ، لأن حقوق العرب لم تكن كلها مهضومة كما صارت بعد سنة ١٩١٣ ، ولأن استياء الأمة العربية نشأ معظمه بعد ذلك عن شدة حب الاتحاديين للاستئثار بالسلطة وتورطهم في النعرة الجنسية تورطا أدى الى مناهضة العرب واقصائهم عن المراكز السياسية والادارية ، وغل يدهم في الأعمال النافعة ، والعمل على القضاء على لغتهم ومدنيتهم وعاداتهم

وفي أواخر سنة ١٩٠٩ دعا بعض ضباط العرب وزعمائهم أصحاب الرأي من جمعية الاتحاد والترقي الى اجتماع طويل في الآستانة للبحث في التدابير التي يجب اتخاذها لحسم هذا الخلاف بين الترك والعرب

نهائيا . وكاد هذا الاجتماع يسفر عن نتيجة مرضية لولا دخول بعض غلاة الترك كأحمد أغايف ، ويوسف أقشوره وغيرهما في الأمر وتفويضهم بما يمس العرب ويزيد نفورهم منهم ويقضى على آمالهم فيهم .

وكانت الحال ساكنة في السنوات الأولى التي عقيبت ثورة ٣١ مارس ، وظلت كذلك الى أن ظهرت نيات الاتحاديين لبعض العرب واضحة جلية بإرسالهم الحملة تلوي الحملة على البلاد العربية ، ولكن تلك الحوادث المؤلمة لم تؤثر كثيرا في الرأي العام العربى لما أبداه الاتحاديون من الدهاء في ذلك الحين ، فقد عينوا سامى باشا الفاروقى قائدا للحملة التي أرسلوها على حوران ليرضوا العرب بهذا التعيين ويقنعوهم بأنهم لا يضمرون لهم شرا ، ولكنهم من جهة أخرى أحاطوا هذا القائد العربى بضباط معظمهم من غلاة الترك فغلوا يده بهم ونفذوا خططهم باسمه ثم تنصلوا أمام العرب من تبعة الأعمال التي عزوها اليه وكان هو بريئا منها .

وعينوا عزت باشا قائدا للحملة التي أرسلوها على اليمن وعزيز على بك في أركان حرب تلك الحملة وأولهما محبوب من العرب والثانى من صميمهم وكبار زعمائهم ، فلم ير العرب فى ذلك ما يسوؤهم ، لا سيما وأن عزيز على بك تمكن من حقن الدماء بما أبداه من المهارة وحسن السياسة ، فأبرم اتفاقا مع سيادة الامام يحيى جاء فى مصلحة الفريقين .

ولم تكن حالة العرب فى تلك الأثناء قد ساءت كثيرا ، فكان نوابهم فى مجلس المبعوثان من أفاضل النواب وكلمتهم مسموعة فيه وحالة بلادهم هادئة وصلاتهم بالاتحاديين حسنة فى الظاهر ، لان فريقا من زعمائهم لم يكونوا قد انفصلوا رسميا عن جمعية الاتحاد والترقى فى ذلك الحين ، ولان هذه الجمعية كانت فى حاجة ماسة الى من يؤيدها ويتميل العناصر العثمانية اليها فتمسكت بأحرار العرب وتظاهرت بالميل اليهم تحقيقا لآمالها .

على أنه لما استتب الأمر للاتحاديين ورأوا نفوذهم فى البلاد العثمانية أباطوا اللثام عن حقيقة حالهم فأعلنوا خططهم الجديدة على رؤوس الأشهاد ، وعدلوا برنامج جمعيتهم تعديلا جعلها تركية بحتة ، فانفصل عنها حينئذ كل أحرار العرب والألبانيين والأرمن وبعض الترك الغيورين على مصلحة وطنهم ، وجاهرُوا بمقاومتها بعد ما استسلم زمامها شيان من غلاة الترك لا خبرة لهم ولا وطنية ولا دين ، وأنشأ أحرار الترك « الحرية والائتلاف »

التي كانت غايتها منح الولايات العثمانية استقلالاً إدارياً وإدارة شئون المملكة على أسس اللامركزية ، فانتظم في سلك هذه الجمعية عظماء الترك ككمال باشا والبرنس صباح الدين وصالح باشا ورضا نور ولطفى فكرى وعلى كمال وصادق بك وغيرهم ومعظمهم مبعوثو العرب والأرمن والألبان والأروام وفريق كبير من القواد والضباط ، وكان ذلك فى إبان ثورة البانيا، فقامت هذه الجمعية بمظاهرة ثورية فى الآستانة أسفرت عن سقوط وزارة الاتحاديين وحل مجلس المبعوثان وتعيين وزارة ائتلافية برئاسة مختار باشا ثم برئاسة كمال باشا ، فسر العرب بهذا الانقلاب ورأوا فيه خيراً لهم ونفعاً للبلاد .

وكانت الأزمة الخارجية شديدة جداً فى تلك الأثناء ، فحرب مع إيطاليا ، وثورة مع البانيا ، واتحاد فى البلقان ، ومؤامرات واستيلاء فى الداخل ، وفراغ فى الخزينة ، وارتباك فى الإدارة ، وفساد فى الجيش ، كل ذلك من الأثر الذى تركه الاتحاديون لوزارة الائتلافيين فى سنة ١٩١٢ فتفاقم الخطب واتسع الحرق على الراقع ، ولكن الوزارة الائتلافية الجديدة لم تستسلم لليأس والقنوط بل جعلت تعمل بهمة لا تنى وعزم لا ينفد على إصلاح الحال الداخلية والخارجية .

ولما رأى البلقانيون أن الباب العالى نهج فى سياسته الداخلية والخارجية منهجاً قوياً قد يفقدهم ثمرة المعاهدات التى أبرموها فيما بينهم بعد عناء عظيم انتهزوا الفرصة وطلبوا من الحكومة العثمانية مطالب عديدة بشأن مكدونية ثم عززوا ذلك بتعبئة جيوشهم وحشدتها على حدود الدولة ، وقد قر قرار الباب العالى بعد مفاوضات طويلة مع الدول العظمى على أن يسوى مسألة مكدونية بما يوافق مصلحة سكانها ، ويرضى الدول البلقانية ويحفظ حقوق الدولة العثمانية ومنزلتها اجتناباً لحرب لم تكن الأمة على استعداد لها ، وقبل أن يبلغ قراره هذا الى الدول العظمى قام الاتحاديون بمظاهرات عظيمة فى شوارع الآستانة وأمام الباب العالى طالبين إعلان الحرب فى الحال وقابل وفد منهم مختار باشا الغازى الصدر الأعظم فى ذلك الحين وقال له : « لقد حاربت يا باشا وصرت غازياً فدعنا نحارب نحن أيضاً فاما أن نصير غزاة أو شهداء ... » .

وكان من تشديد جمعية الاتحاد والترقى وفروعها وأنصارها من ضباط وملكيين على الوزارة الائتلافية أنها اضطرت الى محاربة الدول البلقانية

رغبة في تسكين الخواطر واجتنابا لحرب داخلية مع علمها بسوء حالة الجيش وحاجة الأمة الملحة الى السكينة والاصلاح .

وأعقبت الحرب البلقانية الحرب الطرابلسية فأشرفت الدولة العثمانية على الهلاك وكثرت الأطماع في بلادها ، وعرضت المسألة الشرقية على بساط البحث في الصحف الأوروبية والأندية الرسمية وغير الرسمية ، فرأى زعماء العرب أن الخطر على الدولة أقوى وأسرع مما كانوا يخشون ، وأن الدولة التي عجزت عن حفظ الروملی وهو سسياج الدولة وحصنها أمام البلقان ، ستعجز حتما عن الدفاع عن البلاد العربية اذا هجمت عليها دولة قوية ، اذ ليس فيها حصون ولا سلاح ، وكان هذا الأمر منبها لكثير من أصحاب الوطنية من العرب الى ما سبقهم اليه بعض أذكیاء الترك وهو الدعوة الى وجوب جعل ادارة الدولة على أساس اللامركزية ، لان ذلك أدعى الى عمران كل قطر واستعداده للدفاع عن نفسه حين الحاجة ، فالفوا الأحزاب المعروفة والجمعيات التي لا يعرفها الا القليلون لقلة انتشارها وانحصارها في فئة خاصة من شباب العرب ، وهذه الأحزاب هي : حزب اللامركزية ومركزه في القاهرة ورئيسه رفيق بك العظم ، وجمعية الاصلاح وقوامها نخبة من أعيان سوريا والمنتدى الأدبی وقوامه خيرة شبان الحق ، وجمعية البصرة الاصلاحية ورئيسها السيد طالب بك النقيب وأحزاب وجمعيات أخرى ملكية وعسكرية .

ومن الحق أن نذكر هنا مواقف الصحافة التركية التي نشأت بعد الدستور ، فقد كانت تدعو بصراحة الى تعزيز القومية الطورانية وتحامل على القوميات الأخرى ، وتحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها ، ولذلك نستطيع أن نقول ان الخلاف بين العرب والترك كان أول مظاهره التنسيق والوظائف ، ثم بلغ أشده عن طريق الصحافة ، لان الصحافة العربية في الوقت نفسه لم تقف موقف المتفرج بل أخذت تدافع عن القومية العربية وتنادى بها وتطالب بالحقوق المهضومة ، وتندد بسياسة التحامل والظلم والاستبداد .

تفاصيل أخرى ، ووجهات نظر أخرى من بينها - مثلا - ما جاء في كتاب « أسرار الثورة العربية » لمؤلفه الأستاذ أمين سعيد : ان اعلان الجيش العثماني الثورة على السلطان عبد الحميد وارغامه على الأخذ بالنظام البرلماني

خلق جواً جديداً ، تنفست فيه الفكرة العربية وارتاحت مما كانت تعانيه من ضغط وكبت ، وقد اغتنم بعض أدعياء الترك في الآستانة فرصة انهيار عهد السلطان عبد الحميد وقرار رجاله ، وكان بينهم عدد من أبناء العرب فهاجموا منازل هؤلاء ، واعتدوا عليهم دون زملائهم الترك مما تألم له أبناء الجالية العربية في الآستانة ورأوا فيه عدواناً مقصوداً مدبراً يراد به الاساءة الى أبناء العنصر العربي الذين بدأوا في عقد سلسلة اجتماعات اتفقت كلمتهم فيها على انشاء جمعية الاخاء العربي وأنشأوا تأسيسها في سنة ١٩٠٩ وكان شعورها : تعاون العرب على اختلاف أقطارهم ، وأمصارهم في الدفاع عن كرامة الأمة العربية فيشد بعضهم أزر بعض . وكان من أوائل أعمال تلك الجمعية ، الاحتجاج على ما نزل بالموظفين العرب من اضطهاد .

ومع ذلك ازدادت الجفوة بين العنصرين : العربي والتركي ، وقد ضاعفت من شدة الجفوة الحملة الصحفية التي قامت بها صحيفة « طنين » لسنان حال حكومة الاتحاد ، وكذلك صحيفة « اقدام » . وقد رهنى - مثلاً - أحمد شريف المندوب المتجول للصحيفة الأولى « طنين » العرب بكل نقيصة . ورد الشباب العربي الذين كانوا يتلقون العلم في الآستانة على تلك الوقاحة بالهجوم على مقر تلك الجريدة ومكاتبها ، وانتشرت فكرة انفصال العرب عن الترك . وتضاعفت الجمعيات العربية السرية والعلنية التي تعمل لتحقيق تلك الفكرة ، وكانت من أبرز تلك الجمعيات : جمعية الاخاء العربي ، والمنتدى العربي ، والجمعية القحطانية ، وجمعية العهد ، والعلم الأخضر ، و . . و . .

عن أول جمعية عربية « جمعية الاخاء العربي العثماني » يقول جورج أنطونيوس : انها افتتحت في اجتماع كبير عقده الجالية العربية في القسطنطينية وحضره أعضاء « جمعية الاتحاد والترقي » وذلك وسط مظاهر الابتهاج العظيم . أما أهدافها الرئيسية فهي حماية الدستور وتوحيد جميع الأجناس في ولائها للسلطان وتحسين حالة الأجزاء العربية على أساس من المساواة الصحيحة بين العرب والملل الأخرى في الامبراطورية ونشر التعليم باللغة العربية وتشجيع المحافظة على العادات العربية . وكان باب الانتساب مفتوحاً أمام العرب من جميع الأديان كما تقرر انشاء فروع للجمعية في جميع المقاطعات العربية وقد شرعت فعلاً باصدار جريدة غايتها بث آراء الجمعية .

ويرى جورج أنطونيوس : ان تعطيل الاتحاديين لجمعية (الاخاء العربي) دفع بالزعماء العرب الى العمل السري فتشكل عدد من الجمعيات السرية دون أن يتوصل الترك الى معرفة بعضها البتة . ومن ذلك الحين أصبح نشر الأفكار القومية العربية خاضعا لأسلوبين : الأول علني بواسطة النوادي والجمعيات المعترف بها ، والثاني سري وهو الذي كانت تقوم به منظمات سرية ترتب المؤامرات . وتشكل عددا من هذه الجمعيات وأخذ يعمل بنشاط بين عام ١٩٠٩ و ١٩١٤ ولكن أربع جمعيات منها تستحق اهتماما خاصا : اثنتان علنيتان واثنتان سريتان . كانت أعمال كل جماعة متممة لأعمال رفيقاتها الى حد بعيد ولعلنا نوفق الى اظهار هذا الارتباط فيما بينها بوضوح .

كان (المنتدى الأدبي) أقدم الجمعيتين وقد قام بتأسيسه في القسطنطينية في صيف عام ١٩٠٩ جماعة من الموظفين والمبعوثين والكتاب والطلاب ليكونوا مركزا يلتقى فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها وقد استقر (المنتدى) في منزل يحوى مكتبة ودارا للضيافة وحقق الغاية التي أنشئ من أجلها فأصبح مركزا فعالا وناظرا . وقد سكت الاتحاديون عن وجوده وشملوه برعايتهم مدة من الزمن لأن أهدافه المعروفة لم تكن سياسية ولكنه في الواقع كان يتمتع بنفوذ سياسي كبير حتى اعترف في وقت من الأوقات بلجنته الادارية كوسيط بين العرب والاتحاديين في المفاوضات التي جرت لتسوية الخلافات بين الطرفين . وعلى كل حال كان (المنتدى) مصفاة للأفكار لا مصنعا لها وهذا هو عمله الحقيقي فانهضرت مساهمته بالحركة العربية في تنميته الدعوة لها وتوسيع مداها لا في خلق دافع جديد يحركها . كان عدد أعضائه كبير جدا حتى بلغ مجموعهم الآلاف وكان أكثرهم من التلامذة كما أنه أنشأ فروعاً له في مدن مختلفة من الشام والعراق وكان من أكبر ميزات أنه أوجد مراكز يلتقى فيها العرب من كافة أنحاء المملكة وهم اذ شعروا أنهم في بيوتهم تحدثوا بحرية في جو ترتاح اليه الأذهان وتجده فيه الأفكار واسطة للانتقال .

ومن أبرز مؤسسي (المنتدى العربي) عبد الكريم الخليل « مسلم من لبنان » ، صالح حيدر « مسلم من بعلبك » ، رفيق سلوم « مسيحي من حمص » ، جميل الحسيني « مسلم من القدس » ، يوسف مخيمر « مسلم من بعلبك » ، سيف الدين الخطيب « مسلم من دمشق » .

أما الجمعية العلنية الهامة الأخرى فقد أسست في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ واتخذت اسم (حزب اللامركزية الادارية العثماني) وكانت أهدافها ذات شقين : اقناع حكام تركيا بضرورة ادارة المملكة على أساس لامركزي من جهة ومن جهة ثانية توجيه الرأي العام العربي نحو المطالبة باللامركزية . وكانت الكثرة من مؤسسيها مؤلفة من رجال ذوي خبرة ومكانة .

ومن مؤسسي حزب اللامركزية العثمانية : رفيق العظم « مسلم من دمشق » ، رشيد رضا « مسلم من طرابلس » ، اسكندر عمون « مسيحي من لبنان » ، فؤاد الخطيب « مسلم من لبنان » ، سليم عبد الهادي « مسلم من جنين » ، وحافظ السعيد « مسلم من يافا » ، ونايف تملو « مسلم من دمشق » ، علي النشاشيبي « مسلم من القدس » . قوانين تجعلها صالحة .

وقد برز أعضاء هذه الجمعية في الحياة العامة ، وقد سنت الجمعية قوانين تجعلها صالحة لايجاد آلة حزبية كبيرة ، على أن الاشراف والتوجيه كانا منحصرين في لجنة قوية مؤلفة من عشرين عضوا من المقيمين في مصر . ويشكل ستة منهم الهيئة التنفيذية . وقد أسست لها فروعاً في كل مدينة من مدن الشام ، كما أسست وكالات صغيرة في بعض الأماكن الأخرى وأقامت صلات وثيقة جداً بينها وبين الهيئات السياسية العربية في الشام والعراق ولا سيما (المنتدى الأدبي) في القسطنطينية . لم يمض سنة على تأسيس (حزب اللامركزية) حتى أصبحت لجنته تنطق بلسان العرب وتعرب عن آمانيهم وقد امتازت بحسن تنظيمها وقوة نفوذها .

تعود قيمة هذه الجمعية في تازيخ الحركة العربية الى أنها أول تجربة تقوم بها الحركة في حقل المجهود المنظم فقد مضى ثلاث سنوات على المعركة بين الاتحاديين ، والعرب الساعين الى الحصول على حكم ذاتي ، وهي ما تزال متقطعة ومبعثرة شأن معارك العرب جميعها فأسست هذه الجمعية لكي تسعى الى تنسيق الجهود وتوحيدها ولتكون أداة لضغط شديد مجتمع ومستمر .

وعن المنتدى الأدبي والجمعية القحطانية يقول جورج أنطونيوس :
ثم تأسيس الجمعيتين السريتين خلال هذه المرحلة ، فشكلت

(الجمعية القحطانية) في أواخر عام ١٩٠٩ بعد تأسيس (المنتدى الأدبي)
بقليل وقد امتاز مؤسسوها بإقدامهم كما امتاز هدفها بأنه يرمى
الى تحقيق مشروع جديد وجرى وهو تحويل المملكة العثمانية الى مملكة
ذات تاج مزدوج ، فكان هذا الهدف محاولة جديدة لمعالجة المشكلة التي
خلفتها سياسة الاتحاديين المركزية . . . ويتلخص المشروع في أن الأجزاء
العربية تشكل مملكة واحدة ذات برلمان خاص بها وإدارة محلية خاصة
كذلك وأن تكون العربية لغة مؤسساتها وتكون هذه المملكة جزءا من
امبراطورية تركية وعربية تشبه في تكوينها امبراطورية النمسا والمجر ،
وعلى هذا يضع السلطان العثماني في القسطنطينية على رأسه تاج المملكة
العربية بالإضافة الى تاجه التركي على غرار امبراطورية آل هابسبورغ في
فيينا الذي وضع على رأسه التاج المجري . وبهذا التفريق تتوصل
الامبراطورية الى تكوين وحدة حقيقية توحد مصير الترك والعرب على أساس
ثابت لأنه يستند الى الواقع .

أمامنا اذن مشروع ملموس فكرته واضحة معينة وقد أوجدته جماعة
من الرجال العاملين ذوي العزم الأكيد الذين أدركوا أن تحقيقه عن طريق
الدعوة له علنا أمر مستحيل . كان زعيمهم عزيز على المصري وهو ضابط
في الجيش التركي ، وكان أعضاء (الجمعية القحطانية) ينتقون بدقة وحذر
فلا يقبل الا من كانت وطنيته فوق كل شك ومن يستوثق من قدرته
الأكيدة على كتم السر .

وقد ضمت الجمعية عددا من الضباط العرب ذوي الرتب العالية في
الجيش التركي ومائتين من مؤسسي (المنتدى الأدبي) وكان لها كلمة سر
واشارة للتعارف وأنشئ لها فروع في خمسة مراكز بالإضافة الى
القسطنطينية واستمدت الجمعية قوتها من قوة شخصية بعض أعضائها ،
أما قيمتها في تاريخ الحركة فهي ناشئة عن كونها قامت بأول محاولة
معروفة لكسب الضباط العرب في الجيش التركي والفوز بمؤازرتهم الفعالة
للحركة القومية .

كانت الجمعية كبيرة النشاط في السنة الأولى من حياتها الى أن وجد
المؤسسون بعض الدلائل التي جعلتهم يخشون الخيانة . وبالرغم من أن
الأشخاص كانوا لا يقبلون فيها الا بعد اجراء تحقيق دقيق فقد تبين أن أحد
الأعضاء قد أفشى السر فثار ذلك قلق الباقيين . لم يعمد الأعضاء الى حل

جمعيةهم فعلا ولكن رؤسائها وجدوا أنه يستحيل عليهم الاستمرار في العمل وبيتهم رجال يرتابون في شأنه فماتت كنتيجة لاهمال مقصود .

ومن أبرز أعضاء تلك الجمعية : سليم الجزائري (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) والأميران عادل وأمين أرسلان (درزيان من لبنان) و خليل حمادة (مسلم من بيروت) وأمين كزما (مسيحي من حمص) وصفوت العوا (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) وعلى النشاشيبي (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) وشكري العسلي (مسلم من دمشق) .

أما الجمعية السرية الثانية فهي جمعية (العربية الفتاة) التي أسست في باريس عام ١٩١١ ولم تلعب أية جمعية أخرى الدور الذي لعبته هذه الجمعية في تقرير مصير الحركة القومية . كان مؤسسوها سبعة من العرب ، وكلهم مسلمون ، كانوا يتابعون دراستهم العالية في العاصمة الفرنسية فسار عملهم باتحاد وقوة بفضل ما امتازوا به أنفسهم من فتوة ورغبة أكيدة في العمل ووحدة في الرأي . ويذكرنا تأسيس الجمعية من هذه الناحية بتشكيل جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ والفارق بين الحالتين ان العمل في هذه المرة انتقل الى أيدي المسلمين أما أهداف الجمعية فكانت : تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي وأية سيطرة أجنبية أخرى ، ونحن نلاحظ في هذا تقدما ذا مغزى على البرامج السابقة التي كانت تطالب بالحكم الذاتي ضمن المملكة كما نلاحظ عودا غير مقصود الى المثل العليا التي اعتنقتها جمعية بيروت السرية .

وستنحصر اهتمامنا بنمساها الذي كان نموا حذرا ولكنه سريع أدى الى جعلها أكثر الجمعيات العربية العاملة فعالية . وكانت تمتاز لا بأهدافها وأساليبها فحسب بل وأيضا بالنظام الشديد السائد بين الأعضاء والذي يدعو الى الاعجاب فكان الانتساب لا يتم إلا بعد أن يمر الراغب بدور تجربة طويل ويتوقف على نتيجة هذه التجربة وكان لكل مرشح جديد عضو محلف قديم يتولى تقديمه فلا يعرف المرشح غيره من الأعضاء ويظل يجهلهم حتى يجتاز دور التجربة بنجاح وعندئذ يدعى الى خلف اليمين فيقسم أن يعمل على تحقيق غايات الجمعية ولو أدى ذلك عند اللزوم الى بذل حياته في خدمتها .

بقيت باريس مركزا للجمعية مدة سنتين فبقي عدد الأعضاء قليلا ، فلما تخرج أعضاؤها وعادوا الى أوطانهم انتقل المركز الى بيروت عام ١٩١٣ . ثم الى دمشق في العام الذي تلاه فبلغ مجموع الأعضاء المائتين وكلهم من المسلمين باستثناء عدد ضئيل من النصاري ، وبقي سر وجودها مكتوما حتى النهاية ولم يعرف بها أحد الا بعد أن تحررت البلاد العربية من الحكم التركي . وعندما كان الترك يلاحقون القوميين العرب بتهمة الخيانة أثناء الحرب العالمية حاول أحد أعضاء (الفتاة) الانتحار لما وصلوا في تعذيب جسمه حدا لا يطاق كما فضل عضو آخر المشنقة على افشاء سر الجمعية . واذا كان القسم الذي فرض على الأعضاء يذكرنا بالروايات المسرحية العنيفة فلا نرى بأسا في ذلك ما دام في هذا الشكل ضمان للولاء .

كانت هذه الجمعيات الأربع ، وغيرها من الجمعيات التي تقف دونها في الأهمية ، في الوجود حين ارتطمت موجة جديدة من موجات الحركة العربية بصخرة المقاومة التركية وقد بدأت الموجة في الأيام الأخيرة من عام ١٩١٢ ثم حملها التيار نفسه الى باريس حيث انعقد مؤتمر عربي بعد ستة أشهر .

نهضت بالعمل في بيروت فئة اتخذت لنفسها اسم (جمعية الاصلاح) وعدد أعضائها ستة وثلاثون يمثلون جميع الأديان فأعدوا مشروعا يقضى بمنح المناطق العربية في المملكة العثمانية حكما ذاتيا وقد حملهم على القيام بهذا الأمر الدوافع نفسها التي أدت الى انشاء حزب (اللامركزية) في القاهرة وكانت الروابط بين الهيئتين وثيقة كما أن مشروعاتهم كان بمثابة التعبير العملي عن المبادئ التي بشر بها دعاة الحكم الذاتي على أساس اللامركزية .

كان المشروع منطبقا على الهيكل الاداري وتقسيماته القائمة كما أنه اعترف اعترافا تاما بالسيطرة التركية ولكنه فرق تفريقا واضحا ما بين المسائل ذات الصلة بالامبراطورية العامة كالشئون الخارجية والدفاع والمواصلات البعيدة ومالية الدولة ، وبين المسائل ذات الصلة الاقليمية كادارة المقاطعات ومواردها والدوائر المحلية كما أنه قضى بانتقال جميع المصالح الاقليمية في ولاية بيروت الى أيدي هيئات تمثل الأهالي . ومن جملة الاصلاحات التي أتى بها المشروع الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية واستعمالها في البرلمان على قدم المساواة مع اللغة التركية . أما في موضوع

الخدمة العسكرية فقد قضى المشروع بلزوم العدول عن تجنيد الجند للخدمة
وقت السلم خارج مناطقهم . ونحن نتبين في هذه البنود الأخيرة صدى
لصيحات جمعية بيروت في عام ١٨٧٥ .

نشرت جمعية (الاصلاح) مشروعها في أواسط شهر فبراير عام
١٩١٣ فاستقبل بمظاهر الاستحسان العام لا في أنحاء الشام فحسب بل
أيضا في العراق وعقدت اجتماعات عامة في دمشق وحلب وعكا ونا بلس
وبغداد والبصرة وتدفقت البرقيات على القسطنطينية مرغبة بالمشروع ومعلنة
أنه يعرب عن رغبات جميع الناس في الأجزاء العربية . على أن الاتحاديين
وهم في الحكم كانوا خصوم فكرة اللامركزية ولهذا اتخذوا التدابير للقضاء
على هذه الحركة ، ففي اليوم الثاني من شهر ابريل وأثناء انعقاد جلسة من
جلسات جمعية (الاصلاح) حضرت الشرطة وأعلنت الأعضاء أن الحكومة
قررت حلها وإغلاق مركزها الرئيسي فولد هذا العمل فزعا مثيرا للهمم
وغضباً عامين فأضربت جميع الأسواق والمتاجر في بيروت وظهرت الجرائد
وقد أحيطت صفحاتها بشارة الحزن السوداء ولم تنشر شيئا سوى الأمر
القاضي بحل الجمعية . وتابعت السلطات التركية سيرها في سياسة الشدة
التي تعشقها الحكومات المكروهة فاعتقلت الرؤساء البارزين وعطلت الجرائد
ولكن الهياج ازداد وأدى الى قيام المظاهرات التأييدية في جهات أخرى من
بلاد الشام فلبأت الحكومة الى اجراء حل وسبط : فأطلقت سراح الزعماء
المسجونين وأعلنت أنها ستقوم بالاصلاح بشكله المطلوب ثم في اليوم
الخامس من شهر مارس نشر الحاكم العام بالفعل قانونا جديدا للولايات من
شأنه أن يمنح الهيئات التي تمثل السكان في المقاطعات سلطات أوسع من
ذى قبل ولكن هذا الحال قصر عن مشروع الجمعية بشكل جعل الناس ينظرون
اليه ، وهم على حق في نظرتهم ، كخطوة مقنعة نحو مركزية متزايدة
نتيجتها تقوية الساعد الذي يمد القسطنطينية لتطبق على العرب بقبضة
يدها وتخنق الحريات .

انتقل في ذلك الوقت مركز الحركة الى باريس : فقد كان الشباب
الذين أسسوا (جمعية الفتاة) يفكرون منذ زمن بعرض القضية العربية
بإيجاد حل لها فاختراروا أسلوب عقد مؤتمر عربي ويغد أن ترددوا قليلا
في أمر المكان الملائم للاجتماع بين سويسرة وفرنسا وقع اختيارهم على
باريس ولهذا كتبوا بتاريخ ٤ ابريل عام ١٩١٣ الى لجنة (حزب

اللامركزية) في القاهرة يدعونه والجمعيات التابعة له لحضور المؤتمر .
ومن المهم أن نذكر هنا أن الدعوة أتت في رأس الأسباب المبررة لعقد
المؤتمر . على ذكر الحجة القائلة بأن انكار المطالب العربية أدى الى تعميم
الفوضى في الولايات العربية وتعريضها الى التدخل الأجنبي ، أي الأوروبي .
فوافق الأعضاء على الفكرة ولبوا الدعوة فوراً كما أن (جمعية الإصلاح) في
بيروت ، التي كانت تن من أثر مساعي الاتحاديين لقمع حركتها ، أرسلت
تعلن انضمامها للمؤتمر بحرارة وقد بلغت السرعة التي لبي الناس فيها
الدعوة حدا اضطر معه القائمون على العمل بأن يعدوا عدتهم في أقصى
السرعة حتى ان الدعوة لم تصل الأجزاء العربية البعيدة الا قبيل التمام
المؤتمر الذي عقد جلسته الافتتاحية في يوم ١٨ يونيو في قاعة بشارع
سان جرمان .

ضمت قائمة الممثلين المعتمدين خمسة وعشرين شخصا حضر منهم
أربعة وعشرون ممثلاً وكان تمثيل النصارى في المؤتمر مشابها لتمثيل
المسلمين مشابهاً تكاد تكون تامة وكانت الأكثرية الغالبة من الحاضرين من
أهل الشام ومثل العراق عضوان كما حضر ثلاثة أعضاء لتمثيل الجاليات
العربية في الولايات المتحدة وكانت نسبة تمثيل المناطق العربية باستثناء
الشام ضئيلة . استمر انعقاد المؤتمر أكثر من ستة أيام عقد فيها أربع
جلسات رسمية واتخذ عدداً من القرارات باجماع الآراء ، وحضر الجلسات
حول المائتين من العرب بصفة مستمعين وفي اليوم الأخير فتحت الأبواب
لجميع الزائرين بدون قيد وجرت المناقشات باللغة الفرنسية .

تمتاز أبحاث المؤتمر بصراحته ولهجتها المسالمة كما أن مقرراته تدل
على ميل نحو الاعتدال وكانت هذه المقررات بمثابة ترديد مجدّد للمبادئ
التي سبق أن أعلنها (حزب اللامركزية) وللمقترحات المعينة التي تقدمت
بها سابقاً (جمعية الإصلاح) في بيروت مع الاصرار على طلب العرب الحصول
على حقوقهم السياسية الكاملة وعلى نصيبهم الفعلي في إدارة شئون
الامبراطورية وأشارت الأبحاث جميعها الى أن التدخل الأجنبي محتمل
الوقوع ويجب صرفه بعزم أكيد لما ينطوي عليه من خطر الا أن هذه الإشارة
كانت دوماً تصاغ في قالب حكيم لما لها من صلة بأطماع فرنسا . ولم يأت
المؤتمر البتة على ذكر الانفصال أو الانشقاق بل بالعكس كان الخطباء
يبدلون الجهد لظهار الرغبة العامة في المحافظة على وحدة المملكة على شرط
الاعتراف بحقوق العرب كشركاء فيها . وفسح المجال لأمانيتهم الفكرية بأن
تتحقق ضمن الشكل اللامركزي للحكم . وامتازت بعض الخطب بما دلت

عليه من ادراك سياسى واع عميق ، فاستعرض أحد الخطباء أسباب الخلاف وأصاب صميم المسألة اذ كشف النقاب عن التضليل الذى ينطوى عليه مبدأ المركزية الذى يتمسك به الاتحاديون وقد أخذوه عن مبادئ الثورة الفرنسية كما قام بتحليل واضح أثبت فيه أن العرب اذا قبلوا بهذا المبدأ فهم اذن مقدمون على الانتحار .

كانت السلطة يومئذ فى يد الاتحاديين فكان من الطبيعى أن يقفوا من المؤتمر موقفا عدائيا فقاموا بتوجيه حركة ، غذتها جرائدهم وأيديتها المظاهرات المدفوعة ، غايتها تشويه المؤتمر وبذر بذور الخلاف بين القائمين عليه فلما فشلوا فى هذه المحاولة أرسلوا أمين سر (حزب الاتحاد والترقى) الى باريس وزودوه بالتعليمات التى تخوله حق الدخول فى مفاوضات مع زعماء المؤتمر فنجح فى تنفيذ هذه التعليمات وتوصل الطرفان الى الاتفاق على المبادئ التى اعتبرها الزعماء العرب صالحة كأساس للقيام بمفاوضات أخرى فسافر ثلاثة منهم الى القسطنطينية للوصول الى تنفيذ ما فازوا به .

كان الاتفاق الذى تم فى باريس فوزا للعرب فى ظاهره لأنه منحهم ما طلبوه فى مواضيع كثيرة كالخدمة العسكرية ضمن الاقليم وجعل اللغة العربية رسمية فى الولايات العربية وادخالها كأداة للتعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية . ونص الاتفاق على ضرورة تعيين مفتشين أوروبيين يشتركون فى اصلاح الادارة . أما فى موضوع اللامركزية فان تساهل الاتحاديين كان ظاهريا لا حقيقيا ، وذلك ان الاتفاق منح الهيئات المحلية فى الأقاليم سلطات فى بعض المصالح الثانوية كما حفظ للعرب بعض المناصب فى دوائر الدولة العالية وعلى هذا نال العرب الحق بأن يكون منهم ما لا يقل عن الخمسة من الحكام العاميين بصورة دائمة وما لا يقل عن الثلاثة من الوزراء فى أية وزارة عثمانية تأتى للحكم .

لسنا نعلم ما اذا كان موفد الاتحاديين توصل الى هذا الاتفاق بناء على التعليمات التى يحملها أم أنه حاول تهدئة العرب بلعبة من صنعه ولعله كان يفعل الأمرين معا فقد تبين فيما بعد ، عندما مسخت مواد الاتفاق بشكل لم يعد لها معه أدنى قيمة ، أنه لم يكن فى نية زعماء الاتحاديين ابرام الاتفاق فى وقت من الأوقات ومع ذلك فقد استثمروا يمثلون الدور مدة

شهرين فاستقبلوا زعماء العرب الثلاثة لدى وصولهم من باريس وأقيمت على شرفهم الحفلات والمآدب كما كان رجال الترك البارزين موضع الحفاوة في (المنتدى الأدبي) وبهذا تجدد الاخاء الرخيص الذي ظهر عام ١٩٠٨ محاطا بهالته اللفظية القديمة .

نشرت في ١٨ أغسطس ارادة سنّيه ترمي في ظاهرها الى اعطاء اتفاق باريس الشكل القانوني ولكنها في الواقع اختصرت الى حد بعيد الحقوق التي اعترف بها الاتفاق كما أحاطت ماتبقى منها بالتحفظ والغموض فقد ورد في الارادة نص يفرض استعمال اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية ولكنها نصت كذلك على أن المدارس الثانوية في العواصم الاقليمية تشاير على استعمال اللغة التركية وكانت المدارس الثانوية جميعها في تلك العواصم . أما الخدمة العسكرية فيتأيد حقها بالشكل ذاته ، ولم تشر الارادة البتة الى ضرورة اعتبار العربية لغة رسمية أو الاعتراف بها كاحدى اللغات الرسمية في المناطق العربية كما أنها لم تأت على ذكر المناصب التي يجب أن تخصص للعرب في الوزارة وبين الحكام العامين .

كان ظهور الارادة السنّية سببا لانتشار الفزع الذي ما لبث أن تحول الى يأس حين أخذ العرب المتنبهون يدركون أنها هي أيضا لعبة وان الاتحاديين يرمون من ورائها الى قتل القضية الكبرى . وقد وجهت الى بعض الولاة في المناطق العربية تعليمات لا يرافقها أى حماس تطالبهم بأن « يمهّدوا السبيل لتنفيذ الارادة السنّية العظيمة في المستقبل » وفي الوقت ذاته أخذ رسل الاتحاديين يتصلون ببعض رجال العرب البارزين ويعرضون عليهم المناصب ثمنا لرضاهم فقبل خمسة منهم أن يعينوا أعضاء في مجلس الأعيان وكان أربعة من هؤلاء غرباء عن الحركة القومية بينما كان الخامس ، وهو عبد الحميد الزهراوي ، من أكبر أساطينها وهو الذي ترأس مؤتمر باريس . وقد ادعى أن قبوله هذا المنصب ما كان الا مناورة سياسية لأنه شعر بأن المؤتمر ، وقد انعقد مباشرة بعد الحملة التي بدأت في بيروت ، وقد أوصل العلائق بين الترك والعرب الى نقطة خطيرة تشرف فيها على الانقطاع وأنه بحكم منصبه الجديد قد يتاح له أن يعمل عملا نافعا فيبذل نفوذه لتحسين تلك العلائق واقناع الاتحاديين بلزوم السير في سياسة تنطوي على مبلغ أكبر من التسامح والحرية . ويخيل لنا من قراءة بعض رسائله التي نشرت بعد وفاته أنه كان صادقا في هذا الزعم وأيده بعض زملائه المقربين في هذه الخطة وان شذت عنه أكثريتهم ، على أن جمهرة

المشتغلين بالحركة القومية عدوا قبوله المنصب بمثابة الخيانة وقد نشر أمر تعيينه في الجريدة الرسمية في ٤ يناير عام ١٩١٤ فولد نفورا عاما يمكننا اعتباره كنقطة تحول في الحركة . لقد فشلت كل من الحركة التي قامت في بيروت ومؤتمر باريس في تحقيق أغراضهما الرئيسية فأصاب موجة الشعور التي حملتها رجس جر في أثره الألم واليأس ولم تبذل أية محاولة للاتفاق مع الاتحاديين بعد ذلك . ومما زاد في خطورة الأمر أن هؤلاء ، بعد أن ربحوا المعركة بلعبتهم واحتيالهم ، عملوا على متابعة ظفرهم بتصرف جديد يمتاز بحماقته وعنفة .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الشيخ رشيد رضا - صاحب المنار - د . ابراهيم أحمد العدوي - كان قد أنشأ جمعية سماها جمعية الشورى العثمانية ، وكانت ترسل منشوراتها السرية الى سائر أرجاء البلاد العثمانية حتى أقضت مضاجع السلطان عبد الحميد وأنزلت الرعب في نفسه .

وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد أنشئت وجاء مندوب عنها الى رشيد رضا بالقاهرة يقترح ضم الجمعيتين معا ، ولكن رشيد رضا اعتذر بلباقة لان جمعية الاتحاد والترقي كانت تعتمد على شباب العثمانيين وحدهم دون سائر العناصر الأخرى وخاصة العرب .

وبعد استيلاء جمعية الاتحاد والترقي (تركيا الفتاة) على الحكم وجد رشيد رضا أنها تسير على نفس السياسة القديمة سياسة التنكيل بالعرب ، بل لقد وجد الشيخ ان جمعية الاتحاد والترقي أكثر تعسفا بالعرب من السلطان عبد الحميد ، وكان الاتحاديون قد بدأوا يحاربون اللغة العربية ويفرضون اللغة التركية حتى في محاكم الدرجة الأولى . وقضى رشيد رضا عاما بالآستانة يدرس سياسة الحكم الجدد ، وعاد مؤمنا بأنهم يعمدون الى الخديعة .

وفشلت دعوة رشيد رضا ، كما فشلت دعوة عزيز على المصري في ازالة الجفوة بين العرب والأتراك .

ولابد بعد الحديث عن الجمعيات والأحزاب العربية من التركيز أكثر على المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس ، وكان أصحاب فكرته

عبد الغنى العريسي ، ندره المطران ، شكرى غانم ، عونى عبد الهادى ،
جميل مردم بك ، شارل دباس ، محمد المحمصانى ، جميل مردم . وقد
أرسل هؤلاء الجماعات العربية الكبرى واتفقوا معهم على عقد المؤتمر وتحديد
زمانه . وفى ٤ نيسان (ابريل) ١٩١٣ أرسلت اللجنة التى شكلت من
الأسماء التى سبقت الإشارة اليها الى حزب اللامركزية فى مصر ، اقترحت
عليها ، أن تقوم هى بأعباء هذا المؤتمر وأن تعمل على انفاذه وانجاحه ،
وجاء فى كتابها الى حزب اللامركزية ما يأتى :

« نحن الجالية العربية فى باريس نقدم اليكم عواطف الشكر
لتأليفكم حزب اللامركزية الادارية ، فقد جمعتم فى برنامجكم الأمانى التى
يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيتهم فى كل حين ، ولذلك
أوقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة واعتبرناكم مصدرا لما نتوقع أن نقوم
به فى هذه الديار ازاء مناظرات الجرائد ومغامز الخطباء فى الأندية
السياسية ومجرى المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية ، وهذا ما حمل
الجالية العربية على الاجتماع والبحث فى التدابير الواجب اتخاذها لوقاية
الوطن المحبوب من الطوارئ واصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية ،
وبعد المناقشات ارتأت أن تعقد مؤتمرا للعرب تظهر فيه للأجانب أن العرب
يدرون عادية الاحتلال من أية دولة كانت ، ويحتفظون بحياتهم الوطنية ،
ويصارحون الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الاصلاحات اللامركزية فى
بلاد العرب .

وبعد المناقشات ارتأت الجالية أن تعقد مؤتمرا للعرب يقوم به
السوريون فى هذه المدينة ، فانتخبت لجنة ادارية مؤلفة من شكرى غانم ،
ومحمد المحمصانى ، وندره مطران ، وعونى عبد الهادى ، وجميل معلوف ،
وشارل دباس ، وجميل مردم ، وعبد الغنى العريسي ، وتقرر أن تدور
مباحثات هذا المؤتمر حول ما يأتى :

الحياة الوطنية ..

حقوق العرب والمملكة العثمانية ..

ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية ..

المهاجرة من سوريا الى سوريا ..

وفى ١١ نيسان - ابريل - كتبت اللجنة العليا لحزب اللامركزية فى
مصر الى لجنة باريس شاكرة عواطفها وأبلغتها أنها قررت ارسال مندوبين
من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم المشاركة والنظر فى موضوعاته
حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجهم .

وعلى الأثر أذاعت لجنة باريس بيانا عاما بسطت فيه غايتها وفكرتها، وطلبت « من كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيرا أو كبيرا أن يلبنى داعي الوطن لا سيما أرباب الزعامات فى مقاعد الجمعيات فعليهم تعتمد واليهم نتجه ، فاما أن ينضموا الى وفود المؤتمر واما أن يبعثوا الينا بالرسائل البرقية أو الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنيل الغاية واشتراكهم فى شريف القصد حتى يدلى المؤتمر لدى الأمم بحجته وتتوقد قوته بقوة أمته ، وهناك ينبثق الغبن فيطل على هذه الأمة فجر الحياة من اتساق الغسق وركام الظلمات . »

« سلام على كل من تلقى هذا النور فغشاه وعرف واجبه فأداه ... »

وقد افتتحت جلسات المؤتمر فى ١٨ يونية (حزيران) ١٩١٣ - فى الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان برئاسة السيد عبد الحميد الزهراوى الذى قال فى خطبة الافتتاح :

« ان العرب كانوا قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب ، وامتزج الفريقان امتزاجا عظيما مضى عليه أكثر من عشرة قرون ، ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضا ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم الا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك ، وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معا ، ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت قبلا . ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة فى يد الترك ولذلك تعرفها أوروبا بأنها حكومة الترك . فلما رأى العرب الآن ما وصلت اليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى العمل عليها حتى الآن ، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة ، تنبهوا الى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعا غير مهتمين به كما ينبغى وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد ، فانه قد تبين واضحا أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب اضاءة البلاد ، ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل . وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافى الاخاء بل الذى ينافى الاخاء هو عدم هذا الاشتراك . »

وجاء فى خطبة اسكندر بك عمودن ، أحد مندوبى حزب اللامركزية :

« الأمة العثمانية على شفا جرف هار ، فهى بين ذلك الماضى المؤلم والمستقبل المظلم تنظر الى أمسها بعين الحزن والأسف وترمق غدها بعين الخوف والوجل . »

« فى مثل هذا الموقف ، موقف الخطر على الحياة ، تمر على ذهن الأمم كما تمر على ذهن الأفراد حوادث حياتها الماضية حلقات آخذ بعضها برقاب بعض فتترى بينها من الارتباط ما لم تره وهى رهن الحوادث أيام وقوعها ، وتنكشف الأسرار التى ساقطتها الى حيث صارت فتستعين بما عرفت من ذلك لتتهدى الى سبيل النجاة ان كان ثم الى النجاة سبيل . ذلك الخطر الذى أصبحت الأمة فيه هى الباعث على اجتماعنا من كل حذب وصوب فى هذا البلد الآمين ، وهذا هو الغرض الذى نرمى اليه من هذا الاجتماع » .

وقال اسكندر بك أيضا : توهم بعض أنصار النظام المركزى من اخواننا الأتراك ان الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة ، وهو أمر بعيد عن الصحة فان الأمة العربية لا تريد الا تغيير شكل الحكم الفاسد الذى كان يؤدى بالدولة - بالحكم الذى كان يرجى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم ، وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معهم نفس موقفنا هذا » .

وجاء فى كلمة ندره بك مطران ، ان القضية العربية لا تستوجب منهم طيشا يجهلون معه مواضع الضعف من أمتهم وبلادهم ، فيتصورون أن يتسنى لهم جزافا الانقطاع عن ولاء الدولة العثمانية ، وما من أحد ينكر على الاطلاق ارتباطنا بهذه الدولة واتصال علاقاتنا بالأمة التركية أسلم عاقبة وأنتج خيرا للعرب من أى ارتباط سواه .

وتكلم نجيب أفندى دياب مندوب المهاجرين السوريين فقال : « ويتمنى المهاجرون السوريون البقاء فى حضن العثمانية والاحتفاظ بالوطنية بشرط أن تحفظ حقوق اخوانهم المتخلفين فى الوطن من نصارى ومسلمين ، وأن تكون أعراضهم مصونة وأموالهم فى مأمن ومدارسهم تضاء بكهرباء الوطنية وأفئدتهم تلتهب بحب الوطن » .

وكان قد شهد جلسات المؤتمر : عبد الحميد الزهراوى واسكندر عمون عن حزب اللامركزية فى مصر . . سليم على سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد حسن طباره والدكتور أيوب ثابت عن الجمعية الاصلاحية فى بيروت .

توفيق السويدي وسليمان عنبر عن العراق .

محمد حيدر و ابراهيم حيدر عن بلعبك .
عبد الكريم الخليل عن جالية الآستانة .
نجيب ديان ونعوم مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين السوريين
في الولايات المتحدة .
عباس بجاني عن المهاجرين في المكسيك .
شكري غانم ، وعبد الغنى العريسي ، وندره مطران ، وعوني
عبد الهادي ، وشارل دباس ، وخير الله خير الله ، وجميل مردم ، ومحمد
المحمصاني عن جالية باريس .

وعن الأسباب التي أدت الى عقد هذا المؤتمر قال رئيس المؤتمر
« الزهراوى » لمراسل جريدة الطان الفرنسية : « ان ما حدث في ولايات
الدولة العثمانية في أوروبا من الحوادث الخطيرة الشأن دعانا الى التفكير
في الحالة الجديدة التي دخلت فيها واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء
نتائجها . ذلك من جهة ومن جهة ثانية فان العرب يؤلفون عنصرا مهما
بعده ان لم نقل عنه أنه أهم العناصر العثمانية كلها ، ولهذا العنصر مزية
على العناصر الأخرى بوحدة لغته وعاداته وميله ، وقد أحدثت له هذه
الصفات حقوقا كانت مهمة حتى الساعة ، ولذلك جئنا لنطلب بصفتنا
عثمانيين أن نشترك بالادارة العامة وأن نعرض على الحكومة بصفتنا غربا
مطالب خاصة بقوميتنا »

ويقول الزهراوى أيضا : « ان حوادث بيروت الأخيرة (أى اضطهاد
الجمعية الاصلاحية وسجن فريق من أعضائها) برهنت لنا على قدر الحرية
التي يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد في سوريا ، وقد رأينا من جهة أخرى
أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوروبا التي تزداد مصالحها أهمية في البلاد
العثمانية يوما بعد يوم ، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوروبا لان
الجالية العربية فيها أكثر من سائر العواصم » .

وقد اتخذت في المؤتمر القرارات التالية :
أولا : ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب
أن تنفذ بوجه السرعة .

ثانيا : من المهم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا .

ثالثا : يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية ادارة لامركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها .

رابعا : كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها فى ٣١ كانون الثانى سنة ١٩١٣ باجماع الآراء ، وهى قائمة على مبدئين أساسيين وهما توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب ، فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين .

خامسا : يجب أن تكون اللغة العربية معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية .

سادسا : تكون الخدمة العربية محلية فى الولايات العربية الا فى الظروف والأحيان التى تدعو الى الاستثناء الأقصى .

سابعا : يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمصرفية لبنان وسائل مالياتها .

ثامنا : يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية .

تاسعا : سيجرى تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

عاشرا : وتبليغ هذه القرارات أيضا للحكومات المنتحابة مع الدولة العثمانية ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها .

ملحق بقرارات المؤتمر :

أولا : اذا لم تنفذ القرارات التى صادق عليها هذا المؤتمر فالأعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب كان فى الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها .

ثانيا : ستكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتنفيذ هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

وكان لعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس آثاره السيئة للغاية
عند الأتراك ..

علقت جريدة « طنين » لسان حال حزب الاصلاح والترقى على عقد
هذا المؤتمر بقولها :

« لما كررنا القول وأعدنا التصريح بان الفئة التى تتظاهر تارة فى
سوريا وتارة فى مصر والعراق وباريس بالغيرة على مصالح العرب وعشق
العربية والهيام بأمثال ذلك هى فئة ليست من العربية فى شىء وما هى
الا آلة للفساد وعبارة عن طائفة عجيبة فى أطوارها ، لما قلنا ذلك حملت
علينا بعض الصحف العربية حملة شعواء ، فبينما نحن لا نتكلم عن العرب
والعربية الا بما يشف عن الميل الشديد واذ تلك الصحف تلقبنا بأعداء
العرب الألداء ولا تتردد فى تسميتنا « المعول العظيم لهدم كيان الأمة
العربية » .

وأما الجمعية الاتحادية فقد أرسلت الى فرعها فى دمشق بأن يمطر
الحكومة وابلا من تلغرافات الاحتجاج فلبى طلبها وانهاالت البرقيات على
الباب العالى بعضها بامضاء وبعضها من غير امضاء وكلها على النسق التالى :

« ان القائمين بفكرة الاصلاح فئة من المتشردين الفارين من وجه
الحكومة السنية ، فجميع أهل سوريا مسلمين ومسيحيين يكذبون افتراءاتهم
ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طرز الادارة الحاضرة التى أعلنت
شأن الدولة ورفعت منار الدين » .

وقالت طنين أيضا فى ٦ مارس سنة ١٩١٣ بعنوان « مؤتمر غريب »
ما معناه : « ان موقعى بيان المؤتمر دخلوا فى الجنسية الفرنسية ولم يبق
لهم أقل صلة بالعربية الاسلامية ، فمؤتمرهم الذى يعقد فى باريس على
ما جاء فى بيانهم عار من كل أهمية ، واذا كان موقعوه يسعون حقيقة
باسم العرب فلماذا لا يدعون مندوبين من كل البلاد التى ينطق سكانها
بالضاد ؟ » .

وقالت جريدة « تصوير أفكار » : « يجب علينا أن نفتح البلاد العربية
من جديد » .

وجعلت الحكومة تفكر فى أمور شتى تمهيدا لضرب العرب ضربة
قاضية ، منها :

أولا : تعيين الشريف حيدر شريفا على مكة المكرمة ، فلم تتمكن من ذلك .

ثانيا : ارسال حملة على العراق بقيادة جاويد باشا وحسن باشا ووهيب بك ، فأهبطها العراقيون وابلا من برقيات الاحتجاج على هذا التعيين وأظهروا من الشدة ما جعل الحكومة تدرك أن ارسالها حملة عليهم مفتاح ثورة يستطار شررها ولا تؤمن عاقبتها فاضطرت الى العدول عنها .

ثالثا : السعي لارسال حملة على البلاد العربية تقضى على الفكرة القومية في سوريا والعراق ثم تستأنف الزحف الى شبه الجزيرة لمحاربة السيد الادريسي وغيره من أمراء العرب ولكن الاتحاديين وقع بينهم الخلاف بعد وصول جاويد باشا قائد هذه الحملة الى سوريا ، فقال فريق منهم بوجوب الزحف توا على السيد الادريسي وقال فريق آخر بوجوب تأديب السوريين وفضل آخرون ارسال الحملة على العراق لاغراء القبائل والأمراء بالمال وتأديب العرب بالعرب .

رابعا : عزم الحكومة على اقفال المنتدى الأدبي في الآستانة والكلية العثمانية في بيروت ومنع الصحف العربية المصرية وغير المصرية من الدخول الى البلاد العثمانية ، وذلك اكراما لصنائع الاتحاديين الذين جاءوا الآستانة بدعوة من الحكومة المناهضة الاصلاح .

خامسا : اتجاه الاتحاديين الى اغتيال زعماء العرب وقادة الرأي فيهم كطالب بك النقيب ، وكانت الحكومة قد عينت لهذا الغرض ضابطين من كبار الاتحاديين في وظائف كبيرة في البصرة وهما فريد بك الذي جعلته قائدا لموقع البصرة وعاكف بك الذي عينته قومنداناً للجندرية فيها وأرسلت معهما عددا كبيرا من الفدائيين فما استلموا زمام وظيفتهم حتى جعلوا يبعدون ضباط العرب الى الأناضول ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الحكومة ولكنهم وقعوا في الشرك الذي نصبوه لزعماء الاصلاحيين في العراق فسلم طالب بك وأصحابه وقتل فريد بك وتششتت شمل أعوانه وأنصاره وفشلت خطة الاتحاديين فشلا تاما في البلاد العربية .

وكانت الحكومة التركية قد بذلت قصارى جهدها لمنع عقد ذلك المؤتمر ، واتصلت بالحكومة الفرنسية حتى لا تسمح بعقده في باريس ، غير ان تلك الجهود قد فشلت فرأت الحكومة - أخذا بسياسة المداجاة

والنفاق التي تحبذها - أن تتوحد الى العرب ، فأرسلت مدحت بك شكرى أمين جمعية الاتحاد والترقى الى باريس لمفاوضة زعماء المؤتمر للاتفاق على ما من شأنه إعادة الوثام الى العرب والأتراك وقد اتفق مدحت بك مع هؤلاء الزعماء على تنفيذ العديد من الأمور من بينها - مثلاً - أن يكون التعليم فى الابتدائى والثانوى فى كل البلاد العربية باللغة العربية ويكون باللغة التركية فى القسم العالى ، وأن يعين عدد من العرب فى مجلس الشيوخ والأعيان بنسبة اثنين عن كل ولاية ، وأمور كثيرة أخرى لا مجال لتفصيلها هنا .

وقد حمل مدحت باشا الاتفاق الى الآستانة ، ومعه عبد الكريم الخليل أحد أعضاء المؤتمر للإشراف على الحالة عن كذب ، وفى ذلك ما فيه من التراجع السريع بالنسبة للحكومة التركية ، وقد أعلنت الحكومة الاتحادية عن عزمها على ادخال الاصلاحات المطلوبة فاستصدرت يوم ٣ أغسطس (آب) ١٩١٣ مرسوما سلطانيا تناول اصلاحات جذرية فى أمور الوقف وفى الخدمة العسكرية وفى التدريس باللغة العربية .

وقد سعد الاخوة العرب - كما هى عادتهم دائماً - بصدور ذلك المرسوم ، وقصد الى الباب العالى للشكر وفد ضم الشريف حيدر ونجليه معيى الدين وعبد المجيد ، ومحيى الدين باشا الجزائرى ، وبديع بك المؤيد وابراهيم بك صوصه والد سنيور شريم ، وشكرى بك الأيوبى وشكرى بك الحسينى ونجيب بك شقير ، ومعروف الرصافى ، والشيخ عبد العزيز جاويش وسامى بك العظم ود . حسين حيدر ، وعبد الكريم الخليل .

وقد ألقى الأمير حيدر فى حضرة الصدر الأعظم خطبة عصماء ، كما ألقى باللغة العربية الشيخ جاويش كلمة جاء فيها : أنه لا قوة فى المستقبل تستطيع أن تفرق بين العرب والترك . وتحدث عبد الكريم الخليل باسم الشبيبة العربية : فهنا الحكومة التركية باسترجاع أدرنة وشكرها على هذه الاصلاحات وعلى وعودها باعطاء الحقوق المدنية والسياسية للأمة العربية واشراكها فى أمور الحكومة . وكان مما قاله عبد الكريم : ان بقاء الادارة العربية فى بيروت منذ سنتين يدعو الى الأسف واننا نلتمس رفعها ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية والسماح بنشر الجرائد المحلية الفعالة .

وقد استقبل هذا الوفد من الحكومة التركية استقبالا طيبا وأولمت له الولايم التي حضر بعضها جمال باشا وطلعت بك وأنور باشا . وقد تكلم طلعت بك فقال : انه وجمعيته وزملاء الوزراء يخدمون العرب باخلاص منذ زمن بعيد » . وقد تكلم أيضا - في واحدة من تلك الحفلات - اسماعيل حقي بك وزير المعارف فحث عناصر الأمة على الائتلاف والاتحاد . واستهل سليمان أفندي البستاني خطبته بهذا البيت :

واذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

وكان من الجمعيات التي احتفت بهذا المؤتمر جمعية الاتحاد والترقي ، وقد زار الوفد ولي العهد وكثير من الشخصيات البارزة في الحكومة وفي جمعية الاتحاد والترقي .

وكان أصرح المتحدثين من الوفد ، الشيخ أحمد طباره وقد تحدث باسم وفد المؤتمر العربي اذ ردد المثل العربي القائل « صديقك من صدقك لا من صدقك » ، بفتح الدال الأولى وتشديد الدال الثانية . والدولة العلية باتت في أشد الحاجة الى رجال يصدقون في أقوالهم وأعمالهم وحسبنا ما تجرعناه من مرارة هذه السياسة الحرقاء قبل الدستور وبعده . الخ .

على أية حال فقد تشاقلت الحكومة التركية في تنفيذ الاصلاحات التي وعدت بها العرب وكانت قد أصدرت ارادة سننية بتعيين عبد الحميد الزهراوى ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، ومحمد أفندي بيهم ، ويوسف أفندي سرسق ، ومحيى الدين النقيب وأحمد أفندي الكرخيا أعضاء في مجلس الأعيان العثماني فكان ذلك التعيين ضربة قاصمة لآمال القادة العرب الداعين الى الاصلاح خاصة وان هذا التعيين قد استغلته الحكومة التركية لصالحها ، فصدرت مثلا الصحف التركية وفي مقدمتها تصنيير أفكار وطنين مزينة بصورة للزهراوى والى يمينه رمز الجيش العثماني والى يساره رمز للأسطول العثماني ورسوم صغيرة لأنور باشا وطلعت بك وجمال باشا مع الكلمة التالية : بمثل هؤلاء الأبطال يعتز الملك ، وعلى مثل هذا الاتحاد تشيد الدولة العثمانية مستقبلها العظيم .

وكانت ثورة الشبيبة العربية أشد ما تكون على الزهراوى حيث تبرأت الشبيبة منه وأبدي الزهراوى استعداداه للاستقالة من هذا المنصب

الذى ما قبله الا لمساعدة الحكومة على الاصلاح ، وقد قطعت الشبيبة كل صلاتها بالزهرراوى . . وكما جاء فى مطبوعة عمر أبو النصر :

« رأت الشبيبة من جهة أخرى ان المرحوم عبد الكريم الخليل لم ينهج منهجا يوافق خططها فى مفاوضاته مع الحكومة فاستدعته لاستيضاحه عما جرى فى أمر الاصلاح الى ذلك التاريخ وعن موقفه ازاء الحكومة والجمعية وعدم ممانعته فى قبول المرحوم الزهرراوى بمنصب الأعيان ، فوافاه الى دار المنتدى الأدبى فى الموعد الذى ضربته له ، وكان بانتظاره هناك ما يزيد عن ألف رجل من أعيان العرب وأدبائهم وشبانهم ، وبعد المداولة أعلن رحمه الله أنه لا يستطيع أن ييؤج بأسرار سياسية تتعلق بالمسألة العربية أمام مئات من الناس ، فقر القرار حينئذ على انتخاب نجيب بك شقير صاحب جريدة بياى التركية وسيف الدولة الخطيب وأسعد داغر والمرحوم جلال البخارى وصبحى بك حيدر ليجتمعوا به فى جلسة سرية ويقفوا على معجى الأحوال السياسية فاذا وجدوا ما تم فى جانب الأمة العربية فيه والا أعلنوا عدم اعتماد الشبيبة له . »

وقد اجتمع هؤلاء المنتخبون بالمرحوم عبد الكريم الخليل فى ٧ شباط سنة ١٩١٤ فى جلسة سرية فى بيرا (بك أوغلى) دامت من الساعة الثالثة بعد الظهر الى الساعة الثالثة والنصف بعد نصف الليل ومما قاله رحمه الله فى تلك الجلسة أن قبول المرحوم عبد الحميد الزهرراوى الانتظام فى سلك الأعيان خير من عدم قبوله ، لأنه يفعل فى المجلس ما لا يقدر على فعله فى خارجه اذ يكون له الكلمة النافذة والقوة على الاقناع فى الجمعية الاتحادية ما يبلغ به أبناء العرب المطالب التى يرمون اليها « وعصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة » وان سيادته لم يقبل هذا المنصب الا لأن الاتفاق السرى الذى أبرمه باسم الاصلاحيين مع جمعية الاتحاد والترقى يحتوى على فوائد عظيمة للعرب لا سبيل الى الحصول عليها الا بالتدريج ومع الزمن خوفا من هياج العنصر التركى وسائر العناصر العثمانية على الحكومة ومطالبتها بمثل ما نال العرب منها ، فمثل هذه الفوائد العظيمة يجب أن نجاهد فى سبيل الحصول عليها ردحا من الزمن ، وأن لا نتألم من الانتظار لان جمعية الاتحاد والترقى أخلصت لنا ووضعت يدها فى يدنا . الى أن قال :

« ولا أنكر عليكم أن أهم الأسباب التى اضطرت عبد الحميد أفندى

الى قبول منصب الأعيان واثبات الاتفاق العربى التركى بأدلة جلية واضحة
عظم أطماع الأجانب فى بلادنا العربية ورغبتهم فى انتهاز اختلافنا مع الترك
لتحقيق آمالهم فيها ، وهذا السبب وحده يكفى لتبرئة السيد الزهراوى
فى نظركم فضلا عن ثقتنا التامة باخلاص الاتحاديين لنا وارتباطهم معنا
بعهود رسمية فى مصلحة جمعية الاتحاد والترقى أن تبر بها اذا شئت أن
تظل الحكومة فى قبضة يدها » .

ولم تكن تصريحات عبد الكريم أفندى الخليل مقنعة بالاجمال ولكن
رغبة أعضاء اللجنة فى اجتناب كل ما يؤول الى اشتداد الأزمة بين الترك
والعرب جعلهم يصدررون القرار التالى الذى أعلن فى ٩ شباط فى صحف
الآستانة وفى ١٠ منه فى صحف بيروت وفى ٢٤ منه فى صحف مصر ،
وهذا نصه :

« اجتمعنا نحن الموقعين أسماءنا أدناه بمعتمد الشبيبة العربية
عبد الكريم أفندى الخليل اجتماعا طويلا فى جلسة خصوصية . وبعد
المفاوضة معه وجدنا مبادئ الاصلاحات العمومية الأولى حسنة على ما يظهر
ولكن أمر التنفيذ لم يصل الى الدرجة المطلوبة وليس فيه ما يوجب السرور
ولكننا نرى ان الوقت الحاضر لا يساعدنا على اظهار الاستياء من سير
الأحوال لأن ذلك يشوش على المصلحة العامة وربما يقف عقبة فى طريقها
فلا يجوز الآن اعتماد عبد الكريم أفندى بل يجب انتخاب لجنة استشارية
من أربعة أشخاص تشد أزره ويستشيرها فى مفاوضاته استشارة خاصة .
ولا صلة لهذه اللجنة بالحكومة وانما صلتها بعبد الكريم أفندى الذى يبقى
الرسول الوحيد بين الشبيبة والوزارة وجمعية الاتحاد والترقى لان ذلك
أقرب الى المصلحة العامة » .

« الامضاءات »

وجعلت الحكومة بعد ذلك تتزلف الى الشبيبة العربية وتعمل على
ارضائها واقناعها بحسن نية الاتحاديين فكثرت تردد الوزراء وزعماء جمعية
الاتحاد والترقى على المنتدى الأدبى وكثرت خطبهم فيه . فكان لا يمضى
أسبوع أو بعض الأسبوع الا ويزوره طلعت وأنور وجمال ومدحت شكرى
وغيرهم فيتبادلون الخطب الحماسية وعبارات الوداد والاخاء مع الأعضاء .
وكان آخر ما سمع من طلعت بك فى هذا الصدد فى خطبة ألقاها يوم احتفال
المنتدى الأدبى بذكر المولد النبوى الشريف بقوله : « واذا فر العرب منا

فاننا نتمسك بهم ونلتزمهم ونضمهم الى صدورنا ونصافحهم مصافحة
الأخ لأخيه .

وتلقت لجنة اللامركزية العليا في مصر - ١٩ شباط « فبراير » بيانا
من جمعية الاتحاد السوري في نيويورك - حول تلك التعيينات جاء فيه :

« ان جمعية الاتحاد السوري في نيويورك الممثلة للسواد الأعظم من
العثمانيين المهاجرين في الولايات المتحدة تحتج بلسانها ولسان فروعها
والجمعيات المشتركة معها في المبدأ احتجاجا قويا على تعيين بعض أعضاء
اللجان الاصلاحية في سوريا ومصر لوظائف مختلفة في الحكومة ، وعلى
قبولهم هذه الوظائف في الأحوال الحاضرة ، وفي أثناء عمل رجال الحكومة
بكل ما في وسعهم من الوسائل غير المشروعة والمخالفة لروح الدستور لقتل
الحركة الاصلاحية في سوريا والبلاد العربية ، وتعتبر الجمعية هذا العمل
مخالفا لروح النهضة ومضرا بمصلحة الشعب والأمة ذلك لأن المقصود منه
ذر الرماد في أعين البسطاء وإيهامهم ان قبول بعض أعضاء اللجان المعروفين
في بلادهم وظائف في هذه الحكومة وهي على شكلها الحاضر ، يعني وجود
التفاهم بينها وبين المطالبين بالاصلاح ، وقد يكون المقصود من هذه الحركة
ما هو أفظع من ذلك أي استمالة بعض من يظن فيهم الزعامة لفصلهم عن
حظيرة الاصلاحيين » .

وختمت الجمعية احتجاجها قائلة « بضرورة مراعاة منطوق ما تقرر
في مؤتمر باريس العربي فيما يتعلق بقبول أو نبذ الوظائف قبل تنفيذ
اللائحة الاصلاحية ولا سيما البند القائل بوجوب تعيين المستشارين الأجانب
تنفيذا قطعيا وعدم الاكتفاء بالقول والوعود » .

« وترجو هذه الجمعية من شقيقاتها اللجان الاصلاحية التصريح بهذا
المبدأ علانية واعتبار من يخالفه منفصلا عن جسمها ليوقن المصلحون
المخلصون في كل قطر ومصر أن النهضة الوطنية لا تزال على حالها ولا يؤثر
في مرامها الشريف تصرف أفراد فلا تثبط العزائم الشديدة ، ولا تخور
القوى العاملة في هذا الجهاد المقدس الشريف !! » .

وقد رد رفيق بك العظم رئيس اللجنة العليا لحزب اللامركزية
بالجواب الآتي :

« ان من جملة قرارات مؤتمر باريس أن لا يقبل أحد من أعضاء الجمعيات الاصلاحية وظيفة الا برضى جمعياته ويظهر أنه بناء على هذا القرار قبلت بعض الجمعيات ما عرضته الحكومة من تعيين أفراد من الاصلاحيين فى بعض المناصب العليا اعتمادا على ضرورة وجود المصلحين فى الوظائف لتطبيق قوانين الاصلاح التى تصدرها الحكومة ، سواء وافقت مطالب الاصلاحيين أو كانت دونها ، وسواء صح رأى هذه الجمعيات أو لم يصح فان جمعية اللامركزية فى مصر لم تشترك فى هذا الرأى الا فى أمر واحد وهو الرضى بتعيين السيد عبد الحميد الزهراوى عضوا فى مجلس الأعيان ، ولهذا سبب لا نخال منصفنا يخالفنا فيه . واليكم البيان :

« رأت الحكومة أن الحركة الاصلاحية فى سوريا وبلاد العرب صميمة لا ريب فيها ، وسواء علمت أن الاصلاحيين انما يريدون مصلحة الدولة نفسها ، وانهم حسنوا النية والقصد أو لم تعلم ، فانها راغبة فى التفاهم مع جمعيات الاصلاح وطلابها وهم كثيرون فى سوريا وبلاد العرب وفى الآستانة نفسها ، تفاهمت مع مندوب الشبيبة العربية فى الآستانة ومع غيره فى غيرها ، ثم أرادت التفاهم مع جماعتنا الذين يديرون معظم الحركة العربية ، فاستدعت الى الآستانة السيد عبد الحميد الزهراوى ، فكانت اللجنة العليا بمصر تلح عليه بالبقاء خارج البلاد ريثما يستوثق من وعود الحكومة ولما استوثق منها سافر الى الآستانة وأخذ بالتفاهم مع الحكومة فوضعت بعض مواد اتفاق باريس موضع الاجراء كمسألة الجندية ومسألة التعليم ومسألة وجوب معرفة الموظفين اللغة العربية ، وبقيت هناك مواد وعدوا بتنفيذها تدريجيا فكان بقاؤها ضروريا لأجل المطالبة بتنفيذ بقية مواد الاصلاح ، ولما عرضت مسألة الوظائف على بساط البحث وأرادت الحكومة أن تعين السيد الزهراوى فى الأعيان رأت اللجنة العليا أن ترضى بهذا التعيين ليكون واسطة لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة ، وما عدا هذا ، فانه لم يعين أحد فى وظيفة من أعضاء اللجنة العليا بلا ولا من الحزب كله فى سائر البلاد وليس بين أعضاء اللجنة من يرضى بدون اصلاح قط . »

على أننا ما دمنا طلاب اصلاح عنت أو وظائف فلا نرى من حيث الرأى أن نطلبنا الحكومة للتفاهم وتلين لنا القول وتعترف لنا بكثير من الحقوق التى لم تك ترضى أن تصغى لمطالبها منذ سنين ، ويرميها بالكذب وتباعد بيننا وبينها بغير سبب ما لم يقم لنا دليل قاطع على أنها تفعل ذلك رياء لأصدقاء ، وانها تفعل فى الغد ضد ما تقوله اليوم .

« ومتى قام لنا الدليل على ذلك كان لنا معها شأن غير شأننا اليوم ، وليس فى قرارنا على تعيين السيد الزهراوى فى الأعيان مانع يمنعنا من

الاستمرار فى الخطة الصالحة لقومنا ووطننا متى ثبت لنا أنها تريد الوقوف عند هذا الحد من الإصلاح ، كما أنه ليس فى تعيين السيد الزهراوى ما يوجب ريب اخواننا أعضاء جمعية الاتحاد السورى ، فيمن تظهر فيهم الزعامة كما جاء فى مذكرة احتجاجهم المذكورة ٠٠٠ » .

وكتب السيد الزهراوى كتابا بهذا المعنى الى صديقه الأستاذ رشيد رضا ، ولكن الذى نريد أن نلفت اليه الأنظار الآن ، هو أن الاتحاديين ذهبوا يعتقدون بعد هذه التعيينات ، وبعد ما رأوه من غضب الشباب العربى انهم فرقوا بين الأحزاب والجمعيات العربية ، وقضوا على اتحادها وحماسها وأنهم خدعوا العرب كما خدعوا بعض زعمائهم وأخمدوا الحركة نهائيا فى بلادهم فرغبوا فى انتهاز الفرصة للقضاء على فكرتهم القومية ورسوموا لذلك خطة لم يوفقوا الى اقرارها الا فيما بعد .

ولكنهم عمدوا فى هذه الأثناء الى ابعاد ضباط العرب عن الآستانة الى غاليبولى والأناضول وتراقيا حيث قلدوهم وظائف اسمية سامية ولما انتهوا من عملهم هذا قرروا الفتك ببعض كبار زعماء العرب ، وكان أول من بدأوا به القائد عزيز على المصرى .

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البلشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامع الطورانية وامتدت فى كل جهة جائزة كل حد . وبات رجال الدعوة الطورانية موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خدودهم على حلفائهم الألمان وسائر الأوروبيين ، كاشفين بهذا عن حفاظ صدورهم ، تلك الحفاظ التى يكونونها أبدا للغربيين .

وقد ذكر ضابط المانى من أركان الحرب ، حديثا جرى على المائدة بينه وبين خليل باشا قائد الجيش التركى فى جهة الحرب العراقية ، وهو عم لأنور باشا ، وقد جاء فى ذلك الحديث : « يجب فى المقام الأول أن يغدو كل عرق يتكلم احدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبية الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضربا من الضرورة التى لا منتدح عنها ، وهى فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فاذا ما تم هذا كان أساسا منيعا يبنى عليه صرح فخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » فى سيبيريا ، الذين انما يعدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعد العروق التركية الضاربة شرقا ، ويجب على قبائل التتر الغربية اللصيقة المجاورة

فى القوقاز أن تندمج فى الأمة التركستانية اندماجا تاما . وذلك يتم بطبيعة الحال . ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الأقلية فى كل قطر من قطريهم أن يندمجوا أيضا فى هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره . فان امبراطورية تركية ، ضخمة منيعة ، مترامية الأطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامى يكون فى استطاعتها حينئذ أن تسيطر بنفوذها وتأثيرها على أفغانستان وايران . . . وفى كانون الأول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رحى الحرب فى الجهة العراقية وضويق الجيش التركى مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لى خليل باشا : وافرض مزحا اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المتهالكة وتخلينا عنها فجاء الينا الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع أن ننشئ امبراطورية جديدة .

وعن القبض على عزيز وبدء محاكمته تذكر أنه فى ١٠ فبراير عقبت مندوبو الأحزاب العربية اجتماعا مهما للوقوف على الأسباب التى أدت الى القبض على عزيز بك واجراء ما تقتضيه الحال ثم قابلوا جمال باشا وطلعت بك وغيرهم فسمعوا منهم كلهم جوابا واحدا وهو أن عزيز بك أخوهم وحبيبهم وان وزارة الحربية تحقق معه فى بعض الشئون العسكرية التى تتعلق بأمر الدفاع عن الدولة وأن الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة ، ولكن العرب لم ينخدعوا بكذب الاتحاديين هذه المرة فقاموا بمظاهرات عديدة فى الآستانة وطلبوا من الحكومة ان تعجل فى محاكمة عزيز بك وان يضاف الى المجلس العسكرى الذى يتولى أمر هذه المحاكمة لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء العسكريين الحبيرين بالشؤون الحربية ، فلم تفعل شيئا من ذلك وألغت المجلس العسكرى من بعض صنائع أنور باشا وعبيده وبعض الذين لا يخالفون له أمرا .

وقد بدأت المحاكمة فعلا يوم الأربعاء فى أول نيسان سنة ١٩١٤ بحضور الشهود سليمان بك العسكرى ورمزى المهداوى ، وضيا أفندى والملازم نور الدين أفندى ورشيد أفندى .

وقد جاء فى المحضر الرسمى للمحاكمة أن أقوال الشهود وردت كما يلى :

قال سليمان العسكرى :

« ان فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية ، فقد سعى وهو فى طرابلس الغرب فى بث الفكرة العربية بين الأهلىن وفى انشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو ادارة شؤونها وكاد ينجح فى سعيه لولا معاكستى أنا وبعض الضباط الأتراك له » .

وقال رمزي أفندي : « ان عزيز بك اجتمع بالايطاليين أثناء الحرب اجتماعا مهما ، ولكنى لا أعرف ما دار بينهم من الكلام » .

قال ضيا أفندي : « ان عزيز بك عدو للأتراك عموما وعدو لأنور باشا خصوصا ، فهو خائن للدولة التركية » .

وقال نور الدين أفندي : « ان عزيز بك اتفق مع الامام يحيى على نهج خطة واحدة الغرض منها ضم اليمن الى مصر ، وكان يسعى وهو فى بنغازى الى تنفيذ هذه الفكرة وجعل بنغازى واليمن دولة عربية واحدة » .

وقال رشيد أفندي : « ان عزيز بك أعرب أمامى عن سروره لما أصاب المسلمين فى البلقان » .

وفى ٤ نيسان عقدت جلسة ثانية لسماع شهادة العبد الماس (الذى قبض عليه فى السودان فى العام الماضى) وشخص آخر يدعى قاسم كان قهوجيا عند عزيز بك فى برقة ، فقال العبد الماس : « سمعت فى برقة ان عزيز بك استلم من الايطاليين مبلغا من المال لا يقل عن ١٥ ألف ليرة مقابل تسليمهم البلاد » .

وقد كان قصد الاتحاديين أن يعدموا عزيز المصرى بلا محاكمة ولكن اهتمام الرأى العام العربى به اضطرهم الى العدول عن ذلك . ولما انتهت المحاكمة ورأوا أن هياج العرب لم يخمد بل كان يزداد شدة يوما فيوما قرروا اغتياله فى السجن فبلغ الخبر زعماء العرب من أحد المصادر الاتحادية فى الآستانة ، فاجتمعوا وتداولوا فى الأمر ، ثم عرضوا المسألة على الصدر الأعظم والمارشال فون سندررس باشا وعلى سفراء الدول العظمى طالبين منهم باسم العدل والقانون منع الاتحاديين من اقتراح جريمتهم الفظيعة ، وكانت بريطانيا العظمى قد اهتمت اهتماما خاصا بمسألة عزيز بك على وفاوضتهم مرارا بشأنه وأقنعتهم ببراءته ووجوب اطلاق سراحه فلم يمكن الاتحاديون الا اجابة هذا الطلب ، لا سيما بعد أن أدركوا أن أعداهم يؤدى الى ثورة عظيمة فى البلاد العربية .

وبديهي ان محاكمة عزيز بك لم تكن قانونية على الاطلاق لأن التهم التى عزوها اليه تهم صنيانية ومختلقة ولأنها اما أن تكون قد وقعت قبل معاهدة لوزان وابرام الصلح مع ايطاليا أو بعدهما ، فان كانت قبلهما كان الواجب على أنور باشا القائد العام حينئذ ان يحاكمه عليها . . وان

كانت بعدهما فلا شأن للحكومة العثمانية في التعرض له بسببها لأن البلاد أصبحت بعد الصلح اما عربية أو ايطالية وخرجت عن السلطة العثمانية فان حسبها الاتحاديون عربية فان عزيز بك كان أميرا مستقلا فيها ولا صلة له بحكومة الآستانة . وان حسبوها ايطالية فكان من الواجب تسليمه الى حكومة ايطاليا التي يحق لها محاكمته دون سواها .

هذا كان جزاء عزيز على بك على خدمته الباهرة للوطن العثماني فان حياته قبل الدستور وبعده كانت حياة جهاد دائم في سبيل الحرية . وكانت صلاته بجمعية الاتحاد والترقي قوية متينة بل كان يدها اليمنى في مكدونية حيث أعلن الدستور قبل أن يعلنه نيازي ببضع عشرة ساعة ، وقد اعترفت له جمعية الاتحاد ان سياسة تبريك العناصر التي أتبعها لا تؤمن عقباها ولا يحمده منتهاها فنصح لرفقائه الأتراك بأن ينيلوا العناصر العثمانية حقوقها ويمهدوا السبيل الى ارتقائها بلا فرق ولا تمييز وان كان لهم عنها مشاكل وشواغل لا يخلصون منها فأنكروا عليه نصحه واتهموه بالمروق والخيانة وقالوا انه يبتث الفكرة العربية في الجيش العثماني وجعلوا يفسدون عليه طريقه ويقيمون العثرات في سبيله . واغتنم عزيز بك فرصة اقامته في الآستانة سنة ١٩١١ فاستدعى فريقا من العثمانيين وأصبح الرأي السديد الى منزله وقال :

« ان اتفاق العناصر العثمانية أمر لابد منه لاعلاء شأن الدولة » وعرض عليهم آراءه التي استحسنوها الا واحدا روسى الأصل قربته منافعه الى الترك فتزلف اليهم وكان في الحقيقة أبعد الناس عنهم . وكانت معارضة هذا الرجل سببا في اللقاء النفور بين عزيز بك وجمعية الاتحاد والترقي وبالتالي بين الفكرتين العربية والتركية .

ولما شبت نار الثورة في اليمن وانكسرت العساكر العثمانية في معركة جيزان بالعسير ، وفقدت أكثر من ثمانية وعشرين مقاتلا بين ضابط وجندى بالجوع والجرب وانقطعت عنهم المؤونة والذخيرة ، بسبب الحرب الطرابلسية رأى عزيز بصائب رأيه ان يصلح سيادة الامام يحيى فعقد معه صلحا حسنا كان موفقا للدولة فشق عمله هذا على فريق من حساده ومبغضيه واتهموه بالمروق في الوطنية بحجة أنه قدم مصلحة العرب على مصلحة الدولة العثمانية .

ثم دفعته وطنيته الصادقة الى طرابلس الغرب حيث تمكن على قلة جنوده ونفاذ يده من المال أن يوقف الايطاليين على الساحل زمنا طويلا .
وقد شهد له أعداؤه بالبسالة والمقدرة والتفوق في ميادين القتال وكانت معركة ١٦ تموز التي انتصر فيها من أعظم المعارك من الوجهة الحربية .
وقد استعفى عزيز بك من الجيش العثماني في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩١٤ ، أي قبل سجنه بخمسة عشر يوما ،

لعل الاتحاديين كانوا يرتابون بوجود (جمعية العهد) حين أمروا بالقبض على عزيز على ولكنهم لم يكونوا واثقين من ذلك وثوقا تاما فلما وجهت اليه التهم لم تذكر من بينها تهمة الاتصال بجمعيات سرية ، بدأت محاكمته في ٢٥ مارس أمام محكمة تأديب عسكرية وكانت سرية ولكن عرف الناس بأن لائحة الاتهام حوت تهمة اختلاس أموال الجيش ، وتهمة تسليم برقة الى الايطاليين لقاء رشوة تناولها ، وتهمة محاولة تأسيس دولة عربية في شمال أفريقية ، وكلها تهم بعيدة عن التصديق بعدا تاما فعم الغليان الذي ولده اعتقاله جميع الأنحاء ، وفي مصر وهي مسقط رأسه ارتفعت أصوات الجماهير بالاحتجاج الشديد معلنة سخطها وعقدت اجتماعات عامة وقامت حملة شديدة في الصحف كما شكلت لجنة برئاسة شيخ الأزهر ، وزارات وفود عديدة اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة وطلبت اليه ان تتدخل بريطانية دبلوماسيا .

وفي أوائل ابريل أصبح من المعروف أن عزيز على قد حكم عليه بالاعدام سرا فأدى ذلك الى اشتداد الهياج فراح الضباط العرب اينما وجدوا يحلفون الايمان على أن يثأروا لدمه ، وكان من حسن حظ عزيز على أن صوت أوربة ولا سيما انكلترا انبعث في الدفاع عنه فقد حمل كتشنر وزارة الخارجية البريطانية على أن تتدخل وقام السير لويس ماليت بمساع في القسطنطينية كما قامت جريدة (التايمز) بكتابة سلسلة تتألف من أربع مقالات افتتاحية استمر نشرها ستة أسابيع وتولت فيها الدفاع عنه بصراحة وقوة .

وفي اليوم الخامس عشر من الشهر ذاته أعلنت الحكومة أن حكم الاعدام قد صدر بحق عبد العزيز الا أن السلطان أبدل العقوبة بالسجن

خمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة فارتاح الرأي العام لذلك الا أن الغليان الناجم عن وقوع الظلم في هذه القضية استمر الى أن صدر العفو عنه أخيرا في ٢١ ابريل وأطلق سراحه فأبحر في اليوم التالي الى مصر حيث استقبل بحماس شديد . ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا بأن الهزة التي أصابت العالم العربي من جراء محاكمته كانت أعمق من أية هزة أخرى سببها الترك بأعمالهم المستبدة كما أنها شجعت عزائم العرب فقرروا المضي في كفاحهم من أجل الحرية لأن الهزة في هذه المرة حركت الجماهير العامة بالاضافة الى المفكرين .

في بيان آخر اذاعته الجمعية الثورية العربية ما يلي :

« مرت أمامنا منذ عهد قريب حادثة اشتهر أمرها ، وعرفها القاصي والداني ، الا وهى مسألة الحكم على عزيز المصرى الذى يجدر بكل صاحب نظر ان يتأمل فى مكان العبرة منها . »

« نحن الذين قررت جمعيتنا أن نتخاطب أمتنا المحبوبة ، بكلمتنا هذه ، نعتزف على رؤوس الأشهاد بأن غاية ما يمكن للمتصف بالتابعية العثمانية أن يخدم به هذه الدولة ، لا يمكن أن يزيد على ما خدمها به عزيز المصرى وكان الانصاف والمجاملة يقضيان على الأتراك بالألا يقدموا ابنهم أنور عليه . لأنه لا يفضل به شئ . . ولكنهم على خلاف مقتضى الانصاف والمجاملة ، رفعوا أنور من رتبة ضابط الى رتبة ناظر حربية وبلغ بهم الحقد والحسد والبغض لفتى مصر ، عزيز ، الى حد أنهم لم يكتفوا بحرمانه من المراتب العليا ولا بعدم مكافأته على ما أحسن اليهم به مدة عشرين سنة ، بل هم رفعوا برقع الحياء ، وصرخوا بما تضرره قلوبهم من البغض لأبناء العرب فحكموا على هذا الشهم بالاعدام ، رغم توسل أكبر شيخ في الاسلام ، ورغم رجاء أعظم العظماء فى مصر . . . »

ونشرت جريدة التيمس الانجليزية مقالات عنيفة ضد الحكم باعدام عزيز المصرى ، قالت فى واحدة منها : « . . . اذا أعقب الجور الذى أصاب هذا الضابط العربى الباسل ، تدبير ، لا يمكن وصفه الا بأنه جريمة قتل مرتدية رداء القانون . فان ذلك سيؤثر تأثيرا خطيرا فى العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ، ولعل هذا التأثير لا يقتصر على العلاقات بين تركيا ومصر وحدها . »

كان القبض على عزيز المصرى فى ٩ فبراير سنة ١٩١٤ ، وصدر الحكم باعدامه فى ١٥ ابريل من نفس السنة ثم خفض الى السجن ١٥ سنة . ولكن زثير الرأى العام العربى ، والاسلامى (آلاف البرقيات للسلطات من الهند وايران والسودان وكافة البلاد العربية) ، والرأى العام الأوروبى ، كل ذلك حمل الحكومة التركية على الغاء هذه الأحكام فى ٢١ ابريل سنة ١٩١٤ ، على أن يترك عزيز تركيا فى اليوم التالى .

يروى أسعد داغر الذى شاهد ساعة الافراج عن عزيز قائلا :

« أعلن أنه سيطلق سراحه بعد الظهر . فانطلقت الى وزارة الحربية وهناك وجدت موكبا مؤلفا من نحو ستين عربية فى انتظار خروجه من السجن . وفى الساعة الرابعة مساء أفرج عنه بشرط ألا يمكث فى اسطنبول سوى ليلة واحدة ، ثم يغادرها حيث يشاء .

واجتمعنا معه فى تلك الليلة ، فى مأدبة حضرها معظم أصدقائه . وفى اليوم التالى سافر الى مصر .

وخمدت الحركة بعد سفره ، واشتد الخوف من أن ينتقم الاتحاديون من أصدقائه ، واتجهت النية الى الشروع فى عمل جدى فى البلاد العربية » .

ونشطت الدعاية العربية نشاطا عظيما بعد خروج « عزيز على » من اسطنبول ، وساد الاعتقاد بأن ساعة العمل الجدى قد أذفت فقرّر الاخوان مضاعفة الجهود لاستعجال هذه الساعة ، وتهيئة الجو لها وجعلوا يقضون أيامهم ولياليهم فى كتابة الرسائل ، وتوزيع القصائد الحماسية ، وتبادل الآراء والمعلومات وقد فتح خليل حمادى باشا - الوزير المصرى الذى كانت الحكومة العثمانية قد استعارته لاصلاح وزارة الأوقاف العثمانية - باب داره على مصراعيه لشباب المنتدى العربى ، فاتخذوا منه ناديا سرىا لهم . وأذكر أننى : نقلت ووزعت فى يوم واحد أكثر من مائة نسخة من قصيدة الرصافى التى جاء فيها :

« سنطلب هذا الحق بالسيف والقتال »

واذا كان هناك رجل واحد مسئول عن دخول تركيا الحرب العالمية الأولى فهو « أنور » . ولنزد شخصيته وضوحا ، وقد رددنا اسمه كثيرا قبل ذلك فنذكر أنه ولد عام ١٨٨١ (يصغر عزيز المصرى بعام واحد) وتخرج من كلية أركان الحرب عام ١٩٠٣ ، والتحق بجمعية الاتحاد والترقى

واشترك فى اسقاط السلطان عبد الحميد ، وكوفىء على دوره بأن عين
ملحقا عسكريا لتركيا فى برلين . وقد بهره الجيش الألماني ، وما كان
عليه من نظام وحسن تسليح .

وفى سنة ١٩١٣ ، قرر أقطاب جمعية الاتحاد والترقى . ومنهم
أنور أن يحكموا سافرين ، وكانت الوسيلة الى ذلك التخلص من الرجل
الذى قادهم الى الاستئانة عام ١٩٠٨ وهو شوكت باشا الذى تولى رئاسة
الوزارة . . رصاصات وتزول العقبة . وقتل شوكت باشا ، وأسرع أنور
الى وزارة الحربية ، فقد كان وزيرها الجديد ، وأنعم عليه بلقب باشا .
وما لبث أن تزوج إحدى أميرات البيت العثماني - بنت السلطان محمد
رشاد مباشرة . وصاح أحد الأتراك : ما أغرب ما نرى ، لقد قتل أنور
« باشا » الجديد ، أنور الذى كنا نعرفه !

ولم يكن أحد من أقطاب هذا الحكم ، من كبار المعجبين بسياسة
بريطانيا ، وكانت روسيا عدوة تقليدية للأتراك . واذن فلم يكن هناك
سبيل الا الى دول الوسط . . ألمانيا بالذات .

والسؤال : لماذا لم تختار تركيا طريق الحياء ؟ . . وهو نفس السؤال
الذى يوجه متأخرا ثلاثين سنة لموسوليني : لماذا يختار فى الحرب العالمية
الثانية طريق الحياء . صحيح ان كان كل فريق من المتحاربين كان يبذل
أقصى جهده ليجر معه حليفا . . ولكن أين هى المصلحة فى الاشتراك فى
معركة بعيدة ؟ ان خطأ واحدا فى الحساب قد يجر الوطن كله الى كارثة
محققة . ويجر الذين دخلوا الحرب بغير روية ، ولا بصيرة الى مصير
مفزع .

لقد هرب أنور بعد هزيمة ألمانيا وتركيا الى بلاد القوقاز ، ثم الى
روسيا ، فالتركيستان ، محاولا تأليف جيش ينتزع به هذه المناطق من
روسيا . وقتل فى معركة خائبة على أيدي القوات الشيوعية التى كانت
قد تولت الحكم ، ودفن فى بخارى حيث كانت تدور معركته وكان ذلك
فى أغسطس سنة ١٩٢٢ . . . دفن غريبا ، مجهولا ، لم تدمع عليه عين ،
ولم يأس عليه انسان . . وكذلك الحال بالنسبة لموسوليني ، فقد علق
بعد هزيمة ايطاليا من قدميه كما تعلق الذبيحة . .

واجتمع مجلس حربى عال تكون من أنور ، وطلعت ، وجمال ،

وتدارسوا الموقف ، ووجدوا ان فى استطاعة عزيز أن يقلب حكومتهم فى أى وقت ما دامت وراءه هذه القوة الخطرة ، فقررُوا ان يعملوا بسرعة . . . وفى اجتماع موسع آخر ، عقد على جناح السرعة ، حدث ما يأتى :

فى يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٤ عقد اجتماع خاص فى دار وزارة الحربية بالآستانة حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ومحافظ الآستانة العسكرية أحمد جمال باشا وذلك قبل ان يعين لوزارة البحرية ومدير الأمن العام عزفى بك فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة وقررُوا المواد الآتية :

١ - اقضاء الضباط العرب المقيمين فى الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمى ٣١٥ منهم للعهد الى المناطق التركية ، وهى تراقية والأناضول فلا يعود فى امكانهم القيام بأى عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك .

٢ - تولية القيادة فى البلاد العربية الى الضباط الترك واقضاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان .

٣ - الاسراع فى تنفيذ سياسة تحريك العناصر .

٤ - يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتحريك العناصر .

٥ - مقاومة الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى بيروت وباريس .

٦ - الغاء الأحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية وتدبر الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة .

٧ - اقضاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الآستانة واستماله من يمكن استمالته منهم .

٨ - تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية والاكتثار من المنتسبين الى أنديةها .

وتم فعلا نقل أكثر من ٣٠٠ ضابط عربى من الموالين لعزيز الى الأناضول وتراقية وغالبىولى . أما الضباط الذين توسعوا فيهم عدم الولاء لعزيز وكانوا أيضا مجموعة كبيرة ، فقد منحوهم ترقية استثنائية وأرسلوا الى سورية والعراق لتعزيز الولاء للسلطة التركية .

يقول أسعد داغر في مذكراته : ان عزيز على المصرى فى يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩١٤ بينما كان خارجا من فندق توكتليان دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكى وطلبوا منه أن يصحبهم الى مركز البوليس باسطنبول .

وما كان هذا الخبر ينتشر فى العاصمة حتى قام له العرب وقعدوا وذهبت وفود كثيرة منهم الى مركز البوليس مستعلمين . فقابلهم المدير بكل اهتمام ، وأفهمهم ان عزيزا غير معتقل ، وانما هم يبحثون معه بعض الشئون العسكرية التى قد يستغرق بحثها النهار بطوله

وذهب الزهراوى الى منزل طلعت باشا ليقف منه على الحقيقة ، ففيل له أنه غير موجود فى المنزل . .

ولما لم يفرج عن عزيز فى المساء قصد أحد الضباط العرب ، وأذكر أنه جميل المدفعى الى المرحوم الزهراوى فى فندق كروكر وطلب اليه معرفة السبب فى اعتقال عزيز على ومما قال له : « ابلغ الحكومة ايها الأستاذ ان دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن . ولا تضطربنا الى اهراقها فى سبيل الأفراد » .

وفى ١٠ فبراير عقد مندوبو الأحزاب العربية وزعمائها ومفكرها اجتماعا كبيرا بحثوا فيه الأسباب التى أدت الى اعتقال عزيز على ، والوسائل التى يجب التوصل بها لانقاذه .

وذهب وفد منهم فقابل جمال باشا وطلعت بك وغيرهما ، فسمع الوفد جوابا واحدا من الجميع هو ان عزيزا أخوهم وحبيبهم ، وان وزارة الحربية لا تبغى منه سوى استجلاء بعض المعلومات العسكرية التى تتعلق بشئون الدفاع الوطنى . وان الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة .

ووضع عزيز على فى غرفة فخمة بوزارة الحربية وسمح بزيارته النهار بطوله . وكانت غرفته والغرفة التى أمامها غاصتين دائما بالضباط وغير الضباط من أصدقائه . وقد اتصل بهم أن عزيزا سيحاكم وتلصق به تهمة ملفقة استعان الاتحاديون على اثباتها ببعض من كانوا فى طرابلس الغرب ، وان غرضهم الحقيقى هو التخلص منه . فقامت قيامة العرب حينئذ فى كل مكان وانهالت الاحتجاجات على الباب العالى من كل صوب . وأبدى الشريف حسين امتعاضه ، وأندر السيد طالب النقيب بأنه سينقض على الحكومة فى جهات البصرة بالتعاون مع ابن السعود . وقامت فى مصر حركة قوية للمطالبة بالافراج عن عزيز . فرأى الاتحاديون تجاه ذلك كله أن الاستمرار فى محاكمته سيثير مشاكل هم فى غنى عنها .

وحدث يوما أنى كنت فى فندق كروكر مع نجيب شقير والدكتور سعد الحادم ، وقد جاء مع شقيقه عزيز الى اسطنبول للعناية به ، واذا بالدكتور ثابت مقبل علينا يخبرنا بأنه آت من زيارة السجين . وأنه رآه على أحسن حال من الصحة والسرور ، وبعد ان مكث معنا نحو نصف ساعة هم بالانصراف فسأله الدكتور سعد : هل عزيز فى حاجة الى شىء ؟ فذكر الدكتور ثابت ان عزيزا اعطاه رسالة وأوصاه بأن يسلمها الى يوسف ذو الفقار ليشتري له العلاج المذكور فيها ويبعث به اليه .

وما ان وقع نظر الدكتور على ما سطر فى الورقة حتى امتنع لونه وتولاه الاضطراب ثم ناولنا اياها فقرأنا فيها ما خلاصته .

« زارنى اليوم صديق من كبار الاتحاديين وأسر الى أنه قر القرار على اغتيال الليلة ، وسلمنى مسدسا لأدفع به عن نفسى » .

وفى الحال ذهب كل منهم الى جهة للاجتماع بأصدقائه واتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الحالة . وقد اجتمعت أنا بسليم الجزائى وغيره فعهدوا الى ان أكتب الى السفارات الأجنبية والجنرال فون ساندرس المفتش الألمانى فى الجيش العثمانى ان فى النية اغتيال عزيز فى تلك الليلة والادعاء بأنه انتحر . كما عهدوا الى البعض بمحاولة تهريب عزيز من السجن ووضعوا سيارة تحت تصرفهم لهذا الغرض ، وقد ارسلوا رسولا الى بخارست للابراق الى الشريف حسين وطالب النقيب بالأمر . وذهبت أنا الى غرفتى لتحرير الرسائل التى كلفت بكتابتها ، وقابلت فائز الخورى صدفة فى الطريق ، وكنت اعتمد عليه ، فأوضحت له الحالة وطلبت اليه أن يعاوننى فى الكتابة ، واننا لذلك ، واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل علينا الأمير عادل أرسلان ، فلما اطلعناه على ما نحن فيه أقبل على مساعدتنا . ولكن فائزا رأى الاكتفاء بقلمى وقلم الأمير عادل ، وأخذ الرسائل التى كتبها هو وأحرقها كلها . وأخذت أنا الرسائل التى كتبتها والتى كتبها الأمير عادل وألقيتها فى البريد .

وفى تلك الليلة نفسها ذهب سفير انجلترا بعد اجتماعه بالدكتور سعد الحادم ويوسف ذو الفقار الى الباب العالى وقابل الصدر الأعظم مقابلة طويلة بشأن عزيز .

وفى تلك الليلة أيضا أقيمت حفلة عشاء ساهرة فى سفارة فرنسا وكان خبر عزيز قد تداولته الألسن ، وانتهى الى مسمع السيدات فى جملتهن كريمة السفير . فلما أقبل جمال وأراد أن يسلم عليها أبت أن تبسط له يدها للتحية قائلة :

— أنا لا أمد يدي الى يد قاتل ...

فقطب جمال جبينه واتجه نحو الباب قاصدا الخروج ، ولكنه التقى
بأنور باشا داخلا فتبادلا بعض كلمات ثم عادا معا . . . »

ولا أستطيع أن أثبت في صحة الخبر الذى نقله الضابط الاتحادى الى
عزيز بشأن اغتياله ، ولكنى أعلم أنه لو كان صحيحا لاضطر الترك الى
العدول عن تنفيذه . بعدما رأوا أن جميع المقامات الرسمية فى اسطنبول
قد اهتزت له وأنه آثار ثائرة العرب فى كل مكان

وزرت عزيزا فى السجن عقب هذه الحادثة وأخبرته بما جرى . ولما
ذكرت له خبر الكتب التى أرسلت الى السفراء والى المفتش الألمانى للجيش
العثمانى اغروقت عيناه بالدموع وقال :

— كنت أفضل ألف مرة أن أقتل على أن يدعى الأجانب الى التدخل
لمصلحتى .

ثم قال : قد لا أعيش طويلا بعد الآن . واذا كان يشق على ان أموت
فذلك لأنى لم أوفق الى الخدمة التى أريدها .

كان هذا يحدث فى الآستانة . ولكن القاهرة لم تكن بعيدة عن
مسرح الأحداث . فقد استغل الانجليز حادث القبض على عزيز المصرى ،
والحكم عليه بالاعدام استغلالا بارعا جدا . . . فعزیز بعد تدخله فى حرب
اليمن ، وبعد جسارته وقدرته التى تجلت فى حرب ليبيا ضد ايطاليا ،
أصبح بطلا قوميا . وكان الاتجاه الوطنى المصرى فى ذلك الوقت ، هو
مقاومة الاحتلال الانجليزى بالنفوذ التركى ، وكان الحزب الوطنى
والخديوى عباس الثانى من هذا الرأى . وعامة المصريين يعتنقونه .

وما أن سقطت حكومة الاتحاديين هذه السقطة بازماعها اعدام بطل
مصرى ، بغير جريرة ، فمن الممكن تحويل العواطف القومية ضد الاتراك .
ولهذا لا نعجب اذا علمنا ان أكبر منبر كان يدافع عن عزيز المصرى هو
جريدة المقطم ، الوثيقة الصلة بالسلطات البريطانية ، وهى التى افتتحت
اكتتابا لجمع أموال تساعد فى الدفاع عن البطل المصرى السجين فى
تركيا ، والذى يوشك ان يفقد حياته . . .

ولكن سماح الانجليز ، برفع صوت المصريين والعرب عاليا دفاعا
عن « عزيز » لا يعنى تشويه هذه الحركة الشريفة ، التى عبرت عن
نفسها بأقوى أسلوب . والتى فصلت نهائيا فى موضوع التبعية لتركيا ،

والتي كان الدين ومركز الخلافة ستارا لها أصبح العرب جميعا طلاب استقلال عن الأتراك في سورية والعراق وشبه الجزيرة وعن الانجليز في مصر ، وعن الايطاليين في ليبيا ، وعن الفرنسيين في المغرب الكبير . .

وقد سجل لنا « سفاشنا » جمال باشا في ايضاحاته بعض البيانات النافعة ، عن اتجاه التيار القومي العربي ، الذي كان يعده جريمة الجرائم ، والذي نصب من أجله المشانق كما سنرى فيما بعد . .

أرسل رفيق العظم رئيس جمعية اللامركزية ، التي أصبحت جمعية ثورية أستقلالية هذا الكتاب الى أعوانه في سورية :

« عزيز لا يزال رهين السجن ، ونحن نواصل السعى هنا لانقاذه . وقد اقمنا اجتماعا ثانيا ، وقررنا مراجعة اللورد كتشنر (المعتمد البريطاني في مصر) والتمسنا منه أن تتدخل الدول الانجليزية في المسألة ، وتصون حياة بطل برقة ، والرجاء منكم أن تشيعوا بين الناس بقدر الامكان ، أن قصد الحكومة أن تقتل الرجل لانه عربى ، يجاهر بضرورة الاصلاح فى بلاد الناطقين بالضاد » .

وجد عزيز المصرى ان علاقته بالجيش العثمانى لن تعطيه الوقت الكافى ، ولا حرية العمل السرى فى جمعية العهد وتنظيماتها . فأرسل الى قيادة الجيش الرسالة التالية :

الى وزارة الحربية الجليلة

« لقد تركت الجيش العثمانى ، ابتداء من هذا التاريخ . ولكن حياتى العسكرية الماضية لا تزال تربطنى به برباط متين . فاذا نشبت حرب أو احتاج الوطن الى أبنائه ، فعلى وزارة الحربية الجليلة أن تطلبنى من القوميسارية العثمانية بمصر محل اقامتى ، على أن تعين لى القوة التى أتولى قيادتها » .

وما أن تلقى أنور - وقد أصبح أصبح باشا - هذه الرسالة ، حتى أدرك ان غريمه العنيد يوشك ان يفر من القفص ، ويذهب للقاهرة حيث يتسع له مجال العمل ، دون قيد أو رقابة . أو جواسيس أترك . وهذا لا يمنع أن يكون فى القاهرة جواسيس آخرون ، يعملون لحساب الانجليز فهم السادة فى أرض النيل !! .

استدعى أنور باشا زميله القديم عزيز المصرى الى ديوان وزارة الحربية . فأشار عليه أصدقائه بألا يذهب فلا سلطان لهم عليه ، مادام

قد استقال . ولكنه قرر الذهاب لأن استقالته لم تقبل . وشاع نبأ
الاستدعاء بين الضباط العرب . وما ان دخل عزيز الوزارة ، حتى كان
أكثر من ثلثمائة ضابط عربي يرابطون في عقر داره فأخذ يتحدث حديثا
لينا مع عزيز ، ويطلب منه الرجوع عن استقالته ، ولكنه أصر ، فأصر
أنور باشا بدوره على رفضها !!

وخرج عزيز ، ليعلم بما حدث من زملائه . وقد سره هذا كثيرا
بغير شك . ولكنه أدرك ان العاصفة تجمعت وانها على وشك ان تهب .

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

الباب الرابع

1870
1871
1872
1873
1874
1875
1876
1877
1878
1879
1880
1881
1882
1883
1884
1885
1886
1887
1888
1889
1890
1891
1892
1893
1894
1895
1896
1897
1898
1899
1900

1901
1902
1903
1904
1905
1906
1907
1908
1909
1910
1911
1912
1913
1914
1915
1916
1917
1918
1919
1920
1921
1922
1923
1924
1925
1926
1927
1928
1929
1930

1931
1932
1933
1934
1935
1936
1937
1938
1939
1940
1941
1942
1943
1944
1945
1946
1947
1948
1949
1950
1951
1952
1953
1954
1955
1956
1957
1958
1959
1960

1961
1962
1963
1964
1965
1966
1967
1968
1969
1970
1971
1972
1973
1974
1975
1976
1977
1978
1979
1980
1981
1982
1983
1984
1985
1986
1987
1988
1989
1990
1991
1992
1993
1994
1995
1996
1997
1998
1999
2000

2001
2002
2003
2004
2005
2006
2007
2008
2009
2010
2011
2012
2013
2014
2015
2016
2017
2018
2019
2020
2021
2022
2023
2024
2025
2026
2027
2028
2029
2030

2031
2032
2033
2034
2035
2036
2037
2038
2039
2040
2041
2042
2043
2044
2045
2046
2047
2048
2049
2050
2051
2052
2053
2054
2055
2056
2057
2058
2059
2060
2061
2062
2063
2064
2065
2066
2067
2068
2069
2070

2071
2072
2073
2074
2075
2076
2077
2078
2079
2080
2081
2082
2083
2084
2085
2086
2087
2088
2089
2090
2091
2092
2093
2094
2095
2096
2097
2098
2099
2100

2101
2102
2103
2104
2105
2106
2107
2108
2109
2110
2111
2112
2113
2114
2115
2116
2117
2118
2119
2120
2121
2122
2123
2124
2125
2126
2127
2128
2129
2130

2131
2132
2133
2134
2135
2136
2137
2138
2139
2140
2141
2142
2143
2144
2145
2146
2147
2148
2149
2150
2151
2152
2153
2154
2155
2156
2157
2158
2159
2160

2161
2162
2163
2164
2165
2166
2167
2168
2169
2170
2171
2172
2173
2174
2175
2176
2177
2178
2179
2180
2181
2182
2183
2184
2185
2186
2187
2188
2189
2190

الفصل الأول

فى الآستانة : عزيز على المصرى أمام مجلس عسكرى عال

فى ١١ فبراير ١٩١٤ وردت على القاهرة أنباء من الآستانة تفيد بالقاء القبض على عزيز على المصرى بك وتنشر الصحف المصرية تلك الأنباء معلنة عطفها الشديد على عزيز على المصرى ، وقد أجمعت الصحف المصرية على التعاطف مع عزيز بك ، وتحدثت عن بطولاته ومميزاته مما يدل دلالة قاطعة على المكانة الرفيعة التى وصل اليها البطل المصرى العربى عزيز على المصرى فى أذهان وقلوب وعقول المصريين والعرب .

تساءلت - مثلاً - المؤيد فى ١٢ فبراير ١٩١٤ فى عنوان بارز : هل هذه مكافأة عزيز المصرى ؟ وتحت هذا التساؤل قالت :

« انتشر فى القاهرة ليلة أمس خبر ورود تلغراف من الآستانة بالقاء القبض فيها على البطل المصرى عزيز بك على . . على البطل الشجاع (عزيز على المصرى) الذى قضى سنين شبابه فى ذلك الفنون العسكرية والتمرن على مشاق الجندية من غير حاجة اليها فى معاشه مدخرا مواهبه ومداركه بل وحياته ليوم عصيب يقوى فيه الدولة العثمانية بهذه الحياة والمدارك والمواهب العزيزة عليه .

قبضوا على (عزيز على المصرى) الذى لم تكن خدمته للدولة العثمانية فى العمل على اعلان الدستور بأقل من خدمة المرحوم نيازى بك وناظر الحربية العثمانية ، الا ان أنور باشا لولا أنه كان فى هذا الحادث العظيم فى صف الرجال الذين عملوا لينقذوا الحكم العثمانى من خطر الفوضى والاستبداد لا لتطنطن الصحف بأخبار ما عملوا .

أجل ، على (عزيز على المصرى) الذى هاله تطاير الألوف المؤلفة من الترك والعرب فى صحارى اليمن وجبالها وتبديد مئات الألوف من الجنيهات فى هذا السبيل فكان واسطة خير فى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية وفى جبال (شهارة) و (صعدة) مركز الامام يحيى الى أن تم الصلح بين هاتين الفئتين الاسلاميتين بواسطة هذا الجندى المصرى الباسل . هذا الجندى المصرى الباسل فضل تعريض صدره لرؤوس الحراب وحنايا ضلوعه لشظايا القنابل على أن تبتعد هذه الدولة العثمانية عن جوار وطنه مصر يوم حدثت الغارة الايطالية على طرابلس فعمل وهو ساكت صامت ، كل ما يستطيع ان يعمل الجندى البطل ، وكان مع ما لقيه من معاكسة ومشاكسة آخر ضابط عثمانى فارق برقة بالحياح ناظر الحربية الأسبق المرحوم محمود شوكت باشا بتشديد الباب العالى فى طلب انسحابه من ميدان القتال مجاملة للحكومة الايطالية .



وكنا نحسب ان تنحيته عن الجيش العثمانى كما تنحى من قبله الغازى شكرى باشا قائد درنه ، وهادى باشا الفاروقى رئيس أركان حرب الجيش العثمانى ، وانما هو آخر ما يسوؤنا من أخبار ابن مصر البار حتى جاءنا خبر أمس بالقبض عليه واحالته على المجلس العسكرى ، لا لذنوب جديد ارتكبه هذا العربى المصرى المسلم المخلص بل ليجازى جزاء معكوسا على خدمته للدولة العثمانية تلك الخدمة التى لا تتم باللعب والكلام ، بل بتعريض الحياة للموت فى ميدان الحرب والقتال ، زد على ذلك ان كل عمل عمله عزيز بك المصرى فى المملكة العثمانية من أول نشأته الى اليوم كان مجيدا وشريفا ومنتجا للخير والنفع العام .



الدولة العثمانية تعترف لمصر باخلاص الحب لها ، وكذلك مصر وقد برهن عزيز على المصرى على اخلاصه للدولة العثمانية فى كل مواقفه من يوم كاز صيبيا تلميذا يفتخر بمصر والدولة العثمانية الى هذا اليوم الذى صار فيه بطالا تفتخر به مصر والدولة العثمانية .

وفى اعتقادنا أنه اذا كان ما يكافأ به ابن مصر من الآستانة مع خدمته لها ، لا يبعد أن يكون أثر ذلك فى العالم الاسلامى غير مسر . فنرجو من رجال الدولة ان يكرموا مصر والاسلام فى شخص هذا البطل الكبير » .

وتحفظت الأهرام ، كعادتها ، فنشرت - فى ١٢ فبراير ١٩١٤ - النبأ تحت عنوان : عزيز بك المصرى والقبض عليه فى الآستانة . وقد جاء تحت العنوان ما يلى :

« ورد نبأ من الآستانة العلية على أحد عظماء الوطنيين في مصر ، مفاده أن عزيز بك المصرى المشهور قد قبض عليه في عاصمة السلطنة بسبب لم يذكر في هذا النبأ . كما ان النبأ لم يثبت بعد ، وفي ودنا ان لا يثبت لأن عزيز بك المصرى مقاما عظيما في نفوس المصريين خاصة ، وفي نفوس العثمانيين عامة وهو الذى خدم وطنه ودولته وأمته الخدمات الكبرى الجليلة فى بركة ، حيث دافع دفاع الأبطال عن حقوق دولته وشرفها وكرامتها وسار ذكره خفاقا بالفخر ، لا له وحده ، بل لأمته كلها ، وفخرت مصر به وكان ذلك من حقها لأنه من أبنائها . ولقد حدث عزيز بك ما حدث وعاد الى الآستانة كما هو معلوم ، وكان الراسخ فى الأذهان أنه يكون فيها فى صف الأفراد المعدودين من رجال الحرب الذين يعتمد عليهم فى زمن المحن والشدائد ، ويدحرون لأوقات الحوادث الكبرى ، فخير القبض عليه اذا صح لا بد من أن يكون وقعه شديدا فى النفوس ، فنأمل ان لا يكون صحيحا » .

لم يكده الشعب يتأكد من القبض على عزيز على فى الآستانة حتى نشر فى ١٢ فبراير كلمة لأمين الرافعى رئيس التحرير تحت عنوان : « عزيز المصرى أمام الديوان العرفى » جاء فيها :

« ورد على بعض المصادر تلغراف من الآستانة يفيد أن الديوان العرفى ألقى القبض على عزيز بك المصرى بتهمة تخض حرب طرابلس . فلما نما هذا الخبر اليينا قابلناه بالدهشة ولم نكن نصدق له لأننا نعهد فى بطل بنى غازى ان له أعمالا مجيدة من شأنها أن تخلد له فى تاريخه صفحة بيضاء ناصعة تفخر بها مصر أيضا لأنه من أبنائها البررة . ومن كانت هذه صفاته لا يعقل أن توجه اليه تهمة تمس شرفه العسكرى » .

شب هذا البطل من صغره ميالا بفطرته الى خدمة الدولة العلية وما كاد يتم تعليمه الثانوى حتى التحق بالمدرسة الحربية بالآستانة وبقي بعد تخرجه منها واقفا حياته فى سبيل خدمة دولة الخلافة ينتقل من أقصى البلاد العثمانية الى أدناها حاملا بين جنبيه قلبا لا يعرف سوى الاخلاص لحكومته ودولته وتضحية كل شىء فى سبيل رفعتها ومجدها .

ومن الغريب ان تكون التهمة الموجهة اليه خاصة بأكبر عمل قام به وهو الذود عن طرابلس ذودا رفع شأنه وجعل كل مصرى يفتخر بأن القائم بهذا العمل من مواطنيه .

اننا نعرف كثيرا من المصريين الذين لبثوا ردحا من الزمن جنبا
لجنب مع عزيز بك فى بنى غازى ، فما سمعنا منهم فى وقت من الاوقات
الا تحدثا بشهامة ذلك البطل وشجاعته والمشاق التى كابدها والمتاعب
التى تحملها والتضحيات التى كان يضحىها حتى عاد منها وقد أثقلت
الأمراض كاهله .

الا ان من الصعب على كل مصرى ان يبلغه بعد ذلك ان هذا الرجل
الذى أبلى ذلك البلاء الحسن فى خدمة الدولة والذى قضى الى الآن أكثر
من خمسة عشر عاما فى سبيل رفعتها يقدم الى الديوان العرفى بتهمة
يشهد ماضى عزيز بأن ليس لها ظل من الصحة .

قد يكون بعض الواشين وشى بذلك البطل المصرى ، ولكن هل يكون
من نتائج هذه الوشاية أن تساء مصر فى شهر من أبنائها ؟ هل يكون من
نتائج هذه الوشاية أن تصدم تلك الصدمة الشديدة وان ترى ذلك الذى
كانت تفخر بأعماله المجيدة مقدا الى المحاكمة فى موقف المجرمين الخائنين
الذين لم يعرف عنهم فى حياتهم الا السعى فى الاضرار بالدولة ؟

ولقد قرأنا فى بعض الصحف أن فى النية عقد اجتماع فى حديقة
الأزبكية ، واننا لا ندرى ما هى الغاية الحقيقية من هذا الاجتماع ، وما
هى المصلحة التى تعود على عزيز من عقده . فعسى ان لا نسمع فيه من
يوقد نار التفريق ويشعل لهيب الفتنة .

ارى خلل الرماد وميض نار واخشى أن يكون لها ضرام

هذه صيحتنا الثانية نذكر بها من نسى صيحتنا الأولى التى حذرنا
بها المصريين والمسلمين والعثمانيين مما يدبر لهم فى الخفاء ، والعاقل من
اعتبر بما رأى وسمع .

وخرجت الأهرام فى ١٤/٢/١٩١٤ عن تحفظها الاعتيادى فنشرت
تحت عنوان « محاكمة عزيز بك على فى الآستانة ، وساطة الأمة المصرية »
وقد جاء تحت ذلك العنوان ما يلى :

« وقع خبر القبض على الضابط الباسل عزيز بك المصرى أشد وقع
على المصريين لأن هذا الشاب الباسل خدم الدولة منذ عشر سنين بكل
ثبات وبسالة وتفان فى الروملى ومقدونيا واليمن وبنى غازى ، فعز على
أمتة المصرية ان يحال على المجلس العرفى فى الآستانة فى ساعة كانت
تنتظر فيها مكافأته على ما أداه من الخدمات ، فتألف أمس وفد من العظماء

قابل ولاية الأمور وبسط لهم أمانى الأمة بان يطلق سراح ذلك الضابط
الباسل ليعود الى أهله وذويه بعد ان تم جهاده وقضى حق الوطنية
والدولة عليه . فوعدهم ببذل الوساطة لدى الباب العالى وأرسل دولة
البرنس عمر طوسون باشا تلغرافا الى فخامة الصدر الأعظم يبسط له
فيه أمنية الأمة المصرية ولا شك عندنا بان الوزارة العثمانية تصغى الى
طلب المصريين وتبشر غدا بإطلاق سراحه وبزوال ما أحدثه خبر القبض
عليه من التأثير ، وقد أرانا سعادة الهمام اسماعيل حقى بك سكرتير
القوميسيرية العثمانية همة تذكر مع الشكر ، وخدمة للدولة وسياساتها
تستحق كل مدح فنحن ننتظر منه أن يكون العامل الأول فى اجابة
أمنية الأمة المصرية عاجلا .

ويكون لمسألة اعتقال عزيز على المصرى ردود فعل متباينة : البعض
يحاول الوساطة وعدم تقديم عزيز على الى المحاكمة . والبعض الآخر انتهزها
فرصة للهجوم على العثمانيين . وآخرون لاذوا بالصمت حتى لا يفضبوا
أيا من الأطراف ذات العلاقة الوثيقة بتلك القضية .

ومن بين ردود الافعال تلك . ان المؤيد - فى ١٥ فبراير ١٩١٤ -
كتبت كلمة تحت عنوان « عزيز بك المصرى والعثمانيون » جاء فيها :

« دخلت مسألة القبض فى الآستانة على عزيز بك المصرى فى طور
شديد جدا بكل أنحاء هذا القطر لغرابة هذه الحادثة من جهة ، ولان
عزيزا هو فى الحقيقة عزيز على قومه المصريين خاصة والعثمانيين عامة ،
ولعل تعدد الحوادث التى من هذا القبيل كان من دواعى ازدياد الاستياء .

وقد علمنا فى الليلة البارحة أن أبناء الولايات العثمانية المقيمين فى
القاهرة خصوصا السوريين منهم يوقعون على عريضة تلغرافية سيرفعونها
اليوم الى جلالة مولانا السلطان والى فخامة البرنس سعيد باشا حليم الصدر
الأعظم يترجمون فيها عن استياء العثمانيين فى مصر من هذه الحال السيئة
ويرجونهما أن يقفا فى سبيل الأحقاد الشخصية فى الآستانة العلية تخفيفا
للأثر السيئ الذى أحدثته مسألة القبض على بطل بنى غازى ، ونحن مع
استغرابنا سكوت الآستانة حتى الآن عما أرسل اليها من دولة الأمير
الجليل شقيق الحناب العالى ورئيس الهلال المصرى ومن دولة الأمير الكبير
رئيس اللجنة العليا لاعانة الدولة العثمانية ومن القوميسيرية العثمانية
وأعيان مصر وعظمائها . . اننا مع استغرابنا سكوت الآستانة عن كل
ذلك نرجو أن تكون كرامة مصر مرعية فى الآستانة مهما حصل من التأخر
وان يبادر القائمون بالحل والعقد على ضفاف البوسفور الى تطمين الحواطر
فى وادى النيل بالافراج عن بطل هذا الوادى بل والى تكريمه بما تستحقه

خدماته الكبرى حتى نعلم أنه هو أيضا كان ابن الدولة العثمانية في نظر الدولة العثمانية » .

وينشر المؤيد تلغرافا بعث به سرور يحيى جاء فيه :

« أرسلنا احتجاجاتنا الشديدة بسبب القبض على عزيز المصري للصدارة ، ونرجو نشر هذا التلغراف بجرائدكم تعبيرا عن استيائنا » .

ويظهر الخلاف واضحا بين وجهة نظر كل من الشعب والمؤيد : الشعب يحاول الاحتفاظ بالعلاقات الحسنة مع تركيا ، والمؤيد ينتهزها فرصة للهجوم على تركيا (دولة الخلافة الاسلامية) .

وينشر - مثلا - الأستاذ أمين الرافعي في الشعب - ١٧ فبراير ١٩١٤ - مقالا تحت عنوان : مسألة عزيز بك المصري وحملة بعض الصحف . وقد جاء في ذلك المقال ما يلي :

« لما اتصل بنا نبأ القاء القبض على عزيز بك المصري بادرنا بكتابة ما يجب علينا حيال مصري عثماني خدم دولته نحو خمسة عشر عاما أجل الخدم واستبعدنا صحة التهمة الموجهة اليه لما نعلمه ويعلمه غيرنا عن ماضيه وطالبنا الحكومة العثمانية ان لا تعير الوشايات أذنا صاغية واذا كانت ثمة وشايات لا برهان عليها .

ولو كانت لدينا الآن معلومات جديدة لتوسعنا في هذا الموضوع ولكننا بالرغم من البحث والاستقصاء لا نزال نرى الروايات مختلفة في صدد التهمة الموجهة الى عزيز بك فبعد ان سمعنا أنها تتعلق بطرابلس قيل لنا غير ذلك وآخر ما اتصل بنا من هذا القبيل ان عزيز بك تحت التحقيق ليس الا .

فلا يمكننا والحالة هذه ان نخوض في موضوع التهمة مادامت مجهولة لنا ولكن الذي يمكننا أن نقوله ونكرره هو أن الحكومة العثمانية تتريث في هذه المسألة تريثا يستوجب ما عرف عن عزيز بك من الماضى الطيب فضلا عن نسبته لمصر تلك الشقيقة الصغرى للدولة العلية .

هذه هي الدائرة التي يجب ان يكتب فيها والتي كنا نود من الصحف المصرية ان لا تتخطى حدودها ولكننا مع الأسف الشديد رأينا بعض الأعلام قد اندفعت في تيار آخر واتخذت من هذه الحادثة تكأة لخدمة أغراضها السياسية .

رأينا بعض الصحف تضرم عمدا نار التفريق بيننا وبين اخواننا
وتعمل كل يوم على اطعام تلك النار بما تزداد به اشتعالا .

وليس غرضها من ذلك خدمة عزيز بك واطهار غيرتها عليه اذ
لا يقول عاقل بان مثل تلك الكتابات المخرجة للصدور من شأنها ان تفيد
عزيز بك شيئا وانما هذه الأقلام تكتب لغرض آخر ولاظهار ما تكنه
صدورأربابها من الحقد والحفيظة على الدولة .

نعم ان الذين يكتبون بهذه الطريقة العوجاء لا تعنيهم مصلحة عزيز
بك بل انهم يرغبون تضحيته على مذبح أغراضهم ليتسع أمامهم ذلك المجال
الذى يريدون ان يدخلوا اليه من أى طريق شاءوا .

لقد أكثر أولئك الكتاب من الامتنان على الدولة بالاعانات التى
تدفعها مصر وأخذوا يتهددون بها بحبس تلك الأموال عنها حتى أخجلوا
المصريين الذين ما عرف أحد عنهم أنهم يمتنون بما يقدمونه عن طيب خاطر
باعتبار أنه واجب لا مندوحة عن القيام به .

نرى العالم الاسلامى بأسره يمد دولة الخلافة بما تجود به نفوس
الكرماء وما سمعنا أن صحيفة فى قطر من هذه الآقطار فكرت فى أن تمتن
على الدولة بما يمتن به المؤيد والمقطم .

أليس ذلك لأن هاتين الصحيفتين ومن يضرب على نغمتهما لا يريدان
بحملتهما الا استئناف تلك السياسة العدائية التى عرفا بها حيال الدولة ؟
ولقد بلغ من تبجح المؤيد (الاسلامى !) أنه دعا الى عدم الاحتفاء
بالطيارين العثمانيين قائلا عنهم « انهم ما جاءوا الى مصر الا لاستنزاف
المال من جيوب أهلها » .

ينادى المؤيد الاسلامى بهذه الدعوة وهو الذى دعا الى تكريم الطيارين
الأجانب ولم يجرؤ أن يقول عن واحد منهم أنه جاء لاستنزاف أموالنا .

ينادى المؤيد الاسلامى بهذه الدعوة بينما جريدة البروجريه المسيحية
الأجنبية تدعو أعضاء لجنة الطيران المسيحيين الى الاحتفاء بالطيارين
العثمانيين وبينما مدير محل الطيران الأجنبى يقدم محله مجانا للجنة
الاحتفال . فياللعار ويالخبزى هذا الموقف المزرى بصاحبه ؟

اللهم ان الأمة المصرية لتبرأ من كل كاتب يتخذ حادثة عزيز بك
وسيلة لنفث السموم بين أمتين عاشتا أمد الدهر عيشة وئام وسلام
واتفاق وصفاء .

انها تبرأ من كل من يظهرها مظهرها لا يليق بأية أمة في الوجود ان
ترضاه لنفسها فخير لأولئك الكتاب أن لا يكشفوا الغطاء عن نياتهم الى
هذا الحد . وما يكون لأحد ان ينخدع بقولهم أنهم يغارون على كرامة
مصر والا فلماذا لم نر عشر معشار هذه الغيرة عندما نشرت الطان مقالاتها ؟

ألكون الدولة العثمانية هي الدولة الاسلامية الباقية على سطح
الكرة ؟ أين كانت تلك التهديدات التي نسمعها الآن ؟ أين كان ذلك
الوعيد وهذه المطاعن ؟ أين كانت تلك الانذارات وهذه البلاغات ؟

لقد عجزت الأقلام عن شيء من ذلك عندما كانت الحادثة تتعلق
بفرنسا ، أما والحادثة تتعلق بالدولة العلية فلا عجب اذا شطت الأقلام
من عقالها واندفعت تتسابق في هذا المضمار . . !!

والخلاصة مما تقدم أننا لا ننكر الدفاع عن عزيز بك فقد كنا أول
من رفع صوته بذلك الدفاع ولا نزال ندافع عنه وانما نحن نطلب أن
يكون الدفاع في دائرته المعقولة التي يستفيد منها مواطننا .

لقد طلبنا من الدولة العلية ان تلاحظ في هذه الحادثة علاقتها بمصر
ويجب أن نطلب من أنفسنا أن نلاحظ في كتابتنا علاقتنا بالدولة أيضا .

والذي نرجوه الآن هو أن لا يكون لكتابات تلك الصحف ذلك التأثير
السيئ الذي نخشاه على رابطتنا بالدولة وعلى عزيز بك .

وعسى ان تبادر الحكومة العثمانية باخلاء سبيل مواطننا اذا لم تكن
هناك تهمة موجهة اليه واذا كان ثمة تهمة مبنية على أدلة قوية فلتعلنها
حتى يقف المصريون على الحقيقة .

ولنا الثقة في انصاف ولاية الأمور العثمانيين الذين نعرف عنهم أنهم
يقدرون من عرف في ماضيه بخدمة الدولة والاخلاص لها مثل عزيز بك
كما يقدرون عواطف المصريين حق قدرها .

وأملنا كبير في أن يخرج عزيز بك من هذه الحادثة مرفوع الرأس
بريئا .

وكان شيخ الجامع الأزهر ، قد بعث ببرقية الى أنور باشا ناظر
الحربية العثمانية يلفت فيها نظره الى عزيز بك المصرى وقضيته لأن
خدماته للدولة والملة تقضى بمراعاة جانبه وألا يعامل معاملة شديدة .
وقد تلقى شيخ الجامع الأزهر - في ١٧ فبراير ١٩١٤ - برقية من أنور
باشا يقول فيها : ان التهمة الموجهة الى عزيز بك المصرى تتعلق بإدارته

فى بنغازى واننى - أنور باشا - لا يمكن أن أطلق سراحه قبل الحكم
ببراءته ولربما بعد براءته يسمح له بالسكن فى منطقة معينة غير القطر
المصرى . وقد استدل من تلغراف ناظر الحربية أن الحكومة العثمانية
معولة - حتى بعد الحكم بالبراءة على أبعاده ونفيه .

وكانت شقيقة عزيز بك قد بعثت رسولا من القاهرة الى الآستانة
للووقوف على حالته فى سجنه . وقد جاءها من هذا الرسول - فى ١٧
فبراير ١٩١٤ - تلغرافا يقول فيه أن صحته جيدة . كما وردت أنباء من
الآستانة تفيد أن هيئة التحقيق قد سألت بعض الضباط العرب عن
علاقتهم بعزيز بك .

وتنشر الأهرام - فى ١٨ فبراير ١٩١٤ - أن عزيز بك كان قد عين
قومنداناً للبصرة ثم عدلت الحكومة عن تعيينه وعينته فى جهة بعيدة من
جهات الأناضول بوظيفة صغيرة فأبى السفر وقدم استعفائه من الجيش
وبعد ذلك قبض عليه .

وقد أحدث القبض عليه هذه الضجة فى مصر ، كما أحدث القبض عليه
- الأهرام - ضجة أكثر فى سوريا وبين العرب فى الآستانة ذاتها .. الى
أن يقول الأهرام . . « فاذا كنا ممن يحترمون القانون وممن يحبون أن
تترك للمحاكم الحرية فأنا لا نستصوب المعاملة التى عومل بها هذا البطل
الباسل والضابط النشيط ولا نستصوب حالته على المجلس العرفى
وأملنا برجال الحكومة فى الآستانة أن يرضوا العدل وأن يرضوا الانصاف
وأن يرضوا الشهامة والمروءة فى معاملة عزيز بك فكفى الأمة ما رأت من
المحاكمات والنفى والتهم واقفال الصحف فنحن بحاجة الى الراحة فى
الداخل بعدما انتهت الحرب وكدنا نرتاح فى الخارج » .

ونستأذن فى الوقوف عندما نشرته جريدة المقطم ذات الصلة
الوثيقة بالاحتلال البريطانى لمصر عن موضوع عزيز على المصرى منذ
البداية ، ذلك أن المقطم كان يتلقى معلوماته - مباشرة - من دار المعتمد
البريطانى فى مصر ، ولم يكن يهمه بطبيعة الحال مصلحة عزيز المصرى ،
أو مصلحة مصر ، أو مصلحة دولة الخلافة العثمانية :

فى ٢ فبراير ١٩١٤ وتحت عنوان : عزيز بك المصرى ، بطل
برقة : استعفاؤه من الجيش العثمانى - حياته العسكرية ، علاقته بجمعية
الاتحاد والترقى ، جهاده فى سبيل الدولة والوطن . وقد جاء تحت ذلك

العنوان رسالة من مندوب المقطم المخصوصى فى الآستانة العليا كتبت فى
٢٥ يناير - ك ث - أى كانون ثانى - ما يلى :

« استعفى عزيز بك على المصرى بطل بنى غازى من الخدمة العسكرية
منذ أيام فكان لاستغفائه وقع سيىء فى الأندية العثمانية لما اشتهر به من
البراعة فى فنون القتال والشجاعة والاستبسال وحميد الخصال . وعد
العقلاء تركه الجيش العثمانى فى الأحوال الحاضرة خسارة عظيمة على
الدولة والوطن ، أنا لا أطرى بطلنا أو أزيد القراء علما به ، فقد جرى
ذكره على كل لسان وسارت به الركبان حتى تمثل للناظر وجمال فى
الخاطر ، وحسبه فخرا ان صحف الغرب قالت فيه كل كلمة ثناء واعجاب
أثناء الحرب الطرابلسية وعدته من أعظم رجال الحرب ، فدونت له فى
التاريخ ذكرا يتأوج عرفه كلما ذكرت تلك الحروب . وانما يعز على
العثمانيين كافة أن يختم هذا القائد الباسل حياته العسكرية بالاستغناء .
واذا كان الغرب يفتخر بأعظم رجاله فلا ندم نحن رجلا كبطلنا عزيز بك
بل نفتخر بهم ونعجب بمقدرتهم وكفاءتهم . ولقد حادثت كثيرين من
الشباب الواقفين على سيرته العسكرية المملوءة مخاطر وأهوالا وجراة
واستبسال وثباتا فى مواطن القتال حين اشتداد الهيجاء واقترب الآجال .
فرايت ان اذكر ما وقفت عليه منهم ليعلم العثمانيون أى رجل اضاعوا
باستغناء بطل بنغازى قال أحد رفاقه فى مكتب أركان الحرب .



ويشير المقطم الى ذهاب عزيز المصرى بتكليف من الحكومة العثمانية
لحقن الدماء وابرام الصلح بين تلك الحكومة والامام يحيى . كما يشير
الى نجاح عزيز المصرى فى عقد اتفاق صلح بين الحكومة العثمانية والامام
يحيى ، كما يشير الى اصابة عزيز بك - أثناء اقامته باليمن - بالكوليرا
واشتداد وطأتها عليه فأراد السفر الى أوروبا تبديلا للهواء بعد شفائه منها
ولكن نشوب الحرب الطرابلسية حال دون ارادته فسافر الى طرابلس
الغرب متنكرا وظل فى برقة من سنة ١٣٢٧ الى سنة ١٣٢٩ . وأظهر
هناك من البسالة والاقدام فى محاربة الايطاليين والبراعة فى تنظيم العسكر
ما استوجب اعجاب أوروبا به وتقديرها أفعاله حق قدرها . ولولا دخول
المفسدين النمامين بينه وبين السيد السنوسى لقاوم الايطاليين زمنا طويلا
وجعلهم يرضون بالصلح بشروط تلائم مصلحة البلاد الطرابلسية . ولما
عاد الى الآستانة منذ أيام قابلته بالحفاوة والاكرام وقررت نظارة الحربية
ترقيته ومكافأته ولكن أعداءه حالوا دون ذلك ولقى فى معاملتهم له تحقيرا
تأباه عزة نفسه وشهامته فاستعفى أول أمس وهذه ترجمة استغفائه .

« لقد تركت الجيش العثماني من هذا التاريخ ولكن حياتي العسكرية الماضية لا تزال تربطني به برباط متين لا تقوى الأيام على فصله . فاذا شبت حرب ورأت الدولة أن تستفيد مني بشرط أن تعين الفرقة التي أقودها فلتطلبني من القوميسيرية العثمانية في مصر مكان اقامتي » .

(الامضاء) عزيز علي

وفي ١٢ فبراير ١٩١٤ ينشر المقطم نبأ القبض على عزيز علي المصري بتهمة تتعلق بخدمته في بنغازي - ويلاحظ ان المقطم هو وحده الذي انفرد بنشر التهمة التي ألقى القبض على عزيز علي المصري بسببها . وقد أشار المقطم - في نفس الخبر - ان عزيز بك وسائر الضباط الذين قاتلوا في بنغازي بعد معاهدة « أوشي » كانوا متطوعين ولم يكونوا معدودين من الجيش النظامي .

وفي اليوم التالي - ١٣ فبراير ١٩١٤ - ينشر المقطم ما يلي : قضينا النهار أمس وأعيان المصريين يتعاقبون على ادارة المقطم زرافات ووحدانا يسألوننا عن أخبار عزيز بك المصري ويظهرون شديد عتبههم واستيائهم من قبض بوليس الآستانة عليه ومحاكمة الديوان العرفي له . فقد وقع هذا الخبر الذي نشرناه أمس أسوأ وقع في نفوسهم وأهاج القبض عليه خواطرهم هيجانا عظيما ، لأنهم كانوا يباهون به على استبساله في الدفاع عن دولته وعلى شجاعته التي فاق بها الأقران في قتال الطليان ويقولون أنه البطل الذي افتخر به المصريون ووثق عرى الحب بينهم وبين العثمانيين ، فقيام الذين قاموا عليه اليوم في الآستانة واتهامهم له بأمور يدعون أنها جرت في بنغازي ليسا مما كان المصريون ينتظرونه جزاء اخلاصه وخدمته واخلاص أمته وخدمتها لا سيما وأنه غادر بنغازي منذ زمان طويل ثم قضى في الآستانة شهورا كثيرة ولم يتهمه أحدا فيها بمثل هذه التهمة ، فماذا جرى الآن ؟ وأي جريمة سياسية ارتكب ، حتى يحاكم أمام الديوان العرفي ؟ لانه لو ارتكب جريمة عسكرية لحوكم أمام مجلس عسكري بل أي حق لخصومه في محاكمته وهو قد ذهب الى بنغازي متطوعا لا ضابطا مقيدا بقوانين ونظامات عسكرية الى غير ذلك من عبارات العتب التي تغادر العثماني حائرا في أمره يصغى اليها وهو مطرق الى الأرض صامتا حياء وخجلا . فالرجاء ان حكومة الآستانة تراعى خاطر الأمة المصرية في هذه المسألة وتطلق سراح ذلك البطل المصري ، كفا للعتب عنها وحرصا

على العلاقات الوثيقة التي بين مصر وبينها . وقد اتصل بنا ان هذا الخبر طيره رجل كتم اسمه على جناح البرق من قسطنجه وذكر فيه أنهم طلبوا من الديوان العرفى اطلاق عزيز بك بضمان فأبى نرجو أن لا يكون هذا الخبر صحيحا بل يكون خبر القبض على عزيز بك من الأراجيف الباطلة .

وفى ١٦ فبراير ١٩١٤ ينشر المقطم تحت عنوان « عزيز بك المصرى وهيجان الرأى العام فى مصر » وقد جاء فيما نشره ما يلى :

« يزداد الرأى العام المصرى هيجانا على هيجان من يوم الى يوم بسبب قبض حكومة الآستانة على عزيز بك على ووضعه تحت المحاكمة لاقناع المصريين بأن الباعث على ذلك انما هو أحقاد كامنة لا الأسباب الظاهرة . فوفود المصريين متوالية لحض ولاية الأمور على الاهتمام بأمر ذلك الهمام وعدم تركه فريسة تمزقها مخالب البغض والانتقام ، وعرائضهم التاغرافية متواصلة تقرر تارة أبواب القاهرة وطورا أبواب الآستانة ، وتلغرافات المكاتبين الأوروبيين تصدر الى جرائد أوروبا من ساعة الى ساعة ولا يعلم الا الله عند أى حد تقف هذه الحركة المتعاطمة لا سيما وان الشبيبة المصرية العصرية تضرم نارها وتثير غبارها حاسبة أن مد يد الأذى الى بطلها الذى ترفع به رأسها يكون أعظم اساءة لها وأشد هوانا عليها .

وقد علمنا عن ثقة من الأخبار البرقية التى وردت على بعض المقامات الرسمية هنا ان فخامة الصدر الأعظم قال فى سياق كلامه لمن راجعه فى مسألة عزيز بك هذه ان الحكومة العثمانية لم تقبض عليه لتحاكمه على أمور جرت فى بنغازى بل لتحاكمه على عدم امتثاله للأوامر العسكرية التى صدرت اليه من رؤسائه وعلى سعيه فى مضادة الحكومة الحالية فعلا والتنديد برجالها قولا . فلما علمت مجالس مصر الخصوصية هذه الأقوال التى قالها الصدر الأعظم ازداد سخطا واستنكارا وأيقنت أن القصد من تلك المحاكمة ليس تأديب عزيز بك المصرى على وزر ارتكبه أو مخالفة بدرت منه بل القصد الانتقام منه لما هو معلوم عند أهل القطر منذ حرب الدولة وايطاليا فى بنغازى من المنافسة والمناظرة بين عزيز بك وبعض أنداده وأقرانه من رفاقه الترك فى الجيش العثمانى .

وحجة المصريين اليوم هى هذه : ان بطلنا عزيز بك قضى فى الجيش العثمانى ما يزيد على خمسة عشر عاما وهو يبذل كل قوته فى سبيل الدفاع عن دولته ، وكان قبل أن شنت ايطاليا الاغارة على طرابلس الغرب

يقاسى الشدائد والأهوال فى بلاد اليمن حتى يرد تلك القطعة العربية الى
الحظيرة العثمانية فوق الله مسعاه وأصلح ذات البين بين الحكومة
العثمانية والامام يحيى وأتم عقد الاتفاق بينهما . ولم يكد يفرغ من ذلك
حتى هاجت الحرب بين الدولة وايطاليا فى طرابلس فسافر فى الحال
قاصدا برقة متطوعا للقتال وفعل فيها أفعالا تشيب الأطفال وتحل عزائم
الأبطال . ونصر الدولة بكل ما أوتى من بأس وقوة ونفوذ وسطوة وجعل
القبائل تقاتل تحت ادارته مستبصلة مستقلة وعاد بعدما رفع لمصر
والمصريين راية المجد والفخار وأظهر للعالم ان مصر لم تنجد الدولة فقط
بالمال بل تصونها أيضا برجالها الأبطال فبات المصريون ينتظرون بعد
ذلك ان حكومة الآستانة تكافئ بطلمهم عزيز بك كما كافأت بطلمها أنور
بك فتجعله عزيز باشا كما جعلت أنور بك أنور باشا وتقلده منصبا
ساميا كما قلدت نده منصبه السامى . وكانوا يسرون ويشكرون كلما
سمعوا ان فى نية الآستانة ان ترسله واليا على احدى ولاياتها أو قومندان
لفيلق فيها .

ولكن مضت الأيام ولم يصح حلم من تلك الأحلام حتى سمعوا أخيرا
أن رئيسه العسكرى الذى كان بالأمس نده فى بنغازى أمر بتعيينه فى
وظيفة صغيرة ببلدة بعيدة حقيرة فكبر هذا الأمر عليهم وعدوه هوانا على
بطلمهم وبالتالى عليهم ولم يسعهم الا استصواب ما فعله عزيز بك حينما
جاءتهم الأخبار بأنه اعتذر عن قبول الوظيفة واستقال من الجيش . ولم
يدر فى خلدكم أن ذلك يتخذ حجة عليه بعدم اطاعة الأوامر العسكرية
وبوجوب محاكمته تأديبا له لا سيما وأنه يحق للضابط الذى يقضى
ما فوق الخمس عشرة سنة فى الجيش العثمانى ان يستقيل فى أى ساعة
شاء بلا خوف ولا مراء .

وقد سمعنا جماهير المصريين تتأفف أمس واليوم من تعريض احدى
الصحف بان عزيز بك ابن جركسى كأنها تريد أن تقول انه ليس بمصرى
مع أن الخاصة والعامة يعلمون ان عزيز بك ولد فى هذا القطر فهو يعد
مصريا فى عرف ممالك العالم كلها لا سيما وأنه لم ينتم قط الا الى مصر
ولم يدع ان له قوما غير المصريين ، وقد قضى العمر وهو يجاهر بأنه
مصرى عربى ويطلب بأعلى صوته معاملة العرب معاملة الترك وغيرهم من
العناصر العثمانية ويسعى فى الدفاع عن العرب والتأليف بينهم وبين الترك
ويندد بكل سعى فى التفريق بين هذين العنصرين وبكل تمييز للترك
على العرب فى عهد الدستور . فالمصريون خصوصا والعرب عموما يعدون

عزيز بك بطلهم ويفاءخرون ببسالتة ويباهون بشجاعته ويحسبون الاساءة اليه اساءة اليهم والاعتداء عليه اعتداء عليهم . ولو حضر من الآستانة بعض الذين رحلوا اليها من هذا القطر بدعوى أنهم يقصدون تقريب العرب من الترك والتأليف بين قلوب الفريقين -- لو حضر هؤلاء اليوم الى مصر وسمعوا عتب المصريين عليهم بل لومهم وتعنيفهم لهم على تقصيرهم فى ما يدعون السعى فيه وتحريضهم على عزيز بك عوضا عن دفاعهم عنه لأدركوا ان هذه المسألة يخشى أن تهيج القطر من أقصائه الى أقصائه وان تتركه خصما شديدا لحكومة الآستانة لا صديقا صدوقا لها .

هذا ولما كان المقطم مصريا وعثمانيا معا وكان أقصى مرامه أن تظل مصر - وطنه الجالى - أعظم الأوطان حبا لدولته وأشدّها اخلاصا لها فهو يرجو من فخامة الصدر الأعظم الذى هو ابن مصر أيضا ومن سائر رجال الحكومة فى الآستانة أن يتدبروا هذه المسألة بالتأنى والحكمة ولا يكدروا كأس الصفاء بين مصر والآستانة ولا يكسروا قلوب العثمانيين ولا سيما العرب بمد يد الأذى الى بطلهم المصرى العربى ولا يفتحوا بابا للخلاف والأشكال مع دولة ترى الدفاع عن المصريين خارج قطرهم من الأمور الواجبة عليها بل يقبلوا استعفاء عزيز بك ويردوه الى وطنه اذا لم ترضهم اقامته فى عاصمتهم وبذلك نراعى عواطف اخواننا المصريين فى الحال ونصون كرامة تاريخنا مع أبطالنا فى الاستقبال .

ألف وفد من حضرات أصحاب السعادة والعزة عبد الخالق باشا مدكور ، وحسن باشا رضوان ، وابراهيم باشا نبيه ، والسيد أحمد محسن ، والدكتور سعد بك الخادم ، ورشوان بك الزمر ، وعلى بك حافظ وغيرهم وقصدوا سراى عابدين العامرة ليلتمسوا من الجانب العالى أن يتوسط فى مسألة عزيز بك المصرى فرفعت أمنيتهم الى الجانب العالى فى المنتزه . وقد أرسل سموه حضرة حسن حلمى بك من رجال التشريفات الخديوية فأبلغ حسن باشا مدكور شكر الجانب العالى لحضرات أعضاء هذا الوفد على احساسهم الشريف ووعده بابلاغ أولى الحل والعقد فى الآستانة شعور المصريين وأمنيتهم فى هذه المسألة . أتانا هذا التلغراف بأمر « لفيق من الجيزة » وهو أرسلنا احتجاجنا الشديد الى الصدارة العظمى بسبب القبض على عزيز بك المصرى نرجو من الوفد مداومة السعى ونشر هذا التلغراف بجريدتكم أعرابا عن استيائنا . وأتانا هذا التلغراف من طهطا وهو : رفع أعيان طهطا ووجهاؤها وفى مقدمتهم حضرات محمد بك رفاعة ، وأحمد بك على ، ومحمد بك عمر عبد الآخر ، والسيد أحمد عابدين نقيب الاشراف ، والسيد عبد العزيز أحمد الانصارى ، والسيد عبد الرحيم

عيد تلغرافا الى فخامة الصدر الأعظم ، اعربوا فيه عن أسفهم للقبض على البطل عزيز بك المصرى وأظهروا فيه سوء وقع الخبر فى نفوس المصريين والمسلمين ، وأتانا هذا التلغراف من كفر عمار وهو « ساءنا القبض على عزيز بك المصرى » .

وينشر المقطم فى ١٧/٢/١٩١٤ وتحت عنوان « الاشاعات وحقيقة الحال » : توقيف عزيز على بك المصرى وتأثير ذلك . وقد جاء فيما نشره المقطم :

« اشاعت صحف الغرب هذه الأيام أخبارا مقلقة عن الآستانة فذكرت المؤامرات التى اكتشفتها حكومتها الحالية واسهبت فيها اسهابا كثيرا حتى خيل الى قارئها ان محررها فى عداد المتأمرين . وكنت قد ضربت صفحا من ذكر تلك الاشاعات لاعتقادی أنها مختلقة لا صحة لها ولا أساس وأن ذوى الأغراض والغايات أذاعوها تمهيدا لسبيل الانتقام من خصومهم السياسيين . أما وقد تغيرت الحال وتوهم قوم ان وراء الاكمة ما وراءها فلم أجد بدا من ذكر ما شاع وذاع على علاته . يقول قوم ان الاستياء فى الجيش شديد عام من احواله فريق من كبار القواد على التقاعد ونفى فريق آخر منهم الى سينوب والقبض على جميع المعارضين فهذا كله أقام الجيش وأقعده وحرك فى الأفئدة عوامل الانتقام ولو وقف الأمر عند هذا الحد لسهل وهان وقلنا ان الخطر بعيد لأن حزب جمعية الاتحاد فى الجيش قوى لا يستهان به . ولكن عدم اعطاء الضباط الرواتب منذ خمسة أشهر فى بعض الفيالق والمعاملة الاستثنائية التى يعامل بها فريق كبير من العسكريين بشا فى الجيش فكرة لا تؤمن عواقبها ولا يحمد منتهاها .

فقد أخبرنى ثقة بأن كثيرين من الضباط المنتسبين الى الجمعية انتحروا بسبب الحاجة والفاقة وبأن أكثر المعدودين من فدائى الاتحاديين قطعوا كل علاقة لهم بالجمعية هذه الأيام فأدرك قادة الأمور حرج موقفهم وجعلوا الشدة والضغط دينهم وعاقبة الضغط الانفجار . وقد نفى ياور باشا ، وخورشيد باشا الى سينوب ويقال ان نظارة الحربية فكرت أيضا فى نفى عبوقى باشا من كبار الضباط . وان أنور باشا ناظر الحربية وضع بيانا بذلك أوجب تنفيذه قريبا وسافر الى أدرنه لأسباب لا تزال مجهولة ، فتباينت الأقاويل فى سبب سفره وأشاعوا أمورا كثيرة أضرب الآن صفحا عن ذكرها . وسمعت أمس أنهم القوا القبض على ضباط كثيرين لم تعلم أسمائهم ولا التهم التى اتهموا بها ولا ما يكون من أمرهم فى المستقبل وبين هؤلاء الضباط عزيز بك المصرى بطل برقة . وتحرير الخبر أنه كان

خارجا أمس بعد الظهر من فندق توكتليان واذا ثلاثة من البوليس دنوا منه بكل احترام ودعوه الى دائرة البوليس فصار معهم الى اسطنبول .

ولما ذاع الخبر فى الآستانة قام له أبناء العرب وقعدوا ، وذهب كثيرون منهم الى دائرة البوليس مستعلمين عن سبب توقيفه فقال لهم مدير البوليس وهو يتلطف معهم : ان عزيز بك لم يوقف ولكنه دعى لاستجوابه عن أمور لا دخل له فيها وسيطلق سراحه فى المساء . وقصد السيد عبد الحميد الزهراوى منزل طلعت بك ليقف منه على طبيعة الحال فلم يجده ، ولما آزفت الساعة العاشرة مساء ولم يخرج عزيز بك من دائرة البوليس توجه ضابط الى عبد الحميد أفندى الزهراوى وطلب منه أن يبحث عن السبب ويخبره به اليوم بعد الظهر وأبلغه استياء العرب جميعهم من عسكريين وملكين من تلك المعاملة لأن عزيز بك لا دخل له فى سياسة الآستانة وشئون أحزابها وهذا أمر يعلمه خصومه قبل أصدقائه ، فلأى سبب قبض عليه .

ويذهب فريق آخر من اخواننا الضباط العرب ، ان الانتقام الشخصى كان العامل الوحيد فى توقيف عزيز بك وأنهم لابد لهم من منع يد الانتقام من الوصول اليه مهما تكن العواقب .

وجملة القول أن الحكومة تحسن صنعا اذا أطلقت سراحه فى القريب العاجل لأنها تعلم جيدا أنه لا ضلع له من حزب من أحزاب الآستانة ولا دخل له فى شأن من شئونها . وسيعقد مندوبو الأحزاب العربية اجتماعا مهما اليوم بعد الظهر للوقوف على تلك الأسباب التى أدت الى القبض عليه واجراء ما تقتضيه الحال .

ولا يسعنى المقام الا أن أقول ان ما جرى يجب تلافيه بالعقل والحكمة سواء كان عزيز بك هو الذى عومل تلك المعاملة أو غيره من القواد والضباط لأن النتائج غير مأمونة . . والله أسأل ان يلهم ولاة أمورنا سبيل الرشاد ويحمى السلطنة والأمة من عواقب الاستبداد .

وينشر المقطم - فى ١٧ فبراير ١٩١٤ - تلغرافا من أبناء مديرية بنى سويف جاء فيه :

« ساءنا خبر القبض على عزيز بك المصرى فأبلغنا الباب العالى استيائنا واحتجاجنا » .

كما ينشر المقطم تلغرافا آخر من القاهرة جاء فيه :

« ما حدث للبطل عزيز بك المصرى جاء على حقه ما كنا نرجوه فلذلك اجتمعنا نحن أعيان وتجار قسم السيدة بمنزل حسن بك حسنى الوردانى وقررنا نشر استيائنا على صفحات الجرائد أولا ثم انتخاب وفد لمقابلة سمو ولى النعم والمندوب العثمانى السامى وولاة أمورنا متوسلين بهم للسعى فى الافراج عنه وثقتنا فى دولتنا أنها لا تؤذى المصريين فى رجلهم العزيز » .

وينشر المقطم - فى ١٨ فبراير ١٩١٤ - أن مندوبه الخصوصى فى الآستانة زار أمس عزيز بك المصرى فى غرفة قومندان السر عسكرية الخصوصية ليقف منه على حقيقة التهم الموجهة اليه ، فرأى عنده جمهورا من أعيان العرب فلم يتمكن من محادثته على خلوة ، ولكنه علم ان أنور باشا ناظر الحربية أرسل تلغرافا الى رئيس الديوان الحربى يأمره فيه باخلاء سبيل عزيز بك ضمن دائرة القانون فرفض الرئيس ذلك لأسباب لم تعلم بعد . قال : وقد مضى على عزيز بك أربعة أيام ولم يعلن بعد رسميا بالسبب الذى دعا الى توقيفه ، فساء ذلك أبناء العرب وخاضوا ولاة الأمور محتجين على هذه المعاملة السيئة . ويشاع ان الحكومة تكفلت لهم باخلاء سبيله ومعاملته بالعدل بعد عودة أنور باشا من ادارته .

وينشر المقطم أيضا - فى ١٨ فبراير ١٩١٤ تحت عنوان : عزيز بك المصرى ، تأثير حادثته بين الترك والعرب فى الآستانة .

« وكتب الينا فاضل من أبناء العرب يقول : حضر طلعت بك وجمال بك الى المنتدى الأدبى يوم المولد النبوى الشريف وخطبا خطبا رنانة صفق لها الحاضرون تصفيقا صم الأذان ، وبالغوا كل المبالغة فى اظهار الاستحسان ، وشكرهما حضرة السيد عبد الحميد الزهراوى باللغة التركية لا بلغته العربية فعتب عليه أبناء هذه اللغة عتبا شديدا ولاسيما ضباط الجيش من أبناء العرب يتحدثون بأقوال طلعت بك التى تشف عن شديد الوداد وعن العزم على انجاز جميع الوعود التى وعدوا بها العرب وعن وجوب الامتزاج والاتحاد بين العرب والترك حتى لا يقال بعد الآن هذا عربى وهذا تركى اذا حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، ومحا تأثير تلك الأقوال فى طرفة عين وترك كل ما صفق له أهل المنتدى الأدبى فى خبر كان ما مس الاثنين .

فى ٩ فبراير قبل الساعة الأولى بعد الظهر خرج صديقنا عزيز على بك المصرى من مطعم طوقاتليان هو والدكتور ثابت ، واذا ببوليس سرى سألته عن اسمه ثم كلفه أن يرافقه الى مدير البوليس بدرى بك وأخبركم العربى الفصيح أنهم قبضوا على عزيز بك المصرى وزجوه فى السجن مكافأة له على خدماته العظيمة فى الروملى واليمن وبنغازى . وقد بات ليلة هناك فى دائرة البوليس ، فلما علم بذلك شبان العرب وضباطهم وخصوصا البغداديون منهم هاجوا هيجانا عظيما حتى خفنا ان يخرج كثيرون منهم على حد الاعتدال ويتسع الحرق على الراقع ، وأراد بعضهم ان يذهبوا الى سجنه ويبيتوا الليل معه ، وقضى آخرون الليل يطوفون فى شوارع الآستانة وحول دائرة البوليس خوفا من ان يخرج البوليس به ليلا على غير علم منهم . واتفقوا كلهم على أن يعقدوا اليوم اجتماعا عظيما ويقرروا الحطة التى يسيرون عليها .

وكتب اليها آخر يشرح بعض ما تنويه الشبيبة العربية ولا سيما ضباط العرب اذا - لا سمح الله - أصاب عزيز بك المصرى أذى أو نفى الى سينوب كما نفى غيره من الضباط . فأغفلنا نشر ما شرحه لنا لأنه مما نكره نشره ولا نحب ذكره وقال فى ختام كتابه « ونحن فى أشد الاستياء هنا من هذه الحادثة التى كدرت كأس الصفاء بعدما هنا بعضنا بعضا بزوال أكدارها أثر الخطبة العظيمة التى خطبها طلعت بك فى المنتدى الأدبى فكانت بلسما لجروحنا وأوشكت ان تزيل كل جفاء بيننا وبين الترك اخواننا . فاذا كان الترك يقصدون ان ينفذوا بالفعل ما أكده لنا طلعت بك بالقول فليبادروا بالافراج عن عزيز بك المصرى والاعتذار عما أصابه ، لأن عزيز بك ليس من الذين يتعرضون للاتحاديين فى سياستهم ولا دخل له فى شئونهم ولا ضلع له مع خصومهم » .

واطلعنا عربى سورى فى هذه العاصمة على كتاب جاءه من صديق له فى الآستانة يشرح فيه حادثة عزيز بك المصرى بمعنى ما ذكر فى الرسائل السابقة ثم يقول : فى هذا الاسبوع (الماضى) تجتمع الهيئة العربية المحالفة للاتحاد والترقى فى المركز العمومى ويتذاكر رجالها والاتحاديون ويتداولون فى مسائل الانتخاب لمجلس المبعوثان ويسمون من يريدون ، وقد علمت أنهم يقصدون ان يكون المنتخبون هم الآتية أسماؤهم (بلا ألقاب) رشدى الشمعة وبديع المؤيد وشكرى الأيوبى وأسعد حيدر عن الشام . . . وسامى الصلح وعبد الكريم الخليل عن بيروت . . . وسعد

الدين دمشقية وشكيب أرسلان عن جوران . . وتوفيق الجمالى عن الكرك . . ووصفى الأتاسى وعبد القادر الحصنى عن حمص وحماه .

هذا وقد علمنا أنه ورد تلغراف من الصدارة العظمى على القوميسير السنابى العثمانى يقال فيه : انه وان يكن قد بدا للديوان العرفى العسكرى توقيف عزيز بك على فلآن لم يصدر منه قرار بشأنه . فاختلف الناس فى مفاد هذا التلغراف ، بعضهم رأى أنه جواب بسيط لا يفيد شيئاً جديداً مما كان ينتظر وروده بعد تلغراف القوميسيرية السامية الذى شرحت فيه ولا بد حقيقة الحالة فى هذا العاصمة وفى سائر أنحاء القطر . وبعضهم رأى أنه يفيد وجوب الاطمئنان وتسكين روع أقرباء عزيز بك وأصدقائه عليه لأنه ما دام الديوان العرفى العسكرى لم يصدر قراراً بشأنه بعد مضى أيام على توقيفه فتهمة ليست من التهم الكبرى التى تقتضى مزيد من الاهتمام فى الحال أو التى تقلق البال ، والذين يؤولون عبارة الصدر الأعظم هذا التأويل الأخير ، هم العارفون للغة التركية وأساليبها الخصوصية ، نفسى ان تصح هذه الأقوال وتحقق الآمال لتسكين الخواطر ويستريح العثمانيون من سماع القيل والقال .

وفى ٢٤ فبراير ١٩١٤ نشر المقطم تحت عنوان : عزيز بك المصرى يقول : « ورد أول أمس تلغراف من السفارة البريطانية بالاستئذان على الوكالة البريطانية هنا ، أن عزيز بك المصرى بطل برقة بخير وعافية وأنه حاصل على وسائط الراحة والعناية بشأنه فى المحل الذى هو موقف فيه وقد توالى علينا التلغرافات من أنحاء القطر المصرى وكلها تعرب عن رغبة مرسلتها فى اذاعة مقال عزيز بك وطلب معاملته بالحسنى والافراج عنه منها تلغراف من الجيزة بأهضاء « لفيف من الوطنيين » قالوا فيه أنهم كتبوا الى ولاية الأمور طالبين الافراج عنه . وتلغراف من الموصل قال مرسلوه أنهم اجتمعوا وقرروا ابلاغ استيائهم الى ولاية الأمور من جراء القبض على عزيز بك .

وتلغراف ثالث من واقد أمضاء أربعون من أهل واقد وكفر بولين وزاوية البحر بمركز كوم حمادة وقالوا فيه أنهم يرفعون أصواتهم الى رجال الحكومة العثمانية ملتمسين الافراج العاجل عن البطل عزيز بك المصرى وذاكرين ما له من الخدمة العظيمة للدولة العلية والاسلام ولاسيما فى الحرب الايطالية بينغازى .

وتلغراف آخر من بولاق المذكور قال مرسله : انهم اجتمعوا فأعربوا
عن أسفهم لعدم الافراج عن عزيز بك فأرسلوا احتجاجا الى الصدارة
العظمى .

وأثانا في تلغراف من شبرا بمصر ان جمهورا من سكانها اجتمعوا
وقرروا رفع الاحتجاج الى الباب العالي وأثانا في تلغراف من امبابة ان
جمهورا اجتمع فيها واتفقوا على ان يبلغوا استيائهم الى ولاية الأمور .

وأرسل مكاتب التيمس من القاهرة تلغرافا الى جريدته في
١٤ فبراير الجارى قال فيه : ان الاستياء من عمل الحكومة العثمانية بالقائها
القبض على عزيز بك المصرى بلغ أشده فى جميع الدوائر وان الدوائر
المعروفة بصيغتها التركية مستاءة أيضا من هذه الأمر وغير موافقة عليه ،
وان الصحف الوطنية حتى الصحف التى انتقدت عزيز بك لما انسحب
من بنغازى اشتركت فى هذا الاستياء العام . أما القبض على عزيز بك
فينعزى الى ما بينه وبين أنور باشا من المنافسة والضغائن التى اشتهر
أمرها وحده دون سواه . والناس يعدون هذه المعاملة التى عومل بها
هذا الضابط المصرى الذى اشتهر فى الحرب الطرابلسية وحق لمصر أن
تباهى به وبأعماله بعيدة عن حسن السياسة والمعاملة بعدا شاسعا .
وعلقت التيمس على هذا التلغراف تعليقا لطيفا أطرت فيه عزيز بك على
أفعاله فى بنغازى وما أظهره فيها من البسالة والكفاءة والمهارة فى تنظيم
صفوف العرب ومقاومتهم للايطاليين .

وقد أرسل الينا حضرة مندوبنا الخصوصى فى الآستانة العليا برسالة
طويلة عن سجن عزيز بك المصرى بطل برقة نذكر منها اليوم ما يأتى :
« ان تأثير المعاملة التى عومل بها عزيز بك بطل برقة فى البلاد العربية
اضطر حكومة الآستانة الى التفكير فى عاقبة الأمر ، فوجد طلعت بك أبناء
العرب هنا باخلاء سبيله فى القريب العاجل ، وأرسل اليه أنور باشا
ناظر الحربية تلغرافا طويلا من أدرنة أظهر فيه استياءه من سجنه وأخبره
بأنه أصدر أمره الى رئاسة المجلس العسكرى باخلاء سبيله . . هذا ولما
وصل أنور باشا الى الآستانة أرسل عمه خليل باشا الى عزيز بك لاقرائه
سلامه وأخباره برغبته فى مقابلة طويلة تزيل سوء التفاهم من بينهما
وبترضيته عن اساءة الحكومة اليه . قال مندوبنا : وقد علمت أن عزيز بك
يصر على ان يحاكم ليس على مسألة بنغازى فقط بل على جميع ما فعل
منذ انتظم فى سلك الجيش العثمانى الى اليوم ولكنه يشترط أن يضاف

الى المجلس العسكرى لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء العسكريين
الخبراء فى الشئون الحربية ولا يعلم ما يكون جواب نظارة الحربية على
طلبه هذا .

وتحت عنوان : « ما وراء الستار بطل برقة فى محكمة الرأى العام » ،
نشر المقطم لندوبه الخاص فى الآستانة (٢٦ فبراير ١٩١٤) ، وكان قد
كتب بتاريخ ١٧ فبراير ١٩١٤ ما يلى :

« لم يعلم بعد السبب الذى من أجله وقف عزيز بك المصرى بطل
برقة ولا عرفت التهمة التى أقيت عليه ، أتحاكمه نظارة الحربية أم تطلق
سراحه معتذرة عن اساءتها اليه بما علمته به مما لا يستحقه ولا يليق
بمقامه وجليل فعاله . فالآراء متضاربة فى هذا الشأن والحقيقة لا تزال
طى الكتمان . فمن قائل ان بعض خصومه من ذوى الكلمة والنفوذ رغبوا
فى تحقيره واذلاله فوصموه بتهم ما أنزل الله بها من سلطان . ومن
قائل ان نظارة الحربية لا تقصد الا استجوابه عن أمور يعلمها ومهما يكن
الأمر فان أبناء العرب فى الآستانة خاصة وفى البلاد العربية عامة أظهروا
مزيد الاستياء والكدر مما عومل به وحذروا الحكومة من عاقبة الأمر حتى ان
طلعت بك وعد باخلاء سبيله وأنور باشا أرسل تلغرافا اليه من أدرنة
معتذرا عما كان ، ولكن عزيز بك أبت عليه عزة نفسه الا أن
يحاكم ليعلم الملاء العثمانى كافة أنه برىء مما يعزونه اليه وان خدمته فى
الجيش العثمانى لا شائبة تشوبها ولا غبار عليها . ولا يعلم ما يكون جواب
نظارة الحربية عن طلبه هذا لا سيما وأنه اشترط أن تضاف الى المجلس
العسكرى الذى يتولى محاكمته ، لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء
العسكريين الخبراء بالشئون الحربية .

هذا ولما كان بطل برقة يطلب ان يحاكم مشروطا تلك اللجنة الى
المجلس العسكرى لم أجد بدا من ذكر حقائق يهم المصريين والعثمانيين
ان يقفوا عليها ليصدروا حكمهم على بطل بنغازى الشهير على أن تبندى
محاكمته السرية فى مجلس عسكرى لا ترتاب فى عدله وانصافه .

وفى ٧ مارس ١٩١٤ - كما قالت الأهرام - حدد المجلس العرفى
يومي الخميس والاثنين من كل أسبوع لمقابلة عزيز بك المصرى بعد أن

كان قد منع الزوار من مقابلته ، على أن الأوامر صدرت بكتابة أسماء جميع الزوار ، وعناوينهم ، ومحلات إقامتهم ، وغير ذلك من البيانات . أما توارد الزوار في ذلك السجن فحدث عنه - كما تقول الأهرام - ولا حرج لأنه لم يقعد عربى واحد فى الآستانة عن زيارته وتكرار الزيارة مرارا فى الأسبوع .

وتحت عنوان : مصير عزيز بك المصرى ، تنشر الأهرام (١١ مارس ١٩١٤) ما يلى : « ان الضابط الباسل عزيز بك المصرى ذو مكانة فى قلوب جميع العثمانيين لما عرفوا عنه من البسالة والاقدام فى خدمة دولته وأمتة فليس ولا سيما العرب لأنهم يفخرون بأنه عربى ولا سيما المصريين لأنه مصرى ممتاز بالشجاعة والبسالة والاقدام .

ولكن هذا الاعجاب به وببسالته ما كان يحمل الجمهور على طلب الافراج عنه بعد حبسه لو لم يحط سجنه والقبض عليه بدسائس ضده عرفت واشتهر أمرها بين الخاصة فى القطر المصرى قبل ان تلفظ كلمة واحدة ضده فى الآستانة بل ان الحكومة السلطانية كانت تعرض عليه والدسائس تدس فى مصر أعلى المناصب وأرقى المهام كقيادة حامية البصرة .

فلما انعكس الأمر فجأة وتحولت الدولة من توليته المناصب الى زجه فى السجن أخذتهم الدهشة وتولتهم الحيرة ولم يرد من الآستانة نبأ جلى عن التهمة الموجهة اليه بل ظلوا حتى اليوم لا يوجهون اليه تهمة وهذا هو الخطأ الأكبر فى معاملته لأنه كان يجب أن يقبض عليه بتهمة وان تعلن حالا سريعا تلك التهمة ليقف الجمهور على الحقيقة ولا تأخذ رجال الدولة الظنون ولا تحوم حولهم الشبهات كما قالت جريدة التيمس ونحن العثمانيين وحكومتنا أيضا بحاجة الى الصراحة بالعمل والقول الى اظهار الحقائق والحقوق حتى يقتنع العالم بأن نريد عدلا ونريد حقا ونريد انصافا ونخدم قانونا . واذا قلنا نحن أحرار فى ديارنا نفعل ما نشاء كنا على خطأ لأننا فى عصر تضامنت فيه الانسانية كلها وهذه حادثة بايليس الاسرائيلى فى « كييف » من أعمال روسيا واتهامه بأنه قتل فتى مسيحيا ، أقامت العالم وأقعدته على دولة الروس ، فكلمة ماذا يعنى الناس منا لا يقال ولا يقبلها رأى العام فى بلد من بلاد الله فى هذا الأوان .

وهناك أمران آخران كان يجب اعتبارهما وهما خاطر للأمة التى ينتسب اليها عزيز بك للدولة من الأمم العثمانية أى الأمة المصرية ذات

الفضل والحب الخالص الصادق للدولة العلية ، وخدمة عزيز بك للدولة في
مقدونيا واليمن وبنى غازى خدمة لا يستطيع أحد انكارها وهى أكبر
شفيع لأكبر مجرم ، فكيف يبطل نعرف فضله ولم نعرف حتى هذه
الساعة ذنبه .

ولقد حبسنا القلم عن الكلام فى هذه القضية لاعتقادنا بأى محاكمة
المتهم واجبة وبأن الشفاعة التى تقدمت من علماء مصر وأمرائها كانت
كافية ولكن الآن نقول كلمتنا ليقلع الذين يواصلون النفخ بالنار فى هذه
الديار فانهم اذا استطاعوا بعزير بك وبأن يرضوا نزوات رؤوسهم من
اتهامه ومحاكمته والحكم عليه فانهم يؤلمون نفوسنا ارضاؤها خير للدولة
من ارضائهم ورضاهم أفضل لها من سيخطهم وثقتها أنفع من مجاراتهم
فليكفوا عن اللعب بمصالح الدولة وبسمعتها وليدعوا رجال الدولة يدبرون
أمرها ولا يشغلوهم بمثل هذه الدسائس الصبائية فان أيامنا معدودة
علينا فخرام بل ألف حرام وأشد جناية أن يضيع رجال الدولة لحظة فى
الانشغال بهم وبمجازاتهم بالاصغاء الى أصواتهم .

وكان الأستاذ اسماعيل بك لبيب صهر الزعيم محمد فريد وخطيب
الحركة الوطنية المصرية المعروف موجودا بالآستانة وقت القاء القبض على
عزيز على المصرى بك ، فلما عاد فى ١١ مارس ١٩١٤ جرى بين جريدة
الشعب وبينه الحديث التالى ، الذى نشرته الشعب فى ١٢ مارس ١٩١٤ :

سألناه : ما الذى تعلمونه عن عزيز بك المصرى ؟

فأجابنا : الذى أعلمه هو أن الحكومة العثمانية ألقت القبض عليه
وأودعته السجن وقد مضى عليه نحو الثلاثين يوما ولم نعلم لغاية مبارحتى
الآستانة التهمة الموجهة اليه رسميا غير ان الاشاعات كانت كثيرة بهذا
الشأن بالخارج وفى كل يوم كنا نسمع نبأ جديدا .

سألناه : ما هى هذه التهم التى تسمعون عنها كل يوم ؟

فأجابنا : سمعنا يوما أنه متهم بقتل أشخاص من العرب نسيب اليهم
اليهم أنهم كانوا يتجسسون فى برقة . وقال البعض : ان تهمة تنحصر
فى أنه خالف أوامر الحكومة عندما أرسلت اليه تطلب منه ترك ميدان القتال
والعودة الى الآستانة ، فلم يفعل وبعث اليها يقول انه مستقيل من الجيش .

وأذاع آخرون أنه متهم باختلاس نقود من الأموال التي كانت ترسل
الى طرابلس . . . وقيل بل أنه كان متهما بالتآمر مع بعض الضباط لاستقاط
الحكومة الحاضرة . . . وأشاع فريق بأنه عضو في عدة جمعيات سرية .

وما سمعناه ان ايطاليا اشترطت في مقابل تسليم الجزر الخاضعة
لتركيا في البحر الأبيض المتوسط للدولة محاكمة عزيز بك وتجريده انتقاما
منه بسبب ما كبدها من الخسائر في الحرب الطرابلسية .

على أن أهم ما أشيع في هذا الصدد - وأظن أنه بيت القصيد -
هو أن عزيز بك متهم بأنه يعمل للمسألة العربية الأمر الذي اضطر الحكومة
الى القاء القبض عليه حتى لا يغادر الآستانة لأن أعداءه حذروا الحكومة من
ان يفلت من يدها وصوروا لها أنه اذا ترك حرا أصبح ادريسيا آخر
بل أشد وطأة وخطرا .

فسألناه : هل الرأي العام في الآستانة يصدق هذه الاشاعات ويعتقد
بادانة عزيز بك ؟

فأجابنا : كلا فان الرأي العام هناك سواء كان في الجيش أو خارجا
عنه يعتقد كل الاعتقاد في براءته من تلك التهم التي يلصقها أعداؤه للحط
من كرامته والكل مجمع على تقدير كفاءته وتفوقه وأمانته وحرصه على
تأدية واجباته .

تأثير الوشائيات . . . ثم قال ان الكثيرين يؤكدون أن السبب الحقيقي
لهذا الحادث هو ان يدا أثيمة دبرته بسعيها وتهويلاتها وصورت للحكومة
ان هذا الشخص خطر لا يجوز تركه حرا ، وقد ظن أولئك الساعون أنهم
بذلك يتظاهرون بتقديم خدمة كبرى لرجال الدولة يستحقون عليها الحظوة
عندهم ، ولكن فاتهم ان الرأي العام قد حكم على أعمالهم هذه وهو يرجو
من الحكومة أن تبعد هذا النفر المتوقد غير كاذبة لأنهم كانوا سببا في
تنفير بعض محبي الدولة وابعادهم عنها ابتغاء أن يخلو الجو لهم وينالوا
ما يبتغون من الوظائف ذات المرتبات الضخمة وغيرها .

فسألناه : لم لم تسأله الحكومة كل هذه المدة ؟

فأجابنا : ان أعداء عزيز بك الذين ابتدأت حملاتهم ضده عقب عودته
الى الآستانة انتهزوا فرصة تقديم استقالته وأخذوا يكبرون الأمر ويوهمون

رجال الحكومة أنه يريد بالاستقالة هذه مغادرة الآستانة لأجل ان يكون على رأس حركة هائلة ضد الحكومة . وقد صادفت هذه الدسائس تصديقا من رجال الدولة فألقوا القبض عليه فجأة ثم أخذوا من ذلك التاريخ يبحثون فى أعماله القديمة والحديثة .

فسألناه : هل يعتقد الرأى العام فى الآستانة ان الحكومة ستوقع عقابا على عزيز بك ؟

فأجابنا : ان الرأى العام هناك يعتقد ان الحكومة بعثت فى أعمال عزيز الماضية فلم تجد ما يدعو لمحاكمته .

ولكن الدسائس التى شرحتها لكم جعلت رجال الدولة يتخوفون من عزيز بك خصوصا وان أعداءه صوره للحكومة تصويرا مرعبا ولذلك أشيع أنه ربما تقرر ابعاده الى احدى مدن الأناضول اتقاء لخطره الذى قال عنه من سعى فى حقه ، غير ان هذه الاشاعة لم يصدقها أحد رجال الحكومة الحاضرة مشهورون بالحكمة والعدالة ولا بد ان يكون قد تبين لهم حقيقة ما انطوت عليه صدور أعداء عزيز ، واذا كانت الحكومة قد أعارت كلام أولئك السامعين التفاتا فى أول الأمر فلا يحمل هذا طبعاً الا على أنها رأت أن تحتاط للأمر فى ابائه خوفا من أن يكون ما نقل اليها صحيحا ، أما الآن وقد ظهر الحق فالأمل كبير فى خروج عزيز بك من هذه المسألة على الرأس ولا سيما انه لا يوجد بين رجال الدولة من يريد بعزير سوءا أو من كان يفكر فى اساءته ولكن أولئك الواشين ، لغاية فى نفوسهم ، وحبل الوشاية قصير كما يقولون ، لذلك أتوقع قرب انتهاء المسألة بسلام .

وتستكتب جريدة الشعب الدكتور حافظ عفيفى مقالا عن عزيز على المصرى تنشره فى ٢٣ مارس ١٩١٤ وذلك باعتبار حافظ عفيفى من أقرب أصدقاء عزيز على المصرى الى قلبه ، ولأنه كان واحدا من أبرز أطباء البعثة المصرية الطبية التى كانت تعمل فى برقة عندما كان عزيز المصرى يحارب فيها .

وقد استهل د . حافظ عفيفى مقاله بموجز عن تاريخ عزيز المصرى ثم توقف عند ذهابه الى طرابلس قائلا : ما كادت تعلن حرب طرابلس حتى جاء عزيز على المصرى متخفيا من اليمن الى مصر وذهب منها الى

بنغازى الذى كان يسبقه اليها بأيام صديقه وزميله البطل أنور فتقابلا
فى « درنة » فاتفقا ان يبقى أنور فيها وان يذهب عزيز الى بنى غازى ،
واختار أنور البقاء فى درنة لتوسطها بين المراكز الحربية ، واختار عزيز
بنى غازى وهى أصعب المواقع الحربية لطبيعة هذه المنطقة ولوجود
أقوى جيوش الطليان أمامها لأنها عاصمة برقة ولأن التوغل فيها الى
الداخل أسهل من غيرها ، اختار عزيز هذا الموقع لأنه يثق فى كفاءته
كثيرا وفى ميزاته العسكرية أيضا ، واعتقاد أنور فى كفاءة عزيز الحربية
ودرايته وشجاعته لم يكتمه على أحد وأذكر ان عزيزا تضايق مرة لعدم
حصوله على بعض طلباته فقدم على العودة الى الآستانة ، فقام وفد فى
الحال مؤلف من سيدى عمران شيخ زاوية المرج وسيدى محمد على شيخ
زاوية الحضراء من بنى غازى . وذهبا الى درنة لمقابلة أنور ليخبراه بعزم
عزيز فقال لهم أنور : انكم اذا تهاونتم وتركتهم عزيزا يرجع فانه لا يجد
ضابطا فى كفاءة وشجاعة عزيز لتولى قيادة هذا الموقع الخطير ، فعاد الوفد
وبقى عزيز قائدا لجيشه ببنى غازى حتى أعلن الصلح وعاد أنور وكان
جيش العرب فى طول هذه المدة مرابطا على مرأى من مدينة بنى غازى
المحتلة بالطليان . وعلى مرأى من ساحل البحر ، ولم يتمكن الطليان رغما
من المحاولات الكثيرة أن يتقدموا من هذه الجبهة خطوة واحدة الى الأمام
مما ألهم الساسة الجرائد الأفرنكية التى أرسلت لها مكاتبين الى تلك الجهات
بالثناء الزائد على عزيز بك وما كتبه جريدة الاستراسيون الفرنسية
ليس بعيدا عن الأذهان .

وضعت الحرب الرسمية أوزارها وعاد أنور الى الآستانة للاشتراك فى
حرب البلقان بعدما ساءت الحالة هناك ولو عاد عزيز لما انتقده أحد ولكن
عمله العظيم فى بنى غازى مضافا الى عمله فى اليمن وفى حركة الدستور
وفى الرد على من أحسن ما يفتخر به ضابط باسل وجندى شجاع وسياسى
ماهر ، الا ان عزيزا واسع الأمل يلتهب وطنية وحماسا ونشاطا فانه صعب
عليه أن يترك هؤلاء العرب الشجعان لأعدائهم الطليان فصمم على البقاء
معهم مدافعا ما استطاع الى ذلك سبيلا .

انقطعت عنه أموال الدولة ولم يرسل له من أموال الاعانات فى سنة
مضاهها هناك بعد الصلح الا نصف ما كان يصرف فى شهر واحد قبل
الصلح .

وازدادت أمان الطليان فى قرب فشله لقلة ماله فازدادت همهم فى

صرف الأموال وإطلاق الجواسيس وانتهى الأمر بأن فقد عزيز تعضيد السنوسى رئيس المجاهدين لأسباب طويلة .

وفى نظرى أن أهم أسباب الخلاف بين عزيز والسيد السنوسى ، ترجع الى أن السيد أعطى عزيزا بخطاب منه اظهار الثقة به ورضائه عنه حقا فى فصل وتعيين مشايخ الزوايا واستعمل عزيز هذا الحق فى فصل شيخ زاوية دفنة وشيخ زاوية الطلميته لأسباب خطيرة. وجدها مزرية بمركزهما ، فاستاء هذان الشيخان أشد الاستياء وأخذا يدبران الحركات ضده ، واستاء معهما بعض مشايخ الزوايا الذين كانت لهم سلطة غير محدودة مع أنور .

استاء مشايخ من هذه السلطة الكبيرة التى منحها السيد السنوسى لعزيز الذى أصبح فى امكانه أن يعزلهم ويولى بدلهم بعد ان كانوا هم أصحاب الكلمة والنفوذ على جميع الضباط وخشوا عاقبة هذه السلطة فأخذ بعضهم يعمل سرا وجهرا فى دس الدسائس لعزيز وأخذوا يتدخلون فى أعماله الحربية كان يمنع أحدهم وهو شيخ الزاوية البيضاء عزيزا من ان يرسل مدفعا من مدافع درنة الى طبروق كل هذا أحداثا للمشاكل مع عزيز .

وأخيرا نجحوا فى ايقاع النفور بين السيد وعزيز مما كان سببا فى اعتقاد عزيز ان استمراره فى العمل غير ممكن فعاد الى مصر ومنها الى الآستانة حاملا رايات الفخر وشارات الانتصارات .

كيف لا . . وهو الذى حمل الطليان تلك الحسائر الفادحة فى واقعتى ١٢ مارس ١٩١٢ فى بنى غازى و ١٧ مايو ١٩١٣ فى درنة تلك الوقائع التى قامت لها قيامة الطليان فى مجلس نوابهم .

عاد عزيز بك الى مصر بعد سياحة شهر على ظهور الجمال فسبقت الى جرائد مصر وشايات بعض الضباط الذين كانوا تحت قيادته ولم يقبل ارضاء أطماعهم ودسائس بعض أهالى مدينة بنى غازى الذين سلموا مدينتهم للطليان بلا حرب ولا قتال وصاروا بعد تسليمها أكثر من الطليان سعيا فى نهاية الحرب فى مصلحة ايطاليا سبقت عزيز الى مصر دسائس هؤلاء وأكاذيب أولئك وقام بعض مشايخ الزوايا الذين عزلهم عزيز يكتبون هم وأنصارهم أيضا الى بعض الجرائد فى مصر كتابات كلها كذب وبهتان ووشوا فى حقه للسيد السنوسى الجليل ونقلوا اليه أنباء كاذبة عليه .

ولقد رأيت مرة خطابا الى أحد أعيان مصر بامضاء السيد هلال أصغر
أشقاء السيد السنوسي يشكو هو أيضا من عزيز فوجدت الجواب مكتوبا
بلغة وبخط أقرب الى التركية منه الى العربية ففيها (فضليت) و (حضرت)
و (بلدت) و (شجاعت) و (شكايت) ٠٠ الخ فقلت بعد ذلك انه كتب
بقلم ضابط يدعى حسين الكردي من أهالي مدينة بنى غازى الذين تربوا
فى مدرسة العشائر بالآستانة وقد كان ثبت على هذا الضابط أنه بينه
وبين الطليان مخابرة لوجود عائلته وأقاربه فى مدينة بنى غازى فبسجنه
عزيز ولم يخرج من السجن الا بعد رجوعه ٠

هذا هو الكاتب لأغلب هذه الخطابات التى نشرتها الجرائد المصرية ٠

لم ير عزيز فائدة من تكذيب كل ما قيل عنه واختلق عليه من
الأكاذيب لأنه ضابط السيف له اقناعه ، وحسنا فعل الا أنه استحسن أن
يسأل حكومة الآستانة بواسطة القومسيرية اذ كانت ترغب فى اعادته الى
خدمته فى الجيش فورد اليه الرد بنفس الوسطة بأن الحكومة العثمانية
تقبله بكل ارتياح لأن جيشها فى احتياج الى أمثاله من الضباط الأكفاء ٠

وهكذا ذهب عزيز والتحق بجيشه فقابلته عزت باشا ناظر الحربية
السابق معانقا وشاكرا له خدماته الجليلة فى بنى غازى بعد ان أرسل
وفدا له من أكابر الضباط لمقابلته وتحيته عند نزوله من المركب وطلب له
النيشان المجيدى الثانى ورتبة القائم مقام ٠

ثم استقال عزت باشا وتولى نظارة الحربية بعده أنور باشا صديق
عزيز فقام بعمل تنسيقات أهمها الاستغناء لعنصر الشباب عن العنصر
الشيخ وعين عزيز قومنداناً لفرقة فى ولاية قونية فوجد عزيز ان هذه
الوظيفة لا تناسب فى نظره الخدمات التى أداها فاستقال واراد ان ينحتم
بذلك حياته فى الجيش العثمانى العامل مع تعهده بالرجوع الى هذه الخدمة
الخدمة اذا اشتبكت الدولة فى أية حرب ٠

الدكتور/ حافظ عفيفى

ويمضى د ٠ حافظ عفيفى فى الكتابة عن عزيز على المصرى - فى
الشعب ١٤ مارس ١٩١٤ ويتساءل د ٠ حافظ عفيفى فى بداية مقاله :
بماذا تسمون عزيزا ؟ ثم يتولى الاجابة على تساؤله بقوله : مضى على عزيز
نحو الأربعين يوما وهو مسجون أو (موقوف) كما يقولون وليس فى
استطاعة أحد ان يعرف حقيقة التهم الموجهة اليه ٠

فلم تنشر الحكومة كلمة واحدة عن حقيقة هذه التهم وكل ما يروى أخبار يقولون أنها غير رسمية . أما التهم (غير الرسمية) التي يروجونها اليه فهي كثيرة ، بعضها خاص بطرابلس ، وبعضها خاص على ما يظهر بعلاقته مع أنور باشا والاتحاديين ، أما عن طرابلس فيقولون :

١ - أنه أتى منها بغير ترخيص .

٢ - وأنه استعمل القسوة مع العرب .

٣ - وأنه أساء التصرف في استعمال النقود المرسلة اليه .

فأما عن رجوعه بدون ترخيص . . . فلأنه بقي في طرابلس بعد الصلح بدون ترخيص أيضا أى بمجرد رغبته ولأنه طلب اليه المرحوم شوكت باشا الصدر الأعظم السابق بتلغراف رسمي العودة بأسرع ما يمكن لأن الأحوال السياسية تستدعى ذلك . فرد عليه عزيز بأنه مستقيل من الجيش العثماني .

وأما عن استعماله القسوة عند رجوعه . . . لأن بعض العرب هجمت عليه وعلى جنوده وهو راجع وبدأوا بإطلاق الرصاص عليه وعلى جماعته ولم يأمر جنوده بإطلاق النار عليهم الا بعد أن قتلوا ضابطا وأبوا السكوت بعد ان أرسل اليهم مندوبا من قبله لاقناعهم بوجوب ألا يطلقوا رصاصا وقد جرح من جنوده ٦ جنود عولجوا في مستشفى الاسكندرية وسيثبت التحقيق صحة ذلك .

وأما عن سوء استعمال النقود . . . فاني أعرف أن المبالغ التي وصلت اليه من لجنة الاعانة بمصر هي ثمانية عشر ألف جنيه ويمكنه ان يؤدي عنها حسابا للجنة الاعانة المصرية وقد صرف هذا المبلغ من سنة تقريبا وكان ينقده كل جندي راجل من العرب جنيها ، وكل فارس ثلاثة جنيهات شهريا ، وكان يعطى من هذا المبلغ مرتبات الضباط والجنود النظاميين وغداثهم ومصاريف الموظفين الملكيين أيضا ، وسيثبت ذلك التحقيق مع العلم بأنه كان يصرف شهريا قبل الصلح على هذه المنطقة ٢٥ ألف جنيه .

ان عزيزا عاد من بنى غازى فى نهاية شهر يوليو ١٩١٣ فمضى على ذلك الآن ثمانية شهور ولست أفهم لماذا ترك الآن . بل لماذا عين أخيرا قومنداناً لفرقة . ثم لماذا اتهم بهذه التهم عندما استقال من الجيش وصار حرا .

هكذا ما يصعب على وعلى الكثيرين فهمه . أما تهمة عداوته لأنور باشا وللاتحاديين فهي أوهى من التهم الأولى . فعزيز لم يكن فى وقت من الأوقات عدوا لأنور باشا وهو يعتقد أنه صديقه وكثيرا ما أطرى أمامى صفاته النادرة وكفاءته الكبيرة . وكذلك أنور باشا يعتقد أن عزيزا على جانب عظيم من الكفاءة والشجاعة وكثيرا ما تكاتبا فى بنى غازى بخطابات اطلعت عليها وكلها تشف عن صداقة طيبة وإخلاص متبادل . وكل ما أشيع وشاع عن علاقتهما التى توترت لدرجة أن عزيزا قرر الزحف على أنور باشا الذى طلب إليه أن يزحف بجنوده على الطليان لا عليه ، فهى ترهات وأباطيل وسخافات لا يصدقها الا عقل قائلها وناشريها .

حقيقة حصل خلاف بل حصلت خلافات ولكنها لم تكن لتتعدى مناقشة تليفونية حادة أو تلغرافا خلوا من المجاملة أو خطاب عتاب ، وكان دائما بفضل حكمة أنور وإخلاص عزيز ينتهى كل خلاف ، ولقد سعى الكثير من المفسدين فى بذر بذور الشقاق بينهما فلم يفلحوا وعناد أنور باشا وهو أتم صفاء مع عزيز .

ومن يقرأ تاريخ عزيز فى المركب الدستورية لا يشك لحظة فى أنه اتحادى صميم فان عاب عليهم أمرا أو عاتبهم فى شىء فليس معنى ذلك خروجا عنهم أو عداوة لهم . وإن تاريخه وأعماله وتصريحاته تدل على أنه صديقهم وأنه منهم وأنه يعمل معهم ولمصلحتهم ولمصلحة الدولة والإسلام .

أنا لست عدوا للاتحاديين بل اعتبر نفسى من أصدق أصدقائهم ، وأعرف جيدا الصفات الممتازة والكفاءات النادرة التى يتحل بها أنور ، وأقدر أكثر من أى إنسان الخدم الجليلة والأعمال العظيمة التى أداها ولاسيما فى برقة .

أعرف فيه أنه رزين حكيم ، لذلك أعتقد اعتقادا راسخا أنهم لو تركوا مسألة عزيز لأنور باشا بدون أى تأثير خارجى ظلت المسألة على أحسن شكل وخرج عزيز على الرأس .

أعتقد أن أنور باشا لا يشك فى شرف عزيز وإخلاصه للدولة وحبها لها ، أعقد أنه يعرف جيدا أننا نطالب بالعدل لعزيز لاعتقادنا أن ذلك

فى مصلحة الدولة أولا ولشقتنا ببراءة عزيز ثانيا . نحن لا نطلب لعزیزا أن يطلق سراحه الآن بدون محاكمة بعد أن الصقت به (بطريقة غير رسمية) تلك التهم المزرية بشرفه بل نحن نطلب محاكمته وهذا ما يطلب هو أيضا لتبيين براءته أمام الملأ ويظهر كذب التهم الموجهة اليه و يقيننا أن هذه المحاكمة تسير سيرها الطبيعي فيجرى العدل فيها مجراه .

انهم يخشون أن يخرج عزيز بعد هذه الحادثة عدوا للحكومة الحالية أو للدولة ويصرحون بأنه ربما صار ادريسيا آخر .

خطأ يتوهمون فان من يعرف عزيزا لا يمكنه أن يصدق عنه خروجا على بلاده أو أى موقف فيه شبهة أو شبه ضرر على الدولة من الخارج أو من الداخل . من يعرف كم بكى وكنت معه بالسلوم يوم جاءنا تلغراف مشئوم من مصر يخبرنا بسقوط أدرة ، وكم كان يتألم عندما علم ان الحكومة الكاملية منعت المرحوم شوكت باشا من تولى قيادة أى جيش فى حرب البلقان يعتقد أنه من أشد المخلصين لدولته . ان عزيزا سليم النية طاهر القلب لا يحمل حقدا أو ضغينة لأحد . وأنا أختم كلامى بتكرار طلب العدل فى هذا القول مصلحة الدولة ومصلحة الحكومة الحالية ومصلحة المسلمين ومصلحة العثمانيين ومصلحة المصريين .

الدكتور/ حافظ عفيفى

وفى عدد - ٢٤ مارس ١٩١٤ - الذى كان يحمل المقال الثانى عن عزيز على المصرى بقلم صديقه د . حافظ عفيفى . ينشر الشعب كلمة بعنوان « نحن ومسألة عزيز » جاء فيها :

« يرى القراء فى غير هذا المكان خلاصة ما دار فى الاجتماع الذى أقيم لأجل عزيز بك المصرى وهم يعلمون خطتنا فى هذه المسألة من يوم أن ظهرت فى عالم الوجود الى الآن اذ أننا نادينا ولا نزال ننادى بالدفاع عن عزيز وبضرورة انصافه ولكن هذا النداء كما قلنا مرارا يجب أن يكون فى دائرته المعقولة التى تقتضيها علاقتنا مع الدولة العلية ورابطتنا مع الخلافة الاسلامية ، ولقد دفعتنا هذه الخطة الى انتقاد الكتاب الذين اتخذوا هذه المسألة وسيلة لترويج أغراضهم السياسية .

على أننا لم نراع فى اتباع هذه الخطة علاقتنا مع الدولة وحدها وانما راعينا أيضا مصلحة عزيز اذ أن مسأله لا تحل بالطعن فى الدولة

والتشهير برجالها والتفريق بين شقيقتين عاشتا وستعيشان ان شاء الله
فى وثام ووافق .

نقول هذه الكلمة الآن بمناسبة ما اقترح فى اجتماع أمس من تأليف
لجنة وجدنا اسمنا بين أعضائها وتكون مهمة هذه اللجنة طلب وساطة
الجناب العالى والقوميسيرية العثمانية وقناصل الدول المتحابة مع الدولة
العلية . ولو كنا فى هذا الاجتماع لرددنا على الجزء الأخير من الاقتراح اذ
لا نفهم مطلقا ان مسألة داخلية أو بالحرى عائلية بيننا وبين دولتنا العلية
نوسط فيها الدول المتحابة أو قناصل هذه الدول . . . !!

نحن نشكو كل يوم من تداخل الدول الأوروبية فى شئون دولتنا لما
جره هذا التداخل من المصائب والارزاء التى لا تخفى على أحد منا فهل يجوز
مع هذه الشكوى أن نسعى بأنفسنا فى إيجاد مجال لهذا التداخل ؟ هل
من المعقول أننا نفتح الباب لذلك التداخل ؟

أرونى أيها المقترحون لذلك الاقتراح أمة التجأت الى حكومة أجنبية
توسطها لدى حكومتها للحصول على رغبة من الرغبات ؟

ان كاهل الدولة ينوء تحت أثقال التداخل الأجنبى فهذه تطلب أن
يكون لها شأن فى أرمينيا والأخرى تريد أن يكون لها رأى فى العراق فعلام
تتسابق فى حمل الدول على الاستمرار فى هذه السياسة الظالمة ؟

ماذا يرجو المقترحون من وساطة القناصل ؟ أيريدون أن تحرك الدول
جيوشها لمحاربة دولتنا أم يرغبون منها القيام بمظاهرة عدائية ضدها ؟

ان لدى الدول كثيرا من الوسائل التى تخلقها للتدخل فى شئون
دولتنا فلا تساعدها على ما تكيد به للخلافة ودافعوا عن عزيز بالطرق
المعقولة التى تفيده ولا تضره .

ان فى وساطة الجناب العالى والقوميسيرية خير مؤد للغرض المطلوب
فقفوا عند هذا الحد تجدوا رأى العام بجانبكم أما اذا أردتم أن تجعلوا
للدول الأجنبية يدا فى المسألة أسخطتم عليكم كل العالم الاسلامي والأمة
المصرية .

هذه نصيحتنا الى أصحاب الاقتراح فعسى أن يعيروها أذنا صاغية اذا أرادوا مصلحة عزيز الذى ندافع عنه وننشر كل يوم مقالات الانتصار له ولكن لا بتلك الطرق العقيمة التى تظهرنا بمظهر لا نرضاه لأنفسنا وتؤدى الى نتائج سياسية غير محمودة .

وعن الاجتماع الذى تم فى دار اللواء القديمة فى مساء ٢٣ مارس ١٩١٤ والذى دعا اليه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر . . نقول : ان الذى افتتح هذا الاجتماع كان الشيخ سليمان العبد ، نيابة عن الشيخ البشرى . وننشر هنا ما نشره الشعب فى ٢٤ مارس عند ذلك الاجتماع ثم ما نشره المؤيد فى نفس اليوم عن ذلك الاجتماع حتى تكون الصورة مكتملة . جاء فى الشعب :

« اجتمع عدد كبير من أفاضل المصريين أمس فى دار اللواء القديمة تلبية لدعوة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر وقد افتتح الاجتماع فضيلة الأستاذ الشيخ سليمان العبد نيابة عن فضيلة صاحب الدعوة وأعرب عن أمله فى فائدة الاجتماع وتفريج الكرب عن عزيز بك ثم وقف حدة رفيق بك العظيم وأفاض فى الكلام عن تاريخ عزيز بك وأظهر أمله فى أن يخرج عزيز بريئا من المحاكمة وقال اننا نلجأ الى مراحم أمير المؤمنين ونطلب منه العفو عن رجل خدم الدولة خدمات جليلة . وقام بعده الشيخ محمد رشيد رضا وقال ان عزيز بك وشى به وعظماء الرجال تغتفر لهم هفواتهم ان صح انه ارتكب غلطة ما . وقام بعده حضرة محمد أفندى لطفى جمعة ودافع عن عزيز بك ونصح بعدم اتخاذ مسألة عزيز بك وسيلة للحط من كرامة الدولة ثم وقف أبى شادى بك وقال : ان عزيز بك اتهم بتهمة لا تزال مجهولة ، وقد بحثنا طويلا عن هذه التهمة فلم نعرفها وهو بصفته من رجال جمعية الهلال الأحمر الطرابلسية يقول أنه يعرف عن عزيز أكثر مما يعرفه سواه ثم أخذ يفيض فى الكلام على أعمال عزيز بك فى طرابلس « انه ترك للسنوسيين ألف صندوق مشحونة بالجبنخة عند خروجه من برقة الى أن وصل الى أن الذى جنى على عزيز بك انما هو التحاسد الذى بينه وبين أنور باشا يوم كانا فى حرب طرابلس » .

وهنا قاطعه حضرة محرم بك رستم قائلا : ان أمثال هذه الأقوال لا تنفع عزيزا ونحن انما جئنا لمنفعته لا لضرره . فارتفعت أصوات المعارضين على أبى شادى بك من عدة جهات من الحاضرين واضطرب نظام الاحتفال وكثر المتكلمون وسكت الخطيب . فوقف محمود أفندى محمد

وقال : أنا وكيل الضبط أقول أنه يجب أن لا يتكلم أحد ولا يقاطع الخطيب
ومن كان عنده اعتراض فليصعد على منبر الخطابة ويبدى رأيه . ورغمما عن
ذلك القول استمر الهرج والمرج حتى وقف سعادة حسن باشا رضوان وكيل
الاحتفال وقال : ان الخطيب سحب جميع الكلام الذى لم يرضكم . فهل
قبلتم ذلك ؟ فقالوا : نعم . وبعد ذلك عاد السكون ثم قال . . . أبو شادى
بك : أنه من المعجبين بأنور باشا وأنه لم يتهمه بخصومة عزيز ويجوز أن
يكون هناك قواد عند أنور باشا يحسدون عزيزا وقال : أننا اجتمعنا لنكون
رأيا عاما ينادى (لتحيى الدولة ويفرج عن عزيز المصرى) .

ثم وقف حضرة ابراهيم بك الهلباوى المحامى فأعرب عن أسفه لما تبادر
الى أذهان بغض السامعين مما دعا الى مقاطعة الخطيب السابق ثم أفاض فى
شرح الضمانات التى تكفل عدم حدوث شىء فى هذا الاحتفال يمس كرامة
الدولة التى نقدها سرا وعلانية ومن الضمانات الكبرى أن يرأسها أكبر
إمام للمسلمين فى هذا البلد وينضم اليه سعادة الوطنى الكبير حسن باشا
رضوان . ثم قال : اننا ما جئنا الى هنا الا لظهار عطفنا على عزيز المصرى .
اننا حضرنا الى هنا لظهار عاطفة الأسى كما يظهر الوالد عطفه على ولده
وتلك العاطفة مقرونة بالضراعة الى صاحب الشوكة والدولة وأمير المؤمنين .

اجتمعنا لأننا رأينا قائدا عظيما كان من أكبر مؤسسى الحرية فى
الحكومة العثمانية الجديدة ، سلبت حريته وهو عزيز المصرى فاذا كان
ركن من أركان الحرية قد هبط جانبه فلنا كل الحق وكل القدر أن نجتمع
متسائلين عن السبب الذى حدا به الى السجن . . الى أن قال : ان من أكبر
المسائل التى استفزتنى الى الآن أنى لم أعرف التهمة ولا لآى سبب ، وعلى
أى غرض من الأغراض ، ألقى الرجل فى السجن ، وهذا وحده يبرر أسفى
ثم تكلم عن القوانين العسكرية وأحكامها وقارن بين حالة عزيز والضباط
البلغاريين الذين يحاكمون فى صوفيا عن تهمة معروفة منشورة ، متدرجا
الى الكلام عن عزيز عن أعماله فى الحربية وفى طرابلس الى أن ألقى فى
سجنه .

وبعد ذلك ورد ما أشيع من أن الحكم صدر عليه من المجلس العسكرى
وأنه بقى سرا مكتوما ، واستبعد صحة هذا الخبر ، وأشار الى ما قيل عن
دولة البرنس عزيز من هذا القبيل ثم ظهور كذب هذه الأخبار ، ثم آمل

ان دعوة المجتمعين تنال الحظوة لدى مولانا الخليفة الأعظم . ثم ختم عبارته بأنه ينضم الى آراء من حضروا ويطلب الحرية لمن دافع عن الحرية ، ويطلب العدل لمن دافع عن العدل ، ثم اقترح ارسال تلغراف للصدارة العظمى وتأليف لجنة مكونة من فضيلة شيخ الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ حسونة النواوى ، وصاحب السعادة حسن رضوان باشا وحسن مذكور باشا وحضرات محمد بك أبى شادى والدكتور فارس أفندى نمر ، وأمين أفندى الرافعى لتطلب وساطة الجناب العالى والقوميسيرية العثمانية وقناصل الدول المتحابة مع الدولة العلية . وهذا نص التليغراف الذى وافق الحاضرون على ارساله :

» صاحب الدولة الصدر الأعظم بالآستانة

فى يوم ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٣٢ قبيل العصر عقد بالقاهرة اجتماع برياستنا حضره جمهور كبير فوق العشرة آلاف نفس من جميع الطبقات من الأمة المصرية ، وبعد المشاورة ورأيهم على أن يرفعوا الى الصدارة العظمى لرفعها الى الاعتبار الشاهانية بأن تأمر بالافراج عن أخيهم عبد العزيز بك المصرى آملين تحقيق رجاء الأمة المصرية الصادقة الولاء للدولة العلية .

شيخ الجامع الأزهر
سليم البشرى

وعن نفس الاجتماع . . كتب المؤيد يقول :

» كان الاجتماع الذى عقد بعد ظهر أمس فى دار اللواء (سابقا) للنظر فى مسألة عزيز المصرى غاية فى الأبهة والجلال ، وما انتصفت الساعة الرابعة حتى كان السرادق الفخم الذى أقيم فى فناء تلك الدار الواسعة غاصا بنحو ستة آلاف من علية القوم وأهل الفضل والوجاهة فى مصر وكان على السدة المرتفعة من صدر السرادق حضرات أعضاء لجنة الاجتماع وخطباء الحفلة يتقدمهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وعلى يمينه فضيلة الأستاذ الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر السابق وصاحب السعادة حسن مذكور باشا وحسين باشا واصف وعن يساره فضيلة شيخ السادة الشافعية سليمان العبد وفضيلة الشيخ الأصبعى وحضرة الأستاذ السيد رشيد رضا ، وسعادة الفريق حسن رضوان باشا ، وسعادة رفيق بك العظم والأستاذ ابراهيم بك البهلباوى .

ولما أخذ القوم مجالسهم ، وكانوا جميعا كأن على رؤوسهم الطير قام فضيلة شيخ السادة الشافعية الشيخ سليمان العبد نائباً عن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشري فافتتح الجلسة بكلام جميل قوبل بالتصفيق .
ثم تلا حضرة القارئ المجيد الشيخ منصور بعض آيات من كتاب الله الحكيم ، وقام بعده سعادة الفريق حسن رضوان باشا فقدم للجمهور سعادة رفيق بك العظم ، فتكلم رفيق بك عما للرأى العام الراقى من الأثر الصالح فى احقاق الحق والانتصار للحرية والعدل ومثل قضية (عزيز) بقضية (دريفوس) وأنه اذا كان الفضل فى انقاذ (دريفوس) البرىء من العقاب - حتى بعد الحكم عليه - عائدا لغضب الرأى العام الفرنسوى للحق والعدل ، فان الرأى العام المصرى والعثمانى ليس أقل غيرة على الحرية والحق والعدل وأبطال الوطن من غيره .

ثم أخذ يعرض على السامعين صفحات من تاريخ عزيز واحدة واحدة الى أن وقف تجاه صدر السراشق حيث توجد صورة (عزيز القبائلى) و (عزيز السجين) فقال : وان البطل الشهم الذى عرفتم طهارته فى ماضيه وبرائه فى حاضره هو هذا الأسد الهصور الذى يتدفق وجهه حمية وشهامة . يوم كان يملك حرية نفسه وهو هذا الضعيف الهزيل الذى ترونه فى زاوية السجن لا يعرف هو ولا يعرف غيره أى تهمة موجهة اليه بعد حبس شهر ونصف .

ثم قال : نحن لا نشك بعدل أى محكمة تحاكمه وانما نخاف عليه من الوشائيات والسعائيات لذلك نلجأ الى مراحم أمير المؤمنين أن يأخذ بيد أحد رجال سيفه والرجال عندنا قليل ، وما أجمل ما قاله شاعر مليك مصر مخاطباً أمير المؤمنين بعواطف الرأى العام المصرى وبعد أن جلس بين انتصفيق الطويل ، قام حضرة الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا فقال : ان رفيق بك وشاعر الأمير قد أعربا عن اقتناعنا جميعاً بأن صناديد برقة السجين برىء ولكن هيبة ذا زلة فمن منا المعصوم ومن من الناس يقدر أن يقول أنه أكثر منه براءة . ثم على فرض أنه هنا فان كبار رجال الجيش الاسلامى من الصحابة بل أعظم أمراء المؤمنين فى الاسلام بل نبينا صلى الله عليه وسلم كانوا لعلمهم بأن العصمة للأنبياء ولله فقط يغتفرون الهفوة والزلة لعظماء الرجال . وهذا سعد قائد جيش القادسية قد أسقط حداً عن ابن محجن لأنه أنقذ جيشه من بلاء وقع فيه . وهذا عمر بن الخطاب

قد اغتفر لزهرة بن حوية هفوة وقعت منه لأنه انتصر على قائد الفرس .
بل ان النبي صلى الله عليه وسلم غفر لابن أبي بائعة هفوة كبرى لسابق
تعزيره الاسلام يوم بدر .

وفى رأى أن يكتب مولانا شيخ الأزهر تلغرافا لمولانا أمير المؤمنين
يقول له فيه : ان الناس يعتقدون البراءة فى عزيز وعلى فرض أنه هفوا فان
سابقة خدمته لدولة جلالكم تجعل لكم أسوة فى الصحابى الجليل سيد
ابن أبى وقاص وفى أمير المؤمنين العظيم عمر بن الخطاب وفى نبي هذه
الامة محمد صلى الله عليه وسلم لذلك نرجو من أمير المؤمنين أن يعيد لبطله
الشهم المخلص عزيز على المصرى حريته والسلام .

وجلس بين التصفيق الحاد ، فتلاه حضرة لطفى أفندى جمعة فالقى
بحثا فى الديول هو نتيجة درس حضرة الخطيب للدقاتر المالية والأوراق
الحربية والسياسية خاصة بعزير والحرب الطرابلسية ففصل فى بيان
الأرقام عن الأموال التى وصلت الى برقة وكيفية توزيعها والأشخاص
والجهات التى وزعت عليها وعليهم ونفى كل ما يمكن أن يزعمه الزاعمون
عن التهم المتعلقة بعزير من هذه الجهة بما لا يدع مقالا لقائل ثم عطف على
ما يقال من خدمة عزير للفكرة العربية فذكر مركز العرب فى المملكة
العثمانية والنهضة الاسلامية والمدنية البشرية وقال : ان شعبا هذا شأنه
وتلك مزاياه جدير بأن يساعده عزير ونساعده نحن ويساعده جلاله مولانا
السلطان وحكومته حتى تظهر مواهب العرب وتنجلي مزاياهم ويتبوأوا
مكانتهم من الحضارة وهذا لا يكون الا باعطائهم حقوقهم من التعليم والتشوير
والارتقاء والعمران . أما ترقية شعب دون شعب فى السلطنة العثمانية فهو
ضار بالسلطنة نفسها لذلك كان ما يسمونه تهمة لعزير من هذه الجهة
مما يحمد عليه اذا صح صدوره منه . ثم قال : على أن الصدر الأعظم وناظر
الحربية العثمانية وغيرهما من رجال الدولة صرحوا ببراءة عزير ونحن
أيضا نعتقد ببراءته والمسألة ليست الا سوء تفاهم ، ثم تذكر المرحوم
مصطفى باشا كامل بالرحمة فصفق الحاضرون .

وتلاه حضرة الأستاذ محمد بك أبو شادى فقال : اننا لا نقصد من
هذا الاجتماع احتجاجا ولا ابداء انتقاد أو عداء ولكننا جئنا متألين لآل
شريان من شراييننا وهو عبد العزيز على المصرى الذى نعتقد جميعا كما يعتقد
رجال الدولة أنه برىء . لذلك نعجب كيف يبقى هذه المدة فى غياهب
السجن بدون محاكمة لا سؤال ولا جواب مع ان الواحد منا اذا أخذه بوليس

الى القسم وأوقفه خمس دقائق بدون أن يعلم السبب يقيم الدنيا ويقعدها ويرفع القضايا على المتسبب فما بالناس برجل له تلك الخدم العظمى وقد حبس خمسين يوما لا خمس دقائق ، ولقد حار الخطباء كما حار الناس فى معرفة سبب حبسه لا سيما بعد تصريح رجال الدولة باعتقاد براءته فلم يبق من سبب فيما نظن غير ما يقع عادة بين الزملاء والمعاصرين من التنافس على قاعدة (المعاصرة حجاب) وهنا قال أحدهم ان الخطيب يضر عزيز بك بهذا فقال أبو شادى بك انى لم أعن أنور باشا وقد نبهت على ذلك فى أول خطابى وليس أنور باشا كل قواد السلطة ، وقطع الكلام فى وسطه ليس من آداب الاجتماع وهو أشبه بمن يؤخذ قارئ آية ..

(ولا تقربوا الصلاة) قبل أن يقرأ (وأنتم سكارى) ..

ولما انتهى من خطبته قام الأستاذ هلباوى بك فأفاض فى الموضوع بفصاحة وذلاقة لسان ثم ختم خطبته بقراءة التلغراف الذى تقرر إصداره الى الصدارة العظمى فى الآستانة . وتألفت لجنة من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ حسونة النواوى وصاحبى السعادة الفريق حسن وضوان باشا وحسن مذكور باشا وحضرات محمد بك أبو شادى وفارس أفندى نمر وأمين أفندى الرافعى للذهاب الى قصر مولانا الجناح العالى الخديوى والقوميسيرية العثمانية ووكالات الدول المتحابة مع الدولة العلية وطلب وساطة هذه المقامات لدى الدولة العلية فى ابلاغ آمانى حاضرى هذا الاجتماع الذين مثلوا رأى العام المصرى نحو قضية البطل عزيز بك على ، وبعد أن وقع بعض الحاضرين على دفتر خاص انفض الجميع فى الساعة السابعة راجين أن تتحقق آمال مصر فى الآستانة .

ونختار بعض ما نشر عن محاكمة عزيز على المصرى أمام المجلس العسكرى : الأهرام (٢٧ مارس ١٩١٤) قال : « بدأت محاكمة البكباشى عزيز على بك أمام المجلس العسكرى فى الآستانة ، فأعلنت - اذن - التهمة أو التهمة الموجهة اليه بعد أن خفى أمرها عنه وجهلها العالم كله ٥٠ يوما كاملا فكان إخفاؤها سببا للقليل والقال وهياج رأى العام فى مصر وغير مصر . فاليوم يحاكم عزيز على واليوم تعرف التهم الموجهة اليه وغدا تعرف حكم المجلس العرفى الذى لا نريد أن نشك ولا أن نرتاب بعدله وانصافه ونزاهته لان ضباطنا الكرام الذين يؤلف منهم المجلس قد برهنوا

في اواقف كثيرة عديدة على استقلالهم وحريتهم وكفاءتهم فلم يحكموا على كل متهم تقدمه الحكومة للمحاكمة كما يظهر للأكثرين ولم يحكموا على متهم لأنه متهم أو لأن الحكومة تتهمه .

ولكن اتهام عزيز على ليس كاتهام سواء ، لا لأنه ضابط باسل لا يجوز اتهامه ، ولا لأنه مصرى الأصل لا يجوز لحكومته أن تحاكمه ، بل لأن تاريخه ناصع البياض فلأن بالأعمال المجيدة ، ولأنه جاهد في الحرب الطرابلسية بعد أن وهنت قوى جميع المجاهدين ولم يبق في ميدان القتال سواء من الضباط العظام ، ولأنه سجن ولم يقل له لماذا سجن ، ولأن الظنون والريب حامت حول اتهامه .

فالشيء الوحيد الذي كان يجب عمله هو اعلان تهمة قبل القبض عليه وسؤاله عن تلك التهمة حتى يبرئ نفسه بعد القبض عليه والسير بمحاكمته على الطرق المألوفة والأساليب المعروفة ، لا لأن يظل في سجنه معتقلا لا يعرف هو ولا يعرف أحد لماذا اعتقل ، ولا أن يرسل الرسل الى مصر لينشروا ضده الرسائل ويغيروا النفوس عليه ويذيعوا بين الأفراد ما يحول ميل الأمة عنه . فالمسألة مسألة ضابط اتهم بتهمة معينة تريد حكومته أن تحاكمه عليها فليس لأحد أن يحول دون ارادة حكومته وليس للحكومة الا أن تثبت هذه التهمة أمام قضاته وليس لأولئك القضاء الا أن يحكموا بما توحى اليهم ضمائرهم وأنفسهم . الأمة المصرية فخورة بعزيز على لأنه بطل وهي عطشى الى رؤية الأبطال من أبنائها وفخورة به لأنه خدم دولته خدمة صادقة وهي تود أن يقوم أبنائها بأجل الخدمات للدولة وللخليفة فلهذين السببين ولهذين فقط هالها أن يتهم هذا البطل المصرى الممتاز وهالها أن يحاكم هذا الفتى المصرى النابغ لأنها شعرت بأن فخرها بعمله وبسالته واقدامه وخدمته زائل بالمحاكمة ، ضائع بالتهمة ، ممحوخ بالحكم ، فهي اذن لا تلام على قلقها لأنها قلقت على ذهاب فخارها في خدمة الدولة بيد أحد فتيانها خدمة صادقة ومن كان هذا الشعور شعوره وهذا الميل ميله وجب على رجال الدولة أن يشكروه عليه وعلى العثمانيين المخلصين الصادقين أن يمتدحوه لأجله .

وقد سمعنا الخطباء الذين اجتمعوا منذ ثلاثة أيام برئاسة شيخ الاسلام يقولون هذا القول فهل يخبون عزيزا لأجل الدولة وهم يدافعون

عن عزيز لأنه خدم الدولة ، وهم يرومون اعلان التهمة تطهيرا لسمعة الدولة
وهم بعد ذلك كله يتوقون الى العفو عن عزيز بك لأنهم يقدرون خدمته
للدولة حق قدرها ويودون أن تقدر الدولة هذه الخدمات أيضا فهو امتلاك
لهم معاقل وحصونا ولم يسلم معقلا وحصنا ، وهو فتح لها في اليمن فتحا
سلميا عجزت عنه الجحافل مدة ٥٠ سنة ، وهو جاهد في طرابلس ومقدونيا
والآستانة ذاتها حق الجهاد ، فمهما كانت الهفوة التي نسبت اليه كبيرة
فإن الخدمة التي أداها كانت أكبر وأجل ، فبحق الخدمة تنفر الهفوة ،
هذه هي آراؤهم وهذه هي آراء الأمة كلها وهذه هي نظرنا السياسية
الحكيمة الواجب اتباعها .

والذين يقولون للدولة غير هذا القول لا يقولون لها الحق ولا يقولون
الحقيقة وإنما هم في قلوبهم مرض والغرض مرض ان الأشخاص تفنى في
المصلحة العامة والمصلحة العامة تتطلب مراعاة خاطر المصريين والعرب عامة
ومن ورائهم جميع العثمانيين والمسلمين كافة حقيقة نعلنها بكل صراحة حياء
في الدولة ، حياء مجردا عن كل قصد وغاية .

وإذا قال قوم بالقوة وبالقوة دائما في كل مسألة وفي كل قضية وفي
كل أمر فنحن نقول أن السير على هذا المذهب يقضي بنا الى الخراب لأن
القوة في الأمم وفي سياسة الشعوب تعد لصد الأعداء فقط لا لمقاومة ارادة
الشعب ولا لأكراه الشعب على ما لا يريد ولا لانفاذ السياسة بالعنف ،
وقد رأينا فعلها في سياسة حوران والكرك واليمن والآستانة ذاتها .

وانا نضرب الحكومة الفرنسية مثلا ، فانها قبضت على ضابط
مصرى في صف المغاربة وحكمت عليه فذهب وفد من بعض أدباء مصر
الى الوكالة الفرنسية في هذه العاصمة وطلبوا العفو عنه فأبلغت
أمنيتهم الحكومة الجمهورية ففعلت ما تمنوا وأطلقت سراح السجين ، فإذا
كانت حكومة جمهورية فرنسا راعت خاطر نفر من الأدباء فلا نظن الحكومة
العثمانية لا تراعى خاطر الأمة المصرية كلها وعلى رأسها فضيلة شيخ
الأزهر وطائفة الوجهاء والصحافيين والأدباء .

وبعد كتابة ما تقدم وقفنا على نص التلغراف الذي رد به ناظر الحرية
العثمانية على عريضة فضيلة شيخ الأزهر وهو ان ديوان الحرب في كل
الحكومات مستقل الفكر لا تأثير لأحد عليه ولا للرأى العام ، بل هو تحت

تأثير العدالة والقانون : فثقوا أنه لا يجرى غير العدالة ، أما من حيث
المودة الشخصية فانا نسأل الله تعالى براءته .

وينشر المقطم رسالة بتوقيع طارق بن زياد عن محاكمة عزيز المصري
كتبها في ٣١ مارس ١٩١٤ ونشرها المقطم في ١٧ أبريل ١٩١٤ وقد
جاء فيها :

« بدأ استنطاق عزيز بك يوم الأربعاء الماضي بحضور الشهود سليمان
الحربي العسكري ورمزي أفندي المهداوي والدكتور ضيا أفندي من درنة
والملازم نور الدين أفندي ورشيد بك ، فأمر الرئيس أولهم بالكلام فقال :
ان فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية فهو سعى وهو في طرابلس
الغرب في بث الفكرة العربية بين الأهلين وفي انشاء دولة عربية مستقلة
يتولى هو ادارة شئونها . قال : وكاد عزيز بك ينجح في سعيه لولا
معاكستي أنا وبعض الأتراك له :

وقال رمزي بك : اجتمع عزيز بك بالايطاليين في أثناء الحرب
اجتماعا سريا مهما ، فتبسم عزيز بك وقال : زدنا بيانا وايضا ، ولكن
الشاهد مع رغبته في تكييف شهادته بحيث يوقع ببطل برقة لم يستطع
اخفاء الحقيقة التي ظهرت للمجلس العسكري وتبين المنصفون منها أن بطل
برقة زاد عن حوض الدولة وشرف عسكريه ومستقبل السنوسي الذي ناصب
عزيزا العداوة ، وان هذا البطل كان مستتبسلا في قتاله مزيدا في تدريب
جنوده وحسن قيادته .

وقال الدكتور ضيا بك : ان عزيز بك هو عدو الأتراك عموما وعدو
أنور باشا خصوصا ، وهنا رجا عزيز بك منه أن لا يدخل الشخصيات
في المحاكمة . وقال : ان حياته العسكرية لاكبر حجة قاطعة على كذب
هذا الادعاء الباطل فانه خدم مصلحة الترك أكثر مما خدم مصلحة العرب
في قتله وحمالاته على الأعداء .

وقال نور الدين بك : ان عزيز بك اتفق مع الامام يحيى على اتباع
خطة الغاية منها ضم اليمن الى مصر وكان يسعى وهو في بني غازي الى
تطبيق هذه الفكرة وجعل بني غازي واليمن ومصر دولة عربية واحدة .
فكذب عزيز بك ذلك مقيما الأدلة على صدق قوله .

وقد أظهر مصطفى رمزي باشا رئيس الديوان الحربي في أثناء

المحاكمة انحيازا وتحزبا لا يخطر على بال فكان يوافق على أقوال الشهود
ويصحح لهم أقوالهم المتناقضة ويجيب عن عزيز بك أجوبة تلحق به الأذى
وعزيز بك يتعجب ويدهش من تشييعه هذا .

وقد احتج عزيز بك أكثر من مرة على أن المجلس العسكري لا يحق
له أن يستجوبه على أمور تتعلق ببني غازي بعدما سلمتها الدولة الى
إيطاليا ولكن احتجاجه لم يجد نفعا لأن المجلس أصر على استنطاقه ولم يعبه
بأقواله .

كانت جلسة يوم السبت غاية في الغرابة فقد سمع المجلس فيها
شهادة رشيد أفندي والعبد الماسي وآخر اسمه قاسم أفندي وهو موظف
صغير رافق عزيز بك من الاسكندرية الى الآستانة وقد جاءت أقوالهم
متباينة متناقضة . قالوا ان عزيز بك أظهر سروره وارتياحه الى ما أصاب
المسلمين في البلقان في أعز شيء عليهم وذكروا ان الجناب الخديوي المعظم
أرسل حسن بك حمادة لمفاوضة عزيز بك في تسليم البلاد الى الإيطاليين
واستشهدوا على صحة ادعائهم بمقابلة عزيز بك لسموه بعد عودته من
بني غازي . وهنا قال عزيز بك ان مقابلته للحضرة الخديوية لم تكن لغاية
سياسية بل كانت لتقديم فروض شكره الى سمو عزيز مصر المحبوب
الذي بذل قصارى جهده في سبيل مساعدته وجعل السلوم مرفأ حرا
ليسهل نقل المؤن والذخائر الى مجاهدي طرابلس الغرب .

وكذب ما قاله الشهود من ان الجناب الخديوي قال له بواسطة حسن
بك حمادة : « اذا كان عزيز يحبني فليترك بني غازي » . وأثبت تكذيبه لهم
بأنه بعد رجوع حسن بك حمادة الى مصر حدثت موقعة ١٦ حزيران
(يونيو) وقال العبد الماسي : ان عزيز بك عاد من معسكر الإيطاليين وفي
خرجه مبلغ لا يقل عن خمسة عشر ألف ليرة . وهنا دحض بطل برقة
هذا الافتراء وقال : لو كنت اتفقت مع الإيطاليين لأرسلت العساكر من
درنة الى الآستانة ووفرت على نفسي وعلى الضباط الذين تحت قيادتي
مشاق الطريق وكل أحد يعلم ما غائته من التعب في أثناء سفرى من حدود
بني غازي الى الاسكندرية .

وقد اتضح كذب العبد الماسي لبعض أعضاء المجلس العسكري ، ولكن

رئيس المجلس وأحد القائمين العسكريين برهنوا على انحياز لم يسمع بمثله فكانوا يظهرون استياءهم علنا لما يقوله عزيز بك ولا يبالون في طعنه في أقوال الشهود ولا يذكرون الأدلة التي يقيمها لتجريح شهاداتهم .

تلك هي التهم التي وجهت الى بطل برقة ، وأوجبته معاملته تلك المعاملة السيئة ، هذا وقبلما يصدر المجلس العسكري كلمة عليه ، ترك الحكم لأعدائه وخصومه وأشدهم كرها له ، ليس للرأى العام ولا لأصدقائه فهل يرى أعداؤه أن التهم التي اتهم بها وظهر فسادها وبطلانها تقتضى تلك المعاملة الجائرة .

ومما يقضى بالغرابة والعجب فى هذه المحاكمة أن الشهود كانوا يجتمعون بعضهم ببعض قبل أداء شهادتهم وفي أثناء أدائها فى قاعة خاصة مع ضباط آخرين ويلقنونهم ما سيقولونه ، وهؤلاء يعيدون ما يلقنون كالبيغاء بلا زيادة أو نقصان .

وأما بطل برقة فقد منع من الاختلاط بزمائريه ووضع تحت المراقبة الشديدة منذ بدأت المحاكمة الى اليوم .

وقد انتهت المحاكمة صباح الأحد ، فاتهم بالسعى فى رفع راية العصيان فى اليمن وسائر جزيرة العرب ولكن أعداءه لم يتمكنوا من اقامة دليل واحد يثبت ادعاءهم الكاذب .

وجملة القول أن المعاملة التي عومل بها بطل برقة فى أثناء المحاكمة كانت معاملة استثنائية لم تجر الى حق أحد من قبل ، وكان كلما أراد الطعن فى أقوال شاهد أو تجريح شهادته يسكته الرئيس بقوله : هذا مسلم ومن خيرة المسلمين فلا يقول الا الصدق ولا يفترى كذبا .

فعلى الرأى العام أن يتدبر ما دار فى هذه المحاكمة بالانعام والاهتمام وأن يحكم بما يرتاح اليه قبلما يصدر المجلس العسكري حكمه الذى نجهله الآن .

وقد سمع أحدهم عزيز بك وهو خارج من المحاكمة يسأل الضباط المكلفين بمرافقته ومراقبته ، هل المجلس العسكري خصم له أو هو حكم فى مسألة ؟

هذا وأنا نرى أن الوسيلة الوحيدة لتخليص هذا البطل من أيدي أعدائه هي أن تهتم الأمة العربية اهتماما فعليا وتسعى سعيا عظيما فى رفع هذا الظلم عن أعز أبنائها عليها يتطلب المحافظة على القانون ونشر بنود العدل والانصاف فى عهد الدستور .

وينشر الشعب في ٢٩ مارس ١٩١٤ مقالا لأمين الرافعي تحت عنوان : مصر وانجلترا ومسألة عزيز المصري وقد جاء فيه : « كتبنا طويلا في مسألة عزيز طالبين انصافه باعتباره رجلا خدم الدولة خدمات معروفة وأفسحنا أعمدة الشعب لمن يريد رفع صوته بالانتصار له والدفاع عنه مادام ذلك لا يتعدى الغرض الأساسي للموضوع »

فلما أقيم الاجتماع الأخير أنكرنا ما تقرر من توسيط قناصل الدول في المسألة لأن هذا التوسيط ليس له معنى الا حمل الدول على التداخل في شئون الدولة العلية ، ذلك التداخل الذي لا نظن أحدا من ذوي الغيرة الدينية والحمية العثمانية يقره بأى حال من الأحوال لأن المصائب التي حلت بالاسلام والمسلمين ونزلت بالبلاد العثمانية والعثمانيين ما جاءت الا من وراء تداخل أوروبا بتلك الحجج الواهية التي سطرها التاريخ في صفحاته .

أنكرنا هذا العمل لأسباب كثيرة أتينا على بعضها وتركنا البعض الآخر جانبا حتى لا نفتتح بابا يجب أن يبقى مغلقا .

ولكن جريدة التيمس أبت الا فتح ذلك الباب فقامت تقول : « ان بريطانيا العظمى مسئولة عن حفظ النظام في مصر وأنها لا تستطيع أن تبقى غير مكترثة حيال حادثة تقع في الخارج ويكون لها تأثير في إثارة عواطف المصريين » (انظر تلغرافاتنا الخصوصية) .

وان هذا بلا شك نتيجة طبيعية للقرار الذي صدر في الاجتماع الأخير . فهل يسر من قرروا توسيط قناصل الدول أن تصل المسألة الى هذه النتيجة ، هل يسرهم أن يكون من وراء عملهم قيام الصحف الانجليزية بحملة تثبت بها ان المصريين ما هم الا رعايا دولة بريطانيا !! .

لقد أرسل لنا حضرة السيد حسن موسى العقاد كتابا يقول فيه : « وبما أنى كنت من ضمن الجمعية التي قررت عرض قرارها على الاعتبار الخديوية وعلى القوميسارية العثمانية وعلى بعض معتمدى الدول فاعترض على اعتراضكم وأزيد بأنه يجب على المصريين ان لا يكتفوا بتظاهرتهم بالاستياء العام من تصميم الدولة على استمرار سجن عزيز بك المصرى بل يفكرون فيما هو أبعد من ذلك حفظا لكرامتهم أمام الأمم الراقية » .

فماذا يقصد بذلك حضرة السيد ؟ أيريد ان يحافظ على كرامتهم

بالالتجاء الى انجلترا لمطالبتها بارغام الدولة العلية على الافراج عن عزيز
باسم المصريين قائلا : اننا من رعاياها الانجليز فيجب أن لا تبقى بريطانيا
غير مكتوفة حيال حادثة يكون لها تأثير في عواطف المصريين وأنها
المسئولة عن حفظ النظام في مصر كما تردد ذلك جريدة التيمس ؟

ولا اذا كنا أخطأنا فهم غرضه فما الذي يريد به عبارة « أبعد
من ذلك ؟ » .

ان انجلترا تسر يا حضرة السيد من كل حركة تكون نتيجةها
اظهار المصريين مظهر الذين يرمون بأنفسهم في أحضانها وما أمثل تلك
الحركة الا ضربة قاضية على استقلالنا .

اننا نخشى أن تكون عبارة « بعد معتمدى الدول » لم يقصد منها
الا ذر الرماد وأن الغرض كان دولة واحدة هي دولة انجلترا فهل
يجدر بنا أن نرى ذلك ونسكت ؟ هل يجوز لنا أن نرى قوما يقدمون
للانجليز سلاحا ماضيا ضد استقلالنا ونلتزم الصمت ؟

كلا يا حضرة السيد فان واجبنا يقضى علينا بالاعتراض ألف مرة لا مرة
واحدة والا كنا مقصرين أشد التقصير فى المهمة التى نقوم بها ولا نظن
ان أحدا يجروا على تخطئتنا وهذه مقالة التيمس تكشف الغطاء عن مصير
تلك الحركات التى يندفع البعض فى تيارها بقصد أو بغير قصد .

نحن لسنا من رعايا انجلترا ولذلك لا نوسطها فى عمل بيننا وبين
دولتنا واذا أردنا أن نشكو الدولة فلتكن شكوانا اليها وخدوها
لا للانجليز الذين يهمهم ان يحصلوا على حجة يتذرعون بها للقول بأننا
نطلب حمايتهم من كل ما يصيبنا حتى ولو كان ذلك من الدولة صاحبة
السيادة على مصر .

ليفهم ذلك حضرة السيد وليعلم مغبة كل عمل يعطى الانجليز هذه
الحجة بغير أن يجنى مصرى فائدة ما لأننا لا نظن أن حضرة السيد يتصور
ان انجلترا تضحي بدم جندي واحد من الانجليز من أجل عزيز ولا أكبر
من عزيز ولا ألف عزيز ولا مليون عزيز .

ان الدم الانجليزى غال جدا لدى الأمة الانجليزية ، فهل يظن حضرة
السيد ان نقطة واحدة منه تراق لأجل المصريين ، فعلام اذن يدافع
حضرتة عن فكرة توسيط لدول ؟

هل يريد حضرة السيد ان الانجليز يعملون لانقاذ عزيز أكثر مما عملوه بالنسبة للمستتر بنشون الذى قتله ثوار المكسيك أخيرا ؟
اننا لم نر الدولة البريطانية تعبى الجيوش وتحرك الأسباطيل لذلك الشخص البريطاني فماذا الذى يتوهم انها تفعله لشخص مصرى ؟

ألا فليخفف حضرة السيد من حدته وليفكر فى المسألة طويلا وليعلم أننا دافعنا عن عزيز أكثر منه ولكن بغير تلك الطرق التى فضلا عن أنها لاتفيد عزيزا شيئا فانها تضرنا باعتبارنا أمة لانريد أن نكون من رعايا الانجليز ولا نرضى عن عمل يفيد أو يستفيد به الغير ضمنا للنداء باننا نقبل الرعوية الانجليزية .

هذا ما نعرض عليه بشدة وما يجب ان يعترض عليه حضرة السيد اذا كان يقول بأن مصر ليست للانجليز .

وكانت المعركة قد احتدمت بين المؤيد والشعب حول موضوع عزيز المصرى ، وقد سبق ان أشرنا الى ماكتبه الأستاذ أمين الرافعى عن هذه المعركة .

ونشير اليوم الى كلمة أخرى نشرها الرافعى فى الشعب (٢٩ مارس ١٩١٤) عن موقف المؤيد من الشعب وقد جاء فى تلك الكلمة :

د وقف المؤيد فى مسألة عزيز بك وقفة من شأنها أن تسخط الرأى العام فلم تستطع التزام السكوت حيالها لسببين وجيهين :

أولا : ان الحملة التى يحملها لا تعود على عزيز بك بفائدة ما بل تضره .

ثانيا : ان كتاباته لم تكن دائرة الا على نقطة واحدة هى الايقاع بين الدولة العلية ومصر والسعى بين شعبين تقضى جميع الظروف الدينية والسياسية بأن يعيشا أخوين متحابين .

ويكفى دليلا على اعترافه بأن الرأى العام ليس فى جانبه أنه بعد ان دعا جهارا وصراحة الى عدم الاحتفاء بالطيارين العثمانيين عناد الى الموافقة على تكريمهما .

ولقد كنا نريد الدخول معه فى مناقشة طويلة لولا أننا رأينا يتبع المغالطة فى كتاباته ولا يظهر بمظهر الذى يرغب الوصول الى الحقيقة .

وكيف نناقش جريدة لا تحجم عن تغيير الحقائق وقلبها رأسا على عقب دون ان تخشى فى هذا السبيل حكم رأى العام عليها .

يظن المؤيد انه يستطيع طمس معالم الحقيقة بكلمة يخطها كأنه يكتب لقوم لا يقرأون ولا يفهمون .

يقول المؤيد « هالنا الحادث فاحتججنا عليه فقلنا كلمتنا وقد كنا نرى (الشعب) خلال ذلك لا ينطق بكلمة ولا يفوه ببنت شفة وانما كان ذلك لأن كل شيء يصدر عن الاتحاد فى نظرة مقدس » .

يقول المؤيد ذلك دون أن يخشى تكذيبا كان الأقلام قد تحطمت فلا تستطيع ان تشير الى الواقع بكلمة واحدة .

يقول المؤيد ذلك وهو يعلم وكل الناس يعلمون اننا دافعنا عن عزيز بك قبل أن يكتب المؤيد حرفا واحدا فى هذه المسألة اللهم الا اذا كان يقصد بالدفاع التفريق بين المصريين وبين الخلافة والامتنان على الدولة ودعوة المصريين الى حبس المال عنها وتضحية عزيز بك على مذبح هذه الأغراض .

نعم اذا كان يقصد بالدفاع الكتابة فى تلك المواضيع فأننا نقر له ونعترف بأننا لم نفه ببنت شفة بل لانستطيع ذلك ونعجز عن القيام به تاركين للمؤيد القادر ان يضرب فى هذا المجال بسهام لا يسهم فان له القدر المعلى فى ذلك المضمار .

وانما الذى نرجوه هو أن المؤيد (الاسلامى !!) يكون مسلما أكثر من جريدة الوطن التى قالت :

« أما كوننا نهدد الدولة العلية بأنها اذا لم تفعل كذا تقطع عنها الاعانة المالية فذلك ما لا يليق بنا ولا بكرامتنا لأن المصريين دفعوا الاعانات لا اكراما لخاطر زيد أو عبید بل دفعوها حبا فى خلاص شعب عثمانى من مخالب دولة أجنبية فهم عملوا خيرا لمحض رغبتهم فى الخير ذاته لا لكى يشتروا بأموالهم ذمة رجال الدولة » .

فليقرأ المؤيد (الاسلامي) هذه الحقيقة وليستمر اذا شاء على الكتابة مما يحط من كرامة الأمة ولكن الذي نطلبه منه هو أنه اذا أراد تغيير الحقائق فليعمد الى ما كان غير ظاهر منها ، أما الحقائق الملموسة باليد - كما اذا كنا كتبنا في الموضوع أو لم نكتب - فليس من مصلحته أن يطبق عليها القاعدة العامة التي يسير عليها في كتابته .

بقيت علينا كلمة نختم بها هذه العبارة وهي أن المؤيد حاول في كتابته أن يظهر مظهر المهدد لنا ثم قال « وأنا وان كنا على استعداد لدفع ما عزاه الشعب بما هو أصرح من هذا وما يوجب الا يلام الا أن رغبتنا في ... حالت بيننا وبين أن نجيبها بأكثر مما قلنا » .

ونحن نقول على ملا من العالم بأسره بأننا نتحدى المؤيد الى ذكر كل ما يعلم عنا وليكشف الغطاء عن كل ما يزعم أنه يؤمننا . نعم ... نتحدها الى أن لا يبقى في جعبته كلمة الا ويكتبها فما نحن بالذين يخشون ذكر الحقائق لأن الحقائق لا تؤمننا وانما تؤلم غيرنا .

اننا لا نخجل من عرض أعمالنا وكتاباتها فهي كلها منسوجة على منوال واحد ومبدأ واحد لأننا نعجز عجزا تاما عن أن نتخذ لكل يوم لبوسا . نعجز عن أن نشهر بالمؤيد وصاحبه في جريدتنا وننسب اليه كل قبيحة ثم اذا نحن انتقلنا الى المؤيد قلنا أنه من صحف الأبرار ورفعنا صاحبه الى أعلى عليين . نعم نعجز عن ذلك لأن هذا الانتقال الغريب يتطلب كفاءة خاصة لم تتوفر فينا والحمد لله .

وقد التقينا هنا بما كتبه أمين الرافعي لأنه - كما عود قراءه - يكتب وجهة النظر التي تختلف واياها كاملة ثم يتولى الرد عليها ومن أجل ذلك يجيء ما يكتبه في مثل هذه الحالات يحمل الرأي والرأي الآخر بكل أمانة .

رومزة أخرى في - ١٢ ابريل ١٩١٤ - يكتب الأستاذ أمين الرافعي عن : خدام السياسة الانجليزية ومسألة عزيز بك المصري : الأمة بريئة مما يتسببون لها .

« ترمي السياسة الانجليزية الى اظهار المصريين مظهر الراضين عن الاحتلال المتمسكين به المعتبرين اياه احتلالا شرعيا ولهذه السياسة خدام

معروفون في مصر يقوون بوظيفتهم بواسطة صحفهم تارة وبواسطة ما يرسلونه الى الصحف الانجليزية تارة أخرى من الأكاذيب والاختلافات وتشويه الحقائق .

وقد عرف خدام تلك السياسة بانتهاز الفرص لتنفيذ خططهم سواء كان ذلك تطوعاً منهم أم بإيعاز من غيرهم وكانت حادثة عزيز بك المصري بكل أسف - فرصة سينحت لهم للسير في هذا السبيل الممقوت .

ظهر أصبح السياسة الانجليزية في هذه الحادثة لأول مرة على صفحات جريدة التيمس ولو شئنا ان نذكر كيف تحرر تلك المقالات التي تكتب في هذه المسألة وفي أى مكان يكون تحريرها لفعلمنا غير مترددين كاشفين بذلك السبيل عن المحركين لهذه الحملة الانجليزية .

على أننا نترك هذه المسألة جانباً الآن حتى يأتى الوقت المناسب للخوض فيها ونكتفى بتوجيه سؤال واحد الى الذين تغرهم تلك الحملة التي تقوم بها جريدة التيمس .

أيظن أولئك الذين تخدعهم الظواهر ان جريدة التيمس تدافع عن عزيز حياً في عزين أو رضياً للمصريين ؟

هل يهم التيمس أن يخرج عزيز من سجنه أو يبقى فيه طول عمره ؟ هل يهم التيمس أن تكتب كلمة في مصلحة المصريين وهي التي طالما طعنت عليهم مر الطعن واتهمتهم بمختلف التهم عندما حدثت مجزرة دنشواي ؟ لو كانت التيمس تعنى بدم المصرى وأرواح المصريين كما تتصنع ذلك الآن لما كانت كتبت الفصول الطوال دفاعاً عن حادثة دنشواي وما وقع فيها من شتى وجلد وحبس اقشعر له العالم بأسره ، فعلام اذن ننسى اليوم كل شئ ويتوهم المخدوعون منا أن تلك الأعلام الانجليزية تكتب لمصلحتنا وهي التي حفيت في كتابة ما أدمى أفئدتنا وفي تبريز تلك السياسة التي نشن منها ونألم لها ؟

نقول هذا القول بمناسبة ما نشره المقطم الانجليزي « من اجتماع فريق - لا ندري من هم وما هو عددهم - في سبيلند بار ؟ - وتقريرهم تأليف وفد للذهاب الى الوكالة البريطانية ومقابلة فخامة اللورد كتشنر ليعربوا عن شكر الأمة المصرية (كذا) على ما أظهرته الحكومة الانجليزية من العناية (كذا) بعزيز المصرى وليلتمسوا من فخامة اللورد كتشنر ارسال تلغراف الى جلالة ملك انجلترا يسترحمون

فيه باسم الأمة المصرية (كذا) توسط حكومته (كذا) لانقاذ حياة هذا
البطل المظلوم وارسال تلغراف الى جريدة التيمس يشكرونها (كذا)
فيه على المروءة ؟؟ ٠٠ التي أبدتها في سبيل انصاف عزيز بك ويطلبون
منها باسم الانسانية مواصلة هذه المساعي النافعة الخ الخ » .

وان أول ما نتساءل عنه هو أننا نريد معرفة أولئك الذين
يجتمعون في الخفاء وبلا دعوة سابقة ولا اعلان سابق ويزعمون أن الأمة
المصرية وكلتهم في ان يشكروا الحكومة الانجليزية ويوسطوا الحكومة
الانجليزية ويشكروا جريدة التيمس الانجليزية ؟

نريد معرفتهم واحدا واحدا لنسألهم عن التوكيل الذي أخذوه من
الأمة لعمل هذه الأشياء باسمها .

نريد معرفتهم ولا ننخدع بقول المقطم الانجليزى « وقد ضاق المقام
عن ذكر أسماء الفضلاء الذين شهدوا هذا الاجتماع وهم نخبة أهل الوجاهة
والفضل » .

نعم لا ننخدع بذلك القول مطلقا لأنه اذا كان المقام قد ضاق عن
ذكر أسمائهم في يوم الجمعة فلا نظن أنه ضاق عن ذلك في عدد يوم
السبت فلماذا لم يذكر المقطم أسماء هؤلاء الذين نحاول أنفسهم النيابة عن
الأمة فيما يظهر المصريين أنهم رعايا ملك إنجلترا يوسطونه لدى
دولتهم العلية .

غريب والله ان يقوم قوم تجهلهم الأمة ويدعوا أنهم نوابها - حتى
في علاقتها مع الدول الأجنبية - ويجتمعوا في « بار » من البارات
وينكون ما يقرر في هذا « البار » نافذا على الأمة من أدناها الى
أقصاها ٠٠ !!

جراة عجيبة ما سمعنا بها قبل اليوم أبدا ولا نظن أننا نسمع بها
في أى بلد من البلدان .

ما هذا ؟ أصبحت البارات برلمانا للأمة المصرية تنعقد فيها
الجلسات من أناس لا يجراون على ذكر أسمائهم ثم تنشر الصحف
الانجليزية ان ما دار في هذا البار هو ما أقرته الأمة بأسرها ؟

لقد قرأنا في المقطم ان الوفد الذى ذهب الى الوكالة البريطانية

للاعراب عن شكر الأمة المصرية مؤلف تحت رئاسة السيد عبد الحميد المهدي وهذا هو الاسم الوحيد الذي سمعنا به في ذلك البرلمان ؟ الذي أصدر كل تلك القرارات فنسأل حضرة السيد المذكور من الذي وكله في ان يشكر الحكومة الانجليزية ويوسط ملك الانجليز ويدعو التيمس الى الاستمرار في حملتها باسم الأمة المصرية وبأى حق يدعى ان ما يقوله انما هو صادر من الاثنى عشر مليوناً من النفوس ؟

اذا أراد حضرته ان يفعل شيئاً باسمه فليفعل ولكن ليس له ولا لغيره ان ينسب أى عمل الى الأمة التى يشهد ماضيها وحاضرها أنها تبرأ براءة تامة من كل تصرف يتخذ الانجليز حجة عليها فى أنها راغبة فى الرعوية الانجليزية .

اللهم ان أصبح السياسة الانجليزية ظاهرة فى هذه الحادثة ظهوراً جلياً واذا كان خدام تلك السياسة قد أخفوا أنفسهم بين جدران ذلك « البار » فان الحقيقة لن تخفى على طالبها وليست النيابة عن الأمم فى يد أشخاص مجهولين لا يجتمعون الا فى جنح الظلام بل ان فى الاجتماع على هذه الطريقة السرية ما ينطق بأن الأمة تأبى كل الإباء أن تقر عملهم والا لو كانوا يعلمون أنها ترضى به لعرضوا عليها الأمر قبل أن ينسبوه لها كذبا ولأظهروا أنفسهم أمامها ويدعوها الى مشاركتهم فى عملهم فليفهم ذلك خدام السياسة الانجليزية ومن يسير وراءهم طوعاً أو كرها .

وكان المؤيد قد نشر فى ١١ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان : لأجل عزيز المصرى . خبراً نصه :

« اجتمع فريق من أهل الوجاهة والفضل فى أعلى اسبلنديد بار مساء أول أمس وتداولوا فى الدور الذى دخلت فيه مسألة البطل المصرى المشهور عزيز بك على ، ثم قرروا ما يأتى :

ارسال تلغراف الى جلالة مولانا السلطان وآخر الى جلالة ملك الانكليز فى طلب العطف على مسألة عزيز بك والتوسط فى دفع كل حيف يمكن ان يناله بغير وجه قانونى تطمئن النفوس اليه .

وتأليف وفد برئاسة حضرة الوجيه الفاضل السيد عبد الحميد المهدي لمقابلة جناب اللورد كتشنر وتقديم الشكر للحكومة الانكليزية

على اهتمامها بسير هذه القضية ورغبتها في أن لا ينال عزيزا ما لا يستحقه
وأن يذهب هذا الوفد الى ادارات الصحف الكبرى التي اهتمت بحادث
اعتقال عزيز المصرى وشكرها على ذلك . وارسال تلغراف الى جريدة
التيمنس شكرا لها على كتاباتها السابقة والتماس مواصلتها الكتابة في
ذلك واستلقيات أنظار الشعوب الأوربية الى أن الشهود الذين جيئ بهم
للشهادة على عزيز كلهم من المتهمين بالجرائم والمطرودين من وظائفهم
أو الملوثة أسمائهم بأمور أخرى وان من لم يكن كذلك ممن سمى شاهدا
ضد عزيز أودى وطرد من الجيش العثمانى لأنه ربأ بنفسه أن يقف فى
هذا الموقف .

وعاد « الشعب » فى ١٤ ابريل ١٩١٤ الى الحديث عن نفس
الموضوع كما يلى :

« يظهر أن الصحف الاحتلالية استمرت مرعى التهديد وألفته ،
فبالأمس كانت تهدد مصر نفسها بأنه اذا فتح نائب من نواب الأمة فمه
بالسؤال عن تشغيل المسجونين المصريين فى أرض السودان ونفيهم الى
تلك الأصقاع النائية بلا حكم قضائى أنزلت الراية المصرية عن ربوع
السودان وبقيت الراية الانكليزية وحدها وضاع كل حق اكتسبته مصر
بأموالها ودماء أبنائها .

واليوم أخذت تلك الصحف وفى طليعتها المقطم ترسل النذير
تلو النذير والوعيد أثر الوعيد الى الدولة العلية باسم مصر مهددة اياها
بالانفصال عنها .

فهل مصر التى لم تستطع فى عرف أولئك المهادين أن يسأل
نائب من نوابها عن سبب نفى الآلاف من المسجونين بغير حكم قضائى
أصبحت الآن فى نظرهم - مع أنه لم يمض على تهديدهم الأول الا أيام
قلائل - قادرة على الغاء المعاهدات الدولية والفرامانات الشاهانية والتقاليد
السياسية والروابط الدينية بناء على كلمات تخطها أقلام الاحتلالين
الذين لا يقلعون عن ايلام عواطف المصريين بكرة وعشيا .!!

يقول المقطم فى ذلك المقال :

« ونحن لا نخشى أن القابضين على زمام حكومتنا (كذا) العثمانية
الآن يرتكبون الخطأ الذى ارتكبه الذين تقدموهم فجرت عليهم حرب

البلقان حديثا (كذا) ومصائب عديدة قديما وذلك اذا ظلوا يصمون الآذان عن رجاء المحبين والأصدقاء ويغمضون الأجفان عن رؤية العوامل التي تزداد قوة وشدة في مسألة عزيز بك المصرى يوما فيوما » .

وقال أيضا :

« وأخيرا علم المصريون (كذا) ذلك فكبر على أحرارهم وأثار ثائرتهم حتى رأينا جمهورا منهم يقصد بالأمس الوكالة البريطانية ويأبى أن يقصد القوميسيرية العامة العثمانية وعلما أن بعض المقامات العالية (كذا) أبلغ القوميسيرية ما أشرنا اليه آنفا .

فرجاؤنا نحن العثمانيين والتمصريين (كذا) ان القوميسيرية تطلع حكومة الاستانة على الحقيقة ليعلم رجالها أنهم لم يتلافوا مسألة عزيز فى الحال (كذا) فقد تفتح باب شر عظيم (؟؟؟) فى الاستقبال وتكون سببا لحزن العثمانيين التمصريين ليس مما يقع بين تركيا ومصر (؟؟) فقط بل مما يقع بين مصر وغير تركيا (؟؟) أيضا ، فهل يعتقد أولئك الكاتبون أنهم يخدمون عزيز بمثل هذا القول . لقد قلنا مرارا ان مسألة عزيز ليست الا مسألة فردية والدفاع عنه يجب ان يكون فى هذه الدائرة أما اتخاذ ذوى الأغراض مسألة ذريعة لنفث سمومهم وايقاظ الفتن فانما هو أمر يضر عزيز ولا ينفعه ، وذوو الغايات لا يابھون لمسألة عزيز ولا لشخص عزيز وكل همهم موجه الى الوصول الى غرضهم ولو ضحوا بألف عزيز وعزيز .

ان الذين ينفخون فى ضرام تلك النار لم يعهد فى تاريخهم أن يدافعوا عن مصر كلها نيلها وزراعتها وأهلها وكرامتها وشرفها فمن أين جاءت لهم تلك الغيرة من أجل شاب هجر مصر لضيق مدارسها والتحق بمدارس الآستانة وتخرج فيها والتحق بجيشها فكان فيه رقيه وظهوره حتى اذا ما أُوخذ بأمر نسب اليه كادوا يطبقون السماء على الأرض ان كان للصيحات مثل هذا التأثير .

فلم لاتترك مسألة عزيز فى الدائرة المعقولة وتجعل استشفاعنا فيه الى جلالة مولانا أمير المؤمنين والى الحكومة العثمانية نفسها دون سواها حتى لا يخرج مركزها بتوسيط الأجانب بيننا وبينها .

لنفرض أن الحكومة العثمانية كان فى نفسها ان تجيب الرجاء

وتستمع الدعاء فلا يخالج ضميرها ان توسيط الأجانب يدعوا الى القول بأنها أطلقت سراح عزيز خوفا من تلك الوساطة ؟

فهل يخطر على فكر معتوه قبل عاقل أن الانكليز يضحون بقدوم عسكري انكليزي من أجل آلاف من الأجانب عنهم ؟ فان لم يكن شيء من ذلك فعلام هذه الضجة والام تلك الثورة ؟

من ذا الذي يستطيع ان يغير الحالة السياسية التي لمصر ازاء الدولة العلية التي لا تملكها دولة منفردة مهما كان مركزها عظيما .

اننا نصرح بأعلى صوت أن مركز مصر مركز دولي لا قدرة لأحد على تغييره الا اذا اتحدت الدول كلها ومعها تركيا ومصر وقد رأينا مبلغ هذا الاتحاد في الحرب البلقانية فان كان هذا هو الواقع ، فعلام هذه الضجة والام تلك الثورة ؟

وبعد هذا .. نرجع الى المقطم ونقول له : اذا كنت تقول (حكومتنا العثمانية) و (نحن العثمانيين) فلم تريد أن تحقر تلك العثمانية ان كنت عثمانيا صحيحا ؟ وكيف لا تحقرها وأنت تدعو الحكومة الى تضحية كرامتها تحت أقدام الأجانب الذين تستصرخ بهم ؟

وهل من العثمانية أن لا تقلع عن نصرة الأجانب في كل أرض وفي كل مكان على هذه الحكومة المنكودة الحظ بأمثالك ؟ فان أنكرت ذلك فهذه أعداد المقطم تشهد بانتصارك للايطاليين على العثمانيين بل وللانكليز وغير الانكليز ممن تخدم أغراضهم وتنال رفدهم .

الا أن الأمم لتشقى بمن يلبسون أثواب الأصدقاء ويعملون أعمال الأعداء الألداء من نكد الدنيا أن يكون أولئك القوم من أبنائها .

وفي الختام نتوجه الى المقطم بالأسئلة الآتية :

ما هي العوامل التي تزدد قوة وشدة في مسألة عزيز وما هو مصدرها ؟

من هم الأحرار المصريون الذين قصدوا الوكالة البريطانية من أجل هذه المسألة وأبوا أن يقصدوا القوميسيرية العثمانية ؟ وما هي سابقة أعمالهم في الدفاع عن حقوق مصر ؟

ما هو الشر العظيم الذي سيفتح بابه على الدولة ومن هو طارق هذا الباب ؟ ومن هو الفاتح له ؟ وأي علاقة بين حرب البلقان وهذا الموضوع ؟ هذا ما نسأل عنه المقطم . فليجب صراحة والا كان تهديده كلاما في كلام .

وننتقل هنا - لاستكمال الصورة ولتحقيق العدالة والانصاف -
تنقل كلمات جاءت في المؤيد في ١٤ ، ١٥ ابريل ١٩١٤ على التوالي وقد
جاء في أول تلك الكلمات تحت عنوان : مسألة عزيز المصرى :

أمسك المؤيد القلم في المدة الأخيرة عن الخوض في مسألة عزيز بك
المصرى مع أنه قد كان أول من رفع صوته طالبا من الحكومة العثمانية
مراعاة كرامة الأمة المصرية وتقدير شعورها فيما يختص بمعاملتها لواحد
من أبنائها . لأننا نعتقد أن عزيز بك المصرى مصرى مولدا ونشأة وتربية
وشعورا . هذا ما يطلب من الانتساب للوطن ويعلم علم اليقين أن الرجل
من أكفأ الرجال وأخلصهم في خدمة الدولة . ونعلم كذلك أنه مظلوم
وأنه ضحية أغراض شخصية . كل هذا نعرفه ولكن رأينا ان الحكومة
العثمانية صمتت آذانها عن كل احتجاج أو التماس ورأينا أيضا أنها مصممة
على ايذاء الرجل لغرض في نفسها . وقيل لنا أيضا ان الحكومة العثمانية
كلما رأت اهتماما عظيما بهذا الرجل وظهر لها ما له من المكانة في النفوس
كلما عضت بالنواجذ على الفتك به . فالذين يريدون خدمة عزيز بك
وخلاصة انما يقدمونه للقطع بأيديهم . هكذا قيل لنا من ذى مكانة عالية
وخبرة حقيقية بالحالة النفسية للقائمين بالأمر على ضفاف البوسفور .
ولهذا أمسكنا القلم عن مطالبة رجال الدولة باجراء العدل مجراه ، وكنا
من آن لآخر ننشر آراء بعض الكتاب والصحف .

ولكن يظهر لنا أن المسألة أخذت دورا آخر لان فريقا من اخواننا
الوطنيين المخلصين في محبة دولتهم العثمانية والمتمسكين من اعتقاد
بمبادئهم الوطنية بما لها من المساس بحقوق الدولة يذهبون الى ما تكتبه
جريدة التيمس وينقله المقطم من التلغرافات ويطلبه بعض الناس من
الوكالة البريطانية من طلب الوساطة ، يجعل لانكلترا صفة الحماية على
مصر وأبناء مصر وان مسألة عزيز المصرى بأجمعها تؤدي الى اضعاف نفوذ
الدولة العثمانية في مصر وان الذين يجعلون لعزيز هذه الأهمية ويغالون
في الدفاع عنه يضررون مصلحة الارتباط السياسى بين مصر والدولة فنحن
رأينا اليوم من واجبنا أن نقول أولا لـاخواننا الوطنيين أن صفة انكلترا
وحمايتها لمصر أو لأبناء مصر لا تتأثر ولا تتغير برسالات التيمس
ولا بتلغرافات للمقطم وأن نفوذ الدولة العثمانية أقوى في هذه الديار
لأسباب سياسية ودينية من أن توهنه مطالبة من جانب أمة أو فريق كبير
منها باجراء العدل مجراه . حيال شخص يعرف الذين ينصرون له كفاءته
واخلاصه وبراءته .

واننا نجل اخواننا الوطنيين الذين تشير اليهم من أن ينتصروا للظلم
وتكتم الحقائق لمجرد اعتبارات يرونها ذات أهمية سياسية وليست من
الأمور الجوهرية في شيء .

على أنه كانت معاملة رجال الدولة لعزیز بك المصرى قد أوجدت في
مصر من يجرؤ على اظهار النفور من الدولة العثمانية ، فالذنب في هذا
واقع على رؤوس رجال الحكومة الحاضرة في الآستانة لا على سواعم .

حقيقة ان بعض الصحف الأجنبية والمقطم أيضا قد غالت في وصف
تأثير شعور المصريين نحو الدولة من جراء هذا الحادث وهذه جريدة
الاجبشان ميل تقول في عددها الصادر اليوم ما نصه :

« ان الوثائق التي تربط مصر بتركيا في غاية الوهن » الى غير ذلك
مما يراه القراء منشورا في باب أقوال الصحف ، ولكن شعور المصريين
وعواطفهم نحو الدولة العثمانية أكثر متانة ورسوخا من أن يتأثر بحادث
لا يخرج عن كونه انتقادا على حكومة حاضرة ومطالبة تلك الحكومة باجراء
العدالة ، كما نطالب حكومتنا وننتقدها كل يوم .

وان استطاعت صحف انكلترا أو صحف العالم كله أن تنزع من
نفوس الأمة المصرية الاحساس الدينى فعند ذلك يجوز أن نتصور ان
مسألة كمسألة عزيز المصرى تكون سببا في فصم عروة الميل من جانب
المصريين الى اخوانهم العثمانيين .

وكانت الكلمة الثانية تحت عنوان : « عزيز المصرى ومسألته » وقد
جاء فيها وكانت بتوقيع مسلم :

قرأت المؤيد أمس وقرأت قبله ومعه الجرائد التي تكلمت في
موضوع عزيز المصرى ومسألته فراقنى من المؤيد احكامه النقد وطول
باعه في السياسة وتصرفه في الدفاع عن ذلك المظلوم تصرفا لاثقا
بصحيفة المسلمين التي وقفت حياتها على تمكين عرى الرابطة بين الدولة
ومصر ، وأعجبني منه بنوع خاص عدم هلعه من ان تؤثر حادثة فردية مثل
حادثة عزيز المصرى في العلاقات السياسية والرابطة الجنسية والدينية التي
تربط مصر بالآستانة ووقوفه وقفة الشجاع في طليعة الجرائد ليسكن
خوف الخائفين ويهزأ بآراء المتشائمين أو الشامتين فللمؤيد على نعرته الوطنية
وغيرته الاسلامية ألف حمد وثناء .

أعجبني من المؤيد ما أعجبني وهو ما كان مرجوا منه ومنتظرا من مدير سياسته الهام ، ولكن ألا يرى المؤيد معنا استنتاجه لما رواه أمس « عن ذي مكانة عالية وخبرة حقيقية بالحالة النفسية للقائمين بالأمر على ضفاف البسفور . انهم كلما رأوا اهتماما عظيما بعزيز يعضون بالنواجذ عليه قصد الفتك به » .

ان الأمور في دولة آل عثمان بناء على هذا تدار على الكيف والهوى وأنه لا أثر للانصاف فيها .

حقيقة لا يستنتج من عبارة المؤيد أمس غير هذا الاستنتاج وإذا كانت الشئون العامة تجري على غير نظام ثابت في مملكة كبيرة مثل مملكتنا العلية وان الشخصيات هي صاحبة القول الفصل في كل شيء فيها . فهل يلام مبغضو الحكومة التركية اذا هم بنوا على ذلك العلالى والقصور وجعلوا المسائل الفردية سببا لتحليل القضايا الكلية ؟

اننى وكل عاقل في هذه الديار نوافق المؤيد الأغمر على استنكاره لهجة الناقمين على الدولة العثمانية من أجل مسألة عزيز ، ولكنى مع ذلك أخشى أنه ان لم تلاحظ الدولة في أمره كرامة مصر والمصريين ان يزيد عدد خصوم هذه الدولة في مصر ويستعصى على المؤيد وغيره الوقوف أمام سيلهم المنهمر .

وخير حل لهذه النازلة الكبرى والمصيبة العظمى أن تطلق الحكومة سراح عزيز ، هذا سواء صح أنه حكم عليه أو لم يصح لتفتدى به شعبا مخلصا وأمة غيورة على مملكة آل عثمان من قديم الزمان .

مسلم

ويأبى المقطم الا أن يشترك في المعركة - ولكن على طريقته وطبقا لسياسته - ففي عدده الصادر في ١٣ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان بين مصر وتركيا : مسألة عزيز بك المصرى ، خرجت من الطور الخصوصى ودخلت في الطور العمومى ، وقد جاء في ذلك ما يلى :

« قالت الحكماء : (ان الصغائر تولد الكبائر) وقال الشاعر : (ومعظم النار من مستصغر الشرر) وإذا راجعنا تاريخ السلطنة العثمانية وجدنا أن كثيرا من المصائب العظمى التى أصابتها إنما أصابتها باغفال الذين يقبضون على زمام حكومتها لتلك الحكمة وعدم اهتمامهم مثلا في الحوادث فى أوائلها .

ونحن نخشى ان القائمين على زمام حكومتنا العثمانية الآن يرتكبون

الخطأ الذي ارتكبه الذين تقدموهم فجرت عليهم حرب البلقان حديثاً ومصائب عديدة قديماً وذلك اذا ظلوا يصمون الآذان عن سماع رجاء المحبين والأصدقاء ويغمضون الأجفان عن رؤية العوامل التي تزداد قوة وشدة في مسألة عزيز بك المصرى يوماً فيوماً .

ابتدأت هذه المسألة صغيرة لا يحتاج تلافيها الا الى عناية قليلة بمعاملة عزيز بك كما يعامل سواء أمام كل محكمة عادلة . ولكنها تركتها تكبر وتذبح كان اهتمام الأمة المصرية وغيرها من الأمم العربية بأمر ذلك البطل لا يستحق التفاتاً بل يستوجب معاملة عزيز المصرى معاملة مغيرة لمقتضى العدل ومخالفة لما يعامل به غيره ممن يتهم تهمته فضلاً عن ذلك ان أخبار هذه المسألة شاعت فى أقطار الأرض طويلاً وعرضاً فتناولتها الجرائد العربية فى كل البلاد التى يخفق عليها علم الحرية .

فألصحف العربية فى أمريكا غرباً تأتينا حافلة بالمقالات عن عزيز بك بعبارة أحد ولهجة أشد مما تنشره صحف العرب فى مصر وغيرها شرقاً وكلها تنصح لحكومة الآستانة بوجوب اتباع العدل فيها وتحذرها من سوء عواقبها .

وذلك لم يقتصر على الصحف العربية بل عم صحف الافرنج أيضاً فى مصر وأوروبا وأمريكا وخصوصاً انكليترا فقد بزت صحف العرب بل فاقتها اهتماماً بهذه المسألة . وجرت جريدة التيمس فى طليعة صحف العالم فى هذا المضمار فأصبح عزيز بك من أبعد أهل الشرق صيتاً وأصبحت مسألته من المسائل الكبرى التى أحاط العالم المتمدن بها علماً .

ويستفاد من الرسائل الخصوصية الواردة من الأقطار العربية أن هذه المسألة أثرت فى النفوس أسوأ تأثير حتى لقد اطلعنا على تلغراف طويل وارد من بلاد عربية قاصية سمع مرسله أن قوماً يذيعون أنه انحاز الى أعداء عزيز بك فأرسل على جناح البرق يكذب ذلك ويحتج عليه ويبرأ الى الله منه بالاصالة عن نفسه والنيابة عن كل من كان من حزبه .

وهذا الاهتمام بأمر عزيز المصرى لم ينحصر فى العرب وحدهم من العثمانيين بل ان أخواننا الترك المترفعين عن الأغراض المقيمين على ولاء الجامعة العثمانية الصادقين فى تأييد دولتنا العلية شاركوا العرب فى استيائهم من هذه المسألة وجاهر المطبوعون على حقيقتها بكذب الشهود

الذين شهدوا على عزيز بك وقالوا ان أولئك الشهود من أسفل الناس
أخلاقا وأقلهم صدقا .

واليوم انتقلت مسألة عزيز بك من حيز الخصوصيات الى حيز
العموميات وخرجت من دورها القديم ودخلت في دور جديد فبات
العثمانيون المقيمون في هذا القطر يخشون أن رجال الآستانة يوصلونها
الى حد تكون عنده سببا في شر مستطير بين تركيا ومصر ويخافون أن تحمى
نارها ويطير شرارها حتى يجل الخطب ويتسع الحزن على الواقع في بلاد
العرب . . لا نقول ذلك على سبيل التهويل اذ ان القراء يعلمون بغض
المقظم للمبالغة وحبه للاعتدال وما نعى بما نقول ما كتب من الآستانة الى
بعض الصحف العربية المحلية من أن سفير انكلترا أئذ الحكومة
العثمانية بأن حكومته لا تسكت على ظلم عزيز بك فذلك أمر مفهوم وخبر
معلوم ولكن نعى أمرا آخر لا بد ان تكون قد علمته القوميسيرية العثمانية
السامية في هذه الآونة مما بلغها من ذوى المقامات العالية الذين اشتهروا
بالصراحة والحريية واعلان الحقائق مجردة عن الحواشي ومعرفة عن
الغواشي .

وقفت مصر من الآستانة في مسألة عزيز بك موقف الابنة من أمها
المتعلقة بعرشها الهائمة بحبها ترفع اليها يد الضراعة والرجاء لترفق بحال
ابنها عزيز وتعامله بالعدل والانصاف فتطلق سراجه ان كان بريئا وتشمله
برحمتها ان كان غير برىء ونشرت الاسترحام والاستعطاف على صفحات
جرائدها ورفعت عرايض الرجاء على جناح البرق وعقدت الاجتماعات
برئاسة رئيسها شيخ الاسلام ورفعت آمالها وأمانيتها الى الآستانة على
يده . ولزمت في ذلك كله جانب التذلل والخضوع اظهارا لمزيد اجلالها
لحكومة الآستانة وشديد حبها لها لكونها مشمولة بأنظار أمير المؤمنين
جلالة المتبوع الأعظم الذى برهنت مصر غير مرة أنها تبذل أموالها وتهدر
دماء رجالها تأييدا لعرشه .

ومن سوء الحظ أن بين سكان هذا القطر فئة لا تقدر العواقب
ولا تدرك الأسباب التى تهيج الأم . . فهذه الفئة جعلت دأبها أن تكتب الى
الآستانة عن كل حادثة بان لا تبالي بها زاعمة أنها حركة مصطنعة وان
أهل مصر لا يهمهم عاش النابغون بينهم أو ماتوا وظلموا أو لم يظلموا
فكانت أقوال هذه الفئة تؤثر تأثيرها الضار فى نفوس الملقاة اليهم مقاليد
الأمور فى الآستانة فلا يعباون بما يجرى فى مصر وسيواها بل يزيبدون
تشديدا على عزيز بك وشططا عن سبيل العدل والانصاف فى معاملته .

وأخيرا علم المصريون ذلك فكبر على أحرارهم وأثار ثائرتهم حتى رأينا جمهورا كبيرا منهم يقصد بالأمس الوكالة البريطانية ويأبى أن يقصد القوميسيرية السامية العثمانية وعلمنا أن بعض المقامات العلية أبلغ القوميسيرية العثمانية وبما أشرنا اليه آنفا .

فرجاؤنا نحن العثمانيين المتمصرين أن القوميسيرية تطلع حكومة الأستانة على الحقيقة ليعلم رجالها أنهم ان لم يتلافوا مسألة عزيز فى الحال فقد تفتح باب شر عظيم فى الاستقبال وتكون سببا لحزن العثمانيين المتمصرين ليس مما يقع بين تركيا ومصر فقط بل مما يقع بين مصر وغير تركيا أيضا وما على القوميسيرية العثمانية من حرج اذا أبلغت الخبر .
فقد أعذر من أنذر . والسلام .

ويكتب فى المقطم (١٧ أبريل ١٩١٤) محمد الغنيمى التفتازانى
قائلا :

حدثت مسألة عزيز بك المصرى ولم أحرك قلمي ، لا لأنى أعلم حقيقة المسألة وملايساتها ، ولا لأنى أجهل ما نصب لعزيز المسكين من الشراك التى وقع فيها ، بل لأنى وضعت نفسى موضع المنتظر الصابر الذى ينتظر النتيجة الا أن هذا الصبر قد نفذ وسئمت الانتظار فرأيت أن أفرج عن قلبى كربة تكاد توقف حركاته بكتابة كلمتى هذه الى المقطم الأغر .

قالوا ان الحركة التى قامت فى مصر لأجل عزيز هى حركة مصطنعة . وما أجهل ذلك الذى يصب السهم بيده الى صميم فؤاده فيصرخ ويبرهن على أنه من أمة تحركها الأيدى كأنها عصا فى يد لاعب بها ، قالوا ان المقطم يغالى فى الكتابة عن مسألة عزيز وفى تقدير شعور المصريين بالنسبة لعزيز وأرى أن المقطم لا يكتب فى المسألة الا ما تعود من الصراحة فى مثلها من مسائل ولا سيما مع رجال الدولة الحاليين والمقطم بلا شك قائم بواجبه نحو شعب يقيم بين أفرادهم .

بقى علينا أن نفحص الأدلة التى يقيمونها ، على أن المراد من كتابة المقطم فى مسألة عزيز ليس فصم روابط الألفة والمحبة بين العثمانيين

والمصريين (المقطم العثماني قبل كل شيء) : ألا يذكرون موقف المقطم في الحرب الطرابلسية والبلقانية وحضه المصريين على امداد دولتهم واخوانهم .

ليت أولئك الصائجون ناقضوا الحجة بالحجة وقرعوا الدليل بالدليل . . . دليل المصريين على قيامهم بمظاهراتهم من أسوان الى رشيد طلبا للافراج عن عزيز : انه ابن يستصرخ أمه وأخا يستنصر اخوته .

ماذا يقولون وهم يعلمون خطورة موقف عزيز من أعداء مدفوعين الى عداوتهم بعوامل شخصية .

ماذا يقولون وقد رأوا رد أنور باشا على برقية مولانا شيخ الاسلام .

ماذا يقولون وقد رأوا نصره الأتراك المخلصين لدولتهم لعزيز ودفاعهم عنه ، أبعد ذلك كله يصمون المصريين بأن يدا تحركهم وأن حركتهم مفتعلة . كنت أريد أن أقول : ماذا جنى عزيز حتى يحاكم ، ولكني أفضل أن أقول ان المسألة مسألة أمة تأمل من شقيقتها أملا وترجو منها تحقيقه . . . عزيز مصرى فلماذا يتصدى اليمانيون وأهل جزيرة العرب للدفاع عنه بأشد مما دافع عنه اخوانه الذين تربطهم بالدولة رابطة أحكم من رابقتها بسواها . . . عزيز برىء فلماذا يتهم وكلنا يقدر خدماته . اذا كان اليمانيون الذين حقن عزيز دماءهم بايرامه اتفاقية الامام يحيى المشهورة التي ربحت منها الدولة رجالها وأموالها يرسلون الوفود الى الآستانة لتخليص عزيز والدفاع عنه ، فهل نقول عنهم أنهم مدفوعون الى ذلك بيد حركتهم من وراء ستار . انكم تجنون على مصر وعلى الدولة معا من حيث لا تشعرون ، اذكروا أحوال الثورة العربية الأولى لما كان المندوب العثماني في مصر كلما يسأل عن أمر الثورة يقولون ان البلاد هادئة ، فماذا انفعنا بهذا الايهام ، الحركة حركة وطنية تدل دلالة واضحة على قوة تمسك المصريين بالدفاع عن أفرادهم . أنا لا أقول التجثوا الى غير الدولة ليخلص عزيز ولكن عزيز نفسه يقول اذا كان خلاصي ضرر بدولتي فاني أفضل الموت والقتل على أن أكون سبب ذلك الضرر . فشعور فتى باسل وبطل كهذا تفقده الأغراض وتميته عوامل الحقد الشخصي حرام ومكرة .

ان جلالة متبوعنا الخليفة الأعظم أمير المؤمنين يعلم ولا شك أحوال المسألة وملابساتها ويذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فعزيز أجدر بالاعزاز وبأن يكون عدة على الأعداء لا لهم .

ان ماضى عزيز كله نقى طاهر لا يشوبه دنس ولا تهمة - عزيز الذى يدفعه الشوق لأن يكون جنديا فى الجيش العثمانى ليحارب فيه مع توفر الأسباب المعيشية الهنيئة له فى بلاده لا يجب أن نفقده - عزيز الذى يقيم شعور العثمانيين لشخصه ويقعده لا يصغر شأنه ولا يهان ، فكيف به وقد أودع السجن فى أحوال كان يعتقد أنها مكافأة له وتعزية .

بالغوا فى توخى الحكم فى كتابتكم ، اعتضدوا بالمبدأ الحق فيما تقولون ، لا تصغروا شأن أمتكم ولا دولتكم : انقضوا الدليل فيه فانكم لا تطلبون الا حقا ولا تنشدون الا عدلا . ثابروا على استرحام خليفتم ودولتكم لتابع منكم ألقته يد البغضاء بين أنياب قوم يضمرون له الحقد ، أيدوا قوميتكم فقد اسقطكم الذين يقصدون النياية عنكم مع أنهم هم المغرضون الذين تحركهم الأيدى التى تجهل مراكزكم وتستهن بجيشكم ، فلا شك أن دولتكم عالمة بحقيقتكم مجيبة لرغباتكم منقذة ذلك المظلوم البرىء الذى هو من خيرة أبنائكم وأندرههم مثالا . الوقت قصير وليس للمناقشة مجال فهبوا للعمل وليس العمل الا بالجد وليس الجهد الا بتقويم المنهج .

أما الذين يقولون ان المصريين يقطعون علائقهم مع دولتهم فهم يهزمون بما جهلوا ، فدولتكم العلية أقدر على قدر شعوركهم ولكن أين ميزان الصدق وأين رجال الحقيقة هناك خليفنا الله ورسوله وآل بيته معك يا عزيز . والله كفى ببردك إلينا حتى نرى بطلا ينجبه القرن العشرون فى مصر انه مجيب الدعاء .

ويكتب أحمد عبد الرحمن فى المؤيد (١٥ ابريل ١٩١٤) تحت عنوان : عزيز المصرى والشيخ جاويش والشيخ صالح التونسى : لماذا ينقم الشيخ جاويش على عزيز المصرى ، عبد اللطيف وعزيز بك فى طرابلس من بعد الشيخ صالح التونسى ؟ وقد جاء فى ذلك المقال :

« علم القراء مما جاء فى أنباء البرق بموضوع السعائيات التى يقوم بها الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ صالح التونسى للايقاع بالبطل عزيز بك المصرى وما يدبرانه من التهم انتقاما من هذا الضابط الشجاع ، مجازاة أرضاء من جهة وتزلفا لبعض ذوى السلطة فى الآستانة من جهة أخرى . »

وعلموا أيضا ان الشيخ جاويش والشيخ صالح التونسي هما فرسا
رهان هذه الرواية المحزنة التي اسخطت النفوس وأدمت القلوب ، ولما كنت
أعلم من أسرار أدوار هذه القضية شيئا كثيرا وكنت أعرف كما يعرف
الكثيرون من المصريين الذين شهدوا الحرب الطرابلسية - الأسباب التي
تدعو لدخول هذين الشيخين فى موضوع السعاليات والوشايات ، لذا
رأيت أن أشرح للقراء بعض تلك الأسباب ليكون الرأى العام دائما على
بينه من كل فروع وأوجه الدعوى فأقول :

لما نشبت الحرب الطرابلسية حضر أنور بك يومئذ للقاهرة قاصدا
برقة وكان يقيم فى فندق « الكونتنتال » باسم حمدى بك مراسل إحدى
الصحف التركية ، فلما طلب رفيقا وخبيرا بطريق الصحراء ليذهب معه
الى برقة بادر الشيخ جاويش بتقديم أخ له يدعى عبد اللطيف جاويش
فاصطحبه هذا مع بعض أشخاص آخرين رافقوه حتى درنه . فأراد أنور
بك أن يكافئ الشيخ جاويش على هذه الخدمة وكان أخوه قد هم بالعودة
الى مصر مزودا بالمكافأة والأجر ففكر أنور بك فى أن يجلب الى المجاهدين
من القطر المصرى بعض ما يحتاجونه من البضائع والأمتعة والأقمشة
واللوازم البيتية - فأعطى عبد اللطيف جاويش ٥٠٠ جنيه وتحويلا على
القوميسيرية العثمانية فى القاهرة بألف جنيه وكلفه ان يشتري ما يحتاج
اليه المجاهدون ، فعاد عبد اللطيف جاويش بعد ذلك بقافلة من الجمال
محمولة عليها هذه الأشياء من الاسكندرية وأقام خيمة كبيرة فى معسكر
درنة كحانوت للبيع والشراء فكان يبيع ما قيمته قرش واحد بعشرة
بلا ممانعة ولا مراقبة من قومندانة الجيش ، وتفضل أنور بك فكلفه
بتقديم ما يلزم من البضائع للضباط والجنود فحصل على مبالغ طائلة من
هذا الباب .

وما أزف وقت السفر - سفر أنور - حتى كان للجوايش عند الجيش
العثمانى ديون تبلغ بضعة آلاف من الجنيهات ، دفع أنور بك بعضها .
فلما وضعت الحرب أوزارها وغادر أنور بك برقة أرض العرب وذهب الى
مقدونيا وحل محله البطل عزيز بك ، وفى تلك الأثناء عاد عبد اللطيف
جاويش فطالب عزيزا بهذه الألوف من الجنيهات التى يزعم أنها كانت
باقية له فى ذمة الجيش ، فاعتذر له عزيز بك بان الاعانات التى ترد من
مصر بعد ذهاب أنور بك صارت قليلة بحيث انها لا تكاد تكفى الا لسد
بعض حاجة المجاهدين .

وزاد على ذلك أنه لا يعرف حقيقة تلك المبالغ وحساباتها وليس في
طاقتة مع الضيق الحاصل دفع تلك المبالغ الطائلة وقال لعبد اللطيف :
انك تستطيع الحصول عليها من القوميسيرية العثمانية في القاهرة ، وكان
لدى عبد اللطيف جاويش عدا ذلك كمية عظيمة من الأوراق المالية التي
أحدثها أنور بك على مثال أوراق « البنك نوت » وكانت مطبوعة على مطبعة
الغراء « الفيلوسجراف » وظهر فيها تزوير هائل ، ولما كان المال عند عزيز
بك قليلا بحيث لا يكفي لصرف هذه الأوراق خصوصا وقد ظهر فيها
التزوير . لم يقبل عزيز أن يبدلها لعبد اللطيف جاويش بنقود وأحاله
على القوميسيرية العثمانية أيضا .

هذه الذنوب هي التي أثارت السخط في نفس عبد اللطيف جاويش
على عزيز المصري ، فصار يكيده له المكائد ويدس له الدسائس بين بعض
الضباط والعرب وكتب الى أخيه الشيخ في الآستانة تقريرا مستفيضاً
يبين له فيه مقدار الخسائر التي عادت اليه من جراء رفض عزيز بك دفع
هذه المبالغ له ، واتهم عزيز بأنه كان يسبه وينسب له الحماقة والعمل
على خراب الدولة . فأسرها الشيخ في نفسه الى أن عاد عزيز الى
الآستانة .

أما الشيخ صالح التونسي الذي يعمل على الايقاع بعزيز مع شيخنا
الجاويش ، فأصله من تونس ظهرت فيه حماقته وضعف ذمته واستعماله
وسائل الدين غرضاً لمنافعه الشخصية فنبذوه منها وأعلنوا انحطاطه فيها
فجاء الى الآستانة في عهد حكمها الاستبدادي وهنالك تسلق بسرعة متدرجا
في مناصب الجاسوسية فأرسلوه الى دمشق براتب حسن يتناول له غير عمل
رسمي ظاهر للناس فظل هناك مثابرا على ما عهد اليه الى أن أعلن الدستور
فانقطع راتبه مع كل رواتب الجواسيس ، فأخذ يحرك العامة باسم الدين
على رجال جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا يومئذ من فريق المصلحين ،
وظل غدوا لهم الى أن تبدلت خطتهم ورجعوا الى سياسة النشاط ومعاداة
الحرية وكم الأفواه وسحق المصلحين ، وحينئذ صار الشيخ صالح التونسي
صديقا لهم ، وأخذ ينشر أحاديثه وأقاويله المضللة بان الاتحاديين خير من
حكم بلاد آل عثمان وأفضل أمراء الاسلام ، فصدقه القوم وعلقوا الآمال
على الاستفادة منه في عهدهم ، كما استفادت منه الحكومة السابقة .

واتفق أن سعادة الأمير علي باشا نجل المجاهد العظيم المرحوم الأمير

عبد القادر الجزائري أخذته الغيرة على بلاد طرابلس منذ الرحال إليها من دمشق للدفاع عنها وأخذ في ركابه الشيخ صالح .

فكان هذا الأمير ينفق عليه ويحسن إليه في مطلع كل شمس ، وقربه منه وكان يقيم معه في خيمة واحدة ، لكنه بعد أن أقام معه بالمعسكر بضعة أيام علم بأنه وشى في حقه لأنور بك وقال له ان هذا الأمير يريد زعامة العرب وأخذ السلطة وقيادة المجاهدين من يد أنور ، فغضب عليه الأمير على باشا وطرده من خيمته فالتجأ الى أنور فأحسن هذا اليه وأكرم مثواه ونصب له خيمة أمام باب خيمته ، فكان شأن الشيخ صالح التونسي مع أنور بك شأن كهنة المصريين القدماء أو العرافين والدجالين لدى أهالي الصين ، فلا يقضى أنور بك أمرا ولا يبرم شيئا الا بعد أخذ رأى الشيخ صالح التونسي وبعد أن كان يقوم الأخير بعمل الاستشارة اللازمة فطار صيت هذا الشيخ بين قبائل العرب وكانوا اذا أتوا لحاجة من أنور لزيارة المعسكر من أقاصى بلادهم يزورون الشيخ قبل زيارة أنور بك وقد استدعت هذه المعاملة من أنور بك خواطر السادة السنوسيين - مشايخ الزوايا السنوسية وتوجيه سهام اللوم والانتقاد على هذه المنزلة الرفيعة التي صارت للشيخ صالح على غير استحقاق وهم رجال الفقه والشرعية في البلاد .

وحدث أن الشيخ صالح كان يخطب في بعض المجتمعات لحث القوم على الجهاد فخرج في خطبته عن الموضوع وأغرق في مدح الترك واصلاحاتهم في طرابلس وفضلهم على السابقين من أمراء الاسلام والعرب ، فقام عليه العرب قومة رجل واحد وأظهروا سخطهم واستياءهم من هذا الكلام ، فلم يعد بعد الى الخطابة قط خوفا على حياته من العرب .

ومما يذكر أن أنور باشا عندما وصل الى درنة حمل النشان العثماني الأول والسيف المرصع الذي تكرم مولانا السلطان باهدائه للسيد السنوسى وألف أنور بك وفدا من كبراء الموظفين وأعيان العرب ومشايخهم للذهاب بهذه الهدية الى السيد السنوسى فى الكفرة ، وكان ضمن هذا الوفد الشيخ صالح التونسي بصفة أمام جيوش المجاهدين العثمانيين .!! فحنق العرب لهذا الأمر وأظهروا سخطهم واستياءهم ودخل سيدى «العلمى» شيخ الزاوية البيضاء وزعيم قبيلة البراعة الدينية على أنور بك وقال له : ليس مما يسر السادة السنوسيين ولا مجاهدى العرب ان يكون مع الوفد الذى يذهب بالهدية الى مولانا السنوسى رجل منافق زنديق . وخرج من بين يدي أنور بك وعقد مجلسا حضره مشايخ الزوايا لاطهار احتجاجهم على هذا العمل وتبليغ استيائهم واستياء العرب الى أنور بك وباقي هيئة ضباط أركان

الحرب ، وحضر هذا الاجتماع الأمير شكيب ارسلان والدكتور عزت الجندي
وكاتب هذه الأسطر وكثير من المصريين الذين كانوا في بعثات الهلال الأحمر
المتطوعين ، فاضطر أنور بك الى أن يخضع لهذه الارادة السامية وان يبعد
الشيخ صالح عن هذا الوفد .

وقد كان عزيز بك في بنغازي حينذاك وكان يعرف كل ما يجري في
معسكر درنة فكان يضحك من هذه الأمور ويسخر من الشيخ صالح وادعائه
علم الغيب ومواقيت الانتصار والخذلان في الوقائع الحربية فوصل الى علم
الشيخ صالح كل ما وصل الى علم أنور بك من هذه الاخبار وكان بعض
الضباط الذين يطردهم عزيز من معسكره في بنغازي لخيانتهم أو لعدم
قيامهم بواجباتهم كما يجب ، يعودون الى درنة فيجسمون هذه الاخبار
ويفترون على عزيز بك افتراءات كاذبة ليوسعوا الهوة بينه وبين أنور
وليشيروا سخط الشيخ صالح - وهو أقرب المقربين لأنور بك - على عزيز
بك حتى تزداد النار اشتعالا عند أنور وليصوروا عزيزا بالعدو العربي
اللدود فوصلوا الى بغيتهم وحصلوا على ما أرادوا .

ومما يذكر أن الشيخ صالح ، نجم ذات مرة - أي قرأ الطالع - لأنور
بك وقال له انه يوجد شخص زميل له يريد أن يأخذ منه السلطة ويعلن
استقلاله في البلاد - والقارىء قد علم من هو المقصود بهذا الكلام - فدعا
هذا الى زيادة النفور بين أنور وعزيز والى الاسترسال في سوء الظن
والريبة ..

ومما يجب ذكره هنا ان الشيخ صالح كان يأخذ مرتبا شهريا من
أموال المجاهدين قدره ثلاثون جنيها عدا الطعام والشراب في خيمة الأكل
مع أنور بك وباقي الضباط وعدا القهوة والشاي والأقمشة التي كانت
توزع ، وعدا الهدايا التي كانت ترد عليه من ملتقى الفائدة على يده .
وكان على خيمته اثنان من الجنود عدا الخدم والجواري ، وقد جلب معه
عند عودته لمصر جارية أهديت اليه ولكي يخلص من مراقبة قلم الرقيق
المصري عقد عليها وأخذها معه الى الآستانة .

وكذلك كان عبد اللطيف جاويش فان أموال أنور بك وهي من دماء
المصريين ومن حقوق المجاهدين دون غيرهم قد غمرته فصار يعيش معيشة

أهل الترف والنعيم ويلبس الملابس الحريرية ويرفل فى الخبز والديباج فى
معسكر درنه وتزوج بأربع زوجات من أجمل البنات عدا من كن له من
المحظيات والجوارى بشراء المال . ناهيك بالخدم والعبيد الذين كانوا تحت
أمرته . كل هذه النعم كان يتنعم بها عبد اللطيف جاويش على حساب الأمة
المصرية .

ولم يكفه ذلك حتى أراد الانتقام بواسطة أخيه الفاضل . . !! بانزال
بطش الدولة العثمانية على شباب من أعز أبناء مصر على مصر ، كل ذلك لأنه
لم يغمض عنه عينه وهو مسترسل فى تيار مطامعه الأشعبية وشهواته .

هذه صفحة صغيرة من تاريخ أبطال التهم الملفقة على بطل برقة
نشرناها لتكون بيانا للناس .

وهناك أمور وأسرار أخرى أمسكنا القلم عنها الآن ريثما يعود القوم
الى رشدهم والا زدنا فضائحهم بيانا .

والسلام ،،،،

وكما كان متوقعا فان الحكم بالاعدام قد صدر من المجلس العسكرى
ضد عزيز بك المصرى ولكن أول من نشر نبأ الحكم على عزيز على المصرى
جريدة التيمس البريطانية فى برقية لمندوبها فى الآستانة ، وقد أضاف
ذلك المندوب أن الحكومة خففت الحكم الى السجن ١٥ سنة ، ولم تشر
الصحف التركية فى الآستانة لا الى القضية ولا الى الحكم من قريب أو من
بعيد . كان اعلان الحكم فى الساعة الثانية والدقيقة العاشرة من صباح يوم
الأربعاء ١٥ ابريل ١٩١٤ وقد ذكرت نظارة الخارجية البريطانية أنها ستتهم
اهتماما بالغا بالحكم وسوف يجرى السفير البريطانى فى الآستانة مع وزارة
الخارجية التركية مباحثات حول القضية . وأذيع أن جريدة التيمس
البريطانية ستنشر اليوم مقالا عن الآثار السيئة التى ستركها الحكم فى
مصر وكيف أن عطف مصر على تركيا سيتلاشى وكيف ان عرى الاتصال بين
مصر وتركيا يمكن أن تنقطع بسبب هذا الحكم .

وان جريدة التيمس ستقول ان الذين دبروا هذه المكيدة لعزيز بك
هم أنور باشا ودعاة الجامعة الاسلامية فى مصر وأنه يجدر بأولئك الكائدين
أن يفهموا مبلغ الضرر الذى أحدثوه بتدبيرهم هذه المؤامرة .

وتقول التيمس أيضا : ان العالم العربي لن ينسى في وقت قصير
الظلم الذي حاق بالنطل المصري المشهور بمكارم الأخلاق والغيرة على دولته
وأمنته .

وتنشر التيمس برقية من القاهرة تفيد أن الجواسيس العثمانيين
منتشرون في القاهرة وغيرها من المدن المصرية لجمع الأدلة الملفقة على الذين
يعارضون خطة القوميسيرية العثمانية السامية وسياستها .

وفي ١٨ ابريل ١٩١٤ ينشر المقطم العديد من التلغرافات من بينها
مثلا :

« لندن يوم السبت ١٨ ابريل الساعة ٢ والدقيقة ١٢ صباحا ،
(الموافق الساعة ٤ والدقيقة ١٥ من صباح اليوم بحساب الوقت في مصر) .

اشتد اهتمام الجمهور في انكلترا اشتدادا عظيما بقضية عزيز بك
المصري بعد الذي نشرته صحف لندن الكبرى عنها .

وستنشر جريدة التيمس وجريدة الديلي ميل اللتان تصدران هذا
الصباح ما تلقتاه من القاهرة عما جرى فيها أمس من زيارة وفد من أعيانها
للوالة البريطانية والمظاهرة التي أقيمت فيها عطفًا على عزيز بك .

والمظنون في الدوائر الرسمية الانكليزية أن عفو الباب العالي عن
عزيز بك يوشك أن يكون في حكم المقرر بسبب الضغط من القطر المصري
ولندن إذ أن الاستثناء لا يسعها الاغضاء عن هياج الخواطر فيها .

وفي المقطم (١٩ ابريل ١٩١٤) نشر ما يلي :

علمت أمس أن بطل برقة عزيز بك المصري دعى الى الديوان العسكري
بعد الانتهاء من محاكمته التي أجملتها في رسالتي السابقة فقلق الجمهور
لهذا الخبر وقالوا ان وراء الاكمة ما وراءها وان أعداءه كادوا له مكيدة جديدة
للتسويق في أمره وابقائه في سجنه زمنا طويلا وقد استطلعت مطلع الخبر
من المصادر التي لا أرتاب في صحة أقوالها فعلمت أنه انما دعى أمس
لاستجوابه عن أمور تتعلق ببغاوى وليس لاستماع شكايات جديدة . وان
استنطاقه جاء مكذبا للتهمة التي وجهت اليه حتى أن أكثر أعضاء المجلس
اعتقدوا ببراءته رغم ما أودعه أعداؤه في صدرهم من الحقد عليه والبغض
له .

سألوا عزيز عن النقود التي أتهم بأخذها وعن طرق انفاقها وما كان

اشهد تعجبهم لما تأكدوا أن الحكومة ما تزال مديونة له بتيف وألف ليرة عدا
رواتبه مدة تسعة أشهر .

ومن غريب ما جرى أن الشركس رشيدى ورمزى المهداوى هما اللذان
اتهما بمسألة النقود لأنه أبى أن يقتسم معهما مبلغ ثلاثة آلاف ليرة قبل
مجيئه من بنغازى وقد صرح عزيز بك بذلك أمام المجلس العسكرى وأقام
الأدلة الدامغة على براءته وصدق كلامه .

وقد انتهى المجلس من درس أوراق عزيز بك أمس الساعة الرابعة
بعد الظهر ولكنه لم يصدر حكمه بعد . ويؤكد قوم أنه لم يخرج من سجنه
اليوم أو غدا لأن المحاكم أظهرت براءته فنية الجماعة تكون مما يسوء
أصدقاءه ويسر أعداءه .

وتحت عنوان : ويأتيك بالاخبار من لم تزود . . يكتب المقطم (١٨
ابريل ١٩١٤) قائلا :

زار ادارة المقطم أمس رحالة شرقى طاف بلاد برقة فى مدة
الحرب الايطالية وقابل قوادها العثمانيين والايطاليين وتعرف بعزير بك
المصرى فيها وعاشره معاشره الصديق للصديق ودون أهم ما رآه وسمعه
وعلمه فيها فى مذكرات محفوظة لديه ، فلما قرأ ما أصاب عزيز بك فى
هذه الأيام وعلم أنه جوزى جزاء سنمار وحكم عليه بالإعدام بتهم ما أنزل
بها من سلطان ، كبر ذلك عليه وهاج غضبه على أعدائه وظالميه ، فتأبط
مذكراته وطلب مواجعتها وألقاها بين أيدينا وقال : أرى أنهم يتهمون عزيز
بك لخيانته والتواطؤ مع الايطاليين ويزعمون أن غيره كان أعظم منه وفاء
وأصدق ولاء والله يعلم أنهم كاذبون .

خذوا هذه المذكرات التى خطتها يمينى سنة ١٩١٢ كما ترون من
تواريخها ، وأقرأوا بعض ما كتبه فيها عن عزيز بك وأنا فى بنغازى فقلبنا
تلك المذكرات فوجدنا فيها أشياء كثيرة عن عزيز بك وغيره وعن بلاد برقة
وأهلها والعساكر الايطالية . فنقلنا عنها ما يأتى فى هذه العجالة ، وربما
نقلنا عنها فصولا أخرى فى فرص أخرى . قال فى ٩ كانون أول
(ديسمبر) سنة ١٩١٢ .

اجتمعنا بقنصل ايطاليا وكان معه ترجمانه الأول نجيب بك فجعل
يترجم بيننا ، ودار الحديث على أمور كثيرة وعلمت من القنصل أن قائد

بنغازى الايطالى كتب كتابين عقب الصلح وأرسلهما الى عزيز بك فلم يرد
عزيز بك عليه قط وأما أنور بك فرد على ثلاثة كتب جاءتته من قائد درنة
وكان كلامه فيها بغاية اللطف والرفقة ولم يقتصر على ذلك بل قابل
الضابط الايطالى الذى أوفده اليه قائد درنة ولاطفه وأكرمه وأظهر القنصل
مزيد العتب على عزيز بك وقال ان الآداب العسكرية تقضى على القائد أن
يرد على زميله اذا خاطبه ولو كانا عدوين . فقلت للقنصل انى أعترف
عزيز بك وهو ليس ممن يقع منه قصور فى حفظ الآداب العسكرية
ولكنى أظن أنه يحسب نفسه مجردا عن الصيغة العسكرية بعد عقد الصلح
بين الحكومة العثمانية وايطاليا ولذلك لم ير لزوما للرد على القائد الايطالى
لأن العرب المجاهدين معه لا يستحسنون ذلك . فقال : وهل يتجرّد عزيز
بك عن الرتبة العسكرية ويتركها ؟ فقلت : نعم انه يفعل ذلك حبا بأبناء
عمه العرب لأن من مبدئه الذى أعرفه تماما خدمة العرب وترويح مصالحهم
وتكوين جامعة عربية فان مصالح العرب عنده مقدسة ومقدمة على سواها .
وقد أدركت من محادثة القنصل أن ايطاليا تهتم بأمر عزيز بك أكثر مما
تهتم بأمر غيره كثيرا لأنه عربى ولأنه جندى شجاع لا يهاب الموت ولا تهمة
التلفيق والشهرة والتظاهر بالباطل لاكتساب الصيت الواسع كما فعل
غيره انتهى .

فليتأمل اللبيب ، وليحكم المنصف . . هل يجوز أن تكون مكافأة
هذا البطل الضرغام السجن والاثام والحكم بالاعدام .

وكانت المقطم قد نشرت فى اليوم السابق (١٧ ابريل ١٩١٤)
برقيات عن اهتمام أمراء اليمن بأمر عزيز المصرى وعن سخط أهل اليمن
عما أصابه . ومن بين تلك البرقيات :

حضرات ذوى الهمم الكرام خدمة المصلحة العامة أصحاب المقطم الأمجاد .

سلاما واحتراما - وبعد فهذه صورة ما كتبه اليينا بعض من أكابر
بلادنا اليمانية عن لسان أهل اليمن عموما بخصوص عزيز بك المصرى كما
ترون - فاذا استحسنتم نشرها فافعلوا خدمة عامة للانسانية يشكركم عليها
الملا الأعلى والأسفل لأن لعزیز بك المصرى منزلة عالية وكرامة عظيمة عند
أهل اليمن وهم لا ينسون نصائحه النافعة وخدمته العظيمة حتى تم الائتلاف
الذى عقد بين سمو الامام يحيى وعزت باشا قومندان القوة اليمانية
بالنيابة عن الدولة العلية .

وصورة هذا الائتلاف مرسله اليكم أيضا .

السيد عبد المحسن الحسنى اليماني ناظر بقيق مزار
السيدة صفية النبوية بمحافظة مصر

صورة ما ورد من الأقاليم اليمانية بخصوص عزيز بك المصرى •
الحمد لله دافع الملمات

سلالة العلماء العاملين ونخبة الفضلاء المرشدين ، حضرة
الحسيب النسيب حسام الاسلام السيد عبد المحسن الحسنى
الرصاص جعل الله نصيبنا واياه من هذه الدنيا الخلاص آمين •

بعد سلام الله عليكم فانا نحمد الله اليكم ونصلي ونسلم على
سيد الوجود وعلى آله الخلفاء وأصحابه الحنفاء الذين أوفوا بالعهود
وبعد • • فالداعى لتحرير هذه السطور هو ما أخرج الصدور الا وهو
ما نقلته الينا الصحف خصوصا خادم الانسانية المقطم الأعر بشأن
محبس المخلص لدولته وملته حضرة عزيز بك المصرى بالاستانة العلية
ثم وصلت الينا الأخبار ان مجلس الاستانة العسكرى حكم أو قارب
الحكم على عزيز بك بما أغضب قلوب الأمة فى شرق البلاد وغربها
خصوصا أهل بلادنا اليمانية لما عرفوه من اخلاص عزيز بك المصرى
لخدمة الانسانية ومسايعه الخيرية فى ابرام الصلح بين سمو الامام
يحيى ودولة قومندان العساكر الشاهانية باليمن ، فكان لعزيز بك
المصرى اليد الطولى فى ابرام الصلح بعد استمرار الحروب فى
بلادنا أربعين سنة ، وكذا تطوع عزيز بك المصرى فى الجهاد فى وجوه
عساكر الطليان بطرابلس الغرب ، وجهاده أيضا مع الضباط
العثمانيين فى ثورات البلقان جنبا لجنب ، ولقد أخذ الأسف عند
الأمة منتهاه ورجعنا نقول ان كل من سار مع الحكومة العثمانية
بالاخلاص كافات بوضعه فى الأقفاص • فلا حول ولا قوة الا بالله •
وهنا يا عزيزنا نسألك بالله وبحقوق الانسانية ان تفيدنا عن نقطة
مهمة فى هذه المشكلة وهى : هل التهمة الموجهة من أولى الأمر الى
عزيز بك المصرى هى عن وقائع الحرب الطرابلسية ؟ وهل ما نسب
اليه هو قبل ابرام الصلح بين الدولة العلية وايطاليا أو بعده •

فان كان ما ينسب الى عزيز بك هو بعد تسليم وتنازل الدولة
العلية عن طرابلس الغرب للطليان فكل من على وجه البسيطة يرى
أن الحكومة العثمانية ظهرت فى هذه المسألة بمظهر الظلم الذى
لا يرضاه لها كل انسان عدوا كان أو صديقا • وانا المنتظرون الجواب
بفارغ الصبر •

والسلام عليكم ورحمة الله ،،

تحريرا فى ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٣٢

ناصر بن منجوت الأحمر بحاشد • السيد حسن بن قاسم حاكم شرعى
بحاشد • درهم بن يحيى من الأمراء • مسعود الباز على من الأمراء •
محمد بن اسحاق الرصاص من الأمراء •
جميعهم من لسان أهل اليمن

وكان المقطم قد نشر أيضا - ١٥ ابريل ١٩١٤ - مقالا عن الحكم
بالاعدام على عزيز بك المصرى تحت عنوان : التوسط الأجنبى فى أمره ،
الواجب على الصحف • وقد جاء فى ذلك المقال ما يلى :

لا يهتم المقطم بأمر عزيز بك لغرض مراعاة شخصه لأنه لا يعرفه
شخصيا ، ولا مراعاة لذويه وأقربائه ولأنه لم يعرف أقرباءه ولا من هم الا
بعد الاهتمام بأمره مدة طويلة ، ولا مراعاة لحزب مصرى أو عربى لأنه
لا ضلع له مع حزب من الأحزاب ، بل يكره التفريق بين العناصر العثمانية
عربية كانت أو تركية ، مصرية أو كردية ، ولا مراعاة للدولة أو دول أجنبية
لأنه عثمانى يجب ان تكون دولته العلية أرقى من كل دولة أجنبية انكليزية
كانت أو غير انكليزية ...

انما يهتم المقطم بأمر عزيز بك المصرى لغرض واحد شريف وهو
القيام بما يفرضه واجب الصحافة على كل صحافى طاهر الذمة صادق
الخدمة - فانه بعد ما علم المقطم أن عزيز بك شهيم شجاع قضى سنين شبابه
فى خدمة الدولة العلية وقضاء مصلحة الشعوب العربية وفعل أفعالا
تفتخر بها الدولة العثمانية يرى عدم الاهتمام بما ناله من الظلم والجور
تقصيرا يعيب كل جريدة أنشئت لخدمة الحق والعدل والانسانية • وعارا على
جريدة مصرية أو عثمانية تدعى حب الدولة العلية ، وعيبا على كل جريدة
عربية تدعى الغيرة على مصالح الأمة العربية •

انما يهتم المقطم بأمر عزيز بك المصرى لأن كل ما ظهر حتى الآن يدل
على أنه عومل معاملة غير دستورية والمقطم قضى كل ما مضى من عمره مجاهدا
فى سبيل الدستور متحملا الأذى والاضطهاد لأجل الشهادة للحق وانتصار
الحرية والعدل ، فمعاذ الله أن يخالف اليوم مبدأه ويمالى الذين يريدون
أن يخرقوا حرمة الدستور ويطفئوا نور الحق والعدل •

لا يهتم المقطم بأمر عزيز بك المصرى الا انتظارا لذلك المبدأ السامى
ومحافظة عليه • القوميسيرية العثمانية السامية تعلم اليوم كل ما أشرنا
اليه أول أمس فى مقالاتنا عن عزيز بك المصرى ، وتعلم أكثر منه كثيرا
أيضا ، فعسى أن تكون قد قامت بالواجب عليها وبلغته الى رجال الحكومة
فى الآستانة لأن الأقوال التى كتبها اليها وجوه الأمة المصرية وسراة مصر
وأعيانها والأقوال الصريحة الواضحة التى أبلغتها أياها المقامات المصرية

السامية هي الأقوال التي تعبر عن رأى الأمة المصرية وهي التي يجب أن يعلمها رجال الحكومة العثمانية وهي التي يحسب العاقل حسابها ويقدر عواقبها . والمقطم لم يذكر ذلك في مقالته الماضية قصد الوعيد والتهديد لأنه ما ركب في زمانه متن الغرور حتى يغتر بنفسه هذه المدة ويستد وهو يعلم انه عثمانى لا حول له ولا قوة ولا سلاح ولا عدة بل ذكر ما ذكر قصد النصيح والتحذير كما يجب على كل صحافي عثمانى صادق الخدمة .

وردت أمس الأنباء البرقية الموثوق بصحتها علينا وعلى سوانا مشبته أن المجلس العسكرى حكم بالاعدام على عزيز بك المصرى .
وورد تشراف بعد ذلك من مصدر عثمانى بالآستانة أن السفارة البريطانية تداخلت وأن الحكومة العثمانية ترضى الآن أن تستبدل حكم الاعداد بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة . ثم ورد أيضا ان السعى دائر الآن لجعل هذه الأشغال التي حكم بها أقل من ذلك .

فان كانت القوميسيرية العثمانية تستاء من التجاء المصريين الى الحكومة البريطانية ليوسطوها في مسألة أخيهام عزيز العريى فما عليها الا أن تغنيهم عن ذلك وأن تكسب كلماته وتطوق أعناق العرب جميعهم جميلا بأن تبذل مساعيها الحسان في اطلاق سراح عزيز بك أو نفيه الى هذا القطر فلا تسمع بعد ذلك من المقطم وغير المقطم الا عبارات المدح والشكر، وأما الآن وقد قرع المصريون الأبواب مرارا ولم يلقوا مجيبا ولم يجدوا لهم سبيلا الى طلب المحافظة على العدل الا بقرع أبواب الانكليز ولا مدافع مسموع الصوت عن عزيز المظلوم الا جرائد الانكليز وفي مقدمتها جريدة التيمس فلا يسع كل معترف بالجميل غير الاعتراف به لذويه ولو كره ذلك الذين ينطقون عن هوى لا محافظة على مبدأ شريف .

وأما ان كانت القوميسيرية لا تفعل شيئا من ذلك ، ولا تراعى خاطر أمة عظيمة كالأمة المصرية بل ترضى بما لا يستطيه عقلاء مصر وما لا يخفى علينا أمره ، وتصديق أقوال الجواسيس الكاذبين الذين يبلغونها أن الجرائد المصرية الصادقة الولاء للدولة العلية توزع منشورات الثورة ضمن أعدادها فلا تعتب على المصريين اذا اضطروا ان يقرعوا أبواب غيرها لحفظ حياة عزيزهم وكف الظلم والحيث عنه فالناس في هذا العالم تعتمد على أهل الجد والكد والذين يهتمون بعظائم الأمور . وأما الاشتغال عن ذلك بأقوال الجواسيس وصغائر الأمور فلا يشيد لدولة مجدا ولا يحفظ لأمة عظمة .

يقول المؤيد - ١٤ ابريل ١٩١٤ - عن الحكم على عزيز بك المصرى ،
ولم يكن الحكم قد صدر بعد وقد جاء فيما نشره المؤيد :

يغلب على الظن أنه لم يبق فى شك أن المجلس العسكرى العالى فى
الآستانة العلية أصدر حكمه بالاعدام على عزيز بك المصرى وأن جلالة
السلطان عدله بالحبس فى احدى القلاع العثمانية خمسة عشر عاما ، فقد
اتفقت المصادر كلها على أن الحكم صدر وعلى أن التعديل حصل .

ونحن حيال حكم كهذا صدر من هيئة عسكرية أدت اليمين القانونية
بأن تحكم بالصدق والذمة لا يمكننا أن نقول شيئا عن حكمها ولا يجوز
لنا أن نتهمها بالغرض أو التحيز ضد المحكوم عليه ، فهى قد سمعت
ما قال شهود الاثبات عليه فحكمت بمقتضى ما قالوا .

هذا ما يجب علينا أن نقوله بخصوص من أصدروا حكم الاعدام على
عزيز بك المصرى ولكن من يرجعون النتائج الى مقدماتها والمسببات الى
أسبابها يلاحظون ان الذين أدوا الشهادة أمام المجلس العسكرى ضد عزيز
بك اندفعوا الى تأديتها بعوامل شتى من خصومه ، أو بعوامل البغض له
أيام كان قائدا عاما لجيش بنى غازى على ما رواه المؤيد أمس وانه لو
أعطيت حرية الدفاع لعزيز بك لما أصدر المجلس العسكرى فيما نظن
حكما كهذا جاء أكثر مما كان ينتظره خصومه .

نعم لو أعطيت حرية الدفاع لعزيز بك المصرى وأبيح له تجريح
شهادة الشهود لما كان هناك أدنى شك فى أن المجلس العسكرى يصدر
حكما بالبراءة ولكن مكاتبو الأهرام والمقطم فى الآستانة يؤكدون أن
عزيزا لم يعط حرية الدفاع ، فهذا الحكم لا يفصل فى المسألة بل يبقى
مجالا واسعا للشك فى أن الرجل ذهب ضحية خصومة وأنه فتح بابا
لخصوم الدولة يدخلون منه لنفث سمومهم ضدها .

ان الذين يرجعون النتائج الى مقدماتها يلاحظون ذلك ، ويزيد عشاق
الدولة منهم عليه أن التصرفات العملية والمعنوية التى اتبعت فى قضية
عزيز بك المصرى كان من شأنها أن تجعل الوهم حقيقة وان الرجل سيحكم
عليه حتما ، سيما وان فريقا هنا من أشياع خصمه اللدود هناك كان يؤكد
ذلك ويكد ويجهده فى جمع الشبهات لتقديمها الى المجلس العسكرى .
فكان من جميع هذا وذاك أن المجلس تأثر فأصدر حكمه . وهكذا الباطل
يسطو على الحق .

صدر الحكم على عزيز بك المصرى بما صدر ، فأصبح من واجبننا الصحافى أن نقول لرجال الآستانة العلية أن رأى العام المصرى قابل ذلك الحكم القاسى بالحزن الشديد لصدوره على رجل من أبناء مصر خدم الدولة بالصدق والاخلاص والهمة والشهامة خمسة عشر عاما . ثم قابله بالأسف أيضا لان صدوره بمثل هذه الشدة قوى الاعتقاد بان القابضين على زمام الأمر فى الحكومة العثمانية لا يبالون بالرأى العام المصرى وأن مقالة أنور باشا فى تلغرافه لفضيلة شيخ الاسلام من هذا القبيل كان من كلمات الحق التى يراد بها الباطل .

حزن رأى العام المصرى وأسف للحكم على عزيز بك لا فرق فى ذلك بين المسلمين والمسيحيين أو المتطرفين والمعتدلين لأنه كان ينتظر على الأقل عند صدور الحكم بالادانة ان يشفعه جلالة مولانا السلطان بالعفو رعاية لخاطره مصرفا ليكروب هذه النازلة ان يفعل فى النفوس فعلا سيئا ، ولكن خاب الرجاء وفشل المخلصون الذين سعوا سعيًا حثيثا فى ايقاف مسألة عزيز به عند حد محدود بصدور عفو عنه ، كما نجح الذين عملوا فى الآستانة على تصوير رأى المصرى أمام الحكومة العثمانية حقيرا ذليلا لا يعتد به ولا يؤبه لرجائه .

وهنا جناية الشيخ عبد العزيز جاويز على مصر - وليس بأول جناية عليها - فان هذا الرجل لم يكتف بالسعى فى الحاق الأذى بشاب نابغ بطل ، ولكنه كما اتصل بنا من مصدر عال بالآستانة كان اذا وصل الى أنور باشا نبأ احتجاج من مصر أو اجتماع من سادة أو أكابر فيها يقول له لا تعبأ بهؤلاء لأنهم ليسوا فى العير ولا فى النفير ، وان رأى العام المصرى لا قيمة له .

على أننا الآن وقد صدر الحكم معدلا بحبس عزيز بك خمسة عشر عاما لا زلنا نلح على حكومة جلالة مولانا السلطان أن تستصدر عفو عنه ان لم يكن للانتفاع بمواهبه فى صفوف الجيش العثمانى ، فإكراما لتاريخه المجيد وحبا فى عدم تعكير الصفاء بين مصر والآستانة العلية واقفالا لباب هذه المسألة وما ذلك بالشئ الكثير ولعل وسطاء السوء فى الآستانة يكتفون بما تم لهم من الفوز ويكفرون عن سيئاتهم بالمساعدة على اصدار هذا العفو ، وحسب الحكومة العثمانية ما هى فيه من المشاغل الأخرى . والسلام ، ، ، ، ،

أما الشعب . . فقد نشرت في ١٧/٤/١٩١٤ مقالا عن الحكم على عزيز المصري قالت فيه : « كنا نتمنى أن يصدر الحكم ببراءة عزيز بك المصري ، ولقد أعربنا عن هذه الأمنية في كثير من كتاباتنا ، ولكن وقد صدر الحكم بإدانته فيجب أن نخضع لهذا الحكم الذي نطق به هيئة نظامية حلف أعضاؤها اليمين باحترام القانون والعدل : يجب أن نحترم هذا الحكم كما نحترم كل حكم يصدر علينا وعلى أصدقائنا وعلى العاملين معنا لا سيما ونحن لم نطلع على الأدلة والظروف التي استنار بها هؤلاء القضاة في حكمهم فكل من يحاول تجريح حكمهم إنما يريد أن يتحكم في الضمائر ويعتدي على ذمة أشخاص بغير أن يكون لديه من البراهين ما يبرر هذا الاعتداء .

ان قضاة عزيز حكموا عليه وهم يعلمون أنهم مسئولون عن حكمهم أمام الله وأمام ضمائرهم فليس لنا الا أن نقول بأنهم حكموا بما أوجته اليهم ذمتهم واذا قلنا غير ذلك دون أن نعلم عن أمرهم شيئا ودون أن نطلع على ما اطلعوا عليه ، كنا ظالمين لهم وهذا ما نربأ بأنفسنا الوقوع فيه .

قد يقال لنا نحن نسلم بعدالة هذا الحكم ولكن كنا نرجو أن يصدر عفو عن عزيز أو على الأقل يستبدل الاعدام بعقوبة أقل من الأشغال الشاقة خمسة عشر عاما ونحن نجيب على ذلك بأنه كان هناك أمل كبير في تحقيق تلك الأمنية لولا تلك الحملة المدبرة التي قام بها أولئك الذين أرادوا تضحية عزيز على مذابح أغراضهم السياسية .

نعم نحن نصرح بصوت عال ان ادخال هذه المسألة في دور سياسي خطير هو الذي حال دون صدور العفو عن عزيز لأن أية حكومة تحتفظ بكرامتها لا يمكنها أن ترى اغراء الدول الأجنبية على أن تتدخل في شئونها الداخلية ثم تقبل هذا التدخل وتذعن للنتائج التي تترتب عليه .

نحن نعلم ان هناك قاعدة دولية متفقا عليها وهي أن الدول لا تملك أن تتدخل في أمور دولة أخرى حتى ولو كان المراد بهذا التدخل انقاذ الانسانية من الفظائع التي ترتكب ضدها .

وان الأمثلة التاريخية لا تنقصنا في هذا الباب ففي سنة ١٩٠٣ وقعت في مدينة كتشيف بالروسيا مذابح اليهود التي ضج العالم بأسره من هولها ومع ذلك لما أرسلت حكومة الولايات المتحدة الى حكومة الروسيا بلاغا تلاحظ فيه فقط على هذا الأمر المستنكر ، أبت روسيا أن تتقبل هذه الملاحظات ورفضتها رفضا باتا .

وفي ١٩ أكتوبر ١٩٠٩ قام في مجلس الشيوخ الفرنسي عضو

وسأل المسيو ليستون وزير الخارجية عن الخطة التي تنوي الحكومة الفرنسية انتهاجها حيال الحكومة الأسبانية على أثر اعدام (فرر) فقام وزير الخارجية وصرح : (بأن قاعدة عدم التداخل في السياسة الداخلية للحكومات الأجنبية هي قاعدة عادلة وموافقة لحقوق الشعوب التي يتعلق بها وحدها حكم نفسها بالطريقة التي تتفق عليها) وبناء على ذلك طلب عدم النظر في سؤال العضو .

فلماذا أراد الذين التجأوا الى قناصل الدول الأجنبية في مسألة عزيز معاملة الدولة العلية بغير ما تعامل به الدول الأخرى ؟

لم أرادوا ارغامها على الخضوع لأمر الأجنبي ؟ وهل اجتروا على فعل ذلك بالنسبة لفرنسا عندما سجننا ضابطاً من ضباطنا المصريين في الدار البيضاء . لقد انكرنا هذه الحركة لما رأينا فيها من المساس باستقلال الدولة العلية ؟

نقول هذا ولا نزال نرفع صوتنا محذرين المضرمين لنار الفتنة من الاستمرار في سياستهم الخرقاء فقد اتصل بنا أنهم سيتخذون الحكم على عزيز سلماً يصعدون عليها للاشتداد في حملتهم المدبرة ، ونحذره من بذر بذور التفريق بعد أن افترض أمرهم وانكشفت أعمالهم .

وإذا كنا نحذر المفسدين من شر أعمالهم فإننا نحذر كل مخلص من الوقوع في حبال تلك الحركة الخطيرة .

ان القوم يأترون على فصم عرى الخلافة الإسلامية ، يأترون على بيع البلاد للأجنبي ، يأترون على تحريك العرب ضد الترك والترك ضد العرب وهذه منشوراتهم التي توزع في الخفاء تدعو الى تجريد السيوف وسفك الدماء فليت شعري من الذي يستفيد من أهراق تلك الدماء غير الأجنبي ، وهل ينتفع الاسلام بشيء اذا انتحر أبناؤه بأيديهم ؟

تقول الجمعية الثورية العربية في منشورها الذي أشرنا اليه مخاطبة العرب : لم تسمحون بدمائكم اذا أمركم الترك بسفكها في قتال اخوانكم ، ولا تسمحون بها في سبيل المحافظة على حقوقكم وشرف عنصركم كما فعل ويفعل الأرمن ، أنسيتم أنه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فليحذر كل مصري من الانخداع فهذا غرض القوم ظاهر واضح فهم لا يريدون الا فتنة تجرى الدماء فيها أنهارا وتفرق أجزاء الجسم الذي

تفقد متفككه كل شئ خشيناه من أثرها فى نفوس أولياء الأمور العثمانية
إذا مست الحاجة لاصدار عفو عن عزيز وقد وقع ما كنا نخشاه وما حذرنا
منه القائمين بتلك الحركة . واننا نعتبر فضيلة شيخ الاسلام مسئولا عن
جزء من هذه النتيجة ، فباسمه طلب التداخل ، وتحت رياسته تقرر هذا
الطلب لأول مرة فاندفع السفير الى تقليده .

ثم اننا نلقى بعض المسئولية على عاتق فضيلته أمام الله ومازلنا
ندهش من رؤيتنا شيخ الاسلام يطلب من دولة مسيحية أن تتدخل فى
شئون حكومة اسلامية ؟

يقولون ان سفير انجلترا أئذ الباب العالى مطالب بالافراج عن عزيز،
فهل يريدون أن تظهر الحكومة العثمانية مظهر الخاضعة لتلك الانذارات
الأجنبية وهل بمثل هذه الوسائل ينال العفو عن الناس ؟

اللهم ان أكثر المشتغلين بتلك الحركة لم يكن يهمهم أمر عزيز
ولا مستقبله وانما هم وجدوا الفرصة سانحة لنفث سمومهم فانتهزوها .
فاذا أراد أصدقاء عزيز وأقاربه أن يصلوا الى نتيجة مرضية فليمنعوا ذوى
الأغراض من الاستمرار فى هذا الطريق الوخيم العاقبة وليعلموا أن الأمل
لا يزال متسعا للعفو عن عزيز اذا سكنت هذه الثائرة التى ترمى الى
التدخل الأجنبى واضرام نار الفتنة ، أما اذا ظل سلاح التهديد مرفوعا
فى وجه الدولة فلا أمل ولا رجاء .

هذه نصيحة نقدمها لكل من يريد مصلحة عزيز الحقيقية فنرجو
أن تصادف مقنعا من القلوب ولنعتبر بالماضى ولنترك المخلصين للدولة
يسعون سعيهم وسط الهدوء والسكينة فهذا السعى هو الذى يؤدى الى
الغاية المنشودة أما المساعى التى يكون سداها .

ويعود المؤيد - مرة أخرى فى ١٩ أبريل ١٩١٤ - الى الحديث عن
موضوع عن عزيز على المصرى فيقول فى كلمة موجزة :

يعلم الناس كافة أن المؤيد كان ولا يزال لهذه الساعة من أكبر
أنصار البطل عزيز المصرى لاننا فضلا عن معرفتنا الشخصية له فانا نقدر
فيه المزايا الفاضلة ونعرف عن حقيقة ومعلومات صحيحة أنه برىء وأن
هناك أغراضا شخصية وجهت للنكايه به .

الا اننا مع كل هذا - كما قلنا فى كلمتنا أخيرا - نرى ان المسألة
قد خرجت عن مكانها الطبيعى البسيط الى حال سياسة ما كنا نحب ان

تصل اليه مطلقا والذنب فى هذا واقع على رأس القابضين على زمام الأمور
فى الآستانة .

ذلك لأن اتخاذ الصحف الانكليزية ميل الأمة المصرية وحنانها
وعطفها على واحد مظلوم من أبنائها وسيلة للقول بأن علائق الولاء التى
تربط المصريين بالعثمانيين قد انفرط عقدها أولا ولا بد من تداخل الحكومة
الانكليزية وسفيرها فى الآستانة ثانيا قد حول المسألة كما قلنا من حالة
بسيطة الى حالة غير مرضية من الوجهة السياسية فنحن لهذا السبب
نوافق رصفاءنا الذين راعهم هذا الانتقال ، ولكننا مع الأسف نخالفهم فى
توجيه اللوم والانتقاد للمصريين الكرام الذين طالبوا بالافراج عن عزيز
بك ولا يزالون اليوم يطالبون بالعفو عنه وما كنا لنستحسن من رصفائنا
توجيه الانتقاد الى الشيخ الجليل فضيلة شيخ الاسلام وصرف وجه
المسئولية فى تداخل الحكومة الانكليزية فى هذه المسألة الى فضيلته ،
وانما الخطأ واقع فى الحقيقة على الذين لم يراعوا كرامة أمة مخصصة لهم
غيورة على مصالحهم والذين لم يتفضلوا بالعفو والرعاية من جانبهم
واختاروا خطأ منهم وسوء سياسة أن يجبروا لا أن يعفو وهم قادرون من
تلقاء أنفسهم .

وعن العفو عن عزيز المصرى كتب المؤيد فى - ٢١ أبريل ١٩١٤ -
يقول :

« بشرتنا التلغرافات الخصوصية اليوم بان جلالة مولانا السلطان
قد وقع العفو عن عزيز بك المصرى مراعاة مخاطر الأمة المصرية ووساطة
الحكومة الانكليزية ، وان هذا النبأ قد أدخل السرور على جماهير المعجبين
بعزيز بك من العرب والترك وان عزيز بك قد برح الآستانة اليوم
قاصدا مصر .

والمؤيد يستقبل هذا النبأ بالسرور لأنه سيكون السبب فى اقبال
باب خشى العقلاء من فتحه لان فى تكرار القول بتأثير المصريين وعدم رعاية
خاطرهم من جانب الحكومة العثمانية - ما يؤدى الى تنفير القلوب
واستخدام أولى الغايات ذلك النفور فى مآربهم السياسية .

فالمصريون اخوان العثمانيين مرتبطون بعرش الخلافة الاسلامية
ارتباطا لا يشوبه انحراف بسبب من أسباب الخلافات التى تحدث من

جاء غلطات الحكومة الحاضرة أو سوء سياستها العمومية . ولذلك كنا
أسفين كثيرا على أن رجال النفوذ في الآستانة لم يقدروا شعور المصريين
حق قدره في انعطافهم وحنانهم نحو واحد من أبنائهم وكنا نتألم كلما
رأينا السياسة الانكليزية تتخذ من هذه المسألة وسيلة لبسط نفوذها
وتدخلها في أمورنا الخصوصية .

نقول هذا ولا نجد بدا من أن نقدم شكرنا لجناب المعتمد البريطاني
اللورد كتشنر الذي بذل من الجهود والعناية بأمر عزيز بك المصرى ما كان
سببا في انتهاء هذه المسألة وفي العفو عن هذا البطل المحبوب .

وسننشر غدا مقالا بليغا لمؤرخ فاضل لعل فيه من العظات ما يفيد
أخواننا العثمانيين المتحكمين الآن في شئون الدولة ويبيعهم على الحكمة
والرؤية في خدمة الدولة بتقريب العناصر المؤلفة لها .

وعن وصول عزيز على المصرى الى القاهرة نشر المؤيد (٢٦ ابريل
١٩١٤) :

« برح حضرة عزيز بك المصرى ثغر الاسكندرية على قطار خاص في
الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة من صباح اليوم ويصل الى محطة
العاصمة في الساعة الواحدة والنصف حيث يجرى له احتفال حافل » .

وبعد كتابة ما تقدم جاءنا من الاسكندرية التلغراف الآتى :
« وصلت الباخرة التى تقل البطل عزيز المصرى ، وكان فى انتظاره
على الميناء جمهور عظيم من أعيان وفضلاء القاهرة والاسكندرية ومندوبو
الصحف الأوربية المصورة ومندوبو الصحف المصرية وجم غفير من النزلاء
الأجانب . وقد هتف له المجتمعون هتافا طويلا ونزل من الباخرة الساعة
٩ ونصف وركب القطار الخاص الذى أعدته له اللجنة التى كانت
تتولى الدفاع عنه » .

وحول وصول عزيز المصرى الى القاهرة . . كتب المؤيد فى (٢٧
ابريل ١٩١٤) :

فى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر أمس وصل القطار الخاص
المقل لحضرة البطل عزيز بك المصرى الى محطة العاصمة فاستقبله على
أفريزها عدد عظيم من الوجهاء والأعيان والأصدقاء يربو على ألفى نسمة
ولدى وصول القطار كثر التصفيق والتهتاف بالدعاء لجلالة مولانا السلطان
ولسمو مولانا الخديوى ونادى المحتفلون فلتحيا مصر ، وليحيا المصرى .

وبعد أن ترجل هو وأصدقائه الذين حضروا معه من ثغر الاسكندرية
ازدحمت المناكب للسلام عليه وتهنئته بالعفو السلطاني الذى أنقذه من حكم
المجلس العسكرى فتمكن من رد التحية لبعضهم . ولما رأى أصدقائه تعذر
مصافحته لهم جميعا أو القاء خطبة يشكر لهم فيها جميلهم معه ، أوسعوا
له الطريق حتى ركب عربة كانت فى انتظاره بفناء المحطة وسارت به الى
منزله بين التصفيق والتهتاف والدعاء والقاء الزهور .

ونحن فى وسط هذا الفوز الذى تكلم به جبين مصر نهنى حضرة
عزيز بك على المصرى على نجاته نرجو فى الوقت نفسه من جمهور المصريين
ان يوقفوا هذه الحادثة عند النقطة التى وصلت اليها لأن دقة العلاقات
التي تربط مصر بالآستانة العلية خصوصا والمسلمين ببعضهم عموما
تتطلب من كل غيور على مصلحة دولته وأمتة أن يضحى فى سبيل ذلك
شيئا كثيرا مما يجول بخاطرهم من مظنة العسف أو الجور فى قضية عزيز
بك فان الحقوق العامة للأمم يجب أن تفتى فى جانبها وتندمج فى وسطها
ذاتية الأفراد وتقديما للأهم على المهم .

ويغلب على الظن أن وطنية عزيز بك ورجولته وما اشتهر عنه وعرف
به من الغيرة الصحيحة على الدولة ستدفعه الى موافقتنا على هذا رأى .
ونرجو الله سبحانه وتعالى أن لا تحرم الدولة العثمانية من خدمات رجل
مخلص كفء ممثل وطنيتنا ابن مصر .

أما استقباله فى الاسكندرية - مثل استقباله فى القاهرة - فقد كان
أحسن رد يدفع به قول القائلين ان الأمة المصرية كانت بمعزل عن الضجة
الصحفية التى قامت بسببه - وأقطع برهان على أن الصحف المصرية التى
دافعت عن عزيز بك وانتصرت له وقالت باهتمام الأمة به انما كانت تترجم
فى كتاباتها عن شعور قرائها الذين كانوا يرون كل كتابة قليلة فى جانب

انقاذ بطل مصرى كريم وحمايته من أذى أعدائه والكائن له . فما اقتربت
الباخرة من مرساها حتى هتف المجتمعون هتافا طويلا وصاحوا : ليحيا
خديوى مصر المعظم - ليحيا عزيز بك - ليحيا العدل .

وكان الزحام يفوق الوصف اذ ضاق فناء الميناء بالمستقبلين الذين
تقاطروا من جوانب المدينة ليرحبوا بذلك القادم العزيز ، ولما نزل من
الباخرة أحدق به كبراء المستقبلين من الفضلاء والأعيان فعانقوه وهنأوه
بالسلامة . وقدموا له باقات الأزهار ثم أقبل عليه مندوبو الصحف
الأجنبية الكبرى كالماتان والتان والتمس وغيرهم يوجهون اليه بعض
الأسئلة فشكرهم على عناية صحفهم بأمره واعتذر لهم عن الاجابة لضيق
الوقت . وكان مندوبو الصحف المصورة ومحال الصور المتحركة على أهبة
لتصوير الاجتماع فرسموه من عدة أماكن وعلى عدة أشكال .

وسار عزيز بك بعد ذلك بين صفوف المستقبلين ورجال الشرطة
الذين كانوا يحيونه ويحافظون على النظام يحيط به أعضاء الجمعية التي
تولت الدفاع عنه وطائفة من أصدقائه والمعجبين بشجاعته يتقدمونه بباقات
الزهور وأغصان الورود فكان كلما مر بفريق من المجتمعين ولا سيما
السيدات الافرنجيات نثروا عليه الورد وهتفوا له حتى وصل الى القطار
الذى أعد له فركبه بين التهليل والتصفيق . وسار القطار من الميناء رأسا
الى القاهرة فكان ينتظره فى المحطات كل من علموا بقدومه ولا سيما محطة
طنطا وبنها .

وقد صحبه فى القطار بعض مندوبو الصحف الأوربية لينقلوا الى
صحفهم أنباء الحفاوة التى تلقت بها مصر بطلها المردود اليها .

وتنشر الأهرام فى ٢٨ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان : الحكم على
عزيز بك على :

اذا لم يكن عزيز بك بطلا ، وهو بطل باعتراف خصومه فقد صيرته
محاكمته ذلك البطل واذا كنا قد ألزمت بعد الحكم عليه السكوت والصمت
فليقيننا أن رجال الدولة الذين سمعوا وشايات الواشين به عرفوا بعد
محاكمته الحقيقة واستبدلوا حكم الاعداء بحكم السجن ، وليقيننا أيضا
بأنهم يستدرجون من حكم السجن الى العفو فالسكوت عن تجريحهم أولى
وأجدر . ولكننا نقول اليوم فى هذا الموضوع كلمة نمهد لها بتمنى العفو
التام عن ذلك البطل الذى وهب دمه لدولته وترك مدرسة الحقوق الخديوية
ليحمل السيف فى محاربة أعدائها .

وكلمتنا أنا سمعنا بعض الناس يعترضون على الذين يدافعون عن
عزيز بك بقولهم : وماذا يعنيكم ؟ .. ضابط عثمانى وجهت إليه التهمة
فحوكم وحكم عليه فأى دخل للناس أجمعين فى أمره .

فهذا القول كان يصح إيراد فى القرن الثالث عشر لا فى القرن
العشرين ، وفى ذلك العهد كان الناس جميعا عبيدا للملوك والحاكمين
يتصرفون بهم كما يشاءون ، أما الآن فإن الملوك والحاكمين لا يملكون
رقاب الرعايا ودماءها يتصرفون بها كما يشاء هواهم بل هل نواب الأمم
فى أوطانها وخدمتها ومهمتهم أن ينفذوا القانون الذى وضعته الأمة بواسطة
نوابها فلكل فرد من أفراد الأمة أن يسهر على انفاذ ذلك القانون وإذا رأى
من حكومته الموكلة بانفاذ القانون خروجاً عن حدوده أو مخالفة لأوامره
ونواهيهِ هب فى وجهها وطالبها بالعودة إليه فلا يصح إذن فى هذا العصر
أن يقال لشخص يعترض على الحكومة أو يخطئ الحكومة أو ينبه الحكومة
أو يجرح سيرها فى عمل من الأعمال (ماذا يعنيك) هذا من الوجهة
الخاصة فبحكم هذه الوجهة يجوز لكل عثمانى الاعتراض والنقد والبحث
والتخطئة لحكومته العثمانية إذا اعتقد وأيقن بأنها تعمل عملاً يخطأ أو
ينفذ ونحن العثمانيين نعتقد بعد الدستور أو حكومتنا دستورية مختارة
من الشعب لانفاذ القانون الذى يسنه الشعب لنفسه ويقيم الوزارة منه
هيئة منفذة لذلك القانون الذى سنه : فالذين ينتقدون الحكومة بصرف
النظر عن صحة انتقادهم أو خطأ ذلك الانتقاد لا يقال لهم ماذا يعنيكم
إلا إذا اتهمنا حكومتنا بأنها حكومة تسترقنا كالعبيد أو اتهمنا أنفسنا
وأمتنا بأنها عبدة مستركة لحكومتها ولتلك الحكومة أن تستبدل بها كما
تشاء بلا حساب وهذا ما لا تريده الأمة لنفسها وهذا ما لا تريده الحكومة
لأمتها ولنفسها .

أما من الوجهة العامة فقد باتت الأمم جميعها فى هذا العصر متكافلة
متضامنة تجمعها جامعة الانسانية ويشملها قانون عام لا تختلف فيه
واحدة عن أخرى ، وبحكم هذا القانون العام ومنه العدل جوهر فـرد
لا يجزأ - يغضب الصينى للأمريكى ولا يجوز أن يقال له ماذا يعنيك ..
ويغضب الأوربى للآسيوى والأفريقى ولا تسمح المدنية والعلم والحضارة
بل النوعية الانسانية أن يقال لأحد منهم ماذا يعنيك من الآخر . وأما
حادثة « بايليس » الاسرائيلى فى « كييف » فانه اتهم بقتل طفل نصرانى
فاهتزت الأرض لتهمة وكانت صحف الآستانة تحمل على الحكام الروس
حملات شديدة من أجله وتبرى أساقفة النصرانية لنفى تهمة قتل الأنفس

عن اليهود فلم يستطع روسي واحد ان يقول لشخص واحد من أحسد شعوب الأرض : ماذا يعنيك . وهذه مدام « كايو » قتلت صحفيا فانشطر العالم شطرين في أمرها ، فهل قال الفرنسيون لغريب عنهم تكلم عنها ، سواء أكان ممن خطووها أو صوبوا عملها ماذا يعنيك . . . كلا انهم لم يفعلوه وهذه صحفهم تأخذ أقوال الصحف الأجانب وتنتقل روايتها لتؤيد في هذه الجريمة مذهبها .

فكلمة « ماذا يعنيك » كلمة تؤلم نفس كل عثماني حر عاقل يريد أن تكون أمته ودولته في مصاف الأمم والدول المتمدنة ، فكل عثماني يعنيه ان يكون رقيبا على كل حاكم عثماني الا اذا قلنا في الحاكم العثماني الذي يجلس على كرسى الحكم ما قاله الربانيون بالخالق عز وجل على العرش استوى .

بقى أمر المحاكمة والحكم والعظة الواجب ان يستخلصها حكامنا ، فهم خدعوا في اتهام ذلك الضابط وهم جدعوه بقدرة الواشين في لجم الأمة ، وهم خدعوا بسياستهم التي كانت من أولها لآخرها شرا ووبالا لا في مسألة عزيز بك على فقط بل مسائل أخرى أكبر وأهم تتناول المجموع لا الأفراد ، فقد مثلوا له قبل اليوم طلاب الاصلاح من العرب أعداء وحرصوهم على الفتك والتنكيل بهم ورد مطالبهم وأخذوا على أنفسهم الوشاية بهم واتهامهم وتسويد صفحاتهم أمام الأمة التي ظهر لهم الحق وبان . . . واذا بطلان ذلك الاصلاح هم المخلصون المتحرقون المتفطرون غيرة على الدولة والأمة . . . واذا بأولئك الوشاة السياسيين هم الأفاكون الذين يوشون بالمخلصين من أبناء الأمة لينالوا الأجر عن وشاياتهم ، وهم الكذابون الذين يريدون أن يصورا للحكومة الأصدقاء أعداء ليقيموا أنفسهم في عيونهم مدافعين عنها وعن الوطن .

« قاتلهم الله أنى يؤفكون »

اذا كانت التجارب أصدق معلم فتحن نأمل أن تكون جميع الحوادث التي تمر الآن برجالنا ويمرون بها خير معلم لهم وخير مرشد الى سواء السبيل .



وأخيرا وليس آخرا ، تنشر المؤيد كلمة توجهها الى عزيز بك المصرى في ٣٠ ابريل ١٩١٤ وتكون الكلمة بتوقيع « أبو عامر » وقد جاء في تلك الكلمة :

« ليكن في ذمة الله والتاريخ ما قدمت من خير وفضل لدولتك
وملتك يا عبد العزيز . واني أمت اليك بشهامتك ومروءتك وبالروابط
المصرية المقدسة والجامعة الاسلامية من خوفها لتؤاخذ دولتك بما فعل
السفهاء منها وان تسدل الستار على تلك الرواية المحزنة المخجلة التي
مثلوها على مسرح دار الخلافة العظمى وأبى عليهم تشييدهم وعنادهم
الا أن يجعلوك بطلها .

لعمر الحق يا عبد العزيز أن الدولة العثمانية لفي أشد الحالات
بلاء أو محنة فهي تأتي القبيح وتراه حسنا .

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فاشفق عليها وحاذر ان تقطع بغير قصد منك في حديث معك أو
تصريح لك ، خيوط العلاقة التي بينها وبين شقيقتها مصر ، بل اسع
جهدك بما أوتيت من شهرة حسنة وجاه عريض أن تجعل من تلك الخيوط
الواهية حبالا ثقالا .

عسى الله أن يلهمها صوابا ويهديها صراطا مستقيما . ولا يئسك
يا عبد العزيز ما لاقيت في الآستانة من غم وهم واعتساف ونكران
جميل . فلقد رجعت الى وطنك الذي استقبلك بالتكبير والتهليل ولم يكن
في شعوره نحوك كالعائلة الجاهلة تؤهله برجلها الجاني عند خروجه
من سجنه ولكنه كأمة ذات شعور حي واحساس رقيق تفرح وتهتز اعجابا
وتيهي اذا فك أسر بطلها ورافع مجدها ومظهر فخرها وثمره أجيال كثيرة
من عمرها .

رجعت سالما الى وطنك الذي يحبك ويعظمك وهو الجدير بأن يشرح
لك صدره ويرفع لك ذكرك ويحفظ لك جميلك ولا يلتك من عملك وفضلك
شيئا .

فليطب خاطرك وليهدأ بالك ولتكن مطمئنا فلسوف يرضى عليك
وترضى .

وعليك السلام من معجب بك وبشهامتك .

ويبقى بعد ذلك كله أن نفرّد فصلا للعلاقات المصرية العثمانية على
المستويات الشعبية والرسمية وأن نركز - أكثر - على موقف عزيز على
المصري من دولة الخلافة العثمانية قبل وبعد السلطان عبد الحميد . .

1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

2. The second part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

3. The third part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

4. The fourth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

5. The fifth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

6. The sixth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

7. The seventh part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

8. The eighth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

9. The ninth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

10. The tenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

11. The eleventh part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

12. The twelfth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

13. The thirteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

14. The fourteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

15. The fifteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

16. The sixteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

17. The seventeenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

18. The eighteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

19. The nineteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

20. The twentieth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

21. The twenty-first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

22. The twenty-second part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

23. The twenty-third part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

24. The twenty-fourth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

25. The twenty-fifth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

26. The twenty-sixth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

27. The twenty-seventh part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

28. The twenty-eighth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

29. The twenty-ninth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

30. The thirtieth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

الفصل الثامن

العلاقات المصرية التركية شعبيا ورسميا

مواقف عزيز على المصرى من دولة الخلافة الاسلامية قبل وبعد السلطان عبد الحميد

عندما تكون الدولة أية دولة قوية فى الداخل تكون بالتبعية قوية فى الخارج ، وعندما تضعف الدولة أية دولة فى الداخل تضعف بالتبعية أيضا فى الخارج . . . والدول كالبشر لها لحظات تولد فيها وأخرى تموت ، وقد تؤد الدولة قبل أن تتاح لها فرص النمو والازدهار ، وقد تطول أعمار الدول وقد تصغر كالأفراد تماما . . . ولا بد . . . طال المدى أو قصر . . . من نهاية الدول ونهاية الأفراد .

وقد تكون نهايات الدول بأفعال من أبنائها وقد تكون النهايات بتدخلات خارجية وقد كانت دولة الخلافة الاسلامية قوية فى البداية ثم تسلسل اليها الضعف فى الداخل أولا ثم امتد الضعف الى الخارج فدفع الدول الكبرى الى الاستفادة من هذا الضعف . . . وكلما زاد الضعف فى الداخل كلما زادت معاملة الدولة والأفراد والقوى فى الخارج .

ولقد اتفقت - فى النهاية - الدول الأوروبية الكبرى بل والصغرى على التفكير فى تقسيم دولة الخلافة حتى الدول الأوروبية التى كانت تركيا قد تحالفت معها مثل ألمانيا ، كانت تشترك فى التآمر على دولة الخلافة الاسلامية مع بقية الدول الأوروبية الكبرى ، فقد كانت مصالح الألمان أولا ثم المصالح الأوروبية وبعد ان كان قد بقى شئ من المصالح . . . هذا بالنسبة لألمانيا الحليفة الكبرى لدولة الخلافة العثمانية .

وقد كنت من زمن طويل أرى أن الدول الأوروبية الكبرى وهى تتآمر على دولة الخلافة الاسلامية وتستعين ببعض أفراد من دولة الخلافة الاسلامية . . . وكان يعوزنى الدليل القاطع والبرهان الساطع الى أن كانت

مذكرات السلطان عبد الحميد ، كتبها الرجل قبل أن يلقي ربه ببضعة أعوام . وأكدت الأحداث فيما بعد وفاته أنه كان صادقا الى حد كبير في مذكراته . . . أكدت هذه المذكرات وجود علاقات قوية بين كثير من المنفيين الأتراك في أوروبا والذين شاركوا في الثورة على السلطان عبد الحميد وبين كثير من الدول الأوروبية الكبرى وفي المقدمة بريطانيا . . . كما أكدت تلك المذكرات وجود علاقات قوية ووثيقة بين بعض المفكرين والتوار الأتراك الذين كانوا يعيشون في أوروبا وبين الماسونية .

ولست أبالغ اذا ما قلت ان مذكرات السلطان عبد الحميد قد حلت الكثير من الألغاز التاريخية التي بقيت زمنا طويلا بدون حلول . ومما يؤكد ما جاء في مذكرات السلطان عبد الحميد حول دور الدول الأوروبية الكبرى وخاصة بريطانيا والماسونية في انزال الهزيمة بدولة الخلافة الاسلامية « رجل أوروبا المريض كما كان يسميه قيصر روسيا » ان دولة الخلافة الاسلامية قد تحللت وانهارت بعد بضع سنوات من نجاح الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ . ثم كانت النهاية الرسمية لدولة الخلافة الاسلامية قبل نهاية الحرب العالمية الأولى .

وقد كان للصهيونية العالمية دورها الهام والخطير في الاجهاز على دولة الخلافة الاسلامية وخاصة السلطان عبد الحميد الذي رفض أن يعطى للصهيونيين الحق في اقامة دولة صهيونية في فلسطين . . . على أن تلك العوامل الخارجية : الصهيونية والماسونية وتدخل الدول الأوروبية الكبرى ، لا يقلل أبدا من خطورة الأوضاع الداخلية في دولة الخلافة الاسلامية وما اتخذته السلطان عبد الحميد الثاني من وسائل الضغط والارهاب والقهر والاستبداد ، لم تصل الى الحد الذي وصلت اليه أيام حكم الثوار الأتراك (جماعة الاتحاد التركي) .

ومن رأيي الشخصي وقد أبديته في ملتقى الفكر الاسلامي بالجزائر أعوام ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ واننا ظلمنا دولة الخلافة الاسلامية الى حد كبير متأثرين بوجهات النظر الأوروبية التي كانت سائدة قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وكان لها وقتئذ السيادة على فكرنا وعقلنا في كثير من الأقطار العربية فيما عدا مصر والجزائر وتونس .

ومن رأيي الشخصي أيضا . . . وقد أبديته في مذكرات قدمتها الى تلك الملتقيات وأخذ برأيي في النهاية ، أنه لابد من إعادة النظر فيما أبديناه

باللغة العربية خاصا بمواقفنا من دولة الخلافة الاسلامية وخاصة في مرحلتها الأخيرة ومواقفها منا وأنه لابد من انصاف دولة الخلافة الاسلامية وعدم تحميلها أكثر مما يجب أن تحمل بل لابد من انصاف السلطان عبد الحميد إذا كان حقا يستحق الانصاف . وهذا لا يتم الا اذا أبعدنا عن عيوننا وأذهاننا وعقولنا التسلط الأوروبي على فكرنا . وعلينا أن لا ننكر أبدا خطورة الاستعباد في العهد الحميدي وأن المذابح قد بلغت في عهده أكثر ممن سبقه من السلاطين وان كثيرا من زعماء العرب قد سيقوا فيما بعد عهد السلطان عبد الحميد الى المشانق لأنهم كانوا يقومون بالدعوة للقومية العربية واستقلال بلادهم ، ولنا بل علينا أن نتساءل . . هل اختفى الجور والظلم والطغيان بعد عهد السلطان عبد الحميد ان بقي . . ؟ وبصورة أخطر في العهد الذي بدأ بزوال السلطة عن السلطان عبد الحميد . . !!

ومن زاوية أخرى : هل كانت جرائم الحكام والسلاطين العثمانيين التي وقعت في البلدان العربية أضعاف أضعاف الجرائم التي وقعت في البلدان العربية بأيدي الانجليز وبأيدي الذين ادعوا أنهم كانوا يساعدوننا على الاستقلال أم لا ؟ . . لقد كانت الجرائم في أيام عبد الحميد ومن جاء بعده جرائم فردية يمكن أن تعد على أصابع اليدين والقدمين . غير أن جرائم الانجليز والفرنسيين بل والايطاليين في الجزائر وتونس وليبيا وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية أضعاف أضعاف جرائم السلطان عبد الحميد ومن جاء بعده .



كانت جرائم جماعة الاتحاد والترقي بالعشرات بينما جرائم المستعمرين الفرنسيين والانجليز ، والايطاليين بالمئات بل بالآلاف وربما بعشرات الآلاف . وأقولها بصدق وأمانة . . أنه مهما كانت جرائم السلطان عبد الحميد وجماعة الاصلاح والترقي فقد كان من الواجب علينا ألا نتآمر ضد دولة الخلافة الاسلامية ، بل لقد كان من الواجب علينا أن نقف معها في محنتها ضد الأجراء الخارجيين الى أن تنتصر وبعدها تعمل على اصلاح الفساد من الداخل وعن طريقنا لا عن طريق الأجانب لتبقى دولة الخلافة الاسلامية رمزا للحكم الاسلامي وللقوة الاسلامية . وأنه كان علينا بحق مقاومة الانحراف داخل تلك الدولة بدلا من العمل على انهيارها أو مساعدة أعدائها في الخارج على انهيارها .

وربما كان موقف الحزب الوطني في مصر في الثمانية عشر عاما الأولى في القرن العشرين من دولة الخلافة الاسلامية أقرب الى النضج

السياسى من مواقف الأحزاب الأخرى . ورغم أن الكثيرين يعيبون على الحزب الوطنى هذا الموقف ويعتبرونه مناهضا للدعوة الاستقلالية ، بل ان البعض يرى فيه نوعا من التبعية لدولة الخلافة العثمانية . . الا أننا نعتبر هذا الموقف المبدئى ، لا الموقف الشخصى ، من أكثر المواقف السياسية والوطنية حكمة واتزاناً ودعماً للاستقلال .

وقد تعرض الزعيم مصطفى كامل ، كما تعرض الحزب الوطنى لحملات ضارية . كما تعرض الزعيم محمد فريد والحزب الوطنى برئاسته لحملات أقل ضراوة من تلك التى وجهت الى مصطفى كامل والحزب الوطنى لمواقفهم من دولة الخلافة .

ويهمنى هنا فى بداية هذا الفصل أن أوضح موقف الحزب الوطنى من دولة الخلافة الاسلامية ، كما يهمنى فى نفس الوقت ان أوضح موقف حزب الأمة ومفكرة الأستاذ أحمد لطفى السيد ، وكذلك موقف حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية برئاسة على يوسف صاحب المؤيد .

وأذكر فى البداية أن هذه المواقف كانت كلها مواقف مصرية وطنية وان اختلفت وجهات النظر ، بل وان تباينت الى حد كبير . وقد أولى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أهمية بالغة للحديث عن العلاقة بين مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى وتركيا ، وفنائه الاتهامات التى وجهت الى مصطفى كامل بأنه كان من أنصار السيادة العثمانية .

يقول الأستاذ/ عبد الرحمن الرافعى :

« ان مركز مصر الشرعى لغاية الحرب العالمية الأولى كانت محددة بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والتي تعتبر حكما دوليا ، وأهم أحكام تلك المعاهدة ، الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول وضممان عرش مصر فى أسرة محمد على وبقاء السيادة العثمانية عليها ، وكان الاحتلال البريطانى قد انتهك الاستقلال المعترف فى تلك المعاهدة ونزل بها الى مرتبة المستعمرات التى للحاكم العام البريطانى فيما يتعلق بالتصرف فى شئونها فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية ، رأى بحق أن الجلاء هو الحل الحقيقى للاستقلال ، أما السيادة العثمانية فان التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال وبخاصة لأن هذه السيادة قد راحت مع الزمن وكانت سائرة بنفسها من نفسها نحو الفناء اذ لم يكن بقى من مظاهرها سوى الجزية التى كانت مرهونة للبيوت المالية الأجنبية لغاية

سنة ١٩٥٥ . . فموقف مصطفى كامل - عبد الرحمن الرافعي - من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكيما وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية ، فلم يكن ينادى بالغاءها بل كان يقول باحترامها حتى لا يستعدي الدول الأجنبية في الوقت الذي يجاهد فيه الاحتلال وهو بنفسه موقف الوفد المصري تجاه الامتيازات فيما بعد .

لقد كانت الدعوة الصادقة الى الجلاء توجب محاسبة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بالغاء سيادتها على مصر وارضاء هذا الطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكئود التي تحول دون استغلالها وهي الاحتلال ومخاطره لأن تركيا منذ وقع الاحتلال البريطاني كانت لا تفتأ تطالب انجلترا بالجلاء .

وقد كانت انجلترا ذاتها التي تحتل البلاد تحترم السيادة التركية الرسمية ولم تحاول الغاءها حتى ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى كما ورد في تبليغ الحكومة البريطانية الى حسين كامل سنة ١٩١٤ وبذلك تكون القوة التي كانت لسلطان تركيا على بلاده قد سقطت وآلت الى جلالة بريطانيا العظمى .

وقد كتب مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم مفصحا عن سياسته أن العلاقات يجب أن تكون حسنة مع تركيا ما دام الانجليز يحتلون وطننا العزيز .

وكانت العلاقات بين محمد فريد وتركيا الرسمية علاقات غير ثابتة بل كان في كثير من الحالات لا توجد علاقات طيبة على الاطلاق وربما كان مرد ذلك أن الحركة الوطنية المصرية قد انتقلت في السنوات الأخيرة من حياة محمد فريد وخاصة تلك السنوات السبع التي قضها محمد فريد منفيا في أوروبا الى مرحلة أكثر تقدما ونضجا واستقلالية وتلك طبيعة الأشياء فكل من في الوجود فيما عدا الجماد يتطور ويتغير وينمو وينزع الى الاستقلال وعن وعما حوله . . ولأن في النية اذا ما امتد الأجل - انشاء الله - اصدار مؤلف خاص عن محمد فريد واننى - اذا شاءت ارادة الله - سأقدم فيه أكثر من ٢٠٠ خطاب خاص من محمد فريد بعث بها الى زوجته وأولاده وأصدقائه وتلاميذه من المنفى لم ير واحدا منها النور على الاطلاق ، فلقد ظلت في خزانة الأسرة - أسرة محمد فريد - الى أن أهداها الى ابنه المستشار عبد الخالق فريد .

وفي هذا الكتاب الذي انتهيت تقريبا من اعداده وبقي أن ألقى عليه نظرة أخيرة فاحصة أكثر من فصل عن علاقات محمد فريد بتركيا .

وأكتفى هنا بالإشارة بإيجاز إلى تلك العلاقة مستعينا بمذكرات محمد فريد وبعض خطابه إلى أهله من غير إل ٢٠٠ خطاب التي لم تر النور بعد .
عندما زار محمد فريد الآستانة في ١٢ إبريل سنة ١٩٠٩ ، لأول مرة في حياته . كتب يقول : وصلت الآستانة في ١٢ إبريل وفي صبيحة ١٣ منه حصلت الحركة الارتجاعية المشهورة التي انتهت بعزل « السلطان » عبد الحميد بقوة حزب الاتحاد والترقي وهمة البطل محمد شوكت باشا .
ومن غريب المصادفات أنها حصلت صبيحة وصولي فأخذت أرسل الأخبار تلغرافيا للواء في اليوم مرتين أو ثلاثا وكانت أخباري أصدق أخبار الجرائد ، لأنني كنت أستقيها من أصدق المصادر حتى قال بعضهم اني كنت على علم بما سيحصل هناك ولذلك سافرت فجأة والحقيقة ان سفرى كان لتوثيق الروابط بين حزبينا وبين رجال حزب الاتحاد . . بعد ذلك عدت لمصر .

وينتقل محمد فريد - في مذكراته - إلى وصوله إلى الآستانة - بعد أن قرر الهجرة من مصر - في ٣١ مارس سنة ١٩١٢ وكيف استقبله الاتحاديون أحسن استقبال ، وكتابته العديد من المقالات في صحيفة الهلال العثماني التي كان يصدرها الشيخ عبد العزيز جاويش بأموال حزب الاتحاد وكذلك صحيفة الجون ترك .

ثم يروى بصراحته المعهودة كيف كان مجتمعا بأحمد رضا بك يوم ان اجتمع بعض الضباط في استانبول مطالبين بحل مجلس النواب بدعوى حصول ضغط من الاتحاديين وقت الانتخاب وكيف قال انه من الأوفق الحكم على هؤلاء الضباط بالاعدام في أقرب وقت قبل استفحال الأمر ، وكيف ان رأيه لم يؤخذ به فتفاقت الحركة وسقط الاتحاديون ، وتشكلت وزارة أحمد مختار باشا التي كان من بين أعضائها كامل باشا صديق الانجليز المشهور ، بوظيفة رئيس مجلس شورى الدولة . . ويقص فريد كيف داخله الخوف على نفسه لعلمه بعلاقة كامل باشا بالانجليز من جهة وبالخديو من جهة أخرى وكيف أخبر زوجته - التي كانت تعيش وقتئذ معه بالآستانة - وأفهمها أن صالحه يقضى عليه بالابتعاد عن تركيا حتى تتغير الأحوال « ثم يروى قصة رحيله من الآستانة وتفتيش منزله وعدم عثور البوليس على أى دليل ضده فيما عدا خطاب أرسله إلى زوجته يخبرها فيه بعزمه على عدم العودة للآستانة ما دام حزب الارتجاع في الوزارة وبأنه يترك لها الخيار في البقاء في الآستانة أو العودة إلى مصر » .

ويروى فريد بعد عودته الى الآستانة مرة أخرى في مايو سنة ١٩١٣ ، واهتمامه بنادى الطلبة المصريين هناك ، ويقول ان محمود مظهر الذى أطلق الرصاص على الخديو ، فى ٢٥ يوليو - كما يغلب الظن - كان من بين أعضاء ذلك النادى .

ثم يروى فريد كيف طلب مقابلة سعيد حليم باشا - الصدر الأعظم - وكيف ذهب بناء على موعد سابق الى الصدارة لمقابلته غير أنه لم يقابله « فانصرفت على أنى لا أعود ، وذلك لأننى تحققت بأن جيئته وخوفه من الخديو حملاه على عدم مقابلتى بعد أن وعد » . . . وسعيد باشا - الصدر الأعظم - من أسرة محمد على وينتسب الى فرع حليم وقد كان يطمح فى خديوية مصر . . .!! ويبذل كل جهده لكى يحكم مصر .

ويروى فريد مقابلاته لأنور باشا ، هو وعبد الحميد سعيد ليشرح الآخر له الحالة كى يزداد شجاعة على شجاعة فى مهاجمة الانكليز بمصر ، ثم مقابلته له مرة أخرى ، وكلمته فى سامى الصدر وما فاه به من العبارات الجارحة للأمة المصرية فأجابنى بما أجاب به الخديو بأن الرجل لا يهتم به مطلقا ولا لكلامه ، فشكرته وأعطيته خمس طلبات لطلبة مصريين يريدون الدخول فى المدرسة الحربية « . . . وكان الصدر الأعظم قد قال للأمير ابراهيم حلمى باشا ، وسيف الله بك يسرى : « اذا تحرك الحزب الوطنى فى مصر أو رفع رأسه بعد دخول الجيش التركى فهو سيأمر بنفى ومعاينة أعضاء الحزب وطبعا رئيسه فى المقدمة وأنه سيكون فى مصر سينوب لنفى الوطنيين المصريين ، كما توجد سينوب فى تركيا لنفى المعارضين للحكومة وان الصدر الأعظم قال لهما : انه نبه على طلعت بك وأنور باشا بعدم مقابلة فريد » . . .

وتكلم محمد فريد - طويلا - فى مذكراته عن وجوده بشركيا فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وسعيه الحثيث لارسال حملة تركية الى مصر لطرد الانجليز بمساعدة الشعب المصرى ومقابلاته العديدة لأنور باشا وزير الحربية وخلييل بك رئيس مجلس النواب ، ثم يروى كيف ألقى خطبة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى مسرح الشتاء بجنيانة الملة كان بها عبارات يفهم منها أنه لا يخشى تهديدات سعيد حليم باشا الصدر الأعظم بالنفى الى سينوب اذا تكلم أو أتى عملا ضد السياسة التى ترمى الى اعادة مصر ، الى الخطيرة التركية ، كما أنه يزهو فى خطبته أنه لا سلطة لسعيد باشا فى الحكم وان كان صدرا أعظم ، ثم تحدث بافاضة عن محاولات

الأتراك - أو بعض سياسة الأتراك - المداعبة الحزب الوطنى ليساعدهم على فتح مصر ، وبعدها ينفذون سياستهم وإرادتهم الاستبدادية فى بلدنا .

ثم يروى كيف نصحه الشيخ عبد العزيز جاويش ألا يحمل الدبوس الذى حملناه فى جنيف والمكتوب عليه مصر للمصريين والذى قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين وقد قال لى الشيخ جاويش ان منظره فى صدرى وصدر اخوانى يغيظهم كما يغيظهم محافظتى على قومية مصر ، فى كل كلامى وكتاباتى ، وقال لى ان سليمان شكرى بك وبهاء الدين مناسترى اللذين كانا معنا فى اجتماعات القمسيون الأولى التى حررنا فيها بعض المنشورات تألما جدا من قولى اذ ذاك : يجب علينا الاحتراس فى كتاباتنا حتى لا يقول أعداؤنا ان رجال الحزب الوطنى يريدون تسليم مصر للأتراك » . . ثم يروى فريد كيف سعى مرارا ، لاعادة العلاقات بين تركيا والحديو وكانت قد تأثرت كثيرا بسبب مساعى سعيه حليم باشا - الصدر الأعظم - لاغضابه حتى يستطيع أن يستولى على خديوية مصر ، وكيف انتقل الحديو من الآستانة الى فيينا هربا من مضايقات سعيد حليم ثم يروى محاولاته مع المانيا لكى تضغط على حليفته تركيا لاصدار ارادة سننية مؤداها ان القصد الوحيد للحملة الزاحفة على مصر هو ازالة السطة الانجليزية واعادة مصر الى أبنائها يتدبرون أمرها وتحت امره الحديو الذى يريدونه ، ثم يروى محاولاته مع الكثيرين لاجراج من تحالفها مع انجلترا واتفاقية مع تركيا .

ثم يذكر تفاصيل العديد من محاولاته مع السياسة الأتراك وكيف قابل ذات مرة أنور باشا وتحدث معه فى ضرورة لقائه بالصدر الأعظم وكيف اشترط على أنور باشا كذلك ان يحسن الصدر الأعظم مقابلته لأنى لا أتحمل أقل إهانة وعلى شرط أن أكون حاملا لشارة الحزب الوطنى المكتوب عليها مصر للمصريين ، والتى كان غضب الصدر الأعظم بسببها فوعدنى أنور باشا بكل ذلك . ويروى فريد مقابلته للصدر الأعظم فى تريكوى « فأحسن مقابلته جيدا » ثم يروى فريد مقابلته ليوסף صديق باشا ، والسيد كامل - من رجال الحديو - وكيف سالاه ماذا يكون العمل فيما لو هزم الأتراك وانتصر الانجليز ؟ وقول فريد نجهته حينذاك فى تجهيز الثورة فى مصر ، أما الاعتراف بالحماية مهما كان شكلها ومهما أعطانا الانجليز من الامتيازات فلن يمكن مطلقا .

ويتحدث محمد فريد عما أشيع عنه في الأوساط التركية من أنه اتفق مع الألمان ضد تركيا وكيف طالبه أصدقائه في الآستانة بالعودة إليها لمحاربة الدسائس ضده وقطع السنة الدسائس ثم يقول :

« لما أتت الى هذه الأخبار » هيممت بالسفر الى الآستانة ولم يوافقني اسماعيل لبيب لاعتقاده ان القصد تحريف نص على الذهاب اليها حتى أمنع من الخروج منها ثانيا الى الخارج حتى ينتقم منى بأى شكل آخر كان أرسل الى الشام مثلا أو يدسون لى من يقتلنى كما فعلوا ذلك فى العام الماضى الجندى أفندى الذى كان يشتغل مع الادريسى ولكنى خاطرت بنفسى وصممت على السفر لتأكد الحقيقة بنفسى حتى اذا أيقنت أنه حزب الاتحاد انقلب على بسبب تمسكى بحق مصر والدفاع عنها فأكون فى حل من الانفصال عنه بل ومن محاربته جهرا مرتاح الضمير ، وعلى ذلك سافرت وبمجرد وصولى الآستانة قابلت أحمد فريد ابن أختى زهرة هانم وكان بنفس الأوتيل الذى نزلت فيه فأكد لى كل هذه الاشاعات وشرح لى مساعى حزب الصدر وقال لى ان الصدر نفسه كلمه ضدى وبخصوصى .. »
ثم يروى فريد ، كيف ان الاشاعات قد أثرت على بعض رجال الحكومة وبالأخص على طلعت بك وكيف أنه حاول فى ٢ فبراير سنة ١٩١٥ مقابلة أنور باشا فى منزله فلم يستطع بالرغم من أن أنور باشا كان يقابله فى أى وقت يذهب اليه فى منزله . ويروى فريد كيف أنه ذهب الى دار الصدر الأعظم لتأدية الواجب السياسى « وبعد ان انتظرت وقدمت لى القهوة حضر أحد الخدم وأبلغنى سلامه ، وقال لى أنه يشكرنى على زيارتى ، ويأسف لعدم امكانه مقابلتى لأنه أخذ مسهلا ولا يستطيع النزول اليوم وأنه يرجونى بأن أحضر فى أى وقت أريد ولعلمى ان هذا العذر منتحل ، انصرفت على نية العودة وفعلا لم أحضر اليه بعد ذلك .

ويروى فريد ، أنه قابل الدكتور أحمد فؤاد وقال له : « انى أتعجب من ان الاتحاديين يضعون لمثل هذه الدسائس بعد ما أديناه لهم من الخدمات فى مصر من سنتين مضت » .. ثم يتحدث محمد فريد بعد ذلك عن التقارير التى قدمت ضده وكيف أنه أصر على التمسك بحريته المطلقة فى زيارة من أريد وانى اعتبر هذه المراقبة اهانة لى ، ودليلا جديدا على عدم ثقة رجال الحكومة بى « ثم تحدث عن مقابلته لطلعت بك واحالة طلعت بك الموضوع برمته الى مدير الأمنى العمومية « الأمن العام » ، ويقول فريد : داخلنى الريب ، وقلت ان احالة المسألة على مدير الأمنى العمومية ،

تفيد أنهم يريدون استجوابي كمتهم وبما ان الحكومة عرقية فلا يبعد ان يحيلوني على المجلس العسكري لمحاكمتي بالحيانة » .

ولذلك لما عدت الى الفندق أخبرت أحمد فريد ابن أختي ما دار ولم أخف عنه تخوفي من غدر هؤلاء الأشرار وأخبرته أنني عزمت على اخبار سفارة ألمانيا بكل ذلك لتحميني اذا قصدوني بشر ، ولتساعدني على السفر من داخل الدولة ، وعلى اخبار جاويد بك لأنه يميل الى وربما يقدر على مساعدتي على الخروج من هذا الشرك ، وهكذا حصل : أخبرت البارون أو بتايم بكل ما لدى وقابلت جاويد بك في النادي التركي وقصصت عليه أعمال طلعت بك فوعدني بالتكلم معه ، وأخذ يهدى خاطري ، وقلت له : ان لم أحضر باكر الى الساعة السادسة مساء فأخبر السفارة الألمانية وجاويد بغيابي اذ ربما أكون قد حجزت » .

ثم يفصل محمد فريد ماذا بينه وبين عزيز بك بعد ذلك وكيف سأله : هل أخذت نقودا من الخديو عباس ؟ وكيف أجاب فريد : نعم ولا عيب في ذلك لأنه خديوى البلاد الشرعى ولا يعتبر أخذ فلوس منه خيانة .

س : هل أخذ نقودا من ألمانيا ؟

ج : أبدا - وقلت ذلك غاضبا ثم قلت ولم تسألنى هذه الأسئلة الجارحة ، أنا متهم بالخيانة لألمانيا صديقتكم وعلى فرض أنني أخذت منها نقودا فهل هى من الأعداء المحاربين « سكوت » .

س : هم تصرف الآن ؟

ج : اسأل أنور باشا فهو الذى يعطينى ما أعيش منه .

س : كم أعطاك ؟

ج : اذا كان ضروريا ذكر المبلغ فهو ٤٥٠ جنيهها تركيا أعطائها لي في يونيو الماضى ، للصرف على بعض الأمور الصحفية وعلى نفسى !!

ثم يروى فريد كيف سأله عزيز بك عن خلافه مع أحمد فؤاد والشيخ جاويش وكيف رد على هذا السؤال بقوله انه ليس على خلاف معه فهو صنيعة وهو الذى رباه وصرف عليه ولم يختلف معه فى شيء أمّا الشيخ

فلا رأى له أعرفه وهو ليس من لجنتنا الادارية ولا من حزبنا بل كان كاتباً بالأجرة يكتب فى صالحنا ما نأمره به ، ثم سألته عزيز بك عن الحزب الوطنى والقول بأنه غير موجود ، وقد رد فريد على ذلك بقوله : ان حزبنا الآن بعضه مشئت فى أوروبا والبعض مختلف فى مصر فحالة حزبنا الآن كحالة حزب الاتحاد أثناء اضطهاد عبد الحميد لكم ومع ذلك تريدون أن تقولوا ان الحزب الوطنى تشئت أو عدم بالمرّة وبالتالى فلا معنى لأن أكون رئيساً لحزب غير موجود فأنا مستعد للاقرار بذلك بأنى متنازل عن الرئاسة لأننى شبت شهرة فضلاً عن أن مثل هذا التنازل لا يفيدكم بشئ لأن اسمى لا يزال هو المسموع فى أوروبا . وينهى فريد المقابلة بقوله : هاك ما عندى من الأقوال أرجوك ان تبلغها حرماً مع جميع ما قلته لك من الملحوظات الى طلعت بك ، وتبلغه استيائى من هذه المقابلة وهاتيك المراقبة الشديدة فان أراد بياناً أوضح فأنا تحت طلبه . ومستعد للإجابة مع العلم بأنى أعتبر نفسى حراً فى ان أقابل من أريد رغماً عن جواسيسكم العديدين مصريين وغير مصريين .

وينقل محمد فريد ما دار بينه وبين جاويد بك الذى أعطاه صورة مظلمة عن الأحوال فى تركية واضطرار تركيا الى قبول الصلح قبل نهاية عام ١٩١٦ وكيف أنهما تدارسا حالة مصر بعد الصلح وكيف قال له جاويد بك : اما ان ترجع الحالة الى ما كانت عليه قبل الحرب أى بقاء الاحتلال مع إعادة السيادة العثمانية واما الرجوع الى ما كانت عليه مصر قبل ١٨٨٢ ، أى جلاء الانجليز عنها مقابل جلاء الألمان عن بلجيكا - أو جعل مصر مستقلة تماماً وعلى الحياد المطلق ، كما كانت بلجيكا قبل الحرب .

ويروى فريد أنه قال بضرورة بقاء قناة السويس الأسبوية فى قبضة الدولة حتى يمكننا الاستمرار على حركتنا الوطنية ويمكن للدولة مساعدتنا فى ادخال السلاح والاستعداد للثورة حتى تقوم عند سنوح الفرصة وأهم شرط ان يكون بمصر جيش قوى يمكنها الدفاع عن استقلالها ضد كل مهاجم أيا كان . ثم يعود فريد الى الحديث - مرة أخرى - عن مقابلة عزيز بك له وسؤاله عما نقل على لسانه بالحرف الواحد : احترسوا فى الكتابة حتى لا يقول اخواننا المصريون بأننا سلمنا مصر للأتراك خصوصاً ونحن متهمون بذلك من قبل : وقول فريد : نعم قلت ذلك ولم أزل أكرره لأن هذا اعتقادى ولم أتحوّل . ويعقب فريد على ذلك بقوله :

انى اذكر هذه المسائل لأبرهن على غدر الأتراك وعلى أنهم كانوا يراقبون
حركاتي وأقوالى من أول الأمر رغما عن تأييداتهم الكاذبة بعدم الطمع
فى مصر .

ويروى فريد مثالا على الجبهة - لقاءه بجلال الدين عارف الذى كان
يسمر بمكتبه فى مصر ، وأصبح وقتئذ نقيبا للمحاميين بالاستانة وأستاذا
بمدرسة الحقوق ، ومن تلاميذ الصدر الأعظم : أنه لم يزرنى ولا مرة واحدة
أثناء المدة الأخيرة ، التى قضيتها بالاستانة وهى ، أكثر من شهرين بخلاف
عادته . وكيف ان عمر رضا المحرر القديم بجرائد الحزب الوطنى ، كتب
مقالة فى ذكرى مصطفى كامل لتتشر فى صحيفة تصوير أفكار ومنع
الرقيب العسكرى نشرها لأن الأتراك لا يريدون ان تذكر مصر فى جرائدهم
بصفتها مطالبة بحريتها وذكر مصطفى كامل يجر حتما ذكر مطالب
المصريين .

ثم ينتقل محمد فريد فى مذكراته الى علاقاته بالساسة الأتراك بعد
سقوط وزارة سعيد حليم ومجىء وزارة طلعت باشا « بك سابقا »
وقوله للحاج عادل بك على ذكر سعيد حليم ، العائلة الخديوية لا يخرج
منها لسان طيب ذكرا كان أو أنثى ولا فرع حليم لأنهم جميعا فاسدون
مفسدون » ويذكر فريد كيف أرسل المصريون المقيمون فى ألمانيا برقيات
تهنئة لطلعت باشا للتشقى فى حليم انهم بذكر عدم اهتمام الأتراك
بضياع البلاد العربية منهم ، ثم يقص كيف جاء الصدر عند كلامه عن
زيارته لجاويد بك ناظر المالية العثمانية عند زيارته لبرلين فى سبتمبر
سنة ١٩١٧ : ان معاملة رجال الدولة نحوى قد تغيرت كثيرا أى تحسنت
من عهد انتصار الانجليز عليهم وابعادهم عن مصر نحو غزة « الشام »
لأنهم فقدوا أو كادوا يفقدون الأمل فى فتح مصر وجعلها ولاية عثمانية
كما كان يتمنى سعيد حليم وأحمد جمال باشا أو كما كانوا يمتنون أنفسهم
فى فتحها لأنفسهم ، هذه الفكرة المشثومة التى جعلتهم وحكومتهم
يحاربوننى بواسطة الجاويش والغلمان لأنى ما زلت ولن أزل مصريا على
أن مصر للمصريين » ويضع محمد فريد خطأ على الجملة الأخيرة . ويقول
محمد فريد عند الكلام عن جمال باشا - السفاح الأعظم : هذا الرجل
طامع فى فتح مصر لنفسه ويكره المصريين الأحرار وبالطبع أنا فى مقدمتهم
لاعلانى دائما حقوق مصر ، ومجاهرتى بمقاومة كل من يقول بغير ذلك
أيا كان ، وبذلك تنتهى العلاقة ... !!

ومن خلال السطور السابقة يتبين لنا ان العلاقة بين محمد فريد والقادة الأتراك كانت تمثل في بعض الأحيان صراعا عنيفا ، وتمثل في أحيان أخرى صراعا مستترا . محمد فريد - بكلمة موجزة - كان يريد بقاء الدولة العثمانية حرة مستقلة ، كما أنه كان من أنصار استقلال مصر استقلالاً تاماً - وعندما كانت المطالبة بالاستقلال لمصر تتعارض مع السياسة التركية ، كان محمد فريد يفضل بطبيعة الحال استقلال مصر ، استقلالاً تاماً . كان العدو الرئيسي من وجهة نظر فريد بك الاحتلال البريطاني ، وما عداه كان عدواً ثانوياً .

وقد كان حزب الأمة (المصري) وأعضاؤه يطلقون على أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية في مصر على علاقة طيبة ببريطانيا العظمى الدولة التي تحتل مصر ، وعلى علاقة سيئة بدولة الخلافة الإسلامية التي لا تحتل مصر . وما أكثر ما عبر الأستاذ أحمد لطفى السيد - فيلسوف ذلك الحزب - عن تلك السياسة ، وما أكثر ما حمل على الذين ينادون بأن تكون العلاقات المصرية التركية جيدة بل كان يتهمهم - كما فعل بالنسبة للحزب الوطنى - بالتبعية . ومذكراته فى بداية الحرب الإيطالية الطرابلسية وبينما الشعب المصرى كله منغمس فى تأييد دولة الخلافة وتأييد المجاهدين العرب فى طرابلس خرج الأستاذ لطفى السيد برأى معارض تماماً داعياً الى أن تكون سياستنا سياسة مصالح لا سياسة عواطف . وقد غضب الشعب لما كتبه أحمد لطفى السيد ، وتخلى حزب الأمة عن فيلسوفه ، وجاء الحزب بال الدكتور حسين هيكل ليرضى الشعب بمقالات تؤيد دولة الخلافة العثمانية ، ويعلم الوقوف الى جانب المناضلين العرب فى طرابلس ، وقد غضب الأستاذ لطفى السيد وانزوى فى « برقين » - بلده - لأنه لم يوافق حزبه على سياسته ، ولأنه وجد فى تخطى حزبه - حزب الأمة - عنه نوعاً من الانتهازية .

وما أكثر ما خطب أحمد لطفى السيد - قبل ان يعتزل العمل فى بلده « برقين » منادياً بالانفصال التام عن تركيا وان كان دائماً وأبداً يعترف بالسيادة العثمانية . فى إحدى محاضراته التى ألقاها فى نادى الحزب بسراى البارودى بشارع غيط العدة بجوار باب الخلق وكان عنوانها : الحالة الحاضرة » . رحب أحمد لطفى السيد بفرحته وابتهاجه بصدر الدستور العثمانى لأنه بشرى للدستور فى مصر ، ويناقش أحمد لطفى السيد فكرة أن يكون لمصر ممثلوها فى مجلس المبعوثان (برلمان دولة الخلافة العثمانية) فيعارض الفكرة لأن قبولها يضيع علينا حقنا فى الاستقلال ، وإذا كان الأتراك يعتبروننا رأساً فلا يجب ان نعتبر نحن أنفسنا ذنباً . ويعترف

أحمد لطفى السيد بحق السيادة التركية علينا ولكن فى حدود معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفى حدود الفرمانات التى صدرت بعدها .

ونستأذن فى الاطالة فى الحديث عن موقف جريدة المؤيد - كبرى الصحف المصرية يومئذ - وعن موقف حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية الذى كان يرأسه الشيخ على يوسف لأن هذا الموقف هو نفس الموقف الحديو عباس حلمى الثانى : يقول المؤيد ضمن مقال مطول نشره فى ١٧ أغسطس ١٩٠٨ يشير فى بدايته الى فرحة أهل بيروت قائلا : أصبح أهالى بيروت - وكان وقتئذ صاحب المؤيد هناك - بعد عرس الحرية ، يفكرون فى طريق انتفاعهم منا وهم حائرون بماذا يبدأون وسيظلون كذلك زمنا لأن سلطة الدستور لم تقم بينهم ولأن السلطة المطلقة لم تذهب صورتها من مخيلاتهم بل لم يذهب الا القليل من مظاهرها ولا تزال أبواب الدستور مرتجة سيفتحها العمل بعدما يستقر الأمر للحكومة وتثبت أقدامها خصوصا وان سلطة العسكرية تنمو الآن شيئا فشيئا منفردة بالأعمال آنا فأنا والناس ، يخافون العسكرية خوفا غريزيا فيهم ولذلك يهمس بعضهم قائلا اننا ودعنا الاستبداد الملكى ونخشى ان تقع فى قبضة الاستبداد العسكرية . على أن للعسكريين عذرا فى قولهم أننا نتولى الأمور حتى يجتمع مجلس المبعوثان ويتولى ادارة المملكة لأنهم يخشون أن يعيث العابثون بنتائج انتصارهم فيقلب الحال شرا من الماضى . ونحن نقول . ان العسكرية لم تحدث حتى الآن حدثا كبيرا فى المملكة حتى نسيء الظن بها وأن العقلاء لا يزالون يؤمنون ان تحافظ على سلوكها القويم الذى اشتهرت به منذ قبضت على زمام الأعمال حتى يستلم الأمور مجلس المبعوثان ويصبح ما لقيصر لقيصر وما لله لله . كما أننا نؤمل ان يحتاطوا للخطة السلمية الشريفة التى رسموها لأنفسهم بالحكمة والنزاهة وان يكون الاعتدال كما يعلنون على الدوام رايتهم التى يرفعونها على رؤوس الأمة العثمانية لأن آفة الانقلابات الكبرى للأهم والحكومات ان ينتقم زعمائها من الماضى والأحقاد الشخصية وان يطمعوا فى المستقبل بالأنانية الذاتية .

وجاء فى الخطبة التى ألقاها صاحب المؤيد فى حديقة بيروت مساء أول أغسطس سنة ١٩٠٨ أى عقب اعلان الدستور فى بيروت بخمسة أيام على مسمع عدة الوف فى مقدمتهم ضباط الجيش ما نصه بالحرف الواحد :

« ولكن اسمعوا لى أيها السادة ان أقول هنا كلمة أخرى فانه اذا كانت الوظيفة المقدسة للجيش هى انقاذ الوطن والدولة من كل خطر

يتهددهما وهذا الجيش العثماني السامي قد وفقه الله الى أداء وظيفته
الآن بكمال الحزم والحمية فليبق كذلك وليقف عند هذا الحد من عمله العظيم
وليكن حارسا من بعيد على شرف الدستور الذي أبرزته حميته للوجود
والحرية المقدسة التي أصبحت ملكا للشعب ولا يقترب منهما كثيرا « فان
السيف والحرية والدستور لا يبيتون في قراب واحد » .

ومن ذلك التاريخ جرى المؤيد في خطته على هذين المبدأين مبدأ
تأييد الدستور والحذر من استمرار تسلط الحزب العسكري على أمور
الدولة مخافة ان يدب دبيب فساد السياسة الى الجيش . وان يكون بذلك
القضاء على الدستور . وعلى هذين المبدأين كان المؤيد ينتقد على الدوام
جمعية الاتحاد والترقي التي تستمد قوتها من الجيش وتستبد بأمور
الدولة حتى آل الأمر أخيرا الى وجود الحكومة العرفية في الآستانة بلا قرار
من مجلس المبعوثان وهي الآن الحاكمة المطلقة في الآستانة وسلطتها كثيرا
ما تتعداها . فهل المؤيد معارض للدستور العثماني وهو يفضل عهد
السلطان السابق عليه ؟ ذلك ما أشاعه الوشاة المتملقون لجمعية الاتحاد
والترقي ولكن المؤيد ينفيه ويرده على أصحابه بالحجج الدامغة .

ففي شهر يناير الماضي نشرت « صباح » التركية عبارة تحت عنوان
(خديو مصر والدستور العثماني) ترجمتها عنها جريدة الأهرام في عددها
الصادر بتاريخ ١٧ يناير سنة ١٩٠٩ جاء فيها ما يلي :

« منذ نشر الدستور العثماني ذاعت اشاعات غريبة عن سمو خديو
مصر الذي أظهر قبل الآن ميلا كبيرا نحو تركيا فقد قالوا ان هذا الخديو
الذي كان على عهد السلطنة المطلقة في جانب تركيا ضد انكلترا التي لم
يكن يتفق معها ليس راضيا عن الحكم الدستوري في تركيا وأنه اتفق مع
عزت باشا العابد على انشاء جريدة في الآستانة بواسطة جريدة المؤيد
التي تصدر في القاهرة لتدافع عن الحكم المطلق وقد أعطى صاحب المؤيد
من أموال الأوقاف مبلغ ألفي جنيه بالاتفاق مع خليل باشا حمادة الذي
عينه الخديو مديرا للأوقاف لهذا الغرض فحملوا أوقاف المسلمين على نفقة هذا
العمل المضر » .

وروت هذا الخبر جريدة طنين في ذلك الوقت وزادت عليه أن المؤيد
يشتغل بايعاز من الخديو ومن عزت باشا لاهياء مسألة الخلافة العربية .

وفى العدد ٤٠ من جريدة طنين نشرت رسالة لكاتب تركى حمل فيها حملة منكورة على المصريين بأجمعهم وطلب الغاء المحمل المصرى لأنه يذكرهم بعهد الخلافة فى بلادهم . ثم قال هذا الكاتب ما يأتى « نحن لا نعلم لماذا يوجد عند المصريين غل لا ينطقىء يحملهم على انتقاد حكومتنا وطرز حياتنا بما يهيج علينا أفكار العرب ويحرك كوامن نفوسهم » .

وتنشر صحيفة « دى غرى بول » من جرائد الاتحاد والترقى فى ٢٤ ابريل ١٩٠٩ حديثا مصرى رفض ذكر اسمه على النحو التالى :

« المحرر : ما رأيكم فى حزب التقهقر الذى جعل مركزه مصر الآن ؟

ج : انى لا أعلم شيئا كثيرا عن هذا الحزب لعدم اختلاطى بأعضائه ولا بمن يلودون به ولكن الذى سمعته هو أن عزت باشا العابد أوفد ولده أو ولديه الى مصر لشراء أطيان ويقال انهم اشتروا قسما عظيما من أسهم جريدة المؤيد ليجعلوها لسان حالهم بمصر ويقال ان لهذه الحركة علاقة بمسألة الخلافة العربية التى يشتغل بها أصحاب المطابع منذ سنين باتفاق مع أعداء الاسلام الذين يريدون قصم ظهر الدولة العلية وشطرها . الى ان قال : « ويقول العارفون ان مركز هذه الحركة موجود الآن بالقاهرة ورسيل السوء تغدو وتروح بين مصر والآستانة لهذا الغرض » .

ويجربى مستر لوسيان دولف - من كبار الانجليز - حديثا ينشره فى جريدة وستمنستر - احدى الجرائد الانجليزية - الشهرية وقتذاك - فى ١٥ يونيو ١٩٠٩ حديثا مع عزت باشا العابد ، وكان قد اتهم بأنه شريك فى صحيفة المؤيد التى تعارض الحكم التركى وأن له علاقات وثيقة بمعارضى نظام الحكم التركى وقد ورد على لسان عزت باشا « اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن انفصال العرب عن السلطة على أى شكل كان ليس فى مصلحتنا لأنهم لو تركوا وشأنهم يحكمون أنفسهم لكانت النتيجة الفوضى ولقام اثنا عشر خليفة صغيرا بدلا من خليفة واحد فلا أمان لهم الا فى ظل الهلال وفى طاعة الدستور » .

ولما سأل المحرر عما يعزى اليه من تأييد دعوى الامام يحيى بالخلافة فى اليمن أجاب بما يأتى :

« اتنى أنا صاحب نسكة حديث الحجاز التى فعلت فى تعزيز سلطة الأتراك على اليمن ما لم تفعله الجيوش التى وجهت اليها منذ فتوح الآستانة

ولما عرضت ذلك المشروع على السلطان السابق واقنعتة بانفاذه لم يكن
أفكر في راحة الحجاج فقط بل في وحدة السلطنة بوجه خاص ولا يزال
ذلك رأيي بلا تغيير فاني من رعايا محمد الخامس المخلصين كما كنت لعبد
الحميد ولست أحب أن أرى تقلصا لظل نفوذه في اليمن ولا في غيرها .

ورد الشيخ على يوسف على اتهامه بأنه على اتصال بعزت باشا عابد
فيقول : ان المؤيد يتحاشى دائما ذكر اسم عزت باشا الا متقولا عن الجرائد
التركية وأنه - عزت باشا - ليس شريكا في المؤيد فجميع الشركاء في
المؤيد قد سجلت أسمائهم في قلم عقود محكمة مصر المختلطة وليس بينهم
غير مصري الجنسية وسوري عثماني استوطن مصر منذ ثلاث سنوات .

ويلخص الشيخ على يوسف خطة المؤيد تجاه دولة الخلافة الاسلامية
(المؤيد ٢ يوليو ١٩٠٩) مشيرا الى أن مجلس ادارة شركة المؤيد اتخذ
في ٣ يوليو ١٩٠٩ القرار التالي :

« قرر مجلس ادارة شركة المؤيد باتحاد الآراء أن الخطة التي جرى
عليها المؤيد بازاء الحالة الحاضرة في الأستانة العلية خطة مبنية على الصدق
والاخلاص في خدمة الدولة والملة ولو أنه خرج عن هذه الخطة القويمة
لخالف مبادئه النزيهة التي اشتهر بها في خدمة الدولة العلية والجامعة
العثمانية والخلافة الاسلامية » .

ان المؤيد يرى وجود جمعية سرية تستمد قوتها من الجيش بجانب
الحكومة ومسيطرة عليها خطرا كبيرا على سلامة السلطنة تظهر بوادره الآن
من وجود الحكم العرفي في دار الخلافة مستمرا منذ شهرين متسلطا على
كل شيء وقد شملت أحكامه الذين اشتركوا في فتنة ١٣ أبريل الماضي
وغيرهم وامتدت سلطته الى الحرية الشخصية حتى خافها كل فرد على نفسه
وتملقها المتملقون وصار لها ملاح من الكتاب يقولون اليوم على رؤوس
الاشهاد « ليت هذه المجالس العسكرية تدوم لأنها أذاقتنا طعم الهناء الذي
لم نكن نعرفه في معيشتنا من قبل » .

ولقد أزعج هذا التملق بعض كبار النفوس والعقول فكثب الدكتور
شبل شميل رسالة نشرتها جريدة المحروسة يوم ٢٣ يونيو الحالي يصف
فيها كاتبها مملقا للهيئة الجديدة حيث يقول :

« بل رأيته كلما ذكر ذلك أن يقرنه بحملة الهيئة الجديدة (والمقدسة
كما يقولون) . كما أنه يخشى اذا أغفل التسيب ان يندم المحسنون

فينقلبون أو يتألمون فينقمون - الى أن قال - ذكرنى هذا بعهد عبد الحميد حيث كان الناس لا يصلون ولا يأكلون ولا ينامون ولا يقولون ولا يقعدون ولا . . . يموتون الا وهم شاكرون حامدون . فاشتبهت الحقيقة على من هنا ومن هناك وباتت تتراوح بى ما بين هذا وذاك . فقلت هل نحن على صغارنا القديم باقون أو الى الجدد الجديد متنقلون .

هذا ما قاله الدكتور شبلى فى موضوع خاص يكاد ينطبق الآن على كل شىء يجرى فى الآستانة وكأنما الناس بعد ان حلموا بالدستور وحرية عادوا الى روح الاستبداد فألقوا منها أشد انفعالاتها خطرا على الأمم وهو حكم المجالس العسكرية ثم أصبحوا يتمنون أن يتولى عليهم حكاما غسيري العسكريين .

ودونك ما قاله مندوب المقطم الخصوصى فى الآستانة منشورا فى عدده (٦١٥٢) الصادر يوم الخميس ٢٤ يونيو سنة ١٩٠٩ بالحرف الواحد .

« يذكر القراء الكرام أننى تمنيت منذ ١٥ يوما أن تعين الحكومة معظم رجال الادارة من الضباط الذين تخرجوا فى مدارس أوروبا لقللة استعداد رجالنا الملكيين ولقد علمت الآن ان الحكومة قررت تعيين كبار الضباط ولاية فى بعض الولايات التى ترى موجبا لتعيينهم فيها واطلاق يدهم فى ذلك كان يعينوا بعض القائمقامين من الضباط أيضا على أننى وان كنت لا أود مداخلة العسكرية فى الشؤون الملكية فاننى أعترف بأن الضرورة تقضى باتخاذ مثل هذا القرار والسلام »

وما قاله مندوب المقطم هذا قاله كثيرون من كاتبى الصحف فى الآستانة وقاله كاتبو المؤيد أيضا حكاية عن كثيرين وكله دليل على أن أهل الآستانة تعودوا على السلطة العسكرية حتى صاروا يالفونها .

ومن المحزن أن يكون حكم الصحافة التى تنطق كثيرا بلسان جمعية الاتحاد والترقى على الأمة شديدا وقاسيا الى هذا الحد . « لأنهم لم يكونوا يودون أن تتدخل العسكرية فى الشؤون الادارية ولكن للضرورة أحكام »

فهذه العاطفة الجديدة التى ظهرت عند طبقة كبيرة من أهل الآستانة والمقيمين فيها تفضل السلطة العسكرية فى ادارة شؤون البلاد للضرورة

القاسرة . وهذه المجالس العسكرية التي تصدر كل يوم أحكامها بالشنق والسجن والأشغال الشاقة والتغريب ومصادرة الأموال على مسمع من مجلس المبعوثان الذي يمثل سلطة الدستور وحكم الأمة بنوابها . وتلك الصيحات التي تنادى على رؤوس الأشهاد وتقول « ان أهل الاستانة لم يذوقوا طعم الهناء في معيشتهم منذ أعلن الدستور بواسطة الأحكام العرفية » .

كل هذه المظاهر والأقوال تدلنا في النتيجة على شيء واحد هو أنهم جربوا ادارة لولب العمل بالدستور في صمامه حكومة الدولة فلم يدر فأداروا لولب الاستبداد فدار (واللولب اذا دار الدورة الأولى دار الدورة الأخيرة » .

وكان الشيخ علي يوسف قد بعث الى جريدته - من مصنعه في بيروت - برسالة نشرت بالمؤيد في ١٧ أغسطس ١٩٠٩ خاطب فيها أبطال الانقلاب المحبوب متوسلا اليهم من صميم قلبه - كما قال - وقد جاء في تلك الكلمة : « اننا نؤمل منهم ان يحتاطوا للخطة السلمية الشريفة التي سموها لأنفسهم بالحكمة والنزاهة وان يكون الاعتدال كما يعلنون على الدوام رايتهم التي يرفعونها على رؤوس الأمة العثمانية لأن آفة الانقلابات الكبرى للأمم والحكومات أن ينتقم زعمائها من الماضي بالأحقاد الشخصية وأن يطمعوا في المستقبل بالأناية الذاتية » .

وينشر المؤيد - في ٢٥ مايو ١٩٠٩ - رسالة لصديق هو عضو في مجلس المبعوثان يسجل فيه انحراف المؤيد عن خطته تجاه دور الخلافة الاسلامية مما أدى الى مصادرتة داخل تلك الدولة وكيف قال الصدر الأعظم لذلك الصديق عندما ناقشه في أمر المصادرة : لقد كنت أجمل صاحب المؤيد كثيرا ولكنني متعجب للغاية من انحراف المؤيد عن خطته . ويقول الصديق أنه جزع لتلك الخلافات التي نشبت بين أبناء الوطن وأنه - الصديق - ينادى بأن نختلف في المشارب والمذاهب على شريطة ألا يشور الخلاف أبدا حول عرش الخلافة .

ويرد الشيخ علي يوسف على رسالة الصديق ببيان ينشره المؤيد مؤكدا ان المؤيد لم ينحرف عن خطته وأكد البيان ان للمؤيد حق الانتقاد والاعتراض على ما يجري في الدولة العلية . وقد جاء في ذلك البيان .

« اننى لم أقف من الانقلاب موقف المعارض لأننى أعتقد أنه كان ضروريا : لم يقف المؤيد من الانقلاب الدستوري موقف المعارض من

ناحية الشكل . أما من ناحية الموضوع فاني آراه ضروريا ولازما لحياة الدولة العلية وحفظ سياج الخلافة الاسلامية . أرى ان هذا الانقلاب كان ضروريا لأن هذا العصر الذي يتقلص فيه ظل الحكم المطلق من كل مكان لم يكن يسمح ببقائه في الممالك العثمانية الا والحوادث تمزقها كل ممزق . ولذلك فرحت مع الفرحين من صميم قلبي لحدوث ذلك الانقلاب المحبوب في صيف العام الماضي وقدرت الأبطال المجاهدين في سبيل حصوله حق قدرهم وكتبت المقالات التي أشرت اليها في اطراء محدثي هذا الانقلاب وتقدير فوائده للدولة والملة ولكني في كل ما كتبت لم أغفل عن الإشارة لما كنت أخشاه وقد تحقق بعضه .

ففي الخطبة التي القيتها في بيروت بعد اعلان الدستور بخمسة أيام شكرت الجيش أجزل الشكر على عمله ولكني أشرت الى وجوب وقوفه بعد ذلك بعيدا عن الدستور موقف الحارس الأمين فلا يقترب رجاله من الأعمال السياسية والادارية قائلا (ان السيف والحرية والدستور لا يبيتون في قراب واحد) ولعلكم لاتخالفونني اذا قلت أن الجيش بعد ذلك الانقلاب ظل قريبا من العمل بل مباشرة له لأن ضباطه أخذوا يتدخلون في أمور السياسة والادارة بصفتهم أعضاء جمعية الاتحاد أو مانحى الدستور فكانت النتيجة الطبيعية لهذا التدخل ألا وهي فقدان التوازن بين الحزبين السياسيين اللذين وجدوا في مجلس المبعوثان . وفقدان التوازن قد حصر السلطة في يد فريق من الفريقين المتنافسين عليها في وقت لم تتشبع فيه النفوس من المبادئ الدستورية الحقيقية فكان التذابح الذي وجد بين ذينك الحزبين وقد كتبت وقتئذ في المؤيد أنتقد عملهما معا بلهجة شديدة لأنني أيقنت ان هذا التذابح في بلد حديث عهد بالدستور سيكون خطرا عليه بل على الدولة بأجمعها .

ولذلك اعتقدت أن حوادث ١٣ ابريل كانت نتيجة طبيعية لذلك التذابح ومهما اختلفت الأيدي العاملة ومهما قيل عن وجهة المحرضين فان وجود اليد العسكرية متداخلة في شئون الادارة والسياسة من قبل جعلت الحزب الذي فقد هذه القوة الاضافية اليه يبحث عن طريق توصله الى حظه منها . فلما رأى الضباط في جانب خصمه تسرب الى العساكر من الطريق الذي رآه موصلا واقتطع قطعة من تلك القوة ليحارب بها خصمه .

ويخشى أن يكون الخطر على الدولة من هذا القبيل باقيا مادام الجيش مصدر قوة الحزب المتغلب الآن على كل شيء .

فأنا اذا انتقدت على الانقلاب الأخير فان انتقادى عليه من وجهة أنه فتح طريق الخطر المستقبل على الدولة اذ لا يبعد أن ينشق حزب الاتحاديين على أنفسهم أو ينشق الجيش على نفسه من هذا السبيل فيكون الخطر الأكبر على الدولة معاذ الله .

وأذكر أنه لما زار القطر المصرى فى أول الشتاء الماضى الجراح العثمانى الشهير (جميل باشا) وهو على ما أظن من جمعية الاتحاد سألته فى منزلى وسأله معنى سعادة سعد باشا زغلول ناظر المعارف العمومية المصرية هذا السؤال « هل تبقى جمعية الاتحاد عاملة مسيطرة بعد انعقاد مجلس المبعوثان ؟ » فقال : « نعم تبقى كرقيب على المجلس حتى يستقر أمر الدستور على حالة وطيدة » .

سألناه ألا تكون هذه الرقابة ماسة بكرامة المجلس ومضعفة للثقة العامة بنواب الأمة ؟ فأجاب بعد سكوت طويل - « لا أظن أن الجمعية تستعمل رقابة على المجلس يشعر بها ، ولا أظن أنها تتظاهر بسلطة لها على الحكومة أيضا مع وجود المجلس » .

ومعنى هذا الجواب أنه لا يرى حكمة ولا علة معقولة لبقاء جمعية الاتحاد قائمة ذات سلطة مستقلة محسوسة للناس بعد مباشرة مجلس المبعوثان عمله لأن ذلك يؤذن بعدم الثقة بالمجلس وبنواب الأمة .

ولو ان جمعية الاتحاد بعيدة عن الجيش الذى هو قوة القوى للدولة لما كان هناك أدنى خوف من وجود تلك الجمعية بل تكون بمثابة حزب سياسى لازم وجوده فى البلاد لنشر روح الدستور وتقوية مبادئه بجانب المجلس . أما وجود الجمعية مستقوية بالجيش فمعناه اضعاف تلك المبادئ بل ازهاق تلك الروح وفقدان الثقة بالمرء فى المجلس وبعبارة أخرى تكون الحكومة المطلقة قد انتقلت من فرد مستبد الى جمعية مستبدة وذلك الفرد هو صاحب التاج الذى أخذه بالارث والاستحقاق وأما الجمعية فمؤلفة كما هو معروف من خليط عدة طبقات من الناس لكل فرد منهم مناظرون عالون ودانون وحساد من طبقته فلا يطبق أولئك المناظرون والحساد سيادة واحد عليهم من طبقته أو أعلى بقليل أو أدنى بكثير كأنه السلطان لحكمه فيهم واستبداده بهم . وعلى هذا كان بقاء الجمعية بعد انعقاد مجلس المبعوثان مرتبطة بالجيش ومستمدة قوتها

منه حتى فى المناظرات الحزبية علة خطر كبير قد عرفنا مقدماته من
حادث ١٣ ابريل والله أعلم وحده بنتائجها .

فاذا كان الانقلاب الذى جرى بعد ذلك قد خلع سلطانا مستتبدا
فانه أيد استبداد جماعة لا يمكن ان تبقى للأمة وحدتها ومعهم ان استمر
استبدادهم بشؤون الحكومة والأمة وبهذا نخشى ان يقضى العمل الذى
أريد به تأييد الدستور الى تمزيق شمل الأمة لا قدر الله .

لا يبعد ان أكون مخطئا فى تصوراتى هذه وأنا أتمنى ذلك .
ولكن مادامت هذه التصورات ماثلة وجدانى وأفكارى فهل أضرب بها
عرض الحائط وأسير فى هذا التيار الذى جرف أكثر الصحافيين وجعلهم
يطرون القوة ويطربون منها كلما انفعلت بحركة . أما عن الانقلاب
الأخير فانى لم أكتب على أثره كلمة واحدة اعتراضا على خلع السلطان
عبد الحميد بعد ما تم أمره ولم أطلع فى الفتوى التى أصدرها شيخ
الاسلام وبنيت عليها الجمعية العمومية تقرير ذلك الخلع وكل ما عزته
الصحف للمؤيد من ذلك كذب وتضليل . كذلك لم أكتب فى كل أدوار
هذه الحوادث كلمة يفهم منها أنى أفضّل الحكم المطلق السابق على
الدستور ومذهبه فى ذلك معروف وكيف يكون هذا والمؤيد هو الجريدة
الوحيدة التى تجاسرت فى العهد الماضى على طبع كتاب (طبائع
الاستبداد) الذى نشره المرحوم الشيخ الكواكبي مقالات متوالية على
صفحات المؤيد ثم جمعه بعد ذلك . . وهذا دولة الغازى مختار باشا الذى
بعث لى برسول فى ذلك الوقت يطلب منى أن أقطع سلسلة هذه المقالات
ولا أنشر بقيتها فلما أبين رفع الأمر الى المابين الهمايوني فصدرت
الإرادة الشاهانية بمنع دخول المؤيد الممالك المحروسة فى ذلك العهد
كما منع مرات عديدة قبل ذلك وبعده . وكيف أفضّل حكم الخاقان
المخلوع على الدستور وأنا أول مطالب به فى مصر بل أنا الشخص الوحيد
الذى أخذ قرار الجمعية العمومية على طلب الدستور مرتين فى سنتى
١٩٠٤ و ١٩٠٧ فكيف أناقض نفسى وأفضل حكما مطلقا متناهما فى
الاستبداد على حكم دستورى . ان الذين يسندون الى هذا محرفون
للكلم أو كاذبون .

ولكننى مع هذا انتقدت بشدة تلك الجرائد التى أكثرت من هجو
السلطان عبد الحميد بعد خلعه وصارت لا تذكر له الا السيئات مكبرة

وهو لا يخلو من الحسنات أيضا . ثم شددت النكير على الذين طلبوا محاكمته واعدامه ونددت بسوء معاملته بنساء على ما كان يردنا تباعا من الأخبار .

وانما فعلت ذلك لأمرين : الأول أننى أرى الخلع جزاء كافيسا لسلطان ورث الحكم المطلق عن آبائه وأجداده فلم يكن مبتدعا له مهما كانت جرائمه فيه . والثانى أننى أعتقد ان السلطان عبد الحميد ربي فى نفوس جميع المسلمين وخصوصا غير المحكومين بحكمه ميلا قويا لتمسكه بأهداب الخلافة وظهوره بمظهر الحامى للدين الاسلامى فى العالم أجمع . وربما كان هو أول سلطان عثماني صار عند المسلمين خليفة كبيرا . وزد على ذلك أن دول أوروبا تأمرت عليه عدة مرات باسم المسيحية فكان يحل عرى تأمرها باقتدار فائق فيعلم المسلمون بعد ذلك أنه ابل بلاء حسنا فى الذود عن بيضة الاسلام واذا غلبه المتآمرون فى مشكل من المشاكل الدولية عرف الناس أجمع أنه لم يغلب الا باجتماع القوى الكبرى عليه .

والمؤيد الذى خدم الدولة والملة عشرين سنة خدمة خالصة لوجه الله تعالى ولحقوق الجامعتين العثمانية والاسلامية يعرف هذا ويعرف ان الغلو فى اهانة السلطان المخلوع أو سوء معاملته مما يوجب رد فعل فى نفوس المسلمين ان لم تفض حوادثه الى نتائج خطيرة على الدولة فانها توهنها وتسيء سمعتها اتقاء للمضار التى تنشأ عن كثرة هجو السلطان المخلوع وعن اشاعة سوء معاملته فلماذا ينكر على المؤيد التزام هذه الخطة الرشيدة .

ولقد أنكر المؤيد استمرار الأحكام العرفية ولا يزال هو ينكرها لأن الأحكام العرفية معناها اطلاق العنان للسلطة المطلقة تحكم بما تشتهى وتهوى بلا مراعاة نظام عادل ولا قانون منظم بل معناها الرجوع الى سلطة الجبارين فى أدوار الجاهلية والفوضى وقد اصطلحت عليها الحكومات زمن الفتن والاضطرابات تلطيفا لشراة الجنود المتغلبة التى كانت تستبيح المدن التى تفتحها من بلاد الأعداء أياما معدودات . فوجود هذه الأحكام مناف للعدالة الالهية والوضعية وانما تلتجئ اليها الحكومات زمن الاضطرابات والفتن كبها لجماح المتمردين والمفسدين وليتغلب جبروت الحاكمين على أرباب الفساد بالرهبة والحديد بالحديد يفلح . ولكن متى سكنت الفتن ورجعت النفوس الى هدوئها لا تلبث تلك الأحكام أن تلغى ويحل

محلها القانون العام الذى يكون قادرا والحالة هذه على ضبط الأمور
وتأييد الأمن العام ومعاقبة كل أثيم بما يستحق .

أما اذا بقيت الأحكام العرفية بعد ذلك ارضاء لشهوات المنتقمين
فان نتيجتها تكون زيادة الأضغان ونمو السخائم فى نفوس الأمة بعضها
على البعض .

ولهذا كان هناك فرق كبير بين ان يظلم الناس سلطان جائر وبين
أن يظلمهم أفراد مكنهم حسن حظهم أن يتسلطوا عليهم . هنالك ينتظر
المظلومون فى الغالب أن يذهب الله عنهم سلطة الملك الجائر وان يولى
عليهم غيره عادلا أو ان يثوروا عليه فيخلعوه ويولوا سواه . وهنا لا يكون
الا كمون نار البغضاء التى تنفجر وقت القدرة على الانفجار
فلا تبقى ولا تذر .

ويؤكد الشيخ على يوسف ان الحكومة الحاضرة فى الاستانة اليوم
كحكومة السلطان المخلوع لا تختلف عنها الا فى الاسم .

ويخيل لى ان بعض رجال الصحافة فى الآستانة لو رجعوا الى حديث
نفوسهم وأصغوا اليها فى الخفاء لفضلوا عهد السلطان عبد الحميد الذى
كان يقطع أسننتهم ويخرس صرير أقلامهم بالمال الذى ينفحهم به كل
شهر على عهد الحكومة الحاضرة التى يخشون أن تجلبهم الى المحكمة
العسكرية ان خالفوا رأيها لتحكم عليهم بالاعدام أو النفى . ولولا ذلك
لكانوا أشد لهجة فى انتقادها من المؤيد ألف مرة . اذ لافرق بين ان يحكم
على جريدة بالنفى من الممالك العثمانية لأنها لا تطرى أعمال الحاكمين
ولا ترضيهم بترتيل أناشيد الشاء عليهم وأن يحكم على صاحب جريدة
بمثل ذلك .

وقد كان الشيخ على يوسف فى رده على صديقه رائعا للغاية وصريحا
الى أبعد حد ولعله - فيما يتعلق عن الأحكام العرفية وعن حكم الضباط
الأثراك - قد سبق زمانه بمائة عام على الأقل .

وقد كان الشعراء المصريون السنة حق وصدق فى تصور العلاقات
الطيبة التى تربط الشعب المصرى بدولة الخلافة الاسلامية . ولو تم
دراسة الشعر الذى قيل فى دولة الخلافة الاسلامية تمجيда فى السلطان
عبد الحميد وابتهاجا بنزوله عن العرش وفى كل الانتصارات التى حققها

آل عثمان في حروبهم مع أوروبا بل وفي الهزائم أيضا لكانت دراسة
ممتعة بحق :

وكان أحمد شوقي - لا جدال - هو الفارس المجلى في هذا . وقد
حفظ الكثيرون في رائعته التي قالها عقب عزل السلطان عبد الحميد
ومطلعها :

سـلـ يـلـدـا ذـات القـصـور	هـل جـاءـها نـبـأ البـدور
لـو تـسـتـطـيع اـجـابـة	لـيـكـتـك بـالـدـمـع الغـزير
ودها الجزيرة بعـد	اسـمـاعـيل وـالـمـلـك الكـثـير
ذهب الجميع فلا القصور	تـرى وـلا أهـل القـصـور
فلـك يـدور سـعـودة	ونـحـوسـه بـيـد المـديـر

الى أن يقول أحمد شوقي :

ونـراه عـند مـصـابـه	أولـى بـيـاك أو عـذير
ونـصـونه ونـجـله	بـين الشـمـامة والنـكير
عـبد الحـميد حـسـاب مـثـلك	فـى يـد المـولى النـصـير
سـدت الـثـلاثـين الطـوال	ولـسن بـالحـكم القـصـير
تـنـهـى وتـأمـر ما بـدا	لـك فـى الكـبير وفـى الصـغير
مـاذا دـهـاك مـن الأـمـور	وكنـت داهـية الأـمـور

الى ان يقول :

دخـلوا السـريـر عـليـك	يـحـكـمـون فـى رـب السـريـر
أعـظـم بـهـم بـين أسـر	وبـالـخـليـفة مـن أسـير
أسـد هـصـور نـشـب الأظـافـر	فـى أسـد هـصـور

ويخاطب في الخليفة الجديد محمد رشاد قائلا :

أنت الكبير يقلدونك	سـيـف عثمان الكـبير
شـيـخ الغـزاة الفاتـحـين	حـسـامه شـيـخ الذـكـور

وكان أحمد شوقي قد هبأ السلطان عبد الحميد بنجاة من قذيفة
في ٥ سبتمبر ١٩٠٥ فقال :

هنيئاً أمير المؤمنين فانما نجاتك للدين الحنيف نجاة
هنيئاً لطف الكتاب وأمة بقاءك ابقاء لها وحياة

« ويلدز بالتركية اسم نجم . والخورنق : قصر كان في الحيرة
للملك النعمان أحد ملوك بني منذر . وكذلك الخورنق كان من قصور
المناذرة وشيخ الذكور يعنى : شيخ الأسلحة » .

ومن القصائد غير المعروفة لخليل أفندي مطران تلك التي كانت
تحمل عنوان « عتاب واستصراخ » وكانت قد قيلت بمناسبة الحرب
الاطالية الطرابلسية . وكان مطلعها :

صدقت في عليكم أو بصدق الشمم
يا أمتى حسبنا بالله سيخرية
انه كان من نجدة ومننا تفجعنا
لا المجد دعوى ولا آياته كلم
مننا وما تقاضى أهلها الدم
فليكننا ذلنا ولتسعننا السقم

الى ان يقول خليل مطران :

بأى جهل غدونا أمة هملا
لا تنكروا عذلى هذا فمعدرتى
لولا تقاولنا لولا تخاذلنا
وأى عقل تولت رعبنا الأمم
جرح بقلبي دام ليس يلتئم
لولا تواكلنا تالله ما اقتحموا

الى ان يقول أيضا :

تالله لو طار فوق النسر طائرهم
وسمخرت كل آيات الفضاء لهم
يا ايها الوطن الداعى لنجدته
أموالنا لك وقف والنفوس فدى
وذلت لهم الابحار فلكهم
حتى الخوارق والارياح والرجم
لبيك مصر ولبي القدس والحرم
وعش ولا عاش في نعماك متهم

وتحت عنوان « السيف العثماني » هتف مصطفى صادق الرافعي :
من الصواعق لا يبقى ولا يذر اذا ارتضاه لأهل القمة القدر
يرمى به الله رحما لا تقوم له هام الشياطين الا ريت ينحدر

ويقول الرافعي :
فكلما بلى التاريخ جسده وكلما كاد ينسى أهلها ذكروا
سيف الطبيعة بل سيف الفجعة بل سيف الشريفة فيه العدل والعبر
فى كف كل فتى صبت سواعده صب الحديد فلا وهن ولا خور
فلا كلال ولا صد ولا هرب ولا ملال ولا خوف ولا حذر

وعن جيش الطليان يقول مصطفى لطفى المنفلوطى :
خاطوا لأجسامهم من نفعا كفنا فان أسيافهم فى حربنا أبر
استولهم أم كلاب البحر تنبحنا أم الضفادع قد ضجت بها القدر
ان البعوضة فى الصحراء أضخم من استولهم ولها من دونه أثر

ويقول أيضا عن الجيش الايطالى :
يا للرجولة من قوم اذا انفردوا بالطفل يلعب ردوا الطفل يحتضر
يا للمروءة من قوم اذا نظروا للمستغيث بهم فى موته سخروا
يا أمة النحت والتصوير ويحكم حتى جنودكم الأنصاب والصور

وعن موقف عزيز المصرى من دولة الخلافة ودوره والظروف التى
أثرت فيه تذكر العديد من الروايات التى تواترت عن هذا الموقف مهما
تكررت النصوص وذلك من أجل اجلاء الحقيقة ومن أجل اثبات بعض
الروايات .

وفى المقدمة ننقل رواية لمجيد خدورى - وهو من الكتاب العرب
المجيدى الذى اختطفه الغرب منا اذ يقول :

ولد عزيز على فى القاهرة عام ١٨٧٩ / ١٨٨٠ أى انه نشأ فى عهد
كرومر (١٨٨٣ - ١٩٠٧) وقد كانت سياسته فى مصر قائمة على الأسس
التالية :

أولا : أن سكان مصر لا يكونون أمة وإنما هم خليط من العناصر
البشرية المختلفة .

ثانيا : أن شعوب مصر والهند من الشعوب الخاضعة التي لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها وان الانجليز هم المسئولون عن الحكم في البلدين وعن ادخال الحضارة الحديثة بين شعبيهما .

ثالثا : أن الانجليز عليهم مسئولية ادخال الحضارة الاوربية في مصر لاقالتها من عثرتها على أيديهم أو بواسطة جماعات مصرية عايشة التقاليد الاسلامية والمصرية . ومن ثم يجب أن تكون الحضارة الجديدة التي سيدخلها الانجليز وعملاؤهم حضارة انجليزية مسيحية .

رابعا : ان الفلاح المصرى يجب أن يرتبط بالحكم الانجليزى لا بالزعامات الوطنية كيما يشعر الفلاح بأن أحواله تحسنت على يد الانجليز .

واننى على يقين بان القارىء يؤمن الآن بأن مصر تعرضت لتخريب قومى على يد كرومر بقصد تحطيم وحدة البلاد وتحت هذه السياسة عاش عزيز على . وكان منذ صغره ناقدا طموحا فاشمأز من الاحتلال الانجليزى وعندما أصبح يافعا بحث عن الوسيلة التي يمكن بها تخليص البلاد من الاستعمار البريطانى .

ويمضى مجيد خورى قائلا : لقد تأكد الكثير من الوطنيين ان سياسة عبد الحميد ستؤدى الى انهيار كامل للدولة العثمانية ان لم ترتفع بسرعة الى مستوى الدول الحديثة . فظهرت منظمات عديدة تعمل على التخلص من عبد الحميد واعادة الحياة الدستورية الى الدولة ونشر المساواة بين كل من العناصر والقوميات التي تضمها الدولة .

فى هذه الظروف وصل عزيز على الى الاستانة . والتحق بالمدرسة الحربية وقد تخرج فيها فى ١٩٠٤ واشترك فى القتال فى البلقان . وخلال ذلك كان يستمع الى احاديث زملائه الأتراك عن مساوىء عبد الحميد الثانى وكانت مبادئ جمعية الاتحاد والترقى المندمجة لسياسة عبد الحميد والداعية الى اصدار دستور للبلاد والى المساواة بين مختلف القوميات آخذة فى الانتشار بسرعة بين صفوف ضباط الجيش العثمانى حتى اذا اكتملت قوة الثوار زحفوا الى الاستانة ١٩٠٨ وكان معهم عزيز .

وانحنى عبد الحميد للعاصفة وأصدر الدستور فورا . ورحبت كل القوميات الموجودة فى الدولة بشك الثورة وكذلك كل الشعوب الواقعة تحت الاستعمار الأجنبى ، ومن ذلك ان الحزب الوطنى فى مصر

بزعامة محمد فريد تطلع الى ان يمد رجال تركيا الفتاة يد العون الى مصر لتخلصها من الاحتلال البريطاني .

وأخذ اسم عزيز على المصرى يظهر على المسرح السياسى بقوة منذ ذلك الحين . فقد كان صديقا للزعماء الثلاثة الذين سيطروا على مقدرات البلاد منذ الثورة ، وهم (أنور وطلعت وجمال) .

وكانت لكل واحد من هؤلاء سياسة وفلسفة خاصة :

١ - كان أنور يدعو الى الجامعة الاسلامية .

٢ - كان طلعت يدعو الى جامعة عثمانية .

٣ - أما جمال فكان تركيا قوميا .

ووقف « عزيز على » من هذه السياسات المتضاربة موقف الساعى للتوفيق بينها . ولكن كان التوفيق أمرا صعبا للغاية . بل تفوقت السياسة القومية على الحكومة العثمانية تلك السياسة الهادفة الى تتريك الدولة العثمانية بأسرها . ان معنى التتريك هو ان يتخلى العرب عن عروبتهم وعن لغتهم وان يصبحوا أتراكا ولهذا قاوم العرب هذه الاتجاهات فى كل المجالات فاتهموا الأتراك بأنهم :

١ - زوروا الانتخابات لتصبح الأغلبية من القوميين الأتراك .

٢ - باعوا فلسطين لليهود .

٣ - باعوا العراق لشركة لينش الاحتكارية الانجليزية .

٤ - قسوا على اليمنيين لمجرد ان اليمنيين عرب .

لم يصبر عزيز على المصرى على هذا التطور الخطير فى العلاقات العربية التركية ، وأصبح يشعر تماما ان الأتراك انحرفوا عن الأهداف السامية التى نادوا بها قبل الثورة ، فقرر ان يشترك فى الحركات السرية العربية . فاشترك فى جمعية سرية عربية أسسها المجاهد العربى سليم الجزائرى ، وهى (الجمعية القحطانية) فى ١٩٠٩ ، وفى ١٩١٢ أسس هو نفسه جمعية سرية أخرى ذات طابع عسكري عربى وهى (جمعية العهد) .

ولقد قام جدل كبير حول أهداف الجمعيتين . فجورج أنطونيوس - الحجة فى تاريخ الحركة القومية العربية - يقول ان هدف عزيز على

المصري من المشاركة فى أعمال الجمعية القبطانية ومن تأسيس جمعية العهد هو العمل على أن يحصل العرب على قدر أكبر من سلطة تصريف أمورهم ، عن طريق تعديل نظام الحكم فى الدولة العثمانية بحيث تصبح ذات تابعين واحد للعرب والآخر للترك على غرار دولة النمسا والمجر حينذاك .

ولكن الدراسات الأخيرة أثبتت ان عزيز على المصرى لم يرم الى هذا الهدف ، وانما كان يرمى الى المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه كان يهدف الى المحافظة على كيان القوميات المختلفة فى اطار الدولة عن طريق تطبيق نظام الحكم اللامركزى أو الفيدرالى فى كل ولاية ذات قومية .

وكان عزيز يعتقد أنه بذلك يعطى للأقليات التى فى الدولة العثمانية قدرا من المشاركة فى الحكم لا يعرض الدولة للتفكك . ولكن مثل هذه الأفكار كانت غير مقبولة لدى حكام تركيا حينذاك . فمن كان يطالب باللامركزية كان كمن يخون الدولة . ولكن لماذا ؟ قيل ان عزيز على المصرى كان يعمل من أجل القومية العربية مادام كان يعمل فى الوقت نفسه من أجل تماسك الدولة العثمانية . فالمعروف أن تماسك الدولة العثمانية يتطلب نظريا عدم تشجيع القوميات على الحصول على أى لون من ألوان الاستقلال .

الواقع ان عزيز على المصرى كان يعمل من أجل حقوق الانسان فى الدولة العثمانية بل فى الشرق بأسره .

كان عزيز يرى ان تماسك الدولة العثمانية هو الحاجز الذى يمنع من تدفق الاستعمار الأوروبى على الشرق . وكان يرى أن حرية الفرد هى أساس من أسس الدولة الحديثة . ومن ثم يجب احترام كل فرد فى الدولة بغض النظر عن قوميته . بل يجب ان يحافظ على قوميته فى اطار الدولة ، أما اذا انفصلت القوميات بعضها عن بعض فان ذلك سيؤدى الى سقوط الدولة بعربها وتركها ووقوعها فى تبعية الاستعمار الأوروبى . ولما كان الأتراك هم الشعب المسيطر ، فان الواجب هو رفع مستوى العرب الى مستوى الأتراك . وهذا لا يتم الا بالثورة على الأتراك الحكام . وبهذا نستطيع ان نفسر تأسيسه لجمعية العهد السرية العسكرية ضد الأتراك ومجهوداته الناجحة فى وقف المذابح التركية لليمنيين الثائرين

على الدولة العثمانية واستماتته في الدفاع عن ليبيا ضد الاستعمار
الايطالى (١٩١١ - ١٩١٣) .

ان تلك الفلسفة التى آمن بها عزيز المصرى كقيلة أيضا بتفسير
موقفين مهمين له ازاء المؤتمر العربى الذى عقد فى ١٩١٣ وازاء الثورة
العربية ١٩١٦ .

لما طفق الكيل بالعرب من جراء الاستبداد التركى قرر العرب عقد
مؤتمر لهم فى باريس للتداول فى السياسة التى يجب على العرب ان
يتخذوها ضد الترك . وفعلا عقد المؤتمر فى باريس ١٩١٣ . فلاحق بهم
رجال الحكومة التركية وتفاهموا مع الزعماء العرب على تلبية مطالبهم
وخاصة احترام كيان العرب ولغتهم وثقافتهم وفتح مجال الوظائف العليا
أمام العرب وعدم نقل الضباط العرب بعيدا عن الولايات التى ينتمون
اليها . ورحب عزيز على المصرى بهذا الاتفاق ولكنه انتقد الزعماء العرب
لأنهم عقدوا المؤتمر فى دولة استعمارية . ففرنسا التى خانت قضية مصر
الوطنية من أجل أطماعها ليست جديرة بأن تكون مقرا للحركة التحررية
العربية . كذلك انتقد عزيز المصرى الزعماء العرب لأنهم قبلوا الوظائف
العليا من أيدي الأتراك ، فى الوقت الذى كان الأتراك يماطلون فى تنفيذ
اتفاقيتهم مع العرب ، بل اقتنع عزيز بأن الأتراك ما أعطوا الزعماء العرب
بعض الوظائف الا لشراء سكوت هؤلاء الزعماء .

ولاشك أن رجلا كهذا لابد ان تخشاه الحكومة التركية فدبر له
(أنور) تهمة مزيفة واعتقله ثم صدر ضده حكم بالاعدام . وما ان شاع
بين الناس هذا الخبر حتى عمت المظاهرات البلاد مطالبة الحكومة
التركية بالافراج عن عزيز المصرى ، وكان الزعماء العرب أقوى العناصر
المدافعة عن عزيز . وتحت ضغط الرأى العام العربى أطلق الأتراك سراح
عزيز . فشهد عزيز رحاله الى القاهرة حيث عاش أدق فترات التساريخ
سنة ١٩١٤ وهى السنة التى نشبت فيها الحرب العالمية الأولى ، وقد
دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا
وروسيا . وكانت بريطانيا فى حاجة الى تجميع أكبر قدر ممكن من
الزعماء العرب فى صفها لتواجه بهم الدعوة الى الجهاد التى نادى بها
السلطان العثمانى .

فاتصل الانجليز بالزعماء العرب وعلى رأسهم دعاة القومية العربية في الشام ، وبالشريف حسين في الحجاز ، وبطالب النقيب في العراق ، وبعزيز المصري ورشيد رضا في مصر ، وبعبد العزيز بن سعود ، وحشهم الانجليز على الثورة على الأتراك ، وكانت أهم الاتصالات تلك التي جرت فكان طبيعيا ان تلهب مشاعره كلمات وخطب مصطفى كامل الوطنية وان تدعوه هذه الكلمات الى العمل ضد الانجليز .

كان عزيز على يريد ان يكمل دراسته العالية في الخارج لا سيما في فرنسا بالذات . كما تعلم مصطفى كامل ليعود من هناك وطنيا من الطراز الأول . هذا الى أن فرنسا كانت الدولة الكبرى التي تطالب انجلترا بالجلاء عن مصر .

وكانت فرنسا في نظر الكثيرين هي رمز الحرية والداعية الأولى الى الحرية والمساواة والاخاء . ولكن الناس لم لم يروا يومئذ الوجه الآخر البشع لفرنسا ، حينما كانت تنكل شر تنكيل بعرب الجزائر وشعوب الشرق الأقصى في الهند الصينية الفرنسية وشعوب افريقيا الغربية .

وعن دور عزيز المصري في انشاء الجمعيات والاحزاب العربية وعن مكانته في دولة الخلافة يقول الأستاذ أنور الجندى :

« الحق ان (عزيز المصري) يمثل نموذجا فذا من قادة الشرق والأمة العربية على نحو غير مسبوق فهو رجل الحرب والجيش المؤمن بقدرة الثورة العسكرية على تحقيق الأهداف التي تعجز الأمة عن تحقيقها عن طريق دعاة الاصلاح والرأى والفكر .

ويمكن القول بأنه أول مصري حمل لواء الدعوة الى (الوحدة العربية) وجهر بها ، فقد ألف جمعية العهد التي ضمت كل زعماء العرب .

ومن أجل هذا الهدف اتجه الى الكلية العسكرية : يقول كانت أمينى من التحاقى بالكلية العسكرية ان أطرده الانجليز من مصر وقد ظلت هذه الفكرة هي القوة التي تدفعنى طوال حياتى .

وعندما تخرج عام ١٩٠٤ في مدرسة أركان الحرب بالقسطنطينية (تركيا) عمل في هيئة أركان حرب الجيش التركى فى مقدونيا .

ثم لم يلبث اسمه ان لمع خلال عمليات حربية متعددة وعندما شكلت جماعة (تركيا الفتاة) السرية من ضباط الجيش ، لم تلبث ان تحولت الى جمعية (الاتحاد والترقى) وانضم اليها الضابط عزيز على المصرى وجماعة كبيرة من زملائه العرب مطالبين بدستور صالح للامبراطورية . واستطاعت هذه الجمعية ان تحقق نجاحا عندما صدر الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ وكان (عزيز) بارز الجهد فى هذا العمل ، ولذلك فقد قبض عليه مع غيره عندما حاول السلطان عبد الحميد استرداد الدستور وكان ذلك علامة على نهاية حكم السلطان الذى عزل عام ١٩٠٩ ، وكان عزيز المصرى أحد الذين اشتركوا فى تخليصة السلطان مع القائد محمود شوكت الذى كان أيضا عربيا ومن مصر .

غير ان عبد الحميد لم يكن هو الخطر ضد العرب وانما كان الاتحاديون هم خصوم الوحدة العربية فقد تحولت (الاتحاد والترقى) للدعوة الى العنصرية التركية باسم (الجامعة الطورانية) محاولة (تنريك) العناصر العربية فى الامبراطورية .

وهنا بدأت نقطة التحول فى تاريخ العرب وفى تاريخ عزيز المصرى .

فقد أخذ العرب يعملون للتحرر من السيادة العثمانية بالدعوة الى (اللامركزية) ولم يلبث (عزيز المصرى) ان كون جمعية عربية خالصة تحمل لواء المحافظة على الكيان العربى وتحريره من المحاولة الطورانية : هى (الجمعية القحطانية) وكان عزيز اذ ذاك أستاذ فى كلية أركان الحرب وفى سن الثلاثين . وقد اشتق اسم الجمعية من اسم قبيلة (قحطان) التى تمثل جذور الأصل العربى .

ويقول الأستاذ أنور الجندى ان فى مقدمة التهم التى وجهت الى عزيز على المصرى ومن أجلها ومن أجل غيرها شكل مجلس عسكري عال لمحاكمته فى مارس (آذار) ١٩١٤ لسعيه لاقامة مملكة عربية فى شمال أفريقيا يتولى سيادتها .

ومن بين ما ذكره الأستاذ محمد على رفاعى وهو حجة فى الشئون العربية وكان على صلات وثيقة بكبار الشخصيات العربية المعاصرة ان

عزيز على المصرى ألف جمعيات ثورية فى مصر والشرق وبث الدعوة الى نيل الاستقلال والفوز بالحرية فى وقت كانت الامبراطورية العثمانية فيه تمتد شرقا وغربا وتسيطر شمالا وجنوبا ، فهي تحكم العرب كلهم ، والأرمن والروم والبلغار .. ثم هى - فى الوقت نفسه - ترسل جيشها الى العرب والمسلمين ليعمل فيهم تقتيلا وتعذيبا ..

وعزيز على المصرى رافع لواء المطالبة بالانفصال عن هذه الدولة الظالمة الباغية ، غير هياب ولا وجل فى غير كلل ولا ملل .

لقد اشترك فى تأسيس الجمعية القحطانية فى الآستانة - وكان يومذاك برتبة البكباشى أركان حرب مع طائفة من خيرة رجال العرب فى شتى أوطانهم .

هم : خليل حمادة باشا وعبد الحميد الزهراوى بك وسليم الجزائرى بك وحقى العظم بك وحسن حمادة بك وعزت الجندى بك ، « وغايتها نشر الفكرة بترقى العرب واصلاح حالهم وانهاضهم بأية واسطة كانت » .

ومن هذه الجمعية نشأت فى البلاد العربية ثلاث آخر كانت أهمها : « جمعية العهد » التى انشأها عزيز لتبث الدعاية لاستقلال العرب بين ضباط الجيش ، فقبض عليه ولكنه استطاع الهرب الى القاهرة حيث أنشأ « جمعية الثورة العربية » .

ويؤصل الأستاذ جورج انطونيوس موضوع اعتقال عزيز على المصرى فيقول :

« فى اليوم التاسع من شهر فبراير بينما كان المقدم (البكباشى) عزيز على المصرى وهو من ضباط أركان الحرب ، يغادر فندق طوقا طليان بعد الغداء اعترضه ثلاثة من رجال الشرطة السرية ودعوه الى دائرة الشرطة المركزية فى القسطنطينية حيث اعتقل دون ان توجه له تهمة ما ، فأخذت الشائعات تنتشر وهى تقول بأنه سسيحاكم بتهمة الخيانة ، وقابل العرب نبأ اعتقاله بدهشة شديدة ما لبثت أن تحولت الى غضب أعربوا عنه بالمظاهرات الشعبية التى قاموا بها فى الشوارع .

كان عزيز على ، وهو فى الخامسة والثلاثين من العمر ، رجلا معروفا ، ولد فى القاهرة حيث يقيم والده وتلقى علومه فى الكلية

العسكرية بالقسطنطينية ، ثم فى مدرسة الأركان حيث تخرج بتفوق عام ١٩٠٤ وعين فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونية حيث انتسب الى جمعية الاتحاد والترقى وكان من الضباط الذين نظموا الثورة العسكرية عام ١٩٠٨ ثم اشتركوا بالسير على القسطنطينية فى شهر ابريل من السنة التى تلتها . ولكن انتسابه لجمعية الاتحاد والترقى لم يكن ناشئا عن رغبته الصادقة فى صلاح المملكة العثمانية فحسب بل كان كذلك نتيجة لايمانه بالمثل العليا القومية العربية ، فلما وقعت الثورة المعاكسة عام ١٩٠٩ وأدرك خلال الشهور التى أعقبتها ان سياسة الاتحاديين ترمى الى مقاومة الحركة العربية والى سوء ادارة المملكة أخذ يبحث عن أنصار ذوى قيمة أكبر ليعمل معهم .

كان عزيز على يتمتع بنفوذ أكبر من النفوذ الذى يتمتع به عادة ضباط برتبته وذلك لأنه كان فى وقت من الأوقات يلقي محاضرات فى مدرسة الأركان فاستطاع خلال تلك الأشهر أن يجذب اليه قلوب الضباط الشباب من أبناء الجيل المقبل . أما فى السلك العسكرى فقد برز بخلقته وأقدامه وحكمته وكان تشبثه واندفاعه القوى فى وطنيته يحملان من هم أكبر منه فى السن على القبول بزعامته ، وهو الذى قام بتأسيس (الجمعية القحطانية) يساعده فى ذلك زميله الضابط سليم الجزائرى وكان برنامجهم يستهدف العمل على اقامة ملك مزدوج يحقق للعرب أمانهم مع الاحتفاظ بالولاء للملكة العثمانية ، وفى عام ١٩١٠ أرسل فى الخدمة الفعلية الى اليمن حيث أصاب نجاحا اذ أقنع الامام بلزوم تسوية خلافاته مع الباب العالى وفى السنة ذاتها تطوع للخدمة فى ليبيا حيث لمع نجمه بقيادته للقوى العربية التى كانت تقاوم العدوان الايطالى ، وفى عام ١٩١٣ عاد الى القسطنطينية ليشاهد بأم عينه المساعى المبذولة خلال الأشهر التى أعقبت مؤتمر باريس للقضاء على آمال العرب قضاء بطيئا . وقد وجد الفوضى والفساد سائدين فى وزارة الحربية وعلم برغبة القائمين على الأمر فيها الانتقاص من شأن أعماله الباهرة فى أفريقية مدفوعين بدافع الحسد ، كما لمس ميل الاتحاديين الى اصدار الأوامر بنقل جميع الضباط العرب ، وهو بضمنهم ، من العاصمة للخدمة فى الحماميات البعيدة فى الأقاليم فاشمأزت نفسه مما رأى واستقال .

قام عزيز على فى أوائل عام ١٩١٤ بتنفيذ مشروع مازال ينمو وينضج منذ أيام (الجمعية القحطانية) حين أدى اكتشافه لوجود خائن

بين أعضائها الى زوال اهتمامه بها فقرر ان يحولها الى هيئة لا تضم الا ضباط الجيش ، فشكل منظمة أخرى مستقلة عن الأولى ولكن برنامج الاثنين متشابه وسمى المنظمة الجديدة (جمعية العهد) وكانت أهدافها هي نفس أهداف (الجمعية القحطانية) ولكن برنامجها في هذه المرة صيغ بلغة عسكرية ولم يسمح لغير العسكريين بالانتساب اليها باستثناء اثنين من المدنيين فتح لهما الباب بسبب الثقة التامة بوطنيتهما وكان أحدهما وهو الأمير أمين أرسلان من المؤسسين الأول للجمعية الأولى . كان المراقبون يشككون أكبر عنصر في الجيش العثماني ولهذا كان عددهم كبيرا في (جمعية العهد) وقد أسسوا فروعا في بغداد والموصل لها ، وتبوأ هذه الجمعية بالنسبة للعسكريين نفس المركز الذي احتلته (جمعية الفتاة) بالنسبة للمدنيين وبالرغم من ان كل واحدة منها كانت تجهل وجود الأخرى في بداية الأمر الا أن نشاطهما - كل واحدة في حقلها الخاص - أصبح بعضه متمما للبعض الآخر . وفي عام ١٩١٥ اتصلت الجمعيتان في دمشق ووجدتا مواردتهما لاعداد الثورة العربية .

ومن الأوراق التي نشرها الأستاذ عمر أبو النصر - بيروت - ان عزيز على المصري ، الضابط العربي المصري قد أنشأ في ٢٨ تشرين الأول «أكتوبر» ١٩١٣ - جمعية العهد - بعد ما ضم اليه نخبة من ضباط العرب في الجيش العثماني كمحمد اسماعيل الطباخ ، ومصطفى وصفي ، وسليم الجزائري ، ونوري السعيد ، ويحيى كاظم أبو الشرف ، وعارف التوام ، وعلى النشاشيبي ، وياسين الهاشمي ، وطه الهاشمي وجميل المدفعي ، وتحسين علي ، ومولود مخلص وغيرهم من كبار قواد العرب ، وكانت هذه الجمعية سرية أقسم أعضاؤها أن لا يوحوا بشيء عنها ، والى القاري نص برنامجها :

١ - جمعية العهد جمعية سرية انشئت في الاستانة رغبتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا . الخ ، الخ .

ولقد أحدث انشاء هذه الجمعية أهمية عظيمة في دوائر الاستانة لما عرف به منشؤها من الصلابة والقوة ولأنها نشأت في فترة من الزمن

توترت فيها العلاقات بين الاتحاديين والشعبية العربية توترا قويا كان من أثره تأييد الشبان والضباط العرب للجمعية والتفافهم حولها ، حتى أنهم انشأوا لها فرعا في بغداد وآخر في الموصل . وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تنحسها وتحسب حسابها وتعمل على تفريق رجالها قبل اشتداد ساعدها وتبسطها .

وفي ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩١٤ عقد أجمع خاص في وزارة الحربية بالآستانة ، حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، ومحافظ الآستانة العسكرية أحمد جمال باشا - وذلك قبل أن يعين وزيرا للبحرية - ومدير الأمن العام عزمي بك ، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة ، وجمعية العهد عامة . وقرروا سبق الإشارة اليها مثل :

١ - اقضاء ضباط العرب المقيمين في الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمى ٣١٥ منهم لجمعية العهد الى المناطق التركية ، وهى تراقيا والأناضول فلا يعود بإمكانهم الاتصال باخوانهم العرب ولا القيام بأى عمل يعزز فكرتهم ويروجها .

٢ - تولية القيادة فى البلاد العربية الى الضباط الترك واقضاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان .

٣ - الاسراع فى تنفيذ سياسة تترك العناصر .

٤ - يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتترك العناصر .

٥ - مقاومة الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى بيروت وباريس .

٦ - الغاء الأحزاب العربية كلها ، وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية وتدير الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة .

٧ - اقضاء العرب الذين يعملون ضد الأتراك من الآستانة واستمالة كل من يمكن استمالته منهم .

٨ - تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية والاكثر من المنتسبين الى أنديةها .

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد اقضاء الضباط العرب - وقد اقضوا فعلا غداة صدور هذا القرار - بل أصدرت فى ٩ شباط سنة ١٩١٤

أمرا بالقبض على عزيز بك على وإحالة إلى المحكمة العسكرية بتهمة أنه أساء التصرف في ٣٠ ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حين مغادرته طرابلس الغرب ٠٠ إلى آخر ماجاء بتلك الاتهامات .

أما الأستاذ محمد صبيح - وكان على علاقة وثيقة بعزيز على المصرى - فقد كتب عن جمعية العهد .

« في سنة ١٩٠٩ أنشأ الشباب العربى فى « دار السعادة » كما كانت تسمى الآستانة ، ناديا اسمه « المنتدى الأدبى » ليكون بمثابة رابطة ثقافية بين الطلاب العرب . ولكن ما أن أحس العرب بان الثورة التركية بدأت تتنكر لأمانى قومهم ، حتى تحول النادى الى العمل السياسى . وأحس الأتراك - عن طريق جواسيسهم - بروح التذمر بين المجموعة العربية ، حتى كثرت زياراتهم له ، وكان من الزوار الدائمين : أنور ، وطلعت ، وفتحى وغيرهم .

وكان من بين العرب المترددين على هذا النادى شخصيات تجلّى دورها فيما بعد من أمثال : سليم الجزائرى ، وعبد الكريم الخليل ، ورفيق سلوم (مسيحي) ، وأسعد داغر (مسيحي) ، وعارف الشهابى وسيف الدين الخطيب ، وشكرى العسلى ، وعبد الوهاب الانجليزى ، وعزيز المصرى ، وشكرى القوتلى ، والأمير عادل أرسلان ، وجعفر العسكرى ، وسعيد حيدر ، ونجيب شقير ونخبة من آل الصلح والعظم ومردم .

وكان هذا المنتدى على صلة بحزب اللامركزية الذى انشأه فى القاهرة رفيق بك العظم . كما كان على صلة بجمعيات مشابهة نشأت فى بيروت والبصرة .

ولاحظ عزيز المصرى بحكم وجوده فى الوسط العسكرى أن اتجاهات الضباط الأتراك من زعماء تركيا الفتاة ميالة الى استعمال الشدة مع العرب ، فقرر أن ينشئ تنظيما عسكريا سريا أسماه جمعية « العهد » يلتحق بها الضباط فقط .

تكونت هذه الجمعية السرية فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ برئاسة البكباشى عزيز المصرى ، وكان من بين أعضائها الضباط : سليم الجزائرى ،

ونورى السعيد ، وعلى النشاشيبي ، وياسين الهاشمي ، وطه الهاشمي ،
وجميل المدفعي ، وتحسين علي ، ومولود مخلص ، وعلى جودت الأيوبي .
ومئات غيرهم من الضباط العرب وقد أقسم أعضاؤها ألا يبوخوا بشيء
عنها . وتحددت أغراض الجمعية على النحو التالي :

١ - جمعية العهد ، جمعية سرية ، أنشئت في الآستانة ، وغايتها
السعي للاستقلال الداخلي للبلاد العربية على أن تظل متحدة مع حكومة
الآستانة مثل اتحاد المجر مع النمسا .

٢ - ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة
بأيدي آل عثمان .

٣ - لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وأن الشرق
لا يعيش إذا اقتطعتها دولة أجنبية فهي تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها
وتعمل للمحافظة على سلامتها .

٤ - لما كان الترك يؤلفون منذ ٦٠٠ سنة المخافر الأمامية للشرق
أمام الغرب فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لأن يكونوا
القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر .

٥ - على رجال العهد أن يفرغوا قصارى جهدهم في انماء المزايا
المحمودة وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة ، فالأمة لا تحتفظ
بكيانها السياسى القومى ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القويمة .

وفى كتاب « ايضاحات » الذى أصدره جمال باشا (السفاح) قائد
الجيش الرابع التركى ، وحاكم سورية ، نبذة مفيدة عن جمعية العهد .
قال : « ان « عزيز على » لما عاد الى الآستانة من حرب طرابلس الغرب رأى
من الموافق انقسام الجمعية القحطانية الى قسمين : فجمعية العهد هي
القسم الذى تأسس ليسعى وراء الأهداف العربية بين أفراد الجيش » .

وقد نظم الضابط سليم بك الجزائرى نشيدا لجمعية العهد آخر مقاطعه :

يشعل نزار الحرب لدى عنق الكلب !
ونيل عز العرب من أمة تركية

ويقول عبد الغنى العريسي أحد أقطاب الحركات العربية ، فى التحقيق الذى أجراه بعد ذلك جمال باشا (السفاح) : كانت جمعية العهد بأول أمرها لا تريد ان تخاطر حزب اللامركزية (مقره فى القاهرة) بوجه من الوجوه ، لأنها تعد نفسها أقوى من الحزب فى البلاد العربية بدرجات . لأن القوة الاجرائية (أى التنفيذية) بيدها وكان حزب اللامركزية يسعى الى ضم جمعية العهد له ، ثم جاء زمن نظر فيه الفريقان الى بعضهما ، فوجدا نفسيهما أقوىاء . فكان حزب اللامركزية ، يريد ان تذوب فيه جمعية العهد . وجمعية العهد تريد عكس ذلك . واشتد الخلاف بينهما زمنا . وقد أخبرنى داود بركات (رئيس تحرير الأهرام بعد ذلك) يوم جاء الى بيروت قبل دخول الدولة الحرب ، ان الطرفين اتفقا وأصبحا كيانا واحدا .

ويقول أسعد داغر فى مذكراته عن عزيز المصرى فى هذه المرحلة :

« عزيز على هو أبو الفكرة العربية وحامل لوائها ، فمن حق التاريخ على أن أقول كلمة عنه ، وقد عرفته ورافقته مدة طويلة واستطعت أن أقدر فضله على الأمة العربية ورجالها ، وعلى أنا بنوع خاص ، لأنه هو الذى غرس فى الشعور الوطنى وربانى على فهم الواجب والقيام به .

كان عزيز قدوة لجميع عارفه فى كل شئ . لم يذكر أحد أنه رآه يشرب الخمر أو يلعب الميسر أو يندفع وراء الملذات ، أو يكذب على أحد أو يخل بوعده أو يتملق كبيرا . وكان يوزع دخل أملاكه فى مصر على المحتاجين من الضباط والطلبة فى اسطنبول . ويبذل كل جهوده لترقية أخلاقهم ومكافحة عيوبهم بكل رفق وكياسة . وينشر حوله الأخلاق الفاضلة ويعلم أصدقاءه آداب السلوك وحسن الذوق . يمثله الصالح أولا ثم بالقول والفعل .

وكانت علاقته بشبان المنتدى الأدبى علاقة المعلم بتلامذته أو الأب ببنيه يبت فيههم الفكرة العربية والروح الوطنية والأخلاق الكريمة الفاضلة . ويعلمهم تاريخ العرب فى مختلف أدواره موضحا ما فى كل منها من مفاخر ، سواء فى العلوم والفنون والآداب أو فى السياسة والادارة والحرب ، وسائر مظاهر الحضارة من اكتشافات واختراعات . وحرص الى جانب ذلك على تنمية حسن الذوق فى أولئك الشبان وتعليمهم آداب السلوك فى المجتمعات الراقية . وكان يفعل ذلك كله بمنتهى الكياسة . وقد زرته مرة فى غرفته وكان رباط رقبته لا يتفق مع لون ملابسه ، ففتح خزانة ملابسه ، ودعانى الى اختيار الرباط الملائم لى . وكان يمزج الجدد بالهزل ، فتحدث عن الألوان وما يتلاءم منها وما يتنافر ، وعن الملابس التى اعتاد

الناس أن يرتدوها فى المناسبات الرسمية وشبه الرسمية ، وعن الموضوعات التى يحسن أو لا يحسن طرحها على بساط البحث فى أمثال تلك المناسبات والاجتماعات ، وانى أعلن هنا بكل صراحة أن ما يتوهمه فى بعض أصدقائى من المزايا الخلقية أو الاجتماعية ، انما هو مستمد من عزيز على المصرى أستاذى فى الوطنية كما هو أستاذى فى الأخلاق والأداب الخلقية والاجتماعية .

وفى الدراسة الجادة التى كتبها د . محمد عبد الرحمن برج عن عزيز على المصرى والحركة العربية ١٦٠٨ - ١٩١٦ اشارات ومقتطفات هامة لكثير من الدارسين والباحثين والسياسيين عن عزيز على ودوره فى ايقاظ شعلة القومية العربية ، من بينها - مثلاً - ما ذكره الأستاذ محمد طاهر العمرى فى كتابه « مقدرات العراق السياسية » ان عزيز على كان يخيف العصابات البلغارية واليونانية والالمانية التى خرجت على الدولة العثمانية وعندما عين فى الجيش الثالث فى مقدونيا وتقلد مرارا قيادة عدة مفرزات أوقع بالعصابات الشائنة أبلغ الضرر وخاصة - كما يقول جمال باشا - فى قضية بترك وثمانية ومقدونيا . ويذكر جمال باشا ان عزيز على انضم الى جمعية الاتحاد والترقى قبل اعلان الدستور وقدم لها خدمات جليلة وأنه لما زحف الجيش على الآستانة بعد الثورة الرجعية فى ١٣ ابريل كان عزيز بك على رأس احدى فصائله فهاجم ثكنة ثويهوس بعد الاستيلاء على كوبرى غلطة وأظهر مهارة عظيمة فى مطاردة المعادين للثورة ولم أكن أعرف الى تلك اللحظة - جمال باشا - أن له صلة بالعرب .

ويقول محمد طاهر العمرى : لقد خدم عزيز على المصرى الدولة العثمانية فى اليمن بعقده الصلح بين الحكومة التركية والامام يحيى فعزیز على هو بطل ذلك الاتفاق وعزیز على - محمد طاهر العربى - من أصدق الرجال الذين خدموا الدولة والأمة معا .

وكنموذج لما كان عليه عزيز على من صراحة وجراءة وتمسك بالقومية العربية ما ذكره جمال باشا فى مذكراته « فى غضون وجودى فى منصب حاكم أطنه » وكنت قد ذهبت الى الآستانة - قابلت عزيز على بك فتبادلنا بضع ملاحظات عن الخطابات الشهيرة من بيروت وسورية التى نشرها شريف بك مراسل جريدة أقدام . ولما ذكرت له أن تلك الخطابات الشهيرة تشير عواطف مضرّة بالوحدة العثمانية وسلطة الخلافة الاسلامية فى الولايات

العربية أجابنى عزيز بك بلهجة الكبرياء قائلا : ان العرب لعلى حق فليت شعرى ماذا صنعتهم أيها الأتراك لنا سوى سعيكم فى افنائنا واحتقارنا حتى تتوقعوا المعاملة الودية من جانبينا . هل نسيتم أنكم فى الآستانة اذا ناديتهم كلبا ناديتموه بلفظ عربى عربى وان أردتم ان تصفوا شيئا عويضا غامضا قلتم أنه يشبه شعر العربى وكأنكم لم يكفكم هذا فتعلمتم فى اليوم التالى لاعلان الدستور اثاره خواطر العرب . أفلم تعينوا فى الجيش السورى مشيرا من سلالة هولوكو ورجلا يحتقر بغداد والعراق تتريا لا خلاق له ورسول الجحيم ؟ أنكم تعلمون حق العلم كيف يستخط العرب على التتر فليس ثمة معنى لتعيين عثمان باشا لقيادة الجيش الخامس الا اذلال العرب » . فعرتنى الدهشة لسماع مثل هذه السخافات من رجل نابه كعزيز بك وعزوت قذفه فى عثمان باشا الى حقد شخصى قد يكون ناشئا عن خلاف قام بينهما وهما فى مقدونيا . اذ فى ذلك الحين كان عزيز بك يعمل فى إحدى المصالح العسكرية فى كوتشانا . وبينما عثمان باشا حاكم جبهة اسكوب كان قائما بأعمال التفتيش اذ خاطب عزيز بلهجة قاسية . ولما كان من عادة الباشا التهكم فى الخطاب أجابه عزيز بك جوابا حادا . فذهل الباشا لصدور مثل هذا الرد علنا فقرر احتفاظا بكرامته استعمال الشدة مع عزيز بك . وأصدر أمره بالقبض عليه . ومنذ ذلك الحين تولدت البغضاء فى نفس عزيز بك ضد عثمان باشا . فأجبت عزيز بك بأن الأتراك الأناضول ينظرون بعين الاكبار الى العرب وان من الخطأ الارتباب فى ذلك لمجرد ترديد بضعة أقوال مألوفة . وان أشخاصا مثله متعلمين اذا سمحوا لأنفسهم بالتأثر بالضغينة الشخصية كانت النتيجة اذا أن يصبح الأمر فوضى وفى ذلك الخطر كل الخطر على العالم التركى .

يقول تحسين العسكري : أما فى الآستانة فقد نشطت الحركة العربية بكل شدة وحماسة فقرر عزيز على بك المصرى وجوب انذار عبد الحميد الزهراوى بالكف عن الدعاية للحكومة ومغادرة الآستانة الى سورية . وأوفد الضباط العراقيون جميل المدفعى ويوسف العزاوى وسعيد التكريتى الى عبد الحميد الزهراوى فأندروه فوافقهم خوفا ورعا منهم على أثر ذلك تأسست الجمعية السرية العسكرية التى أسسها عزيز على بك المصرى فى الآستانة بمعاونة ضباط الركن المقدم مسلم الجزائرى وضباط الركن نوري السعيد البغدادى وذلك فى تشرين الأول ١٩١٣ باسم جمعية العهد .

ويورد تحسين العسكري بعض من ضمتهم جمعية العهد (ومنهم عدد كبير من الضباط العراقيين أمثال جميل المدفعى وطه الهاشمى ويوسف

العزاوى وسعيد التكريتى وصبيح نجيب وأنا ونورى مفتاح وآخرون
لا أتذكر أسمائهم ومن الضباط السوريين ضابط الركن مصطفى وصفى
ويحيى كاظم وتوفيق الجندى ومحيى الدين الجبان ، وأمين لطفى ، وعلى
النشاشيبي ، ومن ضباط عرب طرابلس الغرب محمود حلمى وصبحى ومن
الملكيين مزاحم الأمين وعبد الكريم الخليل وعاصم الجلبى واسماعيل
الصغار الطيب وأسعد داغر وفائق شاكر الطيب وثابت عبد النور وغيرهم)
أما الاتحاديون فقررنا :

١ - إبعاد الضباط العرب المقيمين فى الآستانة الى مختلف البلاد
التركية .

٢ - تولية الضباط الأتراك القيادات العليا فى البلاد العربية
والاستغناء بقدر الامكان عن الضباط العرب فى المناطق النائية .

٣ - تنفيذ سياسة تترك العناصر .

٤ - مقاومة الحركة الاصلاحية التى بدأت فى مؤتمر بيروت ومؤتمر
باريس .

٥ - إلغاء الأحزاب العربية وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية
تشرف على الشؤون العربية ومقاومة الانفصال عن العرب .

٦ - إبعاد من فى الآستانة من العرب الذين يعملون ضد الحكومة .

٧ - تقوية نفوذ جمعية الاتحاد فى البلاد العربية وتكثير أعضائها .

ويمضى تحسين العسكري فيقول فى مذكراته : هذا ما قرره
الاتحاديون فلما وقف شباب العرب على هذه المؤامرة وثقوا ان الاتحاديين
لا يمكن ان تصدق وعودهم وانهم لا يبغون الا السيء للعرب .

وقد أدرك عزيز على المصرى نيات الاتحاد السيئة ضد الضباط
الداعين للقومية العربية فاستقال وهو برتبة مقدم ضابط ركن فى الجيش
وانصرف الى الاشتغال بالقضية بكل جد ونشاط ، فأمرت الحكومة دائرة
الشرطة بمراقبته اذ كانت دارة ملتقى الشبان الضباط فأخذت الجواسيس
تحوم حولها وتقدم تقاريرها الى الحكومة حتى ساورها القلق من اجتماعات
هؤلاء الضباط بعزير على بك فرأت ان تنتقم منه شر انتقام وكان بينه
وبين أنور عداً فقُبضت عليه الشرطة فى فبراير ١٩١٤ .

وعن جمعية العهد يقول عزيز على انها كانت جمعية عامة تشترك فيها جميع القوميات العثمانية وقد وضعت الجمعية فيدرالية بشكل يضم كل مناطق شرق البحر الأبيض المتوسط . ويقول عزيز أنه لم يكن ينبغي تقليد النظام العسكرى المجرى وانما رغب فى تأسيس نظام يكون فيه لكل عنصر كيانه الادارى المستقل على أن يجمع الاتحاد الفيدرالى جميع هذه الكيانات .

ويقول عزيز على المصرى أن نظريته لم تكن تقتصر على الأتراك والعرب بل تمتد على الأتراك والعرب والألبان والبلغار وجميع العناصر التى بقيت تحت حكم السلطنة أو استقلت عنها بعد حرب البلقان أو قبلها وحتى مصر والسودان وطرابلس الغرب وتونس يكون ضمنها بحيث تكون حقيقة شرق البحر الأبيض المتوسط يكون السلطان العثمانى أو من تنتخبه رئيسا رمزيا حاكما فعليا لها كما هو الأمر فى إنجلترا . وتكون الآستانة أو غيرها من المدن عاصمة الاتحاد . أما من ناحية اللغة فكل وحدة من وحدات الاتحاد الفيدرالى تتكلم ما تشاء ، أما اللغة العثمانية فهى اللغة الرسمية الى ان تتفق هذه الدويلات المتحدة على لغة رسمية عامة لها وقد تكون غير التركية . أما بشأن الدين فقد قال عزيز المصرى بوجوب التسامح الدينى الى أبعد حد فى النظام الجديد وان معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن يكون القاسم المشترك بينها فيستغنى عن بقية التفاصيل مع الزمن .

ويقول أحمد قدرى فى كتابه « مذكراتى عن الثورة العربية » : لم يكن وضع البلدان العربية خافيا على مثقفى الضباط العرب أيضا ، فأخذوا بدورهم يفكرون بواجبهم نحو وطنهم وانتهوا الى تأليف جمعية العهد عام ١٩١٣ وهى جمعية سرية كان من خيرة رجالها عزيز على المصرى وياسين الهاشمى ونورى السعيد ومولود مخلص ومحمد اسماعيل الطباخ وسليم الجزائرى وعلى النشاشيبي .

وكان عزيز على يرى ضرورة ان تدار الدولة العثمانية كولايات متحدة لكل منها برلمانها ولها برلمان اتحادى حتى يمكن انقاذها من الانقراض .

وسنعود مرة أخرى الى تكملة الحديث عن العلاقات المصرية التركية رسميا وشعبيا . . كما سنعود مرة أخرى الى الحديث عن موقف عزيز على المصرى من دولة الخلافة الاسلامية بعد زوال سلطة السلطان عبد الحميد .

الباب الخامس

1. Introduction

The purpose of this study is to investigate the effects of the proposed system on the performance of the system. The study is divided into two main parts: a theoretical analysis and an experimental evaluation.

The theoretical analysis is based on the assumption that the system is a linear system. The system is modeled as a linear system with a transfer function. The transfer function is derived from the system equations. The system is then analyzed in the frequency domain. The frequency response of the system is calculated. The magnitude and phase of the frequency response are plotted. The results show that the system has a low-pass characteristic. The magnitude of the frequency response decreases as the frequency increases. The phase of the frequency response decreases as the frequency increases. The experimental evaluation is based on the results of the theoretical analysis. The system is implemented on a computer. The input signal is a sine wave. The output signal is measured. The magnitude and phase of the output signal are compared with the theoretical results. The results show that the system performs well. The magnitude and phase of the output signal are close to the theoretical results.

The experimental results show that the system has a low-pass characteristic. The magnitude of the frequency response decreases as the frequency increases. The phase of the frequency response decreases as the frequency increases. The system is stable. The output signal is bounded for any bounded input signal. The system is linear. The output signal is a linear function of the input signal. The system is time-invariant. The output signal is the same for any time shift of the input signal. The system is causal. The output signal depends only on the input signal up to the present time. The system is minimum phase. The phase of the frequency response is the negative of the phase of the magnitude response. The system is all-pass. The magnitude of the frequency response is constant for all frequencies. The system is a delay element. The output signal is a delayed version of the input signal. The delay is the time taken for the signal to travel through the system.

الفصل الأول

قبل ان تقوم الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي

رغم ان كتابنا هذا عن عزيز على المصري وصحبه ، بناء القومية العربية والاسلامية الا أننا آثرنا منذ البداية أن يكون الكتاب شاملا للعصر الذي ولد وعاش فيه عزيز على المصري ، لا انطلاقا من القاعدة الاجتماعية التي تقول بأن الانسان ابن عصره وحسب ، وانما رغبة منا في تأريخ تلك المرحلة من مراحل الصراع العربي التركي وبناء القومية العربية على أساس جديده تأثر بحركة القوميات التي قامت في أوروبا وكان لها صداها في كثير من أرجاء البلدان العربية والأفريقية والآسيوية . ولأنني ككاتب وقارئ في نفس الوقت بل كقارئ قبل أن أكون كاتباً . كنت أحس بفقر في المعلومات التي لدينا عن تلك المراحل على أساس أننا كنا في مصر ننظر الى تركيا - دولة الخلافة الاسلامية - نظرة مخالفة لنظرة كثير من الأشقاء في سورية ولبنان والعراق وفلسطين . وكان ما ورد اليينا من معلومات عن تلك المراحل ، أما عن طريق الكتاب الفرنسيين والانجليز أو من يمت اليهم بصلة القربى أو التعاطف أو التعاون . وأما عن طريق بعض الاخوة السوريين أو اللبنانيين أو العراقيين الذين كانوا ضد دولة الخلافة الاسلامية في مرحلتها الأخيرة .

وكان عدد الكتاب المصريين الذين تناولوا تلك المراحل بالتأريخ من القلة بمكان الى الدرجة التي جعلتني وأنا أكتب هذا الكتاب في أمس الحاجة الى معرفة آراء أخرى غير آراء من سبقتم الإشارة اليهم من الانجليز والفرنسيين ومن الأشقاء السوريين اللبنانيين والعراقيين الذين تعاملوا - من وجهة نظري الخاصة - على دولة الخلافة الاسلامية في مرحلتها الأخيرة متأثرين بعوامل اقليمية ضيقة أو بعوامل شخصية بحتة ، أو حتى بأفكار وآراء موروثة . . . وليس معنى ذلك أبدا أننا لم نجد كتابا أجنبيا أو سورياً أو لبنانياً أو عراقياً قد وقفوا من الصراع العربي التركي -

في سورية ولبنان والعراق - موقفا محايدا فيما أكثر الكتاب الأجانب الذين أعطوا دولة الخلافة الاسلامية حقها من النقد ومن الاشادة معا دون تحيز من ناحية الجنس أو من ناحية الدين .

وما أكثر الكتاب العرب الذين لم يفعلوا أكثر مما يجب بخطايا الحكام الأتراك في الحرب العالمية الأولى وانما كانوا منصسفين للعرب وللأتراك معا .

وأعتذر للقارئ وللقارئة معا ، اذا كنت في بعض الأحيان أسرف في النقل عن هذا المصدر أو ذاك لاستكمال الصورة التي أريد تقديمها ، وربما كان في مقدمة ما يخفف من ذلك مسئولية ذلك الاسراف - من وجهة نظري - أنني وقعت على مصادر كثيرة لا أعتقد ان غيري اليوم يملكها ، كما وقعت على مصادر أخرى ربما كانت موجودة منذ سبعين عاما لدى البعض ولكنها - كما أتصور - انقرضت أو تالشت أو أصبح تواجدها محدودا للغاية ومما آخذني على نفسي أنني عندما أقع على أى مصدر غير متداول أحرص على أن أقدمه للقراء أو أن أقدم زبدته وحصيلته ، لأننى وقد فرحت بالوقوع عليه أعتقد ان قراء كثيرين سوف يفرحون عندما أقدمه لهم .

وفيما يتعلق بهذا الفصل بالذات « مقدمات الثورة العربية التي قادها الشريف حسين بن علي بمعاونة الانجليز - » أرى ان معظم ما كتب عن تلك الثورة كان من طرف واحد وأن كثيرين منا لم يحاولوا بل لم يجربوا - لظروف خاصة بهم وبالحكم العربى فى بعض البلدان العربية - أن يتحدثوا عن تلك الثورة بصراحة فيقولون بصراحة تامة ما لها وما عليها . وقبل الدخول فى تفاصيل الحديث عن تلك الثورة لابد وان نتحدث بأفاضة عن الأسباب التي أدت اليها وأن تناقش فى نفس الوقت الأسباب التي زعموا أنها أدت اليها ولم تكن تلك من الأسباب الحقيقية لقيامها .

كما أنه من وجهة نظري الخاصة . . لابد من الاسترسال فى الحديث عن الأوضاع القائمة فى دولة الخلافة الاسلامية قبل أن تقوم تلك الثورة ، وكذلك الأوضاع القائمة فى الاقطار العربية الشقيقة التي اندلعت منها تلك الثورة . . .بالاضافة الى ضرورة الاسترسال فى الحديث عن الشخصيات التي مهدت لقيام تلك الثورة ولم تتح لها الفرصة للمشاركة فيها . ولابد لي أيضا ، من الإشارة - ولو فى ايجاز شديد - لقلّة المعلومات وعدم توافر المصادر الموثوق بها والتي يمكن أن تفيدنا فى هذا الموضوع ، الى الأسباب التي دفعت عزيز على المصرى الى الانتقال من صفوف المدافعين

عن دولة الخلافة الإسلامية إلى صفوف الثائرين عليها والاشارة أيضا -
في ايجاز - يكاد يكون مغلا إلى الاتصالات التي جرت بين الانجليز
والشريف حسين بن علي وبين عزيز علي المصري من أجل الاشتراك في تلك
الثورة .

وربما كان موقف عزيز علي المصري هذا من المواقف التي أغضبت
الكثيرين من المصريين الذين كانوا يرون الثورة على دولة الخلافة الإسلامية
خطأ كبيرا لا يمكن السكوت عليه خاصة عندما ترتبط الثورة على دولة
الخلافة الإسلامية بالانجليز الذين كان شعب مصر قد قاسى منهم الويلات ،
لا منذ احتلالهم لمصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وحسب ، وإنما قبل
ذلك بكثير عندما كان الانجليز يتآمرون اقتصاديا وسياسيا على مصر ،
وهذا التآمر هو الذي أدى إلى الاحتلال البريطاني لمصر .

وأقولها بكل أمانة وصدق أنه قد يجوز للشريف حسين بن علي ألا
يرتاب في الانجليز لأنه لم يتعامل معهم من قبل ، ولأنه لم يجرب تأمرهم
عليه وعلى بلاده ، وقد يجوز كذلك للاخوة في سورية والعراق ولبنان
وفلسطين أن يفضلوا التعامل مع الانجليز على التعامل مع الأتراك بل أن
يتفقوا مع الانجليز على الثورة ضد الأتراك لأنهم جربوا الأتراك وجربوا
الانجليز معا ، بعكس الحال بالنسبة للاخوة المصريين الذين جربوا الأتراك
وجربوا الانجليز معا ، ووجدوا أن نار الأتراك مهما تكن حامية أهون بكثير
من جنة الانجليز إن كان للانجليز جنة !!

وعندما كنت في مائتقى الفكر الإسلامى بالجزائر عام ١٩٧٣ أقول
هذا الكلام في إحدى اللجان الفرعية التي كنت أراسسها وكانت خاصة
بالإعلام الإسلامى ، تصدى لى بعض الاخوة معترضين على رأيى هذا ، فما
كان منى إلا أن حذيت بالأرقام والأسماء والوقائع ويلات الحكم العثمانى
لمصر مقارنا إياها بويلات الحكم الانجليزى لمصر فمالت كفة الحكم العثمانى ،
وكان أن أقرنى الاخوة المؤتمرون فيما بعد - على ما ذهبت إليه وما ادعوا
إليه - بل ألح على الدعوة عليه باستمرار وهو ضرورة إعادة النظر فى
رؤيتنا إلى الحكم التركى على ضوء رؤيتنا للحكم الانجليزى والفرنسى لنرى
أيهما كان أخف ضررا : الحكم التركى أم الحكم الانجليزى أم الفرنسى .

ولا أريد أبدا أن استعيق الحديث عن نتائج الثورة العربية فأقول
مثلا : إن جناية الانجليز على الثورة العربية وخلفهم لكل ما وعدوا به ،

وتنكرهم لكل ما التزموا به ، ثم احتلالهم البغض للبلدان التي كانوا يساعدونها على الاستقلال ، كانت أخطر بمراحل من كل الجنايات التي ارتكبتها الحكيم التركي في السنوات الأولى من القرن العشرين (من ١٩٠٠ حتى ١٩١٦) .

وحتى لا أستدرج في الدخول الى تفاصيل لا أريد الآن الحديث عنها .. استسمح في الحديث عن دولة الخلافة الاسلامية قبل أن تقوم الثورة العربية ، وعن الجرائم التي ارتكبتها في سوريا ولبنان جمال باشا والي التركي وقائد الجيش الرابع المربط في تلك البلدان .

كانت تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد - على ما يروي داجوبرت فون ميكوش - مؤلف كتاب « مصطفى كمال المثل الأعلى » - مطبعة الوفاء بيروت - أشبه بحالة روما قبل ظهور قيصر .. حروب أهلية ومنازعات حزبية .. إذ ان المعارك لم تكن كلامية بل كانت قوى الأمة الحربية في اصطدام عنيف تحاول كل منها هدم الأخرى ، وكان أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب « الاتحاديين الأحرار » تميزا لهم عن « المعتدلين » من أنصار تركيا الفتاة ، لا يريدون شيئا غير الدكتاتورية الحزبية .

كان الحزب الاتحادي يبعث الوفود الى المناطق المهمة في البلاد ، وكان هؤلاء المبعوثون من عمال التلغراف أحيانا ومن الضباط أحيانا أخرى .. وكانت المهام المطلوبة منهم لا تخرج عن تشديد الرقابة على الموظفين ، وعد أنفاسهم ، وبث الروح الوطنية في نفوس الأهلين ، ونشر الدعاية الواسعة للمدنية الأوروبية بين سواد الشعب ، ولم يكن القائمون بنشر هذه الدعاية العريضة من الرجال الذين يفتقرون الى الذكاء أو الذين يحجمون عن تنفيذ ما يطلب منهم بدقة وإخلاص ، ولكن الزعامة الحقيقية كانت مفقودة فلم يكن بين الاتحاديين من له شخصية لينين الثورية ولا عبقرية الفذة . وكان في كل مرة يقترب الحزب من النجاح وجمع السلطة في يده - هذا ولا شك لمصلحة البلاد ذاتها - تقوم العضلات في وجهه ، ويبدأ الأوروبيون مناوراتهم التهديدية التي كانت تضيق معها مهابة الثائرين والتي كانت تشل قواهم وتضعف عزائمهم .. وعلى هذا ترجع السلطة العليا للخصوم والناقمين على الأحرار .

كانت البلاد في اضطراب وأي اضطراب .. أبواب البرلمان لا تفتح الا لكي تغلق .. وزراء يجلسون على مقاعدهم وهم لا يدرون ان ينهضوا

منها الى النفي والتشريد أو الى بيوتهم لينزوها فيها حرصا على رقابهم . .
كثرت الاشاعات . . راجت الأقاويل . . عمت الفوضى . وكان أعضاء
الأندية السياسية يجمعون سرا ويحكمون اغلاق الأبواب درءا للطوارئ
ودفعا لتطفل الجواسيس الذين كان لا يحلو لهم الا ازعاج هؤلاء الأعضاء
والقاء الرهبة والفرع في قلوبهم . وكان لا يقبل العضو الا بعد أن يفوه
بكلمة « السر » وكانت كلمة السر تتبدل بعد كل جلسة . ويكفى أن نذكر
أن العضو كان يعود في بعض الأحيان مع جاره لينام بعد ، فيجد هذا
الجار الذي يسير معه قد خر أمامه جثة هامة وإن القاتل ولى الأدبار .

وكانت الجملة التي يكثر الأتراك من ترديدها في ذلك الحين هي أن
محمود شوكت باشا هو الذي قهر السلطان عبد الحميد ، وكان رجال
الجيش يلاقونه بالهتاف الشديد ، وكانت الخطوة التالية - لو كان فعل -
توصله حتما الى الدكتاتورية ولكنه خاف من العواقب وتهيب الموقف
فتراجع ثم اختفى .

وقد انتهت الحياة التي كان يشتمع بها الجدي ، أي حياة السكون
والنعاس والكسل والخمول .

وبعد أن كانت لا تقضى الحامية في التمرينات اليومية غير مدة
وجيزة ، أصبحت تسير المسافات الطويلة المرهقة التي كانت تستغرق
النهار بطوله ، تؤدي المناورات العسكرية .

وكان الجنود يتمرنون باستمرار على اطلاق الرصاص ، واستعمال
المدافع ، وكان ذلك محرما في العهد الحميدي . . !!

وكان سير الجيوش في الشوارع مع فرقها الموسيقية الحربية مدعاة
لسرور الأهلين الذي لا يوصف ، وكان اغتباطهم هذا ينسيهم الفوضى التي
استحكمت حلقاتها ، ويورعهم من الاضطراب الفكري الذي كان يتجسم
في أوضح أشكاله ، في الفصول المضطربة التي كانت تنشرها الصحف
التركية في ذلك الحين .

وبدلا من تحسين الحالة بعد اعلان الدستور ازدادت سوءا : كانت
هناك حالة منظورة واحدة هي التي تتصرف في الأمور ، ولكن بعد اعلان
الدستور ضاعت هيبة السلطة وأصبحت الفوضى متفشية في البلاد . . .
غادت عناصر الجيش المتجيزة الى التناحر والتنابد .

وكان حزب الاتحاد يزداد قوة ، ومع القوة تهديدا ووعيدا . . . وكان يعتمد فى قوته على الجيش ولهذا كان يقرب من يود تقريبيهم ويدفع بهم الى الوظائف العالية ليشغلوها . وانتعشت حركة التآمر والدس من جديد .

وفى مذكراته ، التى أملاها الغازى مصطفى كمال باشا (أتاتورك) على صحيفتى « حاكميت مليه » وفكيت « اللتين كانتا تصدران فى أنقرة والأستانة صورة حية لما آلت اليه الأمور فى دولة الخلافة الإسلامية فى سنواتها الأخيرة .

فى ليلة من الليالى التى ازدحمت فيها أرجاء « يونيون بار » قصبتي غرفة صغيرة فى ركن من أركانه واقتربت من خوان يجلس حوله بعض أشخاص من المعروفين بانهم من رجال الانقلاب وكان بعضهم يشرب جعة وكان بعضهم يشرب « العرقى » وكان حديثهم يدور حول الانقلاب ومن الزعيم الذى يصلح للزعامة . وأذكر أن أحدهم صاح بأعلى صوته : أريد أن أكون مثل جمال . فصاح الآخرون : مرحى مثل جمال ، وانتظر الجالسون أن أؤيد ظنونهم فى جمال الذى كنت على اتصال به مساء كل يوم ، ولا أذكر أننى أومأت اليهم بإشارة تدفعهم الى الاطمئنان . . . كل ما أذكره ، أنه مرت فى نفسى هذه الملاحظة : لا يرون فى نظرى الرجل الذى يبحث عن العظمة والمجد والرجل الذى يظن أن نجاة البلاد يتوقف على وجود الرجل العظيم ويبحث عن القدوة ليتشبه به معتقدا أن انقاذ البلاد لا يتم إلا بهذه الصفة مثل هذا الرجل ليس رجلا فى نظرى .

ويمضى مصطفى كمال قائلا : أظن أننى لو أبدت هذه الملاحظة لآخوانى الجالسين معى على خوان واحد فى تلك الليلة لحكموا على حكما سلبيا وربما كانوا قد قالوا فى معرض التدليل على حكمهم . . . ما لهذا الأفندى القليل الدراية بالأمور أنه ليرى نفسه عظيما جدا حتى لتضيق دائرة نظريته بحيث لا يرى العظمة . . . مثل هذا لا يصلح أن يكون بين رفقاءنا .

فى تلك الليلة - مصطفى كمال - تبلورت فكرتان بتأثير بنت الحان على تلك المائة واحدة ايجابية وأخرى سلبية : الأولى تذهب الى ايجاد الزعامة أولا ثم تخلص البلاد ، والثانية ان الزعامة ليست الأقوال الجوفاء بل يجب أولا انقاذ البلاد وليس للزعامة حتى يعد ذلك مكان للبحث .

ويقول مصطفى كمال - أتاتورك - ان جمال بك كان قد حرر مقالة في إحدى صحف سلاويك نشرت بدون توقيع وأنه بعد أن خرج جمال بك من دائرة العمل وأخذ الترام في الطريق الى نادى أوليمبوس ناوله جمال الصحيفة وسأله أن يقرأ الافتتاحية ، فلما قرأها سأله جمال بك عن رأيه فيها فقال أنها افتتاحية عادية لصحفي عادى وقال جمال بك لمصطفى : « ما هذا التعالى انها بقلمى » وقال مصطفى كمال ، أنه قال لجمال بك : « أرجوك الصفيح ، ما كنت أعلم ذلك ، وكنت أتمنى ألا يكون ذلك . اياكم يا جمال بك والسير في طريق اكتساب اعجاب بعض صغار الأعلام بأمثال هذا الأمر وأشباهه ، فانه ليس لهذا العمل قيمة ولا قدر : عليكم أن تنعموا النظر في موقف الحاضر ، وعليكم أن تعتقدوا أنه من الضروري على المرء أن يتفانى ، فاذا تنازلتم الى استمداد القوة من رضى هذا واعجاب ذاك ، فلا أدري ماذا يكون حالكم وانماؤكد أن مستقبلكم لا يكون على أساس متين . لأن أمامنا عالما واسعا لم يتصادم بعد بالحقائق ، وفي هذا العالم كثيرون متشيعون بخيالات لم تنضج بعد . . العظمة هي أن تسير في طريقك دون أن تلتفت الى أحد . . دون أن تلجأ الى اغواء أحد . . ضع نصب عينيك الكمال الذى تطلبه البلاد ، وسدد سهام جهودك لهذا الغرض .

وينتقل مصطفى كمال - فى مذكراته - الى الحديث عن اعتماد الجيش التركى على الألمان فيقول : لم أكن على ثقة من أن الحرب العامة ستعود بنتائج حسنة على حلفائنا ، وكان أكثر ما أثر فى نفسى القاء أزمة الجيش الى هيئة عسكرية أجنبية ، ولا أريد هنا أن أنتقد الألمان والهيئة العسكرية الألمانية ، وانما الجديرون بالنقد هم بطبيعة الحال رئيس حكومتنا ورجال الدولة لأنهم هم الذين ذهبوا بأنفسهم الى تلك الهيئة يدعونها فى شيء كثير من الرجاء والاستعطاف بالقدوم الى بلادنا بفكرة أن الجيش التركى عاجز ليس على شيء من الأهلية والاستعداد ، لقد تحدثوا الى تلك الهيئة بصراحة عن ضعف الأمة التركية وعجزها وطلبوا منها أن تشخص إلينا لتهديتنا وترقيتنا ، ولشدة ما كنت متأثرا من تسليم الجيش وجميع أسرارها الى الهيئة العسكرية الألمانية بلا قيد ولا شرط ، وعندما وقفت على هذا الحادث بطريق الصدفة قبل اتخاذ قرار ما بشأنه ، رأيت من واجبي رفع صوت الاعتراض الى المقامات التى يستطيع صوتى أن يصل إليها ، ولكنى لم أجد من يهتم باعتراضى أو يعيره أدنى التفات . لم أفأأذكر ما سيجره علينا الحرب من العواقب السيئة بعد دخولنا غمرات الحرب العامة ، فقد نارت ناثرتى ضد حملة القنال ، ورميت أول الأمر بوابل من الانتقادات عندما عرضت على قيادة الجيوش المسافرة للحجاز ، تلك الانتقادات التى لم تثمر

رغم تمكني من اقناعهم بوجوب اعتبارها . وأعقب هذه الانتقادات والتمردات حوادث أخرى جادلت فيها مجادلة عنيفة ويعلم الناس الحوادث التي تمت في عهد قيادتي للفرقة المسماة « بيدوم » الصاعقة .

وعلى ما أذكر . . . إن أول تمرد في نفسي لم أستطع كبج جماحه ، كان أثناء تلك الحوادث ، إذ كنت أدركت أنه قد مضى أوان السكوت والتواضع وكنت أرى المصائب تتوالى على تركيا متدفقة كالسيل الجارف فكيف أطيق صبرا واحتمل السكوت بعد ذلك .

فوضعت نصب عيني كل احتمال وعاقبة وقدمت استقالتي من قيادة الفرقة بعد تعيين وكيل (وقد كان علي رضا باشا وهو من القواد المعروفين) وكان هذا العمل لا يتمشى مع الأصول والقواعد المتبعة وفيه شيء من روح التمرد والعصيان ، وعندما أتممت ما اعترضت عليه وأخطرت المقامات العالية بهذا الأمر الواقع أرسل إلى الجنرال فلكنهاين خطابا خاصا ليثنييني عن عزيمتي ، وأرسل إلى وكيل القائد العام وقائد الفرقة الرابعة ، وقد كان بعض المهتمين بهذه الحالة يتوسط بالتأثير على الرجوع عن قصدي ، غير أن هذه الحالة دلتنى على أن الحقيقة إما أن تكون غير مفهومة من قبل أصحاب النفوذ ، وإما أنهم يحاولون كتمانها بوسائل تبعث في النفس الحزن والأسى .

وكنموذج لما كان يلجأ إليه الحلفاء لتركيا (الألمان) من استخدام رشوة كبار الضباط يقول مصطفى كمال : عندما سلكت طريق الاستقالة وعولت على ترك وظيفتي ومنصبى في مدينة حلب ، لم أكن أعلم أنني لا أمتلك من النقود ما يوازي السفر بالسكة الحديدية من حلب إلى الآستانة . ويستذكر مصطفى كمال واقعة حدثت له عندما قرر التوجه إلى الآستانة وإلى حلب - أي عند تعيينه قائدا للفرقة « السابعة » : حضر ضابط ألماني شاب يصطحبه ضابط تركي في معسكر فلكنهاين إلى محل إقامتي في رقم ٧٦ في (العقارات) وأخبراني أنهما أحضرا لي بعض أشياء من قبل فلكنهاين داخل صناديق مزخرفة ، فأمرتهما بفتح تلك الأشياء في الغرفة التي قابلتهما بها وبعد مدة قصيرة وجدت صناديق صغيرة موضوعة بترتيب على مقربة من باب الصالة فسألت مندهشا : ما هذه الأشياء ؟ فأجابني الضابط الألماني : أرسل اليكم المارشال فالكنهاين مقدارا من الذهب بمناسبة سفركم .

ولما كنت لم أتحدث الى أي انسان باحتياج من احتياجاتي ظننت أن
المارشال قد أرسل هذه النقود لصرفها في احتياجات الجيش ولذلك خاطبت
الضابط التركي الذي كان يقوم بالترجمة بيني وبين الضابط الألماني فقلت
له : هذه الصناديق وردت الى خطأ بعد أن قمت باستلامها خطأ وأمضيت
على استلامها خطأ بإيصال مني ، إذ كان يجب إرسالها لرئيس المهمات
وحفظها طرفي غير داخل في اختصاصي . وعندما ترجم الضابط التركي
أقوال الضابط الألماني أجاب : كلا يا سيدي ما يخص الفرقة غير هذا
المقدار . وقلت لضابطنا أن يقول للضابطين الألمانيين : اسمعنا جيداً .
انني آمركما أن تذهبا ثانية الى حيث فلكنهماين لتقولا له أن الذهب المرسل
منكم محفوظ كما هو وقد أعطينا لكم ايضاً عند استلامه وادعاء عدم وجود
الايصال لا ينفي وجود الذهب . وقد يجوز أنكم فقدتم الوثيقة فنحن نعيد
اليكم الذهب نظير سند منكم يفيد باسترداد المال . ثم تقولون له ؟ كان
عليكم أن تدركوا من مدة طويلة أن القائد الذي أوفدنا اليه ليس من
الأشخاص الذين يتسامحون في مصالح البلاد مقابل الذهب : واذ كنتم
في شك من ذلك الى الآن فان قائدنا يستطيع أن يثبت لكم وللرأي العام
هذا الأمر بشكل آخر . ان نقودكم لم تزل على حالها وانما لا يمكن أن
يبقى لديكم امضاء (مصطفى كمال) وهو أئمن وأعظم قدراً من هذه النقود
هذا ما يجب أن تقولا ولا أريد أن أراكم قبل الحصول على نتيجة ايجابية .
أن رفيقي اللذين أصدرت اليهما أمرى كالما يجهلان فلكنهماين الا انهما
كانا يعرفان أسلوبى فى التعامل ولذلك عادا الى بعد ساعة يحملان الورقة
التي تشتمل على امضائى .

ويمكن أن يعلم الانسان من هذه الحادثة أن المارشال فلكنهماين كان
يسلك هذا السبيل ، سبيل اغوائي واغواء كثيرين غيرى بمثل هذه
الصناديق المملأ ذهباً .

ويدلل مصطفى كمال ترك على حاجته للمال بعد أن استقال فيقول
أنه اضطر لعرض خيول له للبيع حتى يستطيع السفر الى الآستانة ، فلم
يجد مشترياً لأن الضباط الأتراك لم يكونوا في سعة من المال تمكنهم من
من شراء مثل هذه الخيول ، كما أن أعيان حلب رفضوا شراءها خوفاً من
أن يستولى الجيش على كل ما لديهم من الحيوانات بسبب ظروف الحرب .
وتقابل مصطفى كمال مع ناظر البحرية قائد الفيلق الرابع وكان يخصه
— يخص مصطفى كمال — بمحبة خاصة وعلاقة متينة ، وعرض ناظر البحرية
الخيول على البيطرة لتقدير قيمتها ثم نقده ألفان من الجنيهات الذهبية

صفقة واحدة فقبلها وتمكن من السفر الى الآستانة . وبينما كان بالآستانة قابله واصف باشا مستشار وزارة البحرية وقال له : لقد باع جمال باشا خيولك بخمسة آلاف جنيه وسيرسل لك الثلاثة آلاف الباقية . وقد فعل ذلك جمال باشا حتى لا يصيبني الغبن كما قال .

وكان النفوذ الألماني قد طغى على الحكومة التركية فى الأشهر الأولى من عام ١٩١٤ وكان ليمان فون ستورس ، رئيس البعثة الألمانية العسكرية قد وصل الى الآستانة وأصبح صاحب اليد الطولى فى إدارة شئون الجيش التركى : وينظم فرقته ويدرب ضباطه ، وقد أحدث ليمان فون أندرس أزمة سياسية عندما دعى الى حفلة فى السفارة الأمريكية عومل فيها كرئيس بعثة عسكرية ، ولكنه احتج لدى الحكومة التركية على معاملته تلك فقرر مجلس الوزراء أن يكون وضعه فى البروتوكول مثل السفراء ، وعندما علم السفراء الأجانب فى الآستانة بذلك رفعوا احتجاجا قوى اللهجة لدى وزارة الخارجية التركية بعد ان عزموا على ترك الحفلات الرسمية معا اذا جعل مركز ليمان فون ستورس أرفع من مراكزهم ، وكانت النتيجة ان فون ستورس لم يدع الى حفلة رسمية مطلقا ، وقد ظهر ان ليمان فون ستورس لم يكن رئيس بعثة عسكرية لدى دولة صديقة وانما كان ممثلا شخصيا انتقى بمهارة لامبروطور ألمانيا .

وقد استنتج بعض السفراء الأجانب فى تركيا من هذه الواقعة - واقعة اختيار ليمان فون ستورس ممثلا شخصيا لامبراطور ألمانيا - ان تركيا ستتقف الى جانب الألمان فى أية حرب قادمة . وكان وحيد الدين - ولى العهد الذى ولى العرش فيما بعد - قد دعى لزيارة ألمانيا واستقبل هناك فى ألمانيا - استقبالا حافلا ولقى امبراطور ألمانيا أكثر من مرة ، كما زار جبهة القتال والمعسكرات الألمانية ، ومصانع كروب و . . . وكان يرافقه فى تلك الزيارة الضابط مصطفى كمال بك .

ويروى مصطفى كمال - انه عندما استقبله وحيد الدين بعد أن أصبح سلطانا ، وبعد أن تطورت الأمور فى الحرب لغير صالح تركيا ، أصر على استقباله مع وجود ضابطين ألمانيين فى حضرته .

وفى هذه المقابلة - على ما يروى مصطفى كمال - عرض عليه السلطان أن يكون قائدا لسوريا لأنه - مصطفى كمال - القائد الذى يستطيع ان ينفذ أقواله (أقوال السلطان) .

ولم يقتنع مصطفى كمال بهذا التعيين ، لأن قيادة جيش مهزوم تمثل انتقاما (بديعا) منه ولأنه كان قد استقال من الجيش التركي لأسباب يعتقد أنه على حق فيها . وكانت الحكومة الثلاثية (أنور . طلعت . جمال) قد سيطرت على الأمور بعد أن تمكن الثلاثة من القضاء على ما بينهم من خلاف ولكن فيما بعد - وبعد أن ظهرت ميول جمال نحو فرنسا ولأسباب أخرى - تم التخلص من جمال بارساله الى الشام ليكون حاكمها المطلق وقائدا للجيش الرابع .

وكان على فؤاد شكرى ملحقا عسكريا فى السفارة التركية فى باريس ثم أصبح - فيما بعد - رئيسا لأركان حرب جمال باشا وقائدا للفيلق الثامن ، وقد وصف الحال فى تركيا قبل اعلان الحرب فقال :

« كان معسكر الجيش الثانى يومئذ فى الاستانة . وكان يقود الجيش الأول فون ستورس باشا ويتولى شعبة الأعمال الحربية فيه القائد عصمت بك .

وقد عرف جمال باشا بأنه رجل سياسى أكثر منه رجل حرب وقيادة الجيوش ولذلك وقع اختيار القيادة العامة عليه حتى لا يكون الجيش الثانى أقل من الأول شأنًا ولا أعز مكانة ومركزا .

وعند وصولى الى الاستانة استلقت نظرى قرار الوزارة بإنشاء قيادة عامة ، ومثل هذا الأمر يستبى الأعمال الحربية عادة . وقد قيل لى فى ذلك الوقت ان الغاية الوحيدة من انشاء مثل هذه القيادة هو ان تكون التدابير العسكرية التى بدأوا فيها يوم اعلان النفير العام فى قبضة شخص واحد يوجهها فى الجهة التى يريدونها ، والغاية التى يرغبها .

وقد كان من واجبى كملحق عسكري قدم من باريس حديثا أن أزور أنور باشا وكيل القائد العام وزرته فعلا فرأيت أن الرجل الذى تركته لأشهر خلت فى منزله الصغير فى بشكطاش ضابطا شابا متواضعا لين الجانب رقيق الوجه ، قد أصبح شخصا آخر فى قصره الجديد وإذا هو يبدو لى كحاكم طاغية غاضت بشناشته واكفهرت أسارير وجهه ، ولاحت عليه امارات السيطرة والقوة .

والواقع أن أنور باشا قد أصبح رجلاً جديداً بكل ما فى الكلمة من معنى ، وقد أدرك مركزه العظيم هذا بسرعة متناهية ولعل فى ذلك ما يفسر لنا تبدله العجيب وانقلابه الغريب .

حدثته بما رأيته فى باريس من أمور عسكرية وسياسية ، وأشرت له فى كثير من اللياقة الى الفوائد التى تربحها تركيا من التزامها الحياد فى هذه الحرب العظيمة .

فما ارتاح لكلامي ، ولا سره حديثى ، وسبب ذلك أن أنور كان يرى أن الله خلقه ليجرى على يديه خوارق العادات . وكان الى ذلك يمتد أن هذه الحرب هى أفضل وسيلة يبلغ بواسطتها مطامعه وشهواته .

وزرت جمالا فى صبيحة اليوم التالى فرأيت فيه انقباضاً وحشمة أكثر من أى وقت رأيته فيه قبلاً . وبعد أن تحدثت اليه عن الشريف العظيم الذى نالنى بالالتحاق فى معيته ، وذكرت له حديث مستشار السفارة فى باريس بضرورة اجتناب تركيا للحرب ، ووقوفها على الحياد ، وقلت له انى أرى رأيه ، فقال لى جمال باشا :

— وأنا على هذا الرأى ولا أرى أن نقذف بالملكة الى هذا البحر الذى ليس له قرار ، قبل أن تظهر لنا حقيقة الموقف ، وسأبذل جهدى لتأجيل اعلان الحرب ، ولكن يتعين على اذا رأيت روسيا — عدوتنا اللدودة — على مقربة من الهلاك ان أكون صاحب الضربة الأخيرة .

وكان معنى حديث جمال باشا ان تركيا ستدخل الحرب حتماً مع ألمانيا والنمسا ، ولكنها ستعمل لاختيار الوقت اللازم .

لقد كانت المملكة العثمانية فى قبضة الاتحاديين ، وكان الاتحاديون فى قبضة المركز العام للحزب ، وكان المركز العام فى قبضة أنور يسوقهم سوقاً غليفاً . أما مقام السلطة ، والقوى التشريعية ، وحزب الاتحاد والترقى ، والحكومة الرسمية ، والرأى العام فلم تكن غير خيالات مصورة .

وكان جمال باشا موصوفاً بشئ من الاعتدال من بين القابضين على زمام الأمور ، فلما وجدته على هذا الرأى أدركت أنه لم يبق له فسحة من الرجاء فى حياد دولي . وكان حديثى معه آخر عمل سياسى تستدعيه وظيفتى القديمة ، وهى تنتهى متى تقلدت وظيفتى الجديدة فى الجيش .

وقد صحت عزمي على أن أحبس جهودي وكل ما أوتيت من قوة أدبية ومادية على القيام بواجباتي في وظيفتي العسكرية ، وقد أمضيت في اقرار هذا الواجب مدة الحرب كلها .

وكان وداع جمال باشا وهو في طريقه الى دمشق في أوائل نوفمبر ١٩١٤ رائعا وعظيما ، ولم يسبق له - كما قيل يومئذ - مثيل . في محطة حيدر باشا في الأستانة كان جميع أعضاء الوزارة مع جمع غفير من علية القوم في وداع جمال باشا وزير البحرية وأحد الثلاثة الذين يديرون دفة الملك في تركيا ، وكان الجيش يهتف له ويحييه كمنقذ لمصر من الاحتلال البريطاني . وقبل ان يقوم القطار قال جمال باشا الذي كان في طريقه لتسلم قيادة الجيش الرابع ، أنه عقد النية على ألا يرجع الى الأستانة قبل افتتاح مصر .

وقيل ان طلعت وأنور ومن معهما من رجال جمعية الاتحاد والترقي قد زينوا لجمال باشا فتح مصر لأنه كان يريد - كأنور وطلعت - الانفراد بالحكم . وكان جمال باشا الرجل الوحيد الذي لم يقع تحت دائرة التأثير الألماني وكانت سياسته « تركيا » للأتراك . وكان مجرد تعيين وزير في الوزارة قائدا للجيش الرابع دليلا على مدى الفوضى التي كانت قد بدأت تجتاح نظام الحكم في تركيا فتمكن الوزير في العاصمة لا في الصحراء المحرقة .

وكان جمال باشا يتظاهر بضرورة التفاهم مع العرب ، وكان على اتصال بعبد الكريم الخليل ، وعن طريق عبد الكريم الخليل اتصل بالدكتور عبد الرحمن الشاهيندر الذي اقترح بصدق جمال باشا والذي رأى من حسن السياسة أن يكسب تأييده للقضية العربية .

وبمشورة من الأمير سعيد الجزائري استمال جمال باشا - في بداية تولية منصبه - الدرود تحسبا من ثورة الموارنة على الأتراك . وقد لجأ جمال باشا - في بداية حكمه - الى استخدام الأوسمة واللقاب كوسيلة للتقرب من القيادات العربية .

وهناك من يرى ان جمال باشا لم يغير سياسته من العرب الا بعد أن فشلت حملته على مصر ذلك ان الموقف البارد الذي وقفه العرب - كما

قال هؤلاء الذين يرون هذا الرأي - من الحملة التركية على مصر كان دليلا على عدم ثقة العرب في الأتراك وعلى كرههم لتركيا .

وفجأة ظهرت بعض الوثائق والأوراق التي اعتقد جمال باشا أنها تدين بعض القيادات السورية واللبنانية ثم راح يتتبع كل زعيم عربي يعرف أن له نفوذا في منطقته .

ويقول المدافعون عن جمال باشا أنه ما غير سياسته التي جاء بها إلا لأنه أحس بأن خطرا يهدد الجيش وأن تدخله إنما جاء لدفع الخطر ووضع حد لكل ثورة يمكن أن تحصل في البلاد التي هو مكلف بالمحافظة على سلامتها .

وكان جمال باشا قبل أن يغير سياسته في سورية ولبنان قد عهد إلى الولايات والألوية في سورية وفلسطين أن تختار وفدا من العلماء والفضلاء يذهب إلى الآستانة . وقد اختارت دمشق ، وحماه ، وحمص ، وخوران وبيروت ، وعكا ، واللاذقية ، ويافا ، وجبل لبنان ممثلهم في هذا الوفد . كما اختار الجيش الرابع ممثله أيضا وانضم إلى وفد الصداقة هذا : عبد الباسط أفندي الأنسي صاحب جريدة الاقبال ، وحسين الجمال صاحب جريدة ابابيل ، وحمد أفندي باقر صاحب جريدة البلاغ ، ومحمد أفندي كرد علي صاحب المقتبس وغادر الوفد دمشق على القطار الحديدي في طريقه إلى الآستانة في منتصف سبتمبر ١٩١٥ ، واختير لمرافقة الوفد القائمقام جواد بك قائد مركز الآستانة ووفد كبير على مستوى عال ، وقد قابل أعضاء الوفد السلطان الذي تحدث اليهم معربا عن سعاداته بلقائهم مؤكدا أنه من يمن الطالع أن تكون مصادفة قدوم الوفد لدار الخلافة قرب ختم قراءة البخاري الشريف . وطلب من الوفد أن يزوروا حجرة المخلفات النبوية ويشتركوا في الدعوات السبحانية عند ختم تلاوة البخاري الشريف ، وكان السلطان قد علق ختم البخاري حتى قدوم الوفد .

وزار الوفد صاحب الدولة والنجابة يوسف عز الدين أفندي ولي العهد ، الذي أكد على اتحاد العرب والترك لأجل العمل في سبيل انتصار الأمة الاسلامية . كما زار الوفد المتحف الهمايوني - في سراي طوب قبو - وبأحدى قاعاته رداء أسود من شعر الابل كان يضعه النبي صلى الله عليه وسلم على منكبيه وبعض شعرات من لحية الشريفة ومن أسنانه ،

وبعض المصاحف القديمة المكتوبة بخطوط الصحابة ، والراية النبوية التي كان قد أخذها السلطان سليم الأول من مصر عند فتحه لها ، وكذلك راية الامام على رضى الله عنه .

كما زار الوفد شيخ الاسلام ونظارات الداخلية حيث استقبلهم فيها طلعت بك أفندى ، والبحرية حيث استقبلهم جمال باشا ناظر البحرية وأنور باشا ناظر الحربية ، وكما أولم السلطان وليمة غداء لهم ، أولم كذلك ولي العهد .

وبالجملة . . فقد لقي الوفد العربى من الحفاوة رسميا وشعبيا ، ما لم يلقه أى وفد عربى آخر من الحكومة التركية والشعب التركى .

وقد نشر الوفد فى بيروت ١٣٣٤ - ١٩١٦ كتابا عن أعمال هذا الوفد وزيارته بعنوان : البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية - كتبه الأساتذة محمد الباقر ومحمد كرد على ، وحسن الجبال وعبد الباسط الأنسى . وقد خاطب الشيخ على ريمائى القديسى ، عقب عودة الوفد ، صاحب الدولة والاقبال أحمد جمال باشا بقصيدة رائعة كان مطلعها :

سرى وفدك الغازى ومثلك موفد وعاد بملء البشر والعود أحمد
سرى منك مضمون النجاح مسير وطالعه بالكوكب السعد أسعد

(وأسعد هذا هو رئيس الوفد « أسعد أفندى الشقيرى »)

الى أن يقول الشيخ ريمائى :

رأيت (جمال) الملك رأيك والذى تراه هو رأى الصواب المسدد
نعم يا جمال الملك لم تنس أنسا ذهبنا لدار الحرب والبحر مزبد
ذهبنا وصفحات السيوف بوارق تصل وأفواه المدافع ترعد
أأنت حكيم الخلق أم أنت قائد شمائل ، ليست عند غيرك تؤخذ
لقد كان (واشنطن) مثلك مصلحا ورب حسام للعدو مجرد
فان قلت لا زلت المجال فأنته ولا زلت محمودا فانك أحمد
وان قلت زانت مجدك البريق التى زهت بك قدرا انت نور أمجد
فدم خير مصلح ودم خير قائد على يدك الرايات بالنصر تعقد

وكان جمال باشا قد أشاد في مذكراته بالحفاوة العربية الطيبة التي استقبله بها الشعب العربي في سورية : ان أهالي سورية أظهروا وطنية كبرى وإخلاصاً ، وقد امتلأ قلبي سروراً اذ رأيت وشعرت أن غالبية العرب لا يتوانون عن بذل ما يطلب منهم من التضحيات في تلك الحرب لتحرير الخلافة الإسلامية » وربما كان أكبر خطأ ارتكبه جمال باشا في سورية أنه أنشأ ما أسماه بالديوان العرفي لمحاكمة المتهمين في القضايا السياسية . وكان الديوان يتألف من هيئتين : أولاهما هيئة تحقيق يرأسها أحد الضباط واسمه صلاح الدين ، والثانية : هيئة قضاة يرأسها قائم مقام اسمه أحمد شكرى . ولم يكن الديوان العرفي يسير على أى قانون ، وإنما كان يصدر أحكامه حسبما يرى شكرى بك نفسه رئيس الديوان ، وكان أعضاء الديوان يدرسون نفسية كل من يتقدم اليهم متهماً ، كما يدرسون أخلاقه وأطوار حياته ، فاذا تبينوا أنه من الأذكياء الذين يخشى جانبهم أشاروا الى ذلك في جانب اسمه فيأمر الباشا باعدامه . ويقال ان معظم الذين نجوا من قبضة الديوان هم من الذين تظاهروا بالبله ، أو انكروا عروبتهم ، أو قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق .

ومن بين اعترافات شكرى بك رئيس الديوان حول أهم القضايا التي عرضت على الديوان . والتي حكم فيها باعدام عدد من الزعماء العرب ، ان الحكم في القضية الكبرى قد عدل أربع مرات بأمر جمال باشا ، فكان في كل مرة يخرج أناساً من قائمة المحكوم عليهم بالاعدام ويدخل غيرهم وفي ٥ مارس - أى قبل الاعدام بيوم واحد فقط - اتخذ القرار شكله النهائي وأرسل للتنفيذ .

ويدافع جمال باشا عن سياسته الهمجية تلك فيقول في مذكراته : « يوم دخولي دمشق أخبرني فلوحى بك والى سورية ان لديه أموراً خطيرة يريد محادثتى فيها ، فجاء معنا فى مساء اليوم نفسه وسلمنى وثائق ذات شأن وجدت فى دار القنصلية الفرنسية ، وقال « انها تجعل عدداً من رجال سوريا ومن كبار موظفى العرب مسئولين ، وانه لم يعمد الى اتخاذ تدابير ضدهم بل أرجأ ذلك الى ما بعد حضورى .

« ومع ان الأدلة التي وجدتتها تجعل كثيرين من كبار السوريين مسئولين الا أننى فكرت فى أن هؤلاء سيدركون فى المستقبل ان الحرب العظمى ليست الا مسألة حياة أو موت العالم الإسلامى ، وانهم سيقلعون عن أعمالهم فلذلك قررت ألا أتخذ اجراءات ضدهم ، وبما أنى كنت شخصياً موافقاً مبدئياً على استعمال اللغة العربية وعلى منح العرب امتيازات فى الشئون الادارية فقد اجتمعت بعبد الكريم الخليل أحد زعماء الحركة

العربية فلاتفته ثم اجتمعت بواسطته بالدكتور عبد الرحمن شهنند
وبعبد الغنى العيسى وبمحمد كرد علي وغيرهم فبسطت لهم خطة الحكومة
وأكدت لهم ان تحرير العالم الاسلامي من النير الاجنبي ممكن التحقيق
لو انتصرنا ، فوافقوا على صدق كلامي ، وأقسموا بالله وبشرفهم ان يظل
عرب سورية على الولاء للدولة ما دامت الحرب ، وقد اعطيت عبد الكريم
الخليل ومحمد كرد علي وعبد الغنى العيسى أموالا طائلة بناء على طلبهم
وما أظهره من الاحتياج فأصبحوا بعد ذلك مطيعين لأوامري . وفي شهر
يوليو ١٩١٥ زارني الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع ، وقال
ان الثورة بدت علاماتها في سورية ، وان في استطاعة كامل بك الأسعد
نائب بيروت اعطائي المعلومات عنها فأحضرتة فقال لي :

— انكم وضعتم ثقة كبيرة في جماعة الاصلاح وخولتموهم حرية
مطلقة في البلاد ولكني أخشى أن يكونوا أساءوا استعمال تلك الثقة ،
فان رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل ينظمان عصيانا في الطيبة
ولو تفضلتم باجراء تحقيق لتبينتم صحة كلامي .

» وقد أمرت باجراء تحقيق أثبت صحة ما قيل ، فأمرت بالقبض
على رضا الصلح وعبد الكريم وشركائهما .

وعثر موظفو المراقبة على كتب واردة من القاهرة تحت متنوري
العرب على الثورة ، لأن تركيا سوف تخرج من الحرب محطمة القوى
فتصبح البلاد العربية عرضة لاستيلاء الأجانب ، فيجب والحالة هذه ان
يذود العرب عن استقلالهم ، وقد استنتجت من كل هذا ان جماعة الاصلاح
لم يعدلوا عن العصيان في سورية وفلسطين كما عجبت لما أظهره عبد الكريم
وجماعته من الولاء للحكومة منذ اعلان الحرب حتى الآن ،

وأرجو أن تؤخذ أقوال جمال باشا بشيء غير قليل من التحفظ .

ويذكر علي فؤاد باشا — وكان قريب الصلة بجمال باشا : لم يكن
جمال باشا مخطئا في اجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الاعدام برجال القافلة
الأولى ، فقد كان في موقف حرج يبرر عمله ، ولو لم يقدم على عمل ما عمله
لما استطاع السيطرة على الموقف ، ولا استطاع ان يحول دون اتساع نطاق
الثورة وكانت تهدد البلاد العثمانية في البقعة العربية منها .

» ولقد كان عليه ان يقف عند هذا الحد ، خصوصا وقد لمس تأثير
عمله في البلاد فقد هابه رجال الحركة الثورية ، ووقفوا جانبا ، ولكنه لم

يفعل ذلك ، بل واصل الكتابة الى أنور باشا وطلعت باشا ملحا بطلب تخويله السلطة الآن لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم فى الأوراق التى صودرت فى القنصلية الفرنسية ، وهذا خطأ فادح ارتكبه وجعل العرب يمقتونه حتى لقبوه بالسفاح وهم على حق . . »

ووجهة نظر « على فؤاد باشا » أيضا تتطلب أكثر من وقفة . . .

وأستسمح فى أن أنقل هنا رسالة بعث بها رفيق رزق سلوم ، أحد الذين نفذ فيهم حكم الاعدام ، الى والدته وقد جاء فيها : سيدتى الوالدة الفاضلة وأخوى العزيزين قبلان وشاكر وأخواتى المصونات جميلة وذكية وثمينة ونديمة وناهدة صانهم المولى جميعا .

سلام وتحية ، وبعد فهذه قصتى اليكم أحببت ان أذكر لكم تاريخ سجنى باختصار وأوصيكم ببعض أمور لا بد منها لأننى متيقن من زمن غير بعيد أن وقت الموت قد قرب ، وأنه لا بد ان تشيع بعض اشاعات لا صحة لها لذلك أحببت أن أذكر لكم كل شئ كما وقع تماما :

ألقت الحكومة القبض على فى ١٤ « أيلول شرقى » قبل الظهر بساعة وأوقفتنى بسجن الضابط ، وبقيت هنالك خمسة أيام . لا أعرف سبب سجنى ويوم الجمعة صباحا أخذونى الى عاليه للاستئناف فسألونى عن تاريخ حياتى فى الآستانة وتاريخ حياتى فى دمشق وعن علاقتى مع المرحوم عبد الكريم ، لأنهم ادعوا بأننى كاتم أسرارهم وأننى كاتب عبد الحميد الزهراوى الخاص ، وان لى قصائد وأناشيد وطنية أحض فيها الناشئة العربية على طلب الاستقلال ، هذه هى التهم الموجهة الى ، وقد دفعت هذه التهم بالحجة القاطعة وعرفت الذين وشوا بى من بيروت ومن طرابلس الشام ثم زاد الطين بلة أحد رفاقى المسجونين معى وهو رشدى من غزة فكان يتظاهر أمامنا بالصدقة ويذهب الى الديوان العرفى فيفتري على بعض أمور لكى يظهر اخلاصه للحكومة ويخلص من الاعدام لأنه اعترف عن نفسه صراحة ولم يبق له وسيلة ينقذ حياته بها الا التجسس .

ثم بعد ذلك جاء أخى العزيز شاكر الى عاليه وأرسلنى ديوان الحرب الى القدس لأنهم لم يجدوا على دليلا يثبت دعواهم وقالوا ان الذى أمر بتوقيفى جمال باشا ، وان مسألتى تتعلق به رأسا ، فحبسونى بالقدس خمسة أيام عند قومندان المركز ، ثم استدعانى الباشا والقى على نفس

الأسئلة التي أقيمت في الديوان وتهددني بالضرب وأنواع العذاب ، فأجبت
نفس الأسئلة التي أجبتها في الديوان فغضب على كثيرا ، ثم استدعاني
إليه ثانية وحاول أن يقنعني لأقص عليه شيئا عما قام في ذهنه من الخيالات
الوهمية ، فأكدت له أنني بعيد عن السياسة بعد السماء عن الأرض ،
وحينئذ أمرهم بأن يعذبوني ، فأخذني الضابط نور الدين ومعه بايرام
وجندى آخر إلى غرفة خصوصية وربطوا يدي ورجلي بالحبال ، وبدأوا
يضربوني ضربا اليما ، وأغمى على من شدة الضرب ، ثم أقفت فعادوا إلى
ضربي ثانية فأغمى على ثانية ، ثم أقفت فعادوا إلى ضربي حتى تكسرت
في أيديهم عدة عصي ، وأغمى على ثالثة ، وأنا أقول لهم لا أعرف شيئا .

ثم أعطاني الضابط نور الدين قلما وورقة وكلفني أن أعترف وأعطاني فرصة
مقدار ساعة وقال لي : إذا لم تعترف أحضر آلة لقلع الأظافر فأقلع أظافرك
وأطيل عذابك حتى تموت وأطرحك في الوادي للوحوش ، فرأيت أن
أصراري بهذه الصورة يجعلهم يتوهمون أنني عالم ببعض الأمور وأضر على
إنكارها فوعده أنني عازمت على الاعتراف ورجوت أن يمهلني إلى الصباح
لأن وشدي ضاع من شدة الألم ، فأخذت وكتبت له بالورقة بأن المرحوم
عبد الكريم كان كلفني من ست سنوات الدخول في جمعيته فرفضت
طلبه ، وأنني لا أعلم شيئا غير ذلك وذكرت له في الورقة تاريخ الاصلاحات
وأنني كنت من حزب عبد الحميد صديق الحكومة الذي رضى بالاصلاح
بالرغم من معارضة الآخرين .

وبعد أن قرأ الورقة ضربها في وجهي وقال هذا لا يكفي ، فقلت له ان
لي علاقة بجمعية أخرى ولكنها ليست سياسية ومقصدها تشويق الطلاب
ليذهبوا إلى أوروبا ويتعلموا فيها ، وليس في ذلك ما يخالف قانون الحكومة
أو ادارتها ثم ذكرت له أنني استعفيت من هذه الجمعية أيضا وقدمت
استعفائي إلى صديقي سيف الدين الخطيب وهذا أرسل استعفائي إلى
توفيق أفندي الناطور في بيروت ، وكان سيف الدين حاضرا فاعترف أمام
الباشا أنني استعفيت وأن الجمعية المذكورة لا تشغل بالسياسة . وبعد
هذا الحادث بيومين رجعت إلى عاليه وبقينا نحو خمسة وثلاثين يوما
ما سألوني عن شيء .

وحضر جمال باشا فأمر أن يستنطقونا من جديد وشرعوا يتهددوننا
بالضرب لأنهم رغبوا أن نوافقهم على بعض الاقرارات فرفضنا بتات وهكذا

استنطقونا ولاقينا أثناء الاستنطاق من العذاب ما يشيب له رأس الطفل وكانت الحكومة فى أثناء ذلك توسع دائرة التحقيقات بواسطة جواسيسها وهم ٠٠ وغيرهم من الجواسيس وقضينا هذه المدة ننتظر الاعدام يوما فيوما ، أما عن حمص فلم تسألنى الحكومة شيئا لأنى قلت لهم أنى خرجت من حمص صغيرا ولا معرفة لى بأحد منها أبدا وقد صار لى من اليوم سنة أشهر وثمانية أيام ونحن ننتظر الاعدام يوما فيوما لأن الحكومة لا تطبق قوانينها ، بل لها سياسة خاصة فى هذه الحالة والا فانه لا يوجد جرم فى الحقيقة أبدا ، ولكن هى السياسة قاتلها الله .

هذا تاريخ حالتى عن حياتى فى السجون وكنت ألقى كل هذه الأمور بصدر رحب وكنت أضحك من هذه الأوهام وأنظر الى الموت كما ينظر العطشان الى الماء لأنى مؤمن بالله وبالأخرة ومعتقد ان الآخرة أحسن من الدنيا واذا كان فى الموت فراق الأحباب ففى الآخرة اجتمع بوالدى وأختى وأخى وكثيرين من أقاربى وأصحابى ولا يؤلمنى الا أمر واحد ، وهو انكم تعبتم كثيرا لأجلى ولم تحصدوا شيئا من تعبكم ولكن استشهداى هو اعظم وأشرف نتيجة تحصدونها فتصوروا أنى مسافر الى أميركسا وانى ناجح فى أعمالى وهل نجاح أعظم من هذا النجاح ؟ أنتم الآن لا تدركون معنى هذا النجاح ولكن المستقبل سيعرف حقيقتى وحينئذ ترفعون رؤوسكم افتخارا . أما من جهة المعيشة فلا أخاف عليكم لانكم جميعا قادرون على تحصيل معاشكم ولا يوجد عندكم أولاد صغار وعجز ، فاياكم والحزن لأنى أكره الحزن والحزاني ، وثقوا بأن روحى ترفرف دائما فوقكم فأرى كل حركة من حركاتكم فأراكم ولا تروننى فاذا حزنتم أهرب من عندكم وأياكم ان تغيروا ثيابكم أو عادة من عاداتكم ولقد تركت لكم أثرا من بعدى أذكر منه كتاب الاقتصاد واذا وجدتم فرصة فاطبعوا كتاب حقوق الدول الذى نشرته فى المهذب ثم اجمعوا المقالات التى كتبتها فى المقتطف فى رسالات خصوصية وانى أحمد الله لأننى عشت شريفا وأموت شريفا أما الجواسيس الذين تكلموا عني فانى أسامحهم ، واكتبوا على قبرى هذه الأبيات :

وان الذى بينى وبين بنى أبى	وبين بنى عمى لمختلف جدى
فان أكلوا لحمى وفرت لحومهم	وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وان ضيعوا عينى حفظت عيونهم	وان هم هووا غيا هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بى	زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم	وليس شريف القوم من يحمل الحقدا

ثم اننى لا أنسى الجميل والالتفات الذى لقينته فى بيت عمى بالشام
وأشكر جميع الأصدقاء الذين ساعدونى فى سجنى سواء مادة أو معنى .
سلام لجميع الأقارب وعليكم أن تعتنوا بتربية أولاد أخى الثلاثة على المبادئ
القومية وعلموهم ان يعيشوا ويموتوا لأجل الوطن . أما الدين الذى على
فهو خمسمائة ليرة عثمانية لأخى شاكر جزاه الله عنى خيرا ولا حاجة
أن أوصيك يا أخى فى العائلة وأن لا يكون موتى سببا ليأسك بل كن
رجلا كبيرا كما عرفتكم وما الحياة الا منام أو خيال ينقضى فلنجتمع فى
أحضان ساره وابراهيم وحيث ندرك أن الدنيا لم تكن سوى منام رأيناه
وانقضى وليكن الله معك .

فى ٢٢ مارس ١٩١٦ « رفيق رزق سلوم »

وعن السجن كتب الشيخ سعد الكافى يقول : « مضى علينا ثلاثة
أيام مع لياليها ولم يحدث ما هو جدير بالذكر سوى وحشتنا لانتقالنا من
دمشق الى عالم جديد ، وقلقنا خوفا من سوء المصير . »

وفى اليوم الرابع قدم الضيف الجديد صديقنا الحميم نجيب بك
شقيق الذى جئى به من الآستانة ولم يضيّقوا عليه فى بادىء الأمر ، بل
وضعوه فى غرفة فريد باشا اليافى ، ولم يحظروا عليه وعلينا مخالطته ،
فأسفنا لاعتقاله وآنسنا باقباله ، فأحطنا به احاطة السوار بالمعصم أو الهالة
بالقمر نتلمس أخباره اذ هو قادم من العاصمة ينبوع الأخبار ، ونحن
فى سجننا الأصم الأبكم ، فلم يذر شاردة ولا واردة الا أوردنا ، فأخبرنا
بما نجهله وفصل مجمل ما نعلمه . فهذا ما كان نهار قدومه وليلة مبيتته
ولكنهم فى اليوم الثانى نقلوه بعنف الى سجن آخر ، وضيّقوا عليه الخناق
تضييقا نادر النظير وادعوا ان قائد الحرس غلط ، فوضعه مع غيره ولم
يمنع مخالطته ، فى حين أنه وضعه بأمرهم . ولكن الحقيقة ان الطاغية
كان على اتصال تام بديوان عاليه ، فلا يفوته شىء من أخبار السجناء فما
من كبيرة أو صغيرة تحدث فى السجون الا ويلقيها سلك الهاتف فى
أذنيه .

ولعل مرد ذلك أنه حصر اهتمامه بقيادة جبهة عالية بعد فشله
بانهزام الحملة المصرية التى تولى قيادتها وبعد افلاسه من أمانيه وأحلامه
بتبوء أريكة عزيز مصر . وأضحى شغله الشاغل محاربة القضية العربية،
ومهاجمة المشتغلين بها العزل من كل سلاح سوى رنوخ الايمان وصلابة
المبادئ . فغضب وزمجر لتخفيف تضييقهم على نجيب شقيق ، وأمر

زبانية عالية تشفيا وانتقاما ان يضيقوا أقصى التضيق على من شق علينا
فراقه بعد أن آنسنا بلفائه عشية وضحاها . فقد قلت عقب انتقاله لليافى
باشا :

« فرحت بالأمس لك بمجاورة ذلك النابغة الجدير بمسامرة الأمراء
والملوك ، والآن أسفت لفراقه ، فقد حرمتنا نحن من لقائه ، وحرمت أنت
من جواره » فأجابنى بقوله : أما أنا فقد فرحت بانصرافه عنى . فقلت
له : ولماذا ، وما الذى لقيته منه ؟ فقال : يا ويحه مشتبك بعشرين
قضية يا أخى ، اثتلافى ، اصلاحى ، لا مركزى ، مناهض الصهيونية ،
ذو اتصال بالمنتدى الأدبى ، وبعزيز بك على ، ومن جماعة أحمد عزت
باشا العابد ، وهلمجرا من القضايا السيئة المغبة التى قصها على البارحة » .

ونجيب شقير من الأسر الوجيهة فى جبل لبنان وهو على جانب
عظيم من الذكاء والأناة والتعقل وسعة الصدر ، ورحابة الوجه ، ورقة
الشمالك ، وحسن العشرة ، وعذوبة الحديث ، وكرم اليد الحاتمية ، وهو
ذو خبرة واسعة بالشئون الدولية الأوربية . وأوسع منها خبرته بشئون
الدولة العثمانية وقد أصدر فى الآستانة فى عهد الحكومة الاتحادية جريدة
« بيام » المعارضة . وقد عرفته وعرفنى حينما وافى دمشق فى عهد
الوزارة العثمانية الرشيدة التى كان رئيسها وصدر الأعظم المشير المختار
أحمد باشا الغازى . وقد كانت أداة التعريف رابطة غشيان الاخوان
غرفة جريدة المقتبس .

ويغلب على ظنى أنه كان فى سن الخمسين يوم سيق الى عاليه ، وقد
انقذ بمنع المحاكمة ، فعاد الى مقره فى الآستانة وعكف على شغله الخاص
ولزم الحياد بالطبع ، وأم دمشق فى عهد الحكومة العربية ، وأخيرا هبط
مصر واتخذها دار اقامته ، وشرع يعالج القضية الوطنية مع رفاقه أعضاء
اللجنة التنفيذية ، وكان من أقطاب الوفد الذى وفد على فخامة المفوض
السامى السابق مسيو هنرى دى جوفنيل فى الاسكندرية لعرض أمانى
البلاد حينما كانت الثورة الشامية حامية الوطيس ، وظل مثابرا على خطته
المثل حتى توفاه الله تعالى فجأة فى مصر .

وكان فى عداد الرفاق الذين سبقونا الى سجون عاليه محبى الدين
بك فريحه ، وهو من المغاربة وأسرته وجيهة فى بلدتها الجزائرية .



ومن أعجب العجائب انخراط هذا الرجل بين المعتقلين في سجون
عالية على حساب السياسة ، اذ لا يخفى أن الهدف الذي يرمى اليه مبتدعو
تأليف هذه المحكمة هو مقاومة النهضة العربية بالقضاء على نوابغ العرب
سواء أكانوا منتظمين بسلك حزب علني أو جمعية سرية أو غير منتظمين،
وسواء عثرت الحكومة على وثائق تتسلح بها وتتخذها وسيلة لاعتقالهم
والبطش بهم أم لم تعثر ، بل تلجأ المحكمة الغاشمة الى طريقة ثانية
لاعتقال من يريدون الفتك به ولا يجدون وثيقة مخطوطة عليه . أما هذه
الطريقة فهي ارهاق الناشئة المعتقلين بضروب الترويع والتعذيب ليكرهوهم
على الافتراء وشهادة الزور على من لا يجدون سبيلا للحكم عليه الا بتلفيق
شهادات المكرهين على تزويرها .

أما هذا الرفيق السيد فريحة فهو من الجماعات الذين ما عرفوا
السياسة ولا عرفتهم ، ولا عالجوها ولا عركتهم ، كما أنه لم يكن من علماء
الاجتماع ، أو من الخطباء أو الكتاب أو الصحفيين ، أو من أرباب اللسان
القنول ، أو المغرمين في الدخول والفضول ، أو من أصحاب الحركات
والسكنات ، أو من المنتمين الى الاحزاب العلنية أو الجمعيات السرية ، أو
من متقلدي أسمى الوظائف الخطيرات الكبيرة التي يحسده عليها
اتحاديو الأتراك ويعدونها عليه من أعظم الجنايات ، بل كان متقلدا رئاسة
مائة جندي من أفراد الدرك « يوزباشي جندرمه » وهي من الوظائف
الصغيرة .

وهنا يتساءل القارئ الكريم : اذا كان هذا الرجل خاليا من جميع
ما ذكر من الصفات والأقوال والأفعال فلماذا اعتقلوه وساقوه الى مجزرة
نوابغ رجال العرب ، ولا دخان بدون عود وخطب ، ولا بد لكل حدث يحدث
من سبب .

وقد ظهر لي وقتئذ ان السبب كون هذا الرفيق من اختان أسرة
الأمير عبد القادر التي ظل أغلب أفرادها يتقاضون رواتبهم من الخزينة
الفرنسية ، ولعله حينما كان يغشى دار الاعتماد الفرنسي لتقاضى راتب أهل
بيته بدرت منه إحدى المرات كلمة ليست بذات بال فسجلت ، وبني عليها
القصور والعلالي ، حتى جاء وقت الحساب .

ويحتمل ان الطاغية أوعز باعتقال هذا الرفيق الحياذي على سبيل
المغالطة درءا لتهمة تشفى الحكومة الاتحادية من الأمير عمر ، وقد وجد
بين رفاقنا المعتقلين بعض أشخاص ليسوا بالغير ولا بالنفير .

ويغلب على ظني - وان كان بعد الظن اثم - انهم اعتقلوه ليتسقط
منه قضية محكمة عالية أخبار الشهيد الأمير عمر ، وأخبار بقية أسرته كما
هو دأبهم في تسقط الأخبار وتلفيقها باكره الأذكىاء على الافتراء بالارهاق
واضلال الأغبياء بالمراوغة والمكر . ولا مانع من توفير الأسباب الثلاثة
لاعتقال الرفيق الساذج السيد محيي الدين الذي أطلق سراحه مع رفاقه
الذين أفرج عنهم بمنع المحاكمة وغرب مكرما الى الآستانة بحالة استثنائية
لأن أعيان البلاد الشامية الذين كتب عليهم الجلاء الى بلاد الاناضول لم
يكتب لهم أن يكون منفاهم الى مدينة القسطنطينية التي امتاز بها رفيقنا
هذا الا من ندر .

فهذه نبذة وجيزة من سيرة رفاقنا السابقين الى سجون عالية ،
ما عدا الأخ توفيق الذي لم يكن يوم سوقنا الى عالية في سجونها ، بل
كان سجيناً في بعض المستشفيات لمعالجة رجله الجريحة برصاصة بندقية
جندى من جنود الحرس . وهو الأستاذ توفيق الناطور أحد نوابغ شبان
بيروت المتعلمين الراقين علماً وفكراً ، ومن فتيان أحرار العرب الوطنيين
المتفاني بقوميتهم العربية ، وهو من خريجي مدرسة الحقوق في العاصمة
العثمانية ومن مؤسسي جمعية الفتاة العربية السرية التي تشرفت بالاتصال
بالمفتد الأعظم صاحب الجلالة الهاشمية بواسطة نجله متبوء عرشى القطرين
الشقيقين جلالة الملك فيصل المعظم .

أما مصيبتة برجله فلها سببان الأول باطنى والآخر ظاهري لم يكن
الأخ توفيق بك هدفه - كما أخبرنا الرفاق السابقون بعد أن سمح لهم
بالاختلاط معنا - أما السبب الأول فهو منبعث عن قسر المحكمة المعتقلين
على الايواء الى فرشهم وتناومهم وان لم يغشهم النعاس ، حينما يؤذن
البوق العسكري بالاذن للجنود بالانصراف الى نومهم ، فكان السجناء
يأوون الى فرشهم عقب مناداة البوق طوعاً أو كرها . وبعد أن اتكأ الأخ
توفيق ذات ليلة أخذ ينشد بيتاً من الشعر بصوت خافت ، فارغى
وأزيد الجندى القائم بالحراسة ، وطلب اليه بعنف ان يسكت وينام فأجابه
صاحبنا بما معناه : « اكرهنا على ما هو بوسعنا من الاتكاء والتناوم وقد
اتكأت ولم أكلم أحداً بل أخاطب نفسي ببيت شعر أشكو به رزيتي » .

فلم يكن جواب الجندى الأعجمي المتنمر كالوحش الكاسر سوى
تفريغ البندقية عليه التي أضرت برجله - وحسبنا الله - وأخطأت
بقتله - والحمد لله - .

وخليق بالقارىء الكريم ان يأخذ العجب منه كل مأخذ بعد اطلاعه
على هذه القصة ، لان مخالفة طفيفة كهذه لا تقتضى العقاب بتسديده
البنادق وتعمد القتل ، ولكن اذا ظهر السبب بطل العجب وأعنى به السبب
الباطنى الذى أخطأ فى تنفيذه هذا الجندى البهيم ، لأن الأخ الناطور
لم يكن الهدف ، لكنه كان بدلا عنه بالغلط .

لم يكن هدف زبانية عاليه الأستاذ الناطور ، بل كان هدفهم الشهيد
سليم بك الجزائرى ، ولكن الجندى الغبى أخطأ المرمى المقصود ، فكانت
رصاصة بندقيته نصيب قدم الأخ توفيق الناطور دون جثمان الشهيد
الجزائرى .

أما الأخ الأستاذ الناطور فقد لطف الله تعالى به لأن مصيبة جليلة
استبدلت بالحكم عليه بالشنق الحكم عليه بالسجن عشر سنين (قلعة
بند) . وقد جاء فى كتاب الايضاحات السياسية ما نصه : يوسف سليمان
المخبير ، توفيق الناطور : هذان كانا فى عادات متماذية بين الشبان العرب
واسماهما مذكوران على التوالى وفى متن الكتاب أنه حكم عليهما بالأشغال
الشاقة المؤقتة .

ذكرت أنهم وضعونى عند الرفيق أمين توفيق فى غرفة باردة لسعتها
وكثرة نوافذها المطلّة على الطريق ولم يكن بها ما يدرأ صبارة البرد القارص
من وسائل التدفئة لأن السجين لا يمكنه وضع مواقد الحطب كما أنه
لا ينسى لسجين منذ ساعة سجنه تداركه ليلا كل ما يحتاج اليه كالقمح
وكانونه وملقطه ، والبرد برد كانون والسجن فى هضاب لبنان ، والاكرام
على فتح مصراعى باب الغرفة ضغت على ابالة فى منازل نزلناها لم ينشئها
أربابها سجوننا لأحرار العرب فى الشتاء ، بل أنشئوها قصورا لاصطياف
أهل الأقاليم الحارة فى الصيف ، ولكن أرباب السلطات العسكرية وضعوا
يدهم على هذه القصور الفخمة الشاهقة باسم (تكاليف حربية) واتخذوها
سجوننا للتنكيل والانتقام .

أخذتنى الرعدة من البرد ، ولولا حرمانى من النوم فى الليلة
المنصرمة فى دائرة الشرطة ، ولولا تضعضع جثمانى من حركات القطار
ومسكناته ، ودوراتهِ ولفئاتهِ ، وطلعاتهِ ونزلاتهِ ، لحال السهاد دون الرقاد
الذى أوغلت به أول الليل ، ولكن أيقظنى فى نصفه الثانى أو ثلثه الأخير
ما أشكوه من وجع معدتى والم ضيق صدرى وحرقة وانحباس نفسى بتأثير
برد الغرفة ، فجلست مؤملا بجلستى تنفيس كربتى واذا بالجندى التركى

صاحب نوبة الحراسة ساعتئذ يشير الى بيده أن أضطجع ، فأزعجنى هذا المنظر الرهيب ، ولم أدر أفى يقظة أنا أم فى منام لغلبة النعاس ، فلم أعيا بإشارته التى أكدها بقوله الذى أزعجنى ونبهنى ، فأدركت وقتئذ أنى سجين ، وأن هذه الليلة أول منزلة من منازل عاليه . فأجبتة بالقول والاشارة بأننى وجع . فما كان منه الا تسديد بندقيته على صدرى ، وما كان منى الا الخضوع لأمره المطاع واراثة القاهرة . فاستلقيت والتحفت مسجيا وجهى ، وأنا أقول بنفسى سيفعلها ورب الكعبة . فجنحت الى ترجيح أخف الضررين وهو الاضطجاع مع وجع الصدر والمعدة على الجمع بينه وبين ألم الجثمان بجرح رصاص البنادق ، ولا سيما اذا أصاب المقاتل .

فلا عجب والحال هذه اذ حذرت تهديد الجندى ، وخضعت لأمره ، وتناومت على مضض ، فكان فرط النعاس وشدة الألم فى جلاد مستمر ، فتارة تتغلب سنة النوم ، وتارة تتغلب يقظة الألم حتى أصبح الصباح ، اذ داويت نازلة البرد بالاستحمام فى حمام سجننا أحد قصور الاصطياف ، ثم غشيت غرفة رفاقى الأربعة ، فقصصت عليهم نازلتى ، فأخبرونى أنهم ناموا بهدوء وسكون اذ لم يحدث عندهم ما حدث عندى ، ثم غشيت الغرفة الصغرى التى انفرد بها فريد باشا اليافى وأخبرته بقصتى . فقال لى : قد حاق بى ما هو أفظح اذ بينما كنت مغرقا بالنوم - وأنت تعلم أننا لم ننم ليلة أمس فى دائرة الشرطة - سمعت كلاما لم أفهمه تمام الفهم لغلبة النعاس ، ففتحت عينى فرأيت اثنين فوق رأسى يلمسان جسدى بيديهما ، فخیل الى من غلبة النوم أننى دفين القبر حديثا وأن هذين الجنديين المدججين بالسلاح هما الملكان منكر ونكير المنوط بهما سؤال العبد فى قبره ساعة لحده . . فقلت لهما :

- ما شأنكما وماذا تريدان منى ؟

فلم يردا على بكلمة خير أو شر ، بل قال أحدهما للآخر :

- تسلمه فقد اسلمتك اياه . .

ثم شرع الجندى الجديد الذى نيطت به حراستى يؤنبنى بقوله : كيف تغلق الباب يا هذا ، وتطفىء نور المصباح الضئيل ؟ أتظن أنك حر فى دارك ؟ ألم تعلم أنك سجين فى سجن الديوان العرفى ؟ فحينئذ تم تيقظى ، وأدركت أنى سجين فى سجون عاليه ، واعتذرت له بأننى حديث عهد ابن هذه الليلة هنا ، ولا علم لى بهذا التعامل . فقال : اياك بعد الآن ان تعود الى مثلها أبدا .

فأجبتة بقولى : سمعا وطاعة .

ثم اغرورقت عينا - فريد باشا اليافى - وهو يقول : ما هذا البلاء العظيم ؟ وما هذه المصيبة العظمى ؟ برد كانون ولبنان ، والبعد عن السكن وفراق السكان . وشدة الغلاء هنا مع ضيق ذات اليد ولا سيما فى هذا الوقت العصيب الذى تهددنا فيه المجاعة . ونحن معتقلون فى ديوان عرفتى لا كبقية الدواوين العرفية ، بل هو ديوان محكمة جمال باشا وما الذى يرمى اليه دولة الباشا . وحسبنا بعد هذا كله جهلنا سواء المصير ، فما قولك يا أخى ؟

وقد أجبته بقولى : اسأله تعالى أن يجيرنا مما هو أعظم ، فقد كنا فى دائرة الشرطة أنعم حالا منا ونحن هنا ، والآن لا نزال أحسن حالا منا هنا فيما اذا قضى علينا - لا سمح الله تعالى - بالسجن فى أحد سجون الأناضوليين الشرقى أو الغربى وأنا أرجح القتل شيقا على السجن فى تلك الانحاء المترامية الاطراف .

أما عن تنفيذ حكم الاعدام فى الوجبة الأولى فلقد أجمع الرواة على أن خبرا انطلق من عاليه - فى لبنان - ان عددا من المسجونين بأوامر من الديوان العرفى سوف يعدمون ، ومن عاليه انتقل الخبر الى بيروت ثم الى أنحاء البلاد كلها . وفى اليوم العشرين من أغسطس أخرج من سجن عاليه أحد عشر شخصا كان قد اتهمهم الديوان العرفى بارتكاب الجرائم المضرة بسلامة الدولة التركية ، وقد اركبهم عربات اقلتهم الى بيروت تحت حراسة مشددة ، وكان ذلك فى المساء . وقبل انتصاف الليل مرت السيارة فى شوارع بيروت متجنية ساحة البرج متجهة الى دائرة البوليس على جسر بيروت ، وبدأ العاملون بحفر الأرض لتركيب أعواد المشانق بينما كانت كتائب الجند بالسلاح الكامل تأخذ أماكنها فى كل الطرق المؤدية الى ساحة البرج ولمنع الأهالى من المرور فيها حتى الصباح وفى دائرة البوليس أبلغ المتهمون بأحكام الاعدام وأوقفوا فى غرفة واحدة طوقها البوليس من الخارج ، وكان المتهمون الذين أبلغوا بأحكام الاعدام هم :

عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، محمد محمصانى ، عبد القادر خرسا ، نور الدين القاضى ، على الارمنازى ، سليم الأحمد ، عبد الهادى محمود العجم ، نايف تلو ، ومسلم عابدين .

وتقدم عبد الكريم الخليل من قوميسير البوليس الواقف أمامه وقال له :

- ألا يحضر الوالى اعدامنا ؟
- كلا فيما أظن .
- ومن يحضر اذن ؟
- رضا باشا ومدير البوليس محيى الدين .
- أتريد أن تدعو لى مدير البوليس ؟
- بطيبة خاطر .
- وذهب القوميسير الى مدير البوليس وقال له :
- ان عبد الكريم الخليل يود ان يقابلك قبل ان يموت . فهل تريد أن تلبى طلبه ؟
- فأسرع محيى الدين مقبلا نحو عبد الكريم . وكان عبد الكريم أثناء وجوده فى الآستانة أنقذ محيى الدين من السجن مرتين . فلما تقابلا قال له عبد الكريم بصوت ملؤه الشهامة :
- اتذكر يا محيى الدين أننى أنقذتك من السجن مرتين ؟
- أذكر ذلك جيدا غير أننى عاجز الآن عن مكافأتك على حسن صنيعك فقد حكم عليك من يد هى فوق يدي .
- أنا لا أطلب منك الآن أن تنقذنى لأنى أعرف الحد الذى يبلغ اليه عرفان الجميل عند أمثالكم . وانى لوائق انك لو كلفت أن تضع ييدك بحبل المشنقة فى عنقى لما تأخرت ولفاخرت اقرا نك بعملك هذا .
- فاضطرب محيى الدين وقال :
- والآن ماذا تطلب يا عبد الكريم ؟
- أطلب مواجهة الوالى .
- يستحيل علينا ذلك .
- أتمنعون عن محكوم بالاعدام رغبة يرجوها قبل موته ؟
- قل ما تريد أن يعرفه الوالى وأنا أبلغه كلامك حرفا بحرف .
- لا أريد الا مقابلهتة وجها لوجه . فان كان لا يجسر ان يقابلنى فلا بأس ، غير أننى أطلب اليك أن تمنع كل تركى من الدخول على وهذه هى ارادتى الأخيرة .

قال ذلك وعاد الى غرفته وأخذ يتمشى فيها بسرعة وهو واضح يديه
بجيوبه .

ومنع مدير البوليس كل المأمورين الأتراك من الدخول الى غرفة
عبد الكريم فى تلك الساعة الرهيبة التى سبقت الاعدام .

وكان المحكومون يسمعون فى تلك الليلة من حين الى آخر وقع حوافر
الخيول وصلصلة السلاح وأوامر الضباط لفرقتهم أن يذهبوا الى هنا
وهناك .

وجاء الى غرفة المحكومين نفر من البوليس يحمل حبرا وأقلاما
وورقا وقالوا لهم :

اكتبوا وصاياكم اذا شئتم .

وخرجوا بعد أن تركوا لهم الأدوات على طاولة كبيرة موزونة فى تلك
الغرفة .

فجلس شهداء العرب يخطون على الورق آخر ما ثمليه عليهم قلوبهم
وعواطفهم قبل ساعة الاعدام .

كتب كل منهم وصيته وتركها وديعة فى يد دائرة البوليس لتسلمها
الى عائلته .

وأعلنت الساعة الرهيبة فصدرت الأوامر الى الجنود بالوقوف شاكى
سلاحهم ، ونادى منادى الموت فى المحكومين فوقفوا يتأهبون له ، وفتح
باب الغرفة وتقدم رجال البوليس بسلاحهم يخرجون اثنين اثنين
ويذهبون بهم بين صفوف الجنود المتراصة المسلحة الى ساحة الاعدام .

وكانت تلك الساحة خالية فى ذاك الوقت ، وقد طوقت من كل
جهااتها بصفوف المشاة والخيالة ، وكان فى صدرها رضا باشا قائد فرقة
عاليه ومحى الدين مدير بوليس بيروت وأعضاء الديوان العرفى وكان
أول من صعد الى منصة الاعدام عبد الكريم الخليل وكانت الساعة تقرب
من الرابعة صباحا . فوقف ذاك الشهيد الثبت الجنان ونادى بصوته
الجهورى قائلا :

- قوانین العالم كلها تجيز للمحكوم عليه بالاعدام أن يقول ارادته الأخيرة قبل موته . فهل يجيز لي قانونكم أيها الباشا « رضا باشا » أن أتكلم قبل أن يوضع الحبل في عنقي ؟

فوقف رضا باشا قليلا لا يعطي جوابا ثم رفع رأسه وقال للشهيد :
- تكلم . لا بأس .

قال عبد الكريم :

« يا أبناء أمتي وأهل بلادي . يريد الأتراك أن يخنقوا أصوات حريتنا في صدورنا . يريدون أن يمنعونا عن الكلام . ولكننا سنتكلم . سنعلن للعالم أننا أمة تريد الاستقلال . اننا أمة تسعى إلى الخلاص من نير الأتراك .

« أنت يا أرض الوطن احفظي تذكارتنا وأنت يا سماء بلادي احملني إلى كل سوري بل بل إلى كل عربي سلام هؤلاء الشهداء ورددي عليهم مأساتنا وكلامنا . قولي لهم أننا عشنا لأجل الاستقلال وهنا نحن نموت في سبيل الاستقلال » .

وتقطع هنا صوت ذلك الشهيد لأن الكرسي كانت قد هوت من تحت أقدامه . فاختلج قليلا ثم مات .

واقتيد الإخوان محمد ومحمود محمصاني إلى المشنقة فاعتنقا هنالك طويلا وأخذ كل منهما يشجع الآخر على الموت ، وصعدا معا إلى منصة الاعدام بقدم ثابتة ووجه بسام . وكانت عين الواحد منطبعة في عين شقيقه .

والتفت محمد إلى المأمور الموكل بتنفيذ الاعدام وقال له :

- « لي رجاء إليك قبل موتي وهو أن تتكرم وتنفذ الاعدام بي وبأخي في وقت واحد حتى لا يتعذب الواحد منا بمراى أخيه يموت أمامه » .

ولما وقف محمد أمام المشنقة صاح بالجمع الذي كان هناك قائلا :

« يشهد الله أنني لم أخن وطني دقيقة واحدة ، يشهد الله أن ما فعلته وقمت به من الحركات التي اتهمت بها إنما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع بأنني أخدم بلادي وأنجيها . اني أموت شهيدا ، فلتحيا أمتي وليحيا العرب . . !! » .

ورفست الطاولتان بحركة واحدة من تحت أقدام الأخوين ، فقضيا .

وجيء بالمرحومين عبد القادر الخرسا ونور الدين القاضي فوقف
نور الدين على منصة المشنقة وقال :

- « انى برىء يا ناس مما اتهمت به وانى أرجوكم أن تبلغوا أخى
« سلامى . وقولوا له أن لا يتأثر ولا يبكى على لآنى مت ميتة الأبطال ،
لم أسود لاسمى صحيفة لا فى الحياة ولا فى الممات » .

وهوى الكرسى من تحته فقضى مثل رفاقه .

ولما وصل عبد القادر الخرسا الى المنصة قال :

- « حكم علينا بالاعدام لمجرد الرغبة فى أعدامنا فقط . وليس
الديوان العرفى الذى حكم علينا بل جمال باشا الذى طلب اعدامنا .
سلموا يا اخوان على عائلتى وقولوا لآخوتى أن يقبلوا عنى يدى والدتى
الحنون . قولوا لهم ليترحموا على . الوداع . . ! . وهوى فقضى . .

وعند الساعة الرابعة من الصباح كان كل شىء قد انتهى وكانت
أرواح أحد عشر شهيدا من أبناء هذه البلاد صعدت تلاقى ربها .

وبعد ذلك جىء باحدى عشر عجلة فانزلت جثث الشهداء عن أعواد
المشائى ووضع كل واحد منهم فى عربة وجلس عن جانبيه نفران من
البوليس وأخذ الجميع الى الرمل حيث حفروا لكل منهم حفرة وواروه
فيها .

أما الاخوان محمد ومحمود محمصانى فقد وضعوا معا فى حفرة واحدة .

وأبقت تلك الحكومة البائدة فرقة من رجال البوليس والجندرمة
حيال قبور أولئك الشهداء حذرا من سرقة أجسامهم .

غير أن عائلة حيدر رشت البوليس المحافظ على حفرة فقيدها صالح ،
وأخذت جثته بعد دفنه بيوم واحد .

وفى أوائل شهر مارس سنة ١٩١٦ اضطربت البلاد العربية مرة
ثانية لما شاع أنه سيصار الى أعدام قافلة ثانية من الشهداء قريبا . .

وفى اليوم الخامس من ذلك الشهر اقتيد الى دمشق عبد الحميد الزهراوى ، وشفيق المؤيد والأمير عمر الجزائرى ، وشكرى العسلى ، وعبد الوهاب الانكليزى ، ورشدى الشمعة ، ورفيق رزق سلوم .

وقد تحدث شاهد عيان عن اعدامهم فقال :

« كانت ابنة المرحوم رشدى بك الشمعة مصابة بالحمى المعوية قبيل صدور الحكم على والدها ، فأمر جمال باشا بإبعادها مع بقية أفراد العائلة قبيل التنفيذ بنحو أسبوع ولكن الطبيب استرحم وأظهر ما فى هذا الأمر من الخطر على حياتها ، الا أن أحمد جمال باشا أصر على رأيه وأصدر الأمر بنفى أسرة شكرى بك الشمعة مهما يكن مرض كريمته خطرا ، فحملت على ظهور الرجال ، وسيقت هى ووالدتها وأخواتها الى محطة البرامكة ومنها الى محطة رفاق حيث أطل أخوها الصغير من الشباك عرضا ، فرأى أباه فى قطار بيروت آتيا من عاليه ليشتق فى دمشق مع من سيشتق فى ذلك اليوم ، فصرخ الولد صراخ الفطيم عندما رأى مرضعه الحنون وصار ينادى « أبى أبى . . . ! » ومدت مريضتنا رأسها من الشباك لتتحقق هذا الحلم بنفسها فرأت والدها يتسم فى وجه ولده ابتسام المحروق على تقبيله ، فصاحت من شدة الانفعال وأرادت أن تودعه الوداع الأخير وتطلب رضاه ، ولكن الجندمة الموكول اليهم حماية « الضغار » فى هذا « الجهاد المقدس » لكموها على وجهها فسقطت على المقعد أمام عيني أبيها الذى ظل مبتسما ابتسامة الاحتقار ، وما أمتى المساء حتى فارقت الحياة قبيل وصولها الى حماه وصي تشير بيديها وفمها من غير وعى كأنها تقبل الأيدي التى طالما حملتها فى صغرها .

وقد عرف المشنوقون صدور الأمر عليهم بالاعدام قبل التبليغ بأربعة أيام ، وكان وداع الشاب الضابط جلال البخارى لوالده الشيخ المسن الأستاذ سليم البخارى الذى كان مسجوناً مثله يفطر القلوب . وقد شجع الشاب أباه تشجيعاً مؤثرا ، فقال له « يا أبت لا تخف ولا تجزع ، ان لى أخوة يعزونك عن فقدى ، واذا مت فإن أمتى ما ماتت ولن تموت ، والذى أرجوه لك وحرمت نفسى منه أن يطيل الله عمرك حتى ترى بعينيك مصرع الباغين وعاقبة أهل الظلم والفساد . . . » .

فسقط الوالد المسكين فاقدا صوابه . . .

« ونقل الذين شنقوا فى بيروت بالسيارات من عاليه الى بيروت ، وكان منظرهم يفتت الأكباد . وظلوا ينشدون الأناشيد الحماسية طوال

طريقهم ويترنمون بالاهازيج القومية كمن شعر بقيامه بواجبه وعرف أن
دمه سيكون سببا لتشديد عرى الرابطة القومية وتحرير البلاد من
الأشرار .

أما الذين شنقوا في دمشق فقد سيقوا إليها في قطار الركاب
الاعتيادي الذي يسافر بين بيروت والشام مرتين ، ولما وصل القطار
إلى محطة الزبداني نزل منه المرحوم الأمير عمر الجزائري والمرحوم
عبد الوهاب المليجي « الانكليزي » لراحة الجسم من عناء الجلوس
والتمتع بآخر نظرة من ربى « بلودان » فرآهما في المحطة صديق لهما
وقال « خير انشاء الله » فأجابه عبد الوهاب بك بأن وضع يده على
عنقه ، وضعها كمن يخنق شيئا ، إشارة إلى المشنقة التي ستنصب لهما
ولرفاقهما الليلة .

وقد وصل المحكوم عليهم إلى دمشق في مساء ذلك اليوم وانزلوا
في الشكنة العسكرية في البرامكة ، وفي منتصف الليل سيقوا إلى ساحة
المرجة حيث أعدت لهم السدد حول العمود التذكاري الحميدى ، وأتى
جمال باشا إلى نزل أميركا المظلل على تلك البقعة ليمتع نظره بمشائق
علماء سورية وأفاضلها ويشفى غلته من الأمة العربية .

« تقدموا كلهم إلى المشائق برباطة جأش نادرة المثال ، وكان في
مقدمتهم شفيق بك المؤيد ، وهو أكبرهم سنا ، فألقى خطبة بليغة
مختصرة بين فيها الخاية الشريفة التي كان يسعى إلى تحقيقها رجال العرب
والاصلاح الأساسى الذى كانوا ينشدونه للبلاد العثمانية ، ثم طلب أن
يكون الختام الفاتحة الشريفة » .

وسمع رشدى بك العسلى يقول على سدة المشنقة - وهو آخر كلام
ينطق به - « ولا تحسبن الله بظافل عما يعمل الظالمون » .

ولما أزيح الكرسي من تحت أقدام المرحوم السيد الزهراوى لم يحمله
الحبل فانقطع به فرفع ثانية وشد من رجله شدا قويا حتى مات . . .

وروى شاهد عيان آخر كيف صار أعدام شهداء دمشق فقال :

« لما وصل قطار الشام إلى البرامكة منع الجند جميع الناس من
الوقوف هناك ثم أوصلوا المحكوم عليهم إلى دائرة الشرطة واحضروا
الشيخ « ح . ن » ليؤهبهم للموت ويشجعهم ويعزيهم ، ففهم المرحوم
عبد الوهاب أفندى الغرض من مجيئ الشيخ ، فاستدناه منه وقال :

.. بعثوا بك لتؤهبنا للموت ؟ اذهب لا أم لك ، فلا حاجة لنا بك .

ورفسه برجله فافترش الأرض على بعد مترين .

وفي الساعة السابعة من صباح ٦ مارس أنيرت ساحة الاعدام
بالكمرات الكهربائية ، وأمروا السيد شماس صاحب زهرة دمشق أن
يشعل كمرات القهوة التي تعطي نورها على الساحة حتى أصبحت شعلة
نور ، ثم أحضر المحكوم عليهم في ثياب الاعدام البيضاء . وعلى صدورهم
خلاصة الحكم ، وبدى التنفيذ بشفيق بك المؤيد ، فطلب أن يمهله
ريشما يتلوا الفاتحة فأمهله ولما جاء عبد الحميد الزهراوى قال : لينتقم
الله من الظالم للمظلوم .

وأخذوا الأمير عمر فقال : ان مقتل ابن الأمير يعود على الدولة
بالوبال .

وقدموا شكرى العسلى فقال : ان الله بالمرصاد سينتقم من الكفرة
الظالمين .

وأمسكوا عبد الوهاب الانكليزى فلعن الاتحاديين وسبهم وقال : ان
الله فى موقف العدل . ولما جاء دور رفيق سلوم قال : « يالكم من قوم
ظلام » وانتهوا الى رشدى الشمعة فقال : الله ينتقم لنا ..

هكذا أنزل الموت بهؤلاء السبعة الرجال معلقين بين الأرض والسماء
فلبست الشام ثوب الحداد وعم الحزن كل البلاد فما ترى اينما توجهت
الا قلوبا خاشعة وعيوننا دامعة ، وبث الأتراك الأرصاد بين الناس فوق
الرعب فى القلوب .

وفي ذلك اليوم المشئوم انطلق جمال الى الغيارة فى غوطة دمشق
موعزا الى الحكومة أن ترسل اليه باقة زهر بعد تنفيذ حكم الموت بالشهداء
ففعلت .

وفي اليوم الذى اقتيد فيه شهداء سورية الى دمشق ، أنزل الى
بيروت كل من :

عمر بن مصطفى حمد ، محمد حسين الشنطى ، عبد الغنى العريسي ،
عارف الشهابى ، توفيق البساط ، سيف الدين الخطيب ، الشيخ أحمد
طباره ، سعيد عقل ، باترو باولى ، جورج موسى الحداد ، سليم محمد ،
سعيد الجزائرى ، على حاجى عمر ، أمين لطفى بن محمد الحافظ ، جلال
ابن سليم البخارى .

وقبل أن يصلوا الى بيروت كان البوليس قد أُنذر الأهالي الجالسين في المحلات العمومية ان يغادروها وأوجب على أصحابها اقفالها . وعند انتصاف الليل - ٦ مارس - تفرقت فرق الجنود في كل النقاط الموصلة الى ساحة البرج ، ولم يعد يسمع في ذلك الليل الهائل غير وقع المعاول في الأرض ، لتركيز أعواد المشانق .

وبعد قليل سمعت طقطقة العربات التي كانت تقل الشهداء الى دوائر البوليس حيث بلغوا حكم الاعدام .

وأتوهم بأدوات الكتابة ولوازمها ووضعوها على طاولة واسعة في إحدى غرف الدائرة حيث جمعوهم كلهم وقالوا لهم أن يكتبوا وصاياهم . جلس البعض من أولئك الشهداء يكتبون بينما كان آخرون يتمشون في تلك الغرفة وهم يشتمون .. !!

وصاح أمين لطفى بمأموري البوليس قائلاً :

- أين هي هيئة الديوان العرفي ؟ كيف نبلغ حكم اعدامنا بدون أن يحاكمونا أو يسمعوا أقوالنا ؟ ماذا جنينا يا ناس ؟ أهذا هو جزاء خدمتنا للدولة ؟

وكان سليم بك الجزائري يقول :

- أهكذا تحكم الدولة بالاعدام على من خدمها العمر كله ، ولبس ثوبها العسكري الذي هو شرفها ؟ أهكذا يعاملون الضباط وأركان الحرب ؟ ولما انتهى الشهداء من كتابة وصاياهم جاء بعض رجال البوليس وأخذوها منهم . ثم سألهم أحد القوميسيرية ماذا يريدون قبل أن يعدموا فطلبوا شيخا وكاهنا .

وأتوهم بشيخ وكاهن . ولما وصل الشيخ الى عبد الغني العريسي قال له :

« - استشهد يا عبد الغني » .

فوقف وقال بصوت عال :

« أشهد ان لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأشهد أن الخلافة للعرب ان شاء الله » .

وتقدم كل من المرحومين سعيد عقل وباترو باولي وجورج الحداد وركعوا أمام الكاهن واعترفوا له بكل رباطة جأش .

وبعد ما انتهوا كلهم من اتمام واجباتهم الدينية جاءهم البوليس وأنزل
قسماً منهم الى الدائرة ، وقبل ان يفترقوا ذلك الفراق الأبدى التفت أمين
لطفى الى رجال البوليس والى الجنود الواقفين أمامهم وقال :

« أنتم يا أبناء هذه البلاد التعسة ربوا أولادكم على بيع الخضر
وصنع الفول والحمص وأياكم ان تدخلوهم في خدمة الدولة العثمانية
انسحبوا أنتم من وظائفكم واشتغلوا بمسح الأحذية والعتالة وباقي الحرف
فذلك أفضل لكم وأضمن لحياتكم من أن يصيبكم ما أصابنا نحن الآن .

« كنا نخدم الدولة بأرواحنا وأجسامنا وعقولنا . فإذا هي تأتي بنا
من بين الخنادق والقنابل حيث كنا نحارب للدفاع عنها وتضع الجبل في
أعناقنا للأعدام . لعنات الله عليها وبئس الجزاء جزاء خدمتها » .

وبعد ذلك أحضر البوليس القمصان البيضاء التي كانوا أعدوها
للسهداء وأعطوا كلا منهم قميصاً .

وجمع عمر حمد رفاقه وأخذوا يرددون بصوت عال وبنغم واحد وهم
يتمشون في الغرفة :

نحن أبناء العلى شادوا مجدا وعلا

وعند الساعة الثالثة بعد أُنْتَصَاف ذلك الليل الرهيب أستعد الجنود
ورجال البوليس لتنفيذ الحكم ودخل نفر من البوليس الى غرفة الشهداء
فنادى ثلاثة منهم : سعيد عقل وباترو باولى وجرجى الحداد . فلما سمع
الشهداء صوت البوليس علا ضجيجهم وأخذوا ينادون بأعلى الصوت :

« خذونا كلنا معا الى المشنقة . ما أحلى الموت في سبيل الوطن ،
ما أعذب المشنقة في سبيل الوطن ، ما أعذب المشنقة في سبيل الاستقلال
والحرية » .

أخذ الجنود الثلاثة مكبلين بالقيود الى ساحة الاعدام وكان الظلام
دامسا والسكينة المخيفة تغمر بيروت وخصوصا تلك الساحة التي لم يكن
يسمع فيها الا صدى أصوات الشهداء الذين كانوا يرددون تشييدهم « نحن
أبناء العلى شادوا مجدا وعلا » أو صهيل جواد جندى ، أو طقطقة سيف
ضابط على بلاط الشارع .

تقدم الثلاثة الى الصف الأول من صفوف المشانق التي كانت منصوبة
في الجهة الغربية من ساحة البرج ففحص الطبيب أجسامهم (لأن القانون

لا يجيز اعدام المريض (وكان ضابط من ضباط الديوان العرفي يتلو نص الحكم بالاعدام .

وغضب بترو باولى وصرخ بمن كان حاضرا من المأمورين قائلا :
« عجلوا بتنفيذ حكمكم وخلصونا من وجوهكم القبيحة . كان الأولى بكم بدلا من أن تفحصوا أجسامنا بدقة أن تحاكمونا بعدل ، تأكدوا أننا لا نخاف الموت ولا نهاب المشنقة . خلصونا . . . عجلوا . . . »

وصعد من نفسه الى منصة المشنقة ورفس الكرسي برجله قهوى وقضى .

وجاء دور جرجى الحداد ، فصعد الى المشنقة بجرأة ورفس الكرسي فقضى دون أن ينبس ببنت شفة . ولما وقف سعيد عقل على منصة المشنقة التفت الى الواقفين حوله قائلا :

— غفر الله لمن ظلمنى . وانى أسأل ربى أن يكون دمي الذى يراق الآن آخر نقطة منه ، سببا فى المستقبل لحياة بلادى وشرفا لعائلتى وأولادى .

ثم التفت الى الطبيب الواقف أمامه وقال له :

— « رجائى اليك وأنت من أهل بلادى أن تهوى بكل قوتك على حال تعليقى لأن خفة جسمى تمنع انقطاع حبل حياتى بسرعة » .

وبعد بضعة أيام اجتمع ذاك الطبيب بأحد معارفه فقال له والتأثير باد فى عينيه :

— « لم تدمع عينى أمام المشائق الا عند سماع كلام المرحوم سعيد عقل . وانى لأستشهد الله وأنبياؤه على براءته وطهارة ضميره . فرحمات الله عليه وعلى جميع رفقاء الشهداء » .

وأتى الجنود بعد ذلك بعمر وعبد الغنى العيسى والأمير عسارف الشهابى . وكان البوليس قد أخرج أولا من الدائرة عبد الغنى وعمر حمد فقط .

فالتفت اليه عبد الغنى قائلا :

— « اذهب الى رئيسك وقل له ان عبد الغنى يطلب أن يقدم مع رفيقه الأمير عارف • اننى عشت معه ولست أحب أن أفترق عنه فى الممات » •

فذهب البوليس ثم عاد فقال لعبد الغنى :

— « لا بأس • فسيذهب الأمير معك » •

ولما وقف عمر حمد على منصة المشنقة خاطب رضا باشا ومدير البوليس باللغة الفرنسية بما تعرييه :

— « انى أخاطبكما باللغة الفرنسية لانكما لا تفهمان العربية • بلغوا حكومتكما التركية الظالمة أن العمل الذى يعمل به رجالها الآن سيكون سببا لخرابها وتقويض أساساتها » •

ثم التفت الى بقية الحاضرين وقال بالعربية :

— « انى أموت غير خائف ولا وجل • أموت فداء الأمة العربية • خسفت يا هلال وشلت يمينك يا جمال • فليسقط الخونة وليحيا العرب ... ! » •

ولما وصل الشهيد الى كلمة ، « فليسقط الخونة » غضب منه الموكل بأمر تنفيذ الاعدام ، فضرب الكرسي من تحته قبل أن يتمكن الحبل من عنقه ، فهوى الى الأرض وهو بين حى وميت ، فما كان من هذا الموظف الا أن وخزه بسيفه شاتما لاعنا ووضع الحبل فى عنقه رغما من سيلان الدم بغزارة من جرح بليغ كان قد أصابه فى رأسه من جراء سقطته •

والتفت عبد الغنى عند هذا الحادث الفظيع الى الواقفين من مأمورى الحكومة وقال لهم :

— « عار عليكم أن تعذبوا المحكوم عليه بالاعدام الى هذه الدرجة • ان الانسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال » •

وجاء دور عبد الغنى العريسي فوقف على منصة المشنقة وحاول البوليس ان يسرع فى وضع الحبل فى عنقه ليعدمه فالتفت اليه عبد الغنى وقال له باشمئزاز :

— دعنا نتكلم يا هذا واحترم ارادة رجل يموت •

وكان قلب ذلك الرجل قد من صخر فأجابه هازئا : « ولماذا الكلام ؟
ومن يسمعك ويعتبر كلامك الآن يا عبد الغنى ؟ » وأراد أن يضع الحبل
بسرعة فى عنق الشهيد فنفر منه والتفت الى الناس وقال بصوت جهورى :

— « بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب . ان الدول تبني على غير
الجماجم وان جماجمنا ستكون أساسا لاستقلال بلادنا » . وكانت الكرسي
قد هوت من تحته فتغلغل صوته فى صدره وقضى .

وعجل البوليس باعدام الأمير عارف الشهابى قبل ان يتمكن من أن
ينطق بكلمة واحدة .

ونفذ الحكم بعد ذلك بالشيخ أحمد طباره ومحمد الشنطى ، وحان
دور توفيق البساط فوصل الى أمام الساحة وكان الفجر بدأ يكشف
بأنواره سواد الليل المشئوم فرفع نظره نحو السماء ورأى على أعواد
المشئقة أحد عشر شهيدا من نخبة أبناء الوطن كانوا من ساعة يكلمونه ،
واذا هم الآن جثث لا حراك بها ولا حياة . شاهد المنظر المرعب المؤثر
فتجسمت فيه روح الشجاعة والبطولة فصاح بصوت جهورى مخاطبا تلك
الأرواح العزيزة وتلك الآلة التى اعدمتهم :

— « مرحبا يا أرجوحة الشرف .. مرحبا يا أرجوحة الأبطال .. !
مرحبا بالعمد التى تستند اليها الشعوب فى استقلالها .. ! مرحبا بالموت
فى سبيل الوطن الحر .. ! » .

وكان أثناء كلامه هذا يمشى الى المشئقة بسرعة الطير . وما انجز
كلمته الأخيرة حتى كان قد اعتلى منصة المشئقة فوضع بيده الحبل بعنقه
وبسرعة البرق رفس الكرسي من تحته وقضى شهيدا مثل رفاقه .

وعندئذ التفت رضا باشا الى البوليس وقال له :

— « الضابطان سليم الجزائرى وأمين لطفى » .

وكان المذكوران من كبار ضباط الجيش العثمانى ومن أركان حربه .

فنهض اذ ذاك رضا باشا مسرعا الى دائرة البوليس حيث قابل
الشهيدى ودامت المقابلة نصف ساعة .

وكان أمين لطفى يقول لرضا باشا :

- « ليقبل لنا الديوان العرفى على الأقل كيف حكم علينا بالاعدام .
كيف أنهم لم يستنطقونا ولماذا لم يسمعوا كلامنا ؟ هذا هو جزاء خدمتنا
للدولة ؟ » .

فقال لهما رضا باشا : « سأخبر الآن القيادة العليا بشأن العفو
عنكما » وجلس حالا الى التليفون وطلب مخاطبة جمال باشا فأجيب أنه
متغيب وان فخرى باشا وحده فى القيادة . فطلب مخاطبته . وطالت
بينهما المخاطبة بدون جدوى لان الجواب كان يرن دائما من بوق التليفون
بهذه الكلمة : « اولماز » « غير ممكن » .

فالتفت اذ ذاك رضا باشا الى الضابطين وهو كئيب وقال لهما :

- « ما بيدي حيلة . فان شئتما تفضلا الى التليفون وخابرا أنتما
فخرى باشا » .

فتقدم سليم الجزائرى وأخذ بوق التليفون وكلم فخرى باشا بلهجة
الشجاعة والبطولة . غير أن هذا كان يجاوب دائما : « أولماز » . أخيرا
رمى الجزائرى بوق التليفون على الأرض وكسره شاتما الدولة ورجالها
الظلام .

ومشى الضابطان معا « الجزائرى وطفى » بشيا بهما العسكرية فوصلا
الى أمام المشانق وكان قد مضى على اعدام الاثنى عشر شهيدا أكثر من
ساعة . وصلا الى هناك وأنوار النهار انبسطت على بيروت الحزينة .

وقد أراد البوليس أن ينزع قبعة الشهيدين عن رأسهما والشارات
العسكرية عن اكتافهما فرفضا . وأمر رضا باشا البوليس ان يتركهما على
حالهما .

فصعد الجزائرى أولا الى منصة المشنقة ونظر الى الحاضرين قائلا
لرضا باشا :

« قل لهذا الخنزير الكلب جمال باشا أن لا يفرح بموتى فان روحى
ستظل حية وستعلم أبناء البلاد من وراء القبر درس الوطنية الحرة » .

وجاء البوليس ليضع الحبل فى عنقه محاولا أن ينزع نظارتيه عن
عينيه فمانع الشهيد قائلا له بنبرة الأمر : « اعدمنى على حالى كما عشت

لأننى لا أريد أن أموت وفى شىء ناقص « وهكذا قضى ذاك البطل .
وأعدوا بعده رفيقه أمين لطفى الذى صعد الى منطقة المشنقة بوجه ضحوك
مرددا النكات الهزلية .

وعند الصباح نقلت جثث لأربعة عشر شهيدا الى الرمل قرب
أخوانهم الذين أعدموا قبلهم .

وقد روى أن العديد من الشهداء ترنموا بأبيات من الشعر بعد أن
تأكد لهم أنهم سيعدمون لا محالة قال الشيخ فيليب الحازن :

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغائنا
وقال سيف الدين الخطيب :

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة فى غد

وقال عمر حمد وقد رأى فى شعره شيئا وهو ما يزال فتى :
من لم يقم بالحق قبل مشيبه وضمور جمرته فليس بقائم

وقال سليم الجزائرى :

ولى عزم كحد السيف ماض ولكن الليالى من خصومى

وقال رفيق رزق سلوم يوقظ رفيقه من نومه :

لا تنم واغتنم سحابة عيش ان تحت التراب نوما طويلا

وقال باثرو باولى :

تقضى زمان لعبنا به وهذا زمان بنا يلعب

وقال أيضا :

يفرح هذا الورى بعيدهم ونحن أعيادنا مآتمنا

وقال أمين بك لطفى :

ولى أمل قطعت به الليالى أرانى قد فئت به وداما

وقال محمد الشنطى :

ومن حكم المولى التى تبهر النهى طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال جلال البخارى :

أما فى أهلها رجل لبيب يحس ويشتكى الم الجراح

وقال عبد الوهاب « الانكليزى » :

تحدثنا الظنون بما يكون كان الظن علام الغيوب

وقال توفيق البساط :

إذا ما سمائى جاد بالذل عيشها أبيت عليها ان تكون سمائيا

وقال رشدى بك الشمعة وكأنه تنبأ عن التقائه بعائلته فى رفاق
فكان الوداع بالإشارة :

لست أنسى ساعة البين وما هى الا صك روح من جسده
رمت فيها الصبر لكن لم أطق وحبست الدمع لكن لم يكده
ليتنى فارقت عينى والحشا قبل ما فارقت أهلا وولده
أودعونى عندما ودعتهم حسرة كانت من الموت أشده

ومن سوريا ، ولبنان حيث نبتت بذور الثورة العربية ضد الحكم
العثمانى وحيث أعدم جمال باشا العديد من الشهداء ، العرب ، ننتقل الى
الجزيرة العربية الى مكة والمدينة موطن أول ثورة استهدفت الحكم العثمانى
بعد قيام الحرب العالمية الأولى .

ونبدأ الحديث عن شريف مكة الذى قاد تلك الثورة ، ثم عن الظروف
الشخصية والظروف العامة التى دفعت شريف مكة للتفكير فى الثورة على
الاستانة .

منصب شريف مكة - للعلم - من المناصب الخطيرة فى الدولة
العثمانية ويأتى بعد الصدر الأعظم وخديو مصر ، ويتصل بمقام الصدارة
العظمى مباشرة . وشريف مكة هو المرجع الأول فى الحجاز للعرب وصاحب

الكلمة العليا في تصريف أمور باديته . وقد انحصر هذا المنصب في أواخر العهد العثماني في الأشراف من آل أبي تمي ، ثم انتقل اليهم من ذوى زيد على يد محمد على باشا الكبير أبان الحملة المصرية على الحجاز سنة ١٨١٢ وظل فيهم يتوارثونه حتى اعلان الدستور العثماني وكان تبوؤه الشريف على باشا ابن عبد الله بن محمد عبد المعين الذى استقال خوفا من فتك الاتحاديين به . وغادر الحجاز على عجل فعينت الحكومة التركية الشريف عبد الاله خلفا له ، وقد مات بعد تعيينه بيومين وقبل ان يتسلم منصبه .

وجاء الدور على الشريف حسين بن علي بن عون ، وقد ولد بالآستانة عام ١٨٥٣ وعندما اسندت اماره مكة الى جده الشريف محمد بن عون سنة ١٨٥٥ قدم أبوه على الى مكة مع ابنه الحسين ثم عاد الى الآستانة بعد ان مات جده . ولما اسندت اماره مكة الى عمه الشريف عبد الله بن عون ، فانضم الحسين اليه يعيش فى كنفه حتى ولى الامارة الشريف عون فى ٢٤ ذو القعدة سنة ١٢٩٩ فعمل على ابعاده من مكة لما كان يأتية الحسين من التآليب عليه والكيد له فى الخفاء حتى تغلب الشريف عون عليه وألجأه الى الرحيل من مكة الى الآستانة .

أقام الحسين كما يقول الأستاذ عواد نصيف فى كتابه عن الحجاز يعمل ليومه الذى يرجوه ويسعى لتحقيق فكرته التى ملأت رأسه ، والتى كان يعتقد أن تحقيقها لا يتم الا على يد أوربية فمن ثم أخذ يتصل بالأوربيين السياسيين فى الآستانة ويستعين بهم على مأربه . وقد تبين واضحا ما كان يحمله الحسين فى نفسه من الثقة بالأوربيين فى الحرب العالمية حين أستعان بالخلفاء أستعانة كان خيرا لهم وشرها له وللعرب وللمسلمين .

لم يخف على الباب العالى صلة الحسين بالأوربيين وسعيهم معه ، خصوصا وقد كان أغلب من يحيط به من جواسيس عبد الحميد . الذى كان يعتنى بفن الجاسوسية كل العناية .

وآلت الامارة الى الشريف على باشا ولم تزد امارته على سنتين عزل بعدهما . وتولى بعده الشريف عبد الاله ولكن المنية عاجلته قبل أن يستلم عمله الجديد ، وقد حامت حول موته فجأة الشكوك ورأى الحسين الفرصة سانحة لكي يتولى اماره مكة .

ويذكر مؤلف كتاب « مقدرات العراق السياسية » ان السلطان عبد الحميد كان مترددا فى أمر تعيين الحسين وقد وافق أخيرا وبعد الحاج قائلا : انى راض بتعيينه أميرا لمكة اذا اكتفى بذلك فقط بل انى

اعتقد أنه لا يكتفى بالامارة فحسب بل يطمع لأكبر منها ويهدد يوما ما عرشي » . وأصدر السلطان عبد الحميد فرمانه بتولية الحسين اماره مكة على مضض في السادس من شوال سنة ١٣٢٦ السنة التي أعلن فيها الدستور .

وكانت الدولة العثمانية تجعل بجانب أمير مكة واليا من قبلها مقره الحميدية بجانب الحرم الشريف والتكية المصرية ، وقد بنتها الحكومة العثمانية مقرا لمن تبعث به من الولاة ، وكان الوالي أيام الشريف حسين وهيب باشا وكانت بينهما معارك عنيفة .

ولأهمية فرمان الخاص بتولية الشريف حسين ننقل فقرات منه فيما يلي :

(أنه لما تجلى صاحب القدرة الأزلية القائل سبحانه للشيء كن فكان ناظم أمور الكون والمكان . تحيرت عن ادراك أسرار حكمته عقول الخلائق والأذهان الذي جعل عتبة مرجتنا مرجع المحتاجين وباب خلافة سلطتنا متكا لأصحاب العز والشأن وزين طغراء مناشير اجلالنا الهمايوني بوجوب الطاعة والانقياد لأجل أحكام الشرع المتين ودوام معالم الدين المبين ومكن الحق المبين أوامرنا العلية غاية التمكين وجعل مناقب دولتنا العلية ومفاخر سلطتنا السنية حماية للدين المبين واعلاء للواء شرع سيد المرسلين ولاسيما بالخدمة الشريفة للبلدين المنيفتين منزل أنوار الوحي المبين ومهبط جناب جبريل الأمين المتضمنة الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم : (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

من بين سلطات شريف أن « يكون الناظر على توزيع وتقسيم الصرة الهمايونية المرسلة من طرف سلطتنا السنية الى أربابها بواسطة المأمورين بهوجب الدفاتر الموجودة وان يستجلب من العموم الدعوات الخيرية لجانبنا الشاهاني وان يهتم في توفيق الأمور والمصالح الواقعة والجارية بالعدل والحقانية متحدا مع وزيرنا سمير المعالي الحامل للنیشان المرصع العثماني والمرصع المجيدي أحد ياوراتنا الكرام الشاهانية والى ولاية الحجاز وقوميدان فرقتنا الهمايونية كاظم باشا أدام الله تعالى اجلاله ويشمر عن مساعد الجد في حسن ايفائها وتسويتها وان لا يمكن تعدى فرد من الافراد على أحد بما يخالف الشرع الشريف وان تكون حركته دائما وفق الشرع القويم فيلزم على كل من الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء وسائر من يأتي من كل فج عميق لزيارة البيت العتيق والأهالي الصغير والكبير والوضيع والرفيع ان يعرفوا أن سيادة

الشريف المشار اليه هو أمير مكة المكرمة وأن يحترموه ويوقروه وأيضا يلزم على سيادة المشار اليه أن يعتنى مزيد الاعتناء لرعاية أصحاب السداد والصواب بحسب درجاتهم وأن يداوم فى الغد الآصال بالدعاء لدوام عمر دولتنا وارتقاء شوكتنا الملوكانية فأعلموا هذا واعتمدوا على علامتنا الشريفة تحريرا فى اليوم السادس من شهر شوال المكرم لسنة ستة وعشرين وثلاثمائة وألف .

ومنذ بداية الحرب العالمية الأولى والشريف حسين يفاوض الانجليز سرا ، كما يفاوض الأتراك أيضا فى نفس الوقت ، وعندما كان جمال باشا يطلب منه مساعدة الدولة العلية بإرسال المتطوعين ، كان الحسين يجيب اجابات غامضة وعندما أرسل الحسين بعض المتطوعين الى المدينة المنورة وطلب من جمال باشا إرسال دراهم وأسلحة لمساعدة المتطوعين الآخرين جاءه من الدولة خمسون أو ستون ألف جنيه وعلى أثر ذلك أبرق الحسين الى أنور باشا قائلا : اذا كنت حقا ترغب فى التزامى بجانب الهدوء والسكينة فينبغى الاعتراف باستقلالى فى سائر الحجاز من تبوك الى مكة وجعلى أميراً وراثيا فيها كما ينبغى أيضا العدول عن محاكمة العرب المتهمين واعلان العفو العام فى سوريا والعراق) فأرسل أنور باشا هذه البرقية الى جمال باشا الذى كتب للحسين : لقد نمت الى خبر برقيتك الى أنور باشا فأنت تطالب ان تكون الامارة وراثية فى أسرتك وان يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والملة وليس من المستطاع اجابة هذا الطلب الثانى والا أدى ذلك الى ضرر شديد فى مسألة لها تعلق وارتباط بالمصلحة العامة فان الحكومة التى تصفح عن الخونة خليقة بان يتهمها الجمهور بالضعف بل قد يغرى ذلك الصفح كثيرا من الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء فلو عرفت محتويات الوثائق التى ظهرت فى المحكمة لرأيت الى أي حد من الخيانة قد تسفل اليه أولئك المتهمون أما فيما يختص بمسألة جعل الامارة وراثية فى أسرتك فانى يخيل لى وأظنك تسامحنى فى ذلك الرأى ان الفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك الطلب - فانى فى وقت الحرب الذى تتعرض فيه كل قوى الانسان العقلية والجسمية لأشد العناء والنصب أراك تعترف معى بان الاعراب عن مثل تلك الرغبات من شخص يشغل مركز أمام وفى أهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية . . بقعة هى أكثر تعرضا للاخطار عما عداها - لا بد ان يكون له أسوأ وقع فى نفوس الجمهور والذى اعتقده أنه ما كان ينبغى لك أن تطلب مثل ذلك الطلب حتى لو كان لك الحق فى طلبه - فان موارد الأمر بأسرها ينبغى أن تحشد اليوم لغرض واحد لا ثانى له ألا وهو احراز النصر النهائى » .

ويجب أيضا أن تلفت نظرك الى الوجهة التالية من وجهات النظر
للمسألة . وهى أننا نفرض جدلا ان الحكومة لبث طلبك لمجرد الرغبة فى
الابتعاد بك عن المشاغبة فى هذه الأوقات العصيبة التى نقطعها وفرضنا
أيضا أن النصر كان فى النهاية حليفنا فما الذى يمنع الحكومة ان تعاملك
بمنتهى الشدة حتى تضع الحرب أوزارها ان الرجال الذين يكونون الحكومة
الحاضرة والذين تجرأوا على القيام فى وجه عبد الحميد الذى أمضك
استبداده لن يصفحوا عمن يجترئون على شل أيديهم فى هذه الحرب التى
دخلوها لمصلحة العالم الاسلامى ومن جهة أخرى لن يقعدوا عن أن يحصلوا
من جلالة الخليفة على جزيل الاحسان وعظيم المكافأة لكل من عمل ابتغاء
مرضاة الله فى تحقيق غايتنا المقدسة) وكان الشريف قد بعث الى الصدر
الأعظم جوابا يقول فيه : أنه لا يعرف أى الرجلين يصدق ؟ أهذا السياسى
الذى يتعامل معه مباشرة ولطالما أظهر له المجاملة والود أم ذاك الذى
استعمل معه ألفاظا جارحة مهينة .

ويقول الشريف أنه يرى نفسه مضطرا الى قطع العلاقات مع الحكومة
حتى تجاب المطالب التى طلبها من أنور باشا منذ شهرين . كما أرسل
الشريف الى جمال باشا برقية بهذا المعنى .

أما المتطوعون الذين جاءوا من مكة فقد أخذهم على وفيصل أبناء جلالة
الملك من المدينة خلصة قبل الثورة بيومين ، وقد كتب على الى فخرى باشا
يقول له :

(بناء على الأوامر الصادرة من أبى سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين
ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا
واننى آسف، لاضطرارى الى الرحيل بدون أن أودعك فالمرجو قبول عذرى) .

أما جلالة الشريف الحسين فقد كتب بعد خروج المتطوعين من المدينة
الى جمال باشا والى الصدر الأعظم ما خلاصته ، أنه يعتذر عن عدم استطاعته
الاشتراك فى الحملة على القناة الى أن تجاب الطلبات التى طلبها فى
برقيته .

وهناك اتجاه الى تأكيد وجهة النظر القائلة بان هناك عاملا شخصيا
أو عوامل شخصية دفعت الشريف حسين بن على الى عدم الثقة بالأتراك
أو بالأحرى الاتحاديين الذين نزعوا ثقتهم فيه وفى بيته خاصة وقد كان
على ثقة مطلقة من أن الاتحاديين يتحينون الفرصة للاطاحة به واستبداله

بآخر ، وكان اختيار وهيب باشا بالذات واليا للحجاز لتقليم أظافر حسين ابن علي وللقضاء علي نفوذه .

وقد كانت حكومة الآستانة - كما ذكر جمال باشا في مذكراته - تنوى فعلا اجابة طلب جمال باشا ارسال فرقتين من الجند لانقاذ مشروع وضعه جمال باشا ولو لم تعلن الحرب على حين غرة لكان الترك نفذوا المشروع الرهيب وفضوا على الحسين القضاء المبرم . هذا الى أنه كان للشريف - على ما قيل - عيون في ديوان الحكومة بمكة وفي دائرة برقيها وفي الباب العالي نفسه ، كانوا يوافونه بكل ما يدور بشأنه من المراسلات بين حكومتى مكة والآستانة ، ويطلعونه على جميع الخطط والتدابير .

ولم يكن بطوق الاتحاديين ان يعلموا شيئا من أسرارهم ومشاريعه اذ كان شديد الحذر والتكتم ، وقد ظل يلاطفهم حتى حملهم على استبدال وهيب باشا بغالب باشا في مستهل الحرب ، فارتاح من خصم لدود وخلا له الجو في مكة ففعل ما شاء واستطاع ان يستولى على كمية كبيرة من السلاح في خلال السنتين الأوليين من سنى الحرب ، وان يأخذ من جمال باشا مبلغا كبيرا صرفه في تعزيز سلاحه وتقوية ذخائره ، ولعل خوفه من حقد الترك عليه هو الذى أهاب به ان يشترط على الاتحاديين فى أثناء المفاوضات التى دارت بينه وبينهم جعل الامارة وراثية فى انجاله فقد خشى أن ينفوه فى أول فرصة تسنح لهم ، فشاء ان ينال من حكومة الآستانة عهدا بابقاء الامارة فى ذريته فيطمئن بالا ، ولكن الاتحاديين أبوا عليه ذلك .

ذلك هو العامل الشخصى ويليهِ فى الأهمية العامل المحلى وكان مصدره مركز الحجاز الاقتصادى فى ابان الحرب . فالحجاز قطر مجذب أو هو واد غير ذى زرع - كما وصفه القرآن - وقد تعود سكانه ان يعيشوا بما يدره عليهم موسم الحج ، فاذا كان خصبا نعموا وحسنت حالهم ، وادخروا لعامهم المقبل ما يدفع عنهم غائلة الفاقة والجوع ، وبالعكس اذا كان الموسم ضئيلا المواد .

ومن المعلوم ان الحرب العظمى أعلنت فى شهر رمضان سنة ١٣٣٢ أى قبل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريبا . وكان الانكليز غير واثقين من

إخلاص الدولة العثمانية لهم ليقينهم أنها متحالفة مع الألمان وأنه لا بد أن تخوض الحرب إلى جانبهم ، فضربوا الحصار البحري على سواحلها ومنها سواحل الحجاز في البحر الأحمر فتعطل بذلك موسم الحج ولم يؤم الحجاز غير عدد قليل من الحجاج فأحس الحجازيون بالضائقة ولكنهم صبروا على أمل أن تنتهي الحرب في السنة الآتية فيصار إلى رفع الحصار البحري وتقبل وفود الحجاج بكثرة فيعوضوا ما خسروه في الموسم الفائت . ولكن أملهم خاب إذ حل الموسم الجديد وانتهى والحرب ما تزال مستمرة تزيد في ضيقهم وقد نفذ كل ما ادخلوه في اليوم الأبيض ليومهم الأسود . فتعالت أصواتهم بالتذمر وطلب الإغاثة وتألوا من الجوع وقد عضهم بآنيابه .. !!

فكتب الشريف إلى حكومة الآستانة باسقاط لها الحال المؤلمة وما يقاسيه أهل مكة وجدة من جوع وفاقة بسبب الجذب الذي أصاب موسم الحج ، أما الحكومة فاعتذرت بسوء الحالة وبحاجة الجيش إلى القوات ولم ترسل إلى القوم ما يخفف عنهم المجاعة حتى أن بعضهم انتزع أبواب بيته وأخشاب سقوفه وباعها ليقنات بثمانها . ولما ضاقوا ذرعا بهذه الحال جاءوا إلى الشريف متوسلين إليه لكي ينقذهم من الضيق الذي هم فيه ويبعد عنهم شبح الموت المائل أمامهم بعد أن رفضت الدولة مساعدتهم . ومن البديهي أن الطريقة الوحيدة للخلاص من تلك الحال المخيفة إنما كانت بمخالفة الانكليز والتفاهم معهم لإلغاء الحصار البحري فتعود البواخر إلى ارتياد سواحل الحجاز حاملة إليه الحجاج والأموال .

ذلك كان العامل المحلي وهو خطير الشأن ، كما لا يخفى .. وقد كان من أهم عوامل الثورة لان الفاقة والجوع والضيق كثيرا ما تدفع الشعوب إلى الثورات الدامية ، على ما يدلنا التاريخ قديما وحديثا .

ويجىء بعده العامل القومي . ومجمل القول فيه هو أن الشريف عظم عليه ، وهو المنظور إليه كأكبر زعيم عربي في ذلك الزمن ، أن تساق الحرائر العربيات إلى الأناضول سبيا تحت ستار الأبعاد ، وإن يعدم فريق من مفكرى العرب وكبارهم ويشئت الآخرون تحت كل كوكب لا لجريمة اقترفوها بل لأنهم هبوا يطالبون الدولة باصلاح بلادهم خشية أن يؤول الإهمال إلى تدخل الدول الكبرى في شؤونها باسم الاصلاح - كما حدث سابقا في البلقان - ثم يتحول هذا التدخل إلى احتلال

أو استعمار • وقد كان أولئك الزعماء المخلصون يخشون مثل هذا الأمر
ويبدلون الجهود الجبارة لاتقائه ، فكان نصيب بعضهم الاعدام ونصيب
البعض الآخر السجن والابعاد • ولما رأى الشريف ان توسطه للعفو عنهم
ورفع الضيم النازل بهم لم يلق أى اعتبار لدى الحكومة الاتحادية قرر
اعلان الثورة انتقاما لهم وانقاذا للذين ظلوا على قيد الحياة وقد كانوا
مهددين بالموت الأحمر فى كل ساعة •

وقد أجمع الباحثون فى القضايا العربية على أن الشريف حسين
أحسن عملا باسراعه فى اعلان الثورة بعد اعدام القافلة الثانية من الشهداء
فحمل بذلك الاتحاديين على تبديل سياستهم وعزل جمال باشا من وظيفته
فى سوريا واستدعائه الى الاستانة فرجع اليها رجوع المنكسر الفاسل وقد
تلاشت احلامه فى تأسيس عرش له فى دمشق يتمتع به فى حياته ثم
يورثه لأولاده بعد مماته •

ومن الجهة الأخرى كان الاعتقاد سائدا بين المفكرين ان الفوز الأخير
سيكون من نصيب الانكليز وحلفائهم وان الدائرة لابد وان تدور على
الألمان والأتراك فتزول الامبراطورية العثمانية ويقتسم أراضيها ومن
جملتها البلاد العربية ، فتكون النتيجة وخيمة على العرب وهذا ما كانوا
يعملون لاجتنابه • ولذا لم يكن للحسين مندوحة عن مفاوضة خصوم
الأتراك وعقد الموائيق معهم لانقاذ بلاد العرب واقامة الامبراطورية العربية
الكبرى فتحل فى الشرق محل الدولة العثمانية المضمحلة وتبعث دولة
العرب ومجدهم من جديد •

وفى رواية لجورج انطونيوس •• ان الشريف عبد الله - بصفته
ابن الشريف حسين ويده اليمنى - ذهب الى كتشنر فى الأسبوع الأول
من شهر فبراير ١٩١٤ - وكان كتشنر وقتئذ المعتمد البريطانى فى
مصر ، وكان عبد الله مارا بالقاهرة فى طريقه من مكة الى القسطنطينية
فزاره ردا لزيارته ، وقد أطلع عبد الله كتشنر على توتر العلاقات بين
السلطات التركية والشريف وكان المستر (السير) رونالد ستورز
السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانية حاضرا ، وكان عبد الله على
علم من ان الاتحاديين اتخذوا قرارا سريا يقضى بعزل والده فأفهم كتشنر
بأنهم اذا نفذوا ما قرروه فيحتمل ان تقوم ثورة فى الحجاز ثم حاول وهو

متحفظ في الفاظه ان يفهم من كتشنر موقف الحكومة البريطانية في حالة نشوب نزاع علني بين الترك والعرب . لم يأت جواب كتشنر مشجعاً وان كان لا يربط قائله بشيء سلبي أو ايجابي فقد قال أنه يرى أن السياسة البريطانية التقليدية هي سياسة صداقة مع تراكيا ولهذا فهو لا يتوقع أن تتدخل في حالة كهذه . وفي الوقت ذاته أدرك كتشنر بأن لدى زائره من الحديث ما لا تنسح له زيارة رسمية فطلب من ستورز أن يرد الزيارة بعد يومين ويفسح المجال أمام عبد الله للأفصاح عن أفكاره بشكل أتم .

كان حديث عبد الله مع ستورز أكثر وضوحاً فقد كان ستورز يتكلم العربية قليلاً وكان من خصائصه أنه يستطيع استخراج الكثير من القليل كما كان يجمعه بعبد الله ميل واحد مشترك على الأقل وهو الولع بلعبة الشطرنج فتصادق الرجلان في هذا الجو من الود الخالص الذي يندر وجوده بين انكليزي وعربي فاطمان عبد الله واخذ يتكلم بحرية فتحدث مع زائره حديثاً أطول بكثير من حديثه مع كتشنر فأخبره بخطورة الحالة في الحجاز واطلعه على الاستعدادات التي يقوم بها والده ليواجه القطيعة النهائية التي خيل اليه أن لا مفر من وقوعها كما تحدث طويلاً عن أهداف الحركة العربية وآمال زعمائها ويأسهم الآخذ في الازدياد . وبعد ذلك ابتدر محدثه باستفهام ينم عن الصراحة التي يتصف بها فسأله عما اذا كان كتشنر على استعداد لمساعدة الشريف في الحصول على مدافع رشاشة .

كان من الطبيعي أن يأتي جواب ستورز كجواب كتشنر مثبتاً للعزم وبهذا انتهى الحديث بين الاثنين . وفي أواخر ابريل مر عبد الله ثانية بالقاهرة دون أن يقابل كتشنر ولكنه التقى مجدداً بـ ستورز الذي قال له في صراحة لا تقبل الشك أنه لا يجوز له أن ينتظر أية مساعدة من جانب بريطانيا العظمى وعلى هذا عاد عبد الله الى الحجاز . وبالرغم من أن هذه الأحاديث لم تنته الى شيء الا أنها كانت ذات أثر فعال في توجيه الأمور لأنها نبهت كتشنر الى قوة العداء القائم بين الترك والعرب وعمقه وافهمته كذلك رغبة العرب الحققة في الاستقلال كما حملته على ان يتخذ بعد أشهر قليلة بعض التدابير التي استثمرت حتى أدت في النهاية الى ادخال العرب في الحرب كحلفاء الى جانب انكلترا ضد تركية .

تعود قيمة هذه الأحاديث الى ان محاولات عبد الله جاءت عن طريق الصدفة فى وقت اضطرب فيه ذهن كتشنر ببعض الأفكار والتكهنات التى كانت تشغله فهو بصفته معتمدا بريطانيا فى القاهرة كان مسئولا بالدرجة الأولى عن مصر والسودان ولكن خياله ذهب به الى ما وراء حدود عمله المباشر فان حروبه فى السودان والمدة التى قضىها كقائد عام فى الهند والمعرفة الوثيقة التى اكتسبها هناك بنتيجة المشاكل القائمة على الحدود الشمالية الغربية وفى الأفغان - ان كل هذه العوامل أوجدت صلة مباشرة بينه وبين بعض القوى المجاهدة فى الاسلام ونمت فى نفسه احساسا دقيقا بالقيمة العظيمة التى تتمتع بها الرابطة الدينية فى الاسلام . وخلال السنوات الثلاث التى قضىها فى القاهرة كانت عيناه ترمقان القسطنطينية مركز الخلافة بقلق بالغ وكان يرقب كذلك نمو النفوذ الألمانى والتقدم المشئوم فى مشروع سكة حديد بغداد حتى أدرك ادراكا عميقا ما ينطوى عليه هذا الأمر من تهديد لمركز بريطانيا فى خليج « فارس » - هكذا فى الأصل - وفى الهند وكاد هذا الوعي أن يتحول فى رأسه الى هوس مستقر وطاغ . وكان يقول لأصفيائه القليلين بصراحة أنه يعتقد بأن الدبلوماسية البريطانية ارتكبت خطأ لا يغتفر بسماحها لألمانيا بالتفوق السياسى والعسكرى فى عاصمة المملكة العثمانية ، وكان التفكير بالأساليب التى تدرأ الأخطار الناجمة عن هذا الوضع من الأمور التى تشغل فكره باستمرار .

كان كتشنر يفكر بحلول مختلفة ومن جملتها أن يفصل عن المملكة العثمانية بمرور الزمن ذلك الجزء من بلاد الشام الذى يبدأ من خليج حيفا وعكا على البحر الأبيض المتوسط وينتهى فى خليج العقبة على البحر الأحمر فيوضع تحت حماية بريطانية يؤمن امتداد النفوذ البريطانى بدون انقطاع من مصر الى خليج فارس . ومن تلك الحلول كذلك تشجيع الأجزاء العربية فى المملكة العثمانية على تشكيل دولة ، أو عدد من الدول ، مستقلة استقلالاً ذاتياً ومرتبطة مع بريطانيا العظمى بروابط الصداقة لأن هذه المناطق تقع على الطريق كله من ساحل البحر الأبيض المتوسط فى الغرب الى حدود فارس فى الشرق وبهذا يقام سد عربى انكليزى لمقاومة التيار الألمانى التركى . وبعبارة أخرى نقول ان كتشنر توصل عن طريق تفكيره المستقل الى تخيل تلك الاحتمالات بعينها التى كان الزعماء العرب أنفسهم يفكرون فيها . وبينما كان ذهنه منهمكا فى هذه إلتكهنات زاره الأمير عبد الله الذى كان هو نفسه عضوا فى إحدى

الجمعيات السرية ومن المؤمنين بفكرة التفاهم المثمر بين الانكليز والعرب والمتحمسين له . وفي هذه الزيارة زوده بمادة جديدة للتفكير .

وعن تلك الأحاديث يقول الأمير عبد الله :

كان كتشنر يقضى أجازته في انكلترا لما اشتعلت نار الحرب في شهر أغسطس فتوجه فورا الى مقر عمله ولكنه ما كاد يبلغ دوفر حتى استدعاه رئيس الوزراء وسمى وزيرا للحربية فوجد أمامه فعلا بين عشية وضحاها مهمة خلق جيش بريطاني كبير على مقياس لم يسبق له مثيل وبينما كان منصرفا بكليته الى انجاز مهمته ظل جزء من تفكيره منحصرا في الأخطار الناجمة عن سيطرة المانية الدبلوماسية كما ظل جزء آخر من ذهنه مأخوذا بمسألة ايجاد الطريقة المناسبة لمواجهة تلك الأخطار . فكانت تركيا في الظاهر مصممة على اتباع سياسة الحياد أو على الأقل هذا ما كان رجال جمعية الاتحاد والترقي - وهو الحزب الحاكم في ذلك الوقت - يرددونه على الدوام ولكن لم يكن من المعقول أن يصدق كتشنر هذا الادعاء بسبب القلق الذي كان يساوره فقد شعر بان التصديق قد يعرض البلاد لأخطار جمة ولهذا عمل على اقناع مجلس الوزراء باتخاذ بعض التدابير على اثر تلقيه اقتراحا من ستورز في أواسط أيلول (سبتمبر) .

كان ستورز يعمل بنشاط منذ عودته الى مصر وحده بدون رئيسه . فان الصراحة التي حدثه بها عبد الله قبل أشهر قليلة نبهت ذهنه الحاد الى المعاني البعيدة التي تبني على تدمير العرب وأدرك بوضوح ادراكا لم يتوصل اليه سواه في ذلك الوقت امكان الاستفادة من ذلك التدمير وقد ازداد تمسكا بهذا الرأي بنتيجة الأبحاث التي تهيأ له اجراؤها كسكرتير شرقي مع عدد كبير من الزعماء العرب المقيمين في مصر فأرسل كتابا خاصا الى كتشنر طلب فيه السماح له بالتأكد من عبد الله عن الجهة التي سيثب العرب الى جانبها فيما اذا دخلت تركيا الحرب كما ذكر أنهم اذا وقفوا الى جانب بريطانية حسنوا الوضع الحربي تحسينا بالغيا بتقويتهم أطراف الجيش وهذا بالاضافة الى الاعتبارات الثانية الكبرى ، ولعله لم يستعمل في ماكتب هذه الكلمات بعينها ولكن هذا معنى ما خطه .

تبني كتشنر هذا الاقتراح فورا وأبرق الى ستورز بتعليماته بعد ان أخذ رأي مجلس الوزراء فطلب الى ستورز بصورة خاصة أن يستفهم من

عبد الله عما اذا كان أمير مكة يود السير في خطوات تركيا أم أنه سيقف في صف بريطانيا في حال اقناع ألمانيا لتركيا بدخول الحرب الى جانبها . وقد أرسلت هذه التعليمات في آخر أسبوع من شهر سبتمبر أى قبل أن تعلن تركيا الحرب بستة أشهر وقضى ستورز بضعة أيام في البحث عن رسول أمين يمكن الاعتماد عليه للسفر الى الحجاز سرا وهناك يجد لنفسه طريقة يتسرب بواسطتها الى مجلس عبد الله دون ان يلفت النظر الى شخصه . وفي أواسط أكتوبر بلغ الرسول - وهو مصري يعرف باسم على أفندي - مكة حيث أدى رسالته وعاد مزودا بجواب خطي من عبد الله .

وضعت رسالة كتشنر ، أمير مكة في موقف دقيق بل فائق في الدقة فقد كان يعمل على تثبيت سلطته في الحجاز ولو أدى ذلك الى منازلة الترك وكان هذا قبل نشوب الحرب بأشهر عديدة في وقت لم يدر فيه في خلد أحد أن حربا عالمية ستقع وأن تركيا ستدخلها ، وهو عهد كان فيه الخلاف بين الحسين والترك ناشئا عن قضايا تتعلق بالحجاز ومنحصر فيها أما الآن وقد وقعت الحرب بالفعل وأصبح دخول تركيا فيها قريب الاحتمال فقد توسع الموضوع وأصبح ذا صلة بمستقبل جميع الأجزاء العربية في المملكة العثمانية . أما اذا دخلت تركيا الحرب بالفعل وانصرفت بكليتها اليها أفلا ينشأ عن ذلك أخيرا سنوح الفرصة التي كان العرب ينتظرونها من زمن بعيد ؟ وقد خيل للعرب ان أمامهم طريقين : فاما الوقوف الى جانب تركيا في ساعة حاجتها وبهذا يكسبون عطفها كنتيجة لاعترافها بجميلهم معها ، وأما الثورة عليها والفوز بحريتهم بحد السيف . فأى واحد من هذين الطريقين يسلكون ؟

أبدى ولدا الحسين اللذان استشارهما في الأمر رأيين متعارضين : أما فيصل فكان يحبذ الطريق الأول لاعتقاده الجازم بأن لفرنسا وانكلترا أطماعا : الأولى في الشام والثانية في المناطق الجنوبية من العراق ولم يجد عرض كتشنر أى ضمانات تبديد المخاوف الناجمة عن هذه الأطماع ، وبالإضافة الى ذلك فإن العرب في نظره غير مستعدين للأمر استعدادا كافيا مما جعله يخشى على الثورة من الفشل . وأما عبد الله فكان يرى غير هذا الرأي لأنه بانتسابه الى إحدى الجمعيات السرية أطلع على دخالها ففهم قوة الشعور الثوري السائد ، ولما كان من المتفائلين بطبعه فانه كان على ثقة من أن كلا من دمشق وبغداد سيتلبي نداء الثورة حالا . وقد شعر بأن الاسلوب الواجب اتباعه هو عدم رفض ما عرضه كتشنر بداعي أنه

عرض ناقص بل التوصل عن طريق المفاوضة الى معرفة ما اذا كان هذا العرض ينطوى على ضمانة كاملة لاستقلال العرب .

وتمسك كل واحد من الأخوين برأيه تمسكا عنيدا ولم يخيدا قيد أنملة عن موقفهما هذا فى الاجتماعات التى كان يدعوهما اليها والدهما للمداولة الهامسة . وكان الحسين ميالا على وجه العموم الى الأخذ برأى فيصل القائل بعدم استعداد العرب فى المناطق الأخرى ومع ذلك فان الحاج عبد الله جعله يترىث ويفكر حتى اتخذ فى النهاية قرارا وسطا : أن يقوم من جهة بارسال الرسل الى بلاد الشام والى كبار أمراء العرب ليكشفوا حقيقة الشعور القومى ومبلغ الاستعداد للعمل ويجسوا نبض الزعماء ، ومن جهة ثانية ان يتحرف كتشنر بجواب يحوى مقدارا قليلا من التشجيع ، دون أية زيادة يكفى لاستمرار الأمل فى نفسه باكتساب العرب . فانشأ رسالة موجهة الى ستورز وقعها عبد الله وقد أبدى فيها ميله الى التفاهم مع بريطانيا العظمى وأشار الى عدم تمكنه فى الوقت الحاضر من تغيير موقفه الحيادى الذى يرغمه مركزه فى الاسلام على اتخاذه . وقد حصر ملاحظاته فى الحجاز متجنبيا بكل دقة وحذر الادلاء بما يستشعر منه أنه ينطق باسم سائر أجزاء العالم العربى ملمحا بأنه قد يستطيع دفع أنصاره القريبين منه مباشرة الى الثورة فى حال قيام الترك بعمل نهائى فى الموضوع وعلى شرط الحصول من بريطانيا على وعد ببذل المساعدة الفعلية .

تلقى ستورز هذه الرسالة قبل نهاية أكتوبر فأرسل بها برقية الى لندن على الفور ولا شك ان كتشنر استلم نصها فى وقت قريب من استلامه كتابا من صديقه القديم السير جون ماكسويل الذى كان فى ذلك الوقت يقود القوات البريطانية فى مصر وكان كتابه مؤرخا فى ١٦ أكتوبر وفيه يقول مقترحا : « . . . لست بمطلع على سياسة وزارة الخارجية ولكنى أرى ان نتصل بالعرب فى مكة واليمن ونحملهم على القيام فى وجه الترك » .

كانت المدة التى خدم فيها ماكسويل فى الشرق طويلة وكان لرأيه وزن عند كتشنر ففي ٣١ أكتوبر أبرق كتشنر الى دار الاعتماد البريطانية

فى القاهرة نص رسالة جوابية موجهة الى عبد الله . بدأت الرسالة باعلام
المخاطب بدخول تركيا الحرب وعودا قاطعا للحسين بأنه اذا انجاز
مع مريديه الى جانب انكلترة ضد تركيا فان الحكومة البريطانية تضمن
بقائه فى منصبه كأمير لمكة مع احتفاظه بجميع الحقوق والميزات
المتصلة به . كما تعهدت بالدفاع عنه ضد كل اعداء خارجى وتضمنت
الرسالة كذلك وعدا موجها للعرب بصورة عامة بمساعدتهم فى محاولتهم
الوصول الى الحرية شريطة ان يرتبطوا بانكلترة . وختمت الرسالة باشارة
تلمح الى أن الشريف يستطيع الاعتماد على اعتراف بريطانيا به فى حال
مبايعته خليفة للمسلمين .

استلم عبد الله هذه الرسالة فى ١٦ نوفمبر فى وقت حرج كما
سيوضح لنا فيما بعد فنالت لديه أطيب القبول لأنها أعطت الحسين
الضمانة التى كان يطلبها بعينها فيما يتعلق بالحجاز وأما فى موضوع
المناطق العربية الأخرى فقد فتحت باب أمل يغرى بمستقبل بهى من
التحرر القومى . لقد صيغت الرسالة بالفاظ مدروسة دراسة دقيقة بقصد
ابقائها عامة فى مدلولها ولكن النص كما وصل الى يد عبد الله حوى عبارات
مثل « الأمة العربية » و « تحرير العرب » ومهما كانت المعانى التى قصدتها
كتشنر حين كتب هذه العبارات وهو مستغرق فى وسط مهامه الجسيمة
فإنها فى نظر الشريف كانت تنطوى على دعوة لا شك فيها الى تهيئة ثورة
يقوم بها جميع العرب . هذا هو التفسير الذى فسر به الكتاب الموجه الى
ابن الحسين باسم كتشنر وكان كتشنر يتمتع بشهرة فى بلاد الشرق
تفوق شهرة أى انكليزى معاصر وكانت كلمته تحمل على محمل الصدق
بدون أدنى تردد ولهذا شرع الحسين يوجه همه نحو تحقيق تلك الغاية .

أجاب عبد الله بناء على أمر الحسين بكتاب أرسله الى القاهرة وتعهد
فيه باسم أبيه بأن يسير فى سياسة تحالف سرى مع انكلترة . وقد
أكد عبد الله مرة ثانية عدم استطاعة الشريف القيام بأى عمل عدائى
مكشوف ضد الترك قبل أن يتم جميع استعداداته ولهذا طلب منحه
مهلة يتمكن خلالها من دراسة وضعه الحقيقى وجمع قواه حتى تجبىء
الفرصة المواتية لإعلان العداء ، كما وعد ستورز بأن يبعث له برسالة
ثانية فى المستقبل . وصل جواب عبد الله القاهرة فى أوائل ديسمبر
وبه يختتم الجزء الأول من المؤامرة التى اشترك فيها الانكليز والعرب .

وأما الجزء الثاني فإنه سيستهل بعد ثمانية أشهر أى فى يولية القادم ، فور انتهاء الحسين من استجواب الزعماء العرب والمفاوضة معهم وكانت فاتحة هذا الجزء المذكورة التى كتبها الحسين الى السير هنرى مكماهون وهى الأولى فى سلسلة من المذكرات الدبلوماسية التى تؤلف ما هو معروف باسم مراسلات مكماهون .

كانت النتيجة الطبيعية والفورية لدخول المملكة العثمانية فى الحرب الى جانب الدول الوسطى ان قضية أمانى العرب القومية لا بد لها من الانجذاب الى قلب دائرة السياسة الأوربية ، فقد أصبح موقف العرب أمرا ذا أهمية مباشرة للحلفاء وبصورة خاصة لبريطانية العظمى لأن تركيا كانت فى مركز تستطيع معه ان تهدد المصالح البريطانية فى نقطتين حيويتين وذلك بفضل استيلائها على الشام والعراق . أما النقطتان فهما قناة السويس ورأس خليج فارس حيث تقع آبار النفط القيمة التابعة للشركة الانكليزية الفارسية . ولا يجوز انكار الخطر الذى يهدد بريطانيا فى الجزيرة العربية نفسها ، فان الأتراك كانوا يستطيعون استعمال شاطئ البحر الأحمر الطويل لاتخاذ مراكز عديدة وضعت فيه لبث الألغام أو لارسال الرسل الى مصر والسودان وداخل افريقيا لتوزيع السلاح أو اثارة الثورة ، وكان فى اليمن حامية مؤلفة من فرقتين تكفى قوتها لتهديد عدن . أما فى الحقل السياسى فان الخليفة السلطان اذا أعلن الجهاد ونال تأييد شريف مكة له فيه تمكن من تحويل الحجاز الى مركز لبث الدعاية المهيجة التى تنبعث منه لا لتثير البلاد العربية فحسب بل لتحرك كذلك الأقوام الكثيرة الاسلامية وغير العربية التى تعيش تحت حكم الحلفاء أو على أطراف المناطق التابعة لهم .

كان خطر الدعوة الى الجهاد أكثر هذه الأخطار هولا وكان من المسلم به أنه من ضمن الأعمال الأولى التى ستقوم بها تركيا اذا دخلت الحرب الى جانب الدول الوسطى لكى تثير العالم الاسلامى ضد الحلفاء ، وفى هذه الحال يعلن السلطان بصفته خليفة المسلمين وأمامهم الأعلى ان تركيا وهى أكبر دولة اسلامية وفيها مقر الخلافة تحارب دولا مسيحية تريد خرابها وان الأماكن المقدسة باتت فى خطر وان واجب جميع المؤمنين الصادقين فى ايمانهم يدعوهم الى الالتفات حول راية الدين . ولم يكن من السهل على المرء أن يقدر سلفا مبلغ الأثر الذى ستحدثه هذه الدعوة فلم يسبق فى العهود الحديثة أن أعلن الجهاد على هذا المقياس

الواسع الذى يشمل العالم كله وكان لا بد لدعوة كهذه تصدر عن تركية من أن يصيبها شىء من الضعف بسبب تحالف تلك الدولة نفسها مع دول مسيحية . ومن جهة ثانية فإن الشعور بتضامن الأمم الاسلامية الذى بذل عبد الحميد قصارى جهده لتنميته كان عاملا . أن تعدر ادراك حقيقته ادراكا صحيحا ، فلم يكن من الجائز انكاره .

وهناك رواية أخرى عن المحادثات بين الشريف حسين بن علي جاءت فى أوراق نشرها الأستاذ / عمر أبو النصر وطبعت فى بيروت قبل قيام الحرب العالمية الثانية عن الحرب العالمية الأولى وقد جاء فى تلك الرواية :

وأول سياسى بريطانى سعى لايجاد علاقات طيبة بين الشريف وآله وبين الانكليز ، هو اللورد كتشنر ، وقد كان قبيل الحرب معتمد بريطانيا فى مصر . وكان من عادة الأمير عبد الله ممثل مكة فى مجلس المبعوثان التركى أن يعرج على القاهرة فى ذهابه الى الاستانة ورجوعه منها ، فيقضى فيها بضعة أيام وينزل ضيفا على الخديوى عباس حلمى فى قصر عابدين . فاعتنم اللورد كتشنر سنة ١٩١٣ فرصة وجود الأمير فى مصر فزاره فى القصر المذكور عن غير موعد سابق ، مصطحبا معه المستر ستورس السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية فى ذلك الحين . أما الأمير فتردد فى استقباله تجنباً للقليل والقال ، ولكن الخديوى أقنعه بقبول استقبال اللورد ، وكان ذلك بالاتفاق بينه وبين الأخير .

وتمت المقابلة فقال اللورد للأمير بعد السلام والتعارف : أنه اغتنم فرصة مروره بالقاهرة فجاء ليلغى شكر حكومته على ما يلقاه الحجاج الهندود رعاياها من الرعاية الحسنة من أبيه حين قيامهم بتأدية فريضة الحج ، وقال أنه وحكومته مغتبطون لهذا التبدل فى معاملة الحجاج .

فأعرب له الأمير عن شكره لزيارته ومجاملته ووعد به بابلاغ والده ما سمعه منه ، وتوجه على الأثر الى دار الوكالة العثمانية فاجتمع بالمفوض السامى العثمانى وروى له ما كان من أمر زيارة اللورد كتشنر ورجا منه ان يبلغ الباب العالى ذلك منعا لأى تأويل . وقصد فى اليوم التالى الى قصر الدوبارة برفقة رئيس تشريفات الخديوى ووضع بطاقة زيارته فى

مكتب المعتمد البريطاني ردًا لزيارته ، وقد فعل ذلك في وقت يكون اللورد
كتشنر غائبا فيه عن مكتبه .

وعرج الأمير عبد الله مرة أخرى على القاهرة في أوائل تموز
سنة ١٩١٤ ، يوم كانت المشادة على أشدها بين الشريف وهيب باشا
الوالى والقائد العسكرى الجديد للحجاز ، وقد عين مكان الوالى كامل بك
والفريق خير باشا ، أى أنه جمع السلطتين فى يده لينفذ تلك الخطة التى
دبرها الاتحاديون للقضاء على الحسين وبنيه كما ذكرنا فى فصل سابق .
وقد اصطحب معه سبع أورطات وأرطة مدفعية لتنفيذ السياسة التركية
الجديدة فى الحجاز وهى مقاومة الشريف وقتل نفوذه ، وتطبيق قانون
الولايات الجديد فى الحجاز بإبطال العرف القديم القاضى بإعفاء الحجازيين
من الضرائب والخدمة العسكرية وتشبيد سكة حديدية بين مكة والمدينة .

وبدأ وهيب باشا عمله بأن كتب الى الحسين طالبا منه ان يسلم
السلطة العسكرية مئة بندقية كان يسلم بها حرسه ، فلم يجبه على
كتابه ، وألح الوالى الجديد فى طلبه وأصر الشريف على عدم الجواب ،
وكانت النتيجة أن اصطدام الجند التركى بحرس الشريف وتبادل
الفريقان إطلاق الرصاص ، وأسفر الاصطدام على سقوط عدد من القتلى ،
فخيل للناس آنذاك أن الفتنة قد ذر قرنها خصوصا بعد اعلان الاضراب
العام فى مكة وجدة احتجاجا على مسلك وهيب باشا وخطته .

وأدرك الاتحاديون فى الاستانة أن وهيبا تعجل فى تصرفاته وأن
الثورة تكاد تندلع فأشاروا عليه بالثريث وأعلنوا أن الحكومة دلت عن
تنفيذ ما عهدت به الى الوالى الجديد ، فعادت الأمور الى الاستقرار ،
وهدأت النفوس ، ولكنها ظلت منطوية على الحقد والضغينة .

وتفاقمت الأزمة يوم كان الأمير عبد الله فى القاهرة ينتظر مجيئه
باخرة البريد ليسافر عليها الى الاستانة واجتمع يومذاك باللورد كتشنر
والمستر ستورس ، فسلمه هذا كتابا وقال له : ان المستر فيتر موريس
رئيس تراجمة السفارة البريطانية فى الاستانة سيأتى الى أزمير ليقابله
فى الباخرة ويستلم منه الكتاب ، وأنه سيضع تحت تصرفه باخرة خاصة

ليبحر عليها من الآستانة متى أراد . فأخذ الأمير الكتاب وسلمه للمستتر
فيتتر ولم يضطر لطلب الباخرة .

وجرى في هذه المقابلة حديث بين الأمير واللورد حول السياسة
التي ستتبعها بريطانيا حيال العرب فصرح هذا الأخير : بأن انكلترا تريد
الحرص على ابقاء صلاتها ودية بالترك وانها تساعد العرب ضمن هذه
الدائرة مراعاة لتقاليدھا القديمة .

ولم يمض وقت طويل على وصول الأمير الى الآستانة حتى أعلنت
الحرب العظمى وانحل مجلس المبعوثان وأهمل كل مشروع يتعلق بالبلاد
العربية سواء من جهة الاصلاح أو من انشاء امارة في مكة . وبرح الأمير
عبد الله الآستانة في ١٨ آب سنة ١٩١٤ وبرفقته أخوه الأمير فيصل -
وكان نائباً عن جده في المجلس المتقدم ذكره - فوصلا الى القاهرة في
الثاني والعشرين من الشهر المذكور ونزلا ضيفين في قصر عابدين . وزار
المستتر ستورس الأمير عبد الله في هذا القصر وأعطاه كتاباً من الحكومة
البريطانية الى والده لتشكره فيه على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة
وسهره على راحة الحجاج « وتقول فيه أيضاً « انها لا تعارض في ارجاع
الخلافة الى العرب » . ولم يقابل الأمير اللورد كتشنر اذ كان في ذلك
الحين قد ذهب الى انكلترا ليتقلد وزارة الحربية .

وبدأت المراسلات بين الشريف والانكليز في شهر أيلول
سنة ١٩١٤ . ففي أواخر هذا الشهر قدم الى مكة تاجر مصري من حي
« الجمالية » يدعى علي أصغر وسلم الأمير عبد الله كتاباً من المستتر ستورس
هذا مضمونه :

« أمرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية ان أكتب الى
سيادتكم وأسألكم فيما اذا كان سيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الاول
الخاص بالدفاع عن حقوق العرب ، وقد سبق له أن أجابكم بعدم امكانه
مساعدتكم في تحقيقها . أما الآن ففي استطاعة حكومة جلالة الملك ان
تقدم لكم المساعدات اللازمة لأن الحكومة التركية قد عازمت على الدخول
في صف الأعداء وخرق الصداقة القديمة بين البلدين » .

فأخفى الأمير هذا الكتاب على أبيه ليقيه من صلابة عوده واخلصه
للدولة ورفضه الاتصال بالأجانب ، وصرف رسوله دون ما جواب .

وبعد أسبوعين عاد الرسول ومعه كتاب آخر للأمير من ستورس ،
هذا فحواه :

« بما أن الأتراك عزموا عزمًا أكيدًا على دخول الحرب إلى جانب
الألمان ، وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب فاني آسف
لترككم كتابي بلا جواب وأرجو الاسراع في ارسال الرد على سؤال » .

فلم ير الأمير عندئذ مناصا من اطلاق والده على الكتابين وسؤاله
بما يجيب عليهما . فضحك الحسين وقال : « أكتب له في الصيف
ضيعت اللبن . . . » .

ففعل الأمير ذلك وسلم تلك الجملة إلى الرسول فحملها إلى القاهرة .
ولم يقنط ستورس من مفاوضة الحسين بل أعاد الرسول نفسه إلى
الحجاز في شهر تشرين الثاني - أي بعد دخول تركيا الحرب - وزوده
برسالة ثالثة إلى الأمير عبد الله هذا ما جاء فيها :

« بما ان الأتراك دخلوا الحرب إلى جانب الأعداء فنحن على أتم
الاستعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته وتقديم كل ما يريده من معونة » .
ولما اطلع الأمير والده على هذه الرسالة قال له :

« لا يمكنني أن أعمل شيئا قبل أن استشير العرب وأسألهم رأيهم » .

فأرسل الأمير إلى المستر ستورس جوابا بهذا المعنى واعدًا بتقديم
مقترحات معينة في المستقبل . وراح الحسين في هذه الآونة يدرس الموقف
وينعم النظر في ما يجب عمله فرأى أن يوفد نجله فيصلًا إلى دمشق
فالاستانة لينصرف على الحالة فيهما ويتصل برجال العرب والأتراك ، وقد
فعل ذلك على ما أشرنا إليه في فصل سابق ، ثم قفل عائدا إلى مكة فأطلع
والده وأخوته على كل ما عرفه وجرى له . وعلى الأثر توجه الشريف
وأبنائه إلى الطائف وعقدوا مؤتمرهم في تشرين الأول سنة ١٩١٥ فقرروا
فيه اعلان الثورة بالاتفاق مع الانكليز على أساس تحرير العرب
واستقلالهم ، وقرروا فوق ذلك ان يرجع فيصل إلى دمشق ليتصل برجال
العرب فيها الذين كان من رأيهم اعلان الثورة في الشام ، ويتفق معهم
على الخطط الواجب اتخاذها لجعل الثورة عامة في الحجاز والشام معا ،
وأن يتوجه على إلى المدينة ويقيم فيها بحجة قيادة المتطوعين فيتنفق مع

شيوخ القبائل وينظم أمرهم تأهباً للثورة ، وان يتولى الأمير عبد الله تنظيم القبائل في مكة وجوارها ويهيئ معدات العمل ويشترك مع أبيه في المراسلات التي ستدور بينه وبين الإنكليز . ولما عادوا من الطائف انصرف كل منهم الى القيام بعمله الخاص . محرضين المسلمين على تلبية نداء سيدهم ، ولا ريب بأن الحجاز نظراً لموقعها الجغرافي واحتوائها للحرمين الشريفين ، كان من الممكن أن تكون لها القائدة لهذه الدعاوى أو الحائلة دونها . وفاقاً لخلاص الشريف الحسين وتصرفاته . ومن المؤكد أن دعوة الى الجهاد توافق عليها مكة يكون لها في العالم الاسلامي وقع أشد من وقع دعوة صادرة عن السلطة الدينية التركية وحدها .

وقد كان الحسين يتمتع بنفوذ أعظم من نفوذ الزعماء الآخرين الذين ذكرناهم ، لا لأنه الوارث لحراسة الأماكن المقدسة وشاطئ الحج ، وسبيل الأسرة الهاشمية العظيمة فحسب ، بل لأن بلاده .

وفيما كانت المراسلات السرية قائمة بين شريف مكة ودار الحماية البريطانية في مصر ، كان المستر ستورس يفاوض زعماء حزب اللامركزية في القاهرة ، وقد باحثهم وسألهم عما سيفعلونه فيما اذا دخلت تركيا الحرب ، وعما سيكون موقفهم فيما اذا عمل الحلفاء على استقلال العرب ، كما سألهم هل يستطيع العرب مساعدة الحلفاء لتحقيق هذا الأمر وهل يمكنهم القيام بأعباء استقلالهم ؟

فردوا عليه بأن العرب يتوقون الى الاستقلال وإعادة أمجادهم الغابرة ، هذا اذا انهارت دولة الأتراك ، وأعيبوا عن استعدادهم لعضد كل حركة ترمى الى تحرير العرب مهما كان شأنهم .

وبعد مفاوضات كثيرة اتفق الفريقان على ان يكتب أقطاب الحرب المذكورة شروطهم الخاصة باستقلال العرب ويرسلوها الى اللورد كاتشجر ليعرضها على حكومته ، فاذا وافقت عليها اذاعتها رسمياً بواسطة شركة « روتر » البرقية ليطلع عليها العالم ، بشرط أن تتعهد بريطانيا العظمى بحمل حلفائها على قبول هذه الشروط حتى لا يكون في المستقبل مجال للطمع في الأقطار العربية . وفي مقابل ذلك تتعهد الهيئات العربية السياسية ببذل الجهود لاشعال الثورات في البلدان العربية لشل حركة الجيش العثماني .

وفي الواقع كتبت تلك الشروط وأرسلت الى حكومة لندن .

وكان لابد لحزب اللامركزية من أن يوفد بعض مندوبيه الموثوق بهم إلى الأقطار العربية ليدرسوا أحوالها ويتصلوا بزعمائها وفكريها فيطلعوهم على الاتفاق المذكور ، وتكفلت دار الحماية بدفع النفقات .

وفي الواقع سافر محب الدين الخطيب إلى البصرة ، والشيخ محمد القلقيلي إلى سوريا وفلسطين ، وذلك بالطبع قبل دخول تركيا الحرب . بيد أن القلقيلي لم يمكث طويلا في دمشق وبيروت وعاد بلا إبطاء إلى القاهرة لخوفه من سوء العاقبة ، وأما محب الدين الخطيب فكان نصيبه أن أعقله الإنكليز في البصرة وزجوا به في السجن مدة عشرة أشهر . وعاد بعد أسابيع ببيان الحزب اللامركزي من لندن مشوها مبتورا فلم يقبل بذلك اللامركزيون وقطعوا المحادثات مع الإنكليز وكفوا عن العمل .

ويبقى في هذا المجال - مجال الحديث عن المفاوضات والمباحثات التي قامت بين الإنجليز والشريف حسين بن علي - الرواية التي رواها الأمير عبد الله نجل الشريف حسين بن علي في مذكراته . ونستأذن في الإطالة في هذه الرواية ، لأن مذكرات الأمير عبد الله - الملك عبد الله فيما بعد - قد تميزت بالدقة والشمولية وإزاحة الستار عن كثير من الأسرار التي كانت خافية علينا :

ويقول الأمير عبد الله - أنه بينما كان خديو مصر - عباس حلمي الثاني يؤدي فريضة الحج ، كان هو - عبد الله - مصابا بمرض التيفونيد فلما شفى منه سافر إلى مصر في طريقه إلى الآستانة ، ولما وصلت الباخرة السويس ، وجدت في انتظارى على رصيف الميناء محافظ السويس والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، وعلى بك شاهين تشريفاتي الخديوي ، وقد أوفدهم الخديوي المرحوم للتحية والدعوة للنزول ضيفا عليه بقصر رأس التين بالاسكندرية ، فشكرتهم ورجوتهم أن يبلغوا سموه امتناني وقبول الدعوة الكريمة مع الشكر العميق ، ثم أبرقت لسموه بهذا المعنى .

ولقد كان الوالد المرحوم جعلني في رفقة سموه مدة الحج ، فعرفني حق المعرفة ومال إلى بكليته ، فسافرنا من السويس في قطار خاص إلى الاسكندرية ، وكان الغداء والعشاء في القطار . أما هؤلاء الذوات فبعد أن أدوا واجبهم تخلفوا في القاهرة ، ماعدا علي بك شاهين والشيخ حازم ابن مليح مقيم الحج المصري ، فانتهما سافرا معي إلى رأس التين . وتفضل

سموه فقابلني في اليوم الثاني ، بذلك القصر الفخم الذي كان يزداد بهاء
بطلعة سموه المشرفة ، اسكنه الله فسيح الجنة وأبدله دارا خيرا من داره ،
فانه الغريب الشهيد .

ولما رآني قال مبهورا : « مالك ؟ دانت خسيت . . . جرى ايه ؟ » .

فأجبته : ما من شيء يا أفندينا ؟ وانما حمى أصابتنى بعد سفر
سموك من المدينة ، واستعرت بي أكثر من خمسة وعشرين يوما ثم زالت .

فقال : متى تسافر ؟ فقلت : ان أذن سموك فالتسفر غدا انشاء الله .

فأجاب : « ما يصحش قبل أن يفحصك الدكتور كاوسكي بك فنرى
المرض ده هو أية » . وبعد المعاينة بأخذ الدم من أصبعي ، قال الطبيب
كاوسكي ان مرضي كانت الحمى التيفودية ، ورتب علاجها استعمله .

ويقول عبد الله في مكان آخر من مذكراته : انه بينما كان في لقاء
مع الخديو عباس حلمي الثاني ، دخل رئيس التشريفات وأخبر الخديو بأن
اللورد كتشنر قد حضر ، فقممت مستأذنا فقال الخديو أنه قد علم أنك هنا
وليس من اللياقة أن تخرج فاضبر لأعرفك به ، فدخل اللورد بقامته
الطويلة سلم على الخديو . فقال له الخديو : هذا الأمير عبد الله بن أمير
مكة الحسين بن علي ثم قال لي : هذا اللورد كتشنر قنصل عام بريطانيا
بمصر ، فتصافحنا . ثم قال له : هذا يد والده الفعالة ، وقد أصيب
بجراح في إحدى غزواته . فأشار اللورد كتشنر الى عنقه وقال : وهذه
أصابة أصابتنى في حرب السودان . فقلت مازحا : انك يا فخامة الرئيس
لهدف لا يخطأ . ولكنني أقصر منك قامة فكيف أصابني ذلك البدوي ؟

وكنت نازلا في قصر عابدين ، وبعد وصولي اليه جاءني التشريفاتي
على بك شاهين وقال : اللورد كتشنر هنا وقد جاء لزيارتك . وكانت
مباغثة خفت عاقبتها على سياسة والدي من الأتراك .

ويقول عبد الله ان كتشنر دخل ومعه رونالد ستورس السكرتير
الشرقي في دار المعتمدية البريطانية في مصر وقد أبلغ كتشنر الأمير
عبد الله رضا الحكومة البريطانية عن الحالة الراهنة في الحجاز حيث الأمن
وراحة الحجاج كما أبلغه ان يبلغ والده بأن حكومة بريطانيا لا ترضى بأي
تغيير في الحجاز .

واقترح الخديو عباس حلمي على الأمير عبد الله أن يرد الزيارة للورد كتشنر ، وقد استأذن عبد الله من المندوب السامي التركي في ذلك فوافق على الزيارة ، وقد قرر عبد الله أن يزور دار المعتمدية في وقت لا يوجد بها كتشنر حتى يكتفى بترك بطانة له . ولكنه - كتشنر - كان موجودا بالدار وقت الزيارة . وقد حاول كتشنر في تلك المقابلة أن يتحدث عن التغييرات المرتقبة في السياسة ولكن عبد الله كان محتاطا في الأمر فانتقل بالحديث عن الكويت وتدخل حكام الهند في أمورها .

ويقول الأمير عبد الله : ان على أفندي البزار وهو مصري الأصل قد جاء الى الطائف وأراد مقابلته واذا به يحمل كتابا من ستورس يقول فيه : ان الدولة العثمانية قد ضربت عرض الحائط بصداقتها التقليدية من بريطانيا العظمى وانضمت الى صفوف الألمان . فان بريطانيا العظمى ترى نفسها في حل من تلك التقاليد التي كانت تربطها بتركيا . وتسأل ستورز : هل أنتم وسمو والدكم مازلتهم على رأيكم الأول في القيام بما يجر الى استقلال العرب استقلالا تاما ؟ فان كنتم وسمو على ذلك الرأي الى الآن فان بريطانيا على استعداد لامداد الحركة العربية بما هي في حاجة اليه .

ويعرض عبد الله الرسالة على والده فيطلب منه ان يكتب لهم بوصول الرسالة وبأنه على غير استعداد في الوقت الحاضر للمطالبة بحق العرب .

ويعود البزار بعد شهر يحمل رسالة من ستورز وبها رسالة من مكماهون الى الشريف حسين بن علي . ويرد الحسين بن علي : لقد ضيعت الصيف اللين . .

ثم تتابعت رسائل مكماهون الى الشريف الحسين بن علي ورسائل الشريف الحسين بن علي الى مكماهون وتتوالى الأحداث بسرعة في الحجاز وفي كافة أرجاء الخلافة العثمانية .

وعن الاتصالات بعزير مصر . يقول محمد صبيح : ان الانجليز كانوا - مع بدايات الحرب العالمية الأولى - يبحثون عن طاقات يستفيدون بها بالاضافة الى الشريف حسين وأسرته وكان لديهم في مصر رجل لا يكفون عن التفكير في شأنه في تدقيق شديد وعناية بالغة ، وهذا الرجل هو عزيز على المصري فهم يعلمون عن معين قدراته ونفوذه عن كل

الشخصيات العربية التي عاشت في المحيط العثماني . وقد تفرقوا الآن بين الأقطار العربية ، وإن كان بعضهم قد استشهد في مشانق جمال السفاح ، وأهم زملاء ، بل أعز زملاء ، سليم الحجازي ، وأمين لطفى ، وكانا مثل عزيز من كبار ضباط الجيش العثماني ، وقد ظل - محمد صبيح - كلما جاء ذكر هذين الشهيدين غاية وجهة في سحابة من الحزن النبيل ، وكان عزيز قد أدار ظهره نهائيا للدولة الاتحادية في تركيا . وقد كانت مآسى السفاح جمال في سورية عاملا هاما نزع من نفس عزيز المصري كل عطف على أتراك الاتحاد والترقي . ولكن هل هذه المآسى ، ومنها مأساة عزيز نفسه مع أنور باشا . . هل كانت كافية لتحول عزيزا الى عدو للأتراك وقد أقام معهم سبعة عشر عاما هي زهرة أيام الشباب ؟

الحقيقة ان عزيزا - كان وظل طول حياته - يقدر للأتراك كشعب مناضل فضائله . . . وكان يذكرنا دائما بأن أربعة قرون كاملة وقف الأتراك فيها على خط القتال ضد أوروبا وروسيا ، وسفكوا فيها دماء الملايين من أبنائهم . . . هزموا وانتصروا ، ولكنهم صدوا عن أنفسهم وعن المنطقة العربية تجدد الغزو الصليبي ، وكان طريقه عبر البسفور . ولولا حروب الأتراك ، ونقلهم المعارك الى قرب أوروبا ، حتى لقد طرخوا أبواب فيينا ، لكننا في الشرق الأوسط نتكلم الآن لغة غير عربية . . ربما كانت روسية ، ربما كانت المانية . . من يدري ؟ !

ونحن لا ننكر أن بعضنا كان يتكلم التركية ، ومنا عزيز المصري . ومنا مثات ، بل آلاف القادة العرب الذين تصدوا للكفاح من أجل الاستقلال . ولكنها كانت لغة الخلافة . . لغة اسلامية ، أو قل لغة شرفية نقبلها . . ونرفضها حسب الظروف ، وحسب تقلب الأيام . ولكنها لم تعتمد على لغتنا الأصلية اللغة العربية . بل لعل اللغة العربية غزت جوانب من حياة الأتراك أنفسهم ، لأنها لغة العثمانيين .

وفي حوارنا المستمر مع عزيز المصري ، وافق على نقطة واحدة ، وكان نادرا ما يقتنع بالرأى الآخر ! . . . وافق على أن خطيئة العثمانيين الكبرى ، هي أنهم لم يتعلموا اللغة العربية ولم يفرضوها على منطقة البلقان التي دانت لهم أمدا طويلا . . ولو أنهم فعلوا - وقد أسلمت منهم ملايين كثيرة - لو أنهم فعلوا ، لصان القرآن لسانهم ، ولما وقعوا في حيرة حائرة بعد أن ارتد الأتراك عن بلدانهم .

لقد ترك العثمانيون بلغراد عاصمة يوجوسلافيا ، وفيها ٣٠٠ مسجد ، يتلى فيها القرآن ، وتقام فيها الصلاة ، ولكنة تركية ، ومع مضي الأيام ، وتغير الحكام ، أخذت هذه المساجد تتهدم ، فلا تجد من يعنى باقائتها ، وأخذت الآيات من القرآن التى تؤدى بها الصلاة تبهت من السنة وأفتدة المسلمين هناك ، حتى لم يبق الا مسجد واحد ، تحول الى متحف ، ثم أعيد مسجدا ٠٠ مجاملة لمصر ٠ وكل ذلك لأن اللغة العربية — لغة القرآن الكريم ، ولغة هذا القرآن ، لم تتقرر كلغة ثانية ، فى تركيا أولا ، ثم فى البلقان ثانية ٠

وهنا قال عزيز :

— ولماذا لم ينفذ عمر بن الخطاب ما تقول وهو أبو الفتوحات العربية الكبرى ؟ — فأجبتة :
— ليته فعل ٠

نعود بعد هذا الاستطراد لنقول ان عزيز المصرى كره الحكم والحاكمين فى تركيا ، وقرر أن يبذل جهده — كل جهده — للعمل على استقلال المنطقة العربية ، فى الحدود التى وردت فى ميثاق جمعيته — العهد — مع اضافة مصر اليها ، بعد الفراغ من الاحتلال التركى ٠

وما كان يمكن لعزيز أن يهمل وطنه الأم ، وقد عاد الى أحضانه ، ووجد الاحتلال البريطانى ينشب أظافره فيه ، بكل ما فيه من دهاء واقتراس ٠ ولكن مشكلة مصر تحتاج الى وقت ٠ أما مشكلة المنطقة العربية الآسيوية فقد فتح موضوعها على مصراعيه ٠٠

عرضت العناصر العربية الوطنية على عزيز ان يسافر الى الحجاز ، ليتولى قيادة الجيش العربى ٠٠ فقد أعلن الشريف حسين الثورة ، بأن أطلق من مسدسه طلقة فى اتجاه المعسكر التركى ٠ وتمكن ابنه فيصل من الهرب من دمشق بتدبير محكم ٠٠ وكم تأسف « سفاحنا » جمال باشا لافلات الطائر من قفصه ، ولعدم القبض على أخيه على ، وكان فى المدينة المنورة ، والحامية التركية فيها قوية ، ولعدم ارسال قوة الى مكة لتقبض على الشريف نفسه ٠

قال جمال فى مذكراته : وانى وأيم والله لو علمت وقتئذ (ترقب الشريف الفرصة الملائمة للقيام بالثورة) لكنى أمرت غير متراخ بالقبض

على فيضل في دمشق ، وعلى أخيه في المدينة ، ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده على تلك الثورة المشيومة في مهدها . ولكن ماذا عساي كنت أفعل في تلك الظروف ، ولم تكن لدى بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك .

وتشير الدراسة التي كتبها الأستاذ مجيد خدرى الى تأمر الأمور باشيا ومن معه ضد عزيز على المصرى والحكم عليه بالاعدام بتهمة ملفقة ، مزيفة ، وأثر ذلك الحكم في رأى العام العربى . « لقد عمت - مجيد خدرى - المظاهرات البلاد مطالبة الحكومة التركية بالافراج عن عزيز المصرى ، وكان الزعماء العرب أقوى العناصر المدافعة عن عزيز وتحت ضغط الرأى العام العربى وأطلق الأتراك سراح عزيز . فشده عزيز رحاله الى القاهرة حيث عاش أدق فترات التاريخ . فسنة ١٩١٤ وهى السنة التي نشبت فيها الحرب العالمية الأولى ، وقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا وروسيا . وكانت بريطانيا فى حاجة الى تجميع أكبر قدر ممكن من الزعماء العرب فى صفها لتواجه بهم الدعوة الى الجهاد التي نادى بها السلطان العثمانى .

فاتصل الانجليز بالزعماء العرب وعلى رأسهم دعاة القومية العربية فى الشام ، وبالشريف حسين فى الحجاز ، وبطالب النقيب فى العراق وبعزيز المصرى ورشيد رضا فى مصر ، وبعبد العزيز بن سعود وحثهم الانجليز على الثورة على الأتراك ، وكانت أهم الاتصالات تلك التي جرت بين مكماهون والشريف حسين . وانتهت مفاوضات الحسين / مكماهون بموافقة الأول على اعلان الثورة دون الحصول على تأكيدات واضحة من الانجليز بحصول البلاد العربية على الاستقلال بعد الحرب .

وعندما اتصل الانجليز بعزيز على المصرى وجدوا أمامهم رجلا على مستوى الموقف مدركا لمقدراتهم على التغيرير بالزعماء ، ولهذا أبدى عزيز استعداداه للتعاون مع الانجليز اذا ما أصدروا تصريحاً واضحاً يعترقون فيه باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بعد الحرب . كذلك طالب عزيز الانجليز بعدم انزال أية قوات انجليزية فى العراق أو سورية وقال لهم أنه كفيل بأن يحرر العراق من الأتراك لو أمده الانجليز بالسلاح . ولكن الانجليز لم يضمروا للعرب الا الاستعمار فرفضوا هذه المطالب .

والجدير بالذكر أن مثل هذا الموقف حدث بين رشيد رضا والانجليز وكذلك بين الانجليز والزعيم العربى العراقى طالب النقيب . ذلك لأن هؤلاء الزعماء (عزيز على وطالب النقيب ورشيد رضا) كانوا أدركوا من الشريف حسين بنيات الانجليز نحو البلاد العربية . ومن وجهة نظر الانجليز كان الشريف حسين هو الرجل الملائم للثورة العربية ، لأنه يعيش بعقلية متخلفة لا تستطيع ان تقف موقفا قويا فى وجه الدبلوماسية الانجليزية .

ويقول الأستاذ أنيس صايغ عند كلامه عن اتصال الانكليز بالقيادات العربية - فى مطلع الحرب العالمية الأولى - للثورة ضد الحكام الأتراك حصر المسئولون الانجليز اتصالاتهم بزعماء الحركة الوطنية ، وكان معظمهم إما من ضباط الجيش أو من المثقفين الشبان أو من الأثرياء الوجهاء أصحاب النفوذ الواسع . وكان ذلك عكس ما حصل فى عام ١٨٤٠ لما أثار الانجليز السوريين ضد الحكم المصرى . اتصلوا آنذاك بالأوساط الشعبية نفسها وتوددوا اليها واستعملوا كل وسيلة واغراء لاثارتها . لم يخافوا من رد فعل شعبى ضدهم لأنهم لم يكونوا يفكرون باحتلال سورية . أما فى عام ١٩١٦ فقد اختلفت الأوضاع . كانت نيتهم احتلال البلاد العربية احتلالا مباشرا من بعد طرد العثمانيين . لذلك انحصر الاتصال بجماعة محدودة من العسكريين والسياسيين ممن سهل على الانجليز - فيما بعد - استمالة معظمهم الى جانب الاحتلال أو الانتداب . مكن ذلك الاجراء الانجليز من تنفيذ مخططهم الذى لم يخشوا عليه الا من وعى الشعب القومى .

ثم يقول : انحصر الاتصال ، مقابل عزل الشعب هذا ، بنفر من قادة الحركة الوطنية من الهاربين الى مصر ، وكانت الحكومة البريطانية تطلع على نشاطهم وتعرف أخبارهم ، وكانت العلاقات بينها وبين الأحزاب العربية « ودية » .

لم يكن موقف الوطنيين العرب مشجعاً فى بادئ الأمر . أبدى معظمهم تمعنا وتصلبا أمام الاغراءات البريطانية . وقد حرضهم عزيز المصرى على ذلك وثرعهم ، وهو المناضل الذى لم تنطل عليه الحيل الأجنبية فقد خشى أن يؤدى التسرع فى موالات الخلفاء والثورة على الأتراك الى ايجاد فراغ يسده الانجليز قبل أن تسده الحركة العربية ذاتها . وخشى أن ينزل العرب بواسطة القائمين على شئونهم السياسية الى أخضانت

الامبراطورية دون ان يدركوا ماذا يفعلون ، بسبب عدائهم الشديد
للأتراك ، وخشى ان تكون الثورة ابدال مستعمر بآخر .

أوعز المصري الى أعوانه في حزب العهد في سورية والعراق ومصر
بأن يتصلبوا أمام المفاوضين الانجليز وألا يتعهدوا لهم بشيء ما لم يحصلوا
على وعد أكيد بأن يستقل العرب في آسيا ويتحدوا استقلالاً ووحدة
كاملين . وأصدر تعليماته بهذا الخصوص أثر وصوله الى القاهرة بعد
أن أفرج الأتراك عنه وأعيد الى القاهرة تحت نعمة الرأي العربى العام
على اعتقاله وتدخل الانجليز ، وقد ظن الانجليز أن التدخل لصالحه قد
يفيد في استمالته . وظهر لهم بعد أشهر ان الرجل لا يساوم على أهداف
الحركة التى كان من مؤسسيها .

بدأ الانجليز يجسسون نبض المصرى ورفاقه فى أواخر ١٩١٤ بواسطة
الخبيرين البريطانيين بالشئون العربية ستورز وكليتن : وأصر المفاوضون
العرب على ان تتعهد الحكومة البريطانية رسمياً بأن لا مطمع لها فى أى قطر
عربى وانها لا تمنع فى استقلال العرب واتحادهم ان وقف العرب الى
جانبيها فى الحرب كما طالبوا بالألا يشترك فى العمليات الحربية جنود
فرنسيون فى الجبهة السورية ولا جنود بريطانيون فى الجبهة العراقية .

وقد أراد المصرى من هذا التحفظ ان يقطع الطريق على ما توقع
حصوله من مؤامرات . وعوضاً عن الجنود الانجليز والفرنسيين تعهد المصرى
بأن يؤلب أحرار سوريا والعراق ويجندهم للقضية بالاتفاق مع الزعماء
الوطنيين فى البلدين . زعم المفاوضان الانجليزيان أنهما يوافقان على
هذه المطالب وأخذ المصرى يستعد للسفر الى العراق ليحضر للثورة من
هناك الى أن أذيع خبر نزول القوات البريطانية فى البصرة . ومع ان رجال
السياسة البريطانية فى مصر ادعوا أنهم كانوا يجهلون الأمر قرر المصرى
وبعض أصحابه مقاطعة المفاوضات مع الانجليز ، وأخذوا يترقبون الأحداث
من بعيد ، خاصة ان اعلان « الحماية » على مصر زاد فى فضيح النيات
البريطانية .

غير ان أغلبية الوطنيين السوريين فى مصر رأوا تحذيرات المصرى
مبالغاً فى التشاؤم ، واعتبرت موقفه موقفاً سلبياً أكثر من اللزوم :

وخرج أفرادها عن نصيحته وتابعوا اتصالاتهم مع المسئولين الانجليز متأملين التوصل الى حل وسط يرضى الانجليز ولا يتنكر للأهداف العربية . وكان هؤلاء ممن استضافهم الانجليز عند لجوئهم الى مصر هاربين من جور الأتراك وكان عداؤهم للحكم التركي يحجب عن أنظارهم مخاطر التسرع بالاتفاق مع أعداء الأتراك .

وحينما أخذ عزيز المصري يعد رسائله الى رجال حزبي العهد والفتاة في سورية ، يشير فيها عليهم بالتمهل قبل اتخاذ أى موقف حاسم ، كان رجال الحركة الوطنية في سورية ، من مختلف الأحزاب قد بدأوا بالاتصال بالشريف حسين وأرسلوا أحد وجهائهم ، فوزى البكرى ، ليعرض على أمير مكة فكرة الثورة على الأتراك بعد أن كانوا قد فشلوا في مباحثاتهم مع أمراء آخرين في شبه الجزيرة . وكانت تلك المباحثات قد بدأت اثر صدور الحكم باعدام عزيز المصري . فخشى الأحرار ان يستمر الأتراك في تعقيب المناضلين العرب . وقرروا أن يشوروا قبل ان يفوت الأوان . فاتصلوا بابن سعود وسليمان مسقط وعلى حيدر . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل .

وقبل أن تصل توجيهات عزيز المصري الى زعماء سورية كان موقفهم الى الحسين قد وصل الحجاز في يناير ١٩١٥ وبدأ مباحثاته ، غير ان الحسين لم يلب الدعوة ولم يشجع الفكرة . ورفض أن يجيب الطلبات وكانت رسائل ستورز وكتشنر قد بدأت ترد عليه - كما مر بنا - ووجد ان القضية جدية وان كلا الطرفين يدعوه لاتخاذ موقف حاسم فقرر - ازاء ارتبائه - ان يرسل ثالث أنجاله الى دمشق والأستانة ليدرس الموضوع فيهما من ناحيتيه المتناقضتين وليطلع على وجهتي النظر العربية والتركية .

ثم يلخص الأستاذ أنيس الصايغ الاتصالات البريطانية بقوله : ان الانجليز فعلوا جهدهم للحصول على تأييد الحسين دون أن يتنازلوا عن مصالحهم في المنطقة ، بل انهم فعلوا ذلك لحماية مصالحهم . وأخذوا الى جانب اتصالاتهم مع الحسين ، يضغطون على أحرار العرب في مصر ، وجلهم من السوريين ، ليتفاهموا معه ومعهم ولتفقوا على الثورة . وواجه كل من ستورز وكلايتون وكوكولس صعوبة في اقناع عدد من هؤلاء المناضلين ممن لم يبرأوا من شكوكهم بالحسين والانجليز من أصدقاء عزيز المصري أو زملائه في حزب العهد (وبينهم أسعد داغر وعبد الرحمن شهبندر ومحمد شريف الفاروقى) . وقد دعا هؤلاء الى مساعدة العراقيين والسوريين ليثوروا على الأتراك دون فرض ثورة معينة عليهم من خارج

البلدين قيادتها الاسمية في أيدي عائلة لم تشترك بالجهاد قبلا ، وقيادتها الفعلية في أيدي الطامعين بالبلدين طمعا مفضوحا .

هنا يظهر نوري السعيد على مسرح الأحداث من باب مجهول ليقوم بدور رئيسي . كان ذلك الضابط العراقي في ذلك الحين عضوا في حزب العهد السوري وواحدا من عشرات الضباط العرب الناقمين على الأتراك وكان عضوا عاملا في معظم المشاريع التي قام بها الضباط لتحقيق المطالب القومية .

وما أن أذيع نبأ اعتقال عزيز على المصري ، مؤسس العهد ورئيسه ، حتى هرب السعيد الى العراق ونزل في حمى طالب النقيب . وأخذ يتصل بأمرأء شبه الجزيرة من البصرة يطلب تأييدهم للنضال العربي ولا بد أن عاملا ما دعا السلطات البريطانية الى الوثوق به والتعاون معه بالرغم من قيام المسئولين في الهند باعتقال وطني البصرة أواخر ١٩١٤ ، فبينما نفى طالب النقيب الى سيلان خوفا من ميوله التحررية ترك نوري السعيد حرا وسمح له بمزاولة نشاطه السياسي ، ثم استضافه الانجليز في الهند عدة أسابيع ضيفا مكرما الى ان حملته إحدى سفنهم الحربية الى مصر حيث أقام أشهرا ، برغلة وبحبوسة ينفق المال على أصحابه المناضلين السوريين والعراقيين بسعة .

ويمضي الأستاذ أنيس صايغ قائلا . . : نقل السعيد الى مصر في ديسمبر ١٩١٥ ، أي في الوقت الذي اقترب الانجليز فيه من التفاهم مع الحسين ، وأصبح عليهم أن يزيلوا معارضة بعض المعارضين العرب له من داخل صفوف هؤلاء في سورية ومصر فأخذ السعيد يتزعم تيارا يعمل لصالح الحسين ويهاجم معارضة عزيز المصري ورفاقه وحبسته ان لابد من القبول بالأمرأء الهاشميين بعد أن عجز المناضلون عن استمالة الأمرأء الآخرين . وانضم الى السعيد في هذه المحاولة زميل له عراقي كان الانجليز قد أسروه في طرابلس الغرب وهو جعفر العسكري .

من الثلث الأول من ١٩١٦ والصراع شديد حول الموضوع : صراع بين مدرستي الهند ومصر من جهة ، وصراع آخر بين جناحي المصري والسعيد في صفوف الحركة العربية . ومع تقارب وجهات النظر بين جناح السعيد والمدرسة المصرية جمع بينهما كانت العلاقات مقطوعة تماما بين

جناح المصرى والمدرسة الهندية . وكانت أسهم الحسين ترتفع وتنخفض مع تطورات ذلك الصراع وتقلباته ، الى ان حمل شهر مايو من تلك السنة ما دعم رأى المدرسة المصرية أمام السلطات البريطانية ودعم رأى الجناح السعيدى فى الحركة العربية . فقد اندحرت فى أواخر ابريل القوات البريطانية فى العراق وتعرضت لخسائر كبيرة ، ثم اعتقل جمال باشا ، حاكم سورية العسكرية وقائد الجيش العثماني الرابع ، العشرات من المناضلين العرب فى سوريا وعلقهم على أعواد المشانق فى بيروت ودمشق فى الأسبوع الأول من مايو - وكان أحرار سوريا قد رضخوا لنصائح عزيز المصرى وتعليماته بالتروى فى علاقاتهم مع الهاشميين والانجليز ، بعد مباحثات جرت بينهم فى ١٩١٥ . غير ان ذلك لم يمنعهم من مواصلة نشاطهم الدعاوى للقضية العربية ، مما أوقعهم فى قبضة الأتراك .

ويرى الأستاذ أنيس صايغ - ومعه الحق فيما يرى - أن رأى العام المصرى كان فى الحرب العالمية الأولى الذى عادى الانجليز واستنكر احتلالهم وادى النيل منذ ١٨٨٢ يتطلع الى الأتراك بعين العطف .

على رأس المصريين القلائل الذين شذوا عن التيار القطرى فى مصر ، وقلبوا مشاعرهم الوطنية فى اتجاه عربى الضابط عزيز المصرى . . فمنذ ١٩٠٨ وهو يعمل مع الحركة الوطنية العربية ، حينما اشترك فى تلك السنة بتأسيس جمعية العربية الفتاة مع نفر من الضباط العرب . ثم أسس الجمعية القحطانية وحزب العهد . وقد تولت هذه المؤسسات الثلاث النضال ضد الأتراك منذ ١٩١٣ نضالا شديدا ، وطالبت باستقلال تام بعد أن لمست خديعة رجال تركيا الفتاة بالعرب . وكانت شوكة فى جانب الحكم التركى أفلقت بال رجال ذلك الحكم مدة طويلة .

عرف عزيز المصرى بالتمسك بعقيدته وعدم التساهل أمام الاغراءات أو الصعوبات وعرف بحذره الشديد من الأتراك ومن الانجليز والفرنسيين على السواء . وذكر جمال باشا - الملقب بالسفاح - فى مذكراته أن المصرى كان يتهم كل عربى يقبل بما هو أقل من الاستقلال بالخيانة . وذكر أيضا ان المصرى قال له مرة بجرأة « ماذا عمل الأتراك لنا نحن العرب غير محاولة ابادتنا واستعبادنا واهانتنا ، حتى تتوقعوا أن نكون أصدقاء لكم ؟ » . فى الوقت الذى تباهى الهاشميون وغيرهم ب صداقتهم مع الأتراك وولائهم لهم ، كان المصرى يجاهر بعدائه ويبت أفكاره القومية بين اخوانه من الضباط لتأسيس دولة عربية موحدة .

أوقعه هذا الجهاد الذى لم يكن صامتا فى جميع الأحيان فى ورطة كبيرة حينما اكتشف الأتراك بعض أسرار حزبه واعتقلوه ، وحكمت المحكمة العسكرية عليه بالاعدام . غير ان رأى العربى العام هب ضد الحكم . وحرصت الحكومة البريطانية أن تستغل المناسبة لكسب ود العرب فتدخلت لمصلحته مما جعل الحكومة التركية تستبدل الاعدام بالنفى . وكان ثلاثمائة ضابط قد هددوا بالعصيان ان أعيد زميلهم ، حسب بعض الروايات وضغطت الأحزاب العربية العلنية على حزب تركية الفتاة . ودعت الجمعية الإصلاحية فى البصرة الى الانفصال عن السلطنة . ومن جهة أخرى أملت السلطات البريطانية ان يتيح لها عطفها على « المصرى » السيطرة على حزبه ثم على الحركة العربية بوجه عام بواسطة .

غير ان عزيزا لم يكن سياسيا رخيصا يباع ويشترى . ولم تكن المناصب تبدل عقيدته . وقد احتفظ بصفاته هذه طيلة حياته . ولم تحل الوظائف الكبرى التى استلمها بين ١٩١٦ و ١٩٥٦ دون أن يمارس واجباته القومية حتى وان تعارضت مع المسئولين فى بلاده . لذلك رفض ان يوالى الانجليز عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى بعد نقله الى مصر بأشهر قليلة . واشترط قبل اتخاذ أى موقف حاسم ، ان يتعهد الانجليز بتحقيق المطالب العربية كلها . وسبق ان استعرضنا هذا الموقف وما جرى له من تعديلات بسبب لجوء الأتراك الى سياسة تعسفية فى سورية لم يصبر الأحرار عليها مما أدى الى تلاقى الحركة العربية مع الدعوة البريطانية للتعاون والى اتفاق الطرفين على عمل موحد فى الحجاز .

بقى المصرى حتى ذلك الحين متمسكا برأيه بسبب مخاوفه من الأطماع البريطانية فى الشرق الأوسط وشكوكه بقدره الهاشميين وإخلاصهم . واستمر يدعو الى حياد العرب فى الحرب مؤقتا الى أن بايع معظم رفاقه الحسين واتصلوا بالانجليز ووضعوا الخطط السياسية والعسكرية المشتركة . وتعرض لضغط معنوى شديد والحاح متواصل من أخوانه فى الحزب والجيش من الأحرار المقيمين فى مصر . فقبل أخيرا ان يشترك بالثورة شرط ان تظل كما أريد منها ان تكون ، مرحلة من مراحل النضال القومى الصرف بعيدة عن المصالح الفردية والأجنبية . وكان أخوانه خلال ذلك الوقت قد بذلوا ضغطا والحاحا مماثلين على السلطان البريطانية وعلى الشريف حسين لدعوة المصرى للعمل فى الثورة . ولكنهم رفضوا فى

الفصل الثاني

الثورة العربية والدور المتواضع لعزيز على المصرى فى اشعال نيرانها

هل أخطأ حسين بن على شريف مكة عندما أعلن الثورة على دولة الخلافة الاسلامية من أجل استقلال بلاده ، بينما الدولة تخوض ضد الحلفاء - انجلترا وفرنسا - معركة الحياة أو الموت ؟

وهل أخطأ حسين بن على شريف مكة عندما تحالف مع بريطانيا وفرنسا ضد دولة الخلافة الاسلامية وتاريخهما الأسود فى تونس والجزائر ومراكش ومصر والسودان ، معروف غير مستور ؟

سؤالان هامان للغاية ، لم يجدا - حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذا الفصل - ما يستحقان من عناية ورعاية واهتمام ، لقد أجيب على هذين السؤالين - أكثر من مرة - اجابات غير شافية ، وغير كافية ، فى بعض الحالات . . وفى حالات أخرى ، أجيب على هذين السؤالين اجابات غير منصفة ، تأخذ مرة جانب الخلافة الاسلامية ، وممرات تأخذ جانب الحسين ابن على ، وكلها أو غالبيتها ، لا يمكن أن يطمئن اليها ضمير القاضى المؤرخ .

ولست أنكر أننى قضيت فترة طويلة أبحث ، وأنقب ، وأدرس ، وأستقصى . أقرأ الوثائق التى تناولت هذا الموضوع - موضوع الثورة العربية - وأستمع الى كثيرين ممن عاشوا أو عايشوا تلك الثورة أو كانوا على صلات وثيقة ببعض رجالاتها ، فى كثير من زياراتى للعراق ، وللاردن ، ولسوريا ، ولبنان ، وللمملكة العربية السعودية ، كنت أقتطع جزءا من وقتى هناك للبحث عن جوهر تلك القضية الهامة . وكما هى العادة اختلفت الآراء اختلافا بينا : البعض أيد وجهة نظر الحسين بن على فى اعلان ثورته على دولة الخلافة الاسلامية مؤكدا أن دولة الخلافة الاسلامية فى أعوامها الأخيرة ، فى أيام السلطان عبد الحميد ، وفى أيام الاتحاديين ، أسرفت

في معاداتها للعرب ، وأنه كان لابد للعرب من أن ينتهزوا فرصة ضعف الدولة العثمانية للانقضاض عليها والحصول على استقلالهم بالقوة . والبعض أخذ وجهة نظر الشريف حسين بن علي في تحالفه مع الانجليز والفرنسيين ضد دولة الخلافة الاسلامية على أساس ان عدو عدوى صديقي وأنه من أجل الحصول على الاستقلال لابد من التحالف حتى مع الشيطان .

وهناك وجهات نظر معارضة لوجهات النظر تلك من بينها مثلا : ان طلب الاستقلال ضروري وهام بل هو مقدس . اما التحالف مع الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني وهما خصمان تقليديان للاسلام وللعروبة ، فأمر غير مقبول . . . لقد احتلت فرنسا - مثلا - الجزائر في عام ١٨٨٢ ، وارتكبت فيها من الجرائم ما يفوق - مئات المرات - وحشية جرائم الدولة العثمانية ، وأثبتت بكل البراهين عداوتها الشديدة للعرب وللمسلمين ، وما كان يمكن لفرنسا - وذلك تاريخها الأسود - أن تنقلب بين عشية وضحاها ، فتريد الخير للعرب وللمسلمين . . . وكذلك الحال بالنسبة لانجلترا ، لقد احتلت في نفس العام الذي احتلت فيه فرنسا مصر (١٨٨٢) وارتكبت في مصر ، أبشع الجرائم ، واستبدت بشعب مصر أشنع استبداد ، ثم أنها قدمت عشرات من العهود والوعود بأنها ستجلب عن مصر ، بل وحددت أكثر من مرة مواعيد لهذا الجلاء ، دون أن يتحقق أى وعد من تلك الوعود .

ثم ان انجلترا كانت قد احتلت مصر ، وأعلنت حمايتها عليها في ديسمبر ١٩١٤ بدعوى ان الخديو عباس حلمي - وهو الذي يصدر تعيينه بفرمان من سلطان تركيا - قد وقف الى جانب تركيا في الحرب ولو كانت انجلترا تريد الخير لمصر ، لأعلنت استقلالها التام ، واكتفت بأن تتخذها - بعد زوال الدولة التركية الاسمية عليها - حليفة وصديقة . . . !!

وهناك من يقول ، أنه كان واجبا على الشريف حسين بن علي ألا يطعن دولة الخلافة العثمانية من ظهرها ، وهو الذي كان يناصرها ويؤيدها ، وكان عليه أن ينتظر الى أن تنتهى الحرب فيقوم بثورته كما فعلت مصر ، عندما أعلنت انجلترا الفرصة في الحرب العالمية الأولى وفي الحرب العالمية الثانية ثم ثارت بعد انتهاء الحرب ثورة كبرى في ١٩١٩ ، وثورة صغرى في ١٩٤٦ .

وأيا كانت الحجج التي قدمها هذا الفريق أو ذاك لتأييد وجهة نظره . . فأننى أوافق القائلين بأن الشريف حسين بن علي ، لم يخطئ عندما أعلن ثورته طلباً للاستقلال ، بينما أخطأ - وأخطأ خطأ فاحشاً - عندما تحالف مع انجلترا وفرنسا ضد دولة الخلافة الإسلامية . وسوف تؤيد وجهة نظرنا بما لدينا من أدلة وبراهين عندما تجيء الفرصة في هذا الفصل الذي خصصناه للحديث عن الثورة العربية بقيادة الشريف الحسين ابن ناصر .

★★★

وفي بداية هذا الفصل ، لابد من أن نشير الى أن معظم القادة العرب قد أثبتوا للملأ اخلاصهم للاتحاديين قبل الحرب الأوروبية وبعدها ، ولكن هذا الاخلاص العظيم لم يظهر بأتم مظاهره الا بعد دخول الدولة العثمانية في الحرب ، فقد تناسى العرب حينئذ كل خلافهم مع الترك وانضموا اليهم قلباً وقالبا دفاعاً عن الوطن المشترك ، فخاض جنودهم غمار المعارك في العراق والقوقاز والدردييل والقنال ومات منهم عشرات الألوف في ميادين القتال ، واشتركت الأمة العربية مع جميع الشعوب العثمانية في دفع الضرائب والأموال بحيث يمكن القول استناداً الى احصاء رسمي ان ما دفعه العرب من الضرائب والتبرعات الحربية عن طيب خاطر كان أضعاف ما ضرب على الأمة التركية وما تبرع به الترك في هذه الحرب .

هذا بعض ما فعله العرب العثمانيون ، أما أمراء العرب في شبه الجزيرة وجنوب العراق وسوريا ، فقد مدوا الى الدولة يد المساعدة باخلاص وتناسوا خلافهم معها وتطوع عدد كبير من رجالهم في جيشها وأرسلوا اليها ما تحتاجه من الجمال ، وشدوا أزرها في ميادين القتال ولا سيما في العراق والقنال وجهات عدن وكانوا يعملون بهمة لا تنى على خوض غمار الحرب في جانبها بكل ما عندهم من الرجال .

★★★

أما الجمعيات العربية فقد حلت كلها بعد اعلان الحرب العثمانية واتجهت أفكار العرب قاطبة الى الدفاع عن الدولة واعلاء شأنها وبلغت منهم الحماسة أقصى درجاتها وصار أشدهم كرها للاتحاديين أعظم غيرة عليهم ورغبة في تأييدهم .

ولم يكن سيادة شريف مكة جاهلاً لما ينويه الاتحاديون له ولبيتهم الكريم ومع ذلك فانه ظل على ولائه لهم الى أن طفق الكيل وتفاقم الخطب وعم البلاء .

أما السيد الإدريسي ، أشد أمراء العرب كرها للاتحاديين ، فقد كان مع كرهه لهم واعتقاده بسوء سياستهم ميلا الى الاتفاق معهم وراغبا في ذلك الاتفاق بدليل سكوته عنهم في ابان شدائدهم والمساعى التى بذلها لحسم المشاكل التى كانت سببا فى حروب عديدة بينه وبينهم .

ولم تكن سياسة الاتحاديين مع السيد الإدريسي غير سياستهم مع سائر أمراء العرب ، فقد كانت سياسة خداع ونفاق وكذب واعتداء لم يألّفها العرب فى زمن من الأزمان ، ولكنهم قابلوها بالصبر والحكمة واللين للأسباب التى ورد ذكرها فى الفصول السابقة وأهمها رغبتهم فى رفع منار الاسلام والمحافظة على كيانهم القومى .

نعم ان فريقا من أمراء العرب حارب الدولة غير مرة فى السنوات الأخيرة ، ولكنه حاربها دفاعا عن نفسه ولأسباب حيوية وكان دائما يهادنها أو يصالحها كلما وقعت فى مأزق حرج أو خاضت غمار حرب خارجية .

أما الأحزاب العربية فقد أخلصت للاتحاديين اخلاصا عظيما وكانت أعظم تساهلا معهم من أمراء العرب فى شبه الجزيرة وأكبر دليل على ذلك ما سبق ذكره عن خطتها وأعمالها وقراراتها وأقوال زعمائها وما سنشئته فى هذا الفصل من الكتب السياسية السرية التى تبودلت بين بعض الزعماء وأصحاب رأى الذين أعدموا فى سوريا والعراق وبعض أصدقائهم السياسيين الذين لم تصل اليهم يد السفاحين . وهذه هى الكتب بنصها لم يحذف منها الا أسماء الأحياء وما ليس له علاقة بالسياسة .

وفيما يلى رسائل بعض القادة العرب يؤكدون فيها اخلاصهم لدولة الخلافة الاسلامية .

كتب الضابط سليم بك الجزائرى الى أحت أصدقائه السياسيين فى ١٥ كانون الثانى ما نصه :

د عزيزى . . .

« لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى اخلاصهم لنا ، نعم ان الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج اليه من الاصلاحات وان زعم فريق من الأصدقاء أنه « كجواب

الكردي « يحتوى على كل شيء ولكن ما العمل ؟ أيجوز لنا أن نخطئ الزهراوى وننتقده على هذا الاتفاق ؟ أنا لست على هذا رأى لان الزهراوى لو لم يتفق مع الحكومة لكنا الآن فى أشد المأزق حرجا فاما أن نقوم بعمل يهدد استقلال الدولة العلية ويؤدى الى عكس الغاية التى نرمى اليها وهى نيل حقوقنا من اخواننا الترك ومشادكتهم فى كل ما يؤول الى تقوية الدولة واستعاد سكانها أو أن نخلد الى السكينة بعد كل هذه « القرقة » فيهزأ العالم بنا ويحتقرنا الاتحاديون أنفسهم ونصير مثالا بين الناس . »

« ان الحال السياسية حرجة جدا أيها العزيز فبقدر ما يسيء الاتحاديون الينا الآن يجب أن نحسن اليهم حرصا على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ . »

وكتب مختار بيهم الى أحد أصدقائه السياسيين فى مصر فى ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤ أى قبل دخول الدولة العثمانية فى الحرب بخمسة أيام فقط ما نصه حرفيا :

« أخى العزيز . . »

« يخيل الى أن الحرب واقعة لا محالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء والأمل عظيم جدا بأن تكون حربا قومية ظافرة تعيض الدولة من الخسارة التى منيت بها فى السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين فى نظر العالم ، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا خلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضى بذلك وسوف يرى اخواننا الترك ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب ما يظهر لهم عظم اخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك . ونحن الآن على أحسن ما يرام مع حزب الحكومة الذى أظهر وطنية عظيمة فى هذه الأزمة الشديدة وسنظل كذلك انشاء الله الى الأبد . فكن على ثقة بأن سوريا ستكون فى ابان الحرب أحسن منها قبلها فلا يقع ما يكدر من جانب الأهلين ما زلنا أحياء . »

وكتب عبد الكريم الخليل الى أحد أصدقائه فى ١٦ أغسطس سنة ١٩١٤ ما نصه :

« أيها العزيز . . »

« أنا على وشك السفر الى سوريا ، لان التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية الى اتخاذها درءا لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص

لدولته وأمته أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام .
وستكون مهمتي في سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة والسعي
لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية . وقد
وعدتني الحكومة بأن تشد أزرى في هذه المهمة وتجيئني الى كل المطالب
العادلة التي أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها ،
فلنكن كلنا يدا واحدة لانقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية وإظهار
الوحدة العثمانية في أتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية
علينا ، والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأننا ، وأعلى مقامنا .

وقال المرحوم محمد الحمصاني الى بعض أصدقائه الذين نصحوه
بالبقاء في مصر بعد اعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية : « ان الوطن
في حاجة الى كل فرد من أبنائه في هذا الأوان العصيب فمن الخيانة أن
لا نقوم بالواجب علينا نحوه » .

وكتب عبد الحميد الزهراوى الى صديقه الأستاذ السيد رشيد رضا
صاحب مجلة المنار الاسلامية وأحد أركان حزب اللامركزية كتابا سريرا
مطولا في ١٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٤ كتب في أعلاه « مكتوم
كله عن كل أحد » وضمنه كل آرائه السياسية وأعرب فيه عن ثقته التامة
بالاتحاديين ووجوب الاخلاص لهم فرأينا أن ننشر الكتاب برمته في هذا
المقام ليدرك القارئ عظم الجناية التي اقترفها الاتحاديون باعدام هذا الرجل
الحسن النية الطيب السريرة الذي عرض نفسه لانتقاد أصحابه وحقد أمته
عليه رغبة منه في التوفيق بين العرب والترك وانقاذ الدولة من أعظم
مشاكلها الداخلية . وهذا نص الكتاب بعد المقدمة :

« كنت قد فصلت لكم اذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسى
فكرة المؤتمر فوضى وكيف تعبنا في ستر الأمر وإيجاد المؤتمر ، وبعد
انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذى لفق تلفيقا ، ثم بعد قليل نفذ صبر
البيروتيين فذهبوا الى بلادهم عن طريق استانبول ، وبقيت يا عزيزي وحدي
أمثل الفكرة ، وبقي خليل زيني وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشروب
الجامعة العربية ولا قطرة واحدة ، حتى ولا من الجامعة السورية ، وانما
همهما بيروت وحدها لا شريك لها .

« لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور الى مصر لبقيت المسألة مقطوعة ببراء ، فيكثر استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وجماعتنا وقومنا ، لكن الله عز وجل سلمنى من هذا ، وقدرنى على الصبر هناك ممثلاً للفكرة مدة خمسة أشهر - وما هى بالقليلة ولا الكثيرة - ونعمت المدة كانت ، وفقت فيها كثيرا وعظم فيها اختبارى لأوروبا ، وما أحوجنا الى مثل هذا الاختبار .

« جئت بعد ذلك الى استانبول لأرى ما جد فيها لان المعرفة بالقديم لا تغنى ، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها غير صحيح ، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح .

« بعد وصولي بقليل عرفت كثيرا من الأحوال الحاضرة هنا ، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر وكدت أظننى اكتفيت وأحطت كل الاحاطة ، ولكن الآن تبين لى أنه لولا الصبر والتأنى اللذين مكننى الفاطر سبحانه منهما لرجعت بمعرفة غير كافية ، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت احاطتى وانما أقول أصبح يجوز لى أن أفصل بشئ من الطمأنينة ، وان تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم فى وقته .

والشرح ها هنا يتعلق بثلاثة مواضيع « أو موضوعات » :

- ١ - أوروبا والعثمانية .
- ٢ - الاتحاديون وغيرهم .
- ٣ - رجال الاصلاح الحقيقى وأبناء العرب هنا وفى الجهات الأخرى .

« وانى أبدأ بالأول لقصر البحث فيه ، وأشفع بالثانى ، وأخرت الثالث لطوله وطولته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه .

« أوروبا والعثمانية : لقد كشفت أوروبا آخر ستار من ستر السياسة فى المسألة العثمانية وقررت التداخل فى سائر شئوننا وانما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف فى كيفية هذا التدخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم وليس فى أوروبا اليوم موضوع مقرب على هذا الموضوع ، ولا تمضى ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالى فتلد ذلك الشكل الجديد الذى يتفقون عليه ، والذي أظنه أن الدولة ستبقى معه وتعيش أحسن مما كانت

عائشة لان بعض التدخل طيب ، وليست مغاليا اذا ذهبت الى أن الموت أقرب اليهما مع عدم التدخل البتة منه مع شيء من ذلك ، فانا اذا قلنا بعدم التدخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سببا لانشاب الحرب عليها فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة .

« الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟

« لا يوجد الآن حزب سياسى آخر الا أن يكون خفيا ولم أشتم شيئا من هذا ، وحينئذ لا تجد مقابل الاتحاديين الا جماعات الأجناس كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب .

« نعرف ان للروم جماعات وللأرمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟
هلم ننظر :

« الروم كلهم جماعة واحدة يرأسهم البطريرك ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحانى وجسمانى ، وهكذا الأرمن أما العرب فليس لهم مثل ذلك ، وثانيا : الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية وليس للعرب مثل ذلك ، اللهم الا جماعتنا فى مصر وجماعتنا فى بيروت ، اذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن وجماعتنا فى مصر وجماعتنا فى بيروت .

« فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة ، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشتهون أن يخلص اليهم العرب ويساعدتهم فضلاؤهم فى هذا السبيل ، ويعترفون بخطيئتهم الماضية ويودون أن لا يعودوا الى مثلها بقدر الامكان ، أنا مؤمن بنياتهم وأقوالهم هذه كل الايمان لأدلة كثيرة ظهرت لى ، ولكننى مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم فان شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن الى هذه الدرجة - كما أشرت الى ذلك فى كتاب ... - فانى لا أخطئكم بالتخطئة لأنى أجل رأيكم أكثر من رأيى ، وانما أرجو أن يكون فى أخطائى شيء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فىه خيرا كثيرا » .

« هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية وسبق الالتماس اليهم ، وأما الأرمن فهم آلة بيد روسية وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون ، وأما نحن معشر العرب فإن أحاكم الآن يعتبر ممثل جماعتنا ، وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي أرسلته إلى الأخ الرفيق في البريد الماضي وما هنا سنأزيد . »

— ما أظنكم — أستغفر الله — ما أعتقد أنكم في حاجة إلى بيان أن رجال الإصلاح الحقيقيين غير كثيرين ، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة ، وأعني رجال الإصلاح الحقيقيين من جمعوا في موضوع الإصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم ومرنت رؤيتهم وصحت عزيمتهم وشهد لهم ماضيهم من كثرة اختلاطهم بمختلف الطبقات ، ووقوفهم على متباين النزعات ، وصبرهم على متنوع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله وامتزجت سيرتهم بأخبار معاملة الجهاد الإصلاحى ومن أشربت أفكارهم فهموا معنى الرابطة وأفندتهم محبتها وتعشيقها تكثيرهم ، والحاجة إلى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم ، ثم نحق مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام حاجتين عظيمتي الحاجة : الأول السبات الذي فيه الأمة ، والثاني الجشع الذي أوروبا فيه . »

« أترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتم وحسبنا هي في كل موضوع ، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لأنكم علقتهم الأمل على صنف منهم ها هنا . »

« العرب هنا ثلاثة أصناف : متاجرون ومتعلمون ومأمورون ، فالصنف الأول لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والإصلاح ثم هو في غاية القلة ، والصنف الثاني أولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم ، والصنف الثالث أربعة أقسام : الضباط والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاروا لينصبوا . »

« فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك البتة والأولى عدم دخولهم فيها ، فإن هذه التجربة القليلة التي ساقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا ، ذلك أن (. . . .) ناظم اليوم على

الحكومة فيشتمى لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا ، وهو لأجل ذلك ناظم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له ولأنه على زعمه يؤخر حركات العرب ، ولا أدري ما هى حركات العرب وأين تسير وأن ترسى ، وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الأولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى ، ومن جهة أخرى فهو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فرأيت أنه يجنح الى مصالح أولياء الأمور وحينئذ يرضى عن كل شيء ، فانظر يا عزيزى الى الذين يعدون أنفسهم فى مصاف رجالنا .

« وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء . »

« وأما المأمورون المنصوبون فلا هم لهم الا حفظ المنصب » .
« وأما طلاب المأموريات فجياع لا يفهمون من الاصلاح الا المأمورية ، ان جاءت فقد جاء الاصلاح وان لم تجيء فقد منع الاصلاح . »

« ومن هذا التفصيل يظهر لك ان العاصمة فى حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم ، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم ، اللهم الا أن يكون « فلان وفلان » وكل ما أخبركم عنه « فلان » هو سراب ببيعة جاءه أخوكم الظمان فلم يجده شيئا . وبعض أولئك الأولاد يحسدون الشاب عبد الكريم ، وبعضهم لم يتمكن اناتهم اربا لأبيهم أو أخيه أو ابن عمهم مثلا ، ومن ها هنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هراء وهراء . »

« وأما العرب فى الجهات الأخرى فهم أهل سوريا وأهل العراق وأهل الجزيرة الخالص . فالسوريون والعراقيون حضر قد ألفوا الذل وتعودوا الاستجداء والاستكانة ، لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا ، لا يهبون ولا يروق لهم أن يوقظوا . وأما أهل الجزيرة الخالص فهم أهل وفاهم الله الخير وشده سواعدهم ، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم . »

« قد فهمت من كتاب الأخ « فلان » كثيرا واستنبطت كثيرا ، ولو كان فى وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكان روحى أوزاعا على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن نظرية الصوفية فى هذا الباب لا يمكن تطبيقها . »

« انظر يا عزيزي أنا لازم لهنالك كما تشير ولازم الى هنا ، فان هنا محل عمل ليس بقليل ، فاني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم ، فان رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان وعمل يمشى مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالأول من المعجلين تبشيري بتليغراف عن رضائك خاصة وهو الأهم ، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم . والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تليغراف للصدارة يجذبون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل اقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارات رقيقة تشويقية . أما الثالث فهو ما بيننا من أمر ايجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الاصلاح العلمى والعملى .. »

« وان لم ترض عن هذا الرأي فاكتب الى مفصلا ومبيننا من كل جهة من جهات الموضوع ، وأنا من عهدت من يدع رأيه أسيرا الى رأى وليه . »

« هذه هي الخلاصة المفصلة واليك خلاصة الخلاصة وهي : ان اليأس لا يجوز فى حال من الأحوال ولكن الأمة فى كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها فى شىء . وأنه مع هذا لا يجوز اهمالها ، وكذا لا يجوز اهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم ، وأنه لابد لنا ها هنا من رجال ، وان أكثر ما يتصرف به الرواة غير صحيح ، واني منتظر أمركم بسرعة ، وان شوقى لعظيم ... »

وننتقل الى مرحلة هامة من مراحل الصراع بين حكام تركيا وشريف مكة . ونبدأ بالحديث عن رحلات الأمير فيصل أكثر من مرة الى الشام والآستانة ، وتعرفه الى زعماء الحركات العربية السرية فى الشام ..

« بينما كان الشريف حسين يتعرف الى حقيقة وضعه وامكاناته ، هبط عليه فوزى البكرى موفدا من جمعية الفتاة التى أصبحت دمشق - جورج أنطونيوس - مقرا لها فى ذلك الوقت . وفوزى ينتمى الى أسرة سامية معروفة بالخدمة فى الجيش التركى . وكانت له وظيفة اسمية فى حرس الشريف ، وكان المبرر لتعيينه فى الظاهر ، أنه امتياز منح ثقتى من أسرة كبيرة . فلما كانت الصداقة بين الحسين وعطا الله باشا عميد أسرة البكرى قديمة ، كان من السهل على الشريف أن يتوصل الى تحقيق هذا التعيين بطلبه من الترك الذين كانوا حريصين على مبرراته . وكان نسيب أخو فوزى الأكبر عضوا فى جمعية « الفتاة » وهو الذى طالب بهذا

التعيين بالاتفاق مع الرجال أصحاب العقول المفكرة التي كانت تدير الجمعية فلما تلقى فوزى الأمر بالسفر الى الحجاز أطلعه على سر الجمعية فوراً وأقسم اليمين كعضو فيها وحمل رسالة شفوية للشریف يتلخص مضمونها في أن الزعماء القوميين في الشام والعراق ومنهم الضباط العرب أصحاب الرتب الرفيعة في الجيش التركي يحبذون القيام بثورة لتحقيق استقلال العرب ، فهل يقبل الشریف قيادتها وإذا قبل فهل يرغب في استقبال وفد يأتي الى مكة أو يفضل تفويض مندوب أمين عنه يزور دمشق وذلك بقصد احداث اتصال ينتج عنه توحيد الجهود ؟

وصل فوزى مكة في آخر أسبوع من يناير وأدى رسالته همساً في أذن الشریف الذي لم ينطق بأى جواب ولم يوجه أى سؤال لأن حذره الشديد منعه من البحث في موضوع مؤامرة أمام شخص غريب فأخذ ينظر من النافذة وكأنه لم يسمع ما قيل . على أن العرض الذي حوته هذه الرسالة أثلج قلبه لأنه من النوع الذي كان يبحث عنه بعينه .

ولكن الحسين كان مضطراً الى انتظار نتيجة بعض الأبحاث التي كانت تشغله في ذلك الحين . فقد طرأ على موقف الوالى وهيب بك منه تغيير ملحوظ في المدة الأخيرة وكان لدى الحسين ما يحمله على الاعتقاد بأن هذا التغيير ناشئ عن تعليمات خفية تلقاها وهيب فأوعز الى عماله بمراقبته . وفي أوائل فبراير بينما كان الوالى مسافراً الى المدينة اختفت حقيبة كانت بين أشياء الخاصة فلما استلمها الحسين وجد فيها بعض الوثائق التي اتضح لدى فحصها انها تثبت وجود مؤامرة تعدها الحكومة لاغتياله .

عند ذلك شرع الحسين بالعمل فأبرق الى الصدر الأعظم يعلمه أن لديه أمورا خطيرة يود عرضها ويستأذن في ارسال أحد أولاده الى القسطنطينية ليتكلم فيها باسمه فصدر الاذن المطلوب فوراً واختار الحسين فيصلاً للقيام بهذه المهمة التي قضى الساعات الطويلة في تدريبه عليها . وكان الغرض الظاهر من رحلة فيصل بسط شكوى والده من الوالى أمام الصدر الأعظم والسلطان وتأييدها بشرح شفوى .

وأما الغرض الحقيقي فكان الاتصال بزعماء العرب في دمشق لمعرفة موقفهم من عروض انكلترا وفهم درجة حماسهم في هذا الموضوع ومبلغ استعدادهم له .

الى أن يقول جورج أنطونيوس . . . وصل فيصل دمشق في يوم ٢٦ مارس وبقي فيها ستة أسابيع قبل أن يستأنف سفره الى القسطنطينية فتلقيه جمال باشا بحرارة ودعاه الى الإقامة معه في مقر قيادته ولكنه اعتذر عن ذلك اذ كان مرتبطا بوعده سابق للنزول في ضيافة آل البكرى .

تم اطلاع فيصل على أسرار الحركة العربية القومية في زيارته هذه لدمشق . لم ينقطع سيل الزائرين عن دار البكرى في الأيام الأولى من إقامته فيها فلما فرغ من زيارات القادمين للسلام عليه وعادت الحياة الخاصة في المنزل الى حالة قريبة من الاعتيادية نسبيا بدأت المشاورات السياسية وكانت عملا دقيقا وشاقا في تلك الظروف فكان أول من اجتمع بفيصل الأعضاء البارزون في (جمعية الفتاة) ولكنهم لم يكلموه بصراحة في البدء لأنه كان غريبا عنهم ومعروفا بميله الى التعاون مع الترك فسارت الأبحاث بتحفظ الى أن أطلعهم فيصل على حقيقة أفكاره وأوضح أن تفضيله الترك ناشئ عن خوفه من أوروبا فأحدثت هذه الملاحظة تغييرا أساسيا في المباحثات أدى الى اكتشاف الجميع أنهم متفقون تماما في الشعور مع فيصل .

وكانت اللجنة العليا (لجمعية الفتاة) عقدت اجتماعا قبل أشهر عديدة اتخذت فيه هذا القرار :

« ينتج عن دخول تركيا الحرب أن مصير الأجزاء العربية في المملكة العثمانية باتت مهددة بخطر شديد فيجب بذل أقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها . وقد تقرر كذلك أنه في حالة ظهور مطامع أوروبية في هذه الأجزاء ينبغي على الجمعية أن تعمل الى جانب تركيا في سبيل مقاومة النفوذ الأجنبي مهما كان نوعه وشكله » .

كان الطرفان يستندان الى أساس واحد في اختيارهما أسلوبيين مختلفين فلما اكتشفا وحدة المنشأ تقربت وجهات نظرهما فارتدت الأحاديث بين فيصل وأعضاء (الفتاة) طابعا وديا للغاية فأطلعوه على سر الجمعية وسموه عضوا فيها بعد أن أقسم اليمين . وبعد ذلك اتصل فيصل بأعضاء (جمعية العهد) عن طريق شخص يتنسب الى الجمعيتين ، و (جمعية العهد) هذه هي المنظمة السرية لضباط الجيش فلمس فيصل تجانسا في موقف الجمعيتين : فكانت هناك رغبة في الخلاص من الترك ولكن

الخوف من مطامع فرنسا وبريطانيا وايطاليا وروسيا كان يحد من هذه الرغبة .

ولم تكن المخاوف من المطامع الأوروبية واقعية فحسب بل كان لها كذلك ما يبررها فان فرنسا لم تخف ادعاءها بما تسميه « حقوقها » في سوريا وكان المعروف عن روسيا أنها تنافس فرنسا في ذلك منافسة شديدة .

وهناك رواية (جديدة) عن الخلاف بين الاتحاديين وبين الشريف حسين بن علي وعن التصرفات التي كان يقوم بها الشريف بن علي لاغضاب الاتحاديين وما أعقب تلك التصرفات : لقد رأى - مثلاً - المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي وقد أوجس شراً من شدة شكيمة الشريف مكة أن يهاجم بواسطة أمير الحج الشامي ، وكان يومذاك عبد الرحمن اليوسف ، فأذاع هذا سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) ان طريق دمشق المدينة المنورة غير مأمونة ، واقترح تجنباً لاعتداء العربان ، أن يعود المحمل الشامي بطريق البحر ، فيستقل البواخر من جدة الى مرافئ الشام . فعارض الشريف في تنفيذ هذا الاقتراح لأنه يعنى عجزه عن توطيد الأمن داخل الحجاز ، وهذا في مقدمة مهامه ، وفقده كل نفوذ على العربان ، وهذا ما لا يرضاه .

وانتهت هذه المشادة بأن تولى الشريف بنفسه ارسال المحمل الشامي بطريق المدينة المنورة الى دمشق ، وقد عهد بقيادته والسهر عليه الى شقيقه الشريف ناصر باشا ، والى نجله الأمير عبد الله وصهره عبد الله باشا بن محمد والشريف شاكر بن زيد ، معلناً أنه يتحمل كل تبعه تنشأ عن هذا التدبير وسافر المحمل برا الى دمشق فوصلها دون ما حادث ونزل الأمراء العرب ضيوفاً على عطا باشا البكرى في منزل خاص أعده لهم ، واحتفلت دمشق بمقدمهم احتفالاً عظيماً وأقيمت على شرفهم المآدب الكثيرة . ولما وصل عبد الرحمن اليوسف أمير الحج الى دمشق عائداً اليها بطريق البحر دعا الأمراء الى وليمة عشاء فاعتذروا عن قبول الدعوة .

وتمكنت أواصر العلاقات بين آل الحسيني وبني البكرى على اثر هذه الزيارة . وكان من نتيجتها أن الشريف حسين سعى لاستصدار ادارة سنية تجيز لشبان آل البكرى أن يؤدوا الخدمة العسكرية في مكة عندما يدعون اليها . وفي الواقع ان أحمد فوزى بك البكرى كبير أنجال عطا باشا

سافر الى مكة في صيف سنة ١٩١٤ ، على اثر اعلان النفير العام ، ليؤدي خدمته العسكرية هناك عملا بالادارة المشار اليها فحل ضيفا على الحسين وأفضى اليه بأن هناك جمعيات عربية قوية منظمة في سوريا تعمل لاستقلال العرب ونيل حقوقهم .

وتكملة هذه الرواية التي جاءت في أوراق عمر أبو النصر - بيروت - والتي لها ما يؤيدها في مذكرات الملك عبد الله ، وتبدأ تلك التبعية بزيارة الأمير فيصل الى دمشق لأول مرة في ٢٠ سبتمبر ١٩١٥ ونزوله ضيفا على بني البكرى وأنه لم يلبث أن توجه الى الآستانة ليقابل ولاة الأمر فيها ويطلعهم على تصرفات وهيب باشا والمكاتبات والوثائق التي عثر عليها والده .

ولهذه الوثائق حكاية جديدة بالذكر ، وخلاصتها أن الأمير علي بن الحسين كان مسافرا الى المدينة المنورة بصحبة وهيب باشا قائد الحجاز وواليه ، في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ ، وكانت وجهتهما قناة السويس ليشتركا في حملة جمال باشا على القناة فيتولى الأمير قيادة العربان ووهيب باشا قيادة الجند العثماني الذي كان في الحجاز ، وقد صدرت اليه الأوامر بالاشتراك في الحملة المذكورة .

وكان وهيب باشا قد ائتمن السيد محمد نائب الحرم ، وهو حجازي اشتهر بتزلفه للاتحاديين وتأيينه لهم حتى نال ثقتهم التامة ، على محفظة أوراقه السرية . وفي الطريق سقطت المحفظة ولم ينتبه حاملها لسقوطها ، فوجدها أحد رجال الأمير علي وجاءه بها ، ففضها الأمير وعثر فيها على مراسلات سرية كانت تدور بين حكومة الآستانة والوالي لاغتيال الشريف وأنجاله والقضاء على استقلال الحجاز الذاتي ، وعلى وثائق تتضمن الخطط والتدابير لتنفيذ هذه المؤامرة وقد حال دون تنفيذها اعلان الحرب العظمى وانهماك الدولة العثمانية بها دون شيء آخر .

وامتنع الأمير علي عن متابعة السفر بعد عثوره على تلك الوثائق الهامة وانتحل بعض الأعذار ومكث في المدينة المنورة ثم قفل عائدا الى مكة ومعه الوثائق فسلمها لأبيه . وبعد أن تمعن الحسين في مضامينها قرر أن يوفد من قبله الى الآستانة نجله الثالث الأمير فيصل ليقابل رجال حكومتها ويسعى للتفاهم معهم ، وكان من المشهور عن فيصل أنه يميل الى الأتراك

ويحرص على استبقاء صداقتهم ، فغادر الأمير مكة ميما وجهه شطر العاصمة التركية وعرج في طريقه على دمشق كما ذكرنا سابقا .

ولما وصل الى الآستانة زار فورا الصدر الأعظم وأطلععه على تلك الوثائق والكتب التي عثروا عليها بطريق العرض وشكا من مسلك الاتحاديين حيالهم . وقال انهم يعملون للتنكيل بهم ، الأمر الذي حملهم على عدم الثقة بالاتحاديين . وقابل بعد ذلك طلعت وأنور وحدثهما نفس الحديث ، وكانت النتيجة أن الثلاثة طيبوا خاطره وأصدروا أمرا بنقل وهيب باشا من الحجاز ارضاء لآل الحسين ، وعينوا مكانه الجنرال غالب باشا الذي كان مشهورا بطيب سريته وحبه للمسألة ، وأفهموه أن يتقرب الى الشريف ويعمل على ايجاد علاقات طيبة معه .

وقد ذكر على فؤاد باشا ، رئيس أركان حرب الجيش الرابع في مذكراته ما كان من نتيجة زيارة الأمير فيصل للآستانة ، قال :

« أخبر الأمير فيصل أقطاب الحكومة الاتحادية أنه مستعد للذهاب على رأس قوة حجازية ليشارك في الحملة الثانية على القناة وحادث أنور باشا بخصوص رجال العرب المعتقلين في عاليه (وهم رجال القافلة الثانية التي أعدمتم في ٦ آيار (مايو) سنة ١٩١٦) وطال اطلاق سراحهم والعفو عنهم فوعده أنور خيرا وحمل الأمير على سياسة جمال حملة شعواء ووصفها بأنها سياسة عدا للـعرب . وقال ان العرب لا يمكنهم السكوت عنها . وسلم الى سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ، لكونه صديقا لبيتهم وسليل أسرة كبيرة مستعربة ، مذكرة ضمنها مطالب العرب ورغبتهم في الحرية والاستقلال ، وذكر فيها أنهم مستعدون لتأييد الدولة اذا اعترفت باستقلال الحجاز على أساس اللامركزية وبالشريف حسين أميرا عليها ، على أن تكون الامارة ارضا لبنية من بعده وقد أطلع الصدر الأعظم زملاءه الوزراء على هذه المذكرة ، .

ولم يمكث الأمير فيصل طويلا في الآستانة بعد أن فاز بعزل وهيب باشا ، فبرحها الى دمشق في شهر تشرين الثاني ليكون على مقربة من جمال باشا وليقود متطوعة الحجاز . وفي الواقع أن أنور باشا أبرق الى جمال موعزا اليه بأن يستقبل الأمير بحفاوة بالغة وأن يحل آراءه المحل اللائق بها . وكذلك أبرق طلعت وزير الداخلية الى جمال يخبره بما كان من

شكوى الأمير عليه وشجبه لسياسته ، ويطلب اليه أن يستميله ويعمل على كسب مودته .

وكان من أثر هذه التوصيات أن جمالا ذهب بنفسه الى المحطة ليستقبل فيصلا عند وصوله الى دمشق وأعد له حفلة استقبال رائعة في مقر القيادة حضرها أمراء الجيش وكبار القوم ، وأولم له في المساء وليمة عشاء فاخرة وبالح في التودد اليه والحفاوة به .

ونزل الأمير ضيفا على آل البكرى ، ولم يلبث أن برح دمشق الى القدس بصحبة جمال وأقام في ضيافة مقر قيادة الجيش ثم زار ميدان الحرب في سيناء وخطب في المأدبة التي أقيمت لتكريمه وحضرها الضباط والقادة خطبة مستفيضة . وقد قال فيها :

« يجب على الأمة العربية أن تشترك في الجهاد ، وأنا ذاهب الى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المتطوعة فيشارك في الحملة الثانية » .

وعاد بعد ذلك الى دمشق وسافر منها الى الحجاز بعد أن اتفق مع جمال على أن يعود بألف وخمسمائة متطوع .

وفي دمشق اتصل الأمير فيصل لأول مرة برجال الجمعيات العربية السرية ، وعلى الخصوص رجال جمعيتي الفتاة والعهد ، وقد اجتمع بهم خفية في بيت آل البكرى ، وكانوا يأتون اليه بين الساعة الحادية عشرة والواحدة بعد نصف الليل خوفا من الرقباء .

وقد أشرنا في فصل سابق الى جمعية الفتاة وكيف تم انشاؤها وذكرنا أنها كانت تضم نخبة مختارة من رجال العرب العاملين وأنها نقلت مركزها بعد اعلان الحرب العظمى من بيروت الى دمشق ، وان رجالها كانوا يجتمعون سرا في تلك الأيام لبحث الحالة وللنظر في ما يجب عمله ، لا سيما بعد أن ظهرت نيات الترك بجلاء واتضح أنهم يتربصون الدوائر في رجال العرب ويدبرون لهم الدسائس والمكائد

وغدت الأفكار في دمشق قلقة لا تستقر على حال ، وكانت هناك نزعة الى الاستمرار على معاضدة الدولة لانقاذ البلاد من الفتح الأجنبي

وما يؤول اليه من الحماية أو الاستعمار ، وذلك قبل اشتداد المظالم ونصب المشائق . فقد عقد في شهر آذار (مارس) سنة ١٩١٥ اجتماع سرى في منزل شكري باشا الأيوبي ، وقد حضره فيمن حضره الدكتور عبد الرحمن شهبندر وسليم الشمعة وخالد الحكيم وعبد الكريم الخليل والشيخ تاج الدين الحسيني وسواهم ، فتباحثوا بالموقف من سائر نواحيه وأجمعت كلمتهم في النهاية على وجوب معاونة الدولة في حربها ، وتأليف عصابات من أهل البلاد للدفاع عنها يوم يضطر الأتراك الى اخلائها . وقد جرى هذا كله قبل أن يحسر الاتحاديون القناع عن مقاصدهم ويظهروا بمظهر الأعداء الألداء للعرب .

وكذلك عقدت جمعية الفتاة اجتماعا في دمر برئاسة رضا باشا الركابي ، قررت فيه انتداب الشيخ كامل القصاب للسفر الى مصر والاتصال برجال الحركة العربية فيها والاتفاق معهم على خطة معينة فسافر بحرا في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤ أي قبل دخول الدولة الحرب . وبعد أن اتصل بالرجال المشار اليهم غادر مصر دون أن يفعل شيئا معينا . وأنزلته الباخرة في أضاليا ، ومنها سافر الى دمشق .

ولما علمت السلطة العسكرية بقدمه بادرت الى اعتقاله ، ثم أرسلته الى الديوان العرفي في عاليه للتحقيق معه . بيد أن المحققين لم يستطيعوا أن يقفوا منه على شيء ، فأطلق سراحه بعد أن قضى في السجن حقبة من الزمن .

ولما عاد فيصل من الآستانة الى دمشق في طريقه الى مكة ، كان رجال العرب يبحثون عن ذريعة تعينهم على الخروج من المأزق الذي صاروا اليه وتخفف من استبداد جمال وبطشه ، اذ كان قد فتك بالقافلة الأولى من الشهداء ، وشرع باعتقال رجال القافلة الثانية رهن التحقيق . فراحوا يجتمعون به سرا ويتبادلون معه الآراء ويدرسون التدابير الواجب اتخاذها ، وكان في طليعة الذين اتصلوا به الدكتور أحمد قدرى ، معتمد جمعية الفتاة وأحد مؤسسيها ، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وياسين الهاشمي (وكان يومئذ رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر) ومحمد الشريفي وعلى رضا الركابي وسواهم . وقد ابتهج الأمير فيصل بما سمعه من تصريحاتهم وما لمسه من غيرتهم وحماستهم .

والجدير بالذكر أن زعماء سوريا كانوا يسعون حتى ذاك اليوم لجعل الثورة سورية تعلن في سوريا لا في الحجاز ، فاتصلوا بزعماء القبائل وذوى المكانة وضموهم الى صفوفهم فكان من رجال الجمعية المذكورة ، نواف بن نوري الشعلان شيخ قبائل الرولا من عنزه ، وفرحان الميدا شيخ مداين صالح ، ونسيب الأطرش من كبار مشايخ الدروز ، وأبو سليم فرحان المغوش شيخ قرية خلخلة في الجبل الدرزي ، وشواهم من أصحاب النفوذ في البلاد السورية على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم .

ورجع فيصل الى مكة في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥ ، وكله نشاط وحماسة لما شاهده من الروح القومية في دمشق ، وقد حمل الى والده ختمى الشيخ بدر الدين الحسنى وعلى رضا باشا الركابى كعلامة لموافقتهم على اعلان الثورة ، وبعد وصوله الى مكة أفضى الى أبيه بما رأى وسمع في دمشق وبما قر عليه رأى رجال العرب فيها من اشعال نار الثورة في بلاد الشام لانقاذ العرب وتأسيس المملكة العربية المنشودة .

ولم يلبث الأمير فيصل أن برح مكة الى الطائف ثم وافاه اليها أبوه وشقيقاه على وعبد الله ، وعقد الأربعة مؤتمرا عائليا سريا بعيدين عن أعين جواسيس الترك الذين كانوا يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم ، واتفقوا فيما بينهم أن يتعهدوا أمر الثورة وأن ينجزوا الاتفاق مع الانكليز . وكان رسل هؤلاء يختلفون الى الحجاز لمفاوضة الشريف واقناعه بالانضمام الى صفوفهم ، قاطعين له الوعود بأن يؤيدوه في سياسته الرامية الى انقاذ العرب وتحريرهم .

ورجع الأربعة الى مكة بعد أن اتفقوا على الثورة وصرف الأمير فيصل بضعة أيام وهو يستعد للعودة الى دمشق ليكون على صلة برجال الثورة وليراقب سكنات الأتراك وحركاتهم .

وصل الأمير فيصل الى دمشق في شهر كانون الثانى (يناير) من سنة ١٩١٦ ، مصطحبا معه خمسين فارسا من أتباعه بينهم بعض الأشراف فحل واياهم ضيوفا على آل البكرى ، هو فى المدينة وهم فى قرية القابون من ضواحيها . وعاد للاتصال برجال العرب ومفكريهم وراح يدرس معهم الخطط والاستعدادات للثورة . وفى شباط (فبراير) من السنة المذكورة جاء الى دمشق أنور باشا وكيل القائد العام ، ومنها توجه الى الحجاز وبرفقته جمال باشا والأمير فيصل ، وعلى اثر وصوله الى المدينة المنورة

طلب الى الشريف حسين أن يوافيه اليها لرغبته في الاجتماع به ، وقد قيل ان الأتراك كانوا ينوون اعتقاله وإبعاده لو أجاب دعوة أنور ، ولكنه اعتذر عن عدم امكانه المجيء . وبعث بهدايا ثمينة الى أنور وجمال فسلمها فيصل اليهما وعاد بصحبتهما الى دمشق . وكان الديوان العرفي في عاليه آنذاك منهمكا في محاكمة المعتقلين من زعماء العرب وأحرارهم فبذل الأمير فيصل جهوده لاعتناقهم والعفو عنهم ، ولما فشل في مسعاه هذا أنبأ بذلك والده .

وفي شهر آذار طير الشريف الى أنور البرقية التالية :

« ان خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم ، وعلى تأييدهم لها قلبا وقالبا في نضالها .

« ويلوح لي أن ارضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهمة سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي :

- ١ - اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .
- ٢ - ازالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزي .
- ٣ - جعل اماره مكة وراثية في أولادى وابقاؤها على حالتها الحاضرة .

« فاذا قبلت هذه المطالب فأتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين ، واذا لم تقبل فأرجوكم أن لا تنتظروا مني شيئا سوى الابتغال للحق جل وعلا بأن يهب للدولة النصر والتوفيق » .

فأرسل اليه أنور الجواب التالي :

« وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة ان احراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلبا وقالبا .

« ولما كان طلب اعلان العفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية في سوريا واستبقاء اماره مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم ، خارجا عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء .

« واني أبلغكم بأنه لابد من أن ينال المعتقلون عقابهم كما ان حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل في الحجاز على ما كانت عليه ، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية ، وأوصيكم ملحا بأن تستدعوا ولدكم عليا الموجود في المدينة الى مكة فورا وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق ليكونا بقيادة ولدكم فيصل بك ، وبديهي أنه سيظل ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب ، والأمر لمن له الأمر سيدي » .

فبعث له الشريف بالرد الآتي :

« لقد أرسلت نجلى فيصلا الى دمشق اعتمادا على شرف الدولة ولست أرجو أن يعود الى الآن ، على أن سوق المتطوعة الى دمشق يتوقف على وصوله الى المدينة ورؤية هؤلاء له . وسيدعي نجلى على الى مكة قريبا » .

ذكر جمال باشا في مذكراته عن هذا الحادث ما يلي :

« استمرت محاكمة المعتقلين الى ما بعد عودة أنور باشا الى الآستانة وعندئذ ظهر الشريف حسين بمظهره الحقيقي فبعث اليه برقية أبلغني اياها أنور باشا وهذا مضمونها : « اذا كنت ترغب في التزامي جانب الهدوء والسكينة فيجب الاعتراف باستقلال في الحجاز من تبوك حتى مكة وحصر الامارة في أبنائي والعدول عن محاكمة أحرار العرب ، واعلان عفو عام في سوريا والعراق » .

« وعلى أثر استلامى هذه البرقية بعثت في طلب فيصل واستدعيت على فؤاد باشا ليكون شاهدا على محادثاتنا ، وقلت للأول : « لما سمعت حين رجوعي من المدينة بأن شقيقك عليا يتدخل في شئون الحكومة ويدعي لنفسه حقوقا ليست له ، أبلغت المحافظ أن يطلب اليه الكف عن هذه الأعمال ، لا اعتقادي أنه لم يقدم عليها لحدثة سنه وقلة تجاربه ، وأبلغت والدك أن يردعه ، وقلت لك في محادثاتنا أنني أبذل ما في وسعي للمحافظة على منصب والدك وقد أبلغته ذلك شخصا كما أخبرك وكتب الى معربا عن عظيم شكره وامتنانه . ولا أظنك تجهل أن لأبيك خصوما لا يستهان بهم من أبناء عمومته في الآستانة ، وهم يعملون لا يغار صدر الحكومة عليه فخير لكم وأبقى الاقلاع عن الاتيان بأي عمل يكون حجة لخصومكم » ثم لما أطلعت على برقية أبيه الى أنور باشا أعرب عن ارتياحه فيها وقال ان ما وقع ليس سوى سوء تفاهم ، فوالدي لا يقصد شيئا ضارا ولست تجهل أنه

لا يحسن اللغة التركية ويلوح لى أن هذه البرقية ترجمها مترجم عاجز
عن فهم النص العربى فحرفها . ثم وعد بأن يكتب الى والده حالا طالبا منه
العدول عن مطالبه . وأرسلت أنا الى الشريف البرقية التالية :

« لقد اتصل بى خبر برقيتكم الى أنور باشا ، فأنتم تطلبون أن تكون
الامارة وراثية فى أسرتكم وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد
أن قامت البراهين على خيانتهم للأمة والوطن .

« وليس بالامكان اجابة الجزء الثانى من طلبكم لضرره بالمصالح
العامة ، فالحكومة التى تصفح عن الخونة جديرة بأن تتهم بالضعف ، كما
أن عفوها يغرى كثيرين على الخيانة . ولو انك اطلعت على الوثائق التى
ظهرت فى المحكمة لرأيت الى أى حد وصل أولئك المتهمون .

« وأما فيما يختص بجعل الامارة وراثية فى أسرتك فالفرصة ليست
مناسبة للمطالبة بذلك ، وأظنكم تعترفون بأن الاعراب عن مثل هذه
الرغبات ونحن فى ابان الحرب - حيث نستهدف جميع قوى الانسان
عقلية وجسدية لأشد العناء - من رجل يتبوأ مركز الشرافة وفى أعظم بقعة
فى بقاع الدولة العثمانية ، ان مثل هذا الاعراب لابد أن يكون له أسوأ
الوقع فى نفوس الجمهور . وأعتقد أنه ما كان ينبغى لكم أن تطلبوا مثل
هذا الطلب ولو كنتم على حق ، فموارد الأمة ينبغى أن تحشد لغرض واحد
وهو احراز النصر النهائى .

« ولو فرضنا ان الحكومة لبث طلبك لمجرد الرغبة فى الحصول على
مصادقتك فى هذه الأوقات العصيبة فماذا يمنحها من أن تعاملتك بالشدة
والقسوة لو انتصرت فى نهاية الحرب وعلى كل يجب أن تعلم أن الرجال
الذين أسسوا الحكومة وتجروا على القيام فى وجه السلطان عبد الحميد
لا يصفحون عن يجترى على شل حركتهم فى هذه الحرب ، وقد خاضوا
غمارها لمصلحة العالم الاسلامى . وهم فى الوقت نفسه لا يتأخرون عن
نيل الأنعام الجزيلة من جلاله الخليفة لكل من عمل ابتغاء رضى الله وتحقيق
غاياتنا المقدسة . »

ثم يقول جمال باشا فى مذكراته :

« وأصدرت محكمة عاليه «الديوان العرفى» حكمها فى القضية الكبرى
(قضية ٦ مارس سنة ١٩١٦) ونحن لا نزال نتبادل الرسائل مع الحسين ،

فبذل فيصل جهده لينال عفوا للمحكوم عليهم ، وكان يزورني كل يوم ويحول مجرى الكلام الى قضية العفو . وسمعت أنه كان يعنف أعيان دمشق الذين يزورونه لعدم سعيهم لانقاذ مواطنيهم . ودعاني ذات يوم لتناول الغداء معه في القابون (قصر آل البكري وقد دمره الفرنسيون أثناء الثورة السورية سنة ١٩٢٥ بالديناميت) وكان ذلك في أوائل شهر نيسان ، فدار الحديث حول موضوع العفو فسألته : هل عرفت تفاصيل ما فعله هؤلاء ، فقال : كلا ، فقلت : لو عرفت التفاصيل لأسففت أشد الأسف على توسطك لنيل العفو عنهم .

« واستلمت بعد أيام رد الشريف حسين على برقيتي اليه . وبه يلح في اصدار العفو لأن صدوره في مصلحة الحكومة ، ويشكو من تصرفات حاكم المدينة بصرى باشا ويقول انه يأبى أن تسلب منه حقوق منحه اياها الخليفة .

« وازدادت في الوقت نفسه شكاوى بصرى باشا من تصرفات الشريف على (وكان يقيم معه في المدينة) ومسماها لتأليب العربان واستمالتهم ، فدعوت فيصلا وأطلعته على رد والده وسلوك شقيقه وقلت له : لا أستطيع ادراك غرض والدك من استعماله هذه اللهجة التي يستعملها في هذه الأيام ، ولا غاية أخيك من الخطة التي يسير عليها في المدينة ، فمن الجهة الواحدة تعلنون انكم عاملون على تجهيز المتطوعين وارسالهم للاشتراك في حملة القناة فتمدكم الحكومة بالمال والرجال ، ومن الجهة الأخرى تدل أعمالكم على ميلكم الى الانفصال وقد بدرت بوادره من ناحية أبيك وأخيك ، فاذا أردتم أن تظلوا أصدقاءنا فيجب أن تراعوا قوانين الصداقة والا فاعلنوا ثورتكم واحملوا سلاحكم ، وإذا كنتم لا تضمرون الشر فاكتب الى شقيقك ليحضر الى هنا حالا وليكف عن الاعتماد على سلطة المحافظ . فأجابني بأنه سيعمل على تسوية الخلاف بين هذا وأخيه وأنه سيدعوا شقيقه الى دمشق وأنكر ما نسبته اليهم من الميل الى الثورة » .

أما جمال فكان ينبغي من استقدام الأمير على الى دمشق ان يضمه الى شقيقه الأمير فيصل فيبقى الاثنان رهينة عنده ، يمنعان والدهما من القيام بأي حركة معاكسه للدولة . وتلك كانت الغاية من استقدام فيصل ، ولم يخف هذا الأمر عليه فراح يعمل الفكرة مع اخوانه في دمشق لايجاد وسيلة يتذرع فيها لينجو من الشرك ويشترك مع اخوانه في الحركة المقبلة ، لأنه من المحال اضرام نار الثورة في الشام بعد ان شنت جمال باشا ضباط

العرب وقذف بهم الى كل ميدان سحق من ميسادين القتال وملاً سوريا
بجنود استجلبهم من الأناضول كما اعتقل نخبة من رجالات سوريا ونفاهم
الى تلك الأصقاع ، وعليه تحولت الأنظار فى هذه المرحلة الى الحجاز .

وفى هذه الغضون كانت المراسلات السرية تجرى بلا انقطاع بين
فيصل ووالده وأشقائه ، فيوافيهم بكل ما يقع فى دمشق وما يدور بينه
وبين الترك ، ويوافونه هم بما عندهم . وأخيراً اتفقوا على أن يوعز الشريف
على الى المتطوعين الذين جاءوا معه من الحجاز وكان يقودهم بنفسه ويقيم
واياهم فى المدينة ريثما يتكامل عددهم فيسير بهم الى القناة ، بأن يقترحوا
استقدام فيصل من دمشق ليذهب معهم الى جبهة القتال . وفى الواقع
أبلغ زعماء المتطوعة الحكام الترك أنهم يتوقعون الى الزحف ويرجون أن يكون
فيصل على رأسهم كما جاء فى برقية أبيه وقام فيصل بمثل هذه الحركة فى
دمشق فزار جمالا وأبلغه ان شقيقه عليا تلقى أمرا من والده بأن يسافر
الى القناة وأنه يريد الذهاب الى المدينة فيأتى مع أخيه والمتطوعين الى القدس ،
فقبل جمال بذلك وقال له : « سر على رأس وفد واستقبلهم بأسمى وأرجع
معهم واسع للتوفيق والاصلاح » .

وسافر الوفد بسكة الحجاز الى المدينة المنورة فى منتصف شهر
مارس (أى بعد اعدام القافلة الثانية من الشهداء بتسعة أيام) وكان مؤلفا
من الأمير فيصل رئيسا وكامل بك مفتش المنزل وآصف بك المستشار العدى
للجيش الرابع ونسيب بك البكرى والشيخ عبد القادر الخطيب ، وكاد
فيصل يطير فرحا لأنه أفلت من القفص وتخلص من قبضة الأتراك . وجرى
له فى المدينة استقبال رائع ، وأنضم الى شقيقه وأقام فى منزله . وقد
صرح نسيب بك البكرى بأن آصف بك قابل فيصلا فى الحرم النبوى
غداة وصولهم وقال له والدموع تنهمر على خديه : « اذا كنت تستطيع
النجاة بنفسك فافعل ولا ترجع الى دمشق لأن الأتراك يضمرون لك السوء
وأنا أقول لك هذا اكرام لجدك الراقد فى هذه الروضة » .

ولم يكف فيصل يستقر فى المدينة حتى جاء اليها فخرى باشا وكيل
قيادة الجيش الرابع منتدبا من قبل جمال باشا ليشرف على الحالة ويتولى
بنفسه قيادة القوة العسكرية فيها وقد كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى

ولكن الأتراك عززوها بنجندات جديدة تحت ستار - ارسالها الى اليمن ،
مما زاد في مخاوف الشريف وأبنائه ليقينهم ان حشد هذه القوة الكبرى
في المدينة وتوالي قدوم النجندات اليها معناهما ان الترك يرغبون الفتك بهم
وانزال الضربة القاضية عليهم ، فيزحفون بهذا الجيش الى مكة - بحجة
السفر الى اليمن - ويستولون عليها بالاتفاق مع القوة التركية الباقية
فيها ، فتنهار بذلك آمال الشريف وبنيه ويضعف مركزه ، هذا اذا لم
تصبح حياته عرضة للخطر .

وعليه قرر الحسين بالاسراع باعلان الثورة رغم أنه لم يكن قد أتم
الاستعداد لها لخوفه من مفاجأة يفاجئه بها الأتراك . وكتب بهذا المعنى
الى ولده فيصل - وكان هذا لا يزال في المدينة - فأرسل اليه تقريراً مسهباً
طلب فيه تأجيل اعلان الثورة حتى شهر أغسطس (كانت المخابرة في شهر
مارس سنة ١٩١٦) بحجة أن المواسم الزراعية تكون في ذلك التاريخ قد
انتهت وادخر العرب مؤونتهم من الحبوب فيشترون جميعاً في الثورة
فتكون عامة شاملة لأهل الحجاز والشام الا أن الشريف أجابه مصرأ على
ضرورة الاسراع في العمل معهما مهما كانت الظروف والاعتبارات اذ لم يبق
مجال للانتصار .

ونزل فيصل عند أرادة أبيه وقرر أن لا يعود الى دمشق مع أعضاء
الوفد الذين جاءوا بصحبته لاستقبال وفود المجاهدين باسم الجيش
الرابع ، واعتذر اليهم عن عدم تمكنه من العودة بحجة ان مشاغل
ضرورية تضطره للبقاء بضعة أيام أخرى مع شقيقه ، وأنه ما زال يفاوض
بجماًلاً بشأن المتطوعين يسافرون بالقطار الى دمشق أم يذهبون رأساً الى
القناة وقال لهم ان لا ينتظروه ، وأنه متى انتهت مفاوضاته مع جمال
عاد الى دمشق ، فرجع أعضاء الوفد وبينهم نسيب البكري وقد اتفق سرا
مع فيصل على أن يبعث له اذا تم الاتفاق على اعلان الثورة ، هذه البرقية :
« ارسلوا الفرس الشقراء . . . » .

وعمد نسيب بك على أثر وصوله الى دمشق ، الى تسفير عائلته بقطار
سكة الحديد تحسباً للطوارئ ، وراح هو نفسه يستعد للسفر .
وما انقضت ثلاثة أيام حتى استلم البرقية المتفق عليها ، وكان ذلك في
الاسبوع الأخير من شهر مارس سنة ١٩١٦ ، فأيقن ان كل شيء قد انتهى ،
وفي التوجه الى قرية « القابون » وكان لا يزال فيها أولئك الفرسان
الذين جاءوا برفقة فيصل يوم قدومه من مكة الى دمشق ، فأبلغهم نبأ

اعلان الثورة وهرب واياهم في منتصف تلك الليلة الى الحجاز وانضم اليهم
خالد الحكيم ، وقد سلك بهم دليلهم طريق العراق .

وكان جمال باشا يومئذ غائبا في بيروت ، فلما عاد الى دمشق بعد
يومين وعرف بسفرهم أصدر الأمر بمطاردتهم ، ولكن القوات المختلفة التي
قامت بهذه المهمة لم تجد لهم أثرا .

وبعد أن تم الاتفاق على اعلان الثورة قابل على وفيصل فخري باشا
يوم ٣٠ مارس وأطلعاه على مضمون البرقية الأخيرة التي بعثها أنور باشا
الى أبيهما وقد توعدده فيها بقوله : « يجب على كل موظف أن يلزم حدود
وظيفته فلا يتجاوزها ولا يتدخل في شئون الدولة والا اضطر الى اتخاذ
الاجراءات اللازمة في مثل تلك الأحوال . ويجب ارسال المتطوعين بلا تردد
واستدعاء على من مكة » وأفهماه أنهما بعد تلك البرقية لم يعد باستطاعتها
المداومة على العمل ، وان أحدهما عليا سيرجع الى مكة عملا بإشارة
الشريف .

فاعتذر فخري باشا قائلا ان ما ورد في البرقية نتيجة تسرع وأنة
لا بد من تسوية هذه الأمور في المستقبل ثم تقرر أن يبقى فيصل في المدينة
ليقود المجاهدين ويسير بهم الى القناة بدلا من شقيقه .

وبرح على المدينة في أول يونيه وتوجه الى « سيدنا حمزة » حيث
معسكر المتطوعين على أن يبيت فيه ليلته ثم يسافر في الصباح الى مكة ،
ورافقه أخوه لوداعه على أن يرجع بعد سفره الى مقره في المدينة . ففضى
الاخوان ليلتهما تلك في ذلك المعسكر وفي الصباح التالي (٢ يونيه)
كتبنا كتابا مشتركا الى فخري باشا وبصري باشا وسلماه الى مرافق
فيصل وهو ضابط تركي ، وهذا مضمون الكتاب :

« حيث ان رجال الحكومة أساءوا فينا الظن ، ولما كان ذلك يحول
بيننا وبين الاستمرار في التعاون مع الحكومة فقد عدنا الى مكة بناء على
البرقية التي تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء » .

وعلى الأثر ركبنا وحاشيتهما و ٢٠٠ هجان الى مكة ، سالكن الطريق
الشرقي الى أن وصلنا الى « الحائق » - إحدى المراحل على طريق المدينة
مكة - فنزلا فيها ثم غادراها في صباح ٣ يونيو الى الحساء « بيار على »
قرب المدينة ، ووجهنا الرسل الى القبائل يدعوانها الى الانضمام تحت

لواء الجهاد ، وما انقضى أسبوع حتى وافاهم نحو ستة آلاف مقاتل فهاجما السكة الحديدية من محطة المدينة ومحطة المحيط لقتالهم وعاد العرب في اليوم التالي الى محطة المحيط ذاتها فخرج فخري باشا بنفسه لمقاتلتهم على رأس قوته ، واستمر القتال حتى الظهر وانتهى بتراجع العرب حتى « بير الماشي » لنفاد ذخائرهم ، ومنها ارتدوا حتى الغدير ، وهنا افترق الاخوان فسار فيصل الى « ينبع » ، وبقي على وحده ، وشمر عن ساعد الاستعداد للنضال قبل اعلان الثورة بصورة رسمية .

ولكن ماذا في مذكرات جمال باشا عن المقدمات التي سبقت الثورة . . كتب جمال باشا يقول :

« لما بلغ فيصل المدينة كتب الى معربا عن سروره لأن شقيقه عليا سيقابلني قريبا ، وبما أن الشريف حسينا سألني ان أرسل اليه مبلغا من المال لانفاقه على المجاهدين أبرقت الى محافظ المدينة بأن يسلمه ما طلب وذلك قبل اعلان الثورة بيوم أو يومين » .

« وبينما كنت في بيروت يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٦ دعاني فخري باشا من المدينة وحادثني بالتليفون قائلا : « ما زالت العلاقات حسنة مع الشريفين علي وفيصل منذ وصولي الى هنا ، وقد دعواني أمس الأول لزيارة مقام « سيدنا حمزة » - في ضاحية المدينة - حيث معسكر المتطوعين . فذهبت وتغدينا معا وقام هؤلاء بالألعاب الفروسية وأنشدوا الأناشيد الحماسية . ودعيت مساء أمس الى منزل الشريف علي فقضيت فيه وقتا . ومع اننا اتفقنا على ان تسافر أول كتيبة من كتائب المتطوعين في هذين اليومين الى درعا فقد تبدل الموقف صباح اليوم تبديلا عظيما ، اذ حمل الى أحد رجال الشريف علي ثلاثة كتب ، الأول لي والثاني والثالث من الشريف حسين ، أحدهما لك والثاني للمصدر الأعظم . وبما أنهما مكتوبان بالأرقام فقد بادرت بارسالهما اليك . أما الكتاب المرسل لي فهذا فحواء : « بناء على الأوامر الصادرة من والدي سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين ، ولهذا عقدت النية على العودة بالموجودين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا . واني آسف لاضطراري الى الرخيل دون ان أودعك فأرجو قبول عذري » .

ويذكر جمال باشا ان الشريف الحسين قال في كتابه اليه : « انه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك في حملة القناة قبل ان تجاب المطالب التي طلبها في برقيته وقبل ان تكف الحكومة عن خطة الايهام حوله » .

« وكان الحسين قد كتب الى الصدر الأعظم قائلا :

« أنا لا أعرف أى الرجلين أصدق أهذا السياسى الذى أتعامل معه مباشرة (يعنى به جمال باشا) ولطالما أظهر المجاملة والود ، أم ذاك الذى استعمل معى ألفاظا جارحة ؟ (يعنى به أنور باشا) ، فانى لذلك مضطر لقطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى طلبتها من أنور باشا قبل شهرين » .

وذكر جمال أيضا انه أخذ رسالة بالأرقام من الأمير فيصل ، وكان قد أعطاه مفتاحا لها قبل رحيله الى المدينة ، قال له فيها :

« لقد صدر الأمر بوقف نقل المتطوعين الى سوريا لأسباب أرجو أن أبسطها لك شخصيا فى اجتماعنا المقبل . وقد ساءتنى جدا الحالة الجديدة التى نشأت ، ولما كان من بواعث الألم أن لا تقع عينى عليك ثانية قبل تسوية الأمور تسوية مرضية فأتشرف بإعلامك اننى ذاهب الى مكة لقضاء بعض الوقت » .

ونعود الى الحديث عن التطورات التى طرأت على الساحة العربية والتركية قبيل دخول تركيا الحرب الى جانب الألمان .

« وما كاد الاحتمال بدخول تركيا الحرب يتأكد - جورج أنطونينوس - حتى أرسل عزيز على من معزله فى مصر رسالة قاطعة الى الأعضاء البارزين فى (جمعية المهد) يناشدتهم فيها بالألا يغريهم أحد للوقوف من تركيا موقف العداء لأنها اذا غدت محاربة تعرضت ولاياتها العربية الى الغزو الأجنبى ، ويؤكد لهم ان واجبهم يقضى بالبقاء فى صف تركيا ما داموا غير حائزين على ضمانات قوية تبعد محاولتهم نحو أطماع أوروبا . وقام زعماء (جمعية الفتاة) من جانبهم باتخاذ قرارهم المائل . وعلى هذا اتحد رأى الجمعيتين وأصبح ههما الأول معرفة مبلغ نجاحهما فى انتهاز الفرصة التى أتاحتها الحرب للحصول على ضمانات ملزمة تحقق للعرب استقلالهم فى المستقبل . وكان الأعضاء يجهلون آنشد تبادل الرسائل بين كتشنر والشريف .

كان هذا اتجاه زعماء العرب عندما زار فيصل دمشق وانتسب بعد حلف اليمين الى الجمعيتين الواحدة بعد الأخرى فأعجب إعجابا شديدا

بالتنظيم في (جمعية المهدي) اذ كان في مقدور زعمائها اثارة الجيش في الوقت الذي يختارونه ، فان الفرق العثمانية المرابطة في الشام في تلك البرهة كانت مؤلفة من كثرة غالبية من العرب وكان ضباطها ، وأكثرهم من أعضاء الجمعية ، على استعداد لأن يقوموا مع رجالهم عند أول اشارة . وقال جمال باشا في مذكراته التي نشرت بعد الحرب : « ان الدسائس الأجنبية لو نجحت في اشعال الثورة لما وجدنا طريقا لقمعها وكانت الدولة تخسر بنتيجة ذلك جميع ولاياتها العربية » .

كان الخوف من أن تؤدي الثورة الى ابدال الحكم الأجنبي بآخر مثله يحمل الزعماء على الأعراض عنها . وانتسب فيصل الى الجمعيتين تدفعه حرارة المؤمن الذي اهتدى حديثا لأن تمسكه بالأتراك كان ناشئا عن هذا الخوف نفسه وعن عدم وثوقه من استعداد العرب استعدادا كافيا . وأطلع الزعماء على عروض كتشنر واختلاف الرأي بينه وبين عبد الله وسياسة الحذر التي يتبعها الحسين وبعد ذلك تركهم ليقلبوا الأمر على ضوء هذه المعلومات الجديدة واستأنف سيره الى القسطنطينية فبلغها يوم ٢٣ ابريل لانجاز القسم الظاهر من مهمته .

أقام فيصل في القسطنطينية أقل من شهر فكان موضع رعاية والتفات بالغين وفسح له المجال لبسط وجهة نظر أبيه بكاملها فجرت مباحثات كثيرة بينه وبين الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم وطلعت بك وزير الداخلية وأنور باشا وزير الحربية وحظي مرتين بالمثول أمام السلطان . فأظهر الجميع عطفهم على قضيته ولكنهم أفهموه بأن العلاج في يد والده نفسه فما عليه الا أن يعلن موافقته على الجهاد حتى يسهل تعديل الموقف في الحجاز لصالحه وعندئذ يستطيع أن يفوز بترضية تامة . وكتب كل من الصدر الأعظم وأنور وطلعت الى الشريف بهذا المعنى وكان كتاب أنور المؤرخ في ٨ مارس أشبه الثلاثة اذ شرح للشريف الوضع الحرجي في الدردنيل وأوضح انتصار ألمانيا والتمسا في دونيتز بشيء من المبالغة والادعاء وأكد الصبغة الدينية للحرب مصرا على الحسين بلزوم تأييد الجهاد .

عاد فيصل الى دمشق يوم ٢٣ مارس فوجد أن زملاءه أعضاء جمعيتي (الفتاة) و (العهد) قد اتفقوا في غيابه على خطة موحدة للعمل وأعدوا بيانا بالمطالب التي يتوقف على تحقيقها تعاون الزعماء العرب مع بريطانيا العظمى ضد تركيا واقترحوا أن يحمل فيصل البيان الى مكة ويطلب من

أبيه أن يستوضح الحكومة البريطانية عما إذا كانت محتوياته مقبولة لديها
للبدء بالعمل المشترك . وبالنظر الى أهمية البيان نثبته فيما يلي كاملا :
« اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن
الحدود التالية :

شمالا : خط مرسين - أضنة حتى درجة ٣٧ شمالا ومنها على امتداد
خط بريجيك - أورفه - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمر - عمادية
حتى حدود فارس .

شرقا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس .

جنوبا : المحيط الهندي (خلا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي) .

غربا : البحر الأحمر والبحر الأبيض حتى مرسين .

الفاء الامتيازات الأجنبية :

عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة
العتيدة . منح بريطانيا الأفضلية في الشؤون الاقتصادية :

هذه هي الشروط التي اذا تحققت كان زعماء العرب على استعداد
لتأييد ثورة عربية يعلنها شريف مكة فيبدلون كل ما في وسعهم لمساعدة
قضية الحلفاء .

يعتبر هذا البيان الذي أعد في دمشق وثيقة هامة جدا لا بالنظر
الى محتوياته فحسب بل كذلك بسبب الدور الذي لعبه فيما بعد حين
استفاد منه الحسين في مفاوضاته مع بريطانيا العظمى التي استؤنفت في
شهر يولية المقبل .

لقد صيغت هذه الوثيقة بعبارات مقتضبة بالقدر الذي يسمح به
مؤداها واتخذت شكل بيان مختصر بالمبادئ العامة وذلك كله ناتج عن
الكتمان الشديد الواجب احاطتها به ومع ذلك فقد كانت صريحة جدا في
أمرين :

استقلال العرب والتحالف مع انجلترا . ولعل قيمتها الرئيسية
كوثيقة تاريخية نشأت عن أنها كشفت موقف العرب من دول الغرب .
كان الاستقلال هدفهم وهو استقلال تام متحرر من كل تدخل أجنبي بما

فى ذلك التدخل المعروف باسم الامتيازات الأجنبية فاذا تعهدت انجلترا بالاعتراف باستقلال العرب فانهم يرحبون بحلف يعقد معها .

أعرب فيصل فى المناقشات التى جرت بعد وصوله دمشق عن شكه فى قبول الحلفاء هذه الشروط لأنه كان شديد الارتياح بنواياهم ولكنه وافق على انها تمثل الحد الأدنى لمطالب العرب التى يمكن أن تبرر الدعوة الى الثورة ووعد بالاسراع فى العودة الى مكة لعرضها على والده ونيل موافقته . وبعد ذلك أقسم الزعماء الستة البارزون يمين الاخلاص التى تعهدوا فيها بالاعتراف بالحسين كوكيل للدفاع عن قضية العرب كما تعهدوا بأن تشور جميع الفرق العسكرية المراقبة فى الشام حالما يتوصل الحسين الى الاتفاق مع بريطانيا على أساس البيان ، وفى سبيل دعم هذا التعهد سلم الشيخ بدر الدين الحسينى ، وهو كبير علماء الدين فى دمشق ، فيصلا ختمه ليحمله الى الشريف كدليل على ثقة الشام به .

وأخذت الحوادث تسابقهم فقد أمر الترك بنقل إحدى الفرق العربية المراقبة فى الشام الى جنابق قلعة وكان يخشى نقل غيرها دثلها ولكن سفر فيصل لا يتم بدون مقابلة جمال باشا الذى كان غائبا فى رحلة تفتيشية فى جنوب سوريا .

وبدلا من انتظار عودة جمال توجه فيصل الى بيت المقدس حيث استأذنه بالسفر ثم عاد الى دمشق ومنها استقل القطار الى المدينة ومعه نسخة عن البيان مكتوبة بخط صغير جدا وقد خيطة فى داخل حذاء أحد أتباعه .

وفى يوم ٢٠ يونيو وصل مكة وقدم لوالده تقريراً مفصلاً بنتيجة مهمته شارحا كيفية اقتناعه بفكرة الثورة فى حالة قبول المطالب المذكورة .

واستجوبه الحسين استجوابا دقيقا بصرامته المشهورة مع أولاده وقد قال فيصل فيما بعد : « كان ذلك الأسبوع من أشد أسابيع حياتى على » .

وفى هذه الفترة قامت السلطات البريطانية فى مصر بما يمكن لدرء الخطر الناجم عن الدعوة الى الجهاد وكان الشخصان الرئيسيان العاملان فى هذا المضمار فى البدء هما السكرتير الشرقى المستر رونالد ستورز ورئيس الاستخبارات العسكرية نائب الزعيم (الديوتنانت كولونيل) ج. ف. كلايتون . وفى يناير عام ١٩١٥ باشر السير هنرى مكماهون عمله كمندوب

شام فى مصر والسودان وكان السير رجينالد وينغيت ، كما ذكرنا سابقا ،
حاكما عاما للسودان فاشترك هؤلاء الأربعة فى وضع أساس العمل .

شرح ستورز وكلايتون بأحاديث مع قادة العرب المقيمين فى مصر
وفى مقدمتهم عزيز على ومعه السيد رشيد رضا وهو فقيه مشهور وسياسى
ومصلح ومن الدعاة المتحمسين للنهضة الاسلامية العربية فكان محور هذه
الأحاديث رسائل كتشنر الى الشريف وهدفها اقناع العرب بأن مستقبلهم
يتوقف على تحالفهم مع انجلترا ثم توسعت دائرة هذه المشاورات بمرور
الأيام فلم تترك فكرة أو ميلا الا وسجلته سواء أكان صاحبه متبرعا به
أو مدعوا لابدائه . ولكن الأحاديث لم تنته الى اتفاق وهذا أمر متوقع لأن
هؤلاء القادة أمثال عزيز على ورشيد رضا الذين يتمتعون بنفوذ يكفى
للتأثير فى أنصارهم فى الشام والعراق طلبوا ضمانا استقلال العرب
كشرط أساسى للدعوة الى ثورة عربية ولم يكن اعطاء ضمانة كهذه فى
مقدور أى شخص من الأشخاص الموجودين فى مصر .

ومع ذلك فلم تذهب هذه المشاورات عبثا لأنها أقنعت السلطات
البريطانية بأن سعيها الى اكتساب العرب دون اعطائهم تعهدات معينة هو
سعى عقيم وقد وصل السير رجينالد وينغيت الى هذه النتيجة من جانبه
اذ قام بمشاورات مع السيد على الميرغنى وغيره من كبار المسلمين فى
السودان وبحث الموضوع من وجهة نظر اسلامية فأدرك أن لابد من الاسراع
فى اصدار بلاغ يحوى تأكيدات صريحة عن مستقبل بلاد العرب ومصير
الخلافة . وأخيرا أثمرت مساعى وينغيت التى أيدها كتشنر بقوة فخولت
الحكومة البريطانية مكماهون سلطة اذاعة بلاغ عام بهذا المعنى .

كان القصد من هذا البلاغ تبديد مخاوف المسلمين أكثر من تحقيق
أمانى العرب السياسية فقد تعهدت فيه بريطانيا بأن تجعل الاعتراف
بجزيرة العرب كدولة مستقلة تتمتع بالسيادة التامة فى أراضى الاسلام
المقدسة شرطا من شروط الصلح وأشارت الى استعداد الحكومة البريطانية
للترحيب بقيام خلافة عربية ، نشر هذا البلاغ فى أوائل شهر يونيو وطبع
على كميات كبيرة من المنشير التى وزعت فى جميع أنحاء مصر والسودان
وهربت الى الشام كما أن الطائرات البريطانية ألقت نسخا عنها فوق
الوجه وينبع ورابع وجدة .

تجاوزت الحكومة البريطانية في هذا البلاغ التأكيدات التي أعطاها
كتشنر في ٣١ أكتوبر عام ١٩١٤ من ناحية واحدة فقد وعد كتشنر
الشريف بحماية جزيرة العرب من الهجوم الخارجي بينما منح البلاغ أكثر
من ذلك إذ تعهد بالاعتراف بالدولة العربية المستقلة في الجزيرة وبضمان
سلامتها ولكنه سكت عن مطلب أساسي من مطالب العرب وهو أن تشمل
الضمانة بلاد الشام والعراق بالإضافة إلى الجزيرة . وبعد ذلك أخذت
الأحاديث التي بدأها ستورز وكلايتون في الحريف تفتقر فاذا ما حل فصل
الصيف ذبلت تماما .

وكان جمال باشا قد سعى سعيا حثيثا للظفر بمساهمة أهل
الشام - والمسلمون منهم بصورة خاصة - مساهمة تامة في الحرب التي
قال ، ولعله كان يعتقد ذلك بالفعل ، بأنها قائمة للدفاع عن الاسلام .
وكانت مهمته الأولى حين تولى قيادة الجيش الرابع تنظيم الحملة على مصر
ولما كان معظم الجنود الموضوعين تحت قيادته من العرب فكر بأن الحكمة
تقضى بعدم إعطائهم مجالا للتذمر وكان عند وصوله سورية يجهل وجود
الجمعيات القومية السرية أو يعرف عنها القليل فلما أطلعوه على الوثائق
التي ضببطت في القنصليتين الفرنسييتين في بيروت ودمشق قرر إهمالها
ولاسيما أن الأشخاص المتهمين فيها هم من المسلمين ذوي المكانة . وكان
نخله مطران باشا وهو مسيحي معروف الشخص الوحيد الذي اضطهده
لأسباب سياسية إذ ثبتت عليه تهمة محاولة الحصول على مساعدة فرنسا
لضم بعلبك إلى لبنان فحكم عليه بالنفي المؤبد وعرض في شوارع دمشق ثم
توفي وهو في طريق المنفى ولم تخل الوفاة من مساهمة الحكومة فيها .

ولما فشلت الحملة على مصر بسبب سوء تقدير جمال بالدرجة الأولى
عاد من جبهة سيناء وهو شاعر بالذلل في دخيلة نفسه فزاد هذا الشعور
حدة في مزاجه تظهر عادة في صغار الرجال بعد خيبة يمنون بها ، فلما
عرضت عليه أوراق تجرم قسا مارونيا في لبنان وهو معروف بميله الشديد
لفرنسا واسمه يوسف حايك لتبادلته رسائل تحوى عناصر الخيانة مع
المسيو ديشانيل رئيس مجلس النواب الفرنسي آنئذ ، وقع الحكم بإعدامه
بلا تردد فشنق هذا القس المنكود الحظ علنا في دمشق يوم ٢٢ مارس
عام ١٩١٥ .

ثم أخذت التقارير ترد بالتدريج وهي تنبئ بصورة متزايدة بوجود الدلائل على نشاط الحركات الوطنية بالسرا وأن الجيش مملوء بالمراكز التي تعمل من أجل الثورة وأن انجلترا وفرنسا لهما عمال في البلاد يسعون لاثارة الفتنة وأن نزول الحلفاء في سواحل سوريا بات قريبا وأن الضباط العرب في الجيش وعدوا بمساعدة هذا النزول ، فوقعت هيئة أركان الجيش الرابع في الخطأ الذي تقع فيه دوما دوائر الاستخبارات العسكرية عندما تحاول اقتفاء أثر حركة سياسية فكانت أذناها متفتحتين لسماع الشائعات ولكن أنفها لم يميز رائحتها . فصدقت أنباء هذه التقارير ولكنها لم تهتد الى المتأمرين الحقيقيين فأثارت مخاوف جمال وجعلته حاقدا راغبا في الانتقام ولكنه وقف ازاء ذلك مرتبكا مثله فيه مثل بوليفيموس الذي أراد انزال الضربة ولكنه لم يعرف بمن ينزلها . وفي تلك الأثناء أي في يونيو عام ١٩١٥ طلب اليه أنور أن يمدد بالجند لجبهة جنناق قلعة فأرسل له الفرقة الخامسة والعشرين المؤلفة كلها من العرب وكانت من الدعائم الرئيسية في خطة (جمعية العهد) للثورة . وأخذ جمال بعد ذلك ينتهز الفرص لاجراج الوحدات العربية من سوريا واحلال طوابير تركيا محلها .

ثم وجه اهتمامه الى المنظمات الملكية فقرر ملاحظة الأشخاص الذين تجرمهم الوثائق المضبوطة في القنصليتين الفرنسيتين فألقى القبض على عدد كبير من الناس وأحضروا أمام محكمة مشؤومة في عالية بلبنان حيث جرى استجوابهم وعذبوا ثم حوكموا فحكم على ثلاثة عشر شخصا منهم وجاهيا بالاعدام وحكم على خمسة وأربعين شخصا غيرهم ممن قروا أو كانوا في الخارج غيبا بالاعدام وبغقوبات مختلفة من حبس وابعاد وكانوا جميعا من ذوى المكانة وكان بعضهم من الشخصيات البارزة المعروفة في سائر أنحاء العالم العربي .

وجد فيصل لدى وصوله دمشق في أوائل شهر يناير التالى أن الأمور تغيرت تغيرا كليا فقد كانت الغاية المحددة لرحلته تحريك الفرق العربية في الجيش التركي للثورة واثارة الأهالي بمجموعهم ليشعلوا نار الفتنة وذلك بناء على اشارة يتلقاها من والده . وقد رافقه حرس خاص مؤلف من أربعين شخصا تقريبا كانوا جميعا مختارين وكلهم من ذوى العزم الصادق وكان الكثيرون منهم من آل الشريف نفسه وقد وضعوا أرواحهم في أكفهم مثله . وعلل فيصل وجودهم لجمال بقوله انهم يؤلفون مقدمة القوة التي طوّل الشريف بتشكيلها في الحجاز فقبل جمال التفسير على

ظاهره ورحب بهم فأقيمت الولائم والحفلات على شرفه واحتفاء بوصول هذه المقدمة فلما انتهت الاحتفالات ووجد فيصل متسعا من الوقت للدراسة الوضع ألقى نفسه أمام حالة من أعجب الحالات .

فقد تم نقل آخر الفرق العربية وفيها معظم أصدقاء أعضاء (العهد) وجيء بطواير تركيا حلت محلها كما أبعد المتبينون من الملكيين بالمشات الى جهات الأناضول النائية وبدأت المجاعة التي انتشرت فيما بعد بشكل مفزع أودى بحياة عدد كبير من الناس وكان هم السكان منحصرا في انقضاء الجوع بعد أن أفقرتهم المصادرات العسكرية وتدنى النقد وقله الغذاء . ومما زاد في الخوف العام أن السلطة اعتقلت عددا جديدا وأكبر من سابقه من الوجهاء المسلمين والنصارى الذين حجزوا في حلب بانتظار محاكمتهم بتهمة الخيانة .

ضمت هذه الزمرة بعض الأسماء التي كان أصحابها من أشهر رجال الشام وأوسعهم نفوذا مما دل على أن جمالا قد طرح سياسة الرقيق جانبا ودامت المحاكمات عدة شهور وسارت بصرامة مقصودة يرافقتها التهديد بأشكاله المختلفة من معاملة سيئة وتعذيب وتوسط الشريف ببرقيات أرسلها الى جمال والصدر الأعظم والسلطان مطالبا ألا يتجاوز الحكم السجن المؤبد اذا ثبتت التهمة ومضيفا بشيء من الوعيد أن هذا الأمر اذا لم يتم فإن الدماء المراقبة سيعقبها دماء . وتونسل فيصل بناته لدى جمال باشا ولكن وساطتهما كانت عقيمة .

كان جوزيف هاني أول الضحايا وهو من سكان بيروت المتبينين فشنق علنا يوم ٥ ابريل وبعد شهر أعدم واحد وعشرون شخصا بالشكل ذاته ، سبعة في دمشق وأربعة عشر في بيروت وكان بينهم عضو مجلس الأعيان عبد الحميد الزهراوى وهو من حمص وقد ترأس المؤتمر العربى فى باريس ، وثلاثة من مبعوثى دمشق هم شفيق المؤيد وشكرى العسلى ورشدى الشتمعة ، وضباط قدير باسل فى الجيش التركى هو سليم الجزائرى ، والقاضى سيف الدين الخطيب من حيفا ، والهامى الشاب ذو المستقبل الباهر الأمير عارف الشهابى من حاصبيا ، وأحمد طباره من بيروت هو كاتب وصاحب جريدة وكان من المؤيدين الى مؤتمر باريس العربى ، وعلى عمر النشاشيبي من القدس ومحمد الشنطى من يافا وجورج حداد من لبنان ويتمتع ثلاثتهم بشهرة واسعة بمحبة الناس لهم ، والأمير

عمر الجزائري وهو دمشقي من سلالة الأمير عبد القادر المشهور ومن المسلمين سبعة عشر شخصا والباقون من النصاري .

لم تعلن الأحكام في حينها بل دخل سجان قاعة السجن في عالية ليلة التنفيذ وقرأ أسماء واحد وعشرين شخصا من المتهمين ورجاهم بأن يرتدوا ملابسهم ويتبعوه فنقل الذين تقرر اعدامهم في دمشق بالقطار وعند وصولهم سيقوا الى ساحة المرجة وهي أكبر ميدان في المدينة حيث نصبت سبع مشانق ونقل الآخرون في عربات الى بيروت فعرفوا مصيرهم بالحس وراحوا يقتلون ساعات الظلام بالأناشيد الوطنية التي تتغنى بحرية العرب فكانت كل جماعة تجيب الأخرى من عربتها حتى وصلوا ساحة الحرية عند الفجر وما كادت تدق الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم السادس من شهر مارس حتى كانت المجزرة منتهية ، ولم تمض عليها ساعتان حتى صدر عدد خاص من جريدة (الشرق) وزع مجانا وفيه بيان بالتهمة والمحاكمة والأحكام وتنفيذها وقد ذكرت كلمة دفعة واحدة ووصفت التهمة بأنها اشتراك في أعمال خيانة غايتها فصل سوريا وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية لتشكيل دولة مستقلة .

سرت في البلاد فشعريرة من الاشمزاز اذ لم يتوقع أحد من جمال بطش كهذا حتى الذين يعرفون ما يخفيه في أعمال نفسه من وحشية . ومما زاد في فظاعة الأمر أن الأحكام نزلت بالأبرياء والمذنبين على السواء فقد كان معروفا عن الكثيرين من الشهداء أنهم بعيدون تمام البعد عن كل ما يتصل بالخيانة فاستولى الفزع على عامة الناس فورا وأصيب الزعماء القليلون الذين لم تتعرض لهم السلطة بالذهول لأنهم لم يتوقعوا حتى في أخرج الأوقات أن يحكم على هذا العدد الكبير من زملائهم بالموت ولما أدركوا أنهم عاجزون عن العمل فاضت قلوبهم بالألم وهم يشاهدون حرياتهم المخنوقة وفكروا بالواجب الذي يدعوهم الى التحرر لا رغبة في ذلك لذاته فحسب بل أيضا كوسيلة للانتقام . وتأثر فيصل كثيرا فتجاوز حدود الحكمة اذ حاول اقناع جمال بضرورة انقاذ أحرار العرب ، واذا بقي في نفسه أي شك في صحة الثورة على الترك فان شعوره الهائج واشمزازة قضيا على ذلك الشك فأرسل حين سمع باعدام أولئك الأحرار صيحة ما لبثت أن اتخذت نداء حربيا للثورة العربية .

كان الأمير فيصل مقيماً في مزرعة آل البكرى في القابون يوم شنق الأحرار وهي قرية تبعد خمسة أميال عن دمشق وكان يتناول طعام الصباح مع مضيفه في الحديقة حين تلقوا النبأ على يد رسول سلمهم العدد الخاص من جريدة (الشرق) الذي حوى الحكاية البشعة فقرأ أحد أبناء البكرى بصوت مرتفع وأخذ السامعون يتنبهون الى فداحة الخطب كلما اهتز المكان حزناً عند ذكر اسم من أسماء الواحد والعشرين شخصاً وبقيت رنة الأسى متعلقة بالفضاء الساكن في صباح ذلك اليوم من أيام الربيع في غوطة دمشق وكأنها نحيب مفجوع . ومرت الدقائق الطويلة والجمع في صمت رهيب لا يقطعه الا تمتمة بدعاء والا الرحمة يستنزلونها همساً على روح الشهداء وقرأ الفاتحة أحد الحاضرين ثم وثب فيصل واقفاً كمن أصابه فجأة مس من الجنون وانتزع كوفيته من رأسه وألقاها على الأرض ودانها بعنف وهو يصيح : طاب الموت يا عرب .

شرع الحسين بالعمل فور تلقيه نبأ شنق الشهداء فقد كان دائماً بنشاط على اتمام استعداداته ولا سيما منذ أن أعلمه جمال بأن قوة قوامها ٣٥٠٠ من الجند ستمر بالحجاز في طريقها الى اليمن وكانت هذه القوة التي يقودها خيرى بك مؤلفة من جند مختارين ومجهزين تجهيزاً خاصاً وهي موجهة لتعمل بالتعاون مع بعثة المانية حربية يقودها البارون أوثرافون ستوتزبنغن ولم يكن في نية الحسين أن يسمح لعدد كهذا بأن يمد الحامية التركية في الجزيرة ولذلك سعى أن يقطع عليه الطريق قبل وصوله .

كانت القبائل على استعداد للثورة بعد أن فاتح الحسين شيوخها بالأمر فتعهدوا بمؤازرته ولكن معظم أفراد هذه القبائل لم يكونوا مجهزين تجهيزاً كافياً وكان الحسين يرسل مكماهون بشأن ارسال المال والبنادق والعتاد وطلب أن ترسل هذه الأشياء الى بورسودان حيث تنتظر إشارة منه فتحملها المراكب الصغيرة الى مكان أمين ترسو فيه على ساحل الحجاز وطلب كذلك أن تضرب البوارج البريطانية الحصار على موانئ الحجاز لكي يضغط بشكل غير مباشر على التجار وغيرهم من السكان الذين ما زالوا مترددين في اتجاههم السياسى . وكان مستمراً في محاولته إثارة الفتن في الشام لكي تقوم في وقت اعلان ثورته في الحجاز .

تلقى فيصل الأمر بالعودة بعد شنق الشهداء في مارس بأيام قليلة وكانت صيغة هذا الأمر تدل على قرب قيام الثورة بحسب الرمز المتفق عليه بين الأب وابنه فكانت المشكلة التي تجابهه الآن هي كيفية العودة الى مكة واعداد ما يلزم لعودة حرسه دون اثاره شكوك الترك .

لعب فيصل لعبته ببراعة تامة فقد طلب موعدا لمقابلة جمال وفاتحه بشأن المجندين في الحجاز وأعلمه أن عددا كبيرا من الذين لبوا دعوة أبيه قد حشدوا في المدينة استعدادا للسفر الى دمشق وسأله رأيه في مجيء أحد أبناء الشريف على رأسهم لكي يضيف على حضورهم حلة من الجلال فوق الباشا في الفخ ولم يكتف بقبول الفكرة بل اقترح أن يكون فيصل نفسه على رأس هؤلاء المجندين ممثلا للشريف ورغب فيصل في احكام اللعبة فاعترض على ذلك موضحا أن للحسين ولدين أكبر منه سنا فيجب تقديمهما عليه ولاسيما أن وجودهما الآن في الحجاز يساعدهما على جلب حاشية من أعيان الحجاز ورجال الدين فيه فأجاب جمال : « ولكنى أرجوك أن تذهب على كل حال وليأت أحد أخويك اذا استطاع ولكن ذهابك الى المدينة ضرورى لتعجيل الاستعدادات وسترافقك حاشيتك الخاصة » .

عمل فيصل اللازم لبقاء حرسه في القابون كضيوف على آل البكرى واختار نسيبا البكرى ليرافقه الى المدينة ويعود معه التعليمات الباتة عن وقت مغادرتهم وكيفية حركتهم .

غادر فيصل دمشق يوم ١٦ مارس وبرفقته نسيب وثلاثة أو أربعة من الوجهاء أوفدهم جمال معه وكان أخوه على اتصال دائم بأبيه وعلى علم بقرب قيام الثورة التي يحتمل أن تقع قبل الوقت الذي عينه الشريف لأن القوة الخاصة بقيادة خيرى بك وصلت المدينة وكانت التعليمات الموجهة الى على تقضى بلزوم منعها من السير على مكة مهما كلف الأمر أما بعثة فون ستوتزينغن وهي المتزمة لتلك القوة فقد اضطرت لترك القطار في محطة الملا التي لا يجوز لغير المسلمين تجاوزها وتوجهت غربا نحو الوجه لكي تسير منه بطريق الساحل الى جدة وقنفده .

تلقى على يوم ٢٤ مارس تعليمات جديدة من والده يقول له فيها :

انه لم يبق ما يدعو الى التأجيل بعد عودة فيصل وأن عليه تعيين يوم قيام الثورة في المدينة واعلام أبيه به في الوقت المناسب ويترتب عليه كذلك اخبار رؤساء العشائر . فبحث الاخوان هذا الأمر وحيدا يوم

الاثنين ٥ يونيو وبعثا بالنبا الى أبيهما مع مطالبته ، بنساء على اقتراح
فيصل ، باعادة الكرة على الحلفاء وأن يلح في طلب قيادهم بظاهرة حربية
على سواحل سوريا . ومن ثم أرسل على الرسل الى رؤساء العشائر وأوفد
فيصل نسيبا الى دمشق على جناح السرعة ليهيئ خلاص الحرس .

وفي صباح ٥ يونيو خرج الاخوان عند الشروق راكبين الى قبر
حمزة حيث معسكر الألف والخمسمائة رجل الذين جندهم الشريف وأعلنوا
تحرير العرب من حكم الترك باسم شريف مكة ومن ثم أطلقا لفرسيهما
العنان وفي أسرهما المجندون من رجال القبائل في المكان المعين من جنوب
شرق المدينة .

وتنتقى بعض الصور الهامة من مذكرات الأمير (الملك) عبد الله
لتبيان تطور العلاقة بين شريف مكة الحسين بن علي وبين دولة الخلافة
العثمانية .

ونبدأ بصورة للقاء الملك عبد الله وأنور باشا سبقه لقاء عاصف
في مكتب أنور باشا مع الشيخ عبد العزيز جاويش (شاويش) كما جاء
في مذكرات الأمير (الملك) عبد الله .

وكان الأمير عبد الله قد دخل على أنور باشا فحياه ولما جلس قال
له ما هذا ؟ نحن نريد لو استطعنا ان نخلق من الشجر رجلا لنضيفهم
على أعدادنا ، والحجاز يقتل فيه رجال الأمن ، كما وقع على مدير الجندرية
والدفتردار ولكن والحمد لله انتهت الأزمة ، فنرجو منك السعي لاستبعاد
كل أثر سيئ في قلب والدك ، فانه في منتهى درجات الاعتماد والحرمة لدى
الدولة .

فقلت له :

انك تقلب بقهرمان الأمة ، ومع ذلك فأنا لم أستطع الدخول اليك
الا بعد أن أخذت الى أكثر من مكان وطلبت منى بطاقات وأوراق هوية .
ثم اننى وجدت هنا في غرفة الانتظار الشيخ عبد العزيز شاويش ، فأخذ
يهاجمنى بما يقارب أقوال الوزير الآن ، ويعرض وساطته في تسوية الأمر
بين الدولة والشريف ، وهو عبد العزيز شاويش ، فأخذ يهاجمنى بما

يقارب أقوال الوزير الآن ، ويعرض وساطته فى تسوية الأمر بين الدولة والشريف ، وهو عبد العزيز شاويش ، والشريف يرث الصداقة بينه وبين السلاطين العظام من عهد أبى تيمى والسلطان سليم الى اليوم . فاذا كانت الأمور انقلبت الى هذا الحد ، فلا سبيل الى ما تريد . وبالنسبة لما وقع فى الحجاز ، ما الذى تظنه أن يقع من رجل كوهيب بك ، يرسل الى بلاد مقدسة لها تقاليدها وحققها ، فيريد الاعتداء على تلك التقاليد وذلك الحق ؟ لقد أرسلتم هذا الرجل ليقع ما وقع . وأنا على علم من أنه رفض ولاية البصرة خوفا من السيد طالب النقيب . فهو كما قال الشاعر :

أسد على وفى الحروب نعامه ربداء تجفل من صغير الصافر

قال أنور باشا وعلائم الدهشة على وجهه :

حسبى الله ونعم الوكيل . ما لهذا الانسان لا يعرف حده ؟ أرجوك أن لا تؤاخذ به وأما ما رأيت من حراسة وتحوط فالذى حدث للصدر الأعظم محمود شوكت باشا أوجب على المسئولين عن الأمن العام أن يتخذوا هذه الاجراءات فعذرا . واننا دائما نحب أن نعمل بنصائح سيادة الشريف وإشارته . أما وهيب بك فأنا لم أطلب أن يكون واليا على الحجاز .

وأنهى حديثه الى بأنه يرغب فى لقائى فى كل فرصة ممكنة ، فقلت له بأن اجتماعنا يكون مفيدا جدا ، ثم قمت مستأذنا وخرجت .

وفى اليوم التالى كنت عند الصدر الأعظم فى داره ، واذا بطلعت باشا هناك - وهو وزير الداخلية وقد ولى الصدارة بعد ذلك أثناء الحرب العامة - واذا بهما على غير ما رأيتهما بالأمس ، فقد كانت تبدوا على وجهيهما آثار الغضب ورأيتهما ينظران الى شزرا .

وتكلم طلعت باشا يخاطبني قائلا :

اسمع ، انه لا يهمنا تغيير الولاية فى كل شهر ، ولكن الذى يهمنا هو انشاء الخط الحديدي من المدينة الى مكة ومن جدة الى مكة ومن ينبع الى المدينة فان قام والدك بمسئوليته فى هذا الباب عملنا له كل ما يريد . وان رفض فلا وداد ولا بقاء . اليك هذه الشروط للشريف .

ثلث دخل الخط يصرفه كما يشاء ، وله الامارة مدى الحياة ومن بعده لأولاده . وستوضع تحت أمره القوة الكافية لتأمين التنفيذ ، وستتصغى

الدولة الى مشاريعه فى هذا الباب ، وستضع تحت يده ربع مليون ليرة ذهباً ينفقها على العربان .

فسافر فى أول باخرة بهذه الاقتراحات ، ونحن ننتظر الجواب ، فان رضى وبلغنا بالرضا ، تسافر أنت عندئذ الى المدينة المنورة لتجد شيخ الاسلام خيرى أفندى ينتظرك هناك لتباشر وضع أساس الخط ، وان رفض فلا عتب .

قلت : هل لى أن أجيب ؟ فقال : هذا قرار الدولة . قلت :

سأبلغ سيادته وسيرفض ، لأنه سيعتبر هذه الأقوال رشوة وحقارة ، وهو لا تهمه الامارة ولا تهمه الدراهم ولا عليه أن يتولى أبناءه الأمر من بعده أو غيرهم ولكن بلغوه أن يكتب اليكم برأيه اقامة الخط وما ينبغى له ، وسترون أنه سيدلى لكم بخير النصائح .

وهنا قال انه سيطلب لجنة للتحقيق ، ثم استدرك مستشهدا بقول نابليون واذا أردت اعاقه أمر فأحله الى اللجان .

ونهضا واقفين فوقفت ، وسألنى سعيد حليم باشا قائلاً : متى تسافر ؟ فقلت : فى أول باخرة . وكان السفر فى اليوم التالى على الباخرة الرومانية « كارول » .

وعدت الى الحجاز أحمل الشروط المغربية . ولما وصلت جدة علمت أن الوالد بالطائف فسافرت اليها على التو ، وعرضت على والدى الأمر بالتفصيل ، فقال : هل يرشوننى ؟ صدق من قال ان المرء ينظر الى غيره بعين نفسه .

وأبرق اليهم :

وصل ابنى عبد الله ونقل التنسيبات والمقررات العلية من الصدر الأعظم بخصوص تمديد الخط الحديدي الحجازى الى مكة المكرمة . ليس هنالك ما يستحق التفكير فيما يخصنى ، وأنا متنعم بنعم الخلافة . واننى سأبعث اليكم مع ابنى وفى أول فرصة بما يلوح لى عن امكان اتمام هذا الغرض السامى دون أن يمس ذلك مدار معيشة العشائر سكان البلاد المقدسة .

ثم خرج الوالد الى مران للنزهة والترويح عن النفس . ومران هذه الى ناحية الشرق من الطريق الشرقى وسطا بين مكة والمدينة ، وهى على حد سهل من جبل جميلة المناخ عذبة الماء .

ومن ثم أمر بغزو الدواسر ووجهنى على رأس الحملة .

ولما عدت الى مكة المكرمة وجدت البرقيات من الصدارة تلح فى طلبى الى استانبول .

فسافرت بلا ابطاء . . واستقبلنى أخى فيصل على رصيف استانبول - وكان حين ذاك مبعوث جدة - فألقيته غير مرتاح الى الوضع بين الوالد والباب العالى ، وقال لى ان تأخر ك أعضبهم : فقلت له : لا عليك .

وكان البوليس اقتحم الباخرة وفتشها وألقى القبض على عدة رجال من الأرمن كانوا يعملون وقادين فى السفينة ، بينما هم فدائيون أرسلهم حزب الحرية والائتلاف من مصر للفتك بأنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا . ولقد ساورنى القلق اذ ذاك ، لما كان لى من يد مع هذا الحزب فى هذه المسألة . .

وفى اليوم التالى ذهبت الى الصدر الأعظم وقلت له ان والدى يقر ثكم السلام ويقول انه خادم الخليفة ولا يعارض فيما يراه جلالته من مشاريع ، وانه مستعد للتنفيذ حالا ، ولكن اذا كان اتمام بناء الخط وتأمين ولاء العشائر ومعاشهم هو ما يريد جلالته وتريده الحكومة ، فلذلك وسائل لا تقتضى ربع النفقات التى بينتموها لى . غير أن والدى يرى من المناسب أن تؤلف لذلك لجنة يرأسها هو ويكون فيها صاحب السماحة شيخ الاسلام وأى وزير من الوزراء . وان كانت الرغبة منصرفة الى اقامة الانشاء تحت أى شرط يكون فينبغى توظيف فرقة عسكرية بكاملها على طريق السمكة واشغال المياه والقرى بين المدينتين ، ثم بعد ذلك تكون البداية فى العمل .

عدت الى الحجاز وأطلعت الوالد على حقائق الأمور ، فكتب رسالة السلطان محمد رشاد وبعث بها الى (المابين همايون) أى البلاد الملكى ، ذكر فيها حالة أوروبا ، وصور الاتفاق المثنى بين روسيا وفرنسا ، والمعاهدة الثلاثية بين المانيا والنمسا وايطاليا ، وللتفاهم الثلاثى بعد دخول انجلترا الحرب الى جانب الفرنسيين والروس بسبب اجتياح الألمان لبيلجيكما .

قال شريف مكة في رسالته الى السلطان محمد رشاد :

تعلمون جلالتكُم أن الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه
وان الدولة الآن في حاجة الى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم الى
الآن ، وانه في الدخول الى جانب المانيا الخطر العظيم ، حيث أسلحة الدولة
كلها من المانيا وكذلك عتاد هذه الأسلحة ، وان المعامل العثمانية لا تكفى
لامداد الجيوش بالعتاد اللازم ، ولا تستطيع امداد الجيوش بما يمكن أن
تخسره من مدافع وأنواع الأسلحة الأخرى .

ثم ان الأقطار المترامية الى الجنوب من جسم الدولة ، كالבصرة واليمن
والحجاز ، محوطة من كل ناحية بقوات مستعدة من الدول المعادية البحرية
وستصبح في أخرج المواقف . وربما اتكلت الدولة في الدفاع على حماية
أهلها وهم ليسو منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة
جيوش أوروبا المنظمة .

وعليه فاننى أستحلف جلالتكُم بالله أن لا تدخلوا الحرب ، وأن
تعلموا بأننى أعتقد فى كل من يرى الحرب الى جانب الألمان عدم التمييز
أو الحيانة الكبرى .

وقد وصل هذا الكتاب قبل اعلان الحرب . وفى شهر رمضان زار
الوالى وهيب بك الأمير بالطائف ، وقال له : ورد لى برقيسا من وزارة
الداخلية ووزارة الحربية بأن استطلع رأيكم السامى فى اشهار الحرب على
روسيا وانجلترا .

فرد عليه الأمير قائلا : أنا لا أرى أن أجيب على هذا بشئ بل ليرد
الى السؤال برقيا فيسجل ويسجل جوابى عليه ، ولكنى أقول لك كجندى
شريف انى لست بالخائن حتى أشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التى
لا ناقة لها فيها ولا جمل فنحن محاطون هنا بالدول العظمى البحرية ،
وأنتم ستمتشغلونكم جيوش روسيا وجيوش الانجليز بمصر ، مع أنكم غير
متصلين بحليفاتكم المانيا من البر ، وصربيا معادية ورومانيا معادية .

فقال الوالى بعد أن مس لحيته بيده - وكان ملتحيا - (هى ورقة نريد
أن نقذف بها على مائدة الميسر) . فقال له الأمير : عجيب . . أبالأمة
تقامرون ؟ !

وبعد أربع وعشرين ساعة وردت برقية من الصدر الأعظم وبرقية من وزير الحربية أنور باشا بالسؤال نفسه . فأجابهم رحمه الله بأنه قد قدم رأيه ونصيحته الى جلالته السلطان بعريضة خاصة مفصلة وأنه يكرر النصيح بعدم دخول الحرب ضد روسيا وفرنسا وإنجلترا ، ويعتبر الدخول في الحرب خيانة للأمانة على الأمة ، وأنهم ان كانوا عزموا على هذا ، فقبل نشوب الحرب يجب عليهم أن يزودوا الجيش الخامس باليمن بما يكفيه لثلاث سنوات وباحتياطي لما يطلب من مجاهدين ، وكذلك يجب أن يفعلوا للفرقة العسكرية بعسير وبالحجاز . وانه يجب الاسراع في هذه المدة بخزن المؤن في هذه الولايات لمدة لا تقل عن خمس سنوات ، وان لم يفعلوا هذا فانهم يضعون هذه البلاد في أخرج مركز قد يفضى بهم الى ما لا تحمد عقباه .

فجاءت برقيات جوابية بأن الدولة قد فكرت في كل شيء وأنها تشكر لسيادته نصائحه .

ثالث تلك الصور . . . وكان قبل وصولي الآستانة بيوم ، قتل ولي عهد النمسا وزوجته بسراجيفو ، وتوترت الحال بين روسيا والنمسا ، واضطر الامبراطور غليوم الثاني أن يعود الى برلين من رحلته البحرية في البلطيق .

في تلك الاثناء زرت الصدر الأعظم لأتلقى الجواب ، فقال انه مسافر الى لاهاي ليجتمع هناك بالمسيو فنزيلوس رئيس وزراء اليونان لحل بعض المسائل المتعلقة بين الدولتين ، وأمرني بأن انتظر أوبته . فقلت : يسر الله لفخامتكم كل عسير ، ولكن هل تسافر الى أوروبا وهي في هذه الظروف ؟ فقال : ما أظن أن الشعوب الأوروبية تشهر الحرب من أجل رجل وامرأة ، فتسفك الدماء وتخرب الديار . . فاستأذنت وانصرفت .

وفي اليوم التالي تبودلت الانذارات النهائية بين روسيا والنمسا ، واشتعلت الحرب العظمى . وزرته في الباب العالي فقال لي : صدق ظنك فقد تأخرت بسبب الحرب فقلت له : أريد النتيجة لما جئت من الحجاز لأجله . فكلمني وزير الداخلية بالهاتف وذهبت اليه .

وقابلت طلعت باشا وسألته عن المقتضى فأجابني « وهل هذا وقت تفكير في انشاء خطوط حديدية ؟ ومن أين القضبان والساحبات ومواد البناء والحرب قد أشهرت ؟ ولكن نريدك أن تسافر حالا الى الحجاز لجلب

المتطوعة ، اذ من الممكن دخول الدولة الحرب مضطرة . وهذه سيارتي
اذهب بها الى أنور باشا لتتذكر معه في هذا الشأن » .

فذهبت الى أنور باشا وقلت له : يظهر ان الحرب قد تشمل الدولة
العلية ، وأن مشروع الخط الحديدي قد يؤخر الى ما بعد انتهاء الحرب .
قال : بالطبع ولكن نريد متطوعة من العرب ليشاركوا في الجهاد . قلت :
أين والعدو من الجهتين ؟ قال ألا تريد أن نسترد ما أضعناه في القفقاس ؟
ثم ألا تريد أن نسترد مصر ؟ قلت : أريد دفع الأعداء الى ما وراء أدرنة ،
والقفقاس شاقة حربها بعيدة عن حاجة الامداد لمن يقاتل فيها ، ومصر كيف
تستردها وهي لها صفة خاصة ؟ قال باخراج الانجليز منها . وقلت :
هذا هو التعبير الصحيح .

فقال : كم يمكن أن يكون عدد المتطوعة من أهل الحجاز ؟ قلت : والله
لا أدري . فقال : قل بالقدر الذي يمكنكم ان تكسوه وتطعموه .

فقلت : وهو كذلك ، ولكن في الجبهات ؟ قال : سنجعل القوة المنظمة
في جبهة الروم ايلي وجبهة مصر ، أما جبهة قفقاسيا فسنخصص لها علاوة
على الجيش الذي بأرض روم كافة المتطوعين . قلت : متطوعة العرب يجب
أن يقاتلوا في جبهة مصر ، وأما المنطقة الباردة فمهلكة لهم ، ولا أدري
من عدو للدولة في الروم ايلي ما دامت بلغاريا والنمسا وألمانيا خلفاء
للدولة . قال : الصرب ورومانيا . قلت : أنا أفهم من هذا أنكم تريدون
امداد حلفائكم بالقوات المنظمة .

فاحمر وجهه وقال : يجب أن تسافر بأى وسيلة من أجل التطوع
والسعى لايجاد من يقوم بهذه الخدمة المقدسة . فخرجت من عنده والطبول
تدق والمنادى ينادى بالتعبئة العامة ، وأنه يجب على كل انسان أن يذهب
الى دائرة أخذ العسكر فيقيد نفسه وسنه وولادته وصنفه .

ولما رجعت الى الباب العالى ودخلت على الصدر الأعظم وأخبرته بما
سمعت ، دهش وقال : وهل قالوا سيتأخر بأمر الشمنديف ؟ فقلت : نعم
ويطلبون سفري من أجل المتطوعة . فقال : على بركة الله وقبل أيادي
الشريف وقل له قد تأخر ما كان فيه تعب .

وفى تلك الأثناء استعدت الأفكار العربية للحركة ، بسبب انقطاع
موارد البحر والغلاء وتبين أن ليس للغرب في متابعة هذه الحرب نتيجة
واحدة وهي أنهم سيبقون تحت ربة الحكم ان انتصر الترك والألمان . وكان

لابد من اعلان الحركة العربية والتخلص بالحرب من عواقب الاستثانة
لتحكم الغير .

ولم تجب استانبول مطالب والى اليمن ومتصرف عسير بما طلبناه
من نقود . وكذلك فعلت بالحجاز .

وتغلغلت الجيوش الانجليزية فى العراق ، وتجاوزت حدود ولاية
البصرة فى طريقها الى بغداد . ثم هزم أحمد جمال باشا بالسرعة المصرية .

على أنه قبل اتخاذ أى عمل أو قرار مع الانجليز ، طلب والدى -
بوساطة الأمير فيصل - الى أحمد جمال باشا ، ألا تكون البلاد العربية
مضغوطة عليها ، وإن تبر الدولة بوعدها للسوريين فى منحهم الادارة
اللامركزية التى طلبوها . وقد صادف هذا الطلب اشمئزازا من أحمد جمال
باشا ، فألح من ارسال المجاهدين من الحجاز .

ثم بعد ذلك ، وفى أثناء وجود الأمير فيصل بالشام ، زار أنور باشا
وزير الحربية ومعه وكيل القسائد العام سوريا وفلسطين ، وزار المدينة
المنورة . وقد أهدى الأخ فيصل لكل واحد منهما سيفاً مرصعاً منقوشاً
عليه اسم والدى واسم المهدي اليه .

ثم أقبل الصيف ، وجاء الطلب مرة أخرى بارسال المجاهدين ، كما
جاء الطلب باعلان الجهاد المقدس فى أقطار الاسلام ، من مكة باسم الخليفة ،
على روسيا وانجلترا وفرنسا .

فأجاب والدى برقياً ، بأنه لأجل اعلان الجهاد وارسال المجاهدين
ينبغى ارضاء العرب بما تتوق اليه نفوسهم من الوصول الى حقوقهم ، وإن
أول ذلك اعلان العفو العام عن المحكومين السياسيين ومنح سوريا ادارة
لامركزية وكذلك العراق ، واعتبار الشرافة بمكة معترفاً لها بحقوقها الموروثة
والمتفق عليه من عهد السلطان سليم وأن تكون وراثية فمقابل هذا تقوم
الأمة العربية بواجبها باخلاص . وذكر أنه سيبعث بالمجاهدين الى الأمير
فيصل بالشام ، وأنه سيرسل أحد بنيه الى الجبهة الأخرى بالعراق ، بعد
أن يقضى على أى زعامة غير موالية بشرقى الحجاز ، وأن على الدولة التأثير
على ابن رشيد بأن ينضم الى الجهاد . وأنه بدون هذا لا يستطيع التقدم
بالأمة العربية فى حرب نصح بأن لا تثار وإن لا تشهر ، بل سيكتفى بوظيفة
الدعاء للدولة بالنصر والظفر .

وجاء الرد من الصدر الأعظم فى برقية يقول فيها :

ان التحدث فى مثل ما بينتموه عن الحرب والعرب ليس من حقوقكم ،
وان من بالشام من المجرمين سينالون الجزاء العادل ، وان ما بينتموه
لا تكون نتيجة بحقكم سارة ، وعليه فسوف لا ترون نجلكم فيصل مرة
أخرى قبل أن تبعثوا بالمجاهدين الى الجبهة كما وعدتم وان لم تنفذوا هذا
فالنتيجة بحقكم لا تكون خيرا .

وجئت بهذه البرقية لوالدى بعد أن حلت رموزها ، وكان الوقت
ليلا وهو فى الخارجية بمكة ، وقدمتها اليه وأنا حامل الشمعة ، فقال
اقرأها . . قلت : لا أقرأها . . فتناولها ووضع النظرة على عينيه ، وبعد
أن تلاها نظر الى وقال : أيهددنى ؟ وذكر بيت الشعر :

سوف ترى اذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمـار

ثم قال اكتب الجواب التالى الى الصدر الأعظم :

ليس لى ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة فى برقيتى وبها ضمان
انحياز العرب الى صفوفكم بقلوبهم . أما ابنى فيصل فلم أبعثه اليكم وأنا
أعتقد انى أراه مرة أخرى فافعلوا ما شئتم .

وبعد يومين وردت البرقية التالية من الصدر الأعظم :

بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجوبتكم فاذا بعثتم بالمجاهدين
الى الشام فقد أشعرونا جمال باشا ليذاكر نجلكم الشريف فيصل بك فيما
يتعلق بالمجرمين السياسيين .

فأجابه والدى :

اننى ممتن على تلطفكم بالجواب . أما المجاهدون فقد أصروا على عدم
السفر الا اذا حضر فيصل ليأخذهم ، فان كانت الرغبة حقيقية فابعثوا
به ليستصحبهم .

فجاء الرد على الفور :

سيتوجه الشريف فيصل بك الى المدينة ليستصحب المجاهدين ويعود
بهم الى الشام ، ونرجو أن تسترجعوا نجلكم الشريف على بك من المدينة
المنورة الى مكة المكرمة لعدم انسجامه مع المحافظ .

فأجابه والدى على الفور :

عند وصول الشريف فيصل بك سيترك الشريف على بك المدينة المنورة .

ولما وصل الأخ فيصل الى المدينة ، وكان فخر الدين باشا قائد القوى السفرية قد حضر اليها بقواته ، وكانت القوى العربية مهيأة بالمدينة ، تقرر استدعاء الأخ على الى مكة ، فودع فخر الدين باشا والمحافظ وخرج الى بئر الماشى - وهى على طريق مكة - وخرج معه فيصل لوداعه . ولما وصل الى بئر الماشى ، وكان ذلك اليوم الثامن من شعبان ، كتب الى جمال باشا الانذار التالى : -

ان المطالب العربية المعتدلة قد رفضتها الدولة العثمانية ، وبما أن الجند الذى تهيأ للجهاد سوف لا يرى عليه أن يضحى لغير مسألة العرب والاسلام . فاذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة حالا فلا لزوم لبيان قطع أى علاقة بين الأمة العربية والأمة التركية وأنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين .

وبعد مضى ساعات كان الخط الحديدي بين الشام والمدينة يشعل ويهاجم .

صورة رابعة وأخيرة من مذكرات (الملك) عبد الله ، عن المحادثات التى جرت بينه وبين بعض المسئولين البريطانيين غير ما أشرنا اليه من قبل - فى الفصل السابق .

قال الملك عبد الله :

نزلت الجيوش البريطانية العراق وفشلت حملة جمال باشا لغزو مصر .

وفى تلك الأثناء جاء الى الطائف على أفندى البزار - مصرى الأصل - وأحب أن يقابلنى فقابلته ، واذا به يحمل كتابا من سير سيمتورز - الكاتب الشرقى فى القنصلية البريطانية بمصر - يقول فيه :

الى الشريف عبد الله بك :

بما أن الدولة العثمانية قد ضربت عرض الحائط بصدقتها التقليدية مع بريطانيا العظمى وانضمت الى صفوف الألمان ، فان بريطانيا

العظمى ترى نفسها فى حل من تلك التقاليد التى كانت تربطها بتركيا منذ القديم .

فهل أنكم وسمو والدكم مازلتُم على رأيكم الأول فى القيام بما يجر الى استقلال العرب استقلالا تاما ؟ فان كنتم وسموه على ذلك الرأى الى الآن ، فان بريطانيا العظمى على استعداد لامداد الحركة العربية بكل ما هى فى حاجة اليه .

وبالطبع لم ابتهج بهذه الرسالة ، للخطر المحقق الذى كانت تجر اليه ، لو عرف عنها أو سقطت فى يد غير أمينة أو تفوه ناقلها بشيء أو باع نفسه .

وأخذت الرسالة الى الوالد وعرضتها عليه ، فابتسم وقال : أكتب اليهم بوصول الرسالة وقل « بأننا على غير استعداد البتة فى الوقت الحاضر للمطالبة بحق العرب » واصرف الرسول أمينا مكرما . ففعلت .

وبعد شهر عاد على البزار برسالة أخرى من سير ستورز الى ، وفيها رسالة من سير هنرى مكماهون الى سمو الشريف . أما كتاب ستورز الى فقد اقتصر على رجائه الى فى أن أقدم الرسالة الى الشريف . وقدمتها ، وكان فيها صيغ من التعرف والاکرام وبيان حسن نية بريطانيا نحو العرب ، وانها قد انفكت من تقاليدھا الودية مع تركيا .

فبعث بوساطتى الى ستورز متمثلا : « فى الصيف ضيعت اللبن » .

ثم تتابعت مراسلات مكماهون المعروفة . وخلاصتها أن بريطانيا العظمى ستساعد العرب فى حربهم التحررية ، بكل ما سيحتاجون اليه ، حتى يتم جلاء الأتراك والألمان عن البلاد العربية ، التى حددها وفق ما جاء من الهيئة المركزية لحزب الفتاة العربية فى سوريا من حدود وهى : من اسكندرونه جنوبا الى الحدود المصرية برفح ثم التيه فالبحر الأحمر غربا حتى باب المندب ، ثم يشرق مارا بمسقط وعمان وينحرف الى الشمال محترفا حدود البحرين والكويت ، ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة فحدود ايران ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد . ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب الى الجنوب فينتهى عند الاسكندرونه .

وقد قال مكماهون فى احدى رسائله عن حكومته ، انها ستتأثر
على الحرب والمساعدة حتى يتم تحرير هذه الأقطار . وان انجلترا
لا تستثنى أى منطقة عربية لها فيها نفوذ ، ماعدا الامارات الواقعة على
خليج فارس والبحر الهندى تلك البلدان التى لها صلات عهد بحكومة
الهند من القديم ، وهى امارة الأمير عبد العزيز العبد الرحمن الفيصل
آل سعود وامارة الكويت وامارة البحرية وسلطنة مسقط وعمان
ومشيخات حضرموت وسلطنة لحج . ثم انها لا تقول بمحض عروبة أضنة
ومرسين وغرب ولاية الشام - وقد عنت بذلك لبنان الصغير
بالطبع - وقال : ان لحليفنا فرنسا فيها حقوقا .

ثم سأل فى احدى رسائله عن الكيفية التى ستتدار بها البلاد
المقدسة : فلسطين متى صارت فى الحوزة العربية ، فأجيب بأن النية
منصرفه الى ادارتها على حرية الديانات الثلاث . فجاء الرد بالشكر على
ذلك ، وأن بريطانيا العظمى ترحب بالخلافة الاسلامية ان هى عادت الى
الدوحة الهاشمية مرة أخرى .

وفيما يلى المزيد من المعلومات عن الاتصالات التى أجراها الانجليز
بعزيز المصرى والمصادر التى لدينا - من ناحية هذا الموضوع . . شحيحة
من جانب عزيز المصرى (وكان يحرص على عدم التحدث فى هذا الموضوع ،
خاصة بعد أن فشلت الثورة العربية وبعد أن كثر الانجليز بنياهم ضد
العرب الذين ساعدوهم ووقفوا الى جانبهم ضد دولة الخلافة الاسلامية
كما أنه - وتلك رؤية شخصية بحتة - كان يخشى أن يتهمة المصريون
بالخروج على اجماعهم الذى يختلفون فيه عن اجماع الجماهير العربية فى
سوريا ، والعراق وفلسطين ، أثناء قيام الحرب العالمية الأولى ورفعونا بين
المصريين للأتراك وبعضهم ضد الانجليز (أما الجانب البريطانى فان لديه
الكثير من المعلومات عن اتصالات عزيز على المصرى بهم قبل أن تعلن
الحرب . وبالتالي قبل أن تدخل تركيا الحرب الى جانب الألمان ضد
الحلفاء) انجلترا وفرنسا (وألست بحاجة الى تأكيد وجهة نظرى
الخاصة بالوثائق الأجنبية - أية وثائق أجنبية - وهى أنها ليست حجة
الا على الجهة أو الجهات التى صدرت عنها - دون أن يكون هناك الزام ،
بقبول ما جاء فى تلك الوثائق بخصوص آخرين ، غير الجهات التى صدرت
عنها بصفة الحال ، اللهم الا أنه توجد تلك الوثائق على سبيل الاستدلال
التى ولا أقل .

وفد أشار الى بعض ما جاء فى الوثائق البريطانية الاتفاق على شبكته فى كتاب العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى وكذلك د . محمد عبد الرحمن برح فى دراسة عن عزيز المصرى والحركة العربية (٩٠٨ - ١٩١٦) (وسوف أتناول التعليق على ما جاء فى تلك الوثائق من وجهة نظر شخصية بحثة على ضوء دراستى لآراء ، وأفكار واقتراحات وتوجهات عزيز المصرى فى تلك المرحلة (١٩١٤ - ١٩١٦) وقد قام بهذه الاتصالات مع عزيز على المصرى اللفتنانت كولونيل كلايتون رئيس المخابرات الانجليزية فى القاهرة ورئيس الاستخبارات العسكرية فى نفس الوقت وبعض المسئولين البريطانيين الآخرين (١٦ أغسطس ١٩١٤ ، ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ ، ١٦ نوفمبر ١٩١٦ .

وألخص هنا فى البداية ، وجهات نظر الجانب البريطانى : بريطانيا لاتملك اتخاذ اجراءات ضد تركيا ، قبل أن تدخل تركيا الحرب الى جانب الألمان .

٢ - اعترضت بريطانيا على المشروع الذى قدمه عزيز المصرى وهو يعتمد على ثورة عربية تقوم فى العراق .

٣ - وافقت بريطانيا على ارسال عزيز المصرى الى العراق اذا ما رأت الجهات البريطانية المسؤولة فى القاهرة فائدة على أن يعطى ألفى جنيه أو حوالى ذلك .

أما وجهات نظر عزيز المصرى - ترتيبا على ما جاء فى تلك الوثائق فهى فيما يلى :

كان عزيز على المصرى يتحدث فى أولى الاتصالات بصفتة منتدبا من لجنة مركزية مقرها بغداد بهدف تلمس موقف الحكومة البريطانية نحو الدعاية لاقامة دولة عربية متحدة مستقلة عن تركيا ولا ارتباط لها بأى دولة أخرى ماعدا بريطانيا التى تطلب رعايتها وتمارس السياسة الخارجية لهذه الدولة العربية نيابة عنها . ويعرف عزيز المصرى بلاد العرب بأنها الاقاليم التى تتحدث اللسان العربى وتمتد حدودها الشمالية بخط يمر بالاسكندرية والموصل الى الحدود الايرانية . وهذه الحركة لا ارتباط لها بالجامعة الاسلامية والخلافة العربية ولذلك لم يطلب القائمون بأمر الدعوة تأييد المتعصبين أمثال الشيخ رشيد رضا ولكنهم فى الوقت نفسه يدركون أهمية تأييدهم اذا ماكانوا على استعداد للخروج من آفاقهم

الضيقة • ويعتقدون أن قوة الحركة تتمركز في بغداد ونجد وسوريا •
أما الجنوب العربى فهو مشحون بالخلافات الداخلية مما يباعد بينه وبين
التأييد الفورى لها • ولم يذكر عزيز في هذه المقابلة اسم زعيم
لهذه الحركة •

قال عزيز على المصرى : ان حسن نية انجلترا وحيادها لا يكفيان بل
لا بد من عون فعال في صورة أموال وأسلحة حديثة تسلم سرىا في
العراق أو في أى مكان آخر ويتعامل ذلك يضمن انجلترا لنفسها •

عدم الاعتداء عليها الى الأبد في الهند عبر الأراضى الإيرانية ،
وتكون لها أفضلية خاصة في المعاملات التجارية مع هذه الدولة العربية •

— عندما سأل كلانيون عزيز المصرى عما اذا قام الأتراك باعلان
الحرب الى جانب الحلفاء ، أو الألمان قال عزيز المصرى • ان السيطرة
العامة في تركيا في يد أنور باشا وفريقه وهم يؤمنون بأن مصالح تركيا
تتمشى مع مصالح ألمانيا وأن أنور باشا ينادى بأفكار فريق السلام ،
وخاصة رئيس الوزراء وهم الذين ليس لهم نفوذ — وقد أكدت الأيام —
فيما بعد — وجهة نظر عزيز المصرى •

— قال عزيز على المصرى فيما يتعلق بموقف العرب ، إنهم غير
منظمين ولا توجد قيادة معروفة وسوف ينحازون للفريق الأقوى — وفى
هذا الوقت (أكتوبر عام ١٩٢٤) فإنهم يعتبرون الأتراك الفريق الأقوى
خاصة وأن الأتراك بذلوا جهودا — فى الفترة الأخيرة — لكسب العرب
بهداياهم للزعماء وبذلهم الوعود •

— حدد عزيز المصرى مشروعه بقوله لنجاح برنامج القومية العربية
للتحرر من السيطرة التركية ثورة لها تنظيمها مسنوده بقوة قليلة نسبيا
لكنها معدة أحسن اعداد — ويمكن الحصول على نواة هذه القوة من جيش
العراق ويمكن تجهيز ١٥ ألف رجل يتخذون موقعا مناسباً مما يجعل
تقدم الأتراك بطيئاً وصعباً وهذا هو المركز الذى يتجمع حوله قوات زعماء
العرب •

— حدد عزيز المصرى دور بريطانيا فيما يلى بالضبط : —

ضمان تجهيز المال والبنادق والذخيرة والمدفعية وكل المعدات
المطلوبة لتسليح هذه النوا •

— يحدد عزيز المصرى من إرسال أية قوات بريطانية الى أى مكان بالأرض العربية لأن إرسال تلك القوات سوف يترك انطباعا بنية ضم الاراضى .

— فى برقية صدرت من القاهرة من مستر شيتهم الى وزارة الخارجية البريطانية فى ١٣ نوفمبر ١٩١٤ فى لندن .

عزيز بك المصرى عنصر هام — فى الثورة — خاصة فى مناطق العراق وبين الضباط العرب فى الجيش التركى ، ولكنه يفتقر الى المال لتنفيذ مشروعه ورأينا هو أن يبدأ فى العراق فعززه بقوة صغيرة ولكنها كاملة التجهيز والقوة التى يحتمل تكوينها بين أربعين ألفا وخمسين ألفا .

وأقترح عزيز المصرى أن يقوم القنصل البريطانى فى المحمرة بالتأكد من وجود المكان الذى ينتحل فيه ضابط عربى فى الجيش التركى اسم نورى السعيد . وإذا لم يتيسر ذلك ، عليه التحقق من عربى باسم مزاحم الأمين أو الدكتور عبد الله . وإذا لم يعثر على هؤلاء هناك طالب بك النقيب فى البصرة . وعندما يحدث التأكد من وجود هؤلاء أو بعضهم يقال لهم ان صديقيهم فى مصر يود أن يعرف حقيقة الموقف وعليهم اعطائه المعلومات اللازمة من كل الأوجه ويحضرون الى المحمرة — على أن تكون عملية البحث والاتصال هؤلاء سرية للغاية — ويقترح عزيز على المصرى امدادهم بالمال اذا ما طلبوا للصرف منه على سفرهم .

— أبرقت وزارة الخارجية البريطانية بكل هذا الى وزارة الهند وكان رد نائب المالك فى الهند (٨ ديسمبر ١٩١٤ ان السيد طالب ذهب لابن السعود ولا ثقة فيه مطلقا وكذلك انحاز دكتور عبد الله لابن سعود ، أما مزاحم الأمين ونورى السعيد فانهما فى البصرة . وقد تقابل سير برسى كوكس مع نورى السعيد وانطباعاته عنه أنه عربى تأثر لحد بعيد متأثر بالحياة الأوروبية ويميل الى الحياة الناعمة وانعزالى يبلغ من العمر حوالى ٢٥ سنة ويبدو عليه أنه يميل الى الاشتراكية النظرية . وهدف حزبه هو رفع مستوى الأمة العربية الى حياة أفضل تنالها حسب اعتقادهم بالطريق السهل تحت حكم الليبرالية البريطانية . وعندما سئل نورى السعيد عن خطته الحالية أجاب بأنه اذا ما رأت بريطانيا التقدم

فى العراق تستطيع بمرور الوقت تحويل ضباط جاويد باشا وكذلك
الحصول على اقناع بعض مشايخ قبائل وادى الفرات باعتناق أفكاره اذا
ما سافر الى هناك . ويعلم نائب الملك بقوله ان المشروع سوف لا يكتب له
النجاح نظرا لنوعية الزعماء ولأن رجال القبائل ومشايخهم المشار اليهم
متخلفون الى حد بعيد وعليه سوف لا يعيرون انتباها لدعاية شاب عربى
وحسب رأى نائب الملك فان الكثير يعتمد على موقف ابن السعود فاذا ما بدا
أن هناك ثورة عربية تحت زعامته وشيكة الظهور يجب تأييدها
ومساعدتها بالمال . ويختتم نائب الملك رسالته بأنه فى الوقت الحاضر
يعتبر معاونة بريطانيا سابقة لاوانها حتى يتضح الموقف .

التقى مستر جريفيس مراسل صحيفة التيمس فى القاهرة بعزير
على المصرى فى يوم ٦ ديسمبر ١٩١٤ وكانت انجلترا قد احتلت البصرة
وبدأت تفكر فى التقديم نحو بغداد ولا بد لها أن تستطلع زعماء العرب
عن مدى تعاون الهيئات العربية هناك . ويبدو أن الجهات الرسمية
امتنعت عن التحدث مع عزير على فى هذا الأمر حتى لا يظن أنها تفاوضه
لعلها بأن حكومة الهند اعترضت على ادخال عناصر من الخارج فى
المسألة العراقية أمثال عزير على المصرى ، لذلك لجأت السلطات الانجليزية
الى هذا اللقاء غير الرسمي لمعرفة رأى عزير عن امكانية استخدام
السلطات العسكرية البريطانية له فى العراق .

وكانت اجابة عزير صريحة وواضحة عندما فاتحه جريفيس فى هذا
الأمر حيث قال ان ضميره لا يسمح له بتأدية خدمات للسلطات العسكرية
فى العراق اذا ما كانت نية بريطانيا هى ضم العراق لامبراطوريتها لأنه
مرتبط بالحركة العربية التى تدعو لنيل حريتها من الأتراك . .
فالمسألة فى أساسها مسألة شرف . أما اذا كانت فى النية تكوين دولة
محايدة تمنع الاصطدام بين الخليج وربما روسيا وأرمينيا والأناضول وفى
النية مساعدة سكانها العرب كما ساعدت روسيا بلغاريا فى سنين
١٨٧٩ - ١٨٨٣ على خلق دولة بتنظيم حديث ومؤسسات حديثة ،
اذا كانت هذه السياسة المرتقبة فانه يخدم ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وقال عزيز انه يدرك تماما أن بناء دولة كهذه يتطلب عملا ضخما وأن احتلال العراق عسكريا سيكون ضرورة لمدة طويلة وأن هذه الدولة الحديثة لابد لها أن تعتمد اعتمادا كليا اقتصاديا وماليا على الهند البريطانية الى أن تنمو مواردها . وعليه فانه لأسباب عدة يشعر بأن سياسة تكوين الدولة المحايدة يفضل من كل الأوجه سياسة الضم وفي اعتقاده أن إنجلترا لاتود حدودا تجاور منطقة روسيا لأنه يعتقد أن روسيا في هذه الحرب ستحتل الاسكندرونة وديار بكر بعد قليل من الوقت . فوجود دولة عربية تعداد سكانها مليونان على أحسن الحالات وفي أسوأ حالات الفقر سوف لا يكون مصدر تهديد لقرون قادمة . وختم عزيز مناقشته لهذه المسألة بأن كرر ما قاله من قبل وهو أنه على استعداد ليبذل أقصى ما في وسعه من جهد للمساعدة اذا ما كانت إنجلترا توافق وتسعى لاقامة دولة عربية كهذه في العراق » .

« ثم تطرق الحديث للطرق العملية التي يستطيع عزيز بها تقديم مساعدة . بدأ عزيز اجابته بأنه يفترض نية القوة الهندية البريطانية للتقدم نحو بغداد . ففي هذه الحالة يعتقد عزيز أن المقاومة لهذه القوة ستكون أشد من المقاومة التي لاقتها في البصرة وفي ذات الوقت سيصطف الاكراد وربما قوات مجندة من العرب والقوات النظامية من الموصل لتقاوم تقدم القوات البريطانية » .

فاذا كانت البصرة ومنطقة الفاو حسب اتصالهما المستمر بالهند وبشيخي الكويت والمحمرة قبلت الغزو كما يبدو وربما عن رضا تام لا يتعين على وجه التحديد أن يفعل العرب وخاصة الضباط العرب في الشمال مثلما قام به زملاؤهم في البصرة . فالجيش الغازي شيء كره في حد ذاته أحيانا مهما كانت درجة حسن سلوكه ومهما كانت مظالم وشكاوى البلاد التي يغزوها من حكومتهم . فاذا ما اعتقد الضباط العرب في بغداد في وجهة نظر خاطئة عن الموقف فربما يشيرون الاضطرابات بقطع طرق المواصلات في طريق القوة الغازية بما لهم من علاقات مع الكثير من زعماء القبائل في العراق . وبعض هؤلاء الزعماء يستطيعون جيشة قوة ضخمة لحرب العصابات .

« وفي رأى عزيز أنه ليس من المؤكد ولو أنه من المحتمل اتحاد ابن السعود مع البريطانيين . وسيبذل الأتراك الوعود للضباط العرب الذين يرتجى منهم فائدة ما للتأثير على الزعماء للانحياز لجانب تركيا » .

وانتهى عزيز من هذه المناقشة الى أنه يستطيع تأدية مساعدات ضخمة بالاتصال بهؤلاء الضباط العرب والقبائل . ووسيلته لذلك هي اغراء واقناع الجيوش العربية بالفرار من الجيش التركي والانحياز للجانب البريطاني وبإثارة شعور القومية العربية ضد الأتراك المكروهين فى جميع أنحاء العراق .

وختم جريفس مذكرته عن هذا اللقاء بما يلى : بالشروط السالفة الذكر وهى أننا لاننوى ضم العراق للامبراطورية البريطانية ولكننا ننوى اقامة نوع من حكومة محايدة تحت احتلال بريطانى لسنتين قادمة وبعون بريطانى لتقدمها فانه سيبذل أقصى ما فى وسعه لمساعدتنا اذا ما طلب منه ذلك .

وفى ١٣ ديسمبر بعث شيتام رسالة للندن مرفقة بهذا التقرير لتصل فى ٢٨ منه ولاحظ شيتام أن آراء عزيز على المصرى تتفق عموما مع آراء شريف مكة وآراء زعماء العرب الآخرين الذين لهم وكلاء على اتصال مع السلطات البريطانية فى مصر .

وكان الانجليز يبعون أيضا اثارة اعتصاب - اضراب - فى صفوف الجنود والضباط العرب فى الجيوش العثمانية . ورأوا أن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو الاتفاق مع جمعية العهد التى يمثلها عزيز والفاروقى . وركز الانجليز اهتمامهم للاستعانة بهذين الرجلين لاثارة الاعتصاب بوجه خاص فى العراق .

ولكن عزيز المصرى والفاروقى طلبا « تأكيدا محددا للسياسة البريطانية تجاه بلاد العرب » ونلاحظ أن مكماهون يستعمل كلمة أى جزيرة العرب وهو يبعث بهذه الأخبار لوزارة الخارجية بينما المقصود بلاد العرب . كان عزيز والفاروقى يعتقدان أن تأكيدا من هذا النوع هو مسألة ضرورية لنجاح مساعييهما مع العناصر العربية فى الجيش العثمانى فى العراق . وعبر مكماهون عن اعتقاده بأن عزيز المصرى والفاروقى سوف يرضيان بالتأكيدات التى أعطت للشريف .

وقد أجابت وزارة الخارجية في ٢٢ مارس ١٩١٥ بأن اللورد كتشنر كان قد اقترح بأن يرسل الفاروقي الى العراق ولكن كلايتون عارض ذلك . وأنه بالامكان ارسال الفاروقي الآن اذا لم يكن لكلايتون اعتراض . وفيما بعد يمكن ارسال عزيز المصري اذا رأى كلايتون فائدة في ذلك رغم أن كتشنر يشك في امكان الاستفادة من عزيز على . وفوضت وزارة الخارجية مكماهون باعطاء التأكيدات شريطة أن لا تتجاوز التأكيدات التي أعطيت للشريف .

ولكن وزارة الخارجية البريطانية عادت تحذر مكماهون في ٥ ابريل ١٩١٦ من مغبة اعطاء تأكيدات تعطى لأفراد لا يعرف مدى نفوذهم ، ومعاملتهم كنظراء للشريف والذي قال في رسالته المؤرخة في أول يناير ١٩١٦ انه يمثل قرارات ورغبات قومه وأنه ينطق باسمهم . وقالت وزارة الخارجية ان تأكيدات تعطى لأفراد مثل عزيز والفاروقي ستجعل من الصعب على الشريف أن ينجح في فصل العرب في الجيش العثماني عن الأتراك وجلبهم الى جانبه بأعداد كبيرة .

وفي مارس ١٩١٦ ذهب لورنس من القاهرة الى البصرة لبحث امكانيات العمل على قيام ثورة عربية في العراق وتباحث لورنس مع كوكس فوجده (جاهلا كل الجهل بموضوع الجمعيات العربية والسياسات التركية . وسمع كوكس يشكو من أن مكماهون بحث موضوع العراق مع الشريف . وأبدى كوكس معارضة شديدة في مجيء الزعماء العرب من مصر الى العراق .

في البصرة أخذ لورنس يبحث عن رجال الأحزاب العرب بقصد تشجيعهم على القيام بحركة ضد الأتراك . وقادة البحث الى سليمان فيضي عضو مجلس المبعوثان وسكرتير الجمعية الاصلاحية فاستدعاه وعرض عليه العمل على تنظيم ثورة عربية بعد أن أكد له أن بريطانيا بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها ، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال وأن يبرهنوا على رغبتهم فيه . وهناك على ما اعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك ، الا وهي الثورة ، فاذا أعلن العرب الثورة على الأتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية . أما اذا قبعوا في دورهم ، آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ، خاصة لأن بريطانيا مسئولة أمام

حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثماني : اذن
فلا بد من الثورة لتنال البلاد العربية استقلالها » .

ولكن تحريضات لورنس ووعوده بأن يقدم له الأموال الطائلة
والأسلحة لكي يجمع المحاربين حوله . لم تكن مجدية ، اذ اعتذر سليمان
فيضي بأنه رجل حضري لاتعضده عشيرة ولا زعامة تقليدية له ، وبأنه
شخصا لا يرى « مبررا الى الانتقام من الترك اذ ليس بيننا وبينهم عدا ،
وانما العدا مستحكم بينهم وبينكم فحسب » ، وأن العرب كانوا يطالبون
بالاصلاحيات الداخلية ولم يكونوا يطلبون الانفصال عن الترك . وقال
ان العراقيين أصبحوا يكونون شعور العدا لبريطانيا « بعد الذي لمسوه من
معاملة سيئة وازدراء مشين على أيدي رجالها العسكريين » وبناء على
نصيحة لورنس استشار سليمان فيضي أصدقاءه مولود مخلص وعلى
جودت وعبد الله الدليمي (ضباط عراقيون من أعضاء حزب العهد وقد
وقعوا في أسر القوات البريطانية) فوافقوه على صواب الخطة التي
اتخذها برفض القبول بتكليف لورنس . وعندما اقترح سليمان فيضي
على لورنس أن يتصل بطلب النقيب لأنه أقدر من يقوم بهذه المهمة في
جهات البصرة أجابه هذا بأن الحكومة البريطانية لاترغب في ذلك .

- اقتنعت وزارتنا الخارجية والحربية بأنه سيكون بمقدور الشريف
فصل العناصر العربية في الجيش العثماني في سوريا والجزيرة العربية
وجلبها الى جانبه ، ومن هنا رأنا أن من المرغوب فيه القيام بحركة مماثلة
في العراق . وقد أوكلت هذه المهمة الى لورنس الى حد ما . وسمحت
وزارة الخارجية في مارس ١٩١٦ بذهاب عزيز علي والفاروقي الى البصرة
للعمل على تحقيق تلك الغاية . ولكن الجنرال ليك لم يوافق على
حضورهما بحجة أن وجودهما في العراق سيكون « مربكا وغير
مرغوب فيه » ، وأن الآراء التي يحملانها « تقدمية كثيرا » بحيث لاتناسب
منطقة تخضع للاحتلال العسكري .

- رأت وزارة الخارجية أن يستدعى طالب النقيب من الهند الى
البصرة لأن تعاونه « أمر حيوي لتحقيق النجاح » ولكن حكومة الهند
لم توافق على ذلك . وأثناء المباحثات التي جرت في القاهرة مع المسؤولين

البريطانيين من جهة ومع عزيز علي ونوري السعيد والفاروقي والشهبندر ورشيد رضا من جهة أخرى ، قيل لهؤلاء ان بريطانيا « غير مستعدة في الوقت الحاضر أن تفعل أكثر من اعطاء تأكيدات عامة حول الاستقلال العربي » وأن بريطانيا تريد أولا أن ترى طبيعة الحكومة التي ستقوم في العراق ومقدرتها على تنفيذ « التأكيدات التي يمكن أن تعطى لها » واقتصر الأمر على اعطاء « وعد بسيط بأن نفعل كل ما بوسعنا لمساعدة الاستقلال العربي » .

وأخيرا قر القرار أن يذهب عزيز علي ونوري السعيد والشهبندر الى البصرة لكي يتعاونوا مع لورنس على ايجاد حركة عربية تعمل في المجال العسكري عملا يساعد عمليات الجيش البريطاني . ولكن كل هذه المشاريع فشلت أمام تصليب حكومة الهند ورفضها التعاون مع العرب .

يقول محمد طاهر العربي : بعد ثورة الشريف اقترح قاضي قضاة الحجاز الشيخ عبد الله سراج على الحسين جلب عزيز من مصر لينظم الجيش فوافق وكتب السراج الى عزيز يدعوه . ومن المعروف أن الشريف كان مترددا في ذلك . تحرك عزيز من مصر في ٨ ذي القعدة ١٣٣٤ قاصدا مكة فعينه الحسين وكيلا لوزارة الحربية وذهب الى رابغ وأخذ يضع الخطط لينظم الجيش وكان نوري السعيد قد سبقه الى هناك حدث خلاف بينه وبين الرئيس المدفعي رشيد باشا حاكم منطقة عمان لأسباب تافهة قد يكون أهمها حب الجاه رغما أن رشيد لم يكن بمقدرة عزيز . روى كثير من الضباط العراقيين أن رشيد اتفق مع الضباط السوريين وقاموا يحرضون الملك حسين وأنجالة ضد عزيز وانتهى الأمر بتحويل رشيد الى الجيش الشرقي وبقي عزيز يبذل جهده في تنظيم الجيش العربي الى أن تم على عهده تأليف ثلاثة أفواج مشاة ، ثلاث بطاريات مدفعية ، فوج رشاش ، فوج هجانه (٤٠٠ هجان) سرية استحكام وذلك في ثلاثة شهور » .

هذا بينما يذكر نوري السعيد في كتابه : محاضرات عن الحركة العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية أن عزيزا وصل الى وظل عزيز المصري يعمل مع قوات الشريف بهمة لا تعرف الكلل ونشاط مستمر دائم . لكن الخلاف حدث بينه وبين الشريف حسين . يقول طاهر

العمري : لم ينل عزيز ثقة الحسين لأسباب عديدة أهمها عدم تعوده على الطاعة العمياء واصراره على تنفيذ خطته التي يراها ولما وشى به رشيد والسيوريون أنه يتصل بالأتراك ووعد بالالتحاق بهم اذا اعترفوا باستقلال البلاد العربية ، وأن الحسين عرف ذلك فغضب عليه فصدر أمر بتنحيته عن الجيش . فعاد عزيز الى مصر .

- ويرى سلمان موسى ان السبب في الخلاف الذي نشب بين عزيز والشريف أنه طالب بانشاء قيادة عسكرية مستقلة . وقد كتب الكولونيل ولسن الى الشريف يقترح عليه منح عزيز صلاحيات لانشاء قوة نظامية وأن يخصص له ميزانية خاصة (١٥ ألف جنيه شهريا) ينفق منها على انشاء تلك القوة . ولكن الشريف لم يوافق على ذلك لأنه كان يخشى أن يتكرر معه ما حدث مع السلطان عبد الحميد من انقلاب العسكريين عليه . وقد طلب عزيز من الانجليز أن يخصصوا له مبلغا من المال والأسلحة والتجهيزات وأن يمنحوه صلاحيات الاتصال المباشر بهم وليس عن طريق الشريف من أجل أن يتسنى له انشاء القوة النظامية اللازمة . ولكن الانجليز لم يوافقوا على ذلك .

- في ١٢ ديسمبر ١٩١٦ عينه الشريف وزيرا للحربية ، ولكن الخلاف دب بين عزيز والشريف فقد أبلغ ضابطا الأمير على أن عزيزا يبحث مسائل سياسية مع الضباط ويتحدث معهم في مشروعه القديم القائل بانشاء دومة ثنائية من الأتراك والعرب تحت سيادة السلطان على نحو ما هو معمول به في النمسا والمجر . وبلغ الخوف من نفس الأمير على أنه أمر بارتداد قواته التي كانت تهاجم المدينة بقيادة عزيز خوفا من اتصال عزيز بفخري باشا ومن هنا توترت العلاقات بين الأمير وعزيز .

يدل على هذا ما جاء في رسالة من ولسن الى الشريف بأن جعفر العسكري يضع كل اهتماماته بعمله ولا يتدخل في الأمور السياسية كما فعل ، وفي مارس ١٩١٧ ذهب عزيز الى مصر في أجازة ولم يعد بعدها الى الحجاز .

- وكان عزيز قد التقى في مارس ١٩١٧ بالكولونيل نيوكمب وتطرق الحديث الى اتفاق بريطانيا وفرنسا بشأن سوريا واعتزام سايكس وبيكو

المجىء الى مضر لتنسيق الاتفاق وقد بادر عزيز لابلاغ الشريف حسين بما سمعه من نيوكمب . ولم يهمل الشريف الموضوع فكتب الى ولسون رسالة بتاريخ ١٦ مارس ١٩١٧ أشار فيها الى عزيز وقال (أرجو أن تكونوا قد علمتم بما دار بينه وبين الكولونيل نيوكمب من حديث . أما اذا لم يبلغكم شيء فأرجو أن تحققوا وتعلموني حتى أحصل على الحقائق الصحيحة بوضوح » .

وأجاب ولسون في اليوم التالي على رسالة الشريف بقوله ان الكولونيل نيوكمب انبأه عن اجتماعه مع عزيز وانهما بحثا في الوضع العسكري وأن عزيز حاول أن يتحدث في السياسة معه ، ولكنى لا أذكر التفاصيل . وقد أعطيت تعليمات للكولونيل نيوكمب أن عليه عند وقوفه في رابغ ان يقول لعزيز ان عنده من الواجبات العسكرية ما يكفي وان عليه الا يشغل نفسه بالسياسة . وأن جميع المسائل السياسية على أية حال خاصة بسموك والحكومة البريطانية .

وقد قلت للكولونيل نيوكمب أيضا أن يبلغ عزيز أن سموك حليف بريطانيا العظمى التى سوف تعاضدك فى المستقبل كما عاضدتك فى الماضى بكل وسيلة . وان بريطانيا العظمى وحلفاءها مصممون فى أن لا يعقدوا الصلح الا بعد أن تهزم ألمانيا تماما .

وفى ١٧ مارس أبرق ولسون الى كلايتون يحيطه علما برسالة الشريف وبجوابه وهو يقول « هذا بالضبط ما كنت أخشاه . . انه لموقف دقيق تحتاج معالجته الى الحذر » .

ثم يقدم ولسون توصيته الشخصية بأن يجرى اطلاع الشريف على الهدف الحقيقى لبعثة سايكس بيكو ، وكان من ثقة الشريف بصدق أقوال الانجليز أنه وافق على ما قاله له ولسون وقال انه لا يصدق ما بلغه من عزيز . وليس من المستبعد أن يكون لسفر عزيز الى مصر بعد هذه الحادثة وعدم رجوعه الى الحجاز علاقة وطيدة برغبة الانجليز فى كتمان أمر اتفاقية سايكس بيكو التى تسرع نيوكمب وحدث عزيز بشأنها .

وهناك روايات كثيرة عن الثورة نستأذن القراء والقارئات فى اختيار بعضها مع الحرص على التوسع فى الحديث عن الروايات المختارة حتى ولو حدث بعض التكرار ، (كما أردنا - على الله - اعطاء صورة صادقة

وأمانة لمختلف الآراء عن تلك الثورة التي كانت أول ثورة عربية بل غير عربية قامت أثناء الحرب العالمية الأولى) .

يقول جورج أنطونيوس فى كتابه « يقظة العرب » . . حدد يوم السبت الواقع فى ١٠ يونيو موعدا لبدء الثورة فى مكة التى لم يكن فيها الا جزء من حاميتها الاعتيادية يبلغ مجموعه ١٤٠٠ جندي لأن الوالى ومعه القسم الأكبر من الجنود انتقلوا للطائف فى بداية الحر وهى مصيف الحجاز فأعطى الامير الاشارة وقت الفجر بتوجيه نيران البنادق على الثكنات ومواقع الحامية اذ لم يكن لدى القوات العربية مدافع قدام تبادل اطلاق النار بعنف ثلاثة أيام استسلمت فى نهايتها المواقع الصغيرة بينما استمرت مقاومة الثكنات الرئيسية وقلعة جياذ ثلاثة أسابيع أخرى لأنها مجهزة بمدفعية ضخمة وكان السير رجينالد وينغيت خلال ذلك قد عجل بارسال سريتى مدفعية من الجيش المصرى المرابط فى السودان فوصل مدفعان الى مكة وأرغما باقى القوات التركية على التسليم .

لقد وجدنا أن أحسن وصف لسقوط مكة هو الذى نشرته جريدة (القبلة) التى أخذت تصدر فى مكة بعد مدة قصيرة وها نحن ندرج أدناه ما ورد فى أعداد ١٥ الى ١٨ شوال أى ١٤ الى ١٧ أغسطس عام ١٩١٦ :

« فى الساعة الثالثة والنصف من صباح السبت ٩ شعبان (١٠ يونيو) أى قبل الشروق بدأ اطلاق النار باستمرار على ثكنات مكة وعلى بناء الحميدية الذى تقع فيه دوائر الحكومة وحوصرت جميع القوات التركية فى حصونها المختلفة وأخذت قلعة جياذ الواقعة على قمة جبل شاهق والمشرقة على جميع أحياء المدينة تطلق النيران باستمرار على مواقع البدو واستحكاماتهم وعلى جميع المساكن وبصورة خاصة على القصر الشريفى الذى كان هدفا لأكثر قنابلهم وهكذا ظل الطرفان يتبادلان اطلاق البنادق بمصاحبة نيران مدفعية القلعة حتى الساعة التاسعة صباحا .

« وعندئذ خاطب الضباط الذين يتولون القيادة فى ثكنات جروال القصر الشريفى بالهاتف وطلبوا وقف القتال ورجو ايفاد ممثل الادارة الملكية المحلى ليشرح لهم سبب هذه الفتنة ويتداول معهم فى التدابير

الواجب اتخاذها لإخمادها تجنباً لاستمرار التقتيل وسفك الدماء ، فأرسل ممثل الادارة الملكية تلبية لطلبهم وأعلمهم بأن البلاد قد اعلنت استقلالها وأن الاصطدام لا ينتهى الا باخلائهم الثكنات وتسليمهم أسلحتهم بكاملها الى القائد العربى ولكن الضباط لم يصغوا الى هذا الاقتراح بل قرروا المقاومة والدفاع عن النفس وأمروا قائد القلعة بأن يستأنف اطلاق القنابل على الناس بشدة متزايدة فلما أعلم ممثل الادارة الشريف بذلك أصدر أوامره باستئناف القتال فتم ذلك بشكل يفوق الحالة السابقة للمفاوضات شدة واستمرت الحالة على هذا الشكل حتى المساء اذ فتر القتال ٠٠ وقدرت خسائر الترك خلال الحركات بمائة وخمسين قتيلاً أو جريحاً بينما أصيب ثمانية من العرب بين قتيل وجريح .

« استؤنف القتال صباح الأحد (١١ يونيو) بعد الفجر بقليل يوافقه اطلاق البنادق والمدافع حول جميع المواقع التى تحتلها الحامية وفى الساعة الحادية عشرة هاجمت قوات الشريف مواقع باش قراقول قرب الصفا فاخرقته واستولت عليه وأسرت حاميته .

سار القتال يوم الاثنين (١٢ يونيو) على غرار اليومين السابقين ولكنه اشتد بصورة خاصة حول دوائر الحكومة فى الحميدية حيث اعتصم وكيل الوالى وهو من ضباط الجيش ومعه حامية عسكرية وأخذوا يصوبون نار بنادقهم على غير هدى فيردون المارين بدون تمييز بين المسنين والعجزة والنساء والمصلين فى الحرم الشريف فشنت مفرزة من القوات الشريفة هجوماً عنيفاً على ذلك الموقع واخرقته وارغمت حاميته على التسليم فسيق الجميع ومعهم وكيل الوالى والضباط التابعون له الى القصر الشريفى مع المحافظة على مقامهم العسكرى وهناك وضعوا فى الجناح المخصص للأسرى وعوملوا بالاحترام والرعاية الواجبين تجاه من كان فى مقامهم ٠٠٠ ولما وصل وكيل الوالى ومعه باقى الاسرى الى القصر واطلع على الوقائع وعلى أسباب الثورة وأهدافها كتب بخط يده الى كل واحد من قواد الثكنات الرئيسية والقلعة يعلمهم بما حل به وينصحهم بالتسليم ويظهر أن كتبه لم يكن لها أى تأثير اذ عمدت الثكنات الى التأجيل والتسويف بينما ربطت القلعة مصيرها بمصير الثكنات وأخذت تطلق نيران البنادق والمدافع على الناس والبيوت وعلى الحرم الشريف بشكل أصبحت معه الصلاة مستحيلة ولم يعد فى امكان الناس دخول الحرم للطواف أو الصلاة أو حتى الدنو منه سواء كانوا منفردين أم مجتمعين ٠٠ ولم تقف وقاحة الحامية عند هذا الحد بل تجاوزته بقذفها الكعبة الشريفة نفسها بقنبلتين ومقام ابراهيم

بثالثة فهرعت ألوف المصلين تحت وابل من الرصاص وشظايا القنابل
المتفجرة لآخمد النار التى شبت فى سقف الكعبة الشريفة .

« واستمرت الأمور فى الثكنات الرئيسية والقلعة على هذا النحو أياما
طويلة اذ لم يكن عند العرب مدفعية يسلطونها على الترك المحصنين تحصينا
قويا هذا من جهة ومن جهة ثانية لم يتجراً الترك على الخروج من
استحكاماتهم ولو الى مسافة قليلة وفيما بعد وصلت بعض المدافع من جدة
ومعها جنودها فشرعت تقذف القلعة حتى فتحت ثغرة فى جانبها استفاد
منها العرب فهاجموها بشجاعة فائقة وهم معرضون لنار البنادق والمدافع
حتى أخذوها عنوة بعد قتل ضابطين تركيين وجندى ولم تصب القوة
المهاجمة الا بجريح واحد .

« وهكذا سقطت قلعة جباد يوم الثلاثاء ٤ رمضان (٤ يوليو) فى يد
القوات الشريفة التى استولت كذلك على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع
صغيرة وما يقارب ٨٠٠٠ بندقية من أنواع مختلفة قديمة وحديثة مع
كمية كبيرة من العتاد والمواد الحربية كان مجموع المدة التى تحملها
الحصار خمسة وعشرين يوما رأت الحامية خلالها أن ترتكب الفظائع التى
وصفناها .

« وبعد أن أسكتت مدافعنا بطاريات القلعة وحقت استسلامها وجهت
الى ثكنات جروال ونصبت الى جانب القوات المحاصرة وأخذت تقذف قنابلها
مستهدفة فتح ثغرة فيها لولوجها وكانت الحامية التركية كلما اشتد عليها
الحال تسعى الى مخادعة القوات الشريفة برفع علم أبيض وطلب مفاوضة
القائد ولكنها سلمت أخيرا بالفعل اذ خرج عدد من الضباط يحملون
علما أبيض الى وسط المعسكر العربى لمقابلة القائد ومفاوضته فسيقوا ثانية
الى ثكناتهم حيث حملوا على تسليم جميع أسلحتهم وعتادهم وتجهيزاتهم
وكل ما فى الثكنات خلا الأشياء الشخصية الخاصة بالضباط والجنود أى
دراهمهم وحقائبهم وحتى خيولهم لان التعليمات قضت بلزوم تسليمهم
هذه الأشياء .

« بهذا الشكل سلمت الثكنات الرئيسية لقوات الشريف مساء الأحد
فى ٩ رمضان (٩ يولية) بعد أن خيم الظلام وتقدر خسائر الترك فى هذا
الحصار بواحد وعشرين قتيلا وبستة وسبعين جريحا وهذا فيما عدا
خسائرهم فى الجزء الأول من الحركات وسيق الذين نجوا الى الأماكن التى

خصصت لهم وبعضها في حى الشهداء والبعض الآخر في منازل مختلفة داخل المدينة وكان عددهم ثلاثين ضابطا و ١٢٠٠ جندي برتب مختلفة . وبسقوط الثكنات زالت سلطة الاتراك من مكة اذ تمكنت قوات الشريف من احتلال سائر مواقع الحامية ومراكز الحرس ودوائر الحكومة وكذلك جميع الأحياء والأبنية الرسمية في المدينة » .

هوجمت جدة من الخارج يوم قيام الثورة في مكة . فان قوة مؤلفة من ٣٥٠٠ اعرابي ينتمون الى عشائر حرب الكبرى بقيادة الشريف محسن حاولت الدخول عنوة الى المدينة ولكن فقدان المدفعية هنا أيضا جعلهم يقفون عاجزين امام الحامية التركية المؤلفة من ١٥٠٠ جندي والتي كانت متفوقة بتجهيزاتها فأضطر الى اللجوء لخطة الحصار الذي اشترك فيه الفاروقى ، وقد أوفد من القاهرة . وقذفت البوارج البريطانية مراكز الترك الخارجية كما أن الطائرات البحرية ألقت قنابلها خارج نطاق المدينة وبعد أيام قليلة تلقت الحامية رسالة من القائد التركي في مكة يقول فيها أنه لا يستطيع نجدتها فاستسلمت في ١٦ يونيو .

وخلال ذلك حاصرت الطائف قوة يقودها الأمير عبد الله بينما توجهت قوة ثانية شمالا فاستولت على رابغ وينبع وسقطت قنفذه بمساعدة الاسطول البريطانى على أن حصار الطائف امتد زمنا طويلا اذ لم يخامر عبد الله الشك فى أنه سيأخذها فى النهاية فلم يشأ مهاجمتها بالرغم من وجود البطاريات المصرية معه وكان حكيما اذ رفض عروض الترك لعقد هدنة وانتظر حتى سلمت الحامية بلا قيد يوم ٢١ سبتمبر ومعها الغنيمة الكبرى : والى الحجاز غالب باشا .

كانت الثورة قد ثبتت قدمها حتى ذلك التاريخ اذ استولى الشريف على ٦٠٠٠ أسير وكمية كبيرة من المواد الحربية ووقعت مدن الحجاز الكبرى خلا المدينة المنورة فى يده .

أخفى نبا الثورة فى تركيا وألمانيا فاختفى عن الجمهور أسباب عديدة وكانت البلاغات التركية حتى فى تاريخ متأخر - ٢٦ يونيو - تكذب نبا قيام أية ثورة فى الحجاز وصدر أول اعتراف ، اذ أمكن تسميته اعترافا فى ٢٩ يونيو اذ اذاعت جريدة (الشرق) الرسمية فى دمشق بيانا قالت فيه ان افخاذ بعض القبائل هاجمت عددا ضئيلا من المواقع بجوار المدينة

ولم تشر الى احتلال مكة وجدة ولم تتعرض للشريف الذى ورد ذكره للمرة الأولى يوم ٢ يولية اذ نشرت ارادة سنية تقضى بعزله وتنصيب الشريف على حيدر أميرا على مكة دون بيان الأسباب . ولا يسمح بنشر شئ عن الثورة قبل ٢٦ يولية حين أتت جريدة (طنين) الصادرة فى القسطنطينية على وصف الثورة وصفا مشوها بقصد الاقلال من شأنها ثم استمرت الصحافة خلال شهور عديدة تنعت بحركة الشريف حسين بأنها عصيان شخص بدافع الدسائس البريطانية وان الحكومة آخذة فى قممها بمساعدة أهل الحجاز ورجال عشائره وقد ظلوا جميعا مخلصين للخلافة ولتعاليم الرسول التى فرضت الجهاد على المسلمين .

وصرف الترك جهودا خاصة فى الشام لتسوية ثورة الشريف وتصغير شأنها فقامت صفحات (الشرق) بعد صمتها فى الأسابيع القليلة الأولى بالمقالات الموعز بها والاخبار المختلفة فنشرت فى عدد ١٩ سبتمبر تقريرا ادعت انه صادر عن القائد التركى العام فى المدينة يقول فيه ان عددا كبيرا من رجال عشائر الحجاز قدموا الطاعة وأن فيصلا لجأ الى بارجة بريطانية بعد هزيمته وان أخاه عليا هائم على وجهه لانه ضائع وحيران . وفى يوم ٢٤ سبتمبر أى بعد سقوط الطائف بثلاثة أيام نشرت بلاغا رسميا يعلن هدوء الحالة فى الطائف حيث صد هجوم قام به الأمير عبد الله على رأس بعض البدو فتكبد خسائر جسيمة ولم يسمح للصحف بنشر أى شئ آخر .

لم يقف غضب جمال عند حد فراح يتشقى ممن تبقى من زعماء العرب القليلين الذين نجوا حتى ذلك الوقت من برائته فأصدر الأوامر باعتقال الناس جملة وأخذت شرطته العسكرية تلقى شباكها على غير حصر فقبضت فى دمشق وحدها على أربعين شخصا تقريبا من الوجهاء الباقين فزجتهم فى السجن وسامتهم أنواع العذاب الشنيع ، من ذلك أنهم جلدوا شكرى باشا الأيوبى وهو رجل مسن ووقور جلد يوميا جلدا مبرحا حتى كادوا يقتلونه ووضعوا عبد الحميد باشا القلطقجى وهو أمير لواء فى الجيش التركى ، وزكى بك العظمة وهو ضابط من رتبة عالية ، وفارس الخورى وهو مبعوث مسيحي فى البرلمان العثمانى ، فى غرف منفردة حيث جلدوا وحرموا الطعام . ولكن أحدا من هؤلاء لم يعترف ولم يبح بسر من أسرار الحركة العربية حتى أن شكرى القوتلى وهو من أصغر أعضاء (الفتاة) سنا وأكثرهم حماسا جاول الانتحار بقطع شريانه بسكين عادية ومثلمة وعندما بلغوا فى ضربه حدا مزقوا معه جلدهم فخشى أن يفقد وعيه ويعترف

بما لا تجوز ابحاثه من أسرار الجمعية ، وفي الوقت ذاته أخذ الترك يلفقون التهم لكي يوجدوا عذرا ظاهرا يبرر الحكم بالاعدام ، ولا شك أن ، الموت كان يصيب الكثيرين لو لم يتدخل فيصل في الوقت المناسب اذ أنذر جمال بأنه سيثار لكل منهم يعدم أو يموت نتيجة المعاملة السيئة من الضباط الاتراك الأسرى في مكة والطائف فيقتل عشرة منهم رميا بالرصاص بلا تردد مقابل كل عربي يذهب ضحية ارهاب جمال فكان لهذا التهديد أثره اذ أطلق سراح المتهمين ووضعوا تحت رقابة شديدة .

وفي تلك الفترة قبض على مائة وعشرين رجلا من وجهاء العرب في مختلف أنحاء الشام وأبعدوا الى الأناضول ثم اتخذت تدابير قمعية زادت في هول الأحكام العرفية وفي أكتوبر الغيت الامتيازات الخاصة والحكم الذاتي الذي منح للبنان عام ١٨٦٤ وتولت الادارة التركية حكمه مباشرة بما عرف عنها من أساليب العسف .

مر على الشريف سنة شهور من القلق قبل أن يتمكن من تركيز شأنه على أثر انتصاراته انه لم ينجح في أخذ المدينة ولكنه فيما عدا ذلك حقق جميع أهدافه الحربية المباشرة بسقوط الطائف في النصف الأخير من شهر سبتمبر .

كانت الشهور الثلاثة التي أعقبت ذلك أسوأ عهد في تاريخ الحملة العربية ، فكان الترك المحصورون بالمدينة والذين بلغ مجموع قوتهم بعد انضمام خيرى بك ١٤٠٠٠ جندي مجهزين بمدفعية قوية ، يخرجون كثيرا في هجمات عكسية حتى أنهم في احدى المرات دحروا بفضل مدافعهم الداوية العرب المسلحين بالبنادق فخيّل للناظر أنهم على وشك استرجاع رابغ والسير على مكة فقام جدال طويل اشترك فيه جميع الذين لهم صلة بالثورة حول انزال لواء واحد من جيوش الحلفاء في رابغ لكي يربط على طريق مكة ويقف في وجه أية محاولة تركية ولكن الحكمة قضت بنبذ هذه الفكرة كما أن خطر السير على مكة لم يتحقق قط وقضى على كل أمل فيه نهائيا في يناير من السنة التالية بتقدم أحد جيوش الشريف بقيادة فيصل نحو الشمال واحتلاله ميناء الوجه بمساندة الاسطول البريطاني .

وخلال هذه الشهور استقرت بعثات بريطانية وفرنسية في جدة فكان أول الحاضرين نائب الزعيم (الليوتنان كولونيل) ويلسون التابع

للإدارة السياسية في السودان والذي أرسل ليكون معتمدا بريطانيا لدى الشريف فأصبح الوسيط الأول بينه وبين السلطان البريطانية في السودان ومصر . وفي سبتمبر أتت بعثة فرنسية برئاسة الزعيم (الكولونيل) بريمون وبعد ذلك حضر ضباط آخرون بمهام معينة ومختلفة خلا واحدا واسمه لورنس حضر في زيارة بدافع حب الاستطلاع ثم بقي كما هو معلوم ليقوم بأعمال أثارت دهشة العالم . كانت مهمة هؤلاء الضباط استشارية وعين وينغيت قائدا أعلى للحركات في الحجاز في سبيل تنسيق أعمالهم ولم يترتب على هذه التسمية قيامه بقيادة قوات الشريف بل كان القصد منها جعله مسئولا عن تأمين المساعدة البريطانية الموجهة للعرب خلال الحرب بشكل مرض سواء أكانت باعطاء الرأي أم بتقديم المعدات وفي نهاية السنة عندما خلف وينغيت مكماهون كمندوب سام في القاهرة أصبح مسئولا عن الجهة السياسية بالاضافة الى الناحية العسكرية من التعاون الانجليزى العربى .

وعن عزيز على المصرى ودوره فى القتال . . قال جورك انطونيوس :

عهد فى بداية الأمر الى عزيز على الاشراف الفعلى على الحركات العسكرية العربية فقد تطوع لهذا العمل وكان أهلا له أكثر من غيره .

كان عزيز على يرقب الأمور ويتحين الفرص ونحن نذكر كيف اتصل به الانجليز فى القاهرة على أثر دخول تركيا الحرب وكيف قطع المباحثات معهم وعاد الى عزلته لما اكتشف أن بريطانيا العظمى لم تكن مستعدة فى ذلك الوقت لأن تقطع على نفسها عهدا صريحا وباتا بصيانة استقلال العرب ، ولكنهم أسروا له فيما بعد بفحوى . مراسلات مكماهون فانحاز فورا الى جانب التعاون الانجليزى العربى وعرض خدماته .

وصل عزيز على الى جدة فى شهر سبتمبر ليتولى القيادة فشرع يعمل بهمته المعتادة على خلق نواة لجيش نظامى . . وهذا عمل شاق جدا ، ولكنه لم يبق فى القيادة مدة طويلة اذ كان لا بد من حدوث الاحتكاك بين رئيس صعب المزاج كالحسين ومروؤوس يتعشق الكفاءة ولا يتساهل فى أمرها البتة كعزيز على فترك القيادة التى خلفه فيها فيما بعد جعفر العسكرى .

وكان جعفر هو الآخر مترددا على الالتحاق بالثورة أول الأمر فلما بلغه نبأ اعدام الشهداء في ٦ مارس وهو في المعتقل تأثرت أثرا عميقا وراح يصب اللعنات على كل عربي يبقى في خدمة الترك بعد هذه الوحشية التي بدرت منهم فتطوع للخدمة مع الشريف وفي الوقت نفسه وبناء على اقتراح الفاروقي أخذت السلطات تبحث بين معسكرات الأسرى في مصر والهند عن الضباط والجنود العرب وتعرض عليهم فكرة الالتحاق بالحرب القائمة لتحرير العرب فوصل عدد من الضباط والجنود الذين أطلق سراحهم بنتيجة ذلك الى ينبع والوجه والتحقوا بالجيش النظامي الذي كان في دور التشكيل ومن هؤلاء نوري السعيد ومولود مخلص وكلاهما عراقي وعضو في (العهد) وقد برزا فيما بعد بأعمالهما في الحملة العربية .

ونستأذن في نشر بعض الوثائق ، التي يرى بعضها النور - كما هي - لأول مرة (ومن بين تلك الوثائق صورة المنشور الذي اذاعه الشريف حسين بن علي والذي فجر به الثورة) ونعتقد أن هذا المنشور الذي اعتمدنا عليه هو أقرب المنشورات الى الحقيقة وفيما يلي نص المنشور الذي بدأت به الثورة :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا منشورنا العام الى كافة اخواننا المسلمين

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

كل يعلم بأن أول من اعترف بالهوية العلية من حكام المسلمين وأمرائه امراء مكة المكرمة رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين وتحكيما لعري جامعتهم والتمسك بسلاطينها من آل عثمان العظام طاب ثراهم وجعل دار الخلد مشواهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وتقانيهم في انقاذ احكامهما ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة لا يزال الأمراء المشار اليهم محافظين عليها فاني حملت بالعرب على العرب في سنة ١٣٢٧ ألف وثلثمائة سبعة وعشرين (الصواب ألف وثلثمائة وتسعة وعشرين) لفك حصار أبها محافظة لشرف الدولة وفي السنة التي أعقبتها جرت عين هذه الحركة تحت قيادة أحد أبنائي (فيصل) الى غير ذلك مما هو في هذا المعنى كما هو مشهود ومعهود الى أن نشأت في الدولة جمعية الاتحاد وتوصلت الى قبض ادارتها وكافة شئونها بما كانت نتيجته انتقاصها من الممالك ما قوض عظمتها مما عرفه أفراد العالم وخصوصا

بخوضهم بها غمرات الحروب الحاضرة وايقافهم اياها اليوم في موقف
الهلكة التي لا تحتاج لبيان كل هذا لمحض غايات معلومة تأبى احساساتنا
البحث فيها وتستدعى تفطر قلوب مسلمي المعمورة أسي وحزنا على دولة
الاسلام وتمزيق ما بقي من سكان ممالكها بلا تفرقة بين مسلمهم وذميمهم
فريق منهم بالصلب وأنواع الاعدام والآخر باجلائه عن وطنه على الصورة
المعمودة والحالة المشهودة علاوة على ما اصابوا به في أموالهم وأنفسهم من
آفات الحرب ولا سيما هذه الحرب الأخيرة التي كان للأرض المقدسة
النصيب الأعظم كما يعلم مختصرا من أضرار العموم حتى الدرجة الثانية من
الأهالي على بيع أبواب دورهم ودواليبهم وأخشاب سقفها بعد بيعهم لكافة
موجوداتهم وذلك للحصول على سد الرمق كل هذا وكان جمعية الاتحاد
لم تره كافيا لغرضها كما يظهر من تجاوزها على اخلال الرابطة الوحيدة
بين السلطنة السنية العثمانية وكافة مسلمي المعمورة ألا وهي التمسك
بالكتاب والسنة فقد وصفت أحد صحفها الموسومة بالاجتهاد الصادرة في
دار السلطنة السنية سيرة صلوات الله عليه وسلامه بشر السير نسأل
الله العافية . وهذا بمرأى ومسمع من وزير الدولة الأعظم وشيخ اسلامها
وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها وشفعت هذه الجرأة بلغو قوله
تعالى (للذكر مثل حظ الأنثيين) فساوتهما في الميراث وعززتهما بالطامة
الكبرى وهي هدم أحد أركان الاسلام الخمس وهو صوم رمضان بالأمر
بفطره على الجند المقيم بالمدينة المنورة أو بمكة المكرمة أو الشام مثلا بدعوى
أن زميله الجندى الآخر يقاتل في حدود الروس ولفقت لهذا أقاويل
المعارضة صراحة قوله تعالى « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » الى غير
ذلك مما يمس أساسيات الاسلام من الاقدامات المشتهرة صراحة أحكام
مرتكبها بعد أن ضربت على يد شوكة السلطان المعظم وسلبته حتى الاقتدار
على انتخاب رئيس كتاب ما بين سلطنته الشريفة أو رئيس خاصة المجلة
المنيفة فضلا عن النظر في أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد وما في
هذا من اسقاطهم لشروط الخلافة المطالبين بها المسلمين ووجوب البراءة
منها والحالة هذه مما لا مشاحة فيه مع هذا فمازلنا نتأول صحة هذه
الجرأة هربا وحذرا من نسبة تهمة التفرقة وبواعث الاختلاف حتى ظهر
الخفا وانكشف الغطا واتضح بأن الدولة أصبحت في يد أنور باشا وجمال
باشا وطلعت بيك يحكمون فيها بما يشاءون ويفعلون بها ما يريدون
وأبسط دليل على صحة هذا ما ورد أخيرا لقاضي محكمة مكة الشرعية بأن
لا يحكم الا بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه ولا يلتفت
للشهادة التي يكتبها المسلمون فيما بينهم غير مباليين بما في آية البقرة

بداية هذا كله من جهة ومن أخرى صلبهم في آن واحد للواحد والعشرين رجلا
 من عظماء أفاضل المسلمين وكبراء نوابغ العرب عدا من صلبوه من قبل
 وهم الأمير عمر الجزائري والأمير عارف الشهابي وشفيق بيك المؤيد
 وشكري بك العسلي وعبد الوهاب وتوفيق بك البساط وعبد الحميد
 الزهاوي وعبد الغني المريسي ورفاقهم المعلومون ولا ريب أنه يصعب حتى
 على ذوي القلوب القاسية ازهاق نفوس مثل هذا العدد في آن واحد ولو
 كانوا من بهائم الانعام وهب أننا التمسنا لهم عذرا وانتحلنا لهم مسوغا
 في قتل هؤلاء الأفاضل فما المسوغ لنفي عائلتهم البئيسة البريئة من كل
 ذنب وفيها من الأطفال والشيوخ وربات الخدور من تتفطر لهم القلوب
 وتذهب الأنفس حسرات عليهم وذاقتهم أنواع العذاب فوق ما قد أجرعوه
 من سم المصيبة باتلاف عميدهم الذي خربت بفقده منازلهم والله تعالى
 يقول « لا تزروا وازرة وزر أخرى » وإذا انتحلنا لهذه مسوغا أيضا فمن
 الذي يسوغ لهم مصادرة أملاكهم وأموالهم التي يأوون إليها ويتعيشون
 بها بعد أن قضوا على عزيزهم وسلبوا من أيديهم أسباب عزهم وإذا -
 تغاضينا عن هذا كله أيضا وقلنا ربما كان لهم مسوغ إليه فكيف يمكن
 أن تنتحل مسوغا لجرائمهم على قبر الأمير الأبر والمجاهد النقي الزاهد
 مولانا الشريف عبد القادر الجزائري الحسنى واهانتة وتحقيره هذا ما أبدوه
 من الأعمال أتينا به مختصر تاركين الحكم فيه للعالم الانساني عموما
 والعالم الاسلامي خصوصا وحسبنا برهانا على ما تكنه صدورهم نحو الدين
 والعرب ورميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية
 في قوله تعالى « وطهر بيتي للطائفين » وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين
 بقنبلتين من قنابل مدافعهم التي تحصن جياذ أثناء قيام البلاد بالمطالبة
 باستقلالها وقعت احداها فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية
 تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع التهب بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف
 من المسلمين لاطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب واضطربهم الحال الى فتح باب
 البيت والصعود الى سطحه للتمكن من اطفاء اللهب . وما انتهى أمرهم
 بهذا حتى عززوا الاثنين بثلاثة في مقام ابراهيم . وهذا عدا ما وقع منها
 في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقتوفاتهم بالقنابل
 والرصاص وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى
 تعذر على العباد القرب من البيت . وفي هذا من الاستخفاف والازدراء
 بالبيت وتعظيمه وحرمة ما نترك القول والحكم فيه أيضا لعموم المسلمين
 في مشارق الأرض ومغاربها . نعم نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء
 للعالم الاسلامي ولكننا لا نترك كياننا الديني والقومي العوبة في أيدي
 الاتحاديين وقد يسر الله للبلاد نهضتها كما وفقها بحوله وقوته لاخذ
 استقلالها وتكليل مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن ضربت على أيدي

موظفيها بيننا (كذا) ورجال حاميتها فاستقلت فعلا وانفصلت عن البلاد التي لم تزل تثن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما مطلقا بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخله أجنبية ولا تحكم خارجي جاعلة غايتها ومبادئها نصره دين الاسلام والسعي لاعلاء شأن المسلمين وقائمة في كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواء ولا مستند الا اياه في سائر الأحكام وكافة أصول القضاء وفروعه . مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة . باذلة كل ما في الجهد والطاقة لاعزاز انعام وتعميمه بين الناس وعلى اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد .

هذا ما قد قمنا به لاداء الواجب الديني علينا راجين من كافة اخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يؤيدوا كذلك ما يروونه واجبا لنا عليهم بالنسبة لتحكيم روابط الاخاء الاسلامي رافعين أكف الضراعة لرب الأرباب متوسلين برسول الملك الوهاب أن يتولانا بالتوفيق ويمدنا بالهداية الى ما فيه خير الاسلام والمسلمين والاعتماد على الله العلي الكبير وهو حسبنا ونعم النصير .

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

منشور آخر ألقته إحدى الطائرات البريطانية بتوقيع
الحكومة البريطانية وبعنوان : وماربك بظلام
للعبيد .

وهذا نص المنشور

الى سعادة قائد القوات التركية وحضرات ضباطه الكرام بخط
الدقاع بجدة أعلمكم علم اليقين وأخبركم بالحقيقة التي لامراء فيها أن
مكة المكرمة والطائف أصبحتا في يدى دولة أمير مكة المعظم الشريف
حسين بن علي وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية فقد أصبحت أرض
الحجاز خالية بالمرّة من دوائر الحكومة الاتحادية . مع اعلامكم بأن الحركة
لم تكن الا لتأسيس دولة خلافة عربية اسلامية وأن العرب لا يكرهون
الشرك حيث هم لأنهم مسلمون مثلهم وانما يريدون التخلص من الحكومة

الاتحادية الجائرة التي تلعب بها الألمان والله على ما أقول شهيد . فبدلاً من وقوفكم في وجه العرب الذين لكثرة عددهم وعدتهم سيحرزون النصر المبين إن شاء الله بعد ازهاق الكثير من الأرواح وبدلاً من المقاومة التي لانتيجة لها . أنصح لكم أن تسلموا بدلاً من أن تبيدوا عن آخركم ومهلتكم هي مجرد وصول هذا اليكم ، لأنكم بعد رفضكم لهذا النصح تصيب عليكم القنابل من السفن الهوائية ومن البحر والبر . حيث استعد لكم العرب بالمدافع الجبلية السريعة ومدافع الميدان الحديثة والرشاشات السريعة وعلى كل حال فأنا لا نعد ذلك جبناً منكم ولا أهانة لشرف رأيكم . ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الأمر وهو عالم بركوبه ويتجاوز الأدب وهو كاره تتجاوزه فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون والعاقبة للمتقين .

الحكومة الانجليزية

مرسومان أصدرهما الشريف الحسين بن علي في ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٢ - أحدهما بتأليف مجلس الوكلاء ، والآخر بتأليف مجلس الشورى .

وفيما يلي نص المرسوم الأول :

حضرة العالم الكامل الشيخ عبد الله سراج

انه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شؤون المجتمع وتوفير أسباب العمران لابد لها من دواوين يتوزع عليها النظر في الحكومة وما هو في معنى ذلك من المصالح العامة والخاصة ويتعين بها أساس الوظائف التي تنبني عليه المسؤولية وتكوين حكومة لبلاذنا المحروسة وبالنظر إلى ما تحققناه فيكم من الكفاءة - والاستقامة عزمنا بعد الاستعانة بعد الله عز وجل على توجيئه منصب قاضي القضاة لعهدتكم وتعيينكم وكيلاً عن رئيس الوكلاء العظام وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية أسماؤهم وهم ولدنا عبد الله بن الحسين لوكالة الخارجية ويكون وكيلاً عن وكيل الداخلية وعبد العزيز بن علي رئيس أركان حرب ووكيلاً عن وكيل رئاسة الجند مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة والشيخ علي مالكي وكيلاً للمعارف والشيخ يوسف بن سائهم رئيس البلدية سابقاً وكيلاً للمنافع العمومية والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقاً وكيلاً للأوقاف مع بقائه في نظارة أمور الحرم وكلما يتعلق في وظيفته الشريفة والشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجه وكيلاً للمالية . وذلك مما توسمناه من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها عن ما يرضى الله

واننا ننتظر منكم المبادرة الى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية وتعيين العمال والموظفين لها وأرجو الله سبحانه أن يجعلنا مظهر توفيقه وهبائه في كل ما يحبه ويرضاه .

في ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ .

حسين

أما أعضاء مجلس الوكلاء (الوزراء) الذين صدر بتعيينهم المنشور السابق فهم :

أما أعضاء مجلس الوكلاء (الوزارة) الذين صدر بتعيينهم المنشور السالف فهم :

الرئيس : الأمير علي بن الحسين ثم عين أمير المدينة فخلفه الشيخ عبد الله سراج مع وظيفة قاضي القضاة .

الخارجية : الأمير عبد الله بن الحسين ، ثم ذهب الى شرق الأردن فخلفه بالنيابة الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي ، ثم مساعد اليافي ، ثم فوزي البكري ، ثم الشيخ فؤاد الخطاب وهذا الأخير بقي يشغل وكالة الخارجية حتى خرج الحسين من مكة .

الحربية : عبد العزيز علي ولم يمكث الا قليلا من الأشهر لخلاف وقع بينه وبين الحسين في مسألة التجنيد الجبري التي كان يراها عزيز بك ، وادخال النظم العسكرية الحديثة ، فخلفه محمود بك القيسوني المصري ، من الضباط الذين ذهبوا الى الحجاز لتدريب الجيش الحجازي .
فصبري بك البغدادي .

المعارف : الشيخ علي المالكى ، ثم الشيخ كامل القصاب الفلسطيني ثم السيد عبد الله الزواوي .

النافعة : الشيخ يوسف قطان .

الأوقاف : السيد محمد أمين مدير الحرم ، وهو تركي الأصل ، ثم الشريف ناصر بن شاكر .

المالية : الشيخ أحمد باناجه .

البرق والبريد : الشيخ عبد القادر غزاوي .

الداخلية : الشريف عبد الله باشا بن محمد زوج ابنة الحسين .

الصحة : الدكتور نديم ، فخليل الحسيني ، فمحمد الحسيني .

أما السيطرة والتنفيذ فكلها بيد الملك حسين ولقد كان القصد الأول من تكوين هذه الهيئة أن يكون الحجاز ذا مظهر حكومي ، تقليدا للأتراك أو للحكومة الأخرى .

أما المرسوم الخاص بتشكيل مجلس الشيوخ فهذا نصه :

وكيل رئيس الوكلاء وقاضى القضاة مولانا وفقه الله

بما أننا قد استنسينا تعيين هيئة أطلقنا عليها اسم مجلس الشيوخ وجعلنا وظيفة هذا المجلس النظر فى كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدواوين والدوائر الرسمية وإبداء الرأى فيما تعرضه الدوائر على مقام وكيل رئيس الوكلاء سيقدر فيما بعد صلاحية هذا المجلس العالى وقد جعلنا رئيسا له جناب الفاضل الأجل فاتح بيت الله الحرام الشيخ محمد صالح الشيبى وأعضائه حضرات الأفاضل الأجلاء مفتى الشافعية السيد عبد الله بن محمد صالح الزواوى ومفتى المالكية عابدين حسين والشيخ عبد القادر بن على الشيبى ونائب الحرم السيد ابراهيم بن على ووكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوى السقاف والشيخ عبد الله على رضا والشيخ على بن عبد الله الشرباصى والشيخ أبو بكر بن محمد خوير وذوى السيادة والشرف حمزة بن عبد الله الفعر وفتن بن محسن وسليمان بن أحمد بن سعيد . وناصر بن شكر ولنبلغهم ما ذكر ينص تحريره .

وتبقى الوثائق الخاصة بالمعاهدة البريطانية العربية .

فى شهر رمضان سنة ١٣٤١ وصلت إحدى البوارج الحربية الانجليزية مقلّة الدكتور ناجى الأصيل مندوب الملك الحسين فى لندن حاملا المعاهدة البريطانية العربية . وقد ألقى رئيس الديوان العالى الخطاب الملكى الهاشمى التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(نصح في هذا العقيد المبارك بمال المعاهدة العربية البريطانية المؤسسة) .

(على مقرراتنا الأساسية والتي يعترف بها صاحب الجلالة البريطانية لنا باستقلال العرب بجزيرتهم وسائر بلادهم ويتعهد لنا حشمته الملوكية بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرق الأردن وسائر البلاد العربية في جزيرة العرب ما خلا عدن فنأمر أن يعتبر هذا اليوم المبارك عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية والله ولي التوفيق .

وعقبه خطاب مندوب الحكومة بلندن .

مولاي : نحمده تعالى وأشكره على هذه الوقفة الفريسة التي مننتم يامولاي على بها لأقف بين يدي جلالتيكم في هذا اليوم العظيم لأقول كلمتي على المعاهدة العربية البريطانية التي انتهت والحمد لله باعتراف بريطانيا باستقلال العرب في جزيرتهم وسائر بلادهم ويتعهدا لجلالتيكم بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العربية .

ان بداية هذا الانقلاب الكبير في تاريخ الأمة العربية ظهر يوم نادى جلالتيكم بأتمته متصرخا اياها لنهوض وفك القيود لاعادة حريتها القديمة واستقلالها المغصوب فيالها من نهضة مباركة قامت فحطمت سلاسل الغل والاستعباد وجاءت اليوم بالاستقلال والاتخاذ لأمة عرفها التاريخ بفتوحها العظيمة ومجدها المشيد فالأمة العربية مديونة لكم يامولاي في نهضتها ومديونة لكم . في العهود التي قطعتموها لحفظها وصيانتها من مصائب الحرب ونتائجها مديونة لكم في هذا الاعتراف باستقلالها ووحدتها ، فكما أني ماقت الا بواجب الوطني يوم لبيت فتركت الجيش التركي والتحققت بجيوش جلالتيكم لاشتراك بالدفاع باستقلال بلادى العربية في تلك المعركة الكبرى فالיום أيضا يامولاي بذهابي الى لوزان حسب تنسيب جلالتيكم للدفاع عن القضية العربية أمام المؤتمر وثم الى عاصمة بريطانيا لمطالبتها بايفاء العهود لم أقم الا بنفس ذلك الواجب السامي الذي يفديه كل عربي صميم بروحه وماله وما تملكه يداه اسأله تعالى أن يؤيد جلاله مولاي المنقذ الأكبر ويبقيه ذخرا للأمة العربية وأن يجعل هذا اليوم بدء كل خير لصالح الأمة العربية) .

نشرت حكومة فلسطين بلاغا رسميا قالت فيه :

فيما يلي خلاصة المعاهدة التي جرت المفاوضة بشأنها بين حكومة جلالة ملك بريطانيا و جلالة ملك الحجاز . . أما المعاهدة فلم تبرم نهائيا حتى الآن وقد اقترح جلالة الملك حسين تعديلات صغيرة لم تعرف تفاصيلها تماما والبحث جار فيها :

المادة الأولى : تنص على وجود سلم بين الحكومتين وعلى منح استعمال بلاد الحكومة الواحدة قاعدة لأعمال موجبة ضد الحكومة الأخرى .

المادة الثانية : يتعهد جلالة ملك بريطانيا بأن يعترف باستقلال العرب في العراق وشرق الأردن والدولة العربية في شبه جزيرة العرب ما خلا عدن وأن يعضد هذا الاستقلال . وأما فيما يتعلق بفلسطين فقد تعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لايجرى شيء في هذه البلاد مما يمكن أن يجحف بحقوق الأهالي العرب المدنية أو الدينية . وأما اذا أبدت إحدى هاته الحكومات أو كلها رغبة في الاشتراك في الجمارك أو خلاف ذلك بقصد ايجاد حلف فيما بعد فان صاحب الجلالة البريطانية يسعى لترويج رغبتهم اذا طلب اليه ذلك المتعاقدون ذوو الشأن ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذي لجلالته البريطانية في العراق وشرق الأردن وفلسطين ويتعهد بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع جلالته البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد .

في المادة الثالثة : يتعهد جلالة ملك الحجاز بالمحافظة على العلاقات الودية التي وجدت قبل الحرب بين جلالته وبين حاكم عسير وحاكم نجد .

وفي المادة الرابعة : يتعهد صاحب الجلالة الهاشمية بأن تسعى في تسوية المنازعات بشأن الحدود بين بلاده وبين حاكمي العسير ونجد بمخبرات ودية ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن تسعى في المساعدة بتسوية منازعات كهذه عندما يرغب ذلك .

في المادة الخامسة : يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة أي اعتداء يقع على بلاد جلالته الهاشمية ضمن الحدود التي تقرر نهائيا .

المادة السادسة : تنص على تعيينى وكيلا من قبل جلالتة الهاشمية فى لندن وعلى تعيين وكيل من قبل جلالتة البريطانية فى جده أو أى مدينة ساحلية أخرى ، ويجوز لجلالتة أن يعين أيضا قناصل من قبله فى انجلترا وغيرها من المدن الساحلية .

وفى المادة السابعة : يتعهد صاحب الجلالة الهاشمية بالترتيبات الصحية والكورنتينات الموضوعة مؤقتا من قبل صاحب الجلالة البريطانية فى خمران .

وفى المادة الثامنة : يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لايتدخل فى التدابير التى يتخذها صاحب الجلالة الهاشمية للاعتناء بالحجاج ويتعهد صاحب الجلالة الهاشمية أن يعضد المساعى التى يبذلها الرعايا البريطانيون المسلمون لمساعدة الحجاج فى الحجاز .

المادة التاسعة : تنص على تعيين مبلغ محدود كى يدفعه كل حاج وعلى نشر المبلغ المبين سنويا .

وتنص العاشرة أيضا على الاعتراف بالصفة الهاشمية التى لرعايا جلالتة الهاشمية فى بلاد جلالة البريطانية وكذلك تنص على الاعتراف من قبل جلالتة الهاشمية بالصفة البريطانية التى لرعايا جلالتة فى بلاد جلالتة الهاشمية .

المادة ١١ : تنص على تسليم أموال الرعايا البريطانيين ممن يموتون فى بلاد جلالتة الهاشمية الى المعتمدين البريطانيين فى تلك البلاد ويصير التصرف بأموال كهذه وفقا للقانون السارى على ظروف كهذه .

المادة ١٢ : تنص على حضور قنصل بريطانى فى محاكم جلالتة الهاشمية عندما تنظر هذه المحاكم فى قضية يكون فيها أحد الرعايا البريطانيين مدعيا أو مدعى عليه وعلى تأجيل حكم اذا رغب المعتمد البريطانى فى اجراء المخابرات طلبا للعدالة . ولا تسرى نصوص هذه المادة على حالة الرعايا البريطانيين أو الأشخاص الذين يتمتعون بحماية جلالتة البريطانية القاطنين فى بلاد جلالتة الهاشمية بصورة دائمة .

المادة ١٣ : تنص على تسليم صاحب الجلالة الهاشمية الرعايا البريطانيين الذين يتلقى عليهم القبض من قبل السلطات الهاشمية الى القناصل البريطانيين بشرط أن يعطى هؤلاء ضمانا لاحضارهم عند الاقتضاء وتسرى نصوص هذه المادة على الرعايا المقيمين بصورة دائمة في بلاد الحكومة الهاشمية خارج جدة وغيرها من المرافئ التي قد يعين لصاحب الجلالة البريطانية قناصل فيها .

المادة ١٤ : تنص على رؤية دعاوى البريطانيين التي لاتمس فيها مصالح رعايا الحكومة الهاشمية من قبل القناصل البريطانيين .

المادة ١٥ : تنص على التنازل من قبل جلالتة البريطانية عن جميع الامتيازات والاستثناءات خلاف المنصوص عليها في هذه المعاهدة التي كان يتمتع بها الرعايا البريطانية بمقتضى الامتيازات بين بريطانيا العظمى وتركيا .

المادة ١٦ : تنص على اعلام جلالتة الهاشمية المعتمد البريطاني عندما يرغب جلالتة في ابعاد رعايا البريطانيين .

المادة ١٧ : تعالج الشروط التي بموجبها يعترف صاحب الجلالة البريطانية بعلم جلالتة الهاشمية .

المادة ١٨ : تصرح بأنه لايجوز لأى الفريقين المتعاقدين الساميين أن يعقد أى معاهدة أو اتفاق مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق المتعاقد السامى الآخر .

المادة ١٩ : تنص على أن لاشئ في هذه المعاهدة يبطل أى تعهد قد تعهد به أو قد يتعهد به فى المستقبل فى أحد الفريقين المتعاقدين الساميين بمقتضى عهد جمعية الأمم .

المادة ٢٠ : تنص على تصديق هذه المعاهدة وأنها نافذة الفعل لمدة سنوات اعتبارا من اليوم الذى توضع فيه موضع العمل .

هذه هى خلاصة المعاهدة نقلا عن جريدة القبلة ، ومجلة المنار ، وان كانت لم توضع موضع العمل والتنفيذ ، لأن الحسين لم يوقعها من طرفه ، بل طلب تعديل بعض موادها ، وزيادة مواد أخرى عليها ، لم توافق عليها طبعا الجهة الأخرى . وقد نشرتها أغلب صحف العالم ،

وتناولتها بالبحث والتدقيق وكان منها المحبذ لها ، المتفائل من ورائها
الخير . والأغلب كان ينتقدها ويرى فيها كل أنواع الشر والقضاء على
مستقبل العرب والاسلام . والذي أغرى أولئك المنتقدين بنقدها وتوجيه
اللوم للحسين من أجلها - وأن جريدة القبلة حين نشرت خلاصتها علقت
عليها بأنها وضعت موضع التنفيذ ، ووصفتها بأنها عيد على عيد . ولقد
أثارت هذه المعاهدة عاصفة شديدة في كثير من الهيئات والجماعات
الاسلامية حتى ورد على الحسين عدة كتب واحتجاجات من مختلف الجهات
يقرعون فيها على هذه المعاهدة . ولقد كان لهذه الاحتجاجات أثر كبير ،
اذ نكت الحسين عنها ونفض يده منها ، ولم ينفذ ولا مادة منها .

ولكن ماذا كانت أصداء الثورة العربية عند الاتحاديين - في تركيا -
وفي مصر وسوريا - لقد ارتعد زعماء الاتحاديين فرقا وذعرا عندما بلغتهم
الثورة العربية في الحجاز ، وكان جمال باشا أشدهم تألما وتأسفا .
اذ أدرك أنه كان مخدوعا وأنه لم يحسن السلوك مع الشريف وأنجاله
الذين تمكنوا من النجاء من شره وأول من تنبه الى هذه الحقيقة بصرى
باشا محافظ المدينة فراح يدعو الى اغتيال الحسين وأولاده ، ويقول
باتباع سياسة الشدة في الحجاز ، وقد قال كلمته المأثورة :

« لقد انتصر الذكاء العربى فى هذه المعركة على الذكاء التركى وفاز
عليه » .

وقد استطاع فخري باشا أن يقبض على ناصية الحال فى المدينة
فورا ، وتولى بنفسه قيادة الجنود المرابطين فيها ، وشرع بالاستعداد
لمنازلة العرب الذين بادروه بالقتال بلا هوادة ولا انقطاع ، وأصدر اليه
جمال التعليمات بأن يعجل فى قمع الثورة ، كما أصدر أوامره الى بعض
الاورطات المقيمة فى دمشق بالسفر الى الحجاز والانضمام الى قوات
فخري باشا ، وأرسل على الفور وفدا مؤلفا من محمد فوزى العظم
وعبد الرحمن اليوسف والشيخ أسعد الشقيرى الى المدينة ليقابل شيوخ
القبائل ويقنعهم بالعدول عن العصيان والبقاء على الولاء للدولة ومساعدة
جيوشها .

وقرر الاتحاديون بعد ذلك أن يضربوا العرب بالعرب ويمزقوا
الأمة العربية تهزيقا ببث الشقاق والبغضاء بين جماعاتها ، فعينوا الشريف
على حيدر باشا فى منصب الشرافة بدلا من الشريف حسين وأرسلوه من

الاستئانة الى دمشق على قطار خاص ومنها سافر الى المدينة المنورة وقد
تقرر أن يتخذها مقرا له وعاصمة لامارته ، فوصل اليها في أوائل سبتمبر
سنة ١٩١٦ وبصحبه شقيقه الشريف جعفر باشا وكان الشريف الجديد
قبل تعيينه وكيلا لرئاسة مجلس الأعيان العثماني ووزيرا سابقا
للأوقاف .

وكان نبأ الثورة العربية قد نشر في دمشق قبل نشره في مصر
يأسبوع وكان بيان الحكومة الدمشقية كما يلي :

« اعتدت بعض العصابات المؤلفة من ذوى الطمع والفساد ومن
بعض العربان الذين صار استمالتهم بالمال على بعض المخافر المجاورة
للمدينة المنورة بالسلاح وضربوا التلغراف وسكة الحديد ، فبادرت
القوى العسكرية الى التنكيل بهذه العصابات الواقعة بالطريق وتمكنت من
دخول المدينة وشرعت في اصلاح السكة كما انشأت دارا للمخابرات
الاسلكية في المدينة لتجرى المخابرات بواسطتها :

وفي الليلة البارحة زحفت قوانا على العصاة المجتمعين والمتحصنين
في موقع الحسا أول مرحلة من المدينة الى مكة تبعد عن الأولى ثلاث ساعات
وتسمى أيضا بين على بجوار المدينة واستولت على المواقع التي كان قد
امتنع لها العصاة المذكورون وطردتهم منها بعد تبديد شملهم .

« وقد تبلغنا برقية من محافظ المدينة المنورة تشعر بأن أهل المدينة
المنورة سروا سرورا عظيما بما وقع . وهذا نصها :

« لقد سر أهل البلدة الطيبة قلبا وقالبا بمحو القبائل الباغية
والتنكيل بها في المعركة الشديدة التي دارت أمس وعادت الراحة الى
ربوعها ، كما هول الحادثة قد أثر تأثيرا عظيما في العربان المجاورة ،
ونبتهل الى الله تعالى بدوام توفيقاتكم » .

« أما في القاهرة فقد أذاعت شركة روتر في ٢٢ حزيران برقية
صادرة من لندن هذا نصها :

« وصلت أنباء موثوق بصحتها أن دولة شريف مكة جاهر باستقلال العرب وخروجهم على الأتراك الذين أوصلوا البلاد بتهاونهم الى أقصى درجات الانحطاط . »

ونشر قلم المطبوعات في مصر البلاغ الرسمي التالي :

« تأكدت رسميا الأخبار التي أذاعتها شركة روتر بتاريخ ٢٢ يونيو عن قيام عربان الحجاز بقيادة شريف مكة ، وقد زال حكم الأتراك في هذه الولاية وأصبحت مكة وجدة والطائف في قبضة يده ، وسقطت أيضا بلدة الليث بعد أن أسرت حاميتها ، ولا يزال حسن صغير بمكة وآخر بالطائف تقاوم حاميتها ولكن تسليمها ينتظر من ساحة الى أخرى . »

ولم ينشر خبر الثورة رسميا في لندن الا في ٢٨ يوليو ، أي بعد مضي سبعة أسابيع تقريبا على اعلانها . وهذا مضمون البلاغ الرسمي : « منذ سنين والعرب المعذبون لسوء الحكم التركي ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة وقد قاموا في الماضي بثورات عديدة ضد الحكم التركي في البلاد العربية . »

« وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية في الاستانة وخضوعها لتمام لسلطة الألمان الى دخول تركيا مضطرة في حرب مشثومة أوصلت الأحوال فيها الى حد النهاية فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء في البلاد العربية أن الأوان قد آن لخلق النير التركي والمناداة باستقلالهم . »

« وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها في الماضي الى البقاء على الحياد . »

أما الآن وقد انضمت تركيا الى صف الدول الوسطى (ألمانيا والنمسا) فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة في اظهار عطفها على العرب الذين انخرطوا في عداد الحلفاء ضد العدو المشترك .

« على أن بريطانيا العظمى ستبقى محافظة على سياستها السابقة في الابتعاد عن أية مداخل في الشؤون الدينية وعلى بذل غاية جهدها في ابقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجي . »

« ومن القواعد الجوهرية في سياسة انجلترا العظمى التي لا تقبل التغيير والتبديل أن تبقى هذه الأماكن المقدسة في يد حكومة اسلامية مستقلة » .

ولا يخفى أن أحوال الحرب الحاضرة تلقي العقبات الكثيرة والأخطار في سبيل الذين يرغبون في القيام بفريضة الحج ولكن العمل الذي قام به شريف مكة يجعل الأهل كبيراً في اتخاذ التدابير اللازمة التي تمكن الحجاج في المستقبل من زيارة الأراضي المقدسة بسلام واطمئنان » .

وفي ٢٨ يونيو سنة ١٩١٦ ألقى اللورد كرومر في مجلس اللوردات البريطاني خطاباً عن الثورة ، قال فيه :

« ان الانباء التي أذاعتها الصحف عما حدث في جزيرة العرب عظيمة الشأن جداً ومن رأيي أنها داعية الى الارتياح أيضاً ، ومما يزيدنا وقفاً في النفوس انها حدثت على حين غرة وبلا انتظار » .

أما كونها خطيرة الشأن فلأن كل ما يختص بالمواطن المقدسة يثير اهتمام العالم الاسلامي كله تقريباً . وأما كونها داعية الى الارتياح فلأن في العمل الذي قام به الشريف وسائر المشتركين معه دليلاً على ثقتهم الشامة في الاعلان الذي أصابت حكومة جلالة الملك في نشره في مستهل الحرب ، وهو أنها لاتنوي التدخل في شئون ادارة أهل الحجاز واستقلالهم » .

« قلت ان هذه الحركة لم تكن منتظرة ، ومع أن جزيرة العرب كانت في ثورة مزمنة في السنين العديدة الماضية فلو سئل المطلع على شئون الشرق لنفي احتمال حدوث ثورة فيها وقد كانت ظواهر الحال تدل على أن الفوز الذي أحرزه الترك العثمانيون في كوت العمارة يكفي لخلق فكرة الثورة في بلاد العرب قبل اكتمالها ولكن الحقيقة جاءت مناقضة لها فكان لها من ذلك عبرة جديدة تضاف الى مئات العبر التي تقدمتها وهي انه يستحيل على أوروبي أن يتنبأ بما سيقع في الشرق اذ جل مانعرفه عنه هو أن يتوقع فيه حدوث ما ليس في الحساب » .

فاجاب الرئيس كرو على خطبة كرومر باسم الحكومة البريطانية بقوله :

« لا يمكننى أن أزيد على ما نشرته الصحف عن سير الحالة فى جزيرة العرب شيئا يذكر سوى ان حكومة جلالة الملك لم تؤخذ بأخبار بلاد العرب على غرة ، فقد كانت خططها من البداية الى النهاية المحافظة على الأراضى المقدسة فى الحجاز والعراق العربى تحت سلطة اسلامية ، على أنه لما ظهر أن الدولة العثمانية أخذت تفقد منزلتها كالدولة الممثلة للدين الاسلامى والعالم الاسلامى الحقيقى بفعل النفوذ الأجنبى والسيطرة الألمانية . انضح أن حدوث ثورة كالثورة التى جرت الآن لم يكن بعيد الاحتمال . فان الحكومة العثمانية أخذت تضع حقها كممثلة للإسلام منذ مدة طويلة ، ولذلك لم يبق مجال للدهشة والاستغراب مما قام به قوم يعدون أنفسهم الممثلين الحقيقين للدين الاسلامى . ولايسع أحد أن يتمالك عن اظهار العطف والميل الى أولئك الذين يفرغون قصارى جهدهم فى نزع النير الأجنبى عنهم . »

« أما العامل الآخر الذى يحملنا على العطف على المساعى التى يبذلها العرب لتحرير أنفسهم من ربة السيادة التركية فهو أن هذه الحرب أثرت فى موسم الحج تأثيرا عظيما أوجبته الضرورة الحربية على كره منا . وقد كان ألوف وألوف من رعايا جلالة الملك يحجون من الهند وما وراءها شرقا الى الأماكن المقدسة . ويحتمل أن ما جرى الآن يسهل إعادة موسم الحج الذى قضت الضرورة بالتدخل فى شأنه بسبب حصر الموانى العثمانية على سواحل جزيرة العرب وينشطه تنشيطا عظيما . »

« وعند الحكومة ما يؤيد صحة الأخبار عن حالة سوريا المفتتة للأكباد ، فقد أطلق الأتراك فى ظل جمال باشا عقال الجور فيها ومدوا يدهم الشدة والقسوة الى أعيان السوريين الذين وقعت عليهم الشبهة عند الحكومة الاتحادية ، وقد أعدم عشرون على الأقل من أصحاب المكانة والوجاهة ونفى كثيرون سواهم أو سجنوا . وفوق ذلك ان فى سوريا الآن تلك الحالة المرعبة التى أشار إليها اللورد بريس ، فقد ضرب الترك نطاقا محكما على لبنان وأخذوا يجوعون أهله بهذا الحصار ويحرمونهم من حاجات المعيشة . »

وقد خاطبت الحكومة الأمريكية الحكومة العثمانية ، أو هي تخاطبها الآن ، مشيرة الى مافى هذا العمل من المخالفة للعرف المألوف الذى تسير عليه الحكومة المتعدنة ولا بدع اذا قلقنا أشد القلق لسوء المصير الذى سيحقيق بسكان سوريا بعد الذى رسيخ فى الأذهان مما نزل بارمينيا . والفرنسيون يهتمون بمصير المسلمين السوريين أيضا ومن البديهي ان مستقبل سوريا يشغل بال الحكومة جدا ، ورجاؤها الوحيد أن الفوز الذى يمكن احرازه فى أنحاء العالم المختلفة من الوجهة الحربية قد يساعد على حل هذا المشكل .

أما الأوساط الفرنسية فقد قابلت اعلان الثورة بالارتياح وبأدبرت الحكومة الفرنسية الى تأليف وفد من مسلمى أفريقييا الشمالية برح مرسيليا الى جدة فى ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦ على رأس عدد من الحجاج المسلمين من تونس والجزائر وقد حمل رئيس الوفد الى قدور بن غبريط كتابا رقيقا من المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية الى الشريف الحسين مع مليون وربع مليون من الفرنكات سلمها الكولونيل بريمون مندوب فرنسا فى الحجاز الى الشريف محسن بن أحمد منصور فى جده مع هدايا خاصة الى الملك وعلى أثر وصول الوفد الى مكة بعث الحسين الى المسيو بوانكاره البرقية التالية :

« أبشركم بفرح لا مزيد عليه بوصول الوفد الاسلامى الفرنسى المؤلف من ملكيين وعسكريين ، فقد استقبله الاهلون استقبالا فخما يليق بمقامه . فأهلا ومرحبا به . وانى لشاكر من صميم الفؤاد للذين أوفدوه الينا ونعرب للأمة الفرنسية عن اعجابنا بعملها فى هذا الوقت الذى تدافع به هى وحلفائها عن المدنية وحقوق الأمم . وما خلا ذلك فان التاريخ لأكبر شاهد على العواطف الكريمة التى أظهرتها الأمة الفرنسية للإسلام والمسلمين . لهذا أتمنى من صميم فؤادى دوام هذه العواطف ، وأعرب لحضرتكم عن أخلص عواطفى لشخصكم الكريم وللأمة الفرنسية . »

فأجابه المسيو بوانكاره بهذه البرقية :

(أشكر لعظمتكم تفضلكم بالذات باخبارى عن وصول الوفد الذى انتدبته لحضرتكم حكومة الجمهورية الفرنسية ، ولم يكن عندى أقل شك

بالمقابلة الودية التي اقمتموها له ، وليكن لعظمتكم تمام الثقة بأن الحكومة الفرنسية تتمنى بمنتهاى الاخلاص النصر المبين لجيوشكم . واني أشاطرهما هذه العواطف وأتمنى لعظمتكم الفوز) .

ولما سقطت الطائف بيد الجيش العربي كتبت جريدة الطان لسان حال الحكومة الفرنسية ما يأتى :

« ان الانتصار الجديد الذى ناله جنود الشريف قد وسع الدائرة التى قامت على أساس ثورة مكة لاعادة استقلال العرب ، ولم يعترف أمراء مكة بسلطة الدولة العثمانية الا لرغبتهم فى تعزيز شأن الاسلام ، ولذلك أبوا اليوم ان يخضعوا لنفوذ حكومة تركيا بيعت للأجنبي يديرها ملحدون وزنادقة ، ولما وقف الشريف الأكبر - وهو حفيد النبى - على مجرى السياسة فى العالم ورأى ضغط اليد الألمانية على الاستانة وازدياد هذا الضغط يوما عن يوم ، أخذ يحاذر المطامع الألمانية التى اكتشفها تحت ستار موافقة الامبراطور غليوم ، فنشأ عنها ذلك العهد الجديد الذى حمل امبراطور ألمانيا شينخ اسلام الاستانة عليه .

« ان الحركة العربية التى نشأت فى مكة ذات شأن رغم انها لاتزال محلية للآن . والفوز الذى يؤيد هذه الحركة التى قام بها شعب مظلوم ، ينتزع من يد سلطان الاستانة المقام الذى أكسبه اياه بسط نفوذه على أرض الحجاز فالسلطنة العثمانية التى كسرت فى أرمينيا ، والتى ستقطع صلاتها غدا بأوروبا ، أخذت منذ اليوم تنهار فى الجهة الجنوبية من بلادها ، فالثورة تتمخض الآن فى صدور العرب الأباة بعد أن لبثت منذ ربع قرن ، أى منذ ثورة الوهابيين ، تظهر للوجود الفينة بعد الفينة فى ثورات اليمن المتوالية .

« لقد استردت أرض الحجاز المقدسة استقلالها ، وتبادل الأمير حسين الشريف الأكبر الرسائل البرقية مع رئيس الجمهورية وهى بمثابة اعتراف بهذه الحكومة الاسلامية الناشئة صديقة فرنسا وقد شكر الشريف رئيس الحكومة على ارسال البعثة الاسلامية الملكية العسكرية التى ذهبت لتحيته والاعراب له عن صداقة فرنسا للعالم الاسلامى واخلاصها له . ويمكن للمسلمين اليوم أن يزوروا مكة بحرية تامة بعد أن ارتفع عنها نير الاتحاديين . ويسر فرنسا أن تعرب عن صداقتها لهم بمساعدتها لهم على الحج وأن تحيي الرئيس الدينى والمدنى الذى أعاد الى

قلب بلاد العرب حكومة عربية مستقلة لا يزعمها أى تدخل أجنبى ،
ولا يظلمها أى سيطرة أجنبية » .

وألقى السى قدور بن غبريط رئيس الوفد المسلم الفرنسى خطابا طويلا بين يدى الحسين فى مكة ، قال فيه : « لقد شرفنا رئيس جمهوريتنا بالمثل بين يديكم الكريمتين مع بقية الوفد لتبليغ مراسيم التهانى الصادرة من صميم الافئدة الدالة على خلوص المودة القلبية فى استرجاع حقوق أسلافكم الكريمة اليكم فى منابعها الأصلية وان نهضتكم المشكورة واعلانكم استقلالكم قد أدخلنا سرورا كبيرا على حكومة فرنسا حيث رأت فى ذلك القضاء على المظالم الفادحة التى ارتكبها ذوو الأغراض من حزب فتيان الأتراك الذين استحوذ عليهم حزب الشيطان وغرهم حتى نبذوا الايمان وراء ظهورهم ونظروا للعرب أينما كانوا بعين البغض وأحلوا محو اللغة العربية ونفى أهلها من كل أرض » .

وقال : « ولقد أثرت هذه النهضة القومية فى نفوس الملايين من المسلمين سكان أفريقيا ، فاستبشروا وانشرحوا بنهضتكم القومية بعدما كانوا فى خوف وكدر على مصير هذه الديار اذ تحققوا تحرير القطر الحجازى بوجودكم من كل تدخل أجنبى » .

ولما عاد السيد قدور الى فرنسا حمل الى المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية كتابا من الشريف بخط يده شكره فيه على كتابه اليه ، كما أنه أهدى اليه بعض الجياد العربية .

أما الألمان فقد تلقوا نبأ الثورة العربية بقلق لا يقل عن قلق الأتراك ، يؤيد هذا ما نشرته الصحف اللندنية يومئذ ، وهو ان حكومة برلين حظرت على جرائد بلادها نشر أى خبر من أخبار الثورة الحجازية كما كلفت السفير العثمانى فى عاصمتها أن يطلب الى حكومته موافاتها بمعلومات وافية عن الثورة وعواملها وأسبابها .

وعلى أثر اعلان الثورة زار القنصل الألمانى والقنصل النمصى فى دمشق جمال باشا وتحدثا اليه بشأنها فقال لهما :

« هذه حادثة موضعية بسيطة لاتلبث أن تجميع » .

ثم قال لهما أيضا : انه أصدر أوامره الى قواده فى الحجاز بأن يعجلوا فى القضاء عليها ، وأنه يأمل أن يزف اليهما بعد بضعة أيام بشرى زوالها والقبض على الشريف حسين فيأتى به الى دمشق ويشنقه على أبوابها - كذا !! - فانصرفا من عنده وهما مطمئنان الى تصريحاته لاعتقادهما أن قائدا مسؤولا مثله لا يلقى الكلام على عواهنه وكتبا بما سمعاه منه الى حكومتيهما .

ومن الراهن ان تأثير الثورة المعنوى على الألمان فاق تأثيرها المادى ، فقد صرح أحد قوادهم العسكريين فى دمشق بقوله :

« نحن لم نستمل الأتراك ولا بذلنا ما بذلناه ولا تحملنا ما تحملناه الا لأن الخلافة الاسلامية فيهم ولاتهم موضع احترام العالم الاسلامى بسببها ، أما وقد خسروها وأضاعوا هذه المزية بانتقاض الشريف عليهم ، وهو أكبر زعيم مسلم وسليل أعظم بيت فى الاسلام فالألمان سيعيدون النظر فى موقفهم الجديد ، ويسعون للخلاص من الأتراك » .

وربما كانت الصورة ، التى ذكرها الأستاذ حسن محمد نصيف ، عن الثورة من أصدق الصور ، لكاتبها من الكتاب الحجازيين الأصلاء وهو ابن واحد من زعماء الحجاز فى ذلك الوقت . . وقد جاء فى تلك الصورة :

كان يوم الثورة يوافق يوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ فقبل الثورة بيوم أى يوم الجمعة بعد الصلاة زار الحسين الدور الرسمية ولطفهم وحثهم على المواظبة فى أشغالهم وأظهر لهم مودته للحكومة . حتى اذا سمعوا أنه يريد الثورة لا يصدقون وما كادت تغرب شمس يوم السبت ويتولى ثلثا الليل منه (أى الساعة التاسعة والدقيقة اثنا عشر ليلا قبل الفجر) حتى بدأ الشريف الحسين بتنفيذ برنامجه وأطلق بنفسه عيارا ناريا كان علامة القيام ، فقامت على أثره البدو وبعض الأهالى يطلقون النار مع الجهات الأربع فأتخذ الأتراك التدابير وثبتوا فى مراكزهم فلم ينجح الشريف فى أسرهم أو الاستيلاء على شىء منهم . وأخيرا بعد تسليم جده كما سبيل أرسلت له الحكومة الانجليزية جنودا مصرية وساعدته فبعد أخذ ورد سلمت آخر نقطة منها وهى قلعة اجياد .

وقد اتفق الحسين مع الحكومة الانجليزية على ضرب جدة يوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ فضربت بوارج الانجليز جدة الساعة الثالثة ليلا من اليوم المذكور وألقت قنابل مدافعها على الثكنة العسكرية وبعض مراكز الجيش التركي بارشاد رسل الشريف ، وقد دخلت قنابل البوارج البلدة . وكان بجدة من جند الأتراك ما يقارب الخمسمائة وقد استمر الحصار من البر والبحر . برا من جند الشريف تحت قيادة الشريف محسن بن منصور وبحرا بالبوارج الانجليزية ومدافعها وكان يظن أن مسألة جدة لا تقوى على الحصار بل تسلم بعد يومين فلما طالت مدة الحصار خابر الانجليز في ارسال طيارات فأرسلت له على ظهر إحدى البوارج فطارت منها وقذفت على جدة ومراكز الجيش قنابلها ومناشيرها تنصحهم وتحذرهم فذعر الأهالي وضجت على أثر المنشور الذي ألقى فعند ذلك خابر الشريف أعيان البلاد وقال لهم ان الانجليز يريدون ضرب جدة رأسا وأنه ليس له دخل أو مسئولية اذا لم يسلموا له فذهب بعضهم الى ولاية الأمر من الأتراك وأخبروهم أنهم يخشون على الأهالي من الخطر والضرر ، فقبلوا ذلك ثم سلموا جدة في ليلة ١٥ شعبان سنة ١٣٣٤ فدخل جيش الحسين جدة على رأسه الشريف محسن بن منصور ونزلت بحارة البوارج الى جدة تروح وتغدو آمنة مطمئنة . أما جيش الحسين فقد هاج وماج في جدة بعد سقوطها فنهب كل ما يحمله الجندي التركي من ألبسة خاصة وسرق حقائب الأسرى ثم بعد أيام قلائل هجم على دار أحد أعيان جده الشيخ أحمد الهزاز ونهب كل ماله فيه حتى جعل الدار قاعا صفصفا وقد سبق أن أصيب الشيخ أحمد الهزاز برصاصة في يده اليمنى وذلك في زمن الحكم التركي يقولون انها بايعاز من الحسين لعداء بينهما .

ولم تسلم مكة بسرعة ، عجز الشريف عن الاستيلاء على المواقع التركية ولكنه انتظر حتى سلمت جدة فطلب من الانجليز ارسال جنود مصرية فأرسلها له فوصلت مكة .

وتوالى الضرب من الطرفين وكان القصر الهاشمي مرمى قذائف وقنابل الأتراك ، وقد أصيبت الكعبة ببعض القذائف لوقوعها أمام موقع من المواقع الهاشمية ثم سقطت آخر المواقع وهي ثكنة أجياد في ٩ رمضان سنة ١٣٣٤ الساعة الرابعة صباحا وهناك بعد سقوط القلعة هجم البدو وبعض من الأهالي على القلعة وقتلوا كل ما في القلعة من جند وذهبوا بعد ذلك الى كل محل تركي سواء كان عسكريا أو ملكيا ونهبوا ما فيه من أثاث ورياش وأموال .

وكان الأمير عبد الله بن الحسين يقيم في الطائف قبيل الحركة بأيام فأتت إليه التعاليم من والده أن يخرج ويقيم في جبالها فخرج قبل الحركة بثلاثة أيام ثم لما ثارت مكة ثار هو في ذلك اليوم الذي ثارت فيه أي ٩ شعبان وزحف إلى الطائف ومعه جند من البدو ومن حضر إليه من والده من الجنود المصرية المرسلة معونة من الانجليز فحاصرها مضيقا عليها الحصار . ولكن كان بالطائف عدد من الجنود التركية والضباط غير هين فدام الحال بين الاقدام والاحجام الى أن نفذت الأرزاق من يد الاتراك فسلمت بعد دفاع أربعة شهور من ابتداء ٩ شعبان الى يوم الاثنين ٢٦ ذو القعدة سنة ١٣٣٤ وأرسلت الى جدة وكان معها والى الحجاز غالب باشا ثم صعدوا على ظهر إحدى البواخر لتنقلهم الى معتقلهم .

وكان الأمير علي بن الحسين قبل الثورة في المدينة المنورة . وكان يمهدها بالتدخل في الشؤون الادارية والأعمال التي لا علاقة له بها ويضايق بذلك بصرى باشا حاكمها وقد شكى الأخير من تصرف الأمير على إلى جمال باشا وطلب منه أن ينبه على الأمير على بالكف عن التدخل في هذه الأمور ففعل جمال باشا ذلك بواسطة والده وأخيه فيصل حين كان الأخير في سوريا ، ولما أراد الحسين أن ينفذ خطته في الثورة أرسل لابنه فيصل في سوريا يخبره بما سيحصل ورسم له خطة الانسحاب من سوريا فأستأذن الأمير فيصل جمال بالخروج من سوريا والذهاب الى المدينة ليأتي بالمتطوعين من الحجاز الى سوريا فاذن له وحين وصل فيصل الى المدينة اجتمع بأخيه على واتفقا على مغادرة المدينة ففعلا وخرجا منها ليضموا حولهم القبائل وليستعدوا لحصارها وكان جمال باشا قد لاحظ أن بوادر النهضة قرب وقتها فأرسل فخرى باشا الى المدينة ليشكون قائدا عسكريا ويبقى بصرى باشا حاكما اداريا فقط . وعندما وصل فخرى باشا للمدينة أرسل الأمير على إليه كتابا نصبه (بناء على الأوامر الصادرة من أبي سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا واني آسف لاضطراري الى الرحيل بدون أن أودعك فالمرجو قبول عذري) وفي الحال تحول بمن معه من مكانهم الى جهة غير معلومة لفخرى باشا فلما وصل الكتاب لفخرى باشا أسرع الى مكان نزل الشريف علي وأخوه ومن معهما فلم يجد أحدا ، ووضح له حينئذ جيدا ما يجول بنفس الحسين وأولاده من الثورة وأنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى لما يرون من سنوح الفرصة بالحرب القائمة . اتضح لفخرى باشا جيدا هذا وعلم أن الحسين وأولاده لا بد قائمون في الحجاز بالثورة فأخذ لذلك عدته وحصنها بأقصى ما استطاع وجلب إليها

من الأقوات والأرزاق ما أمكن . وما هي الا عشية أو ضحاها حتى اشتعلت نار الفتنة وقام الحسين بنهضته في مكة وجدة والطائف فقام أبناءه على وفيصل بمهاجمة المدينة فوجدوا فخرى باشا قد استعد للقاء استعدادا مهما ووقعت بينهم مواقع ارتد فيها جيش الشريف مرارا عدة حتى أن الجيش التركي في إحدى وقائعه ما زال يطاردهم حتى أوصلهم الى ينبع النخل ولولا قنابل مدافع الدراعات الانجليزية التي كانت راسية في هذا الميناء لقضى عليه .

كانت المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام قبل الحرب العامة خير بلاد الحجاز وأكثرها عناية والتفاتا من الدولة العثمانية وملوكها وأفرادها ، ومن علامات هذا الالتفات والاعتناء وصلها بالشام بالسكة الحديد الحجازية ، التي أنشأتها الدولة من مالها ومن الأموال التي جمعت من المسلمين الذين سارعوا الى ذلك عند أول دعوة وظهرت عاطفتهم نحو المدينة بما كان من سخائهم وبذل كل على قدر طاقته .

ولقد كان لهذه السكة الحديدية شأن كبير جدا في اتساع عمران المدينة المنورة بما سهلت من أسباب الرفاهة ورغد العيش لأهلها بما كانت تجلب من الشام وغيره من مواد الحياة وما كانت تنقل من زوار كثيرين جدا لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكثر المهاجرون اليها من الحجاز والأقطار الأخرى حتى أصبح عدد سكانها كبيرا جدا . والذي ساعد على ذلك قابلية المدينة بجوها المعتدل ومناخها الذي يخالف مكة كل المخالفة ، وكثرة مياهها العذبة ولقد كان من عناية الاتراك بالمدينة أن فكروا أخيرا في تأسيس كلية علمية اسلامية بها لشباب الحجاز وغيرهم على أساس فكرة الوحدة الاسلامية ، التي كان يفكر فيها وقتئذ ويعمل لها الشيخ عبد العزيز جاويز والأمير شكيب أرسلان وغيرهما ولذا فانهم ذهبوا الى المدينة موفدين من قبل جمعية الاتحاد والترقي لارتياح المكان اللائق لبناء هذه الكلية الاسلامية ، وفعلا وجد المكان وشرع في البناء حتى تم منه جزء بسيط حالت الحرب دون اكمال هذا البناء وتنفيذ هذه الفكرة التي كانت المدينة والحجاز بلا شك ستنثفع بها انتفاعا عظيما .

من هذا كله يتبين أن مركز المدينة المادى والأدبى يخالف بكثير جدا مراكز البلاد الحجازية الأخرى ، بل لم يكن هناك نسبة تقريبا ،

ويتبين أيضا السر في طول مدة الحرب في المدينة بين الاتراك والاشراف فانها دامت من أول النهضة في ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ الى اليوم الثامن من ربيع الثاني سنة ١٣٣٤ وقد استطاعت حامية المدينة بقيادة فخرى باشا أن تصابر جيش الشريف كل هذه الثلاث السنين بدون كلل ولا ملل ، مع أن جيش الشريف كان به الجنود المصرية والمغربية والضباط والانجليز والفرنسيون وغيرهم عدد غير قليل ، وكان مجهزا بأقصى ما يمكن من مدافع الحصار ومعدات الحرب العتيقة ، ومع أن جيش الشريف وبدوه كانوا قطعوا خط السكة الحديد ، حتى انقطع ورود الارزاق والأقوات والسلاح والمدد عن المدينة بتاتا ، ولذا فان فخرى باشا حين رأى ذلك وأن الارزاق قد انقطع موردها ، وأيقن باصرار جيش الحسين بمعاونة الحلفاء على فتح المدينة والاستيلاء عليها خصوصا وقد علم بما حل بالاتراك في مكة والطائف وجده ، أصر هو أيضا كل الاصرار على الدفاع الى آخر لحظة من حياتهم ولكن رأى خطر المجاعة المهلكة محدقا بالمدينة ومن فيها من جيش وأهال فأخذ يخفف وطأة المجاعة بترحيل الأهالي منها وكان ذلك قبل أن يقطع الخط الحديدي ، فكان في كل يوم عدد عديد يذهب بهم القطار الى الشام مرة ، ومرة يذهبون الى العراق ومرة الى غير ذلك ، ولم يكن الجيش الهاشمي يتعرض لهم بل كان يترك القطار يذهب حيث يشاء اذا كان من به من أهالي الحجاز الراحلين عن المدينة ، وبعضهم ذهب الى مكة وغيرها من بلاد الحجاز وقراه ، حتى تشتت أهل المدينة أي شتات ،

وكان هذا التششتت أمرا لا مفر منه أمام المجاعة المريعة التي وقعت بوادرها في المدينة أثر الحصار ، فان الأزواد والأقوات كانت قد فرغت من بيوت الأهالي ومن الأسواق وكان يوزع عليهم فخرى باشا كل يوم شيئا قليلا ، وقد مات بعض أهل المدينة جوعا ، فلولا هذا الترحيل لكانت المصيبة أخطر وأعظم . ومع شدة الحصار وتضييقه فانه ما كان يمنع فخرى باشا من تعمير ما كان يخرب من المنازل بقنابل الجيش الهاشمي التي كان يرميها من حين الى آخر على المدينة . ويعمر دورا ومنازل أخرى في أثناء الحصار الى أن نفذ القضاء . فسلمت المدينة بعد أن عقدت الهدنة بين الحلفاء بثلاثة أشهر وبعد حرب دامت ثلاث سنين . كتب فيها لفخرى باشا صحيفة من الشجاعة والثبات لا تمحي مدى الأيام .

أما السواحل الحجازية فقد سلم أغلبها أو كلها على أثر سقوط جدة . بعضها سلم والبعض الآخر بعد حرب بسيطة .

ومما هو جدير بالذكر أنه قد اشتركت الطائرات في حرب المدينة وأكثر السواحل وذلك أن تركيا قد بعثت طائرات قوادها ألمان ونمساويون . فقابلهم الشريف الحسين بمثل عملهم واستمد الحلفاء فأمدوه بطائرات بقيادة ضباط انجليز . وقد تعدى الألمان والنمساويون والانجليز حدود الحرم . وخالف بذلك قواد الاتراك الذين كانوا السبب نصوص الشرع الاسلامي الذي يحظر على غير المسلم مجاوزة هذه الحدود .

لما خرج علي وفيصل من المدينة وترك فيصل أخاه عليا لمحاصرة المدينة وذهب لينضم لجيش الحلفاء الذي كان يحارب في سوريا فكان فيصل بجيش من العرب والمصريين والمغربيين وغيرهم يطوق الجيش التركي من جهة (شرق الأردن) والحلفاء يشاغلون من جهة قنال السويس وفلسطين وهناك أبدى الجيش التركي بسالة وشجاعة في رد هذه الجيوش المتضافرة من أجناس شتى والتي تحيط به من جميع جهاته تقريبا وضربهم ضربات أوقفتهم عند حدهم مرات عديدة . وحملت الحلفاء خسائر فادحة وأخيرا بعد حرب وكفاح دخل الشريف فيصل دمشق مع جيش الحلفاء فأقيمت المهرجانات ومعالم المسيرات بقدمه وذلك في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ ودخلها في ٢٧ منه .

لما دخل الأمير فيصل الى دمشق يوم ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ وهدأت الخواطر بدأت الأمة السورية تفكر في مصلحة وطنها وبلادها وذلك لا يكون الا بالاستقلال التام والحرية المطلقة . فبدأت تعمل للوصول الى غرضها وعلى رأسها الأمير فيصل يطرقون الأبواب ويواصلون السعي مع الساسة من رجال الحلفاء الذين كان لهم الشأن في ادارة سياسة العالم بعد ظفرهم في الحرب العامة فمن باريس الى لندن ومن لندن الى سوريا مرات عديدة . ولكن تكاثر الأحزاب وتعدد المشارب أوقعها في الشرك وعاقها عن الوصول الى أمنيتها . حزب يطلب الاستقلال تحت الحماية . وحزب يطلب الاستقلال الناجز بدون شرط ولا قيد . وحزب يطلب احتلال فرنسا لسوريا بقيت سوريا هائجة والفوضى السياسية ضاربة أطنابها عليها واختلاف المشارب عقبة كثود في سبيل آمال عقلاء السوريين وأمنيتهم البعيدة .

ولما رأت بعض الأحزاب تلاعب السياسة الفرنسية أعلنت تنويع فيصل ملكا دستوريا عليها في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ فغاض ذلك

السياسة الفرنسية وأخذوا يكيدون للملك فيصل والسوريين .
ويستعينون على سياستهم بذوى الأغراض والنزعات الفاسدة وممالأة
انجلترا لها حتى استفحل أمرها وأخرجت مركز الملك فيصل ، ففي ٦
من ذى القعدة سنة ١٣٣٨ أبلغت فرنسا فيصلا شروطا مجحفة ، وضربت
له موعدا ضيقا لاجراجه وارغامه ليعترف بها فوقع فى الارتباك والحيرة
لكثرة الآراء حول الشروط ولغوغاء الاحزاب نحوها وأخيرا بعد أن انتهت
مدة الشروط أو كادت أخطرتة فرنسا بالخروج من سوريا فى مدى ٤٨
ساعة فبارحها والحزن يكاد يزهق نفسه لانهدام صروح الآمال التى كان يحلم
بها من ملك عريض وأبهة وعظمة فأحتلت فرنسا سوريا بعد مبارحته لها
وحصول حوادث يشيب لهولها الولدان ولا ينسى اخواننا السوريون أثرها
على الدهور والأيام .

وهناك روايتان جديدتان عن الثورة . . وجاء فى أولاهما :

غادر الاميران على وفيصل والعربان المتطوعون معسكر « سيدنا
حمزة » فى صباح أول يونيو سنة ١٩١٦ وكان ذلك أول نذير أنذره الترك
بانتقاض العرب عليهم .

وتوجه الاخوان بعد براحهما المعسكر الى الخانق سالكين الطريق
الشرقى ، ثم رجعا فى الصباح التالى الى « بيار على » الواقعة الى الغرب
الجنوبى من المدينة فضربا خيامهما فيها واتصلا بالقبائل وأخذوا يجمعان
القوى والاعوان . ومن المعلوم أن الأمير عليا انشأ أثناء اقامته فى المدينة
المنورة صلات وثيقة مع شيوخ حرب وجهينه وبلى وبني سالم ومسروح ،
وأخذ عليهم العهود بأن ينضموا الى الثورة ويقاتلوا مع الشريف ، وهذا هو
السر فى شكاوى الترك منه والحاحهم على والده باستدعائه ، اذا لم يكن
خافيا عليهم ما كان يفعله .

وهجم على وفيصل فى ٨ يونيو بستة آلاف مقاتل على محطة المحيط
واشتبك رجالهما مع حاميتها فكان هذا الاصطدام أول معركة بين العرب
والترك .

واستأنف الأميران الهجوم فى الصباح التالى فأغاروا على « الحسا »
وخرج للقائهما فخرى باشا على رأس قوة تركية كبيرة ، وجرت موقعة
بين الفريقين أسفرت عن انهزام العرب .

وبعد الانهزام افترق الاخوان وتولى فيصل قيادة قسم من القبائل وسلك بها الطريق الغربى أى أنه اختص بالعمل على طريق المدينة - ينبع ، وتولى على قيادة القسم الآخر وتوجه به سالكا الطريق الشرقى أى أنه اختص بالعمل عن طريق مكة - المدينة .

وهكذا ابتدأت المعارك حول المدينة بين العرب والأتراك قبل اعلان الثورة بصورة رسمية . أما فى منطقة الطائف التى اختص بالعمل فيها الأمير عبد الله ، فقد بدأ القتال فى مساء يوم الجمعة ٩ يوليو (٨ شعبان) ، وكان الأمير قد استعد له سرا من قبل وعقد المواقف مع قبائل عتيبة وهذيل وبنى الحارث وسبيع وثقيف وذلك أنه بعد أن تم الاتفاق على اعلان الثورة ، برح مكة بحجة أنه ذاهب لتأديب قبيلة « البقوم » المتمردة ، وبلغ الطائف فى ٥ شعبان وكان يصطاف فيها غالب باشا والى الحجاز وقائده العسكرى العام ، وأحمد بك قائد الفرقة العسكرية ، وأكثر ضباط هذه الفرقة مع عدد من الجند لا يقل عن ٣٥٠٠ جندي .

وأحس الأتراك فى الطائف بما يدبره الأمير عبد الله فى طى الخفاء وأيقنوا أن القضية ليست تأديب البقوم ، وطلب القائد أحمد بك الى الوالى غالب باشا أن يصدر أوامره بالقبض على الأمير خوفا من نتائج حركته ، فرفض ذلك قائلا : « ان القبض عليه يشير القوم علينا ونحن بغنى عن ذلك » .

وبقى القواد الترك مترددين حتى يوم ٨ شعبان ، وفى ذلك اليوم أذاع الأمير أنه سينصرف بعد صلاة الجمعة الى تأديب البقوم وكانت العادة المتبعة أن يأتى لتوديع الوالى قبل رحيله ، فاختلف رجال حاشيته حول هذا الأمر ، اذ كانوا لا يجهلون حالة الترك النفسية وما بين رؤسائهم من اختلاف ، فقال فريق منهم بأن لا يذهب الأمير لوداع الوالى خوفا من اعتقاله فتفسد الخطة المبيتة ، وقال فريق آخر بأن ذهاب الأمير يبعث الاطمئنان فى نفوس الأتراك فتهدأ ثائرتهم .

وبعد أخذ ورد قرر الأمير أن يذهب ويودع الوالى مهما نتج عن ذلك . فقصده الى مقره ، وكان عليه أن يخترق الشكنة الحربية لبلوغة . وكان الضباط الأتراك مجتمعين فيها فدهشوا لما شاهدوا الأمير داخلا

عليهم وحده وحيوه التحية العسكرية ولم يتعرضوا له فتابع طريقه الى مكتب الوالى فاستقبله هذا بالترحاب وأبدى ارتياحه لزيارته . وابلغه الأمير أنه ذاهب بعد الظهر للقيام بمهمته ، فتمنى له النجاح ونهض لوداعه فتعانقا وبكى الوالى وكان المشهد مؤثرا ! ..

وهكذا رجع الأمير الى مركزه سالما ، وترك الطائف فى الساعة الثانية بعد الظهر متجها برجاله الى ناحية الشرق ، ولما أصبح خارجها أمر بتقطيع اسلاك التلغراف فامتثلوا أمره وهجموا فى المساء - مساء ٨ شعبان - على الاتراك .

أما فى مكة فقد بدأت الثورة يوم السبت فى ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ (١٠ يونيو سنة ١٩١٦) ، وذلك ان الحسين أصدر الأمر الى رجاله - وكان قد أعدهم من قبل كما جرى فى المدينة والطائف - بأن يهجموا على الثكنة العسكرية فى « جرول » . وكان الجنود الاتراك الموجودون فيها غافلين عما يدبره الشريف ضدهم ، وكان يقودهم البكباشى درويش بك ، أما القادة والضباط الكبار فكانوا غائبين فى الطائف حيث يصطافون .

ففى الصباح المذكور بدأ الشريف نفسه الثورة باطلاق رصاصة من قصره على ثكنة الجنود الترك ، فكانت هذه الرصاصة بمثابة اعلان رسمى للثورة العربية الكبرى ، كما كانت الاشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله للشروع بالهجوم على أثرها وقد احتشدوا قبل الفجر فى مكان قريب .

ورأى درويش بك حراجة الموقف وادرك أن جنوده صائرون الى الهلاك اذ كانوا خارج الثكنة يقومون بالتمارين الرياضية المعتادة وليس لديهم سلاح . فعمد الى الخديعة لانقاذهم من موت محتم فخاطب الشريف بالتلغراف وسأله عن السبب فيما حدث فرد عليه بقوله : « ان العرب لا يرضونكم حكما عليهم بعد أن فتكتهم بهم وأهنتموهم وعاديتموهم » .

فأجابه القائد التركى بدهاء : « مادام الأمر كذلك فأرسل من قبلك من تعتمد عليه لنسلمه السلاح والجنود ، فنحن لا نريد سفك الدماء بلا طائل » .

وعلى الأثر توجه الشريف عبد المحسن البركاتى لمقابلة القائد واستلام الثكنة ومن فيها ، فقال له هذا :

« لا بد من دخول الجنود الى الثكنة لاتمام عملية التسليم ربما أن ذلك غير مستطاع قبل أن يكف الثوار عن اطلاق النار ويرفعوا الحصار ، فاني أرجو منك أن توعزوا اليهم بالانصراف فندخل معا ونجرى العملية المطلوبة ، فانطلت الحيلة على الشريف عبد المحسن وأمر الثوار بالتفرق ، وعندئذ دخل الجنود الى الثكنة وتقلدوا السلاح فورا وتأهبوا للقتال . وحذر أحد الضباط العرب الشريف فنجأ بنفسه . »

واغار في صباح الأحد (١٠ يوليو) الشريف محسن بن أحمد منصور ، شيخ قبائل حرب ، على جدة بقوة يبلغ عددها أربعة آلاف محارب ، فتحصنت حاميتها التركية في جهتيها الشمالية والجنوبية واستعدت للدفاع ، وقد ساهمت ثلاث دوارع انجليزية وهي دفرانسو وفوكس وهاردنج ، في هذه الاغارة يوم ١٣ يونيو ، فأمطرت المراكز التركية وابلا من قنابلها .

وفي ١٤ يونيو حلفت الطائرات الثماني الانجليزية في سماء جدة وألقت على المعسكر التركي المنشور التالي :

« وما ربك بظلام للعبيد » . الى سعادة قائد القوات التركية وحضرات ضباطه الكرام في خط الدفاع بجدة :

« اعلمكم علم اليقين وأخبركم بالحقيقة التي لا مرأ فيها وهي أن مكة المكرمة والطائف أصبحت في يد دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين ابن علي وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية ، فقد أصبحت أرض الحجاز خالية بالمرّة من دوائر الحكومة الاتحادية وكذلك أعلمكم أن الحركة لم تكن لتأسيس دولة خلافة عربية اسلامية وأن العرب لا يكرهون الترك من حيث هم لانهم مسلمون مثلهم ، وانما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة التي تلعب بها ألمانيا والله على ما أقول شهيد . فبدلا من وقوفكم في وجه العرب الذين لكثرة عددهم وعدتهم سيحرزون النصر المبين ان شاء الله بعد ازهاق الكثير من الأرواح ، وبدلا من المقاومة التي لا نتيجة لها أنصح لكم أن تسلموا بدلا من أن تبيدوا عن آخركم ومهلتكم هي مجرد وصول هذا اليكم لانكم بعد رفضكم لهذا النصح تصب عليكم القنابل من السفن الهوائية ومن البحر والبر حيث استعد لكم العرب بالمدافع الجبلية السريعة ومدافع الميدان الحديثة والرشاشات السريعة . وعلى كل حال فانا لا نعد ذلك جبنا منكم ولا اهانة لشرف رايتمكم ، ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ويتجاوز الأدب

وهو كاره لتجاوزه فلا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة ، وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون ، والعاقبة للمتقين .

— الحكومة الانجليزية —

وفى ١٦ يوليو نصبت حامية جدة راية التسليم . فأندرت اذ ذاك بأن لا تتلف مدافعها وأسلحتها . وبلغ عدد الجنود الذين استسلموا ١٣٤٦ جنديا و ٤٧ ضابطا . أما الغنائم فكانت عشرة مدافع سهلية وأربعة مدافع جبلية وأربعة مدافع رشاشة وكمية كبيرة من البنادق والدخائر .

ووصل الى جدة فى ٢٧ يوليو الكولونيل ولسن باشا حاكم بورسودان ، منتدبا من قبل السردار فى السودان السير وينجت ، وقد حمل منه الى الحسين كتابا يهنئه فيه بالنصر والاستقلال ويعزب عن اعجابه به وبرجولته ويقول انه من الانجليز الذين يحبون الشرق ولا سيما العرب منذ نعومة أظفارهم ، وأنه أرسل مع هذه التحية قوة بسيطة بقيادة اللواء السيد على بك من قبل المساعدة عدد رجالها ٣٢٠ جنديا ولديهم ٢٤٠ دبابة و ٣٠٠٠ بندقية ومدفعية للسهل وأخرى من نوع « مكسيم » .

والمقول ان الحسين رفض فى بادىء الأمر السلاح المرسل قائلا انه ليس بحاجة اليه لأن المسألة بسيطة ، وأنه سيطلبه عند حاجته اليه . ولكنه قبل بعد الحاح أن يصار الى ارسال أربعة مدافع الى رابغ وابقاء اثنين فى جدة ، أما مدافع مكسيم فيحتفظ بها فى بورسودان لحين الحاجة اليها .

وقد جاء فى الرواية الأخرى (الثانية) :

رفع الحسين علم الثورة العربية ضد تركيا فى ٥ يونيو « حزيران » سنة ١٩١٥ وذلك باعلان استقلاله فى مكة . . ولقد أثيرت العواطف بشتى الطرق ، واهمدت — الاختلافات القبائلية ، ان لم يكن قد قضى عليها ، بعد حرب استغرقت أكثر من سنتين فى الصحراء ، بتغذية الفكرة الرامية الى الاستقلال الوطنى وابقائها حية فى القلوب ، وكان العرب يفضلون الاتراك بسرعة الحركة ، ومعرفة البلاد معرفة تامة . وكان عددهم يزيد على عدد الجامعات التركية فى المدن البالغ عدد رجالها ٢٠ ألفا

الا أن الترك كانوا أقوىاء بالمدافع والتدريب العسكرى ، بينما كان العرب لا يملكون الا النزر القليل من المدافع ، وكانوا غير مدربين على الأساليب الحربية الحديثة .

وبدأت الحملة فى مكة وأخذ الأتراك على حين غرة فاضطروا أن يقاتلوا دفاعا عن أنفسهم . وأدرك الحسين أن الدعامة الوحيدة لمطالبته بالاستقلال انما هى مقدرته على استقبال الحجاج الآتين الى المدينة المقدسة وصيانة حياتهم . فكان لا بد له والحالة هذه من أن يصبح السيد ليس على مكة فقط بل على ميناء جدة والأماكن المتخللة بينهما . وقد قسم قواته من المشاة والهجانه والخيالة الى أربع فرق ، فرقة بقيت فى مكة ، وتوجهت الفرق الثلاث الباقية تحت قيادة أنجاله ، غربا الى جدة ، وشمالا الى المدينة ، وجنوبا الى الطائف . . . وأشرف الحسين بنفسه على الهجوم على مكة ولما أعلن استقلاله فى ٥ يونيو وافقه على ذلك جميع سكان مكة بلا تردد ، وأبت الحامية التركية أن تستسلم ، واستولى العرب على السوق الكبرى ومسكن الحاكم التركى وبنائات الحكومة والمسجد الحرام . وكانت الحصون الثلاثة المشيدة على التلال المطلة على مكة محمية بالجنود القوقاسيين الماجورين ونخبة مختارة من الجنود الترك ففتحو نيران مدافعهم على الجامع الحرام مما أثار غضب العرب وحملهم على الاستماتة فى القتال حتى كتب لهم الفوز المبين .

وترينا كلمات الشريف أى دور عظيم لعبه الدين فى هذه الحملة ، والاستياء الشديد الذى سببه هذا العمل ، قال الحسين :

« وماذا يمكننا أن نبتغى برهانا على كفرهم وشعورهم العدائى نحو العرب أقوى من ضربهم ذلك البيت القديم الذى اختاره الله بيتا له . . . ولما نشبت الثورة ضربوه من حصن « جياذ » وسقطت القنبلة الأولى على بعد يردة ونصف يردة فوق « الحجر الأسود » وسقطت قنابل أخرى فى ساحات الجامع التى كانت هدفا لمدافعهم فكانوا يصرعون كل يوم ثلاثة أو أربعة من المصلين فى الجامع حتى منعوا الناس من دخوله للعبادة . . وهذا يدل على انهم احتقروا بيت الله أشد الاحتقار وحرموه الاكرام الذى كان يؤديه له المؤمنون .

واستولى الحسين في مكة على ١١٠٠ جندي تركي و ٢٨ ضابطا وأربعة مدافع ، ولكن الأهم من كل ذلك الهيبة التي كسبها بطرده الاتراك من المدينة المقدسة لدى المسلمين .

وبلغ نبأ الثورة العربية أوروبا ببرقية طيرت من القاهرة في ٢١ يونيو يوم أعلن سقوط جدة وقد ساعدت البوارج الانجليزية المختصة بخفر السواحل القوات العربية التي هزمتها مدافع الحامية التركية في أول المعركة . وألقت الطائرات المائية قنابلها على المراكز التركية المختلفة ، وضربت البارجة الهندية « هاردينج » والطراد الخفيف « فوكس » المعقل القائمة في شمال المدينة واضطرت الحامية التركية للاستسلام بشروط معينة بعد أن حاصرها العرب من البر والدروع الانجليزية من البحر الأحمر مدة أسبوعين - وأسر العرب ١٤٠٠ جندي و ٤٥ ضابطا وغنموا ١٦ مدفعا عاديا ورشاشا .

وقد شددت المرحلة الأولى من الحملة آمال العرب في الاستقلال وآمال الفرنسيين والانجليز في التغلب على الاتراك . ووضعت انتصارات الحسين حدا لمساعي المشتغلين في سبيل مصالح الترك في مصر ، واستؤنفت التجارة على الأثر بين السويس وسواكن وجدة وتعاون السير (ونغايت) الحاكم العام في السودان مع حكومة الحجاز الجديدة على إعادة تنظيم الادارة ، وكان من أثر هذا العمل انشاء دائرة للأشغال العامة وفتح بعض المدارس واصدار جريدة أسبوعية باسم « القبلة » .

وتلاشى النفوذ التركي على شواطئ البحر الأحمر ، ففي ١٠ يوليو استولى الادريسي على « كنفيدة » وهي الميناء والمدينة الرئيسية في اماره عسير . وأخذ العرب أيضا « ريحه » التي تبعد مئة ميل عن جدة شمالا . وأغار في ٢٧ يوليو قوة مكية من مكة آتية من شمال جدة بالقوارب على ينبع فجأة واستولت عليها بمساعدة بارجة انجليزية واضطرت بعثة ألمانية كانت مكلفة بانشاء محطة لاسلكية على الشاطئ لمخابرة الألمان في شرق أفريقيا للانسحاب من ينبع الى دمشق . ولم يبق في أيدي الاتراك سوى العقبة .

ولاقت القوة العربية التي حاصرت الطائف بقيادة الأمير عبد الله مقاومة عنيدة وكانت حامية الطائف مؤلفة من ٣٠٠٠ آلاف جندي ولديها عشرة مدافع ألمانية من نوع « كروب » عيارها ٧٥ ملمتر وهي لم تستسلم

الا بعد وصول الجنود المصريين الذين هدموا بمدافعهم المعقل التركي .
واسفر سقوط الطائف عن اغتنام عشرة مدافع و ١٧٦٠ بندقية حربية
و ٨٠٠ قنبلة ، وأسر ٨٣ ضابطا ، ١٩٨٢ جنديا . وبسقوط الطائف أصبح
الحجاز كله ماخلا السكة الحديدية والمدينة ، خاليا من الجنود الترك .

وصمم الأتراك بعد انهزامهم من مكة أن يحتفظوا بالمدينة مهما كلفهم
الأمر ، وقد تأخر وصول القوات التركية من دمشق بسبب نسف قسم من
السكة الحديدية بالقرب من (القلع) ، وطرد العرب طلائع القوة التركية
من جنان وقصور المدينة وأجبروهم على الالتجاء وراء أسوارها . الا أن
الأمير فيصل الذى حاصر المدينة رأى نفسه أمام عدو يفوق العرب تدريبا
وتجهيزا ، وقد ارتد فى ٣ يوليو على أثر غارة شنها عليه الأتراك
المحاصرون (بفتح الصاد) الذين عادوا فاستردوا منه ضاحية (العوالى)
وعقب هذا الفوز تمزيق المدافع التركية للقوة العربية المتضعضعة التى
حاولت اقتحام المعقل العظيم المشرف على المدينة .

وفى ٣ أغسطس اضطر على شقيق فيصل ، الذى استولى على جزء
من السكة الحديدية فى الشمال واشترك فى المعركة التى حاول بها العرب
وضع يدهم على طريق مكة ، للتراجع الى (غدير ربيع) على مسافة عشرين
ميلا من جنوب المدينة . وعليه فقد بقيت المدينة حتى نهاية سنة ١٩١٦
بيد الترك وقد أخذت آمال العرب تخيب ومكنت هذه الخيبة التى أصابتهم
الأتراك من اصلاح السكة الحديدية التى تربطهم بدمشق واستجلاب
النجادات من سوريا وبينها جنود من النمساويين والألمان .

وكان بقاء المدينة فى أيدي الأتراك أهم شئ عندهم لأنهم يستطيعون
بواسطتها الاصرار على الادعاء المقبول بأنهم ما يزالون أصحاب السيادة فى
العالم الاسلامى . على أن تأخرهم فى حشد النجادات فى المدينة أتاح للعرب
فرصة لتحويل أنفسهم الى جيش مدرب . وقد عين السير « ونجايت »
مستشارا للشريف وشحنت البنادق الحربية الى الحجاز وأعيد تنظيم
القوات العربية . فسيرت قوتان الى المدينة ، احدهما الى شرقها وشمالها
الشرقى بقيادة الأمير عبد الله وعدد رجالها ٤٠٠٠ ، والثانية الى جنوبها
بقيادة الأمير على وعدد رجالها ٨٠٠٠ ، وعهد الى الأمير فيصل بقيادة قوة
متمركزة فى ينبع وعدد جنودها ٨٠٠٠ .

وفى كانون الأول سنة ١٩١٦ تمركز الاتراك فى المدينة بينما جرى التعاون الفعلى بين العرب وقوات الحلفاء فى مصر واعترفت رسميا فى ذلك الوقت العصيب بحكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا بالشريف الكبير ملكا على الحجاز ، وقد اتخذ لنفسه هذا اللقب فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٦ ، وزار جدة بصحبة وزرائه وتلقى التهاني من قواد الطرادات الانجليزية والفرنسية فى البحر الأحمر .

وأنعش الكولونيل لورانس معنويات العرب ، وقد أذنت له فى الخريف هيئة أركان الحرب العامة فى القاهرة أن يأتى للعمل معهم وهو الذى وضع الخطط الجريئة لمنع الترك المتمركزين فى المدينة من القيام بزحف ناجح على (الوجه) وهى ميناء على البحر الأحمر كائنة الى شمال ينبع ، وكان يحرسها ١٠٠٠ جندي تركي .

وغدا موقف العرب فى ديسمبر حرجا جدا على أثر انكسارهم فى الجنوب الغربى من المدينة مما مكن الترك من تعزيز مركزهم فى التلال القائمة فى منتصف الطريق بين المدينة ورياح .

وبذلك فصل جيش فيصل المتمركز فى ينبع عن قوة الأمير على المتحصنة فى ربح بيد أن الغارة التى شنّها فيصل ولورنس على (الوجه) فى يناير سنة ١٩١٧ أسفرت عن أسر ثلثى جاميتها ، والهجمات التى قامت بها قوات الأمير عبد الله فى نفس الوقت على المدينة من الناحية الشمالية الشرقية اذهلت القيادة التركية وانقذت مكة من مهاجمة الاتراك لها .

وكان لسقوط « الوجه » تأثير عظيم فى تعزيز موقف العرب ، وقد ساعدت عليه البواخر المخصصة لنقل الجنود والدروع الانجليزية فبعد ضرب المعقل التركى الرئيسى من البحر هاجمت قوة من العرب أنزلتها البواخر الى البر ، الحامية التركية ، كما هاجمتها فى الوقت نفسه قوة أخرى أقبلت من الصحراء .

ولم يصادف المهاجمون من البحر الا مقاومة ضئيلة جدا ، وبادر الحاكم التركى الى الفرار على جواده ، ولم يعمد الى المقاومة سوى ٢٠٠ من المشاة الترك ولكن سرعان ما تغلب عليهم الجنود العرب .

وتحمس العرب القادمون من الصحراء لأخبار الانتصارات فاندفعوا الى الامام كتلة واحدة ولكنهم هم أيضا لم يصادفوا مقاومة الا من بعض فلول الاتراك . ويقول لورنس :

« انهم ساروا سيرا حثيثا قاطعين من الأرض ستة أميال تقريبا في الساعة وكانوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير ، وبلغوا المرتفع وتسلقوه دون أن يطلقوا رصاصة واحدة . فعلمنا عندئذ أن القوة البحرية والفرق التي أنزلتها الى البر قد أنجزت لنا العمل » .

وقد أشرف على أعمال القوة البحرية السير « روسلن ويميس » من بارجته « اورياالوس » وقد تأثر الشريف الكبير بمقدرة الاسطول البريطاني فقال مشيرا الى الامبراطورية البريطانية : « انها البحر الكبير وأنا السمكة أصبح فيه ، ولكم عظم البحر كلما سمنت السمكة » .

غير أنه لا بد من القول ان مساعدة الفرنسيين في الحجاز كان لها نصيب في كسر الاتراك كسرا نهائيا ، ففي سبتمبر سنة ١٩١٦ وصل الكولونيل « بريموند » على رأس بعثة عسكرية فرنسية الى جدة . وهو يشدد على أهمية الدور الذي مثله الجنود الفرنسيون ويقول عن لورانس بتهكم : « ان رجلا يأتي بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليرة انجليزية أو يجلب ٢٠٠٠ جمل محملين بالبضائع والمؤن لا يستحق غير الاعجاب العام » .

وفي خلال ١٩١٧ أفلح فيصل في لم شتات العرب في الشمال الذين كانوا منقسمين لضغائن عشائرية ، لم يد المعونة له ، وكان بينهم شيخ (الكويت) ومن شباط فصاعدا راح العرب يغيرون على سكة الحجاز اغارات متوالية منظمة .

ولا يتبقى لنا الا الاطالة في النقل عن مذكرات الابن (الملك عبد الله) وذلك لأهمية تلك المذكرات وعدم اطلاع كثيرين عليها . يقول الملك (عبد الله) :

وفي اليوم التاسع من شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦ أعلنت الثورة العربية في مكة والطائف وجدة وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز ، وصدر البيان بذلك من لدن صاحب السيادة العظمى الشريف حسين بن علي .

وابتدأت الأمة العربية تتحمل مسئوليتها بنفسها وتسعى لانقاذ حريتها واستقلالها بسلاحها وجهاد بنيتها . وكانت في ذلك الوقت قادرة على ذلك ، فان بلاد الشام بأجمعها وكذلك البلاد العراقية كانت

واعية عسكريا واداريا وعدليا . وكان رجالا العرب في ذلك الحين يمارسون المناصب والمأموريات على اختلاف أنواعها ودرجاتها كالترك أنفسهم ما عدا الوزارة فان الأغلبية كانت فيها تركية دائما . وكان الجيش العثماني الخامس في مركزه بدمشق ، وكان الجيش الرابع في مركزه ببغداد وقوامه العرب . فالعرب سلكوا هذا المسلك في هذين البلدين وقبلوا التوظيف لا التطوع فيهما .

أما من حيث الثقافة ، فقد كان الانفتاح في التعليم بسوريا ولبنان يفوق ما كان في تركيا العثمانية نفسها ، وسببه أن المدارس العثمانية في بلاد الترك كانت ملكية وعسكرية لتخريج الموظفين ، وكذلك مدرسة الحقوق والمدرسة الطبية ولكن العرب في سوريا ولبنان كانوا يحصلون العلوم في مدارس أجنبية ، وكان يرحل بعضهم الى أوروبا أو الى أمريكا . لذا فنسبة التعليم في العرب بمدنهم وقراهم كانت بنسبة عشرة بالمائة زيادة على التحصيل التركي في مدن الأناضول وقراه ، ومدن الروم وقراه أيضا .

هذه ملحوظة لتقرير الفرق في ذلك الزمن . فان التحصيل الرسمي على الطراز العثماني - مضافا اليه التحصيل الذاتي فيما ذكرناه من جهات ضمن للعرب حين ذاك أفضلية الحال في الثقافة .

أما الحركات في الحجاز ، فقد استولى العرب على الحاميات التركية بمكة المكرمة في أول يوم ، وبقي الجيش العثماني محصورا في ثكنة جرول وقلعة جباد ، وكان من بهذه القلعة من الجنود العثمانيين يضربون مكة بمدافعهم . وقد أصابت قنبلة البيت الشريف من فوق الحجر الأسود واشتعلت النار في الستار المبارك ولكنها أطفئت في الحال . وأصابت قنبلة أخرى أحد عقود الأروقة ، ومن غريب التصادف أنها وقعت على اسم عثمان بن عفان فأزالته ، وكانت هذه الاصابة من الأدلة على زوال دولة آل عثمان .

وقد سقطت جدة في اليوم الثالث من الثورة ، وسقطت قلعة جرول في اليوم التاسع وأسر فيها ألف ومائتا جندي وضابط . وأما قلعة جباد فقد هوجمت وأخذت عنوة بعد جراءة قائدها اليوزباشي كامل أفندي وضربه البيت الحرام .

وفى جدة كان الأسطول البريطاني يساعد من البحر على ضرب الثكنات العسكرية بضربات تخويقية .

وأما الطائف فففيه كانت الفرقة العثمانية النظامية التى يقودها الوالى والكومندان الفريق غالب باشا ، وكان يقود القوات العربية المحاصرة صاحب هذه المذكرات .

وهنا نرجع قليلا الى ما قبل اندلاع الثورة لنقول انه لما تقرر أن يكون اليوم التاسع من شعبان هو يوم النهضة ، أمرت بالسفر الى الطائف كى أقوم بأهم واجب فى تلك الحركة ، وهو حصر فرقة عسكرية ، كانت أقرب القوات العثمانية الى مكة المكرمة مركز الحركة ومقر الشرافة وعاصمة الاسلام . فوصلت الى الطائف فى أول شعبان وليس معى سوى سبعين هجانا ، اذ أن كل القوات الهاشمية كانت أرسلت الى المدينة المنورة مع الأميرين على وفيصل .

وقد قابلنى الوالى مقابلة معتادة ، وأخبرته اننى سأخرج لتأديب قبيلة البقوم وان الشريف لم يتعين بعد وقت طلوعه الى الطائف حسب المعتاد . وكان الأمير على الطائف يوم ذاك شرف بن راجح بن فواز بن ناصر ، يساعده الشريف حسين الجودى أحد شرفاء ذوى جود الله .

وكننت أستند فى حركة حصر الفرقة وأخذها ، على العشائر المحلية كعتيبة بنى سعد وكان الرئيس على هذه القبيلة وعلى من ينتسب اليها من الثبته الشيخ تركى بن هليل - وعلى الفخيدة الثانية من هذه العشيرة - عشيرة البطنين - وعلى هذيل ، وعلى تثيف آل سعد وآل منصور ، وعلى عشيرة النمر ، وعلى عشائر الرقعة أهل الحرة ، ثم على من بقى ممن لم يلتحق بالقوات الهاشمية بالمدينة من عشيرة عتيبة من الكثمة والجوازي من الثبته ، والعصرمة أهل ركة والنفعة منهم أيضا ، ثم على عشيرتى وقدان وثمانية ، وعشيرتى البقوم ابن الحارث ، ثم على سبيع أهل الخرما وسبيع أهل رنية وأشرافهم .

وفى الاجتماع الذى وقع قبل الثورة بليال ، وحضره كبار الأشراف والشيوخ بعد تمهيد قام به الشريف شرف ، لم يتعبنى سوى الشريف حمزة الفعر وآخر هو شيخ آل بطنين من آل سعد ، فانهما أظهرتا أشد

النفور والخوف من نتائج هذه الحركة ولقد كدت أمر بالقبض عليهما لولا خشية شيوع ما ينبغي كتماناه .

وكان الوالى يسكن بقرواء خارج سبور الطائف ، وكان يشتكى من مرض الكلية ، فزرتة مرتين . وكان قائد الفرقة الأميرالاي أحمد بك يزورنى الليلة بعد الليلة . وكان أشده الرجال العسكريين البكباشى سليمان بك ، الكثير الاختلاط بالناس والقديم فى الحجاز - ولعله شعر بشيء مما سيقع - وقد قيل لى ان أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك هذا يقولان : نكاد نأخذ أسلحتنا بأيدينا حتى نرى الشريف عبد الله فيذهب عنا كل شك كان يساورنا .

وفى اليوم الثامن من شعبان ، وقد أزمعت الخروج فيه بدعوى غزو البقوم استندعانى الوالى ، وكان لدى الشريف شرف بن راجح والشيخ عبد الله سراج مفتى مكة المكرمة . فقالا : لا تذهب فانا نخشى أن يلقى عليك القبض ، فقلت : بل سأذهب . ففى عدم الذهاب ما يخشى عقباه ، وميعاد الثورة لم يحن بعد .

فركبت اليه ومعى أربعة : الشيخ فاجر بن شليويح أحد فرسان الروقة والشيخ هوصان بن عصاي وهو أيضا من شيوخ تلك العشيرة وأحد الرجال الذين أثق بهم ، وأحد خواصى هوصان بن عفار المقاطى ، وفرج حامل المظلة الملكية وتوجهت الى دار الوالى بقرواء ، وتعمدت الدخول من الثكنة بالطائف ، مما أدهش الترك والعرب معا ، حيث قالوا : لو كانت الشوائع حقيقة لما مر بنا على هذا الشكل .

ولما أقبلت على دار الوالى ، قلت لفرج : ابق عند الخيل ، وقلت لهوصان ابن عفار : كن على رأس الدرج ، وقلت للشيخين فاجر وهوصان : قوما على باب الغرفة التى أنا بداخلها . فان أراد الأتراك أن يلقوا القبض علينا ، فعلى أنا القضاء على الوالى فى الغرفة وعليكم أنتم القضاء على من يأتىكم من الدرج حتى نخرج فقالا : اتكل على الله .

ودخلت . . . وبعد أن رحب بى قال : الى أين تذهب ؟ قلت : كما تعلم أمرت بأن أؤدب البقوم . فقال ليس هذا بالوقت المناسب ، فلو أخرت خروجك الى حين لكان أنسب . وفى البلاد شائعات لا بد أنها لم تخف

عليك ، فالناس يقولون أن ثورة ستقع ، وهذا أنت ترى أهل الطائف يرحلون بامتعتهم وأطفالهم . فقلت : وماذا عليك من رحيلهم ؟ اننى ان أخرت الغزو بعد شيوعه لتأكدت المخاوف ، وفى السفر تهدئة الخواطر وسيرجع الناس الى محلاتهم . أما سبب هذه الحوادث فقال الناس عن مصادر تركية انه سيقع تبديل فى الشرافة وأن الشريف حيدر بن جابر قادم الى المدينة ، وقد تقول بهذا رجال منهم سليمان بك ، فقال مسائلا نفسه : لم تركت مكة وطلعت الى الطائف ؟ ليتنى لم أفعل ! .. لا عليك .

ثم تناول مصحفا شريفا عنده ، وقال لى : هل تعرف هذا ؟ قلت : نعم .. كتاب الله ، كوفى الخط ، وهو مهدي الى والدى منى وقد أهداه الى دولتك .

فقال : هل تشك فى اسلامي ؟ قلت : معاذ الله أما الظاهر فانك من خيار المسلمين ولا يعلم السرائر الا الله . فوضع يده على الكتاب وقال : والله انى لمعكم ولست عليكم . فأصدقنى الخبر عن هذه الشوائع . فقلت : شوائع الثورة ؟ قال : نعم . قلت : هى لا تعدو ثلاثة احتمالات : اما انها مكذوبة ، أو انها عليكم وعلينا ، أو انها عليكم من الشرافة والناس ... ولو كان هذا الأخير لما حضرت الآن بين يديك وقد تفعل بى ما تشاء .

وعندئذ دخل أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك فارتخيا عليه وقالا ما لم أسمعاه فانتهرهما فخرجا - ولقد علمت بعد أن وقعوا جميعا بأسرى أنهما طلبا اليه أن يأمر بالقبض على - فقامت مودعا فودعنى وقال : لا تقطع الاتصال بى ، فقلت ألسنت على اتصال بمكة بالتليفون ؟ قال : بلى . قلت له : فى هذه الكفاية وسأمر قائم مقام الطائف بأن ينادى بالأمان للناس حتى يرجع كل واحد الى بيته ، وفى هذا التكذيب ما يكفى . فقال : هذا حسن وسأفعل أنا أيضا .

وعن أول لقاء مع عبد الله للوالى غالب باشا .. يقول عبد الله : لم أرغب فى لقائه أول ليلة لصداع شديد ألم بى ، فبقيت بالمساء وبعثت سماحة الشيخ عبد الله سراج مفتى مكة المكرمة والشريف بن راجع اليه . فلما أنه لم يجدنى ارتبك وظهرت عليه علامات القلق ، فأرسل الى الشيخ عبد الله يرسلنى القدوم ، فأتيت ولما رآنى استبشر وضحك ، فجلسنا فى البهو الكبير بقصر شبرا ومعه خمسة وسبعون ضابطا من مختلف الرتب .

وخرجت من عنده فوجدت أحمد بك وسليمان بك في الصفة ومعهما
الأميرالاي حيدر بك متصرف عسير السابق ، فلم يحتفلوا بي ولم يحتفل
بهم . وبعد أن استوينا على ظهور خيلنا يمينا قصر شبرا ، وبها العلم
الهاشمي والقوات . ووجدت الشريف حسين الجندى على وعد منى عند
العكرمية ، فقلت له : اذهب الآن الى الوالى وقل انك تلقيت منى أمرا
بالأمان ، ثم عد وابعث من يقطع أسلاك التلغراف من مركز معشى الى الكر ،
وامنع كل من يسافر الى مكة منع قتل وابادة .

ثم تحركت بالقوة الى المركز الهاشمي للحركة ، وهو عند سفح جبل
سواقه على يسار الطريق الذاهب الى مكة من ناحية العرفية :

وفى تلك الليلة تلقيت المذكرة التالية من الوالى غالب باشا :

الى صاحب السعادة الشريف عبد الله بك - بعد توجيهكم انقطعت
الخطوط التلغرافية بين مكة والطائف وأن الموظفين الذين أرسلوا لاصلاحه
لم يعودوا ، وقد شاعت الشوائع بأن المعتدين على الخطوط التلغرافية قد
سجنوهم ، ولذلك أطلب اليكم الرجوع حالا الى الطائف ، فان تأديب عشيرة
البقوم ليست من الأهمية بشئ ازاء الحالة الراهنة .

فأجبت بالآتى :

حضرة صاحب السعادة الوالى والكومندان بالطائف - لقد تلقيت
مذكرتكم ليلا ولم يبلغنى خبر ما حصل على الخطوط التلغرافية . وان وكيل
قائمقام الطائف تحت أمركم لتنفيذ رغباتكم . أما أنا فساكون بطرفكم بعد
غد السبت ان شاء الله .

وفى ٩ شعبان كانت الثورة فى البلاد الحجازية ، ما عدا الطائف فان
الهجوم قد وقع عليه فى الحادى عشر من شعبان ، بسبب بعض النواقص .
وفى ليلة السبت الحادى عشر من شعبان ، فى نصف الليل ، ابتداء الهجوم
من الجبهة الشمالية التى كنت أدير حركتها بذاتى .

وكان الأتراك قد أحكموا سوار البلدة ، وحفروا الخندقا من بيتان
الرياض متجها من الشرق الى ناحية الغرب الى مكان يسمى معشى ، ثم
انحرف الى الجنوب الى هضبة أم السكارى وبها أحد مراكزهم القوية وبها
مدفعان ، ثم انحرف مشرقا مرة أخرى الى أن حاذى برج غلفة ثم مال الى

الشمال وخالط وادى وج ، ثم انحرف مشرقا الى الجنوب حتى اتصل بصفاء
تسمى دقاق اللوز ، ثم مال الى الغرب مرة أخرى واتصل بالخندق الأساسى ،
وقد وصل هذا الخندق بخنادق فرعية تربط نواحيه الأربع بالمركز فى
خطوط متعرجة تحجب السائر فيها .

أما الهجوم فقد وقع بعنف شديد ، وفى الجبهة الشمالية بالقلب .
وكانت تتقدم الحملة البواردية الخواص وهم الرماة ، يتقدمهم راقى
ابن عفار ، ثم من كان من الحملة من الثبته الجوازي ومن الكثرة الغشاشمة
والروانية ثم بنو سعد ، عليهم الشريف سلطان بن راجح : فعاد المهاجمون
ببعض الأسرى والأسلاب .

وعند بزوغ الشمس ابتدأت المدفعية التركية ترمى بشدة على
المهاجمين ، ولم أدر لماذا لم يعزز القائد التركى المدفعية بهجوم من المشاة .
هكذا لم يتمكن بنو سعد من الوصول الى أهدافهم ، واضطروا الى التراجع
الى نواحي شبرا ، ثم انصرفوا بشئ من عدم الطاعة الى بلادهم . وقد جاءنى
من قائدهم الشريف سلطان ما يفيد بذلك فأمرته أن يتركهم .

وانصرف همى الى انقاذ الرماة الخاصة الذين حجزوا فى العكرمية
وفى أسفل شرقرق - وهو جبل بين مسرة وشبرا - وفى تلك الأثناء كان
الى جانبى الشيخ فاجر بن شليويح والشريف حمزة الفعر ، واذا بالأتراك
يحرقون قصور الامارة السبعة فقلت لمن معى : لا ترهبوهم فانما أرادوا
بهذا اخافتكم ، ولو كانوا كما يقال لهاجمونا هجوما معاكسا ، وهذه البيوت
تبني ان شاء الله بأسرع ما يمكن .

وطال الاشتباك وقل العناد فلم يؤذن لأحد بأن يرمى الا هدفا معينا
مرثيا . وعند الظهر وقد اشتد الظما ، ابتدأ الهجوم من الشريف فهد .
ابن شاكر من الناحية الغربية والجنوبية ، بعشائر النمر وهذيل وبنى
سفيان ، وكنا نسمع تكبيرهم وصياحهم . واتجه ضرب المدفعية الى تلك
الناحية ، فتمكن عندها رجالى الخاصة من التراجع سالمين . فأمرت بتحصين
جبل شرقرق ، وأقمت بقصر شبرا قوة كافية ، وانسحبت بالقوى العمومية
الى سواقه ، وكان العناد قد نفذ بأجمعه .

ثم بعثت بأوامر مستعجلة الى الشريف فهد بأن يكف قواته وأن يميل
الى طريق عقبة كرى ، لئلا تخرج القوة من الطائف عامدة مكة . وأصبح

همى الأول حجز هذه القوة للتغلب عليها ، ولكن ذلك لم يكن بالمتيسر فى
مدة وجيزة ولا سيما فى قلعة حصينة كالطائف وبها فرقة نظامية • ففعل
الشریف فهد ما أردت • ولو خرج الوالى والقائد بتلك القوة لكان وصل الى
مكة بسلام لنفاد العتاد الحربى لدينا كليا •

وفى الوقت نفسه بعثت بكتب الى رجال العشائر التى تراجعت ،
أخبرتهم فيها بأن هجوم عشائر هذيل وثقيف والنمور أنقذ الموقف وانا
كررنا على الأعداء وحصرناهم ، وطلبت اليهم الرجوع بعد أسبوع لنوزع
عليهم السلاح الجديد ونقيّد أسمائهم فى دفاتر العطاء ، مع تعيين ما يخص
الرؤساء ومن يليهم من الأفراد • فجاءتنى الأجوبة بلبيك لبيك •

ثم أوقدت النيران فى تلك الليلة على كل جبل مشرف على الطائف ،
وكرر الصياح الحماسى ، ودقت الطبول ، واستمر رمى البنادق أمهات
القتيل الى الصبح مما أوجب الوهم الشديد فى قلوب الأتراك عن اجتماعات
عشائرية •

ووردت الأسلحة الجديدة ، وكانت بنادق للمشاة شبيهة ببنادق
مصنوع استير قيل عنها انها يابانية ، وكانت بعيدة المرمى شديدة الاصابة
لا يخطئ بها من يرمى الا أنه كان ينفجر بعضها •

وبعد أن وزعت هذه الأسلحة ، ولحسن الحظ ، هجم الأتراك على
نواحي دقاق اللوز ، وشهار ، وحواية ، لأخذ البيادر التى كانت بها حيث
قرروا الدفاع وصادف أن كانت هذيل وبنو سفيان عادوا من المعسكر
بالأسلحة الجديدة ، وكان خروج الأتراك انصب على عشيرة وقدان بدقاق
اللوز وبقملة ، فنشبت المعركة وردت هذه الهجمة الفاشلة بخسائر
فادحة •

وفى تلك الليلة هاجمت هذيل وبنو سفيان هضبة أم السكارى
وقضت على حاميتها واستولت على مدفعين هناك للأتراك وكان الهجوم
بالخناجر والحرا ب ، ولم ينج من الأتراك أحد ، ولما حدث هذا تراجع
الأتراك عن هضبة أم الشيخ ، ومن شررق الذى كانوا استولوا عليه ،
الى جبل أبى صحفة وخذلهم القديمة ، وتقدمت القوات العربية الى
مراكزهم يوم بدء الهجوم •

وقد استولى الحرس الأمامي على رسول من القائد التركي بالطائف
الى القائد التركي بمكة ، ومعه رسائل موجهة بأوامر الى القواد والى قائد
القوة الامدادية بالمدينة .

وقد جاء فيها أن الشريف حسين قد أعلن العصيان ، وأن قلعة الطائف
والفرقة العثمانية تقاتل ببسالة ضد هجمات العرب الذين يقودهم الشريف
عبد الله النجل الثاني للشريف حسين ، وأن مسئولية هذه الحركة تقع على
الشريف وأنجاله ، ثم يقول القائد التركي حاضا جنوده : قاتلوا في مراكزكم
ببسالة حتى ترد الامدادات من الشام والمدينة المنورة . . قاتلوا كما يقاتل
هؤلاء العصاة واذكروا أسلافكم من آل عثمان ، ولا تهابوا صولة هؤلاء العرب
الذين تقدموا بأكمهم البيض وسدائريهم الحمر مستخفين بالموت في سبيل
أميرهم . قاتلوهم في سبيل السلطان والملة ، وإذا رأيتم راياتهم كروا
عليهم واسحقوهم بأقدامكم ولا توفروا منهم أحدا .

وظلت الحالة بين الحاصر والمحصور متكافئة ، الى أن جاءت بطاريات
جديدة جبلية من مكة وجاءت المفزة المصرية - ومعها أربعة مدافع جبلية
كذلك - وعليها الأميرالاي سيد بك على . وبعد ذلك وصلت الى القوة مدافع
الهاوزر فحصل الرجحان ، ولكنى لم أكن بالمسرف في الضرب حيث كانت
النتيجة عندى معروفة فكان الإبقاء على النفوس من الجانبين ملتزما لدى .

وفي العاشر من ذى القعدة تلقيت كتابا من القائد الوالى هذا نصه :

الى الشريف عبد الله بك نجل الشريف حسين باشا : لكى تثبت
للغرب مزايا الشرق ، أقترح عليك أن تسمح للقوى المحصورة بالسفر الى
المدينة المنورة بجميع أسلحتها وبمن معها من عائلات الضباط ومن يرغب
فى السفر من الجالية التركية . فاذا وافقتم على ذلك وهو المعلوم ننتظر
الجواب كى نشعركم بوسائل النقل اللازمة وعدد الجمال .

فأجبتنه أن هذا ليس بيدي ، وإن الحالة الراهنة لا تكفل سلامة
وصول هذه القوى المتراجعة الى المدينة ، وأن من خيركم أن تستسلموا جميعا
ثم ترحلوا الى المكان المناسب .

ولما كانت قوات فخري باشا قد تمكنت من التضييق على الأميرين على
وفيصل فدفعت الأول الى رابغ ودفعت الثانى الى ينبع البحر ، أخذت

الأوامر ترد الى مشددة بلزوم اسقاط الطائف وتصويب نار المدفعية الثقيلة على مركز القيادة . ولم يلبث القائد الوالى أن بعث الى بهذا الكتاب بعد هزيع من الليل :

الى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبد الله بن الحسين انه بالرغم من كثرة العناد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء ، ولذلك أرجو قبول هيئة منا لنتذكر معكم فى معاملة التسليم والتسلم وفق حقوق الحرب الدولية أو تتكرموا بارسال هيئة منكم الينا .

الامضاء : كومندان القوة العثمانية المحصورة
(فريق غالب)

فأجبتة بالقبول وأن يبعث بالهيئة التى يريدتها . فأرسل القائد سليمان بك ومعه رئيس أركان الحرب ناظم بك وعليهما الأميرالاي حيدر بك قائد ومتصرف عسير سابقا . وحضروا الى قصر الشريف فتن بن محسن بالميساء ، وكان يرأس الهيئة العربية القائد سعيد المدفعى ومعه الرئيس فؤاد والملازم أحمد حلمى . وتقرر التسليم على الآتى :

١ - يخرج الوالى والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة بكباشى فى تلك الليلة الى قصر شبرا .

٢ - الطوابير تترك تحت قيادة الرؤساء اليوزباشية والملازمين الأولين والملازمين الثانى .

٣ - تراجع هذه الطوابير فى منتصف الليل الى الثكنة الكبرى وتترك على الأبواب الغفراء ، وفى تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية ، بقيادة الشرفاء فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودى ، لتحتل الأبواب وتؤمن السلام والأمن العام .

٤ - مع الفجر يتقدم القائد سعيد بك ومن معه ، ليضعوا أيديهم على الأسلحة والمدافع فتودع فى مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر .

٥ - تتكفل القيادة العربية بالاعاشة والتموين .

٦ - تصرف للهيئة المستسلمة مرتبات ثلاثة أشهر .

٧ - تنتظر الأوامر بالتوجه حالا الى الجهة المقتضية .

وقد تم كل هذا بهدوء وسلام ، ومنحنا الكثيرين من العشائر فرصة
للراحة ليعودوا بعد مدة .

وفي اليوم التالي جرى انزال العلم العثماني عن القلعة ، ورفع العلم
العربي بالتحية الرسمية لكلا العلمين ، وكان منظرا مؤثرا . . فان العلم
السابق كان العلم بالأمس ، والعلم اللاحق هو العلم اليوم ، والأمس
أمسنا واليوم يومنا ، ولكن الذنب على كل من سعى لترك الصبغة الاسلامية
الشرقية والهروع الى الحضيرة الغربية الافرنجية . ومع الأسف فان تلك
الحركة الانفصالية لم تحل بيننا وبين ما أصبحنا عليه اليوم من أشكال
متعددة ونزعات متفاوتة ، لنا من كل قوم متبوع ، وفي كل بيت مئة لسان .

ونعود الى سقوط الطائف . فبعد اتمام معاملة التسليم والتسليم وفق
الشروط الدولية . قمنا بترحيل القائد والوالي والجنود الى مكة المكرمة
مكرمين معززين وقد صرفت لهم مرتبات ثلاثة أشهر .

وبعد حوالي ثلاث دقائق من صمت ران على المجلس ، تكلم غالب باشا
فقال : هذه فاجعة . . بعد أن كنا اخوانا أصبحنا أعداء .

وقد شعرت أنه قد زال عني بعض الاستحياء منه والتكريم له ،
قلت : نعم لكي يعود السيد لسيادته ويتحرر من رق من أخرجهم من الظلمات
الى النور والشر بالشر والبادي أظلم .

فاصفر لونه ثم قال : انني كنت واثقا من أن الأمة العربية ستنفصل
يوما ما عنا ، ولكن ما كنت آمل أن يكون الانفصال على هذا الشكل وبهذه
السرعة .

فقلت له : صدقت لقد أسرعنا ومن منفعتنا الاسراع ، أما الشكل
فلا دخل له ولو أنكم أبقيتم سلطة الخلافة المطلقة لما تغيرنا عليكم ، ولكن
ارادتكم المشروطة هذه التي أحببتم بها السيطرة على السلطان وعلى الأمة
كانت السبب .

ثم قلت : ولم هذا البحث الآن ؟ تفضلوا تناولوا شيئا من الفاكهة
فقد طال عليكم الحصر وحرمتكم الكثير منها . . وأخذتهم الى غرفة الطعام

حيث كانت أعدت لهم تعشيمة فاخرة فيها أنواع أطعمة الليل الشهية :
العنب والدراق والكمثرى والرمان ، وتركتهم الى غرفتي معتذرا بصداقي .

وتوجه هو صباح الغد الى مكة ، ولما وصل جدة بعث الى بسيفه ،
وكانت تلك الالتفاتة منه جد نبيلة .

ثم توجهت الى مكة بعد أن تم تنظيم الأحوال في الطائف وبقي به
الشريف حسين الجودي وكيلا عن الشريف شرف . ثم أمر سيدنا الوالد
أن يتوكل امارة الطائف الشريف حمود بن زيد بن فواز .

ووجدت بمكة السادة أهل الشام ولبنان : الشيخ كامل القصاب ،
والشيخ فؤاد الخطيب صاحب القصيدة المعروفة « حى الشريف وحى البيت
والعلماء » والسيد محيي الدين الخطيب . والسيد نسيب البكرى واخوانه .

وأمرته بأن لا يصبح الا وهو قد احتل « حجر » واستأصل حسين
ابن مبيريك . وبعثت بجواب الى الأمير على مع رسول الى رابغ أعلمه فيه
بأن لا حجر ولا ابن مبيريك بيد الترك بعد اليوم . وبعثت الشريف عبد الله
ابن ثواب الحارثي بمثل تلك القوة الى المدينة المنورة ، وأمرته بأن يشن
الغارة على مخافر الترك بجبل وعيرة وجبل أحد ، وأن يوقد نيرانا كثيرة
بالجبال والمرتفعات ويكثر الصياح وأن يأمر كل محتطب أو ذا حاجة أو
تاجر من تجار نجد ممن يخرج من المدينة أو يدخل اليها ، وأن يطلق سراح
الراجعين الى المدينة بعد أن يتحقق عن هوائتهم ، وأن يزودهم بكتب الى
العشائر بغربي المدينة ممن التحق بالأترار والشريف حيدر ويهددهم
بالصياح اذا هم لم يتراجعوا الى الأميرين بينبع ورابغ ويقول انه في مقدمة
الجيش الشرقى وقد نفذ ما عليه ، كان حجر قد احتلت في الوقت المعين .

وتوجهت بالقوة الأصلية الى ناحية الحناكية ، وأقامت بها ثلاثة أيام
فالتحقت بى هناك كل عشائر هتيم وحرب ، وأصبحت القوى عشرين
الف وراكب .

فتوجهت بها نحو الغرب لأعبر السكة الحجازية ما بين محطتى
أبا النعم وهدية وفي طريقنا بالحرّة ، ولشدة الحر يومئذ وللتخلص من
وعورة الحرّة ، تقدمت ومعى هجانان واذا بقاع ضحصح فيه دوحة عظيمة

وغدير أفيح ، فأنخت وأمرت بشيء من القهوة في انتظار قدوم عيون القوة ، فكان كل من رآني هناك ينيخ . ولتأخر القوة قررت أن تكون تلك الدوحة منزلة الظهيرة . وكان عندي حينذاك الشريف شاكر بن زيد وخالد بن لؤي ، والشيخ ناهس الذويبي شيخ مشايخ حرب .

وبينما أنا جالس معهم دخل رئيس عشيرة ولد ، محمد رجا بن خلوي ، وأشار إلى فقامت إليه ، فأشار إلى تل لا يبعد عنا بأكثر من خمسمائة متر وقال : هل ترى هذا التل ؟ قلت : أراه . قال : ان به قوة تركية . قلت : كيف ؟ قال : اسمع من هذا الغلام . . . واذا بغلام يفع تنقد عيناه يقول لي : يا سيدي عان الترك عانهم أي أنظر إلى الترك أنظر إليهم . قلت : كيف ؟

قال الفتى : « انني أنا وأخي زميلان للشيخ رجا بن خلوي ، ذهبنا في مقدمة القوم نحتش حشيشا فألقى الترك القبض علينا ، وقال كبيرهم لنا من أنتما ومن هؤلاء القوم ؟ فقلت أنا مبادرا : هؤلاء هتيم وشيوخهم سمران بن سمرة ونحن منهم قد بلغه أن الشريف عبد الله نزل الحناكية فرحل عن طريقه لاجئا إلى خيبر . فقال : لا تكذب . فقلت : ولم الكذب أطلقني ان أردت واحتبس أخي وأنا آتيك بسمران بن سمرة ، فاحتبس أخي وأطلقني . ولكن عاد يا سيدي الترك عانهم » ! . فقلت : هل رأيت كثرتهم ؟ قال : هم كثير ولكن نحن أكثر ، ابعت بي أدل القوم .

فانتحيت ناحية وقسمت الخيل إلى ثلاثة أقسام : القسم الأوسط وعليه الشيخ هوصان بن عفار ، والأيمن وعليه أخوه الشيخ راقى بن عفار ، والأيسر وعليه الشيخ عبد الله بن مسفر ، وأمرتهم أن يحيطوا بهذه القوة وأن يوغلوا إلى ما وراءها حتى يقفوا على حقيقة الحال . . هل لهؤلاء من مدد أو قوة كاملة ؟

فتوجهت الخيل ، ثم بعثت بمشاة العشائر من اليمين بقيادة الشريف خالد بن منصور ، وبعشائر هذيل بقيادة الشريف فائز الحارث ، وبعثت بعشائر ثقيف وابن الحارث وهذيل الشام بقيادة الشريف شاكر بن زيد من اليسرة ، فتبعوا الخيل . ولم تمض إلا دقائق حتى كان الاشتباك الشديد ، وإذا برشاشاتهم تلعلع ومتفجراتهم ترعد فينعكس صوتها بين حلي الحرة وهضابها ، فلم يقف انسان بمحله بل حملوا حملة صادقة فأبادوا القوة التركية بأجمعها ، وأتوا بقائدها الأميرالاي أشرف بك ، وأتوا بالمدافع وبالرشاشات وبغنائم لا تحصى ، وبهدايا إلى الأمير ابن رشيد وإلى الأمير ابن سعود وإلى امام اليمن ، وكان من جملة الغنائم ثمانية وثلاثون ألف

جنيه ذهبيا عثمانيا ، والأطعمة المجففة وسائر البسكوتات مما أغنانا أياما
عن الزاد ، ولقد كنا في حاجة شديدة حتى الى الملح .

وسرنا لنعبر السكة قبل أن تأتي قوة تركية تمنع العبور ونحن في
مفازة قتاله . ثم احتلت قواتنا ما بين هدية وأبا النعم ، الخط الى آبار
أبا الحلو غربي السكة . واستمر العبور أربع ساعات ونصفا على ثمانية
خطوط . ثم اقتلعت أعمدة البرق وانتزعت قضبان السكة .

وقد كتب أشرف بك مصيره في تقرير علق على قضبان البرق . وكتبت
أنا كتابا الى فخر الدين باشا أبلغته فيه أسفنا لما وقع على أشرف بك وحملته
وعجبنا من إرساله تلك القوة بهذه الأموال في بلاد تائرة وذكرت له ان
الثورة قد انتقلت الى ما بين الشام والمدينة .

وتراجع فخر الدين باشا من ينبع النخل ومن وادي الصفراء ومن
بئر سعيد الى بئر درويش . وجناحه الأيمن الذي كان يعمل ضد الأمير
فيصل رجع من بئر قاضي وسطح الغاير ومن برام وعبود الى غدير مجز
ومجزان وآبار على . وجناحه الأيسر الذي كان يعمل ضد الأمير على
تراجع أيضا .

وتقدمت فنزلت بوادي العيص بربيعان ، وكررت على الخط الحديدي
أهاجمه ليل نهار ، فتحررت قوة الأمير فيصل واتجهت عن طريق الساحل
الى الوجه ، وقد كان بيد الأتراك ، وكان قائمقام القضاء في الوجه صديقنا
العزيز عبد السلام بك كمال أحد أفراد دار كمال المعروفين بالقدس ،
وكان عثمانى المذهب ، شديد التمسك بالترك . وكان معه الاميرالاي أحمد
بك على قوة نظامية عثمانية مؤلفة من مدفعية ساحلية وبطارية جبل وطابور
أفراده ألف ومئتا جندي غير الجندرية . كما كان في الوجه هجانة من
عقيل أهل نجد مؤلفة من ثمانمئة هجان .

ولدى نزولي بوادي العيص كتبت الى هؤلاء العرب أنصحهم بالانضمام
الى الثورة العربية قبل أن ينالهم التكنيل ، فوردت أجوبتهم بالموافقة .
وبعد أن استلموا معاشاتهم تركوا الأسلحة حيث هي وخرجوا ثم التحقوا
بالثورة .

وتقدم الأمير فيصل من الساحل فاستولى على أملج . ثم ضرب
الأسطول البريطاني الوجه . وعند وصول طلائع قوى الأمير فيصل ،
تراجع القائم مقام والاميرالاي بقواتهما الى العلا ، ودخل جيش الأمير فيصل
الوجه بدون مقاومة تذكر . أما ابن رفادة ، شيخ الوجه وأحد رؤساء بلى ،
فقد فر والتحق بأحمد جمال باشا في الشمال .

وكتبت الى شيخ عشائر عنزة :

من عبد الله بن الحسين بن علي الى الشيخ فرحان الأيدي والى
الشيخ شهاب الفقير - أما بعد . . فقد بلغكم عبورنا السكة الحجازية بعد
أن ظفرنا بأشرف بك في الجنبلة بالحرّة ، ونزلنا بالمربع بوادي العيص .
وكتابنا هذا كتاب دعوة لكم للالتحاق بالثورة العربية في مهلة لا تتجاوز
العشرة الأيام ، تقدمون البت قبل هضيها مقدمين الطاعة مع البرهان بأن
تهاجموا خط السكة وتأتوا بأسرى وغنائم . فان لم تفعلوا ومضت المدة
فلا لوم علينا ان نحن استعنا بالله عليكم وصبحناكم .

فجاء الشيخ فرحان الأيدي سامعا مطيعا ، بعد أن هجم على محطة
من محطات سكة الحديد تسمى (البلغة) وظفر بمن فيها ، وجاء معه
مدفعان جبليان اغتنمهما وقد عينته قائدا في أراضى عنزة في الجهيئة الى
حدود الفقير .

أما شهاب الفقير فكان غائبا عند وصول كتابنا ، فحضر أخوه الشيخ
متعب الفقير بالنيابة عنه سامعا مطيعا ، وقد وعد بأن تبتدىء الحركات
في جبهة الفقرة عند وصول الشيخ شهاب من الشام . فلم أقبل منه
ذلك وقلت له :

« لا بأس على شهاب ما دام لدى الأتراك ، ولا لوم عليكم انتم بعد
التهديد » .

وبينما هو يتجهز للرجوع وإذا بخبر عودة شهاب الى عشيرته وأنه
قد سمع وأطاع وباشر في الحركات .

وهكذا ابتداء الجيش الشرقي يعمل وقد لفت اليه الأنظار ، وكان
لأسر أشرف بك صدى عظيم في مكة وفي المعسكرات العربية برابع وينبع
ولدى المحافل البريطانية ، لشهرة أشرف هذا وفرقته اذ هو الذي كان

صحب فرقة البرنس مورييس البلغارى أثناء حرب البلقان وأوقع فيهم
وشتتها .

ثم اننا قطعنا الخط الحديدى بين محطة أبا النعم وهدية ، وهيانا
القوة الكافية للكمون بطرف بشر عروة بالمدينة المنورة فى أيام الجمعة ،
لاختطاف الأمير الشريف حيدر الذى اعتاد أن يتنزه هناك بعد ظهر كل
جمعة . وقد وصلت تلك القوة بالفعل الى مكمنها ، ولكن الشريف كان
قد أخرج من المدينة الى لبنان خوفا من وقوعه فى الأسر اذا حوصرت
المدينة . وكان رحمه الله يخدم القضية العربية بأن يقول لكل شيخ
يجيئه : اذهبوا وساقابلكم بمكة متى وصلتم . وقد أسر لمن يثق به منهم
بأن أعينوا أمراءكم فان حصل أى فشل فأنى سأجتهد للتخفيف عنكم .

وهكذا فان الحركة العربية أخذت تلاقى نجاحا بعد سلوكى الطريق
الشرقية واستكملت أسباب حصار المدينة بعد ذلك رويدا رويدا . وقد
تحركت القوى الأصلية الهاشمية من رابع يقودها الأمير على وأمرؤها من
النظاميين : نورى باشا السعيد وعلى جودت بك الأيوبى وحامد باشا الوادى
وابراهيم بك الراوى . وأما العشائر فحرب وبنو سعد وسليم وهذيل
والأشراف ، وقد قصدوا قوى الترك الأصلية ببشر درويش وبمجز وبمجزان
وكان سمو الأمير زيد يقود الجناح الأيمن . واستمر القتال بين القوتين
ثلاثة أيام ظفر فيها الجيش العربى الهاشمى ببشر درويش وبمجز ومجزان .
وتراجع فخرى باشا الى الجفر والى آبار على . وقد قال فى تقريره لجنوده
« انكم تقاتلون الآن قوة منظمة هى كفى لكم وليست المجادلة الآن شقاوة
أو حرب عصابات » .

وقصر فخرى باشا خط دفاعه وخلق واستحكم . وكانت بالمدينة
القوى السفرية تدافع الى حد تبوك بفرقة ونصف . وكان الجيش الشرقى
الذى أقوده بالعيص يدأب على قطع مواصلات القوى السفرية قطعا مستمرا
بتدمير سكة الحديد الحجازية . ثم تقدم الأمير فيصل من الوجه الى جيدة -
موقع يقابل العلا بأرض بلى - متخذاً المركز العام له مدينة الوجه
الساحلية . وأخذت هجمات الجيش الشمالى بقيادة فيصل تتسع الى ذات
حاج .

وكان السبب الأكبر فى دوام محافظة الأتراك على الخط ، هو قدرتهم
على الدفاع من جهة ، وعدم وجود قوات مدربة نظامية معنا من جهة أخرى .

أما التجهيزات فلم يكن يقدم منها للجيش الشرقى أى شىء سوى سلاح المحارب الراجل ، أما المدافع وما الى ذلك مما يستعمل ضد القلاع والاستحكامات فلم يظهر منها شىء . وكان يتألف الجيش الشرقى من الفارين العرب من الجيش التركى ، من جنود وضباط برتب صغيرة وكان لدى جيش الأمير على - الجيش الجنوبى - من مدافع الصحراء ومدافع الهاوزر ما تفوق به على الأتراك .

وأما العناية بالتجهيزات فكانت مصروفة للجيش الشمالى الذى كان يقوده الأمير فيصل ، فلقد كانت معه سيارات مدرعة ومدافع كثيرة جبلية وصحراوية ومدافع حصار وكان كل الجنود المتطوعين من العرب والضباط يرسلون الى ذلك الجيش ، كجعفر باشا ونورى باشا وأمثالهما .

وكان من رأى الاستيلاء على الخط ثم الاستيلاء على المدينة المنورة بالجيوش العربية الثلاثة : الجنوبى والشرقى والشمالى . ولكن لسوء حظ العرب انتشر الضغط على الأتراك على طول الخط الحديدى . ثم تقدم جيش الأمير فيصل واحتل العقبة ومنها أخذ يضيق على معان .

فلو أسقطت المدينة المنورة فى عام ١٩١٧ لكانت الجيوش العربية الثلاثة تفرغت بمجموعها لفتح سوريا والاشتراك فى محاربات العراق ، ولكن مال الآخرون الى هذه الخطة .

ولما هزم جيش اللورد اللنبى الأتراك فى الناصرة ، تقدمت مغازى من الجيش العربى الشمالى الى الأزرق ودرعا ودخلت الشام . وعلى الشام رفعت الرايات العربية بوساطة الأيوبى باشا وموافقة أحمد جمال باشا القائد التركى المعروف ، وبارادة سلطانية تعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية . وكانت القوى العثمانية المدافعة عن معان لا تزال فيها لم تمس بسوء ، أشبه ما تكون بالجيوش الألمانية فى فرنسا عند غزو الحلفاء القارة الأوربية فى الحرب العالمية الثانية .

ولكن فخرى باشا بقى فى المدينة يدافع عنها باصرار ، فلم يكن ضروريا أن يظل الجيش الشرقى بوادى العيص وبلاد جهينة . وبعد المخابرة مع الأمير على تحركت بالجيش الشرقى الى الجفر - وهو موقع شمال المدينة المنورة بغرب يبعد حوالى ٢٠ كيلو مترا عنها - وبعد التضيق عليه ابتدأت الحركات الدالة على عدم الطاقة فى المحصورين .

وورد كتاب من السير وينجت - المندوب السامي بمصر اذ ذاك - الى فخرى باشا ، يخبره فيه أن الأتراك قد هزموا ، وأن الشام قد احتلت ، وأن مسئولية الدماء من بعد ذلك ستقع على فخرى باشا شخصيا ان لم يسلم . فاجابه فخرى باشا بالتركية : « الى جناب الجنرال ريجلاند وينجت بمصر : أنا عثمانى أنا محمدى ، وأنا ابن بالى بك ، وأنا جندى ، وارخ » . ثم بعث فخرى باشا بعد ذلك بكتاب الى الأمير على ، يقول له فيه انه بعد هذا الجدل الطويل ، لم يبق أى سبب للدفاع ، وأنه قد أرسل الميرالاي على نجيب بك والميرالاي صبرى بك والأركان حرب اليوزباشى كمال بك لأجل التذاكر فى كيفية تخليه عن المدينة وكيفية اجلاء الجنود الذين يمتد خطهم من تبوك الى المدينة على سكة الحجاز .

فبعث الأمير على الى اشارة تلفونية يطلبنى من الجفر ، فحضرت اليه حالا .

ولما ترجلت عن فرسى عند باب خيمة القيادة ، خيمة الأمير على ، تلقانى وهو يقول : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقلت : أعلم انك من أهل الاسلام . ثم دخلنا وطلب على نجيب بك سرعة المذاكرة ، فلما ابتدأنا فيها طلب أن تسمح للقوات التركية بأن تخرج بأسلحتها الى ينبع البحر والى الوجه فتقرر رد طلبه ثم تقرر ما يلى : -

أولا : يسلم فخرى باشا نفسه .

ثانيا : يسلم كل الآلاى فى الجبهات حيث هو ومن ثم يؤخذون الى الساحل بقوافل محروسة من الجيش العربى .

ثالثا : كذلك القوات التى بالمدينة المنورة تسلم كل قوة فى مركزها وتخرج .

رابعا : والقوات التى فى العلا وتبوك تسلم هناك وتؤخذ بقوافل الى الوجه والى ظبا وأما الأمتعة الخاصة بالضباط تكون تحت تصرفهم اذا ارادوا بيعها أو أخذها معهم .

خامسا : يجرى تسليم الأسلحة العسكرية الخفيفة والثقيلة بموجب الدفاتر والسجلات المحفوظة .

سادسا : يجرى التسليم فورا .

وبعد تنظيم هذه المواد ، جرى التوقيع منا ومنهم ، وعادوا الى المدينة المنورة .

وفى الصباح التالى أمر الأمير على نوري بك الكويرى والشريف أحمد ابن منصور أمير حرب ، بأن يذهبا لتسلم فخرى باشا حسب الشروط فذهبا ، وبقينا فى انتظاره معهما حتى المساء ، فلم يأتيا .

وبعد غروب الشمس بنحو نصف ساعة ، دعانى الأمير على الى خيمته وقال لى : لقد عاد أحمد بن منصور ونورى الكويرى وحدهما ، أما فخرى باشا فإنه لما علم بالشرط الأول دخل الحجرة النبوية وهدد قائلا : ان أردتم اخراجى عنوة فسأشعل النار فى كل العتاد الذى فى المسجد - وكان الأتراك قد وضعوا المتفجرات فى المسجد خشية الطيارات - وأنه فى الحالة هذه لا يمكن أخذه عنوة ، وأنهم على استعداد لتنفيذ سائر الشروط .

وكان سموه مرتبكا ، فقلت : لنتركه فى محله ، فقال : انه لا يؤمن وأنه ما دام هناك فالخطر منه قائم .

وفى الحقيقة كانت الحالة مربكة ، وتجلى علينا الصمت الى وقت العشاء ، فلما دعينا الى العشاء وانتصف الأكل واذا بنا نسمع دمة كأن شيئا قد ثار أو انهدم فقام رحمه الله واقفا وقال : لقد أشعل الحبيث النار فى المسجد ! اركب الآن الى جليجلة وأفهم الحقيقة ، وأعمل على أخذه دهما كلف الأمر .

فقلت : أفعل . وطلبت تجهيز الخيل .

وبعد العشاء ، ركبت الى جليجلة ، وبها مركز الآلاى الأول التركى ، وتقع فى أرض جبلية ، وكنا سبعة عشر خيالا ، وكان معى الشريف بن راجع وعبد الله المضايقى والشيخ هوصان بن عفار أمير الخيالة بالجيش الشرقى وأمير اللواء السيد حلمى قائد الفرقة النظامية للجيش الشرقى .

وبعد أن سرنا مدة ثلاث ساعات ، بلغنا المكان ، واذا ضوء على باب محل محكم واذا الغفير يصيح : من هذا ؟ فدفعت فرسى واندفع من معى نحوه ، فارتبك فأخذناه وسألناه أين مركز الآلاى ؟ فقال : هو هذا وفيه الاميرالاي اسماعيل شكرى بك . فيخرج واذا هو ، فقلت له أنا الأمير عبد الله .

فدهش . . فقلت : لا عليك ان لزمنا السكنينة . . أين التلغون ؟ وأطلب به على نجيب بك فقال : تفضل .

فدخلت وأحضر على نجيب بك على التليفون ، فقال : من المتكلم ؟
قلت : الأمير عبد الله بن الحسين ، قال : كيف ومن أين تكلمنى ؟ قلت :
من جليجلة طبعاً . قال : والآلاى ؟ قلت الآلاى وقع بيدي . فقال : سبحان
الله ! فقلت : هذا بفضل الله ، ولكن أين فخرى باشا ؟ وكان اليوم موعد
تسليمه حسب الشروط ؟ قال : انه كما أخبركم الشريف أحمد بن منصور
ونورى بك الكويرى ، دخل الحجرة وهدد بأن ينسفها ان نحن حاولنا
أخذه عنوة .

قلت : لا أعتقد ذلك . فقال : أتريد أن تقع نكبة فى الحجرة ؟
قلت : لا بالطبع ولكن أريد تنفيذ الشروط ، أليست لديكم حرمة
لتواقيعكم ؟ فقال : أتريد أن يقتل من يدخل عليه فى ذلك المحل ؟ قلت :
الذنب عليه وقد قتل عمر بن الخطاب بين المنبر والقبر . فقال : أتريد
أن ينسف المسجد ؟ فأجبته : قد احترق المسجد النبوى فى التاريخ
مرتين ، وان وقع شئ من هذا فسيكون لنا حجة عليكم أنتم الأتراك والآن
انت تكلم خصمك ، فان لم تنفذ الشروط فسيكون الموقف جد حرج ،
حيث تقرر استئصال كل من بالمدينة منكم .

فقال : أمهلنى نصف ساعة .

وبعد نصف ساعة اتصل بى وقال : بعد المذاكرة تقرر اخراج
فخرى باشا بأية صورة كانت ، صباحا الساعة الحادية عشرة . فانتظرنا
الى الصباح ، وفى الساعة المحددة خاطبنى بالتليفون يقول : بعون الله
ومدد من روحانية رسول الله وبعزم رفاقى الكرام ، تم اخراج فخرى
باشا من الحجرة بدون حادث ، وسيق اليكم مع الاميرالاي صبرى بك فى
سيارة محروسة ، وسيصل اليكم بعد ساعة وربع .

وبعد ساعة وربع ، وصل فخرى باشا الى جليجلة وكنت فى مركز
القيادة ، فقابلته حلمى باشا ومعه الشريف شرف لدى سيارته وأخذاه
الى . فقال له صبرى بك - بعد أن قدمه لى - هذا الأمير عبد الله .
فحيانى رافعا يده الى صدره تحية الدراويش ، فحييته بمثلها ، وأخذته
الى الغرفة فجلس جلسة المغيظ المحنق ، فبادرته قائلا : لقد عهدناك
شجاعا فى الحرب وأثناء الحصار ، وأنه ليسرنا أن نراك صبوراً فى مصيبة
الأسر . ففرك بيديه وقال : لا أعارض وان تشكلت حكومة عربية . قلت :
لقد عارضت وانتهت المعارضة ، والآن فان سمو ولى العهد الأمير على فى
انتظارنا ، فاذا سمحت نركب اليه وبعد أن تتناول الشاي وترتاح قليلا .

ثم خرجت من عنده وتركت القائد ابراهيم الراوى معه ، فقال له : هل كنت معنا ؟ أجابه : كنت معكم الى أن أعلن استقلال البلاد العربية فالتحقت بأمّتى ، ثم رجعت واذا به قد أتم تناول الشاي ، وهو كالنمر الهائج ينظر ما حوله فلا يرى مخرجا . فقلت : لتركب ، فقام معى فنزلنا واذا بسيارته هناك ، فقلت : أركب - وعمدت الى فرسى - فقال : بل تتركب معى .

فركبت معه ، ثم اكتنفت الخيل السيارة التى توجهت بنا نحو المدينة المنورة فلما اجتزنا جليجلة واذا باستحكامات ، فقلت له ، هل هذه الخطوط الامامية لكم ؟ فقال : لقد نسيت . فاستحمت نفسى واستثقلت سؤالى وهو صامت ، ثم قلت له مازحا : لقد أتخفتم الأميرين على وفيصل بنناظورين عندما قدمتم المدينة المنورة فأين حصتى ؟ فضرب يدا بيده ثم مد يده الى معطفه وراء وتناول ناظوره فقدمه الى ، فخرجت جدا وقبلت الناظور على شرط أن يأخذ هو ساعتى تذكارا ، فشكر ذلك منى فدفعت اليه الساعة وكانت ثمينة ، ظريفة . أما كونها ثمينة فلأنها من أخى على أنعم على بها ، وأما ظرافتها فلكونها رقيقة مذهبة وغطاؤها مغلف بالميناء الأزرق ، وفى طرفها الأعلى لون وردى كأشعة الشمس عند الغروب ، مكتوب على أحد وجهيها بخط النسخ الجميل وبذهب مطعم (لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) وعلى الطرف الآخر (لى خمسة أطفئ بها حر الجحيم الحاطمة : المصطفى والمرضى وأبناهما وفاطمة) فسر غاية السرور . وهو على ما علمت فيما بعد بكتاشى الطريقة ، والبكتاشيون شيعيون . . ثم تبسط معى ، وسرى عنه ما كان عليه من غم .

ثم انفجرت احدى اطارات السيارة فوقفنا لتعميرها ، واذا ببديوين يمران ومعهما بعض ما اشترياه من السوق ببئر درويش ، فقال أحدهما للآخر : من هؤلاء فقال الثانى : هذا عبد الله بن سيدنا ، والآخر لعله فخرى باشا . ثم تقدما مسرعين نحونا ، وبعد أن حييانى قالا عن فم واحد : هذا فخرى باشا ؟ فقلت : انه هو . فالتفت اليه أحدهما وقال : أنت فخرى باشا ؟ قال : نعم . قال امدد يدك أصافحك ، فأنت الشجاع الباسل الذى صدنا عن المدينة المنورة شهورا عديدة . فصافحهما ، ثم قال لى : ان هذه أكبر مكافأة لى من رجلين لا يؤملان منى أى صلة أو جاه ، فاذا هى الحقيقة وبها الشرف لى - وامتلأت عيناه بالدمع فقلت : انهما من العرب ، والعرب أمة شريفة تقدر الرجال حق قدرهم .

وتم اصلاح السيارة ، فتابعنا المسير ، واذا بقوة عربية نظامية من راكبي البغال عددها مئتان وخمسون بغالا ، يقودها القائد شكرى بك الشورى بجى ، مصطفىة للتحية وقد جاءت للاستقبال من بشر درويش بأمر من سمو الأمير على وقد علم بقدومنا من الشيخ عبد الله بن مسفر المضايقى الذى كنت بعثته حين وصول فخري باشا ليخبر سموه بأن المشار اليه قد أصبح فى يدى - فالتفت وقال : هذه القوة عربية ؟ قلت : نعم فوازن نفسه وزرر معطفه ثم قابل التحية بتحية عسكرية وقال « هرشى أولش بتمش » أى أن كل شىء حصل وانتهى . وبدأ عليه السرور مما رأى ، وفى هذا نكايته ، فانه كان يظن أن العرب لا يحسنون تنظيم أنفسهم .

واستمرت بنا الطريق ، ووصلنا الى المضرب الهاشمى فى بشر درويش فى الساعة الخامسة أى قبل الظهر بساعة - وكانت الساعة حين ذاك عربية - فترجلنا وكانت جموع الناس مجتمعة لتري فخري باشا ، فدخل بعد أن صافحنى قائلا : اننى سعيد لقبولى فى ضيافتكم . واتجه نحو أخى الأمير على وكان قد عرفه قبلا .

أما لقاءهما فكان مزيجا من العتب والعداء والبرود . فانسحبت من الباب الى خيمتى المعدة لى هناك وقبل أن أغسل وجهى طلبت للمثول بين يدى سمو الأمير على فلما حضرت قال : سعادة الباشا لا يسره فراقك .

وجاءت القوة ، وكان فى المضرب كبار الأمراء العسكريين والشرفاء ورؤساء البعثات العسكرية المخالفة . ثم جاء المضايقى وقال : ان خيام الضيف معدة فنهض فخري باشا وهو يقول : لعلها بجوار الأمير عبد الله ؟ فقبل له : نعم فخرج وخرجت معه ، وقلت : هل يأمر الباشا بأن نحضر اليه من يحب من الضباط الذين كان يألهمهم ؟ فقال : اترك هؤلاء اللائىين ، لا أريد منهم أحدا فافترقنا كل الى خيمته . وبعد قليل طلبنى الأمير على فجئته فقبل رأسى وقال : ان هذه خدمة لا تنسى لك . فقبلت يده .

ورغب فخري باشا فى السفر عاجلا وسافرن فى اليوم الثانى الى ينبع بسيارته ومنها بطراة خاصة الى المعتقل بمصر .

أنا أنا فعدت الى معسكرى بالجفر ، وأخذت معاملات التسليم تتم وفق الشروط ثم استلغاني سمو الأمير على وأمرنى بالذهاب الى المدينة المنورة لأنولى حفظ الأمن الذى اختل هناك . فجئت الى بشر درويش ،

وبعد مبيت ليلة سافرت منها الى المدينة ومعى العدد الكافى من الجيش الشرقى لاحتلال الأماكن المقتضية لحفظ الأمن . فدخلت المدينة المنورة صباحا وأمرت المسجد النبوى ، وكان شعورى الروحى فى درجة أعجز عن وصفها .

ثم نزلت فى مركز القيادة العثمانية ، وكان الحرس من الأتراك ، وكنت أجلس معهم للفقور والغداء والعشاء ، وأصبحت قائدا مسئولا عن الجبهتين المسلمة والمتسلمة ، وكأنه لم يحدث بيننا وبينهم أى شىء . فجرى التسليم وفق الترتيب المقرر وكان ترحيل أفواج القوى السفرية العثمانية من الداخل الى الساحل يجرى فى الأوقات المعينة بالدقة التامة ، ولقد سافرت براحة وشكران .

وجدير بالذكر أننى حاولت استبقاء العساكر العرب فى الخدمة العسكرية بالحجاز ولكن الشوق فى العودة الى أوطانهم غلب عليهم ، ولما قلت لهم : لا سبيل لكم الى الذهاب لأوطانكم فوراً الا بالانضمام الى الجيش العربى الهاشمى ، وان أنتم لم تفعلوا هذا فستنقلون الى المعتقلات ، ومتى تيسر لكم العودة منها عدتم وهذا مجهول التاريخ ، نكس بكل واحد منهم عن السفر ، وطلبوا الرجوع الى أوطانهم ، فأعيدوا مكرمين عن طريق السكة الى معان فالشام .

ولم يقع من الحوادث المخلة بالأمن شىء مهم ، غير أن بعض اللصوص ألقى القبض عليهم وهم متلبسون بجريمتهم ، فحوكموا للحال وكان قصاصهم الموت فانتهدت كل مفسده .

ثم نظم أمر الادارة وعادت المياه الى مجاريها ، وعين سمو الأمير على ابن الحسين أميرا للمدينة المنورة وشيخا للحرم النبوى الشريف وقائدا عاما لها .

رواية أخرى عن اعلان الاستقلال جاءت فى مذكرات الملك عبد الله عندما قال :

وكان لابد من اعلان استقلال البلاد العربية بأجمعها والبيعة للحسين ابن على ملكا على العرب . فالأتراك كانوا يعتبروننا عصاة خارجين ،

وأعداؤهم كانوا ينظرون إلينا كشوار لا أقل ولا أكثر ، وفى هذا ما فيه
من الخطر على مستقبل الأمة .

فذاكرت زملائي الوزراء - ماعدا الأميرين على وفيصل فانهما كانا
فى الجبهة - ذاكرت الشيخ عبد الله سراج قاضى القضاة ونائب رئيس
الوزراء ، والشيخ يوسف قطان وزير النافعة ، وحافظ محمد أمين أفندى
ناظر الأوقاف ، وعزيز بك على المصرى رئيس أركان الجيش العربى ،
وعلماء مكة ومفتيها ومن حضر من رجال الشام والعراق الذين منهم
الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب وآل البكرى والشيخ
فؤاد الخطيب وكان معاونا للخارجية - وآل الداعوق وحضرات الضباط
العراقيين ... فوافقوا جميعهم على رأى وألحوا فى سرعة التنفيذ .

فدخلت وعرضت الأمر على سيدى الوالد فرفض بشدة قائلا : أنا
لا أعمل للملك ولا أقبل هذا الأمر الذى تعرضونه على . فتقدمت ولثمت
ركبته وقلت : هذه العريضة مقدمة من عظماء الحجاز ومن حضر من سائر
بلاد العرب وهم يلتمسون قبول عرضهم فقال : ليس عندى سوى
ما قلته لك . فقلت : لسنا جميعا على استعداد لخدمة الثورة الا على
شرط قبول ما عرضناه ، فاعمل ما تشاء مع سوانا فقال : هل بلغت بكم
الحال الى هذه الدرجة ؟ فقلت نعم : فقال : قف ، فوقفت ، ثم أمر
بحضورهم جميعا .

فلما جاءوا سألهم : أصبح ما يقول ؟ قالوا : لا يجرؤ أحد على
أن يعرض على سيدنا ما لا صحة له . قال : هل عزمتم على عدم الاستمرار
فى الثورة ان لم أقبل ما عرضتموه ؟ قالوا : نعم سننسحب كلنا . فقال :
افعلوا ما شئتم والتبعة عليكم فائننى أقبل ما عرضتموه منفذا لرغبتكم
لا موافقا عليها . قالوا : اذن وفقك الله ، وستكون البيعة يوم الاثنين
أول محرم سنة ١٣٣٥ فى المسجد الحرام ، فقال : على بركة الله .

وكانت البيعة عامة ... وقف الناس يبايعونه من ضحوة النهار الى
أن أذن - الظهر ، أربع ساعات تامة . وبعد أن عاد الى القصر الملكى ودخل
الحجرة الخاصة تقدمت مهنئا فقلت : هذه هى البيعة العلنية ، أما البيعة السرية
فكانت والأثرak فى البلاد ، وقد أخذتها من أحد عشر ألف رجل بمكة ،

كلهم بايعنى على أن اختار لهم ملكا هاشميا يسير بهم على ما أمر الله
ورسوله ، وكانت بأذن جلالته . فقال : تذكرت تذكرت ، فقلت : وأنا
الآن ذكرت أبا مسلم الحراساني ، ولكن أرجو الله أن لا تكون عاقبتك
عاقبته . فقال : خسى الأعجمى .

ثم أبرقت بصفتي وزيرا للخارجية لكل وزراء الخارجية من دول
الحلفاء والندول المحايدة ، واستمر العمل ذلك اليوم من بعد الظهر الى
ما بعد نصف الليل وكان يعمل معي الشيخ فؤاد الخطيب عمل المخلص
المتفاني ولا نكران لذلك .

وفي اليوم الثاني طلب الى المعتمد البريطاني الكولونيل ولسن
والمعتمد الفرنسي الكولونيل بريمون مقابلتى فظننت انهما سيقدمان
التهنئة على ما وقع واذا بهما على عكس ذلك يقولان : لم فعلتم هذا الأمر
قبل الرجوع الى رأى حلفائكم ؟

فقلت لهما : عجيب ما تقولانه . . . اننا نقاتل بسيوفنا في سبيل
الله واعلاء كلمته وارجاع حقنا القومي الى نصابه ، فمن ساعدنا وأيدنا
فهو صديقنا ، ومن نكص عنا وأحب أن يفت في عزائنا فهو لا يريد بنا
الخير ، ونحن لا نسفك الدماء الا في حقها ، فاذا رأيتم أننا على خطأ فأنتم
تضمرون لنا غير ما تعلنون . واننى لأنتظر رد حكوماتكم ، لا ردودكم
الشخصية ، وأنا أعتقد أن اترك وحلفاءهم اليوم سيقرون ما فعلناه
ويقبلون الصلح وهذا أمر نحبه . . فقالوا : هل تشك سموك في اخلاصنا ؟
قلت : لا ، ولكن نحن أعلم بما ينبغى لنا أن نفعله من أجل أنفسنا .

وفي اليوم الثاني جاءني الرد من المستر ستورمر وزير خارجية
روسيا القيصرية وقد اعترف باستقلال البلاد العربية وبملكية صاحب
الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملكا على الأمة العربية ، مقدما تحيات
جلالة القيصر نيقولا الثاني الى جلالته وتحياته هو الى والى الحكومة .
فبلغت هذه البرقية الى دول الحلفاء قراءة . فقال الكولونيل ولسن : أتعد
هذا اعترافا منه يا سمو الأمير ؟ قلت : وكيف يكون الاعتراف اذن ؟
فقال : تكرم اذن بقبول تهاني الشخصية على أن أقدم التهاني الرسمية
بعد تلقى الاعتراف من حكومتى .

ونتهى هذا الفصل برأى الأستاذ/ محمد صبيح أوفى تلاميذ عزيز
المصرى والأستاذ أنيس صائغ أحد كبار المتخصصين فى قضايانا القومية
العربية والنضال العربى .

عن الثورة العربية ودور عزيز على المصرى فيما يقول الأستاذ /
محمد صبيح :

كان تاريخ طلبة الثورة الأولى ، فجر ١٠ يونيو سنة ١٩١٦ ..
وعلى أثرها هاجم أتباع الشريف ، بقيادة ابنه الأمير زيد المعسكرات
التركية المتناثرة حول مكة المكرمة .. وكان الأتراك يملكون مدفعية ،
ولم يكن هذا السلاح قد وصل بعد . وفى احتدام المعارك وصل ضابط
اسمه الفاروقى ، موفدا من القاهرة ، ومعه مدفعان وبعض الذخيرة ،
فقوى شأن الجيش الشريفى . وبعد عشرين يوما وصل الى جدة سلاح
قوى تحت اشراف الضابط المصرى الاميرالاي سيد على . وتولى قيادة
المحركة وتمكن بالمدافع البعيدة المدى التى أحضرها معه ، من أن يفتح
ثغرة فى قلعة جياد التى كانت أمنع معاقل الأتراك ، تسفل منها جنود
الشريف . وما لبثت هذه القلعة ، وباقى اشكنات أن سلمت بعد شهر
من القتال . وما لبثت المدن الساحلية أن سلمت بدورها ، فقد كانت
واقعة تحت قصف مدافع الاسطول البريطانى .

وكان الملازم أول/محمد شريف الفاروقى من قوة الجيش العثمانى
فى غابولى وسلم نفسه للقوات البريطانية وطلب نقله فورا الى مصر لأن
لديه معلومات سياسية هامة (وفى القاهرة التقى مع مدير المخابرات
كلايتون مرات عديدة ، وكتب كلايتون تقريرا لخصه كتاب الحركة العربية
فيما يلى : -

« تحدث الفاروقى عن جمعيتين « العربية الفتاة » و « العهد »
وتنظيماتهما وعن أعضاء هاتين الجمعيتين أقسموا اليمين « على أنهم سوف
يحققون هدفهم وينشئوا خلافة عربية فى شبه الجزيرة العربية وسورية
والعراق مهما كان الثمن وتحت أية ظروف مضحين فى سبيل ذلك بكل
جهودهم وبكل ما يملكون ، وبحياتهم اذا اقتضى الأمر » . وقال الفاروقى
ان جمعية الفتاة ذات قوة كبيرة ونفوذ عظيم فى جميع أنحاء الأقطار
العثمانية وأنه لا الأتراك ولا الألمان تجاسروا على قمع نشاط الجناح
العسكرى (العهد) منها برغم علمهم أن ذلك الجناح يقف موقفا سلميا
منهم . وقال الفاروقى ان أعضاء الجمعية قرروا أنهم لا يستطيعون

التريث أكثر مما تريثوا ، ولذلك عقدوا العزم على أن يعرضوا على انجلترا
تعاونهم الفعال مقابل أن تتعهد انجلترا بمعاضدتهم في مسعاهم لتحقيق
الاستقلال .

ولكن الفاروقى لم يلتزم بطلب الاستقلال التام ، فقال ان أعضاء
الجمعية يطلبون أن تساعدهم انجلترا « كى يحصلوا على قدر معقول من
الاستقلال والحكم الذاتى فى تلك الأقطار العربية التى تستطيع انجلترا
الادعاء بأن مصالحها فيها أعظم من مصالح حلفائها » ، وانه لن يرضيهم
استقلال شبه الجزيرة العربية وحدها ، ولكن من المحتمل أن ينال رضاهم
أن يحصل العراق وفلسطين على الحكم الذاتى « تحت ارشاد وسيطرة
بريطانيا » . أما بشأن سورية فان أعضاء الجمعية يعرفون مطامع فرنسا
فيها ولكن السكان المسلمين سيقاومون بشده احتلالا فرنسيا وأنهم
سيطلبون وساطة انجلترا فى الحصول على أفضل الشروط ، ومن المؤكد
أن يتشددوا فى أن تكون دمشق وحلب وحماه وحمص داخلية فى الاتحاد
العربى . وعلى حد قول الفاروقى « ان مشروعنا يضم جميع الأقطار العربية
ومن جملتها سوريا والعراق ، ولكن اذا لم نستطع الحصول على الكل فاننا
نريد الحصول على أكثر ما يمكننا الحصول عليه » وأوضح الفاروقى ميل
العرب للانجليز وثقتهم بهم أكثر من ثقتهم بالألمان والأتراك ثم قال « ونحن
نفضل أن نحصل من انجلترا على وعد بالنصف على أن نحصل من تركيا
وألمانيا على وعد بالكل . اننا سوف نقبل شروطا معقولة من انجلترا ولكننا
لن نرضى من أية دولة أخرى الا القبول ببرنامجنا كاملا . أما اذا أصمت
انجلترا أسماعها عن المطالب العربية فان العرب لا يستطيعون البقاء على
الحياة وسيرمون بثقلهم الى جانب تركيا وألمانيا ليؤمنوا أفضل الشروط التى
يمكن تأمينها .

وقد أشار كلايتون فى مذكرته الى ضرورة حصول بريطانيا على
صداقة الرأى العام الاسلامى وأن « الجهاد » فشل نتيجة لموقف العرب
السلبى منه . وقال ان مقترحات الشريف تشبه مقترحات الفاروقى وأن
الجواب التملصى الذى وصله أثار الشكوك فى ذهنه فرد عليه بسرعة غير
عادية معبرا عن دهشته لتردد السلطات البريطانية فى بحث مسألة
الحدود . « وليس من شك فى أن موقف الشريف هو موقف أكثرية
الشعوب العربية » ثم أشار الى أن اعطاء جواب ملائم على المقترحات العربية
يحتمل أن يضمن صداقتهم على الأقل . وأن الجمعية العربية سوف تعمل

على توسيع عمليات الشريف في الحجاز حتى تمتد الى سورية وفلسطين
والى بغداد والموصل .

هذا خلاصة ما جاء فى مذكرة كلايتون . ومن الواضح أن الفاروقى
كان واثق الاطلاع على تشكيلات جمعيتى « العربية الفتاة » و « العهد »
وعلى برنامجهما ولكنه لم يكن مفوضا من قبلهما باجراء أية محادثات بل
فرد من الجيش العثمانى وسلم نفسه للجيش البريطانى بدافع من مبادئه
الشخصية .

وما ذكره كلايتون صحيح . فان رئيس جمعية العهد قريب - فى
القاهرة وهو عزيز المصرى . وقد دارت بينه وبين عزيز مداولات كثيرة ،
وصلت الى كتشنر وكتشنر رجل استعمارى فذ . وقد وضع خطأ أسود
تحت اسم عزيز ، وذكر أنه رجل خطر لا ينبغي أن تغفل عنه عين الرقابة
العسكرية !

نقول ان العناصر العربية مشجعة من الانجليز طالبت بأن يسافر
عزيز الى الحجاز ، ليتولى انشاء وقيادة الجيش العربى هناك . وعرض
كلايتون عليه ألفى جنيه كنفقات سفر واقامة ، فرفض أن يأخذها ، وباع
قطعة أرض ، دبر منها نفقاته . وقال انه مسافر الى الحجاز لدراسة الموقف
أولا قبل أن يتولى أية مسئولية . روى لورنس ، فى كتابه : أعمدة
الحكمة السبعة ، قصة هذه الرحلة . قال ان الباخرة « لاما » أقلته من
ميناء السويس الى جدة ، وكان على ظهرها عزيز المصرى وستورز فى
مناقشات كنت تسمع فيها اللغات الألمانية والفرنسية والعربية . وعند
الوصول الى جدة اصطف طابور شرف عسكرى . لتحية القائد العام
لقوات الشريف ، ولم يكن أحد غير عزيز . ولا ينسى لورنس أن يذكرنا
بأن « بدلة » ستورز البيضاء ، اقتبست من ظهرها اللون البنى من المقعد
الذى كان جالسا عليه . . ولم ينس أنه حدث ذات مرة أن طلب عزيز
المصرى من فرقة موسيقية أن تعزف مقطوعة المانية دفعا للملل . فاذا
القطعة التى عزفتها ، والتى لم تكن تعرف غيرها : المانيا . . فوق الجميع !
والى جانب ملاحظات أخرى تافهة دونها لورنس عن عزيز المصرى لا تكاد
تعثر فيها على شيء يستحق الذكر .

وهنا يجب أن نلاحظ أن الانجليز عندما وافقوا على سفر عزيز ليقود
جيش الحجاز بعثوا أحد دعاتهم وهو « ستورز » لكى يرافقه ، كما زادوا

عليه جاسوسا مقيما بعد لورانس وذلك لأن الريبة كانت تملأ قلوبهم من عزيز على المصرى .

وعن الطريقة التى تخلصوا بها - فى الثورة العربية - من عزيز على المصرى ينقل الأستاذ / محمد صبيح - عن الأستاذ / أسعد داغر ، ما يلى :

« اتجهت الأنظار حينئذ الى عزيز على . فدعى للسفر الى الحجاز والعمل مع الضباط الذين سبقوه اليه على وضع نواة صالحة لهذا الجيش . فوافق عزيز على السفر لدرس الحالة لا للاشتراك فى الثورة أو تولى قيادتها . وأبى الا أن يكون سفره على نفقته الخاصة . فباع بعض أملاكه بمصر وسافر الى مكة . ولكن الذين لم تكن لهم مصلحة فى تقوية الجيش العربى أقاموا فى طريقه عقبات لا تذلل فبقى شهرا كاملا فى مكة قبل أن يتمكن من التفاهم مع الشريف حسين أو الاجتماع به اجتماعا طويلا . فساء الأمر الوطنيين الذين كانوا فى مكة . ورجوا من الشريف بالاحاح أن يسلم عزيزا قيادة الجيش أو يتركه يعود الى مصر . ولم يكن الحسين أقل رغبة من سواء فى تعزيز الجيش والاستفادة من عزيز . ولكن أحوالا قاهرة اضطرتة الى التردد فلما جاءه الوطنيون بذلك الاحاح خرج عن تروده وولى عزيزا قيادة الجيش ضاربا بما كان لديه من الاعتبارات عرض الحائط .

ووفق عزيز فى المدة القصيرة التى قضاه فى الحجاز الى جمع كلمة الضباط حوله ووضع أساس صالح لنظام جيش قوى . فأثار بذلك بعض المخاوف وبدأت الدسائس تدس حوله الى أن جاء لتفقد الجيش فى جهات رابغ وكان جميع ضباطه تقريبا من حزب العهد ، فدعاهم اليه وسمع شكواهم ولا سيما ما يتعلق منها بحالة التسليح والعقبات التى تقام فى طريق تعزيز الجيش . وقد اتفقوا على أن يجعلوا غرضهم الأساسى من أعمالهم تأليف جيش منظم قوى يكفل لهم ما لا تكفله العهود والوعود .

وعقد حينئذ اجتماع كبير فى رابغ حضره جميع ضباط الجيش . فبسط لهم عزيز الموقف بصراحته المعهودة ، وقال لهم : « اننا لا نحارب رغبة فى الحرب ولا كرها بالشرك أو حبا بالانجليز . بل نحارب من أجل تحرير بلادنا وتأمين استقلالها ، فهل تعتقدون أننا نستطيع تحقيق هذه الامنية بالقوات التى لدينا الآن ؟ هل تقبلون أن تدخلوا سورية بهذا الجيش

الذى لا قوة له ولا نظام فيه ؟ وكيف يقابلنا سكانها اذا نحن جئناهم
للسلب والنهب والتدمير والتخريب ؟ فقبل التفكير فى الزحف الى الشمال
يجب علينا على الأقل أن نعمل على ايجاد جيش منظم يمكن الاعتماد عليه
فى حفظ الأمن والنظام فى البلاد العربية التى نحتلها » .

وتطوع أحد الضباط الذين حضروا هذا الاجتماع - ويظن عزيز أنه
نورى السعيد بنقل حديث عزيز هذا الى الانجليز فاشتدت نقيمتهم عليه
وقرروا التخلص منه بأي شكل كان .

وأصيب عزيز حينئذ بانحراف بسيط فى صحته فجاء أحد كبار
الضباط الانجليز لزيارته فى مخيمه وتحدث معه طويلا فى موضوعات
شتى ثم خرج الى سرادق الشريف فيصل حيث نسي أو تناسى دفتر
يومياته . وقد عزا فيه الى عزيز آراء غريبة كان من مصلحة الراغبين فى
عدم تقوية الجيش والعاملين على خنقه فى المهد أن يعرفها الحسين ويعتقد
بصاورها عن قائد جيشه .

وكان فى مخيم الشريف فيصل حينئذ نحو عشرين من أعوانه لم
تقع أنظارهم على يوميات الضابط الانجليزى حتى أكبوا على مطالعتها لاطلاع
الشريف على ما جاء فيها .

وقد روى فيصل هذه الحادثة أمامى بعد أن صار ملكا على سورية .
فقال ان جهله باللغة الانجليزية حينئذ حمله على تسليمها الى الذين يجيدون
هذه اللغة فقرأوا فيها ما خلاصته :

« زرت الآن عزيز على وهو مريض وتحدثت معه طويلا عن الثورة
العربية وأهدافها ونتائجها ومما قاله لى أنه لا يوجد خيرا من الاشراف
ولا من هذه الثورة ماداموا مسيطرين عليها . ولذلك قرر الانسحاب منها
والعودة الى مصر . ولما سألته عما يمكن عمله لاصلاح الحالة . قال انه
يستطيع طرد الترك من سورية فى أسابيع قليلة اذا تخلت انجلترا عن
الاشراف وحل هو واصدقاؤه محلهم فى ادارة الثورة » .

وأضاف الملك فيصل الى ذلك قوله : « لو كنت أعرف الانجليزية
لما اطاع غيرى على مذكرات هذا الضابط الانجليزى . ولو لم يطلع عليها
عشرون شخصا من أصدقائى لما أخبرت والدى بها لعلمى بأنها كانت

دسياسة يقصد منها اخراج عزيز من الثورة أو ايجاد الخلاف في الجيش .
وفي اعتقادي ان ابعاد عزيز على من الحجاز نشأ عن سلسلة من الدسائس
كانت هذه واحدة منها .

وبعد مضي خمسة أيام على هذا الحادث تلقى عزيز أمرا من الشريف
حسين بوجوب السفر الى مصر لاختيار الأسلحة التي يراها لازمة للجيش .
فسر بذلك سرورا عظيما وأسرع الى مصر في أول باخرة صادفها .

وعرف الدكتور نمر أن عزيزا قادم الى مصر وأنه في طريقه اليها
وقد أخبرني أن الانجليز معجبون به اعجابا شديدا وأنهم يرون فيه قائدا
من أكفأ قواد الميدان الغربي . . . الخ . . الخ ثم قال لي انه فخور
به ويريد أن يقابله حين وصوله .

وسرني بطبيعة الحال أن أسمع مثل هذا الشناء العظيم على رجل
أحبه . وقد نقلته اليه في اجتماعي الأول به عقب وصوله فأطرق قليلا
ثم قال :

— الانجليز لا يبالغون في الشناء على رجل الا اذا كانوا عازمين على
ضربه .

وقد أصاب فيما قاله لأنه بعد بضعة أيام تلقى أمرا بأن لا يعود الى
الحجاز ثم أمرا آخر بوجوب الخروج من مصر ، وقد خير بين السفر الى
سويسرا أو الى أسبانيا فاختار أسبانيا لسببين : الأول رغبته في زيارة
الآثار العربية فيها — والثاني اعتقاده بأنه لو اختار سويسرا لكان قد
اعتقل في مالطه .

لم يعرف الانجليز كيف يرضون عزيز المصري ، قبل أن يقرروا
التخلص منه لقد دارت مباحثات طويلة بينه وبين كلايتون بشأن العراق .
وكانت خطة عزيز أن يسافر الى البصرة — على حسابه — وأن يتعاون مع
طالب النقيب زعيمها وبعض أركان جمعية العهد هناك ، لتأليف
قوة عراقية صرفه تنهى الوجود التركي في العراق ، واشترط عزيز ،
الا تنزل في العراق أي قوة انجليزية ، واذا احتاج الأمر الى مدد ، فليكن
بقوة فرنسية (لم يكن لفرنسا أطماع في العراق) كما قدر عزيز في
ذلك الوقت .

وجاء تصريح من انجلترا لرجالها في مصر ، وقسم أحست بحرج الموقف ، بالموافقة على الاستعانة بكل الأفكار الوطنية ، مادامت تؤدي الى انهاء الوجود التركي . وطلب من عزيز أن يستعد للسفر الى البصرة . وقبيل سفره جاءه كلايتون ، يزف اليه « بشرى » نزول القوات البريطانية في البصرة !! ويستحثه على السفر . . . وكان هذا خلافا لكل اتفاق تم بحته . . . فما أن سمع عزيز بهذا النبأ ، حتى وقف ، دون أن يعقب بكلمة قائلا لكلايتون : مع السلامة .

وأراد الانجليز أن يدوروا حول عزيز المصري من طريق آخر . . . كانوا يعرفون مقام عزيز المصري في اليمن بعد أن تدخل في إيقاف الحرب بين الأتراك بقيادة عزت باشا . وبين اليمنيين بقيادة الامام يحيى حميد الدين وقرار الصلح بينهم . . . وبمقتضى هذا الصلح بين الجانبين ظلت القوات التركية في اليمن ، وهو أمر مقلق لخطط الانجليز . . . وهو تهديد لمواصلاتهم عبر البحر الأحمر ، وخطر على اتفاقياتهم مع أمير عسير . في شمال اليمن . . . جاء كلايتون مرة أخرى ، وقابل عزيز المصري ودار بينهما الحوار التالي :

- ان لدى عرضا سخيا جدا لك ؟ .
- قل ما عندك . . .
- أنت تعلم أن في اليمن قوات تركية ، وان من الواجب تصفيتهما .
- . . ثم ماذا ؟ .
- هل توافق على السفر الى هناك ، وتقود قوات الامام للقضاء عليها ؟ .
- لماذا أفعل ذلك ؟ .

- أنت تعلم أن انجلترا كان لها دور كبير في انقاذك من حكم الاعداء الذي استصبره أنور باشا ضدك . . . ولهذا فأنت ترى أن صداقتنا لا شك فيها . واستمرارا لهذه الصداقة ، فإنا نعرض عليك هذه المهمة الجديدة ، مع مساعداتنا لك في انجازها وعند اتمامها في وسعك أن تتخلص من الامام يحيى حميد الدين ، وتصبح ملكا لليمن !! فرد عزيز في دهشة :

- ولكن عرش اليمنيين ملك لهم ، وليس ملكا للانجليز . فكيف تعرضون على ما لا تملكون ؟ .

وانتهت المقابلة بفتور تام ، ولهذا كان لا بد من التخلص من عزيز
المصرى فكان العرض البريطاني الأخير ، وهو أن يختار المكان الذى يود
السفر اليه فى أوروبا . . فأختار أسبانيا .

وعن الصدام بين عزيز المصرى والانجليز ، والشريف حسين . .
يقول الأستاذ أنيس صايغ :

فرض الوطنيون عزيز المصرى على الحسين والانجليز قائدا للجيش
العربى ووكيلا (أى وزيرا) لشئون الدفاع بعد أن بدأت الثورة بدايتها
الفوضوية المحزنة . فتوجه الى الحاجز وبرفته لورنس وستورز يحاولان
غسل دماغه وتطعيم تفكيره بالأقوال المعسولة والوعود البراقة والحجج
الماكرة التى استطاعت أن تبدل آراء ومواقف أحرار عرب كثيرين ، قبله
وبعده . واستلم الرجل مهماته وحاول أن يبذل مخاوفه وأن يتغلب على
شكوكه ، فأخذ يعمل باخلاص . وسعى لتحويل الجملة المحاربة الى جيش
حديث منظم هو الأول من نوعه فى تاريخنا المعاصر . وكان هدفه أن يتمكن
هذا الجيش بعد أن يطرد الأتراك من سورية ، من حماية الدولة العتيدة
التي حلم هو واخوانه بها منذ سنوات .

الا أن آماله تحطمت فى وقت قصير وعادت اليه شكوكه ومخاوفه
مستندة هذه المرة ، بالوقائع والاثباتات المؤلمة . اتضح له أن الانجليز
والفرنسيين يعطلون أعمال الثورة فى بعض النواحي قدر الامكان ويؤخرون
سرعتها واجراءاتها وتنظيماتها لتنفيذ مخططهم السرى للمنطقة دون أن
يتقيدوا بالوعود القديمة للعرب . كانوا يقتررون فى السلاح على العرب
كثيرا ولا يسلمونها الا أسوأ أنواعه وأقدمها - وكان بعضه من بقايا الحرب
الروسية - اليابانية فى مطلع القرن . وكان بعضه ينفجر فى وجه الجنود
عند استعماله . وقد روى أكثر من ضابط كيف قتل جنود عرب كثيرون
بسبب فساد السلاح الذى وزع عليهم وفى سجلات الثورة العشرات من
البرقيات التى أرسلها الضباط العرب الى القيادة البريطانية فى مصر
والسودان يطلبون فيها المزيد من السلاح الحديث لمجابهة الأتراك . ولكن
استغاثاتهم ذهبت دون جدوى . وكاد الجيش يفنى فى معركة رابغ وينبع
سنة ١٩١٦ بسبب ندرة العتاد .

وكان المسئولون البريطانيون يعرقلون مساعي عزيز المصري بتدريب الجنود البدو وتعويدهم على النظام . كانوا يصرون على تركهم على فوضويتهم البدائية التي تحول دون تحويلهم الى جنود حقيقيين . وكانوا يمنعون الضباط العرب من الاطلاع على الخطط الحربية التي هي من اختصاصهم وكانوا يكتمون هذه الخطط حتى عن القائد العام . بل انهم تعمدوا تأخير انتظار العرب واجلاء الأتراك عن سوريا الى أن تتمكن قواتهم من تحويل الانتصار لصالحها ، وقد قام لورنس في سنة ١٩١٧ بمغامرته الأسطورية ليذهب الى القابون من أعمال دمشق ويجتمع الى قائد حاميتها، رخصا الركابي ويطلب منه أن يمنع الوطنيين في سورية من الثورة وأن يركن الجميع الى الهدوء وموالة الأتراك الى أن يطيب للانجليز أن يدخلوا دمشق .

وقد اصطدم لورنس وغيره من الضباط الانجليز مع الضباط العرب الأحرار من زملاء المصري عدة مرات بسبب مماثلة الانجليز في تحرير سورية وانقاذها من المجاعة والارهاب التركي وبسبب تعنتهم . وقد طالب أولئك الضباط بالتوجه من العقبة الى أواسط سورية بدلا من البقاء خاملين مدة طويلة في جنوب الأردن واعتبروا ابقاءهم هناك محاولة لمنع تحرير دمشق وتأخير قدر الامكان حتى أن أحدهم ، مولود مخلص ، أعلن العصيان وعوقب بالسجن وقد اعترف أحد مؤرخي حياة لورنس ، ادورد روبنس ، وأن الانجليز كانوا يتعمدون تأخير الامدادات عن العرب ويتذرعون بحجة سوء الطقس .

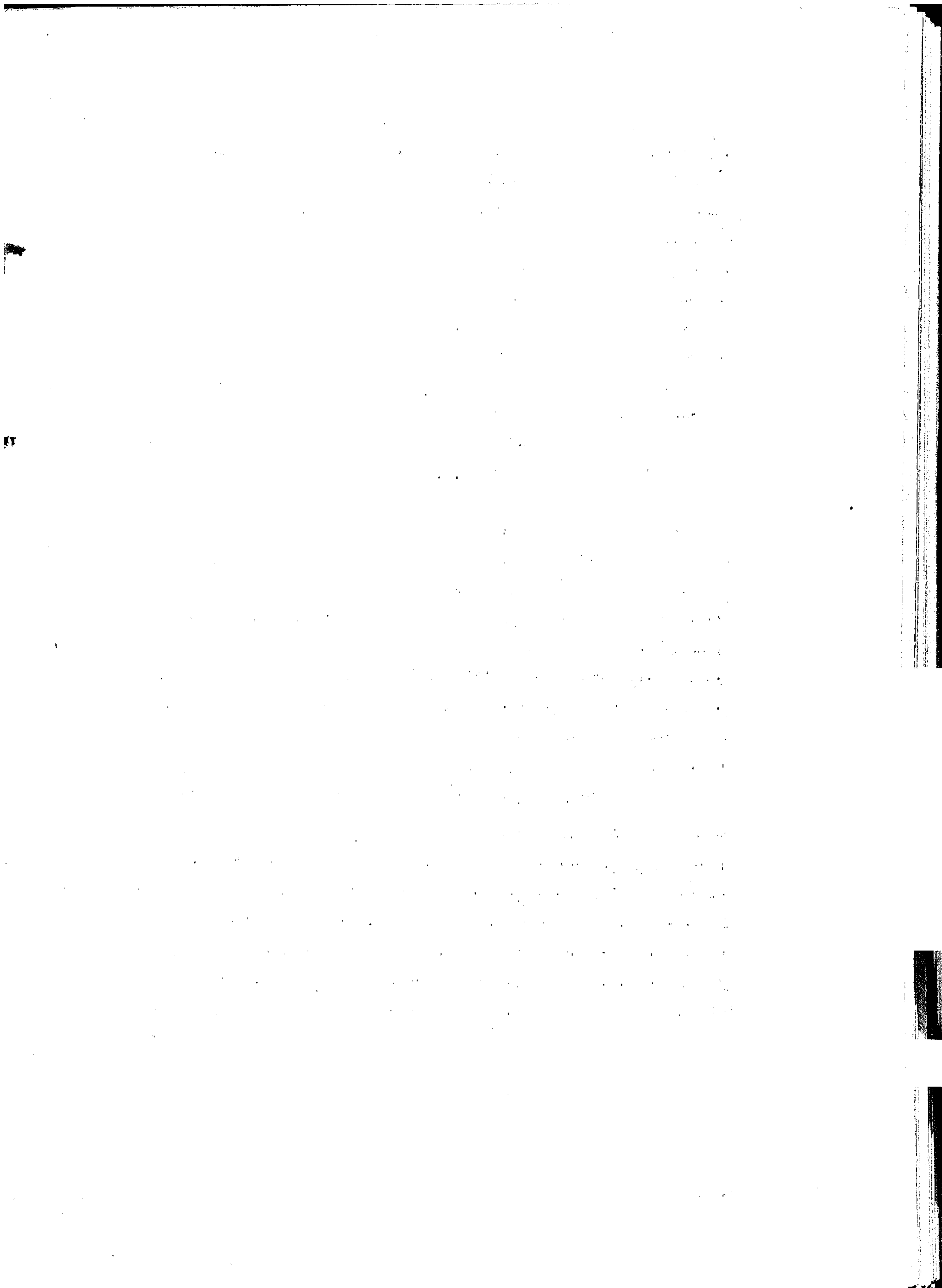
واصطدم عزيز المصري ، من جهة أخرى ، بالحسين وأبنائه ، اصطدام الضباط المتمرس في الفنون العسكرية النظامية بشيخ بدوي لا يفكر الا بمصالحه وتقاليده البالية . فكان الحسين وأبنائه يسمحون للجنود بمخالفة أوامر قيادة الجيش ويشجعونهم على عصيان الضباط العرب . وكانوا يرفضون طلبات القواد العرب ويردونها دون جواب وكانوا يكتلون الضباط المعتدلين حولهم ضد القوات الوطنيين ، وينشرون الشائعات والتهم بين الجنود - وكانوا يضعون العراقيين أمام القيادة ثم يحاسبونها ان فشلت أو تأخرت .

لم يجهل عزيز المصري سر هذه الاجراءات . كان يعلم أن الانجليز والهاشميين على اطلاع على شكه بنواياهم . كان أحد مرؤوسيه ، نسوري السعيد صاحب الحظوة الكبرى عند الهاشميين والانجليز من قبل اعلان الثورة ، يتحدث دائما عن عناد عزيز المصري وشكوكه .

انتهت قيادة المصري للجيش العربى بعد وقت قصير حينما لم يعد الانجليز والهاشميون يحتملون وجوده ومراقبته لهم . أعطوه أجازة طويلة جبرية ونقلوه الى مصر شبه موقوف (وهناك وصله أمر العاهل الهاشمى بفصله من الجيش العربى) ، ومعه أمر آخر ، من القيادة البريطانية بطرده من مصر . تركوا له أمر اختيار المكان الذى يجب أن ينفى اليه خارج الوطن العربى . فاختار أسبانيا ، أرض التراث وبلد الأمجاد والذكريات وبذلك سقط أول شهيد من قافلة شهداء الحلف البريطانى الهاشمى ، التى تضم ، فيمن تضم ، محمد شريف الفاروقى من الموصل وطالب النقيب من البصرة وحفيدى عبد القادر الجزائرى من دمشق ، أما قيادة الجيش العربى فقد رشح نوري السعيد اليها صهره جعفر العسكرى . وكان كلاهما يقف وراء مأساة المصرى .

ارتاع الأحرار لمصير زميلهم وزعيمهم وتناقلوا قصة خلافه مع المسئولين الهاشميين والانجليز . وترحموا على الحلم الذى لم يعيش سنة واحدة ورأوا الحكم الهاشمى الجديد تنمة لسير العشرات من الحكم العربى من قبل ممن قطعوا أعناق أعوانهم الذين أوصلوهم الى الحكم وأخذ أحد الأحرار ينسحب بالتدريج ويبتعد عن العائلة الحاكمة دون أن يتخلى عن مبادئ الثورة ، أسعد داغر أحد هؤلاء . وهو شاهد عيان صادق لتلك الفترة . وهو يكذب فى مذكراته خرافة ترمى الضباط العرب على أقدام الهاشميين ، ويصف تردد الكثيرين منهم فى العمل فى الحجاز تحت القيادة الهاشمية . وقد التقى بعض هؤلاء فى القاهرة وأسسوا حزبا للوحدة السورية لمقاومة استغلال الحسين للقضية العربية .

وبعد كل هذه الاطالة وبعد نقل كل هذه الروايات الكثيرة المتضاربة فى بعض الأحيان وبعد نشر كثير من المذكرات الجديدة التى يرى بعضها النور لأول مرة بعد هذه الاكتشافات التاريخية فى موضوع كانت له مكانته الكبيرة والخطيرة فى العشرين عاما الأولى من القرن العشرين - موضوع الثورة العربية ضد الأتراك ، نقف عند هذا الحد ، على أن نكمل حديثنا بمشيئة الله عن تلك الثورة وعن بقية صفحات حياة عزيز على المصرى وزملائه رواد الوحدة العربية والاسلامية فى الجزء الثانى والأخير بمشيئة الله تعالى .



الفهرس

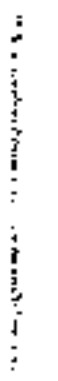
الموضوع	الصفحة
الاهداء	٣
عزيز مصرى ، أو الثورة المستمرة (مدخل عام . . وهام)	٥
الباب الأول :	١٦٧
الفصل الأول : وجهة نظر جديدة فى العلاقات المصرية	
العثمانية	١٦٩
الفصل الثانى : عزيز مصرى فى اليمن السعيد : مقاتلا ،	
ومفاوضا	٢٧٩
الباب الثانى :	٢٩٧
الفصل الأول : فى الحرب الطرابلسية الايطالية : عزيز	
المصرى ، أبرز قواد تلك الحرب	٢٩٩
الفصل الثانى : لماذا انسحب عزيز على مصرى من الحرب	٣٤٥
الباب الثالث :	٣٦٥
الفصل الأول : دولة الخلافة الاسلامية فى طريقها الى	
الانهيار ، منظمات وأحزاب عثمانية ، فى مواجهة	
منظمات وأحزاب عربية . عزيز على مصرى والجمعية	
القبطانية وجمعية العهد	٣٦٧
	٨٠٧

الصفحة	الموضوع
٤٦١	الباب الرابع :
٤٦٣	الفصل الأول : فى الاستتانة : عزيز على المصرى أمام مجلس عسكري عال
٥٤٩	الفصل الثانى : العلاقات المصرية التركية شعبيا ورسميا .
٥٩٣	الباب الخامس :
٥٩٥	الفصل الأول : قبل أن تقوم الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن على
٦٦٩	الفصل الثانى : الثورة العربية والدور المتواضع لعزير على المصرى فى اشعال نيرانها

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٥ / ١٩٩٠

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ٢٣٣١ - ٥



ليس هذا الكتاب - كما يقول مؤلفه صبرى أبو المجد - من كتب دراسة الشخصيات وإنما هو من كتب دراسة المراحل . وإذا كان المؤلف قد اختار الشخصية الأسطورية شخصية عزيز على (المصرى) لتكون محورا لهذا الكتاب فما ذلك إلا لأن شخصية عزيز على (المصرى) بما فيها من جوانب متعددة تمثل المرحلة التى رغب المؤلف فى دراستها اصدق تمثيل .

اختار المؤلف - لدراسة دولة الخلافة الإسلامية والدول العربية والإسلامية الفترة التى تمتد من أخريات القرن التاسع عشر ، والست عشرة سنة الأولى من القرن العشرين لتكون موضوعا لمؤلفه هذا مع تركيز على تاريخ دولة الخلافة الإسلامية والدول الإسلامية والعربية فى تلك المرحلة وكذلك على الحروب التى خاضتها مركزا أيضا على انبثاق حركة الوحدة العربية والإسلامية والذين مهدوا لها ودفعوا حياتهم ثمنا لإعلان قيامها .

وقد ركز المؤلف - أيضا - على دور الصهيونية فى اسقاط دولة الخلافة الإسلامية وفى خلع السلطان عبد الحميد الذى رفض منح فلسطين لتكون وطنيا قوميا لليهود

والكتاب - أولا وأخيرا - كتاب وثائق ، كانت المكتبة العربية فى أمس الحاجة اليه وسوف يكون لهذا الجزء من الكتاب بقية فى جزء آخر يتناول بالتفصيل بقية حياة عزيز على المصرى التى كانت بحق حياة أسطورية .

الثلثون ١٥ جنيهاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب